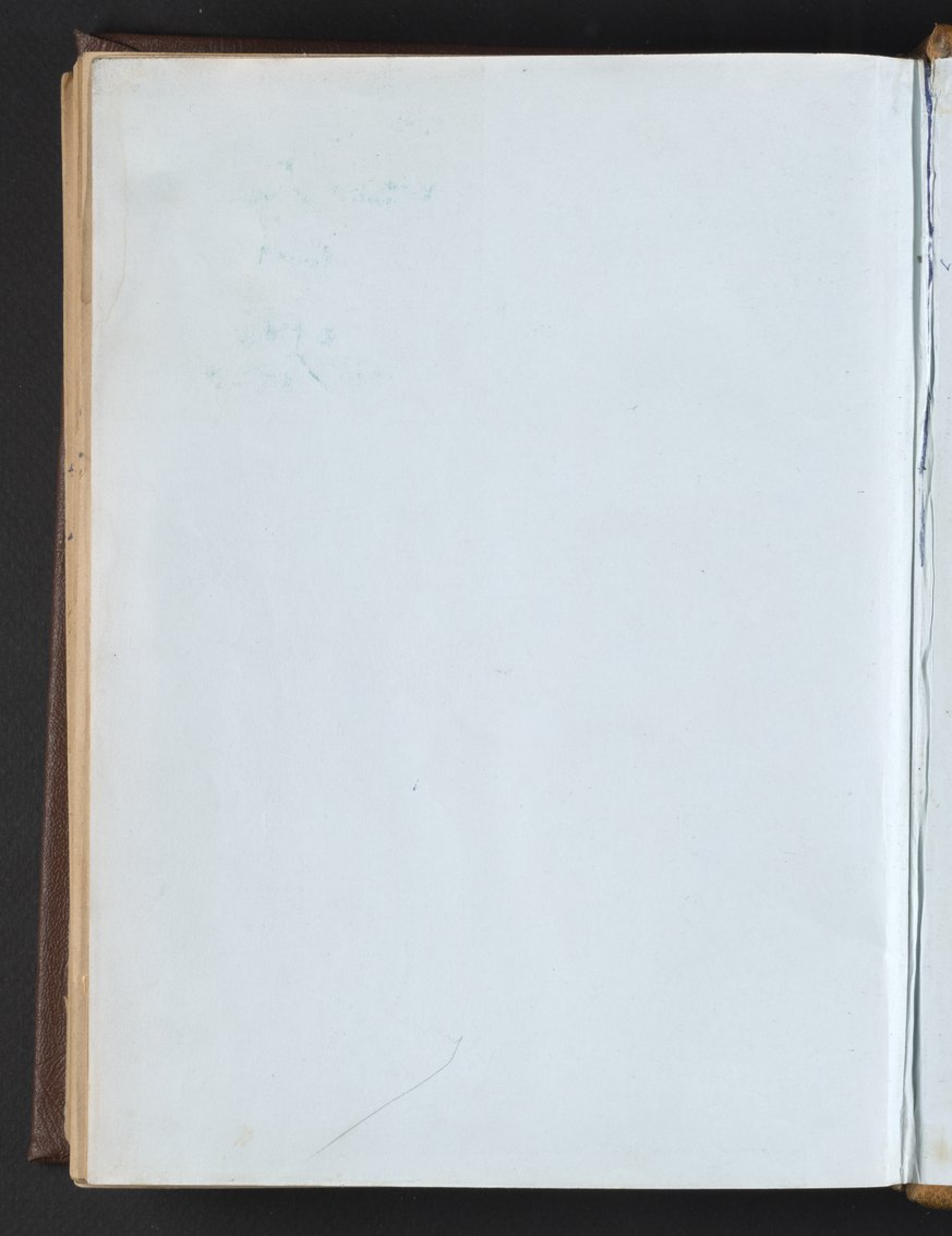

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00953 7063





تاريخ أوربّا
في العصر الحديث

(١٧٨٩ – ١٩٥٠)

تأليف

هـ . ا . ل . فشر
وزير معارف بريطانيا سابقاً
وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة اكسفورد سابقاً

تعريب

احمد نجيب هاشم
السكرتير العام لجامعة
الإسكندرية

وديع الضبع
مفتش المواد الاجتماعية
للتعليم الثانوى

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تقديم الكتاب

لحضرة المؤرخ الكبير الأستاذ محمد شفيق غربال

منذ سنتين أو ثلاث ، اتفق جماعة ممن اتخذوا من دراسة التاريخ ومطالعاتهم فيه ، المحور الذى تدور حوله حياتهم العقلية ، على أن يتقاربوا حول تلك الدراسة والمطالعات ، وأن يتذاكروا مسائلهم ، وأن يناقشوا أبحاثهم ، وأن يطالعوا بنى وطنهم من حين لآخر بثمرات هذه المناقشة وتلك المذاكرة .

وقد لحظوا أن المطبعة العربية قد فاضت على القارئين بكتب عديدة تناولت الكلام عن الحركات المختلفة المنبعثة عن النشاط الأوربى ، وخطر لهم أن ذلك الفيض من التأليف والترجمة يجب أن تصحبه ضوابط من النقد والحصر والتحديد ؛ وإلا كان مآله الاضطراب والبلبلة . فاتجهوا نحو اختيار كتاب أوربى جيد فى التاريخ الأوربى ، يجد فيه القارئ المصرى الضابط لتلك الحركات الأوربية المختلفة الأهداف . وقد وقع اختيارهم على الكتاب الذى وضعه المؤرخ الإنجليزى هربرت فشر فى ذلك الموضوع ؛ والكتاب معروف لدارسي التاريخ الأوربى من الطلاب المصريين .

وقد يكون جديراً بنا هنا أن نبيّن الأسباب التى حدت إلى اختياره لنقله إلى العربية ؛ إذ الكتب الإفرنجية فى التاريخ الأوربى عديدة وقيمة ؛ بيد أنا آثرنا أن ننقل كتاب مؤرخ إنجليزى . فالإنجليزى أوربى ، وغير أوربى ؛ أوربى بحكم أن بلاده قطعة من الحضارة الأوربية ، وغير أوربى بحكم أن حصته من العالم الأوربى قد انطبعت بطابعها الإنجليزى الخاص . وبذا لا تظهر على صفحات المؤرخ الإنجليزى ، حينما يؤرخ لأوربا ، الحزازات والعداوات التى تحملها الأمم الأوربية بعضها نحو البعض الآخر أجيالا متعاقبة ،

أو مظاهر تعلق الشعوب بحيز ضيق « مقدس » من الأرض الأوربية كان موضع التناحر والتقاتل بينها .

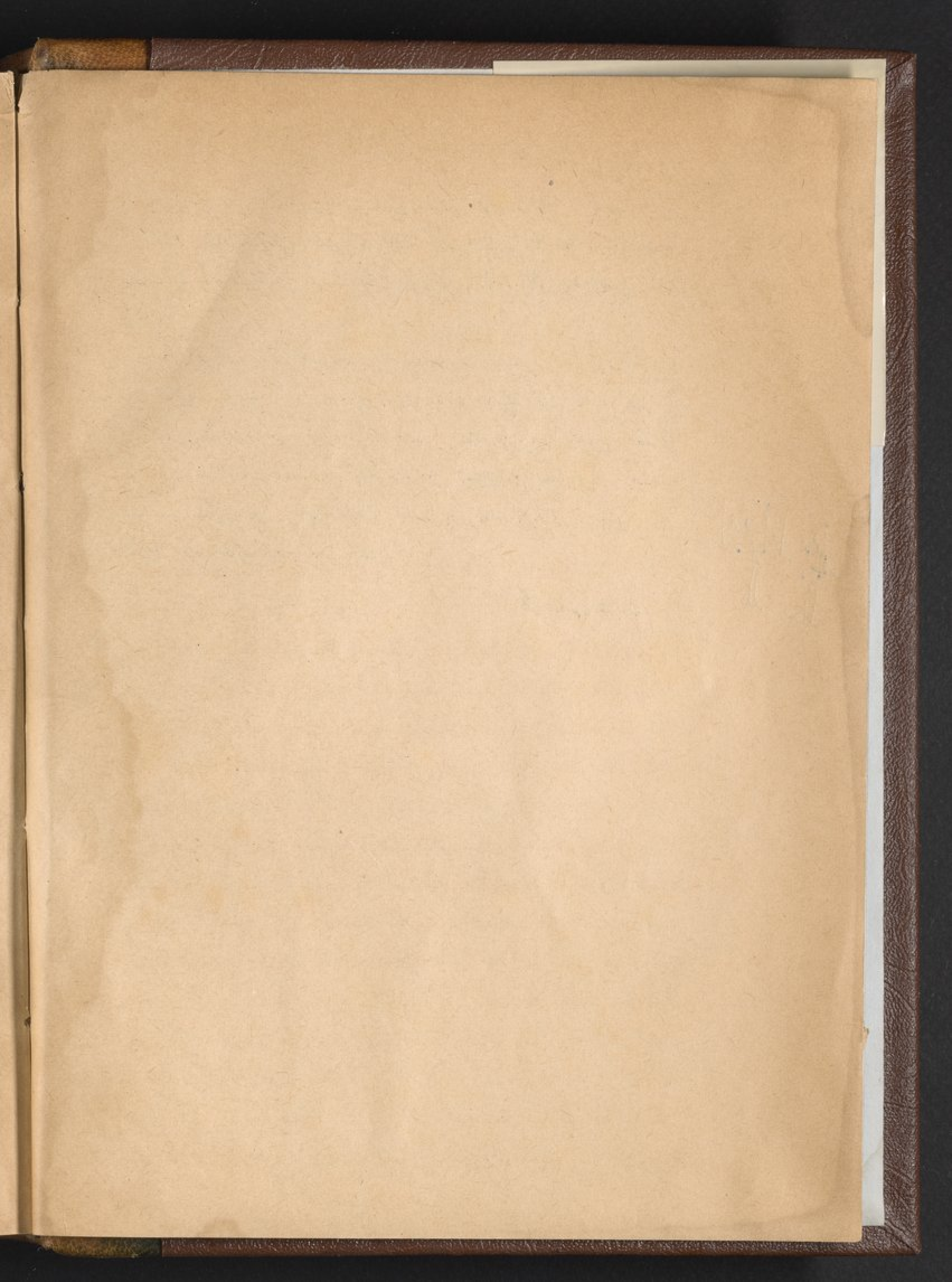
ولم تحاول إنجلترا يوماً من الأيام أن تكوّن من أوربا مُلْكاً متحداً يخضع لها . فلا تقرأ فى المؤرخ الإنجليزى — كما تقرأ فى المؤرخ الفرنسى أو الإسبانى أو الألمانى — أسفاً على حلم لم يتحقق ، أو تطلعاً لتحقيق حلم لا يتصوره ، وإن تصوّره كرهه . فقد نصبت بلاده نفسها لتحطيم أية محاولة لتحقيقه . أما فى التنظيم الاجتماعى ، فإنك تجد إنجلترا تنهج طريقاً وسطاً معتدلا ، لا يجنح نحو التطرف أو العنف . فلا تحس ، حينما تقرأ المؤرخ الإنجليزى ، شيئاً من حقد المحرومين المعدمين أو قلق السراة المالكين . وإنك لتلمس نهج الاعتدال هذا فى حياتها الدينية أيضاً . فتجد الكثلكة الرومانية بين الإنجليز من يقدرها ، كما تجد الطوائف البروتستانتية من ينصفها .

وفشر « أوربى إنجليزى » ، بدأ كأبناء جيله بالدراسات الكلاسيكية ؛ فهى أساس دراساته ، وعليها بنى ، كسائر أبناء الجيل . ودرس فى السوربون ، ونمت وهو فى باريس ، بينه وبين إرنست رينان صلات من المودة والحب . وكان لتلك الإقامة فى باريس آثار عميقة فى أساليب فشر ومناهجه ، وفى اختيار موضوعاته للدرس المستفيض من تاريخ الثورة الفرنسية ونابليون . ولكن فِشَر بقى ابن طبقته ، وابن جيله ، وابن أكسفورد ، وابن حزب الأحرار . وقد قال فى المقدمة التى صدر بها الجزء الأول من تاريخه لأوربا : إن آذاناً أخرى غير أذنيه قد سمعت لحناً موسيقياً مؤتلفاً منبعثاً من حوادث التاريخ ، وإن عيوناً أخرى غير عينيه قد رأت فى حوادث التاريخ نسيجاً منتظم الشكل كلاً وجزءاً ؛ أما هو فلم ير إلا حوادث تتتابع على غير نظام ظاهر ، وعلى غير خطة مفهومة . ألا تقرأ فى هذا فكرة الحرية المطلقة ، فكرة الدعوة إلى إزالة العقبات وهدم الموانع ؟ وأيا كان الأمر ، فإن ذلك الموقف العقلى السلبى لم يمنع حزب الأحرار من تشييد بناء تشريعى اجتماعى ضخم ، كما أنه لم يمنع فشر من أن يقبل دعوة لويد جورج لتولى وزارة المعارف فى أثناء الحرب

العالمية الأولى ، وأن يحاول وضع نظام تعليمى قومى شامل . ومهما يكن من ذلك الموقف العقلى السلبى ، فقد كسب الناس تاريخاً متزناً ناضجاً مطمئناً ، ثمرة شهية من ثمرات ذلك اللون من الثقافة الأوربية الصائر نحو الزوال .

وقد أتم الصديقان أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ترجمة الجزء الحديث من كتاب « تاريخ أوربا » ، وهو الذى يعالج تاريخ القرن التاسع عشر ، من الثورة الفرنسية حتى قرب أيامنا هذه . أتماه على خير وجه : دقة فى الترجمة ، ومتانة فى الأسلوب . وأخرجته دار المعارف فى حلة جميلة . فنقدمه للمواطنين قائلين لهم : إننا نكلف بأنفسنا إلى حد الإرهاق ، وشىء من الثقافة الحرة الخالصة فيه بعض الشفاء .

محمد شفيق غربال



تعريف بالمؤلف

هربرت فشر

هو علم من أعلام المؤرخين فى العصر الحديث ، ومصلح من كبار المصلحين فى شئون التربية والتعليم . خلّف وهو فى كرسى الأستاذية من الآثار العلمية ، والأبحاث التاريخية الممتازة ، ما يشهد له بالعلم الغزير ، والبحث الدقيق ، والتنزه عن الهوى . ووضع وهو وزير لمعارف بلاده ، القانون الشهير الذى عُرِف باسمه ، والذى قفز به إلى الصف الأول بين أئمة المصلحين الذين رفعوا مقام المعلم إلى درجة لم تكن تخال من قبل ، وسما بالحياة الديمقراطية الإنجليزية إلى مرتبة رفيعة ، وارتقى بها فى معارج الحرية والكرامة والتقدم .

كان هربرت فشر طويل القامة ، جميل الطلعة ، ذا صوت عذب ، وخلق هادئ رقيق . وكان يربأ بنفسه عن مظاهر الأبهة والإعلان . وكان أكثر ملاءمة لغرف المحاضرات وقاعات المكتبات منه لميادين السياسة الصاخبة . ومع ذلك فقد قضت المقادير أن يدخل البرلمان ، وأن يجلس فى كرسى الوزارة .

وُلِدَ فشر فى ٢١ مارس سنة ١٨٦٥ بمدينة لندن من أبوين كريمين . وقد كان الملك إدوارد السابع — وكان عند ذاك ولياً للعهد — عرابه فى المعمودية godfather ؛ إذ كان والد هربرت سكرتيراً خاصاً لولى العهد من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٧٠ . وكان صاحب الترجمة كثيراً ما يُدعى هو وإخوته وأخواته إلى قصر مارلبره ، حيث يلعبون مع أطفال أمير ويلز ، دون أن يدركوا وقتئذ الشرف العظيم الذى أولوا إياه بالاختلاط واللعب مع أعظم أطفال انجلترا قَدْراً ، وأسماهم مقاماً .

وكانت أمه ابنة طبيب ينتمى إلى أسرة إنجليزية طيبة الأرومة . ويقول عنها صاحب الترجمة : « كانت والدتى قديسة من القديسات . والحق أنه

لم تعش قط سيدة أشدّ منها إيثاراً وإنكاراً للنفس . فقد كانت حياتها كلها سلسلة من البذل والتضحية المتواصلة فى سبيل خدمة الآخرين . وقد أنجبت أحد عشر طفلا ، غمرتهم جميعاً بفيض من عطفها ، ووابل من حبها ورعايتها .

« وكانت أولَ معلمىّ وأفضلهم . ولا أزال أذكر فصولها فى غرفة اللعب المخصصة لنا . فأذكر الهمة ، والنشاط ، وعذوبة الصوت التى تبدو فى دروسها . فكان كل درس من دروسها مغامرة حلوة مثيرة ، لا عملا موجباً للسأم والضجر . فأرضعتنى حباً للتعلم ، وأكسبتنى بهجة من الدرس والتحصيل لن تُنسى » .

وقضى هربرت السنين الأول من صباه فى الريف الإنجليزى ، فتمتع بمباهج الحياة الخلوية ، ومفاتن الطبيعة . إذ عُين والده قاضياً إقليمياً ، وكان الشاعر الكبير تِنيسُنْ من كبار زوارهم . فقد كان والده يميل إلى دراسة اللغة الإغريقية القديمة وقرض الشعر .

وعندما بلغ هربرت الثالثة عشرة من العمر أرسله أبوه إلى كلية وِنْشِسْتَر ، حيث قضى ستة أعوام يصفها بأنها « من أمتع سنى حياتى . فقد تمتعت بكل دقيقة من دقائق حياتى فيها : العمل ، والألعاب ، والاجتماع بزملائى ومدرسىّ ، وجمال الكلية ، وروعة أبنيتها القديمة ، وفتنة حدائقها ، وخضرة حقولها : كم كانت كلها بهية جميلة بهيجة » .

وكان والده خريج جامعة أكسفورد ، فآثر أن يبعثه إليها . وتقدم هربرت إلى امتحان المسابقة للجوائز العلمية التى تمنحها « الكلية الجديدة » New College بهذه الجامعة لطلبة ونشستر . فكان المجلىّ فى الامتحان .

والتحق بهذه الجامعة الشهيرة فى أكتوبر سنة ١٨٨٤ . ويقول عن سنى تلقيه العلم بها إنها لم تكن من أسعد أيام حياته . ولم يكن يستطيع دائماً أن يبعد عن ذهنه القلق الذى كان ينتابه بين آونة وأخرى ، بسبب خوفه من الإخفاق فى الحصول على مرتبة متفوقة من مراتب الشرف فى الامتحانات : الأمر الذى كان يتوقف عليه الشىء الكثير من حياته المستقبلة . غير أن

مخاوفه كانت فى غير محلها ؛ فقد حصل على مرتبة الشرف الأولى فى تلك الامتحانات .

ومع أنه لم يشترك خلال مرحلة التحصيل فى مناظرات اتحاد الجامعة ، أو جمعيات الطلبة ، إلا أنه تدرب على الخطابة فى الاجتماعات العامة . إذ كان يلقى بعض الخطب فى إجازاته المدرسية على فصول من العمال كان يشرف على دراستها الدكتور أنجرام الذى صار أسقف لندن مدة طويلة من الزمن .

وكان أفضل علم ميز فيه نفسه أيام طلبه العلم بالجامعة هو علم الفلسفة . بيد أنه شعر أنه لم يُجبَل بالفطرة على أن يقضى أيامه فى بحث مسائل ما وراء الطبيعة . وكان الأستاذ ميتلند Maitland (أستاذ التاريخ بجامعة كمبردج) زوج أخته يقول له : « لا يصح لأحد أن يدرّس الفلسفة فى الجامعة ، إلا إذا كان يعتقد أنه كشف نظاماً فلسفياً يرغب فى الدعوة له ونشره ، أو أن يكون غيوراً متحمساً للتبشير بنظام فلسفى ابتدعه آخر » .

ثم سنح لخاطره أن يخصص نفسه لدراسة الآثار القديمة ، ولكنه ما لبث أن أهمل هذه الفكرة . وقد كان مطمحه الشخصى عند قدومه إلى أكسفورد ، كما كان مطمح أبيه ، أن يدرس القانون كى يمارس المحاماة ، ويعد نفسه للدخول فى حلبة السياسة . ومع أن أباه أظهر استعداداً لأن يعينه فى السنين الأولى من حياته العملية ، إلا أنه شعر أن أحوال الأسرة المالية لا تسمح له بقبول هذا العرض .

وعرضت عليه كليته على أثر تخرجه فيها وظيفة مدرس بها ، فحزم أمره على قبولها ، وأدار ظهره نحو المطامع الواسعة والآمال الكبيرة التى كانت تجيش بصدره أيام التلمذة . وعقد نيته على تكريس حياته لتدريس التاريخ الحديث .

ونصحه أحد مدرسى الجامعة بأن يولى وجهه شطر باريس قائلا : إن صولجان التاريخ قد انتقل نهائياً من المؤرخين الألمان إلى الفرنسيين . وأشير

عليه باللحاق بمدرسة الوثائق Ecole des Chartres . فسافر إلى مدينة النور فى سبتمبر سنة ١٨٨٩ ، يحمل معه توصيات إلى رينان Renan وتين Taine وغيرهما من فحول أساتذة جامعة باريس فى ذلك الحين . وكان صاحب الترجمة أول من نقض التقليد القديم الذى كان يقضى على البادئين فى تدريس التاريخ من أساتذة الجامعات الإنجليزية باللحاق بإحدى الجامعات الألمانية ، كى يدرسوا فيها الطرق الحديثة للبحث التاريخى .

وحط رحاله فى الحى اللاتينى . ولم تكن له خطة مرسومة للدراسة والبحث . فكان يقرأ هنا وهناك ، ويستمع لهذا الأستاذ وذاك . وكان يختلف إلى الاجتماعات الأسبوعية التى تُعقد فى ندوات رينان وتين بمنزليهما ، والتى كانت تجمع أكبر رجال التاريخ والأدب فى فرنسا . ورأى عن كثب فى مدرسة الوثائق كيف ينهك الطلاب الفرنسيون قواهم فى الحفظ والاستذكار كى يجتازوا امتحانات تبلغ الذروة فى الصعوبة والشدة ، وقارن بين حياتهم وحياة زملائهم الإنجليز الهنيئة المرحة فى أكسفورد .

ثم رأى أن يقضى فترة قصيرة فى ختام عامه فى جامعة ألمانية . فقصد جامعة جيتنجن ، وساهم فى حياة الطلبة ومسامراتهم . وكانوا يظهرون له وداً وعطفاً ، ولو أن بعضهم لم يكتمه شعوره بأن أيام بريطانيا أصبحت معدودة كدولة عظمى ، وأنه سيقْضَى عليها فى أول حرب أوربية قادمة .

وقفل راجعاً إلى إنجلترا حيث تقلد عمله الجامعى . وبدأ حياة منقطعة النظير فى الدرس والتحصيل والبحث والتعليم . وشعر أن واجبه الأول هو أن يكون مدرساً قديراً للتاريخ . وشرع فى العمل كمحاضر فى التاريخ الحديث ، ومشرف على دراسات طلبة كليته الذين يدرسون العلوم التاريخية . فاضطر أن يشتغل ساعات طويلة مرهقة . فقد كان عليه أن يدرّس جميع عصور تاريخ إنجلترا وأوربا . وبجانب ذلك كان عليه أن يشرف على دراسات الطلبة فى علمى الاقتصاد والسياسة ، وهما علمان وجد نفسه ملزماً بتعلمهما كى يؤدى عمله على وجه مرض .

ولم يلبث طويلا حتى بدأ أبحاثه التاريخية . فألّف كتاب The Medieval Empire سنة ١٨٩٨ ، ثم وجه عناية خاصة إلى دراسة عصر نابليون ، فأخرج عام ١٩٠٣ كتاب Studies in Napoleonic Statesmanship ، وكتاب Bonapartism سنة ١٩٠٨ ، و Napoleon Bonaparte سنة ١٩١٣ (١) ودعاه اللورد أكتون أستاذ التاريخ بجامعة كمبردج إلى كتابة الأبواب الخاصة بعهد نابليون فى المجموعة النفيسة الضخمة Cambridge Modern History ؛ كما أخرج سير ثلاثة من أخلص أصدقائه ، وهى Life of F.W. Maitland سنة ١٩١٠ و Life of Lord Bryce سنة ١٩٢٦ ، و Life of Sir Paul و Vinogradoff سنة ١٩٢٧ ، كما وضع طائفة من المؤلفات التاريخية الممتازة فى موضوعات أخرى منها A Political History of England ' (١٩٠٦) ، و The Republican Tradition in Europe (١٩١١) ، و Studies in History and Politics (١٩٢٠) ، An International Experiment (١٩٢١) و Whig Historians (١٩٢٨) و Our New Religion (١٩٢٩) ، و England and Europe (١٩٣٦) . فجعلته هذه الأسفار التاريخية الوفيرة الممتازة فى مقدمة أقطاب المؤرخين فى العصر الحديث .

ولم يقصر نشاطه الجامعى على التدريس والتأليف ، بل كان مثل جون مورلى المؤرخ والوزير البريطانى الشهير يرى أن يساهم فى الحياة العملية بنصيب . فدفعته طبيعته العملية إلى أن يوسع مجال نشاطه الوافر ، وحفزته إلى الاشتراك فى شؤون العالم الخارجى . فكان فشر يلقى محاضرات على جموع كبيرة من العمال الأذكياء الذين يفدون إلى أكسفورد فى أيام المسامحة الجامعية . وكانت ميوله السياسية تتجه نحومناصرة حزب الأحرار . فأخذ يخطب فى بعض اجتماعاته السياسية الكبيرة . وحض على أن تمنح جامعة أكسفورد طالباتها درجات جامعية ، وكان يراسل عدداً وفيراً متزايداً من الأصدقاء والطلاب السابقين .

(١) نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ محمد نوفل مراقب منطقة طنطا والدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول .

وكانت مقدرته على العمل عظيمة خارقة . ولم يضن بجهد فى خدمة طلبته . وكان يقضى الأيام الأولى من الأسبوع فى أبحاثه التاريخية . ويخصص الأيام الأخيرة للمحاضرات ومقابلات الطلبة والإشراف على دراساتهم ، مخصصاً أيام الآحاد للراحة والاشتراك فى الحياة الاجتماعية بالكلية والجامعة .

وكان يقضى كثيراً من إجازاته منقباً فى أضابير المتحف البريطانى ، أو المكتبة الأهلية بباريس ، أو جامعات إيطاليا ، أو جامعة برلين ، باحثاً عن المستندات والوثائق التاريخية الضرورية لأبحاثه . غير أنه كان يختلف فى فترات قصيرة من إجازات الصيف إلى جبال الألب أو زيارة أصدقائه فى الريف . وكانت مواهبه عظيمة وذكاؤه نادراً . وكانت لمحاضراته جاذبية علمية كبرى ؛ فما مضى طويل وقت حتى صار أبرز مدرسى أكسفورد الشبان .

وفى سنة ١٩٠٨ دعته جامعات جنوب إفريقية لإلقاء محاضرات تاريخية على طلبتها ، فلقى نجاحاً باهراً وإقبالا عظيماً . ثم دعته جامعة هارڤارد الشهيرة فى العام التالى لإلقاء سلسلة من المحاضرات بها لمناسبة ذكرى لُوول رئيس تلك الجامعة الذائع الصيت . فعبر هو وزوجه المحيط الأطلنطى للمرة الأولى وألقى محاضراته التى أمَّها عدد كبير من الطلبة والأساتذة .

وفى سنة ١٩١٢ دعاه اللورد كرو حاكم الهند العام إلى الاشتراك فى « لجنة الخدمات الهندية العامة » . فلبى الدعوة ؛ وسافر إلى الهند فى ينايرسنة ١٩١٣ حيث انتهز هذه الفرصة ، وألقى بضع محاضرات بدعوة من جامعاتها .

وقبيل سفره عُرِضت عليه وكالة جامعة شفيلد (وهى بمثابة مديرها الفعلى ، إذ أن رئاسة الجامعة منصب من مناصب الشرف يُختار له أحد كبار الإنجليز ممن يشتركون فى الحياة العامة) . ولكن لم يقض عامين فى عمله الجديد حتى أعلنت الحرب العظمى ، فرأى أن يقوم بنصيبه القومى من الخدمة العامة . فقد كان شديد الفخار بأمته ، مزهواً بروائع أعمال أبنائها فى ميادين العلم والاجتماع والسياسة . فلعب دوراً رئيسياً فى جميع صنوف النشاط المدنى

والعلمى . واشترك فى لجنة برايس التى عُينت للتحقيق فى صحة الفظائع الألمانية المزعومة . ثم أرسل إلى فرنسا للبحث فى قيمة الدعاوة البريطانية ومداها فى ذلك القطر .

وفى أوائل سنة ١٩١٦ دعاه لويد جورج ، وكان وقتئذ وزير الذخيرة فى وزارة المستر أسكوث للإفطار معه ، وأخذ يتبادل معه الرأى فيما يجب أن تكون عليه خريطة أوربا الجديدة بعد الحرب . وعندما شرع لويد جوج فى تأليف وزارته فى ديسمبر سنة ١٩١٦ دعاه للاشتراك بها ، وعهد إليه بوزارة المعارف . فشعر فشر أن مصلحة البلاد تقتضى منه بذل جهود كبيرة لترقية مستوى التعليم فيها . وقد ظل يشغل هذا المنصب ستة أعوام ، بذل فيها جهوداً جبارة كى يرفع مستوى التعليم العام فى بلاده إلى درجة تطمئن النفوس إليها . فوضع قانون التعليم الشهير المعروف باسمه والذى أجازه البرلمان فى سنة ١٩١٨ ، فكان من بين آثاره الخالدة . وقد وضع هذا القانون على أساس اشتراك وزارة المعارف مع هيئات التعليم المحلية فى النهوض بالتعليم الأولى والثانوى والفنى . وضاعف القانون ماهيات المدرسين ، ووضع لهم نظاماً وافياً للمعاشات ، وذلك بأن تتحمل وزارة المعارف ثلاثة أخماس المرتبات التى تمنح للمدرسين . وبذلك وضع الأساس الذى يمكّن المدرس من أن يعدّ نفسه من ذوى المهن الحرة ، كما أنقذه من غوائل الفقر المدقع والمذلة والهوان التى كانت تصاحبه غالباً فى سنى شيخوخته وعجزه ، وأعطاه مرتباً يفى بحوائجه المعتدلة ، ويمكّنه من شراء الكتب والملابس ونفقات العيش والفسحة التى بدونها لا يستطيع أن يعيش عيشة اجتماعية محترمة .

ونص القانون أيضاً على إنقاص ساعات العمل للصبيان الذين يرغبون فى مواصلة الدراسة بعد تكملتهم مرحلة التعليم الإلزامى . ووسع سلطات الهيئات التعليمية المحلية . ومنح جوائز مدرسية عديدة للمتفوقين من تلاميذ المدارس الأولية الذين يرغبون فى اللحاق بالمدارس الثانوية .

ولم يكن هذا العمل التشريعى الخطير الشأن الباقى الأثر مجرد عمل

ضخم من الأعمال الوزارية ، بل إنه يمثل أخلاق فشر وفلسفته ومبادئه الحرة .

ولم يقتصر عمله الوزارى على وزارة المعارف ، بل كان يُنتدب لتقلد وزارة الهند ووزارة إرلندا عندما كان يغيب وزيراهما عن لندن . كما اشترك فى المفاوضات التى دارت بين مندوبى إنجلترا وإرلندا لعقد المعاهدة الإرلندية سنة ١٩٢١ . ومثل بريطانيا مع المستر بلفور وزير الخارجية واللورد روبرت سيسل فى اجتماعات عصبة الأمم السنوية واجتماعات مجلس العصبة الدولية خلال السنين الثلاث الأولى (١٩٢٠ — ١٩٢٢) من حياتها القصيرة ، وأسدى لقضية السلام والتقريب بين الشعوب خدمات مجيدة ، ولم يساعده على النجاح اطلاعه الكبير وتبحره فى تاريخ أوربا الحديث ومواهبه الاجتماعية فحسب ، بل لأنه كان يشعر أيضاً بميل شخصى عظيم لهذا العمل الجديد ، وفتنة خاصة للاضطلاع بهذه المهمة الجليلة .

واستقال من الوزارة باستقالة وزارة لويد جورج فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ ، وألفى نفسه على حين بغتة بلا عمل . فاشتغل بإلقاء المحاضرات والتأليف وحضور جلسات مجلس العموم . وذهب إلى كندا سنة ١٩٢٤ حيث حاضر فى جامعاتها وجمعياتها العلمية ، ثم سافر منها إلى الولايات المتحدة حيث ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات فى جامعة هارڤارد بمناسبة ذكرى لوول ، كما ألقى عدداً من الخطب على بعض المعاهد العلمية الأمريكية الأخرى .

وخلت عام ١٩٢٥ عمادة كليته القديمة بأكسفورد ، فعُرِضت عليه وقبلها . وبقى يشغل هذا المنصب العلمى حتى آخر يوم من أيام حياته الزاخرة بألوان النشاط العديدة فى ميدان الخدمة العامة . فقد كان علاوة على أعماله الرسمية بصفته عميداً للكلية وأستاذاً للتاريخ الحديث بالجامعة — كان يعنى بالتأليف والخطابة وكتابة المقالات للصحف والمجلات ، ويكثر من الاتصال شخصياً بالطلبة ، ومصادقة الكثير منهم ودعوتهم إلى منزله الجميل بالكلية . وكان طلبة الكلية بوجه خاص ، وطلبة الجامعة بوجه عام ، يجدون عنده النصيحة الغالية والرأى السديد والحدب الشديد ، ويلمسون فيه المعلم الفاضل والصديق العطوف .

وكان العميد باختباراته الواسعة المدى المنوعة النواحى فى الشئون العلمية والإدارية مصدراً كبيراً للقوة والإرشاد . فمن الصباح الباكر إلى ساعات الليل المتأخرة لا ينقطع سيل الزائرين بمكتبه . كما كانت تنهمر الخطابات الواردة إليه من تلاميذه وطلابه الكثيرين فى جميع أقطار المعمورة .

وبجانب هذه الأعمال الكبيرة والمسئوليات العديدة ، كان رئيساً للدراسات الصيفية للمعلمين بمدينة لندن ، وزميلا بالجمعية الملكية ، وأحد محررى اللجنة التى تصدر سلسلة المؤلفات النفيسة المعروفة باسم Home University Library لنشر الثقافة بين جماهير القراء . ورأس المجمع العلمى البريطانى ومكتبة لندن ، وانتخب عضواً فى إدارة وقفية رودس ، وخصص جزءاً كبيراً من وقته لتشييد معهد رودس والإشراف عليه . وكان عضواً فى مجلس إدارة المتحف البريطانى ، وفى مجلس إدارة شركة الإذاعة البريطانية ، ومدير شرف لعدد من المدارس الكبرى ، وخاصة كليته القديمة ونشستر التى انتخبته زميلا بها ، كما ساهم بنصيب فى هيئات أخرى تاريخية وسياسية وعلمية لا حصر لها .

وبدأ حوالى سنة ١٩٣٠ يؤلف سفره الخالد « تاريخ أوربا » A History of Europe ، وأتمه سنة ١٩٣٥ . وقد استنفد منه جهوداً جبارة ، واقتضى منه بحوثاً عديدة متشعبة . ولا ريب فى أنه من أعظم المؤلفات التى تبيّن المبادئ الحرة على ضوء الأحداث التاريخية . ومُنح فشر لخدماته العلمية الكبيرة وسام الجدارة Order of Merit ، وهو من أرفع الأوسمة البريطانية ؛ ولا يُمنح إلا لأساطين الكتّاب والعلماء من البريطانيين .

واعتلّت صحته قليلا فى أواخر سنة ١٩٣٥ ، فاضطر إلى قضاء ثلاثة شهور فى راحة تامة ، هى الأولى من نوعها طوال حياته .

غير أنه استعاد صحته كاملة ، ورجع إلى ضروب نشاطه العديدة . ونشبت الحرب الأخيرة فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، فأضاف إلى أعماله الكثيرة عملا آخر ، هو قبوله رئاسة المجلس الاستئنافى الخاص بقضايا الممتنعين

عن الانخراط فى سلك الجندية لحافز وجدانى . وكان هذا المنصب دقيقاً يحتاج إلى مران وخبرة بعقلية الشبان ، ولكنه أداه خير أداء . وكان فى طريقه إلى دار المجلس حينما صدمته سيارة فى أحد أيام سنة ١٩٤١ صدمة أودت بحياته . ففقدت الأمة الإنجليزية بوفاته وطنياً صادقاً ، وخسر علم التاريخ قطباً من كبار أقطابه .

أحمد نجيب هاشم   وديع الضبع

مقدمة المؤلف

يبدأ هذا الكتاب بتاريخ الإنسان فى العصر الحجرى (العصر النيوليتى) ، ويختتم صفحاته بستالين ومصطفى كمال وموسولينى وهتلر . وبين هذين العصرين الغامضى المعالم من عصور تاريخ الجنس البشرى ، نستعرض مشاهد تزهو بها النفس ، وحركات يطيب لاستعادتها الذهن : تنقلات الشعوب الآرية الزاخرة بألوان النشاط ، واستيطانها بعض أرجاء أوربا ، وظهور عباقرة اليونان وازدهار نتاجهم العقلى ، وبسط السلام ألويته ردحاً طويلا أيام دولة الرومان ، وموجة التطهير التى ظهرت بظهور المبادئ الخلقية المسيحية ، والنهضة البطيئة الخطى فى العودة إلى دراسة الآداب القديمة ، بعد أن اختفت وكادت تعفى آثارها ، على إثر غزوات الشعوب المتبربرة ؛ واستكشاف العالم الجديد بارتياد المجهول من المحيطات ؛ وتحكيم العقل خلال القرن الثامن عشر ؛ وظهور الحركة العلمية ، وتقوية روح البر والخير العام إبان القرن التاسع عشر .

غير أن أمراً واحداً تعذرت علىّ رؤيته . فقد أبصر بعض جهابذة العقل وأساطين الفكر فى أطراف التاريخ وأحداثه مؤامرة محبوكة وتناغماً متناسقاً وقالباً مقرراً مقدوراً . أما أنا فقد حُجِبَتْ عن ناظرى هذه الأمور ، واستحالت علىّ رؤيتها . فإنى لا أرى سوى حادث يعقب حادثاً ، وطارئ يتلو طارئاً ، كما تتعاقب أمواج البحر ، الواحدة فى إثر الأخرى . ولم أنته إلا إلى حقيقة واحدة جليلة الخطر فريدة الشأن لا تتطلب تعميماً ، ولم أستخلص سوى قاعدة مأمونة يسترشد بها المؤرخ ويهتدى بنورها ، وهى أنه ينبغى له أن يدرك فى تطور الأحداث وتغير تصاريف الزمان لعب الطوارئ غير المرتقبة والمقادير غير المنظورة . وهذا المبدأ ليس فيه ما يدعونا إلى الاستسلام لليأس والتطير . فإن ألوان التقدم وضروب الارتقاء التى حوتها صفحات التاريخ

ظاهرة جلية لكل ذى عينين . ولكن التقدم ليس قانوناً من قوانين الطبيعة . فما يكسبه جيل قد يضيعه جيل تال . وقد تسير أفكار البشر فى سبل ومسالك تؤدى بهم إلى الهمجية ، وتقودهم إلى التهلكة .

ولقد بدأت هذا المؤلَّف بسرد تاريخ الإغريق ، والرومان ، والشعوب المتبربرة ، والمسيحية . ويخص استكشاف العالم الجديد واستعماره ، وقيام الدول ، وتطور النظام الرأسمالى تطوراً كاملا — تخص هذه الأمور عصراً تالياً ، هو عصر حديث نسبياً ، باعتبار أنه قد مضى ستة آلاف عام على ظهور الحضارة الإنسانية فى هذا الكوكب . أما كشف البخار والكهرباء وتسخيرهما لخدمة الإنسان ، فهو أمر أحدث وأقرب . ومن المحتمل أن البشر بعد ألفى عام سوف يعتبرون كشف النقاب عن أسرارهما بمثابة « الحد الفاصل » فى تاريخ البشرية .

والكتاب الثالث[1] يصف نهوض المذهب الحر ، ووضعه موضع الاختبار والتجربة . وإنى أستعمل كلمة « المذهب الحر » Liberalism ، لا فى معنى حزبى ضيق ، وإنما أقصد به تلك المبادئ من الحرية المدنية والسياسية والدينية التى نراها راسخة الأركان رفيعة العماد فى بريطانيا ومستعمراتها المستقلة ، وهذه التى نراها أيضاً وطيدة الدعائم بين الشعوب الفرنسية والهولندية والسكندناوية والأمريكية . وإذا كنت أتحدث هنا عن الحرية فى هذا المعنى الرحيب الشامل بوصفها تجربة واختباراً، فليس ذلك لأنى أبغى الاستهانة بشأنها والحط من قدرها (فإن معنى ذلك أنى سأمتهن شأن الفضيلة ذاتها) ، وإنما أردت فقط أن أدلل على أن أمواج الحرية قد نكصت وتراجعت فجأة عن أرجاء فسيحة من قارة أوربا ، بعد أن كانت قد ظفرت لنفسها بمكانة رفيعة خلال القرن التاسع عشر . إذ كيف يمكن لامرئ أن يعد انتشار الاستعباد الفكرى أمراً يستوجب التقدير والتهنئة ، مهما تعددت منافع ذلك الاستعباد وتعاظمت خيراته . فإن الأصحاء لا يحتاجون إلى « مكيفات »

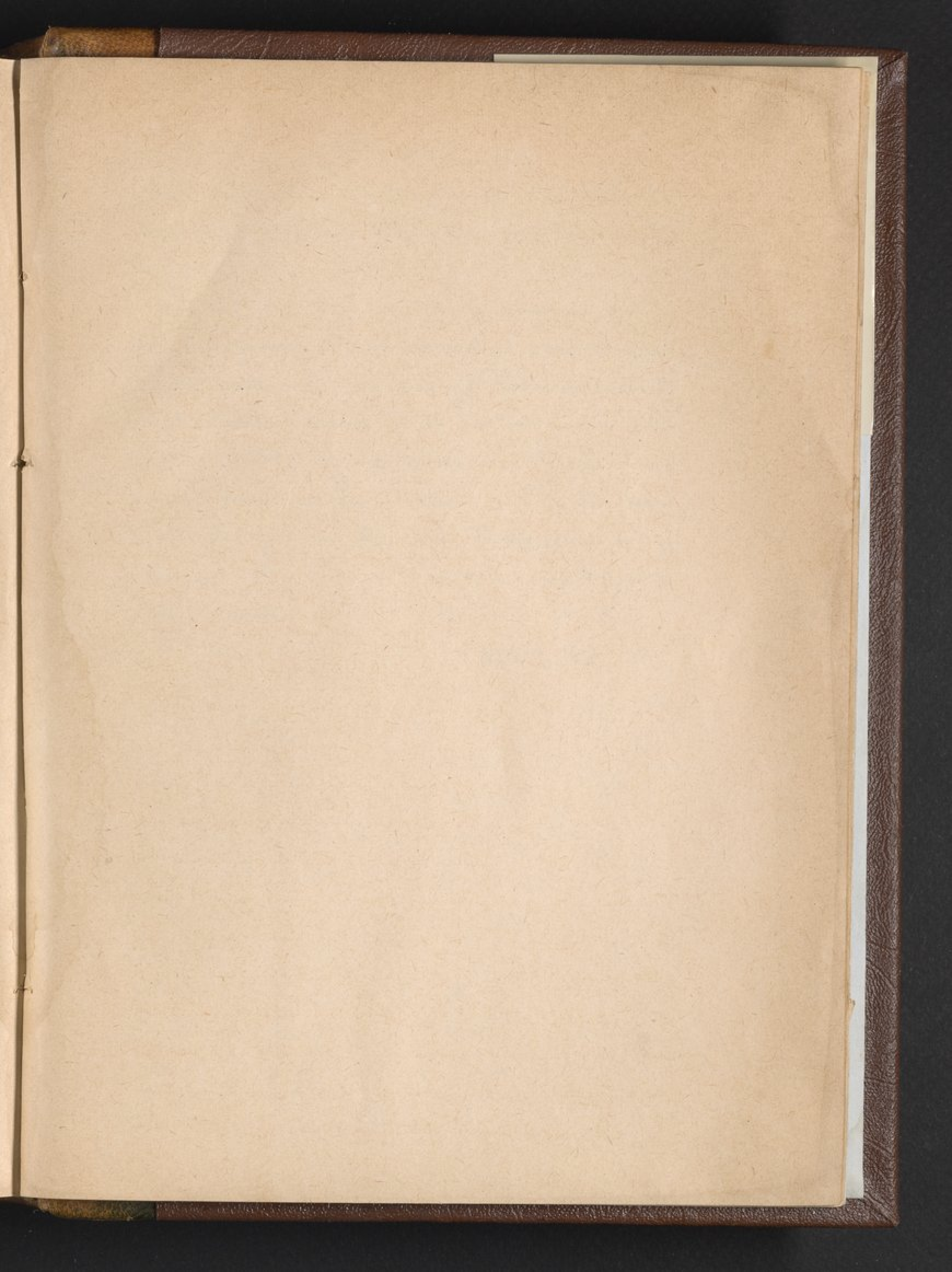
---

(١) وهو الكتاب الذى يقدمه المعربان إلى القراء .

أو عقاقير مخدرة ، ولا تلجأ الأمم إلى مثل هذا الشر المستطير والعقّار الآثم كضربة لازب ، إلا حينما تهوى أخلاقها ، وتنحدر روحها المعنوية فى مهاوى الفساد والتدهور .

وإننا نحيل القارئ الذى يبغى الاطلاع على مراجع مطولة فى تاريخ أوربا إلى المراجع الموجودة فى مجلدات Cambridge Ancient, Medieval and Modern History ، وإلى المراجع المذكورة فى طبعة Gibbon's Decline and Fall of the Roman Empire التى قام بتحريرها ومراجعتها الأستاذ J.B. Bury ، وفى كتابىَ : Lavisse's Histoire de France و Stubb's Constitutional History of England ، وأمهات المؤلفات التاريخية الأخرى . وقد اقتصرت فى هذا الكتاب على أن ألفت القارئ فى ختام كل فصل إلى عدد قليل من الكتب المفيدة ، وآثرت أن أختار منها ما ظهر حديثاً ، وسهل اقتناؤه باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

هـ. ا. ل. فشر



مقدمة التعريب

للطبعة الأولى

لعبت أوربا دوراً خطيراً فى تاريخ الجنس البشرى منذ العصور القديمة . ففيها ظهرت الحضارة الإغريقية الرفيعة ، وفيها نمت قوة روما وتعاظم نفوذها حتى امتد إلى جميع البلدان التى تطلّ على البحر الأبيض ، وفيها ظهرت حركة النهضة بآثارها العديدة من استكشاف واستعمار وتجديد فى الفنون والآداب ، وفيها اشتعلت نيران الثورة الفرنسية وامتدت مبادئها وآثار أحداثها حتى شملت أركان المعمورة الأربعة ، وأثرت فى حضارة الشعوب وأفكار البشر تأثيراً منقطع النظير ، وفيها ظهرت الثورة الصناعية بمبادئها الاقتصادية الحديثة ونتائجها الواسعة النطاق . وهى اليوم أعظم تأثيراً فى تقرير مصاير الإنسانية والحضارة منها فى أى عصر مضى ، حتى أننا لا نغلو حين نقول إن تاريخها الحديث هو صنو لتاريخ العالم بأسره .

ولقد اقترح المؤرخ الكبير الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل وزارة المعارف على بعض من دارسى التاريخ ترجمة كتاب هربرت فشر : « تاريخ أوربا » ، وهو من أشهر المؤلفات الحديثة التى صنفت فى هذا الموضوع ؛ ويمتاز بأنه يقدم صورة حية وتحليلا عاماً للشخصيات والأحداث التى يعالجها ، فلا يملأ صفحاته بجزئيات الوقائع وتفاصيل الأحداث ، ولا يحصر المؤلف الكبير دراساته فى تاريخ أوربا من الناحية السياسية فحسب ، بل يُعنى أيضاً بدراسة القوى والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية التى نبتت منها أصول تلك الأحداث السياسية وأفرخت . ولا يتحدث عن تاريخ الدول الأوربية باعتبارها وحدات سياسية منفصلة ، بل يعالجها على أنها أعضاء فى كائن حىّ ، يتأثر كل عضو منها ، ويؤثر بدوره فى سائر الأعضاء ، ويتجنب الإطالة فى وصف المعارك ، والإفاضة فى ذكر تفاصيلها المملة ، ويرمى إلى أن يكون كتابه هذا حافزاً للقارئ إلى الاستزادة من الاطلاع ومواصلة البحث والدراسة .

وها نحن نقدم ترجمة الجزء الذى يؤرخ العصر الحديث ، وهو يبدأ بالثورة الفرنسية ، وينتهى بتاريخ أوربا إلى ما قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية . ونرجو أن نكون قد وفقنا فى نقله إلى العربية فى عبارة واضحة دقيقة .

ونروم أن نذكر أننا رأينا لزيادة توضيح أبحاث الكتاب أن نقسِّم فصوله إلى أجزاء ، وأن نضع عنوانات على جوانب الصفحات للأحداث المختلفة ، وأن نكتب هوامش — علاوة على الهوامش الأصلية — لبعض الأعلام والوقائع التى قد يغمض أمرها على القارئ ، وأن نضيف فى مواضع قليلة جداً بعض الإيضاحات على متن الكتاب .

وختاماً نود أن نسجل هنا شكرنا لحضرة أستاذنا الجليل الأستاذ محمد شفيق غربال لما أظهره لنا على الدوام من تشجيع ، وعرفاننا للجميل لما أولى مجهودنا من رعاية واهتمام .

أحمد نجيب هاشم   وديع الضبع

تقديم الطبعة الثانية

يطيب لنا أن نقدم الطبعة الثانية لهذا المؤلف الجليل ، الذى يبدو لنا أنه سدّ فراغاً أحسّ به الكثيرون فى جميع الأقطار العربية ؛ فقد أقبلوا على مطالعته واقتنائه إقبالا فاق كل مأمول .

وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد وصلت إلى معالجة تاريخ أوربا حتى سنة ١٩٣٤ . وتوفى مؤلفه الكبير هربرت فشر قبل أن يتسنى له الكتابة عن الأحداث العالمية الجليلة الشأن البعيدة الآثار التى جرت بعد ذلك التاريخ .

فرأينا إكمالا للقصد ، وإتماماً للفائدة من هذا السفر النفيس ، أن نعالج الأحداث المعاصرة التى جرت فى الحقبة التى توسطت عامى ١٩٣٤ و ١٩٥٠ ، فنصل بالكتاب إلى وقتنا الحاضر . فأضفنا لهذا الغرض فصولا ثلاثة جديدة : هى الفصول الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون . وقد جاءت فى نحو مائة صفحة ، فشرحنا فى شىء من الإسهاب والتفصيل الأحداث العالمية الكبرى التى انتهت إلى إيقاد لظى الحرب العالمية الثانية ، ثم وصفنا أحداث ذلك النضال الهائل الذى استعر أعواماً ستة كاملة ، وتحدثنا أخيراً عن المعضلات الكبرى التى ظهرت فى أعقاب الحرب ، وعن معاهدات الصلح ، ومظاهر الاتحاد فى بعض أرجاء العالم ، وعوامل الصراع بين المعسكرين الغربى والشرقى ، وجئنا بوصف موجز لنظم هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتها .

وقد يجدر بنا أن نذكر هنا أننا رجعنا فى كتابة هذه الفصول إلى أدق المصادر ، وعنينا بتحقيق التفاصيل والتواريخ المختلفة ، وتوخينا أن نرسم صورة صادقة بعيدة عن نوازع الهوى وأسباب الدعاية ، لتاريخ هذه الحقبة المعاصرة المليئة بالأحداث الجلل .

وأضفنا خرائط ثلاث جديدة لتوضيح سير القتال فى ميادين الحرب فى شمال إفريقية والبحر الأبيض ، والجبهة الشرقية الأوربية ، والمحيط الهادى ، وجزر الهند الشرقية ، وآسيا الجنوبية الشرقية .

فبراير سنة ١٩٥٣ أحمد نجيب هاشم وديع الضبع

محتويات الكتاب

صفحة

جداول تاريخية

ملاحق

خرائط

الفصل الأول

اتجاهات التاريخ

الحرية . الاشتراكية . المذهب الصناعى . القومية . الثورة . الحرب

كان فى رحاب القارة الأمريكية الخالية أوسع مجال للابتكار والتجديد والمغامرة ، وكان أمراً ذا أثر بعيد للعصر الذى أخذ يطلع على أوربا أن ترتفع الصيحات من لدن جمهورية منتصرة مبشرة بإنجيل جديد للحرية والمساواة . فقد أبان إعلان الحقوق الأمريكى (صدر سنة ١٧٧٦) الطريق الذى يتعين على كل نصير للحرية فى العالم القديم أن يسلكه : وهو أن ما أنجزه الأمريكيون بالثورة (١٧٧٦ — ١٧٨٣) ، يستطيع الأوربيون أن ينالوا مثله بالإقدام والجرأة .

وقد اتخذت روح الحرية أشكالا عديدة : فهى دستورية عند ميرابو ، وثورية عند دانتون ، وشعرية خيالية عند شلر وشلى ولامارتين ، ومصدر وحى ونبوة عند مازينى ، وعقلية عند كُنْدُرْسيه وجون ستيوارت مِل ، وعملية عند كُبْدِن وكاڤور ، وحربية مغامرة عند كشراين وغاريبالدى . ولكن ظهورها اقترن بنضال ما زال محتدم الأوار . بيد أنها عمّرت بعد جرائم الثورة الفرنسية وإرهاب نابليون ، وأفلحت بختام القرن التاسع عشر فى تأسيس هيئات برلمانية فى جميع ممالك أوربا العظمى ، ما عدا روسيا .

وكعصر الإسكندر ، شهد العصر الذى سيكون موضع دراستنا فى هذا المؤلف زيادةً هائلة فى نطاق الأحداث وسرعتها وشدة تنوعها . ففى أقل من مائة وخمسين عاماً زاد عدد سكان أوربا ثلاثمائة وخمسين مليوناً ، وسكان الولايات المتحدة أكثر من مائة وثلاثين مليوناً[1] . وصارت المدن أكبر ،

---

(١) قدر الدكتور R. R. Kurzynski سكان أوربا بمائة مليون سنة ١٦٠٠ ، و ١٥٢ ½ مليون سنة ١٧٠٠ ، و ١٧٣ مليوناً سنة ١٧٨٩ ، و ٥٢٥ مليوناً سنة ١٩٣٤

والحكومات أقوى . وزادت الجيوش والأساطيل والميزانيات والأعمال ودخل الحكومات والثروات الخاصة إلى مدى لم يخطر قط ببال . فقد مكّن ابتداعُ طرق جديدة للنقل من إرسال جيوش جرارة مئات من الأميال بعيداً عن أوطانها ، وتموينها بانتظام أعواماً عدة . ومحا الأبعادَ ابتكارُ وسائل جديدة للمواصلات ، واستُخدِمت طرق جديدة للدعاية لتنظيم الرأى العام وضبطه . وتبلغ الأخبار والمعلومات التى تحت تصرف الحكومات الحاضرة ذروة رفيعة من الكمال والدقة ، حتى لقد يمر الآن من الشؤون فى يوم واحد فى مكتب رئيس الوزراء أكثر مما كان يجتمع لنظره خلال عام كامل أيام الملك جورج الثالث .

وترجع الزيادة الضخمة فى عدد سكان أوربا إلى ازدياد سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة ، أكثر من رجوعها إلى أى تقدم عجيب فى فن الحكم . ولا يعنى هذا أن العصر الذى سنشرع فى دراسته كان مجدباً من الأفكار السياسية ، أو مقفراً من الاصلاحات النافعة . فإن التعريف الذى ابتكره ريكاردو Ricardo (١٧٧٢ – ١٨٢٣) « للإيجار » بأنه فائض لا يعود الفضل فيه إلى العمل أو رأس المال ، بل إلى قدرة التربة الأصلية التى لا تفنى – هذا التعريف لفت الأنظار إلى الإيرادات غير المكتسبة فى جميع أشكالها وألوانها ، وزود الاشتراكية بحجة من أقوى حججها النظرية . وأدى كشف المبدأ القائل بأن التجارة تغدو أروج ما يكون عند تحررها من القيود المالية ، والمبدأ المكمِّل له بأنه فى عالم تسوده المنافسة ، ينبغى أن يُحمَى العمال من استغلال أرباب رؤوس الأموال لهم – أدى كشف هذين المبدأين ، بطريقتين مختلفتين اختلافاً بيناً ، إلى إيجاد مجتمع يتمتع بلذائذ مادية أوفر كثيراً ، وأفضل توزيعاً ، منها فى أى عصر مضى .

ومع ذلك فما زالت معضلة الفقر قائمة من غير أن يكشف لها حل ، وما زال يجثم على قلب كل عامل خطر البطالة . فإن تغيير المستحدثات (المودة) ، أو إفلاس صاحب العمل ، أو إمحال محصول فى قطر بعيد ،

أو إقفال مصرف أبوابه فجأة ، أو تدليس زمرة من المضاربين ، أو طيشهم وعدم تبصرهم ، قد يؤدى به إلى البطالة ، ويجر على أسرته الحاجة والعوز .

وقد بدأ عمال المدن ينمون ويزداد عددهم بسرعة كبيرة ، حتى أصبحوا يؤلفون فى هذه الحقبة أغلبية المجتمع الأوربى . فباتت مشكلة توفير أسباب السعادة لهم من أضخم المشاكل وأكثرها تعقيداً ، حتى استعصى حلها على يد جماعة واحدة من أرباب السياسة ، وَشقّ الوصول إلى حلها فى هدوء وسكون . ولم تُكْتَشَف إلا تدريجاً ، أو تطبق إلا جزئياً ، طرائق تخفيف وطأة الفقر وإزالة أسبابه ، هذه الطرائق التى نتجت عن وضع قوانين المصانع ، وتنظيم المناجم ، وجهود نقابات العمال وجمعيات التعاون ، والتأمينات والمعاشات التى تقدمها الدولة للعمال ، والتعليم الذى تهيئه للأحداث ، والمساعدات العامة التى تُمنح للعجزة . ومع أن « مشكلة حالة الشعب » كانت على الدوام فى المحل الأول من الأهمية والاعتبار ، فإنها لم تكن يوماً من الأيام فى طليعة المسائل التى تشغل اهتمام رجال السياسة وعنايتهم . فقد كان هنالك أسباب وشواغل أخرى أكثر جاذبية وأشد سحراً من تلك المشكلة تعمل على جذب اهتمام السواس بها ، أو إثارة عواطف الدهماء ، كالتنافس القائم بين الأمم ، والظمأ إلى التوسع والاستعمار ، وتشييد الامبراطوريات ، وشهوة فتح الأسواق .

ومن ثم لا يمكن أن يُروَى تاريخ أوربا على وجه الدقة كأنه نتيجة لتلك التغيرات التى لا تحصى ، والتى تكاد تخلو من أى معنى — هذه التغيرات التى حوّلت مجتمعاً كان ملاك الأرض وأصحاب الطواحين أبرز أفراده ، إلى مجتمع تتوقف سعادته إلى حد كبير على باشكاتب أو مهندس مجلس محلى أو مفتش صحة أو معلم . وإننا نبسّط أكثر مما ينبغى معضلات المجتمع وقضاياه لو أننا اعتبرنا أن تاريخ أوربا إن هو إلا مجرد نضال بين الطبقات ، وصدام على المصالح الاقتصادية ، فإننا بذلك نحط من شأن جبلة الطبيعة البشرية الغنية المتنوعة ، ومشاغل السواس ، وعناد الحوادث وغرابة أطوارها . ففى الحياة الواقعة ، ليس فى المستطاع أخذ حتى أهم المشاكل

الاجتماعية التى ترهق جيلا من الأجيال إلى معمل ما ، وبعد فحصها فيه فحصاً دقيقاً بعيداً عن الهوى يمكن إيجاد حل علمى مضبوط لها . فقد تظل الأسباب الحقيقية لعلل المجتمع سنين عديدة لا يقام لها أقل وزن . فإننا قد ندقق البحث فى مذكرات جيزو Guizot أحد أعاظم الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، دون أن نعثر فيها على دليل بأنه كان مدركا لروح الدهماء ، أو ملماً بمتاعبهم ومشاكلهم العديدة .

فإن قارة أوربا لما اضطرت أن تجابه هى حقائق الانقلاب الصناعى التى كانت إنجلترا تجابهها ، لم تقل لنفسها وقتئذ : « إن الأمور الجديدة الغريبة التى تجرى الآن فى إنجلترا ستحدث لى أنا أيضاً ، عند ما يحين الأوان . فستقام هنا أيضاً المدن الصناعية التى سيملأ دخانها الجو ، وسيستمر هنا أيضاً استغلال عمل الأطفال الصغار للربح والكسب . ولكن سيولد رغم ذلك فى هذه الدنيا أطفال أكثر وأكثر – أطفال يجب أن يبيتوا و يُطْعَموا ويتعلموا ويعملوا ويحكموا ، وقبل أن تمضى عقود عدة ، ستتكرر فى كل صقع وناد نفس هذه الأمور . وستغير الآلات الميكانيكية ورؤوس الأموال معالم المجتمع . وستجبر الحكومات فى مشارق الأرض ومغاربها – إذا كانت تروم البقاء – على أن تعد العدة لجيل جديد لا يملك رأس مال : جيل اجتُثَّ من الأحوال الاقتصادية الثابتة الوطيدة ومظاهر العبادة والتقوى التى تحفل بها الحياة القروية ، جيل لا تقاليد ولا ولاء ولا مستوى أخلاقيا له ، جيل هائم يعيش فى مهب ريح المزاحمة الاقتصادية العنيفة . ونحن الاوربيين نبدأ فى الواقع عصراً صناعياً جديداً ، فينبغى لنا أن نرقب أخطاره ، وندرك من قبل حوائجه ، ونهدى خطواته الصراط المستقيم » .

كان قمينا بأوربا أن تخاطب نفسها بهذه الأقوال ، ولكنها لم تفعل شيئاً من هذا . وبدلا من أن تصيخ بأذنها إلى الإشارات والهمسات الخافتة التى كانت تنذر بقدوم الديمقراطية الصناعية التى بدأت طلائعها تلوح فى الجو ، قذفت بنفسها فى سعير حروب الثورة والإمبراطورية الفرنسية .

الفصل الثانى

الثورة فى فرنسا

قوة فرنسا وضعفها . الامتيازات . مشكلة الطعام . فرصة الملك . عجز الميزانية . مجلس طبقات الأمة . أمانى فرنسا فى سنة ١٧٨٩ . فرساى و باريس . المهاجرون الأولون . سقوط النظام القديم . الطبقات العاملة والأندية . ميرابو . دستور سنة ١٧٩١ . الثورة والكنيسة . الثورة والملكية الخاصة . مكاسب طبقة الفلاحين . فارن . انفضاض الجمعية التأسيسية .

١ – قوة فرنسا وضعفها

قوة وضعف فرنسا

رغم أن فرنسا خرجت منتصرة ظافرة فى حرب الاستقلال الأمريكية ، ورغم أن عدد سكانها كان يقرب من ثلاثة أضعاف عدد سكان منافستها المهزومة : بريطانيا العظمى ، ورغم أنها كانت تملك موارد زراعية هائلة ، وصناعة نسيج رائجة ، وطرقاً وترعاً فخمة ، وتجارة خارجية زادت خمسمائة فى المائة منذ وفاة لويس الرابع عشر – رغم هذا كله فإنها أخذت تجابه معضلات داخلية خطيرة الشأن . وكان الشر العاجل الماثل للعيون هو سوء حالها المالية . فقد كانت مهددة ، أو اعتقدت أنها مهددة بإفلاس خطير مخيف .

الامتيازات

ولكن أهم وأخطر من ذلك ، أنه كانت تنقصها المساواة الاجتماعية والحرية السياسية ، ونظام عادل للضرائب ، وسلطة تنفيذية ذات كفاية ومقدرة . فالامتيازات العقيمة الضارة التى يرجع أصلها إلى العصور الوسطى كانت قد عَمَّتْ جميع أنظمة المجتمع وهيئاته . فهناك امتيازات الكنيسة ، وامتيازات النبلاء ، وامتيازات جمعيات الأقاليم التشريعية ، وامتيازات الهيئات القضائية ، وامتيازات نقابات طوائف العمال . وقد لوَّثت هذه الامتيازات العدالة . ونقلت

الشطر الأكبر من أعباء الضرائب إلى أكتاف الفقراء ، وحرمت أفضل وأذكى طبقة وسطى فى أوربا من تولى المناصب الحسنة فى الجيش والأسطول والكنيسة والقضاء .

فغدت الامتيازات بغيضة كريهة لا مسوغ لبقائها . وفقد كبار رجال الدين فى فرنسا الذين لم يكونوا يدفعون ضرائب ما — فقدوا كثيراً من احترام الناس لهم ، لغناهم الطائل وتكالبهم على أمور الدنيا ، ولرذائلهم ونقائصهم . وصار الأشراف الذين انقطعوا إلى مدى كبير عن الإقامة فى أقطاعياتهم — صاروا لا يؤدون عملا اجتماعياً . فكانوا يجمعون إيجاراتهم ، ويجبون مكوسهم الاقطاعية ، ويفرضون أصناف السخرة Corvées على فلاحيهم ، ولكنهم إذ كانوا عطلا من كل عمل أصبحوا عبئاً ثقيلا على المجتمع . ولكن وُجِد بلا مراء استثناءات شخصية ومحلية . فقد كان هناك بعض من ملاّك الأرض الأشراف الطيبي القلب الميالين إلى الإصلاح والتقدم . وفى بعض المقاطعات ، وبخاصة فى إقليم ڤاندى ، كان النبلاء يقيمون فى ضيعاتهم على نمط الأسياد الانجليز . فأبقوا على حب أتباعهم وولائهم لهم .

ولكن التغيب طويلا ، وبلا داعٍ ، عن المقاطعة كان هو القاعدة ؛ حتى ظن المؤلفون وكتبوا عن النبلاء الفرنسيين بأنهم من سلائل الفرنجة ، أو كفرقة من التيوتون نزلت بأرض أجنبية وأخذت تسخّر لخدمتها شعباً كلتياً خاضعاً .

مشكلة الطعام

وقد جاءت الثورة لأن المملكية عجزت عن حل مشكلة الامتيازات ، ولم تكن من القوة بحيث تنبذ بقايا النظام الاقطاعى الذى كان فى فرنسا — كما كان فى معظم ممالك أوربا الأخرى — ثقيلَ الوطأة على الأهلين . ولقد كان ثمة معضلة أخرى ذات صبغة اقتصادية حارت حكومات النظام القديم فى علاجها . ذلك أن موارد طعام الشعب لم تكن ميسورة مضمونة . فمع كل ثروة فرنسا الزراعية ، وترف طبقتها العليا ، كانت بعض طبقات الأمة عرضة بين آن وآخر لفتك المجاعات وأهوالها .

ولم يكن ذلك نتيجة تطور صناعى قهرى . فإن فرنسا ولو أنها كانت فى ذلك الحين قطراً حضرياً عامراً بالمدن ، إذا قيست بألمانيا — فقد كان سكان باريس مثلا قبيل الثورة يبلغون ٧٥٠ ألف نسمة — إلا أن طرق الصناعة فيها ، كطرق الزراعة ، ظلت إلى درجة كبيرة تلك التى كانت تُستعمل فى العصور الوسطى . ولم تكن الطبقات العاملة إبان الثورة الفرنسية تتكون من عمال مصانع متنقلين اقتُلِعوا من الأرض اقتلاعاً ، بل من عمال وفلاحين عاديين غير منظمين . فلم تكن تلك الطبقات تحقد على رأس المال كنظام اقتصادى ، أو تعارض فى ملكية الأرض ، بل كانت مطالبها محصورة فى الخبز الذى لم تكن تضمن الحصول عليه دائماً ، نظراً إلى سوء النظم الزراعية وتقادم العهد عليها من جانب ، وفرض المكوس الجمركية الداخلية على الحنطة من جانب آخر . فكانت العواقب وخيمة سيئة : كقيام الفتن الخطيرة للمطالبة بالخبز ، ووجود فقر مدقع وعوز شديد فى المدن الكبيرة وكثير من أقاليم الريف .

لويس السادس عشر

ولما تَسنَّم لويس السادس عشر عرش فرنسا سنة ١٧٧٤ كان الميل فى أوربا قوياً نحو الحكم المطلق الخيِّر . فقد وضع فردريك الأكبر ملك بروسيا مثالا اجتهد الملوك فى أن ينحوا نحوه . وحتى فى النمسا وأسبانيا الكاثوليكيتين هبَّ نسيم التقدم من الطبقة العليا ، وريح الرجعية من الطبقات الأدنى . فقد كان الملوك والملكات فيهما أحراراً ، بقدر ما كانت مجالسهما النيابية محافِظة . ولذا كانت فرنسا مستعدة لأن ترحب بشرلمان جديد يستطيع بفائق حكمته أن يصلح ما فسد من شؤون الدولة .

ولكن ذلك الملك الفتى لم يكن يصلح بتاتاً للقيام بهذا الدور . نعم كان متحلياً بكل فضيلة شخصية ، فكان أميناً ورعاً لطيف المعشر حسن الذوق ، ولكن لم يكن فى مقدوره أن يحكم وقد حرمته الطبيعة صفاء الذهن ، وحدة التفكير ، وسرعة البت فى الأمور ، وحاسة انتهاز الفرص ، وموهبة الجد والمثابرة — تلك الصفات التى تكوِّن رجل الدولة . ولذلك ترك التيار

يجرفه إلى أين يجرى ، بدلاً من أن يوجِّه هو الحوادث .

ماری أنطوانيت

أما زوجه ماری أنطوانيت ابنة ماريا تريزا إمبراطورة النمسا فقد خُلِقت من عود أصلب ومعدن أقوى . غير أنها كانت فى نظر الجماهير رمزاً بغيضاً لتحالف كريه ممقوت ، وكانت فى نظر الساسة مصدر وحى لكل نزق وطيش يحدث فى البلاط ، ومركز مقاومة لسياسة التوفير والتجديد التى يطالبون بتنفيذها . ولم يُجدِها جمالها وفتنتها نفعاً . وكانت ذات كبرياء وتشامخ ، فلم تحاول أن تصفح عن عدو ، أو أن تسعى إلى استمالة خصم . فبدت لناقدى الملكية كحورية البحر التى تجر سفينة الدولة إلى الهلاك والدمار .

معارضة برلمان باريس للإصلاح

وضاعت خير فرصة لمنع الثورة بإجراء الإصلاح حينما دعا الملك الشاب برلمانات فرنسا للانعقاد ، فى محاولته التودُّد إلى الشعب . فإنه بذلك أقام حاجزاً قوياً فى سبيل التقدم والإصلاح . ذلك أن القوة المنظَّمة تستطيع دائماً أن تهزم الرأى غير المنظَّم . فلقد كانت أكبر العقول فى فرنسا وقتئذ تؤيد ترجو Turgot (١٧٢٧ – ١٧٨١) أعظم وزراء فرنسا ، حينما اقترح إلغاء نقابات طوائف العمال ، وإطلاق تجارة الحنطة من كل قيد . ولكن برلمان باريس كان أيضاً محبوباً من الشعب ، فقد عدَّه الحائل الفعَّال الوحيد دون طغيان العرش . ولذا فإنه حين عُزِل ترجو بعد مكثه فى الوزارة ثلاثة عشر شهراً لم يُنجِز فيها شيئاً ، ولم يترك سوى ذكريات الإصلاحات الخائبة ، لم يحدث عزله أى ضجة ، وإنما أوجد اقتناعاً فى نفوس الرجال المفكرين بأن إصلاح فرنسا المنشود لن يجىء من أعلى ، بل يجب أن يُبحث عنه فى جهة أخرى ..

وبعد فترة وجيزة خلفه فى الوزارة نكر Necker (١٧٣٩ – ١٧٩٤) ، وهو بروتستانتى جمهورى من أهل جنيف . واشتغل أولا فى أحد المصارف . وقد ظفر نكر بحب الجمهور إبان اشتراك فرنسا فى حرب الاستقلال الأمريكية ، بدفعه نفقات تلك الحرب بالقروض ، ولكنه فقد ذلك الحب حالما شرع فى إنشاء مجالس محلية تحل محل مندوبى الملك فى الأقاليم Intendants فى

تأدية واجباتهم الإدارية . وعُزل نكر من منصبه سنة ١٧٨١ . ومن ذلك الحين حجبت مشكلة الميزانية سائر المشاكل الداخلية فى فرنسا .

عجز الميزانية

وكانت تلك المشكلة تنحصر فى كيف يمكن سد العجز الذى ظهر فى الميزانية . فمن جهة الأرقام لم يكن ذلك بالعمل الشاق ، كما قد يتراءى فى بادئ الأمر . فإن فرض ضريبة إضافية قدرها ستة أو سبعة فرنكات عن كل فرد كان كافياً لتمكين فرنسا من موازنة دخلها وخرجها ، ولكن من الوجهة النفسانية السياسية كانت تحول دون ذلك صعوبات ضخمة . اذ كان هذا العمل ينطوى على موافقة الطبقات الممتازة على وجوب دفعها نصيبها النسبى من الضرائب . ولكن عبثاً حاول وزير بعد آخر حمل الأشراف على الموافقة على الحل الوحيد الذى يمنع هبوب العاصفة الهوجاء : وهو النزول عن امتيازاتهم .

وفشل أيضاً كالون Calonne أجرأ وأذكى أولئك الوزراء ، ولم تثمر شيئاً فكرته الرائعة بدعوة جمعية من الأعيان (سنة ١٧٨٧) . كما حبطت مقترحات عديدة غيرها . ولكن كان لحبوط مسعاه ضجة أشد ورنين أعلى . إذ حاول أن يطلع بنى وطنه على بعض الحقيقة . فقد كتب « إن فرنسا مملكة تتكون من ولايات وأقطار منفصلة ذات إدارات مختلطة متنوعة ، لا تعرف مقاطعاتها شيئاً عن بعضها بعضاً ، وحيث لا تحمل بعض جهاتها عبئاً ما ، بينما العبء كله يقع على الجهات الأخرى ، وحيث أكثر الطبقات فيها ثراء يُفرض عليها أخف الضرائب ، وحيث الامتيازات تحول دون كل توازن ، وحيث يتعذر إقامة حكم ثابت دائم ، ووجود إرادة مشتركة . فلا عجب إذا هى غصّت بالعيوب ، وحفلت بالمساوئ . ومن المتعذر فى حالتها الراهنة أن تُحكم حكماً صالحاً » .

٢ ـ مجلس طبقات الأمة والجمعية الوطنية

دعوة الملك مجلس طبقات الأمة

وقد جُرِّبت بلا جدوى جميع ضروب العلاج ، ما عدا علاجاً واحداً ألح كل جانب على الحكومة بتجربته . فى الثامن من أغسطس سنة ١٧٨٨ ، فى جو مملوء بالمخاوف والشكوك والآمال ، دعا الملك أخيراً مجلس طبقات الأمة

للانعقاد فى العام التالى ، وأرجع نكر ساحر المال إلى منصبه القديم الذى يهيمن فيه على مالية فرنسا .

ولم يصدر قط إصلاح جليل من ذلك المجلس الذى أهملت دعوته للاجتماع طويلا ، والذى كان يجتمع فيه رجال الدين والأشراف وممثلو الطبقة الثالثة « طبقة العامة » ، ويتداولون ويقترعون كل على حدة . وكان كل ما أمله نكر من دعوته إياه الآن أن يقرّ المال اللازم لمعادلة الميزانية ، فيسد بذلك الهوة العميقة التى فغرت فاها بعجز الميزانية . ولم تضع الحكومة قبل انعقاد ذلك المجلس خطة للإصلاح الدستورى ، أو تُعِد أى إرشادات لهدى مجلس قليل الخبرة ، كهذا المجلس المؤلف من ألف ومائتى عضو ، خلال عمله . ومع أنه تم الاتفاق فى ٢٤ يناير سنة ١٧٨٩ على أن يكون عدد ممثلى الطبقة الثالثة معادلا لعدد أعضاء طبقتى الأشراف ورجال الدين معاً ، فإن الحكومة لم تقرر شيئاً ، بل إنها لم تقرر حتى هذا الأمر الخطير وهو : هل يجتمع جميع أعضاء الطبقات الثلاث معاً ، أو يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة ؟ والحق أن لويس لم يكن ينتظر ، أو يدرك الحركة الهائلة التى ترتبت على دعوة مجلس طبقات الأمة فى ڤرساى ، والتى خلقت رأياً عاماً سياسياً قوى الإرادة شديد الهياج .

قصر نظر الحكومة

أمانى فرنسا سنة ١٧٨٩

ومع ذلك فإنك لتجد المطالبة بالإصلاح الدستورى فى هذا الشكل أو ذاك ، ظاهرة فى جلاء ، فى العرائض Cahiers التى رفعتها كل هيئة وناحية فى فرنسا إلى الحكومة ، أو نشرها كبار القوم خلال تلك الحقبة الدقيقة . ولم يكن ذهن فرنسا — كما يظهر فى تلك الوثائق — يجنح إلى الجمهورية ، بل كان يطالب فقط بأن الضرائب يجب ألا تفرض من غير موافقة الشعب ، وأن تلغى ضريبة البيوت والعقار الثابت Taille ؛ وهما أمنيتان أجمع الناس ، رغم تضارب المصالح ، على المطالبة بتحقيقهما . وثمة عريضة وزعت على نطاق واسع ، كتبها قس شاب ممتاز الذكاء ، ورسم فيها نظام مَلَكيّة دستورية تشبه كثيراً تلك التى أقيمت فى فرنسا عقب سقوط نابليون . وكان ذلك القس هو تاليران Talleyrand أسقف أوتان الذى أثبتت الأيام أنه كان أحكم من الكثير من

أبناء وطنه . فقد قُدِّر له سنة ١٨١٤ ، بعد أن أشرفت حروب الثورة على الانتهاء ، أن يدير دفة الأمور فى فرنسا على النمط الذى سعى عبثاً أيام شبابه أن يخطّه لها .

ولكن لما التأم عقد المجلس فى ڤرسای فى مايو سنة ١٧٨٩ وقع ممثلو طبقة العامة تحت تأثير عقلية السوقة . فقد اجتمعوا فى وقت هياج شديد وآمال عريضة ، وعقدوا من بادئ الأمر النية على أن يمنحوا فرنسا نظما وهيئات تكون موضع حسد العالم لها ، وأنموذجاً لسائر البلدان . وبدا كل شيء سهلا ميسوراً لجيل رأى فى تحليق البالون الأول فاتحة لتذليل الهواء ، وفى التنويم المغنطيسى قوة جديدة غامضة تسيطر على أعمال العقل البشرى . فلم يكن ممثلو تلك الطبقة ، وقد تشربت نفوسهم بهذه الروح ، يميلون إلى أن يحتملوا معارضة من جانب الطبقات الممتازة . فأعلنوا فى ١٧ يونية أنهم يكونون « الجمعية الوطنية » . وفى اجتماع شهير عُقد فى ٢٠ يونية فى « ملعب التنس » بجوار قصر ڤرسای ، أقسموا بألا ينفضّوا حتى يضعوا لفرنسا دستوراً .

الجمعية الوطنية

وكان العمل الذى فرضوه على أنفسهم ضخماً جباراً ، فإن الدستور الأمريكى سنة ١٧٨٩ وضعته وصقلته لجنة صغيرة من رجال ذوى كفاية ممتازة كانوا يعقدون اجتماعاتهم وراء أبواب مقفلة فى مدينة فيلادلفيا الهادئة المتدينة . أما الجمعية الوطنية الأكثر عدداً المنعقدة فى فرساى ، فقد جرت مداولاتها فى مملكة تجيش بالفوضى ، وتحت ضغط غوغاء باريس وصخبهم ووعيدهم . وكان إصلاح نظام الملكية الفرنسية القديم العهد إصلاحاً حكيما عملا شاقاً على أى حال ، ولكنه بات مائة ضعف أشق مما يجب بتحمل الجمعية تبعة حكم فرنسا ، الأمر الذى أقحمته عليها الحوادث .

البطانة الملكية

وكان هنالك طغمة من البطانة الملكية تمقت منح الشعب أى شئ ، وتتوق إلى استخدام القوة فى كبح جماح الجمعية ، والقضاء على اضطرابات العاصمة التى ازدادت استفحالا . فأذعن لويس بعض الإذعان لهذه الطغمة . فأقال فى ١١ يوليو نِكر المبغض — أقاله لأمور ثلاثة : لأنه بروتستانتى ، ولأنه حديث نعمة ،

ولأنه مصلح . وأمر بإقامة معسكر قرب فرساى لجند نظاميين وضعوا تحت إمرة برجلى ، وهو قائد قديم مجرب ذائع الصيت . واستهوت الآن لويس سياسةُ القوة والبطش ، وهو الذى كان ينادى من قبل بوجوب الإصلاح .

١٤ يوليو

فكان رد ديمقرطية باريس على تهديد الرجعية هذا ، هو الرد التاريخى الذى ما زالت فرنسا تحتفل به عيداً قومياً فى ١٤ يوليو من كل عام : حين استسلم فى ذلك اليوم من عام ١٧٨٩ حصن الباستيل إلى غوغاء كانوا قد سلحوا أنفسهم بما غنموه من الأنقاليد . ومن المرجح أنهم كانوا يموّلون من بعض أرباب الأموال الذين رأوا فى نِكَر الأمل الوحيد للإصلاح المالى .

ولم يكن هنالك فخر كبير فى هجوم على حصن كانت مدافعه مهجورة عديمة الاستعمال ، ولكنه كان نظراً للظروف التى سبقت وتبعت استسلامه مصدر عار وخجل شديدين : تلك الظروف التى تُرى فى الذعر الشديد الذى حلّ إذ ذاك بسكان العاصمة ، أو فى مشاهد التدمير والنهب ، أو فى تمرد بعض الجند وشغب البعض الآخر ، أو فى ذبح حامية الباستيل ذبحاً دل على النذالة والقسوة . بيد أن الاستيلاء – رغم تدنسه بالجريمة – على ذلك السجن القديم الذى فى أطراف باريس وهدمه ، كان عملا سياسياً فذاً رائعاً . ففى طول أوربا وعرضها هلّل الناس وكبّروا مرحبين بسقوط الباستيل كخاتمة للطغيان المستتر ، والسجن الظالم المستبد ، وكبشير لبزوغ فجر الحرية .

نتائج سقوط الباستيل

ومن ذلك الحين بدأت تسير باريس فى طليعة التاريخ . فقد صار مجلس بلديتها حكومةً ذات حول وطول ، وحرسها الأهلى الذى ضم إلى صفوفه كثيراً من المجرمين نواةً لجيش شعبى ، وقسوة رعاعها مصدراً لإلقاء الهلع والرعب فى النفوس فى الأيام السود القادمة .

وكان سقوط الباستيل إعلاناً مدوياً للبلاط بأن باريس لا تنوى أن يفلت الدستور من بين يديها ، وأن ما تريده باريس يجب أن تقبله فرنسا . أما لويس فما كان منه عند وصول الخبر إلى سمعه إلا أن قال ، إنها فتنة كبيرة . فأجابه الدوق دى ليانكور « كلا يا مولاى ، إنها لثورة عظيمة » .

وأصبح الآن خسوف الملكية كاملا ، فقد باتت عاجزة عن أن تحمى أصدقاءها ، أو تقضى على أعدائها . وأرغم الملك التعس على تجرع كل هوان وذلة ، فألزِم أن ينقض أوامره للجنود ، وأن يعزل وزراءه ويستدعى نِكر ، وأن يبارك علانية استيلاء الرعاع على الباستيل ، وأن يقبل على ملأ من الناس ، كعلم الأمة بعد تحررها ، الشارة المثلثة الألوان الجديدة التى ابتكرها لافاييت محرر أمريكا والقائد المنتخَب للحرس الأهلى .

باريس وفرساى

ومع ذلك لم تكن باريس بواثقة من فريستها . فقد تراءى لها أن الملك طالما كان حراً طليقاً ، فإنه يصبح مصدر خطر عليها ، فقد يستأنف ألاعيبه الرجعية القديمة ، فيجمع جنداً حوله ، أو لا يصادق على المراسيم التى تقرها الجمعية الوطنية ، أو يدبِّر الفرار . وقوى الشعورُ بأن خطره يقلّ لو أنه أقام فى باريس حيث يمكن للكومون Commune — وهو مجلس بلدى باريس — أن يراقبه ، وللحرس الوطنى أن يحيطه بالحراس . وكانت صاحبة هذا الرأى والداعية له عند لفيف من أصدقائها المتحمسين ، سيدة فى مقتبل العمر بارعة الجمال فصيحة اللسان ، هى مدام رولان ، قرينة مفتش مناجم رزين وقور .

وفى خلال هذه الفترة أدركت العاصمة طرق التهييج ، واستوعبت أساليب الثورة ، فكان تحت تصرفها أموال ومنظِّمون ، وغلاة ومتطرفون ، ومورد غزير من الأوباش تعهد إليهم بأعمال الشغب والعنف . وفى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة ١٧٨٩ ظهر عذر يسوِّغ إحداث انقلاب ، فقد كان الملك دعا فرقة الفلاندر إلى ڤرساى ، ورفض المصادقة على قانون أجازته الجمعية الوطنية ، وأشيع أنه يفكر فى الفرار ، وأن الحرس الملكى داس بأقدامه الشارة المثلثة الألوان . فكأن شبح الرجعية الذى توارى فى يوليو قد أخذ يرفع رأسه الشرير من جديد .

٥ أكتوبر

وكانت هذه الظنون — مضافاً إليها شح الخبز حينذاك فى باريس — كافية لأن تحرك ذلك الزحف الشهير إلى ڤرساى فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٨٩ : ذلك الزحف الذى بدأ بتجمع حفنة من النساء الجائعات يولولن فى طلب الخبز . ولكن جاء على أثره الحرس الأهلى بقيادة لافاييت . فأحضر الدهماء معهم الأسرة

المالكة إلى باريس ، وإلى قصر التويلرى الكئيب القارس البرد الذى صار أشبه بالسجن للملك والملكة .

المهاجرون

وفى ليلة من ليالى يوليو ، عقب سقوط الباستيل ، حينما كانت الفوضى ضاربة أطنابها ، وبيوت النبلاء تلتهمها النيران ، جاء تاليران خفية إلى الكونت دارتوا D'Artois أصغر أخوى الملك ، جاء يحضه على أن يحمل الملك على حل الجمعية الوطنية ، وإعادة النظام إلى نصابه بالقوة ولكن الملك أبى ذلك عطفاً منه وشفقة . وإذ لم يضمن دارتوا لنفسه الحماية الكافية ، فر عبر الحدود ، بادئاً بذلك أولى موجات الفرار المتعاقبة التى جلبت هذا الشر المستطير على فرنسا وعلى أوربا .

وصعبٌ أن نغلو فى تعداد الشرور والنتائج السيئة الناجمة عن وجود شراذم من الأشراف الحانقين النشطين الفارغى العقول وراء الحدود ، يتحالفون مع أعداء بلادهم ، ويتآمرون عليها ، إما عن طريق حرب أجنبية ، أو بث روح الفتنة والنضال الداخلى ، كى يستأصلوا نظمها وهيئاتها الجديدة . فإن جميع الكوارث الكبرى التى انتابت فرنسا إبان الثورة : كإعدام الملك والملكة ، وجنون الشك والريبة والإرهاب ، والفظائع التى ارتكبت ، وقمع الآراء المعتدلة الإنسانية — إن هذه الكوارث لتتصل من قريب أو بعيد بالمخاوف التى أثارها حقد المهاجرين الدفين ، وقوة حلفائهم المسلحة سواء فى الداخل أو الخارج . فإن أكثر ما أقضّ مضاجع الثوار هو ارتيابهم فى وجود أنصار مستترين للملكية فى جميع أرجاء فرنسا .

انهيار النظام القديم

ولكن الجمعية فى نفس الوقت وجّهت جهودها لوضع دستور لفرنسا ، يغمرها روح التفاؤل والثقة ، كأن مصادر الوحى المعروفة للفلسفة ستجيبها عن كل لغز من ألغاز الحياة . وكان من حسن الطالع أن يُبَسّط عملها تبسيطاً مدهشاً من هذه الناحية ، وذلك أنها لم تجد نفسها مجبرة على أن تهدم شيئاً . فإنه فى ليلة جمة النشاط من ليالى شهر أغسطس (ليلة ٤) تنازل الأشراف ورجال الدين وأعضاء مجالس المقاطعات والبلديات والشركات والنقابات فى موجة

من موجات الفزع والكرم ، عن حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية . وانهار بذلك النظام القديم عند ارتطامه بالعواطف الثورية : تلك العواطف التى كانت الجمعية تساهم فيها إلى درجة كبيرة ، ولكنها لم تفعل شيئاً لخلقها أو توجيهها . ولم يحدث قط من قبل أن مجتمعاً شهيراً نبذ بعنف وشدة ماضيه التاريخى ، كما فعل الآن المجتمع الفرنسى . ولو أن الملكية كانت قد نزلت بها الهزيمة والعار فى حرب طاحنة مدمرة ، لما كان انحدارها وإذلالها بأعظم مما حل بها فى ذلك الوقت .

فإنه عقب سقوط الباستيل سادت الفوضى كل شىء : سادت الإدارة والجيش — وماهو أدهى وأخطر على مستقبل فرنسا فى البحار — سادت الأسطول الذى كان قد أبلى بلاء حسناً فى أثناء حرب الاستقلال الأمريكية . وأشعل الفلاحون النار فى قلاع أسيادهم وقصورهم ، ولم يوجد فى طول البلاد وعرضها من يطيع القانون ، أو يدفع الضرائب . وألفت كل ناحية من نواحى فرنسا حرساً أهلياً : تلك القوة العسكرية الهائلة العظيمة الشديدة الولاء للثورة ، لترد عنها كيد الخصوم .

روح الحركة الجديدة

وكانت ثمة فكرة واحدة انتشرت فى كل صقع وناد ، وطربت لوقعها الشجى النفوس . واهتزت الأفئدة : هى أن الشعب هو صاحب السيادة ، ومصدر كل سلطة . وبدت مَلكية النظام القديم للناس خدعة كبرى وتدجيلا واسع النطاق ، وأن الفرنسيين لم يعودوا بعدُ بالأمة المستضعفة ، بل إنهم لم يكونوا يوماً من الأيام تلك الأمة ، فقد صاروا مواطنين : أعضاء أخوّة متضافرة حرة متساوية ، تملك حق إعلان الصلح والحرب ، وإبرام المعاهدات ، ومباشرة القضاء ، وتنظيم الكنيسة ، والإشراف على الجيش والأسطول ، وسن القوانين وفرض الضرائب ، وتراءى لهم أن ليس ثمة قوة فى العالم تستطيع أن تسيطر أو تقف فى وجه إرادة الشعب التى تعبر عنها الجمعية الوطنية الممثلة الشرعية لها ، وأن روح الاتحاد والتضافر التى تؤلف بين أعضاء الجماعة الواحدة ، سواء أكانت هذه الجماعة مجلس مقاطعة ، أم مجلساً بلدياً ، أم طبقة من طبقات المجتمع ، أم شركة ،

أم نقابة عمل ، يجب أن تذعن لأوامر فرنسا التي لا تتجزأ ، وقد هبَّ من رقاده الوقَّادُ أمام سنديانه ، والفلاحُ وراء محراثه ، والصانع فى مصنعه ، فرأوا أنفسهم جزءاً من فرنسا ذات السيادة والسلطان ، لهم من الحقوق والاعتبار ما لأسيادهم ، ومُنحوا حقوقاً طبيعية ليس فى مقدور أحد أن يحرمهم منها : فقد وُهبوا حق الحرية ، وحق المِلْكية ، وحق الكلام والخطابة ، وحق مقاومة الظلم والتعسف .

كان هذا هو المنطق ، وتلك كانت العواطف التى استهوت فرنسا ، واستحوذت على عقول أبنائها فى صيف ١٧٨٩ . وكان هذا هو نداء الديمقراطية الجديدة الذى وجهته إلى شعوب أوربا الممتهنة الجانب .

وقد ذاعت تلك الفلسفة التى انطوى عليها إعلان حقوق الإنسان ، بعباراته الخلابة ، ومبادئه التى لم توضع موضع التجربة : هذا الإعلان الذى بُدئ به دستور سنة ١٧٩١ ، فأثارت عباراته العزة فى النفوس ، وأيقظت الأمانى والآمال فى بيوت لا تحصى . ولم تثمر إلا قليلا نصائح التعقل والحكمة ونداءات الاعتدال ، أزاء القوة المضلِّلة الساحرة لهذا المنطق . وكان الاعتقاد بصلاح الطبيعة البشرية الأصلية الذى تنطوى عليه هذه النظريات مصدر معظم المحن القاسية والنكبات المريعة التى حلَّت الآن بفرنسا فى تعاقب سريع . فقد غاب عن الفرنسيين أنهم أمة لا تتألف من ساسة ملائكة ، بل من شعب يحتاج — ربما أكثر من أى شئ آخر — إلى سلطة حازمة ويد قوية لترقية مواهبه وصفاته العظيمة ترقية كاملة .

٣ — دستور عام ١٧٩١

الطبقات العاملة والأندية

وتحت الطبقة البرجوازية (الطبقة الوسطى) ، كانت هنالك طبقات العمال الجائعة جسما وعقلا ، المتحجرة القلب من جراء إهمال أمرها ، وتنفيذ القوانين المجحفة غير العادلة فيها : طبقات حفلت بالمجرمين والمهربين وقطاع الطرق وسفاكى الدماء . فإنه فى ليلة اقتحام الباستيل أخذت النسوة والأطفال ترقص على ضوء المشاعل حول رءوس مقطوعة لثلاثة من الأسياد الفرنسيين قضوا حياتهم بلا دنس أو عيب .

ومع ذلك فلم يأبه أحد لذلك الإنذار البشع ، وامتنع الملك ووزراؤه من توجيه خُطَى الجمعية وهدايتها ، ورفضت الجمعية بدورها أن تحكم فرنسا ، أو تحفظ الأمن فى باريس .

ولما انتقل الملك والجمعية إلى العاصمة انتقل مركز السيادة فى فرنسا إلى الأندية السياسية التى كان أهمها نادى اليعاقبة : ذلك النادى الذى صار فى وقت وجيز قطب الرحى فى اتحاد واسع النطاق ، وحاكم فرنسا الحقيقى . ولم تحاول قط الحكومة أن تضرب على أيدى الهيئات الثورية ، أو تقاوم أفعالها التى أدخلت الرعب فى قلوب أعضاء الجمعية الوطنية ، وبذرت بذور الفتنة والتمرد فى الجيش .

ميرابو

وسيهتم التاريخ على الدوام بأمر ميرابو Mirabeau ذلك المغامر والسياسى والخطيب الشعبى والمشرّع ، على أنه الرجل الذى اجتهد عبثاً فى وقف تيار الفوضى الجارف وإنقاذ تاج فرنسا . فقد وضح له كل الوضوح ، كما وضح أيضاً لمونييه Mounier وأشخاص حكماء آخرين ، ألاّ سبيل إلى إنقاذ فرنسا من التردّى فى هوة السقوط ، إلا بقيام حكومة قوية شديدة البطش . ولكن أنّى لهم أن يجدوا القوة والحزم ؟ إنهم لم يجدوهما فى الملك ، ولا فى أخيه الأصغر الكونت دى بروڤانس ، ولا فى لافاييت المختال المزهو بنفسه ، والقائد غير الكفء لحرس باريس الأهلى .

وحبطت جميع الدسائس لتأليف وزارة ملكية قوية ، وتحطمت على صخور المبادئ الديمقراطية جميع المقترحات التى كان يُحتمل أن تقوّى مركز السلطة التنفيذية فى الدستور الجديد : كإنشاء مجلس تشريعى ثان ، ومنح الملك الحق المطلق فى رفض المصادقة على أى مشروع قانون ، وتخويل الوزراء حق الجلوس فى السلطة التشريعية . ولم يستطع ميرابو نفسه أن يعتمد حتى على تأييد الأعضاء الملكيين فى الجمعية الوطنية ، لأن كثيرين منهم كانوا هدامين يميلون بجوارحهم إلى جعل الدستور أسوأ ما يمكن ، بغية الحط من فوائد الديمقراطية . ولما انتهى رأى ميرابو إلى تعذر الاتفاق على شئ مع

الجمعية ، اقترح سراً على البلاط أن يرحل علناً من باريس إلى روان . وربما كان اقتراحه هذا ، من بين جميع خططه العديدة ، أقلها تهوراً وقنوطاً . ولكنه جاء بعد فوات الأوان ، ذلك أن فرنسا صارت – ولما تدرِ – جمهورية قلباً وقالباً .

تشتت السلطات

وقد أبقى الدستور الذى خرج فى النهاية من مرجل المناقشات ، على الفوضى الناجمة عن تشتت السلطات : هذا التشتت الذى وجدته الجمعية الوطنية قائماً ، ولم تفعل شيئاً لتقويمه . وقد عَمَّرت الملكية ، ولكن كظل فقط ، لأن السلطة الحقيقية صارت فى يد أربعين ألف مجلس محلى ، تدفع من الضرائب ما راق لها أن تفرض على نفسها ، ولها وحدها حق استدعاء حرسها الأهلى الخاص بها واستخدامه . فكان الخوف القاتل من سلطان الحكومة – ذلك الخوف البادى فى اعتقادٍ صلف لايقبل مناقشة بفائدة الانتخابات والهيئات الشعبية – كان ذلك الخوف عيباً من أكبر عيوب المحاولة الأولى للثورة فى تنظيم فرنسا .

الثورة والكنيسة

وعيب آخر نتج من منطق الثورة الديمقراطى بعينه ، هو إخضاع رجال الدين لدستور مدنى . فقد كان مبدأ أساسياً من مبادئ الثورة أن الهيئات المشتركة خطرة على المجتمع . ولما لم تكن ثمة هيئة مشتركة متضامنة فى مثل ثروة ونفوذ الكنيسة ، وذات سجل طويل حافل بالتعصب كسجلها ، فقد كانت محط بغض خاص من مجلس تشريعى معادٍ لهيئة رجال الدين . فأخذت الجمعية تكيل لها الضربة تلو الضربة ، فألغت أولا العشور الكنسية tithe دون دفع تعويض ، ثم ثنَّت ذلك بمصادرة جميع أملاك الكنيسة وحل طوائف الرهبنة الدينية وتحرير الرهبان والراهبات من نذور بتولتهم . وأردفت هاتين الضربتين بتخفيض عدد الهيئات والأشخاص الكهنوتيين تخفيضاً عظيما . ولكن لما كانت الجمعية الوطنية قد تركت العقائد والعبادة من غير أن تُمس ، فإن هذه الإجراءات رغم تعسفها وشدتها لم تكن لتقوم حائلا يتعذر التغلب عليه .

فإن الكنيسة قد تمتعض جد الامتعاض من سلبها ضياعها الواسعة وأوقافها الغنية ، ومن الاجراء الذى صَيَّر رجال الدين موظفين ذوى مرتبات خاضعين

لحكومة ديمقراطية . ولكن الكنيسة فى فرنسا خضعت أمداً طويلا للدولة ، فلا يستطيع مسيحى أن يستنكر إجراء كهذا حرم كبار رجال الدين من إيراداتهم الضخمة ، كى يرفع قليلا من الرواتب الزهيدة لصغار القساوسة . بيد أن أعظم إثم أحفظ قلوب رجال الدين على الجمعية ، وجعل النزاع بينهم وبينها مما يتعذر رتقه وإصلاحه ، هو قرار الدستور الذى بمقتضاه يُختار الأساقفة بواسطة ناخبى المديريات ، والقسس بواسطة مجالس المراكز المحلية[1] . فإن ذلك كان ينطوى على جواز انتخاب رجال الدين بواسطة أشخاص علمانيين قد يكونون بروتستانت ، أو حتى ملحدين .

ومن المعقول أن يُخشى على كنيسة تُحكم ويُعيَّن رجالها على هذا النحو ، أن يجرفها التيار بعيداً عن مرساها القديم ، لا سيما عند ما حُظر على المواطنين الفرنسيين أن يعترفوا بسلطة أى أسقف أو رئيس أساقفة تقع أبروشيته خارج فرنسا . وكان لا مفر من أن يستنكر البابا هذا الدستور المدنى الذى لم يؤخذ رأيه فيه فى أية مرحلة من مراحله ، والذى جرح ضمير العالم الكاثوليكى .

والحق أنه لم يكن ثمة خطأ ارتكبته الجمعية التأسيسية أبعد أثراً فى نتائجه كتلك الإهانة غير المسوّغة أو الضرورية التى وجهتها إلى عقائد الشعب الدينية . فقد انحاز فى بدء الثورة قساوسة القرى إلى قضية الشعب . فكان تأييدهم إياها جليل القيمة عظيم القدر . أما الآن فقد انقسم رجال الدين فريقين : فريقاً مسايراً حلف اليمين بطاعة الدستور ، واحتفظ بذلك بكورته وأخذ يقبض مرتبه ، وفريقاً شجاعاً عصى وتمرد ، وبدلا من أن يقبل البقاء فى أحضان كنيسة منشقة عن البابا ، هام على وجهه مهدَّداً بالجوع والسجن والموت ، ولكنه حمل معه ولاء رعية أمينة ومؤمنين أوفياء .

فصار القسس الذين لم يحلفوا يمين الولاء للدستور prêtres insermentés ، من بادئ الأمر ، مركزاً منيعاً لمقاومة حكومة الثورة . فكنت تراهم فى مقاطعتى

---

(١) كان هذا هو التقسيم الإدارى الجديد الذى وضع ليحل محل نظام فرنسا الإقطاعى القديم .

ڤاندى وبريتانى ، وفى كل مكان خفقت فيه الشارة البيضاء مناضلةً العلم المثلث الألوان . وفى هزيمتهم واضطهادهم تُوِّجَت هاماتهم بأكاليل النصر والفخار . فمن كفَّارة آلامهم وقربان أوجاعهم خرجت الكنيسة فى فرنسا مطهَّرة من الأرجاس ، مجددة حياتها الروحية .

ولم يكن فى جميع تصرفات الجمعية شيء يُشتم منه رائحة الاشتراكية . فقد هاجمت الثورة الفرنسية الامتيازات ، لا المِلْكية ، إذ كان أعضاء الجمعية التأسيسية راسخى الإيمان بحرية الفرد . فناهضوا حتى تلك الألوان من الاتحاد الاقتصادى كنقابات العمال التى وُجد فيما بعد أنها ضرورية لحماية الضعفاء من عسف الأقوياء . وبات الفلاح قادراً على أن يزرع مايشاء ، ويبيع أين يشاء . وأُلغِيَ نظام استرقاق الأرض أينما كان قائماً ، ونُبذ نظام الرسوم الإقطاعية على صغار الملاك ، وخُفِّف من وطأة قوانين الصيد ، وحُرِم مالك الأرض من حقوقه فوق أتباعه من العامة .

ولكن مع تغير نظام الأرض فى مظاهره الخارجية ، بقى أساسه كما كان بلا تغيير . وظلت الأرض يفلحها صغار الملاك أو المستأجرين من الفلاحين ، أو تُزرع حسب نظام الإيجار المشترك Metayer الذى بموجبه يساهم كل من صاحب الأرض والمستأجر فى تكاليف الزراعة ، ويقتسمان الأرباح . ولكن مشروعاً لإنشاء نظام شيوعى زراعى ، أو مشروعاً بمقتضاه تملك الدولة الأرض ، لم يُعرَض قط على بساط البحث ، أو يُقترح اقتراحاً . وقد نشأت ، نتيجة لحاجات الدولة نفسها ، رابطةٌ مادية متينة العرى وثقت أواصر ارتباط طبقة الفلاحين بالثورة ، وضمنت — جزئياً على الأقل — عدم قلب عمل الجمعية التأسيسية فى هذه الناحية .

التضخم المالى

واحتاجت الجمعية فى أثناء حكمها فرنسا إلى المال . فسعت إلى الحصول على مطلبها منه بإصدار أوراق مالية Assignats ، ضُمِنت أولا بأملاك الكنيسة ، ثم بعد ذلك بأملاك العرش والمهاجرين . وأصدرت فى بادىء الأمر (ديسمبر سنة ١٧٨٩) أوراقاً بأربعماية مليون فرنك ، اعتبرتها كسلفة تسدَّد مما ينتج من

بيع أملاك الكنيسة . ولكنها ما لبثت طويلا حتى وجدت هذا المبلغ غير كافٍ . فأخذت تسدد ثمن حاجاتها الجديدة بإصدار أوراق جديدة . فما عتم أن حل التضخم المالى ، مصحوباً بنتائجه المحتومة ، من انحطاط قيمة تلك الأوراق ، وبيع الأرض بأثمان تثير السخرية .

ويسبِّب تدهور قيمة النقد تدهوراً سريعاً فى دولة ما إفلاس الكثيرين وخرابهم ، على حين يعود بالربح على فريق آخر . ولقد أفضى انحطاط قيمة الأوراق المالية الفرنسية إلى فقر خزينة الحكومة وأصحاب العقارات الثابتة وسكان المدن ، وساعد على استمرار الهياج الثورى فى باريس بخلق جو مفعم بالمضاربة والفزع . ولكن الفلاح الذى اشترى الأرض بأبخس الأثمان ظفر من جراء ذلك بمكاسب طيبة . ولهذا السبب ، من بين أسباب أخرى ، كان يحق له مع كثير من المضاربين فى الأرض من سكان المدن أن يبارك الثورة ، وأن يخشى نقض عملها .

ونظر سجينا التويلرى بروح الاشمئزاز والسخط ، المقرونة بالعجز وقلة الحيلة ، إلى تضخم تيار الثورة المتزايد ، وعنف نادى اليعاقبة ، وتحريضات الصحف المتعطشة لسفك الدماء ، واستسلام الجمعية الذى لا يقف عند حد لأوامر الغوغاء ونزواتهم . ولكن حيث كانت الأشياء كلها ممقوتة آثمة ، بدا للملك أن الدستور المدنى لرجال الدين أشدها إثماً ومقتاً . فقد شعر أنه لن يستطيع التوفيق بين هذا القانون وبين ضميره ، أو يطيق تناول العشاء الربانى من يد كاهن دستورى .

وحدث يوم الاثنين السابق لعيد الفصح سنة ١٧٩١ حادث ظهر له منه أنه حتى دوافع الضمير لن تكون موضع احترام الثوار . ففى ذلك اليوم قصد الملك والملكة إلى سان كلو لتناول العشاء الربانى فى كنيستها ، ولكن الغوغاء ردوهما خائبين . فكانت هذه الإهانة حاسمة . إذ عقدت الأسرة المالكة العزم على الفرار إلى الحدود ، حيث بوييه Bouille على رأس قوة ملكية موالية يمكنه بها أن يبسط لها يد الحماية والعون . وقبل أن يبرح الملك باريس كتب منشوراً أعلن فيه

بطلان الأوامر الدستورية التى أرغم على توقيعها ، وطالب بتعديلها .

ولكن كشف أمر الهاربين فى ڤارن « Varenne » (٢١ يونية سنة ١٧٩١) وأعيدوا إلى باريس. ومن تلك اللحظة قضى على الملكية بالهلاك . إذ ظهر الملك كالخصم العلنى للدستور ، وكمهاجر فى قرارة نفسه ، وكنصير الكهان الذين لم يقسموا اليمين بطاعة الدستور ، وكمحرّض على الحرب الأهلية ، وكحليف للدول الأجنبية المعادية للثورة . فأوقف عشرة أسابيع عن العمل . وقامت حكومة جمهورية فى كل شىء ما خلا الاسم ، عملت على تلطيف المخاوف التى ساورت النفوس بانحلال فرنسا فيما إذا ألغيت الملكية .

حل الجمعية الوطنية

وعند ما أكمل وضع الدستور حلت الجعيمة الوطنية نفسها (١٤ سبتمبر سنة ١٧٩١) . وكانت قد أجازت من قبل قانوناً دل على روح إيثار من جانبها ، ولكنه لم يفد فرنسا إلا قليلا . ذلك أنه قضى بتحريم انتخاب أعضائها فى الجمعية التشريعية الجديدة. فى خفة وقلة اكتراث ضَحّى واضعو الدستور الفرنسى الأول بالخبرة التى جمعوها خلال عامين حافلين بالعمل السياسى الجم النشاط ، وقبلوا أن يكلوا أمر تنفيذ الدستور إلى رجال غير مجربين . وبذا قضت المقادير بأن الجمعية الوطنية المنحلة التى آمنت بالحرية والإخاء والمساواة ، وبذلت أكبر الجهود لإنشاء دولة ديمقراطية فى فرنسا يصونها سلم شامل ديمقراطى — قضت المقادير بأن تمهد الجمعية السبيل إلى قيام حكومة استبدادية حربية ، وبذر بذور حرب عامة .

كتب يمكن استشارتها

لدراسة العصر كله ، ليرجع القارئ إلى المؤلفات الآتية :

G.P. Gooch : Annals of Politics and Culture. 1901.

The Cambridge Modern History. 1902-1910.

The Cambridge History of the British Empire. 1929.

A.J. Grant and H. Temperley: Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries (1784-1932). 1932.

Eduard Fueter : World History, translated by S.B. Fay. 1923.

C.A. Fyffe : History of Modern Europe. 1924.

B. Croce : History of Europe in the Nineteenth Century, translated by H. Furst.. 1934.

C Seignobos : Political History of Contemporary Europe Since 1814. 1901

ولمعرفة أسماء أحدث المؤلفات ، يحال القارئ إلى :

The Annual Bulletin of Historical Literature, published by the Historical Association.

لدراسة الفصول السبعة الأولى من هذا الكتاب ، ليرجع القارئ إلى :

The Cambridge Modern History, Vols. VIII and IX.

L. Madelin : The French Revolution. Tr. Curtis. 1930.

Lord Acton : Lectures on the French Revolution. 1910.

A. Sorel : L Europe et la Révolution française. 1889.

A. De Tocqueville : Ancien Régime. Tr. M.W. Pattersen. 1933.

A. Taine : Origines de la France contemporaine. 1876.

Carlyle : French Revolution. Ed. C.R.L. Fletcher. 1907.

J.M. Thompson : French Revolution : Documents. 1933.

A. Aulard : Histoire politique de la Révolution française. tr. Miall. 1910.

Lecky : History of England in the Eighteenth Century. 1892.

Seeley : Life and Times of Stein. 1878.

Oman : Peninsular War. 1902-30.

H.A.L. Fisher : Napoleonic Statesmanship : Germany. 1903.

H.A.L. Fisher : Bonapartism. 1909.

E.L. Woodward : French Revolutions. 1934.

F. Masson : Napoléon inconnu. 1895.

Vandal : L avénement de Bonaparte. 1902.

H. Houssaye : 1815. Waterloo. 1900.

L.G. Wickham Legg : Select Documents. 1905.

A.T. Mahan : Influence of Sea Power on the French Revolution. 1893.

التراجم

Mirabeau, by P.F. Willert 1898.
Robespierre by A. Matthiez. 1921, 1925.
Danton, by H. Belloc 1928.
Talleyrand, by Duff Cooper. 1932.
Napoleon, by H.A.L. Fisher (1924). J Holland Rose. (1902) J.B. Fournier. (1912), Jacques Bainville 1932.
William Pitt : by Rosebery (1910), J. Holland Rose (1925).
Burke : by John Morley. 1921.
Fox, by J.L. Hammond, 1903; Christopher Hobhouse 1934.
Wellington (The Duke), by Philip Guedalla. 1931.
The Foreign Policy of Castlereagh, by C.K. Webster. 1934.

الأدب الخيالى

Dickens : Tale of Two Cities.
Anatole France : Les Dieux ont Soif.
Stendhal : La Chartreuse de Parme.
Tolstoi : War and Peace.
T. Hardy : The Dynasts.

الفصل الثالث

الحرب والإرهاب

الجيرنديون . نشوب الحرب . تأثيراتها . دنتون . النزاع مع إنجلترا . وليم بت .
المسألة البولندية . أثر الأقليات . سقوط الجيرنديين . الإرهاب . عام روبسبيير .
ترميدور : عناد حكومة سفاحة . حكومة الإدارة وبونابرت .

١ – الحرب بين فرنسا والنمسا وبروسيا

الجيرنديون

آلت زعامة الجمعية التشريعية الجديدة إلى زمرة من الشبان البلغاء من الطبقة الوسطى ، جاءوا من إقليم فى جنوب غربى فرنسا يدعى چيرُنْد Gironds ، ولذا ما لبثوا أن عُرِفوا، وما زالوا إلى اليوم يُعرفون بالجيرنديين Girondins . ولم يكونوا يدركون من فن الحكم وأساليبه سوى النزر الضئيل . ولكن كان يغمر نفوسهم حماس ملتهب لفكرة الجمهورية ، وتغمر قلوبهم عاطفة قوية برسالة فُرِضت عليهم : هى نشر تلك الفكرة فى جميع ربوع أوربا ، كما أوتوا قدرة على إيصال ما يحسّون به إلى الآخرين .

وكان ڤرنيو Virgniaud وإسنار Isnard خطيبى الحزب ، وبريسو Brissot مستشاره الدبلوماسى ، ومدام رولان ربة الوحى والإلهام له .
ومع أن أحلام الجيرنديين الباهرة وحماسهم الرائع ونهايتهم المفجعة أكسبتهم أصدقاء عديدين ، إلا أن عليهم يجب أن تقع أكبر التبعة فى نشوب حرب طويلة مروعة : حرب هدمت نظام ريشليو ، وتركت فرنسا عضواً أصابه الضعف والوهن بين أعضاء المجتمع الأوربى ، لا يحميها من الخطر الجاثم على تخومها

الشرقية سوى فرضها على أبنائها الضرائب الفادحة ، ونظام إجبارى عام للخدمة العسكرية .

وفى الجو الحافل بالشك والحنق الذى ساد باريس فى ذلك الحين ، كان يلوح أن أكبر أعداء الثورة هم المهاجرون من الأشراف ورجال الدين الذين لم يحلفوا اليمين ، وإمبراطور النمسا[1] . ولهذا السبب ركّز الجيرنديون كل مقتهم وعدائهم فى هؤلاء ، معتقدين ألاّ شىء أنفذ فى جعل مركز الملك والملكة غير محتمل ، وفى شق طريق إلى الجمهورية ، إلا باتباعهم سياسة إصدار القوانين الصارمة ضد الأشراف المهاجرين ورجال الدين ، ثم باعلان الحرب على أخى الملكة .

أسباب الحرب

ولم تكن الأعذار لامتشاق الحسام بالقليلة . فقد كان فى استطاعة ليوبولد إمبراطور النمسا (١٧٤٧ – ١٧٩٢) أن يرفع عقيرته بالشكوى من التحريض الذى يبديه الفرنسيون لإضرام نار ثورة فى البلجيك الخاضعة له ، ومن حرمان الجمعية التشريعية بعض الأمراء الألمان من حقوقهم الاقطاعية فى الألزاس ، ومن انتزاع إقليم أڤنيون من البابا وضمه إلى فرنسا ، ومن المبدأ الجديد المقلق الذى ينادى بأن لكل شعب حق تقرير الحكومة التى يروم أن يخضع لها ، وأهم من هذا كله من أسباب الخصام والاحتكاك مركز أخته – ملكة فرنسا – الخطِر . فإنه لم يكن ليستطيع أن يغضّ الطرف تماماً عن توسلات مارى أنطوانيت بوجوب دعوته مؤتمراً أوربياً ليعالج أمر الثورة الفرنسية ، وحشد قوة عسكرية ، ليكون لقرارات ذلك المؤتمر التأثير المنشود .

بلاغ بلنتز

ولهذا أصدر ليوبولد بعد حادث ڤارِنْ بالاشتراك مع ملك بروسيا بلاغاً من بلنتز Pillnitz (٢٧ أغسطس سنة ١٧٩١) لاح كأنه يتوعد فرنسا بتأليب دول أوربا عليها إذا هى لم تعامل لويس المعاملة اللائقة بمقامه الجليل . ومع أن

---

(١) كان أيضاً من بين ألقابه الرسمية « أرشدوق النمسا » حتى عام ١٨٠٤ ، وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حتى سنة ١٨٠٦ .

الموقف كان خطيراً ، إلا أنه لم يكن مما يستحيل إصلاحه . فإن ليوبولد ، ذلك الرجل الحصيف البارد الطبع ذا النظر البعيد ، المشغول بلا انقطاع بشؤون إمبراطوريته الداخلية ، لم يكن يرغب فى أن يشعل لظى حرب صليبية جنونية ضد ديمقراطية فرنسا الهائجة الصاخبة . ومع أنه كان سريعاً فى التهديد ، إلا أنه كان محجماً عن العمل . وقد كان يأمل أنه عند موافقة لويس على الدستور لن تكون بعدُ ثمة حاجة للعمل .

ولكن لما ذهب الخريف وحل الشتاء ، وما فتئ كل أسبوع يحمل إليه أخباراً جديدة عن عنف الثورة ، أخذ عقل الإمبراطور يتجه أكثر فأكثر صوب تدخل مسلَّح . ولقد كان الضغط عليه شديداً من كل جانب لكى يعمل على صد تيار الديمقراطية الفرنسية الحربى الجارف . فقد أتى من جانب المهاجرين الذين تجمعوا فى كبلنتز Coblentz ، ومن جانب كاترين قيصرة روسيا ، وجوستاف ملك السويد ، ومن ملك أسبانيا ، وأخص من هؤلاء جميعاً ، أتى من أخته مارى أنطوانيت التى رأت فى هزيمة الجيوش الفرنسية ، وارتدادها أمام الغزو الأجنبى ، الفرصة الوحيدة لإنقاذ عرش زوجها .

ولكن ليوبولد عاجلته المنية قبل أن ينضج تصميمه البطىء ، ويتحول إلى عمل . غير أن خلفه فرنسيس (١٧٩٢ — ١٨٣٥) — وكان شاباً ممتلئاً قوة ونشاطاً وقلة مبالاة — بادر إلى قبول تحدى الجيرنديين الذى أخذ شكل بلاغ نهائى شديد اللهجة بأن على منتخِب تريف Tréves أن يطرد من أرضه قوة المهاجرين المسلحة التى كانت تُحشد فى كبلنتز . وكان طلباً يُقصد من ورائه الحرب . فإنه رغم اختلال نظام الجيش الفرنسى ، ورغم تحالف النمسا وبروسيا على فرنسا ، فإن بريسو وأتباعه كانوا واثقين من النصر . فقد كانوا يعتقدون أنه بمجرد إعلان الحرب ستنهض على الفور شعوب أوربا ضد حكامها المستبدين ، وستنهار عروش الملوك فى كل مكان ، وستغزو مبادئ الحرية والإخاء والمساواة العالم بأسره . أما روبسبيير أحد كبار خطباء نادى اليعاقبة فقد رأى غير ذلك ، إذ ظن أن الحرب ستنتهى بإرجاع سلطة التاج الفرنسى ومقامه إلى ما كانا عليه قبلا .

بيد أن روبسپيير لم يكن قد جاء دوره بعد . فتمكنت وزارةٌ چيرندية ــ كان الجنرال ديموريه Dumouriez فيها وزيراً للخارجية ــ من أن تجر فرنسا إلى الحرب (٢٠ إبريل سنة ١٧٩٢) .

ثم كُشِف بعد ذلك أنه لكى تدافع فرنسا الثائرة عن نفسها دفاعاً فعالا ضد مَلكيِّات أوربا الفاسدة ، فإنه يجب أن يوقف لويس عن الحكم ، وأن تخضع فرنسا لشكل دقيق من أشكال الاستبداد يغاير كل المغايرة نظام تشتّت السلطان السياسى الذى وجد له أنصاراً ومحبذين فى مستهل الثورة . وقد أدى نشوب الحرب مباشرة إلى انهيار الملكية ، وتأسيس الجمهورية [1] وتكوين حكومة الإرهاب .

وصُبِغت بلون قاتم مخاوفُ الناس الوحشية ونزواتهم الشريرة وهواجسهم المتسببة عن غلاء الخبز ، وتحليق الأسعار ، وانتشار الفوضى والاضراب فى كل مكان ، وتحريضات الصحافة الظامئة للدماء تحريضاً غير منقطع ضد نشاط خصوم الثورة ومساعيهم . فكانت هذه الأمور العلة المثيرة لارتكاب الجرائم المروعة ، وتعطش مخزٍ لسفك الدماء ، وإزهاقٍ للأرواح لم يَفُقْه هولا وشناعة فى العصور الحديثة سوى شيوعيى روسيا .

ولكن كان للحرب عواقب أخرى أبقى وأعمق أثراً . فقد غدت الثورة والشعور القومى صنوين . فإنه للمرة الأولى استخدمت الأمة الفرنسية قواها الهائلة فى الذّب عن قضية اعتبرها كل مواطن فرنسى قضيته المشتركة ، وللمرة الأولى ظهرت فرنسا كأمة متحدة العناصر ، تقوم هيئاتها ونظمها على موافقة الشعب ورضاه وتمسكه بقضيته المشتركة ضد عدوان عالم مسلّح . فكانت تلك الهيئات والنظم بمثابة سيد وتابع على السواء لتلك الدولة الثورية .

وثمة نتيجة أخرى للحرب كان لا مناص منها . فإنه لما أثيرت روحُ الشعب الفرنسى الحربية ، انزوت على الفور فى ركن بعيد تصريحات السلام الشعرية ، وعبارات الأخوة العالمية ، التى زينت عدداً عديداً من خطب الثورة . وعادت المبادئ السياسية القديمة والأهداف المعتادة فى التوسع الإقليمى تشغل المرتبة

---

(١) فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ .

الأولى من الأهمية ، ورجعت روح لويس الرابع عشر تهدى اليعاقبة فى مشاوراتهم ومداولاتهم ، وضُرب بالأخوّة عرض الحائط ، وسكر الجيرنديون بخمرة الزهو وشهوة الفتح . فعقدوا النية على عزل النمسا ، حتى يتمكنوا من اختطاف البلجيك منها ، ومد الحدود الفرنسية إلى الرين .

ضعف الجيش الفرنسى

غير أن عدم فطنة الجيرنديين وسوء تدبيرهم أوقعا فرنسا يومئذ فى نضال ضد بروسيا والنمسا : أقوى دولتين حربيتين فى أوربا — من غير أن تكون متأهبة للحرب على الإطلاق ، لأن الجيش الملكى كان فى حالة انحلال . وجاءت النتيجة مطابقة لما كان منتظراً . فإن التراشق الأول بين المتحاربين كان كافياً للدلالة على أن فرنسا الثائرة أصبحت بلا جيش تستطيع أن تعتمد عليه فى الدفاع عن البلاد ، كما كان هنالك جبن وعدم نظام وقلة اكتراث ، وكما يحدث فى الغالب عقب كل هزيمة حربية ، ارتفعت أصوات تقول بوجود خيانة فى صفوف الجيش .

ففى إبان تلك الفترة من القلق المقضّ والشك الممضّ ، حين أثبت الجيش القديم قلة كفاءته ، وقبل أن يبرهن متطوعو الثورة الجدد على جدارتهم وأهليتهم — فى إبان تلك الفترة قُرِّر مصير الملكية . فقد كان القوم يتساءلون : كيف نسير بالحرب إلى الظفر ، بينما يجلس فى التويلرى لويس صديقُ العدو ، فيطرد وزراءه الجيرنديين ، ويرفض المصادقة على أمر عال لإنشاء معسكر حربى قرب باريس ، ويراسل الغزاة خفية — كما كان يُظَنّ — مشجعاً إياهم وشاحذاً لهممهم ؟

دانتون

ففى هذه الأزمة حين كان الجيش البروسى يزحف صوب فرنسا ، ويتوعد قائده باريس بالتدمير إذا ما لحق بالأسرة المالكة أذى ، برزت شخصية فجة ثورية جبارة ، وسمت فوق الصخب والضجيج . وتسنّمت فجأة مركز الزعامة .

إن ذكرى دانتون غارقة فى الدماء والعنف ، فهو الذى نظم الهجوم على التويلرى (١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢) حينما مُزِّق جنود الحرس السويسرى البواسل إربا إربا ، وسُلِّم الملك والملكة إلى الأسر ، ودُعِى مؤتمر لإعلان الجمهورية . كما أنه لن يُغفر لدانتون إغضاؤه عن مذابح سبتمبر (١٧٩٢) المروّعة فى

السجون ـ تلك المذابح التى دُبرت للتأثير فى الانتخابات لهذا البرلمان الجديد.
ومع ذلك كله، فإنه كان أكثر من أى زعيم ثورى آخر قام فى ذلك الحين ـ
كان سياسياً فحلا ووطنياً كبيراً، ذا عين نافذة ترى حاجات الموقف الضرورية،
وعقل بعيد عن الأوهام والخيالات، ومقدرة نادرة على العمل الحاسم. فوجه
عنايته إلى إعطاء فرنسا جمهورية يرضى عنها الشعب مكان ملكية غير وفية،
وحكومة مركزية مكان الفوضى، وجيوشاً جديدة فائقة النظام والترتيب، يشيع
فيها الإيمان بالثورة، مكان شراذم جيش الملك المتداعية المتخاذلة. ورأى أن
فكرة الجيرنديين بشن حرب صليبية على رءوس أوربا المتوّجة هى ضرب من
الأوهام. فهذا الرجل الذى هدم صرح الملكية الفرنسية صار فى المسائل
الدبلوماسية قطباً من أقطاب النظام القديم.

فلقد كان الإرهاب زمن الحرب فى نظر دانتون، كما هو فى نظر جميع
رجال السياسة، أداة ضرورية من أدوات السياسة والحكم، وأن الأمر الوحيد
غير المحتمل هو تنابذ الفرنسيين وتفرق كلمتهم طالما الجيوش الأجنبية تحتل
بلادهم. أما أن تنابذاً مثل هذا كان موجوداً، فقد كان ذلك ما يعتقده كثيرون.
وكان يُظَن أن كل محنة فى الداخل وفى الخارج، وأن الأسعار المرتفعة والتجارة
الكاسدة والحرب الأجنبية والقلق الناجم عن موقف الملك ورجال الدين ـ كان
يُظَن أن هذه الأمور تزيد فى جموع الساخطين المتبرمين. فلم يكن قيام ثورة
مضادة بالشئ البعيد الاحتمال. ولهذا كان دانتون مستعداً لأن يستخدم أى
تدبير إرهابى يراه ضرورياً لإلقاء الرعب فى قلوب أعداء الثورة.

٢ ـ الجمهورية الفرنسية الأولى

وأحرزت الجمهورية فى مستهل أيامها بضعة انتصارات رخيصة وَضَعَتْ ، فى خلال أسابيع قلائل (٢٠ سبتمبر إلى ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٢) ، ساڤوى ونيس وولايات الرين والأراضى المنخفضة المتساوية (البلجيك) تحت أقدام جيوش فرنسا المظفرة النهَّابة . وكان جيته Goethe حاضراً أثناء معركة ڤالمى Valmy (١) التى على أثرها تراجع الجيش البروسى بقيادة الدوق برنزويك Duke of Brunswick – هذا الجيش الذى كان يُعْتَقَد أنه أفضل جيوش أوربا – بعد تكبده خسائر تافهة . فتنبأ جيته أمام الجنرال كلرمان Kellermann الذى قاد الفرنسيين إلى النصر فى تلك المعركة بأن عصراً جديداً فى تاريخ الإنسان قد طلع فجره . وبرهنت التجربة الديمقراطية بهذا الانتصار على أنها شىء أعظم من مجرد أدب ودعاية . فقد ارتد أمامها الحرس البروسى بقوته وشدة بأسه . وبدت ديمقراطية فرنسا المبلبلة الفكر المهلهلة الثياب أفضل وأقوى من أى ملكية . وأماطت اللثام عن السر الحقيقى للقوة ، فعُرِف أنها ليست قط شيئاً آلياً ، بل هى على الدوام حماسُ الروح .

ڤالمى

دوافع فرنسا

أضف إلى ذلك أن الجمهورية كانت حكومة فتح ودعاية . فإن رغبتها الشديدة فى فرض عقيدة سياسية على العالم ، وضرورات خزانتها الخاوية ، اتحدت على دفعها إلى سلوك طريق لعبت فيه دوراً مزدوجاً : دور المبشِّر برسالة ، ودور اللص المغتصب . فإن فرنسا لم يكن فى مقدورها أن تتحمل تكاليف السلم ، بل كانت مسوقة إلى أن تبقى فى يدها ثمار انتصاراتها ، وتسخِّرها لمصلحتها . وقد بدت البلجيك بنوع خاص مِلْكا شهياً ولقمة سائغة المذاق . فبدت أمام عينيها منجم ذهب ، ومنجما غنياً على أية حال ، ولكنه يخرج فقط إنتاجه الكامل عند تمكنها من فتح نهر الشلدت للملاحة ، وبعث أنتوِرْب كمنافِسة للندن فى أسواق العالم .

---

(١) ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ .

النزاع مع إنجلترا

ولم يُعْنَ المؤتمر الوطنى إلا قليلا بالحقيقة الواقعة وهى : أن ذلك النهر كان مقفلا للملاحة بمقتضى اتفاق دولى كانت فرنسا نفسها أحد الموقعين عليه . فقد كانت فرنسا على استعداد لأن تنظر إلى أشباه تلك المعاهدات المناقضة فى نظرها لقانون الطبيعة كقصاصات ورق . ولكنها بإعلانها للعالم بأن الشلدت نهر مفتوح ، وأنها مستعدة أن تقدم العون لجميع الشعوب التى تناضل فى سبيل الحرية ، بدأت فى خفة أن تسلك الطريق الذى أفضى بها إلى إثارة عداوة بريطانيا الجبارة الشديدة المراس .

فإنها جابهت أمة متضامنة معتزة بنفسها واسعة الثراء ، تحكمها حكومة أرستقراطية حقاً ، ولكنها فى الوقت عينه حكومة شعبية أيضاً . فإن الاتحاد الذى وصلت إليه فرنسا إذ ذاك عن طريق الثورة ، كانت إنجلترا قد ظفرت به فى القرن الثانى عشر . وكانت الحريات المدنية التى أثملت جدتها فرنسا ، أموراً سائدة مقررة فى إنجلترا منذ زمن بعيد . ولم يكن ثمة شىء فى استطاعة فرنسا الثورية أن تعلمه لبريطانيا فيما يتعلق بالحكومات النيابية التى لم تكن وستمنستر (مقر البرلمان الإنجليزى) — والحق يقال — تفهمها خيراً من فرنسا . فلم يكن هنالك على الأرجح قطر فى أوربا أقل إقبالا على إنجيل الثورة من بريطانيا . فإن خير ما كانت تستطيع فرنسا الجمهورية إهداءه إلى تلك الجزيرة المحافظة ، كانت تلك الجزيرة تملكه فعلا من زمن .

وليم بت

وكان وليم بت William Pitt رئيساً للوزارة البريطانية من سنة ١٧٨٣[١] . وكان بنشأته حراً ، وبميوله مالياً ، وقد ملك ناصية البلاغة البرلمانية : ذلك الفن الذى لم يبلغ من الشأو فى تاريخ أوربا ما بلغه فى ذلك الحين . وقد قضت عليه الأقدار أنه فى الحين الذى كان يعمل فيه جاهداً فى استتباب السلام مدة طويلة ، وتنظيم الإصلاحات الداخلية — قضت عليه الأقدار أن يقود وطنه إلى الحرب التى انتهت بمعركة واترلو ، وأن يشهد منها الاثنى عشر عاماً الرهيبة الأولى .

---

(١) اختاره جورج الثالث لرئاسة الوزارة البريطانية فى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٨٣ ، واستمر يتقلد منصب الرياسة إلى يوم وفاته فى ٢٣ يناير سنة ١٨٠٦ ، إلا فى فترة قصيرة من ١٤ مارس سنة ١٨٠١ إلى ١٠ مايو سنة ١٨٠٤ .

ولم يكن پت من بعض الوجوه وزيرَ حربٍ عظيم ، فقد بعثر من غير طائل موارد الأمة فى حملات ضئيلة الأهمية ، ولكنها حملات عظيمة الكلفة إلى جزر الهند الغربية . وإذا استثنيا إنفاذه نلسن إلى البحر الأبيض المتوسط فإنه لم يظهر فهماً كبيراً لأصول الخطط الحربية الاستراتيجية . بيد أن الفرنسيين رأوا حقاً فى پت أكبر وأصلب خصومهم . فلقد كان روحَ كل تحالف اوربى ضدهم ، والرمز الحى لإرادة إجماعية لا تقبل التفكير فى الهزيمة ، وهو ينهض ليلة بعد ليلة ، وعاماً بعد عام ، يعمر من جديد قلوب سادة إنجلترا ونوابها شجاعة وثباتاً ببلاغته الرزينة المترفعة .

وكما حدث فى أيام لويس الرابع عشر ، حدث كذلك الآن ، فقد نشبت مبارزة طويلة الأمد بين فرنسا وبريطانيا من جراء سياسة الدولة الأخيرة المقررة : وهى ألا تسلِّم طوعاً بضم البلجيك وهولندا إلى دولة أوربية قوية . فإنه ماطلعت سنة ١٧٩٣ حتى أظهرت فرنسا الثورية بوضوح نياتها المبيَّتة . فقد فتحت البلجيك ، وشرعت تهدد هولندا ، ومزقت معاهدة الشلدت ، وأخذت تحرض بمرسومها فى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٢ رعايا ملك الإنجليز فى إرلندا وسواها على العصيان . ثم أثارت حنق الشعب البريطانى واشمئزازه بضربها عنق لويس السادس عشر . ومع ذلك فإن فرنسا من غير أن تملك أسطولا تحدت الدولة البحرية الأولى فى العالم .

تقسيم بولندا

وقد حرَّك دخول بريطانيا الحرب ضد فرنسا عنصراً كان إلى ذلك الحين غائباً ، وهو تركيز المعارضة وعملُها يداً واحدة ضد قضية الثورة . ففى تلك الآونة كان أعظم ما يشغل بال روسيا وبروسيا والنمسا هو بولندا ، لا فرنسا . فقد كانت تلك المملكة المنكودة الطالع — التى كانت حدودها قد تقلصت بتقسيم أول أجرته تلك الدول الثلاث بينها (سنة ١٧٧٢) — كانت تلك الدولة على وشك أن تجرى لها عملية تقسيم ثانية (١٧٩٢) ، بل وثالثة (١٧٩٥) ، على غرار التقسيم الأول على يد جاراتها الطامعات . فإنه فى الوقت الذى كانت تنادى فيه فرنسا بمبدأ تقرير المصير الكريم ، كانت مَملكيات شرقى أوربا الحربية منهمكة فى إزهاق

روح أمة ، ومحو مملكة من خريطة أوربا . والحق أن قصة هذا العمل من أشد القصص خزياً وعاراً فى تاريخ أوربا .

ولنذكر طرفاً من هذه القصة : ففى اليوم الثالث من شهر مايو سنة ١٧٩١ قبل إستانسلاس بنياتفسكى Stanislas Poniatowski ملك بولندا دستوراً لبلاده كان يُرجى منه إصلاح أكبر علة من علل الضعف التى أنهكتها ، وشلّت حكومتها . فقد ألغى ذلك الدستور حق « الفيتو » Liberum veto[١] ، وجعل الملكية وراثية ، واخضع الأشراف للضرائب ، وأباح الحرية للشيع الدينية المتعددة . فكان المأمول بعد إصلاح بولندا حالها على هذا النحو ، أن يكون فى وسعها أن تلعب دوراً مجيداً نافعاً فى المجتمع الأوربى .

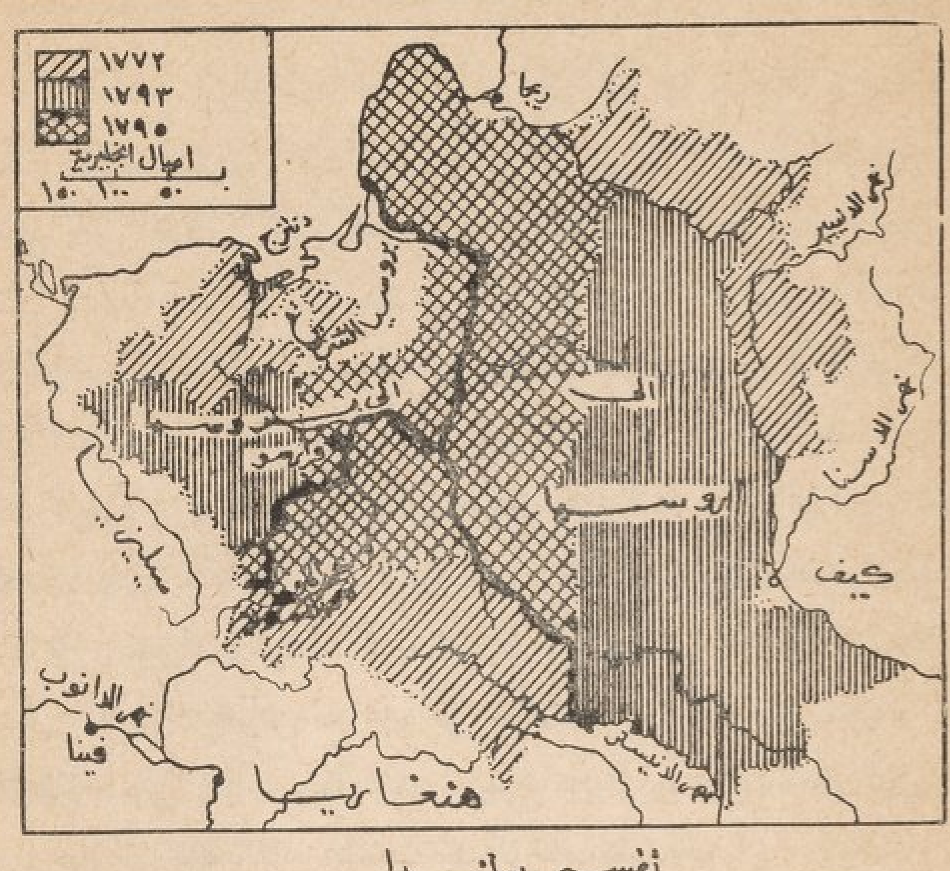
بيد أن هذا الأمل كان قذًى فى عين كاترين الثانية قيصرة روسيا النهمة الواسعة الأطماع ، رغم اعتراف بروسيا والنمسا بذلك الدستور . فأغارت سنة ١٧٩٢ على بولندا . وبعد أن ألحقت الهزيمة بالأمة البولندية التى استبسلت فى الدفاع ، وبعد أن ألغت كاترين الدستور ، دعت بروسيا والنمسا إلى اقتسام الغنائم معها .

وكان كل اعتبار من اعتبارات الشرف يدعو هاتين الدولتين إلى الإحجام عن قلب دستور ضمنتاه فى وضوح وجلاء . ولكنهما تحت ضغط الإغراء أثبتتا عدم وفائهما لتعهداتهما . ففى تقسيم بولندا الأول ، ثم فى إعادة تقسيمها ، ثم فى محوها من الوجود ، لعبت بروسيا والنمسا ، رغم انقسامهما بعوامل قوية من الحسد والبغض — لعبتا دوراً شائناً ملتوياً . ثم حملتا أسلابهما ، بعد أن حطمتا فتنة كوشيوسكو (Kosciuszko) الوطنية . وما جاء التقسيم الثالث الذى أبرمت المعاهدة الخاصة به فى ١٠ أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، حتى مُحيت بولندا من خريطة أوربا . ففى خلال أعوام أربعة جد خطيرة ، استحوذ التهام ذلك القطر الواسع

---

(١) هو الحق الممنوح لكل عضو من أعضاء البرلمان البولندى (diet) فى الامتناع عن التصديق على أى قانون أو مشروع يعرض على ذلك البرلمان ، وبذلك يقتل القانون أو المشروع ، إذ يجب لنفاذه أن يقره جميع أعضاء البرلمان من غير استثناء .

الجانبَ الأكبر من التفات بروسيا والنمسا ، وأضر إضراراً قاتلا بإحكام تعاونهما ضد فرنسا . فمكّن هذا الأمر الجمهورية من الثبات والصمود فى وجه أوربا .



تقسيم بولنـدا

٣ - عهد الإرهاب

سيطرة الأقلية

إن مفتاح إدراك كنه الثورات هو أنها تحركها وتديرها هيئات قليلة العدد شديدة التطرف . فإن المؤتمر الوطنى الفرنسى الذى نادى بالجمهورية ، وقطع رأس الملك ، وأرسل الجيرنديين إلى المقصلة ، وأقام عهد الإرهاب ، كان منتخباً بأصوات نحو ستة فى المائة من مجموع الناخبين . أما السواد الأكبر من الأمة الفرنسية فلم يكونوا بعد خمود لهيب الحماس الأول يُؤْثِرون شيئاً أعظم من أن يسمح لهم بإدارة شئونهم الخاصة فى هدوء وسكينة ، راضين كل الرضى بترك الأمور السياسية لرجال الأندية . ولكن المواطن المحترم العادى وقف بعيداً عن ساحة المعركـــة ، فقد كان شديد الخمول أو كثير المشاغل ، شديد الأنانية أو كثير التفريط ، شديد الفزع أو عظيم السخط ، قصير الباع فى التضامن مع غيره من المواطنين . فإنه فى باريس حيث كان الاهتمام بمسائل السياسة بالغاً أشده ، يلوح من تقرير مراقب مدقق أن واحداً فقط من كل مائة وثلاثين شخصاً أيد الإرهاب تأييداً فعلياً .

ضعف الجيرنديين

فإن الأغلبية الكبرى من أعضاء المؤتمر الذين عُرفوا « بالسهل » Marais كانوا ينتمون إلى الفريق المعتدل المحترم الذى لا لون ولا ميول قوية له من الطبقة الوسطى الفرنسية التى تؤلف دعامة الأمة . وكان طبيعياً أن يسعى هذا الفريق إلى الاسترشاد بالجيرنديين الذين بلغت قوتهم فى المؤتمر مائة وعشرين عضواً من الأعضاء المعروفين فى الدوائر النيابية .

وكان الجيرنديون آخر حواريى الأفكار الحرة فى فرنسا . فقد كانوا يؤمنون بالحرية الإقليمية ، كما كانوا يؤمنون بالحرية الشخصية . وكانوا يحلمون برؤية فرنسا وقد استقر بها المآل إلى حياة باهرة خالية من الشوائب ، تسير وفق دستور جمهورى هو أفضل ما أُخرِج للناس . ولما كانوا فى قرارة نفوسهم إنسانيين طيبى القلوب ، فقد أفزعتهم وأهاجت خواطرهم جرائم

أغسطس وسبتمبر سنة ١٧٩٢ . ولكن مع بلاغتهم وسحر خطبهم ، عجزوا عن اتخاذ خطط متحدة جريئة . فإنهم هاجموا روبسبيير Robespiérre ، ولكنهم لم يلقوا به فى غياهب السجن ، وحملوا على سفاحى مذابح سبتمبر ، ولكنهم لم يقدموهم إلى المحاكمة ، وأدركوا خطر معارضة باريس الثائرة ، ولكنهم لم يغلقوا الأندية ، أو يَحُدُّوا من حرية الصحافة ، أو يُعِدوا للمؤتمر الوطنى الحماية الضرورية الكافية ، بوضع قوة مسلحة تحت تصرفه يمكنه الركون إليها عند الحاجة .

وكان هنالك رجل واحد فى قدرته أن ينجيهم من الهلاك ، بل إنه عرض عليهم خدماته : هو دانتون . ولكن الجيرنديين كانوا شديدى الاحترام لأنفسهم ، فأنفوا أن يضعوا أيديهم فى يده الملطخة بالدماء . أما الرجل الفرنسى العادى ، فلم ينظر إليهم نظرة تبجيل وتقدير . فإن حزباً اقترع فى صف المؤيدين لحزّ عنق مليكه هو حزب لا يستأهل فى نظره احتراماً . فإن الجيرنديين عندما سمحوا لأنفسهم ، بسبب جبنهم وقلة كفاءتهم وضد حكمهم الصائب ، أن يقعوا فى الشرك الذى أعده الجبليون لهم ، كى يرغموهم على إرسال الملك إلى المقصلة (٢١ يناير سنة ١٧٩٣) ، حكموا على أنفسهم بالموت ، ولم يكن فى طاقة فرنسى معتدل أن يقدم إليهم أية معونة .

وقد زخر الربيع الذى تلا إعدام لويس بالنكبات والكوارث على هذه الدولة التى استباحت دم مليكها . فإنه بانضمام إنجلترا وأسبانيا وبولندا إلى صفوف أعدائها ، وبانسحاب جيوشها من البلجيك ، وبانحياز ديموريه إلى جانب العدو ، وباستفحال العصيان فى ليون وإقليم ڤاندى ، وبوجود طولون تحت رحمة الأسطول الانجليزى ، اضطرت الجمهورية أن تقاتل ، وظهوها إلى الحائط . وكان ضغط هذه الأحداث المروعة هو التيار الذى جرف الجيرنديين بعيداً عن الميدان السياسى ، وأقام تلك الأداة الحازمة المرعبة من أدوات الحكم الأوتقراطى : تلك الأداة التى أفلحت وسط الدماء والفظائع فى إعادة النظام الحربى لفرنسا .

لجنة الأمن العام

وقد تألفت (فى إبريل سنة ١٧٩٣) حكومة اليعاقبة من وزارة قليلة العدد عُرِفت بلجنة الأمن العام Committee of public safety لإدارة السياسة العامة ، ومن هيئة سميت « لجنة الضمان العام » Committee of public security، وهى أكبر عدداً بقليل من اللجنة الأولى، وتهيمن على أعمال البوليس وحفظ الأمن . ومن محكمة ثورية لبث الرعب فى القلوب . ووُضِعت خطة لمراقبة القواد فى ساحات الحرب مراقبة دقيقة بواسطة مندوبين مدنيين يدعون « ممثلين مبعوثين » representants mission ، واختيروا لمناصبهم لغلوهم فى التطرف .

وواصل المؤتمر الوطنى الذى وصفه ديمورييه فى ازدراء بأنه هيئة مكونة من ثلثمائة وغد وأربعمائة معتوه — واصل عقد الجلسات ، والنقاش ، وسن القوانين . ولكن سلطانه كان قد ذهب عنه . فإن انقلاباً قاده هنريو Henriot فى ٢ يونيو سنة ١٧٩٣ غيَّب عنه أولئك الخطباء الجيرنديين الذين كثيراً ما سحر حسن بيانهم وفصاحة لسانهم الجمعية التشريعية . ولم يستطع حزب أولئك المثاليين الأذكياء حتى الدفاع عن زعمائه ، وإنقاذهم من التشريد والمشنقة ، أو رد العدوان عن قاعة مداولاته . فقد شَلَّت يده عن العمل السمعةُ التى جاءته عن طريق مبادئه ، والتى خشى الآن أن يبدو فى مظهر المتنكر لها . وقلل من شأنه قيام الوزارة الجديدة (لجنة الأمن العام) وكومون (بلدية) باريس ، ونادي اليعاقبة وكوردلييه Cordelier ، وبروز السوقة المنظمين الصاخبين الذين صاروا يسيطرون على لجان الثورة فى الأقسام ، وفى دوائر الانتخاب الثمانى والأربعين التى قُسِّمت إليها باريس .

وكل عصر يتطلب طرقاً خاصة به . وقد خلق ضغط الحرب حركة نشاط هائلة فى دولاب العمل ، فصار العمل العاجل القاطع — لا الثرثرة التى لا تنتهى والتى حيرت بل أوقفت طويلا تقدم الحكومة — هو شعار رجال مثل كارنو Carnot فى وزارة الحربية ، وچان بون سان أندريه Jean Bon Saint-André فى وزارة البحرية ، وكان اليعاقبة الذين أنقذوا

الجمهورية مردة حقاً فى الجد والعمل . كما جاء العلم لنجدتهم ، ففى ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٣ أُرسِل أمر من باريس إلى الجيوش التى على الحدود فى ربع ساعة ، ذلك أن التلغراف السيمافورى (بالإشارات) بدأ ظهوره فى هذا الوقت ، ووُضِع فى خدمة فرنسا . فكان أحد مكنونات الإمبراطورية الحربية الوشيكة القيام .

روبسبير

وكان رجل العصر هو روبسبيير (١٧٥٨ — ١٧٩٤) المحامى النحيل البدن ، القادم من أراس ، الذى دخل لجنة الأمن العام فى ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٣ . فلمدة عام واحد مدهش — عام خالد بأمجاده الحربية ، وعاره الداخلى — كان هذا الرجل العجيب حاكم فرنسا الحقيقى وروح أوربا المسيطِرة . فما أكثر الانتصارات التى أحرزها اليعاقبة فى أيامه : فقد أخمدوا الثورة فى ليون ، واسترجعوا طولون ، وكسروا الدوق يورك فى هوندشوته Hondshoote ، وهزموا النمساويين فى واتيني Watignies وفلورى Fleurus ، وأعادوا فتح البلجيك ، وغزوا هولندا ، وحرروا كل بقعة من أرض الوطن من الغزاة . كما كان ذلك العام عامَ التعبئة العسكرية الأولى للأمة ، والعامَ (ولو أنه ليس العام الأصلى الرسمى) الذى وُضِع فيه ذلك النظام للتجنيد الإجبارى الذى ما زال يسوِّد بظله القاتم حياة كل فرنسى ، والعامَ الذى شرع فيه كارنو فى تنظيم الجيوش التى صارت فى يد نابليون أداة فتوحه وانتصاراته .

أما فى باريس فإن عام روبسبيير هذا يمتاز ببلوغ إرهاب اليعاقبة ذروته . وكان الرجل من طراز لنين ، مؤمناً بالغ الغلو فى إيمانه بإنجيل موحًى به إليه . وكما كان كارل ماركس للزعيم الروسى ، كذلك كان روسو للثائر الفرنسى . ويرتكز جانب من سلطان روبسبيير على الباريسيين على أهدافه المتناهية البساطة ، وعلى حياته التى اشتهر عنها التنزه عن شائبة الاختلاس . وقد قال عنه أحد معاصريه «لقد تسخرون اليوم منه ، ولكن هذا الرجل سيعلو شأنه ويرتفع قدره كثيراً» .

وكان يؤمن بكل كلمة تخرج من فيه . وإن خطبه السهلة العبارة ، المملوءة غلاًّ وحسداً ، وآراءه العنيفة المقرونة بالحذق العظيم فى فنون الحكم

السياسى ، جعلته من بادئ الأمر تقريباً زعيماً يشار إليه بالبنان بين اليعاقبة . فلقد كان السيد المسيطر على أداة الثورة فى باريس ، قبل أن يغدو القابض على السياسة القومية الموجِّه لدفتها . وكان أنيقاً فى هندامه إلى أقصى حدود الأناقة ، مؤدب السلوك ، رائع التظاهر بالتمسك بالفضائل الجمهورية .

ولم يكن لكل منشق على عقيدة روبسبيير الضيقة سوى علاج واحد بسيط ، هو المقصلة . فأرسل إليها فى مارس سنة ١٧٩٤ هيبير Hébert وشومت Chaumette بتهمة الإباحية والإلحاد . وفى إبريل جزَّ نصل المقصلة رأسى دانتون وديمولان Desmoulins ، إذ حث الأخير منهما فى كتابه « كُرْدِلييه العجوز » Vieux Cordelier — وهو الكتاب الوحيد من الأدب الحقيق الذى نشر إبان الثورة — حث فيه على الرجوع إلى الرحمة والاعتدال .

خاتمة الإرهاب

ولكن ذلك النمر الضارى قضى على نفسه بتطرفه واشتطاطه . فقد أصدر فى ١٠ يونيو سنة ١٧٩٤ (٢٢ بريريال) قانوناً كان بمثابة سيف مصلت على رقاب أعضاء المؤتمر . فقد حرم أولئك المشرعين من حصانتهم البرلمانية ، ونبذ آخر الضمانات الواهية لحماية الأشخاص المتهمين بجرائم سياسية . ولكن الشجاعة قد تدب حتى فى قلب الجبان إذا ما اضطر إلى الدفاع عن نفسه . وقد كان بين أعضاء المؤتمر رجال بزعامة بارا Barras وتاليان Tallien عزموا عزماً صادقاً على التخلص من هذا الطاغية ، ورأوا أن فى وسعهم تنفيذ عزمهم لو أنهم أحكموا تنظيم قواهم خارج المؤتمر . وقد أتيح لأولئك الرجال المقتدرين أن يحرزوا نصراً سريعاً سهلا بمحاربتهم اليعاقبة ، لا بالخطب الرائعة ، بل بعين أسلحتهم من القوة المنظمة . ففى ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤ (٩ ترميدور حسب التقويم الجمهورى) أحدقت بدار البلدية واقتحمتها عنوة قوةٌ جاء أكثرها من حى ليبلتييه Lepelletier ، وهو أحد الأحياء التى يقطنها ذوو اليسار فى المدينة . وهناك عثرت على روبسبيير ، وقد هشمت رصاصة فكه . فاقتيد وهو يقطر دماً إلى المقصلة ، كى يذوق نفس الكأس التى أذاقها لكثيرين من فرانسه .

٤ ـ حكومة الإدارة

عودة المعتدلين إلى الحكم

وأخيراً انقشع ذلك الكابوس المخيف الطويل ، وزالت فجأة حمى التذبيح الممقوتة التى كلفت باريس وحدها ألفين وستمائة ضحية . وبسقوط روبسبيير وانتصار چوردان Jourdan العظيم فى فليرى Fleurus (٢٥ يونيو سنة ١٧٩٤) قبض المعتدلون وأنصار دانتون على أزمة الحكم ، وألغوا الكومون ، وأغلقوا نادى اليعاقبة ، وعفوا عن الڤانديين ، وسمحوا للچيرنديين بالعودة إلى البلاد ، واختفت هواجس الشكوك الكريهة التى سممت حياة باريس السياسية .

واندفعت فرنسا على أثر تخلصها الفجائى من مخاوفها وهوانها صوب شمس الأمل وروح المرح ، وامتلأت الصدور خفة ومجوناً واستهتاراً بعد غيبة طويلة . وعقد الفرنسيون الخناصر على القضاء على التعصب الذميم ، والتخلص من ترهات الصحافة الظامئة للدماء وهذيانها . فلن تضرب المقصلة بعد اليوم أعناق الشجعان والصالحين الأبرياء .

غير أن فرنسا ظلت ثورية رغم قضائها على الإرهاب . فلم يمد أعضاء البرلمان الذين سفكوا دم الملك أيديهم لمصالحة فريق الرجعيين . فقد كان بالنسبة لهم أمر حياة أو موت أن يسلكوا نهجاً يضمن لهم البقاء قابضين على زمام الأمور ، مهما يكن نوع حكومة فرنسا المستقبلة .

فأضحى الشاغلَ الرئيسى لأعضاء المؤتمر ابتداعُ القالب الذى تُشكَّل فيه تلك الحكومة . وقد ابتدع كوندرسيه Condorcet خير المفكرين الجيرنديين دستوراً يحوى ـ كالدستور الألمانى سنة ١٩١٨ ـ أحدث وأدق أصول الفلسفة الديمقراطية . ولكنه كان دستوراً عسير التطبيق بشكل واضح ، فلم يوضع قط موضع التنفيذ . فإن المؤتمر الوطنى كان يبغى دستوراً يقلل من الديمقراطية ، ويزيد من تركيز السلطة ، ولكنه فى الوقت عينه يضمن اطراد سيطرة ذلك العنصر

الثورى المعتدل الذى انتصر فى ٩ ترميدور (٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤).

اندحار الثوار اليعاقبة

وكان هنالك خطر هام يحول دون الوصول إلى حل لهذه المعضلة ، وهو أنه رغم إصابة ثوار باريس — الذين خُذلوا فى ترميدور — بضعف شديد نتيجة لحل الكومون ، فإنهم كانوا لا يزالون مسلحين شديدى البأس ، يملكون وسائل الانقلابات الثورية ، ويحذقون أساليبها . ففى اليوم الأول من مايو ، ثم فى اليوم الثانى من شهر يونيو سنة ١٧٩٥ ، هجموا على دار المؤتمر ، ولكنهم ردوا على أعقابهم فى كلتا المرتين . ثم اتُّخِذ أخيراً قرار لو أنه اتُّخِذ من قبل ، لربما كان أنقذ الملكية : وهو وضع الحرس الأهلى تحت إدارة لجنة من رجال الجيش .

إنشاء حكومة الإدارة

وقد وُجد حل للغز الدستورى ، بإنشاء هيئة اتخذت احتيالا صبغة دستورية ، وعمرت أربع سنين تحت اسم حكومة الإدارة . فإنه لما كانت إقامة دكتاتورية أمراً ليس فى المستطاع وقتئذ التفكير فيه والرضا به ، فقد وُضِعت السلطة التنفيذية فى يد هيئة مكونة من خمسة أشخاص يُنتَخبون لمدة خمسة أعوام . ورُئِى لاتقاء حكم الرعاع إنشاء مجلسين تشريعيين : مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة ، يختار أعضاؤهما بطريق انتخاب محدود النطاق . ولكى تُضمن مسئولية هذه الهيئات أمام الرأى العام ، نُصَّ على وجوب تغيير عضو من أعضاء السلطة التنفيذية الخمسة ، وثلث أعضاء السلطة التشريعية ، كل عام .

ولكن من وراء هذه الواجهة الجذابة للحرية المعتدلة ، كمنت هذه الحقيقة ، وهى أنه ليس فى مقدور حكومة من السفاحين أن تثق بالأمة . ولهذا صُحِب الدستور بأمر عال يقضى باختيار ثلثى أعضاء البرلمان الجديد من أعضاء المؤتمر الوطنى : هذا المؤتمر الذى كان قد اقترع على إعدام الملك والملكة .

فثار جميع المعتدلين والملكيين فى باريس على هذا التدخل العنيف فى حرية الانتخاب . فقد رأوا أنهم تخلصوا ، من حسن الحظ ، من براثن

الإرهاب ، فأرادوا الآن أن يتخلصوا نهائياً من السياسيين الذين جعل جبنُهم وتطرُفهم الإرهابَ ممكناً . فنظَّمت أحياء باريس الممثِّلة للثروة والجاه والآراء المحافظة حركة ترمى إلى القضاء على تلك الهيئة السفاحة . وقيل إنه حُشِد فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٥ ستة وعشرون ألفاً للقيام بالهجوم .

وكان أعضاء حكومة الإدارة الجديدة هيئة مختلطة ، يربطهم بعضهم ببعض تضامنهم المشترك فى الائتمار على قتل الملك . ولكنهم فيما عدا ذلك ، اختيروا عمداً من فرق مختلفة من معسكر الثورة . فهنالك رويبل Rewbell ، وهو محام يعقوبى صلب الرأى قدم من الألزاس ، وكارنو وليتورنيه Letourneur وهما مهندسان ، وليپيه Lépeux وهو جيرندى خيالى ، وبارا وهو أقل الأعضاء الخمسة أهلا للاحترام . وكان وحده من بينهم مهيأ بالفطرة للعمل السياسى . ففى نقطتين دقيقتين من نقط التحول التاريخية ، دلّ هذا الرجل السوقى المرائى المختلس المستبيح على أنه رجل الساعة . ففى حادث ترميدور كان هو الذى أسقط روبسبيير ، وفى حادث فاندمير Vendemiaire (أكتوبر سنة ١٧٩٥) اكتشف نابليون بونابرت .

ظهور نابليون

فقد اتفق أن هذا القائد القرشقى الشاب الذى كان من قواد المدفعية ، والذى مَيَّز نفسه فى خريف عام ١٧٩٣ فى حصار طولون ، كان فى باريس خلواً من العمل فى تلك الأيام المقلقة من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٥ — تلك الأيام التى أخذ الناس يسمعون فى أثنائها من جديد فى شوارع باريس ، وفى قبول وترحيب ، هتافات « يحيا الملك » ، والتى فيها أخذ آخر المجالس التشريعية للثورة ينتفض فرقاً من همهمة عاصفة رجعية . فتعرّف الضابط فى أثنائها ببارا أقوى أعضاء حكومة الإدارة الذى حزر جدارته ومواهبه . فعهد إليه بالدفاع عن دار المؤتمر الوطنى المهدّدة . وقد دلت خطط الجنرال بونابرت الحربية على أنه أستاذ فى فنه . فقد أنفذ ميرا Murat أحد ضباطه يطوى الأرض بجواده للحصول على البنادق اللازمة ، وبذلك ظفر بميزة عاجلة حاسمة على قوة كثيرة الضجيج والصخب ، ولكنها قوة عزلاء من المدفعية .

فكفت طلقات قليلة محكمة التصويب لإخلاء الشوارع من المتظاهرين وإنقاذ الحكومة . وأتاحت هذه الفرصة لهذا المنقذ دعوى لا تُرد لترقيته العسكرية . فجُعل على الفور قائداً للقوات الداخلية . وفى العام التالى حظى — بوساطة وعون بارا مرة ثانية — بيد چوزفين بوهارنيه Josephine Beauharnais ، وقيادة الحملة الإيطالية ذات الأهمية البالغة والأثر البعيد .

الفصل الرابع

ظهور بونابرت

فرنسا وأوربا . جاذبية إيطاليا . انتصارات بونابرت الإيطالية . كمبوفورميو . نتائج الحملة بالنسبة لإيطاليا . انقلاب فركتيدور . مصر . التحالف الدولى الثانى . سوريا . أثر الحملة السورية فى الرأى العام الفرنسى . سييز . انقلاب بريمير . بقاء المساواة الاجتماعية . القنصلية . مارنجو ولينفيل . موقف بريطانيا . إرلندا . الحصار البحرى وحقوق المحايدين . صلح أميان .

١ ـ الحملة الإيطالية

فرنسا وأوربا

ما وافى عام ١٧٩٦ حتى كان دبلوماسيو حكومة الإدارة وقوادها قد حصلوا لفرنسا على مركز بالغ التفوق فى غربى أوربا . فقد اكتسح بشجرو Pichegru هولندا التى حُوِّلت إلى جمهورية باتافية تابعة ، وضُمَّت بلجيكا وجميع الأراضى الألمانية حتى حدود الرين للجمهورية الفرنسية كأجزاء مكمِّلة لها ، وكانت ساڤوى فرنسية ، وعسكر جيش فرنسى فى الرفييرا الإيطالية ، وانسحبت بروسيا وأسبانيا وتسكانيا من الحرب . فخلا المسرح الآن للصراع بين الثورة وتينك الدولتين اللتين كانتا تمثلان ، فى أقوى وأعند شكل ، الروحَ المضادة للثورة : وهما بريطانيا البروتستانتية والنمسا الكاثوليكية .

موقف بريطانيا

أما بريطانيا فقد وقفت تحمى ذمارها الأمواج والرياح ، وتجعلها أمنع من عقاب الجو . فقد شملتها الطبيعة بكنفها ، فأرسلت العواصف والأنواء لتحطيم حملة هوش Hoche إلى إرلندا ، وخيَّبت كل تدبير من التدابير الصغيرة التى اتُّخذت لمساعدة القُوَى المتمردة الخفية التى كان يُظن وجودها

فى الديمقراطية البريطانية . فلم يكن لأى هجوم مباشر على تلك الجزيرة العنيدة الصلبة العود سوى فرصة ضئيلة للنجاح لا تشجع دولة نهابة تبحث عن أسلاب عاجلة على الإقدام عليه . فإن هجوماً كهذا سيحدث بالضرورة عن طريق البحر . ولذا كان نجاحه أمراً بعيد الاحتمال ، وخاصة بعد أن أفسدت الثورة الأسطول الملكى القديم ، وذهبت بروحه المعنوية . فكانت تكاليف الهجوم باهظة ، وأرباحه غير مأمونة .

موقف النمسا

أما موقف النمسا فكان مخالفاً لذلك كل الاختلاف . فإن لؤلؤة من لآلئ التاج النمساوى ، تافهة القيمة فى نظر صاحبها الذى حاول أكثر من مرة أن يستبدل بها أرضاً بافارية (لبعد بلجيكا عن ڤينا) كانت قد انتُزعت منه . فقد امتلكت فرنسا بلجيكا ، ونوت أن تبقى فى يدها هذا الإقليم الغنى بمناجم فحمه ، ومدنه الصناعية ، والمجاور لتخومها ، والقريب من عاصمتها . ولكن ما كان أغنى فى نظرها ، وأشد سحراً وجاذبية من بلجيكا ، هو ولايات شبه الجزيرة الإيطالية الواسعة ، هذه الولايات التى كان بعضها معترفاً بحكم النمسا المباشر لها ، والبعض الآخر قانعاً بالسير فى ركابها . فإن إقليم ميلان بمجموعة مدنه اللمباردية المزدهرة كان داخلا فى نطاق الإمبراطورية النمساوية ، وكانت تسكانيا دوقية من دوقيات بيت هابسبرج ، وكانت نابلى يحكمها ملك فاسد منحل الأخلاق من سلالة بيت بوربون الأسبانى ، يسير وفق إرشادات زوجه الهابسبرجية : مارى كارولين ، وتوجيهها القوى . فلهذا السبب ، ولأغراض النهب والدعاية ، رأت فرنسا الثورية أنه يمكن أن تضاف تلك المملكة إلى قائمة أعدائها .

جاذبية إيطاليا

ففى إيطاليا إذن كان كل شىء : تقاليدها القديمة ، وجمال مناخها ، وتعدد محصولاتها ووفرتها ، وثراء مدنها ، وكنوز متاحفها وأروقتها الرائعة ، وضعف النمسا الذائع ، وتوقان أهل إيطاليا المزعوم إلى خلع النير النمساوى — كانت كل هذه العوامل تتآمر معاً على استهواء الجمهورية الفرنسية إلى الإقدام على هذه المغامرة الحربية .

فرنسا والفاتيكان

وكان هناك إغراء آخر على إنفاذ حملة إلى إيطاليا استهوى إليه كثيراً من أعضاء الحكومة الفرنسية المعادية للإكليروس ، وهو أن البابا جعل علاقته معها غاية فى الصعوبة والتوتر . فقد أبى أن يقر الدستور المدنى لرجال الدين ، وشجع القساوسة الذين لم يحلفوا يمين الطاعة للدستور على المقاومة . وكان الڤاتيكان بين جميع القوى المضادة للثورة أشدها تحاملا عليها وأذى لها . فقد كانت يده الخفية تلعب ضدها فى كل صقع وناد : بين المهاجرين فى كبلنتز ، وبين العصاة فى ڤاندى وبريتانيا ، وفى كل أبروشية فى فرنسا حافظت على الولاء لقسيسها الذى لم يحلف اليمين بالولاء للدستور ، حتى إن سفيراً من سفراء فرنسا اغتيل فى روما . ولهذا كان إنزال العقاب القاسى بهذا الحَبر المتعِب ، وضم ولاياته المتأخرة السيئة الحكم ، من بين المشروعات المحبَّبة إلى أعضاء حكومة الإدارة عندما كانوا يجتمعون فى قبعاتهم المزدانة بالريش ، وملابسهم الرسمية الفاخرة ، فى أبهاء قصر لكسمبورج المذهبة ، لتبادل الرأى فى تجديد أوربا .

روح الجيش الفرنسى

أما الجيوش الفرنسية التى حَوَتْ زهرة الأمة ، فقد بقيت الأوهام والأخيلة تسيطر على عقولها ، تلك الأوهام التى زالت منذ طويل من عقول حديثى النعمة والشهرة وطلاب الكسب الفاحش الذين تألف منهم يومئذ المجتمع السياسى فى باريس . فما فتىء الجنود الشبان الذين تبعوا بونابرت إلى ما وراء جبال الألب يؤمنون بأن لفرنسا رسالة ، هى تعميم الحرية فى أرجاء العالم . فكانوا ينظرون إلى الإيطاليين نظرة إشفاق وعطف ، كشعب حُرِم حرماناً تاماً من التقدم والرقى ، ولكنه شعب قادر بإرشاد فرنسا وحمايتها على تعلم طرق الحياة الجديدة التى هى رائدتها .

وقد عبر هذا القائد الشاب عن تلك الأفكار — التى ربما أحس هو أيضاً بعض الشىء فى نفسه بفتنتها — فى أحد منشوراته الأولى إلى الشعب الإيطالى ، قال : أيها الشعب الإيطالى ، لقد جاء الجيش الفرنسى ليحطم أغلالكم . وإن الأمة الفرنسية لصديقة الشعوب كافة . فقابلونا فى ثقة ، تكن

أملاككم ودينكم وتقاليدكم محل التبجيل منا . فإننا نشن الحرب كخصوم شرفاء . وليس نزاعنا ونضالنا إلا مع الطغاة المستبدين الذين يستعبدونكم .

انتصارات نابليون

وكان من بين الأقطار المؤيدة لقضية الملكية ، مملكة سردينيا الصغيرة التى حملت معها — من غير أن يعرف أحد فى ذلك الحين — أمنية توحيد إيطاليا . فأرغمها بونابرت فى الشهر الأول من حملته المدهشة التى أذاعت عبقريته الحربية فى الآفاق — أرغمها على توقيع هدنة شيراسكو Cherasco ، ثم إلى إبرام صلح معه لم تبلغ تلك المملكة فى يوم من الأيام من القوة بحيث تحاول جدياً نقضه .

والحق أن الحذق الذى أظهره نابليون بضربه الحليفتين — النمسا وسردينيا — فى نقطة اتصالها ، وبذلك فصلهما الواحدة عن الأخرى ، ثم بقذفه بالسردينيين أمامه إلى الشمال الغربى ، وفى حرب جبلية خاطفة دلت على مهارة فائقة ، حملهم على الاعتراف بالهزيمة — نقول إن هذا الحذق لمعترف به على الدوام بأنه أسمى وأروع ما وصل إليه الفن الحربى .

ثم وجه نابليون بعد ذلك اهتمامه إلى العمل الأضخم والأشق ، وهو كسر النمساويين . فكللت خططه بذات النجاح الرائع ، الأمر الذى أثار دهشة أوربا جمعاء . فإن الزحف إلى لودى Lodi ملّكه ولاية ميلان . ونتج عن انتصاره فى ريڤولى Rivoli — وهو آخر حلقة من حلقات فعال باهرة ضد أمداد العدو — تسليم مانتوا Mantua . ولم يكن الأرشيدوق شارل النمساوى بأكثر توفيقاً فى الصمود أمامه من بوليبه Beaulieu ، أو ڤورمسر Wurmsr ، أو كوسدانوڤتش Quosdanovich أو الفنتزى Alvintzy . فبعد أن فشلت خطط شارل على ضفة نهر التاليامنتو Tagliamento ، واضطر إلى الارتداد إلى الجبال ، لم يسعه سوى الترحيب بفتح مفاوضات الصلح التمهيدية التى وقع شروطها فى ليوبن Leoben فى ١٨ إبريل سنة ١٧٩٧ .

وفى خلال شهور الصيف عاش القائد الشاب عيشة أرباب التيجان ؛ وظهر بمظهرهم فى قصر مُمْبِللّو قرب ميلان . ولم تبت أطماعه الآن خافية . فقد قال مرة وهو يتمشى فى حدائق القصر : « هل تظننى أننى نلت ما نلت

من نصر فى إيطاليا لأعظِّم من شأن المحامين ورجال حكومة الإدارة وأرفع من قدرهم » ؟ .

فإنه من غير أن يرجع إلى حكومة باريس أخذ يشن الحرب ، ويبرم المعاهدات ، ويخلق الدول والولايات . ولم يتورع بعد كسره الجيش البابوى فى أنكونا Ancona عن ابتزاز المال والأسلاب من الفاتيكان ، وإجباره على النزول عن أڤينيون Avignon والڤينيسان the Venaissin فى فرنسا ، وبعض الولايات البابوية the Legations . وُحوِّلت لمبارديا Lombardy إلى جمهورية الألب الشمالية Cisalpine ، وجنوه إلى جمهورية ليجوريا Liguria ، ومُنح لكل منهما دستور على غرار الدستور الفرنسى . وحُصِّنتا كقلاع أمامية للجمهورية الفرنسية .

وكان نابليون أحكم من سادته الباريسيين حين رفض أن يورط نفسه فى حملة على مملكة نابلى ، مدركاً أن الصلح لا يُكسب فيها ، بل فى شمال إيطاليا ، وبخاصة فى البندقية . ففى معاهدة كمبوفورميو (أكتوبر سنة ١٧٩٧) دعا هذا التلميذ لفردريك الأكبر النمسا التى كانت قد التهمت مرتين بولندا إلى أن تطرح جانباً كرامتها الألمانية ، وتتنزل عن البلجيك وحدود الرين ولومبارديا واستقلال الريخ الألمانى . وفى مقابل ذلك تنال جزءاً من جمهورية البندقية الذائعة الصيت ، وإنما الجمهورية العاجزة المكسورة الجناح . ورضيت الحكومة النمساوية فى ذلة وخزى أن توافق على هذه الصفقة الملوَّثة .

وبذلك تُوِّجت حملة نابليون الإيطالية الأولى بمعاهدة تقوم على تقسيم دولة مستقلة بريئة دون مراعاة للاعتبارات الأدبية . فهى لهذا لا تثير من الحماس إلا قليلا فى نفس رجل الأخلاق . ولكنا إذا أبعدنا الأخلاق جانباً ، فإن المعاهدة كانت انتصاراً فرنسياً باهراً . ففيها أقرَّت أولى الدول المحافظة فتوحات الجمهورية العجيبة ، ووافق الحامى العلمانى الأكبر للمذهب الكاثوليكى على عمل سافل من أعمال النهب والسلب ، وضحى الزعيم الرسمى للريخ الألمانى بحقوق دولته ، ووافق على دعوة مؤتمر يعقد فى راشتاد Rastadt لكى ينفذ التعديلات

الإقليمية المترتبة على امتداد الحدود الفرنسية إلى الرين . فكان نصر بونابرت كاملا ، إذ جعل فرنسا سيدة إيطاليا .

وفى تاريخ الأمة الإيطالية تُحدِّد حملة بونابرت هذه بداية تلك الحركة من إيقاظ الشعور القومى الإيطالى التى تعرف « بالبعث » Risorgimento . ولم يكن بونابرت رحيما متلطفاً فى معاملة أبناء وطنه الإيطاليين ، فقد نهب متاحفهم وأروقة صورهم ، وانتزع من جيوبهم آخر فلس بضرائبه الفاحشة ومطالبه العسكرية ، وقمع فى قسوة بالغة أقل مقاومة لسلطانه ، وأزهق الحرية القديمة التاريخية التى كانت تتمتع بها البندقية ، ولكنه كان فى سويداء قلبه إيطاليًّا صُبَّ فى قالب إمبراطورى ، مستعيداً بحروبه وانتصاراته أمجاد روما القديمة .

ومع قسوته ، فإنه بدا فى صورة المحرر الحامل معه نسيم حرية جديدة وآمانى واسعة الآفاق لبعث قوة إيطاليا ومجدها . ولذا غُفِر الشئ الكثير لهذا القائد الشاب الذى حطم النير النمساوى الممسك بخناق الأمة الإيطالية ، والذى دعا أبناءها إلى إقامة دولة عصرية وإدارة نظمها . فلهج الكتاب والشعراء الإيطاليون بذكره ، وتغنوا بمدحه ، وتزاحم أفضل رجال لمبارديا على بلاطه . وعملت جمهورية الألب الشمالية سنين عديدة ، رغم ارتكازها على الحراب الفرنسية ، كمعهد للعلوم السياسية ، فى أرض كان الحكم الأجنبى قد أمات فيها تقاليد الخدمة العامة وشعور الواجب القومى .

٢ ـ الحملة المصرية

فرنسا وانجلترا

وبانسحاب بروسيا والنمسا من الحرب ، وقفت فرنسا وبريطانيا وجهاً لوجه . وبرزت ـ تفرق بينهما ـ المشكلتان اللتان تغلغلتا فى صميم السياسة وهما : حدود الرين التى لم تكن تسلم بها بريطانيا لفرنسا ، والمَلَكية التى

لم تكن ترضى بها جيوش فرنسا الظافرة . وكان فى فرنسا إذ ذاك رجال معتدلون يقبلون تجربة النظم القائمة على الحرية ، وقيام ملكية دستورية ، وعقد صلح مع إنجلترا . ولكن أمثال هؤلاء الرجال عندما انتُخِب منهم عدد ليس بالقليل فى المجالس التشريعية ، عُدَّ بقاؤهم على قيد الحياة بواسطة بارا فى باريس ، وبونابرت صديقه فى إيطاليا ، أمراً باعثاً على أشد التخوف . وقد عبر بصراحة عن هذا الإحساس أوجيرو Augereau رسول بونابرت ، إذ قال : « لقد جئت إلى هنا لأقتل الملكيين » ، وذلك عندما أتى بجنوده إلى باريس استعداداً لانقـلاب فركتيدور Fructidor (٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧) .

انقلاب فركتيدور

فقد قُبِض يومئذ على النواب المشكوك فيهم فى جنح الليل ، وأرسِلوا دون محاكمة إلى كايين Cayenne ، وأخذت لجان عسكرية فى الأقاليم تصدر الأحكام العديدة بالإعدام والنفى ، وأبطِلت الانتخابات فى تسع وأربعين مديرية . وكان من بين ضحايا هذا العنف نفر من أنبل رجال فرنسا وأسماهم قدراً : مثل بشجرو فاتح هولندا ، وبرتلمى Barthelemy الدبلوماسى الذى وقع معاهدة الصلح مع بروسيا ، وكارنو منظم النصر . غير أن بارا رجل الإرهاب سابقاً غدا الآن آمنا مطمئناً فى مركزه ، هو وحكومة يعقوبية لا أهداف لها ، بالغة الضعف وسوء الحكم ، حيث الإعياء والتفريط وحدهما هما اللذان أبقياها فى دست الحكم ، إلى أن جاء الوقت الذى أصبح فيه بونابرت مستعداً للقبض بنفسه على أزمة الحكم .

مواصلة سياسة الفتح

وفى الوقت الذى كان فيه الألمان المثقفون يستمتعون بمطالعة رواية جيته Wilhelm Meister ، أو خطة جديدة لسلام أبدى نشرها عمانوئيل كانت Immanuel Kant ، كان اليعقوبيون الفرنسيون — بعد أن تخلصوا من المعارضة الملكية — قد ظفروا بفترة أخرى من البقاء ، وواصلوا سياسة النهب والفتح الوفيرة الأرباح . وقد استغلوا فرصتهم أقصى استغلال . فلقد أثيرت (١٧٩٧ — ١٧٩٨) الثورات فى سويسرة وروما ونابولى ،

وأضيفت الجمهوريات الهلفتية (التى أقيمت فى سويسرة) والرومانية (فى الولايات البابوية) والبرثينوبية (فى مملكة نابولى) إلى قائمة الممتلكات الفرنسية . ولم يُقِم حكام فرنسا المعادون للاكليروس سوى وزن ضئيل لاعتبارات بونابرت السياسية التى انطوت على إدراكه ما عليه الفلاح اللاتينى من تدين ، ورغبته فى استخدامه فى حروبه . فعاملوا بابا روما باحترام أكثر قليلا مما لاقاه ملك فرنسا على أيديهم ، إذ قُبِض عليه ونُقِل عبر الحدود الفرنسية إلى ڤالنس Valcnce .

الأسطول الإنجليزى

ويشتمل عام انتصارات بونابرت فى إيطاليا على صفحة من أقتم صفحات التاريخ البريطانى . ففى إبريل ومايو (سنة ١٧٩٧) شَلَّتَ الأسطولَ الإنجليزى الذى كان كل شئ يتوقف عليه ، تمرداتٌ خطيرةٌ قامت فى أثناء رسوه فى اسبتهد Spithead والنور the Nore . وقد أمكن التغلب على هذه الفتنة باتباع سياسة الحزم المقرون بالتبصر ، تلك السياسة التى كثيراً ما خففت فى الأحداث الإنجليزية من حدة العواقب الوخيمة المترتبة على التفريط والإهمال الطويلى الأمد . فأزيلت أسباب التذمر الحقة التى كانت موضع شكوى البحارة ، وشُنِق زعماء التمرد ، وأعيد النظام .

وتلا ذلك رد فعل سريع مجيد ، فقد أحرز الأسطول انتصارى كمبردون Camperdown وأبى قير Battle of the Nile : ذينك النصرين اللذين غيرا تاريخ أوربا . فى المعركة الأولى محا دنكان Duncan الأسطول الهولندى من الوجود (أكتوبر سنة ١٧٩٧) ، وفى الثانية (أغسطس ١٧٩٨) دمر نلسن بضربة سريعة فى خليج أبى قير ذلك الأسطول الفرنسى الذى حمل بونابرت إلى مصر . فحصل بذلك لبريطانيا على تفوق بحرى فى البحر الأبيض لم تفقده يوماً من الأيام من يومئذ .

بونابرت فى مصر

ذلك أن حكومة الإدارة دعت نابليون إلى غزو إنجلترا ، ولكنه آثر بعد إنعام النظر والفحص الدقيق أن يهاجم عدوه فى تلك النقطة من نقط نفوذه العالمى التى أمل أن انتصار فرنسا فيها قد يفضى إلى آثار سيئة جداً

من إضعاف روح الثقة والاستقرار فى إنجلترا . وأخذت تطوف مشروعات هائلة خيالية فى عقل كانت قد ألهبته شهرة الاسكندر ، واضطرمت فيه الرغبة الشديدة إلى التشبه به واحتذاء حذوه . وقد تراءى له أنه ، وهو فى مصر ، يستطيع أن يشيد إمبراطورية شرقية ، فقد يزحف إلى الهند أو إلى القسطنطينية ، فيجلب على جزيرة أصحاب الحوانيت الفقر والندم ، بتدمير تجارتها . وكان يعتمد فى تنفيذ مشروعه هذا على مساعدة تِبُّو صاحب[1] Tippo Sahip وعشائر المهراتا الحربية . وخاطب جيشه غداة رحيله من طولون قائلا : إنكم تؤلفون جناحا من أجنحة الجيش الذى نعده لحرب إنجلترا .

وترجع نشأة مصر الحديثة بطلائها البراق السطحى من الحضارة الفرنسية إلى معركة الأهرام (أو معركة إنبابه) التى قضى فيها بونابرت على سلطة المماليك الهمج . وقد أعادت حملته الى أحضان الحضارة الأوربية قطراً كان قد مكث بعيداً منها أزمنة طويلة ، كما كشفت للغرب عن كنوزه الأثرية . ومن وادى النيل ، ومن أقطار بحر إيجة ، استمرت « أوديسية » هذا الأجنبى الفذ تبعث آمال الحرية فى النفوس ، وتقدم مثالا يُحتذى للحكم الممدن المنظم .

فقد كان تأثير نابليون قوياً فى اليونان ، ومنها نفذ إلى ألبانيا — هذه البلاد التى خرج منها بطل مغوار — ما زال مسجده قائماً فى قلعة القاهرة — خرج إلى وادى النيل ليقيم على ضفافه أسس دولة عصرية . ومن بين مقلدى نابليون ، لم يصل أحدهم من بسطة النفوذ وقوة السلطان إلى مثل ما وصل إليه محمد على : ذلك الرجل الذى خرج من صلبه باشاوات وخديويون وملوك ، والذى أقام بنشاطه المضطرم ، وروحه المسيطرة ، من أفكار نابليون صرح مصر الحديثة التى نعرفها .

وقد أدت أنباء انتصار نلسن البحرى العظيم إلى قيام التحالف الدولى الثانى

---

(١) تبو صاحب (١٧٥٣ — ١٧٩٩) هو ابن حيدر على ، وسلطان ولاية ميسور . تعلم الفنون الحربية على أيدى ضباط فرنسيين كانوا فى خدمة والده ، وحارب الإنجليز مراراً لغزوهم بلاده . وقتل فى مايو سنة ١٧٩٩ أثناء رده هجوماً شنوه عليه .

التحالف الدولى الثانى

(نوفمبر سنة ١٧٩٨) . فمن نابلى حيث قابلت ملكتها وصديقتها إماهاملتون [١] ظهور البطل المنصور بأقصى درجات الفرح والسرور ، سرت فى سرعة إرادة قوية لخوض غمار الحرب ، من فينا إلى بطرسبرج والقسطنطينية ، تلك الإرادة التى وضعتها سياسة پت الأصغر الرشيدة ، والإعانات المالية البريطانية ، فى شكل مشروع كبير لردفرنسا إلى ماوراء حدودها القديمة ، وقلب حكومتها اليعقوبية .

انتصارات الحلفاء

وكانت انتصارات الحلفاء الأولى مثيرة للدهشة . فنى حملة صيفية قصيرة (١٧٩٩) أضاعت الجمهورية الفرنسية جميع ما كان نابليون قد أحرزه فى ايطاليا ، وجميع ما كانت حكومة الادارة أضافته الى مكاسبها . فقد بعث سوڤوروف Suvoroff ، ذلك القائد الفلاح التترى الطاعن فى السن ، القصير القامة ، الخارج من أدغال روسيا التى تسودها الرياح العاصفة — هذا القائد الذى لمع ضوؤه كشهب ، والذى كان يلتهب همة ونشاطاً — نفخ هذا القائد فى جنده الروس روحا من روحه التى لا تُقهر ولا تخور . فكسر مورو Moreau فى كاسانو Casano (١٥ أغسطس سنة ١٧٩٩) ، وساعد فى اصطلام جيش چوبير Joubert فى نوڤى Novi ، وأزال الجمهوريات الايطالية الفرنسية ، كما يزال بناء من الورق .

انسحاب روسيا

ولكن هذا الجندى العبقرى البدوى لم يستطع أن يحتمل ادعاءات حلفائه المتحذلقين المتغطرسين ، فقد كان التناقض تاماً بين اندفاع سوڤوروف العنيف الوحشى ، وبين أساليب الحرب النمساوية التى تتبع الأنظمة التقليدية المتئدة البطيئة . ولذا كان من حسن طالع فرنسا أن نفض القيصر يده من التحالف قبل أن يمثّل الدور الثانى من المسرحية الإيطالية . فقد عاد سوڤوروف قافلا إلى وطنه ، وفى الوقت عينه أنقذت الانتصارات التى نالها مسينا Massena فى زيورخ ، وبرين Brune فى هولندا — أنقذت فرنسا من الهزيمة الماحقة .

حملة سوريا

وبدخول تركيا الحرب تضاءلت أحلام نابليون فى إنفاذ حملة إلى الهند ، واستبدل بها الهدف الأصغر : وهو إرسال حملة إلى سوريا . فسار على رأس قوة من ثلاثة عشر ألفاً من المقاتلين المنتقين ، ووصل فى مارس سنة ١٧٩٩

---

(١) قرينة سفير بريطانيا فى بلاط نابلى ، ومحظية نلسن فيما بعد .

إلى أسوار عكا ، حيث أوقف زحفه رجلان قويا الشكيمة ثابتا العزم : سدنى سمث Sidney Smith وفيليبو Phélippeaux ، وهو زميل نابليون القديم فى الكلية الحربية . وكانت هذه الحملة نعمة له فى طى نقمة . فالذى كان يُخشى عليه من ورائها لم تكن حالة الجنود الترك التى كانت منحطة إذ ذاك ، بل تلك المساحات الواسعة الأرجاء الخالية من الماء التى قد ينجح جيش تركى مُدْبِر أمامه ، موضوع تحت قيادة حاذقة ، فى إغوائه على مطاردته فيها.

ولم يتمكن نابليون من انتشال جيشه من سوريا إلا بعد أن تكبد خسائر فادحة . أما أنه كان فى استطاعته أن يقود هذا الجيش ، فوق مرتفعات الأناضول ، من غير حلول نكبة به ، إذا كان ذلك هو قصده ، فهو أمر محفوف بأشد الريب والشكوك . ولذا فقد أنجاه ذلك الفشل الموفق المخزى معا من هذه الغوايات التى حملت فى طياتها الأخطار .

ولقد أتاحت له الحرب التركية فرصة نادرة غير مرتقبة كانت ذات أثر فى مجرى حياته . ذلك أنه إذا عُدَّ غزو مصر عملا فروسيا أخاذاً ، فإن السحر الذى صحب الحملة السورية كان أعظم وقعاً وأكثر خيالا وروعة . فإن الفرنسيين فى أرض الوطن ، مهما كان مبلغ سخريتهم بالبابا ، واستهزائهم بالقساوسة ، كانوا يطالعون فى نشوة وفخار بلاغات القائد الفرنسى الشاب الذى استولى على فلسطين ، واتخذ مركزاً له دير الناصرة ، وقرأ على ضباطه التوراة تحت سماء سوريا : فى تلك المواطن التى قدسها المسيح وحواريوه ، ومجدتها فى عيون الفرنسيين فعال الحرب الصليبية الأولى ومغامراتها . فإن استرجاع فلسطين من الأتراك — هذا الحادث الذى طرب له حتى رئيس وزارة بريطانية قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى — استُقبل نبؤه استقبالا حافلا من مواطنى القديس لويس الخاضعين لنير حكومة الإدارة الصارم الخسيس .

فكان اسم بونابرت على كل لسان وشفة . وقبل أن يعود إلى وطنه ، تاركاً جنده يبذلون أقصى ما فى طوقهم للتخلص من المأزق الذى ألفوا أنفسهم فيه ، كان قد غدا معبود الأمة وسيدها غير المتوج . وعملت أنباء انتصار باهر ناله على الأتراك فى أبى قير (٢٥ يوليو — ٢ أغسطس سنة ١٧٩٩) على التخفيف من وقع هذه الحقيقة القاسية وهى : أن جيشاً فاخراً قد بُدِّد عبثاً فى حملة عقيمة .

٣ ـ إنشاء القنصلية

فرنسا تصبو إلى السلام

ولم تكن فرنسا تصبو بعد عشر سنين من الحرب والثورة إلى أكثر من رجوع السلم إلى نصابه ، واقامة حكومة منظمة . فقد سئمت البلاد الفوضى والخلل ، وضاقت ذرعا بانتشار اللصوصية والسلب وسوء حال الطرق ، ولم تعد تطيق حالة المدارس من غير معلمين ، والمستشفيات من غير ممرضات ، ولا تلك الفتنة الملكية المحتدمة الأوار التى شَلّت حياة أربع عشرة مديرية من مديرياتها . ولهذا كان هناك بين السواس الباريسيين رجال رأوا أنه لن يحرر فرنسا من تناحر طوائفها ومللها ، وينشىء عهد حرية منظمة ، سوى مهند جندى .

سييز

وكان من بين هؤلاء الرجال شخصية سياسية عجيبة ، كانت قد استُدعيت فى أسوأ أشهر عام ١٧٩٩ من السفارة الفرنسية فى برلين ، وكان اسمه سييز Siéyes ، وعُيّن عضواً فى حكومة الإدارة . ولم يكن أحد أكثر اهتماماً وأشد عناية بتقرير شكل الحكومة الثورية — ذلك الشكل الذى صح العزم الآن على تعديله — من ذلك الكاهن السابق ، النير الذهن ، الواضح الفكر ، الذى كان بطل طبقة العامة ، وخطيب الجمعية الوطنية ، والمبتدع لنظام تقسيم فرنسا إلى مديريات ذات تخوم مصطنعة ، والضارب على يد الكنيسة ، والمستشار لحزب الجيرنديين . وإنها لحقيقة ذات مغزى عظيم أن مفكراً هذا ماضيه ، وذاك سلطانه ، نشأ فى دوائر الحكومة نفسها ، يقرر الآن ضرورة الاستنجاد بالجيش .

ولم يكن بونابرت — الذى كان قد نزل فى فريچى Fréjus فى ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩ عند أوبته من مصر — ليروم لتحقيق أطماعه الكبيرة ، حليفاً أوفر دهاء وأعظم حذقاً من هذا الحليف .

فى مساء أغبر من شهر نوفمبر مُثّل المنظر الأخير من مناظر رواية الثورة

الفرنسية ، فى حديقة سان كلو St Cloud (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) فقد نُقِل فى ذلك المساء إلى تلك الضاحية الباريسية مقر اجتماع مجلسى الخمسمائة والشيوخ ، بتقديم حجة زائفة ، هى أن مؤامرة يعقوبية تحاك ضدهما بباريس . ولكن سرعان ما اجتمع المجلسان حتى أحدق بالمكان رجال مسلحون . وفى أسلوب شائن معيب فرقوا شمل الأعضاء بأسنة سيوفهم . وكانت أخطر لحظة فى ذلك اليوم الحافل بالأخطار والمباغتات هى عندما بارح قاعة الاجتماع لوسيان بونابرت Lucien Bonaparte الرئيس الشاب لمجلس الخمسمائة ، وتحت الادعاء الباطل بأن الخناجر أشهرت فى وجه أخيه ، دعا باسم القانون الجنود الذين كانوا قد حُشدوا فى شرفة البناء ، وأمرهم بطرد الأعضاء من قاعة الاجتماع .

انقلاب بريمير

ولم تتحرك باريس إزاء استخدام طرق النصب والعنف هذه فى إخماد أنفاس الحرية البرلمانية ، ولم تسكب دمعة على تقويض حكومة الإدارة ، وإلغاء المجلسين التشريعيين . فقد كانت تلك الهيئات تتكلم فى رعونة ، وتحكم حكما سيئاً . وفى جميع ربوع فرنسا استبشر القوم خيراً بانقلاب بريمير هذا Coup d'etat du Brumaire وهللوا له كفجر عهد جديد . وبعد ذلك الانقلاب بأسابيع قليلة ، وافقت البلاد بأغلبية كبيرة من الأصوات على دستور جديد ، خول نابليون بوصفه القنصل الأول — من بين قناصل ثلاثة — سلطاناً مطلقاً على مصاير فرنسا خلال الأعوام العشرة التالية .

استبشار الفرنسيين

أما الجمهورية فقد ظلت باقية ، لا من حيث شكلها الخارجى فحسب . فقد كان نابليون وليد الثورة . ومثل كثيرين غيره من أذكياء الرجال ، مكنه ذلك الانقلاب الاجتماعى الهائل من أن يضع نفسه فى طليعة القابضين على زمام الأمور . أضف إلى ذلك أن عقله الناشئ كان قد تهذب بأدب الانتقاد والتمرد : ذلك الأدب الذى نادى بالثورة ، وأنذر باندلاع لهيبها . وكان فتحُ باب الترقية أمام الذكاء والمواهب مما يهواه قلبه ، ويحنو إليه فؤاده ، ذلك الأمر الذى هو روح الديمقراطية ، وعماد السلطة ، وسر الانتصارات الحربية التى جعلت أوربا بأسرها تنتفض فرقاً أمام الثورة .

فقد عقد نابليون عزمه على الاحتفاظ بهذا الجانب من ثمار الثورة على الأقل . فقد يفرِّط فى الحرية السياسية ، أما المساواة الاجتماعية فكانت فى نظره جليلة الشأن عظيمة القدر . والحق أن التفوق العجيب الذى أحرزته فرنسا على أوربا أيام القنصلية والامبراطورية لا تفسره عبقرية قائدها الفذة وحدها ، بل يرجع أيضاً إلى هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أنه بالقضاء على الامتيازات ، وُضِعت تحت إمرة نابليون خيرة قرائح أكثر أمم أوربا الغربية اكتظاظاً بالسكان ، وأعلاها مدنية . فقد كان تاليران يضطلع بأعمال وزارة الخارجية ، وفوشيه Fouché مديراً للشرطة . وقُلِّد رجال العلم مناصب الوزارة — الأمر الذى لم يُسمع بمثله فى هوايتهول (مقر الوزارات البريطانية بلندن) . وكان مجلس الدولة فى فرنسا أكفأ هيئة من الخبراء ذوى الدراية والكفاية رأتها أوربا إلى ذلك الحين . كما ترقى معظم مرشالات فرنسا الذين قادوا جيوشها المظفرة - ترقوا عن جدارة واستحقاق من صفوف أنفار الجند العاديين .

سياسة نابليون الداخلية

ولتهدئة فرنسا استخدم بونابرت جميع ما أوتى من مواهب نادرة : من حذق كبير ، ونظر ثاقب ، وعدم تحيز إلى هذا الجانب أو ذاك فى كل مسألة تـُعرَض عليه . فلم يكن يعقوبياً ولا ملكياً ، بل سما فوق نضال الأحزاب وتناحر الطوائف . فكان لذلك فى مقدوره أن يرى حاجات البلاد ككلّ . فإذ أدرك أن طبقة الفلاحين متمسكة بأهداب الدين ، أعاد حرية العبادة الكاثوليكية ، وأبرم اتفاقاً سنة ١٨٠٢ مع البابا Concordat — وهدّأ إقليم ڤاندى وصالحه ، وألغى قوانين اليعقوبيين الصارمة ، واستدعى جودان Gaudin — وهو مالى ضليع — لكى يضع لفرنسا نظاماً للضرائب المباشرة وغير المباشرة محددة تحديداً عادلا ، وفى الوقت نفسه لا تكون بالضرائب المرهقة . وقد كلل النجاح عمله . فهذه التغييرات ، مصحوبة بتأسيس بنك فرنسا سنة ١٨٠٠ ، بدأت عهداً من الاستقرار المالى لم تعهده البلاد منذ زمن بعيد .

وفى جميع هذه التدابير الضرورية التى قوبلت قبولا حسناً ، سار القنصل الأول وفق رغائب بنى جلدته . وقد سمح ، مدى من الزمن ،

للمعارضة الحرة بأن تُسمِع صوتها فى مجلس تشريعى صغير اسمه « التربيون » Tribunate ابتدعه دهاء سييز ، وألحقه بالدستور لكى يكون وسيلة للتنفيس عن الصدور وبث الشكوى . ومع ذلك فحتى هذه المنحة التافهة للحرية وُجِدت فيما بعد باهظة . فإنه لما أضحى هذا المجلس صعب المراس ، ألغِى سنة ١٨٠٧ ، دون أن يثير موته كلمة رثاء أو همسة احتجاج .

مواصلة الحرب ضد النمسا

أما جلب السلام إلى ربوع أوربا ، فكان عملا أكثر مشقة وأبعد منالا . فإنه رغم انسحاب بول قيصر روسيا من التحالف ، وغَدْوِه بعد قليل شديد الإعجاب ببونابرت ، ظلت النمسا وإنجلترا تنازلانه فى ميادين القتال ، وأغمضتا عيونهما عن رؤية تلويحات القنصل الأول بالصلح .

ولهذا السبب اختار نابليون النمسا هدفاً أول للهجوم باعتبارها أضعف العدوين مركزاً . وقد تمكن من إيقاع الهزيمة بها فى سهولة تبعث على الدهشة ، عند مقارنتها بحربها مع فرنسا فى العام السابق . فإن نصر مارنجو Marengo الفريد (١٤ يونيو سنة ١٨٠٠) الذى أثار فى فرنسا أشد ضروب التهليل والحماس ، والذى كان باكورة الانتصارات التى أحرزتها القنصلية ، كان كافياً لإضاعة التفوق الذى كسبه النمساويون لأنفسهم بمعونة روسيا لهم إبان غياب نابليون فى القطر المصرى .

ولم يُعِر أحد التفاته إلى أن نابليون قصَّر فى إنجاد مسينا فى جنوه ، أو أن رجعة ديزيه Desaix الفجائية من الغرب هى وحدها التى خلصت نابليون من هزيمة منكرة فى مارنجو ، بل كفى الباريسيين أنه كهانيبال ، عبر جبال الألب ، وقذف بنفسه فى جسارة وإقدام على مواصلات العدو ، وبخمسة عشر مدفعاً ، مقابل مئتين عند العدو ، ظفر بفوز ساحق . وفى الثالث من ديسمبر من العام نفسه ، اكتمل نصر فرنسا فى معركة هوهنلندن Hohenlinden . ولم يكن النمساويون بالموفقين فى قوادهم . فقد اختير مِلاس Melas الهرِم ليقف أمام نابليون ، واختير دوق فى الثامنة عشرة من عمره لينازل مورو Moreau .

وقد أدَّب هذان الانكساران إمبراطورر النمسا ، فطلب وقف القتال . وفى صلح لينفيل Luneville (٩ فبراير سنة ١٨٠١) وافق على خريطة لأوربا وصلت فيها الحدود الفرنسية الى ضفاف الرين ، واعترف بالجمهوريات الأربع التى أقامتها فرنسا : وهى جمهوريات باتافيا وهلفاتيا والألب الشمالية وليجوريا — هذه الجمهوريات التى أنشئت لأغراض الدعاية والتأثير فى الخارج.

أما وزارة پت فلم تقبل على الاطلاق الموافقة على تأليف أوربا على هذا المنوال .

٤ — موقف بريطانيا

الثورة فى نظر بريطانيا

حددت رسالة سياسية رائعة الأسلوب أخاذة العبارة نظرة بريطانيا العامة الى الثورة الفرنسية من أيامها الأولى ، ومما زاد فى روعة تلك الرسالة ، وعمق وقعها ، أن كاتبها كان إرلنديا ، وعضواً فى البرلمان منتمياً إلى الأحرار : وهو بيرك Burke . فقد بثَّت رسالته : « تأملات فى الثورة الفرنسية » Reflections on the French Revolution (نشرت فى نوفمبر سنة ١٧٩٠) — بثت رسالته سخطاً كبيراً على الثورة فى نفوس أعضاء حزب المحافظين صاحب الأغلبية البرلمانية وقتئذ ، والذى كان يدير دفة البلاد ، وهو سخط لم يقلل منه تسلم نابليون مقاليد السلطة .

وقد حزرت أقلية صغرى من الرجال المستقلين الثاقبى النظر مثل تشارلس فكس Charles Fox ما يتصف به القنصل الأول من المواهب المدنية الفائقة . أما كثرة الأمة البريطانية فلم تدرك شيئاً منها . بل رأت فى بونابرت وليد حركة كريهة إجرامية ، وآخر لص من لصوص الثورة ، وإن كان أشدهم بأساً وأعظمهم خطراً : لص سفاح أغرق أوربا فى لجة من الدماء ، وغول رهيب امتاز بقائمة طويلة من أعمال النهب والقتل فى إيطاليا ، وبفظائعه المزعومة التى اقترفها فى سوريا ،

فى ذبحه الأسرى الأتراك الذين سلموا له بعد تأمينه إياهم ، وفى سممه ذوى العاهات الذين كان إنقاذهم يجلب عليه التعب والنصب .

ومع ذلك فإنه مثل عجيب حقاً للحماقة الصلفة الحرقاء أنه عند ما أعرب القنصل الأول عام ١٧٩٩ إلى الحكومة البريطانية عن رغبته فى الاصطلاح معها، كان ردها عليه هو أن خير ضمان يمكن لفرنسا أن تقدمه عربوناً لإخلاصها ، هو أن تعيد إلى عرش فرنسا ملكها الشرعى . فإن رداً كهذا ، كما لاحظ تاليران على الفور ، كان فجا غير مقبول من ملك ألمانى الأصل جلس على عرش تبوأته من قبله أسرة ستيوارت .

انجلترا وإرلندا

ولقد انبعث فى بريطانيا ، فى غضون خلافها الطويل مع فرنسا ، قلق مطرد من جراء محن إرلندا وتذمرها ودسائسها . فما حدث إبان الثورة الأمريكية ، حدث مثله أيضاً فى إرلندا ، عند ماحركت أفكار الثورة الفرنسية ومبادئها نفوس البروتستانت المتعلمين فى شمال إرلندا أولا ، ثم طار شررها إلى الإرلنديين الكاثوليك المستكينين المهضومى الجانب الذين يقطنون الأنحاء الجنوبية والغربية من تلك الجزيرة . فقد كان الإرلنديون الكاثوليك الجهلة الذين سلموا قيادتهم إلى إكليروسهم أبعد جميع الأمم الأوربية قاطبة عن مبادئ الثورة الفرنسية الكافرة وبدعها الفاسدة . ولكن الناس عند ما يقال لهم إن حقوقهم مهضومة ، وعند ما يدركون أنهم محرومون من حقوق الانتخاب فى وطنهم ، وعند ما يُدعَون باسم الحرية والمساواة إلى خلع نير أجنبى مقيت ، والمساهمة بنصيبهم المشروع فى حكم بلادهم ، فإن مثل هذه الدعوة ستجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، مهما كانوا محافظين فى قرارة نفوسهم .

وهذا ما حدث فى إرلندا . فإن بروتستانت الشمال بزعامة وولف تون Wolfe Tone مؤسس « جماعة الإرلنديين المتحدين » The United Irishmen أهابوا ببنى وطنهم الكاثوليك بأن يطالبوا بحق الجلوس فى برلمان دبلن . وقدم الكاثوليك طلبهم ، ولكنه رُفِض . فثاروا وتمردوا ، غير أن ثورتهم قمعت. ولما رأى پت الأخطار والمتاعب العديدة المترتبة على وجود برلمانين خاضعين لتاج واحد ،

قام سنة ١٨٠٠ بتوحيد السلطة التشريعية فى بريطانيا وإرلندا . وبمقتضى صك الاتحاد خُصِّص مائة مقعد فى مجلس العموم واثنان وثلاثون فى مجلس اللوردات للإرلنديين البروتستانت . ومع أن هذا التعديل الدستورى قوبل بمقاومة عنيفة من جانب المتحمسين من الإرلنديين البروتستانت الذين كانوا يرومون إبقاء برلمان دبلن ، ومع أنه لم يصادَق عليه إلا بعد دفع رشًى عديدة لأعضائه ، فإنه دخل فى حيز التنفيذ .

غير أن إرلندا لم تسبب لبريطانيا متاعب خطيرة فى غضون حروب نابليون . ولكن المسألة الإرلندية التى كثيراً ما عصفت بالسواس البريطانيين — أنهت حياة وزارة پت الشهيرة . فقد رأى ذلك السياسى الخطير الحكيم من أول الأمر أنه من الضرورى لنجاح الاتحاد أن يباح انتخاب الإرلنديين الكاثوليك لعضوية البرلمان البريطانى . إذ كان يؤمن بأن تحرير الكاثوليك حق عادل ، وهو بجانب ذلك سياسة رشيدة ، وأمر مأمون العواقب . فإن الأصوات الكاثوليكية التى قد تكون مصدر خطر فى برلمان يعقد فى دبلن ، تصبح عديمة الضرر فى جو وستمنستر الذى تسوده البروتستانتية . غير أن الملك جورج الثالث ، احتراماً ليمين تتويجه ، رفض رفضاً باتاً تأييد تلك السياسة البعيدة النظر . وقد قدم پت استقالته بسبب ذلك فى مارس سنة ١٨٠١ . وكان عدم اهتمامه فيما بعد بالحث على اتباع سياسته ، كارثة من أكبر كوارث تاريخ إرلندا .

فكرة الحصار القارى

أما نابليون فى مغامرته التى كانت غايتها سحق إنجلترا ، فقد اهتدى إلى فكرة الحصار القارى . فإنه إذ بنى تفكيره على أن إنجلترا أمة تتألف من أصحاب حوانيت ، انتهى إلى هذا الرأى ، وهو أن مقتل قطر كهذا يوجد فى إقفال جميع الأسواق الأوربية فى وجه بضائعه . ولكى يحقق هذا الغرض وَجَّه أسبانيا إلى غزو البرتغال ، فى نفس الوقت الذى أرغمت فيه حامية فرنسية ملك نابلى التعس على إقرار سياسة تجارية ملائمة لأغراض فرنسا .

غير أنه كان واضحاً من بادىء الأمر ، أن حصارا يشمل البحر الأبيض المتوسط كان فى حد ذاته تافه القيمة . فإنه لو أمكن للبضائع الإنجليزية أن

تنفذ إلى هامبرج أو ليبك أو حتى إلى استكهلم أو بطرسبرج (ليننغراد) ، فإن الحصار ينهار ، ويجد نابليون حينئذ نفسه مجبراً على إعلان رفعه . إذ لن يفلح إذا هو نفذه تنفيذاً جزئياً . فإن سياسة الحصار ، إماأن تنجح بحذافيرها ، أو أنها لا تنجح على الإطلاق . وكانت الحقيقة الهائلة الجبارة التى جرَّت على نابليون فى النهاية الهلاك والبوار ، هى أنه عند ما أغواه سراب الحصار العام ، قضى على نفسه بالسعى لإقامة صرح إمبراطورية عالمية .

غير أنه حانت لحظة فى مطلع عام ١٨٠١ كان فيها هذا المشروع الأحمق الفادح الكلفة أقرب إلى التحقيق والنجاح ، منه فى أية مرحلة أخرى من مراحل الحرب التى جاءت بعد ذلك. ذلك أن پول الأول قيصر روسيا كان عاهلا مستبداً نصف مخبول . غير أنه مما خفف من وقع قسوته تحمسه الغريب لفرسان مالطة ، وإعجابه البالغ العميق بعبقرية نابليون . ففى ديسمبر سنة ١٨٠٠ برز هذا الروسى الهمجى ، كالبطل المدافع عن مستوى خلقى رفيع فى الحرب البحرية . وكَوَّن بضمه تحت لوائه الدنمارك والسويد وبروسيا ، « عصبة الحياد المسلح » League of Armed Neutrality لحماية حقوق المحايدين ، وللاضرار ببريطانيا بنوع خاص . ولقد كانت نقطة من نقط الضعف فى درع بريطانيا ، أن أسطولها كثيراً ما سبب خسائر ومتاعب لأصحاب سفن المحايدين أثناء تفتيشها ، فى بحثه عن بضائع الأعداء أو البضائع المحرمة

غير أن كيفية ممارسة حق التفتيش هذا ، والضوابط والتأمينات التى تحول دون إساءة استعماله ، والمجاملات والتعويضات التى تقدم عند مباشرته ، كانت ولا تزال معضلة شائكة من معضلات القانون الدولى . وكانت كاترين الثانية قيصرة روسيا قد أعلنت عام ١٧٨٠ مبدأ « حرية البحار » القاضى بأن السفن المحايدة الماخرة عباب البحار فى أعمال مشروعة يجب ألا تعرض لأية مضايقة من الأساطيل المحاربة . فجاء پول وبعث هذا المبدأ إلى الحياة سنة ١٨٠٠ . وهو مبدأ ما برح إلى يومنا هذا قضية حية مثيرة للخلاف تنقسم بصددها الآراء ، رغم أن الأسطول الأمريكى ضرب به عرض الحائط فى الطور الأخير من الحرب العالمية الأولى .

وكان إفلاح پول الأول فى الحصول على تأييد الدول الأوربية الشمالية للدفاع عن مبادىء الحياد المسلح – كان توفيقاً سعيداً غير مرتقب لنابليون الذى أسرع فى الإفادة منه . غير أنه فى اللحظة التى شرع هذا المشروع يتخذ فيها شكلا خطراً على انجلترا : أى حين زحف البروسيون على هانوفر[١] ، وأخذت الكتائب الدنماركية تحتل همبرج وليبك – فى تلك اللحظة انهار المشروع انهياراً تاماً . ذلك أن القيصر اغتيل خنقاً فى فتنة نشبت فى القصر الإمبراطورى فى مارس سنة ١٨٠١ ، وفى إبريل من العام نفسه حطم نلسن الأسطول الدنماركى فى كوبنهاجن . فقضت هذه الصدمة المزدوجة على العصبة الشمالية التى لاحت لفترة من الزمن أنها ستكمل دائرة الحصار القارى – ماتت ميتة فجائية غير مجيدة .

صلح اميان

وقد مهدت هذه الحوادث : اغتيال القيصر ومعركة كوبنهاجن واستعفاء پت – مهدت الطريق إلى صلح أميان Amiens (مارس سنة ١٨٠٢) . ويغلب على الكتّاب الانجليز أن يقولوا إن أدنجتن Addington رئيس الوزراء الجديد ، الذى لم يكن بالصلب العود ، سلّم بأكثر مما تطلبه الموقف . ولكن الكتاب الفرنسيين يرون عكس هذا . فقد احتفظت إنجلترا بتفوقها البحرى على الأقل دون أن يمس بسوء . ومن بين فتوحها العديدة عبر البحار ، أبقت فى يدها ترينداد التى كانت قد انتزعتها من الأسبان ، وسيلان التى كانت قد اغتصبتها من الهولنديين .

وإذا كان صحيحاً أن الفرنسيين لم يكن فى مقدرتهم على الإطلاق فى ذلك الحين أن يلزموا انجلترا بالتخلى عن الفتوح التى كانت مستعدة أن تتنازل عنها ، فإنه صحيح أيضا أن هذه الممتلكات وراء المحيطات كان من السهل إعادة فتحها بقوة بحرية متفوقة ، إذا ما استؤنفت الحرب .

ولكن أسوأ نذير كان يهدد سلام المستقبل ، هو عدم إبرام فرنسا وإنجلترا اتفاقية تجارية فيما بينهما ، فإنه طالما بقى التجار الإنجليز يعاملون فى فرنسا كأعداء غرباء ، تعذر الوصول إلى تفاهم حقيقى بين الأمتين الفرنسية والإنجليزية .

---

(١) التابعة لملك إنجلترا وقتئذ .

الفصل الخامس

القنصلية والامبراطورية

سجايا نابليون المدنية . الكنكوردات . القوانين . جامعة فرنسا . تجدد القتال . الإمبراطورية . شرلمان الجديد . معسكر بولون .

١ ـ سجايا نابليون وأعماله المدنية

إعادة هيبة الحكومة

أعاد نابليون للحكومة فى فرنسا هيبتها واحترامها . فقد وجد فوضى ، وخلّف نظاماً . وورث عصياناً ، وخلق طاعة وخضوعاً . فلعشر سنين أطلِق العنان للشهوات والأهواء التى مزقت صرح المجتمع الفرنسى شر ممزق ، بينما اندحرت شر اندحار تلك القوى الأدبية التى ساعدت على تقويته وتدعيمه . فقد سخر القوم فى تلك الأعوام العشرة بروح الاحترام والتبجيل . فالدين وتراث الماضى وتقاليد فرنسا التالدة ، بل وحتى مجاملات الحياة وآدابها العادية ، جُعِلت تبدو فى عيون الناس كأنها بقايا سخيفة غير معقولة لماضٍ غشوم مستبد .

وكان نابليون من أشياع ڤولتير، لايستمسك بدين رسمى أو تقاليد مقررة . ويسير وفق أخلاق اجتماعية أفضل ما يمكن أن يقال فيها إنها وإن كانت أحياناً كريمة مترفقة مهيبة ، فإنها غالباً ما اتسمت بالقسوة الفاحشة وعدم الشعور . بيد أنه وُلِد مفطوراً على القيادة والتزعم . وحزر فى الحال أن الاتحاد أسّ العظمة القومية . ولذا وجدت فيه كلُّ قوة تعين على التساند الاجتماعى نصيراً وعوناً . فآزر الدين لأنه « سِرّ النظام الإجتماعى » ، والتعليم لأنه يمكنه وضعه فى القالب الذى يريده ، وناصر روح الدقة العلمية فى الحكومة لأنها تخدم السلطان ، وآداب السلوك التقليدية لأنها تلجم تهكم الباريسيين اللاذع .

غاياته

وكان عمله هو التوفيق بين فرنسا الجديدة وفرنسا القديمة ، وأن يجمع تحت لوائه القساوسة والمهاجرين واليهود والبروتستانت والملحدين واليعاقبة لخدمة الدولة ، ويلزمهم ببذل الجهود فى رفع شأنها ، وإعلاء كلمتها ، حتى أنه فى سعيه وراء الاستقرار ، انتهى به الأمر إلى مصاهرة أعرق بيت ملكى فى أوربا وأشدها زهواً وتشامخاً .

حكومته

وكانت حكومته من طراز جديد لم تعهده فرنسا من قبل : حكومة مستبدة استبداداً علمياً ، قائمة على الانتخابات الشعبية . ففى ثلاث مرات : فى أعوام ١٨٠٠ و ١٨٠٢ و ١٨٠٤ اجتهد وأفلح فى الحصول على تأييد الأمة له . ففى المرة الأولى جعلته الانتخابات قنصلا أول لمدة عشر سنين ، وفى المرة الثانية قنصلا مدى الحياة ، وفى المرة الأخيرة أقرته على مناداته بنفسه امبراطوراً . ولم يكن فى مقدور ملك من ملوك أوربا أن يثبت أنه أحق منه بهذا اللقب .

وإذ منحت الأمة الفرنسية نابليون هذا القسط الكبير العجيب من الثقة ، تطلعت إليه أن يمنحها نِعَم السلام وبركاته . ولكنه فى ذلك خيب أملها . ولعله كان عاجزاً عن تحقيق أمنيتها . فإن قبضه على خيزرانة السلطة جرَّ فرنسا إلى حرب أوشكت فيها أولا أن تضم دول أوربا الوسطى تحت رايتها ، ولكنها انتهت بانهيار فرنسا انهياراً حربياً بلغ من شدته وتمامه ، أنها اضطرت إلى التخلى حتى عن فتوح الثورة الأولى ، والقبوع فى داخل الحدود القديمة للملكية .

وإنه لمن سخرية التاريخ وقسوته ، أن أسرة اسمها صنو للمجد والصيت الحربى الرفيع أنقصت بالفعل رقعة فرنسا . فإن نابليون الأول أضاع بلجيكا . ونزل ابن أخيه ، نابليون الثالث الذى استحوذ فى صفقة سياسية على ساڤوى ونيس — نزل عن الألزاس واللورين عند ما طاش سهمه فى تحكيمه السيف سنة ١٨٧٠ . وشاءت المقادير أن يعاد إلى فرنسا على يد جمهورية برجوازية ، بمؤازرة دائرة واسعة من الحلفاء — شاءت المقادير أن يعاد إليها بعض الأملاك ومعظم النفوذ الذى فقدته فى النكبات التى حلت بها على أيدى آل نابليون .

أعماله المدنية

وإذا كانت فتوح نابليون الحربية لم تلبث قليلا حتى ضاعت واختفت ،

فإن أعماله المدنية فى فرنسا أقيمت على أسس من الصخر . ففى كل خلة لازمة للإدارة المدنية : فى سعة الخيال ، وحدة التصور ، وقوة الابتكار ، وفى القوة المحركة ، والعناية الدقيقة بكل صغيرة وكبيرة فى الأمور ، وفى وضوح الفكر ، والقدرة على العمل ، يبرز نابليون منقطع النظير ، فإنه فى سرعة خارقة رمّم الخراب الشامل الذى صنعته الثورة ، وفى جو من الأمل والنشاط شاع فى فرنسا أيام القنصلية ، أكمِلت آيات ، وأنجِزت معجزات فى كل مصلحة من المصالح الحكومية ، المركزية منها والمحلية ، لتحسين حالة الشعب المادية وزيادة رفاهيته . واختفت أحوال النظام القديم وظروفه المعطلة للتقدم ، الواقفة فى وجه الإصلاح . فلم تعد هنالك جمعيات مشتركة ، أو برلمانات ، أو هيئات إقليمية ، أو طبقات ممتازة غير خاضعة للقانون العام . فالمدير فى مديريته ، والمأمور فى مركزه ، والعمدة فى ناحيته ، يعمل كل منهم فى جو صافٍ غير معقّد ، منفذاً أوامر رئيس الدولة .

الكنكردات

ولم تكن الاتفاقية البابوية (يوليو سنة ١٨٠١) بأقل فعال نابليون أهمية فى تحقيق سياسة التوفيق بين العالمين الجديد والقديم . أجل كان التغيير مبغضاً كريهاً ، وموضع الاستهزاء والسخرية من جانب رؤساء الجيش الذين ظلوا على روح الإلحاد المتطرف السائد فى عهد الثورة ، وكذلك بين طبقات المفكرين والسياسيين الباريسيين . فقد بدت هذه الاتفاقية فى عيونهم تنازلا عن غُنم كسبته الحضارة ، ورجوعاً إلى ظلام العصور الوسطى ، ودعوة إلى القساوسة بأن يسترجعوا مرة ثانية سلطانهم المفقود على العقل الإنسانى . ولكن نابليون نظر إلى ما هو أبعد من تفكير قادة الجيش ومثقفى باريس : نظر إلى جماهير الفلاحين الغفيرة الذين تألفت منهم قواته الحربية . فقد حزر تزعم الكهان لثورة ڤاندى ، وشاهد الفلاح الإيطالى يخر ساجداً أمام المحراب الصغير الريفى ، وألهِم أن الدين قوة جبارة بين السذج من العباد . فكان انشقاق فرنسا عن الكنيسة جرحاً دامياً مفتوحاً ، جرحاً إذا هو لم يبادر إلى إبرائه ، فإنه سيفسد نظم الحكم ، ويعرضها للخطر والهلاك . ولهذا وطن النفس على مغامرة التقرب من الكنيسة . وفى عام ١٨٠٢ بعد

مفاوضات مطولة أدارها فى دهاء مزج فيه القوة بالاحتيال مزجاً بارعاً ، وصل إلى اتفاق مع البابا الجديد بيوس السابع .

الكنيسة الفرنسية الجديدة

بيد أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الجديدة التى نتجت عن « الكنكوردات » وعن التشريعات الأساسية التى صاحبته ، كانت تختلف غاية الاختلاف عن كنيسة النظام القديم . فإن الضياع الواسعة ، والعشور الطائلة الإيراد ، والمرتبات الضخمة ، والمؤسسات الفخمة ، التى كانت مدىّ قرون عديدة من مخصصات أحبار الكنيسة الفرنسية ، أصبحت الآن أمراً مضى وانقضى . فإن أسقف العهد النابوليونى ، هذا الموظف ذا المرتب العادى لدولة غيورة ، لم يكن يباح له أن يطوف خارج أبروشيته ، أو يدعو سينودساً مقدساً ، أو يتخاطب مع روما من غير إذن الحكومة . لقد سُمح للكنيسة حقاً أن تعيش وتعمل ، فأخذ جرس الكنيسة يدق من جديد داعياً الفلاحين إلى الصلاة ، وأخذت حلة الكاهن البيضاء ترفرف فى الهواء ، وأخذت زمر المؤمنين تتجمع حول الهيكل ، أو تستريح يوم الأحد من غير أن تخشى اضطهاداً ، وأعيد ثانية تنصيب الأساقفة ومسحهم حسب طرائق النظام القديم . ولكن الكنيسة فقدت استقلالها ، وانحدرت إلى مركز هيئة رقيقة الحال خاضعة للسلطة المدنية ، وذهبت تلك الأيام التى كانت فيها وظيفة القسيس الوحيدة هى أن يكون الراعى الروحى لرعيته ، يمد يد المعونة للمريض ، ويخفف من آلام المحتضر ، ويثقف النشء ، ويعلمهم أصول الإيمان . وغدا يُنتظر منه أن يقرأ بلاغات الجيش من فوق منبره ، وأن يذكى نار الحماس فى المتقاعس الخائر النفس ، وأن يبث فى العقول الناشئة ، عن طريق التعليم الذى وضع نابليون مناهجه ، واجب الطاعة المطلقة لرأس الدولة .

ومع ذلك فقد يتساءل المرء عما إذا كان ضرورياً وقتئذ لنابليون أن يتفق مع البابا . فإن كنيسة فرنسية سليمة الإيمان صحيحة العقيدة ، مستقلة عن روما ، كانت بديلا قد يقبله السواد الأعظم من الكهان الفرنسيين فى ذلك العهد الذى انحطت فيه الحياة الدينية ، والذى قُتل فيه عدد كبير من القساوسة الغلاة أثناء الحرب الأهلية . غير أن نابليون رغم توعده الكردينالات المفاوضين بإنشاء كنيسة

فرنسية منفصلة ، لم يضع وعيده موضع التنفيذ . إذ كان فى حاجة إلى البابوية .
فإنه مع نزول هذه الهيئة السامية التليدة إلى درك جعل نابليون يشترك فى الاعتقاد
مع وليم پت ومع توجوت Thugut رئيس الوزارة النمساوية ، بأن أيامها أصبحت
معدودة ، فإنه لم يكن ليستطيع ألا يعبأ بتأييدها . فقد رأى أن هذه الآلة
القديمة المتداعية التى ستنهار يوماً من الأيام من تلقاء ذاتها ، قد تكون مفيدة له
فى مساعدته على تعبئة كاثوليك الأمصار الأوربية إلى جانبه .

القوانين

أما صوغ القانون الفرنسى الذى لعله أبقى أعمال نابليون وأجلها ، فقد كان
حلماً قديماً قِدَم القرن الخامس عشر ، وجزءاً مكملا لعقيدة الثورة . غير أن فترة
تترى فيها القوانين التى يأخذ بعضها برقاب بعض ، ليست بالفترة الملائمة للقيام
بهذا العمل الذى يستدعى نظرة واضحة جلية ثابتة تشمل المجال التشريعى كله .
فقد أمرت حكومة الثورة من قبله بوضع قانون ، وأعدت مشروعات عديدة لهذا
الغرض ، ولكنها لم تكمل شيئاً فى حمى السرعة التى انتابتها .

فأخذ نابليون على عاتقه إنجاز العمل الموقوف ، وبنشاطه الكبير واهتمامه
الشخصى كان له فخر إتمامه فى وقت وجيز (سنة ١٨٠٤) . ولم يكن القانون
المدنى بالطبع وليد عقل مشرِّع واحد جهبذى ، فإن المبادئ القانونية الأساسية
للنظام القديم ، وهى المماثلة للقانون الرومانى السائد فى الجنوب ، ضُمَّتْ إلى
القوانين التى صدرت زمن الثورة ، والتى راقت فى أعين نابليون ومستشاريه ،
ومُزِجت بعضها ببعض ، وأخرِج منها سفر بلغ درجة من الوضوح والجلاء أن
الرجل العادى يستطيع أن يقرأه فى متعة وفهم ، وبلغ من الإيجاز أنه يمكنه حمله
دون مضايقة فى جيب من جيوب معطفه . وليس تميز هذا القانون المدنى ، هو أنه
لم يترك شاردة ، أو أنه منع نماء تشريع القضاة Case Law ، أو أنه معصوم
عن الخطأ شكلا أو مادة ، بل لأنه يضع فى عبارة مفهومة وقالب حازم معالم
مجتمع ممدن واقعى ، مجتمع قائم على المساواة الاجتماعية والتسامح الدينى ،
واحترام المِلْكية الخاصة ، والحياة العائلية المتماسكة العرى .

ولقد جاء وضعه فى الوقت المناسب . فلو أنه وُضع قبل ذلك بسنين قلائل ،

لحفل بالغلو والتطرف اللذين سادا أيام الثورة ، ولو أنه وُضِع بعدُ بأعوام قليلة لخيم على مواده ظلال الاستبداد . أما وقد سُنَّ في أبهى أيام القنصلية وأشدها تألقاً — فى الحين الذى كان فيه عدلُ نابليون مبسوطاً على جميع طبقات المجتمع الفرنسى ، فإنه قدم لا إلى فرنسا وحدها ، بل إلى أوربا جمعاء ، سِفراً وتشريعاً مناسب الحجم ، لقطر عظيم الولاء للتقاليد القديمة لنظام الأسرة والمِلْكية الخاصة ، واحتفظ فى الوقت عينه بأطيب ثمار ثورة حرة علمانية .

هذا هو المغزى الأكبر لقانون نابليون بالنسبة لأوربا . فإنه بإدخاله نظام الزواج والطلاق المدنى ، نشر فى ممالك أوربا فكرة امكان قيام مجتمع قادر على الاستغناء عن مساعدة رجال الدين وخدماتهم . فالزواج فى القانون النابليونى هو عقد مدنى يمكن الاتفاق عليه أو فضه من غير نفقة كبيرة فى مكتب رجل علمانى . فللمرة الأولى منذ قبول قسطنطين المسيحية نَظَّمت فى قانون دولةٌ أوربية منظمة مستقرة الأركان حياةَ الناس الدنيوية البحتة .

ولكن يجب ألا نستنتج من هذا ، أن نابليون بخس قوى الدين ونظام الأسرة قيمها كعنصرين ضروريين لسلامة المجتمع . بل العكس تماماً هو الصحيح . فإن آراء نابليون فى الحياة العائلية كانت تنزع إلى النظام الرومانى الصارم . فقد كان يرى إطلاق سلطان الآباء وخضوع الزوجات إلى أبعد حد . ومما يؤثر عنه قوله : « ألا تعلم أن الملاك أخبر حواء بأن تطيع زوجها ؟ إن المبادئ الخلقية فرضت ذلك فى جميع اللغات ، ويجدر أن تُكتب هذه العبارة بتوكيد أقوى بالفرنسية فى القانون » . ولكن تيار المبادئ العلمانية للثورة كان قد بلغ من الشدة درجة لا تقاوَم . ولذا أنقص نابليون من تسهيلات الطلاق التى أعدتها الثورة . ولكنه ألفى نفسه ملزماً بقبول المبدأ فى ذاته .

وإنه لدليل على عظمة نابليون ، أنه لم يقنع بمجرد اقتراح القانون المدنى ، وبدء هذا العمل الخطير ، بل ساهم بشطر كبير — وغالباً بشطر حاسم — فى المداولات والمناقشات التى دارت فى اللجنة التشريعية لمجلس الدولة بخصوص مشروع قانونه . ولم يكن يعبأ بجزئيات التفاصيل ، بل كان ينظر نظرة شاملة إلى

أى أمر يمس الوجوه العامة للسياسة السليمة . وكان له رأى واضح فعَّال فى كل مسألة من المسائل التى وجه إليها التفاته . وعلى العموم كان يريد أن تكون فرنسا قطراً ، مقسمة أراضيه الزراعية إلى قطع متوسطة المساحة ، لا إلى قطع عديدة صغيرة المساحة جداً ، وأن يكون الآباء فيها مطلقى السلطان ، والأبناء مطيعين ، والنساء مستقيمات خاضعات لبعولهن . وفى كل هذه الشئون أفلح فى طبع قانون فرنسا بطابع معتقداته القوية .

وقد أذاع القانون المدنى ، أكثر من أى عمل آخر ، شهرةَ نظم فرنسا الجديدة فى جميع أرجاء أوربا ، وأعلى كعبها . فقد انطوى على لبّ فلسفة الثورة وروحها فى قالب عملى يمكن للناس تطبيقه والاستفادة منه . وجمع بين الابتكار المثمر والعرف القديم ، واتحدت فيه الحرية مع النظام . ولم يحدث منذ صوغ قوانين چستنيان، أن نُقِل على نطاق واسع سفر من أسفار القانون ، مثل ما نقل قانون نابليون المدنى .

وكان هناك أربعة قوانين نابليونية أخرى : قانونان منها يتعلقان بإجراءات محاكمة المجرمين وعقوباتهم . وبما أنهما وُضِعا أيام الإمبراطورية، فقد شوههما طابع الاستبداد . فإن ثبتا طويلا من العقوبات الوحشية (من بينها المصادرة) تدل على أن واضعى قانون العقوبات كانوا بعيدين عن أن يمثلوا خير أفكار عصرهم فى دائرة التشريع الجنائى . وكذلك لايخلو قانون تحقيق الجنايات من هذه الوصمة ، وإن كان ذلك بدرجة أقل . فرغم أنه يعطى المتهم فرصة محاكمته فى جلسة علنية، وأمامَ محلفين ، فإن هذه المزايا الخالدة التى هى تراث الثورة ، تقابلها فى الكفة الأخرى أحكام أخرى اقتُبِست من شرائع النظام القديم ، أو رغائب نابليون الإمبراطورية التى كانت أقل عناية بحماية الضعفاء والأبرياء . ومن بين هذه الأحكام يكفى أن نذكر هنا التحقيق الأوَّلى الذى يجرى سراً بواسطة قاضى التحقيق ، وترشيح المحلفين الموكول إلى مديرى المقاطعات .

نظم التعليم

وفى نفس الوقت الذى كان يوضع فيه هذا العمل التشريعى ، كان يختمر بالتدريج فى عقل نابليون مشروع لنظم التعليم للإمبراطورية : مشروع صارم

فى مبادئه ، صرامة نظم الجزويت . فإن النظام المدرسى الهين المتسامح السائد فى إنجلترا وقتئذ الذى يتركز فيه اهتمام فتية الطبقات الميسورة فى ألعاب الكريكت وكرة القدم وميادين الرياضة – هؤلاء الفتية الذين كانوا يُجلـَدون كى يتعلموا مبادئ الإغريقية واللاتينية بواسطة معلمين لم يكن الملك جورج نفسه يستطيع أن يفصلهم من وظائفهم – كان هذا النظام غريباً كل الغرابة فى نظر الإمبراطور . فإنه كان يعد عملا من أعمال الجنون السياسى ، أن يُترك أمر تعليم الشعب لرحمة الجهود والأعمال الفردية ، والمنح والأوقاف العامة . حقاً لم يكن ثمت مناص فى نظره من وجود مدارس خاصة يديرها الأفراد ، لأنه لم يكن هنالك من أموال الدولة سوى القليل للإنفاق على التعليم . ولكنه كان يرى أن هذه المدارس الخاصة ينبغى أن تخضع لإشراف الحكومة ، أما اللهو والمرح فينبغى ألا يكوّنا جزءاً من التعليم . فالحياة أمر جدىّ خطير ، وعلى الشبان أن يتعلموا واجباتهم أزاء الدولة . وفى إمبراطورية حربية كإمبراطوريته يجب أن يتعلموا الخدمة العامة ، وأن ينخرطوا فى سلك الجيش ، وأن يسيروا إلى حومة الوغى ، وأن يموتوا فداء الوطن .

الجامعة

ولتحقيق هذه الغايات ، أنُشِئت عام ١٨٠٨ جامعة تديرها الدولة ، وتساير مطالب الإمبراطورية . ونيط بها القيام بواجب تنظيم جميع فروع الثقافة العامة والهيمنة عليها . وبُذِرت هذه البذرة الغريبة فى تربة مهيأة للنظم المركزية . وقد عمّرت ، بإدخال بضعة تعديلات ، جامعةُ فرنسا هذه التى أسسها نابليون ، والمقسمة إلى كليات فرعية ، إلى يومنا هذا .

وكان حظ الديمقراطية فى كل هذا تافهاً يسيراً . فلم يُصنع شىء للمدارس الابتدائية ، بل تركت فى يد الأفراد والهيئات الخاصة ، وحتى فى دائرة التعليم الثانوى فشلت الكليات والمدارس الثانوية الحكومية فى أن تقوم بنصف ما كان يراد منها . فإذا كان حكم نابليون مدهشاً فى تاريخ التعليم الفرنسى ، فليس ذلك لأن الدولة كانت سخية مبسوطة الكف فى نشره ، بل لأنها كانت تناهض الحرية العقلية .

فمن هذه الضفة على القنال الإنجليزى نرى تلميذ كلية إيتون مستمتعاً بالحياة خلىّ البال ، يُجلَد كثيراً ، ويُعلّم قليلا . أما على الضفة الأخرى ، فنرى فى « ليسيه » جمعت بين كآبة الدير ، وصرامة الثكنة العسكرية ، صبياً صغيراً لايجد المرح إلى صدره سبيلا ، يُمرّن فى ملابس عسكرية مشدودة ، ويُحشى ذهنه بالمعلومات حشواً ، ويوضع موضع المراقبة والتجسس ، وفى عملية تنشئته وفقاً لأهداف الإمبراطور الإسبرطية ، حُرِم حرماناً كاملا من مسرات الشباب البريئة ومباهجه .

٢ – عصر الامبراطورية

مخاوف إنجلترا

مما عاب خلة التبصر التى اتسم بها خلق نابليون ، أنه رسم سياسته على نحوٍ أثار إلى أقصى حد ، مخاوف منافسيه ، مع أنه كان يكسب كل شىء بأن يكفل استتباب السلم أمداً طويلا . فقد لاحظت لندن أنه فى الحين الذى كان يحرّم فيه قطعياً دخولُ المراكب والبضائع الإنجليزية فى الثغور الفرنسية ، كانت قوة فرنسا تطرد ازدياداً .

ولم تكن عين الوزارة الإنجليزية بغافلة عن هذه التغيرات . فإنها لما رأت حامية فرنسية تستقر فى هولندا ، بدأت تعيد التفكير فى تعهدها السابق الخاص بإعادة مستعمرة الرأس إلى هولندا . وحينما تحققت أن بيدمنت Piedmont ، والڤاليه Valais [1] ضُمّتا إلى فرنسا ، وأن جمهوريتى سويسرة والألب الشمالية أعطِيتا دستورين جعلاهما بوضوح أكثر من ذى قبل تحت نفوذ فرنسا – لما رأت إنجلترا ذلك أثارت مسألة التعويضات . وحينما ترامى إليها أن حملة حربية عظيمة أقوى مما يتطلبه الهدف المزعوم لإيفادها ، قد أبحرت لاسترجاع

---

(١) هى إحدى مقاطعات سويسرة ، وتقع فى وادى نهر الرون الأعلى . وقد ضمت سنة ١٧٩٨ إلى الجمهورية الهلفتية . ولكن نظراً لمقاومتها الشديدة للحكم الفرنسى ؛ أعلن نابليون سنة ١٨٠٢ استقلالها تحت اسم Rhodonic Republic . وقد ضمت إلى سويسرة سنة ١٨١٥ .

جمهورية سان دومنجو الزنجية ، ارتابت — وارتابت عن حق — فى أن نابليون يرمى إلى أهداف خفية ضخمة فى نصف الكرة الغربى .

ولكن ما كان أدعى إلى تخوفها حتى من هذه الأعراض المقلقة ، هو ما قام لديها من الأدلة على أن استعادة مصر ، وامتداد الممتلكات الفرنسية ، ما برحا يحتلان مكاناً بين مشروعات القنصل الأول . فقد نُشِر تقرير بقلم الكولونل سبستيانى Sebastiani فى جريدة Le Moniteur فى ٣٠ مايو سنة ١٨٠٣ ، يصف فيه حب الشرق ومودته للفرنسيين ، وسهولة إعادة فتح مصر ، مما أيد أسوأ شكوك الحكومة البريطانية فى نيات نابليون .

وقد رأت إنجلترا أنه إذا كان لا مفر من تجديد القتال فى الشرق ، فإن مالطة بمرفئها العظيم الأهمية ، واستحكاماتها الشهيرة ، ستصبح نقطة هامة فى خطة الدفاع الإنجليزية . لهذا السبب ، وعلى الرغم من أحكام معاهدة أميان ، رفضت إنجلترا الجلاء عن تلك الجزيرة . وكان قرارها هذا ، الذى حضها عليه عاهلا روسيا وتركيا اللذان تخوفا كلاهما من مشروعات نابليون فى الشرق — كان خطأ من الوجهة الشكلية . ولكن أيصحُّ إلقاء لوم عليها وقد أُقحِمت عليها الحرب إقحاماً ؟ (مايو سنة ١٨٠٣) فإن التعليمات السرية التى أصدرها نابليون إلى الجنرال ديكاين Decaen تظهر أن المشروع الخاص بالتوسع الفرنسى فى الهند قد انتُهِي من وضعه بحذافيره .

المؤامرات على نابليون

وقبل أن تُضْرب ضربة حاسمة فى الحرب ، حدث انقلاب دستورى عجيب فى فرنسا . فإنه مما لا ريب فيه أن الشعب الفرنسى كان يريد حكم نابليون الذى جلب إليه منافع كبيرة ، وكان يرى ضرورة حمايته من أخطار الكائدين له من اليعقوبيين والملكيين : تلك الأخطار التى ما برحت جسيمة ماثلة ، والتى اتخذت منذ تهدئة إقليم ڤاندى صورة مؤامرات لاغتيال القنصل الأول ، إما بإلقاء القنابل عليه ، أو باغتياله فى هجمة مباغتة مسلحة ، كتلك التى دبرها الملكيون سنة ١٨٠٠ ، وأخفقت فى إصابة هدفها .

وقد حُبِكت إبان خريف وشتاء عام ١٨٠٣ ، وربيع العام التالى ، أطراف

مؤامرة أخرى أوسع نطاقاً وأقل إحكاماً ، إذ لم تشتمل فقط على متهورين من الملكيين كجورج كدودال Georges Cadoudal ، بل اشتملت أيضاً على قواد ذائعي الصيت من قواد الجمهورية ، نظائر مورو وبشجرو ، وبتواطؤ مدبَّر مزرٍ مع بعض صغار الوزراء الإنجليز . غير أن شرطة نابليون وعيونه كانوا يقظين ساهرين ، فقد نمى إلى سمعه أن بعضاً من مشاهير قواد الجمهورية قد وقعوا بطريقة ماكرة فى حبائل دسيسة ملكية دبرها الكونت دارتوا من ملجئه بإنجلترا ، وأن مورو تحدث إلى بشجرو ، وأن من بين خيوط الدسيسة تحريك الفتنة فى مقاطعتى نورمانديا وبريتانيا ، وأن المؤامرة كلها حُدِّد ميعاد انفجارها عند وصول أمير من أمراء بيت بوربون . فترى من كان ذلك الأمير ؟

ولقد تصادف أن الدوق دانجيان Duc d'Enghien آخر سلالة آل كنديه Condé كان يقيم فى مارس سنة ١٨٠٤ فى إتِنْهايم Ethenheim ببادِنْ ، وهى على مقربة من الحدود الفرنسية ، فعقد نابليون النية على إزهاق روحه ، رغم أنه قُبض على مورو وبشجرو وكدودال من قبل ، فزال بذلك كل خطر عاجل . فاختُطِف هذا الشاب البرىء — إذ لم يكن دانجيان مشتركاً فى المؤامرة ، كما عرف نابليون قبل تنفيذ الحكم فيه . وبعث به إلى ڤنسان حيث أعدم سراً رمياً بالرصاص فى ٢١ مارس سنة ١٨٠٤ ، بعد محاكمة عاجلة .

نفذ نابليون هذه الجريمة بعزم صادق ، وتصميم لا يلين ، مما هز ضمير العالم المتمدن . غير أن هذا العمل أنتج نتيجته المنشودة . فلم يحدث البتة بعد ذلك أن انغمس أمراء أسرة بوربون فى مؤامرة للقضاء على حياة نابليون ، أو أن الجمهوريين اشتبهوا أن له ميولا ملكية خفية . غير أن دم الأمير الشاب البرىء قام شاهداً على أن القنصل الأول قد ضم نفسه إلى صفوف جلادى الثورة .

إنشاء الإمبراطورية

وقد شعر حينذاك حتى أغلظ اليعاقبة كبداً ، بأن إقامة عرش موروث تؤتمن عليه أسرة ملكية أظهرت بشكل قاطع أنها عدة النظام الذى أقامته الثورة ، لن يهدد الكسب العظيم الذى نالته الثورة بتقريرها المساواة فى الحقوق : ذلك الكسب الذى كلف الظفر به إهراق الدماء الغزيرة . ففى الثالث والعشرين من

إبريل سنة ١٨٠٤ اقترح كيريه Curée وهو سفاح معتدل من سفاحى الثورة ، على التربيون اقتباس المبدأ الوراثى لانتقال التاج ، واتخذ هذا المقترح قالباً يرضى مطامع نابليون ، وتقبله تقاليد شعب ما زال إلى درجة كبيرة ثوريا ، ولا يتخوف من شىء أشد من عودة الملكية .

وفى مايو سنة ١٨٠٤ منح « مجلسُ شيوخ استشارى » ، Senatus Consultum نابليون لقب « إمبراطور الفرنسيين » . وقد فاز هذا التغيير بكل ضرب من ضروب التأييد والموافقة اقتضته المستلزمات الدستورية فى ذلك الحين : من موافقة مجلس الشيوخ ، وموافقة الأمة ، ومسح البابا نابليون امبراطوراً . وليس لأحد أن يرتاب فى أن هذا التغيير كان مقبولا لدى الأمة . فإن مؤامرات الاغتيال التى دُبرت لقتل نابليون كانت علامة يستطيع كل امرئ قراءتها ، بأن حياة رجل واحد وقفت بمفردها حائلا بين فرنسا والثورة .

شرلمان الجديد

وفتن بالضرورة صيتُ شرلمان خيال إمبراطور الفرنسيين الجديد ، وتملكته الرغبة فى حذو حذوه ، وتطلعت نفسه إلى أن يكون شرلماناً جديداً يجمع الشعوب اللاتينية والتيوتونية تحت تاجه الامبراطورى ، ويُقطع أعضاء أسرته الممالك والإمارات ، ويعامل البابا كقس خاص له ، ويجمع فى بلاط ذى سناء ورواء طبقة جديدة من الأشراف تضيف إلى عرشه ضماناً آخر ، إذ تدين لأياديه عليها بكل ما ملكت يداها . وقد قال فى سانت هيلانة : « لقد أحسست بعزلتى ، فألقيت بمراسى النجاة فى كل جهة » .

ومع ذلك فقد كانت كل مرساة من هذه المراسى تحديا للنمسا : من مناداة ذلك القرشى بنفسه إمبراطوراً ، إلى وضعه تاج لمبارديا الحديدى على مفرقه بميلان فى مارس سنة ١٨٠٥ ، إلى زيارته ذات المغزى إلى آخن Aachen قصبة شرلمان كى يختبر ولاء إمارات الرين وامتثالها . وبزغت الحقيقة سافرة بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة مقضى عليها القضاء المبرم . ولقد أزاحت مكنسة شرلمان الجديد القوية ذلك النسيج السياسى الواهى العديم الفائدة من سقف الصرح الألمانى عام ١٨٠٦ ، أى بعد عامين من قيام إمبراطورية نمساوية وراثية

جديدة ، وهى الإمبراطورية التى قُدِّر لها أن تزول سنة ١٩١٨ .

تجدد القتال

ولقد عُمِّدت هذه الإمبراطورية فى بدء قيامها بمعمودية هزيمة ساحقة . فقد نشبت حرب التحالف الدولى الثالث (أغسطس سنة ١٨٠٤) بين إنجلترا والنمسا وروسيا والسويد ونابلى من جانب ، وفرنسا وأسبانيا تابعتها من الجانب الآخر . ومما يؤثر لبت ، المعمارى الأكبر لهذا التحالف ، أنه كان يفكر فى دعوة مؤتمر ، بعد وضع الحرب أوزارها وكسب النصر ، لصوغ نظام تعاهدى لدول أوربا يصون السلم فى ربوعها . وكان لنابليون أيضاً مشروع لإعادة تنظيم أوربا كمجموعة متضامنة من الأمم المستنيرة ، ولكنها مجموعة خاضعة لكلمة فرنسا . وما برح يوجد إلى الآن بعض أصدقاء الوحدة الأوربية يندبون حبوط حلمه .

معسكر بولون

وكانت خطة نابليون الحربية تقضى باستهلال الحرب بغزو إنجلترا وفتحها . وأمل أن يجد فى هذه الجزيرة البالغة الغموض التى تقع على قاب قوسين منه ، شعباً يتشوق إلى أن يخلع عن عنقه نير جورج الثالث الطاغية ، حينما يرى جيشَ تحرير فرنسيّاً فى وسطه ، كما فعل قبل ذلك بأقل من ثلاثين عاماً أهل مستعمرات ذلك الملك الأمريكية بمعونة فرنسا أيضاً . فقد ذكر نابليون فى سنت هيلانة بأن دهماء لندرة كانوا سيلاقونه بالترحيب ، وأنه كان يأمل أن يقيم بين مظاهر التهليل والابتهاج العامين جمهورية فى إنجلترا وأخرى فى إرلندا . فأظهر بهذا القول أنه لم يكن يدرى شيئاً عن التماسك الاجتماعى للشعب الإنجليزى وتراص صفوفه ، ولا عن قوة إنجلترا الصناعية الحديثة النشأة . فإنه لو أتيح له يومئذ أن يشاهد استعدادات الحكومة البريطانية الناشطة ، أو استجابة الشعب الحماسية ، لعرف أن إنجلترا لن تصير أبداً جزيرة فرنسية كجزيرة أوليرون Oléron أو جزيرة قرشقة ، وأن مخاطر عبور القنال الإنجليزى ، على شدتها وخطورتها ، لتتضاءل أمام المهالك التى تنتظر غازياً فى سهول إنجلترا الواطئة ، أو حقول كِنْت المزدهرة السندسية .

ولكن تلك الشقة الضيقة من الماء لم تُعبرَ . وانتظر جيش فرنسى مؤلف

من مائتى ألف وعشرة آلاف مقاتل مجتمعين فى معسكرات هائلة ممتدة على طول سواحل بحر الشمال والقنال ، انتظروا زهاء عامين كاملين أمر الإقلاع . بيد أن هذا الأمر لم يجىء . فلقد كان نلسن يراقب أسطول طولون ، وكورنوالس Cornwallis يحاصر برست ، وكانت كل شرذمة فرنسية أو أسبانية موضوعة تحت رقابة دقيقة من عدو شديد الوثوق بقوته ، لتفوقه فى حسن التدريب وكثرة العدد ، بقدر انحطاط روح خصمه المعنوية .

وترتب على ذلك أن الشرط الذى بدونه كان مقضياً على الحملة بالفشل الذريع لم يتحقق على الإطلاق . فإن نابليون عجز عن أن يحشد فى القنال ، ولو لمدة اثنتى عشرة ساعة فقط ، أسطولا يبلغ من القوة ، بحيث يكفى لحماية نقل وإنزال حتى شطر صغير من كتائبه . غير أن الإمبراطور لم يقنط من نجاح مغامرته ، إلا حينما وصل إلى أذنه النبأ بأن ڤيلنيف Villeneuve— الذى كان تحت إمرته الأسطول الفرنسى الأسبانى — قد نكص راجعاً إلى مرفأ قادز .

وإن العمود المقام فى بولون لتخليد ذلك المطمع الكبير ، ليعيد إلى الأذهان سهر البحارة الانجليز وبطولتهم ، وهم يعيشون فى شظف من العيش : على بسكويت دبَّ إليه التعفن ، وعلى لحم الخنازير المملح . وفى جميع الأجواء : الهادئة الجميلة ، أو الصاخبة الهائجة ، كانوا يمخرون عباب البحار فى قلاعهم السنديانية المتأرجحة ، لا يغمض لهم جفن ، كى يحافظوا على استقلال انجلترا ، ويصونوا معه حرية أوربا .

معركة الطرف الأغر

وفى يوم أغبر من أيام أكتوبر (٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥) ، بعد أن زال كل خطر من الغزو ، وبينما كان نابليون بعيداً جداً فى قلب بافاريا ، أحرز نلسن ذلك النصر المبين القاصم على ڤيلنيف : ذلك النصر الذى أقام سيادة بريطانيا على متن البحار فوق كل تحدٍّ حتى نهاية الحروب النابليونية . فبسبع وعشرين سفينة من سفن القتال مقسمة إلى صفين ، هاجم نلسن أسطولى فرنسا وأسبانيا ، وتمكن من إغوائهما بالخروج من مرفأ قادز ، وحطمهما تحطيما .

معركة أولم

ومع ذلك فإن انتصار الطرف الأغر ، رغم وضعه المستعمرات الفرنسية والأسبانية تحت رحمة الأسطول البريطانى ، لم يدخل إلى قلب الأمة الإنجليزية السرور والفرح . فإن نلسن بطلها كان قد سقط صريعاً فى المعركة . وكان جيش نمساوى قوى بقيادة ماك Mack ، وهو قائد مجرب كان يُرتقب منه أمور جلائل — كان هذا الجيش قد سلَّم قبل انتصار الطرف الأغر بيوم واحد (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٥) فى أولم Ulm إلى الجيش الفرنسى الذى طوقه .

الفصل السادس

الحصار القارى

السيطرة الفرنسية فى أوربا الوسطى . سياسة نابليون . تلست . الحصار القارى . المعضلة الإيطالية . النزاع مع البابا . التدخل الأسبانى ، أهمية الحرب الأسبانية . بايون . ملكية أسبانيا . نبت روح الحرية فى أسبانيا . دستور عام ١٨١٢ .

١ – سيطرة فرنسا على وسط أوربا

انتصارات نابليون

باءت خطط نابليون البحرية بالفشل . ولكن هذا الفشل أعقبته تلك السلسلة المدهشة من الانتصارات فى ألم Ulm ، وفى أسترلتز Austerlitz ، وفى يينا Jena وفى فريدلند Friedland ، (١٨٠٥ – ١٨٠٧) – هذه الانتصارات التى أجبرت أولا النمسا ، ثم بروسيا ، على ابرام صلح شائن . وبترتيب وُضع فى تِلْسِتْ Tilsit بين نابليون وإسكندر قيصر روسيا ، توطدت قبضة الإمبراطورية الفرنسية على أوربا الوسطى .

والمعجزات والعجائب لا تحدث فى التاريخ ، ولكن أثر حروب أعوام ١٨٠٥, ١٨٠٦, ١٨٠٧ على مسرح السياسة فى أوربا حمل فى ثناياه عنصرى المباغتة والكمال اللذين تتصف بهما المعجزات والآيات . فكما حدث فى كل فرصة ، انتفع نابليون بأغلاط أعدائه الحربية ، التى كان أخطرها قرار النمساويين والروس بإلزام نابليون بمنازلتهم فى استرلتز ، وذلك قبل أن يلتقى البروسيون بقواتهم فى الحرب ، ويكونوا فى موقف يهددون منه مواصلاته .

وبجانب هذا الخطأ فى الحكم الحربى ، ظهر فى هذا التحالف ، كما ظهر فى التحالفين السابقين ، ضعف مميت ناجم عن تراث طويل من

الخلافات السياسية بين كبرى الدول المتحالفة . فقد كادت المودة والصداقة تنعدم بين البروسيين والنمساويين . فإن بروسيا بانسحابها من الحرب سنة ١٧٩٥ فى مدة فردرك وليم الثالث الوجِل المتهيب ، لم تكن براغبة فى استعجال القتال . فتخاطر بالمزايا الكبيرة التى حصلت عليها من اتباع سياسة الحيدة المسالمة . ولم تتحرك لإبداء أى مظهر من مظاهر المقاومة تحت اسم الحياد المسلح ، إلا تحت ضغط خاص من القيصر ، ونتيجة لاعتداء جيش الرين الفرنسى على أرضها خلال زحفه صوب الشرق الجنوبى إلى ألم . ولكن تدخلها جاء بعد فوات الفرصة . فإن النمساويين كانوا قد ضُرِبوا ضربة قاضية فى أسترلتز (٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥) : ضربة أخرجتهم من الحرب ، قبل أن يتأهب الجيش البروسى للطعن والنزال .



فتوحات نابليون

سياسة نابليون

وفى أثناء هذه الأعوام الحافلة بالانتصارات الرائعة ، كانت سياسة نابليون موضع نقد شديد ولوم خطير ، رغم إظهارها حذقاً وطول باع لا حد لهما . فقد كانت فرنسا فى حاجة إلى صديق . فأشار تالبران ، وهو سياسى ضليع وخبير مدقق بالمعايير الدبلوماسية . بأن تكون النمسا هى ذلك الصديق . فبعد ألم ، ثم بعد أسترلتز ، حث وزير الخارجية الأريب من غير جدوى ، سيده الطموح على اتباع سياسة مصالحة ، يمكن وفقها مساعدة النمسا على توسيع رقعتها فى البلقان كتعويض لها عن الخسائر التى سوف يُطلب منها تحملها فى إيطاليا وفى الغرب ، ولكن نابليون صم أذنيه عن سماع هذه المشورة . فإنه حتى معاهـــدة برسبرج Pressberg (٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥) التى قطعت أوصال النمسا ، إذ سلبتها ثلاثة ملايين من الأنفس ، وسلمت رعاياها المخلصين فى التيرول إلى بافاريا — نقول حتى هذه المعاهدة تراءت له شديدة الترفق عظيمة الرحمة . فلم يكن فى جعبته عقاب ينزله بعدو مقهور غير إذلاله إذلالاً لا يترك وراءه سوى الحقد المضطرم الدفين ، والرغبة الخفية الصادقة فى الأخذ بالثأر .

نابليون و بروسيا

ولكن الإهانات التى صُبَّت على رأس بروسيا كانت أدهى وأمر . فإنه ليس أمراً تُسر له أمة تحترم نفسها أن تجبرها دولة أجنبية على أن تنهب جاراً صديقاً ليس بينها وبينه شجار . ولكن البروسيين أُرغموا على أن يضحوا بشرفهم هذه التضحية الفريدة فى بابها . فقد طلب إليهم نابليون أن يستولوا على هانوفر ، ويعلنوا الحرب على إنجلترا (طبق معاهدة شونبرون Schönbrunn المبرمة فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٥) . فرأى الأشراف ذوو النفوس الأبية من البروسيين هذا الأمر عاراً عليهم وشناراً . ولكن حينما عُلِم فى برلين بعد ذلك بقليل ، بأن نابليون عرض سراً على إنجلترا (أغسطس سنة ١٨٠٦) إعادة هانوفر إليها ، غضبت حكومة فردريك وليم الثالث وثارت لهذه الإهانة الغادرة ، وامتشقت الحسام . ولكنها هزمت فى ملحمتى يينا وأورشتاد Auerstadt

تلست

وفى تلست (٨ يوليو سنة ١٨٠٧) فرض الظافر على بروسيا أفدح العقوبات – ما خلا عقوبة الإبادة التامة التى كان فى مقدوره أيضاً فرضها – دون أن تثنيه توسلات الملكة مارى لويز Marie Louise البليغة وتضرعاتها الفصيحة . فأقام دوقية تدعى دوقية وارسو ، خاضعة لحكم ملك سكسونيا فى الجنوب ، وأنشأ فى الغرب مملكة وستفاليا ، ونصب عليها أخاه چيروم بونابرت Jerome Bonaparte وضم إليها عدة ولايات سلخها من بروسيا ، كى يبقى هذا العدو المغلوب يرسف فى أغلال ضعفه ، وأكمل إخضاع تلك الأمة الباسلة بجباية تعويضـــات حربية باهظة منها ، واستقرار جيش احتلال ثقيل الوطأة والنفقة فى أرضها ، وتحديد قواتها المسلحة تحديداً دقيقاً . ومن عجب أن نابليون أظهر بعد ذلك ندماً على شفقته ، مستمسكاً بوهم الغزاة الفاسد بأن فى الإمكان القضاء على أمة مقهورة قضاء مستديماً .

انضمام روسيا إلى الحصار القارى

وفى نفس الوقت بدا لنابليون كأن إسكندر الأول الصديق الجديد ، اللطيف المعشر ، الشديد الحماس ، الذى عقد معه أواصر الصداقة فى تلست ، يستطيع أن يقدم له مزايا أثبت وأدوم مما قد يمكنه الحصول عليها من وراء تحالف نمساوى أو بروسى . فقد اعترف القيصر على رءوس الأشهاد بفتوح نابليون ، وربط نفسه فى مواد سرية بمعاهدة تلست بأنه فى حالة رفض إنجلترا قبول توسط روسيا بينها وبين نابليون ، فإنه ينضم إلى الحصار القارى ، ويُكره الدانمارك والسويد والبرتغال والنمسا على إعلان الحرب على التجارة الإنجليزية . وقد أمل نابليون بمساعدة قوية كهذه أن يثبّت على أساس مكين دولته فى الغرب .

وقد بلغ فى يونيو سنة ١٨٠٧ ذروة مجده وغاية سؤدده . وأُنقذ بمعجزة – بواسطة نصر فريدلند المبين – من ألف تهلكة وتهلكة . فقد صارت النمسا وبروسيا تحت موطئ قدميه ، وروسيا حليفته ، وضم اللحد جثمان پت . فهل يستطيع يا ترى أهل جزيرة إنجلترا ، وقد تسلم مقاليد أمورهم رجل كالدوق پورتلند Duke of Portland أن يجسروا على رفض مصالحته ؟

تدمير الأسطول الدنماركى

ولكن أهل الجزيرة أبوا عليه ذلك وتنكروا . فإن جورج كانِنْج George Canning وزير الخارجية الشاب فى وزارة پورتلند ، إذ درى بالمواد السرية بصلح تلست ، أشار بالاستيلاء على الأسطول الدانماركى الراسى بكوبنهاجن (سبتمبر سنة ١٨٠٧) قبل أن يقع فى قبضة أعدائه . وبهـذا التهجم المثير للضغينة على أمة ضعيفة بريئة ، أتم كاننج عمل نلسن فى معركة الطرف الأغر ، وحصل لوطنه على سيادة البحار دون منازع .

المعضلة الإيطالية

ولكن الحصار القارى الذى غدا سلاح نابليون الوحيد المشهور فى وجه إنجلترا كان ينطوى ، إذا أريد تنفيذه تنفيذاً محكماً ، على التسيطر السياسى على إيطاليا ، وعلى أسبانيا . وكانت معضلة إيطاليا أخف على العموم من المعضلة التى نشأت عن روح الوطنية العنيفة التى أظهرتها أسبانيا . فإن نابليون إذ كان إيطاليا بدمه ولسانه ، كان يملك أقوى التوصيات إلى شعب ما انفك أبناؤه — رغم أقسامهم السياسية الشديدة العداوة — يحتفظون فى نفوسهم بخلجة من العزة القومية . أضف إلى ذلك أن إيطاليا، بعكس أسبانيا ، ألِفَتْ منذ زمن طويل أن تُغزى من الشمال .

فإذا كان الحكم الفرنسى أجنبياً عنها ، فإنه لم يكن بأجنبى أكثر من السيطرة النمساوية أو الحكم الأسبانى اللذين سبقاه . بل كان بالأحرى أشد منهما ترفقاً . وكان لأفكار الثورة الفرنسية أنصار وأشياع عديدون فى مدن لمبارديا الآهلة ، حتى قبل أن تتدفق على السهول الإيطالية جيوش نابليون المهلهلة . ومن ثم كانت إيطاليا غير مهيأة من الوجهة المعنوية لمقاومة نابليون . فلم تكن بها ملكية وطنية ، ولم تكن تملك جيشاً وطنياً ، أو تستمسك بتقاليد وطنية . ولهذا السبب فإنه عند ما تقوضت دعائم المقاومة النمساوية فى الشمال ، الأمر الذى حدث بعد هزيمتى مارنجو واسترلتز ، كان طرد ملك نابولى البوربونى الضعيف ، وإقامة الحكم الفرنسى فى فلورنسا وروما ، عمليتين هينتين يسيرتين . ومع أن تحريم السلع البريطانية من دخول ثغور إيطاليا كان سياسة تواجهها حقاً عقبات كثيرة ، كالهجمات التى يمكن شنها مثلا

من صقلية بمساعدة بريطانيا ، إلا أن هذا التحريم مع ذلك كان سياسة فى الإمكان تنفيذها بواسطة الموارد التى كانت تحت إمرة نابليون .

النزاع مع البابا

أما الصعوبة الكبرى فكانت أدبية . فإن تنفيذ الحصار الإيطالى تنفيذاً مشدداً كان ينطوى على إثارة نابليون النزاع مع البابا . ولذا كان نقصاً خارقاً للعادة حسن تقدير رجل عبقرى مثله للأمور ، رجل يدرك إدراكاً كاملا أهمية احترام عواطف الكاثوليك فى إمبراطوريته المترامية الأطراف ، فإنه بدلا من احتماله حيدة الڤاتيكان ، نفى البابا فى مايو سنة ١٨٠٩ من ولاياته ، وألقاه فى السجن ، وضم أملاكه ، وربطها بالنظام الإدارى للإمبراطورية الفرنسية .

ومع أن الإيطاليين هم على الأرجح أقل شعوب البحر الأبيض المتوسط تدينا ، إلا أن البابوية كانت فى نظرهم تمثل مجداً من أمجاد وطنهم التاريخية . ولذا استنكروا هوانها ، واستثارهم تحقيرها . والحق أنه من بين أغلاط نابليون الخطيرة ، لم يكن ثمة غلطة قُدِّر لها أن تهز من الأعماق أسس سلطانه ، لا فى إيطاليا وحدها ، بل فى جميع أنحاء العالم الكاثوليكى ، أشد من هذه الإهانة التى وجهها بلا مسوغ وبلا ضرورة للكرسى البابوى ، وللتقاليد الرومانية .

٢ - الحرب الأسبانية

سوء تقدير نابليون

وفى الوقت الذى كان فيه هذا الشجار مع البابا ناشباً ، شن نابليون الهجوم على أسبانيا : أشد أمصار أوربا تمسكاً بأهداب الدين ، وأقلها تأثراً بالبدع الانقلابية . ورغم قبض حكومة ضعيفة خاملة واهية العرى على مقاليد الأمر فيها ، فإنها كانت تفيض حماساً ووطنية وفخاراً . وقد شن نابليون الحرب عليها ، مع أنه كان لا بد يعلم المميزات العامة لجغرافية شبه جزيرة إيبريا ومناخها ، وكيف أن ترتيب الجبال والأنهر بأكمله يقف حائلا فى وجه كل

غازٍ يأتيها من الشمال ، وكيف أنه فى تلك الهضبة المرتفعة التى يتألف منها وسط أسبانيا ، والتى تلفحها الشمس بحرارة استوائية آونة ، وتتجمد أرضها بهبوب رياح قطبية آونة أخرى . لا يستطيع جيش كبير أن يأمل فى أن يموّن نفسه من غير الاستعانة بهيئة حكومية تضطلع بسد جميع حوائجه .

ولكن ما كان أخطر وأمر ، حتى من الشمس المحرقة ، والصقيع القارى ، والأنهر والجبال والبطاح الجرداء ، هو الخطر الكامن فى نفسية الشعب الأسبانى . فقد كان الأسبان فى عزلة عن حياة أوربا العامة . وكانت لهم مثل عليا مختلفة ، وأفكار مختلفة وعادات مختلفة عن مثيلاتها فى أوربا . فإن لوناً من ألوان الإهمال والتفريط ، نصفه اعتداد وكبرياء ، ونصفه الآخر تكاسل وتراخ ، قد عاق تقدم ضروب الرفاهية المادية التى عاونت فى أقطار أخرى على شحذ القرائح والهمم . فإن الثلث فقط من أرض أسبانيا كان يُفلَح . ورغم سيطرتها على إمبراطورية شاسعة عبر المحيطات ، فإنها لم تكن تملك أسطولا تجارياً ، بل إن تجارتها المنقولة فى البحر الأبيض كانت فى يد الأجانب . وكان الجهل فيها فاشياً ، والفقر ليس بمعيب .

روح الاسبان المحافظة

ولم تصادف فلسفة التحرير التى سادت القرن الثامن عشر هوى فى أفئدة الفلاحين والرهبان والقساوسة والمتشردين والمهربين وقطاع الطرق الذين تألف منهم السواد الأعظم من الشعب الأسبانى . فإن ملكاً مستنيراً كشارل الثالث (١٧٥٩ – ١٧٨٨) وهو خير ملوك البوربون الأسبان – هذا العاهل الذى نفى من بلاده الجزويت وألغى مصارعات الثيران ، واجتهد فى أن ينعش الصناعات الأهلية الخاملة ، بدلا من أن يكون موضع التبجيل فى عيون رعاياه من أجل إصلاحاته النافعة ، كان لهذا السبب بعينه محط بالغ بغضائهم وشديد موجدتهم . وعلى أثر وفاته فى سنة ١٧٨٨ ، استعاد أعداء الإصلاح وأنصار الرجعية الذين لم يمكن مطلقاً زعزعة دولتهم فى الأقاليم الريفية – استعادوا سلطانهم فى دوائر البلاط والحكومة .

ولهذا يمكن بسهولة للمرء أن يتصور كم كانت كريهة مبغضة لأسبانيا

مبادئ تلك الفلسفة الأجنبية المعادية للبابوية ، المنَفَّذَة بحراب فرنسا . فلم يكن الأسبان يقيمون أقل وزن لحقوق الإنسان ، ولكنهم كانوا يعنون أكبر العناية بالدين الكاثوليكى وعادات البلاد وعرفها. ولم تكن تعنى موازين أوربا ومقاييسها إلا قليلا عند هذه الأمة الجادة المزهوة التى تغلب عليها روح الفردية ، والتى كانت الكنيسة أقرب إلى نفوس أبنائها من المدينة ، والمدينة أقرب إليهم من المديرية ، والمديرية من المملكة ، والمملكة من سائر أرجاء العالم . وقد بلغ من قلة اكتراثهم بجبروت نابليون أن مقاطعة كمقاطعة أستوريا ، لا تملك إلا قوة مسلحة مؤلفة من ثمانية عشر ألف محارب ، لم تتردد فى رفع علم الثورة فى وجه الإمبراطورية الفرنسية . ولم يُعِر أندلسيو الشرق ، وغاليغيو الغرب ، وقشتاليو السواحل الشرقية ، أى اهتمام للحقيقة الواقعة ، وهى أن مدريد التى كانت مركزاً لنظام الطرق فى أسبانيا احتُلَّت سنين عديدة بواسطة الجند الفرنسيين .

وطنيتهم

ولم يكن الأسبان يقاتلون بعد أن يحسبوا حساباً دقيقاً فرص النجاح ، ويوازنوها بفرص الفشل . فإنهم رغم هزائمهم العديدة أمام الجيوش الفرنسية ، لم تخفهم سطوة فرنسا وبأسها . ومع أن جيوشهم كانت مجهزة تجهيزاً سيئاً بالبنادق وفرق الفرسان ، ومع أن نظامهم كان مهلهلا ، وروحهم المعنوية غير موثوق بها ، فقد كانوا أساتذة بارعين فى حرب العصابات : تلك الحرب التى تلائم طبيعة بلادهم أكبر ملاءمة ، والتى ضايقت عدوهم أشد مضايقة . فقد وجد الفرنسيون أنفسهم على الدوام على كثب من خصمهم المتوحش المراوغ العنيد . كما أن خط مواصلاتهم الطويل الممتد من جبال البرانس إلى مدريد لم يكن آمناً فى أية لحظة من اللحظات ، من القناصين الأسبان ، والسفاحين الأسبان ، ومكامن الأسبان .

أهمية الحرب الاسبانية

ولقد تعاظمت على نابليون أضرار التمرد الأسبانى الذى كان الحلقة الأولى من سلسلة ثورات قومية ضد الامبراطورية الفرنسية . ذلك لأنه أتاح لجيش إنجلترا البرى الصغير مساحة تمكنه من أن يستخدم فيها قواته وموارده أحسن استخدام . فإلى هذه اللحظة التى قررت فيها الوزارة البريطانية أن تشد أزر

البرتغال وأسبانيا ، بعثرت قوة الجيش الإنجليزى بين عدد من المغامرات المرتجلة غير المرتبطة : فى ڤاندى ، وفى جزر الهند الغربية ، وفى هولندا ، وفى جنوب إيطاليا ؛ مغامرات لم يكن لها تأثير محسوس فى مجرى الحرب العام . أما الآن فقد ووجهت بالواجب العظيم ، وهو إقصاء الفرنسيين إلى شمال البرانس ، بمساعدة كتائب البرتغال وأسبانيا الوطنية . ولم يصبح فى استطاعة الجنود الإنجليز أن يؤثروا بقواتهم فى سير القتال فحسب ، بل أن يعززوا أيضاً مقاومة الشعبين الإيبريين .

آرثر وازلى

وإن الانتفاع بهذه الفرصة العظيمة إلى أقصى حدود الانتفاع ، وعدم تبديد الجيش الإنجليزى الصغير فى إسبانيا تبديداً أحمق ، بل استخدامه استخداماً حكيما بالتضامن مع حلفائه ، مما ترتب عليه إلزام فرنسا بالاحتفاظ بجيش كبير فى أسبانيا ، ومطاردة الجيش الفرنسى فيما بعد إلى ما وراء جبال البرانس ، ليرجع الفضل فيه كله إلى العبقرية الفذة لقائد فحل ، هو آرثر ولزلى Arthur Wellesley . وقد قضى ولزلى قبل مجيئه إلى أسبانيا على قوة المهراتيين الهنود Mahrattas فى ملحمة أساى Assaye (١٨٠٣) . ثم أتاحت له حرب شبه جزيرة إيبريا الفرصة لإظهار تلك الخلة الفريدة التى تحلى بها فى الجمع بين الحكمة السياسية وأصالة الخطط الحربية ، هذه الخلة التى بدونها لم يكن يستطاع مطلقا توجيه موارد البرتغال وأسبانيا إذ ذاك توجيهاً فعالا ضد العدو المشترك .

ولقد كانت خطط انتصاره الأوربى الأول تحاكى خطط انتصاره الأخير . ففى ڤميرو Vimiero (أغسطس سنة ١٨٠٨) ، كما فى ووترلو Waterloo (يونيو سنة ١٨١٥) ، جاءه النصر بمواجهته العدو بصف رفيع من المشاة البريطانيين المغاوير الذين أُحسِن اختيار مراكزهم ، كما أُحسِن حجبهم عن الأنظار ، والذين دربوا على الاحتفاظ بطلقاتهم إلى الوقت الذى يثقون فيه من إصابة رؤوس صفوف العدو المتقدمة . فقد كان جوهر خطط ولزلى التكتيكية ، هو أنه يمكن الاعتماد على الصف من الجند line بأن يقهر «القول» منهم Column . وكانت هذه الخطة أهم درس من دروس حرب شبه جزيرة إيبريا :

خطط نابليون

وقد يجدر بنا أن نذكر هنا شيئاً عن الطريقة التى سلكها نابليون فى دخول أسبانيا ، وعن ماهية وعواقب الصدمة التى صُدِم بها شعبًا إيبريا .

ففى مساء معركة يينا (١٨٠٦) أمر جودوا Godoy حبيب ملكة أسبانيا، وبغيض الأمة الأسبانية ، والحاكم الحقيقى للبلاد ، أمر بتعبئة الجيش الأسبانى معتمداً على إحراز الجيش البروسى سيلا من الانتصارات على نابليون . فما كان من الأخير سوى أن انتقم من هذه الحماقة الفجة التى نفذت إلى أعماق نفسه ، بدهاء مكياڤللى بلغ الغاية القصوى من البراعة . فبدلا من أن ينزل بأسبانيا العقاب المنظور السريع ، أكرهها على إمضاء معاهدة فى فنتنبلو Fontainebleau (أكتوبر سنة ١٨٠٧) تعهدت فيها بالاشتراك مع فرنسا فى هجوم على البرتغال : هذا القطر الصغير الذى ملأ كثيراً من قباء قصور أشراف الإنجليز وسراتهم ببنت عنبه ، وآوى عدداً وفيراً من الأساطيل الانجليزية ، وكان الوحيد، من بين أقطار القارة ، الذى ظلت أسواقه مفتوحة على مصراعيها للتجارة الانجليزية

وكان فتح نابليون للبرتغال الذى تم بسهولة مجرد مقدمة لخطة أكبر . فإنه لم يكفه أن يقصى الوصى على عرش البرتغال عن حاضرة البلاد ، فيضطره إلى الابحار إلى البرازيل ، بل عقد نيته على طرد آل بوربون من أسبانيا . فاتخذ التكئة الملائمة الخاصة بضرورات الحملة البرتغالية ، وتدفقت القوات الفرنسية على أسبانيا تشق طريقها عبر البرانس ، واستولت على الحصون التى على الحدود ، وتقدمت صوب مدريد .

ملكية اسبانيا

فغلا مرجل حنق الشعب وسخطه على هذا الصنى الذى فتح أبواب الوطن أمام عدو لا يرعى عهداً ، ولا يخفر ذمة . ونشب شغب فى أرنجويز Aranguez المقر الربيعى للملك والملكة ، عند ما علم الشعب بأنهما يفكران فى الهرب مع جودوا إلى جزر الهند الغربية . فتنازل شارل التعس عن سرير الملك كى ينقذ حياة العشيق . وارتقى العرش مكانه ابنه فردينند . ولكن ميرا Murat قائد الجيش الفرنسى الزاحف كان فى هذه الأثناء قد احتل مدريد ، فأصبح نابليون بذلك سيد الموقف . فرفض الاعتراف بالملك الجديد ، وأمر شارل بسحب تنازله . ولم

يمض غير قليل حتى أُغويت الأسرة المالكة برمتها : الملك والملكة وولى العهد، على التوجه إلى بايون Bayonne ، حيث أُكرِه الملك وولى العهد على التنازل عن جميع حقوقهما فى العرش . وقبل يوسف بونابرت أخو نابليون فى مايو سنة ١٨٠٨ الجلوس على العرش الشاغر ، بعد أن رفضه أخوه لويس . بينما خير ميرا زوج أخت نابليون بين عرشى البرتغال ونابلى ، فاستقر رأيه بحكمة وتبصر ، على أن يحكم فى نابلى (يوليو سنة ١٨٠٨) .

تعلق الاسبان بأسرتهم المالكة

وكان الأسبان ملكيين إكليروسيين . وليس أدل على تأخرهم من قبولهم دون همسة احتجاج أوتقراطية شارل الرابع الضعيفة العاجزة . وكان الكورتيز Cortes قد انحط شأنه ، وبطلت دعوته إلى الانعقاد ، ولم يكن عصر الصحافة قد بدأ بعد. ولم يوجه الأسبان فتنهم ومؤامراتهم —التى أعانت نابليون على تنفيذ انقلاب بايون — ضد مبدأ الملكية ، بل ضد نفوذ حبيب الملكة الممقوت . ولم يُنقِص من ولاء الاسبان العميق وإخلاصهم المكين لمبدأ الملكية ، ضعف شارل وعدم كفايته، أو رذائل زوجه المتبذلة ، أو جبن ولى عهده وغدره . كما أنهم لم يفتحوا صدورهم بالترحيب بنابليون، لمنحه إياهم هذا الدستور الحر الذى وضعه لهم وهو فى بايون ، أو لأنهم أملوا قيام حكومة ناهضة تحت حكم يوسف بونابرت ، تسعى إلى ترقية الشعب والعناية بالمستعمرات .

فلو أن يوسف بونابرت كان مَلَكاً هبط عليهم من السماء، أو لو أن دستور بايون قد نزل به الوحى ، لما انفك الأسبان عن تبجيلهم لفرديناند الحقـير الخسيس ، والتعلق به .

فقد ظل هذا الأمير الشقى طوال حرب شبه الجزيرة معبود الأمة الأسبانية .أما أنه تمسح بنابليون وتملقه ، وأنه أظهر جبناً وضيعاً ، وأنه تآمر على والده ، وأنه لم يكن به ذرة من الذكاء ، وأنه كان غادراً بأصدقائه ومريديه ، فهذه جميعها اعتبارات لم تكن فى نظرهم شيئاً مذكوراً، بالقياس إلى هذه الحقيقة الواقعة : وهى أنه كان الوريث الشرعى للتاج الأسبانى . ولهذا لم يكن ثمة مفر من أن يتبع سقوط حكم نابليون عودة فرديناند إلى أريكة الملك .

دستور سنة ١٨١٢

بيد أنه رغم أوبة أسبانيا إلى تقاليدها ونظمها العتيقة بأوبة فرديناند، فإن نضال شبه الجزيرة ، وما جرته الحرب عليها من تعاسة وشقاء ، خلق فى البلاد حزباً وطنياً حراً . فقد اضطر الأسبان أثناء خلو العرش إلى أن يعنوا بشئونهم ، فأنشأوا مجلساً مركزياً Junta . ولكن هذا المجلس اضطر أمام تيار الغزو الفرنسى المتقدم أن يلتجىء أولا إلى أشبيلية ثم إلى قادس . وفى المدينة الأخيرة التأم عقد « كورتيز » صاغ للبلاد دستوراً (١٨١٢) . وفى هذه المدينة أيضاً نشبت للمرة الأولى فى تاريخ أسبانيا ملحمة بصدد القضية الجوهرية الخاصة بالحرية الشخصية : وهى ملحمة كان من أثرها بروز حزبين سياسيين عرفا على التوالى بحزب الأحرار Liberales وحزب العبيد Serviles ، اللذين استمرا يقسمان الرأى السياسى فى أسبانيا طيلة القرن التاسع عشر . ومع أن دستور سنة ١٨١٢ هذا قَبِل مبدأ الملكية الوراثية ، وحصر حق الانتخاب فى الأسبان الكاثوليك ، إلا أنه كان ميثاقاً يمثل الرأى الحر الراديكالى فى المدن الساحلية ورأى لفيف من القواد العسكريين ، أكثر من تمثيله الجهات الداخلية ذات النزعة المحافِظة فى أسبانيا .

وقد قضى هذا الدستور بحق الانتخاب العام ، وإنشاء مجلس نيابى واحد ، وتمثيل المستعمرات ، وإلغاء التعذيب فى التحقيق الجنائى ومصادرة الأملاك . ولهذا كانت أحكامه أرقى مما تستأهله أسبانيا فى ذلك الحين . ولذا لم يوضع قط موضع التنفيذ . ولكن رغم هذا كله فإن هذا الميثاق الحر لذو أهمية دائمة فى التاريخ الأسبانى . فإنه وإن لم يصبح قط أداة من أدوات الحكم ، فقد كان لواءً للتمرد والثورة ، ورمزاً لوجوب إقامة برلمان شامل لأسبانيا كلها ، يقر الضرائب ، ويسن القوانين ، ويحد من سلطان الملكية وقوة الكنيسة .

ومن أسبانيا ، أشد أصقاع أوربا رجعية ، اقتبست السياسة الانجليزية الاصطلاح Liberal ، أو « حر » .

الفصل السابع

نابليون وألمانيا

الحكومة النابليونية . بعث بروسيا . جيته
كمحرر . النصيب الألمانى فى الأدب الأوربى

١ – بعث بروسيا

أثر الحكومة النابليونية

كانت النظم التى وضعها نابليون لحكم ألمانيا حدثاً قاسياً فى تاريخ الأمة الألمانية ، ولكنه حدث مطهر نافع . فقد أزاحت هذه النظم كثيراً من النفايات المتراكمة غير المجدية ، وساعدت على إشاعة كثير من الأفكار المفيدة الطيبة . فإن الجماعات التى سادها دهراً طويلا روح القناعة والاكتفاء الذاتى ، أخذت بفعل تنبيه تلك الأفكار تنشط للقيام بالإصلاحات النافعة . وكان من بين هذه الاصلاحات تبسيط عظيم لجغرافية ألمانيا السياسية المعقدة : وهو تبسيط ترتب عليه القضاء على مائة وعشرين ولاية صغيرة . وقد وُضع هذا التقسيم الجديد لألمانيا فى باريس سنة ١٨٠٢ ، كنتيجة للتعويضات التى كان على نابليون أن يقدمها إلى الأمراء الألمان الذين أكرههم الفتح الفرنسى على النزول عن أملاكهم على الضفة اليسرى لنهر الرين .

مشروع نابليون

ولا يمكن للمؤرخ المدقق أن يغفل هذه الصفقات الدنيئة . فقد نتج عن « قانون التسوية » Act of Mediation – كما سُمى ذلك المشروع – أن برزت ألمانيا كدولة أسهل إدارة وأيسر اتحاداً مما كانت ، كما كان من أثره أن صارت دولة أكبر قوة وأشدخطراً على جاراتها الغربية .

وقد اتبع مشروع نابليون فى قواعده العامة سياسة فرنسا التقليدية . فقد كُوِّن فى يوليو سنة ١٨٠٦ اتحاد الرين تحت رياسة الإمبراطور الفرنسى ، ليقوم كعامل توازن ضد العدوين المقهورين الغاضبين : النمسا وبروسيا . وكان بعض أعضاء هذا الاتحاد ولايات حديثة ، خُلِقت خلقاً من أملاك اقتطعت من دول معادية مغلوبة على أمرها ، فى حين أن بعض الولايات الأخرى كبافاريا وورتمبرج كانت أعضاء قدامى فى الريخ الألمانى . وليس ثمت ما هو أدل على التغيير الذى طرأ على ألمانيا منذ تلك الأيام ، من السهولة التى أُلف بها اتحاد الرين ، وسير فى مجراه ، والتعضيد الكبير الذى لقيه نابليون من الأمراء الألمان فى اتباعه سياسة معادية للقومية الألمانية . حقاً لقد أعطى رشّى لحكامها : فمُنِح حاكما بافاريا وورتمبرج لقب ملك ، وأمير بادن لقب دوق أعظم ، كما صاهر بعض آخر منهم البيت الإمبراطورى الفرنسى .

ولم يكن فى ألمانيا بعد ملحمتى استرلتز وييناء قوة مسلحة تستطيع أن تقف أمام جيش نابليون الجرار . وليست العلة لظاهرة غريبة كهذه راجعة إلى خوف الولايات الألمانية ، أو فسادهاوانحلالها ، بل لأن شعور العطف العام فى كل من بافاريا ، حيث كان ينظر إلى النمسا كخطر ماثل ، وفى أراضى الرين حيث كان البروسيون غير محبوبين — كان هذا الشعور ملائماً لأغراض فرنسا وقتئذ. ثم انقلب هذا الشعور الودى نحوها إلى حقد مرير عليها من جراء إرهاق نابليون لها إرهاقاً شديداً فى تجنيد أبنائها ، وسفك دمائهم فى حروبه .

مشاعر الألمان

فلهذه الأسباب لم يسكب أمراء اتحاد الرين الدمع عند ما فقدت النمسا تفوقها القديم العهد فى ألمانيا ، أو عند ما أسلمت الامبراطورية الرومانية المقدسة الروح فى ٦ أغسطس سنة ١٨٠٦ . ولم يظهروا عطفاً على بروسيا فى ساعة هوانها ومذلتها . وحتى فى مملكة وستفاليا التى تألفت وقتئذ من مزيج عجيب من ولايات ِهسْ وهانوفر وبرنزوك، التى ضُمَّ أهلها بعضهم إلى بعض على كره منهم ، تحت حكم الملك چيروم — أصغر إخوة نابليون — الحلو الشمائل ، ولكنه المحب

للعبث والمرح ، — حتى فى هذه المملكة تقدمت خيرة الأسرات الألمانية لشد أزر الحكومة الأجنبية .

ويوجد من الناس بعض يظن أن دولة ألمانية متزنة التأليف على هذا النحو : فيها بروسيا منتزَعة منها مقاطعاتها الوستفالية والبولندية ، والنمسا مقصية عنها ، وبها عصبة من الأمراء تستمد توجيهها السياسى من فرنسا — يوجد بعض يظن أن دولة ألمانية كهذه ، تغدو عاملاً يساعد على قيام عالم أعظم استقراراً وأثبت أركاناً .

ولكن أيا كان الأمر ، فإن هذه التجربة لم توضع قط موضع التنفيذ زمن السلم ؛ فإن ألمانيا النابليونية كانت من أول أيامها إلى آخرها أداة من أدوات الحرب الموجهة ضد إنجلترا . فقد أُكرِهت على قطع صلاتها التجارية بالمستعمرات الإنجليزية ، وفى الوقت عينه حرمت تجارتها من الدخول إلى أسواق فرنسا . وأمسكت بخناقها جيوش الاحتلال الأجنبية التى أطلقت لنفسها العنان فى النهب والابتزاز ، واستنزفت دماء أبنائها . ولذا فقد يُغتفر للألمان إذا هم عدَّلوا من نظرتهم الودية الأولى نحو الفرنسيين ، وانتهوا إلى ألاَّ يبتغوا شيئاً أعظم من نهوض أمة ألمانية لها من القوة ما يمكنها من خلع النير الأجنبى ، وتدأب بعين لا تغفل على الدفاع عن الرين الألمانى . واليهود الذين استنشقوا نسيم الحرية من أحيائهم الضيقة وأزقتهم الخاصة ، والذين سُووا بالوطنيين الألمان ، هم وحدهم الذين استمروا يندبون سقوط نابليون محررهم .

تزعم بروسيا حركة التحرير

وأخيراً عند ما تحول بندول الرأى العام الألمانى ضد الحكم الأجنبى ، كان الرأس المفكر والقلب النابض فى ألمانيا هما بروسيا . ففى تلك المملكة التى ظلت ردحاً طويلا من الزمن مغنطيساً يجذب إليه من كل فج الرجال ذوى الكفاية والمقدرة لخدمتها ، نفذت عبرة يينا إلى أعماق نفوس فئة قليلة من الوطنيين المفكرين الشديدى النشاط الكبيرى الهمة . وإنه لمن دواعى مجد وفخار شارنهرست Scharnhorst وكلاوزفتز Clausewitz وشتاين Stein وهاردنبرج Hardenberg ، أنهم نظروا إلى المسألة البروسية فى أوسع معانيها . فرأوا أن بلادهم فى حاجة ، لا إلى الإصلاح الحربى وحده ، بل إلى الإحياء الوطنى

واليقظة القومية . وقد كانت نتيجة عملهم بوجه عام أنهم نفخوا فى أبناء وطنهم روح العزة القومية ، ومنحوا جيشاً مستذلا وأمة مستكينة بعض مزايا الحرية المجيدة.

ولا يحدث غالباً أن تُدرَك بمثل الوضوح الذى أدرك به البروسيون وقتئذ هذه العظة ، وهى أن أسباب هزيمة منكرة كتلك التى أصيبوا بها ترجع إلى العامل الخلقى الأدبى . وما كان إلا سياسياً كبيراً ضليعا كشتاين يستطيع أن يفطن إلى أنه يجدر ، لبعث بروسيا بعثاً حربياً، منح المدن البروسية قسطاً من الحكم الذاتى ، والعناية بأحوال الفلاحين الاجتماعية . ولا يضيره أو ينقص من مدى بصره بالأمور ، أنه تلقى دروسه هذه من الفرنسيين ، الذين كانوا قد حرروا من قبل طبقة الفلاحين فى بولندا ووستفاليا .

٢ – جيته كمحرر

عصره

ومما امتازت به حالة الإمبراطورية الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر أن جيته الذى خلق الأدب المستحدث فى بلاده لم يكن مسيحياً ، ولا بطلا ، ولا وطنياً . وقد عاصرت حياته الطويلة التى بدأت سنة ١٧٤٩ ، وانصرم حبلها سنة ١٨٣٢ ، عصراً شاع فيه العنف والتغيرات المتواصلة . فلقد كان صبياً فى السابعة من العمر ، عند ما نشبت حرب السنين السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣) . وكتب منظومته Gotz von Berlichingen فى العـام الأخير من حكم لويس الخامس عشر (١٧٧٤) . وأعقبها على الفور برواية « أحزان ڤِرْتر » ، التى غزت قلوب جماهير القراء لا فى بلاده فحسب ، بل فى الأقطار الأخرى . وعند ما اندلعت نيران الثورة الفرنسية كان جيته رجلا فى الأربعين من العمر ، ويكبر نابليون بعشرين عاماً ، وأشهر أدباء أوربا وأبعدهم صيتاً .

إشادته بفتوح نابليون

ولقد اجتاحت عواصف الثورة والإمبراطورية الفرنسية ألمانيا ، من غير أن تزعج هدوءه الذى قُدَّ من الصخر ، أو أن تثير فى نفسه اهتماماً بمصائر الدول .

وعاش عيشة محمية ميسورة ، كموظف فى بلاط ڤيمار الصغير . وواصل تهذيب نفسه كغاية فى ذاتها ، مستمداً هذا الجانب من وحيه الذى استخرجه من بطون الكتب ، لا من مؤلفات الكتاب الألمان الأولين المملة المائتة ، بل من ينبوع شكسبير الرائع الخيال الفسيح الأرجاء ، ومن كتّاب المسرحيات فى إيطاليا وأسبانيا وشعرائهما ، ومن عيون الأدب الشرقى وروائع أسفاره . وإذ لم يكن جيته مديناً إلا بالتافه القليل للعقل الألمانى ، وكان ينظر إلى البروسيين نظرة ازدراء لغلاظة أكبادهم ، فإنه رحب بعبقرية نابليون وأشاد بفضل فتوحه . وكانت هزيمة الامبراطور الفرنسى فى ليبتزج قذى فى عينه مخيبة لآماله . ولهذا لم ينظم شاعر ألمانيا الأكبر فى الشعر الغنائى شيئاً فى الأدب الخاص بحرب التحرير .

فضله على الأدب الألمانى

ومع هذا فإنه فى معنى واسع عميق ، ليس يوجد فى جيش المحررين الألمان ، من يدانى هذا الشاعر الفحل مرتبة ، أو يوازيه فى جلائل الأعمال . فإنه بتلك الروائع الضخمة الجبارة ، فى النظم وفى النثر ، أعتق الأمة الألمانية من خضوعها النابى للأدب الفرنسى ، الذى كان منذ حرب الثلاثين عاماً آفة على العقل الألمانى القومى . فإن منظوماته الغنائية تنبعث غضة نضرة من هوى محب عاشق ، ونثره الهادئ الجاد الأنيق هو على الدوام واسطة من وسائط نقل المعرفة الإيجابية الحقة والتأمل الناضج . لايشوه أدبه البتة تعرضٌ لفلسفة ما وراء الطبيعة الغامضة ، أو أفكارٌ غير ممتثلة امتثالا كاملا . ولقد كتب فى علم البصريات ، وعلم النبات ، ودرس اللغات الشرقية والطب ، وجلب إلى العلوم ما هو أندر وأقيم من مبدأ القياس المضبوط ، ألا وهو فن الإلهام . فمؤلفاته حافلة بالأفكار والاقتراحات التى وُجدت فى العصور التالية ذات قيمة ونفع .

وقد كانت معايب الأدب الألمانى الكبرى هى الغموض والحذلقة والعواطف المتطرفة . أما جيته فبرغم أنه كثيراً ما يكون مملا ، إلا أنه ليس بالغامض . ومع غزارة علمه ، فهو ليس بالمتحذلق ، ومع أنه كثيراً ما سيطرت عليه أهؤاوه ونزواته الناجمة عن غرامياته التى لا حصر لها ، فإنه لا يصل قط إلى الحد الذى يفقد فيه ذلك القالب الطاهر الذى هو خاصة من خواص الأنانى الكامل . ولو أنه تعلم

من الفرنسيين فن وضع الكتب الموجزة المتناسقة التبويب ، لكان أضاف مأثرة أخرى إلى المآثر العديدة التى أسداها إلى الشعب الألمانى .

ولم يشاطر جيته كتّاب الثورة الفرنسية فكرتهم بأن القانون هو قوام الفضائل البشرية. فروح كتاباته وتعاليمه كلها — التى هى عقيدة عبقرى يشعر باكتفاء ذاتى — تخالف هذه الفكرة وتناقضها . وهو لا يعبأ قلامة ظفر بتقلبات السياسة ومدها وجزرها ، ولا تحد من تفكيره الميول القومية . وقد ناهض جيته إيمان الفرنسيين بالتشريع كالعامل الأول للتقدم البشرى ، ممثلا فى شخصه صورة رجل متفوق المواهب الجثمانية والذهنية اجتهد بكل ما فى وسعه أن يهذب روحه عن طريق الحب والتأليف والفن والعلم والإدارة .

عبقريته

وفى البلاطات الملكية الصغيرة فى ألمانيا ، وفى البقاع المحجوبة المحمية منها حيث ينساب مجرى الحياة فى جداول هادئة ضيقة ، أظهر النشاطُ الجبار والهمة القعساء لهذا الكاتب المتشعب النواحى ، المتنوع الدراسات والاتجاهات ، مدى ما يستطيع أن يصل إليه فنان من السمو ، وأن يحققه من روائع الأعمال ، دون أن تحفزه لذلك حوافز خارجية ، وإنما تدفعه إليها دوافع عقلية وعواطف داخلية . وبينما كان كل شىء فى فيمار ساكناً لا يتحرك ، كانت روح جيته على الدوام فتية ، ومزاجه غضًّا ، يصبو إلى تذوق الحياة حلوها ومرها . وكانت عبقريته فى حركة دائمة ، يتدفق منها فيض من المسرحيات والقصائد والأقاصيص والرسائل دون تقيد بالشكليات . فكان يتحول من الرواية الخيالية المعالجة للعصور الوسطى التى أوحت إلى ولتر سكت Walter Scott بروائع يراعته ، إلى أعصى الدراسات القديمة وأعمقها، ثم يقذف بنفسه فى الشرق ، وأخيراً عمَّر حتى رحب بروائع بيرون . فباستخدام جيته الأنانى الفاتر الوطنية مواهبه الجبارة ، وتسييره تلك المعجزة الدائمة الحركة المجددة لذاتها ، رفع الأمة الألمانية إلى مكانة جديدة فى عالم الفكر الأوربى .

أدباء ألمانيا

ولم يكن جيته فى هذا العمل منفرداً . فان لِسِنْج Lessing وشللر Schiller وهردر Herder وهاينه Heine يعتبرون عن جدارة وحق من

بين أمجاد الأدب الألمانى . ومن هؤلاء ، كان هاينه (١٧٩٩ – ١٨٥٦) يهودياً تشبعت روحه ، بدرجة أقل حتى من جيته ، بتلك الخلة التى تتغالى الآن روح القومية الألمانية المتفجرة فى تقديرها . فإن هاينه الذى قضى طفولته فى دَسلدُرْف حينما كانت حاضرة دوقية بِرْج ، وجزءاً من الامبراطورية النابليونية ، كان يفضل الفرنسيين على الألمان و يبجل كسائر يهود ألمانيا ، نابليون محرر الجنس السامى . وشللر وحده (١٧٥٩ – ١٨٠٥) هو الذى كان يلتهب حماساً سياسياً ألمانى النعرة . ولكن حتى شللر ، أبلغ الحواريين الألمان ، أُجبر على أن يتلقى دروسه فى الحرية من الهولنديين .

ولم تنل هذه الحركات الجبارة المتلاطمة للعقل الألمانى التى تنتسب إلى هذه الفترة ، والمؤلفات الجليلة العديدة لكثير من المؤلفين الألمان ، تقديراً عاماً إلا بعد أن نشرت مدام دى ستايل Madame de Stael سنة ١٨١٠ سفرها المبدع عن ألمانيا . حينئذ كشف الناس أن الأمة التى اجتاحت أرضها جيوش نابليون ، وعوملت بالازدراء الذى هو من نصيب الأمم الخاضعة المنحطة المكانة ، كانت فى الواقع ربة كنز من الشعر والنثر المعاصرين ثمين : كنز فى اتساع وعمق معانيه ، وغنى وابتكار أشكاله ، يفوق أى عمل حديث وُضع فى أى بلاد أخرى من بلدان أوربا . وما وافت سنة ١٨١٥ حتى ألفت ألمانيا نفسها قوة فى عالم الأدب والعلم ، حتى وإن لم تصبح وقتئذ وحدة سياسية . ولكن القمة الروحية التى وصلت إليها حينذاك ، ومجال التأثير الروحى الذى كانت تتمتع به ، لم تستطع قط أن تستعيدهما بعد ذلك .

ومن عجب أن الأدب الألمانى بلغ ذروته فى عصر غلب على ألمانيا فيه الضعف والاستكانة والانقسام السياسى ، حينما كان جيته وشللر أصدقاء فى ڤيمار ، وحينما كانت الروح الوطنية فى أسفل درك . فليس الحكم النابليونى لألمانيا إذن بخال تماماً من الحسنات ، وليس تقدم القومية الألمانية الظافرة محصَّناً لها من مواطن الأخذ واللوم . وقد يتساءل المرء فى التحليل النهائى ، عما إذا كانت ڤيمار لم تصنع

للروح الإنسانية خيراً أعظم مما صنعت برلين ، وعما إذا لم يكن نظام الولايات الألمانية الصغيرة أعظم عوناً للحرية وغرس العواطف وتشذيبها ، من الريخ الحديث الذى تجتاحه أنواء السياسة العالمية ، وتهز أركانه أهواء النضال الداخلى ونزواته .

الفصل الثامن

سقوط نابليون

الصدوع الأولى . الحرب الروسية . حرب التحرير الألمانية . أسباب تأجيل الوحدة الألمانية . حملة عام ١٨١٣ . فرص نابليون الضائعة . حنقه الحربى المطرد . إلبا . عودة البوربون . مؤتمر فينا . إعادة تسوية أوربا . انتصار الحقوق الشرعية . مقارنة بمعاهدات الصلح المبرمة فى ١٩١٩ – ١٩٢٠

١ – الصدوع الأولى

فى أسبانيا

بمغامرة نابليون الأسبانية بدأت تظهر الصدوع الأولى فى صرح الإمبراطورية الفرنسية . فإن تسليم ٢٣٠٠٠ جندى فرنسى فى بايلن Baylen فى ١٩ يوليه سنة ١٨٠٨ ، كان علامة جلية بأن فى يقظة القومية الأسبانية برزت قوة جديدة قادرة على هدم تلك الإمبراطورية . فلقد شجع مثال أسبانيا النمسا ، بمشورة الكونت شتاديون Stadion رئيس وزارتها ، على توطين العزم على استئناف النضال . ففى الحين الذى كان يطارد فيه نابليون جيش سير چون مور Sir John Moore حتى كورونا Corunna ، شرع النمساويون يوغلون فى الأراضى الباڤارية .

التهديد النمساوى

وإن السرعة التى عاد بها نابليون لمقابلة التهديد النمساوى (إبريل سنة ١٨٠٩) ، بعد أن أرجع الموقف فى وسط أسبانيا لصالحه ، والمهارة التى أبداها فى الحركات التى بواسطتها أفلح فى ثلاث ملاحم عنيفة (هى معارك آبنسبرج Abensberg وإكمهل Eckmühl ولاندشوت Landshut) فى دحر النمساويين على ضفاف الدانوب الأوسط ، والصدمة التى لقيها أمام فينا ، وانتصار وجرام Wagram (يوليو سنة ١٨٠٩) الذى كلفه كثيراً : هذه الأمور كلها ، بينما توضح عبقريته غير المنقوصة كقائد ، تدل على الصعوبات المتزايدة

التى أخذت تكتنفه . فإن الجيش النمساوى الذى وقف فى وجهه فى تلك الملاحم كان يختلف جد الاختلاف عن القوات التى أنزل بها نابليون الهزيمة فى مارنجو وأسترلتز . فقد كان أفضل منها تدريباً ، وأحذق قيادة ، وأسمى روحاً معنوية . وقد أدرك نابليون هذه الأمور ، فإنه عندما عارضه لينيه Lainé عقب تلك المعارك ، مصرحا بأن النمسا صارت قوة منهوكة خائرة ، أجابه قائلا : « من الجلى إذن أنك لم تشهد معركة وجرام » .

قيام الفتن

وعلاوة على عودة النمسا إلى النشاط ، كانت هناك علائم تدل على أن آخرين سيحذون حذو أسبانيا. فقد قامت ثورة فى التيرول ضد البافاريين ، واشتعلت فتن غير متصلة العرى فى بروسيا — حوادث تافهة فى ذاتها ، وأُخمدت دون كبير عناء — إلا أنها كانت كافية لتنم عن ظهور صدوع جديدة فى البناء الإمبراطورى . بل إنه فى فرنسا نفسها أخذ يظهر لون من ألوان الكلال والفتور . وفى مؤتمر عقده نابليون مع إسكندر الأول فى إرفرت Erfurt سنة ١٨٠٨ أدلى تاليران بهذه الملاحظة ، وهى أن فتح البلجيك والوصول إلى حدود الرين ، هما من فتوح فرنسا ، أما الفتوح التالية فهى فتوح نابليون وحده .

٢ — الحرب الروسية

فصم التحالف

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الأمور ، كان نابليون يسير تدريجياً نحو تلك المغامرة الروسية الجامحة التى عملت أكثر من حروب شبه جزيرة إيبريا أو الأسطول البريطانى على تحطيم إمبراطوريته . وكانت العلة الظاهرة لفصم التحالف بين العاهلين هى رفض روسيا رفضاً علنياً فى ديسمبر سنة ١٨١٠ إغلاق موانئها فى وجه السفن المحايدة ، واتخاذها تعريفة جمركية ملائمة لواردات المستعمرات الإنجليزية ، ولكنها ضارة بالواردات الفرنسية .

ولم يكن نابلبون مستعداً أن يطيق انحراف حليفه الروسى عن تأييد النظام القارى . ولقد ساورته الشكوك أمداً طويلا فى تلك الصداقة التى تكونت على عجل فى تلست سنة ١٨٠٧ ، إذ كان لا يثق بالقيصر ، وعرف أن القيصر يبادله عدم الثقة ، وأنه لم يغفر له بسهولة تشجيعه البولنديين ، أو زواجه من مارى لويز النمساوية ، وأن الحصار المتواصل المكروه فى كل مكان ، كان أعظم ضرراً، وأشد إرهاقاً ، لتجار وسادة روسيا، منه فى أى بلاد أخرى .

ولهذا عقد النية على جعل السيف القول الفصل بينهما . ولعله كان يؤمل بأن نصراً حاسماً ، كالذى كسبه فى فريدلند ، يظفر به على حدود الإمبراطورية الروسية ، قد يأتى بصلح مبين . كما كان يدور أيضاً فى خلده الرجاء — إذ غـدا الآن واسع الأطماع — بأن يضيف إلى فتوح شرلمان صيت الإسكندر الذائع ، فيحقق حلمه باستخدام روسيا كمحطة على الطريق بين أوربا وآسيا . ولقد قال : إن الناس يرغبون أن يعرفوا إلى أين نحن ذاهبون . إننا سنعمل على الانتهاء من أوربا ، ومن ثم سنهاجم سلابين آخرين أعظم إقداماً وجرأة منا ، وسنغدو بعد ذلك أسياد الهند .

خيبة آمال نابليون

ولكن لم تكن هنالك معركة فريدلند ثانية ، ولم يظفر نابليون بصلح . وما وافى منتصف أغسطس سنة ١٨١٢ حتى كان نابليون فى سمولنسك Smolensk ، وهى فى منتصف المسافة بين نهر النيمن وموسكو ، دون أن ينال فخر نصر فاصل ، وبعد أن فقد من جيشه الجرار مائة ألف مقاتل . فما كان منه إلا أن ضرب عرض الحائط بخطته الأولى الحصيفة التى انطوت على حملة تدوم عامين ، وعزم على الإيغال فى قلب روسيا ، سعياً وراء ذلك النصر الكاسح الذى قد يصرع القيصر ، ويحمله على طلب الصلح مرة ثانية .

ولكن ما حدث فى أسبانيا ، حدث مثله فى روسيا . فقد دب الحماس فى القلوب ، واضطرم حب الوطن فى النفوس ، فلم يقف الروس عن تحمل أى تضحية ، حتى إحراق موسكو ، لمضايقة الجيش الغازى والنيل منه . ومع

أن نابليون استوى فى الكرملين بموسكو ، فقد أبى إسكندر الأول الذى كان يلازمه يومئذ شْتَيْن البروسى ملازمة وثيقة — أبى أن يصيخ السمع لحظة واحدة إلى تلويحات نابليون بالصلح . فقُدِّر للأخير أن يختبر العاقبة التى تجرها روسيا دائماً على العدو الذى يبدأ نضالا غير متعادل مع الشتاء الروسى . فقد قضى التراجع من موسكو القضاء المبرم على الأداة التى فرض بها نابليون سيطرته على أوربا ، وكان إيذاناً بذلك العصيان الذى قام به الشعب الألمانى ضد حكمه ، وهو العصيان الذى جر فى ذيوله على نابليون الاندحار والتنازل عن العرش والنفى ، بعد تطاحن أشبه بالأساطير القديمة .

٣ — حرب التحرير الألمانية

ظهور الروح القومية

وحرب التحرير الألمانية (سنة ١٨١٣) ، بجانب أنها خالدة لتميزها بالقضاء على سلطان نابليون فى وسط أوربا ، فإنها بذرت بذور تلك العاطفة القوية للولاء لألمانيا الكبرى ، تلك العاطفة المشبوبة التى حولت مجرى السياسة فى العالم الحديث . فللمرة الأولى تملكت الشعب الألمانى أمنية مشتركة ، وشاع فيه إحساس واحد . فلقد أوذى كل ألمانى بوطأة الحصار القارى والتجنيد الإجبارى . فصار تحرير الوطن من نير الطغيان الأجنبى الذى لا يطاق ، ودرء الخطر الفرنسى بطريقة ما ، أمنيتين يشترك فيهما القوم على بكرة أبيهم . ولكن التضافر كان بشكل خاص أقوى فى شمال ألمانيا ، حيث تعاون الشعراء والفلاسفة وكتاب النشرات على التبشير بإنجيل أمة ألمانية واحدة .

ومع ذلك فلم يكن ثمت إلى ذلك الحين أمة كهذه . وإنما كان الأمر مجرد تخمر ملتهب قوى للشعور القومى يمكن بفعله ومساعدته أن تُنْجَب أمة وتُبنى تحت توجيه سياسى حازم . ولكن هذا التوجيه لم يبرز إذ ذاك ، ولم تكن ولاية من الولايات الألمانية من القوة والبأس بحيث تستطيع بمفردها

أن تقهر نابليون ، وتضم جميع الألمان تحت لوائها . فبروسيا حيث كان الشعور القومى على أشده ، والزعامة جد مستنيرة ، لم تكن تملك بعدُ جيشاً يستطيع أن ينهض بهذا العمل . فإن هزائم البروسيين والروسيين الأولى فى باوتزن Bautzen ولتزن Lutzen كانت دلالات كافية على أن ألمانيا لن تستطيع أن تنال خلاصها على يد بروسيا وحدها ، حتى إذا هى استطاعت أن تعتمد على تأييد جيش روسى ، هذا التأييد الذى ضمنته لها معاهدة كاليش Kalisch (فبراير سنة ١٨١٣) .

النمسا وألمانيا

وترتب على ذلك أن تحرير ألمانيا لم يكن ليتم من غير مساعدة فعلية من الإمبراطورية النمساوية . ولكن هذه الإمبراطورية كانت وقتئذ فى جملتها دولة غير جرمانية ، وقد قللت باطراد تعهداتها فى الغرب ، فتخلت عن البلجيك وحدود الرين ، وتنازلت عن ممتلكاتها القديمة فى سوابيا Swabia[1] ، وشاهدت اختفاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى شىء من الارتياح . وكانت تهتم بالسيطرة على شمال ووسط إيطاليا ، ومن ثم على الفاتيكان ، أكثر من اهتمامها باستئناف هذا العمل المحفوف بالمخاطر والجحود ، وهو حماية ألمانيا من الاعتداء الفرنسى فى الغرب .

إذن لم يكن للنمسا مصلحة فى قيام دولة ألمانية متحدة . وكان للبرنس مترنخ Metternich (١٧٧٣ — ١٨٥٩) الذى صار الآن يوجه السياسة النمساوية — كان له وجهة نظر بشأن مستقبل ألمانيا تغاير كل المغايرة الأفكار التى كانت تجول فى خاطر هاردنبرج وشتين فى برلين . فبينما كان الزعيمان السياسيان البروسيان يرومان أن يطردا نابليون من ألمانيا بالطعان والنزال ، ومن ثم يخلقان دولة ألمانية متحدة ، كان مترنخ يرغب فى فرض توسطه على الفرق المتناحرة ، وإخراج نابليون من ألمانيا عن طريق المفاوضة ، وإزالة سلطان فرنسا على اتحاد الرين إذا أمكن ، وبذلك يُنْجِب اتحاداً ألمانيا واهى العرى

---

(١) واسمها بالألمانية Sehwaben ، وهى إحدى الدوقيات الألمانية التى قامت فى العصور الوسطى . وتحد بنهر الرين وبحيرة كنستانس واللخ وفرنكونيا . وقد ألفت بعض مدنها ، وأهمها ألم وأوجزبرج وهايلبرون ، عصبة كانت تدعى العصبة السوابية (١٣٣٢ — ١٥٣٤) .

مؤلفاً من ولايات متساوية خاضعة لتزعم النمسا . ولقد تغلبت وقتئذ وجهة النظر النمساوية . فتأجيل الوحدة الألمانية إلى عام ١٨٧٠ ، يرجع إلى أن مساعدة النمسا الحربية كانت ضرورية لتحرير ألمانيا فى سنة ١٨١٣ . وقد استطاعت النمسا ، بتعاون الولايات الألمانية الجنوبية معها طوعاً واختياراً ، أن تنشىء ألمانيا وفق رغائبها .

ويعد المؤرخون البروسيون مأساة من مآسى التاريخ الألمانى أن العواطف الحرة القومية الجياشة التى أثارتها حرب التحرير تُركت تتبخر وتضيع عبثا كما تضيع مياه نهر إفريقى فى الفيافى والرمال ، وأنه برغم الجهود الجبارة والمحن القاسية التى مرت بألمانيا فى تلك الأيام ، قد خرجت بنظام تعاهدى وُضع على نحو يشلّ نشاطها ، ويحرمها من أى سلطان فعلى فى مجالس أوربا السياسية .

ولهذا فإن نابليون فى الحرب الشعواء الطاحنة التى شنها فى ألمانيا سنة ١٨١٣ لم يواجه شعباً متحداً ، بل حكومات دخلت حومة القتال فى أطوار مختلفة من الحرب . ولم يكن من اليسير التأليف بينها — برغم أمانى شعوبها المشتركة — كى تسير معاً طبقاً لخطة مشتركة . فقد كانت النمسا تغار من روسيا ، وكانت جيوش اتحاد الرين خلال المرحلة الأولى من الحرب لا تزال تحارب تحت لواء نابليون ، وفيما عدا الرغبة المشتركة فى التخلص من الفرنسيين ، لم يكن هناك اتفاق سياسى نهائى بين حكومتى فينا وبرلين .

عناد نابليون

بيد أن روسيا وبروسيا والنمسا كانت متفقة معا على ضرورة إرغام نابليون على التنازل عن فتوحه البولندية والألمانية . أما هو فأبى أن يفعل ذلك . فقد قال لمترنخ فى ٢٦ يونيو سنة ١٨١٣ : ما الذى ترومه منى ؟ أتقصد أن أمرغ شرفى فى التراب ؟ إن هذا لن يحدث أبداً . إنى أعرف كيف أموت . ولكنى لن أنزل عن شبر واحد من الأرض . فقد يهزم ملوككم الذين وُلدوا على أرائك العروش عشرين مرة ، ومع ذلك يعودون إلى عواصمهم . أما أنا فليس لى ذلك . فقد رقوت إلى السلطة والنفوذ بحد السيف .

ولكن هذه الروح العنيدة التى لا تقبل تسوية ، كانت أعظم أثراً من الكوارث الحربية التى أخذت على الفور تتعاقب على نابليون فى إرغامه على التنازل عن عرشه . فإنه حتى بعد انتصار أعدائه الساحق عليه فى أكتوبر سنة ١٨١٣ ، حيث أورِد موارد الدمار آخرُ جيش تمكن من حشده بعد جهود فوق طاقة البشر — إنه حتى بعد انتصار الحلفاء عليه ، عرضوا عليه فى نوفمبر الصلح على قاعدة أن تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية : الألب والرين والبرانس ، ولكن هذا العرض رُفض .

ثم لما غزيت فرنسا فى عقر دارها ، وأوقِـع بجيشها المدافع هزيمة فريدة ، كانت بالطبع شروط الحلفاء أقسى . ولكن حتى فى هذا الحين (٤ فبراير سنة ١٨١٤) ، كان فى مكنة نابليون — بتضحية ساڤوى والبلجيك وقبول الحدود القديمة للملكية الفرنسية قبل فتوح الثورة — أن يحتفظ بعرشه . ولكن بعد نبذه هذه الفرصة الأخيرة ، لم يدر فى خلد الحلفاء سوى فكرة واحدة وهى أن ينزلوه عن العرش ، كما أنزل هو كثيراً من ضحاياه الملوك .

أما أن تقرّ إنجلترا احتفاظ نابليون الدائم بالبلجيك ، وأما أن تظل فرنسا خاضعة له إذا ما هو فرّط فى هذه الثمرة الثمينة من ثمار الثورة ، فهاتان مسألتان كثيراً ما عرضتا على بساط البحث ، ووجدتا من يدافع عنهما دفاعاً مستساغاً مقبولا . ولكن جدير بنا حينما يقدّم تاريخ الثورة والإمبراطورية كحادث روائى ينتهى بنهاية محتومة ، نتيجة هذا الخطأ القاتل ، وهو فتح البلجيك الذى كان لا مفر لنابليون من أن يدافع عنه مهما كلفه الدفاع ، والذى صممت إنجلترا لاعتبارات قوية قاطعة على مناهضته — جدير بنا أن نلاحظ أنه حتى بعد ملحمة ليبتزج كان الحلفاء يقبلون أن يفكروا فى عقد معاهدة تُترك فيها البلجيك لفرنسا . وليس ثمة ما هو أبلغ من هذا دلالة على الاحترام والتهيب اللذين كانت قوة نابليون الحربية تبعثهما فى صدور أعدائه .

تحالف أوربا ضد نابليون

وقد توقفت نتيجة الحرب على التصميم وقوة الإرادة ، أكثر من توقفها على عدد الجيوش . ففى حربيه الأخيرتين فى فرنسا ، وقف نابليون وجهاً لوجه

أمام أعداد غفيرة وقوات جد متفوقة . فقد تحالفت أوربا بأسرها تقريباً عليه . فإنه حتى برنادوت Bernadotte الذى كان ضابطاً من ضبـــاطه القدماء ، وصار الآن ولى عهد السويد ، سَيَّر جيشاً إلى ساحة الوغى ضد سيده السابق ، ابتغاء الاستحواذ على النرويج ، بل وربما على عرش فرنسا أيضاً حين يأتى وقت توزيع الأسلاب . وفى الوقت الذى كانت تطبق فيه جيوش النمسا وبروسيا وروسيا والسويد فى الميدان الألمانى على جيوش نابليون، كان ولنجتن يدفع أمامه الفرنسيين عبر البرانس .

حذقه الحربى المطرد

ومع ذلك وبرغم هذا التفاوت الهائل بين الكفتين ، أدار نابليون دفة القتال فى هاتين الحربين الأخيرتين بتفنن ومهارة أثارتا دهشة الخلف ، وإعجاب الأجيال المتعاقبة . فمع أن سواد جنوده كانوا صغار السن غير مدربين ، ومارشالاته قد هَدَّت الحروب من حَيْلهم، وأنهكت من قواهم ، وبرغم أن خيَّالته كانت غير كافية ، وعدد قواته أقل من عدد قوات خصومه، فقد أفلح فى إيقاع الهزيمة بجيش الحلفاء الرئيسى الذى تحت قيادة شفارتزنبرج Schwarzenberg فى الملحمة التى دامت يومين خارج أسوار درسدن فى ٢٦ و٢٧ أغسطس سنة ١٨١٣ . ولو أن نابليون كان كسابق عهده ، سريع الانقضاض، شديد الوطأة فى مطاردة الأعداء ، فلربما كان أرغم منازله على التفكير بالتسليم . ولكنه بعد تلك المعركة أتاح لخصومه ، لضعف فى إرادته وفتور فى همته ، أن يطوقوه ويحطموا قواته فى مذبحة ليبتزج المروعة . ومع ذلك فإن العمليات الحربية التى قام بها فى العام التالى ، بشراذم من الجند الخام العديمى الدربة ، ضد جيشى بلوخر Blucher وشفارتزنبرج فى وديان السين والمارن ، لتعد من بين آياته الحربية الجليلة الروعة . ففى تلك الأعمال أدار جيشه على خطوط داخلية ، ضاربا مرة البروسيين فى الشمال ، ومرة أخرى النمساويين فى الجنوب ، داحراً أعداءه المرة بعد الأخرى ، بخفة حركاته وسرعتها ، وشدة وطأة هجماته .

إلبـا

ولكن هذا كله لم يجده فتيلا ، وذهبت جهوده أدراج الرياح . فلقد كان

بلوخر خصما يضارعه فى شدة المراس وقوة الإرادة والعزم ، وقائداً ذا أعصاب من فولاذ ، لا يعرف الكلل والحمق إلى نفسه سبيلا إذا غضب ، أو الاضطراب والطيش إذا هُزِم . فقد رده نابليون على أعقابه ثلاث مرات . فالتزم هذا البروسى الهرِم أن يتراجع شمالا إلى حيث توجد أمداده . ولكنه كان يعود إلى حومة الوغى فى ساحات لاون Laon ، وكراون Craonne التى حمى فيها وطيس القتال ، وبذلك فتح لنفسه ولحلفائه الطريق إلى باريس . وتراجع نابليون غرباً عندما رأى أعداءه قد سبقوه . وإذ وجد قصبة حكمه قد سلمت للأعداء ، عسكر فى فنتنبلو . ولكن مارشالات فرنسا الذين كانت الحروب قد أنهكتهم ، والذين حزروا همود روح البلاد وقعوس همتها ، ألزموه بالتنازل عن العرش . ومن هناك بعد أن ودّعته فرقة الحرس وداعاً جعله بطلا تهفو إلى زعامته القلوب ، رحل نابليون إلى جزيرة إلبا Elba ، شاقا طريقه بين لعنات الجنوبيين وتهديداتهم ، تاركاً لآخرين غيره مهمة وضع التاريخ خلال الأشهر العشرة القادمة .

عودة البوربون

ولقد كان تاليران (١٧٥٤ — ١٨٣٨) هذا القس المشلوح والأسقف المتزوج ، ووزير خارجية نابليون — هو الذى أقنع إسكندر الأول بوجوب استدعاء بيت بوربون لحكم فرنسا . فإنه مهما بدا بعيد الاحتمال أن تقبل فرنسا عن رضى أن يحكمها رجل عجوز بدين ، رجل عاش خمساً وعشرين سنة منفياً عنها ، وغريباً عن جميع تلك الأحداث الكبيرة والأمجاد الرائعة التى حدثت فى غضون تلك الحقبة ، إلا أنه لم يكن أمامها بديل آخر . ومع ذلك يجب ألا ننسى أن لويس الثامن عشر يمثل على الأقل مبدأ وتقليداً هما جزء من معتقدات فرنسا السياسية .

وقد حُسِب أن لويس سيجلب على الأقل الهدوء ومودة أوربا إلى أمة غمرتها المحن وساورتها المخاوف . فإنه بعد التخلص من الثورة والإمبراطورية ، بدت الملكية القديمة للأعين بأنها أقل التدابير أذى ومضرة . بيد أنه عجزت ، حتى يراعة شاتوبريان Chateaubriand أفصح وأبلغ فحول

الكتاب الفرنسيين ، عن جعل تلك الملكية مجيدة مكرمة . وعجز الدستور الإنجليزى المظهر الذى فرضه الحلفاء فرضاً على فرنسا ، عن أن يحولها إلى أداة للحرية الكريمة المتعقلة . والحق أن الراية الملكية البيضاء التى خفقت الآن محل الراية المثلثة الألوان الذائعة الشهرة كانت رمزاً ملائماً للأسرة التى عادت إلى وطنها ، دون أن تتعلم شيئاً أو تنسى شيئاً ، فى عهد طافح بالتغيرات الهائلة المدوية .

معاهدة باريس

وقد تميزت الشروط الممنوحة للدولة المقهورة ، بمقتضى معاهدة باريس (٣٠ مايو سنة ١٨١٤) ، باعتدال سياسى أريب . فلم تطالَب تلك الدولة بدفع غرامة أو تعويض حربى ، ولم يصر أعداؤها على احتلال أرضها . بل لم يكن هنالك حتى هذا الشرط ، وهو أن الكنوز الفنية التى نهبتها فرنسا من متاحف أوربا ، يجب أن تعاد إلى أصحابها الشرعيين . حقاً إن فتوح نابليون الأجنبية سُلخت منها ، ما فى ذلك شك . ولكن مما هو قمين بالملاحظة أنه برغم انتصار الحلفاء الكامل ، وبرغم طول الحرب ومرارة القتال ، فقد أعطِى لويس الثامن عشر رقعة من الأرض أكبر قليلا من تلك التى كان أخوه لويس السادس عشر يملك عليها قبل اندلاع الثورة . ذلك أن تطبيق أبسط قواعد الحكم السليم كان كافياً لأن يظهر للحلفاء بأن صفيَّهم لويس لن يستطيع الاحتفاظ بعرشه المزعزع تحت ظلال صلح مرهق مذلّ .

٤ — مؤتمر فينا

انعقاده

تُركت تفاصيل التسوية النهائيــة إلى مؤتمر دُعِى للانعقاد بفينا فى نوفمبر سنة ١٨١٤ . وفى أثناء انعقاده أطلق سادة النظام القديم فى ساعة تحررهم العظيم ، العنان لأنفسهم فى حفلات رائعة خلابة من السكر والعربدة والاستهتار . فكما رقصت باريس بعد انقلاب ترميدور ، ورقصت بعد هدنة عام ١٩١٨ ، كذلك رقصت ڤينا خلال الخريف والشتاء ، فى حين كان القرشى فى

حرز أمين فى إلبا ، والساسة يعملون فى إقامة بنيان أوربا جديدة . وفى ذلك الرهط من الأباطرة والملوك ، والأمراء والنبلاء والساسة ، بذلت مارى لويز زوجة نابليون الخائنة قصارى جهدها فى أن تبرز فى تيه ودلال قدميها الصغيرتين .

خريطة أوربا الجديدة

ورُسمت خريطة أوربا بواسطة سواس كانت فى أعينهم الثورة الفرنسية أعظم الأخطار كلها التى تهدد رخاء الجنس البشرى ورفاهيته .

ولهذا السبب صُفّت حدود فرنسا الشرقية بمجموعة من الدول والولايات الحاجزة ، بقصد حماية وسط أوربا من أخطار الثورة : فأقيمت فى الشمال مملكة من الأراضى المنخفضة دامت إلى سنة ١٨٣٠ ، حينما فُصم الاتحاد غير المقبول بين هولندة الكلفنية والبلجيك الكاثوليكية . وفى الجنوب أقيمت سردينيا بعد تقويتها بضم جنوه وسافوى إليها ، فى حين وضعت أقاليم الرين الوسطى ، بإيعاز من الحكومة البريطانية ، تحت وصاية بروسيا .

ولم يتكهن أحد وقتئذ باتحاد ألمانيا تحت التاج البروسى ، أو يتنبأ بذلك التبدل فى التوازن الدولى الأوربى الذى جعل فيما بعدُ ألمانيا قوة هائلة مرهوبة الجانب من جيرانها . بل كان المشهد السياسى عام ١٨١٤ يختلف عن هذا جد الاختلاف ، فقد كانت فرنسا تُعَدّ يومئذ العدو العام ، وبروسيا أجدرَ الدول بمراقبة الرين وحراسته .

واسترشاداً بالفكرة عينها القائلة بوجوب إعادة أوربا إلى أحضان المبادىء المحافظة والتعقل ، مُنح النمساويون ذلك المركز المسيطر فى شمال ووسط إيطاليا ، ذلك المركز الذى أثار بعد وجيز وقت مؤامرات القومية الإيطالية وحروبها ؛ فقد نالوا مملكة لمبارديا ومقاطعة البندقية ، واستعادوا تريستا والساحل الدلماسى ، وقروا عيناً برؤية أرشدوق نمساوى يملك فى فلورنس ، وأرشدوقة نمساوية تملك فى بارما . ولما كان فرديناند الرابع الذى ربطتهم به روابط القرابة والسياسة والمذهب قد أعيد إلى أريكة عرشه فى نابلى بعد إعدام ميرا سنة ١٨١٥ ، فقد امتد نفوذهم من أقصى شبه الجزيرة الإيطالية إلى أقصاها . والحق أن النمسا خرجت من

حروب الثورة والإمبراطورية الفرنسية ظافرة بأكبر حصة من الأسلاب ، فزاد عدد سكانها نحو أربعة ملايين ونصف مليون نسمة ، وكادت سيطرتها على إيطاليا تكون كاملة ، وبرزت كرئيسة لاتحاد جرمانى حديث الإنشاء محلول العرى.

معضلة بولندا وسكسونيا

وقد وصلت الدول المتحالفة إلى هذه الترتيبات دون إثارة جدل أو خلاف كبير بشأنها ، كجزء من خطة عامة ترمى إلى إقصاء نفوذ فرنسا من تلك الممالك التى نشرته فيها فتوح نابليون . ولكن الصعوبة الكبرى فى التسوية قامت فى ذلك الإقليم الواقع فى شرقى وسط أوربا ، حيث ما زالت مشكلته جد شائكة إلى اليوم وهى : ما الذى يُصنع بدوقية وارسو العظمى التى اقتطعها نابليون من ولايات بروسيا البولندية ، وسلمها إلى ملك سكسونيا ليحكمها ؟ بل ماذا يُصنع بمملكة سكسونيا نفسها ؟ .

فلقد كانت روسيا تشتهى امتلاك بولندا ، وبروسيا تشتهى امتلاك سكسونيا . ولو أن تينك الدولتين تُركتا تحلان بأنفسهما ما بينهما حسب مشيئتهما ، لاختفت بولندا وسكسونيا من خريطة أوربا . بيد أن حلا كهذا لم تكن تستسيغه قط النمسا وفرنسا . فلم تكن الأولى تطيق أن ترى مزاحمتها بروسيا تكبر إلى هذا الحد . وكانت الأخرى تؤمل خيراً كبيراً فى قيام دولة بولندية محرَّرة . ولقد أوصلت هذه المشكلة المؤتمر إلى شفا الحرب . وأخيراً وصل المفاوضون إلى تسوية تنال بروسيا وفقها نحو ثلثى سكسونيا ومقاطعات الرين ، وأقيمت فى بولندا ملكية دستورية تحت حكم قيصر روسيا .

انتصار الحقوق الشرعية

وكانت قاعدة « الحقوق الشرعية » التى نادى بها تاليران هى قوام تسوية مؤتمر فينا وروحها . فالحقوق المشروعة هى التى أعادت آل بوربون إلى فرنسا ، وهى التى أنقذت سكسونيا لآل وتنز . Wettins[1] ، وهى التى ثبّتت سلطان البيت المالك فى سردينيا . ولم يقم أى اعتبار للقومية أو لرغائب السكان . ولهذا السبب كان السواس الذين وضعوا معالم تسوية

---

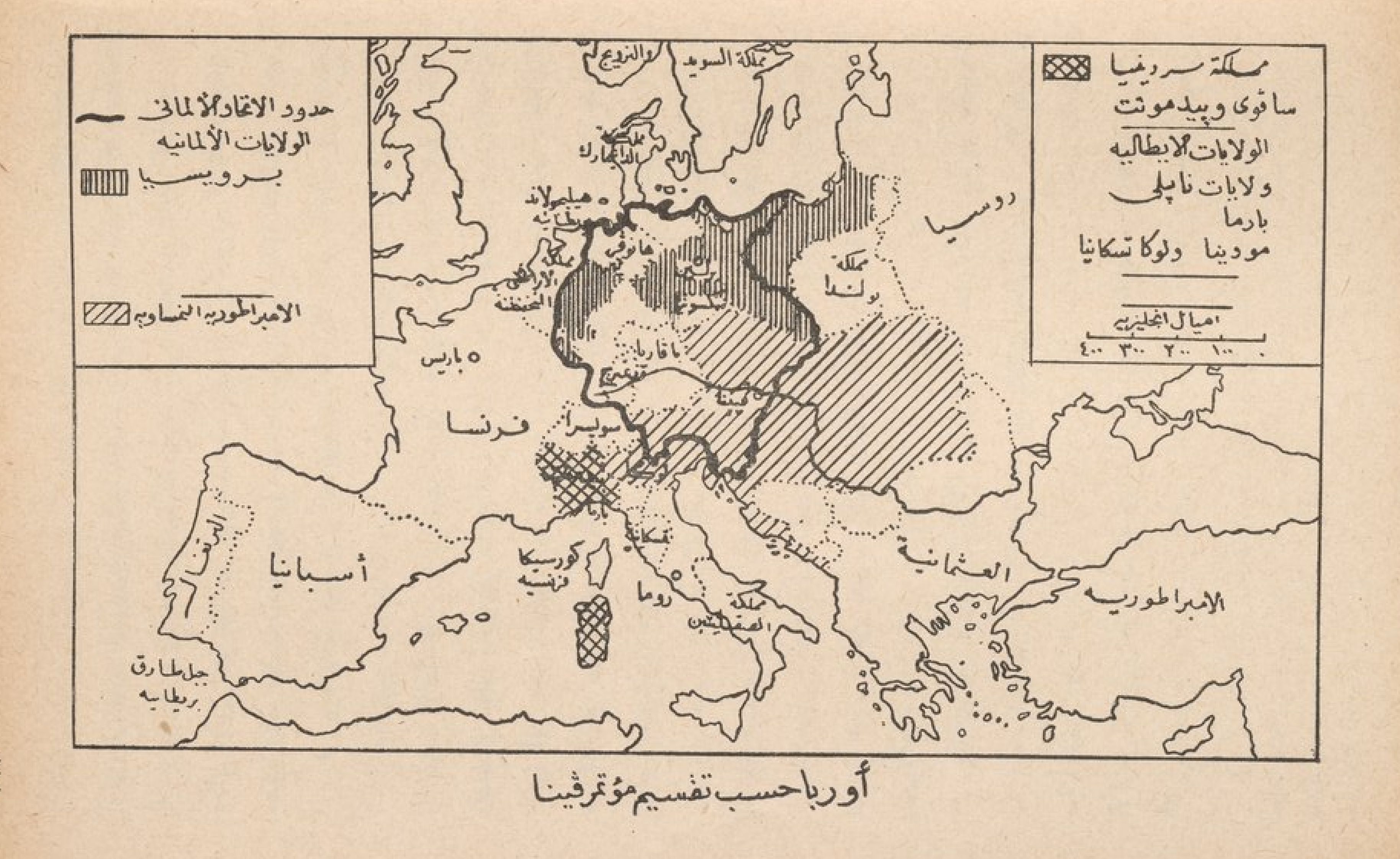
(١) اسم أسرة خرج منها عدة بيوت مالكة أوربية ، ومن بينها البيت المالك فى سكسونيا .

ڤينا على نقيض تام ، أهدافاً ومبادئ ، مع مبدعى أوربا التى تقوم اليوم . فإن معاهدات الصلح عام ١٩٢٠ انطوت على تسوية دمقراطية لم تغدُ مستطاعة إلا بسقوط تلك الملكيات عينها التى عهد إليها مؤتمر ڤينا بتوطيد دعائم الأمن والسلم فى أوربا . فقد خلقت تسوية سنة ١٩٢٠ جمهوريات جديدة ، وأعادت توزيع الحدود ، وقبلت انحلال الإمبراطورية النمساوية العتيقة ، وأقامت أوربا جديدة وفق مبدأ تقرير المصير : ذلك المبدأ الذى نادى به الثوار الفرنسيون ، ولكنه ضاع وُطوِى بعدهم أمداً طويلا . فمبادئ الرئيس ولسن كانت تعتبر فى نظر مؤتمر ڤينا كفراً وبهتاناً . فقد كان ذلك المؤتمر يؤمن تحت توجيه مترنخ وتاليران وكاسلريه بأن رخاء أوربا لا يُنال بالعمل حسب الرغائب المزعومة للشعوب صاحبة الشأن ، بل يُنال فقط بإطاعة السلطات الشرعية طاعة مطلقة تامة .

عودة نابليون

ولقد كان من حسن التوفيق للمبادئ المحافظة أن ملوك الدول المتحالفة ووزراءها الذين كانوا مجتمعين فى ڤينا ، علموا فى ٧ مارس سنة ١٨١٥ بأن نابليون نزل مرة أخرى بأرض فرنسا . فأزاء ذلك الخطر ، بادروا بإنهاء أعمال المؤتمر فى بحر أسبوعين فقط ، وأعلنوا نابليون شخصاً مشبوهاً خارجاً عن حمى القانون ، ووضعوا شروط التحالف الحربى ضده . وبذلك حرموه قبل أن يضرب أية ضربة من كل سلاح دبلوماسى . ولهذا السبب ، فإن نابليون كان سيُصرع حتماً فى آخر الأمر بواسطة قوات أوربا المتحدة ، حتى لو أن موقعة واترلو انتهت بغير ما انتهت إليه .

ومن بين جميع الخطط التى كان يمكن لنابليون أن يرسمها لمغامراته اليائسة بعد عودته ، كان خيرها لحمل فرنسا على الانضواء تحت علمه والخروج لنصرته ، هى حملة يوجهها إلى بروكسل . فلقد كان للبلجيك خلال قرون عدة قيمة رمزية وسحر غامض فى أعين الأمة الفرنسية . إذ كانت ترى فى امتلاكها سبيلا إلى السيطرة على المصب العظيم لنهر الرين . ولذا روت الدماء الفرنسية تربة ذلك القطر الصغير المرة بعد الأخرى . وأذكى مطمح امتلاكه



أوربا حسب تقسيم مؤتمر فينا

أذهان السياسيين الفرنسيين فى كل عهد وجيل . ولما كان أيضاً فتح البلجيك أول وأهم أمجاد الجمهورية الفرنسية الفتية، وكان فقدانها أعظم ضربة وُجِّهت للإمبراطورية ، فإن استرجاعها كان وقتئذ أشهى مكافأة إلى قلوب الفرنسيين . فكان نابليون إذن على حق حين سدد ضربته نحو بروكسل ، كما كان ولنجتن مصيباً أيضاً عند ما اتخذ موقفه فى ساحة ووترلو ، ليسد عليه المسالك .

ووترلو

ففى يوم طال نهاره من أيام يونيو سنة ١٨١٥ : يوم خالد فى تاريخ البشر ، تقررت نتيجة ذلك النضال العظيم والصراع الهائل بين الثورة من جهة ، والأسرات المالكة الأوربية من جهة أخرى : ذلك الصراع الذى افْتُتِح بتراشق المدافع فى واقعة ڤالمى قبل ذلك بثلاث وعشرين سنة . فلقد مزق جيش ولنجتن الذى تألف جزء منه من جند بريطانيين ، وجزء آخر من جند ألمان ، وثالث من بلجيكيين وهولنديين ، والذى أيده تأييداً قوياً عند اقتراب الغسق جيش بلوخر البروسى — مزق جيش ولنجتن آخر جيش من جيوش نابليون .

وإذا قيست تلك المعركة بمقياس الملاحم الحديثة ، بدت تافهة ضئيلة[١] . أما إذا قيست بمقدار ما أذكت فى النفوس من فخار روحى ، فلا يفوقها فى الروعة وخطورة الشأن سوى انتصارات عظيمة معدودة . ذلك أن ووترلو كانت الفصل الختامى من فصول رواية مفجعة . وكانت نهاية عصر ، وبداية عصر آخر .

اعتدال الحلفاء

ومما يذكر بالفضل للسياسة البريطانية أنه عند وضع تسوية جديدة مع فرنسا عقب « حكم المائة يوم » ، عوملت تلك المملكة المهزومة بالاعتدال مرة أخرى . ولو أن بروسيا تمكنت من أن تنال مرادها ، لكانت مقاطعتا الألزاس واللورين من بين التضحيات التى فُرِضت وقتئذ على حكومة لويس الثامن عشر بعد عودته إلى الحكم . بيد أن ولنجتن وكاسلريه أيقنا أنه ليس

---

(١) تألف جش ولنجتون — الذى كان فى نظر قائده « أسوأ الجيوش عدة كما كان أسوأها قيادة من حيث هيئات أركانه » — من ٢٣ ألف جندى بريطانى ، و ١٧ ألف جندى بلجيكى وهولندى ، و ١١ ألفاً من هانوفر ، و ٥٩٠٠ من جنود برنزوك ، و ٢٨٠٠ من جند ولاية ناساو .

ثمة ما يؤدى إلى زعزعة سلطان البوربون وإضعاف هيبتهم ، أعظم من أن يُطلب إلى فرنسا تحمل هذه الخسارة الفادحة . فلقد كان من مصلحة إنجلترا ، كما كان من فائدة أوربا ، أن تقدم كل معونة ممكنة للأسرة الفرنسية المالكة كى تسترجع وتحتفظ بولاء الشعب الفرنسى لها ، رغم الصدمة الكبرى التى أصابتها فى بعدها عن أمجاد الإمبراطورية الحربية . وقد رئى بحق استحالة نهوض الملكية بهذا العمل ، لو أنه نفذ البرنامج الروسى الخاص بتوزيع الغنائم .

نعم ، قُضِى على فرنسا أن تتخلى عن دوقية بويون Bouillon ، وشطراً من الأردن The Ardennes إلى مملكة الأراضى المنخفضة ، وأن تسلم حصون سارلوى Saarlouis ولنداو Landau لألمانيا ، وأن تدفع غرامة قدرها سبعمائة مليون فرنك ، وأن تخضع لجيش احتلال لفترة من ثلاث إلى خمس سنين ، وأن تعيد الكنوز الفنية التى سمحت لها معاهدة الصلح السابقة بأن تبقيها فى يدها . ولكن لم يكن فى هذه الشروط ما يتعذر على كرامة فرنسا القومية احتماله .

غير أن الحوادث بررت مخاوف القيصر إسكندر ، الذى أظهر ارتيابه فى حكمة إرجاع بيت بوربون لحكم فرنسا . فإن شجرة الحقوق الشرعية فشلت فى أن تنضج وتينع فى تربة ما زالت تغطى بحمم الثورة . ولم يقدر تحالف أوربا على إنقاذ فرنسا من براثن الانقلابات ، وأن يحول دون عودة الأفكار البونابرتية وتأسيس إمبراطورية ثانية فيما بعد. ولكن رغم جميع نقائص ذلك الصلح ، فإنه منح أوربا سلما نسبياً مدة أربعين عاماً .

الفصل التاسع

مترنخ ، وكاسلريه ، وكاننج

آهداف الحلفاء . تضامن أوربا . التحالف المقدس . ألمانيا . نظام مترنخ . النمسا وانجلترا . حرب استقلال اليونان . محمد على والتدخل المصرى . جورج كاننج . دور الأسطول البريطانى فى نيل اليونان وأمريكا الجنوبية استقلالها .

١ ـ تضامن أوربا

أهداف الحلفاء

لقد سبَّبت الثورة الفرنسية ونابليون المتاعب العديدة لحكومات أوربا ، حتى باتت الفكرة المسيطرة على عقول عواهل ووزراء « التحالف الأعظم » the Great Alliance ، بعد ترحيل « المارد القرشق » إلى جزيرة سنت هيلانة ، وتثبيت لويس الثامن عشر على سرير ملكه ـ حتى باتت الفكرة المسيطرة عليهم هى العمل على منع عودة الثورة الفرنسية ونابليون وما شابههما منعاً باتاً . وكما صرخت بصوت واحد الشعوب المنهوكة المؤلِّفة للتحالف المظفر عام ١٩١٨ ، مطالبة « باستئصال روح الحرب البروسية » ، كذلك عقد الظافرون سنة ١٨١٥ الخناصر على العمل على منع تكرار الثورة الفرنسية ، وضرورة اجتثاث كل رأى حرّ من أصوله على الفور ، لئلا يفرخ وينمو ويؤتى ثماره الخبيثة الثورية. فوراء كل حركة قاسية غشومة من حركات الرجعية التى سادت سياسة القارة الأوربية أثناء الثلاثة والعشرين عاماً القادمة كان يلوح على الدوام ذكرى مفاسد الثورة الفرنسية الحديثة العهد ، والخوف المساور للنفوس بما قد تعود ثورة أخرى إلى صنعه مرة ثانية .

وكان طبيعياً أن تكون أحاسيس البغض والفزع من الثورة على أشدها

فى الدول الأوتقراطية الثلاث التى غزت جيوشُ نابليون أرضها ، وعفرت عزتها وكرامتها فى التراب . فلم يجد قياصرة روسيا والنمسا وبروسيا أية صعوبة فى الانتهاء إلى الرأى بأن واجبهم أزاء أوربا ، وأزاء الحضارة ، يلزمهم بالتحالف معاً ضد روح الثورة ، والتعاون على سحق رأسها المقيت أينما أطلّ . وأملوا أن يظفروا فى هذا العمل بعطف الحكومة البريطانية وتأييدها المطرد . ولكن تلك الحكومة خيبت آمالهم ، وأطاشت رجاءهم .

بريطانيا بعد الحروب النابليونية

فقد خرجت بريطانيا من الحروب النابليونية بنظام صناعى جديد ، وإمبراطورية جديدة ، وظفرت بمالطة ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وجزيرتى مورتيوس وسيلان ، ودافعت عن كندا دفاعاً ناجحاً فى حرب ضد الولايات المتحدة نشبت سنة ١٨١٢ بسبب النزاع معها على حق تفتيش السفن المحايدة فى عرض البحر . وشرعت تنمّى تجارة عظيمة نافقة مع المستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى أمريكا الجنوبية – هذه المستعمرات التى انتهزت فرصة حرب شبه جزيرة إيبريا ، وخرجت على الدولتين المستعمِرتين لها . وقد اختلف أيضاً مركز بريطانيا عن مركز حلفائها فى القارة فى وجود مصالح كبيرة نامية لها خارج أوربا ، وأن نابليون لم يغزُ قط أرضها .

أضف إلى ذلك أن إنجلترا حافظت – حتى فى عهود أشد حكوماتها رجعية – على نظامها البرلمانى وحرياتها المدنية . فقد اُتهم كاسلريه وزير الخارجية البريطانية الذى قاد الأمة إلى النصر إبان الأطوار الختامية للحروب النابليونية – اتهمه بنو جلدته بأنه المثل الحى لأقتم ألوان الرجعية والتأخر . ومع ذلك فإنه إذا قورن هذا السياسى المحافظ الإنجليزى ، بإسكندر قيصر روسيا ، أو مترنخ كبير وزراء النمسا ، لبدا ملاكاً من ملائكة الحرية والحكم السليم المتزن .

ولكن رغم اختلاف إنجلترا فى وجوه عديدة مع دول القارة ، فإنه لم يكن فى مقدورها ، نظراً للدور الخطير الذى لعبته فى الحرب ، أن تأبى المساهمة بنصيب رئيسى فى إعادة تنظيم أوربا . فقد ألزمتها الحرب نبذ عزلتها ،

وتوثقت العلاقة بين الساسة الإنجليز وكبار رجال السياسة فى الأقطار الأخرى ، وظهرت فى محيط التحالف الأعظم روح تعاون دبلوماسى ، وكان مترنخ وكاسلريه مرتبطين بشعور خالص غير مصطنع من الاحترام المتبادل . ولذا فإنه رغم رغبة بريطانيا فى الاشتراك فى « التحالف المقدس »(١) ذى الصبغة الدينية الغامضة الذى أنشأه قيصر روسيا ، فإنها انضمت إلى تضافر أوربى(٢) Concert of Europe ، كان أميلَ إلى الوجهة العملية .

التضافر الأوربى

وقد تعهدت الدول المؤلفة له وهى : روسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا ، باستمرار العمل على إقصاء بيت بونابرت عن فرنسا . ولكن لم يَجُلْ إذ ذاك فى خاطر ساسة تلك الدول الذين أنكروا مبدأ القومية ، أن يقيموا عصبة أمم . غير أنه نُصَّ فى مواد هـذا التحالف الرباعى Quadruple Alliance ، على وجوب اجتماع ممثلى الدول المتعاقدة فى فترات يُتّفق عليها للبحث فى مصالحها المشتركة ، وفى الشؤون التى تمس سلام أوربا وأمنها .

سياستا مترنخ وكاسلريه

ولم يكن فى الاستطاعة وقتئذ ابتكار أداة خير من هذا التضافر المؤلفَ من دول أربع عظمى مرتبطة معاً بعهود العمل على صيانة قضية السلام الأوربى. بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى أضحى جليًّا أن اتحاد تلك الدول كان اسماً أكثر منه حقيقة . فعلى حين كان مترنخ يبغى جعل التحالف الرباعى أداة فعالة لقمع الحركات الحرة فى جميع أرجاء أوربا ، كان كاسلريه يرى أنه ليس جزءاً من واجب الدول الأربع أن تتدخل فى الحكم الداخلى للدول .

ولقد كان كاسلريه محافظاً ، وكان فى أعين خصومه الأحرار المثل المتجسد لاستبداد المحافظين ، وآلة فى يد التحالف المقدس — رغم رفضه الانضمام إليه — وعدو المبادئ الحرة فى مشارق الأرض ومغاربها . غير أنه فى الواقع ، بينما كان يبغى تقوية ألمانيا كى تصبح سدًّا فى وجه كل من فرنسا وروسيا ،

---

(١) هو إعلان يحوى بعض مبادئ الحكم المطلق ، ومبادئ أخرى مسيحية ، ليس لها أية نتائج قانونية .

(٢) أبرم فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ .

ويعرف قيمة التحالف مع النمسا ، كدعامة من دعائم المبادىء المحافظة الأوربية ، فإنه لم تكن له رغبة فى مشاهدة إنجلترا تُجرُّ إلى التدخل فى المشاحنات الداخلية لدول القارة . إذ مع تمسكه الشديد بالمبادىء المحافظة ، كان يعرف جيداً أن مواطنيه لن يسمحوا لأنفسهم بالاشتراك فى سياسة مترنخ المنطوية على الشدة والقمع .

وقد ازداد باطراد الخلاف بين وجهة نظر السياسة الانجليزية التى كانت فى صميمها حرة ، ووجهة النظر النمساوية التى كانت محافظة غاية المحافظة ، إلى أن اخترمت المنون حياة كاسلريه فى أغسطس سنة ١٨٢٢ ، واستلم كاننج خيزرانة الأمور مكانه، وحينئذ ظهر الخلاف بين الدولتين جلياً سافراً .

التحالف المقدس

وفى الوقت الذى ظهر فيه « تضافر أوربا » الآنف ، تكوّن فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ اتحاد أوثق من الدول الأوربية الأوتقراطية الثلاث : روسيا وبروسيا والنمسا ، استمر حتى سنة ١٨٢٦ . وكانت سياسته تهدف إلى مقاومة مبادىء الحرية ، والقضاء على جراثيم الثورة . وهذا الاتحاد هو الذى سمى « بالتحالف المقدس »[١] وهو التحالف الذى ألجم الحياة الفكرية فى ألمانيا ، وقمع الحركات الدستورية التى قامت فى إيطاليا ، وأرجع أسبانيا إلى أحضان الحكم المطلق ، وأبى الاعتراف بديمقراطيات أمريكا الجنوبية الثائرة . وقد اصطدم هذا التحالف اصطداماً عنيفاً بفلسفة انجلترا السياسية الأميل إلى الحرية ، فى مؤتمرات تروپاو Troppau (سنة ١٨٢٠) وليباخ Laibach (سنة ١٨٢١) وڤيرونا Verona (سنة ١٨٢٢) .

ومن العجيب أن جيته وصف هذا « التحالف المقدس » بأنه لم يُبتكر ما هو أعظم منه ، وأجلّ فائدة للجنس البشرى . وآراءُ جيته جديرة بالاحترام. ولعل من المفيد ألا يغرب عن البال ، أنه بعد أهوال الحروب النابليونية واضطراباتها العنيفة ، شعر سوّاس الأمم الظافرة أن واجبهم نحو الإنسانية

(١) دعيت الدول الأوروبية المسيحية إلى الانضمام إليه . وقد قبلت جميعها ذلك ، ما عدا إنجلترا .

يقضى عليهم بابتداع وتجربة طريقة من الطرق ، لتنظيم العلاقات الدولية تنظيما أفضل . وكان هـــذا رأى پت من قبلهم ، كما كان حلم إسكندر القيصر الروسى الذى أخذ تارة يبث رؤيا روحية للاتحاد المسيحى ، وتارة أخرى يرسم معالم خطة غامضة مبهمة لعصبة عامة تتألف من الموقعين على معاهدة ڤينا . وكان هذا أيضاً هو مقصد كاسلريه ، الرجل العملى ، الهادئ ، الرابط الجأش.

ولكن هذا التحالف المقدس الذى تزّعمه العواهل الثلاثة الأوتقراطيون ، والذى أوحى به إسكندر ، والذى كان نظاماً من أنظمة مترنخ لحكم أوربا ، والذى نال حظوة فى عينى جيته غير المغرِض — إن هذا التحالف عجز عجزاً كبيراً عن أن يساير حماس القيصر فى طوره الأول ، أو حذر كاسلريه المقرون بالتسامح ، أو يماشى القواعد التى ينبغى أن تنظم أوربا بمقتضاها تنظيما فعالا .

معارضته لروح العصر

ولم يرتكن هذا التحالف على أساس من الرأى العام ، بل سار ضد أقوى الأمانى الشعبية الغالبة فى ذلك العصر . ولكن لما كان يناصره سيد الجيش الروسى ، أضخم وأقوى جيوش أوربا ، فإنه حرك الريب نحوه فى دول أوربا الغربية . ومع ذلك فقد كان هذا التحالف فى نظر جيته أداة عملية لجلب شىء من السلام والنظام والخلق إلى المجتمع الأوربى . ولذا نال رضاه .

غير أن الفكرة بأن فى الإمكان حكم أوربا حسب مبادئ محافظة سلبية ، كانت فكرة خيالية إلى أقصى حدود الخيال . فلم يكن هذا العصر الذى هو عصر سكُت وبايرون ، وعصر شِلِى وكولردج ووردزورث ، وعصر تجارب فروبيل فى تربية الطفل ، ومغامرة روبرت أوين فى الاشتراكية — لم يكن هذا العصر عصر خمود ذهنى ، بل عصر يقظة ونشاط فكرى نادر النظير .

السخط على تسوية ڤينا

وكان من الخطأ أن يُفرض أن أوربا ، وقد أذكى نفوس أبنائها كثيرٌ من الأحلام والأفكار ، وأيقظها شعراؤها وروائيوها ، وشبابها الجامعى المضطرم حمية ، وجندها وبحارتها المسرّحون الذين تاقت نفوسهم إلى مغامرات جديدة — كان من الخطأ أن يفرض أن أوربا ، وحالها هذا ، تقبل فى استكانة — لمجرد خوار قواها وحلول الكلال بها — تسوية الصلح التى أبرمت فى ڤينا ، ولقد

هوجم مهاجمة عنيفة واضعو صلح الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ ، لأنهم عنوا أكثر مما ينبغى بمبدأ القومية وبالرغائب المزعومة للسكان . ولكن التبرم والسخط من تسوية ڤينا كانا أعم إبان مدة مترنخ ؛ ولو أن سببهما كان عكس ذلك . فقد كان الإيطاليون ساخطين ناقمين تحت حكم النمساويين ، والبلجيكيون تحت حكم الهولنديين ، والبولنديون تحت نير الروس والبروسيين ، والصربيون واليونانيون تحت الأتراك .

الديت الألمانى

كما أُزهقت فى قسوة آمال خيار الألمان فى أن الجهود الواسعة النطاق التى بذلوها فى حرب التحرير ، ستسفر عن اتحادهم القومى وقيام حكومة دستورية فى بلادهم . إذ لم يتكوَّن اتحاد . وإنما كان هناك « مجمع » أو « ديت » Diet ينتظم تسعاً وثلاثين ولاية ، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها ، وأن تمنع وحدها إجازة وتنفيذ كل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدى . ولم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة فى الديت ، لأن دولا غير ألمانية كالدنمارك ولكسمبرج كان لها كراسى فيه . ولم توجد حياة نيابية نشيطة فى أية ولاية ألمانية ، إلا فى بافاريا وبادن . إذ كان يغلب عليها نظم متشابهة من الاستبداد غير المستنير الذى ينزع إلى التخفى والسرية . وبرغم تعهد ملك بروسيا رسمياً بمنح رعاياه نظاماً برلمانياً ، أفلح نبلاء بروسيا الاقطاعيون فى منع عقد برلمان فى برلين . فكان الأحرار الألمان — وهم أقلية على الدوام — يحسدون باريس ولندن مناقشاتهما البرلمانية الرائعة ، ويفكرون فى تقصير بلادهم وُجدْبها السياسى ، ويسائلون أنفسهم عما إذا كان الوطن قد كسب شيئاً ذا قيمة من وراء بذل الدماء الغزيرة ، وضياع بدرات الأموال والكنوز فى الحروب النابليونية .

اختلاف أمانى الألمان

أما العلة الكبرى لهذه المحنة ، فقد نجمت عن اختلاف الألمان أنفسهم فيما بينهم فى رسم خطة إنشائية لمستقبل بلادهم . فكان البعض منهم يصبو إلى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا ، والبعض الآخر إلى إقامة دولة ألمانية تدين بالولاء للتاج النمساوى ، وآخرون يرومون اتحاداً تعاهدياً تستطيع فيه النمسا

وبروسيا والولايات الألمانية الصغرى أن تكوِّن فرقاً متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها . فلاحت ألمانيا للعالم الخارجى كأنها تتحرك وتسير فى ضباب فلسفى ، أو كما وصفها ميشليه Michelet المؤرخ الفرنسى ، « بأنها آسية أوربا » .

سياسة القمع

ولم يكن الحرمان من الحقوق القومية هو وحده الذى هدّد خفية السلم الأوربى . ففى الجهات التى سيطرت عليها الأوتقراطيات الثلاث أو خضعت لنفوذها ، شاع قمع للآراء قاسٍ عنيف . فعادت إلى الحياة مرة أخرى جميع أدوات السيطرة البابوية : الجزويت ، ومحاكم التفتيش ، وتحريم الكتب . ففى إيطاليا أدار القساوسة — تؤيدهم الحراب النمساوية — أداروا المدارس ، وراقبوا الصحافة ، وحرموا طبع أى مؤلف انحرف أقل انحراف عن جادة أدّق الطرق الكاثوليكية... وفى عهد الملَكية الاسبانية ، كانت الكنيسة بأوقافها الواسعة الضخمة ، وإعفاءاتها المالية من الضرائب ، وبتأييد السكان الجهلة المتشبعين بالخرافات — كانت الكنيسة فى مركز يجعلها تدير سياسة الدولة .

ولكن كان من حسن التوفيق أن الهوان والانحطاط لم يصلا فى ألمانيا النصف البروتستانتية إلى هذا الدرك السافل ، فإن جامعة جيتنجن Gôttingen التى أسسها جورج الثانى سنة ١٧٣٤ ، والتى تمتعت بحصانة نسبية من التدخل الحكومى نظراً إلى مركزها الممتاز فى هانوفر ، بدت فى ثوب من الحرية جميل . أما فيما عداها من الجهات ، فقد كان القمع العلمى ، بتعليمات ڤينا ، هو القاعدة العامة السائدة .

٢ — استقلال أمريكا الجنوبية

عون الأحرار الإنجليز

ولكن فى الجانب المقابل لأوربا الرجعية غير القومية ، بدا منظر آخر طابت له نفوس الأحرار فى إنجلترا : هو منظر القارة الأمريكية . ففى شمال تلك القارة ظهرت جمهورية قوية تمكنت من الظفر بحريتها ، وفى الجنوب

والوسط شرع عدد من الجماعات تحت زعامة سيمون بوليڤار الكاراكاسي Simon Bolivar of Caracas — تلك الزعامة الحافزة للنفوس ، المذكية للهمم ، وبمساعدة غير رسمية ليست بضئيلة من بحارة وتجار إنجليز ، وعلى الأخص من اللورد كشرين Cochrane الرائع الذكاء — شرعت تلك الجماعات تناضل لتحرير نفسها من ربقة سادتها الأوربيين . وكانت إنجلترا بالنسبة إلى تطورها التجارى الكبير ، ذات صلات خاصة بهاتين القارتين الأمريكيتين ، واستغلت استغلالا تاماً انتشار زراعة القطن فى ولايتى كارولينا الشمالية والجنوبية تحت تأثير اختراع المحالج سنة ١٧٩٣ . بيد أن التجارة الأوربية بأكملها نفقت وترعرعت مع المستعمرات اللاتينية الجنوبية بعد إعلان تمردها .

عصيان المستعمرات الإسبانية والبرتغالية

فقد أخذت مستعمرة تلو مستعمرة ترفع عن عنقها نير سيدتها الأوربية ؛ فحرَّر كشرين پيرو ، ثم البرازيل . وأعلن بوليڤار استقلال كولمبيا ، وأعلن إتربيد Iturbide استقلال المكسيك . وأضحى جلياً واضحاً قيام إمبراطورية تجارية جديدة تقدم فرصاً مناسبة للمغامرين البريطانيين السعيدى الطالع . فرفع تجار مدينة لندن نداء يطالبون فيه الحكومة البريطانية بوجوب تنظيمها هذه التجارة النامية وتأمينها بالاعتراف رسمياً بالمستعمرات الثائرة .

سياسة كاننج

وكان السياسى الإنجليزى الذى قُسِم له أن يعالج هذه المشكلة هو جورج كاننج (١٧٧٠ — ١٨٢٧) ، وهو خطيب مفوه ، وذكى لبيب . فمع أنه كان وزيراً فى حكومة إنجليزية محافظة ، وخصما لا يلين للإصلاح البرلمانى ، إلا أنه كان فى السياسة الخارجية رائداً من رواد ذلك اللون الجديد من الدبلوماسية الحرة الشعبية التى واصل اتباعَها بعده بلمرستن Palamerston أحدُ تلاميذه العظيمى الإعجاب به . وصارت تلك الدبلوماسية مدى قرابة نصف قرن شوكة فى جنب ملوك أوربا وحكامها الأوتقراطيين .

ولم يكن من سياسة كاننج أن يؤيد نظاماً جماعياً لإقرار النظام فى الأقطار الأجنبية. فمع أن النمسا بموافقة روسيا وبروسا ، آثرت أن تخمد الفتن والثورات التى نشبت فى نابلى ، فقد كان هذا فى نظره هو شأنها الخاص بها وحدها . ومع

أن فرنسا أنفذت جيشاً إلى إسبانيا للقضاء على فتنة عسكرية أجبرت ملكاً مستبداً خاضعاً لنفوذ الاكليروس على منح دستور لبلاده سنة ١٨٢٣ ، فهذا أيضاً لم يكن فى رأى كاننج بالأمر الذى يتطلب موافقة إنجلترا وتأييدها . بل على النقيض من ذلك ، نظرت لندن إلى الغزو الفرنسى نظرة قلق شديد . إذ ماذا تعمل لو أن الجيش الفرنسى بعد قمعه هذه الفتنة ظل معسكراً فى إسبانيا ؟ وما العمل لو أنه غزا البرتغال ، حليفة إنجلترا ؟ وما العمل أيضاً لو أنه أعان الأسبان على استرجاع جزر الهند الغربية ؟ غير أن كاننج وطن عزمه على منع احتمالات مزعجة كهذه . ولهذا السبب اعترف بالثوار الأمريكيين الجنوبيين ، برغم استياء عواهل أوربا الأوتقراطيين واستنكارهم الشديد .

تصريح منرو

ومع عظم الضجة والدهشة اللتين نجمتا عن هذا الاعتراف الخطير الشأن ، فإن الضجة والدهشة كانتا تغدوان أعظم ، لو أنه اعتُرِف بمركز المستعمرات الأمريكية الجنوبية بإصدار إعلان مشترك من لندن وواشنجتن ، كما اقترح كاننج . بيد أن الولايات المتحدة بمشورة جون كونسى أدمز John Quincy Adams وزير خارجيتها صممت على أن تصدر تصريحاً خاصاً . فأعلن الرئيس منرو Monro فى رسالة شهيرة إلى الكنجرس مبدأه الشهير الخاص بأن أمريكا للأمريكيين ، وأذاع إنذاراً خطيراً إلى العالم القديم بأن الولايات المتحدة لن تطيق استعماراً أوربياً جديداً لأية بقعة من بقاع أمريكا . ولقد سبق مبدأ منرو تصريح كاننج . ولكن الذى وقى قارة أمريكا الجنوبية إبان الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر من أى هجوم أوربى عليها ، هو سطوة أسطول ملك بريطانيا وقوته ، أكثر من الأمنية الجليلة التى فاه بها رئيس الجمهورية الأمريكية .

٣ – حرب استقلال اليونان ، وتدخل محمد على

تشيع الإنجليز لليونان

وعقب ذلك ، ساهم الأسطول البريطانى – الذى لعب دوراً كبير الشأن فى تحرير أقطار أمريكا الجنوبية – فى تحرير بلاد اليونان .

ولقد أظهر بشكل بارز نضال الأمة اليونانية فى سبيل تحريرها من الحكم التركى نزعتين متضادتين فى الحياة الدولية . ففى نظر نبلاء النمسا المتلمذين على الجزويت ، كانت القومية اليونانية مرضاً من الأمراض ، اعتقدوا بحق أن انتشار عدواه فى وادى الدانوب يحمل معه انهيـــار دولتهم ، أما سادة إنجلترا ، فلم تخامر نفوسهم مخاوف كهذه . فقد كانوا يتمتعون بنعم القومية الإنجليزية ، رغم قمعهم روح القومية فى إرلندا . أما القومية الهندية فكانت ما تزال أمراً بعيداً .

وقد جعلهم التعليم الذى تلقوه فى مدارسهم متشيعين للهيلينية ، وجعلتهم الحياة العامة البريطانية برلمانيين ، وهفت عواطفهم ، بوصفهم محبين للنصفة والعدالة ، إلى نصرة أمة صغيرة تجاهد لنيل حريتها . ولما مات بايرُن فى ١٩ إبريل سنة ١٨٢٤ فى مسولنجى Missolonghi مستشهداً فى سبيل الحرية اليونانية ، شاعت الحماسة والحمية بين الإنجليز فى كل صقع وناد . ولم يقفوا ليتساءلوا عن مدى ما برح باقياً من الهيلينية فى تلك البلاد القديمـــة التى تعلمت الشبيبة الإنجليزية فى قاعات المحاضرات فى أكسفورد وكمبردج أن تضعها موضع التبجيل والإعجاب – لم يقفوا ليتساءلوا عن مدى ما بقى من الهيلينية فى رعاة وقطاع الطرق وقرصان اليونان الحديثة وجزرها . فلقد كان اسم اليونان طلسماً من الطلاسم . ومع أن تركيا كانت وقتئذ صديقة إنجلترا الرسمية ، وحائلا دون أطماع روسيا وتدبيراتها فى الشرق ، إلا أن سواد الإنجليز وقفوا وراء جورج كاننج وزير الخارجية يسندونه ويشدون أزره ، حينما انتهى رأيه فى آخر الأمر

إلى الاعتراف بالثوار اليونانيين كمحاربين ، وانضم إلى فرنسا وروسيا للعمل على إنقاذهم من الإبادة .

اليونانيون الحديثون

أما هؤلاء اليونانيون الذين أذكوا لظى حرب الاستقلال ، فلم يكونوا ، لا ثقافةً ولا دماً (إلا إلى مدى ضئيل هو موضع الحدس والتخمين) ذوى صلة بيونانيي أفلاطون وأرسطو . فقد انحدر جلهم من سلالة السلاف والألبان الجهلة الأجلاف ، ورضوا بوضع عقولهم وأفكارهم تحت سيطرة رهبان الكنيسة البيزنطية وقسوسها . وكانوا يتخاطبون بالرومية Romaic ، وهى ضرب من اللغة اليونانية تشكل على ألسنة الرعاة والبحارة ، واقتبسوا بحرية كثيراً من الكلمات التركية واللاتينية والسلافية ، وتعبيرات ملاحى بحر إيجة العامية . وكانوا يستعملون الحروف اليونانية القديمة ؛ ولكنهم لم يكونوا يدرون شيئاً عن منظومات هوميروس ومآسى أخيلوس .

التفاخر بالماضى

وتدين كل حركة من الحركات القومية فى القرن التاسع عشر بالشىء الكثير لوحى الماضى الغابر . ففى نهضة الصربيين الوطنية الحديثة رجعوا بأبصارهم إلى ستيفن دوشان Stephan Dushan فى القرن الرابع عشر ، ورجع الإيطاليون إلى دانتى وڤرجيل ، والبوهيميون إلى الأناشيد التشكية المعروف قدَمها ، والإرلنديون إلى لغتهم الأصلية « إرس » Erse . وقد خطرت لكوريس Korais ، وهو معلم من جزيرة كورفة ، الفكرةَ الرائعة بأنه يمكن نقل آداب اليونان القديمة إلى لسان وسط بين الأصل الفخم واللهجة العامية الغالبة وقتئذ فى اليونان . وهكذا بخَلْقه لغة جديدة عاون هذا العالم المجدّ على ولادة أمة جديدة .

ضعف تركيا

وقد هُيِّئت السبل للثورة اليونانية بسلسلة من الصدمات التى أوهنت من قوة الإمبراطورية التركية فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر ، وبدت كنذير شؤم بانحلالها المقترِب . فقد خرجت عن طاعتها بلاد الصرب عام ١٨٠٤ ، تحت قيادة قره جورج Cora George راعى الخنازير ، ونادت باستقلالها . وكذلك أعلن على باشا والى يانينا استقلال ولايته ألبانيا . وتمكن محمد على المغامر

الألبانى من السيطرة على القطر المصرى . فى هذه الظروف لاح لأثرياء اليونان – الذين كانوا قد أسسوا عام ١٨١٥ جمعية ثورية سرية تحت اسم « جمعية الإخوان » Philike Hetairia فى أودسا – لاح لهم أمل جديد لمستقبل جنسهم اهتزت له نفوسهم طرباً .

إخفاق ثورة إبسلانتى

فى سنة ١٨٢١ تمكنت الجيوش التركية فى ولاية الأفلاق من القضاء بسهولة على تمرد تزعمه الأمير إسكندر إبسلانتى Alexander Ypsilanti ، أحد ياوران القيصر اسكندر الأول ، نتيجة سوء قيادته واستعداده ، ولعدم حصوله على المساعدة الروسية والرومانية التى اعتمد عليها .

ثورة المورة

بيد أن اليونانيين كانت لهم مزية لا يتمتع بها فى العادة الخارجون على السلطات المشروعة : هى تفوقهم على خصمهم فى البحار . فقد تمكنت السفن الأولى التى أنزلها سكان الجزر اليونانيون الأغنياء من تشديد الخناق على العدو ، وإنزال النجدات حيث تظهر الحاجة . وتمكن يونانيو المورة والجزر بمعاونة المتطوعين من الدول الأوربية الغربية ، من أن يواصلوا مدى ثلاثة أعوام نضالا كاد يكون متكافئاً : نضالا تميّز بالفظائع الوحشية التى ارتكبها كل من الطرفين ضد خصمه القوى . بيد أن الموقف تغير فجأة بتدخل محمد على والى مصر القوى البأس فى جانب السلطان .

محمد على

ومحمد على هذا هو مؤسس الاستقلال المصرى والبيت المالك الذى ما زال يجلس على سرير الملك بالقاهرة . وهو ألبانى مسلم من أهل قولة . وهو فى سن بونابرت وولنجتن إذ وُلِد مثلهما سنة ١٧٦٩ . ولقد كان ثاقب النظر فى رؤية الفرص المواتية وانتهازها ، حصيفاً جم الحصافة فى تقدير الظروف . فمكنته هاتان الخلتان فى كل خطوة من خطوات حياته المفعمة نشاطاً وهمة من سلوك السبيل الذى يجلب فائدة له – مهما يكن ذلك السبيل غادراً عنيفاً . وقد ميز نفسه كمحصل للضرائب فى بلده ، وميز نفسه بدرجة أفضل كتاجر تبغ . ولكنه بزّ الأقران ، وفاق كل مأمول ، كرئيس أورطة ألبانية فى الجيش العثمانى المعسكر فى مصر .

ولقد استطاع محمد على ، بفضل تلك الأورطة التى كانت الوحيدة بين القوات التركية فى مصر التى يمكن الاعتماد عليها ، أن يجعل نفسه سيد مصر . فطرد الأتراك ، وهزم البريطانيين ، وذبح المماليك ، وامتدت ذراع فتوحه إلى مكة والخرطوم منصورة ظافرة . وبأسطول اشتراه حديثاً من دول الغرب ، وبجيش جنَّد سواده من السودان ، وُدرِّب على يد ضابط فرنسى كفء ، بدأ سياسة واسعة الأطماع بعيدة الأهداف : سياسة بدأت أصلا فى الحصول من السلطان على جزيرة كريت وإقليمى فلسطين والشام ، كمكافأته على إخماد الثورة اليونانية ، ولكنها سياسة حوت — من بين أهدافها النهائية الخفية — قلب الإمبراطورية التركية .

التدخل المصرى

وبدأ التدخل المصرى ضد اليونانيين فى أول الأمر كأنه ينذر بالقضاء التام على أمانيهم ومطامحهم . فقد اكتسح جيش مصر شبه جزيرة المورة ، وسيطر أسطولها على بحر إيجة . ثم أذيع على أثر ذلك فى الدول الغربية أن الأسرى اليونانيين يباعون كأرقاء فى القاهرة ، وأن سكان القسم الأكبر من بلاد اليونان مهددون بخطر الفناء . فنتيجة لذلك تدخل كاننج .

فإنه رغم كونه محافظاً حسب تقاليد أسرته ، ورغم كونه عضواً فى وزارة محافظة كانت تنظر شزراً إلى جميع العصاة من أى جنس ، لم تقبل نفسه أن تشهد ألمع صقع من أصقاع أوربا وأمجدها ، ومنبت الحضارة الأصيل ، يحتله جيش من الفلاحين والسود . وبدلا من أن يسلم بإبادة اليونانيين . دعا الدول العظمى إلى التدخل لمصلحتهم . بيد أن النمسا وبروسيا رفضتا دعوته لعدائهما المطرد للحرية . أما روسيا وفرنسا فقبلتا : الأولى لوجود نزاع بينها وبين الباب العالى ، والثانية من باب العطف على اليونان .

التدخل الأوربى

فأبرم كاننج فى ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ مع روسيا وفرنسا معاهدة لندن ، التى نصت على التدخل بفرض حصار بحرى « سلمى » ، لإنشاء دولة يونانية متمتعة بالحكم الذاتى تحت سيادة السلطان . ولذا يمكن اعتبار هذه المعاهدة الأساس الحقيقى لاستقلال اليونان .

ومع أن كاننج توفى فى الشهر التالى (٨ أغسطس) ، وخلفه وزراء محافظون لم يشعروا بأدنى عطف على سياسة تؤدى إلى إضعاف الباب العالى أو تقوية القيصر ، إلا أنهم لم ينقضوا عمله . وقد جرَّ الحصار السلمى إلى المعركة البحرية التى لم تقرها الحكومة البريطانية ، والتى نشبت فى خليج نوارين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ . وكانت نتيجتها تدمير الأسطولين المصرى والتركى عن آخرهما بواسطة أساطيل الحلفاء الثلاثة. فأرغى الباب العالى وأزبد، ورفض كل اعتذار أو احتجاج . ولكن ظهر أسطول إنجليزى أمام ميناء الاسكندرية ، وتوغل جيش روسى فى أراضى السلطان حتى وصل أدرنة ، وأُنزِلت كتائب فرنسية قوية فى المورة ، فاضطر محمد على إلى إجلاء جنده عن المورة ، واضطر السلطان إلى منح اليونان استقلالا داخلياً تحت سيادته .

استقلال اليونان التام

ولما سقطت حكومة المحافظين فى إنجلترا سنة ١٨٣٠ ، وصار بلمرستن أحد أعضاء حزب الأحرار وزيراً للخارجية ، زالت جميع العراقيل للاعتراف باليونان دولة مستقلة كل الاستقلال عن تركيا (سنة ١٨٣١) . وقد ألبست الدبلوماسية التى اضطرت قهراً إلى إقرار العمل غير النظامى الذى اضطلع به الجنود والبحارة والمغامرون الأوربيون الذين اشتركوا فى المواقع الحربية — ألبست الدبلوماسيةُ الدولةَ الطفلة حُلّة من الاحترام والمهابة الملكيين. فدعِى أمير بافارى اسمه أتو Otto للجلوس على سرير مملكة يتعذر النهوض بها . إذ لم تكن تضم يومئذ إلا جزءاً من الأمة الناطقة باليونانية ، لأن تساليا وكريت لم تُضما إليها وقتئذ .

انتصار القومية

ومع أن مملكة أتو الصغيرة لم تكن تنزل الرعب فى قلب أحد ، إلا أن ثورة اليونان برغم ضآلة قيمتها من حيث تغيير التوازن الدولى فى أوربا ، كانت حقاً ذات أثر جليل بعيد . ففيها سُددت الضربة الأولى الناجحة ضد حكم أوربا حكماً أوتقراطياً وفق مؤتمرات دولية ، وفيها أصيبت الدولة العثمانية بأشد جروحها حساسية ، وفيها كسبت روح القومية العصرية — التى قدر لها أن تحكم فيما بعد إيطاليا وبولندة وبوهيميا وإرلندا ، وتدك الإمبراطورية النمساوية

دكا ـ كسبت روح القومية أول نصر رائع لها رن فى الآفاق .

وفى هذا الطور الأول للقومية الذى تمت حوادثه فى اليونان ، وفى آخر أطوارها : هذا الذى حدثت حوادثه فى إرلندا ، نرى الأشكال البشرية تتكرر وتتماثل : نرى كولوكترونس Kolokotrones وميشيل كولنز Michael Collins وكوريس وآرثر جريفث Arthur Griffith وكاننج ولويد جورج : المتآمر المجاهد ، والعالم الأديب ، ورجل السياسة الحر المذهب .

بيد أنا حين ننعم النظر فى الأحداث المروعة التى تميزت بها حروب الاستقلال اليونانى : من مذابح شنيعة وتعذيبات مرعبة ارتكبها اليونانيون ضد سكان الترك فى شبه جزيرة المورة ، ومن إبادة سكان جزيرة خيوس Chios اليونانيين عن بكرة أبيهم ، وكذلك قتل الجانب الأكبر من سكان الحى اليونانى فى اسطنبول على أيدى أعدائهم الترك ، ثم حين ننعم النظر أيضاً فى السلسلة الطويلة الحلقات من الملاحم الوحشية التى رسّخت فى نهاية الأمر أركان مبدأ القومية فى شبه جزيرة البلقان فى عصرنا الحديث ـ حينما ننعم النظر فى هذا كله ، من الطبيعى أن نسائل أنفسنا بعد ذلك عما إذا كانت القومية البلقانية تساوى هذا الثمن الفادح الرهيب . فإنه إذا تذكرنا أن مركز اليونانيين وحالهم تحت حكم الترك فى القرن الثامن عشر كانا محتملين ، وأن الكنيسة اليونانية كانت ممنوحة قسطاً كاملا من الحرية الدينية ، وأن تجارة الليفانت كانت فى أيدى التجار اليونان ، وأن اليونانيين كانوا يحتكرون أبواباً معينة من التجارة والصناعة ، ويستأثرون دون غيرهم بأربعة من مناصب الدولة الكبرى ـ إذا تذكرنا هذا كله ، رأينا من الواضح الجلى أنه بغير ذلك الهيجان لفكرة القومية ، كانت وحدة البلقان تتخذ طريقاً آخر يلائم ملاءمة تامة رخاء رعايا الباب العالى المسيحيين ، ورفاهيتهم المادية .

ولكن من الجهة الأخرى ، فلربما كان ثمن التزام الهدوء ، والخلود إلى الراحة تحت نير الترك المتقلب الذى لا قانون ولا ضابط له ، كان ثمناً فادحاً . إذ يحمل فى طياته الابتعاد عن تيارات التقدم للفكر الغربى ، وخلق روح

دائمة من الذلة والهوان تتعارض مع احترام النفس ، وتنافى أسس تقدم الأمم وتشمير السواعد لترقيتها .

كتب يمكن استشارتها

C.A. Fyffe : History of Modern Europe. 1924.
C.K. Webster : The Foreign Policy of Castlereagh.
H. Temperley : George Canning. 1926.
Algernon Cecil : British Foreign Secretaries. 1927.
W.A. Phillips : The War of Greek Independence. 1897.
G. Young : Egypt. 1927.
W.A. Phillips : Mohamed Ali. 1907.
A. Toynbee : A Study of History. 3 vols. 1934.

الفصل العاشر

ثورة عام ١٨٣٠

بريطانيا والتجارة العالمية . انتشار الاختراعات الميكانيكية . التأخر النسبى للصناعة الألمانية . بقاء الروح الديمقراطية فى فرنسا . صعوبات الملكية الدستورية الفرنسية . لويس الثامن عشر . الصراع بين الأحزاب الفرنسية . النمو المطرد للمبادئ الحرة . شارل العاشر . ثورة يوليو . لويس فيليب . شيوع الهيجان الثورى . ولادة البلجيك . عذاب بولندا المبرح . الرابطة بين بولندا وفرنسا .

١ ـ الانقلاب الصناعى

بريطانيا والتجارة العالمية

بعد موقعة ووترلو بخمس سنين ، كتب هجل Hegel أحد جهابذة الفلاسفة الألمان عن الإنجليز يقول : « إن حياة الإنجليز المادية تقوم على التجارة والصناعة . وقد أخذ الإنجليز على عاتقهم عبء نقل الحضارة إلى العالم . فإن روحهم التجارية تحفزهم على الطواف فى كل بحر ، والتنقل فى كل مكان ، وإنشاء صلات وروابط مع الشعوب المتبربرة ، وخلق الحاجات وإنعاش دولاب الأعمال ، وتهيئة ـ أولا وقبل كل شىء ـ الأحوال الضرورية فيما بينهم لقيام التجارة . وهذه الأحوال هى : نبذ حياة العنف غير المشروع ، واحترام المِلْكية ، واتباع آداب اللياقة والسلوك مع الغرباء » .

فلم يبدُ الإنجليز إذن أمام الأجانب كأسياد إمبراطورية ، كما أنهم لم ينظروا إلى أنفسهم بهذه العين ، بل ظهروا بالأحرى بمظهر تجار عالميين ، يبيعون السلع التى أنتجتها لهم حديثاً التحسينات الميكانيكية ووفرة المنابع المعدنية وفرة واسعة النطاق فى بلادهم ، ويجلبون بدلا منها منتجات كل قطر من أقطار البسيطة . فمع أن أستراليا كانت قد كُشِفت وامتلكت ، ومع أن كندا كان قد

دوفع عنها بنجاح فى حرب قصيرة مع الولايات المتحدة ، ومع أن سيلان ورأس الرجاء الصالح ومالطة كانت قد أضيفت إلى ممتلكات الملك جورج الثالث وراء البحار ، ومع أن النظام الاستعمارى العتيق القاضى بمنح أفضلية للتجارة بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها قد عمَّر بعد ثورة المستعمرات الأمريكية الناجحة ، إلا أنه لم يكن ثمة ما هو أبعد إلى أفكار الإنجليز فى ذلك الحين من حصر تجارتهم مع الممتلكات البريطانية . فقد كانت أسواق أوربا الغنية قريبة الشقة من بلادهم ، وقدمت أمريكا الجنوبية بعد تحريرها من ربقة أسبانيا والبرتغال فرصاً واسعة المدى للتجارة الإنجليزية . وكان فحم وحديد ومنسوجات إنجلترا لازمة لسد حوائج القارة . كما أنه من مبادلة السلع المصنوعة الإنجليزية بالمواد الخام التى تنتجها أقطار قاصية ، نشأ تطور للتجارة الدولية لم يشاهد التاريخ قط مثيلا له من قبل .

انتشار الاختراعات الميكانيكية

وكانت إحدى خصائص القرن التاسع عشر ، أنه شاعت أثناءه فى ربوع أوربا والعالم الخارجى تلك الاختراعات الآلية ، وذلك اللون من الحضارة الصناعية التى طلعت وتطورت أولا عند الدول الأنجلوسكسونية . ففى عام ١٨١٩ عبرت أول سفينة تجارية المحيط الإطلنطى ، وشاهد العقد التالى افتتاح السكك الحديدية فى البلجيك وفرنسا وألمانيا . وفى سنى الأربعين عم التلغراف أوربا طولا وعرضاً ، نتيجة لاختراع مورس Morse المخترع الأمريكى . وجاءت سنو الخمسين بالتلغراف الممتدة أسلاكه تحت سطح الماء . وتقدم فى سنى الستين مد خطوطه عبر الأوقيانوسات . ورأت سنو السبعين تكوين اتحاد البريد الدولى ، وتطورت تجارة الحبوب الدولية تطوراً جعل محصولات العالم الجديد فى متناول سكان العالم القديم .

التأخر النسبى للصناعة الألمانية والفرنسية

وامتازت العقود الختامية للقرن التاسع عشر بنماء حجم المدن فى جميع أنحاء أوربا الغربية . وبدت هذه الظاهرة على الأخص فى ألمانيا : تلك البلاد التى كان يمكن وصفها حتى سنة ١٨٧١ ، حين أُسِّست الإمبراطورية ، بأنها قطر تتألف غالبية أهله من فلاحين أحرار مالكين لأرضهم ، وسادة من

ملاك الأرض ذوى حول وطول ، ومن مدن عظيمة قليلة العدد ، ومن نسبة غير كبيرة من سكان المدن. ولكن نظراً للتأثير المشترك لانتشار السكك الحديدية، ونمو التجارة الخارجية ، وظهور الاختراعات فى صناعتى الفولاذ والكهرباء ، ونتيجة للنشاط الجم المترتب على انتصار ألمانيا فى حرب السبعين ، زاد سكانها الحضر أربعة أمثال فى مدى الستين عاماً التى توسطت سنتى ١٨٤٩ و ١٩١٠ .

وكان تقدم الصناعات — الذى سار بخطوات حثيثة فى بريطانيا — بطىء الخطى فى قارة أوربا ، اللهم إلا فى ذلك الشطر الصغير الرقعة من البلجيك الذى عُرِف منذ القرن الثالث بازدحام مدنه بالسكان ، وحياته الصناعية الموفورة النشاط . وعلى هذا فلم تكن الحركات الثورية التى قامت فى أصقاع مختلفة من أوربا أعوام ١٨٢٠ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ نتيجة لتذمر عمال المصانع ؛ فإنه لم يكن فى الواقع خلال تلك الحقبة سوى عدد قليل من المصانع الكبيرة ، سواء فى فرنسا أو فى ألمانيا . فيذكر الدكتور كلاپام Dr. Clapham ، أستاذ التاريخ بجامعة كمبردج (سابقاً) ، أنه لم يكن فى فرنسا بين سنتى ١٨١٥ و ١٨٤٤ سوى مدينتين فقط هما سنت إتيين St Etienne وروبيه Roubaix ، اللتين نمتا نمواً سريعاً ، وأن ثلاثة أخماس الحديد الخام الذى أنتجته تلك المملكة أُخرِج من مئات الأفران الصغيرة المنثورة فى الأقاليم ذات الغابات . ولم يكن الحال فى ألمانيا مغايراً لهذا . أجل ، كان للألمان مزايا عديدة على منافسيهم الإنجليز . فقد كانت طبقتهم الوسطى أفضل تعليما ، وكانوا يتفوقون عليهم فى فنون الرسم والمستحدثات ، وكانوا أكثر منهم دراية بالكيمياء ، وكان فى مكنتهم أن يعلنوا أن صناعة قطع المائدة المعدنية فى سولنجن Solingen ذات سوق أوسع ، وشهرة أطيب ، من مثيلاتها فى أوربا . كما أنه لم يكن لألمانيا بين أوربا جمعاء ضريب فى خبرتها الموروثة فى صناعات التعدين .

ومع هذا فإن العقل الألمانى كان قليل الانشغال بالأشكال والمعايير الجديدة للتطور الاقتصادى . وكانت الصناعات الألمانية ، حتى الصناعات المشتغلة

باستغلال منابع البلاد المعدنية الغنية ، كانت متأخرة تأخراً عظيما . إذ نقصتها المعدات العلمية ورأس المال والمغامرة ، حتى أنه لم يُشرع إلا حوالى سنة ١٨٤٠ فى العمل بمناجم الفحم العظيمة فى سيليزيا التى كانت مبعث خلاف شديد بين بولندا وألمانيا فى السنين الأخيرة .

٢ – ثورة يوليو

بقاء الروح الديمقراطية فى فرنسا

مع أن عودة الملكية فى فرنسا هيأت لذلك القطر مرة ثانيـــة منظر ملك وأبهة بلاط ، إلا أنها لم تغير إلا قليلا من أحوال الأمة الفرنسية . فقد ذهب « النظام القديم » إلى غير عودة . وغيرت انقلابات الثورة والإمبراطورية الواسعة المدى نظام المجتمع الفرنسى تغييراً أساسياً عميقاً ، بحيث لم يعد فى وسعه أن يعيد فوضى العصر البائد وخلله واستثناءاته — تلك الأمور التى جعلت الملكية القديمة مثالا صارخاً للفضائح ، وصرحاً رفيعاً للحكم السيىء . فلم يتمكن الأشراف قط من استرجاع سلطانهم الكبير القديم . وكانت سلطة الأساقفة الزمنية تزداد على مر الأيام ضعفاً واندثاراً ، وظلت جميع انقلابات الثورة الكبرى : كالمساواة أمام القانون ، والحرية الشخصية ، والحرس الأهلى ، وإزالة النظم الإقطاعية ، والنظام القضائى الجديد — ظلت هذه الانقلابات دون تأثر بأوبة البوربون إلى الحكم . فلم يشعر أحد أن فى قدرته إلغاء قوانين نابليون ، أو وسام جوقة الشرف الذى استحدثه ، أو إقفال أبواب الجامعة التى أسسها . بل إنه حتى الكنكردات الذى عقده مع البابا ، والذى كان قذى فى أعين الإكليروس الفرنسى ، صار قوى الأصول راسخ الجذور ، بحيث لم يكن فى المقدور تمزيقه ونبذه وراء الظهور . فبدت الملكية العائدة بتقاليدها المطلقة الاكليريكية ممسوخة الشكل ، لا تلائم مجتمعاً صارت تسوده مبادىء المساواة ، وتشيع فى أقوى طبقاته نفوذاً وسلطاناً روح علمانية بعيدة عن الدين .

صعوبات الملكية الفرنسية الدستورية

ولهذا ابتدأت تجربة الملكية الدستورية فى فرنسا فى أشد الظروف سوءاً

وإحراجاً لها . فلم تكن فقط محل البغض والكراهية ، ولم تكن فقط غير مألوفة من الجميع ، بل إنها كانت تشير إلى ثبت طويل من الفضائل السياسية التى لا يستطيع ممارستها إلا قوم خلت نفوسهم من المنازعات والأحقاد المريرة : هذه المنازعات والأحقاد التى جعلت من الصعب على الفرنسيين تسوية خلافاتهم فما بينهم تسوية عادلة . فقد يستطاع تقليد دستور إنجلترا ونقله . ولكن ليس من السهل نقل روح التساهل والاعتدال والمسالمة والمعاملة العادلة ومشاعر الولاء — هذه الأشياء التى جعلت تنفيذ ذلك الدستور أمراً ميسوراً ناجحاً . فبينما كانت جرائد إنجلترا فى تلك الحقبة تملأ أعمدتها بأخبار الألعاب الرياضية والإعلانات ، كانت جرائد فرنسا تتميز حنقاً وغيظاً بإساءات «حكم المائة يوم» ، « والإرهاب الأبيض » الذى تلاه . فتحشو صفحاتها بالقذع السياسى العنيف ، وسيل من السباب الفاحش لا ينقطع .

ذلك لأن المشرِّع الفرنسى لم يكن كزميله الإنجليزى ، يعنى بالاشتراك فى حفلات الصيد والقنص ، أو تلطِّف مشاهدته سباق الخيل من عنف تفكيره السياسى ، أو تخفف من سورة منطقه الحانق . بل كان يفكر على الدوام فى منطق مرير قاس . فإذا كان ملكياً متعصباً للملكية ، هاجم فى قسوة وعنف الدستور والكنكردات ، وسعى لإرجاع الضياع والأراضى التى صادرتها الثورة إلى الأشراف . وبالعكس كانت الشيع المعادية للملكية تمقت فى غلٍّ مضطرم الأوار طبقات النبلاء ورجال الدين ، وتشدد النكير على الملكية لخضوعها الذليل للدول الأجنبية ، ولنبذها الراية الثلاثية الألوان ، ولقبولها صلحاً مزرياً بكرامة أمة حربية ومجدها .

لويس الثامن عشر

فكان مركز لويس الثامن عشر (١٨١٤ — ١٨٢٤) — وهو يقف وقفة عسيرة بين أمتين وفلسفتين وتقليدين متباينين — صعباً إلى أقصى درجات الصعوبة . فقد كان يدين بعرشه للهزيمة الشائنة المذلة التى لحقت بفرنسا فى ووترلو ، وأعيد فى ذيل جيوش الحلفاء الظافرة إمعة زرية بعيدة عن المجد والأبهة ، إلى أمة تتعطش إلى المجد والرفعة والسلطان . وأجبرته الظروف القاسية

التى حتَّمت به على التزام جادة الاقتصاد الشديد المكروه . فلم يكن فى إمكانه أن يجارى نبــلاءه المتطرفين الذين كانوا يسيطرون على مجلسه التشريعى الأول ، إذ كانت أذهانهم مملوءة بالوهم بعودة النظام القديم . وفى الوقت ذاته كان يخاف الاحتمالات الثورية للمبادئ الحرة . ففى هذا الجو من العنف الأعمى الذى كانت الشيع المتضادة المختلفة تعيش فيه ، كان عسيراً كشف الطريق السوى ، وكان عسيراً أيضاً عدم الانحراف عنه . ومع ذلك فقد تمكن لويس من كشفه والسير على هديه. فإن القانون الانتخابى الذى صدر سنة ١٨١٧ ، والذى حصر حق الانتخاب فى دائرة ضيقة من الطبقة الوسطى ، قرر فى مبادئه الرئيسية قواعد الحكم التى حُكمت بمقتضاها فرنسا مدى ثلاثين عاماً .

ومن الأمور التى تُذكر بالخير لهذا الملك العجوز الذكى الفؤاد ، السريع الخاطر ، أنه بعد أن تخلص من مجلسه التشريعى الأول المؤلفة أغلبيته الساحقة من النبلاء — الذين كانوا ملكيين أكثر من الملك — عين وزراء تمكن بمشورتهم وتأييدهم من تجنب جميع ألوان التطرف ، ومنح فرنسا فترة من السلام ورغد العيش استطاعت فى خلالها أن تنظم ماليتها ، وتدفع بنسبة منقوصة الغرامة الحربية المفروضة عليها ، وتحرر أرضها من الجيوش الأجنبية ، وتحرز مرة أخرى مكاناً فى مجالس أوربا السياسية على قدم المساواة والشرف مع غيرها من الدول. والحق أن أسماء ريشليو Richelieu ودى سير De Serre وديكاز Decazes ، وبدرجة أقل ڤيليل : Villèle — وهو مالى يمقت المغامرات — الحق أن أسماء وزراء لويس الثامن عشر هذه لجديرة بأن تخلد فى سجل الشرف بين أسماء عظماء البرلمانيين الفرنسيين .

الصراع بين الأحزاب الفرنسية

ولكن ظهرت خارج حلقة الناخبين المؤلفة من قرابة ثمانين ألف ناخب — ظهرت حركتان متعارضتان أخذتا تسيران بسرعة كبيرة متزايدة : الحركة الأولى تمثل تجدداً فى روح الكنيسة الكاثوليكية ونشاطها : هذه الكنيسة التى وضعت وقتئذ نصب عينيها أن تعيد إلى أحضان الإيمان ، وترجع إلى معرفة الله ، قسماً كبيراً من الفرنسيين كان قد ضل طريقه وارتمى فى أحضان الوثنية ،

وذلك بتنظيم مجموعات متضافرة من البعثات الدينية ، وشن هجوم عنيف على الجامعات والمدارس لإرجاعها إلى محجة الدين . أما الحركة الثانية فقد أشهرت الحرب على الإكليروس ، ووجدت لها أداة مساعدة جديدة فى جمعيات الكاربونارى Carbonari : وهى جمعيات خرجت من نابلى ، وكانت ترمى إلى النضال ضد الاستبداد فى جميع أشكاله .

نمو المبادىء الحرة

ولم تكن الحرية الأوربية قد أصيبت بمقتل فى ساحة ووترلو ، كما أكد نابليون يومئذ . فإنه لم تنقض أعوام خمسة ، حتى أدركت فى امتعاض حكوماتُ الدول الغربية المحافظة أن روح الثورة عامة مبثوثة تعمر الصدور . فقد كان هناك هياج بين طلبة الجامعات بألمانيا ، وقامت فتن فى مانشستر ، وثورات فى نابلى وبيدمنت وأسبانيا ، وطالب القوم فى صقلية بالاستقلال ، وفى البرتغال بالدستور ، وظهرت فى اليونان هزات تنذر بالقومية ، وفى فرنسا اشتعلت ثورات كاربونارية صغيرة متفرقة ، كما كان لاغتيال الدوق دى برى Duc de Berry ابن أخى الملك ، ووريث العرش الفرنسى بعد أبيه الكونت دارتوا ، فى ١٣ فبراير سنة ١٨٢٠ بطعنة من خنجر متهوس اسمه لوڤيه « Louvet » — كان لاغتياله دوى هائل فى فرنسا . ولكن هذه الحركات كانت فجة لم تنضج بعد . وحتى فى الجهات التى تفاقم فيها الخطر كنابلى وأسبانيا ، أمكن قمعها بسهولة بواسطة أداتين طيعتين من أسلحة الأوتوقراطية : وهما جيشا النمسا وفرنسا الملكيين .

الجيش الفرنسى يخمد ثورة أسبانيا

غير أنه حينما يذكَى سعير الشهوات والأهواء إلى درجة عالية من الغليان ، تصبح إدارة دفة الحكم بحكمة وتفطن أمراً يزداد صعوبة ومشقة . فإنه بعد مصرع الدوق دى برى ، غلا شعور الملكيين فى باريس إلى درجة تعذر فيها بقاء وزارة حرة فى دست الحكم . فاضطر لويس فى أسف وغم بالغين أن يقصى وزيره المحبوب ديكاز ، ويعين فى مكانه ڤيليل ، إحدى دعامات أحزاب اليمين . وكُمِّمت الصحافة . وزحف على أسبانيا جيش فرنسى تخفق فوق كتائبه البنود الملكية القديمة ، ودخل تلك البلاد دون أن يلاقى مقاومة

جدية ، وأخمد ثورة قام بها الأحرار الأسبان ، وأرجع إلى ملكها فرديناند سلطانه وأطلق حريته . فخلقت هذه الحالة الباهتة من النصر فى ذهن ذلك الملك الهرم الوهمَ بأن قضية الملكية فى أوربا فى خير حال وأحسن مآل .

ولكن كاننج كان فى ذلك الحين يوجه سياسة بريطانيا وفق مبادئ حرة . ونادت البرازيل وبيرو واليونان وقتئذ باستقلالها . ولم يخامر المراقب الأريب الفطن أى شك فى أن أنصار الحرية ومريديها سوف يزدادون عدداً ، ويتعاظمون قوة فى العالم .

شارل العاشر

وخلف شارل العاشر[1] أخاه على العرش سنة ١٨٢٤ . وكان كهلا شديد التعصب لرأيه ، محروماً من خلتى الفطنة وقوة الملاحظة . وكان بخلاف أخيه لويس اللطيف المعشر اللين العريكة ، رجلا ذا مبادئ صارمة ، نزاعاً إلى الاستبداد والتمسح بأهداب رجال الدين . ومما يؤثر عنه قوله : لخير لى أن أكون حطاباً ، من أن أملك على شاكلة ملك إنجلترا .

فأصمَّ أذنيه عن سماع نداءات المستقبل ومطالبه . ولم يطع إلا صوت الماضى . ونُمِى إلى مسامع ذلك الجيل من الفرنسيين النشط القليل الإيمان الذى كان شارل يحكمه — ذلك الجيل الذى لم تزل الوثنية تشيع فى صفوفه ، وتزداد نفوس أبنائه جنوحاً إلى المبادىء الحرة والبونابرتية — نمى إلى مسامعه فى ازدراء مشرب بالتفكه والتندر ، كيف أن الملك الجديد أمر بأن يتوَّج فى ريمس طبقاً لمراسم التتويج القديمة ، وكيف تمـدد منبطحاً على وسائد من القطيفة ، وأذن بأن يوخز بدنه فى سبعة مواضع بمثقب ذهبى ، كى ينال بركات الدهن المقدس .

ولكن عند ما تلا هذا الاحتفال الذى يرجع إلى العصور الوسطى ، صدور قانون بمنح تعويض مالى للأشراف المهاجرين ، ثم صدور قانون آخر بفرض عقوبات صارمة على الإلحاد الدينى ، وأمر ملكى بحل الحرس الأهلى الذى قام وقتئـذ بمظاهرة تشيعاً للإصلاح الدستورى — تلا روحَ المرح والتفكه نفادُ الصبر والتبرم والمضايقة والخوف . وشاعت الفكرة التى

---

(١) الكونت دارتوا قبلا

أذكتها الرغبات المتطرفة غير المستورة للصحف الملكية ، بأن الملك ينوى إحداث انقلاب يلغى به الدستور ، ويعيد النظام القديم . وقد ظهر للجميع فى جلاء أن هـــذا هو مقصده فى الواقع حينما أقال كبير وزرائه مارتينياك Martignac ، وهو سياسى حاذق أريب ، لعله كان قد تمكن من إنقاذ التاج لو أنه بقى قابضاً على زمام الأمور . ودعا شارل العاشر إلى جانبه بدلا منه چول دى پولنياك Jules de Polignac فى إبريل سنة ١٨٣٠ .

بولنياك

وكان پولنياك هذا رجل أحلام ورؤى ، زعم أن خطواته تُهدَى من العذراء رأساً . وكان المثل الحى للرجعية ، ومن أوائل النبلاء الذين هاجروا من فرنسا قبيل استفحال الثورة ، وألقى فى السجن فى عهد الإمبراطورية ، ورفض أن يحلف يمين الولاء لدستور سنة ١٨١٥ .

وكان تعيينه ينطوى على التحدى لأمانى الأمة . ولكن لما نمى إلى مسامع الجمهور أن وزير الحرب فى وزارته هـــو بورمون Bourmont القائد الذى غدر بنابليون فى ليني Ligny ، أضيف إلى شعور عدم الثقة بالوزارة شعور الخزى والحسة .

فتح الجزائر

ولكن مما هو جدير بالذكر أن فرنسا فى آخر وأضعف وزارة لآخر وأضعف ملك من ملوكها الشرعيين ، بسطت سيطرتها على بلاد الجزائر ، فاستهلت بهذا العمل الحربى الممتاز عملية إعادة سيطرة الجنس اللاتينى على ساحل إفريقية الشمالى ، ووضعت أساس إمبراطوريتها الافريقية المترامية الأطراف التى تبذل الآن جهوداً كبيرة للاحتفاظ بها ، كعون لها من حيث القوة العددية ضد ألمانيا .

نشوب الثورة

غير أن باريس لم تعر فتح الجزائر اهتماماً ، بل كانت مشغولة بالنزاع الأدنى إلى فكرها : وهو النزاع الناشب بين القس والعلمانى ، وبين التاج والأمة — هذا النزاع الذى تحول فى وقت وجيز إلى خلاف حاد . وأخذت الحالة تتحرج تحرجاً سريعاً . ففى ٢٥ يوليو سنة ١٨٣٠ صدرت مراسيم ملكية من قصر سان كلو الملكى تحدُّ كثيراً من حرية الصحافة ، وتحل

البرلمان ، وتعدل قانون الانتخاب . فأبان الملك ووزيره عندئذ عن نواياهما سافرة جلية . وكان من الواضح أنهما لم يبغيا من ذلك فقط رفضَ المطلب الخاص بتوسيع دائرة الناخبين : هذا المطلب الذى كان يزداد قوة وشدة خلال شهور ذلك العام ، بل إنهما كانا يقصدان تمزيق الدستور ذاته، ومحق الحرية فى جميع أشكالها .

ولكن القوم فى باريس سرعان ما أدركوا مغزى البرنامج الملكى حتى عدوه إهانة لا تحتمل . وكان ردهم على هذا الانقلاب الملكى نشوبَ قتال شديد دام ثلاثة أيام (٢٧ — ٢٩ يوليو سنة ١٨٣٠) انتهى بإنزال الملك عن سرير ملكه ، والقضاء قضاء مبرماً على ملكية فرنسا القديمة .

وتمتاز ثورة يوليو هذه بأنها عمل مدينة واحدة . فقد قررت باريس مصير فرنسا . وقبل أن يستفيق الملكيون فى الأقاليم من غفوتهم ، قررت نتيجة القتال فى شوارع باريس اختفاءَ العلم الملكى الأبيض . ولم تكن دهشة الجماهير بقليلة حينما شاهدت الحكومةَ التى برزت للعيان بعد هدوء العاصفة . فإن قسطاً كبيراً من قتال الشوارع قام على أكتاف رجال مثل كاڤينياك Cavaignac — هؤلاء الرجال الذين كانوا يرومون إنشاء جمهورية ، وأنصار آل بونابرت الذين كانوا يبغون قيام إمبراطورية ثانية .

لويس فيليب

غير أن مولود الثورة لم يكن جمهورية ولا إمبراطورية ، بل كان ملكية لويس فيليب Louis Philippe البورجوازيةَ . ولويس فيليب هذا هو رئيس بيت أرليان Orleans ، وابن « الدوق فيليب مساواة » Philippe Egalité الذى اعتنق مذهب الثورة ، وأعطى صوته بإعدام الملك لويس السادس عشر ، ثم انصرم حبل حياته على نطع المقصلة . فلقد كان خاطراً سعيداً حاذقاً جاش فى صدور أحرار عديدين فى ذلك الحين ، وعلى الأخص فى صدر شاب عبقرى من أهل الجنوب اسمه تيير Thiers أخذ نجمه وقتئذ يبزغ ومكانته تعلو فى دوائر التاريخ والسياسة والصحافة — جال ذلك الخاطر وهو أن لويس أرليان الذى قاتل

فى أيام شبابه فى صفوف جيوش الثورة ، والذى ذاق بعد ذلك كأس الأحزان وذل الحرمان ، سيمنح فرنسا النعم المباركة المأمولة من ملكية ديمقراطية. فلم يكن يصم لويس أية نقيصة من النقائص التى جعلت حكم شارل العاشر أمراً لايطاق . بل كان رجلا من رجال العالم الجديد الحديث : بسيطا غير متصنع فى حركاته وسكناته ؛ ملكاً يقبل الانضواء تحت العلم ذى الثلاثة الألوان ، والسير بمقتضى النظم العلمانية لدولة ديمقراطية .

ولما كانت سابقة ثورة سنة ١٦٨٨ الإنجليزية تجول فى أذهان تلك الزمرة الصغيرة من السياسيين الذين أقاموا ملكية يوليو ، بدا لويس لأعينهم كوليم أوف أورانج فرنسى ، هيأته الأقدار لأن يبرئ الأمة الفرنسية من علل الخلل والاضطراب ، وأن يبدأ عهداً للحكم الدستورى طويلا زاخراً بالخيرات ، فى قطر أسىء فيه استخدامُ الحرية المعتدلة المتزنة . وقبل أن يدرى أهل باريس بما يجرى حولهم ، أُحضِر الأمير فيليب بواسطة أنصاره إلى دار البلدية ، حيث نشر أمام الملأ الراية المثلثة الألوان ، وعانق أمام الجماهير المحشودة لافاييت « بطل عالمين »[1] و « رجل الثورة العظيم العجوز». وحصل لويس فيليب بذلك لحكومته الجديدة غير الثابتة الأركان على « المعمودية » اللازمة لها من رضا الأمة وترحيب الشعب .

انتشار الهياج الثورى

وانتشرت على جناح السرعة شرارات من أتون باريس ، إلى الكتل الخشبية الواهية الدعائم التى أقامها مؤتمر فينا . فخرج البلجيكيون على الهولنديين ، والبولنديون على الروس ، وجمعيات الكاربونارى على الحكم الاكليركى فى الولايات البابوية . ورنّت فى باريس صيحة عالية بإشهار حرب تحريرية على النحو الثورى القديم العظيم لإنقـاذ شعوب أوربا المعذبة . فاندلعت فى فرنسا فتن خطيرة ، وبقيت حكومة باريس الجديدة مدى عام كامل ، وهى فى كفة القدر ، إلى أن هدأت العاصفة فى النهاية . فإن لويس كشح بوجهه عن أولئك المجانين الذين كانوا يبغون اشتباك فرنسا فى

(١) ذلك لأنه اشترك فى حرب استقلال الولايات المتحدة والثورة الفرنسية .

حرب مع إنجلترا بخصوص البلجيك ، ومع روسيا بخصوص بولندا ، ومع الامبراطورية النمساوية بخصوص الانتصار لقضية القومية الايطالية . ولقد أبان بهذا العمل عن حسن تقديره للأمور ، ومعرفته بدقائق السياسة . إذ أنه بمحافظته على السلم مع الدول العظمى أتاح لبلاده ثمانية عشر عاماً من التقدم الاقتصادى ، وقسطاً من الرخاء المادى المتزايد .

٣ – ثورة بلجيكا واستقلالها

أسباب الثورة

أما الثورة التى فصمت عرى مملكة الأراضى المنخفضة السيئة التكوين ، فقد ابتدأت بشغب اندلع فى بركسل فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٠ . فقد تململ البلجيكيون وتذمروا طويلاً من حكم أسيادهم الهولنديين الصارم . وكانوا يمقتون الدين البروتستانتى ، وروح التسامح الدينى الهولندى ، واستئثار الهولنديين بكل طيب فى الدولة. ورأوا أنفسهم أكثر منهم عدداً وأفصح لساناً ، واعتقدوا أنهم أعلى ثقافة وألطف معشراً . فلهذا عدوا جعل اللغة الهولندية اللغة الرسمية الوحيــدة فى الدولة ، وإبعاد السكان الوالونيين Walloons [١] عن الحياة العامة، وإعطاء جميع الوظائف الهامة تقريباً ، مدنية أو عسكرية ، للهولنديين – عدوا هذه الأمور مظالم لا تحتمل . وكان شعور التفوق والامتياز الذى بدا على وجوه الهولنديين يستفز صدور مواطنى روبنز Rubins المصور الذائع الصيت . كما أذكى لظى غضبهم مثالُ باريس . فوطنوا العزم على خلع نير الأجنبى عن أعناقهم .

ويشير عمود تذكارى مقام فى ميدان الشهداء فى بركسل إلى اللحد الذى يضم رفات ستمائة متطوع بلجيكى استشهدوا فى قتال نشب فى سبتمبر سنة ١٨٣٠ فى شوارع المدينة مع الجند الهولندية النظامية . فلفت هذا الاستشهاد الذى حرك يومئذ شعور الناس ، الأنظار إلى قضية استقلال بلجيكا ، ولكنه لم يحققه .

(١) يعتبر هؤلاء السكان منحدرين من سلالة مختلطة من الكلت والرومان ، وأقرباء للفرنسيين ، ويسكن أغلبهم جزءاً كبيراً من أرض البلجيك يمتد من دنكرك إلى ملميدى .

المفاوضات بين فرنسا وانجلترا

فإن مملكة البلجيك الحديثة لم تقم على بسالة البلجيكيين الحربية ، بل قامت نتيجة لمفاوضات دبلوماسية طويلة بين إنجلترا وفرنسا ، مع معونة يسيرة قدمها لها الجيش الفرنسي . فبنَّاءا استقلالها هما : بلمرستن (١٧٨٤–١٨٦٥) الذى كان قد عُين حديثاً وزيراً للخارجية فى وزارة اللورد جراى الحرة ، وتاليران سفير فرنسا يومئذ فى لندن الذى أُحْسِن اختياره لهذا المنصب . فإن حب بلمرستن للحرية ، مقروناً بتصميم لويس فيليب وتاليران على ألا يفتحا أبداً من جديد النزاع القديم مع إنجلترا ، مكنا الدولتين من حسم الخلاف بينهما دون التجاء إلى تحكيم السيف ، وذلك على أساس منح البلجيك استقلالها . ولو أن بلمرستن انحاز إلى جانب الهولنديين وأيد حكمهم الأوتقراطى ، أو لو أن لويس قبل التاج البلجيكى الذى عُرض على ثانى أولاده ، لاستعر الشجار القديم بين فرنسا وانجلترا مرة ثانية ، جاراً فى ذيوله عواقب ، ربما كانت قد قضت على آمال البلجيكيين فى نيل استقلالهم .

الملك ليوبلد

ولكن تعاون الدولتين حصر موضع الخلاف، وحلَّ المشكلة . فعُرض التاج البلجيكى على ليوبلد أمير ساكس كوبرج Leopold of Saxe Coburg (١٧٩٠ – ١٨٦٥) خال الملكة ڤكتوريا البعيد النظر الواسع الاطلاع ، الذى كان قد اقترن قبلا بابنة جورج الرابع (١) ،ثم أظهر الآن استعداده للاقتران بابنة لويس فيليب ، كعلامة لعدم تحيزه .

ولقد أظهر المستقبل أن البلجيك أجادت انتقاء هذا الأمير . فقد ذلل ليوبلد جميع المصاعب والعقبات التى واجهته . فتغلب على الغزو الهولندى المحفوف بالخطر على بلاده الذى شُنَّ فى أواخر يوليو سنة ١٨٣٠ ، وتغلب على مشكلة لاتقل عن هذه خطورة ، وهى تخلصه من جيش فرنسى جاء لطرد الهولنديين . وتغلب على سخط الشعب البلجيكى الشديد وتذمره العميق لفقدانه شطراً من لكسمبرج ولمبرج – هذا الفقدان الذى فرضته عليه

---

(١) توفيت سنة ١٨١٧ فى خلال ولادتها الأولى .

الدول العظمى فى مؤتمر لندن ، وأيدته معاهدة لندن المبرمة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٣٠ .

أما النصر الحقيقى فكان هذا الذى كسبته سياسة بلمرستن . فقد تخلصت البلجيك حقاً من حكم هولندا ، ولكنها أنقذت من خطر انضمامها إلى منطقة النفوذ الفرنسى الحربى والتجارى . فَفُرِض عليها نظام من الحياد المستديم . فبمقتضى معاهدة سنة ١٨٣٩ الشهيرة التى وُصِفَت بعد ذلك بخمسة وسبعين عاماً بأنها قصاصة ورق ، ضُمِن حياد البلجيك بواسطة خمس من الدول الكبرى ، كان من بينها بروسيا وفرنسا ، علاوة على إنجلترا التى حصلت بهذا التدبير على ضمان أولى مصالحها السياسية : تلك المصلحة التى دافعت عنها قروناً عديدة بدماء أبنائها .

٤ ـ عذاب بولندا المبرح

العصيان البولندى

أما العصيان البولندى الذى نشب أيضاً سنة ١٨٣٠ ، فلأنه لم يظفر بنصرة الدبلوماسيين الأحرار فى الدول الغربية ، اتخذ مجرى آخر وانتهى إلى نهاية أخرى . فإن نقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) ، الذى كان يرمق شزراً ، وفى فزع وخوف ، ثورة يوليو فى باريس ، شرع يتخذ العدة لانزال التأديب الصارم بديمقراطية فرنسا الوقحة الصلفة ، ولكن أوقف استعداده قيامُ عصيان خطير فى وارسو .

ففى تلك المدينة قبض فريق من الضباط وملاك الأرض البولنديين الذين خشوا أن يسيّروا قسراً لمحاربة أصدقائهم الفرنسيين ، والذين أملوا حدوث شىء يعود بالفائدة على بولندا من انتشار لهب الثورة ـ قبض هذا الفريق على زمام الحكومة فى وارسو . وبأموال بولندا ، هذه الدولة الصغيرة الدستورية وجيشها ، وقف يتحدى جبروت الإمبراطورية الروسية .

نضال غير متكافىء

وكافح البولنديون مستبسلين زهاء عام كامل خصمهم الجبار : ينزلون به ، وينزل بهم ، الخسائر الفادحة . ولكنهم خروا صرعى فى سبتمبر سنة ١٨٣١ أمام عدوهم فى هذا النضال غير المتعادل . فأزالت روسيا آخر مظهر من مظاهر الحرية البولندية ، ومحت بولندا التى أقامها مؤتمر فينا من الخريطة ، وصيرتها ولاية عادية خاضعة للنظام الاستبدادى الذى كانت تحكم وفقه الامبراطورية الروسية . فكسبت بولندا بذلك إنماء قوتها الصناعية ، ولكنها فقدت ــ كما يؤكد المؤرخون البولنديون ــ تلك الفضائل الروحية من التحمس وحب الوطن والإيمان التى تنبت من الحرية .

الرابطة بين فرنسا و بولندا

وكانت إحدى نتائج هذه الحركة البولندية الخائبة هجرة كثير من الفنانين والكتاب البولنديين إلى باريس ، التى غدت مدى أجيال عديدة عاصمة الأمة البولندية الثقافية . فدُعِم فرار الضباط والجند البولنديين المرتزقة الأول ، بهجرة كثير من الأساتذة والشعراء والموسيقيين الذين أظهروا النبوغ السلافى للناس فى أعلى عواصم اوربا أدباً وأرقها شمائل .

ولهذا السبب ، فإن ثورة بولندا عام ١٨٣٠ لم تكن من غير جدوى ، ولو أن نتيجتها بدت فشلا ساحقاً ذريعاً . فقد ذكّرت أوربا بوجود جماعة تشيع فى صدورها العواطف القومية : جماعة ما زالت قوية ، وإن كانت مرهقة بمظالم ما برحت تئن من ثقلها ، جماعة تعمر قلوب أبنائها شجاعة تقرب من التهور . ولم ينسَ الفرنسيون أن العصيان البولندى كان نتيجة لثورتهم هم الداخلية ، وأنه أذكاه ، وشجع عليه ، رهط من الفرنسيين البارزين ، وأنه حماهم فى لحظة خطرة فى تاريخهم من احتمال شن هجوم جبار على وطنهم . وما انفكوا يذكرون هذه الأمور ، وتهتز خواطرهم بهذه الأحاسيس . فتكونت بين فرنسا وبولندا رابطة قوية وثيقة ، ما زالت عاملا له قيمته فى مجرى السياسة الأوربية .

كتب يمكن استشارتها

Cambridge Modern History. Vol. X. 1907.

J.H. Clapham : Economic Development of France and Germany. 1921.

Lowes Dickinson : Revolution and Reaction in Modern France 1892.

Chateaubriand : Bonaparte et les Bourbons 1814

P. Thureau Dangin : Histoire de la Monarchie de juillet 1884-92.

Memoirs of Beugnot, Chateaubriand, Guizot.

E. Faguet : Politiques et moralistes du XIX. Siècle. Tr. 1928.

H. Pirenne : Histoire de Belgique. 1903-33.

P. Guedalla : Lord Palmerston. 1926.

Duff Cooper : Talleyrand. 1932.

Roman Dyboski : Poland. (Nations of the Modern World Series) 1933.

الفصل الحادي عشر

عصر بيـــل

البرلمان العتيق والمجتمع الجديد . حرية النقد . تقدم التعليم العام . الأحرار والمحافظون . قانون الإصلاح سنة ١٨٣٢ . السير روبرت بيل وتأسيس حزب المحافظين . أنصار إلغاء قوانين الغلال والاشتراكيون والميثاقيون وأنصار حرية التجارة . النمو المطرد للخدمات الاجتماعية .

١ ـ قانون الإصلاح

العقلية العتيقة، والمجتمع الجديد

فى الوقت الذى كانت تدور فيه الحوادث الآنفة ، أخذت إنجلترا فى بطء تحسُّ بمشكلاتها الضخمة الجديدة التى واجهها بها تطورُ الحياة فى المصانع . فإنه من الشرور الكبرى التى مانزال نشعر بعواقبها الوخيمة إلى هذا اليوم ، أنه لمدة عشرين سنة خطيرة الشأن ، كان ينبغى فى أثنائها أن توجِّه الطبقة الحاكمة عقولها إلى تجهيز أهل المصانع الجديدة بالمدارس ووسائل الصحة العامة، وبالمنازل الصالحة وبالمدن الجيدة التخطيط وبالمتاحف والمكتبات ، وبالحدائق العامة وساحات الرياضة الشعبية ـ فى هذه العشرين سنة الخطيرة كانت البلاد مشغولة فى حرب قاسية مريرة مع فرنسا . وحتى بعد أن وضعت الحرب فى آخر الأمر أوزارها ، ونُفِى نابليون إلى سنت هيلانة ، عمَّرت عقلية الحرب سنين عديدة : هذه العقلية التى أشارت بالحذر ، وسادها التهيب ، وأشاعت سوء الظن وعدم الثقة ، ووقفت حجر عثرة فى وجه كل اهتمام نزيه يبحث حالة الأمة بحثاً كاملا . وإن

قوانين اللورد سِدْمَوْث[1] Lord Sidmouth التى وُضِعت سنة ١٨١٩ يمكن أن تعتبر آخر مثال من أمثلة اضطراد عمل تلك العقلية بعد الحروب النابليونية .

إقرار قانون الإصلاح

وقد وُجِد ظرف سيء آخر ، وهو أنه فى عهد وزارة وليم پت المحافظة الطويلة المدة ، اتخذ مجلس الأعيان البريطانى ذلك الطابع الشديد المحافظة الذى ما زال يدمغه إلى الآن . ولهذا السبب تأخر إصلاح البرلمان سنين عديدة جليلة الخطر . ولم يحقّق هذا الاصلاح إلا سنة ١٨٣٢ حينما هددت وزارة اللورد جراى اللوردات المحافظين الذين كانت لهم الأغلبية فى مجلس الأعيان ، بمطالبة الملك وليم الرابع (١٨٣٠ — ١٨٣٧) بخلق عدد من اللوردات الأحرار كافٍ لأن يجعل مجلس الأعيان يجيز قانون الإصلاح ، الذى أُقِرَّ أخيراً سنة ١٨٣٢ فى جو من التهييج السياسى لم تشاهد إنجلترا له مثيلا منذ الحروب الأهلية فى عهد شارل الأول .

فقد كانت البلاد إلى ذلك الحين تحكمها تلك الأداة العتيقة التى لاءمت إلى حد كبير ظروف وحاجيات قطر يتألف سواده من سكان ريفيين قليلى العدد ، والتى تألفت من سادة الأمة الذين كانوا يجلسون فى منصة القضاء ، أو فى مقاعد البرلمان . أجل لم تكن دائرة الحياة البرلمانية المحظوظة مقفلة وقتئذ ، كما أنها لم تقفل فى أى وقت آخر فى وجه الثروات الطائلة مهما كانت طريقة كسبها ، أو فى وجه المواهب الرفيعة الممتازة التى يزكيها النبلاء . فإن الثروة الطائلة التى جناها آل پت من الهند فتحت فى وجوههم أبواب البرلمان ، وكان أبو السر روبرت پيل Robert Peel وجده من بناة صناعة لنكشير . بيد أنه فى الحين الذى كانت فيه قرية قليلة السكان جداً كقرية سرم

(١) كان وزير الداخلية الإنجليزية فى وزارة اللورد ليفربول . واشتهر أثناء تقلده هذا المنصب بالعمل على قمع جميع الحركات الحرة ، وخاصة بعد انتهاء الحروب النابليونية . فعطل سنة ١٨١٧ قانون الحرية الشخصية ، ثم دافع سنة ١٨١٩ عن « القوانين الستة » التى خولت حكام الأقاليم والقضاة الحق فى سجن الأشخاص الذين توجه إليهم تهمة الحض على كراهية الحكومة ، كما خولتهم سلطات جديدة لمنع عقد الاجتماعات ، وتقييد حريتى الخطابة والكتابة تقييداً شديداً .

Sarum القـــديمة ترسل عضوين إلى البرلمان لتمثيلها ، كانت منشستر وبرمنجهام من غير تمثيل .

عدم خبرة البرلمان بالأحوال الجديدة

فجاءت النتائج طبق ما كان يُنتظر ، فقد دُعى برلمان أرستقراطى لأن يعالج علاجاً ناجعاً نظاماً اقتصادياً لم يكن لأى قطر آخر أية خبرة به . فإن المصانع بنظمها المشددة والمدن الصناعية الضخمة بسكانها المزدحمين ، والازدياد السريع فى عدد السكان ، ونمو الثروات الطائلة فى صناعة القطن : هذه كلها كانت فى الواقع نذراً تنبىء بولادة عهد جديد فى أساليب المعاملات البشرية : أساليب لم يتح للبرلمان القديم غير المصلَح أن يستوعبها استيعاباً تاماً إلا فى بطء وتأخير . فلهذا لم يكن عجيباً أن يضل البرلمان السبيل السوى ، فيتدخل حينما كان ينبغى له أن يمسك يده ، ويقف متفرجاً حينما كان ينبغى له أن يتدخل ، وأن يشرِّع مثلا لمنع رخص أثمان الحبوب ، بينما هو لا يحرّم إقامة الأحياء غير الصحية والمنازل الرخيصة .

سوء الأحوال الاقتصادية

فقد كان هنالك الشىء الكثير من الشقاء غير المقصود وغير الضرورى فى إنجلترا خلال الأعوام التى جاءت تواً بعد الحروب النابليونية . ذلك أن دول القارة المخرّبة لم تكن فى حال تمكنها من شراء البضائع التى كانت إنجلترا تتوق إلى تصديرها . وبينما كانت الضرائب والرسوم فى إنجلترا عالية ، كانت الأجور فيها واطئة إلى درجة ضارة . أضف إلى ذلك ما يحدث من رد فعل بعد انتهاء حرب ، أو عند تقدم اختراع علمى بسرعة خارقة . ولذا عمت انجلترا بطالة واسعة النطاق عوجلت من غير فطنة وتدبر . فإن قانون مساعدة الفقراء Poor Law الذى أسيىء وقتئذ تطبيقه ، شجع نظامه الخاص بمنح الهبات المالية خارج المنازل وإعانة العائلات بقدر عدد أطفالها — شجع على الكسل فى الجهات الريفية . كما رفع نظام مربك لحماية التجارة ثمن الخبز للأهلين الجائعين . وأمسك بخناق التجارة الأجنبية نظام معقد للرسوم الجمركية .

قوانين جائرة

ولذا فكما أنه طبيعى أن يخلف الليل النهار ، كذلك كان طبيعياً أن ينمو التهريب نتيجة لنظام تقييد حرية التجارة ، وأن ينبت من التهريب روح الخروج على القانون والعبث بالنظام . وقد تلطف القوانين الشفيقة العادات العنيفة الهائجة . ولكن القانون الجنائى الانجليزى كان فى حال يساعد كل المساعدة على غرس روح الاستهتار والتحدى العابث للقانون ، إلى أن أصلحه روملى «Romilly» وپيل . فإنه كان يُحكم أحياناً على المذنب بالنفى إلى المستعمرات أو بالإعدام لارتكابه ذنباً تافهاً : كسرقة بقرة أو حرق جرن أو قنص دجاجة برية فى غابة بواسطة قروى دفعه يأس الجوع إلى هذا الجرم .

وحتى فى وقت متأخر كسنة ١٨٣٤ ، بعد أن أصلِح البرلمان ، وعند ما كانت وزارة حرة فى دست الحكم ، حُكِم على ستة فلاحين فى إحدى قرى مقاطعة دُرْسِتْ بالنفى سبع سنين خارج إنجلترا لحلفهم يميناً غير قانونية أمام جمعية تعاونية .

إنشاء أحياء غير صحية

أما من جهة عمال المصانع والسكان الجدد للمدن الصناعية ، فقد خلقوا مشكلات جديدة بلغت حداً من التعقيد أنه كان يصبح أمراً عجيباً حقاً ، لو أن البرلمان قبل إصلاحه، تمكن من معالجتها علاجاً سريعاً شافياً . فقد سُمِح بنمو مناطق فسيحة من الأحياء القذرة العفنة ، فى حين تمكن بعض أرباب الصناعة من جمع ثروات كبيرة فى فترة وجيزة من ربوات المهاجرين السيىء التغذية الزهيدى الأجور . ومن العجيب أن الحكومة بفرضها رسماً على النوافذ ، جعلت الغرف المعتمة الرديئة التهوية أكبر أجرة وأكثر إقبالا عليها .

استغلال الأطفال

ولكن من بين جميع المظاهر المحزنة للحياة الانجليزية فى المصانع فى مستهل الحقبة التى عقبت حروب نابليون ، كان أسوأها وأمقتها هو استغلال الأطفال الصغار استغلالا قاسياً خالياً من كل رحمة . فإنه حتى حينما تحرك البرلمان أخيراً سنة ١٨١٩ وأجاز قانوناً امتاز بأنه أول القوانين المسماة « قوانين المصانع » Factory Laws لتنظيم عمل الأطفال بها ، فإنه لم يفعل أكثر من تحديد ساعات عمل الأطفال باثنتى عشرة ساعة ونصف ساعة ، وحظر

تشغيل الأطفال ممن يقل عمرهم عن تسع سنوات فى مصانع معينة . ولقد كان الوعى العام للأمة من قلة الثقافة ، وضعف التنوُّر ، بحيث أنه حتى هذا القانون المتواضع كان حبراً على ورق ، لقلة عدد المفتشين الذين يشرفون على تنفيذ بنوده . فإنه عند تقديم مشروع قانون آخر لحماية الأطفال ، بعد قانون سنة ١٨١٩ بست سنين ، ذُكِر فى البرلمان أن « الأطفال فى خير المصانع كانوا يجبَرون على العمل اثنتى عشرة ونصف ساعة يومياً ، وفى معامل أخرى خمس عشرة أو ست عشرة ساعة » .

حرية النقد

ولكن رغم هذا كله ، ورغم ظهور رجعية جاهلة غير ذكية ، يرجع بروزها إلى الجزع ، وإلى قيام أحوال صناعية عديدة لا تُحتَمل ، وبخاصة جشع أرباب العمل والآباء ، فقد كانت إنجلترا تستمتع بمزية ثمينة . ذلك أن الناس تركوا أحراراً فى أن يتذمروا ويرفعوا عقيرتهم بالشكوى . فكان البرلمان يجتمع ، والصحف تنتقد الوزراء والملك ، ومحلفو المحاكم يدينون العرش فى القضايا المرفوعة أمامهم ، وحتى فى عام ١٨١٩ حينما بلغت الرجعية الذروة فى النفوذ والبطش ، نشطت معارضة برلمانية قوية صلبة « لقوانين سدموث الستة » التى كانت بغيتها تعطيل حريات الأمة .

تقدم التعليم العام

بيد أنه أخذت تشيع فى خارج البرلمان بخطى بطيئة فكرةٌ تقول بأن تعليم الجماهير هو شأن قومى ، وليس بالشأن الذى تُترك فيه المسئولية كلها لنزعات الشيع الدينية المتنافسة ونشاطها . ولا يتبع هذا أن المنافسة فى شئون التعليم لا قيمة لها . فقد كانت كنيسة إنجلترا الرسمية ، وكنائس المذاهب الدينية الأخرى ، هى الأولى التى نزلت حلبة المضمار . ففى زمن لم تضطلع فيه جماعات علمانية بنشر التعليم — بل كان يشك فى إبانه أنه يمكن لوازع غير وازع الغيرة الدينية القوية أن يبذل الجهود الاجتماعية اللازمة لتعليم الفقراء — برزت فى الميدان جمعيتان هما : « جمعية المدارس البريطانية والأجنبية » British and Foreign School Society وهى جمعية غير مذهبية ، ومنافِستُها « الجمعية الأهليـــة الإنجيلية » Anglican National Society . ولكن

طرق التعليم التى اتبعتها هاتان الجمعيتان كانت رديئة ، ومواردهما ضئيلة جداً ، والجانب الأكبر من معلميهما غلماناً لم يتجاوزوا سن العشرين .

وإن تاريخ منازعاتهما وتحاسدهما لا يمكن أن يُقرأ دون إحساس بالخجل . بيد أنهما على أية حال كانتا رائدتين فى ميدان خدمة هى أعظم الخدمات الاجتماعية وأجلها . ولم تبغ الدولة قط يوماً من الأيام أن تنقض عملهما ، كما أنها لم تجسر قط على أن ترسم لإنجلترا خطة كاملة للتعليم القومى المنظم . بل فضلت أن تشرف على المدارس الأولية الموجودة : من إنجيلية ، وتابعة للكنائس الحرة ، ويهودية ، وكاثوليكية ، كما وجدتها ، وأن تساعدها بالمال من خزانة الدولة وبالتفتيش عليها ، وإلزامها برفع مستواها التعليمى . كما أن الدولة بتنفيذها مشروعاً منظما لإعداد المعلمين تمكنت بالتدريج من الوصول بهذه المدارس إلى درجة نسبية من الكفاية. وقد ابتدأت هذه العملية عام ١٨٣٣ ، وذلك بمنح الجمعيتين الآنفتين إعانة مالية قدرها عشرون ألفاً من الجنيهات . ثم خطت الحكومة خطوة أخرى بإنشاء لجنة للتعليم فى المجلس الخاص سنة ١٨٣٩ . ولكن لم يبدأ اهتمام الدولة بوضع التدابير لإعداد المعلمين حتى سنة ١٨٤٦ .

وقد عرقلت عوائق ثلاثة الرقى القومى وكفاح الأمة ضد معاقل الجهالة والأمية . وهذه العوائق هى : احتكار الكنيسة الإنجليزية الرسمية لشؤون التعليم احتكاراً تغالت فى الحرص عليه ، ومطالب المصانع المفرطة المرهقة ، ونظرة واطئة رخيصة لنوع التعليم الملائم لأطفال الفقراء. ولقد شُنَّ الهجوم على بعض هذه العوائق . فإن جامعة لندن التى أسِّست سنة ١٨٢٥ فتحت مثلا أبواب التعليم العالى لأبناء غير الإنجيليين .

وحددت سلسلة من القوانين — أجيز أولها فى سنة ١٨١٩ ، وكان آخرها قانون العشر الساعات الذى أقر سنة ١٨٤٧ بعد تهييج سياسى حاد — حددت هذه القوانين ساعات عمل الأطفال والغلمان الذين دون الثامنة عشرة فى المصانع. وقُرِّر المبدأ الجليل القيمة بأن واجب كل دولة صناعية يفرض عليها بأن تكفل شطراً من أوقات الفراغ لعمالها . فكانت هذه الأمور انتصارات باهرة ثمينة .

وكذلك تأسست معاهد الفنون الميكانيكية لنشر المعارف العلمية بين أذكياء العمال الفنيين . فإن الناس فى سنى العشرين والثلاثين من القرن التاسع عشر بدأوا يدركون أن التعليم مصدر من مصادر القوة والعزة القومية ، وهو الدعامة الأساسية لحياة قومية سليمة .

ومع ذلك بقى الشىء الكثير لأن يُنْجَز ، وقضى على إنجلترا أن تنتظر حتى سنة ١٨٧٠ لتقرير تعميم التعليم الأولى الإلزامى ، وحتى سنة ١٨٩١ لجعل هذا التعليم بالمجان ، وحتى سنة ١٩٠٢ لإعانة المدارس الثانوية من مال الدولة. ولكن مما هو جدير بالملاحظة أنه فى وقت باكر كعام ١٨٢٥ نشر هنرى براوام Henry Brougham ، وهو مصلح تشريعى عظيم ينزع إلى الهمة والتجديد ، وكان فى زمانه من أعظم الشخصيات المعروفة التى يشار إليها بالبنان — نشر براوام كتابه « ملاحظات على تعليم الشعب » Observations on the Education of the People ، فنفدت منه على الفور عشرون طبعة ، وأدى كتابه هــذا إلى تأسيس « جمعية نشر المعارف المفيدة » Society for the Diffusion of Useful Knowledge سنة ١٨٢٧ .

الأحرار والمحافظون

وقد أفل نجم حزب الهويج The Whig Party أمداً طويلا . فإذا استثنينا وزارة جرنفل وفكس « Grenville- Fox » القصيرة الأمــد (يناير — سبتمبر سنة ١٨٠٦) ، التى يذكر اسمها بالمجد والفخار لإلغائها تجارة الرقيق ، فإن حزب التورى « The Tory Party » حكم إنجلترا من عهد ارتقاء پت إلى السلطة سنة ١٧٨٤ ، إلى عودة اللورد جراى سنة ١٨٣٢ فى أخريات عمره المديد من مقامه الريفى فى نرثمبرلند إلى لندن لإقرار قانون الإصلاح الذى كان حلما من أحلام شبابه . ومع ذلك فإن اللون الإنجليزى من المبادىء المحافظة كان يختلف اختلافاً بيناً عن المبادىء المحافظة النمساوية . فإن العناية الإلهية الشفيقة التى كانت تهيمن على مجرى السياسة الإنجليزية أمدتها بطائفة من أفضل الزعماء المحافظين من ذوى الحكم الصائب السليم والطباع المرنة المتسامحة : تلك الخلال التى بدونها كان يشق على انجلترا أن تجتاز فى

أمن وسلامة تغيرات القرن التاسع عشر الصناعية والاجتماعية من غير اندلاع ثورة خطيرة باهظة الثمن. فقد كان وليم پت الذى وضع خلال حكمه الطويل التقاليدَ الإنجليزية المحافظة فى الشطر الأول من القرن التاسع عشر – كان بعيداً البعد كله عن عقلية مترنخ . ذلك أنه رضع لبان دين الأحرار الخاص بالحرية الدستورية . ومع أنه تحت ضغط الحرب الفرنسية ، ألفى نفسه كما رأينا مضطراً إلى أن يؤجل توسيع دائرة حق الانتخاب ، إلا أنه لم يصبح يوماً من الأيام محافظاً ضيق النظر أو أنانياً . فقد أدرك ، كما أدرك دزرائيلى من بعده ، الأحوال المحزنة التى تكتنف الصناع الفقراء ، كما أنه لولا معارضة الملك له ، لخوّل الإرلنديين الكاثوليك حق الجلوس فى البرلمان بوستمنستر .

وقد شاطره فى سخاء الفكر وكرم النظر ، بعض من أفضل خلفائه ، وبخاصة كاننج ، وروبرت پيل ، وهصكصن « Huskisson » . وحتى الدوق ولنجتن أشد المحافظين صرامة كان مستعداً فى نهاية الأمر للموافقة على إصلاح البرلمان . ولهذا لم يكن عصر مترنخ فترة ركود فى تاريخ إنجلترا الداخلى . بل على العكس كان عهداً سُنّت فيه قوانين عظيمة ، وأقرت تغييرات كبيرة تبين اتساع أفق العقل السياسى الإنجليزى وتسامحه ؛ فقد صارت نقابات العمال مشروعة قانوناً سنة ١٨٢٤ ، وبُسِّطت التعريفة الجمركية سنة ١٨٢٦ ، ومُنِح المنشقون البروتستانت أولا ، ثم الكاثوليك ثانياً ، حق التصويت ، وأخيراً بإجازة قانون الإصلاح سنة ١٨٣٢ ، إجابة لطلب أغلبية كبرى من الرأى العام فى البلاد ، مُنِحت الطبقة الوسطى حق الانتخاب ، وتحرّر بذلك مجلسُ العموم من سيطرة الطبقة الأرستقراطية . وكنتيجة طبيعية أدى هذا التغيير إلى إشاعة الديمقراطية فى الحكومة المحلية ، وإلى إصلاح قانون مساعدة الفقراء ، وإلى إلغاء الرق ، وإلى رفع القيود الجمركية عن طعام الشعب . ومما يلفت النظر أن الإصلاح البرلمانى ، ولو أنه تم على يد وزير حر ، فإن تحرير الكاثوليك ، وإلغاء قيود التجارة ، تما على يد السير روبرت پيل الوزير المحافظ الجليل ، الذى تمكن من تكييف مبادئه وفق الحقائق الواقعية وعظاتها .

٢ – السير روبرت بيل

نشأته وخلاله

وإن قبول الأرستقراطية الإنجليزية الصلفة المتعالية النزاعة إلى السيطرة – إن قبولها بروح المسالمة المطالبَ الديمقراطية لعصر صناعى ، ليعود الفضل فيه إلى مدى بعيد إلى خلق پيل : هذا الزعيم البرلمانى القوى الذى كان لأكثر من أربعين عاماً (١٨٠٩ – ١٨٥٠) فى طليعة المناضلين فى معارك المحافظين .

وقد تضافر البيت والمدرسة والجامعة على جعل پيل محافظاً ، وعلى انضوائه عند دخوله البرلمان سنة ١٨٠٩ ، تحت راية ليڤربول وولنجتن الزعيمين المحافظين . ولكن ذهنه كان جباراً أميناً شجاعاً ، نزاعاً إلى قبول الآراء المتغيرة « تغيراً غير محسوس كل يوم » . وكان يسير متمهلا ، « لأنه كان عند اعتناقه مذهباً مّا يتحول عقله كما يتحول عقل الرجل العادى » . ولكنه كان يتحرك فى النهاية ، وفى آخر لحظة من الوقت المناسب .

وكان إذا غير مرة مبادئه طوعاً لصوت ضميره ، فإنه كان شجاعاً فى الإعراب عنها دون مداجاة . ولم يجزع من أن يواجه ما هو عسير دائماً على كل برلمانى مطبوع مثله أن يقبله ، وهو القذف به إلى الصفوف الخلفية المنسية من الحزب . فإن معظم القوانين والمشروعات الكبيرة الشأن التى أجازها أو قبلها فى كهولته ، كان قد ناضلها نضالا عنيفاً فى أيام شبابه . فقد عارض ثم أجاز نفسه فيما بعد ، تحرير الكاثوليك وحرية التجارة . وعارض ، ثم قبل فى ولاء ، قانون الإصلاح .

تأسيس حزب المحافظين

وفى منشور تامورث Tamworth ، الذى أصدره بشأن الإصلاح النيابى – بنصيحة بارنز Barnes رئيس تحرير جريدة التيمس – إلى دائرته الانتخابية عقب هزيمة حزبه الكبرى ، أعلن انبعاث حياة جديدة فى حزب أصبح

لا يُدعى بعد الآن Tory ، بل Conservative [١] . وأعلن فى مايو سنة ١٨٣٨ بأن « هدفى من سنين عدة خلت ، هو أن أضع أسس حزب عظيم يجب عليه نظراً لوجوده فى مجلس العموم ، واستمداده قوته من الرأى العام ، أن يقضى على أسباب الصدام بين فرعى السلطة التشريعية المتعادبين » . ولقد كان هذا العمل أجل أعماله وآخرها .

وزارته

تقلد پيل زمام السلطة فى سنة ١٨٤١ على رأس وزارة منقطعة النظير فى المقدرة والكفاية ، وجعل الحكومة أداة نفذ بها سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية الهامة . وإذا كانت إنجلترا قد أصبحت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مكاناً رخيصاً للسكنى ، وصارت تجارتها عالمية ، وأصبح العالم كله مستودعاً تجلب منه حنطتها ، وإذا كان عجز ميزانيتها قد انقلب إلى زيادة ، رغم إنقاص الرسوم الجمركية على الواردات ، وإذا كانت نظمها الخاصة بالمصارف والعملة قد وُضِعت على أساس ثابت ، وأزيل من نظمها القضائية كثير من أسوأ العيوب التى أبانها چيرمى بنتام « Jeremy Bentham » المشرِّع المصلح العظيم الذى عم خيره العالم أجمع — فإن هذه الأعمال ليعود الفضل فيها إلى مدى غير قليل إلى قدرات السير روبرت پيل الخارقة وآرائه الناضجة السديدة .

الاشتراكيون والميثاقيون

أنجز كل هذا ، رغم أن عصره كان عصر اضطراب وتقلقل . ففى إرلندا التى كانت دائماً قاب قوسين من الثورة ، كان دانيل أوكونل Daniel O'Connell يشدد النكير على المحافظين لتحقيق مطلبه الأول الخاص بتحرير الكاثوليك ، ثم بعد ذلك شدد الهجوم عليهم لتحقيق مطلبه الخاص بمنح إرلندا الحكم الذاتى . وفى إنجلترا كان روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) يوضح نظرياً وعملياً المنافع الرائعة للاشتراكية . ثم عقبه الميثاقيون «the Chartists» الذين ألحفوا فى المطالبة بتحقيق مطالبهم الستة التى جاءت

---

(١) بدأ استخدام كلمة Conservative للتعبير عن الحزب السياسى الإنجليزى الذى عرف منذ ظهور أصوله فى عهد شارل الثانى باسم حزب التورى — بدأ استخدام هذه الكلمة فى العقد الرابع من القرن الماضى .

فى ميثاقهم ، وهى : منح حق الانتخاب للجميع ، ودفع مرتبات لأعضاء مجلس العموم ، والتصويت السرى ، وإلغاء شروط المِلْكية فى منح حق الانتخاب ، وانتخاب برلمانات كل سنة ، وتقسيم البلاد إلى دوائر انتخابية متساوية ؛ مؤملين بأن قيام ديمقراطية عددية سيبرىء البلاد من جميع الأدواء .

كبدن وحرية التجارة

وأخيراً برز فى هذه الحلبة من هو أقوى من هؤلاء جميعاً وهو : رتشارد كبدن Richard Cobden (١٨٠٤ — ١٨٦٥) بائع المنسوجات الرخيصة ، الذى كسبت حملته الحامية ضد بقاء قوانين الغلال Corn Laws — تلك الحملة التى شنها بعنف وقوة لا مثيل لها — كسبت لإنجلترا خبزاً رخيصاً ، وأدت إلى أخذها بمبدأ حرية التجارة . وكانت خدمة پيل العظمى هى أنه بتجنبه الآراء المتطرفة للنظريين الراديكال من جهة ، والصمود أمام حنق أصحاب الضياع ورجال الدين وسخطهم من جهة أخرى ، قدر على تسيير دفة البلاد فى الصراط الوسط المأمون للاصلاح الحر .

النمو المطرد للخدمات الاجتماعية

ولهذا فإنه فى الحين الذى كانت ثوراتُ سنة ١٨٣٠ ، ثم ثورات سنة ١٨٤٨ ، تهز أركان أوربا ، وسّعت إنجلترا فى هدوء وسلام نطاق حرياتها وزادت فى رغد العيش لأبنائها . ولم يكن الإنجليز ينظرون بعيداً إلى الأمام . فقد جابهوا أخطاراً عظيمة ، وانتابهم شقاء عظيم من جراء احترام حقوق أصحاب المصالح الموروثة والأطماع الاقتصادية الجامحة . ولكنهم كانوا فى اللحظات الخطيرة الحاسمة يتخذون التدابير الصائبة السليمة . فحينما أطلت عليهم الثورة تكشّر عن أنيابها ، أبيح للطبقة الوسطى حق الانتخاب ، ومُنِحت حصة من السلطان . وأنتج انتشار الكولرا إجازة أول قانون من قوانين الصحة العامة . وساعد نقص محصول البطاطس فى إرلندا سنة ١٨٤٦ پيلَ على إلغاء قوانين الغلال . وما وافى العام الذى سقط فيه مترنخ (سنة ١٨٤٨) حتى كانت إنجلترا تملك قانوناً جنائياً مصلحاً ، وبدأت نظاماً لإعانة المدارس ، وأقرت قوانين لترقية وسائل الصحة العامة ، وتحديد ساعات عمل الأطفال ، ووضعت نظاماً مالياً للضرائب خفيف العبء على الفقراء . ومع أن السياسة البرلمانية

الحصيفة أخفقت يومئذ فى تزويد البلاد بمستوى من التعليم يستطيع أن ينال رضا ألمانىّ ذكى الفؤاد كالأمير ألبرت زوج الملكة فكتوريا ، إلا أن هذه السياسة وضعت أسس ذلك النظام الضخم من الخدمات الاجتماعية الذى وقى إنجلترا ، أكثر من أى عامل آخر ، ويلات الثورة وشرورها .

٣ – نتائج سياسة حرية التجارة

انتصار المصالح الاقتصادية

وكان انتصار مبدأ حرية التجارة فى إنجلترا فوزاً للحضر على الريف ، وانتصار المصالح الصناعية الجديدة على مصالح الملاك القديمة ، وكسباً للطبقة الوسطى – هذه الطبقة التى فى الحين الذى كانت تنمو فيه مصالحها المادية الخاصة ، رقت عرضاً مصالح الفقراء . ولم يكن مال أصحاب المصانع الوفير هو الذى كسب وحده المعركة لصالح حرية التجارة . فإن الزراع الإنجليز لو أنهم وحدوا صفوفهم ضد الانقلاب الذى حدث وقتئذ فى نظم الضرائب ، فلربما كانت النتيجة غير ما ذكرنا . ولكن المشتغلين بالزراعة لم يوحدوا صفوفهم . فقد كان ملاك الأرض فى جانب ، والعمال الفلاحون وسكان الأكواخ فى جانب آخر . وكان من أكبر العوامل التى أعانت كُبْدِن وأشياعه من مؤسسى «العصبة المعادية لقوانين الغلال» Anti-Corn Law League فى حملتهم على تلك القوانين ، هو أنهم تمكنوا من أن يمثلوا ملاك الأرض لا كأصدقاء للفقراء ، بل كمضطهديهم والمستبدين بمصالحهم .

المطالبة بتقوية الأسطول

وكان نتيجة لا مفر منها لسياسة « الرغيف الرخيص » أن ارتفعت الأصوات مطالبة ببناء أسطول تعنو له لجج البحار . فإنه على حين أخلت هذه السياسة القرى من سكانها ، فإنها زحمت المدن ، وجرت فى ذيولها نمواً هائلا فى عدد السكان الذين صاروا فى عوز أكثر من قبل إلى الطعام ومواد خام تجلب من وراء البحار ، وإلى أسواق أكثر لصادرات إنجلترا ، وإلى سفن أكثر لنقل حوائجها . وبامتلاك إنجلترا إمبراطورية مترامية ، وأسطولا تجارياً

ضخما لم يكن ثمة محيص من بناء أسطول حربى قوى يستطيع وحده أن يضمن استيراد الأطعمة لأمة توزع سكانها توزيعاً غير متكافىء بين الصناعة والتجارة ، وبلغوا من كثرة العدد بحيث صار من السخف الافتراض بأن حقول جزيرة صغيرة كبريطانيا تستطيع أن تقوم بأودهم ، إلا بتكاليف تبلغ من البهظ والفداحة حداً يصعب التفكير فيه .

استواء الملكة فكتوريا على العرش

وقد أشاع الرخاء المادى المتزايد روحاً قوية من التفاؤل فى طول البلاد وعرضها خلال الأعوام التى تلت مباشرة إلغاء حماية التجارة . ومات جورج الرابع الخليع المتهتك (١٨٢٠ – ١٨٣٠) ووليم الرابع الأحمق السفيه الرأى (١٨٣٠ – ١٨٣٧) ولم يبيتا يلوثان العرش . واستوت الملكة فكتوريا (١٨٣٧ – ١٩٠١) على سرير الملك ، جالبة معها نضرة الشباب ورزانة الملك واتزان الرأى فى تأدية واجبات منصبها السامى . كما ترتب على الصدفة السعيدة بكونها سيدة ، قطعُ إنجلترا لصلاتها المربكة البغيضة مع ناخبية هانوفر .

المعرض الدولى الأول

وُعقد المعرض الدولى الأول فى لندن عام ١٨٥١ فى جو يسوده الأمل ، وتغمره البهجة . أوَلَمْ يحلم شاعر[١] غض الإهاب قبل ذلك بأعوام تسعة ، برؤيته « السماء تملأ جنباتها التجارة ، والسفن ذات الأشرعة السحرية ، والقباطنة فى نور السَّحر القرمزى يُنزلون البالات الغالية الثمن » ؟ أوَ لم يحلم أيضاً بزمن « لا تقرع فيه طبول الحرب ، بل تُطوى بنود المعارك ، ويقوم برلمان يمثل اتحاد العالم ؟ » .

ولكن أوربا لم تكن مهيَّأة وقتئذ للدولية . فإن مذهب حرية التجارة الذى بشر به آدم سمث وجد معارضاً له فى مبدأ حمايتها الذى شرحه وأيده فريدرخ لِستْ Friedrich List الاقتصادى الألمانى . فلم تحذُ دولة واحدة حذو إنجلترا فى فتحها أبوابها لواردات العالم أجمع . بل على النقيض من ذلك ، شاهد العقدان التاليان لظهور حركة حرية التجارة فى إنجلترا انفجاراً قوياً

---

(١) هو ألفرد تنيسن .

من القومية المسلحة فى قارة أوربا مزق عمل مؤتمر ڤينا ، وخيب إلى حين جميع الآمال التى عقدها العالم الممدن لبناء نظام أفضل وأكثر انسجاماً وتناغما : نظام كثيراً ما دار فى خلد الشعراء ، وحلم به أنصار حرية التجارة .

كتب يمكن استشارتها

G.M. Trevelyan : British History in the Nineteenth Century. 1922.

J.L. Hammond : Age of the Chartists. 1930.

W. Bagehot : Sir Robert Peel. (Biographical studies) 1907.

G.M. Trevelyan : Lord Grey of the Reform Bill. 1929.

G.M. Trevelyan : Life of John Bright. 1925.

George Peel : Life of Sir Robert Peel (Dict. Nat. Biography)

H.W.C. Davis : Age of Grey and Peel. 1929.

E. Halévy : Histoire du Peuple Anglais au XIX siecle. Eng. Tr. 1926-35.

G.T. Garratt : Lord Brougham. 1935.

الفصل الثانى عشر

ملكية يوليو

قوة ملكية لويس فيليب وضعفها . انتعاش البونابرتية . لويس بونابرت . الاشتراكية . سان سيمون ، وفورييه ، وبرودون ، ولويس بلان . ثورة فبراير . الجمهورية الثانية . أيام يونيو . انقلاب ديسمبر . ابتداء عصر القوميات

١ – مواطن الضعف والقوة فى ملكية لويس فيليب

مواطن القوة

لقيت ملكية لويس فيليب حتفها – بعد حياة عمرت ثمانية عشر عاماً – فى عين الظرف الذى طلعت فيه على الناس وهو : شبوب ثورة فى باريس . وقد كان حكمها يحوى فضائل عديدة : فدفة الأمور كان يمسك بها ملك حكيم خبير مجدّ ، والدولة يخدمها ساسة من ذوى الذكاء والاستقامة والقوة . فقد كان كازيمير پيريه Casimir Perier ، وتيير ، ومولیه Molé وجيزو Guizot ، رؤساء وزارات لم يتطرق إلى وطنيتهم ومقدرتهم أدنى ريب . ومع أن حق الانتخاب حصر فى دائرة ضيقة ، تتألف من مائتين وخمسين ألف ناخب ، فإن فرنسا لم تشاهد عصراً يدانى عصر لويس فيليب فى روعة البلاغة البرلمانية وفخامتها . وفى خلاله نفقت التجارة ، وبدأ تطور السكك الحديدية ، واستمر فتح بلاد الجزائر وتوطيد الحكم الفرنسى فيها .

وقد نجحت حكومة لويس فيليب فى كبح جماح شهوتين قويتين مربكتين طالما استهوتا قلوب الأمة الفرنسية وهما : الثورات الداخلية ، والمغامرات الحربية الخارجية . ووجدت فرنسا فى جيزو سياسياً قديراً وعالماً أريباً ، أدرك الحاجة إلى نظام عام للتعليم الشعبى تكفله الدولة ، وأعد العدة اللازمة

لتنفيذه . ولكن رغم جميع الفضائل السياسية السامية التى امتازت بها ملكية لويس، ورغم خدماتها الجليلة لفرنسا ، فإنه ما من حكومة َقلَّ أسف الناس على سقوطها مثل تلك الحكومة .

مواطن الضعف

ولم يكن مقتل الدوق أرليان وريث العرش المحبوب عام ١٨٤٢ كافياً فى ذاته ليفسر علة تحول الشعب عنها ونفوره منها . فقد كان هنالك فى نظر شعب منطقى كالشعب الفرنسى عيب أساسى فى نظام حكومة لم تكن ملكية حقاً ، ولا جمهورية حقاً ، ولا إمبراطورية حقاً ، بل كانت وليداً خلاسياً ، لايحيط به ذلك السناء التاريخى وتلك الأبهة اللذان يحيطان أرباب التيجان ، ولا الحب الشعبى الذى تقوم عليه الجمهوريات ، ولا الصيت الحربى المجيد لبيت بونابرت ، بل إن ذات الفضائل التى اتسمت بها حكومة لويس فيليب كانت سبباً للبرم بها . كما أن سياسة التساهل والتسوية التى انتهجتها مع إنجلترا ، ورغبتها فى حفظ علائقها الحسنة معها ، وتجنبها المجازفات الخارجية البراقة كانت قذى فى أعين الناس . وقد لخص لامرتين زعيم حركة الأدب الرومنطيقى فى فرنسا حكم الأمة عليها فى هذه العبارة اللاذعة : « لقد ملت فرنسا حكمها وسادها السأم منها » . فقد حكم المواطن الفرنسى العادى على مليكه بعاداته البورجوازية ، ومظلته الكبيرة ، وفضائله العائلية المربكة ، بأنه شخص ممل ثقيل العشرة .

ولكن كانت هناك أسباب خفية متوارية أعظم خطراً وأكبر وزناً من هذه الأسباب كرَّهت الفرنسيين فى ملكية لويس . فقد أغضبت الكنيسةَ بإقامتها نظم التعليم والتربية فى فرنسا على مبادئ غير مذهبية ، وبذلها أقصى الجهد لاسترضاء المثقفين دون أن تحفل بأمر رجال الدين . ولم تقبل أن توسع دائرة الانتخاب ، أو تعبأ بالمقترحات الخاصة بتحسين حال الأمة . وعلى حين تقدمت إنجلترا تقدماً سريعاً بتطبيقها مبادئ قانون الإصلاح الصادر سنة ١٨٣٢ ، فألغت الرق ، وأصلحت المجالس المحلية ، ونظمت من جديد قانون مساعدة الفقراء ، فإن جيزو الذى أدار دفة السياسة الفرنسية خلال

الأعوام الثمانية الأخيرة من حكم لويس فيليب قاوم مقاومة شديدة متواصلة أكثر المطالب اعتدالا لتوسيع نطاق حق الانتخاب . ولذا كان انتهاج حكومة لويس سياسة سلبية بحتة مضطردة فى وسط هذا الغليان للرأى العام مؤدياً لا محالة إلى الكوارث والمحن .

وفى نهاية الأمر صدم تياران قويان صدمة قاتلة بنيان هذا النظام الإدارى السيء الشديد الحذر ، العديم الابتكار : هذا النظام الذى وصفه بحق جون ستيوارت مِل : « بأنه يخلو كلية من روح التحسين ، ويكاد يتبع على الدوام أحط نزوات البشر وأشدها أنانية » .

انتعاش البونابرتية

وكان التيار الأول منهما بونابرتيا . فلقد نسى الناس بتعاقب الأيام الجانب المؤلم المخرب فى سياسة الإمبراطور العظيم : نسوا ثقل وطأة التجنيد العام الطاحنة ، ونسوا إفناء زهرة الأمة الفرنسية ، ونسوا غزوات الدول الأجنبية لبلادهم وسلخ أرض الوطن منهم ، فى حين تضافر الشعراء وكتاب المنشورات والمؤرخون على تزيين هذا العصر المليء بالانتصارات الفرنسية والبطولة الخالدة التى كان يعيدها إلى الأذهان مجرد ذكر اسم نابليون . فإنه حتى حين ناشد نابليون خلال حكم « المائة يوم » الأقاليم بالالتفاف حوله ، وحاول أن ينفخ فيها روح الثورة القديمة ، وأخذ يطرى فى الوقت نفسه ذكاء الباريسيين وميلهم إلى الحرية ، حُسِب عمله هذا استقامة منزهة . فتغنى بيرنجيه Beranger بحروبه . وأشاد ڤكتور هيجو Victor Hugo بانتصاراته فى منظومة Ode à la Colonne ، وقُدِّمت مذكرات الإمبراطور التى أملاها فى منفاه بسنت هيلانة إلى الأمة الفرنسية ، ورتبت أحاديثه ، بقصد ضمان مستقبل أسرته وتعزيز مركزها. فقُدِّمت إمبراطورية نابليون إلى الأمة الفرنسية كنظام انتقال أقيم ابتغاء تقدم المبادئ الحرة ودعم القومية الفرنسية ، ولكنه دُكَّ إلى الأرض نتيجة حسد الأسرات المالكة فى أوربا ، قبل أن تتمكن الإمبراطورية من تبيان مزاياها النافعة للناس ، وإخراج أكلها الشهى .

ومن ثم أخذت نظرة الفرنسيين إلى الإمبراطورية كأداة حرة ديمقراطية

– لا كأداة استبداد وطغيان – ترسخ باطراد فى الأذهان ، وتضم إليها الأشياع . فإن أسطورة « الجاويش الصغير » الذى شق طريقه بيده إلى المجد والرفعة ، وثلّ العرش تلو العرش ، ثم مات شهيد الاستبداد البريطانى الغشوم فى جزيرة نائية من جزر المحيط الأطلسى تكتسحها الرياح العاصفة – إن هذه الأسطورة نفذت إلى قلوب الأمة الفرنسية ، يحيط بها العديد من الظروف المثيرة للشجون المحركة للعواطف . ولذا فإنه عندما أعيد سنة ١٨٤٠ جثمان نابليون إلى باريس لدفنه فى الانفاليد ، أصبح قيام الإمبراطورية الثانية فى حكم الأمر الواقع المقرر .

لويس بونابرت

وكان هناك مطالب بالعرش يقف عن كثب متربصاً : هو لويس بونابرت (١٨٠٨ – ١٨٧٣) ابن لويس بونابرت ملك هولندا[١] . وأمه هى هرتنس بوهارنيه Hortense Beauharnais ابنة الإمبراطـــورة چوزفين من زوجها الأول . وأصبح لويس بعد وفاة الدوق دى ريشتاد[٢] Duc de Reichstadt سنة ١٨٣٢ ، رأس أسرة نابليون . وكان شاباً مجداً غريب الأطوار كثير التفكير ، تملأ الأحلام خياله ، والتدابير والخطط ذهنه . ويعمر قلبه إيمان وطيد لا يتزعزع بأن العناية الإلهية قد اصطفته لإعادة بيت عمه إلى عرش فرنسا .

وقد حاول لويس مرتين : الأولى سنة ١٨٣٦ ، والثانية سنة ١٨٤٠ ، اغتصاب التاج الفرنسى . ولكن مسعاه خاب فى المرتين خيبة مزرية . بيد أن السخرية لم تكن لتخزيه ، ولا الفشل ليثنيه عن قصده . وفى سنة ١٨٤٨ كان منفياً بائس الحال فى لندن ، بَلا الحياة من جوانب منوعة عديدة : خبرها كعضو فى جمعية كربونارية بإيطاليا ، وكطريد فى الولايات المتحدة ، وكسجين فى إنجلترا ، وكصحفى وكاتب منشورات . ولكن رغم هذا كله كان

---

(١) هو لويس بونابرت ، أجلسه أخوه الإمبراطور على عرش هولندا سنة ١٨٠٦ ، ولكنه تنازل عنه سنة ١٨١٠ .

(٢) وهو الملقب أيضاً بملك روما . ولد سنة ١٨١١ لنابليون الأول من زوجه الثانية مارى لويز ، وتوفى بفينا سنة ١٨٣٢ .

الحلم بارتقاء العرش الإمبراطورى يوسوس فى مخيلته على الدوام . وأعلن فى كتاب صغير عنوانه « أفكار نابليونية » Idées Napoleoniennes برنامجاً كاملا لإمبراطورية نابليونية ثانية تقوم على المبادئ الحرة .

انتعاش المبادئ الجمهورية والاشتراكية

أما التيار الثانى الذى ارتطمت به ملكية لويس ، فكان جمهورياً اشتراكياً . فقد كانت فلسفة ثورة ١٧٨٩ فلسفة تنطوى على تصورها الحقوق السياسية والشخصية قائمة على مبدأ المساواة . ومع ذلك فإن الثورة لم تحاول إلغاء الملكية الخاصة أو ضمان مستوى ملائم من رغد العيش للصانع ، أو التدخل فى حرية الأعمال الصناعية . فكانت نقابات العمال موضع الكراهية والبغض اللذين أظهرتهما تلك الثورة للجماعات المشتركة عامة ، بصفتها آلات خاضعة لنظام الامتيازات القديم . ولما كانت جميع الجمعيات والاتحادات موضع مقت الثورة وعدم رضاها ، فقد حرمت الثورة الصانع من الفوائد التى تعود عليه الآن من استخدام نقابات العمال سلاح الإضراب ، والمساومة الجماعية .

بيد أن هذه الأفكار التى غلبت عليها النزعة الفردية ، أخذت تختفى سريعاً ، وتحل محلها نظرية جديدة للمجتمع . فقد اعتقت المجالس النيابية للثورة الفرنسيين من أغلال الامتيازات ، غير أنها أبقت معضلة الفقر هائلة جبارة مستعصية ، كما كانت من قبل . ولكن الناس أخذوا يتساءلون إذا كان الفقر ضربة لازب ، وإذا لم يكن من المستطاع إعادة تنظيم المجتمع ، بحيث يمكن أن يعطى الجميع حصصاً معقولة من ثروة العالم المادية ، حتى وإن لم تكن حصصاً متساوية . فألفت كتب كثيرة فى الأدب السياسى كان لها أثر بعيد ، ودارت أبحاثها حول هذه المعضلة الأزلية .

بعض أقطاب الاشتراكية

فنادى أتباع سان سيمون Saint- Simon بالسلام العالمى ، وإلغاء مبدأ التوريث ، وضرورة تنظيم العمل تنظيماً دولياً ، ووضع نظام للتوزيع يكافأ فيه كل فرد حسب حاجته . واقترح فوربيه Fourier إلغاء الدولة ، وإحلال « خلايا عمال » Phalansteries مكانها . وحضّ لويس بلان Louis Blanc على إقامة مصانع قومية . وأدلى برودون Proudhon بالعبارة

الشهيرة الخطرة «الثروة هى سرقة» . ونُحِتت يومئذ الكلمتان : « الاشتراكية »[1] ، « والشيوعية » ، وصارتا فى وقت وجيز من مصطلحات الناس العادية . وشاعت فى ذلك الحين فكرة بين الطبقات الباريسية السفلى بأن انقلاباً هائلا يوشك أن يقع ، فيشرب الساقى نبيذ سيده ، وترتدى الخادم دمقس سيدتها . ولكن من بين عديد الآراء والأفكار التى ظهرت — وكان بعضها خيالياً وبعضها الآخر عنيفاً متطرفاً — برزت فكرة عملية كان لها أثر بعيد وشأن خطير ، عبّر عن لبابها عنوان رسالة كتبها لويس بلان سنة ١٨٣٧ ولقيت إقبالا شديداً من الشعب ، وهذا العنوان هو : « تنظيم الصناعة » . فقد نادت هذه الرسالة بالاستعاضة عن مبدأ « حرية العمل » Laissez-faire الذى دعا إليه الأحرار ، بالمبدأ الاشتراكى وهو : « المقدرة على العمل » Savoir-faire

تعدد المذاهب الاشتراكية

والاشتراكية التى هى قديمة قِدَم الفقر ذاته تتخذ أشكالا مختلفة فى الأذهان المختلفة : فيتصورها البعض فى إشاعة المبادئ الإنسانية المسيحية فى ميادين الصناعة ، ويتصورها بعض آخر فى المساواة فى الثروة وتكافؤ الفرص ، وآخرون فى تملك الدولة وسيطرتها على الأرض وأدوات الإنتاج ، على حين أن آخرين — وهم تلاميذ كارل ماركس — طالبوا بقيام دكتاتورية من الطبقات العمالية ، واعتقدوا أنه لا يمكن نيلها إلا بنشوب حرب بين الطبقات . كما أن هنالك اشتراكية تقوم على نقابات العمال ، واشتراكية محلية ، واشتراكية قومية — كل ذلك تبعاً لوجهة نظر المرء إلى الهيئة التى يرى أنها أصلح من غيرها لتنظيم الأعمال الصناعية وتوجيهها .

بل إن البعض يرى — وهم أقرب الناس إلى المنطق — أن الاشتراكية القومية ليست بكافية لإسعاد البشر . إذ يلاحظ هؤلاء المفكرون أن القوى الطبيعية فى جهات العالم المختلفة — فى أوربا وإنجلترا واللورين والرهر وسيلزيا —

---

(١) ابتدعها فى فرنسا بيير ليرو Pierre Lerroux سنة ١٨٣٨ ، وظهرت فى إنجلترا كلمة « اشتراكى » فى Co-operative Magazine سنة ١٨٢٧ ، وكانت تطلق إذ ذاك على أشياع روبرت أوين .

موزعة توزيعاً غير عادل . فهم يتساءلون مثلا إذا كان من العدالة أن تتوافر المواد الخام لتجهيز جيش حديث فى اليابان ، فى حين أنها لاتتوافر فى الصين . وأن رومانيا ، وليست إيطاليا ، هى التى تملك آبار زيت البترول . وتعجز أفهامهم عن أن ترى كيف يمكن الحصول على السلم العالمى وضمانه من غير وضع نظام ما لتوزيع منابع الثروة فى العالم توزيعاً دولياً . وصفوة القول إن هؤلاء المفكرين هم اشتراكيون دوليون . فإنه عقب الحرب العظمى مباشرة ، حينما كان الفحم الأمريكى والإنجليزى يباع فى إيطاليا بأثمان باهظة جداً لشحه وقتئذ فيها ، حض مندوب إيطالى عصبة الأمم على إقرار المِلْكية الدولية للفحم وبعض المواد الخام الأخرى التى تحتاج إليها الصناعة .

ولكن أيا كان شكل الاشتراكية الأمثل ، فلا مشاحة فى أن إعادة تنظيم الصناعة طبق مبادىء إنسانية عملية هى مهمة تتطلب عملا متشعباً يجب أن تتضافر فيه كثير من العقول الموفورة الذكاء ، الطويلة الأناة . وقد قذف الكتاب الاشتراكيون الفرنسيون وقتئذ بأفكار جديدة ، ونمُّوا روح التذمر والسخط فى هيئات ذكية مثقفة . ولكن الأمر الذى لم يفعلوه ، ولعلهم لم يمنحوا الوقت الكافى لفعله ، هو أن يعدوا طبقة سياسية مجربة تستطيع أن تقوم بوضع مقترحات عملية يمكن وضعها موضع التنفيذ . فإن الثورة فاجأتهم قبل أن تتاح لهم الفرصة لتربية جيل جديد من أنصار الاشتراكية وتدريبه .

شيوع روح الثورة

ولقد وصف هايْنِه جو باريس المستعر فى مقال كتبه سنة ١٨٤٢ فى جريدة ألمانية ، قال فيه : « حينما زرت بعض المصانع الموجودة فى حى « فوبرج سان مارسو » وأخذت أستفهم عن أنواع المطبوعات التى يقرؤها عمال المصانع الذين يؤلفون أقوى عناصر الطبقات العاملة ، خطر لذهنى حكمة سانكوبانزا التى تقول : « خبِّرنى عما زرعته اليوم ، أنبئك بما ستحصده غداً » . فقد وجدت أن عدة طبعات جديدة لخطب روبسبيير بطل الثورة الفرنسية وبعض منشورات لمارا تباع النسخة الواحدة منها بمليم — وجدتها منتشرة انتشاراً كبيراً بين عمال تلك المصانع ، ووجدت بين أيديهم مؤلف كابيه فى « تاريخ الثورة »

ومؤلفات كرمينان Cormenin السامة الصغيرة الحجم ، وكتاب بوناُرتِّى Buonarctti الذى عنوانه Babœuf's Doctrine and Conspiracy ، وهى كتابات تفوح كلها دماً . والأغانى التى سمعتهم يتغنون بها تبدو كأنها نظمت فى سعير جهنم ، وهى ذات قرارات تبلغ فيها فورة النفوس أشدها . والحق أن قوماً مثلنا يسيرون فى مسالك الحياة الوديعة الهانئة ليعجزون عن أن يدركوا الروح الإبليسية التى تشيع فى تلك الأغانى . فلا بد للمرء الذى يروم إدراك أثرها أن يسمعها بأذنيه ، فيسمعها مثلا فى تلك الورش الضخمة المتسعة حيث تُطرق المعادن ، وحيث الأصوات المتحدية المتحفزة التى تخرج من حناجر هذه الأبدان نصف العارية تنسجم وتتناغم مع الضربات القوية التى يحدثها ضرب المطارق الحديدية الجبارة على سنداناتها الرنانة . وآجلا أو عاجلا أخشى أن تكون ثمرة ما يُبْذَر الآن فى فرنسا فتنة جمهورية هوجاء » .
وواضح من كلمات هاينه هذه أن ما كان يجول فى عقول الصناع الباريسيين يومئذ هو ثورة سياسية عنيفة دموية ، لا تحوُّل قائم على مبادئ علمية مدروسة .

المطالبة بالإصلاح

وفى عطلة البرلمان الصيفية عام ١٨٤٧ بعد أن أخفق أوديلون بارو Odilon Barrot زعيم الأحرار فى مجلس النواب ، فى إجبار الحكومة على إعطاء بعض المنح ، أشار بالقيام بحملة فى طول البلاد وعرضها للمطالبة بإصلاح البرلمان . فأقيمت المآدب ، وألقيت الخطب ، وشربت الأنخاب (ولم تكن جميعها موالية للملكية) . ونودى فى موجة صاخبة من التحدى بضرورة عزل جيزو كبير الوزراء ، ووجوب تطهير البرلمان من الأعضاء الوصوليين ، وتوسيع دائرة حق الانتخاب . وكان من أبرز خطباء ذلك الحين لامرتين Lamartine (١٧٩٠ - ١٨٦٩) الشاعر المحبوب والمؤرخ وخطيب فرنسا المفوه ، وزينة المجالس والندوات ، ونبى الجمهورية المثالية . فقاومت الحكومة هذه المطالب وحظرت عقد مأدبة كان يراد إقامتها فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٤٨ . ولكنها سرعان ما ألفت نفسها فجأة وجهاً لوجه أمام شغب إصلاحى نشب فى باريس ، ثم تطور هذا الشغب تطوراً سريعاً غير منتظر إلى عصيان

جمهورى هائل ، لعله كان نتيجة تراشق عَرَضى بدأته دورية من رجال الجيش تولاهم الجزع .

اندلاع الثورة

وفى ٢٤ فبراير سنة ١٨٤٨ ، وهو اليوم الثانى من القتال الذى أخذ يدور فى الشوارع ، تحصن العمال خلف المتاريس التى أقاموها فى الشوارع ، واستُبدِل الهتاف « يحيا الإصلاح » بهتاف « تحيا الجمهورية » . ولما رأى الملك الذى بلغ من العمر عتياً ، والذى كان يغلب عليه النصب والكلال ، ويجزع من سفك الدماء ، أن الحرس الأهلى انقلب عليه ، واعتقد خطأ أن الأمة تسير خلف صفوف الحرس الأهلى — لما رأى الملك هذه الأمور تولاه الهلع ، وتنازل عن العرش لحفيده ، ولاذ بالهرب إلى ملجأ مأمون فى مقاطعة سَرِى بإنجلترا .

٢ — الجمهورية الثانية

بروز لويس نابليون

وفى الحين الذى أخذ لويس فيليب يتوارى فيه عن أنظار فرنسا ، بدأ لويس بونابرت يظهر على المسرح . وقد صار الآن رجلا فى الأربعين من عمره : شخصية غامضة مستبيحة ، بلا ضمير أو وازع وجدانى ، يخاله من يراه حشاشاً ، وينطق الفرنسية بلهجة أعجمية . ولكنه إذ وجد بعد قليل أن الفرصة غير ملائمة ، انسحب إلى إنجلترا ، بعد أن أعلن وجوده فى مهارة ودهاء . وأخذ يرتقب استدعاءه إلى فرنسا .

إعلان الجمهورية

وللمرة الثانية قررت ثورة تنشب فى باريس مصير فرنسا . ولكنها فى هذه المرة كانت ثورة عجز أشياع الحرية عن السيطرة عليها أو توجيهها . فأعلِنت الجمهورية تحت ضغط الطغام العنيف . وفى خلال فترة انتظار دعوة جمعية تأسيسية ، ألِّفت حكومة وقتية اختير أعضاؤها فى مكاتب جريدتين ، إحداهما اشتراكية[1] والأخرى راديكالية[2] ، لإدارة شئون البلاد . وواجهت

---

(١) Le National (٢) Le Reforme

هذه الهيئة المكونة من رجال قليلى الخبرة بالحكم ، شديدى التباين فى الآراء – واجهت هذه الحكومة الوقتية موقفاً عسيراً وصعوبات كبيرة . فقد كانت مدينة باريس فى حالة هياج مصحوب بالطرب والنشوة . فنهض بعض يطالب بمشروعات هائلة من التنظيم الاجتماعى ، وبعض آخر يرفع عقيرته بعنف وإصرار بالمطالبة بإشهار الحرب فى اللحظة والتو على عواهل أوربا المستبدين .

والحق أن من حسنات لامرتين الذى كان أحد الوزراء البارزين فى هذه الحكومة ، أنه أبى إبدال الراية الثلاثية الألوان بالراية الحمراء . وبدلا من إشهار حرب صليبية محفوفة بالمهالك ، اكتفى بإصدار إعلان يشيد فيه بالمبادئ الحرة . وكَبَحَ جماح الثورة الاجتماعية بوعد جرئ ، ولكنه وعد جرّ على البلاد فيما بعد النكبات والخطوب ، وهو واجب الحكومة فى تدبير العمل للجميع ، وإنشاء مصانع قومية لتخفيف ضائقة المتعطلين .

روح الفرنسيين المحافظة

وُقرِّر انتخاب الجمعية التأسيسية بالانتخاب العام . وقد كشفت نتيجتها عن حقيقة لو أن لويس فيليب ووزراءه كانوا قد حزروها ، لربما كانت الملكية قد أُنقِذت . ذلك أنه فى قطر يتألف سواد سكانه من ملاك فلاحين ، يأتى عادة الانتخاب العام بنتائج تنزع إلى المبادئ المحافظة ، لا المبادئ الراديكالية . فإن حصر دائرة الانتخاب فى مائتى ألف ناخب ينتمون إلى الطبقة الميسورة الحال لم يضمن ولاء الأمة للملكية فى البرلمان ، أو يُشِعْ الثقة فى البلاد ، بل كان يشجع على فساد الذمم ، ويثير الحسد والمشاحنات ، ويميت الحماسة فى الصدور . أما حق الانتخاب العام فلعله كان كنزاً للملكية جليل القيمة . فإنه عند تطبيقه فى فرنسا لأول مرة عقب ثورة فبراير هذه – وكان عدد الأصوات الملقاة فى صناديق الانتخاب أكبر ما سُجِّل فى الانتخابات الفرنسية إلى ذلك الحين – انتُخِبت جمعية وطنية يتألف سوادها من أعضاء بورجوازيين . وكان عدد الجمهوريين فيهم بنسبة واحد إلى ثمانية .

ثورة الغوغاء

ويبين هذا البرلمان ، الذى كان أول برلمان انتخب فى فرنسا وفق نظام

الانتخاب العام — يبين تبييناً وافياً روح الريف ونزعاته المحافظة . ولذا كانت مسألة قمع خطر الشيوعيين فى باريس أمر حياة أو موت بالنسبة للأعضاء المحافظى النزعة فيه . ويمكن تبين حرج مركزهم ودقته رغم إحرازهم أغلبية أصوات الدوائر الانتخابية الريفية وثقتها ، مما حدث فى ١٥ مايو ، لما اقتحم الغوغاء دار الجمعية التأسيسية ، وطلبوا إليها أن تحل نفسها ، وتشهر الحرب على ملوك أوربا . ولكن أنقذ الموقف البالغ الخطر ظهور الحرس الأهلى فى الوقت المناسب ، وسلوكه مسلكاً حميداً .

قتال يونيو

غير أن الناس أخذوا يتساءلون : ماذا يحدث لو أن هذا الهجوم تكرر ؟

فلهذا رئى أن يكافَح الشر فى مصدره بحزم وثبات . وكخطوة أولى رئى إغلاق الورش الأهلية التى أنشأتها الدولة وأدارتها بخسائر فادحة جداً ، وكانت سبباً فى جذب ربوات غفيرة من الرجال المتعطلين إلى باريس . ولكن عقب إصدار هذا القرار الصارم — ولكنه القرار الضرورى — نشب قتال فى شوارع باريس يوضح المظاهر السياسية العجيبة التى حدثت خلال الشهور التالية ، نظراً لما أثاره هذا القتال من الفزع والاستنكار العميقين فى قلوب الفرنسيين . فقد احتدم نضال هائل عنيف مر المذاق أياماً أربعة لافحة القيظ من أيام شهر يونيو[١] بين الجند النظاميين والحرس الأهلى تحت قيادة الجنرال كاڤينياك ، وبين العمال العاطلين الذين كانوا بلا قواد أو زعماء خلال هذا النضال الذى يبدو أنهم لم يكونوا يقصدونه . ولقد كلف نصر الحكومة فيه ضياع عشرة آلاف من الأنفس . ولما كان سواد الأمة الفرنسية يملكون أرضاً زراعية ، أو يستثمرون مالا فى قروض الحكومة ، فقد كبَّروا لانتصار الحكومة وهللوا . وإذ أدركوا عظم الخطر الذى جابهته ، طالبوا القابضين على زمام الأمور بأن يحكموا فى حزم وشدة ، حتى لا يجسر التنين الأحمر على رفع رأسه مرة أخرى .

الدستور الجديد

وفى وسط هذا القلق وتلك المخاوف ، أخرجت الجمعية التأسيسية دستوراً

(١) من ٢٣ إلى ٢٦ يونيو سنة ١٨٤٨ .

ملؤه السخف والخرق ، يجنح إلى التضارب والتعقيد ، ويقف فى سبيل كل تغيير . فقد أنشأ نظاماً للجمهورية الجديدة يقوم على مجلس نيابى واحد ورئيس للجمهورية يتنافس كلاهما فى الاستئثار بالسلطة المطلقة ، ويُنتخَب كل منهما بالانتخاب العام . وظاهر أن ذلك الدستور وُضِع على غرار دستور الولايات المتحدة . ولكن نسى واضعوه أنه على حين تَحُد حقوق ولايات الاتحاد سلطات رئيس الجمهورية فى أمريكا ، فإن رئيس الجمهورية الفرنسية الجديدة — الذى حددت مدة رئاسته بأربع سنين ، على ألا يعاد انتخابه — سيكون سيد إدارة بيرقراطية تتدخل فى شئون كل مدينة وكل قرية فى فرنسا .

انتخاب لويس بونابرت رئيساً للجمهورية

وفى الاستفتاء الشعبى الذى عُقد فى ١٠ ديسمبر سنة ١٨٤٨ لانتخاب رئيس الجمهورية ، نال لويس بونابرت أكبر عدد من أصوات الناخبين . فقد أربى ما أحرزه من الأصوات على نيف وأربعة ملايين صوت أكثر مما أحرزه منافساه فى الانتخاب : كاڤينياك مخلِّص المجتمع الفرنسى من الثوار الحمر ، ولامرتين خطيب الشعب . فإنه رغم التسعة والثلاثين عاماً التى قضاها لويس فى نفى زرى غير مجيد ، كان اسم بونابرت فى ذاته كافياً لتحبيب الفرنسيين فيه وترغيبهم فى انتخابه . فقد كان ذلك الاسم يُعَدُّ فى كل كوخ وبيت فى أرجاء فرنسا رمزاً للنظام والقوة والصيت المجيد .

ومع ذلك لم يكن لويس بونابرت رئيساً طليق اليد . فقد واجهه مجلس نيابى انتُخِب حديثاً ، ذو طابع محافظ ، مستعد لإعادة الملكية إذا ما اتفق أشياع آل بوربون وأشياع آل أرليان على حل لما بينهما من خلاف : مجلس نيابى لم يكن للويس فيه أنصار شخصيون ، أو يستطع أن ينتظر منه تأييداً مخلصاً مستديماً . فاضطر لويس رغم ميوله الحرة الوطنية أن يماشى رغبات العناصر الإكليريكية والمحافظة ، وأن يتنكر لماضيه « ككاربونارىّ » قديم ، فيبعث بعون إلى البابا ضد الجمهورية التى أقيمت فى روما وقتئذ .

انقلاب ديسمبر

ولهذا كان الانقلاب الحكومى الذى أحدثه لويس فى ٢ ديسمبر سنة

١٨٥١ ضربة ضربها للظفر بالحرية والسلطان . وقد رسم خطة لهذا الانقلاب جمعت أقصى درجات المكر والقوة والاحتيال ، ناقضاً بذلك يمينه الدستورية ومنتهكاً حرمة الدستور . فقد غيب فى السجن عدداً كبيراً من الزعماء السياسيين وكبار رجال الجيش ، وضرب بالرصاص المتظاهرين فى شوارع باريس ضد هذا الانقلاب ، وأصيب منهم نحو ألف ومائتى مواطن برىء ، وحل مجلس النواب ، وسجن بعض أعضائه ، وفرق البعض الآخر . وذلك كى يجعل نفسه سيد فرنسا . وكانت نتيجة هذا الانقلاب أن مُدّت رئاسته إلى عشر سنين .

ولكن من العجب أنه رغم أن الانقلاب أثار استنكار ڤكتور هيجو ، وتينيسن الشاعر الإنجليزى ، وسخطهما الشديد ، فإن لويس لم يبدُ للفرنسيين كمستبد ، بل بدا فى أعينهم عدواً للاستبداد قاضياً عليه . أفلم يحل مجلساً نيابياً كان أعضاؤه قد قرروا لأنفسهم مرتبات ، وحرموا ثلاثة ملايين ناخب من حق الانتخاب بمقتضى قانون انتخابى أجازوه قبيل الانقلاب ، ولو أنه يحتمل أنهم لم يكونوا حينئذ يدركون جميع عواقبه ؟ لهذا لاح الرئيس للناس وقتئذ أنه على حق فيما فعل . ولقد قال برجلى Broglie السياسى الفرنسى : إن الأمة تنال الحكومة التى تؤثرها ، والطبقة البورجوازية تنال الحكومة التى تستأهلها . وبهذه المناسبة ذكر الرئيس الأمير الذى بات الآن إمبراطوراً من جميع الوجوه ما عدا الاسم – ذكر لوزير مملكة سردينيا المفوض : « والآن إذ صرت أستطيع أن أفعل ما أشاء ، سأفعل شيئاً لإيطاليا » .

ابتداء عصر القوميات

وبدأت صفحة جديدة تُكتب فى تاريخ أوربا : صفحة تمتاز بانتصار القومية بمثاليتها الرائعة ، وروحها الوطنية المنظمة ، ومصالحها السياسية القوية ، كما تمتاز أيضاً بأهوائها العمياء ، وجيوشها الجرارة ، وحروبها المجيدة ، وتهديدها الدائم للسلام والتعاون الدولى . وفى المراحل الأولى لهذه الحركة العظمى من حركات الروح الإنسانية التى جلبت معها أخطاراً جديدة إلى أوربا ، لعب لويس بونابرت دوراً فاصلا . فإنه بعد أن شن الهجوم على روح الرجعية فى أوربا :

هذه الروح التى كانت تبدو فى أبشع ألوانها فى روسيا بنوع خاص ، أمكن لهذا المدبر لجريمة ديسمبر أن ينجز أكثر من نصف العمل الذى أنتج فى النهاية اتحاد إيطاليا ، وكسب لها حريتها .

كتب يمكن استشارتها

H.A.L. Fisher : Bonapartism. 1909.
Guizot : Memoires. 1864.
E.L. Woodward : Studies in European Conservatism. 1929.
Lowes Dickinson : Revolution and Reacrion in Modern France 1892.
Louis Blanc : Ateliers Nationaux. Ed. Marriott. 1913.
H. Heine : Letters to the Augsburger Allgemeine Zeitung. 1840-3.
Odilon Barrot : Memoires. 1875-1876.
F.A. Simpson : The Rise of Louis Nopoleon.
P. Guedalla : The Second Empire. 1932.
A.D. Tocqueville : Souvenirs. Tr. 1896.
L. Blanc : Histoire de Dix Ans. 1843-5.
P. Thureau Dangin : Histoire de la monarchie de Juillet. 1884-1892.

الفصل الثالث عشر

حركة بعث إيطاليا

إيطاليا فى هيجان . بيو نونو . التقاليد الجمهورية فى إيطاليا . مازينى .
نصيب مملكة سردينيا فى حركة البعث . الجمهورية الرومانية . البندقية ومانين

١ – إيطاليا فى هياج

الثورة تعم الولايات الإيطالية

إنه حتى قبل انهيار الملكية الفرنسية ، كانت نار الثورة التى قدر لها أن تجعل عام ١٨٤٨ عاماً خالداً فى تاريخ إيطاليا – كانت نار الثورة تزكو ويشتد سعيرها بين الدعائم الخشبية المتداعية التى قامت عليها مملكة نابلى . وبانتشار لظى الثورة فى الشمال فى ربيع ذلك العام ، أخذ الأمراء الإيطاليون الوجلون غير الصادقين فى وعودهم ، يمنحون الدساتير فى شتى إماراتهم . ولما وصل ركب الثورة إلى روما وتورين ولجهورن وبيزا وفلورنسا وميلان ، وجاءت الأنباء بأن ڤينا صارت فى قبضة الدهماء ، وأن مترنخ الجبار نفسه ترك أزمة السلطة ولاذ بالفرار ، دبت الشجاعة حتى فى البندقية المسالمة وثارت تحت زعامة مانين Manin ، ووضعت يدها على الترسانة وأحواض السفن ، وأعلنت الجمهورية .

أمانى إيطاليا

وفى تلك الثورات الواسعة النطاق ضد الأحوال السائدة ، كانت أولى العواطف التى خالجت النفوس فى أوربا ، وأعمها انتشاراً بين الناس ، هى الرغبة فى نيل تلك الحريات الأساسية والمدنية التى كسبتها إنجلترا ، والتى ظفرت بها فرنسا زمناً ، والتى رأى كافة سكان إيطاليا بصيصاً عابراً من أشعتها تحت حكم نابليون الاستبدادى ، ولكنه الحكم المجدد المستنير . فكان الإيطاليون على اختلاف وجهات نظرهم السياسية ، تجيش فى صدورهم آمال واحدة

وأمان مشتركة ، هى : أن يُرفع عنهم نير الشرطة المتجسسة على حركاتهم وسكناتهم ، وأن يحرَّروا من جور السجن بلا محاكمة ، ومن رقابة متأخرة على الصحافة والكتب ، ومن القيود المضايقة فى التنقل والسفر . وفى الولايات الإيطالية التى كانت النمسا تحكمها ، كان القوم يتوقون علاوة على الفوز بهذه الأمور ، إلى أن يحرَّروا من نظام صارم للتجنيد يؤخذ بمقتضى أحكامه الفلاحُ من قريته على كره منه ، ليخدم فى جيش أجنبى ، وفى أرض بعيدة .

أمنية الاتحاد

أما أمنية الإيطاليين الخاصة باتحاد إيطاليا فكانت شأناً آخر . كانت هذه الأمنية تنطوى ، كخطوة أولى، على طرد النمساويين بالقوة من لمبارديا ومقاطعة البندقية . فكانت بذلك تثير على الفور هذه المشكلة الخطيرة ، وهى كيف تنظم إيطاليا نفسها بعد تحررها. غير أنه لم تكن للايطاليين خطة متحدة مشتركة عام ١٨٤٨لحل تلك المشكلة . فإن البعض منهم كان يبغى اتحاداً تحت سيطرة البابا ، وبعضاً آخر كان يروم إقامة جمهورية مركزية ، وآخرين ملكية يدير دفة شئونها بيت ساقوى الذى كان يملك فى سردينيا . فإلى هذه الأسباب يعود بشكل خاص إخفاق الثورة الإيطالية فى ذلك العام الحافل بالاضطرابات والفوضى .

بيوس التاسع

ولاح لكثرة الإيطاليين فى بادئ الأمر أن آمالهم فى تحرير إيطاليا تستند إلى عامل قوى نادر الحدوث ، وهو اعتلاء بابا حر المبادئ كرسى البابوية . فإنه بعد وفاة جريجورى السادس عشر المستبد الغشوم ، خلفه فى صيف سنة ١٨٤٦ بابا يخفق بين ضلوعه قلب إيطالى ينزع إلى الإصلاح . وزادت مناقبه لمعاناً وبهاء ، ليس فقط لأنها كانت على تمام النقيض من أخلاق سلفه ، بل لأن روحه كانت متمشية مع حالة نبيلة من الكثلكة الحرة سادت نفوس الكثيرين فى ذلك الحين . فقد طار على جناح السرعة فى ربوع إيطاليا كلها النبأ بأن پيو نونو Pio Nono (أو بيوس التاسع) أصدر عفواً عاماً عن جميع الإيطاليين الوطنيين الذين كانوا قد حُكم عليهم بالسجن لتهم سياسية ، وأنه احتج على احتلال النمسا لفرارا Ferrara — وهى

مدينة تقع فى أملاكه — وأنه ألف حرساً مدنياً ، وأنه أخذ بنفسه يهتم بإصلاح أنظمة الحكم فى دولته .

انحيازه فى بادئ الأمر لحركة الإصلاح

وبدا للعديد من الفلاحين وملاك الأرض الايطاليين الورعين الأتقياء — بدا الخبر بأن البابا حاكم مصلح دليلاكافياً فى ذاته على أن الإصلاح شىء حسن جميل . ومع أن غيرة البابا الإصلاحية كان مبالغاً فيها كثيراً ، وأضعفها مجرى الحوادث إضعافاً شديداً بعد وقت وجيز ، إلا أنه يجدر بنا ألا نبخس قيمة المزايا التى ضمنها لقضية الأحرار تشيُّع بيوس التاسع فى بدء عهده لحركة الإصلاح . فلولاه لما انضم على الإطلاق إلى الحركة الوطنية كثير من المحافظين الذين ظلوا أنصاراً أمناء ثابتين لقضية إيطاليا ، حتى بعد أن كشح البابا بوجهه عنها . بل إنه لأمر يداخله الشك فى أن حركة القومية الإيطالية كانت تترعرع وتنمو إلى الحد الذى تصبح فيه المسألة الإيطالية بين كبرى المسائل السياسية فى أوربا ، لولا أن هذه الحركة نالت بركة البابا فى بادئ الأمر .

قصر نظر الوطنيين

ولكن عجز المتحمسون لقضية الحرية الإيطالية عن أن يستشفوا ما كان فى الواقع أمراً محتوماً لا مناص منه : وهو أن رأس الكنيسة الكاثوليكية الروحى لن يستطيع طويلا تشجيع حرب ضد الدولة الكاثوليكية الكبرى فى أوربا . ولهذا فإن نونو لا يلام على رفضه إعلان الحرب على النمسا[١] . فإنه لو فعل ذلك لجازف بولاء الكاثوليك الألمان للبابوية ، ولعرض وحدة الكنيسة الكاثوليكية للخطر . ولكن أيا كان الأمر فإن رفضه المساهمة بقليل أو كثير فى حرب ضد النمسا عُدَّ بحق يومئذ ضربة شديدة لقضية القومية الإيطالية . فإن من بين جميع الخطط التى رُسِمت لحركة التحرير الإيطالية كانت خطة إنشاء اتحاد تعاهدى[٢] تحت زعامة البابا أقربها إلى الوجهة العملية . ولهذا قمين بالإيطاليين الوطنيين المتحمسين والكاثوليك الورعين — عندما يرون أن اتحاد إيطاليا لم يكن ليتم عام ١٨٤٨ إلا بهذه الطريقة — قمين بهم أن يبتهجوا لحبوط الخطط التى رسمت فى ذلك الحين لتحقيقه .

---

(١) كما أعلن فى رسالة بابوية فى ٢٩ ابريل سنة ١٨٤٨ .

(٢) Federation

التقاليد الجمهورية ومازينى

ولقد كان المبدأ الجمهورى تقليداً عميق الأصول فى التربة الإيطالية ، ولكنه كان مقصوراً على حكومات المدن ، لا حكومة البلاد المركزية . وكانت ذكراه سبباً فى بذر بذور الانشقاق السياسى ، أكثر من مساعدتها على إنشاء الوحدة القومية . ولقد كانت مهمة مازينى Mazzini (١٨٠٥ – ١٨٧٢) وهو ابن طبيب من أهل جنوة ، وكان شديد البغض للاكليروس – كانت مهمته أن يبدّل أفكار الأمة الإيطالية ووجهتها . وقد فعل ذلك ببشارته بولاء نادر المثال ، وإخلاص لا يتزعزع ، وإيثار منقطع القرين ، بمبدأ الجمهورية لإيطاليا ككل لا يتجزأ . فمازينى إذن هو البشير بالحركة الجمهورية الإيطالية ، إذ لاح له أمراً محالا أن يقبل مواطنوه حكم ملك ، سواء أكان ذلك الملك هو ملك نابلى أم ملك سردينيا . إذ كان يعلم أن الأسرة المالكة فى نابلى فاسدة منحطة ، والأسرة المالكة فى سردينيا متأخرة رجعية . فحسب أن جمهورية – وجمهورية لا غير – مرتبطة بروابط سلمية دائمة مع الجمهوريات الحرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، هى الجديرة بإيطاليا .

مازينى نبى الوطنية الإيطالية

ولكن هذا الحلم كان ضرباً من الوهم والخيال ، قميناً بمتآمر مثل مازينى رفع يده على جميع الحكومات على اختلاف أشكالها . وقد بنى مازينى إيمانه ، كغالبية الأحرار فى سنة ١٨٤٨ ، على قوة الحماس والإقناع لهدى الناس إلى الكمال السياسى ، لا على جعل القول الفصل للسيف . ولكن مع أن الجند النمساويين كانوا فى حاجة إلى شئ أحدّ وأصلب من رسائل مازينى لإقصائهم عن إيطاليا ، إلا أنه ينبغى ألا نعتقد أن حياة مازينى كانت فاشلة . فإن الحماس الروحى الذى اضطرم فى حركة إيطاليا الوطنية ليرجع إلى مدى كبير إلى تعاليم هذا الحالم الرفيع المقام ، وإلى جمعية الشبيبة الإيطالية التى أسسها سنة ١٨٣١ فى غرفة حقيرة على سطح أحد بيوت مرسيليا لنشر أفكاره وبثها .

جوهر المسألة الإيطالية

وكان لب المسألة الإيطالية هو حكم النمساويين لمقاطعتى لمبارديا والبندقية . فقد كان من العبث التحدث عن الوحدة الإيطالية طالما كان المرشال رادتزكى Radetzky العجوز على رأس خمسة وسبعين ألفاً من الجند النمساويين ،

وفى يده حصون الكوادريلاتيرال[١] الشهيرة ، مسيطراً بذلك على الموقف فى شمال إيطاليا .

وقد أبانت الحوادث عن خرق الفكرة بأن جيشاً كهذا ، يقوده مثل هذا القائد المجرب ، يمكن أن يُهزَم أمام الجند غير النظاميين وغير المدربين الذين كانوا يحملون لواء الجمهورية فى إيطاليا . وأثبتت الأحداث أن نابلى والبابا قصبتان مرضوضتان . أما مقاطعة البندقية فقد تـُرِكت فيها القوات والموارد الحربية التى ربما كان يستطاع الانتفاع بها — تـُرِكت من غير عناية وتدريب . وحتى اللمبارديون لم يلعبوا عقب أيام مايو الشهيرة — حينما خرج السكان على الحامية النمساوية وطردوها من بلادهم ملحقين بها خسائر فادحة — حتى هم لم يلعبوا غير دور ثانوى فى المراحل الأخرى من الحرب ضد النمسا .

٢ — دور مملكة سردينيا

شارل ألبرت يعلن الحرب

ولكن كانت هناك نواة واحدة يمكن أن تلتفّ حولها مقاومة إيطالية منظمة فعالة لجيش الاحتلال الأجنبى : وهذه النواة هى جيش مملكة سردينيا[٢]. فقد انضم ملكها شارل ألبرت إلى حركة الولايات الإيطالية فى خروجها على النمساويين . وأعلن الحرب على النمسا فى ٢٣ مارس سنة ١٨٤٨ . وقد كسب عدة انتصارات على عدوه فى بادئ الحرب ، ولكنه أضاع فرصته بعدم مواصلته القتال بلا هوادة إلى أن يُطرد النمساويون من أرض إيطاليا . وبذلك أعطى لخصمه العنيد الماكر المارشال رادتزكى فرصة ثمينة تلقّى فيها إمدادات قوية ، وبذلك تمكن من سحق قوات البندقية والولايات الإيطالية ولمبارديا ، ثم ضرب جيش شارل ألبرت ضربة قاصمة فى موقعة كستزا Custozza

(١) Quadrilateral ، وهى المدن المحصنة الآتية : فيرونا Verona وبشيرا Peschiera ولجناجو Legnago ومنتوا Mantua .

(٢) ويطلق عليها أيضاً اسم «مملكة بيدمنت» .

(فى ٢٥ يوليو سنة ١٨٤٨) . فاضطر شارل إلى عقد هدنة ڤيجڤانو Vigevano فى ٩ أغسطس سنة ١٨٤٨ .

تجدد القتال

ولكن الحرب تجددت فى ١٣ مارس سنة ١٨٤٩ بين الفريقين . فقد عامل النمساويون سكان الولايات الإيطالية الخاضعة لحكمهم ، وبخاصة اللمبارديون ، بعنف وقساوة بالغين . وكان شارل ألبرت يتحرق شوقاً لغسل عار هزيمة كستزا ، وانتُخِب مجلس نيابى فى بيدمنت ذو أغلبية حرة . غير أن مجرى الحرب خيب آمال الإيطاليين . فقد هُزم الجيش البيدمنتى فى معركة نوڤارا Novara الفاصلة فى ٢٣ مارس سنة ١٨٤٩ . فاضطر الملك المهزوم الكسير القلب إلى التنازل عن العرش لابنه ڤكتور عمانوئيل Victor Emmanuel ولجأ إلى البرتغال .

بيد أنه رغم تباطؤ جيش شارل ألبرت فى الدخول فى المعركة ، ورغم بطئه فى الانتفاع بفرصه ، فإنه قدَّم إلى مدى بعيد أفعل تحدٍّ جابهه العدو . وحتى بعد هزيمة نوڤارا لم يكن ثمة رجل معقول يتطرق إلى ذهنه أى ريب فى أن من بيدمنت — ومن بيدمنت وحدها إذا أمكن ذلك — يستطيع أن يخرج جيش لتحرير إيطاليا . فإذا كان جيش تلك المملكة الألبية الصغيرة قد أساء قيادتَه ملكُها المشوش التفكير المعذب النفس ، فإنها ناضلت حتى النهاية ، وتحملت تضحيات عظيمة تفوق طاقتها ، فى قضية تهم كافة الأمة الإيطالية .

دستور سنة ١٨٤٨

ومع أن شارل ألبرت ترك ابنه يحكم مملكة خرجت من الحرب مقهورة ، إلا أنه تركها بعد أن منحها فى ٤ مارس سنة ١٨٤٨ دستوراً حر المبادئ ، بلغ من متانة أركانه أنه عمر إلى أيام موسولينى . وقد أجيد وضع أحكامه بحيث شيد بنياناً تمكنت بيدمنت بمقتضاه أن تصبح بإرشاد كاڤور العبقرى وهدايته البالغة البراعة أشد ولايات إيطاليا عصرية ، وأعلاها كعباً فى مدارج التقدم .

البابا والوطنيون

أما فى مدينتى روما والبندقية الخالدتين ، فإن حركة البعث الإيطالية سلكت فى ذلك الحين طريقاً عجيب الأحداث خالد الذكرى . فإن رسالة پيو نونو

التى أذاعها فى ٢٩ إبريل سنة ١٨٤٨ كانت بمثابة تلميح إلى العالم بأن البابا لا يستطيع أن يساهم بنصيب فى توحيد إيطاليا . فكانت النتيجة الحتمية لهذا التصريح ، حسب منطق الوطنيين الإيطاليين ، أنه لا مندوحة بعد الآن من أن تحكم سلطة زمنية الولايات البابوية كجزء مكمل للدولة الإيطالية الجديدة . فقد كان من نافلة القول فى نظرهم الكلام عن دولة إيطالية متحدة إذا ظل يفصل بين شرقها وغربها أراضى حاكم يستنكر حرب التحرير ، وقد يخال نفسه مطلق اليد فى تأييد العدو . وقد أحس بهذا المنطق الصارم الغوغاءُ الغلاظُ الأكباد فى روما . فاغتالوا فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٤٨ فى رائعة النهار رُسِّى Rossi الوزير المستنير الذى كان پيو نونو قد استدعاه إلى جانبه . فلاذ البابا بالهروب إلى غيتا Gaeta من موقف أصبح عاجزاً عن السيطرة عليه ، تاركاً الثورة فى روما تجرى شوطها المحتوم ،

إعلان الجمهورية فى روما

وطبعت الأحداث التى تعاقبت بعد ذلك أثراً عميقاً فى أذهان الإيطاليين . فقد دعيت جمعية تأسيسية فى سنة ١٨٤٩ . وكان من أعمالها سحب السلطة الزمنية من البابا ، وإعلان جمهورية فى روما ، وتشكيل حكومة ثلاثية على رأسها مازينى لحكم الدولة الرومانية الجديدة . ولكن مغامرة كهذه تقوم على تحدٍّ سافر للكنيسة الكاثوليكية والولايات الإيطالية الأخرى التى قد تمتشق الحسام تأييداً لها ، كان مقضياً عليها بالفشل الذريع . كما أنه ليس لجمهورية رومانية ، مهما برعت فى الدفاع عن كيانها ، أن تأمل فى التغلب على الأمير لويس بونابرت رئيس الجمهورية الفرنسية الذى كان يتوق يومئذ إلى كسب رضا الناخبين الكاثوليك فى بلاده بتقديم مساعدته إلى البابا ، أو ترجو التغلب على إمبراطور النمسا الذى عقد نيته على استعادة نفوذه فى إيطاليا . وقد حدث بالفعل أن حطم الفرنسيون تلك الجمهورية فى ٣٠ يونيو سنة ١٨٤٩ .

ولكن جمهورية روما ، وإن كانت قصيرة الأجل ، إلا أنها كانت حادثاً خالداً جليل القدر لسببين : فقد كتب مازينى بعد انهيارها يقول « كان من الضرورى إنقاذ روما ، والارتقاء بها مرة ثانية إلى القمة ، حتى يتعلم

الطليان أن يعتبروها مرة ثانية قصبة بلادهم وكعبة آمالهم المشتركة » . والحق أن هذه العبارة تنم عن بصيص من التبصر الصحيح بشؤون السياسة . فإن إنشاء الجمهورية الرومانية التى استبسل الإيطاليون فى الدفاع عنها ، واستخفوا بالمخاطر فى الوقوف ضد جيش أودينو Oudinot الفرنسى المنظم ، أيقظ فى عقول الأمة الإيطالية الفكرة بأن روما قد تغدو ثانية حاضرتهم السياسية : وهى فكرة وإن قُسِم لها ألا تتحقق إلا سنة ١٨٧٠ ، إلا أنها بقيت ماثلة منذ سنة ١٨٤٨ فى أذهان ذلك الشطر من الأهلين الذى كان يخفق فؤاده للمطامح القومية .

ظهور غاريبالدى

أما السبب الثانى الذى جعل الجمهورية الرومانية خالدة الذكر بين أحداث حركة البعث الكبرى ، فهو أن الرجل الذى قاد المدافعين عنها كان غاريبالدى Garibaldi (١٨٠٧ – ١٨٨٢) ، ذلك الزعيم الأشقر العظيم للكتائب غير النظامية : ذلك الرجل الذى كان يمقت القساوسة ، ويتعبد أمام محراب الحرية ، والذى رجع إلى إيطاليا بعد حياة زاخرة بالأخطار والمغامرات فى أمريكا الجنوبية ، لكى يعين على جعل وطنه المحبوب جمهورية حرة . فقد ظهر يومئذ بأتباعه الجفاة الخشنين ذوى القمصان الحمر على المسرح الإيطالى ، واحتل مكاناً رئيسياً بين اللاعبين .

ومع أن غاريبالدى كانت تنقصه كل النقص الفطنة السياسية : فلم يكن قطباً من أقطاب الأقلام الإيطاليين كمازينى ، أو سياسياً داهية ككافور ، إلا أنه كقائد للجند غير النظاميين ، وكزعيم قادر على إذكاء الإيمان السياسى والحماس المضطرم فى ضلوع أتباعه السذج البدويين – إنه يدانى فى العظمة أبطال ملاحم هوميروس . فقد آثر أربعة آلاف متطوع أن يتبعوه فى خروجه من روما ، بدلا من أن يسلموا أسلحتهم للعدو فى أرض الوطن ، وأن يسيروا وراءه فى تراجعه عبر إيطاليا : ذلك التراجع التاريخى الحافل بالعديد من الأحداث الرائعة الفذة ، وذى النهاية المفجعة . فكسب بذلك ثقة الوطنيين الإيطاليين وإعجابهم الفائق .

جمهورية البندقية

أما جمهورية البندقية فمع أنها صمدت فى وجه محاصريها النمساويين حتى

٢٤ أكتوبر سنة ١٨٤٩ ، إلا أنها لم تكن لها فرصة حقة للبقاء بعد هزيمة سردينيا فى معركة نوفارا . ولكن عبرة الحرب ظلت شاخصة غير منسية فى مخيلة مانين المحامى الألمعى الذكى الفؤاد ، المنحدر من سلالة إسرائيلية . فقد وضح له من فشل حركات الإيطاليين فى روما والبندقية أن إيطاليا لن تستطيع الوصول إلى الاتحاد إلا بقوات مملكة سردينيا ، وبعون فرنسا ، لا وفق خطة مازينى . فقد شاهد هزيمة شارل ألبرت ومصرع إيمانه بأن فى مقدور إيطاليا أن تخلص نفسها بنفسها — شاهدهما فى ساحتين من ساحات القتال المرير الخائب .

فقُضِى بذلك القضاء المبرم على القائلين بمبدأ العزلة ، وكذلك قُبِرت الفكرة بأنه فى حيز الإمكان ضرب جيش قوى منظم ضربة قاصمة بواسطة فرق العصابات الجمهورية . ومن ذلك الحين حلت روح جديدة من اغتنام الفرص فى سياسة الحزب الإيطالى الوطنى مكان التحمس غير الفطن والحمية القصيرة البصر اللذين جرا إلى هزائم عام ١٨٤٨ النكراء . وليس ثمت مثال خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر لاستبدال الفطنة السياسية التى لا تحفل إلا بالواقع بالتحمس الأعمى للجمهورية ، خير من مثال تحوُّل مانين خالق جمهورية البندقية ، إلى اعتناق فكرة عقد تحالف بين ڤكتور عمانوئيل ونابليون الثالث .

كتب يمكن استشارتها

Bolton King : A History of Italian Unity. 1924.
G.M. Trevelyan : Manin and the Venetian Revolution of 1848. 1923.
G.M. Trevelyan : Garibaldi. 1933.
W.R. Thayer : The Dawn of Italian Independence.
Mazzini : Essays, translated by T. Okey. 1894.
E L. Woodward : Three Studies in European Gonservatism. 1929.
J.A. Hübner : Une année de ma vie. 1848—91.

الفصل الرابع عشر

الثورات فى النمسا وألمانيا

النمسا فى عهد مترنخ . قوسوط . الثورة الديمقراطية . أمانى السلاف والمجر . الرجعية فى بوهيميا وهنغاريا . انتصارات فندشجراتز ويلاسيك . حكمة شفارتزنبرج السياسية . الثورة الألمانية . سحق المبادئ الحرة . برلمان فرنكفورت يقرر إقصاء النمسا ورفض النظام الجمهورى . فردرك وليم الرابع . فوز الرجعية فى برلين . المنافسة بين بروسيا والنمسا . انتصار النمسا فى ألمتز . أتوفون بسمارك . الفلسفة البروسية للدولة .

١ — قيام الثورات فى النمسا والمجر

رجعية الحكومة

كانت حكومة الامبراطورية النمساوية حكومة مستبدة بطيئة الخطى ، تنزع إلى السرية ، ويضرب فى أطنابها الاختلال ، ولو أنه كان يخفف من ثقل وطأتها ألوان من الإهمال والاستهتار والعبث . وقد لُفَّت لفاً محكماً بطبقة فوق طبقة من التقاليد والشكليات ، وحُجبت حجباً كاملا فعالا عن روح التقدم والتحسين ، حتى أن ضروب الاستثناءات والشذوذ والمساوئ التى استؤصلت منذ أمد طويل فى الدول الغربية ما برح يستفحل شأنها فيها استفحالا عظيماً . فقد كان نبلاء النمسا والمجر يتمتعون بكل شكل من أشكال الامتيازات الهدامة : فكانوا معفون من الخدمة العسكرية ، مستثنين من الضرائب ، بعيدين عن متناول المحاكم وسلطتها ، على حين كانت طبقة الفلاحين ترسف فى أصفاد العصور الوسيطة . وكان الأباطرة يتعاقبون على عرشها الواحد تلو الآخر . وقد خلف الآن فردينندُ (١٨٣٥—١٨٤٨) الأبله السفيه فرنسيسَ القليل النباهة والذكاء .

وتُرِكت مشكلة الفلاحين ، التى كانت تقتضى تعديلا أساسياً فى

نظام الحكومة المحلية فى الامبراطورية — تُركت من غير حل . إذ كان مبدأ السياسة النمساوية فى عهد مترنخ هو أن يدع الفتنة نائمة . وكانت تحكم الامبراطورية شرطة هى أقسى أترابها فى أوربا ، وأفظعها وحشية ، وأشدها قمعاً : ترسل عيونها إلى كل ركن ، وتتجسس على كل أمر ، محاولةً إبعاد سموم الفكر الغربى المخاتل الخداع عن أهل ڤينا الموفورى الهمة والنشاط .

استيقاظ الشعب

غير أن نظاماً كهذا النظام لن يدوم أبد الدهر . فلقد شرعت جمعيات وتشكيلات جديدة مختلفة الرأى : منها المتشائم المستهزئ ، ومنها الحر المنشئ ، ومنها العنصرى المناضل — شرعت تظهر فى ضوء الحياة فى العقد الرابع من القرن الماضى . فأضحى الأسلوب السائد على أحاديث أهل الثقافة فى ڤينا هو الاستهزاء بالحكومة ، والحط من قدرها . وهبت هبوباً قوياً روح العنصرية من بولندا ، وتسربت المبادئ الحرة كأنها رذاذ أمطار خفيفة من باريس ولندن . وتقدم « الديت » الهنغارى المنعقد فى برسبرج بطلب استعمال اللغة المجرية عوضاً عن اللاتينية فى مداولات المجلس ، وببرنامج كامل واف من الإصلاحات الاجتماعية .

العداء العنصرى

وبازدياد روح العداء الجنسى فى هنغاريا ، أخذ يتفاقم ذلك العداء فى تلك الأرجاء من المملكة الهنغارية التى تقطنها الأجناس غير المجرية : كالكرواتيين والصربيين فى الجنوب ، والفلاحين الرومانيين فى ترنسلڤانيا فى الشرق ، والروتيين فى الشمال ، والسلوڤاكيين فى الغرب . وجاشت الآمال فى الصدور ، وبلغت روح القومية المثقفة القديمة التى بدأت تتخذ نزعة سياسية بين أمة التشك — بلغت نقطة جديدة من نفاد الصبر ، والتطلع إلى مستقبل جديد .

قوسوط

وكان كبير مثيرى هذه الحملات الشعواء الجديدة ، وموقظ فتنتها ، لويس قوسوط Louis Kossuth (١٨٠٢ — ١٨٩٤) ، الذى وجه فى بادئ الأمر ملكاته الباهرة كخطيب مفوه ، وصحافى قدير ، إلى العمل على استبدال اللغة المجرية باللغة اللاتينية فى الديت الهنغارى ، ثم استخدم

تلك المواهب فى حملة حماسية رائعة قام بها للمطالبة باستقلال هنغاريا . فأذكى فى كل صقع من أصقاع الامبراطورية أوار اللهب الكامنة لعنصرية عنيفة جامحة هدامة . وما وافى ربيع سنة ١٨٤٨ حتى كان هذا الزعيم الشعبى القوى قد قضى ثمانى سنين يبشر بمبادئه القومية الراديكالية للجموع الكبيرة من بنى جلدته الشامخين بأنوفهم العنيفى المزاج .

الثورة الديمقراطية

وانقضّت ثورة فبراير التى اندلعت فى باريس انقضاض الصاعقة على حكومة مثل حكومة النمسا ، تهاجَم وتُنهش من كل ناحية ؛ وأدى شغب لم يدم سوى يوم واحد (١٣ مايو سنة ١٨٤٨) تزعمه أساتذة الجامعة وطلبتها ، ومن ورائهم سكان ڤينا المدنيون يؤيدونهم ويشدون أزرهم — أدى هذا الشغب إلى انتهاء حكم مترنخ ووقوع ڤينا فى قبضة الدهماء ، وأناخت الفوضى والخلل بالحكومة الامبراطورية المركزية ردحاً من الزمن .

ولكن بدأت فى الحال تظهر للعيان المشاق التى تكتنف حكم الامبراطورية النمساوية المتشعبة الأجناس المختلطة الملل . فقد استسلمت الأوتقراطية المستبدة ، وأبعِد الوزراء القدماء ، وشرعت تحكم الآن فى ڤينا لجنة مركزية للدفاع عن حقوق الشعب ، وانتُخب بالاقتراع العام برلمان للنمسا كلها ، عدا هنغاريا . وأخذ هذا البرلمان يشتغل فى وضع دستور . وكان الشطر الرئيسى من الجيش مشغولا فى إيطاليا .

وهب نسيم الحرية المطهِّر الذى عم ألمانيا ، فوق جميع عواصم الامبراطورية النمساوية أيضاً ، مثيراً فى أذهان المتعلمين فيها رغبة مشتركة فى إنشاء حكومة دستورية ونيل الحريات المدنية ، ورفع المظالم التى يشكو منها الفلاحون ، ووضع خاتمة للحكم الأوتقراطى . ولاح فى هذه الظروف أن تحولا كاملا شاملا للدولة النمساوية على نُمُط حرة دستورية هو أمر ميسور فى حيز الإمكان . وكانت النفوس مفعمة بالآمال وساد التفاؤل القلوب ، وبدا الوقت موافقاً مواتياً .

خفق القلوب بالآمال

ففى براغ وبرسبرج — كما فى ڤينا — شاع أمل قوى ، وسادت ثقة

عامة بإمكان تحقيق شتى الإصلاحات العديدة ذات النفع الجزيل فى خلال هذه الفترة من تعطيل سلطة الإمبراطور . كما أن هذا الأمل لم يخب خيبة تامة . فإن من أفضال الرجال الذين تزعموا ثورة سنة ١٨٤٨ ، سواء فى البرلمان النمساوى أو فى البرلمان الهنغارى ، أنهم أخذوا يعالجون مشكلة الفلاحين فى إقدام وجسارة . فألغوا صنوف السخرة التى كانت ترهق كواهل الفلاحين ، وألغوا الفوارق القانونية بين النبلاء والعامة . وأسدوا فى بحر شهر واحد من الخير الدائم لسكان الريف فى الإمبراطورية النمساوية أكثر مما ناله الريفيون منذ أيام الإمبراطورة مارية تريزا (١٧٤٠ — ١٧٨٠) .

ولكن فوق هذا الأمل الجميل المنشود من التقدم الدستورى، خيمت سريعاً سحابة قاتمة . فقد كان من أسباب ضعف الامبراطورية النمساوية الخاصة بها ، كما كان من أقوى الحجج ضد إحداث أى تغيير فى أنظمتها ، قيامُ النزاع العنصرى بين أجناسها المختلفة ، علاوة على شكاوى الأفراد والطبقات . فإنه سرعان ما طُرِحت المسألة الدستورية على بساط المداولة، حتى شرع كل جنس من أجناس الإمبراطورية يطالب لنفسه بمركز مأمون فى التصميم العام الجديد لبنيان الدولة النمساوية الجديدة . وكان البلاط الإمبراطورى مغلول اليد فى مقاومة هذه التطورات الضخمة الكبيرة ، بل وحتى فى التأثير فيها . فقد مُنِحت الحكومة المؤقتة فى هنغاريا حق السيطرة على جيشها وسياستها الخارجية، ووُعِد البوهيميون بمنحهم برلماناً مستقلا ، وهيئات محلية مستقلة .

النزاع بين أجناس الإمبراطورية

بيد أنه ظهرت على الفور سلسلة جديدة من المشكلات البعيدة الأثر العظيمة القدر . فقد كان هنالك كثيرون من الألمان فى الامبراطورية النمساوية ممن كانوا يرضون كل الرضا بتحويل سلطان الدولة من يد وزراء الامبراطورية الذين يتبعون السرية فى سياستهم ، إلى برلمان حر تنتخبه دائرة واسعة من الناخبين ، طالما بقيت إدارة دفة السياسة كما كانت فى أيدى الألمان . ولكن القليل منهم كانوا يطيبون نفساً إلى انفصال هنغاريا عن النمسا ، أو إلى

تنفيذ دستور يخول لسلافيي الإمبراطورية سلطاناً يتناسب مع تفوقهم العددى . فقد يرضى الألمان بأن يقيم البوهيميون حكومة دستورية لهم فى مقاطعاتهم ، ولكان أين هو الألمانى الذى كان يستطيع وقتئذ أن ينظر نظرة رضاً وقبول إلى مؤتمر الجامعة السلافية الذى دُعِى للانعقاد فى الثانى من شهر يونيو سنة ١٨٤٨ ، للنظر فى إمكان إنشاء اتحاد من جميع الأجناس السلافية ؟ فإن اتحاداً مثل هذا — لو تم — كان معناه انحلال الامبراطورية العاجل . فإنه منذ القرن السابع عشر كان إخضاع التشك البوهيميين ركناً أساسياً من أركان السياسة النمساوية وشرطاً جوهرياً لاستتباب السلامة الداخلية . كما كان النمساويون الألمان — الذين لم يكونوا قد فقدوا بعد خيلاءهم واعتدادهم القديم — يعتبرون تطلع هذا الجنس من الفلاحين ذوى التقاليد السقيمة الخاضعين لزعامة فئة صغيرة من الشعراء والقاصّين واللغويين إلى أن يصير حجر الزاوية فى النفوذ السلافى والثقافة السلافية فى أرجاء الامبراطورية ، لا إلى التمتع بالحكم الذاتى وحسب — كانوا يعتبرون تطلعهم هذا دعوى باطلة يجب القضاء عليها مهما كلف الأمر .

أما منح الحكم الذاتى لهنغاريا ، فكان النمساويون الألمان ينظرون إليه نظرة تختلف بعض الشىء عن نظرتهم إلى استقلال التشك . فلقد كان الهنغاريون فى جميع الأزمنة جنساً حاكماً لم يخضع قط لنير أجنبى . ولكنهم كانوا يعتبرون — ويعتبرون بحق — تخويل الهنغاريين حق تجنيد جيش مستقل ، وصك عملة مستقلة ، ورسم سياسة خارجية مستقلة ، ضربة شديدة لاتحاد الامبراطورية وإنقاصاً محسوساً جلياً لقوتها . ولهذا فإن حبوط الثورة فى الامبراطورية النمساوية يرجع إلى هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن الثورة جرت فى ذيولها ظهور مثل هذه السياسات ووجهات النظر المتباينة

انتصارات فندشجراتز

وبدأ رد الفعل يبدو فى منتصف الصيف . ففى ١٧ يونيو سنة ١٨٤٨ . صوّب الأمير ڤندشجراتز Windischgrätz مدافعه على مدينـــة براغ . وبضربه إياها ضرباً حامياً سحق عصيان بوهيميا ، وأجّل بهذا العمل مدة

سبعين عاماً تحقيق استقلال التشك ونيلهم حرياتهم .

وأدخل هذا الانتصار الشجاعة فى بلاط الامبراطور ، كما ملأته أملا الأخبار الطيبة التى أخذت تصل إليه من نابلى وروما ومن ساحة كستزا بانتصارات جيوشه الظافرة . فشرع يوجه اهتمامه بعد ذلك إلى المعضلة الأشد خطورة : وهى معضلة الهنغاريين . ولكن فى هذه المغامرة التى زادت من صعابها الفوضى الضاربة وقتئذ أطنابها فى ڤينا ، جاء العون إلى الحكومة الإمبراطورية من جانب السلافيين والرومانيين ، إذ كانوا يمقتون مقتاً شديداً سادتهم المجر الذين تحكموا طويلا فى رقابهم. ولقد كان بنوع خاص أهل كرواتيا — ذلك الإقليم فى المملكة الهنغارية الذى كان فيه السلافيون أفضل بنى جيرتهم نظاماً ، واقواهم اتحاداً ، وأشدهم بأساً ، وأعلاهم كعباً فى الحضارة — كانوا يحقدون على النبلاء المجر حقداً دفيناً مريراً .

فقد رُفع فى الديت الكرواتى ، الذى عقد فى أجرام Agram عام ١٨٤٨ ، كثير من الاحتجاجات الشديدة على إلزام الكرواتيين باستعمال اللغة المجرية. ولذا كانت السياسة التى دُفعت الحكومة النمساوية إلى انتهاجها — وكانت سياسة فظة مقيتة بلا ريب — هى أن تؤلب الكرواتيين على المجر، وتدعو السكان السلافيين والرومانيين فى الامبراطورية إلى أن يسددوا بالربا الفاحش ديون المظالم والإساءات الفادحة التى لحقتهم على أيدى أعدائهم . والحق أن الحكومة النمساوية لمدينة إلى هذه السياسة بإطالة عمرها .

قمع يلاسك ثورة المجر

وتجسمت كراهية الكرواتيين للمجر فى شخص يوسف يلاَّسيك Josef Jellacic وهو كولونل فى الجيش النمساوى ، لم تكن تتوق نفسه إلى شىء أكثر من إرغام الهنغاريين على القتال ، وتحطيمهم فى ساحة الوغى ، وإعادة سلطان الإمبراطورية على بلادهم . وكانت الحكومة الإمبراطورية تدرك نفع هذا الجندى الكرواتى المحبوب الذى كانت كلمته وحدها كافية لأن تضمن لها ولاء الجند الكرواتيين الذين يقاتلون معه فى إيطاليا ، وكانت على ثقة من أنهم سيسيرون الآن تحت علمه لقهر أعدائهم .

ولذا عينته حاكما لكرواتيا ، على الرغم من احتجاج زعماء المجر . فسار زاحفاً على بست[١] على رأس أربعين ألف مقاتل .

ورأى الهنغاريون أنه لا مفر من القتال . فاضطرمت القلوب حماساً ، وقبض قوسوط وأتباعه الديمقراطيون على زمام الأمور فى هنغاريا ، ودبت فى الحال روح عطف قوية على قضية المجر فى نفوس أحرار ڤينا الذين لما رأوا أن هنغاريا قد صارت فى قبضة الأحرار الهنغاريين الأمينة ، اعتقدوا أن تحالفاً وثيقاً مع هؤلاء الأتراب البواسل هو آخر فرصة تقدم نفسها لهم لإنقاذ قضية الحرية . غير أن قوات الإمبراطور كانت متفوقة تفوقاً عظيما . ففى اللحظة التى كان يخمد فيها ڤندشجراتز فى سهولة ثورة أهل ڤينا ، كان يلاسيك يهزم فى سهل اشفيخات Schwechat فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٤٨ قوة هنغارية كانت تسير لنجدتهم .

بهذا الفوز المزدوج تدفق تيار الرجعية بقوة جارفة : فأزهقت أنفاس الديمقراطية فى ڤينا ، وانصرم حبل التقدم الدستورى . وكان إعدام روبرت بلوم Robert Blum [٢] مذكراً أليماً بأن النمسا تسير الآن فى طريق التأخر .

حكمة شفارتزنبرج

وخلّص الجيشُ الإمبراطوريةَ من خطر الانقسام وتفرق الكلمة . وظهر الآن فى صفوفه سياسى خطير فذ تمكن بتفكيره الجسور ، وذهنه المبتكر ، من أن يقطف ثمار النصر ، ويؤمن سلامة كيان الدولة . وهـذا السياسى هو الكونت فلكس شڤارتزنبرج Felix Schwarzenberg الذى ظهر على مسرح السياسة النمساوية سنة ١٨٤٩ ، وهصرت المنون حياته سنة ١٨٥٢ . ففى خلال هذه الأعوام الثلاثة تمكن هذا الأرستقراطى الطموح الصلف من إرغام الإمبراطور فردينند الأبله على التنازل عن العرش ،

---

(١) هى قصبة بلاد المجر القديمة وتؤلف جزءاً من حاضرتها الحالية بودابست .

(٢) كان مندوب برلمان فرنكفورت إلى ڤينا . وقد ساهم فى الدفاع عنها .

وأجلس فى مكانه ابن أخيه فرنسيس چوزف Francis Josef ، وحطم بمساعدة جيش روسى ثورة الهنغاريين ، وأدخل مبدأ المركزية فى نظم الإمبراطورية ، ولم يخش أن يواجه فى ديسمبر سنة ١٨٤٨ خطر الاشتباك فى حرب مع بروسيا كى يعيد تفوق الامبراطورية النمساوية القديم فى الاتحاد الألمانى القائم وفق معاهدة سنة ١٨١٥ .

عطف الأحرار على هنغاريا

وقد اجتاحت دول غرب أوربا موجة من العطف العميق على مأساة الهنغاريين ، الذين وإن كانوا قد حكموا الأمم التى خضعت لهم حكماً استبدادياً قاسياً ، إلا أنهم بتقاليدهم الحرة فى الجدل والنقاش ، وفى نضالهم العنيد فى سبيل الحرية الشخصية والحكومة النيابية المسئولة ، يُعَدون أعضاء فى زمالة الارتقاء والحرية . وكما تتبع الناس فى إعجاب ونشوة عميقين حملات القائدين جورجى Gorgei وبم Bem الباسلة ، وحماسة قوسوط وشجاعته فى بسط المبادىء الراديكالية ، وإنشاء الهنغاريين بإرشاده ومشورته جمهوريتهم ، كذلك قوبلت بالاستياء الشديد والجزع العميق أنباء تسليم جورجى فى ڤلاجوس Villagos فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٤٩ ، والعقوبات المروعة التى أُنزلت بجيشه المنهزم .

وقد بذرت ألوانُ التطرف التى ظهر بها الانتصار النمساوى فى ذلك الحين بذور المتاعب المقبلة للنمسا . وكان من الأسباب غير الضئيلة القدر التى من أجلها أيد الشعب الإنجليزى بقلبه حرب القرم إحساس الحنق على روسيا للدور الأثيم الذى لعبته فى خنق حرية هنغاريا واستقلالها ، وفى إحكام الأغلال النمساوية حول أعناق الأمتين الإيطالية والألمانية .

٢ ــ الثورة الألمانية

العمل للوحدة والحرية

أما فى ألمانيا حيث لم تكن هناك مشكلات جنسية ، ولا مسائل تتعلق برفع نير أجنبى ، فقد اتخذت النزعة الثورية ، التى كانت لا تقل قوة فيها عما ظهرت به فى النمسا وإيطاليا ــ اتخذت شكل العمل فى سبيل الوحدة والحرية .

نعم ، وُجد جمهوريون فى ألمانيا وخاصة فى الجنوب الغربى منها ، وكانوا جمهوريين نزقى الرأى ، يجنحون بطبعهم إلى النضال ، ولكن حزبهم كان أقلية بشكل جلى . فقد كان معظم الألمان فى مطلع سنة ١٨٤٨ مصلحين ، وكان معظم المصلحين أحراراً ، وكان معظم الأحرار يؤمنون بالوحدة الألمانية ، إلا أنهم كانوا يؤمنون بأن ألمانيا لا تستطيع أن تتحد وفق المبادئ الحرة ، إلا عن طريق برلمان ينظم الأمة الألمانية بأسرها ، ويُنْتَخَب انتخاباً حراً ، ويستقل استقلالا تاماً عن الديت الألمانى العقيم الفائدة الذى فرضه على البلاد مؤتمر ڤينا .

برلمان فرنكفورت

فتشجع زعماء الألمان الأحرار بعزل لويس فيليب ، ودعوا — ولكن من غير أن يضمنوا تأييد الأمراء لهم — دعوا برلمانياً تمهيدياً للاجتماع فى فرنكفورت لإعداد العدة لانتخاب جمعية وطنية ، كان يُرْجَى أن تخرج من مداولاتها السلمية ألمانيا جديدة . والتأم عقد هذه الجمعية فى ١٨ مايو سنة ١٨٤٨ . وكانت تحوى بعضاً من أكرم الشخصيات ، وأنبل العقول فى ألمانيا ، كما كانت عامرة بالحماس والطموح والعمل الصادق ، لا تقبل ضيما ولا إساءة من أجنبى ، شديدة الاهتمام بتوسيع سلطان ألمانيا ونفوذها . وبعد مداولات متشعبة محكمة اتسمت بالجد الكبير ، أخرجت دستوراً ديمقراطياً لألمانيا المتحدة : دستوراً كان أبرز وأثمن ظاهرة فيه بنود طويلة من الأحكام المدققة لحماية الحرية الشخصية .

غير أن عمل هذه الجمعية كان مجهوداً ضائعاً . وإنها حقاً لمأساة من مآسى التاريخ الحديث أن هذه الجمعية التى قامت على موجة طاغية واسعة النطاق من التحمس والوطنية عجزت عن إنجاز واجبها الذى فرضته على نفسها ، وأن اتحاد ألمانيا تم وأكمِل لا عن طريق المناقشات البرلمانية والأخذ والعطاء البرلمانى ، بل عن طريق الدم والحديد اللذين استُنفِدا فى حروب أهلية وأجنبية .

ويجدر بنا أن نعدد هنا فى إيجاز علل هذا الخطب الكبير الذى ابتليت به الحرية الألمانية . فإن الجمعية الوطنية بفرنكفورت مع تمثيلها خيرة العقول الألمانية المثقفة للطبقات الرسمية وأصحاب المهن الحرة ، أخفقت إخفاقاً غير

قليل فى تمثيل طبقات النبلاء والعمال وأصحاب المصالح الكبرى فى عالمى الأعمال والمال . ومع عدم استكمال تأليف هذا البرلمان من هذه الناحية ، وكذلك من ناحيتى التقاليد النيابية والنظام الحزبى ، فقد جابهته فى مستهل حياته مسألتان جد معقدتين ، كان الأمل فى حلهما يومئذ حلا سلميا من الضآلة بمكان ، وهما : ما الشكل الذى يجب أن يعطى لألمانيا الجديدة ، وهل يجب أن تشمل الدولة الألمانية الجديدة الإمبراطورية النمساوية كلها ، أوتحوى الشطر الألمانى منها فقط ؟ أو هل تُترك النمسا الألمانية خارج صرح الدولة الألمانية الجديدة ؟

وقد أجيب بالسلب دون تردد على السؤال الأول . فلم تكن ثمت تضحية كبيرة فى نظــــر هؤلاء المشرِّعين الألمان أن يأبوا ضم التشك والمجر والكرواتيين والرومانيين الذين كانوا خاضعين لإمبراطور النمسا إلى حظيرة الأسرة الألمانية . بيد أن الاقتراح الثانى الخاص بإقصاء النمسا الألمانية عن ألمانيا قوبل بمعارضة جدية عنيفة . فقد ارتفعت الأصوات متسائلة كيف يمكن أن يُحتمل نبذ ثمانية ملايين من الرجال والنساء الألمانيى الجنس من الريخ الألمانى ؟ فإن المثاليين الذين كانوا يتطلعون إلى قيام دولة جامعة للشعوب الألمانية ، والكاثوليك الذين كانوا يبتغون تقوية مذهبهم ، وحكومات الولايات الصغرى التى اعتادت أن تنظر إلى النمسا كمِجَنّ لها ضد صولة البروسيين غير المحبوبين — اتحدوا جميعاً لمقاومة الاقتراح القائل بإبعاد ألمانيى النمسا . وشعرت الجمعية بخطورة هذه المعضلة وعسرها ، فتحاشت فى الأشهر الخمسة الأولى من عقدها النقاش فى القواعد الأساسية لبناء الحكومة الألمانية المستقبلة . وفى الوقت الذى كان فيه كل شىء يتوقف على السرعة ، تباطأ عن عمد مشرعو برلمان فرنكفورت .

مشكلة إنشاء اتحاد ألمانى وثيق العرى

وكانت هناك مشكلة أخرى تكاد تدانى المشكلة الآنفة عسراً وشدة . فقد كانت ألمانيا وقتئذ اتحاداً تعاهدياً يتألف من دول ذات سيادة ، تهتم كل منها إلى أقصى حدود الاهتمام بالاحتفاظ أشد المحافظة بحقوقها وامتيازاتها . ولكن لم يكن ممكناً الوصول إلى اتحاد ألمانى جديد أعظم تماسكا وتراصاً من

الاتحاد القائم ، إلا إذا قبلت الدول الأعضاء إنقاص سلطاتها المستقلة بعض الإنقاص . ولكن أيمكن أن تتغلب على الولايات روح من التضحية والبذل مثل هـــذه ؟ وإذا كان فى الإمكان التطلع إلى الولايات الألمانية الصغيرة بأن تغلّب هذه الروح فى سياستها ، فهل يُنتظر من الممالك الألمانية ، كبروسيا وبافاريا أن تقدم هذا البذل ؟

وحزر برلمان فرنكفورت أنه لن يستطيع التقدم فى أعماله ، بانتهاجه طريقة المشاورة الانفرادية مع كل حكومة من الحكومات الثمانى والثلاثين التى تؤلف الاتحاد الألمانى . فإن التأخيرات ستكون غير محدودة ، وفرص الاتفاق بعيدة نائية . وبجانب ذلك فإنه كان شأناً جوهرياً يهمّ أعضاؤه أن يقوموا بوضع دستور للدولة الألمانية الجديدة بصفة كونهم الممثلين الشرعيين للأمة الألمانية . بيد أنه ماذا يكون موقفهم لو أن حكومات الولايات لم تقبل قراراتهم ؟ فقد كان هذا طارئاً محتملا ، بل لقد كان طارئاً مرجحاً حقاً . ولهذا السبب فإنه بعد أن قررت الجمعية — ولو أن قرارها كان بأغلبية أربعة أصوات فقط — إقصاء النمسا من الاتحاد القادم ، عقدت العزم فى حكمة على أن تدعو أقوى سيف فى ألمانيا إلى نصرتها والدفاع عن عملها . فعرضت تاج الاتحاد على ملك بروسيا.

فردرك وليم الرابع

ولكن ملك بروسيا فردرك وليم الرابع (١٨٤٠ — ١٨٦١) كان حاكماً مزهواً مختالا ، متشعب النزعات والأهواء ، ميالا إلى الخيال والمغامرة ، جم الاطلاع ، ولكن من غير ثبات رأى ، أو استيعاب واف لشئون السياسة . فقد انقلب فى وجيز وقت حماسُه الفتىّ المتقلقل من تأييد مبادىء الحرية إلى اعتناق مذهب الحق الإلهى للملوك . وقللت من مدى نفعه خِلّة هى أقتل ما يكون فى الحاكم الأنانى : وهى امتلاكه ناصية فصاحة متحذلقة . فإنه عند اعتلائه أريكة العرش سنة ١٨٤٠ ، أخذ يتلاعب بالأفكار الحرة والإصلاحات الدستورية . فقُدّمت مقترحات عديدة للاصلاح خلال السنين السبع الأولى من حكمه ، ولكن لم ينفّذ منها شىء ، ثم أجبرته قوة الرأى العام على أن يعقد فى برلين فى فبراير سنة ١٨٤٧ أول برلمان بروسى (ديت) .

وقد اجتمع هذا البرلمان وسط فوران روحى غير عادى ، وادعى لنفسه حق سن القوانين ، ومراقبة مالية الدولة ، والتصديق على القروض العامة . وكانت هذه الادعاءات بدعاً مزعجة لفردرك وليم . فما كان منه إلا أن حله فى يونيو من العام نفسه . ولكنه واجه فى مارس سنة ١٨٤٨ ثورة خطيرة ، بعد أن فقد شيئاً كثيراً من سمعته الإصلاحية ، بسبب معاملته غير المشرِّفة للبرلمان .

فتنة برلين

ففى مارس عام ١٨٤٨ : هذا العام الذى عم فيه الاضطراب والفوضى كل مكان تقريباً ، شبت فتن خطيرة سُفِكت فيها دماء غزيرة فى شوارع برلين من جراء تأخر فردرك وليم فى منح الإصلاح المنشود . ولكن هذا العاهل الذى كان شديد الرغبة فى التمشى مع التيار ، أوقف القتال ، ووعد بدعوة برلمان . وعند ما عادت الأمور إلى مجاريها ، سار فى ٢١ مارس فى شوارع قصبة ملكه ، مرتديا البزة الألمانية القديمة ذات الألوان الثلاثة : الذهب والأبيض والأسود . وأعلن أنه من اليوم ستُدمَج بروسيا فى ألمانيا الكبرى . ولكن الأمر كان يحتاج إلى أكثر من تلويح بليغ لظهور بروسيا بمظهر المتكاتف المتضافر مع الحركة الحرة الكبرى للوحدة الألمانية بفرنكفورت .

بيد أن هذا الملك كان لا يزال أوتقراطياً فى دخيلة قلبه ، وكان جيشه لا يزال عظيم الولاء لعرشه ، ولا يخصص نفسه لخدمة سيد سواه ، وكان وجوه دولته لا يزالون غير مقتنعين بأن ثمت أى نفع يمكن أن تجنيه بروسيا من وراء الحركات الديمقراطية . كما وقف على الدوام بين فردرك وليم والأحرار الألمان حائل منيع من الحقد وعدم الثقة : هو الدم الذى أهرق عند متاريس شوارع برلين . ومن سوء الحظ لم يكن هناك فى الديمقراطية المرتجلة التى قامت فى الحاضرة البروسية ما يعين على حلّ ما بينهم من خلاف .

فوز الرجعية

وأخذ الملك فى قصره بُبتْسْدام يراقب فى استياء متزايد مشاغبات الشوارع غير المنقطعة ، والحماقة الطائشة لبرلمان نزق متسرع ضئيل الاختبار ، وأخيراً

دبت فى نفسه الشجاعة لضرب ضربته ، عند ما بلغه نبأ إخضاع أهل ڤينا وقمع فتنتهم . ففى الثانى من شهر نوفمبر سنة ١٨٤٨ بدأ ينتهج طريقاً رجعياً : فعزل وزراءه الأحرار ، وحل الحرس المدنى ، وفضّ البرلمان . وفعل هذا كله ، دون فقدان حياة واحدة أو إطلاق طلقة واحدة ، وذلك بمؤازرة الجيش القوية ، وبتسليم أشد طبقة وسطى فى أوربا وجلا وتهيباً .

رفض فردرك وليم مقترحات فرنكفورت

وحدث أن فردرك وليم استلم –بعد إحرازه هذا الفوز الرائع الذى صيّره مرة أخرى سيد البلاد – استلم دعوة برلمان فرنكفورت لأن يقبل عرش الإمبراطورية الألمانية . ولهذا أبى وتنكر[1] ، وأجاب أن الملك لن يقبل تاجاً غير مرفوع إليه من الأمراء ، ودستوراً لم تقره حكومات ألمانيا . وقد حدس أن مقترحات برلمان فرنكفورت تحمل فى ثناياها موافقة على مبدأ الديمقراطية الأثيم ، كما تحمل فى طياتها نضالا مسلحاً أكيداً مع النمسا ، بل ومن المحتمل مع روسيا أيضاً ، وتنطوى على كثير من الارتباكات المقلقة داخل الريخ الألمانى ذاته . ولذا بدلا من أن يضع على مفرقه التاج الامبراطورى ، ويتخذ لنفسه لقب إمبراطور ألمانيا ، وفق دعوة مجلس نيابى يحس نحوه بالازدراء وعدم الثقة لأنه مجلس أقر منح الأمة حق الانتخاب العام والاقتراع السرى للناخبين – بدلا من أن يفعل فردرك وليم ذلك ، آثر أن يبقى السيد المتفرد لرعاياه البروسيين المخلصين ، ويدمر عمل فرنكفورت ، ويقضى فى الحال على تلك المشروعات التى ترمى إلى قيام ألمانيا متحدة حرة ، والتى أذكت حمية كثير من الرجال الأشراف النفوس ، العامرى الوطنية ، وأثارت نشاطهم وجهودهم . وأخذ الفلك يدور دورته ، وتجمع الرجعية قواها وبطشها . فتمكن الجيش البروسى من سحق الفتن فى سكسونيا وبادن وهانوفر ، وكسب بذلك اعتراف جميع الأمراء الألمان الذين كانوا يهلعون فرقاً من فقدان عروشهم – كسب اعترافهم بهذا الصنيع الجميل واليد البيضاء .

---

(١) فى إبريل سنة ١٨٤٩ .

النضال بين شفارتزنبرج وفردرك وليم

ولكن بعد أن هدأت ريح الثورة ، ألفى الملك البروسى نفسه وجهاً لوجه أمام شفارتزنبرج ، سيد دولة نمساوية ناهضة . فقام نضال خالد بين سياستى هذين الحاكمين المتضاربتين ، أسفر فى النهاية عن هزيمة بروسيا هزيمة سياسية بالغة الإذلال لها . ذلك أن فردرك وليم افترض أن النمسا غدت الآن خارج نطاق الريخ ، وأن الديت الألمانى القديم قد مات واندثر ، وأن فى مقدوره أن يكوّن بمحض رغبة حكومات الولايات الألمانية اتحاداً ألمانيا جديداً تحت زعامة بروسيا . ولهذا دعا برلماناً اتحادياً للانعقاد فى إرفرت ، واقترح وضع دستور اتحادى ، وأفلح فى أن يضم تحت رايته ثمانى وعشرين ولاية من الولايات الألمانية الصغيرة ، وإن كان قد أخفق حقاً فى أن يضم إلى جانبه — كما كان يأمل — مملكة واحدة من الممالك الألمانية الأربع .

صلح ألمتز

بيد أن شفارتزنبرج عارض أشد المعارضة هذه السياسة برمتها . ورفض رفضاً باتاً أن يفكر لحظة واحدة فى أى مشروع يقضى بإقصاء النمسا عن ألمانيا ، وأصرّ على إرجاع الديت الألمانى تحت زعامة النمسا ، وطلب من بروسيا التخلى عن عصبتها الجديدة من الأمراء ، متوعداً إياها بالحرب إذا هى رفضت . وفى هس — كاسل Hesse-Cassel وقفت النمسا — بصفتها وكيلة عن الديت الألمانى القديم — بجانب أميرها المستبد الغشوم ، على حين ناصرت بروسيا رعاياه المظلومين . وكانت قوات الدولتين المتنافستين على شفا الاشتباك معاً . ولكن الحرب تُجنِّبت ، إذ رأى فردرك أن جيشه ليس بكفء لمنازلة خصمه . واضطرت بروسيا إلى شراء صلح مزرٍ فى ألمتز Olmütz (٢٥ نوفمبر سنة ١٨٥٠) بتسليمها الكامل بمطالب النمسا .

أتوفون بسمارك

وكان بين المراقبين لهذه الحركات شاب من وجوه بوميرانيا ، عضو فى برلمان برلين . وقد أبان فى هذه الأزمة عن شجاعة فى الرأى ، وفصاحة فى اللسان ، وقوة فى الإيمان جعلت له سلطة ونفوذاً فاقا كثيراً ما للوزراء عادة منهما : هذا هو أوتو فون بسمارك Otto Von Bismarck الذى كُتِب له أن يكون من أعظم الشخصيات فى تاريخ بروسيا . ولقد أوتى قوة بدنية

فائقة ، وكان خطيباً ذرباً قوياً ، وخيالاً محبباً مرحاً ، ولغوياً ماهراً . ولد مطبوعاً على أفانين السياسة وحيلها ، وجمع فى شخصه جميع المناقب التى يتصف بها السياسى الداهية ، مع بسطة فى المطامع ، وبساطة فى الأغراض ، ضروريتين لأسمى أشكال السياسة الرشيدة الفطنة .

وكان يبتغى هو أيضاً قيام اتحاد ألمانى . ولكنه لم يكن يرغب فى أن يتم ذلك بتضحية الملكية البروسية ، أو الجيش البروسى ، أو التقاليد البروسية . ولقد قال : « إننا نصبو جميعاً إلى أن ينشر النسر البروسى جناحيه كدرع وحاكم من ميونخ إلى دنرسبرج Donnersberg ، ولكن يجب أن يكون مطلقاً من كل قيد ، غير مشدود إلى ديت متحكم جديد . فإننا بروسيون ، وسنظل بروسيين » . ولقنته المبادئ المحافظة الموروثة القوية التى يتحلى بها أعيان البروسيين أن مستقبل بلاده سيتشكل ، لا بخطب الساسة الأحرار الذين يقلدون النظم البرلمانية الإنجليزية تقليداً أعمى ، وإنما بالنظام العسكرى الصارم . وقد ملأ قلبه فرح طاغ ، وابتهاج شديد ، لفشل برلمان فرنكفورت ، وإخفاق خطط مليكه فى إرفرت . فإنه لم يكن فى مقدوره أن يطيق فكرة وجود برلمان يعلو سلطانه سلطان ملك بروسيا ، ومن حقه أن يحرك جندياً من جنود الجيش البروسى ، أو مدفعاً من مدافعه . ولذا أشار — مخالفاً رأى رادوفتز Radowitz كبير وزراء بروسيا — بإبرام صلح مع النمسا . فإنه مهما كان ذلك الصلح مهيناً مزرياً ببلاده ، فقد يكون خيراً من هذا الهدف البغيض ، وهو حبس النسر البروسى فى قفص عصبة ألمانية .

٣ — تطور المنافسة بين النمسا وبروسيا

تطور المنافسة

وباختفاء مترنخ ، وظهور بسمارك فى الميدان السياسى ، تطورت المنافسة بين النمسا وبروسيا ، وهى المنافسة التى ترجع إلى عام ١٧٤٠ حينما سلب فردرك الثانى سيليزيا من مارية تريزا ، والتى تطورت بخطى سريعة مدبرة إلى نهاية عنيفة فى ساحة سادوا Sadowa سنة ١٨٦٦ ، حيث هزم البروسيون

النمساويين ، ودحر العالم الجديد العالم القديم ، وبدفعة هائلة فكّ الريخ الألمانى قيوده من سيطرة النمسا القديمة التى لم تتمكن حتى مطرقة نابليون الجبارة من تحطيمها . وتمكن البروسيون بأسلحتهم الدقيقة الفتاكة من إقصاء روح مترنخ المسيطرة بعيداً عن نطاق الريخ الألمانى ، وذلك بطريقة أفعل وأدوم مما أسفرت عنه ثورة ڤينا سنة ١٨٤٨ .

مترنخ

بيد أن نظام مترنخ جلب لأوربا سلاماً دام أربعين عاماً ، فكسب لهذا الزعيم السياسى أكاليل المجد والفخار من جيل ما زالت ويلات الحرب وخطوبها عالقة فى ذهنه . وكان مترنخ متصفاً بمناقب كثيرة تجعله زعيما سياسياً عظيما : كان ذا شخصية جذابة لامعة ، هادئ الطبع رابط الجأش ، ذا اطلاع واسع المدى ، وإرادة ثابتة لا تتزعزع ، وحماس شديد . ولقد بلغ مركزه ذروة رفيعة كمحرر بلاده من قبضة نابليون ، وكالمعمارى الأول لأوربا الجديدة . وكانت الثقة التى أولاه إياها العالم الناطق بالألمانية تكاد تكون غير محدودة . وفى مجالس الحكام المستبدين وندواتهم ، كان عقله الأداة الموجهة ، حتى أن الحقبة بين سنتى ١٨١٥ و ١٨٤٨ لم تُدعَ بعصر مترنخ من غير حق .

خطأ سياسته

ولكن هذا الأرستقراطى العريق ، ذا الأخلاق المستبيحة المستهترة ، والمبادئ السياسية الدقيقة الحازمة ، والنفوذ الواسع المدى المترامى الأطراف ، كان يعمل ويكد تحت تأثير عيب من أكبر العيوب الذهنية التى تنحرف بفكر سياسى عظيم ، وتبعد أحكامه عن محجة الصواب : ذلك أنه لم يستطع أن يشق طريقاً وسطاً بين الثورة والأوتقراطية . ولما كانت الثورة كريهة بغيضة إلى نفسه ، وجّه جهده إلى قمع ما يُعَدّ روح الحياة الإنسانية ولبها ، إذ جاهد فى إزهاق روح الحرية ذاتها .

خوفه من روح القومية والتجديد

ومن جهة أخرى اتخذ نظام مترنخ نهجاً معارضاً لنزعة فكرية خطيرة الشأن نامية الأثر . فقد شُيِّدت الإمبراطورية النمساوية على أساس من قمع القومية . وكان فضلها — كما زعم البعض — يقوم على هذه الحقيقة : وهى أنها حزمت معاً فى اتحاد سياسى دينى مالى واحد عدداً من الأجناس كانت

عداواتها المتبادلة أقوى دعائم الإمبراطورية. ولم يكن هذا الاتحاد سهلا يوماً من الأيام . وزادته صعوبة ومشقة روحُ القومية التى أطلقت الثورة الفرنسية عقالها فى أوربا . فقد قال الإمبراطور فرنسيس الثانى مرة : « إن دولتى تشبه بيتاً نخره السوس ، فلو نزع منه جانب ، لما أمكن لأحد أن يتكهن أى الجوانب الأخرى سوف تنهار منه » .

ولذا عقد مترنخ تصميمه على ألا يخاطر بشىء . فلم يطرأ خلال الفترة التى كان ممسكاً فيها بزمام الأمور فى النمسا أى تغيير جوهرى فى إيطاليا أو فى هنغاريا أو فى بوهيميا ، أو فى ممتلكات التاج النمساوى السلافية والألمانية . كما أنه لم يهمل اتخاذ كل حيطة ضد غمرة التجديد . فالكاهن الكاثوليكى كوّن الضمير وشكّل العقل ، ورجل الشرطة الكاثوليكى أوقف تسرب الأدب السياسى من دول الغرب ، والجندى الكاثوليكى وقف متأهباً ليحمى بحسامه ذمار دولة تألفت من زيجات الأمراء ، ولا تعرف من المبادىء السياسية سوى مبدأ الطاعة والخضوع للعرش . ولم يكن فيها برلمان حر ، أو صحافة حرة ، أو جامعة حرة ، أو حتى إدارة حكومية مستنيرة يمكن لشعوبها أن تتلقن على يديها أبسط المبادىء الأولية للتربية السياسية .

بروسيا

ولكن على النقيض من النمسا كانت بروسيا . فقد كانت أوثق منها تضامناً ، وأكثر كفاءة ، وأعلى كعباً فى مدارج التقدم . نعم ، بقيت الصناعة فى أكثر نواحيها تسير على المستوى والأشكال الأهلية القديمة ، يعوزها الفحم ورأس المال ، وينقصها التنظيم ، وبلغ من درجة تأخرها فى شوط التطور والارتقاء ، أنه فى سنة ١٨٤٠ ، كان أقل من ٤٠ ٪ من أنوال النسيج التى تملكها تدار بالبخار . ولكن كانت قد وُضِعت من قبل نظم تساعد على التقدم الصناعى والتجارى .

الزلفرين

وفى سنة ١٨١٨ أسّس « زلفرين » Zollverein ، أو اتحاد جمركى . ويرجع أكبر الفضل فى قيامه إلى ماسن Massen وزير مالية بروسيا فى ذلك الحين . وكان يقصد من ورائه ضم الممتلكات البروسية المبعثرة

بعضها إلى بعض بتعريفة جمركية منخفضة . وقد بلغ من نفع هذا الاتحاد الجمركى ، ونفع الطرق البروسية الجديدة ، وخلاص ذلك القطر من المكوس الدخولية والرسوم الجمركية فى داخل أرضه ، أنه أفلح فى خلال ثلاثين عاماً فى جذب جميع الولايات الألمانية إلى الانضمام إلى ذلك الاتحاد الجمركى. وبهذا العمل الجليل وُضِعت أسس دولةٍ ألمانية متحدة تحت هيمنة بروسيا على دعائم متينة قوية .

مزايا بروسيا

ثم ظهرت بشكل واضح على مر الأيام مزايا أخرى لبروسيا أعانتها على تبوؤ مركز الزعامة فى الأمة الألمانية . فقد كانت النمسا كتلة غير متجانسة من الولايات المتعددة اللغات ، وكانت مشغولة بمشكلاتها الداخلية الشائكة التى جرّتها فى ذيولها محاولتُها مصالحة شتى أجناسها بعضها ببعض . وبينما كانت النمسا تنجذب أكثر فأكثر صوب الشرق ، أخذت مصالح بروسيا تتركز داخل نطاق الريخ الألمانى نفسه . وعلى حين كانت سياسة النمسا فى عهد مترنخ موجهة إلى هذا الهدف البسيط : وهو قمع جميع الميول القومية والحرة فى بلادها ، والمحافظة على سلطان ملكية مطلقة ، وكنيسة مطلقة ، بواسطة نظام شرطى صارم ، فإن سياسة بروسيا كانت مشبعة بالغيرة العلمية ، مشربة بروح عملية تنزع إلى التقدم .

فبين حكومة ليس لها مذهب سياسى إلا مذهب الطاعة والامتثال ، وحكومة تعمل وتجد لتنمية ثروة الأمة المادية ، وارتقائها فى سلم العلوم والمعارف ، لا يمكن أن يقوم تكافؤ وتوازن . ولهذه الأسباب فإن الحقبة التى جاءت بين عام ١٨١٥ وثورة عام ١٨٤٨ ، تكاد تخلو من سناء المجد . بيد أنها تبرز كفترة استعداد تُهيأ فيها العدة لاتحاد ألمانيا تحت التاج البروسى .

الفلسفة البروسية للدولة

وفى خلال تلك الحقبة ظهرت وتطورت فى بروسيا نظرية من نظريات الحكم ابتدعها فيلسوف عظيم . ونظراً لأنها تتفق كثيراً ومبادئ الشعب البروسى الخلقية ونظمه ، تمت لها الغلبة فى وقت قصير على النظريات الأخرى. ثم ذاعت بعد ذلك طولا وعرضاً كعنصر أساسى فى نظام كامل من المثالية

الفلسفية . فقد دلل هجل بكل قوة ذهنه الماضى الذكاء على المبدأ القائل بأن الدولة هى : « إله يمشى فى الأرض » ، وأن الدول أعظم من عهودها ، وأن الحق يجب أن يُدعَم بالقوة ، بل إن الحق هو القوة . وبينما كان بنتام الفيلسوف الانجليزى يدلل على أن غاية الدولة يجب أن تكون الحصول على أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد ، جهر هجل بأن رخاء الأفراد وسعادتهم يجب ألا يؤبه لهما إذا ما تعارضا مع عظمة الدولة . فالقوة فى نظره أمر مسوغ . وبما أن الدول قامت على القوة ، فالحرب هى جزء من متطلبات السياسة والسعادة القومية . ونادى بأن العالم موضوع فى المركز الذى ينبغى أن يكون فيه . وقال : بما أن الروح هى التى تحكم العالم ، فكل ما هو ناجح لا بد أن يكون حسناً طيباً ، وأن غاية الدولة لا يمكن أن تكون الإحسان والجود العالمى ، بل ينبغى أن تكون دائماً هى سعادتها الخاصة بها وحدها . والهيئة العليا التى فوق الدولة هى عالم الأرواح التى تزن الدولة بمدى نجاحها .

ومن السهل أن يشاهد المرء الخلاف الحاد الذى لا مفر من أن يشجر على الدوام بين هذا الإدراك النفسى الغامض للدولة — هذا الإدراك الذى وضعها فى مصاف الآلهة — وبين النظرية المستمدة من مبادئ روسو التى تعد الدولة نتيجة عقد اجتماعى قائم على محض الاختيار والرضا . ففى نظر هجل أظهر الله نفسه فى طبقة نبيلة أو حاكمة . لا يصيبها الضعف والقصور إلا عن طريق الانتخابات الشعبية .

وعلى حين شُيِّدت الديمقراطية الفرنسية على كتابات روسو ، فإن مذهب الدولة الفائقة القدرة والسلطان : وهو المذهب الذى شاع بين البروسيين ، وجد خير ناصر ومحبذ له فى تعاليم هجل . وتوارى منطق الطغيان والاستبداد تحت قشرة ذهبية رقيقة من الجمال الخلقى للبذل والإيثار . فالدولة فى نظره هى الله . وباسم هذا الشىء المبهم غير المحسوس يجب على ملايين البشر أن يعدوا أنفسهم للعمل ، وتحمل الآلام ، وتجرع غصص الموت .

هذه هى الفلسفة الاسبرطية لشعب أخذت تهيىء له المقادير السبل لزعامة ألمانيا.

كتب يمكن استشارتها

Metternich : Mémoires. 1880.
J. Maurice : The Revolution of 1848. 1857.
Bismarck : Thoughts and Recollections 1933.
J.W. Headlam-Morley : Bismarck. 1899.
H. von Sybel : Deutsche Geschichte in 19 Jahrhundert.
Leger : Histoire de l'Autriche Hongrie. 1920.
C.G. Macartney : Hungary. (Nations of the Modern World Series) 1934.
F.W. Newman : Select Speeches of Kossuth. 1853.
C. Grant Robertson : Bismarck. 1918.
Hegel : Philosophie des Rechts. 1821. tr. 1896.

الفصل الخامس عشر

خاتمة الإمبراطوريتين الإيبريتين

ثورة المستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى أمريكا . خصائص الحكم الأسبانى فى أمريكا الجنوبية . أهمية الجزويت . نصيب انجلترا فى حروب استقلال أمريكا الجنوبية . حكومة البوربون العائدة فى أسبانيا . الحاجة إلى التعليم الشعبى . إهمال الأحرار الأسبان حساب الروح الإقليمية فى بلادهم . موازنات فى التاريخ الأسبانى . تناقص نفوذ أسبانيا العام .

١ – ثورة المستعمرات الأسبانية والبرتغالية

أهمية نتائجها

كان من بين النتائج الهامة لحروب الثورة ونابليون فصم العرى التى كانت تربط أسبانيا والبرتغال بأملاكهما عبر البحار . وكما كان تأسيس الولايات المتحدة حدثاً من أعظم أحداث القرن الثامن عشر السياسية ، كذلك كان تحرر أمريكا الجنوبية والوسطى من سيطرة أوربا فى الربع الأول من القرن التاسع عشر حادثاً كسبت فيه قضية التحرير من ربقة الاستعمار انتصاراً آخر . ومع ذلك فالتاريخ لا يعيد نفسه البتة . فإن قصة انفصال المستعمرات الأسبانية الأمريكية لا تشبه إلا فى القليل الظ وف التى أحاطت بثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية .

موازنة بين ثورتى أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية

فعلى حين أزاح أهل المستعمرات البريطانية عن كواهلهم نير مملكة كانت قد خرجت منذ سنين قليلة ظافرة منتصرة فى حرب أوربية عظمى ، فإن الضربات الأولى فى سبيل استقلال أمريكا الجنوبية أوقعها نابليون بأسبانيا والبرتغال اللتين كانتا قد انحدرتا إلى أسفل درك من التدهور والمهانة . وكانت الحجـــة التى تذرع بها الأمريكيون الشماليون لإضرام نار الثورة هى فرض ملك مستبد ضرائب مجحفة غير دستورية عليهم . أما

الأمريكيون الأسبان فلم يتقدموا بأعذار دفاعية كهذه ، بل إنه بدلا من اعتراضهم على السلطات الاستبدادية التى تمتع بها ملوك أسبانيا الشرعيون ، كان من دعاويهم الأصلية لتبرير ثورتهم ، أن فرديننـد السابع الذى كان يمثل الأوتقراطية القديمة ، أبعـد من منصبه واستعيض عن حكمه بنظام ديمقراطى أقامه مغير فرنسى .

خفة وطأة الحكم الأسبانى

وكان مجلس الدولة المهيمن على شؤون المستعمرات الأسبانية هيئة فضولية مربكة . ومع ذلك فإن سجلات مستعمرتى المكسيك وبيرو المليئة بالأوامر الملكية ، تشهد بعناية ذلك المجلس واهتمامه الفائق بشؤونهما . ولم يكن أهل المستعمرات يحسون بمضايقة شديدة من هذا الحكم الاستبدادى الذى حشر نفسه فى الكثير من شؤونهم . إذ كان يلطف من حدة ذلك الحكم بعد الشقة بين المستعمرات وبين الدولة المستعمرة ، وكان يخفف من وطأته الفساد والرشوة الضاربان أطنابهما . وكان أهل المستعمرات يجدون فى الإهمال والتكاسل المنتشرين فى الدولتين المستعمرتين منفذاً للتملص من طغيان الدولة الحاكمة . فلقد كان سكان المستعمرات الأسبانية من الوجهة النظرية أشد شعوب البسيطة خضوعاً لنظم حكومية بالغة التحكم ، ولكنهم كانوا فى الواقع يفعلون ما يهوون . وقد يكون حكام المستعمرات أفراداً ظالمين مشتطين ، ولكن الظلم الآتى من أسبانيا نفسها كان طفيفاً يكاد لا يشعر به .

نعم ، كان للإمبراطورية الأسبانية نقطها السوداء : كقيام السخرة فى مناجم بيرو وفى الأعمال العامة الكبرى فى المكسيك ، كما أن الرجل الحر المذهب ينظر نظرة سخط واستنكار إلى نظام كان يرغم السكان الهنود على التعبد أمام مذبح الكنيسة تحت تهديد السياط ، ويخضع أفكار الناس لسلطانها الصارم . بيد أن الأسبان كانوا يبسطون ألوية السلامة والأمن — وهما نعمتان من أجل النعم — فوق جميع ممتلكاتهم المترامية . وكان السكان الذين تألف شطر منهم من أصل أسبانى ، وكان شطر آخر خلاسيًّا ، وثالث هنديًّا ، ورابع زنجيًّا — كانوا يخضعون جميعاً لنظام واحد مشترك من الأنظمة

الحكمية والدينية . ولم تكن أمريكا الجنوبية خلال حكم أسبانيا والبرتغال إياها أشد اضطراباً أو أقل رضا وقناعة مما هو حالها خلال المائة عام الأخيرة التى قبضت فيها العناصر الأوربية على زمام السلطة فى أقطارها . والحق أن نتيجة ثورة المستعمرات الأسبانية كانت الاستعاضة « بالسلام الأسبانى » ، الذى نشر ألويته عليها ردحاً طويلاً من الزمن ، بعصر من الحروب المضطرمة بين دولها المختلفة ، وقيام الفتن والثورات الداخلية التى لم تبلغ بعدُ نهايتها .

أما الولايات المتحدة فقد أسسها رهط من المستعمرين الإنجليز الذين وقفوا معاً كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والذين رضعوا جميعاً لبان الحرية وتقاليدها ، وقد انحدر كثيرون منهم من أسلاف غادروا أوطانهم خلال حركة دينية مفعمة بالقنوط والسخط الشديدين . أما الأسبان والخلاسيون الذين استعمروا نصف القارة الجنوبى ، فلم يكونوا مشربين بهذه التقاليد وتلك الروح المنطوية على التمرد والعصيان فى وجه الضيم والتعسف ، ولم يكن لهم ذلك التراث من الحرية الدستورية الذى كان لأترابهم الإنجليز فى الشمال . وكان يُنظر إلى المستعمرات الأسبانية ، لا كمستعمرات معدة لسكنى مهاجرين أحرار من الوطن الأم ، بل كضياع مَلَكية . وكانت الإقامة فيها تُعتبرَ امتيازاً لا يمنح إلا بإذن خاص من صاحب التاج الأسبانى .

أهمية الجزويت

وكانت فكرة إبادة السكان الهنود الأصليين ، أو جعل أمريكا الجنوبية قطراً أسبانيًّا صميماً « يسكنه مائة فى المائة من الأمريكيين الأسبان » — كانت فكرة بعيدة كل البعد عن الفلسفة الكاثوليكية للمَلَكية . فقد كان الأسبان يتسربون إلى تلك المستعمرات ، كما يتسرب اليهود اليوم إلى فلسطين . ذلك أن المبدأ السياسى الذى كان يُفرض أن المستعمرات تحكم بمقتضاه هو أن يكون الشطر الأكبر من السكان هنوداً وخلاسيين مولدين رُوِّضوا بنشاط الفرق الدينية المتواصل ، ودعايات طوائف الرهبان التى لا تكل ، على الولاء للتاج الأسبانى . وفى هذا الميدان لعب الجزويت دوراً رئيسيًّا . ولذا فقدت تلك المستعمرات عند طردهم منها سنة ١٧٦٨ أقوى وسائل التعلم والتهذيب

التى غرست باطراد فى النفوس واجب الطاعة للعرش الأسبانى . ولم تُعوّض هذه الخسارة قط . فكما أن فتح البريطانيين لكندا الفرنسية أضعف من قوة البواعث التى ربطت المستعمرات الأمريكية بالمملكة الأم ، كذلك أوهن طرد طائفة الجزويت من المستعمرات الأسبانية بعد ذلك الفتح بسنين أربع من ولائها لأسبانيا .

نصيب إنجلترا فى حروب استقلال المستعمرات

ولقد ثأرت إنجلترا لنفسها من أجل العون الذى قدمته أسبانيا لمستعمرات انجلترا الأمريكية فى ثورتها فى القرن الثامن عشر . إذ لعبت انجلترا دوراً كبيراً فى تحرير أمريكا الجنوبية من حكم المملكتين الإيبريتين . فحطم أسطول إنجليزى الشطر الأكبر من الأسطول الأسبانى فى معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥ . وحينما غزا القائد الفرنسى چينو Juno البرتغال سنة ١٨٠٨ ، نقل الأسطول البريطانى البيت المالك البرتغالى إلى منفاه فى البرازيل . وكان أول حافز للأرجنتين على الثورة ضد أسبانيا هو نزول حملة بريطانية فى بيونس إيرس سنة ١٨٠٦ . وكان أمير بحر إنجليزى (كشرين) هو الذى طرد الأسطول الأسبانى من المحيط الهادى ، وعاون على تحرير شيلى سنة ١٨١٨ ، وبيرو سنة ١٨٢٤ . وكانت قوة إنجليزية مؤلفة من ستة آلاف من المغامرين هى التى كونت نواة الجيش الذى بواسطته خلق بوليڤار جمهورتى ڤنزويلا وكولمبيا سنة ١٨٢١ ، وكان سياسياً إنجليزياً ، هو جورج كاننج ، الذى أعلن سنة ١٨٢٣ فى نشوة عمت ندوات الأحرار فى لندن ، وبلهجة حماسية ، تصميم إنجلترا القاطع على الاعتراف باستقلال جمهوريات أمريكا الجنوبية المحررة ، ودعا العالم الجديد إلى النهوض والتقدم كى يبرئ العالم القديم من أسقامه . وحينما حضرت بوليڤار الوفاة سنة ١٨٣٠ كان الجزء الجنوبى من نصف الكرة الغربى قد تقسم — بمساعدة الشعوب الأنجلوسكسونية وتأييدها الخفيين إلى حد كبير — إلى عدد من الجمهوريات المستقلة .

وهكذا تجدد بين الشعوب الأنجلوسكسونية والإيبرية ذلك الكفاح القديم الذى بدأ فى عهد الملكة أليصابات ، متخذاً الآن أشكالا وأساليب

جديدة . وعند ما توقف الإنجليز عن القتال ، واصله أهل الولايات المتحدة . فضموا ولايتى كليفورنيا والمكسيك الجديدة إلى بلادهم سنة ١٨٤٨ ، ثم جزر كوبا والفيلبين بعد خمسين عاماً من ذلك . ولذا يرفع الكتاب الأسبان عقيرتهم بالشكوى ، بأن من بين جميع أعداء أسبانيا ، كان الجنس الأنجلوسكسونى الزنديق أشدهم بأساً ، وأقواهم مراساً ، وأكثرهم توفيقاً .

٢ – أسبانيا تحت حكم أسرة البوربون

عدم تأثر أسبانيا اقتصاديا بفقد المستعمرات

ومع أن فقد المستعمرات جرح عزة الأمة الأسبانية ، إلا أنه لم يلحق أذى برخائها ورغد عيشها . فإن أسبانيا – حسب جميع المعايير الاقتصادية – أغنى وأسعد الآن مما كانت عليه فى أى عهد مضى . فقد تضاعف عدد سكانها ، وزادت منابع ثروتها الداخلية أضعافاً مضاعفة . وتتوارى الآن على جناح السرعة أسبانيا ذات المظاهر التى غلبت عليها فى العصور الوسيطة ، والتى بدت لنا فى حرب شبه جزيرة إيبريا (١٨٠٦ – ١٨١٣) .

تأثر الملكية

غير أنه كان لتحرير المستعمرات الأسبانية نتيجة استمرت مدة طويلة ذات أهمية كبيرة . فإن فقدان إيرادات المستعمرات التى كانت تؤلف عنصراً جوهرياً فى ميزانية الملكية الأسبانية القديمة جعل فردينند السابع وخلفاءه يواجهون ألواناً من الشدائد المتضاربة ، شق عليهم أحياناً كثيرة اختيار أهونها . إذ لكى يدفعوا مرتبات الجند ، كانوا يُدفعون إلى فرض الضرائب على الكنيسة ، فكانت الكنيسة تثير عليهم استياء الشعب . ذلك لأنها لم تكن فى أسبانيا قوة مناهضة للقومية ، كما كان حالها فى إيطاليا . بل على النقيض من ذلك كانت روحَ القومية الأسبانية وعمادها . فإنه على حين أن الأحرار الأسبان لم يستطيعوا أن يبعدوا عن أنفسهم وصمة الاتهام بأنهم مقلدون للراديكاليين الفرنسيين ، وأنهم كفرة زنادقة ، وعالميون فى سياستهم ، فإنه كان يُنظر إلى الكنيسة فى أسبانيا كالمجن الأكبر لمَلكيتها المركزية المطلقة . ويُظن أن على المحافظة على الكنيسة تتوقف قوة أسبانيا واتحادها .

ولكن رغم عدم تكافؤ هذه القوى المتنازعة ، فإن تفوق الكنيسة على خصومها استمر من غير انقطاع . بيد أن الضيق المالى الذى كان يحل بالتاج فى فترات مختلفة ، كان يدفعه أحياناً إلى تقليد الأحرار زمام الأمور . ذلك أن قواد الجيش كانوا يتدخلون مطالبين الملك — وسيوفهم مشهرة — بدفع مرتبات جندهم الضئيلة بفرض الضرائب على أملاك الكنيسة الواسعة .

محاربة الكنيسة الأسبانية للمبادئ الحرة

ويوضح تاريخ أسبانيا السياسى بعد عودة فرديننd سنة ١٨١٤ صعوبة إقامة حكومة من الأحرار ، وممارسة المبادئ الحرة فى هذا القطر الكاثوليكى . ولكن بُذرت بذور الحرية ، والتأم « كورتس » فى قادس سنة ١٨١٢ خلال محنة حرب شبه الجزيرة ، ووُضع دستور ، وأمكن لبعض المبادئ الحرة أن تجد أنصاراً لها فى أقلية موفورة الذكاء والنشاط فى المدن الساحلية وفى الجيش . ومن ذلك الحين لم ينقص أسبانيا — حتى فى أقتم عهود الرجعية — ظهور رجال فيها يركبون المخاطر فى سبيل حكم البلاد حكماً دستورياً ، وإطلاق حرية الصحافة ، وإشاعة التسامح الدينى . بيد أنه طالما كانت الكنيسة تسيطر على التعليم فى أسبانيا ، وتهيمن بقواتها المادية والاجتماعية الواسعة النطاق على الرأى العام ، فلم يكن ثمة فرصة ما لإقامة نظام نيابى سياسى سليم فيها . فحكم إيزابل الثانية الطويل الأمد (١٨٣٣ — ١٨٦٨) كان فى الواقع سلسلة متصلة الحلقات من الدكتاتوريات الحربية ، حتى وإن اتخذ فى الظاهر قالباً دستورياً . وعلى الرغم من أن الجمهورية الأسبانية الأولى (١٨٧٣ — ١٨٧٤) كان يؤيدها إميلْيوا كستلار Emillio Castelar ببلاغته الحماسية ، وحميته المضطرمة ، فقد انهارت لقلة أنصارها الجمهوريين .

الحاجة إلى التعليم الشعبى

فتغيُّر أداة الحكم السياسية ، لم يكن وحده بقادر على ما يظهر ، على حفز الأمة الأسبانية على إبداء ذلك الاهتمام القوى وتلك العناية المتواصلة بشئون السياسة القومية ، اللذين بدونهما يتعذر تسيير الأنظمة الدستورية الحرة . فإنه عند عودة البوربون الأسبان إلى الحكم سنة ١٨٧٤ كُبِح جماح الشعب ، وأُلجم سلطانه بدستور مموه غرار . وأُدخِلت قاعدة الانتخاب العام

سنة ١٩١٠ ؛ ولكن نظراً إلى أن ٦٠٪ من الأهلين كانوا لا يزالون أميين ، نتيجة احتكار الكنيسة لشئون التعليم ، فإن منح البلاد دستوراً وحق الانتخاب العام لم يساعد على خلق حياة برلمانية صحيحة . فمن سكان يربون على العشرين مليوناً ، لم يكن فيهم – طبقاً لتقدير الملك ألفنصو الثالث عشر – سوى زهاء ستة آلاف أسبانى يعنون بالشئون السياسية .

ديمقراطية زائفة

فنى مثل هذه الظروف لم تكن الحياة البرلمانية فى أسبانيا سوى تمويه جميل الصورة . فإن الحكومة القائمة كانت « تطبخ الانتخابات » ، وكان يُنتظر من الملك أن يعطى لكل حزب بالدور حق حل الكورتس وإجراء انتخابات جديدة ، وبذلك يقرر اللون السياسى للمجلس القادم . وكانت نتيجة ذلك أن تعاقبت الوزارات على أسبانيا بسرعة محيرة ، كما أن نظاماً دورياً عقيماً كهذا وُضع لإشباع أهواء الساسة ، حرم الحكومة من كل سلطة لرسم سياسات جريئة واسعة المدى لنفع البلاد ، وشل يد البرلمان عن العمل فى فترات الأزمات الحقيقية . ولم يكن العلاج الناجع لهذا الداء هو إنشاء دكتاتورية – كما حاول ألفنصو الثالث عشر بين سنتى ١٩٢٣ و ١٩٣٠ ، حينما عطل الدستور ، وخول الجنرال بريمو دى ريڤيرا سلطات مطلقة لحكم أسبانيا – وإنما يكون بتثقيف عقول الأمة وتربيتها تربية سياسية صالحة . ولكن هذه التجربة التى لم تجرها قط الملكية الأسبانية ، حاولت الجمهورية الأسبانية الثانية (١٩٣١ – ١٩٣٧) أن تجربها على الورق على الأقل للمرة الأولى فى تاريخ أسبانيا .

أثر العوامل الطبيعية فى الأخلاق

والحق أن الأمة الأسبانية لم تكن قط أمة يسهل فتحها أو حكمها . فإن مزاج أبنائها المتقلب الثورى ، الذى لاحظه ليڤى المؤرخ الرومانى القديم ، مازال يغلب عليهم إلى يومنا هذا دون أن يطرأ عليه تغيير كبير . فإنه يبدو أن الشمس اللافحة ، والرياح الجافة القاسية المحملة بالرمال ، تؤثر تأثيراً شديداً فى نفوس الأسبان ، بحيث نرى الحركات العنيفة المعذبة للنفس البشرية ، كالشيوعية والاشتراكية والإكليريكية والنقابية[١] تينع وتزدهر فى أعنف

---

(١) Syndicalism

أشكالها فى تربة أسبانيا . وما يقال عن مناخ البلاد ، يمكن قوله أيضاً عن طبائع القوم . فالاعتدال والبعد عن التطرف مجهولان فى تلك البلاد . وليس ثمة أى اتصال بين الأحداث التى تجرى فيها . فالفتنة تعقب الهجعة ، والهجعة تعقب الفتنة من غير تدرج . وتقطع فورات فجائية من الاختلال والفوضى العنيفة فترات طويلة من الركود السياسى .

إهمال الأحرار الأسبان حساب الروح الإقليمية

ولكن إذا كانت العناية برخاء الأمة ما تزال ضعيفة ، فإن شعور الاستقلال الشخصى مكين فى النفوس ، والتعلق بالحريات المحلية يكاد يبلغ الذروة . وإنها لمحنة للحركة الحرة الأسبانية فى القرن التاسع عشر ، أنها نظراً لتأثرها بأحداث فرنسا ، لم تعر هذه الروح الإقليمية القوية اهتماماً — هذه الروح التى هى خصيصة من أقوى خصائص الخلق الأسبانى ، والتى هى قوية بنوع خاص فى أهل الباسك الخاضعين للإكليروس ، والمؤيدين للحكم المطلق ، والذين تغلب عليهم إلى اليوم أحوال العصور الوسيطة . وهى أيضاً قوية فى القطاليين المتطرفين فى الراديكالية والهرطقة . ولقد حاول فرديننذ السابع عبثاً أن يمحو استقلالهم الذاتى بسلسلة من المراسيم صدرت بين سنتى ١٨٢٨ و ١٨٣٣ ، ولكن هذه المشكلة لم تكن لتحل بمثل هذه السهولة . إذ كان التمرد يتلو التمرد ، والفتنة تعقب الفتنة — فى عام ١٨٤٤ ، وعام ١٨٦٣ ، وعام ١٨٧٠ ، وعام ١٨٧٤ — تذكِّر الحكومة بمدريد بشأن هؤلاء الخصوم العنيدين الشديدى المراس القاطنين بساحل أسبانيا الشرقى ، الذين لم يكونوا يحفلون بالنفس والمتاع ، كما كان يحفل أسيادهم القشتاليون . ولهذا تعذر على أسبانيا سحق قطالونيا ، كما تعذر على إنجلترا سحق إرلندا الكاثوليكية . ووجد ألفنصو الثالث عشر والجمهورية الأسبانية الثانية أنفسهما مرغمين على الاعتراف بمطالبهم .

أما الروح الإقليمية لأهل الباسك — وهم شعب أقل عدداً وأضعف قوة من القطاليين ، يسكن منحدرات البرانس — فقد برزت إلى الوجود وصارت قوة يُحسب حسابها لارتباطها بدعوى دون كارلوس وسلالته بأنهم

يمثلون الفرع الشرعى لبيت البوربون الأسبانى . فإن الحرب(١) التى قامت بين دون كارلوس وبنت أخيه إيزابلا التى اعتلت العرش عند وفاة أبيها فرديننـد السابع سنة ١٨٣٣ ، ثم الحرب الثانية(٢) التى قامت بين سلالتى الفريقين ، كانت تزيدهما اضطراماً عداوةُ الباسكيين للقشتاليين . فكما أيدت العشائر الإسكتلندية قضية سلالة جيمس الثانى ، كذلك تألف معظم أشياع دون كارلوس وسلالته من الأنصار الذين كانوا يمثلون المبادئ الإكليريكية والأوتقراطية والرجعية فى ذلك الشعب البدائى الباسل الذى يظن البعض أن لغته هى اللغة الأصيلة للجنس الذى يقطن شبه الجزيرة .

٣ – موازنات فى التاريخ الأسبانى

ضعف نفوذ اسبانيا فى العصر الحديث

وقد لعبت أسبانيا منذ صلح أترخت سنة ١٧١٣ دوراً ثانوياً فى شؤون أوربا ، بعد أن كانت فى بعض عهودها واسطة العقد فى أحداث تلك القارة ، ومهداً لبعض من فحول السياسة وأعلام البيان ، وحصناً منيعاً للمبادىء الدينية ، وكعبة يُحجُّ إليها ، ومنهلا علمياً تُرتشف منه حضارة العرب ، وقصبة متألقة البهاء ذات سؤدد ومجد لإمبراطورية قوية شامخة . فإن البلاد التى أنجبت تراچان وهادريان ومرقس أوريليوس وثيودسيوس الذين حكموا الإمبراطورية الرومانية ، وكونتليان وسينكا ومَرْتيال ولوكان وجيوڤنال الذين زادوا كنوز الأدب الرومانى غنى وسناء – لم تكن تلك البلاد إيالة نائية من إيالات الإمبراطورية الرومانية ، بل كانت قريبة من مركز أعمالها وقلب ثقافتها . بل إن أهمية أسبانيا كانت أعظم حتى من هذا خلال عصور التدين والإيمان ، حينما كانت مبادىء الكنيسة الكاثوليكية فى البوتقة ، وهيكل القديس جيمس الكـَمْبُسْتِلّى يعد بين أقدس أقداس المسيحية ، ثم إبان ذلك التبادل المثمر الطويل بين الحضارتين اللاتينية والعربية – وهو التبادل الذى

(١) من سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٩ .
(٢) ١٨٧٢ – ١٨٧٨ .

انتهى عصره بفتح المسيحيين غرناطة ، ففى جميع هذه العصور كان تأثير أسبانيا عظيما متغلغلا واسع المدى ، سواء بصفتها ركناً أساسياً من أركان الكاثوليكية ، أو الوسيط الذى انتشرت عن طريقه فلسفة أرسطاليس والفكر العربى فى أمصار الغرب .

أهمية أسبانيا فى العصور الوسطى

ومن أسبانيا خرج أيضاً دومينيك الذى سحق الهراطقة الألبيجنيين فى جنوب فرنسا ، وابن رشد صاحب المذهب الفلسفى لوحدة الكون . وعند ما هددت أمواج البروتستانتية المتلاطمة الكنيسة الكاثوليكية بالغرق ، أمر أغناطيوس لويولا « فتراجعت الأمواج » ، وكانت أسبانيا دعامة الحركة العظيمة التى توصف بالحركة المضادة للإصلاح . فلم يكن ثمت صقع لم يصل إليه نفوذها . وإن يراعتى سرڤنتس وكلديرون ، وريشتى ڤلاسكويز وموريللو لتلقى أنوار البهاء وأضواء المجد على أمة كانت تبعث فى النفوس مدى قرن ونيف ، الرهبة والإعجاب بثروتها وصولتها وأطماعها الكبيرة المترامية .

تناقص نفوذ أسبانيا

أما الآن فقد ذهب هذا المجد المتألق ، وانقضت تلك الأبهة الإمبراطورية . ففى مدة حكم بيت بوربون صارت أسبانيا إما دولة تابعة لفرنسا ، أو زميلة لها فى المزاحمة الاستعمارية الطويلة التى نشبت بينهما وبين إنجلترا . وخرجت أسبانيا من حروب الثورة الفرنسية ، وقد برّح بها الوهن حتى لم يعد فى مقدورها أن تُبقِى فى يدها ، أو تستعيد إمبراطوريتها الأمريكية التى أخذت تبعد فى سرعة عظيمة من مراسيها القديمة . كما أخذ تضارب الفلسفات القديمة والحديثة يمزق أسبانيا ، حتى صار لا يهدأ لها بال أو يستقر لها حال . وكذلك أنزل نفوذها فى أوربا إلى الحضيض سلالةٌ متعاقبةٌ من الملوك الحقيرين : فرديناند السابع ، وكريستينا ، وإيزابل .

إن تدهور أسبانيا ما فتئ موضوعاً مطروقاً ، حتى عند الباحثين والمؤرخين الأسبان أنفسهم . فإنهم حينما يتأملون فى الممتلكات الشاسعة التى كانت فى قبضة التاج الأسبانى ، والتى فقدها الأسبان الآن ، سواء من جراء التكاسل والخمول ، أو نتيجة الزهو والصلف ، أو العجز وقلة الكفاية المقرونين بروح

التفريط والإهمال — هذه الخلال التى تكوِّن شطراً من الخلق الأسبانى المتأصل — ثم يجيلون الفكر فى الإمبراطورية الفرنسية الجديدة فى إفريقية ، أو فى الممتلكات المترامية الأطراف التى يملكها الجنس الأنجلوسكسونى ، فإن أذهانهم تتجه إلى الاستنتاج بأن ذلك يرجع إلى تدهور لا يُدرَك كنهه فى النشاط والكفاية القومية . ومع ذلك فليس هناك فى الواقع قرائن تثبت هذا الرأى . وكل ما فى الأمر أنه حدث تغير فى توجيه الأمة ، أكثر من حدوث انحلال فى خلقها .

تفاؤل بعض الأسبان

والمتضلعون فى تاريخ أسبانيا يرون أن الأسبانى فى جميع العصور لم يعتره تغيير ، أو يتطرق إلى نفسه وهن ، فإن مؤلفاً عصرياً اسمه أزورين Azorin ، لا يجد أى داع للقلق والتشاؤم ، بعد أن استعرض أحداث الاستعمار الأسبانى لأمريكا — كما تبسط اليوم — فهو يقول :

« ليس هنالك أى تدهور ، بل إن عالماً جديداً اكتُشِف حديثاً وأنجب عشرين أمة . وكسحت لغة واحدة أمامها العديد من اللغات المحلية الأصلية . وشُيِّدت مشروعات للرى هائلة ، وخُطِّطت الطرق ، وأُزيلت الغابات ، وقسمت الأراضى وزرعت ، وتسلقت الجبال الشاهقة ، ومُدَّت الجسور فوق الأنهر العريضة ، وأنشئت المجالس المحلية فى آلاف المدن والبنادر ، وتغترف جموع غفيرة مناهل العلوم ، وتدب الحياة فى الصناعة والتجارة والملاحة والزراعة ورعاية الماشية فى جانب جديد من المعمورة ، تحمل إلى شعوبه ودوله الثروة والغنى . فمن الذى قام بهذا العمل الضخم الجبار ؟ أهو فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا وروسيا متحدة كلها معا فى هذا المجهود الفريد المارد ؟ كلا . إنها أمة واحدة ، وقد قامت به وحدها ؛ وهذه الأمة هى الأمة الأسبانية . وما عدد ذلك الشعب الذى أسس هذه الأقطار الحديثة العظيمة ؟ إنه ينبغى ألا نقصر نظرنا على أولئك الذين يسكنون أرض شبه الجزيرة فقط . فأسبانيا لا تتألف منهم وحدهم ، بل يجب أن يضاف إليهم العشرين أمة التى تقطن أمريكا » [١].

---

(١) Azorin ; An Hour of Spain . ولكن أغفل هذا الكاتب المدقق الموهوب شأن رؤوس الأموال البريطانية والمهاجرين الألمان .

ومنذ الحرب العظمى ، أخذت أسبانيا تدنو من هذه الأمم : وليداتها . ومع أنه لا يدور كلام بصدد عودة الإمبراطورية الأسبانية القديمة — فشعوب أمريكا الجنوبية لن تتخلى عن استقلالها — فإنه حينما كانت عصبة الأمم تجتمع كل خريف فى جنيف ، كانت تتاح فرصة بديعة لتجدد المودة الروحية بين أعضاء الأمة الأسبانية المبعثرين ، وتقف أسبانيا أمام العوامل الغريبة المعقدة التى تسود أوربا الآن ، فى صف واحد مع وليداتها الأمريكيات يشددن أزر بعضهن بعضاً .

كتب يمكن استشارتها

Cambridge Modern History, Vol. X. Chapters 7-10 1907.

H.V. Temperley : Canning. 1926.

W.B. Stevenson : Twenty Years Residence in South America. 1825

Lord Dundonald : Narratives of Services in Chile, Peru, and Brazil. 2 vols. 1859.

J.W. Fortescue : Dundoland. 1895.

M.A.S. Hume : Modern Spain. 1923.

Bertrand and Petrie : The History of Spain. 1934.

Butler Clarke : Modern Spain. 1815-1898.

Sir C.R. Markham : History of Peru. 1880.

V. Cherbuliez : L'Espagne politique. 1865-73. 1874.

Y. Guyot : L'Evolution politique et sociale de l'Espagne. 1899.

L. Teste : L'Espagne contemporaine 1872.

الفصل السادس عشر

حرب القرم

عداوة إنجلترا لروسيا . هزيمة روسيا تهيء السبيل لفوز القومية الإيطالية .
مسألة الأماكن المقدسة . لورد ستراتفورد دى ردكلف . نشوب الحرب .
سياسة نابليون الثالث . سير الحرب . الإمبراطور الفرنسى يقرر عقد الصلح .
معاهدة باريس . كافور وفلورنس نيتنجيل .

١ ـ أسباب الحرب

عداء إنجلترا لروسيا

ما حل منتصف القرن التاسع عشر حتى لقيت قضية القومية التى قسم لها أن تكسب أكبر انتصاراتها فى معاهدات الصلح التى أبرمت فى سنتى ١٩١٩ و ١٩٢٠ ـ لقيت صدمة عنيفة خيل يومئذ أنه من العسير التغلب عليها . فأى نبى هذا الذى كان يستطيع فى ذلك الحين أن يتكهن بأنه فى خلال عقدين من الزمان ستتحد ألمانيا التى وصفها قلم ثاكرى فى روايته Vanity Fair ـ ستتحد تحت تاج ملك بروسيا ، وتتحد إيطاليا ـ التى رأيناها فى عهد بيونونو ـ تحت تاج ملك سردينيا ، وتنهض هنغاريا من كبوة ذلها البالغ ، وتُمنَحَ مكانة تضارع مقام النمساويين الألمان فى الإمبراطورية النمساوية؟ فقد كان بِحَسْبِ المرء ـ للقول باستحالة حدوث مثل هذه التطورات ، أن يشير إلى البغضاء والعداوة وروح الحسد والمخاوف والأطماع التى سمَّمت مدى قرون عديدة حياة الأمتين الألمانية والإيطالية السياسية ، وأن يشير إلى إخفاق الثورات التى عمت أرجاء أوربا منذ عهد قريب ، وإلى ماهية العقبات التى وقفت فى سبيل نجاح قضية القومية ، والتى بدت الآن أضخم وأخطر مما كانت عليه فى أى عصر سابق ، ولاحت كحائل منيع دون فوز أية حركة مماثلة فى المستقبل .

وكانت روسيا أعظم هذه العقبات . فإن رقعة الإمبراطوربة الروسية الشاسعة ، ومدى تسلحها الضخم ، وامتداد سيطرتها على الهضبة الأسيوية الذى بدا — رغم بطئه — كأن أى عائق لا يمكنه الوقوف فى وجهه ، ونياتها المزعومة بشأن تملك القسطنطينية : كل هذه الأمور أحدثت ، وخاصة فى إنجلترا ذات المصالح الكبيرة فى الشرق ، شعوراً مبهماً — ولكنه شعور متأصل — من الخوف الممزوج ببغض شديد لهذا النظام السياسى برمته الذى كانت روسيا أقوى عمده وأركانه فى أوربا . ولم يكن معاصرو بلمرستن وثاكرى من الإنجليز يحسون بأى شعور من الإعجاب والاحترام لروسيا يخفف من الوقع الشديد السوء الذى كان يستفزه اسمها فى نفوسهم . فإن عبقرية الشعب الروسى فى الآداب والفنون ، وفى العلوم والموسيقى والرقص، لم تكن قد تكشفت بعدُ للعالم، وأصبحت جزءاً من الثروة المشتركة للحضارة الأوربية . كذلك لم يكن قد كُشِف النقاب بعدُ عما يتحلى به الفلاح الروسى من مناقب حميدة .

نقولا الأول

وكل ما كان معروفاً وقتئذ فى إنجلترا عن تلك البلاد أن نقولا الأول (١٨٢٥ — ١٨٥٥) الذى نعته تنيُسنْ الشاعر الإنجليزى « بالمسكوفى البارد الطباع » « والهمجى الشرقى الضخم الجثة » ، والذى خلف إسكندر الأول سنة ١٨٢٥ ، لم يكن متحلياً بأية سجية من السجايا الحرة التى اتصف بها سلفه . بل كان يُخضع رعاياه تحت نظام قاس من التجسس والطغيان .

فقد سحق نقولا دون شفقة البولنديين الثائرين فى وجهه ، وعاون النمسا سنه ١٨٤٨ على إخضاع هنغاريا ، ثم ساعدهـــا فى ألمتز على إذلال منافستها بروسيا . وكانت حكومته — التى وصفها دى تكفيل الوزير والمؤرخ الفرنسى بأنها « قطب الرحى للاستبداد فى العالم » — كانت هذه الحكومة عقبة كأداء فى سبيل تعديل المعاهدات الغاشمة ، وحائلا قاهراً فى طريق تحرير الأمم ، ومانعاً قوياً لتجدد تلك الآمال الجياشة الكريمة التى لقيت مصرعها فى سنة ١٨٤٨ . ولذا فإنه حينما رفضت تركيا — التى كانت قد أدخلت بعض الإصلاحات الدستورية فى نظمها الحكومية — تسليم قوسوط

وغيره من اللاجئين الهنغاريين الذين لاذوا ببلادها – تسليمهم إلى النمسا أو إلى روسيا لصبجام نقمتهما عليهم ، غدا سفير تركيا لدى البلاط الإنجليزى معبود الجماهير الإنجليزية .

تهيئة السبيل لفوز القومية الإيطالية

وقد نجم عن هذه العقلية الشديدة العداوة لروسيا التى اجتاحت الأمة البريطانية فى ذاك الحين ، أن نشبت فى الشرق حرب لم يتعمد أحد إشعالها. ووقفت النمسا إبانها موقف حياد مشرب بالبغضاء أزاء صديقتها السابقة ، « فأدهشت العالم بجحودها ونكرانها للجميل » – حسب قول أحد سوّاسها . غير أنها بوقوفها هذا الموقف ، جعلت حرب القرم تسدى إلى قضية الحرية خدمة جليلة القدر . فقد حطمت تلك الحرب العرى الوثيقة التى كانت تربط هاتين الدولتين الأوتقراطيتين بعضهما ببعض . وبذلك خلقت الأحوال الملائمة التى أدت فيما بعد إلى تحرير الأمتين الألمانية والإيطالية . هذه هى أهم النتائج السياسية لعراك نشب دون أن تكون له ضرورة ، ووُجِّه من غير تبصُّر أو بعد نظر .

ونظراً لما اتبع فى تلك الحرب من الأساليب العتيقة ، وظهر فى تسييرها من الإهمال وسوء الإدارة الوخيم العقبى ، فأحرى بها أن تُعد حرباً من حروب العصور الوسطى ، من أن تكون إحدى حروب العصر الحديث .

مسألة الأماكن المقدسة

قامت حرب القرم نتيجة نزاع شَجَرَ بين رهبان الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية فى أيهم أحق بحراسة بعض الأماكن المقدسة المسيحية ببيت المقدس . وكان النزاع فى ذاته تافهاً ، ولكنه استمد أهميته من الحقيقة بأن قيصر روسيا كان يعاضد تعضيداً قوياً المطالب الأرثوذكيسة ، فى حين أن نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين كان يؤيد ادعاءات الكنيسة الكاثوليكية . وانتهى هذا النزاع المتعب المثير للخواطر ، بوضع الحكومة التركية سنة ١٨٥٢ تسوية له أثارت حنق القيصر الشديد . فأمـــر بتعبئة جيش روسى وإنفاذه إلى نهر بروث . وأوفد بعثة متغطرسة الى الإستانة برئاسة الأمير منشيكوف Menschikoff لتطلب ، لا تقديم ترضيـــة عاجلة فيما يتعلق ببيت المقدس فحسب ، بل أيضاً إبرام معاهدة بين الدولتين تفوق فى مدى إرهاقها

للباب العالى جميع المطالب الروسية السابقة ؛ بحيث تضمن للقيصر فى الواقع حق حماية جميع الرعايا الأرثوذكس للباب العالى . غير أن السلطان قرر رفض هذه المطالب ، رغم أن ستراتفورد دى ردكلف « Stratford de Redcliffe » السفير البريطانى فى الاستانة نصحه بقبولها .

ستراتفورد دى ردكلف

وقد زالت الآن الظروف التى يمكن فيها لسفير أن يورط بلاده فى الدخول فى حرب . فإن التليفون والتلغراف يجعلانه أداة خاضعة لمجلس وزرائها ومنفذاً لسياسته . ولكن لما كان التلغراف عام ١٨٥٣ لم يقطع بعدُ مرحلة كبيرة من التقدم — إذ لم يمتد فى شرق أوربا إلى أبعد من ڤينا — فإن سفيراً قوياً فى قطر قصى ، ذا آراء شخصية قوية واضحة تحت رياسة رئيس وزراء ووزير خارجية ضعيفين ، كان يستطيع أن يتخذ خطة معينة ، دون أن يرجع إلى حكومته لنيل تصديقها عليها ، ولا سيما إذا كانت هناك أسباب تجعله يعتقد أن آراءه الخاصة تتفق والرأى العام فى وطنه ، وبذلك يلزم بلاده بالوقوف موقفاً معيناً . وكان يُظن أن هذا كان موقف ستراتفورد دى ردكلف . فإن آراءه فى الشؤون الشرقية التى بناها على خبرة طويلة كانت غاية فى الوضوح ، وكان معجباً بالترك ، سيىء الظن بالقيصر . ولعله حسب أيضاً أن الوقت قد حان لأن ينزل هزيمة دبلوماسية أو حربية قاصمة بروسيا التى كان يعدها عدو إنجلترا الأكبر وخصمها الأشد .

فإنه مع علمه بأن اللورد أبردين « Lord Aberdeen » رئيس الوزارة الإنجليزية ، وكلارِنْدُن وزير خارجيته كانا لا يرغبان فى الحرب ، فإنه كان يعرف أن بلمرستن أحبَّ الوزراء إلى قلب الشعب الإنجليزى كان ينزع إلى سياسة التلويح بالقوة وركوب الأخطار ، وأن رجل الشارع فى إنجلترا كان يضمر لروسيا بغضاً عميقاً أعمى . فلهذه الأسباب ظُنَّ حيناً طويلا من الزمان أن ستراتفورد دى ردكلف هو المضرم الحقيقى لحرب القرم . ولكن رسائل هذا السفير المشهور لا تؤيد هذا الظن ، بل تشير إلى أنه كان يحض على الاعتدال .

غير أن رسائل السفراء لا تروى قط القصة كلها . فإن التركى اللبيب كان يعرف جيداً أن له صديقاً يمكنه الاعتماد عليه فى شخص « الألتشى[١] » العظيم ، وأن البوارج البريطانية واقفة على مسافة غير بعيدة من عاصمة بلاده . ولذا فإن مجرد وجود هذا الدبلوماسى القدير المغامر السريع التأثر فى الاستانة كان كافياً — حتى بدون رسائله الرسمية — لإحباط كل اقتراح من الاقتراحات المتتالية التى قُدّمت لفض الخلاف . فإنه صلّب تصميم الأتراك على عدم الخنوع أمام خصمهم ، وأحبط مذكرة ڤينا التى قدمتها إنجلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٣ إلى روسيا تحضها على التخلّى عن بعض مطالبها المتطرفة . وكانت الاقتراحات التى حوتها هذه المذكرة تحسم النزاع كله ، وتُرضى الحكومتين الإنجليزية والفرنسية ، إذا خلصت النيات . أضف إلى ذلك أن قيصر روسيا ، بل وحتى السفير التركى لدى البلاط النمساوى ، أعربا عن رضاهما بأحكامها .

٢ — سير الحرب ونتائجها

شهر الحرب

ولهذا فإنه عندما أعلنت تركيا الحرب على روسيا فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٥٣ ، وبدأتها بإطلاق النار على الجنود الروس الذين كانوا قد عبروا نهر بروث ، واحتلوا مقاطعتى الأفلاق والبغدان ، أجاب الروس على هذا العمل باغراق الأسطول التركى على مقربة من سينوب . فاجتاحت بريطانيا كلها موجة شديدة من الحنق على هذه الضربة الأثيمة . إذ كانت سياسة القيصر موضع سوء ظن عميق حتى لدى الجانب المتريث فى الوزارة البريطانية . فقد وصف القيصر تركيا فى حديث جرى له مع أبردين سنة ١٨٤٤ « برجل أوربا المريض » ، وبسط قبيل إعلان حرب القرم للسر هاملتن سيمور Hamilton Seymour السفير البريطانى فى بطرسبرج ، الفكرة بوجوب اتحاد انجلترا

(١) الألتشى كلمة تركية معناها السفير .

وروسيا على اقتسام تركيا فيما بينهما . وبعد تردد كثير ، وبعد انقضاء فترة سعت فيها الدبلوماسية فى ڤينا سعياً حثيثاً إلى صون السلام ، قررت إنجلترا إعلان الحرب فى ٢٧ مارس سنة ١٨٥٤ .

سياسة نابليون الثالث

ووقفت فرنسا فى هــذه الحرب فى صف إنجلترا ، تشد أزر تركيا . ولعله يكون من الإجحاف لنابليون الثالث القول بأن الباعث الأكبر الذى حفزه على دخول المعمعة كان المجد الحربى . فقد كانت رعيته تصبو إلى السلام، ووُعِدت بالعمل على استتباب أسبابه. فقد قيل لهم: « إن الإمبراطورية لا تتوق إلى شىء أكثر مما تتوق إلى السلم ، فنحن نملك أراضى شاسعة غير معمورة نروم إصلاحها وزرعها ، وطرقاً نرغب فى شقها ، وموانى نرغب فى تعميقها ، وقنوات فى إكمال حفرها ، وأنهراً نريد أن نجعلها صالحة للملاحة ، وسككا حديدية نريد ربطها بعضها ببعض . وعلى الساحل المقابل لمارسيليا نملك أراضى مترامية نرغب فى إدماجها بفرنسا » . وكل هذه الأمور تتطلب صون السلام .

فمع أن سياسة نابليون الخارجية كانت كثيرة التقلب ، نزاعة إلى المجد والتألق ، إلا أنها كانت تقوم على قواعد قليلة ثابتة لاتتغير . وكانت إحدى هذه القواعد هى رغبته فى تعديل معاهدات عام ١٨١٥ . وكان يؤثر أن يتم ذلك على يد مؤتمر أوربى ، إن أمكن . وكانت ثمت قاعدة أخرى هى : أن يقدِّم بعض الغوث للإيطاليين فى سبيل تحقيق أمانيهم القومية ، وثالثة هى : تجنب الأخطاء الجلية التى أدت إلى سقوط الإمبراطورية الفرنسية الأولى . ولما كانت سيادة إنجلترا على البحار هى التى أسقطت العم ، فقد وطن ابن الأخ عزمه على عقد تحالف مع انجلترا ، حتى ولو جرَّ ذلك عليه اشتباكه فى حرب مع روسيا . فلم يكن الروس فى عينه بأشد بطشاً من غيرهم ، وكانوا محل مقت الإكليروس الفرنسى ، لنظره لهم كأمة منشقة عن الإيمان الصحيح ، وكانوا محل عداء الجمهوريين الفرنسيين لنظم الحكم الاستبدادية القائمة فى بلادهم . وكان الإمبراطور نفسه حانقاً

على القيصر لصلفه ووقاحته فى عدم مخاطبته إياه باللقب اللائق المألوف بين الأباطرة ، وهو يا « أخى » — الأمر الذى أثار ألم نابليون وغيظه .

النقط الأربع

وأعلنت إنجلترا وفرنسا « نقطاً أربع » تبين أهدافها من دخول الحرب . وكانت هذه النقط تنطوى على فوائد جمة لإنجلترا ، فإنها كانت تحرم روسيا بعد هزيمتها من نفوذها فى البلقان ، وتحرم عليها إبقاء سفن حربية فى البحر الأسود . وكان فيها أيضاً نفع جزيل للنمسا ، إذ أن مقاطعتى الأفلاق والبغدان ونهر الدانوب ستحرر من قبضة روسيا . أما فرنسا فلم تكن ستجنى إلا فوائد ضئيلة القيمة ، مع أنها هى التى ستقدم الجانب الأكبر من القوات المقاتلة . ومع هذا رأى نابليون أن مغامرة يتحد فيها مع البريطانيين الأشداء ستساعده على تثبيت دعائم عرشه الجديد المزعزع الأركان .

سير الحرب

ووقع الاختيار على سباستبول ، الفرضة البحرية العظمى للإمبراطورية الروسية فى البحر الأسود ، لتكون الهدف الحربى الرئيسى لحملة كان أكبر ما ترمى إليه هو تدمير قوات العدو البحرية . ولهذا فإنه بعد أن جلا الروس عن مقاطعتى الأفلاق والبغدان ، وانتهى بذلك القتال فى وادى الدانوب ، أبحرت قوة ضخمة منوعة من الإنجليز والفرنسيين والترك — وكان عدد الانجليز يبلغ قرابة ٢٦ ألف جندى ، والفرنسيين أكثر قليلا من هذا العدد — أبحرت هذه القوات من الفرضة البلغارية وارنا فى منتصف سبتمبر سنة ١٨٥٤ قاصدة الميناء الروسى .

والحق أنها كانت مغامرة جنونية . فإنه لما كان الترك قد طردوا الروس من وادى الدانوب من غير معونة أجنبية ، وذهب بذلك كل خطر عليهم يأتى من تقدم الروس صوب الاستانة ، فلم يكن ثمة أى سبب معقول لأن يضيع الحلفاء جندياً واحداً ، أو يبددوا جنيها واحداً على حصار مدينة سباستبول . فإنه حتى إذا كتب الفوز للحلفاء وفتحوها ، لم يكن ذلك ليؤثر تأثيراً محسوساً فى موارد روسيا الضخمة . أضف إلى هذا أن هدف الحملة كان أحمق . ومما زاد الطين بلة ، أن طرق الوصول إلى تلك الفرضة كانت مروعة .

فقد تقدم الجيش الإنجليزى إلى ساحة الوغى دون أن تكون له معدات وافية للنقل ، أو تتوافر لديه وسائل العناية بالمرضى . وكان الجنود يرتدون ملابس لاتصلح إلا للاستعراضات الحربية . بل إنه لم يخطر فى بال حكومة أعظم قطر هندسى فى العالم أن تسهل نقل العتاد من ثغر بلا كلاقا إلى ساحة القتال بأن تمدّ سكة حديد ضيقة عبر الأميال الخمسة التى تفصل بينهما .

ولم يحاول الروس وقف إنزال جنود أعدائهم . وكان الاشتباك الأول بين الفريقين فى ألما Alma نصراً للحلفاء . ولو أنهم واصلوا الهجوم — كما أشار اللورد رَجْلان Raglan القائد العام لجيش إنجلترا — فإن هناك أسبابا تدعو إلى الاعتقاد بأن نصف سباستبول الشمالى على الأقل، ربما كان قد وقع فى أيديهم . ولكن قيادة الحلفاء اتخذت هذا القرار المفجع وهو ، سحب الجنـــد ، والإبحار بهم نحو الجنوب ، حيث أماكن النزول أكثر ملاءمة ، ثم تجديد الهجوم من هناك . غير أن الوقت الثمين الذى أضاعه المهاجمون على هذا النحو ، انتفع به المدافعون أكبر انتفاع . فزيدت تحصينات سيباستبول مناعة فوق مناعتها، وَوَقَتْها خطرَ الأعداء عبقريةُ المهندس الروسى النابغة تودلبن Todleben ، وعواصفُ شتاء روسى زمهرير وبرُده القارس، واستمرار وصول الأمداد إلى الجنود المحاصَرين ، نظراً لعدم تطويق المهاجمين للمدينة تطويقاً تاماً . وأخيراً ، ولكن بعد أن حصدت الكولرا والصقيع أرواح عدد كبير من الجند فى جميع الجيوش المحاربة — هجم الفرنسيون هجمة صادقة على حصن ملاكوف Malakoff ، واقتحموه فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٥٥ ، ثم سقطت سيباستبول فى اليوم التالى . بيد أن الجيوش الظافرة لم تستول إلا على أنقاض وركام متأججة كانت قبلُ مدينة عامرة .

نابليون الثالث يقرر عقد الصلح

ورأى نابليون عقب هذا النصر الباهر الذى أحرزه جنوده أن يدعو إلى الصلح . ولكن بلمرستن المندفع القوى الشكيمة كان قد أصبح رئيس الوزارة البريطانية ، وكانت روح الحرب قد هبّت من رقادها ، وعمرت قلوب مواطنيه . فلم يكونوا ليقنعوا بالانتصارات التافهة التى نالهـا الجيش

البريطانى فى بالكلافا Balaklava وإنكرمان Inkerman وريدان Redan .
فحضّ بلمرستن على شن حرب لا هوادة فيها ضد الروس . ولكن سهماً أريباً رماه الإمبراطور من جعبته أصاب المرمى ، وأطاح بحماقة البريطانيين ، وجلب السلام إلى ربوع أوربا . فقد أوضح نابليون أنه إذا كان لا مندوحة من مواصلة القتال ، فإنه يجب أن تشمل أهداف الحرب الكبرى ، من بين ماتشمله ، تحرير البولنديين . وأحدث هذا التهديد الأهوج أثره . فإنه أرجع الساسة الإنجليز على الفور عن حماقتهم ، وأعادهم إلى محجة التعقل والرأى السليم. فقد كان تحرير البولنديين بغيضاً إلى لندن، ممقوتاً أشد مقت لدى برلين، ويحمل فى طياته الأخطار والنذر لبطرسبرج

معاهدة باريس

وقد نال الحلفاء فى معاهدة باريس التى وقعت فى ٣٠ ماريس سنة ١٨٥٦ جميع الأهداف التى أعلنوا فى بادىء الحرب أنهم امتشقوا السيف من أجلها . فإن مقاطعتى الأفلاق والبغدان أعيدتا إلى مركزهما السابق ، وجُعلت الملاحة حرة فى نهر الدانوب ، وُحرم على روسيا إبقاء سفن حربية فى البحر الأسود ، وتعهد السلطان بتنفيذ وعود الإصلاحات التى كان قد وعد بها رعاياه المسيحيين ، على ألا تتدخل الدول العظمى فى شئون دولته الداخلية ، وضمنت الدول العظمى لصربيا — مكافأة لها على حيدتها خلال الحرب — جميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لها ، مع بقائها خاضعة لسيادة السلطان . كما أُكرهت روسيا — كعلامة على فوز الحلفاء — على أن ترجع إلى الترك قارص التى كانت قد استولت عليها عنوة ، وأن تتنازل أيضاً عن شطر من إقليم بسارابيا ، يضم إلى مقاطعة البغدان .

هذه هى الشروط — وأكثرها كان ذا قيمة وقتية فقط — التى تمكن الحلفاء من إرغام حكومة القيصر الجديد : إسكندر الثانى على الموافقة عليها . ولكن مع أن الباب العالى مُنِح أجلا جديداً للبقاء على قيد الحياة ، فقد عجز الظافرون عن أن يوقفوا اطراد تقدم حرية المسيحيين فى البلقان ، أو تجدد قوة روسيا البحرية فى البحر الأسود . ووضع نابليون إمارة رومانيا

الحديدة تحت رعايته ، منتهزاً فرصة انشغال إنجلترا بقمع ثورة نشبت فى الهند سنة ١٨٥٧ ، وعجزها عن الاحتجاج . أما بنود المعاهدة المتعلقة بالبحر الأسود فقد نبذتها روسيا سنة ١٨٧٠ . واضطرت أوربا كلها إلى الإذعان لهذا العمل غير المشروع – ولكنه العمل الطبيعى – لعدم قدرتها على منعه .

بيد أن روسيا كانت يومئذ ، وظلت سنين عديدة بعد ذلك ، كمارد جبار هدّت كيانه الحرب ، وشلت قواه الجروح المروعة التى أثخن بها أثناء سير جنده الطويل المر المذاق فى وحول الشتاء وزمهريره القارس ، وهم يخفون لنجدة سيباستبول : حينما كانت العربات التى تجرها الثيران تغوص فى التربة الرخوة المغطاة بالثلوج ، فهلك فيها مئات الألوف من الفلاحين الروس السذج الطيبى القلوب ، وهم يجدّون فى السير إلى ساحة الوغى .

كافور

وكان بين الجالسين حول نضد الصلح فى مؤتمر باريس رجل بدين ذو سوالف طالعة على صدغيه ، يضع نظارات على عينيه ، حلو الحديث ، فصيح اللسان ، قوى العارضة ، عليم بجزئيات المشاكل التى يتحدث فيها وشتى تفاصيلها : هو الكونت كافور الذى صار رئيس وزارة بيدمنت سنة ١٨٥٢ . ولقد استطاع هذا السياسى الكبير البعيد النظر ، بعد خوضه معركة من أعنف المعارك البرلمانية قامر فيها بكل ما يملك – كما يفعل فى الغالب أقطاب السياسة لكى يفوزوا بأكثر الأرباح – استطاع هذا السياسى أن يحمل برلمان بلاده فى يناير سنة ١٨٥٥ على الموافقة على إنفاذ فرقة سردينية إلى القرم .

والتوفيق يلازم الجسور عادة . وهذا ما تم لكافور بدفعه ثمناً تافهاً ، هو خسارة ثمانية وعشرين قتيلا فقدتهم كتيبة بلاده فى معركة تشرنايا Tchernaya وإصابة عدة آلاف من رجالها بالكولرا – فإنه كسب الحق فى أن يرفع ظلامات إيطاليا أمام ممثلى ممالك أوربا على مائدة الصلح عندما وضعت الحرب أوزارها .

فلورنس نيتنجيل

ويضاهى عمله إقداماً وجسارة وقوة عزيمة – ولكن فى مضمار آخر – عمل سيدة إنجليزية نشأت فى مهاد العز وبحبوحة الحياة الناعمة الفكتورية . فقد

أشجنها قصص الآلام المبرحة التى يعانيها الجند الإنجليز فى حرب القرم ، فهجرت وطنها ، وسافرت لتمرض الجرحى . ورفعت بمثالها الحى هذا ، وأنموذجها الشخصى ، ونشاطها المتأجج إبان الحرب وبعدها ، مركز صناعة التمريض بين مواطناتها ، وحسّنت مستوى الصحة العامة . وبتأثيرها — ولعله كان أقوى من أى تأثير فردى آخر — ظفرت لنساء وطنها بحق الدخول فى مهن مفيدة جدية . والحق أن عمل فلورنس نيتنجيل Florence Nightingale الباهر ، وجرأتها الخارقة فى تحدى تقاليد عصرها البالية ، وانخراطها فى عملها الجديد لتخفيف الآلام البشرية ، لهى إحدى المكافآت القليلة التى عوّضت عن التدمير والتخريب والتبديد التى أحدثته حرب القرم .

كتب يمكن استشارتها

P. Guedalla : Palmerston. 1926.

Sir Edward Hamley : The War in the Crimea. 1891.

A.W. Kinglake : The Invasion of the Crimea. 1877.

Pierre de la Gorce : Histoire du Second Empire. 1908.

Spencer Walpole : A History of England from the Conclusion of the Great War in 1815. 1890.

Sir E.T. Cook : The Life of Florence Nightingale. 1925.

W.R. Thayer : The Life and Times of Cavour. 1915.

F.A. Simpson : Louis Napoleon and the Recovery of France. 1923.

P. Guedalla : The Second Empire. 1932.

S. Lane Poole : Life of Stratford Canning. 1888.

English Historical Review, 1933. 1934.

الباب السابع عشر

توحيد إيطاليا

حساب إنجلترا الخاطىء فى الشرق الأدنى . إنجلترا وحركة البعث الإيطالية . دين كافور للمبادىء الحرة الإنكليزية . ارتقاء بيدمنت العصرى . النمسا فى إيطاليا . اجتماع بلمبيير . الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩ . هدنة فلافرنكا . الحركة الوطنية فى وسط إيطاليا . ريكاسولى فى تسكانيا . سلخ سافوى ونيس وضمهما إلى فرنسا . كافور ومازينى . غاريبالدى فى صقلية ونابلى . كافور وفكتور عمانوئيل يقصدان الجنوب . إخلاد غاريبالدى إلى الانزواء . الأطوار الختامية للحركة الوطنية الإيطالية . مسألة سيطرة البابا على روما . إقصاء النمسا عن إيطاليا .

١ – تقدم مملكة بيدمنت

انجلترا تخطىء الحساب فى الشرق الأدنى

قامت مغامرة إنجلترا فى أرض القرم على تقديرات خاطئة هى : خشية مبالغ فيها لا تستند إلى أساس صحيح من بطش روسيا فى الساحات النائية عن قلب الإمبراطورية الروسية ، وعدم تقدير إنجلترا تقديراً صائباً مقدرة الشعوب المسيحية البدوية فى البلقان على المحافظة على الاستقلال بشئونها ، وأخيراً استمرار إيمانها ، رغم عبر الماضى المنصرم وعظاته الكثيرة ، بقدرة الترك على منح رعاياهم المسيحيين مزايا حكم عادل مستنير ، بإرشاد صالح من الدول الغربية . فإن هذه القواعد التى استمرت السياسة البريطانية فى البلقان ترتكز عليها ، إلى أن لفظها مجرى الحوادث فى العقدين التاسع والعاشر من القرن المنصرم ، كلفت بريطانيا خمسة وعشرين ألفاً من الأنفس فى ساحات القرم ، وصنوفا عديدة من الجزع والقلق وتبديد الجهود .

إنجلترا وحركة البعث

بيد أن نفوذ إنجلترا استُخدم استخداماً موفقاً قليل التكاليف فى إيطاليا التى يُعد فوزها بوحدتها تحت حكم بيت سافوى أكبر أحداث التاريخ الأوربى التى تمت بعيد حرب القرم . فإنه حينما كانت إيطاليا تجتاز أدق مرحلة فى تاريخها ، وحينما كانت القومية الإيطالية فى حاجة قصوى إلى التشجيع ، تهددها المنازعات الداخلية والأخطار الخارجية ، كان كل وزير مفوض إنجليزى لدى بلاط مملكة سردينيا يناصر قضية الحرية الإيطالية ويؤازرها . وأينما اجتمع الأحرار فى إنجلترا — فى الجامعات ، وفى الأندية ، وفى بيوت السراة والنبلاء ، وفى البرلمان — كان يسودهم روح أمل وتفاؤل بأن تقوّض تقويضاً كاملا سلطة الإكليروس الكاثوليكى والحكم المطلق فى إيطاليا ، هذا الحكم البغيض إلى قلوب أمة بروتستانتية دستورية ، وازدادت إنجلترا مقتاً وكرهاً لها ، حينما أماط غلادستون Gladstone اللثام عن الفظائع الوحشية المتعلقة بإجراءات القضاء والعدالة فى مملكة نابلى . وأعظم من هذا أهمية أن بلمرستن رئيس الوزارة البريطانية من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٥ ، واللورد جون رسل وزير الخارجية كانا شديدى الانتصار لقضية الحرية الإيطالية (بقدر ما كانت الملكة ڤكتوريا وقرينها الأمير ألبرت مزورّين عنها). وكانا يسيران دفة الدولة فى سنة ١٨٦٠ ، حينما كانت فرنسا والنمسا تتوقان إلى التدخل لمنع اتحاد وسط إيطاليا وجنوبها بالمملكة الإيطالية الشمالية عند ظهور أقل بادرة من بوادر التشجيع لها فى لندن . ولكن بيانات هذين السياسيين الكبيرين القوية وإعلاناتهما الصريحة فى شد أزر قضية الحرية الإيطالية ، وتخوف الدول الأوروبية الكبرى من موقف الأسطول البريطانى ، وما قد يصدر إليه من أوامر إذا ما حاولت تلك الدول أن تنجد أذناب ڤينا وروما من حكام الولايات الإيطالية الصغيرة — كانت كلها عوامل هامة فى نجاح قضية إيطاليا ، ومساهمة قيمة فى تحقيق أمانيها .

دين كافور للمبادىء الحرة الإنجليزية

وهناك ناحية أخرى تدين فيها الحركة الإيطالية بفلاحها لإنجلترا . فقد وضع كافور أثناء إقامته بانجلترا لبان المبادئ الحـرة الإنجليزية ، وغدا يطمح بعد أن صار كبير وزراء پيدمنت سنة ١٨٥٢ ، إلى أن يخلق أولا فى

تلك المملكة الصغيرة ، ثم فى إيطاليا المتحدة ، حينما تسنح له الفرصة المواتية — صار كاڤور يطمح فى أن يقيم فيهما نظام حكم دستورى على غرار نظام الحكم فى إنجلترا . فتقوم فى بلاده ملكية دستورية مشيدة على أسس الحرية والتسامح الدينى ، تضع الكنيسة فى مكانها الصحيح ، وتتبع مبدأ حرية التجارة ، وتعمل على تقدم السكك الحديدية ، وتطبق فى مناحى الصناعة والزراعة جميع المعارف العلمية والفنية التى كشف عنها فى ذلك العصر .

ولم تكن المبادئ النظرية الفرنسية لتجد سبيلا إلى عقل رجل واقعى اشتغل مصرفيا ، وزاول الصناعة والزراعة ، قبل أن يغدو سياسيا ويرقى إلى زعامة بلاده . ولكن إذا كان الاشتغال فى دوائر الأعمال قد ألف جزءاً هاماً فى تدريب كاڤور ومرانه ، فقد كان البرلمان المسرح الذى هفا إليه فؤاده لإظهار ملكاته اللامعة ومواهبه الكبيرة ، فقد بزَّ الجميع فى حسن البيان وقوة العارضة والإقناع . ولم يكن يخشى النزول فى حلبة النقاش ، بل كان يدعو إليها ويستمرئها ، ويتفوق فيها . ولذلك بُذِرت إبان حكمه الطويل (١٨٥٢ — ١٨٥٩ و ١٨٦٠ — ١٨٦١) بذور الحكومة المسئولة ، وتأصلت جذورها فى التربة الإيطالية . بل إن المبادئ الحرة الإنجليزية لم تظفر فى فتوحها الخارجية بعقل أكبر وأنفذ وأحذق من عقل كاڤور .

مقاطعات بيدمنت

وكانت دولة سردينيا مؤلفة من أربعة أقسام غير متناسقة . وكان قسم واحد منها فقط : هو جمهورية جنوة المندمجة بسردينيا حديثاً — يتصل بعض الاتصال بمفاخر إيطاليا التاريخية . أما ساڤوى التى على الجانب الفرنسى من الألب ، فمع أنها المنبت الأصلى للبيت المالك ، فقدكانت تعد لساناً وأمانى مقاطعة فرنسية ، أكثر منها جزءاً مكملا لإيطاليا . وكانت بيدمنت إقليما فقيراً متأخراً يقع فى سفوح الألب ، وليس له من الخدمات الماضية ما يثير إعجاب الإيطاليين به ، وولاءهم له . ولم يساهم — كما لا بد أن بدا للإيطاليين يومئذ — فى تلك النواحى الأدبية والفنية التى يزهو الإيطاليون بحق بإجادتهم إياها وتفوقهم

فيها . أما سردينيا فقد كانت جزيرة متبربرة ترتع فى أرجائها الملاريا .

بيد أن جنوة كانت تختلف كل الاختلاف عن الأقسام الآنفة . فهى مدينة كبيرة لعبت دوراً كبيراً ، لا فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط وحسب ، بل فى مغامرات العالم البحرية الكبرى . ولكنها كانت فى ذلك الحين قد هرمت وحل بها ضعف الشيخوخة ، وكانت تؤلف جزءاً حديثاً من دولة پيدمنت (أو سردينيا) . ولذا تأففت من نيرها غير المألوف ، وكانت مصدراً من مصادر القلق لحكومة تورين ، أكثر من كونها مصدر قوة لها .

إصلاحات كافور

فمن هذه الولايات المتنافرة غير المتجانسة ، عقد كافور النية على أن يشيد دولة تستطيع ، سواء من ناحية القوة والجدارة أو من ناحية ممارسة النظم البرلمانية — تستطيع أن تقبض على زمام الحركة الإيطالية ، وتحتفظ بتزعمها وتوجيهها إياها . وساعده فى تحقيق مراميه وخططه دستور ورثته پيدمنت من عهد الملك السابق ، وشعب حى موفور النشاط ، وملك حسن الطباع عظيم الهمة شديد الحماس ، وجيش هو أفضل جيش وُجِد وقتئذ تحت إمرة حكومة إيطالية .

وكانت حركة البعث الپيدمنتية ، كما تخيلها ورسمها كافور ومعاصروه الذين نحوا نحوه فى تفكيره ، تنطوى على إصلاحات كان لا مفر لإنجازها من نشوب نضال حامى الوطيس مع الكنيسة . وقد انتهى هذا النضال إلى نتيجة محمودة ، رغم مقاومة الملك عمانوئيل الأول وتخوفه وقلقه . فإن قانون Siccardi Law الذى صدر فى فبراير سنة ١٨٥٠ هاجم الولاية القضائية للمحاكم الإكليريكية ومركز الإكليروس الممتاز أمام القانون ، وخفضت قوانين رتاتشى Rattazzi Laws الصادرة عام ١٨٦٧ ، تخفيضاً جسيماً إيرادات الأوقاف الكنائسية والدخل الوفير لكبار أحبار الكنيسة ، وأقفلت أكثر من ثلاثمائة دير .

كما أقر برلمان تورين التشريع الخاص بالزواج المدنى رغم مقاومة الڤاتيكان البالغة العنف . وبأمثال هذه التشريعات صارت پيدمنت فى مدى أعوام قليلة جداً تُعَد دولة محرَّرة عصرية عملية ، لا ولاية من أشد الولايات الإيطالية

تأخراً كما كان حالها قبلا ، حين كانت جهودها مبعثرة متفرقة ، وأذهان أبنائها مصفدة بقيود التقاليد البالية ، تخيم عليها سيطرة الاكليروس الرجعية . وقد دُعمت هذه الإصلاحات بوضع ميزانية متعادلة للدولة ، وإبرام سلسلة من المعاهدات التجارية ، واهتمام الحكومة المتواصل بمد خطوط السكك الحديدية ، وتحسين طرق الزراعة والصناعة ، وإنشاء وتدريب جيش يبلغ من القوة بحيث يستطيع أن يطـرد النمساويين إلى ما وراء الألب حينما يجيء الوقت المناسب .

النمسا فى لمبارديا والبندقية

وإذا استثنينا تسكانيا وبيدمنت من ولايات إيطاليا ، كانت مقاطعتا لمبارديا والبندقية اللتين بقيتا إلى ذلك الحين تحكمان بواسطة النمسا ، أدنى الولايات الإيطالية من حيث سوء الإدارة . بيد أن الحكومة النمساوية — مهما اجتهدت فى تحسين الحالة المادية لرعاياها الإيطاليين — لم تكن بقادرة على أن تغير الحقيقة بأنها كانت حجر الزاوية للحكم الرجعى فى طول إيطاليا وعرضها ، وأن الحكومة البابوية فى روما لم تكن لتبقى ويشتد ساعدها ، وأن الملك « بمبا » Bomba [1] لم يكن ليتمكن من مواصلة حكمه الشرير ومظالمه فى نابلى ، إلا تحت حماية النمسا .

مازينى والنمسا

ولذا لم يسمح مازينى شيخ المتآمرين لبنى وطنه بأن ينسوا لحظة واحدة أن النمسا هى عدوهم الأكبر الذى يجب عليهم التغلب عليه بجميع الوسائل الشريفة وغير الشريفة . وبحبكه وشائج المؤامرة تلو المؤامرة ، وبنسجه حبائل الدسيسة تلو الدسيسة — كل منها تفوق سابقتها عنفاً ويأساً — روى هذا المتعصب الهائل القوى الجنان الثابت العزم ، الذى لم تثنه عن غايته أية صعوبة أو خطر — روى تربة إيطاليا بدماء الشهداء من أبنائها .

---

(١) هو فردينند الثانى ملك نابلى (١٨٣٠ — ١٨٥٩) . لقب بهذه الكلمة لقسوته البالغة فى سحق الثورة التى قامت فى بلاده سنة ١٨٤٩ ، وخاصة بأمره بقذف مدينتى بالرمو ومسينا بالقنابل دون شفقة .

٢ – الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩

النمسا فى عين كافور

وكذلك كانت النمسا فى نظر كافور ، فقد رأى فيها العدو الأكبر للوحدة الإيطالية . غير أنه على حين أن مازينى لم يَرَ سبيلا إلى الوصول إلى غايته إلا عن طريق الخناجر والمؤامرات ، فإن لباب خطط كافور لتحرير إيطاليا كان صرع النمسا فى ساحة الوغى على يد جيشى فرنسا وپيدمنت المتحدين . ففى تورين كان الجميع يتأهبون للقتال والحرب ، أما فى باريس فكانت زوايا التويلرى الخفية – حيث كان يجتمع المتآمرون الطليان – كانت تزخر بالآمال والدسائس .

اجتماع بلمبيير

وخطا نابليون الثالث – الذى كان فى خبايا نفسه « كاربوناريا »، ولكن الأحداث والسياسات المتضاربة أخذت تتنازعه بعد قبضه على زمام الأمور فى فرنسا – خطا خطوة هامة حاسمة فى يوليو سنة ١٨٥٨ ، بدعوته فى الخفاء ، ودون أن يطلع وزراءه أو يستشيرهم ، كافور لمقابلته فى بلمبيير Plombières بإقليم الفوج . وهناك أوضح للسياسى الإيطالى فى مقابلتين خططه الخاصة بتنظيم إيطاليا بعد تطهيرها من النمساويين .

وقد رسم فى هذه الخطط إنشاء مملكة إيطالية فى الشمال ، تمتد من الألب حتى البحر الأدرياتى ، ومملكة أخرى تُجمَع من هنا وهناك فى وسط إيطاليا ، ودولة بابوية – لأن الرأى الاكليريكى فى فرنسا كان يطالب بوجوب بقاء البابا فى روما ، ومملكة مصلَّحة فى نابلى . ويربط هذه الدويلات بعضها ببعض شكلٌ ما من أشكال الاتحادات التعاهدية تحت رياسة البابا . وحزر الرجلان أنه لا مفر من الدخول فى حرب مع النمسا . ولكنهما اتفقا على أن تكون حرباً يبررها عذر يستهوى أفئدة الفرنسيين : حرباً تظهر فيها النمسا كالمعتدى الجبار ، وپيدمنت كالدولة الضعيفة البريئة التى تناضل فى سبيل

حياتها وكيانها . وفى هذه الحالة يمكن لكافور أن يعتمد على عون فرنسا له ، بشرط أن تُعطَى بعض التعويضات جزاء تضحياتها ، كأن تعطى ساڤوى ونيس . وساڤوى هذه هى الوطن الأصلى للبيت المالك فى بيدمنت ، ونيس كانت من سوء الحظ مسقط رأس غاريبالدى الزعيم الإيطالى الكبير ، على أن تتوّج هذه المعاهدة السياسية بقران ملكى ، فتقدم يد الأميرة كلوتلدة ابنة ڤكتور عمانوئيل — وكانت طفلة فى الخامسة عشرة من عمرها — إلى الأمير جيروم نابليون ابن عم الامبراطور ، وهو رجل مستبيح فاسق ، يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً ، ورغم أنه كان يعانى سمعة مرذولة لجبنه وهلعه فى ساحة الوغى ، كان المديح والإطراء يكالان له لوفائه لمحظياته وإخلاصه لهن . فلقد جال بذهن نابليون أن المقادير قد تخط لهذين الزوجين المختلفين كل الاختلاف أحدهما عن الآخر ، أن يجلسا على سرير الملك فى فلورنس يوماً من الأيام . إذ كانت أحياناً تمر فى ذهن الإمبراطور أخيلة عابرة غير واضحة المعالم باحتمال تأسيس بيت بونابرت أسرات مالكة فى إيطاليا ، فيجلس أمير بونابرتى على عرش تسكانيا ، وأمير من سلالة ميرا على عرش نابلى .

التمهيد للحرب

ورجع كافور إلى تورين ليمهد للحرب ، وفى وطابه هذه المساومة ، التى وإن كان عسيراً على سيده الملك هضمها ، إلا أنه كان مطمئناً إلى أن إمبراطور الفرنسيين بات من ذلك الحين شريكه المتواطىء معه .

وفى الاستقبال الرسمى الذى عقده نابليون بمناسبة رأس السنة الجديدة عام ١٨٥٩ ، ذكر عرضاً للسفير النمساوى أنه يأسف لأن علاقاته مع النمسا ليست من الود بمثل ما كانت عليه أولا . فطارت هـذه الكلمات المبهمة على أجنحة السرعة فى مشارق أوربا ومغاربها ، وعُدّت نذيراً بحرب وشيكة . ولكن بلغ من تفكير الإمبراطور المتزن واعتقاده بفائدة عقد المؤتمرات الدولية ، أنه خيل إليه أن الحرب قد لا تنشب مطلقاً .

ولكن فى اللحظة التى لاحت فيها الأمور سوداء قاتمة فى عين كافور ،

إذ بدا له أن آماله فى نشوب الحرب ستطيش، جاءت إليه النمسا بالنجدة . فإن تلك البلاد التى كان فى المقدور على الدوام الاعتماد بأن تقع فريسة فى حبائل خصومها بلغت بها الحماقة أن تبعث فى ١٣ إبريل سنة ١٨٥٩ إنذاراً نهائيا إلى حكومة تورين تطلب منها فيه تجريدها من السلاح . فقدمت بذلك الذريعة التى كان ينشدها اجتماع بلمبيير لإعلان الحرب . فقد ظهرت النمسا بمظهر المعتدى . وسرعان ما خف مقاتلو فرنسا المغاوير تحت علم بونابرتى مرة ثانية — عند ما أعلنت الحرب رسمياً فى ٢٦ أبريل — خفوا إلى سهول إيطاليا بقلوب هزها الطرب ، وتغمرها ثقة لا حد لها .

سير الحرب

وأكبر ما يذكره دارسو التاريخ الحربى عن هذه الحملة الإيطالية هو أنها كانت ثبتاً طويلا من الأغلاط الحربية . فلقد كان يُظن أن النمساويين بعد أن أنذروا طويلا باقتراب الحرب منهم ، سيعمدون إلى توجيه بعض العناية إلى تحسين خطوط سككهم الحديدية . ولكن عقول رجال الحرب بطيئة فى استيعاب المخترعات الفنية ، فكأن واط وستيفنسن عاشا فى نظرهم عبثاً . فإن الحكومات المتنافسة وقواد الجيوش لم تعر احتمالات السكك الحديدية وفرص الانتفاع بها إلا الشىء الضئيل من اهتمامها . فلم يكن يربط فينا بتريستا سوى خط حديدى فردى واحد . ولم يكن هناك أى خط حديدى بين البندقية وتريستا ، مع أن المسافة بينهما سبعون ميلا . وبلغت غلبة الطرق العتيقة البطيئة التى ظلت سائدة فى تسيير الحروب ، أن النمساويين رغم أنهم هم الذين أشهروا الحرب ، وحشدوا جيوشهم على حدود بيدمنت ، فإنهم لم يبذلوا أى جهد للقضاء على البيدمنتيين أولا ، ثم يركزون بعد ذلك قواتهم ضد الفرنسيين . وبدرجة من العجز والتقصير تكاد لا تصدق زحف جيولى « Giulay » القائد النمساوى داخل حدود بيدمنت . ولكنه انسحب منها ، ثم سلم فى استكانة زمام الأمر لخصمه .

بيد أنه رغم تألق الاسم الذى يحمله الإمبراطور الفرنسى ، والمجد الذى يحف به ، فإنه لم يكن قائداً . فقد رُسمت خطة للحرب أغفلت فيها السكك

الحديدية ، لأن راسمها كان قائداً من قواد نابليون القدامى — بدلا من تطبيق الخطط التى يقضى بها العقل والزمن . ولهذا فإن نابليون الثالث الذى اضطلع بالقيادة العليا ، والذى اتبع قواعد يومينى Jomini [١] اتباعاً أعمى — كان سيعرِّض جيشه ، وهو يزحف به صوب الشمال ، لهجمات خطرة كثيرة ، لو أن خصمه كان يقظاً ساهراً . ولكن القيادة النمساوية كانت فى حال أسوأ حتى مما كانت عليه قيادة الجيش الفرنسى . ولهذا أفلح الجيش الغازى فى جميع حركاته ، وبلغ جميع أهدافه : فقد أفلح فى زحفه إلى الشمال ، وفى تقدمه شرقاً صوب ميلان التى احتلها فى ٧ يوليو بين تهليل السكان وترحيبهم البالغ ، وأفلح فى الظفر بعدوه فى الملحمتين العنيفتين اللتين يلوح أن كل شىء فيهما لم يسر طبق الخطة الموضوعة وهما : ماجنتا Magenta (فى ٤ يونيو) ، وسلفرينو Solferino (فى ٢٤ يونيو) . بيد أنه شكراً لبسالة الجند الفرنسيين والبيدمنتيين ونخوتهم ، ما حل شهر يوليو حتى كان الملكان المتحالفان يسيطران على لمبارديا .

غير أنه فى هذه المرحلة من مراحل القتال التى ما زال فيها أنين جرحى سلفرينو يَقِر آذان نابليون، اتصل هذا العاهل فجأة بفرنسيس چوزف إمبراطور النمسا الشاب ، وتهادن معه فى ١١ يوليو سنة ١٨٥٩ فى ڤلافرنكا Villafranca ، فاستهدف يومئذ وبعدئذ بعمله هــذا ، إلى اتهامه بالغدر بقضية إيطاليا أشنع غدر . فإنه دون أن ينال موافقة ڤكتور عمانوئيل ، وفى صباح انتصار حربى أكيد ، أنهى الحرب بغتة . واتفق مع النمسا على أن تتنازل لبيدمنت عن مقاطعة لمبارديا ، ولكنه أبقى فى يدها مقاطعة البندقية . وقنع فى ذلك الحين بأن ينزل عن نصيبه فى الأعواض التى وعده بها كاڤور ،

---

(١) قائد وكاتب حربى منحدر من أصل سويسرى . ولد سنة ١٧٧٩ ، وانخرط فى سلك جيش نابليون ، وحارب معه فى ملحمتى أسترلتز وييناً ، ولكنه انضم إلى الجيش الروسى ضد نابليون سنة ١٨١٣ . وتفرغ بعد الحرب للتأليف فى الموضوعات الحربية . وتوفى سنة ١٨٦٩ .

نظراً لعدم قيامه بنصيبه من الصفقة المتفق عليها ، قائلا لفكتور عمانوئيل : فلتدفع لى نفقات الحرب ، ولن نتكلم بعد ذلك عن نيس وساڤوى .

أما كاڤور فبلغ به السخط حداً دفعه إلى الاستقالة من منصبه حين سماعه خبر قبول مليكه هذه الشروط . ويمكننا بلا ريب أن نقدر تقديراً جيداً مدى الخيبة التى أحسّ بها فى تلك اللحظة . فإنه كان قد وُعِد بإنشاء دولة إيطالية نُزع نير النمسا نزعاً تاماً عن جميع أرجائها — دولة إيطالية حرة تمتد من الألب إلى الأدرياتى . وها هى ذى بيدمنت بعد أن أوفت بعهودها ، وبذلت الجهد الحربى الذى فى طوقها ، وها هى ذى إيطاليا بعد أن تحفزت من أقصاها إلى أقصاها للحركة والعمل ، وبعد أن استرجعت ميلان ، وفى وقت كان جيش فرنسى كبير ما زال فى أرض الوطن الإيطالى — أُبرِم صلح تُرِكت فيه النمسا كما كانت من قبل ، ثابتة القدم فى مقاطعة إيطالية شهيرة ، وفى مركز يمكنها من إبقاء النظام الإكليريكى المطلق يسيطر على أغلب الولايات الإيطالية : هذا النظام المعارض للمصالح الإيطالية ، والذى جاهدت من بادىء الأمر سياسة بيدمنت أكبر جهاد فى نبذه .

سخط الإيطاليين

ولهذا فمن اللحظة التى عقد فيها نابليون هدنة ڤلافرنكا تغيرت عواطف إيطاليا كلها نحوه . فحلّ على أثرها فى قلوب الإيطاليين شعور مقت واشمئزاز أزاء الفرنسيين كخونة غدروا بقضية الحرية الإيطالية — حلّ ذلك محل التهليل الحماسى والترحيب البالغ اللذين استُقبِل بهما الفاتحون عند دخولهم المظفر فى ميلان . ومع هذا فإن من بين جميع أعمال نابليون الثالث ، ليس ثمة سوى أعمال قليلة أبان فيها عن حكمة أكبر ونظر أبعد من قراره المباغت بإنهاء الحرب الإيطالية عقب نصر سلفرينو . فقد كانت الخسائر التى نزلت بالجيش الفرنسى فادحة ، وسُجِّلت بعض حالات الكوليرا فى معسكرات الجند . وكان ينقص جيشه نقصاً فاحشاً جميع المعدات اللازمة للنجاح فى كفاح طويل الأمد : كوسائل النقل والمؤونة وأجهزة المستشفيات . فتحركت عواطف

نابليون الإنسانية – وهى على الدوام عامل معقل – عند مشاهدته مناظر الحرب المؤلمة وفظائعها الواقعة .

وفكر فى نفسه بأن العدو – غم إيقاع بعض الهزائم به – ما زال سليما ، متماسك البنيان ، ويمكنه على الأرجح أن يقاوم تقدمه مقاومة فعالة ناجحة بمساعدة خط الكوادرلاتيرال الشهير الذى يشمل المواقع المحصنة الأربعة الشهيرة : ڤيرونا ومنتوا وبشييرا ولجنانو . وحتى إذا لم يكن هناك أى خطر يخشاه نابليون من ناحية ألمانيا ، فإنه كان أمراً مشكوكاً فيه ، فيما إذا كان فى مقدرة الحليفتين فتح مقاطعة البندقية . ومع ذلك فإن الخطر الألمانى كان رهيباً ماثلا . فقد وصلت إلى نابليون رسالة مستعجلة من باريس تنبئه بأن جيشاً بروسيا يُعبَّأ فى جهات الرين ، وأنه إذا لم يبرم مع النمسا صلحاً عاجلا ، فإن هذا الجيش سينقض على الفور على قلب فرنسا . وعلى ذلك كانت لدى نابليون أسباب قوية عديدة تبرر رغبته فى دفع هذا الخطر ، ولو أن تلك الأسباب خفيت على كاڤور وأصدقائه . ولهذا اتفق مع النمسا على عقد مؤتمر فى زيورخ ليقرر مستقبل إيطاليا .

٢ – الحركة الوطنية الإيطالية بعد الحرب

الحركة فى وسط إيطاليا

وكانت الأحداث التى تلت عقد الهدنة فورة من تلك الفورات الجياشة الفجائية للشعور الشعبى : تلك الفورات التى توقع الخطأ بجميع تقديرات السياسيين وحساباتهم . فقد أعلن سكان وسط إيطاليا نيتهم على الانضمام إلى بيدمنت. وخرجت الإمارات الصغيرة : مودينا وپارما وتسكانيا على حكامها . واجتاحت ولايات رومانا وأمبريا والمارش موجة طاغية من الحماس البالغ للاندماج فى المملكة الإيطالية الجديدة فى الشمال – تلك المملكة التى كانت تضطرم هى أيضاً حمية وتحمساً ، وهو أمر لم يحسب نابليون وكاڤور له حساباً فى اجتماعهما ببلمبيير ، وكان ينقض مشروع إمبراطور فرنسا الخاص

بإنشاء مملكة فى تسكانيا يحكمها الأمير جيروم بونابرت ، كما كان بغيضاً للبابا ، إذ يؤدى إلى تقطيع أوصال ممتلكاته ، ومقيتاً فى أعين النمسا لأنه سحب السلطة من أيدى الأمراء الإيطاليين الضالعين معها والخاضعين لنفوذها ، وجعلهم معرضين لأن تُتَلّ عروشهم ، إما بواسطة الجمهوريين الايطاليين المتحمسين لمقاومتهم ، والذين كانوا فى الوقت نفسه يكرهون الكراهية كلها الخضوع لبيدمنت ، وإما بتدخل الدول الأجنبية .

ريكاسولى فى تسكانيا

بيد أنه أنقذ الموقف ظروف ثلاثة . فقد كانت دوقية تسكانيا الكبرى أشهر ولايات إيطاليا الوسطى وأعظمها نفوذاً . وقد حكمها لمدة مائة وواحد وعشرين عاماً أمراء من بيت لورين حكماً فطناً رحيما . ولذا كان يحق للمرء أن يخال أن الروح الإقليمية ستكون فى أوج عنفوانها فى تلك المقاطعة ، وأن تقاليد الاستقلال الكريم الذى كانت تتمتع به ستجد فيها آذاناً مفتوحة . هذا إلى ما يجره قبول حكم بيت ساقوى على أهلها من فقد الكرامة والمركز الممتاز . ولكن حدثت مصادفة سعيدة فريدة فى نوعها ، إذ نزل ليوبلد الثانى آخر أدواق بيت لورين عن عرش تلك الولاية نتيجة لضغط الشعور القومى الشديد . وانتقلت زعامة التسكانيين بين تهليلهم وتكبيرهم ، لا إلى سياسى محترف مندفع يسير وراء نزوات الجماهير الصاخبة ، بل إلى نبيل كريم الشمائل حميد المناقب ، مخلص فى وطنيته ، رائع فى تحمسه ، سليم فى حكمـــه على الأمور هو : بنيتو ريكاسولى « Benito Ricasoli » (١٨٠٩ – ١٨٨٠) . فإنه فى هذه اللحظة الحرجة الدقيقة التى توقف فيها كل شىء على حكمة فلورنسا أو غفلتها ، لتأثيرها الكبير فى مجرى الأحداث فى مودينا وبارما وغيرهما من ولايات وسط إيطاليا ، عمل هذا السياسى الكبير على توجيه التسكانيين فى ثبات وقوة إلى رفض الحل القائل بإنشاء مملكة خاصة بهم منفصلة عن بقية إيطاليا ، وإلى قبول بيت ساقوى حاكماً لهم . ولهذا فإن اسم ذلك الشريف التسكانى الثابت المبدأ لقمين بأن يخلد بين بناة الوحدة الإيطالية .

غير أن هذه الحركات الإقليمية ، وإن كانت قد نالت تأييد الشعب الإيطالى ومصادقته عليها فى الاستفتاءات التى أجريت فى ذلك الحين ، إلا أن تدخل الدول الأجنبية ربما كان عمل على قتلها ، لولا العطف الحار الذى لقيته إيطاليا فى تلك اللحظة الدقيقة من الحكومة الإنجليزية ، ولو لا هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن نابليون قد صار بتقيده بمحادثات بلمبيير شريك كاڤور المتواطىء . فإن ذلك السياسى الإيطالى الكبير بعد استقالة وجيزة الأمد رجع فى ٢٠ يناير سنة ١٨٦٠ إلى منصب رياسة الوزارة ، كى يدير دفة شئون دولته .

صفقة نابليون مع كاڤور

ولقد كان كاڤور يلم بالأفكار العابرة التى تجول فى مخيلة نابليون : كيف أنه يروم مشاهدة ابن عمه مستوياً على عرش فلورنسا ، ومشاهدة أمير من بيت ميرا يملك فى نابلى ، وكيف أنه يبغى ضمان مركز البابا ودعمه . وتذكر أن الامبراطور هو الذى اقترح أولا أن تقدم له بعض التعويضات مقابل مساعدته : وهى التعويضات التى تنازل عنها فى ڤلافرنكا . فرأى الآن أن يجيب مطالب نابليون ، لو أن هذا وافق على إدماج الولايات الإيطالية بمملكة سيده . فوافق نابليون على تلك الصفقة . واتبعت القواعد المألوفة التى تقضى بها الديمقراطية ، فأُجرِى استفتاء فى كل من تسكانيا ومودينا أظهر رغبتهما فى الانضمام إلى مملكة إيطاليا ، كما أُجرى استفتاء شعبى آخر فى ساڤوى ونيس انتهى بقبولهما الانضمام إلى فرنسا .

ولكن هذه الصفقة لا يمكن أن تفسَّر بأنها تمت لمجرد تحقيق رغائب الوطنيين الإيطاليين . فإن مملكة ڤكتور عمانوئيل الجديدة تخلصت قطعاً من مقاطعة متأخرة كان يسود فيها النفوذ الإكليريكى الرجعى ، وكان يشق عليها أن تثقفها ، كما أن نفقات الدفاع عنها كانت تبهظ كاهلها . ولهذا لم يؤدِّ نقل ملكية ساڤوى لفرنسا إلى نقص حقيقى فى قوة المملكة الإيطالية الجديدة . بل إنها عُوضت عنها تعويضاً سخياً بتملكها الولايات الوسطى . غير أن نقل ملكية ساڤوى كان زهرة شائكة لنابليون . فقد ترددت الأصوات

فى لندن وعواصم أوربية أخرى بأنها البداية الأولى – حتى وإن كانت بداية متواضعة – لسياسة ترمى إلى امتداد حدود فرنسا الشرقية ، وإلى إعادة النظر فى المعاهدات التى وضعتها الدول الظافرة فى الحروب النابليونية لتقليم فرنسا من أطماعها الجارفة . فشكت الملكة فكتوريا شكاية مرة من أن إنجلترا قد خُدعت وغُرِّر بها ، حتى أن المعاهدة التجارية التى كان نابليون الثالث قد أبرمها سنة ١٨٦٠ مع كبدن Cobden وزير التجارة البريطانية ، والتى أبيحت فيها حرية التجارة بين البلدين ، والتى كلفت نابليون لهذا السبب الشىء الكثير من صدوف الشعب الفرنسى عنه ، لم تستطع أن تزيل الأثر غير الطيب الذى تركه امتلاك فرنسا لساڤوى فى نفوس الإنجليز . ومن تلك اللحظة بدأت السمعة الطيبة للإمبراطورية الفرنسية الثانية تتضاءل تضاؤلا محسوساً فى أوربا ، وبدأ يُنظر إلى نابليون كمعكِّر للسلام ، وعدو للنظام القائم ، وأنه يعمل على الدوام ، حتى وراء ستار حرب قومية ، لاسترجاع تفوق فرنسا فى قارة أوربا .

كافور ومازينى

ولم تكن بين الصعاب التى أقضت مضاجع العاملين على تحرير إيطاليا ، صعوبة أشق من المعضلة الخاصة بكيفية معاملة مازينى وأشياعه من المتآمرين الجمهوريين . فإن سياسياً من طراز كافور ، يؤمن بفائدة العمل عن طريق الحكومات المنظَّمة ، والجيوش النظامية ، والأشكال المرعية فى الضغط والإغراء الدبلوماسيين ، لم يكن يرى ما هو أشد خطراً من التعامل جهراً مع متآمرين سافرين ، أو التواطؤ معهم فى دسائسهم ، ولكن لم يكن فى المستطاع عند النظر إلى الموقف نظرة هادئة بعيدة عن الهوى ، إنكار الأمر بأن المؤامرات ، رغم قبحها ومقت الناس لها ، ورغم انطوائها على الإجرام واليأس ، كانت على الأقل ذات أثر فى لفت أنظار الناس فى الخارج إلى شكايات الإيطاليين وظلاماتهم ، وفى إذكاء الحماس السياسى فى قلوبهم .

فلو أن كافور ثبط من همة القائمين بالمؤامرات ، وأشاح بوجهه عن الدسائس كلية ، لكان عمله بمثابة محاولته القضاء على الدافع الأعظم والمؤثر

الأكبر في الحركة الإيطالية ، على حين أنه لم يكن في مقدوره أن يدع سلاحاً قوياً كهذا يفلت من يده . ولهذا لم يرم إلى إبعاد قلوب المتآمرين عنه بأخذهم بالشدة ، بل عمل على جذبهم إليه بألوان الوعود والإغراء ، على حين كان يتظاهر باستنكار أى عمل يصدر منهم ، تستهجنه لندن أو باريس . فأخذ يحارب المؤامرة بالمؤامرة ، ووجد فى جمعية « لا فارينا » La Farina الوطنية جمعية منظمة تقبل أن تستمد سلطتها وتوجيهها من حكومته ، وتقوم بتحقيق هدفه الرئيسى .

كافور وغاريبالدى

وفوق هذا تمكن كافور من استمالة غاريبالدى إلى الانضواء تحت علمه . فارتدى هذا البطل المغوار فى حرب عام ١٨٥٩ البزة العسكرية الخاصة بمملكة سردينيا ، كقائد قوة غير نظامية من قنّاصى الألب ألّفت لهذا الغرض ، وهو إشراك القائد العظيم لحرب العصابات فى أعمال الجيش الملكى السردينى . وقد بانت أهمية هذا الانضمام بعد وقت وجيز .

الثورة فى صقلية ونابلى

فإنه بينما كانت الأحداث الجليلة التى أشرنا إليها آنفاً تجرى فى الشمال ، كان كرِسْبى Crispi ، وهو متآمر جمهورى صلب الرأى واسع الحيلة — كان يحرك الفتنة فى صقلية للانقضاض على فرنسيس الثانى البوربونى ملك نابلى . وكان كرسبى جباراً عنيداً ، كما كان نطاق المؤامرة فسيحاً واسعاً . وكانت طباع أهل الجزيرة الذين ألفوا حيناً طويلا من الزمان العصيان والتمرد ، تشير إلى احتمال نجاح ثورة جمهورية . وكان كرسبى فى حاجة إلى سيف مسلول ، إذ كان الموقف يتطلب وجود جندى يستطيع أن يشعل خيوط الفتنة فى تمرد ، ويذكى نار التمرد فى حرب مستطيرة ، ويخرج من أتون النار نصراً مبيناً . وإذ رأى كرسبى أن سيف غاريبالدى المدافع عن ذمار الجمهورية الرومانية قد بات الآن مغمداً عاطلا ، كان من الطبيعى أن يتجه ذهنه إلى استخدامه . فلما تحققت خطته ، وصار اشتراك غاريبالدى سرًّا مكشوفاً ، هفت القلوب إليه تدعو له بالنصر والتوفيق فى صقلية ، وهو يجاهد لتحرير الجنوب .

وكانت ثمة أسباب قوية عديدة ماثلة مثولا كاملا فى ذهن كافور الحكيم —

ذلك الذهن الذى كان يحسب لكل أمر حسابه — تدعوه إذا أمكن إلى تأجيل إدماج الجنوب فى مملكته التى كُوِّنت حديثاً جداً ، والتى ما زالت غير كاملة الانسجام والتنظيم . فقد كان الجنوب على تمام النقيض من الشمال فى تأليفه العنصرى ، وفى بنائه الاجتماعى وفى درجة ثقافته ، وفى استعداده للأخذ بأسباب الحياة العصرية ، وهوَت به الحكومات الرديئة إلى درك الجهالة والبربرية ، وراجت فيه الألوان السفلى من الخرافات ، وكان قطع الطرق فيه فاشياً ، وتأليف الجمعيات السرية لارتكاب الجرائم سرطاناً يفترس قوى الأمة افتراساً . ويضاف إلى هذه المساوئ الخلقية والسياسية بلاء آخر ، هو فقر الجنوب المدقع ، بجميع نتائج الفقر السيئة وعواقبه المعقدة الناجمة عن خمول الإنسان وبخل الطبيعة .

غاريبالدى فى صقلية

ورأى كاڤور أن اضطلاع الحكومة الإيطالية الجديدة فى تورين فى هذا الوقت الباكر غير المناسب بمعالجة المعضلات الكبيرة غير المألوفة السائدة فى الجنوب قد يقصم ظهرها . بيد أنه رأى فى الوقت عينه أن التأجيل غدا مستحيلا . فقد صارت الحركة الثورية فى صقلية خارجة عن نطاق قدرته على منعها . ففكر فى أنه يمكنه هديها ، ولكنه ليس فى مقدوره وقفها ، بل إنها قد تتخذ شكلا جمهورياً وخيم العواقب إذا هو أحجم عن التدخل . ولكنها قد تُروَّض على قبول الملكية . ولهذا رُكِّزت الآمال فى غاريبالدى . ففى ٥ مايو سنة ١٨٦٠ أقلع هذا القائد الكبير — بتواطؤ سرى مع كاڤور — ميمما وجهه شطر صقلية . وكان يحمل معه بزة جنرال بيدمنتى ، واتخذ شعاراً له : « تحت لواء إيطاليا وڤكتور عمانوئيل » .

وإن قصة مغامرة غاريبالدى العجيبة فى صقلية : كيف نزل فى ١١ مايو سنة ١٨٦٠ فى مرسالا Marsala على رأس ألف من المتطوعين البدو الجفاة الذين جُمعوا من أخلاط عدة ، وكيف انقض فى ١٥ مايو على كالاتافيمى Calatafimi ، واستولى عليها . ثم شق طريقه عنوة إلى بالرمو ، وكيف تمكن فى نهاية شهور ثلاثة من تطهير الجزيرة من جنود ملك نابلى — إن قصة

هذه المغامرة ، حتى مع عدم إغفال الجبن والعجز وضعف الحيلة التى أظهرها خصمه ، والعطف العام الذى قابل به الصقليون رجال غاريبالدى إن هذه القصة لمثال رائع لقوة التأثير الأدبى للزعامة فى أزمنة الحروب .

غاريبالدى فى نابلى

وبعد أن تملك غاريبالدى صقلية ، عبر المضيق إلى إيطاليا . وقد سمحت له الدول البحرية العظمى التى كان فى مكنتها أن تعرقل مروره لهذا السبب أو ذاك — سمحت له الدول باجتيازه من غير أن تحاول اعتراض طريقه . ومن ثم تكررت ذات القصة العجيبة الفذة التى شهدناها أولا فى صقلية — تكررت على أرض المملكة النابلية بين تلال كالبريا Calabria المتغضنة ، وسهول جنوب إيطاليا الزراعية المنبسطة المتألقة فى أضواء الشمس ، وهى قصة خصوم جبناء ، وجيوش منحلة ، وجماهير مهللة مبتهجة مستبشرة . ولم يحاول فرنسيس الثانى أن يدافع حتى عن قصبة ملكه ، بل هرب فى ٦ سبتمبر على جناح النعامة إلى غايتا تاركاً نابلى لغريمه .

وأوشك نصر غاريبالدى أن يكون كاملا . ولكن لعل من حسن الطالع أنه لم يكمله ، فقد كان يفكر فى الانقضاض على روما والبندقية من غير أن يتدبر فيما يجره عمله هذا من وخيم العقبى . ولكن حاميات ملك نابلى فى غايتا وكاپوا Capua وقفت فى وجهه ، وحالت دون هذا الزحف الخاطف . فإن معارك حامية الوطيس نشبت بين ١٩ سبتمبر وأول أكتوبر على نهر الڤلتورنو Volturno بين الغاريبالديين والجند النابليين ، أبانت للأولين أنه فى مقدور حتى حامية نابلية خارجة من حصن كاپوا أن تعمل فيهم أنيابها .

٤ — الأطوار الختامية للحركة الوطنية

مخاوف كافور

وراقبت حكومة تورين من أول الأمر نجاح القمصان الحمر السحرى الباهر بأحاسيس امتزج فيها الإعجاب والفخار بالقلق والتخوف . فقد خشيت أن تتحول حركة تحرير صقلية ونابلى برمتها إلى فوضى صاخبة لا ضابط لها . كما خشيت أن يزحف غاريبالدى ، وكان قد مُنع بمشقة من

مهاجمة الولايات البابوية ، خشيت أن يزحف بعد انتصاراته فى نابلى على روما ، فيصطدم بالجنود الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ يحتلونها ، فيثير بهذا العمل معضلة دبلوماسية شائكة من أخطر نوع مع نابليون . فإنه فى كلتا الحالتين كانت قضية تحرير إيطاليا تتعرض لخطر جدى كبير . وكانت تكون بداية سيئة الطالع لمملكة إيطاليا الجديدة ، لو أنها أكرهت فى مستهل حياتها على إخماد تمرد وطنى فى نابلى وصقلية . كما أن الخطر لم يكن بأقل من ذلك لو أن نابليون الثالث ألفى نفسه مجبراً على شهر حرب شعواء فى وسط إيطاليا ، لكى يحمى أملاك البابا من انقلاب حكومى يحدثه غاريبالدى فيها .

ولكن بيدمنت تمكنت من تفادى هذين الخطرين الكبيرين . ولا يرجع نجاحها فى ذلك إلى المناقب الفذة التى أبداها كاڤور وغاريبالدى وڤكتور عمانوئيل فى هذا المأزق الحرج فحسب ، وإنما يرجع أيضاً إلى الرغبة العجيبة التى أظهرها أهل نابلى فى قبولهم الخضوع لبيت ساڤوى . فقد حزم كاڤور رأيه فى حكمة رائعة على أن الوقت قد حان لأن يبسط ڤكتور عمانوئيل سيطرته على وسط إيطاليا وجنوبها ، وأن يصفى الموقف مع غاريبالدى قبل أن يطأ الأخير بجنده ذوى القمصان الحمراء أراضى البابا ، فيحدثوا خرقاً لا يمكن رتقه . فنفّذ بدقة وسرعة برنامجاً كان قد اتفق عليه مع نابليون ، إذ عجل باحتلال أمبريا والمارش . وبذلك حالت الجند البيدمنتية بين القمصان الحمر وروما .

ضم معظم أملاك البابا

ثم أنفذ كاڤور قوة كبيرة دخلت الولايات البابوية . وأخذت تستولى على معاقلها الواحد بعد الآخر . وتمكن تشيالدينى « Chialdini » القائد البيدمنتى من تفريق شمل آخر فلول القوات البابوية تحت قيادة المغامر الجنرال لامورسيير « Lamorisière » فى معركة كستلفيدارو « Castelfidaro » فى ١٨ سبتمبر . وبذلك تمكن بحرب لم تطل أكثر من ثلاثة أسابيع من امتلاك الجانب الأكبر من الممتلكات البابوية ، بحيث لم يبق خاضعاً لسلطة البابا الزمنية سوى شقة ضئيلة تشتمل على مدينة روما والأراضى المحيطة بها . فقضى

بذلك قضاء نهائياً على سلطة آخر ولاية فى وسط إيطاليا كانت تناصر قضية الاحتلال الأجنبي وسيطرة الإكليروس فى ربوع إيطاليا .

ودُعى برلمان للانعقاد فى تورين لكى يصادق على سياسة الحكومة . وقد وافق هذا البرلمان فى ٤ أكتوبر بأغلبية كادت تكون إجماعية على تخويل الحكومة السلطة فى أن تضم إلى مملكة بيدمنت أى ولايات وسطى وجنوبية تظهر عن طريق الاستفتاء رغبتها فى الانضمام إليها . فأجرِى فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٦٠ استفتاء فى صقلية ونابلى ، أبان بأغلبية ساحقة عن رغبتهما فى الاتحاد . وبذلك تقوّى كثيراً مركز كافور السياسى ضد غاريبالدى ومازينى وأنصارهما ، الذين كانوا يبتغون إقامة جمهورية فى الجنوب ، تقابل المملكة الإيطالية الشمالية وتناهضها ، وقضى بذلك على الخطر الذى كان يهدد إيطاليا بالانقسام .

انزواء غاريبالدى

واضطر غاريبالدى ، وهو الرجل الوحيد الذى كان فى إمكانه أن يحطم الوحدة الإيطالية ، إلى أن يطرح جانباً فى اللحظة الفاصلة ميوله النفسية وأهواءه ونزواته ومطامعه الشخصية . فقد كان فى قرارة قلبه جمهورياً ، قبل نصرته الملك الذى حارب باسمه فى صقلية ونابلى ، والذى أوصى الآن بنى وطنه بالانضواء تحت علمه . وفى ٩ نوفمبر دخل ڤكتور عمانوئيل نابلى ، وإلى جانبه غاريبالدى ، وجابا شوارعها بين هتاف الشعب واغتباطه ، بعد أن عملا معاً متكاتفين على جعل إيطاليا دولة واحدة .

ولقد وصل غاريبالدي فى هذه الآونة إلى أوج سناه وقمة شهرته . فقد كسب جنوب إيطاليا ، ثم نزل عنه بملء اختياره . وظفر بزمام السلطة المطلقة ، ثم تخلى عنها بمحض إرادته . وعُرِضت عليه الألقاب الرفيعة والأوسمة المتألقة والثروة الطائلة ، ولكنه عزف عنها جميعها . فإن مظاهر هذه المدنية البراقة لم تكن شيئاً مذكوراً فى نظر هذا الطفل الكبير ، والجندى الباسل القديم . فلقد عرف بسليقته أن الطيور الجارحة تضنيها الأقفاص الذهبية وتقتلها . فببساطة سماوية صدف عن تلك الأمجاد والمفاخر التى طرحتها نابلى تحت

قدميه ، ونشر أشرعة سفينته صوب جزيرة كابريرا ، آخذاً معه قليلا من بذور محصولات الجنوب ، وبعض الخضروات ، وبعض الأسماك المملحة ، ومبلغاً ضئيلا من المال اقترضه ، لكي يعيش في جنباتها عيشة فاقة وكد مرهق . ولكنه أخذ في الوقت نفسه يعمل الفكر ، وهو يعيش بين رعاة البقر والماعز ، في خير السبل لاستكمال خلاص إيطاليا ووحدتها .

ذلك أن مقاطعة البندقية وروما كانتا لا تزالان خارج نطاق المملكة الإيطالية . ولم تكن تلك المملكة تستطيع ضم الأولى إليها إلا بهزيمة النمسا . أما الثانية فكانت تذود عنها فرنسا ، ولم يكن محتملا أن تخرج من يد البابا إلا في حالة انقلاب السياسة الفرنسية انقلاباً تاماً ، أو انهيار قوة فرنسا انهياراً غير مرتقب ، ولهذا فإن المراحل الأخيرة لحركة توحيد إيطاليا توقفت على التغيرات التي طرأت على التوازن الدولي في أوربا ، أكثر من توقفها على جهود الإيطاليين أنفسهم ، من غير مساعدة تأتيهم من الخارج .

تحالف بروسيا و إيطاليا

فإن امتلاك الإيطاليين للبندقية لم يكن ثمرة نصر إيطالي ، بل كان نتيجة تحالف سري هجومي ودفاعي ، أظهروا غاية الفطنة والبراعة في إبرامه مع البروسيين في إبريل سنة ١٨٦٦ . صحيح أن الإيطاليين اشتركوا في الحرب التي كان ذلك التحالف مقدمة لها ، ولكنهم لم ينالوا أي انتصارات فيها . بل على العكس منوا فيها بعدة هزائم في البر وفي البحر . أما الذي ظفر لهم بهذه الجائزة الثمينة ، فهو الجيش البروسي المظفر في ساحة سادوا — هذا الجيش الذي كان قد نظّمه ودرّبه فون رون Von Roon ، وقاده فون ملتكه Von Moltke ، والذي أضحى الأداة التي نفّذ بها بسمارك سياسته البعيدة الأهداف الكبيرة الأطماع .

دخول روما واتخاذها قصبة البلاد

وبعد تلك الحرب بأعوام أربعة ظفر ذلك الجيش البروسي عينه بانتصارات فاصلة على الفرنسيين ، أدت إلى استدعاء الجند الفرنسيين من روما . وبذلك فُتح الطريق لإقامة حكومة إيطاليا الملكية الجديدة في قصر الكورينال ، حيث لا تزال متربعة تمثل في شخصها روح القومية الإيطالية الصحيحة .

وأخذت ترسل صيحاتها وتحديها ، حيناً فى دوى هائل ، وحيناً فى صوت خافت ، إلى بلاط البابا الكهنوتى ، وحكمه الدينى العالمى .

البابوية والمملكة الإيطالية

وإن تأخير حل مسألة روما هذا الزمان الطويل يجب ألا يثير من جانبنا دهشة ، إلا إذا أبينا التسليم بالدور الكبير الذى لعبه رجال عنيدون صلبو الرأى جامدو الفكر على مسرح السياسة الإيطالية ، فكما أن أنطونللى Antonelli مستشار بيوس التاسع لم يستطع أن يرى فائدة من أى تنازل اختيارى ، مهما كان ذلك التنازل تافهاً ، عن أملاك البابا لأولئك الذين سعوا



نمو ايطاليا

إلى إنقاصها ، كذلك لم يطق غاريبالدى أن يسمح لرجل من رجال الدين بأن يظفر بشبر واحد من أرض الوطن المقدس ، كى ينفذ فيه سياسته الرجعية المتأخرة العقيمة . ولكن بين هذين الرجلين المتطرفين وُجدت آراء وسيطة .

فإن نابليون الذى كان من مناقبه أن يفحص أشوك الأمور وأعقدها فحصاً هادئا بعيداً عن الخيال والهوى ، رأى ضرورة انكماش الأملاك البابوية انكماشاً محسوساً لسوء إدارتها ، ومع ذلك تقدم بحجج ملائمة لتسويغ الرأى القائل بضرورة احتفاظ البابا بروما والأرض المحيطة بها . وقد استمر إمبراطور الفرنسيين متمسكاً بهذا الرأى ، الذى وإن كان بغيضاً للمتعصبين من رجال الدين ، والمتحمسين من الوطنيين الإيطاليين على السواء ، فإنه كان دليلا على فهم صحيح لسياسات التوازن الدولى .

وكان ثمة حل آخر لمسألة روما تقدم به كافور . فقد عرض على البابا أن تُمنَح الكنيسة استقلالا روحياً كاملا مقابل تنازله عن سلطته الزمنية . ولكن كافور عاجلته المنية فى ٦ يونيو سنة ١٦١ ، والمسألة الرومانية باقية من غير حل ، تعذب حكومة إيطاليا ، وتضنى ضمير أوربا . وقد حاول غاريبالدى الجموح مرتين أن ينقضّ على غريمه القديم فى روما . ولكن أحبِط فى المرتين مسعاه ، فقد ردته حكومة بيدمنت ذاتها خائباً فى أسبرومنت Aspromonte . (فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٦٢) ، وأنزل الفرنسيون بقواته الهزيمة فى منتانا Mentana (فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٦٧) ، بينما وقف جيش ملك إيطاليا — الذى كان قد تعهد باحترام الدولة البابوية — عاجزاً عن أن يمد له يد المساعدة .

ومع ذلك فإن نابليون لم يكسب إلا نفعاً ضئيلا من سفكه دماء الإيطاليين فى تلك الموقعة التعسة . وقد كتب الجنرال دى فيى De Failly الفرنسى عن البنادق الفرنسية الجديدة « بأنها صنعت العجائب » ، وهى كلمات لم يكن نسيانها سهلاً على شعب مرهف الحس — شعب حُكم عليه أن يتحمل فى صبر وتجلد هزيمة أكبر أبطاله الأحياء فى ظروف بالغة الهوان له . غير أن الإمبراطور الفرنسى ، رغب فى إرضاء رجال الدين بفرنسا ، وبذلك أضاع الفرصة لعقد تحالف ثمين مع مملكة كان هو قد أعان على خلقها ، وتدين له بالكثير من الأيادى البيضاء .

وكانت العاقبة وخيمة عليه . فقد جاء عليه حين فى سنة ١٨٧٠ احتاج فيه إلى

مساعدة إيطاليا . ولكنها أمسكت يدها عنه . فأكره على الوقوف منفرداً من غير سند أو صديق ، فى وجه الهجوم الهائل الذى شنته عليه ألمانيا المدججة بالسلاح .

وقد انصرم الآن قرابة قرن منذ أن تمكنت شعوب إيطاليا المتعددة التى درجت رغم نطقها بلسان واحد ، وتوارثها ثقافة وتقاليد واحدة ، وسكناها بقعة واحدة من الأرض ، على أن ترمق بعضها بعضاً بعين البغضاء وسوء الظن — انصرم عليها قرن منذ أن تمكنت من الانضمام بعضها إلى بعض تحت حكم بيت ساڤوى . وصمد هذا الاتحاد الذى لاح فى أعوامه الأولى مزعزعاً واهياً إلى أقصى درجة ، أمام عواصف الدهر وأنواء الأحداث . وتضاءلت خلال تلك الحقبة الفروق الخاصة التى بين الشمال والجنوب . وتدعمت الملكية ، وتعمقت أصولها . وأزالت روح قوية — بل روح عنيفة — من الوطنية القومية ، الأهواء المحلية المكينة ، والتعصب الإقليمى الدفين الذى ساد فى العصور الماضية . فلا يبغى الآن إيطالى واحد أن يشاهد عودة تلك الأيام التى كانت فيها بلاده منقسمة منشقة بلا حول ولا قوة .

وإن هذا النجاح الذى صادفه اتحاد إيطاليا ليثير فى النفوس دهشة أعظم نظراً إلى أن الملكية الإيطالية كانت محرومة من تلك الدعائم التى تساعد فى أقطار أخرى على تثبيت الأنظمة الملكية . فلم يكن يحيط بالعرش الإيطالى سناء طبقة أرستقراطية عريقة القدم ، أو يزيده بهاء وتألقاً تراث طويل المدى من المجد والشهرة ، أو تعمر انتصارات باهرة قلوب رعاياه . فقد اضطر الإيطالى ، حينما كان ينعم النظر فى حركة توحيد بلاده ، إلى الاعتراف بأنه بغير مساعدة فرنسا وبروسيا ، لم تكن إيطاليا لتستطيع أن تغدو دولة موحدة . فقد هُزِم الأسطول الإيطالى فى لِسَّا Lissa ودُحر الجيش الإيطالى فى كستزا . ونرى الكنيسة فى الأمصار الأخرى تضع عادة نفوذها الكبير برمته فى كفة سلطة الملك ، أما فى إيطاليا فقد كانت شديدة العداء للملكية التى جزت أملاكها ، وسلبت الكرسى الرسولى نفوذه السياسى الكبير التليد . فأصدر البابا أمراً باباوياً Non Expedit حرَّم فيه (من ١٨٧٤ إلى ١٩٠٣) على الكاثوليك المؤمنين أن يساهموا فى سياسة بلادهم . وكان عنف الانشقاق الدينى فى روما ذاتها واضحاً أشد الوضوح .

فقد اعتبر البابا نفسه سجيناً فى الفاتيكان . وكان البلاطان : بلاط ملك إيطاليا والبلاط البابوى ، مقطوعى الصلات، يكشران النواجذ أحدهما للآخر ، وكأن الفريقين من جهة العلاقات الودية ، رغم سكناهما مدينة واحدة ، يقيمان فى عالمين قصيين أحدهما عن الآخر .

ومع ذلك فقد عمَّرت الملكية فى إيطاليا . والتف رهط من السواس المقتدرين ذوى الضمائر الحية حول عرش فكتور عمانوئيل خلال الأعوام العشرة الأولى من تاريخ مملكته الجديدة ، وواصلوا عمل كافور ، يحف بهم حماس الشعب المضطرم الذى ولدته حركة البعث فى الأفئدة . فإيطاليا تذكر بالتقدير والعرفان بالجميل أسماء ريكاسولى ولامارمورا La Marmora ولانزا Lanza وسلا Sella ومنغتى Mingietti وإسپافنتا Spaventa ، كأولئك الرجال الذين نهضوا بالعبء الأفدح من العمل الابتدائى فى إقامة بناء الدولة الجديدة ، حتى أنه لما انتقلت السلطة عام ١٨٧٦ من أحزاب اليمين إلى أحزاب الشمال ، كانت أركان إيطاليا الجديدة قد وُضِعت على أسس سليمة قوية .

وكانت الأنظمة الاقتصادية الإنجليزية القائمة على مبدأ حرية التجارة ، ومد خطوط السكك الحديدية ، عاملا قوياً فى اتحاد إيطاليا السياسى . فمع أن ميول الإيطاليين الانفصالية كانت أقوى قبلا ، مما صارت إليه فيما بعد ، فإن قوة البخار ومساقط المياه كانت تجعل عودة الأوضاع والتقاليد القديمة التى فصلت بين الولايات أمراً لا يمكن احتماله . فإنه مهما تكن عديدة كبيرة الفوارقُ التى بين التسكانيين والبيدمنتيين وبين البنادقة ، أو بين النابليين وأهل الشمال ، فإن اعتبارات واضحة من الفوائد الاقتصادية لا يمكن إغفالها أجبرتهم على الاتحاد معاً ، والخضوع لحكم مشترك .

كتب يمكن استشارتها

Bolton King : A History of Italian Unity. 1924.
W.R. Thayer : The Life and Times of Cavour. 1915.
F.A. Simpson : The Rise of Louis Napoleon. 1925.
Pierre de la Gorce : Histoire Du Second Empire. 1908.
H. von Treitschke : Historiche und politische Aufsatze, Vol. II (Cavour) 1871.
G.M. Trevelyan : Garibaldi. 1933.
Bolton King : Life of Mazzini. 1912.
E.L. Woodward : Three Studies in European Conservatism. 1929.

الفصل الثامن عشر

صوب اتحاد ألمانيا

أشق عقبة فى سبيل الوحدة القومية الألمانية . أتو فون بسمارك . ظروف قبضه على زمام السلطة . الجيش البروسى ينجو من هيمنة البرلمان البروسى . اندحار المذهب الحر فى بروسيا . حبوط المشروع النمساوى لإصلاح الإمبراطورية الألمانية . العصيان البولندى عام ١٨٦٣ . فوز بسمارك بتحالف روسيا . الدوقيتان الدنماركيتان . حرب عام ١٨٦٤ ومعاهدة فينا . انفصام الحكم الثنائى النمساوى — البروسى للدوقيتين سنة ١٨٦٥ . نابليون الثالث . رضاؤه عن الحالة السياسية . نزوعه إلى المبادىء الحرة . مغامرته المكسيكية . الإمبراطور مكسمليان . تدهور هيبة فرنسا . بسمارك يطمئن نابليون فى بيارتز . حق الانتخاب العام يعرض على الألمان . حرب الأسابيع السبعة . اعتدال بسمارك فى فرض شروط الصلح . معاهدة براغ . اشتداد حنق فرنسا . الدستور الألمانى الجديد . موازنة بين الدولتين القوميتين : الإيطالية والألمانية .

١ — بسمارك يصير رئيس وزراء بروسيا

لم يكن أمراً بعيد الاحتمال أن يساعد انتصار القومية فى إيطاليا على إحياء الآمال فى إنشاء الاتحاد الألمانى — تلك الآمال التى سُحِقت بقسوة فى ثورات الأحرار التى نشبت سنة ١٨٤٨ ، وضاعت بين أطلالها . فإن ما صنعته ملكية بيدمنت ذات القوة الحربية الضئيلة لاتحاد إيطاليا فى دولة واحدة ، قد تستطيع فى سهولة بروسيا — الدولة الأكبر والأقوى منها كثيراً — أن تستكمله للألمان . وقد شاع هذا الأمل وقتئذ شيوعاً واسع النطاق . وكانت النمسا فى كلتا إيطاليا وألمانيا الخصم المشترك الواقف لهما بالمرصاد ، هذا برغم أن المسألتين الإيطالية والألمانية كانتا تختلفان إحداهما عن الأخرى فى ناحية هامة : وهى أن النمساويين كانوا

فى إيطاليا أجانب غرباء ، أما فى ألمانيا فلم يكن يُنظر إليهم هذه النظرة . بل كانوا يعدون بالأحرى عظما من عظمهم ، ودماً من دمهم — جزءاً مكملا لحياتهم المشتركة التاريخية .

بل إنهم عند الكثير من الألمان ، وخاصة عند ألمان الجنوب ، كانوا يفضلون كثيراً البروسيين ، وكان الكثيرون منهم تجيش فى نفوسهم آمال غامضة بالوحدة الألمانية ، ويهلعون وجلا من شبح الحرب التى قد يُجبرون على خوضها ضد النمسا ، ويصرخون مطالبين بجعل ألمانيا دولة واحدة ، بينما كانوا يغمضون أعينهم ، حتى لا ترى الثمن البغيض — ولكنه الثمن الضرورى — الذى سيلزمون بدفعه . ولو أن استفتاء للشعوب الألمانية كان أجرِى فى أى وقت خلال العقد السابع من القرن المنصرم ، لما أقرت أغلبيتها حرباً ضد النمسا ، أو وضع ألمانيا تحت سيطرة بروسيا . ولم تكن حكومة تستطيع أن تفكر بالنهوض بهذا العمل الضخم سوى حكومة حزمت أمرها فى قسوة وصرامة على الضرب بالرأى العام عرض الحائط ، والتعرض لخطر انقسام ألمانيا ، ومواجهة حرب أهلية بويلاتها الكثيرة . ولم يكن ليضمن نجاح الوصول إلى هذا الهدف الكبير سوى أحكم الاستعدادات الحربية والدبلوماسية وأدقها .

وإن شخص بسمارك الضخم الجبار الذى كان يرى أن الرجل ما ينبغى له أن يلقى ربه إلا بعد أن يدخن مائة ألف سيجار ، ويجرع فى جوفه خمسة آلاف زجاجة من الشمبانيا — إن شخص بسمارك لهو استجابة الطبيعة السخية الواسعة الكرم للشروط القاسية التى كان يفرضها هذا العمل الهائل على من يتقدم للاضطلاع به . فإن من خصائص ذلك الرجل الفذ ، أنه بينما كان مرناً غاية المرونة فى الجزئيات ، أدرك من بادئ الأمر الوجوه الكبرى للمسألة الألمانية ، ولم يسمح بتاتاً لأية همسة من همسات الضمير أن تتدخل فى تنفيذ خططه . ففى سنة ١٨٦٢ ، أى بعد مضى عام على وفاة كافور — أفضى بسمارك إلى دزرائيلى بقصده فى إشهار الحرب على النمسا فى أول فرصة مواتية . وقد قال يومئذ ذلك اليهودى النافذ البصيرة لمن حوله : « خذوا حذركم من هذا الرجل ، فإنه يعنى

ما يقول » . والحق أنه ما مضت أعوام أربعة حتى أشهر بسمارك الحرب التى رأى من أول الأمر لزومها لتحقيق خططه السياسية . هذا برغم أن ألمانيا قاطبة كانت معادية لهذه الحرب ، مستنكرة إياها ، ولم يكن له من الأشياع غير فريق العسكريين .

وقد تميز حكمه العجيب العظيم — الذى دام من سبتمبر سنة ١٨٦٢ إلى مارس سنة ١٨٩٠ — تميز فى بدايته بمبارزة من تلك المبارزات الدستورية النادرة ذات الأهمية الدائمة فى تاريخ الأمم . فإن وليم الأول الذى تقلد زمام الأمر فى بروسيا سنة ١٨٥٨ بوصفه وصياً على العرش حين استحكمت أعراض الجنون على أخيه الملك فردريك وليم الرابع — كان جندياً بسيط المظهر ، حى الضمير ، يؤدى واجباته فى أمانة . وكان يمقت مقتاً عميقاً جميع الحركات الشعبية ، نتيجة لخبرته بثورة سنة ١٨٤٨ . ولم يكن ذلك الملك الكهل متحلياً بأية سجية من سجايا المثالية الألمانية ، بل كان يكفيه أن يعمل على أن تصبح بروسيا قوية ، بحيث لا تُجبر مرة أخرى بسبب ضعفها الحربى على أن تغض الطرف عن إهانة توجَّه إليها . ولقد وجد هذا الملك فى ألبرت فون رون وزيراً للحرب حسبما يهوى فؤاده . فرسما معاً خطة لتكبير الجيش البروسى وإعادة تنظيمه . ثم قدما مشروع قانون إلى البرلمان البروسى يقضى بزيادة عدد الجيش ، وجعل مدة الخدمة العسكرية ثلاث سنين بدلا من سنتين ، وزيادة الاعتمادات المالية للجيش . ولكن المجلس الأدنى (مجلس النواب) رفض ذلك المشروع .

وأبى كل من الملك والمجلس أن يحيد قيد أنملة عن موقفه . وتعقد المأزق ، وطال أجله . فالبرلمان يأبى الموافقة على زيادة الجيش وتقويته ، وفون رون وسيده الملك يجندان فرقاً جديدة ، كأن المال المطلوب وافق عليه البرلمان بالفعل . وأقيم بمناسبة رأس عام ١٨٦١ احتفال مهيب لتقديم الأعلام للأورط الجديدة . وفى اليوم الثانى مات فردرك وليم الرابع ، فارتقى وليم الأول أريكة الملك ، وجابه فى مطلع حكمه هذه الأزمة الدستورية الكبيرة . فأمر فى ١١ مارس سنة ١٨٦١ بحل مجلس النواب ، وأجريت انتخابات عامة فى ٦ مايو . ولكنها خيبت آماله .

فقد أعادت مجلساً أقل محافظة ، وأشد تصميما من المجلس السابق على الإشراف على أعمال الحكومة .

فتحور الخلاف بين الفريقين ، ولم يبت مسألة إطالة مدة الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنين ، بل نادى البرلمان بأنه يجب أن يكون هو السيد المطاع — كما هى الحال مع البرلمان الانجليزى — وأنه ينبغى أن تقرر شؤون الجيش والمالية والسياسة الأجنبية وفق إرادة الشعب ، حسبما يعبر عنها ممثلوه . ولو أن هذا المطلب كان أجيب يومئذ ، لاتخذ تاريخ ألمانيا وأوربا بأكمله وجهة أخرى .

بيد أن ما لقيه مجلس النواب فى ذلك الوقت من مقاومة ناجحة يرجع إلى تدخل بسمارك القوى الصلب العود . فقد دعاه فون رون لإنقاذ الموقف . وقبل بسمارك أن يتقلد رئاسة الوزارة . فنفخ روحاً من الشجاعة فى الملك الوجل الذى كان قد كتب فعلا إعلان تنازله عن العرش ، وواجه هجمات السياسيين العنيفة . ورغم إعصار من الطعن والهجو ، احتفظ بسمارك بوجهة نظره بأن الجيش فى بروسيا أمر مقدس يجب ألا يخضع لأية سيطرة برلمانية . ومما هو جدير بالذكر أنه عند ما وضعت الحرب ضد النمسا أوزارها سنة ١٨٦٦ ، حصل بسمارك على قانون تضمينات صادق فيه البرلمان على النفقات التى كانت الحكومة قد تكبدتها من غير أن تنال مصادقته . ولم يبد على بسمارك أى مظهر من مظاهر التوبة والندم .

فإنه لم يكن مستعداً — لا فى هذا الوقت ولا بعدئذ — أن يقبل السير بمقتضى النظام البرلمانى الإنجليزى . وقد مكنه انتصار الجيش البروسى الساحق فى تلك الحرب من أن يتحدى آراء الأعضاء الأحرار الذين كانت لهم الأغلبية فى البرلمان من غير أن يخشى عقاباً ، وأن ينقش نقشاً عميقاً فى الحياة الدستورية الألمانية هذا المبدأ ، وهو أن البرلمان وإن أجاز ضرائب جديدة ، أو ناقش مشروعات القوانين ، فإن هناك أموراً ثلاثة خارجة عن نطاق سلطاته وهى : ليس له أن يتناقش فى المسائل الخاصة بالجيش ، ولا أن يضع سياسة الدولة ، ولا أن يؤلف أو يقيل الوزارات كما هو الحال فى إنجلترا . وقد استمرت هذه المبادئ يُسترشد

بها فى الأوضاع الدستورية الألمانية حتى آخر أيام إمبراطورية آل هوهنتزولرن سنة ١٩١٨ .

بسمارك والأحرار الألمان

ولكن يجب ألا يُظن أن أنصار إقامة حكومة مسئولة فى بروسيا رضخوا لهذا التحدى . فإن الأحرار الألمان الذين كانت كثرتهم رفيعة الثقافة عامرة الوطنية ، مع إدراكهم النفع الذى يترتب على تقوية الجيش ، كانوا لا يقلون اهتماماً بحماية الحرية القومية . ولقد كانوا موضع عطف ولى العهد[1] وزوجه الإنجليزية — ابنة الملكة ڤكتوريا — الذكية الفؤاد المضطرمة الحماس ، ولكنها غير الحكيمة . وكان يؤيد أيضاً هؤلاء الأحرار أساتذة الجامعات بعلمهم ونفوذهم . ولم تكن ثمة قذيفة من قذائف الحجج والأفكار التى استمدوها من الجعاب الرحبة للتقاليد والتجارب البرلمانية الإنجليزية ، إلا صوبوها إلى رأس ذلك الوجيه البروسى المتعجرف الذى ذاد بمفرده عن حصن الحكم المطلق فى بلاده ، ورد عنه كيد الهاجمين . غير أن بروسيا لم تكن إنجلترا ، فإنها كانت أشد منها إقطاعية ، وأميل إلى الروح الحربية ، وأكثر منها تأخراً فى ميدان الصناعة ، نظراً لتأخر بدء النظام الصناعى الحديث فيها .

ولهذه الأسباب جميعاً كانت المبادئ الحرة فى نظر بسمارك قوة لا يؤبه لها ، ولم يخش أن يظهر ازدراءه بها ، وكان يعتقد أن من اليسير عليه سحقها ، وإحلال مبادئ أخرى مكانها .

ومع أن بسمارك كان يحب الإنجليز ، ويجل قدرهم ، إلا أنه كان يرى أن مبادئ الحكم الإنجليزية ، إذا هى نُقلت إلى بروسيا ، فإنها تجر عليها الخراب والنكبات . ولهذا كان من الضرورى له قبل إعلانه الحرب على النمسا سنة ١٨٦٦ أن يسحق أشياع هذه المبادئ وطلاب الحرية فى ألمانيا . ولقد كان نصره فى هذا المضمار تاماً باقى الأثر . بل لقد سُطِّر فوزه بحروف من نار فى تاريخ العالم . فإنه قاد ألمانيا فى طريق سياسات بعيدة الأهداف من التوسع ، تقوم على تنفيذ برامج حربية وبحرية طويلة الأمد .

---

(١) الذى صار فى مارس سنة ١٨٨٨ الإمبراطور فردرك الثالث .

وكانت الدولة فى عينه قوة ، والحرب — كما علَّم كلاوزفتز Clausewitz القائد والكاتب الحربى البروسى الذائع الصيت (١٧٨١ — ١٨٣١) — إن هى إلا مواصلة السياسة . والغاية والواسطة تتفاعلان إحداهما مع الأخرى ، فكلما ازدادت السياسة . أطماعاً ، ازداد نطاق التسلح ، وكلما ازداد نطاق التسلح ، اتسعت مجالات السياسة . ولهذا فإن تحوُّل أوربا إلى معسكر مدجج بالسلاح كان نتيجة محتومة لهزيمة الأحرار البروسيين عام ١٨٦٢ . وكانت طريق التسلح مأمونة العقبى ، طالما كان بسمارك ممسكاً بسكان الدولة .

ولكن هذه الطريق ما لبثت أن صارت بعد عزله من منصبه سنة ١٨٩٠ غير مأمونة . فقد اتسع نطاق المرامى والأهداف الألمانية وزادت المخاطرات ، حتى بات ممكناً فى نهاية الأمر لشعب عاطفى كالشعب الألمانى أن يؤمن بأن المقادير المسيطرة على شئون البشر قد دعته إلى رسالة سامية ، وأن عليه أن يضع نصب عينيه أن يعمل على تزعم العالم ، أو يهوى إلى قرار سحيق .

المشروع النمساوى لإصلاح الاتحاد الألمانى

وقد أوشكت عقبة قامت فى مستهل الأيام الأولى من وزارة بسمارك أن تهدم خططه كلها . وزاد من خطورة هذه العقبة تواريها عن الأنظار . ذلك أن النمسا وجهت دعوة إلى الأمراء الألمان لعقد مجلس منهم فى فرنكفورت لينعم النظر فى مشروع قدمته لإصلاح الدستور التعاهدى للريخ الألمانى . فلم يبدُ اقتراح من حيث مظهره الخارجى أكثر فائدة من ذلك الاقتراح . فإن هذا الدستور كان أسوأ دساتير العالم ، ولذا كان فى أشد حاجة إلى رتقه رتقاً شاملا . ولم يكن أحد أعرف من بسمارك بهذا الأمر ، وأشد منه شعوراً به . ولكنه رأى أن إصلاحات تنفَّذ بإرشاد النمسا ، وبتسليم بروسيا ، لم تكن لها سوى نتيجة واحدة وهى : تدعيم سلطان النمسا وتقويته فى ألمانيا . ولهذا كان من الضرورى فى رأيه ألا تمثَّل بروسيا فى فرنكفورت ، وأن يحبط المشروع النمساوى وهو فى المهد ، وأن تبقى فى الوقت عينه الطريق مفتوحة لإعادة تنظيم ألمانيا دستورياً تحت نفوذ بروسيا . ولكن ملك بروسيا الشيخ كان بطىء الفهم والتقدير لجميع هذه الوجوه .

ولم يتمكن بسمارك إلا بعد نضال طويل متشعب النواحى ، هدّد فيه بالاستقالة ، من نيل موافقته قسراً على وجهة نظره .

بسمارك يحبط المشروع

وافتُتح المؤتمر بفرنكفورت فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٦٣ ، ولكن بروسيا لم تكن ممثلة فيه . واستلم المؤتمر فى ٢٢ سبتمبر ردها على اقتراحاته ، وجاء فيه « بأنه يجب فى أى إصلاح للاتحاد أن تكون بروسيا على قدم المساواة مع النمسا فى رفض التصديق على إشهار الحرب ، وفى مسألة رياسة الاتحاد ، وأنها لن تتنازل قيد شعرة عن أى حق من حقوقها إلا لبرلمان يمثل الأمة الألمانية بأسرها » .

العصيان البولندى

ولقد امتاز أيضاً عام ١٨٦٣ ، الذى شهد هذه الصفعة للنمسا ، باندلاع فتنة فى بولندا الروسية قُسم لها أن تؤثر تأثيراً واسع المدى فى الشؤون الدولية . ومع أن هذا التمرد قُمعَ قمعاً عاجلاً قاسياً ، إلا أن دول أوربا الغربية لم تكن تعد قضية بولندا أمراً تستطيع الحكومات الممدّنة الإنسانية أن تنظر إليه بعين الاستخفاف وقلة المبالاة . فقد استفز الرأىَ العامّ فى فرنسا ، وحتى فى النمسا وانجلترا ، استفزازاً شديداً ، مشهدُ شعب باسل يحاول عبثاً أن يحتفظ بأركان حياته القومية تحت نير أجنبى جائر غشوم . ولهذا اتفقت حكومات تلك البلدان الثلاثة على أن تقدم إلى روسيا مذكرة مشتركة تحضها فيها على منح عفو عام واستقلال داخلى لبولندا .

بسمارك يؤيد روسيا

ودعيت بروسيا إلى تأييد هذا المطلب الدبلوماسى الذى لم يكن ثم رجاء كبير بإجابته . ولكن بسمارك لم يخالجه أى شك فى الفوائد التى يمكن أن تجنى من رفض هذه الدعوة رفضاً باتاً . والحق أنها كانت ضربة من ضربات حسن التوفيق ، أبان فيها بسمارك عن دراية تامة بانتهاز الفرص التى تخوله تنفيذ خططه ، وهى : أن يتاح لبروسيا أن تبعد نفسها بهذا الأسلوب القاطع من أية خطة تؤدى إلى مضايقة قيصر روسيا فى معالجة المشكلة البولندية . ذلك أنه فى هذه الفترة من فترات التوتر الدولى الشديد — فترة كيل فيها القدح والهجاء للحكومة الروسية فى كل مكان — مدّت دولة واحدة يد الصداقة إليها ، رافضة لا أن تشترك فى تقديم

المذكرة فحسب ، بل رضيت أن تمضى مع روسيا اتفاقية حربية تحمل فى ظاهرها دلائل اهتمامها المشترك معها فى بسط رواق الأمن بين شعب مشاغب . فضمن بسمارك من هذه اللحظة تحالفه مع روسيا — ذلك التحالف الذى كان قطب الرحى فى سياسته ، والشرط الأساسى لتتويجها بالنجاح . ومن تلك اللحظة أمكنه أن يشعر باطمئنان بأنه عند إشهاره الحرب على النمسا — وربما على فرنسا فيما بعد — وهى الحرب التى رأى ضرورتها لاستكمال مشروعه الأكبر ، ستكون بروسيا آمنة على حدودها الشرقية .

وكان هناك ضمان آخر لمتانة عرى الصداقة بين الدولتين ، وهو أن تلك الصداقة شيدت على دعائم أخوّة ودية منسجمة قائمة على اتباع سياسة من القمع والشدة . وقد كان أيضاً لبريطانيا رعايا شبيهون بالرعايا البولنديين المهضومى الحقوق : وهم الإرلنديون . وكما بكّتت المشكلة الإرلندية ضمائر الأحرار الإنجليز ، كذلك كان هناك ميل فى غرب ألمانيا ، وحيثما التأم عقد الأحرار الألمان ، إلى العطف على شكاوى البولنديين ، سواء أكانوا خاضعين لبطرسبرج أم لبرلين ، ورغبة فى رفع الجور عنهم . غير أن هذه العواطف الجميلة كانت مقيتة إلى قلب ذلك النبيل البروسى الذى رأى أن العلاج الوحيد للمشكلة البولندية فى بلاده هو تحويل البولنديين إلى بروسيين بأقل تأخير مستطاع ، والقضاء على لغتهم قضاء تاماً وإزالة ثقافتهم القومية من الوجود ، ونبذ تقاليدهم ، ومقاومة المبادئ الحرة التى كانت تسعى إلى الإبقاء على بعض مظاهر الأمة البولندية ، وذلك بانتهاج سياسة لا هوادة فيها لهضمها وتحويل أبنائها إلى بروسيين

وكان بسمارك لا يقل عن الروس فى عدم قدرته على احتمال أى تدخل فى تنفيذ هذه الخطط . وقد قال للجنرال فليرى « Fleury » سنة ١٨٦٣ : « إنى لأؤثر الموت على أن أسمح بطرح مركزنا فى بولندا على بساط البحث أمام مؤتمر أوربى ، بل إنى لأوثر على ذلك سلخ أراضى الرين نفسها » . والحق أنه طالما وقفت روسيا وبروسيا جنباً إلى جنب فى هذه المسألة ، فإنه لم يكن ثمة أى أمل بتحرير بولندا ، رغم ملء أحرار أوربا الأرض احتجاجاً وعويلا .

٢ – مسألة الدوقيتين الدنماركيتين

وفى الوقت نفسه أخذ يحتدم شجار فى الجهة السفلى من شبه الجزيرة الدنماركية قُدِّر له أن يتخذه بسمارك ذريعة لإشهار الحرب على النمسا، وأن يمكن ألمانيا من شق قناة كيل التى فتحت لألمانيا المتحدة آفاقاً جديدة على متن البحار. وليس بضرورى أن نثقل الذاكرة بالتفاصيل المعقدة لمسألة شلزويج – هلشتين Schleswig-Holstein ، ولكن لباب هذه المسألة هو أن هاتين الدوقيتين اللتين كان ملوك الدنمارك يحكمونهما منذ سنة ١٤٩٠ ، لم تكونا تؤلفان جزءاً من مملكة الدانمارك ، ولكنهما صارتا سنة ١٨٦٣ مثار خلاف بين الدنمارك من جهة ، وبروسيا والنمسا من جهة أخرى . وكانت شلزويج مقاطعة يغلب فيها العنصر الدنمركى ، ولها « ديت » منفصل خاص بها . أما هلشتين فكانت كثرتها ألمانية . وكانت من قبل جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، واعترفت بها معاهدة ڤينا سنة ١٨١٥ عضواً فى الاتحاد التعاهدى الألمانى .

وكانت الدنمرك تتوق إلى ضمهما ، كما تاق أيضاً إلى ذلك الاتحاد التعاهدى الألمانى . وتشوَّفت أيضاً بروسيا إلى ضمهما إليها ، رغم أنه لم يكن لها أى حق شرعى أو تاريخى فيهما . وقد تمكنت أخيراً من الوصول إلى غرضها . ويعتبر بسمارك – وله ما يبرر حكمه – الطريقة التى حقق بها هذا العمل، أروع خططه السياسية . والحق أنه ليس هنالك أنموذج أدل على دهائه وحذقه أفانين السياسة من الطريقة التى وصل بها إلى تحقيق مرماه هذا .

مسألة شلزوج وهلشتين

أسباب الشجار

ولم يكن الشجار حديثاً ، بل إنه يرجع إلى عهد فردرك السادس ملك الدانمرك (١٨٠٨ – ١٨٣٩) الذى حاول إدماج الدوقيتين نهائياً بمملكته . غير أن محاولته فشلت نظراً إلى احتجاج بيت أوجستنبرج Augustenburg الذى كان يتطلع إلى الجلوس على أريكتهما عند انقضاء نسل الذكور فى البيت

الدنماركى الملكى بمقتضى القانون الصالى : الأمر الذى كان منظوراً حدوثه فى وقت غير بعيد . ولكن فى سنة ١٨٤٦ نشر كرستيان الثامن (١٨٣٩ – ١٨٤٨) خلف فردرك السادس ، خطاباً مفتوحاً يعترف فيه بحق أخته الأميرة شارلوت وورثتها فى حكم دوقيتى شلزويج وهلشتين بعد وفاة ابنه[1] الذى لم يكن يرجى منه أن يعقب نسلا . فأثار هذا العمل حنق « ديت » الاتحاد الألمانى ، واجتاحت ألمانيا بأسرها موجة غضب شديد ، وخاصة فى عام ١٨٤٨ الذى عمت فيه الثورات أرجاء أوربا . فلم يُجمع الرأى العام فى ألمانيا على شىء أكثر من إجماعه على ضرورة بقاء الدوقيتين متحدتين وخاضعتين لحاكم واحد ، وأن يكون هذا الحاكم أميراً ألمانيًّا ، بعد وفاة فردرك السابع ملك الدنمارك (التى حدثت سنة ١٨٦٣) ، وكان الأمير الذى وقع عليه اختيار الديت الألمانى هو الدوق أوجستنبرج الوريث الشرعى ، ولنلقبه هنا بالمطالب بالعرش .

تدخل الدول العظمى

وتلت هذه الأحداث حقبة من الاضطراب والقتال غير الفاصل انتهت بتدخل الدول العظمى . ففى مارس سنة ١٨٥٢ عُقد مؤتمر فى لندن ضم بريطانيا العظمى وفرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا . واتفقت هذه الدول بمقتضى معاهدة لندن التى وقعتها فى ٨ مايو على ضرورة ضمان استقلال الدنمارك ، وعلى أن يعقب كرستيان أمير جلكسبرج[2] Christian of Glucksburg فردرك السابع فى حكم جميع ممتلكاته ، ومنها دوقيتا شلزويج وهلشتين ، على شريطة عدم مس حقوق الاتحاد الألمانى فى هلشتين ولاونبرج . وبذلك لاح للناس أن هذه المسألة الشائكة قد حُلَّت حلا موفقاً . وإذ كانت النمسا وبروسيا من ضمن الدول الموقعة على المعاهدة ، كان من الشاق الاعتقاد بأن أحكامها سيعتريها التحوير والتبديل . أما الدوق أوجستنبرج المطالب بالعرش فقد قبل تعويضاً كبيراً من المال لقاء تنازله عن مطالبه ودعاويه .

---

(١) خلف أباه على عرش الدنمارك سنة ١٨٤٨ باسم فردرك السابع .

(٢) هو زوج الأميرة لويز كريمة شارلوت أخت كرستيان الثامن .

تجدد النزاع

غير أن النزاع لم ينته عند هذا الحد ، فقد كان فى كوبنهاجن تيار قوى من الرأى العام يحض على ضرورة العمل على مد تخوم الدانمارك الجنوبية إلى نهر الأيدر ، كما كان فيها ميل إلى إنقاص الامتيازات المحلية الممنوحة للدوقيتين ، وهو الأمر الذى استنكره الألمان استنكاراً شديداً . وحدث أنه بينما كان الألمان والدنماركيون يكشرون بأنيابهم بعضهم لبعض ، واللهب القديمة — التى كان يُظن أنها قد همدت — تقذف شرراً ملتهباً بين آونة وأخرى ، أصدر فردرك السابع فى ٣٠ مارس سنة ١٨٦٣ دستوراً ، اشتمل من بين ما اشتمله ، على إدماج شلزويج فى مملكته ، ومنح استقلال داخلى لهلشتين .

والحق أنه كان حلا أريباً للغاية . وكان هو الحل الذى فرضته فيما بعد معاهدة ڤرساى من حيث المبدأ . فقد ضُمَّت الدوقية الناطقة باللسان الدنماركى إلى الدنماركيين ، ومُنحت الدوقية الناطقة بالألمانية قسطاً وافراً من الاستقلال الذاتى . غير أن هذا الحل قوبل فى ألمانيا وقتئذ بالسخط والاستنكار الشديدين . فاستنجدت الجمعية التشريعية الهلشتينية — التى لم يكن رأيها قد أخذ فى هذا الحل — بالديت الألمانى الذى عد نفسه مطلق اليد ، نظراً لعدم اشتراكه فى معاهدة لندن ، أو موافقته عليها . وناشدته تلك الجمعية أن يسعى إلى فصل الدوقيتين غير المتجزئتين عن مملكة الدانمرك ، وإقامة إمارة منهما يحكمها أمير ألمانى . ولم ينقص الديت هذه المرة أيضاً وجود مرشح لهذا المنصب ، فإن ابن المطالب السابق بالعرش تقدم فى غير استحياء إلى المجلس بدعوى بيته فى حكم الدوقيتين ، معلناً أن تنازل أبيه ليس برابط له .

فأجاب فردرك عن ذلك بأن أصدر فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٦٣ دستوراً آخر ضم فيه الدوقيتين نهائياً إلى مملكة الدانمارك ، فنقض بذلك معاهدة لندن سنة ١٨٥٢ . وبعد يومين توفى ، فخلفه على العرش كرستيان التاسع الذى وضع — تحت ضغط الشعب الدنماركى — الدستور الأخير موضع التنفيذ .

رغائب بسمارك ومناوراته

وبوصول المسألة إلى هذه النقطة بدأ بسمارك يقوم بتلك السلسلة من المناورات الدبلوماسية التى أعطت فى ختام الأمر الدوقيتين الدنمركيتين إلى بروسيا . ولم يكن براغب فى التضامن فى السير مع الديت ، وكان بصفته رئيس إحدى الدول الموقعة على معاهدة لندن ملزماً سلفاً بالاعتراف بكرستيان ، خشية أن يثير امتناعه امتعاض إنجلترا وروسيا ، كما أنه لم يكن من الأمور التى يرتاح إليها قلبه أن يرى المطالب بالعرش الشاب — وكان حر المذهب وصديقاً لولى عهد بروسيا — يحكم ولاية ألمانية جديدة ستكون بلاريب حائلا دون امتداد بروسيا . بل كان بسمارك يتوق إلى ضم الدوقيتين إلى أملاك سيده . ولهذا عقد النية على العمل ، لا مع الديت الألمانى ، بل مع النمسا إحدى الدول المشتركة أيضاً فى معاهدة لندن ، فيعترف بكرستيان طبقاً لبنود تلك المعاهدة ، ولكنه فى الوقت ذاته يبعث إليه بإنذار نهائى يطلب منه فيه إلغاء دستور نوفمبر ، ويكتب الإنذار بأسلوب يجعل قبول طلبه هذا أمراً متعذراً

حرب عام ١٨٦٤

وسار كل شىء طبق الخطة الموضوعة . فإن الدنماركيين الذين كانوا قد شُجعوا على الأقل على الاعتماد على عطف إنجلترا ، وأن هذا العطف ليس بمجرد كلام أجوف عديم القيمة عملياً ، رفضوا الإذعان للإنذار البروسى . فغزت الجند النمساوية والبروسية فى يناير سنة ١٨٦٤ المقاطعتين ، وهزمت الدنماركيين ، وأكرهت كرستيان على التقدم بطلب الصلح . ونزل هذا الملك للدولتين الألمانيتين الظافرتين ، بمقتضى معاهدة ڤينا فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٦٤ ، عن حقوقه فى شلزويج وهلشتين ، وفى دوقية لاونبرج الصغيرة .

الخلاف بين النمسا وبروسيا

ولكن نشأ الآن موقف غاية فى الدقة . فإن حكماً ثنائياً لولاية ما ، ليس فى طبائع الأشياء ، بالحكم السهل المريح على الإطلاق . فما بالك وهذا الحكم الثنائى يتألف من النمسا وبروسيا . ولذا لم يكن يرتجى منه أن يسير من غير احتكاك . فإن هاتين الدولتين كانتا ستضطران إن آجلا أو عاجلا إلى أن تقررا فيما بينهما ، مَن الذى سيُطلب إليه منهما حكم الأراضى التى صار لها الآن حق تقرير مصيرها . فأما النمسا — وكانت تحمل عطف الأغلبية

الكبرى من الأمة الألمانية — فأخذت تؤيد دعاوى المطالب الشاب : تلك الدعاوى التى نوى بسمارك مقاومتها إلى النهاية ، إلا بشروط كانت تجعل الدوقيتين بروسيتين فى كل شىء خلا الاسم . ولقد نمَّى سلوك الأمير الشاب غير الفطن الذى استقر الآن فى كيل ، وأقام فيها بلاطاً صغيراً ، وشرع ينشر منها دعاوته بتأييد النمسا المكشوف — نمَّى سلوكه هذا مضايقة برلين منه وحنقها عليه ، حتى أوشكت الدولتان فى أغسطس سنة ١٨٦٥ على إعلان الحرب إحداهما على الأخرى .

اتفاقية جاشتين

بيد أن النمسا لم تكن متأهبة للقتال ، كما أن استعداد بروسيا الدبلوماسى لم يكن قد بلغ حد الكمال . ولذا أبرمت بينهما اتفاقية جاشتين Gastein فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٦٥ ، وهى معاهدة رأبت الصدوع رأباً ظاهراً ، ومنحت الدولتين فسحة من الوقت ليتمكنا خلالها من تنظيم قواهما للحرب المقبلة . وقد اتفقتا فى تلك المعاهدة على إبطال الحكم الثنائى ، وأن تحكم النمسا هلشتين ، وتحكم بروسيا شلزويج ، وتُمْنَح دوقية لاونبرج بأكملها لملك بروسيا .

ولقد نجح بسمارك أيما نجاح فى تنفيذ خطته . فقد تمكن من إحباط دعوى بيت أوجستنبرج ، رغم رأى أغلبية الأمة الألمانية ، ورغم مقاومة البلاط والبرلمان البروسيين لسياسته . وتمكن من السير بالحرب ضد الدنمارك إلى نهاية مظفرة دون تدخل من جانب فرنسا أو إنجلترا . والآن بعد أن توَّج النصر الجهود الأولى للجيش البروسى الحديث التنظيم ، وبعد أن أثار بسمارك شهوة ملك بروسيا العجوز للغزو والضم بالاستيلاء على لاونبرج ، بات فى مقدوره أن يرقب المستقبل بعين واثقة مطمئنة . فإنه بوجود فرص احتكاك لا تُحصى مع النمسا رأى أنه سيكون فى استطاعته أن ينتحل فى اللحظة المناسبة ذريعة لتجديد الخصام مع تلك الدولة وقطع العلاقات معها .

ولكن كان من الضرورى له فى هذه الأثناء أن يعمل على عزل غريمه عزلا تاماً . وكان بسمارك مطمئناً من ناحية حدود بلاده الشرقية المتاخمة للروس .

فإنه كان فى مقدوره الاعتماد عليهم بأن يلتزموا حياله حيدة مشربة بالود والصداقة . بيد أنه كان لا يزال من الضرورى له أن يضمن ، إذا أمكن ، حياد فرنسا ، ومعاونة إيطاليا لبلاده معاونة فعلية .

سياسة نابليون الثالث

وكان نابليون الثالث مثل تاليران وبريان[1] أوربياً صالحاً . فمع أنه رأى من الضرورى أن يشبع بصلصلة السيوف وهدير المدافع روح أمته الحربية ، فقد كان يؤمن بضرورة استتباب السلم ، وبإرضاء الروح القومية ، وبالحكم النيابى . وورث المبدأ الذى كان عمه العظيم ينادى به وهو فى سنت هيلانة : وهو أن تكوين مجموعات قومية كبيرة فى أوربا يساعد على استقرار الأمور فيها .

وليس ثم سبب للشك بأن عطف نابليون الثالث على الإيطاليين والبولنديين كان عطفاً صحيحاً بعيداً عن الزيف أو الغرض ، وأنه كان يجنح إلى التفكير ، بل كان يتشوف إلى المساهمة فى إحداث تلك التغيرات العظمى فى خريطة أوربا : هذه التغيرات التى كانت لازمة لتحديد التخوم السياسية بين الدول بحيث تطابق تلك التخوم الرغائب القومية للشعوب مطابقة أقرب إلى العدالة ، ولكن بشرط ألا يحدث ذلك تبدلا فى التوازن الدولى لا يكون فى مصلحة مملكته . ولهذا لم يسبب له تضخم بروسيا أى قلق ، فإنه لم يكن يحسب فقط أن من العدالة أن يضع البروسيون أيديهم على الدوقيتين ، بل إنه حتى قيام اتحاد ألمانى شمالى تحت زعامة بروسيا لم يكن يثير فى نفسه أى تخوف . فقد كان يعتقد أن هذا الأمر يساعد على أن تستند الولايات الألمانية الجنوبية على ذراع فرنسا القوية ، وأنه يمكنه إذا ما أشهرت بروسيا حرباً على النمسا من أن يكرر الضربة السياسية الباهرة التى سلخ بها ساڤوى ونيس عن بيدمنت ، وأن حرباً كهذه ستؤدى إلى انضمام مقاطعة البندقية إلى إيطاليا . فلقد كان قلب نابليون ، كما حزر بسمارك ببصره النافذ ، خيراً من عقله .

---

(١) الوزير الفرنسى الشهير الذى ذاع بعد الحرب العالمية الأولى صيته برغبته الشديدة فى توطيد السلام الأوربى ومصالحة ألمانيا .

ضعف مركزه

ولقد جلبت السنون الخمس التى أعقبت سنة ١٨٦٠ وهناً محسوساً فى قوة الإمبراطورية الفرنسية وتراص صفوفها . فلم يصبح بعد رأس الدولة ذلك الرجل الذى عرفناه فى انقلاب سنة ١٨٥٢ وحرب القرم . فقد هد الكد المتواصل والقلق المستمر بدناً كان أضناه من قبل السكر والعربدة . فإن مرضاً خطيراً اتسم بإحداثه تشنجات غير منقطعة تحدث آلاماً مبرحة لا تطاق كان قد أضعف إرادته ، فحل بنفسه الكلال ، وفترت ميوله إلى المغامرة وركوب الأخطار .

وكان نتيجة لهذا الوهن الجثمانى من ناحية ، وللعمل على تحقيق مبدأ عمه ، وتقييده بعض الشىء سلطان الحكومة الفرنسية المطلق ، وتخويل المجالس النيابية حرية أوسع للعمل من ناحية أخرى ، أن بدأ نابليون الثالث خلال هذه الفترة فى إدخال المبادئ الحرة فى الإمبراطورية . فخول فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٦٠ مجلسى الشيوخ والنواب أن يتداولا ويقترعا على الخطاب السنوى الذى يردان به على خطاب العرش ، وعين عدداً من الوزراء بلا وزارات كى يوضحوا مشروعات الحكومة لهما ، ويدافعوا عنها امامهما ، وأباح نشر المداولات البرلمانية على الجمهور

غير أنه فى إعادته من جديد روح الحياة البرلمانية ، تأججت مرة أخرى العداوات الكامنة فى صدور الأمة الفرنسية ، واشتعلت نيرانها المخبوءة . فقد لام الإكليروس الإمبراطور ، لأنه عاون الإيطاليين ضد البابا ، ولامه الأحرار لتخليه عنهم وحكمه البلاد حكماً استبدادياً . وهاجم رجال الصناعة سياسته الخاصة بحرية التجارة الأجنبية . وهاجمه أشياع بيت أرليان لمصادرته أملاكهم ، وأنصار بيت بوربون لرضائه بإقصاء فرع بيتهم الذى كان يجلس على عرش نابلى . والآن وجد الإمبراطور الذى كان يتطلع ، بعد انتصاراته الباهرة فى القرم وإيطاليا ، إلى فترة من الراحة المجيدة المستحقة يتمكن فى خلالها من أن يؤلف سيرة خالدة ليوليوس قيصر ، ويزيد فى إغناء بلاده بالسكك الحديدية والتلغراف والمصارف — وجد الإمبراطور

نفسه معرضاً لهجمات مقضة وضغط شديد عليه من جوانب الشيع المتنافسة : تلك الشيع التى كان يشق عليه مقاومتها وهى متجمعة ، فمن الجهة الواحدة كان يُضغط عليه كى يشد أزر البابا ، ومن الجهة الأخرى بأن يفى بوعده بالعمل على رد مقاطعة البندقية لإيطاليا . وأخيراً فى ساعة من ساعات النحس أمكن لمشيريه من رجال الدين أن يقنعوه بإشهار حرب صليبية — جانب منها دينى ، وجانب آخر منها مالى — هى مغامرته فى بلاد المكسيك القاصية .

٣ — مغامرة نابليون المكسيكية

النزاع فى المكسيك

كانت المكسيك ، تلك البلاد التى تشيع فيها الخلافات المزمنة والتناحر الدموى ، منشقة فى ذلك الحين إلى شعبتين : إحداهما إكليريكية محافظة يتزعمها ميرامون Miramon رئيس الجمهورية السابق (١٨٥٨ — ١٨٦٠) ، والأخرى معادية لرجال الدين ، وتنزع إلى التطور والارتقاء ، وتنضوى تحت زعامة بنيتو چوارز Benito Juarez الذى انتُخب رئيساً للجمهورية سنة ١٨٦٠ . وچوارز هذا منحدر من أصل هندى ، وقد امتاز بنزاهته ، ونبل خلقه ، ووضوح آرائه ونظراته ، وقوة إرادته ، ولكنه كان مبغوضاً بغضاً شديداً فى العالم الكاثوليكى بأسره ، لقوانينه وإجراءاته الحازمة الشاملة فى الحد من سلطة الكنيسة وثروتها .

وقد احتكمت كلتا الشعبتين إلى السيف للفصل بينهما ، واقترضت كلتاهما أموالا طائلة من أوربا ، ووعدت كلتاهما وعوداً سخية فى تسديدها حينما تضع الحرب الناشبة بينهما أوزارها فى صالحها . وقد أقرض ممول سويسرى فى باريس اسمه چيكيه Jekker مالا لميرامون ، ووعد چيكيه الدوق دى مورنى Duc de Morny ، وهو أخ غير شقيق لنابليون الثالث ، بأن يدفع له ٣٠٪ من الأرباح . غير أن الذى كسب الحرب كان چوارز ، لا ميرامون (سنة ١٨٦١)

أسباب تدخل نابليون الثالث

ولاح لرجال الدين الفرنسيين وأشياعهم ، وبالأخص للإمبراطورة يوجينى أن قهر الهنود الملحدين ، وإقامة إمبراطورية كاثوليكية فى المكسيك تحت رعاية فرنسا ، هما هدفان جليلان فى ذاتهما . أضف إلى ذلك أنه من المحتمل أن يعودا أيضاً بربح مالى . حقيقة أن المكسيك كانت قطراً نائياً ، لا يُعرف عن مناخه وجغرافيته سوى النزر اليسير . فكان يُعرف عنه أنه قطر فسيح ، ويذاع عنه أنه غنىٌّ غنى فاحشاً . وبما أن الأسبان هم الذين كانوا قد فتحوه ، فكان يُخال — رغم أن ظواهر الأمور كانت تكذب ذلك — أنه يحمل فى صدور أبنائه ولاء باقياً للكنيسة الكاثوليكية والأنظمة الملكية . فتضافر المال والسياسة والدين معاً على إبراز الفوائد التى تنجم من مغامرة مكسيكية . فقد كانت هذه المغامرة تدخل السرور إلى قلب الفاتيكان ، وترضى ندوة الأموال المالية ، وترفع من شأن الإمبراطورية ونفوذها . أضف إلى ذلك أن الفرصة كانت ملائمة ، فقد كانت الولايات المتحدة تمزقها الحرب الأهلية التى نشبت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية (١٨٦١ — ١٨٦٥) . ولذا أمل نابليون أنه فى الوقت الذى كان يتناحر فيه البروتستانت الأنجلوسكسونيون بشأن الرق وحقوق الولايات ، يستطيع هو أن ينشئ فى القارة الأمريكية دولة لاتينية كاثوليكية ، تكون بمثابة معقل أمامى لفرنسا ، وسد حائل ضد الحركات النامية للهرطقة الغربية .

حملة حربية إلى المكسيك

وبينما كانت هذه الأفكار الكبيرة والمطامع الواسعة تتكون فى عقول الفرنسيين ، انضم نابليون إلى إنجلترا وأسبانيا فى تنفيذ هذا الهدف المحدود وهو : إرسال حملة حربية لإكراه الحكومة المكسيكية على الوفاء بديونها . ذلك أن البرلمان المكسيكى كان قد أصدر قراراً نال مصادقة الرئيس چوارز فى ١٧ يوليو سنة ١٨٦١ بوقف تسديد جميع القروض الأجنبية لمدة عامين . فأقلعت السفن الحربية إلى الجانب الآخر من الأطلنطى ، ونزلت الكتائب الإنجليزية والفرنسية والأسبانية فى ديسمبر سنة ١٨٦١ ويناير سنة ١٨٦٢ على الساحل المكسيكى القاصى الموبوء بالملاريا . وأعاد الدائنون الأوربيون

إلى حكومة چوارز الجمهورية صوابها ، وأفهموها أنهم لن يرضوا بهذا التأجيل .

وكان هذا الإجراء جائراً متعسفاً ، ما فى هذا شك . غير أنه كان أقل جوراً ، وأبعد عن الاعتراض ، من قرار نابليون عقب انسحاب جنود حليفتيه من المكسيك بعد زمن قليل من نزولهم فيها ، بإبقاء الجند الفرنسيين ، بنية قلب حكومة المكسيك ، متأثراً بالوهم الخاطىء البعيد عن الحكمة والتبصر بأن أهل تلك البلاد ، الذين لم يكن يُعرف عنهم غير الشىء الضئيل فى باريس ، يتلهفون إلى إبدال جمهورية چوارز الجديدة العصرية ، بملكية كاثوليكية إكليريكية .

مكسمليان

ودعا بعض خصوم چوارز المكسيكيين ، بإيعاز من نابليون الثالث ، الأرشيدوق مكسمليان أخا فرنسيس چوزف إمبراطور النمسا فى ١٠ يوليو سنة ١٨٦٣ ، إلى قبول تاج الإمبراطورية المكسيكية الجديدة . ولكن لم يمض طويل وقت حتى بدت مغامرة إرغام الأمة المكسيكية على قبول عاهل أجنبى أمراً أعظم فى التكاليف من المال والرجال مما كان يظن أولا .

أما مرشح الإمبراطور ، فما كان يمكن أن يوجَّه إلى شخصه أى مأخذ . فقد انحدر مكسمليان من بيت هبسبرج العريق المجد . وكان مقترناً بشارلوت ابنة ليوبلد الأول ملك البلجيك ، وكان مديد القامة ، وسيم المحيا ، حلو الشمائل كريم الطبع ، ذا ماض مجيد حافل بالمآثر والأفضال أيام كان يحكم فى ميلان قبل اندماجها فى مملكة بيدمنت . والحق أنه كان حاكماً يقبل أى شعب يصبو إلى حكم هادىء وإدارة منزهة شريفة أن يأتمر بأمره . ولكن كان من سوء طالعه أن المكسيكيين صدفوا عنه ، وبلغ بهم الشذوذ أن فضلوا قائدهم الجمهورى الخشن الذى يجرى في عروقه الدم الهندى الهمجى على أمير كامل المناقب ، يستطيع أن يزهو بانحداره من أعرق بيوت أوربا المالكة وأشهرها .

وبان من أول الأمر أن الحراب والأموال الفرنسية هى وحدها التى تستطيع أن تدعم العرش الواهى لذلك الأمير الأجنبى العاثر الجد . ولكن تأييداً

كهذا لم يكن فى المقدور بطبيعة الأشياء ضمان بقائه مدة طويلة . ولقد جاءت النهاية على حين فجأة ، وعلى نحو مزرٍ بكرامة فرنسا أعظم زراية . فإن حكومة الولايات المتحدة على إثر إخضاعها الولايات الجنوبية سنة ١٨٦٥ ، أمرت الفرنسيين بلهجة حازمة بالخروج من المكسيك ، وأبت الاعتراف بالإمبراطور الذى فُرِض على الشعب المكسيكى فرضاً . والحق أنها لقصة مفجعة من مبدئها إلى نهايتها ، تلك التى رواها بدمه مكسمليان السيىء الطالع . فقد اضطر نابليون إلى سحب جنوده من المكسيك فى فبراير سنة ١٨٦٧ ، وألح على مكسمليان بالأوبة معهم إلى أوربا . ولكن هذا أبى أن يهجر أنصاره من الوطنيين المكسيكيين . بيد أنه أُجبر فى يونيو من ذلك العام على التسليم إلى أعدائه ، ومات رمياً بالرصاص فى كوريتارو .

تدهور هيبة فرنسا

ويشقُّ على المرء أن يغالى فى تقدير الخسارة التى انتابت الإمبراطورية الفرنسية فى كرامتها ونفوذها نتيجة الإخفاق العاثر للحملة المكسيكية . فقد أخطأ الإمبراطور فى وزنه لكل شىء : فى فهمه لطبائع المكسيكيين وبسالتهم ، وفى عدد الجنود الذين يُحتاج إليهم لإخضاع تلك البلاد ، وفى الصعاب التى أقامها المناخ فى وجه الغزاة ، وفى مدى الأمل فى فوز الولايات الشمالية الأمريكية فى الحرب الأهلية . فإن الجند الفرنسيين حتى عندما كانوا فى أوج قوتهم ، لم يستطيعوا أن يبسطوا سيطرتهم إلا على شطر صغير جداً من ذلك القطر الشاسع . يقابل هذا هزيمتهم فى كثير من المواقع الصغيرة ، وإنما المواقع المحزنة ، وتبديد الأرواح العديدة نتيجة لفتك الأمراض التى انتشرت بينهم .

وقد انتقد السياسة الفرنسية فى المكسيك انتقاداً مراً من أول الأمر ، الأحرارُ الفرنسيون الذين كانوا يسائلون أنفسهم : « أية مصلحة قومية تلك التى تعرضت للخطر حتى ننتصر لقساوسة المكسيك ورهبانها ، ونتغاضى عن المبادىء السليمة للثورة الفرنسية ؟ » وكانوا يشكون كيف أن جيشاً كان يمكن الانتفاع به ، لو أنه عسكر على حدود فرنسا الشرقية ، قد مُزِّق شذر

مذر ، وهلك على بعد خمسة آلاف ميل من فرنسا ، فى نزاع أضرمه القساوسة ورجال المال . ولقد كان أمراً باعثاً على الأسف أن المغامرة انتهت بالفشل ، ولكن ما كان أدعى من هذا إلى الأسى ، هو أنها لُقبت فى سخرية وتهكم « بحرب الدوق چكيه » . وحُمِل عليها حملة شعواء كعمل نُهض به لاستعادة خسائر موائد الميسر التى لحقت بزمرة من المضاربين ذوى النفوذ .

٤ ـ الحرب بين النمسا وبروسيا عام ١٨٦٦

مقابلة بيارتز

ما وافى خريف سنة ١٨٦٥ حتى كان فشل الحملة المكسيكية حقيقة واقعة . ولقد كانت خيبة الآمال فى فرنسا مريرة المذاق ، وعار الهزيمة ماثلا غير منكور . ولهذا كان أى رجاء فى الحصول فى جهة أخرى من الميادين السياسية على تعويضات قد تساعد على رتق الخرق وشغل الأنظار ، أمراً مرغوباً فيه كل الرغبة . فتقدم الآن بسمارك بهذا المطمح إلى نابليون خلال مقابلة جرت بينهما فى بيارتز Biaritz فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٦٥ . ووضع الداهية البروسى بتلك الصراحة المحببة التى جعلت منه دبلوماسياً جباراً ، جميع أوراقه على المائدة : الحرب المنتظرة ضد النمسا، وتعديل دستور الاتحاد الألمانى ، والاستيلاء على الدوقيتين الدانماركيتين ، وعقد تحالف إيطالى بروسى ، واستعداده للنظر فى توسيع رقعة فرنسا إذا ما ضمن حيدتها فى غضون الحرب القادمة بينه وبين النمسا . ولم يحدد ذلك السياسى الواسع الحيلة أى شىء على وجه الدقة ، أو يسجل شيئاً على الورق . بل كان يكفى لأغراضه ، أنه مقابل تلميحات مبهمة بإعطاء تعويضات ، أظهر نابليون رضاءه عن الخطة البروسية ، وقبوله الوقوف موقف الحياد فى حالة إشهار الحرب .

بسمارك يكمل استعداداته

فجرّأ هذا الضمان الثمين ـ ولو أنه كان ضماناً غامضاً غير مأمون ـ بسمارك على المضى قدماً فى إكمال استعداداته للحرب التى نسج حبائلها ، وأخَّر إعلانها ردحاً طويلا من الزمان . فاشترى مساعدة إيطاليا الحربية

بوعدها بضم مقاطعة البندقية إليها ، وذلك حتى يمكن شغل العدو فى جبهتين ، وأتم مد السكك الحديدية البروسية ، كما قسم الجيش البروسى إلى جيوش ، كل منها يعبأ فى منطقة معينة ، ومجهز تجهيزاً تاماً بعتاده الكامل من الفرسان والمدفعية والمهندسين . ولذا كان أسبق بأسبوعين فى التعبئة من خصمه . فتوفرت له جميع الأسباب لارتقاب النصر .

إصلاح بسمارك الدستورى

بيد أنه بقى احتياط أخير وجب عليه اتخاذه قبل السماح للمدافع أن تقصف رعودها . فقد كان عاملا من عوامل عظمة بسمارك أنه كان يدرك قيمة العنصر الأدبى فى الحروب . فإنه إذ رأى أنه سينزل – كما كان قد بيّت النية – فى حلبة نضال بغيض البغض كله على السواد الأعظم من الشعوب الألمانية ، فقد أدرك أن انتحال ذريعة تكون أعظم أثراً وأقرب إلى القلوب من هذا النزاع المحلى القذر الذى نشب وقتئذ بين الدولتين بخصوص حكم الدوقيتين – أدرك أن انتحال هذه الذريعة ضرورة كبرى للنجاح نجاحاً باقى الأثر ، ولم يكن يكفيه انتصار الجيش البروسى ، بل كان يصبو أيضاً إلى أن يتقدم بشىء جليل للأمة الألمانية .

وكان ما تقدم به غريباً حقاً . ففى ٨ إبريل سنة ١٨٦٦ أبرم التحالف الإيطالى ، وفى اليوم التالى عرض هذا السياسى المحافظ الكبير مشروعاً على الديت الألمانى يشتمل على إصلاح عام للاتحاد التعاهدى الألمانى ، وإنشاء برلمان ألمانى ينتخب بالاقتراع العام . وقد كان يُظن أنه كان متأثراً فى هذا العمل بآراء لاسال Lassale الاشتراكى الألمانى (١٨٢٥ – ١٨٦٤) . ولكن الأرجح أنه كان كدزرائيلى يعرف فى دخيلة قلبه أن الطبقة الوسطى ، وإن كانت تميل إلى المبادئ الحرة ، فإن النظم الديمقراطية تجنح إلى تغليب المبادئ المحافظة .

نشوب الحرب

ومع أن برلين ادعت أن الاستفزاز النهائى جاء من ناحية النمسا ، إلا أنه لم يكن ثمة شك حقيقى فى أن الحرب التى اندلعت فى منتصف يونيو سنة ١٨٦٦ كانت حرباً أرادها بسمارك ، وسعى إليها . فإن ملتكه الذى عُهدت

إليه قيادة الجيش البروسى فيها قال بعدئذ الحق مجرداً من كل زخرف ، قال : « إن حرب عام ١٨٦٦ لم تنشب لأن كيان بروسيا كان مهدداً ، أو صدوعاً لرغائب الرأى العام أو مشيئة الشعب ، بل كانت حرباً عُرف قيامها قبل نشوبها بوقت طويل ، وأُعد أمرها بعناية ، وسلمت الوزارة بضرورتها لا للحصول على توسع أرضى ، بل لإحراز القوة والتفوق للوصول بهما إلى زعامة بروسيا فى الريخ الألمانى » . وقال بسمارك لتريتشكه Treitschke المؤرخ والكاتب السياسى الألمانى بصراحة محببة : « يجب أن نعترف أن ملابسنا لم تكن على الدوام أنظف الملابس » .

وفتحت هذه الحرب التى دامت سبعة أسابيع عيون أوربا إلى النتائج التى يمكن الحصول عليها بتطبيق العلوم البروسية ، والأساليب البروسية ، على فن الحرب . فإن سرعة التعبئة البروسية ، ودقة الحركات البروسية ، وتفوق المدفعية البروسية ، ومهارة استخدام السكك الحديدية التى استخدمت للمرة الأولى فى الحروب ، كانت كلها نذراً تشير إلى طلوع عصر تُقرَّر فيه أحداث التاريخ العظمى بالقدرة النسبية للدول على مدى استخدامها لمواردها الفنية والعلمية ، وإلى أن تسيير دفة الحرب سيشبه أكثر فأكثر إدارة عمل صناعى واسع النطاق متشعب الفروع .

سادوا

فقد قُطعت العلاقات بين النمسا وبروسيا فى ١٥ يونيو سنة ١٨٦٦ . وفى الأسبوع الأول من الحرب سحقت بروسيا المقاومة النمساوية التى جابهتها فى الشمال الغربى من ألمانيا . وفى الأسبوع الثالث ، وعلى وجه التحقيق فى ٣ يوليو ، سُحق الجيش الرئيسى النمساوى فى معركة سادوا[١] ببوهيميا . وكان القتال حامى الوطيس ، وبقيت النتيجة فترة طويلة من الزمن معلقة فى كفة الميزان . وكُسبت المعركة فقط حينما صار جيش ولى عهد بروسيا فى موقف يمكنه من مهاجمة جناح العدو الأيمن . بيد أنه بقدر ما اشتدت مقاومة النمساويين لأعدائهم أثناء القتال ، بقدر ما عظم الخطب الذى ابْتُلِىَ به جيشهم حينما

---

(١) وتعرف عند الألمان بمعركة كينجراتز Koningratz

حُطمت تلك المقاومة فى آخر الأمر . فلقد كانت الهزيمة ماحقة ، وصار الطريق إلى ڤينا مفتوحاً . فأمر ملك بروسيا العجوز الذى أسكرته نشوة النصر بالزحف عليها ، وأصر على ألا يعقد الصلح إلا فيها .

اعتدال بسمارك

بيد أنه ليس ثمة معيار موثوق بدقته للسياسة الفطنة الأريبة خيراً من المقدرة على مقاومة سكرة الظفر السياسى . فإن بسمارك – بعكس نابليون الأول الذى كان يقسِّى شروطه الدبلوماسية بكل انتصار حربى يحرزه – كان يعرف ما يريده ، وما لا يريده . فلم يكن جزءاً من خططه أن يهين النمساويين أو يحط من غير داع من قدرهم . فقد يغدو التحالف معهم أو وقوفهم على الحياد فى الأيام المقبلة ذا نفع كبير لمليكه وبلاده . ولم يكن يريد استلاب أرض نمساوية ، أو كسب انتصارات حربية جديدة ، أو دخول قصبة العدو المخذول دخول الظافر المنتصر . بل كان بحسبه أن تنسحب النمسا من ألمانيا ، وتسلِّم بسيطرة بروسيا على الدوقيتين الدنماركيتين ، وتمتنع عن معارضة تأليف اتحاد تعاهدى ألمانى شمالى تحت زعامة بروسيا . بل إنه أبى – مراعاة لمشاعر الحكومات الألمانية الجنوبية – أن يفرض أى شروط لإكراه تلك الحكومات على الانضمام إلى الاتحاد الألمانى الشمالى . بل كان بالأحرى مستعداً لأن يوافق على إنشاء اتحاد تعاهدى منفصل فيما لو رامت ذلك .

ومع أن جماً غفيراً من بنى وطنه أخذوا ينادون بإقامة ألمانيا متحدة ، فقد تخوف من مثل هذا التسرع الجشع ، مقدِّراً أن اتحاداً ألمانيا شمالياً هو أقصى ما يخلق ببروسيا أن تطمع يومئذ فى هضمه وتمثيله ، أو يُنتَظر من فرنسا أن تسلم به فى ذلك الحين . وكان قد عقد نيته من قبل إعلان الحرب على أن يجعل نهر المين آخر تخومه ، ورفض بعد الانتصار أن يتراجع عن هذا القرار الحكيم . ورأى أن حركة جامعة الشعوب الألمانية هى حل يجب ألا يلجأ إليه ، إلا عند ما تدلهم النوائب ، فهى تسوية عنيفة غير موثوقة العواقب ، يجدر حجبها والاحتفاظ بها لمقاومة ما يُحتمل حدوثه ، وهو إبرام تحالف بين فرنسا والنمسا . فقد كان أفضل له إلى حد بعيد ألا يقحم الآن مسألة ضم الاتحاد

الألمانى الجنوبى إلى بروسيا ، وأن يسمح للألمان الجنوبيين أن يندمجوا فى الاتحاد البروسى حينما يشاءون ، وكيفما يريدون . فاحتذى نهجاً يضمن له رضاهم . ومع أن الولايات الألمانية الجنوبية كانت قد انضمت إلى جانب النمسا فى هذه الحرب فإنه لم يفرض عليها غرامات حربية . بل إنه فى نقطة جد خطيرة ، تغلب فى نهاية الأمر على رغبة مليكه ، فلم يسلبها أى أرض . ولقد لقى على الفور جزاء اعتداله . فإنه قبل أن ينصرم شهر أغسطس سنة ١٨٦٦ كانت بافاريا وورتمبرج وبادن قد أبرمت اتفاقيات حربية مع حكومة بروسيا .

صلح براغ

وكانت النمسا مستعدة لقبول هذه الشروط الحكيمة الكريمة . وقبل أن تفيق أوربا من دهشتها لنبأ هزيمة سادوا ، واجهت الحقيقة الواقعة ، وهى إبرام معاهدة براغ فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٦٦ التى أعادت الأمور إلى مجاريها بين الدولتين : بروسيا والنمسا

هذا وإن تعجَّل بسمارك السريع – بعد أن تغلب بحزمه على معارضة الملك وقواد الجيش – بإنهائه القتال ، وعقده الصلح ، كان يقوم على تخوفه من أن الحرب لو طالت ، فقد يُكره على مواجهة فرنسا المسلحة . ولقد حدث ما يبرر قلقه . فإن نابليون عرض بعد يومين من معركة سادوا وساطته التى رأى بسمارك نفسه مضطراً إلى قبولها . فقد كان أخشى ما يخشاه هو أنه فى الحين الذى يكون فيه الشطر الأكبر من الجيش البروسى فى بوهيميا يكون نابليون قد عبأ جيشه ، وأوقفه على الرين ، ثم يطلب وهو يجرد السيف فى وجه خصمه ، منح فرنسا تعويضاً كجزء من التسوية العامة .

حنق فرنسا

ولكن نابليون فشل فشلا تاماً فى الظفر بأى كسب لفرنسا من وراء الحربين اللتين شنتهما بروسيا ضد الدانمرك والنمسا . وكان فشله هذا هدفاً لمطاعن عنيفة وُجهت إليه فى مجلس النواب الفرنسى . فقد حُكم على فرنسا ، وأحاسيس الغيظ والحسد والقلق تغمرها ، أن تشهد انتصار بروسيا المدوى : هذا الانتصار الذى مكّنها من ابتلاع هانوفر وهِسْ كاسل والدوقيتين الدانماركيتين ، ومن السيطرة فوق ألمانيا حتى نهر المين ، ومن إضافة أربعة

ملايين وربع مليون من الأنفس إلى سكانها ، ومن قلب التوازن الدولى بأكمله فى وسط أوربا ، على حين أن الإمبراطور الفرنسى لم يحرك مدفعاً واحداً أو عسكرياً واحداً لنيل مزايا معوضة لمملكته . وقد أعرب المارشال راندون Randon عن شعور الخيبة الذى تملك فرنسا يومئذ بقوله : « إن فرنسا هى التى هُزمت فى سادوا » . وكانت هزيمتها هزيمة عجزت الدبلوماسية الفرنسية عن مداواتها . فقد كانت ضربة بسمارك أسرع مما كان الناس يتوقعون ، وجاء بحث الفرنسيين عن الأسلاب متأخراً أكثر مما يجب .

وطالب الإمبراطور فى الفترة التى توسطت موقعة سادوا ونشوب الحرب الفرنسية البروسية بكل صنف من صنوف الترضيات : كأن يعطى بالاتينات الرين وهِسْ ، أو السار ومينز ، أو البلجيك ، أو لكسمبرج . ولكن هذه الالتماسات التى لم تكن تسندها القوة رُفضت بلا مجاملة . غير أن بسمارك احتفظ بالدلائل التى تشير بتقدم الإمبراطور له بها ، واستخدمها ضده فى الوقت المناسب ـ الأمر الذى كان له أثر حاسم فى جعل الدبلوماسية الفرنسية تبدو كريهة ممجوجة فى نظر بافاريا وإنجلترا .

الدستور الألمانى الجديد

وقد نال الاتحاد الألمانى الشمالى فى ذلك الحين من بنَّائه بسمارك دستوراً . ومع أن هذا الدستور لم يحو غير قليل من المبادئ الحرة الإنجليزية ، إلا أنه كان متيناً قوياً ، بحيث احتمل العواصف والأنواء التى هبت عليه خلال اثنين وخمسين عاماً (١٨٦٦ ـ ١٩١٨) . وبمقتضى هذا الدستور ، أُنشئ مجلس نواب سمى بالريشستاغ .

وكان هذا المجلس ينتخب بالاقتراع العام ، ولذا قام على أسس أكثر ديمقراطية مما كان يقوم عليها البرلمان الإنجليزى حتى سنة ١٩١٨ . ولكن طبقاً للمبادىء البسماركية ، لم يكن فى مقدور الريشستاغ تأليف الوزارات أو إسقاطها ، أو الهيمنة على أموال الدولة أو القوات الحربية ، كما يفعل البرلمان الإنجليزى عن طريق إجازته كل عام مشروع قانون الجيش وضرورة تصديقه على الأموال التى تنفق عليه . ولهذا لم يخوَّل هذا المجلس الديمقراطى

حق السيادة فى الدولة . وكانت الهيئة الحاكمة الحقيقية للاتحاد هى المجلس التعاهدى « Bundesrat » . وكان يتألف فى ذلك الحين من اثنين وأربعين مندوباً يمثلون حكومات ولايات الاتحاد الشمالى المختلفة . وكان هذا المجلس يتداول فى هيئة سرية ، تحت رئاسة مستشار الاتحاد ، الذى كان فى نفس الوقت كبير وزراء بروسيا .

وقد خال الكثيرون من النقّاد البروسيين مجلساً كهذا مربكاً معطلا للأمور بلا ضرورة . فكانوا يتساءلون : لماذا تعطى بروسيا عشرين أسرة مالكة صغيرة حق التمثيل فى الهيئة الحاكمة العليا للدولة الجديدة ؟ أو لم تكن الأنظمة المركزية أبسط وأفضل ؟ فقد كان فى مقدور بروسيا أن تزيل هذه الأنقاض الدارسة من بقايا الماضى . فقد أنزلت ملك هانوفر عن عرشه ، وأنهت حكم بيته . فلماذا تعنى الآن عناية بالغة بالإبقاء على عدد من الولايات المنفصلة ، وتخويلها سلطة سياسية قد تستخدمها فى التعطيل والتأخير ؟ بل إنها سمحت لسكسونيا أحد أعضاء الاتحاد الشمالى ، بأن تمثل فى بلاط الملوك الأجانب بوزراء مفوضين مستقلين عن ممثلى الاتحاد .

بيد أنه ليس ثمة ريب فى أن بسمارك كان حكيما فى مقاومة الغواية بأن يجعل ألمانيا الجديدة دولة موحّدة . فقد كانت البيوت المالكة فى الولايات الألمانية المختلفة متأصلة الجذور فى تربة التاريخ الألمانى . وكانت تستطيع المساهمة بنصيب فى أعمال الدولة . فلم يكن بسمارك ليكسب من وراء إزالتها غير خلق الصعوبات غير الضرورية فى الشمال ، وغرس شعور مقت عنيف فى نفوس الشعوب الألمانية الجنوبية لأية فكرة ترمى إلى إيجاد اتحاد أوثق عرى بينها وبين الولايات الشمالية .

أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك أى خطر من قيام حكومة قوية ذات كفاية ومقدرة فى داخل البناء الاتحادى . فقد كان لبروسيا أغلبية مأمونة فى البندسرات . وكانت بروسيا هى بسمارك . فإنه بمقتضى أحكام الدستور الفذ الذى وضعه بسمارك ، كان مستشار الريخ الألمانى مسئولا أمام ملك

بروسيا وحده ، ولم تكن هنالك وزارة للاتحاد الألمانى تعوق أعماله ، بل كان هو الرئيس الفعلى لجميع إدارات الحكومة وفروعها . ولم يكن البندسرات ، أو الريشستاغ ، أو برلمان بروسيا ليستطيع أن يقيله من منصبه ، أو يتحدى بدرجة فعالة إرادته ، بل كانت شخصية الوزير الأول الجبارة الهائلة تسيطر عاماً بعد عام على الموقف ، وتملأ أرجاء أوربا طولا وعرضاً برعود خطبه القوية المدوية ، وتلقى على بنى جلدته دروساً جديدة فى فن حكم الجنس البشرى .

ولهذا كانت الفوارقُ عظيمة بين النظم التى ابتدعتها كل من الدولتين القوميتين : إيطاليا وألمانيا : هاتين الدلتين اللتين تدينان بكيانهما لكافور وبسمارك . ففى إيطاليا صحب انتصار القومية إنشاء نظم برلمانية على الطراز الإنجليزى. أما فى ألمانيا فقد هُزِمت سيادة البرلمان على الحكومة هزيمة فاصلة . ولكن رغم أن النظام الحكومى الألمانى وضع بحيث يضمن للأوتقراطية البروسية الكلمة العليا ، فإنه حرمها من فوائد الدروس والعظات التى تنبه ساسة الدول البرلمانية وتقوِّم أخطاءهم . فإنه فى فترات منتظمة كانت تيارات الانتخابات العامة المطهرة تطغى على الريشستاغ ، وتمكن شيعاً جديدة من الرأى العام من التأثير فى حياة البلاد السياسية . ولم تكن هذه التيارات تأتى وفق رغائب بسمارك على الدوام ، فإنه بينما استخدم الأحرار الوطنيون كل فن من أفانين الدعاوة الشعبية للحض على الوحدة الألمانية ، وتأييد النظم الجديدة للدولة ، عملت الأحزاب الكاثوليكية والاشتراكية على تحدى بسمارك ومقاومته .

كتب يمكن استشارتها

J.W. Headlam : Bismarck and the Foundation of the German Empire. 1899.

C. Grant Robertson : Life of Bismarck. 1918.

Bismarck's Thoughts and Recollections. 1899.

Pierre de la Gorce : Histoire du Second Empire. 1908.

H.A.L. Fisher : Bonapartism 1909.

E. Ollivier : L'Empire Liberal. 1911.

F.A. Simpson : Louis Napoleon and the Recovery of France, 1848-1856 1923.

P. Guedalla : The Second Empire. 1932.

Lord Edmund Fitzmaurice : Life of Lord Granville.

الفصل التاسع عشر

تأسيس الإمبراطورية الألمانية

استعدادات بروسيا الحربية . تذبذب سياسة فرنسا. ميول رجال الدين الفرنسيين. الأحرار والجمهوريون والاشتراكيون الفرنسيون . إميل ألفييه . المرشح لعرش أسبانيا من بيت هوهنتزولرن . برقية إمز . تهمة إشعال الحرب . تفوق ألمانيا . انحطاط كفاية القيادة العليا الفرنسية . عدم وجود احتياطى فرنسى مدرب . سير القتال . العصيان الوطنى . ليون غمبتا . حصار باريس . جمعية بوردو . صلح فرنكفورت ونصيب تيير فى وضعه . الإلزاس واللورين . الإمبراطورية الألمانية . مطامع بروسيا الواسعة .

١ - فرنسا فى أواخر العقد السابع

تذبذب السياسة الفرنسية

والآن ندنو من آخر وأعظم حرب من الحروب الثلاث التى خرجت من بوتقتها وحدة الأمة الألمانية . فقد رأينا كيف أكرهت بروسيا أولا الدنماركيين على خوض غمار حربٍ ضدها ، ثم أكرهت بعدهم النمساويين . والآن أصبحت فرنسا العقبة الوحيدة التى بدت كأنها تحول بين بسمارك وبين إدراكه وطره .

ويجب ألا يُفرَض أن باريس التى أقلقها كل الإقلاق انتصار بروسيا فى سادوا ، أهملت فى إظهار استيائها ، ومقاومة — فى حدود طاقتها — امتداد سلطان بروسيا عبر نهر المين . نعم ، رُبَّ فيلسوف كان يقول لنفسه : بما أنه ليس ثم مفر من أن تتم الوحدة الألمانية يوماً من الأيام ، فإن فرنسا كانت تحسن صنعاً إذا هى مدَّت دون تردد يد الصداقة والود لبروسيا ، ورضيت بتغيير ليس فى مقدورها أن تمنع حدوثه منعاً دائماً . بيد أن عاهل أمة مزهوة ذكية سريعة التأثر كالأمة الفرنسية ليس له أن يكون فيلسوفاً . فإن أهواء

رعاياه ومخاوفهم ونقائصهم تحد من حريته . وحينما كان يؤكد كل جالس فى مقاهى باريس ومنتدياتها أن بروسيا قد أضحت من الآن عدو فرنسا ، صار من المتعذر على نابليون الثالث أن يتصرف كأن ألمانيا صديقة لها . وكانت برلين تدرك إدراكاً جيداً أفكار باريس وجوانحها . ووضح لبسمارك ومشيريه الحربيين أنهم لا يستطيعون إكمال بناء النصف الباقى من صرح الوحدة الألمانية دون تطاحن عنيف مع فرنسا . ولهذا واصلوا فى جد وانتظام تأهبهم الحربى .

غير أن مجالس الإمبراطور الفرنسى لم تُبد جلاء فى نظرتها إلى الأمور ، أو ثباتاً فى مراميها وأهدافها ، كما أبدت بروسيا . فقد كان كل شىء فى فرنسا غامضاً مبهماً ، عديم الثبات والاستقرار ، يميل إلى الطرب والاستخفاف . وخيل للفرنسيين أن الحرب ليست جزءاً لا مندوحة عنه فى برنامج بروسيا ، وبدت فى عيونهم كأنها شر يمكنهم اجتنابه بحيل الدبلوماسية وخداعها . ووُضعت مشروعات لعقد محالفات مع النمسا وإيطاليا ، وأجريت محادثات ، وتبودلت زيارات معهما . بيد أنه لم يبرَمْ شىء على وجه الدقة . بل كان هناك رجاء مبهم بأنه فى حالة اندلاع حرب ، فإن الدانمرك وهانوفر وباڤاريا سترحب بهذه الفرصة لإنزال القصاص ببروسيا على قحتها وصلفها . ومع ذلك لم يُصنع شىء فى هذه الناحية أيضاً لضمان تعاون تلك الدول مع فرنسا .

ورُسِمت خطط هامة لإصلاح الجيش الفرنسى ، ولكن تُرِكت من غير أن يدافَع عنها دفاعاً قوياً أمام مجلس نواب كان ينزع إلى الاقتصاد ، فرفضت . فإن مجلس النواب الفرنسى مع أنه كان يسلم بأن بروسيا هى العدو ، إلا أنه لم يخطر فى باله لحظة واحدة أن البروسيين صاروا أنداداً لمنازلة جيش فرنسا المدرب الذائع الصيت فى حومة الوغى . بل كان يُعتقَد أن الحرب قد لا تصبح ضرورية على الإطلاق . فقد كانت صداقة فرنسا فى نظر ذلك المجلس شيئاً ثميناً . ومثل كل شىء ثمين يمكن للبروسيين أن يشتروها بثمن ما .

رفض مطالب نابليون الثالث

وقد سعت الدبلوماسية الفرنسية سعياً حثيثاً فى الحقبة التى توسطت بين سادوا والحرب الفرنسية البروسية — سعت فى التنقيب عن تعويضات لإرضاء الرأى العام فى بلادها — الأمر الذى كان يسهّل عليها الاحتفاظ بالسلم . وكانت أمامها ولاية بالاتينات الرين ولكسمبرج وبلجيكا . ولكنها كانت كلها أهدافاً حمقاء خطرة ، ولم ينتج لفرنسا من محاولة بلوغها سوى الأذى والضر . فإنه لما نمى خلال الحرب البروسية النمساوية إلى البافاريين ، عن طريق جريدة فرنسية كان قد وصل إليها هذا السر من بسمارك ، بأن فرنسا طلبت منه أن يعطيها شطراً من ألمانيا الجنوبية — وكانت ميول ولاياتها الجنوبية ضالعة مع فرنسا — لم يتردد البافاريون فى إبرام معاهدة مع بروسيا جعلوا جيشهم بمقتضاها تحت إمرة بروسيا فى حالة نشوب الحرب . وكذلك فعلت ورتمبرج وبادن . ثم أكره نابليون بعد ذلك على سحب مشروعه الخاص بشراء دوقية لكسمبرج[١] تحت ضغط عداء بروسيا العنيف السافر .

ولكن ما كان أشد وطأة على نابليون الثالث من كل هذا ، هو ما حل بطلبه المتعلق بألا يعارض بسمارك فى فتح فرنسا بلاد البلجيك ، وهو الطلب الذى قدمه الكونت بندتى Benedetti الذى أوفد عقب سادوا إلى بسمارك لمفاوضته فى شأن إعطاء فرنسا بعض تعويضات . فقد أرجأ بسمارك عامداً الإجابة عنه ، إلى أن نشبت الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ ، فنشر مشروع المعاهدة الذى كان نابليون الثالث قد تقدم به إليه سنة ١٨٦٦ . فأبعد بذلك عنه عطف الرأى العام البريطانى الذى كان يعد حياد البلجيك قدس الأقداس ، وتحول البريطانيون على الفور إلى الانتصار لجانب ألمانيا .

ميول رجال الدين الفرنسيين

ومع أن بلاط نابليون الثالث ظل فى مظاهره الخارجية متألقاً براقاً جواداً إلى حد الإسراف ، كما كان عهده من قبل . فإن روحاً من القلق والتخوف

---

(١) كانت دوقية لكسمبرج بمقتضى معاهدة فينا أحد أعضاء الاتحاد التعاهدى الألمانى . وكانت فى الوقت نفسه تحت سيادة ملك هولندا ، غير أنه كان لبروسيا حق الاحتفاظ بحامية فى حصونها .

كانت تشيع فى أروقة قصر التويلرى وأبهائه. فقد فقد الإمبراطور قدرته السابقة على الوصول إلى قرارات حاسمة . وكان وريث عرشه صبياً نابتاً . وأخذت تتجمع من كل فج حول الأسرة المالكة عاصفة هوجاء من المقاومة والتهكم . ولم يُجْدِ نابليون نفعاً أنه ضحى المرة تلو المرة بالشئ الكثير لرجال الدين وأشياعهم الذين كانوا عماد سلطانه الإمبراطورى . فكان دفاعه عن البابا فى روما بإبقائه حامية فرنسية فيها ، وإنفاذه أربعين ألفاً من المقاتلين الفرنسيين الأشداء فى حملة كاثوليكية إلى المكسيك ، وإقصاؤه ديروى Duruy أعظم أئمة التربية فى القرن التاسع عشر من منصبه — كانت كل هذه التضحيات وغيرها عبثاً فى عبث . فما فتئ رجال الدين ساخطين غير قانعين ، ولم يغتفروا البتة لهذا العاهل تدخله الأول سنة ١٨٥٩ الذى مكن الإيطاليين الزنادقة من طرد بيتى هبسبرج وبوربون من أرض إيطاليا ، وسلب البابا الشطر الأكبر من ولاياته . فإن الأساقفة الكاثوليك أصحاب الحول والطول الكبير ، والصحف القوية المتغالية فى التشيع للبابوية بزعامة لويس ڤييو Louis Veuillot — وهو صحافى نارى المزاج — إن هذه الصحف كانت تعتبر أن واجب الحكومة الفرنسية الأول هو تأييد المصالح الكاثوليكية فى جميع الأقطار والأمصار . فطفقت تصب جام غضبها المطرد على حكومة نابليون عند كل إحجام من جانبها عن مؤازرة الإكليروس . ورأت فى حركة إيطاليا القومية العدو الأكبر للكنيسة . وأشادت بالمنشور البابوى الذى أصدره البابا بيوس التاسع فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٦٤ يعدد فيه ثمانين ضرباً من ضروب الهرطقة ، وذم فيه من بين ما ذمه من سمات المدنية المعاصرة ، نظام الانتخاب العام ، وبالتالى ذمّ ضمناً إمبراطورية نابليون الثالث التى قامت على الاستفتاء الشعبى .

الأحرار والجمهوريون والاشتراكيون الفرنسيون

فإذا كانت هذه هى وجهة نظر القساوسة ، فمن الميسور تصور حال الرجال النزاعين إلى الارتقاء والتقدم الذين لم يبصروا شيئاً جليلا فى حكم نابليون يحملهم على الإشادة به . فلم يكن ثمة أى سناء يحيط بفولد Fould المالى اليهودى وأحد وزراء المالية ، أو روهيه Rouher المحامى

والسياسى الذى شغل فى عهد نابليون عدة مناصب وزارية ، أو هوسمان Haussmann المهندس الضليع – ولكنه غير المحبوب – الذى شق شوارع باريس الكبرى الرحيبة Boulevards ، وجعلها المدينة العصرية التى نعرفها – لم يكن هناك سناء يحيط بهؤلاء الرجال الذين قربهم نابليون إليه ، وقلدهم أرفع المناصب .

ولم تكن ثمة هالة من المجد تطوق سياسة الإمبراطور الخارجية فى الأيام الأخيرة من حكمه ، بل كانت هنالك على النقيض من ذلك سلسلة من الفشل والخذلان والنكسات . وكانت الشبيبة ترى أن الحكومة فى عوز إلى دم فتىّ . وكان الأحرار فى مجلس النواب هيئة نامية يتزعمها إميل ألفييه Emile Ollivier ، وهو بمثابة غلادستون فرنسى ، ولكن لم تكن له شجاعة الزعيم الإنجليزى الكبير . وكان ألفييه مشايعاً للإكليروس ، سامى المبادئ والأهداف ، مثقفا بليغاً . وكان الأحرار يحضون على توسيع الحريات التى منحت عام ١٨٦٠ ، وإقامة حكومة مسئولة. وبعد صمت طويل الأمد استعادت المبادئ الجمهورية قوتها فى شخص ليون غمبتا Leon Gambetta ، وهو محام ناشئ من أهل الجنوب ، أخذ يدعو إلى إسقاط الإمبراطورية . وشدد الاشتراكيون الذين اكتسبوا قوة وكرامة من وراء تأليفهم هيئة دولية ، ومنفيو عام ١٨٥٢ الذين فك عقالهم صدور عدد من قوانين العفو العام – شدد هؤلاء القوم النكير على الإمبراطورية وزادوا النار سعيراً واضطراماً .

ولكن ما كان أدهى على الإمبراطور وأفزع له ، هو أنه لم يكن محط الكراهية والمقت فحسب ، بل كان هدفاً للسخرية والتهكم . فكان مما يضيق له صدره أن يمد إليه رجل الشارع إصبع الاتهام كقاتل زنيم . ولكن ما كان أقتل له حتى من هذا هو تهكم جريدة « لا لانترن » La Lanterne اللاذع الباهر المدرار . وكانت لسان حال رشفور Rechefort الذى كان من بين جميع الصحافيين الفرنسيين فى تلك الآونة ، أكبرهم موهبة فى فن السخرية اللاذعة والمجون القاسى غير المسئول .

حرج مركز نابليون

وكان الموقف فى آخر عهد الإمبراطورية على أقصى درجة من الحرج . وبدا للعديد من الناس من انتخابات عام ١٨٦٩ التى ظفرت المعارضة فيها بما يقرب من نصف الأصوات الملقاة فى صناديق الانتخاب رغم ضغط الحكومة على الناخبين — بدا للعديد من الناس أن سباقاً يوشك أن يبدأ بين الثورة الداخلية والحرب الخارجية : فإما أن تهلك الإمبراطورية بضربات مهاجميها فى الداخل ، وإما أن تتمكن من إطالة أجلها بحرب ظافرة تصون بها كرامة فرنسا فى الخارج . وكان هناك طريق ثالث حث ألڤييه الإمبراطور على سلوكه ، وقد انتهجه الأخير بعد تردد كثير ، وهو أن يطّبق نابليون فى فرنسا المبادئ الحرة للأنظمة الملكية فى إنجلترا وإيطاليا . فإن وزارة متجانسة مسئولة أمام مجلس النواب قد يتسنى لها أن تخفف عن كاهل الإمبراطور عبئه الفادح ، وترضى عقلاء الأمة ، وتسلب الثورة من أكبر أسباب اندلاعها ، وبذلك تحفظ البيت المالك من السقوط .

ووُضِعت التجربة موضع الاختبار . ففى الثالث من يناير سنة ١٨٧٠ وجد ألڤييه نفسه على رأس حكومة حرة . وعُدِّل الدستور وفق مبادئ حرة . وقدمت الإصلاحات إلى استفتاء شعبى ، فقبلت بأغلبية تقرب من ستة ملايين صوت ، وبدأت دوائر البلاط تشعر بالاغتباط والفرح . وخيل كأن كل شىء يشير إلى بدء عصر يسوده السلام ورغد العيش ، وحقبة جديدة من السلطان والعز للإمبراطورية .

وشرع اللورد كلارندن وزير خارجية بريطانيا — بإيعاز من ألڤييه — فى أن يعرض على بسمارك مشروعات لنزع السلاح . وصرح رئيس الوزراء الفرنسى الجديد « بأنه أينما نوجه أنظارنا ، نرَ الجو خالياً من المعضلات المتعبة . ولم يُكفل السلام فى أوربا فى أية لحظة خيراً مما هو مكفول الآن » . غير أنه لم يتصرم شهر واحد على هذا التصريح حتى أدى اندلاع ثورة فى أسبانيا وخلو عرشها إلى أمر غير مرتقب ، وهو شبوب لظى حرب جرفت نابليون وألڤييه والإمبراطورية الثانية أمامها . وفى الوقت ذاته جعلت حلم الوحدة الألمانية حقيقة واقعة .

٢ ـ الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠

المرشح الألمانى لعرش أسبانيا

فقد نمى إلى باريس فى ٣ يوليو سنة ١٨٧٠ أن الأمير ليوبولد من أمراء بيت هوهنتزولرن سجمارنجن Hohenzollern Sigmaringin ، وهو قريب بعيد لملك بروسيا ، وابن الأمير أنطونى الذى شغل قبلا منصب كبير وزراء بروسيا ، وأخو الأمير شارل الذى انتخب سنة ١٨٦٦ أميراً على رومانيا — نمى إلى باريس أن هذا الأمير قبل عرش أسبانيا الشاغر ، على شريطة مصادقة الكورتس الأسبانى على اختياره . فنشأ فى الحال موقف من التوتر الدبلوماسى بالغ الخطورة . ذلك أن ترشيح الأمير الهوهنتزولرنى كان قد عُرِض على بساط البحث بشكل سرى فى برلين سنة ١٨٦٩ . وأحيط البروسيون وقتئذ علماً باعتراض الفرنسيين على ترشيحه ، فقد عدّه الأخيرون جزءاً من خطة تنطوى على تهديد بلادهم بخطر عودة إمبراطورية شارل الخامس ، وقلب التوازن الدولى الأوربى فى غير مصلحتهم .

فما الذى دعا إلى تجدد هذا الترشيح المبغوض فى يوليو سنة ١٨٧٠ ؟ إن الحكومة الفرنسية انتهى رأيها على الفور إلى أن بسمارك ينصب لها أحبولة من حبائله ، بغية إذلال الأمة الفرنسية . ورأت أنه إذا لم يُسحب الترشيح قبل انعقاد الكورتس فى ٢٠ يوليو ، فإن فرنسا ستكره على إشهار الحرب على بروسيا . وأخبر الدوق دى جرامون Duc de Grammont وزير الخارجية الفرنسية مجلس النواب فى ٦ يوليو بأن هذا الأمر يمس شرف بلاده ومصالحها . بل إنه حتى ألقيبه السياسى الأريب الحر الميال إلى المسالمة ، الذى كان قد صرح إلى مصدر ألمانى بأنه لن يكون شريكاً لأية حركة ترمى إلى أن تقاوم بلاده بحد السيف أى اتحاد اختيارى بين جنوب ألمانيا وشمالها — حتى ألقيبه استفزه هذا الشرك المزعوم الذى حاكه ختال بروسيا وسوء نواياها المبيتة.

ولكن وسط هذا الفوران العام الفرنسى الذى ارتفع إلى أوج الحمى ، هبطت بغتة على باريس فى ١١ يوليو — كما يهبط المن من السماء — أخبار

غير رسمية بأن الأمير أنطونى هوهنتزولرن أمكن استمالته إلى أن يعلن باسم ابنه نزوله عن ترشيحه للعرش الأسبانى. فكانت دهشة باريس عظيمة، وروح الفرح والغبطة فيها أعظم، وبدا كأن الخطر قد أُبعد، وأن تصريحات فرنسا قد أثمرت ثمرها. وأعرب الإمبراطور وألقيبيه عن ارتياحهما. أفلم يكن هذا ينطوى، لا على صون السلم فحسب، بل على صون السلم مع الشرف؟ وأكد جيزو الوزير السابق العجوز أنه لا يذكر نصراً دبلوماسياً أحرزته فرنسا أعظم من هذا النصر.

عمل دبلوماسى طائش

بيد أنه سرعان ما كُسب السلم، حتى راح ضحية عمل دبلوماسى طائش يدل على الحمق والرعونة. فإن جرامون، وهو دبلوماسى محترف، كان أكثر من كبير الوزراء ميلا إلى الحرب والأخذ بأساليب الشدة — فلم يكتف بأن يعلن «الأب أنطونى» تخلى ابنه عن الترشيح، بل رأى ضرورة الحصول على تأكيد صريح من ملك بروسيا بتصديقه على هذا التخلى، وتعهده بعدم تجدد هذا الترشيح قط فى المستقبل. بل إنه ذهب حتى إلى المدى البعيد، بأن يقترح على السفير البروسى بباريس أنه يجدر بمليكه أن يعرب عن أسفه على حدوث هذا الترشيح إطلاقاً.

ومن سوء الطالع، لم يتفرد جرامون بهذا الطيش وتلك الحماقة. فإن غراً أحمق آخر وقف فى مجلس النواب الفرنسى — الذى كان قد أُذكيت فيه لظى حمى متأججة من التحمس والهوى فى الأيام القليلة السابقة — وطالب حكومته بضرورة حصولها على تأكيدات وافية. وانتقلت هذه الصرخة من المجلس إلى القصر الإمبراطورى، فجرفت أمامها تعقل الإمبراطور واعتداله. فأنفذ هو ووزير خارجيته — من غير علم ألقيبيه والوزارة — تعليمات فى ١٢ يوليو إلى بندتى سفيره ببرلين، بأن يقابل الملك وليم فى مدينة إمز Ems، ويحصل منه على تأكيد بأنه يشترك مع الأمير أنطونى فى تنازل الأمير ليوبلد، وأنه لن يقر البتة أية محاولة لتجديد إجلاس أمير من آل هوهنتزولرن على أريكة العرش الأسبانى.

بسمارك ينصب الحبائل

ومع أن هذه المشكلة الأسبانية لم تُعرَض قط على الوزارة البروسية، إلا أن الفرنسيين كانوا على صواب فى حدسهم بأن بسمارك كان قطب الرحى فى هذه

الأحبولة . وفى الواقع لم يترك بسمارك وسيلة من الوسائل إلا طرقها ، لكى يحبط المحادثات النمساوية الفرنسية بشأن تقرب الدولتين ، وسعى إلى عقد تحالف بين بروسيا وأسبانيا يفتح الأسواق الأسبانية فى وجه التجارة البروسية ، ويكفل لبلاده فى حالة نشوب حرب دولة صديقة عبر البرانس . ولهذا حض الأمير الهوهنتزولرنى على قبول الترشيح ، وحض الأسبان على تجديده ، وحض مليكه على أن ينظر إليه بعين الرضا ، وأن يتصرف فيه كأمر سرى للغاية . وبينما كان ينكر فى دهاء معرفته رسمياً بهذه المسألة ، سعى كى تُبحث فى اجتماع خاص لمجلس الدولة حضره الملك والأمراء وأقطاب الحرب . وقد روعيت بشأن انعقاد هذا الاجتماع أشد ضروب الكتمان والتستر . وأمل بسمارك أنه قبل أن يدرى حتى الفرنسيون بأن عرضاً كهذا قُدِّم ، فإن الأمير الألمانى يكون قد زُكى وقُبل مليكاً بصفة رسمية فى مدريد .

فإن بسمارك رأى حدوث إحدى نتيجتين ، كانت كلتاهما ملائمة لأغراضه ، وهما : إما شبوب حرب بين فرنسا وبروسيا ، أو ما هو أقل ملاءمة لمقاصده ، شبوب حرب بين فرنسا وأسبانيا . ولهذا فإنه علم فى ١٢ يوليو ، وقلبه يطفح خيبة أمل برفض « الأب أنطونى » هذا العرض الكبير ، إذ كان معنى ذلك انتصار الدبلوماسية الفرنسية ، وعجزه عن الاقتصاص من الصحافة الباريسية على قحتها وتهجمها . وهو يصف هذا الموقف فى مذكراته « أفكار وذكريات » بأنه أكبر إذلال أصاب بلاده منذ ألمتز .

برقية إمز

بيد أن جرامون خلصه من وجومه ومرارة نفسه . فإنه لما حظى بندتى بمقابلة ملك بروسيا فى صباح ١٣ يوليو وهو يتنزه فى شوارع إمز ، قابله المليك الهرم مقابلة مجاملة ، ولكنها حازمة أيضاً ، إذ رفض إعطاءه أى وعد . ثم رجا السفيرُ الفرنسى مرتين تحديد موعد لمقابلة أخرى مع الملك ، غير أنه رُفض استجابة طلبه . وأرسل الملك إلى بسمارك برقية يقول فيها ، إنه وصله إخطار رسمى من الأمير ليوبولد بتنازله عن الترشيح ، وإنه موافق على هذا التصرف . وأعرب لوزيره الأول عن رأيه بأن هذا سيؤدى إلى فض المشكل ،

وأخبره أن المقابلة التى جرت بينه وبين السفير الفرنسى – وكان كلاهما يتوق إلى تجنيب بلاده الحرب – كانت تسودها المجاملة البالغة والشعور الطيب .

واستلم بسمارك فى مساء ذلك اليوم البرقية الملكية التى تروى هذه الوقائع ، بينما كان يتعشى مع ملتكه رئيس هيئة أركان الحرب ورون وزير الحربية . فأبصر هذا الاستراتيجى الأكبر فى لمح البصر بأن خصمه قد وقع فى الفخ . ذلك أنه رأى أن يصدر بياناً إلى الصحف يضمنه فحوى البرقية ، ولكن بعد أن يُعمل فى نصها تغييراً أريباً طفيفاً ، بحيث تبدو كأن السفير قد أهان الملك ، وأن الملك أكره على أن يرد الإهانة أضعافاً . ولما قرأ بسمارك على القائدين الشهيرين النص المعدّل للبرقية ، اغتبطا اغتباطاً كبيراً . وقال ملتكه : « إنه تحدٍّ » ، وقال فون رون « إنه لشىء جميل » . وكان بسمارك والقائدان على محجة الصواب ، فإن برقية إمز هى التى أشعلت نار الحرب بين فرنسا وألمانيا .

فرنسا تعلن الحرب

ففى صباح ١٤ يوليو اندفع جرامون إلى مكتب ألڤييه ، وبيده نسخة من جريدة « غازيتة شمال ألمانيا » Norddeuche Zeitung ، حاوية نص بسمارك لبرقية إمز . فصاح ألڤييه « تالله إنهم يرومون إقحام الحرب علينا » . ولقد كان ذلك اليوم فى باريس يوماً عصيباً حافلا بالتردد وعدم الوصول إلى قرار حاسم . فقد أخذ بندول النقاش فى مجلس الوزراء الفرنسى الذى عقد ذلك اليوم يشير مرة إلى غلبة السلم ، ثم يتحول تحولا سريعاً إلى ضرورة تجريد السيف . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر صدرت الأوامر باستدعاء الاحتياطى . وفى منتصف الساعة السابعة تقرر دعوة مؤتمر ، غير أن الرأى تصلب بعد العشاء فى جانب امتشاق الحسام . وفى منتصف الليل انتهى المجلس إلى إعلان الحرب . وقد حضرت الإمبراطورة الاجتماع فى العشية حينما اتخذ المجلس قراره الخطير . ومع أنها التزمت الصمت ، إلا أن ميولها كانت معروفة بانتصارها لجانب الحرب .

وأظهرت باريس رأيها بشكل جلى . وقال الإمبراطور حينئذ : « إنه حتى إذا لم يكن باعث لنا نستطيع أن نتقدم به لخوض غمار الحرب ، فإننا

مضطرون إلى الامتثال لمشيئة الشعب » . بيد أن الشعب دلّ على جهله الكبير بحقائق الموقف فى هتافاته التى ملأت الشوارع : « إلى برلين ، لتحيا الحرب » .

وإذا كانت باريس قد استقبلت الحرب فى تهليل وتكبير ، فقد قوبل إعلانها فى تردد وأسف فى إحدى وسبعين مديرية من مديريات فرنسا السبع والثمانين ، فقد كانت فى نظر هذه المديريات حرباً لا ضرورة لها ولا معنى .

تبعة الحرب

وإن على أكتاف بسمارك وجرامون يجب أن تُلقى أكبر التبعة فى إعلانها : فعلى بسمارك ، لأنه حبك حبائل مؤامرة ترشيح الأمير الألمانى سراً ، ولتحويره نص برقية إمز ، وعلى جرامون ، لتعجله فى السير وراء أهوائه المندفعة ، وقطعه عامداً أسبابَ السلام . كما أنه لا يمكن إعفاء الملك وليم والإمبراطور نابليون من اللوم والمؤاخذة . فإن الملك وليم الذى كان أنموذج الشرف والنبل ، سمح لنفسه ، ضد رأيه الصائب ، أن يُجَرّ إلى التصديق على المغامرة الأسبانية من غير استشارة فرنسا ، رغم معرفته بأن لها مصلحة فى هذا الشأن . وكذلك لا يقل نصيب الإمبراطور فى اللوم والتقريع ، لأنه انضم إلى جرامون فى طلب الضمانات الذى أدى إلى هذه الحرب المشؤومة . أما أن موقفه قد جُعل شاقاً عسيراً بتحمس الخطباء الفرنسيين المحافظين المتهورين فى مجلس النواب ، وبلهجة صحف باريس النارية ، فما فى هذا ريب . بيد أن عاهلا قوياً حازماً خليق به الاحتفاظ بهدوئه ورجاحة رأيه خلال الأزمات . ومما هو جدير بالذكر أن تيير ، خير ساسة عصره ، لم يخش أن يجاهر برأيه ضد الحرب .

غير أن كل شىء حدث فى عجلة خارقة . فبينما أوربا ترتع فى بحبوحة من السلام والطمأنينة ، إذ بها فى أكثر قليلا من أسبوعين تتزلق إلى سعير حرب مستطيرة شعواء . وفى أوج موسم الأجازات الصيفية ، حوّلت الأسلاك البرقية والصحافة اليومية شجاراً لم يكن قط مرتقباً إلى نهاية وبيلة ، فقذفت بأمتين من أسمى أمم العالم مدنية فى جحيم حقد وحشى وكراهية شرسة ، قبل أن تتمكن عوامل التعقل وأواصر الجوار من أن تُسمعَ أصواتها السلمية . وعلا فوقها من كلا الجانبين صليل السيوف وهدير المدافع .

تفوق الجيش الألمانى

وطاشت ظنون جميع الأنبياء ، وكذبت تكهناتهم . فإن جيش فرنسا المنظم ذا الصيت الذائع والانتصارات الكبيرة ، بدلا من أن ينقل ساحة القتال إلى جنوب ألمانيا ، حُطِّم تحطيماً فى شهر واحد . ولم تكن هذه النتيجة بعائدة إلى نقص فى مناقب الجندى الفرنسى الحربية ، بل إلى الحقيقة بأن النظم الحربية الفرنسية كانت بالغة أقصى حدود القصور وضعف الكفاية ، على حين أن الجيش الألمانى كان قد أكمل استعداداته الحربية الدقيقة ، وكانت الأمة الألمانية أعظم أمة شهدها العالم حتى ذلك الحين نظاماً وترتيباً .

ومن أبلغ الدروس التى يمكن استخراجها من هذه الحرب الموازنة بين الدولتين المتحاربتين فى مسألة التعبئة الجليلة الخطر . فبينما الجندى الألمانى عند ما دُعِىَ إلى القتال ، وجد أسلحته وبزته العسكرية على أكمل وجه ، كان على الجندى الفرنسى أن يسافر أحياناً بطول فرنسا ، بل كان عليه أحياناً أن يعبر البحر إلى بلاد الجزائر لكى يصل إلى مستودع مهمات فرقته . فكانت النتيجة أنه على حين تم نقل الجيش الألمانى إلى الحدود بدقة آلية ونظام مضبوط ، سادت أشد ضروب الاختلال السكك الحديدية الفرنسية ، بحيث كان الألمان على الحدود بقوة متفوقة قبل أن يستعد الفرنسيون لملاقاتهم . ولما كانت فرصة نابليون الوحيدة لحمل النمسا على الدخول فى هذه الحرب إلى جانبه هى إحرازه نصراً باهراً مبدئياً ، فقد أسفر العجز الكبير وعدم الكفاية الهائلة لنظام التعبئة الفرنسية عن نتائج خطيرة كبيرة القدر .

واختص الغزاة بميزة أخرى على خصمهم ، هى أنهم كانوا قد درسوا هذه الحرب التى أزمعوا خوضها بإحكام عظيم ، على ضوء آخر التطورات التى تمت فى التلغراف ومدفعية الميدان . وعلى حين أن الفرنسيين لم يجل فى خاطرهم البتة الاحتمال بأنهم قد يُكرهون على الذود عن أرض وطنهم ، فإن الخطة البروسية لغزو فرنسا كانت قد وُضعت منذ ثلاث سنين ، فرسمت الطرق على الخرائط ، وقُدرت المقدرة النقلية للسكك الحديدية . ولم تترك هيئة الأركان العامة البروسية فى برلين شاردة أو واردة من التفاصيل الخاصة

بتنظيم الجيش الفرنسى ، وتسليحه ، وتوزيع وحداته ، دون أن تحيط بها علماً . وكانت تضاف باستمرار إلى المعلومات العديدة التى جمعتها هيئة أركان الحرب البروسية معلومات جديدة ، بواسطة سياج متحرك من الخيالة المراقبين الذين كانوا يتقدمون بتقدم الجيوش الألمانية الثلاثة فى فرنسا .

وربما ظن بعض الناس أن إحكام النظام الحربى الألمانى ودقة جزئياته أخمدا فى أفراد ضباطه روح الابتكار . ولكن الواقع كان غير ذلك . فقد كان مبدأ من مبادئ هيئة الأركان العامة الألمانية أن تشجع صغار القواد على الاضطلاع بالمسئولية ، ولهذا بينما كانت حركات الجيوش الفرنسية تعاق بخضوع قوادها الفائق لقيادة الجيش المركزية ، لم يحدث – حسبما يبدو – أن قائداً ألمانياً تردد فى الزحف إلى حيث تقصف المدافع ، أو فى قذف جنوده فى حومة الوغى حيث يرى الحاجة ماسة إليهم . والحق أن روح الابتداع والابتكار الرائعة التى أظهرها أصاغر القواد الألمان لهى مظهر من أبرز مظاهر تلك الحرب .

نقص كفاية القيادة العليا الفرنسية

وفى الحروب يتوقف كل شىء على مقدرة الإدارات المدنية وقيادة الجيش العليا على العمل معاً فى تضافر ، وعلى بث الثقة فى النفوس ، وتوجيه الأمة والجنود إلى مرامٍ واضحة ثابتة مذكية للعزائم . ففى جميع هذه المسائل الجزئية كانت فرنسا فى مركز عاثر فى صيف عام ١٨٧٠ . فلم يكن هناك أى نظام ، أو حماس ، أو همة ؛ لا فى القيادة الحربية العليا ، ولا فى تنظيم المدنيين . فقد كان نابليون مريضاً مهدماً تمزقه الآلام المبرحة ، وكان لى بيف Le Boef وزير الحربية وبازين Bazaine خلفه فى القيادة العليا ، على أكبر درجات العجز وقلة الكفاية .

وخلف هؤلاء قامت فى باريس حكومة مدنية شديدة الجزع والهلع تتزعمها الإمبراطورة الحسناء المكروهة . وأخذت هذه الحكومة تواجه غمرات من التمرد الشعبى تعلو وتصخب على جناح السرعة . وفى الجهة المقابلة لهذا المشهد من القصور الحربى والفوضى المدنية ، وقفت أمة متحدة ، وبيت

مالك عريق الأصول ، وثالوث هائل جبار يتألف من بسمارك ، وفون رون ، وملتكه ، يؤازره جيش من الضباط العسكريين والموظفين المدنيين دُربوا فى خير مدرسة من مدارس الخدمة العامة الموجودة يومئذ فى أوربا .

عدم وجود احتياطى مدرب فرنسى

ويمكن إضافة وجه آخر لهذه الموازنة بين الدولتين ، وهو أن الألمان كانوا يسيرون وفق نظام قصير الأجل للخدمة العسكرية . أما الفرنسيون فكانت مدة الخدمة العسكرية عندهم طويلة الأمد . فبينما النظام العسكرى البروسى يحدد عامين للخدمة فى الجيش العامل ، وأربعة أعوام فى الاحتياطى ، وخمسة أعوام ونصف عام فى الرديف ، مما كان مقدراً له أن يخرج جيش ميدان يتألف من خمسمائة ألف مقاتل ، وراءهم عرمرم من الوحدات المدربة ، كان النظام الفرنسى الذى يفرض خمسة أعوام للخدمة العسكرية ملائماً إلى درجة ما للحملات الاستعمارية عبر البحار . ولكنه لم يكن يجدى فتيلا فى الحروب الكبرى . ولو أن الجيش النظامى الألمانى هلك فى المراحل الأولى للحرب ، لكان من الميسور تعويضه بجنود قضوا المدة الكاملة للتدريب فى الجيش العامل . أما الجيش الفرنسى فإنه حينما أبيد ، أو فرق شذر مذر ، أكرهت البلاد على الاعتماد على جنود كانوا إلى أكبر حد خاماً غير مدربين . ولقد أحست فرنسا بهذا النقص الفادح أشد إحساس فى النصف الثانى من الحرب .

سير القتال

وكان تاريخ الشطر الأخير من صيف سنة ١٨٧٠ مأساة كبرى متصلة النوائب والكوارث لفرنسا . فإن الألمان جرفوا كل شىء أمامهم بقوة هائلة لا تقاوم ، فدحروا ماكماهون Macmahon فى ڤرت Worth ، وهزموا فروسار Frossard فى إسبيشرن Spichern . وبهذين الانتصارين : الواحد فى الألزاس والثانى فى اللورين ، واللذين أُحرزا كلاهما فى ٦ أغسطس — أى بعد يومين فقط من بلوغ الجيش الغازى الحدود — بهذين الانتصارين الألمانيين هبت عاصفة عاتية من الاستنكار الشديد ، وعمَّت موجة طاغية من التشاؤم والهلع فى طول فرنسا وعرضها ، حتى اضطر الإمبراطور إلى أن

يتخلّى عن منصب القيادة العليا ، ويعين فيه بازين . وأُقصى ألفييه الأمين الوجل الذرب اللسان المرح الفؤاد من مسرح السياسة الفرنسية إقصاء أبدياً . وحل محله فى ١٠ أغسطس ضابط كهل من ضباط الفرسان هو الكونت دى پالكاو De Palîkao وضعت فيه الإمبراطورة المحزونة القلقة المتخوفة فى عناد وإصرار آخر آمالها .

بيد أن جميع هذه التغييرات كانت بدون جدوى . فلم يكن بازين بالرجل الذى يوقف الهجوم البروسى الجارف . وكان ارتداده بطيئاً ، وبطيئاً إلى درجة أنه مكن الألمان من أن يلتفوا حوله ، ويوقفوه عند مارلاتور Mars la Tour ، ثم يردوه بعد فوز دموى فى غراڤْلُتْ Gravelotte فى ١٨ أغسطس . وتراجع بازين جنوباً بشرق كى يحتمى بتحصينات معقل متز ، حيث سمح لغريمه بأن يطوقه ، وحيث ظل دون أن يبذل أى جهد لاختراق خطوط الجيش المحاصِر ، وحيث استسلم أخيراً للعدو فى ٢٧ أكتوبر ، وأطلق بعمله هذا المنطوى على الجبن والغدر جيشاً ألمانياً مؤلفاً من مائتى ألف جندى لكى يساهم فى إخضاع بلاده .

وكان جيش فرنسى آخر مدرب من الجند النظاميين يتجمع فى الأيام الأولى من أغسطس فى شالون Chalons تحت قيادة مَكماهون . وغدا أمراً من الأهمية بمكان عظيم إذا كان فى مقدور هذا الجيش الذى صار آخر قوة نظامية فرنسية غير محصورة أن يوجه حركاته بحيث يُنتفَع منه انتفاعاً كبيراً . وأشار ماكماهون — فى حكمة كما يبدو — بأنه ينبغى أن يجتنب هذا الجيش أى اتصال مباشر بالعدو ، وأن يرتد إلى الوراء ، وأن تخفّ إلى نجدته أية قوات حربية مبعثرة تكون باقية فى البلاد ، وأن يركز قوته أمام حصون باريس . ولكن الإمبراطورة يوچينى ومشيريها أصموا آذانهم عن سماع هذا الرأى القائل بالتراجع ، وحضوا على أن يهرع مكماهون إلى نجدة بازين ، وأشاروا إلى أن باريس فى حاجة إلى انتصار يُكسَب فى الشرق ، وأنه إذا تراجع جيش شالون إلى الوراء ، فإن الناس سيهبون لقلب العرش . فاضطر ماكماهون

على كره منه ، وضد رأيه الصائب ، أن يزحف قافلا إلى ريمس . وإذ نُمى إليه أن بازين ينوى شق طريقه إلى الشمال ، أدار وجهته إلى الشمال الشرقى صوب الحدود البلجيكية . بيد أن ملتكه بادر إلى تعقبه ، وأمكنه أن يطوّقه فى البندر الصغير سيدان Sedan ، وأن يسلط عليه حمم مدافعه ، ويجبره على التسليم . وكان من بين أسلاب ذلك النصر الألمانى المبين نابليون الثالث نفسه .

إعلان الجمهورية الثالثة

وقد نشبت هذه المعركة فى الثانى من سبتمبر . وبعد يومين من وقوعها ، أعلنت الجمهورية فى باريس . وبينما كان الزعيم الفرنسى چول فافر Jules Favre يعلن للعالم أجمع أن فرنسا لن تتنزل عن حجر واحد من قلاعها ، أو شبر واحد من أرضها ، كانت الإمبراطورة تلوذ بالفرار سراً فى عربة طبيب أسنان أمريكى إلى الحرم الأمين التقليدى للمنفيين السياسيين : إنجلترا . وبذلك قُضى على البونابرتية القضاء المبرم ، وانتهى ذلك النوع من النظام الملكى القائم على الاستفتاء الذى بعد أن أوشك على توحيد أوربا قاطبة تحت صولجان نابليون الأول ، ختم أيامه بترك فرنسا مقصوصة الجناح ، مهيضة الجانب ، تواجه خصما عنيداً جباراً .

الأمة الفرنسية تواصل القتال

ولكن ما انتهت الحرب ضد الجيش الإمبراطورى الفرنسى ، حتى بدأت ضد الأمة الفرنسية نفسها . ولو أن أريباً وزن الموقف وزناً هادئاً بعيداً عن الهوى ، لأشار بأن أكبر أمل لفرنسا فى الوصول إلى صلح ملائم كان فى الوقت الذى ما برحت متز فيه ممتنعة على العدو ، وجيش بازين لم يمْسَسْه أذى . غير أن الأهواء لا تحسب لشىء حساباً . كما أن هناك بلا ريب برهات فى تاريخ كل أمة تكون فيها قواها النفسانية — مهما تكن أهواؤها عمياء جامحة — أثمن لها وأنفس من العناية بتقدير حساب المكسب والخسارة . فإن الحرب القومية التى بدأت فرنسا الآن تخوضها ، وإن كانت قد جرّت عليها صلحاً أقسى ، إلاّ أنها عاونت بعض الشىء على إعادة الكرامة والعزة واحترام النفس إلى الأمة الفرنسية ، وعملت على المحافظة على شجاعة أبنائها

وتقوية عزائمهم فى السنين العاثرة التى بدأت تطالعهم .

صحيح أن الأحداث أثبتت أن هذه الحرب كانت حرباً يائسة لا رجاء فيها ، ولكنها كانت ملأى بالمضايقات للعدو الظافر الغازى ، ومفعمة بصعاب ربما كانت أعظم من تلك التى واجهته فى الطور الأول من الصراع الذى تطاحن فيه الجنود المحترفون . فإن ميدان عمليات العدو الحربية صار أوسع ، وطالت خطوط مواصلاته ، وكثيراً ما هدده الجنود الفلاحون الذين هبوا للذود عن أرض الوطن . وكانت الجيوش الفرنسية الجديدة التى نهضت فى كل صقع للقتال ، أعصى على العدو فى تقدير قواتها وكشف مواقعها . ولو أن الفرنسيين كانوا قد اتخذوا الحيطة فى إعداد نظام واف لتأليف جيش احتياطى مدرَّب ، لربما كان فى وسعهم أن يحولوا هذه المضايقة التى عاناها العدو إلى تهديده تهديداً خطيراً .

غمبتا

وكان قطب الرحى فى هذه الحركة الشعبية التى أطالت الحرب هو ليون غمبتا (١٨٣٨ — ١٨٨٢) الخطيب الجمهورى المفوه ، الخارج من الجنوب ، الذى برز اسمه لأول مرة فى قضية شهيرة كان فيها المكافح العنيد ، والمهاجم القوى المراس للإمبراطورية الثانية . ولم تكن العقبات لتثنيه عن عزمه ، ولا العراقيل لتحول بينه وبين بغيته . مثال ذلك أنه حينما طوق الألمان باريس ، فر منها فى بالون إلى روان . وبنشاطه الخارق وهمته القعساء ، حشد فى خلال أسابيع ستة جيشاً من مائة ألف وثمانين ألف مقاتل . وتمكن هذا الجيش الجديد من إنزال الانكسار الأول الذى أصاب الألمان فى هذه الحرب ، وذلك فى كوليميه Coulmier بالقرب من أرليان .

ولو أن بازين كان لا يزال ممتنعاً فى متز ، فلعل الجنرال دورى D'Aurelles الذى أحرز نصر كوليميه كان قد استطاع بمعونة حامية باريس من فض الحصار عن قصبة البلاد . ولكن استسلام بازين فى ٢٧ أكتوبر أثر تأثيراً حاسماً فى مجرى الحرب . إذ جعل تحت تصرف الألمان جيشاً كبيراً قوياً كانوا ساعتئذ فى أشد الحاجة إليه . وكانت الكتائب الفرنسية الخام النصف

المدربة تقاتل فى كل بقعة من بقاع القتال قوات تفوقها عدداً وقوة ومراناً ، مما أسفر عن دحر دورى ثلاث مرات على مقربة من أرليان ، وهزيمة شانزى Chanzy — بعد قتال شرس دام أياماً ثلاثة — فى لى مان Le Mans فى ١٠ يناير سنة ١٨٧١ ، وانكسار فيدرب Faidherbe — الذى كان قد ظفر ببعض الانتصارات الابتدائية فى الشمال — فى سان كونتان St. Quentin فى ٩ يناير سنة ١٨٧١ .

ثم أخفقت إخفاقاً أشد حتى من الاندحارات السالفة الذكر محاولةٌ بلغت حــداً من الضخامة قلل من فرص نجاحها . فقد حاول غمبتا أن يحمس أهل الجنوب الشرقى لفرنسا ضد الغزاة ، وأن يوجه غارة على بادن يشغل بها العدو ، غير أن جيش بورباكي Bourbaki المؤلف من ٨٥ ألف رجل سيىء العدة ، دُحر فى مونتبليار Montbeliard ، وسيق وراء الحدود إلى داخل أرض سويسرة المحايدة ، حيث نزع سلاحه نزعاً مزرياً فى أول فبراير سنة ١٨٧١ .

حصار باريس

وفى هذه الأثناء أخذت باريس تكابد غوائل حصار غير مرتقب . فأفعمت ضغينة ومذلة قلوبُ أهل تلك المدينة السمحاء : أولئك الذين كانوا قد هللوا للحرب فى خفة وطرب ، هاتفين : « إلى برلين ، إلى برلين » ، والذين حُكم عليهم الآن أن يذوقوا طعم الخذلان المرير . وساعد نقص الأطعمة ، وإخفاق كل محاولة لاختراق صفوف الحصار ، وأهوال رشق المدينة بالقنابل رشقاً منظماً من ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٠ ، حينما دنت المدفعية البروسية منها ، وأخذت تصب حممها على السكان المدنيين والحصون على السواء — ساعد كل هذا على خلق « حمى الحصار » — كما يدعوها الفرنسيون — فى عقول الجماهير : هذه الحمى التى تحولت فى سهولة إلى جنون السوقة الطغام .

جمعية بوردو

وأخيراً ، بعد أن حبطت التجربة اليائسة التى أقدم عليها الباريسيون لشق طريقهم ككتلة مرصوصة واحدة ، قبلوا فتح المفاوضات مع الأعداء . فمنحوا هدنة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ ، وأجريت انتخابات عامة فى ٨ فبراير ،

والتأم عقد الجمعية الوطنية فى ١٢ فبراير فى مدينة بوردو التى كانت الحكومة الفرنسية المؤقتة قد اتخذتها مقراً لها بعد حصار باريس . وانتخبت تلك الجمعية تيير رئيساً للسلطة التنفيذية ، وخولته حق التفاوض مع العدو .

شروط الصلح

وكان بسمارك صلباً لا تلين له قناة فى النقط الرئيسية لشروط الصلح . فقد طلب فى فبراير سلخ الألزاس وشطر كبير من اللورين يدخل فيه مدينة متز ، عن فرنسا ، وفرض غرامة حربية قَبِل نهاية الأمر إنقاصها إلى مائتى مليون جنيه . فقد كان الداهية البروسى فى مركز قوى مكين . ولما أظهر تيير رفضاً وعناداً ، هدده بسمارك بالتفاوض مع نابليون . ولم ينزل أمام توسلات الرئيس الفرنسى البليغة عن القواعد الرئيسية لشروطه إلا فى نقطة واحدة ذات أهمية جدية ، ذلك أنه قبل أن يحتفظ الفرنسيون ببلفور Belfort ، لو أنهم طيبوا خاطر الجيش الألمانى بأن يحتل باريس . وقد فرض الألمان صلح فرنكفورت (١٠ مايو سنة ١٨٧١) الذى تضمن هذه الشروط على الفرنسيين ، كما فرض الحلفاء صلح ڤرساى سنة ١٩١٩ على الألمان . وكانت الغرامة الحربية شيئاً تافهاً فى نظر الفرنسيين — وقد سددوها عن آخرها فى ثلاثة أعوام كى يتخلصوا من بقاء الجند الألمان المبغضين فى أرض الوطن — كانت الغرامة شيئاً تافهاً بالقياس إلى سلخ ستراسبورج ومتز عن بلادهم . فإنه كان غصة مرة المذاق على كل فرنسى .

تيير

أما تيير (١٧٩٧ — ١٨٧٧) : هذا السياسى الوطنى الملتهب الحماس ، الذى قام بالنيابة عن بلاده المهزومة بمفاوضات الصلح التمهيدية ، والذى كان قد حذر بنى جلدته من سوء مغبة إشهار الحرب ، فإنه قام — رغم سنيه السبعين — فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٧٠ برحلة إلى بلاط الملوك الأجانب ، على رجاء أن يحملهم على التدخل فى الحرب لمصلحة بلاده . ولكنه رجع إلى بلاده خائباً صفر اليدين . والحق أنه كان رجلا من أفذاذ رجالات التاريخ الفرنسى المدنيين . كان ضئيل البدن ، مشوه الخلقة ، ذا رأس بيضاوى ، ونظارات كبيرة ، وبهجة المصورين الكاريكاتوريين ، ومحط التفاتهم .

وقد أبرم الصلح مع ألمانيا ، وقضى على فتنة الكومون . ورغم أنه كان بعقيدته ملكياً يناصر بيت أرليان ، فإنه خلق ، أكثر من أى شخص آخر ، الجمهورية الثالثة التى عمرت طويلا (١٨٧٠ — ١٩٤٠) ، رغم الأخطار العديدة التى اكتنفتها فى أيام طفولتها . ذلك أنه رأى أن من بين جميع أشكال الحكم كان النظام الجمهورى أقلها سبباً فى إحداث الانشقاق فى صفوف الفرنسيين . وقد قويت الجمهورية واشتد ساعدها ، حتى تمكنت بعد ثمان وأربعين سنة من إنشائها من الأخذ بثأر الحرب الفرنسية — البروسية .

الألزاس واللورين

والحق أن بسمارك باستيلائه على مقاطعتى الألزاس واللورين وحصن متز العظيم ، قوّى من أسباب الخصام والبغضاء بين فرنسا وألمانيا ، وبذر بذور حرب مستقبلة . فارتكب بهذا العمل أعظم أغلاطه ، وأكبرها خطورة ، وأبعدها أثراً فى حياة زاخرة بالانتصارات وجلائل الأعمال . صحيح أن الألزاس كانت مقاطعة ألمانية فى صميمها ، ولكن اللورين كانت إلى مدى بعيد ولاية فرنسية . وقد اغتصب مازاران المقاطعة الأولى من ألمانيا بمقتضى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ . أما الثانية فحصل عليها لويس الخامس عشر سنة ١٧٦٦ ، بعد وفاة حميه استانسلاوس ليوزنسكى Stanislaus Leozinski ملك بولندا . نعم ، كان فى وسع ألمانيا فى استيلائها على هاتين المقاطعتين ، ولا سيما فى استيلائها على مقاطعة الألزاس ، أن تستند إلى حقوق تاريخية لها فيهما ، غير أن سكانهما الذين كانوا قد انتفعوا بالإصلاحات العمرانية والاجتماعية التى قام بها الفرنسيون مدة حكمهم إياهما لم يعطوا أية فرصة لإبداء إرادتهم ، وأبعد أهلهما من أمة كانوا قد ألفوا العيش معها ، واعتادوا حكمها ، ووُضعوا تحت ربقة أقسى .

٣ — إنشاء الإمبراطورية الألمانية

إعلان الإمبراطورية

وفى ١٨ يناير ١٨٧١ — أى قبل استسلام باريس بعشرة أيام — أعلِنت الإمبراطورية الألمانية فى بهو المرايا بقصر فرساى . ومما هو جدير بالذكر

أن الانتصار المدوّى الذى كسبه الألمان فى ڤرت كانت قد كسبته كتائب بڤاريا وورتمبرج تحت قيادة ولى عهد بروسيا . وسرعان ما سلم نابليون فى سيدان ، حتى شرعت الولايات الألمانية الجنوبية تلوح برغبتها فى الدخول فى الاتحاد الألمانى الشمالى . فقوبلت بالترحيب الشديد .

حكمة بسمارك

ومع أنه كان هنالك أناس عديدون رأوا أن الوقت مناسب لإقامة دولة مركزية قوية فى ألمانيا ، فإن بسمارك لم يكن واحداً منهم ، قائلا : « إننا لا نروم أن تنضم إلينا باڤاريا وهى غير راضية ، بل نروم دولة تنضم إلينا بملء اختيارها وحريتها » . ولكى يجعل هذه الدولة مقبلة راضية ، كان مستعداً أن يمنحها حقوقاً واسعة : كالهيمنة على جيشها أيام السلم ، وإسماع صوتها فى الشئون الخارجية ، وتخويلها نظاماً مستقلا للبريد والتلغراف . وليس ثمة ما هو أدل على حكمته ونفاذ بصيرته من أن ملك بڤاريا قَبِل أن يضع التاج الإمبراطورى على مفرق وليم الأول ملك بروسيا فى حفلة تتويجه إمبراطوراً على ألمانيا

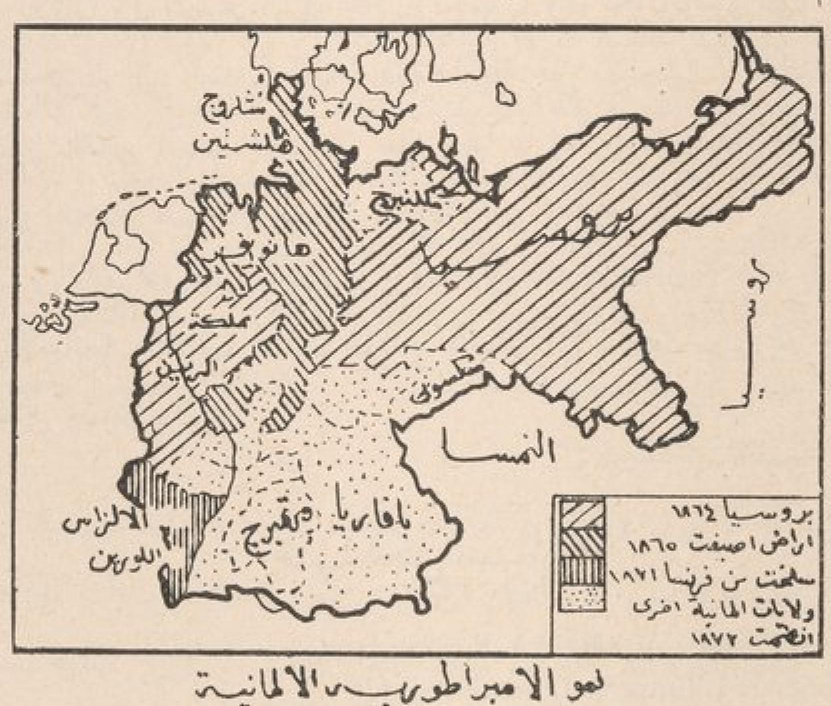
تحمس الألمان للامبراطورية

ومن العسير الغلو فى وصف الحماس البالغ واحترام النفس والثقة التى بعثتها هذه الأحداث العجيبة فى أفئدة الأمة الألمانية . فمع أن البروسيين من الطراز العتيق ، من أشباه الملك وفون رون ، لم يكونوا يستطيبون إلا قليلا اللقب الإمبراطورى الجديد ، فإن الحقائق الواقعة بأن ألمانيا بعد قرون عدة طافحة بالانقسام والأخطار الخارجية ، ضمت صفوفها آخر الأمر نتيجة حرب ظافرة ، وأثبتت جيوشها فى حومة الوغى أنها قوة لا تُقهر ، وأنها فرضت إرادتها على النمسا ثم على فرنسا ، وأنها باسترجاعها مقاطعتين كانتا قد سُلختا عنها ردحاً من الزمان ، أقامت حاجزاً قوياً ضد الأخطار المقبلة التى قد تأتى من ناحية الجنوب — هذه الأمور كلها غمرت قلوب الألمان عن بكرة أبيهم بأحاسيس الفوز والفخار والرضا .

مطامع بروسيا

ولقد قاد الألمان أمداً طويلا أوربا فى الموسيقى والثقافة ، وفى عدد مدارسهم وجامعاتهم ، وفى مدى نفوذها وكفاية رجالها . وصاروا الآن بلا منازع أعظم

قوة حربية فى أوربا . أفكان إذن أمراً غير طبيعى أن المتحمسين من البروسيين ، حين تستعيد أذهانهم الماضى ، ويرون الأصول الأولى الغامضة المعالم لبلادهم : كيف نبتت فى مركز حربى صغير يتألف من شرذمة من الرجال الناطقين بالألمانية يقفون فى وجه ربوات السلافيين ، ثم يستتبع هؤلاء المتحمسون تطورات تاريخهم المتعاقبة — أكان أمراً غير طبيعى بعد ذلك أن يلمحوا فى هذه الأمور أصبع قوة سماوية وضعتهم تحت كنفها ، وأظلتهم برعايتها الخاصة ؛ وهل كان أمراً غير طبيعى أن يؤمنوا بأن الجنس البروسى بزهده وخشونته ونظمه الصارمة وعنفوان قوته الجبارة المنظمة ، قد اختير لكى يؤدى رسالة تاريخية على هذه الأرض : فى بدء الأمر بصفته مبعوثاً لنشر الحضارة الألمانية بين صقالبة البحر البلطى ، ثم بصفته مبشراً بالمذهب البروتستانتى لأوربا ، ثم بصفته الشعب الذى أنقذ الألمان من براثن الإمبراطورية النمساوية المشلة لجهودهم ورقيهم ، والذى وهبهم مركزاً فيصلا فى القارة الأوربية ؟



نمو الامبراطورية الالمانية

لقد نُثرت هذه الخواطر والتأملات على نطاق واسع من فوق منابر الجامعات . بل وُجد الكثيرون من الألمان ممن بلغت بهم جسارة القلب ورحابة المطمح ، أن يوجهوا عقولهم إلى استشفاف حجب المستقبل ، وأن يسألوا أنفسهم عما إذا كانت الأقدار قد هيأت لبيت هوهنتزولرن مستقبلا أرفع وأياماً أمجد . فتراءت أمامهم

الدنيا مترامية الأطراف فسيحة الأرجاء . وبدا لهم أن بحار العالم ومحيطاته تشير إليهم بالمغامرة، وتناديهم بركوب المخاطر . وخيل إليهم أن لا شيء مستحيل أمام البطولة الألمانية . فلا القوة البحرية المرهوبة الجانب ، ولا امتلاك المستعمرات الواسعة ، بل ولا سيادة العالم ببعيدة عن قطاف أيديهم .

ألمانيا والامبراطورية البريطانية

غير أنه بقى أمام هذه الدولة التى فى قوة نامية متزايدة ، أذلت أعناق الدانماركيين ثم النمساويين ثم الفرنسيين – بقى أمامها أن تخوض غمار اختبار قاس آخر . فقد أبصر الألمان أمامهم الإمبراطورية الأنجلوسكسونية التى شيدتها أمة من الرجال المدنيين المخاطرين والهواة العابثين ، الذين ظفروا بسمو المكانة ورغد العيش من غير كدح ولا عناء . وقيل لهم إن هذه الإمبراطورية ليست بالأزلية الدائمة ، وإن هؤلاء الأطفال المجدودين من أبناء القدر السعداء حظوا بأطايب الحياة ولذائذها فترة طال أمدها أكثر مما ينبغى ، وإنه قد حان الأوان للألمان لأن تمطرهم السماء سحائب نعمائها ، وأن تحول إليهم تلك البركات المادية الجزيلة التى أسبغتها العناية فترة طويلة على الإنجليز : أولئك الأبناء المحظوظين للقدر السعيد ، « وإن على روما – إذا رامت الرفعة والمجد – أن تغتصب اغتصاباً صولجان السيادة والسلطان من قرطاجنة » .

هذا فى الواقع كان مدار تعاليم هينرخ فون ترايتشكه Heinrich von Treitschke أعظم الأساتذة والكتاب الألمان نفوذاً ، وأقواهم أثراً ، وهو يبشر بها من فوق كرسيه فى جامعة برلين .

كتب يمكن استشارتها

Fyffe : A History of Modern Europe. 1924.
E. Ollivier : L'Empire Liberal. 1911.
Pierre de la Gorce : Histoire du Second Empire. 1908.
G. Rothan : Souvenirs Diplomatiques. 1882.
E. Bourgeois : Manuel Historique de Politique Etrangère. 1905-6
E. Bourgeois and E. Clermont : Rome et Napoléon III. 1907.
J. Reinach : G.L. Gambetta. 1884.
Lowes Dickinson : Revolution and Reaction in Modern France. 1892.

الفصل العشرون

الجمهورية الثالثة

بغض الريف الفرنسى للمبادىء الجمهورية . كومون باريس . الكفاح بين باريس وفرساى . تأسيس الجمهورية الثالثة . الحكومة البرلمانية فى فرنسا . فرنسا وألمانيا . جول فرى . المسألة الإكليريكية . عدم استقرار الجمهورية . بولنجيه . قضية دريفوس . الدبلوماسية الفرنسية .

١ – ثورة كومون باريس

بغض الريف الفرنسى للمبادئ الجمهورية

استطاعت فرنسا خلال الأعوام التى أعقبت هزيمتها النكراء فى الحرب السبعينية أن تشيد لنفسها صرحاً سياسيًّا جديداً . ولقد دب فى قلبها سأم شديد من الاستفتاءات الشعبية والدكتاتوريات والمغامرات الأجنبية . ولما كانت فكرة الجمهورية قد اقترنت على الدوام فى أذهان الفرنسيين بالحرب والثورة ، فإن الأكثرية الكبرى منهم كانت تنخلع قلوبهم من أى دستور يحمل هذا الاسم . ولذا فإنه فى الانتخابات التى جرت فى ٨ فبراير ١٨٧١ للجمعية التأسيسية انتخب أربعمائة عضو ممن يناصرون إعادة الملكية ، من الستمائة والخمسين عضواً الذين تألفت منهم تلك الجمعية .

الخلاف بين الملكيين

بيد أنه لم تبرز فى النهاية حكومة ملكية ، بل قامت جمهورية من هذه الجمعية الشديدة الميل إلى النظام الملكى ، والتى كانت تمثل رأى البلاد تمثيلا حسناً . ذلك أن فرنسا أخذت تدرك بخطى وئيدة أن قيام الملكية بات أمراً مستحيلا ، نظراً للانشقاق الذى دب بين أنصار كل من بيتى بوربون وأورليان فى الجمعية ، ولرفض الكونت دى شامبور De Chambourd ، حفيد شارل العاشر ، ورأس الفرع الأقدم من الأسرتين ، رفضاً باتًّا الاعتراف بالراية الثلاثية الألوان التى كانت فى نظر الفرنسيين رمز الأنظمة الديمقراطية – رفضه الاعتراف

بها كراية فرنسا ، ولاستياء الهيئات النيابية فى باريس استياء عنيفاً من أية محاولة ترمى إلى إرجاع الملكية إلى فرنسا .

مقت الباريسيين للملكية

فقد كانت باريس جمهورية النزعة ، تفيض حماسة لحرب ثورية تشنها على الألمان — حرب من الطراز القديم ، مماثلة لتلك التى شنها دانتون وكارنو أيام الثورة . فقد أبصر أهلها أن الحرب الأخيرة أديرت على أسوأ منوال ، ودخل فى روعهم أن حصار مدينتهم كان من الميسور فكُّه ، لو أن جيش فرنسا كان تحت قيادة باسلة بارعة ، واعتقدوا أن الجمعية الوطنية الوَجلة الوضيعة النفس التى كانت كثرة أعضائها تتألف من محافظين وريفيين — والتى انتقلت فى ١٠ مارس من بوردو إلى ڤرساى — اعتقد الباريسيون أن جمعيتهم الوطنية قد باعت حقوق البلاد الخالدة للعدو ، وأنها أخذت تحيك المؤامرات لإعادة النظام القديم بجوْره ومساوئه ومظالمه . فآثرت باريس التمرد والقتال على الخضوع لأشياع الملكية الذين كانت تمقتهم كل المقت لخطيئتهم المزدوجة وهى : نصرتهم للملكية ، واستسلامهم الصاغر للعدو .

فتنة الكومون الرهيبة

ولقد كانت هذه المدينة المتشامخة جوعاء متضايقة حاقدة ، كَلَمَ عزتها منظر الجنود الألمان ، وهم يسيرون فى انتصار وزهو فى الشانزيليزيه ، وأكلت قلبها النزواتُ الثورية ، وزخرت قلوب أبنائها بالأحلام من كل لون وصنف : إنشاء نظام ثورى متطرف ، أو نظام اتحادى ، أو نظام اشتراكى ، أو شيوعى ، أو فوضوى . وكان الحرس الأهلى قد سُلِّح لمقاومة الحصار . وعند دخول الألمان العاصمة سمح له بأن يحتفظ بأسلحته ، وأن يعسكر فى حى منمارتر . ولكن حكومة ڤرساى أنفذت كتيبة للاستيلاء على مدافع الثوار ، فتمرد الحرس ، وأمكنه أن يستميل إليه جنود الكتيبة ، وأسر قائديها ، ورماهما بالرصاص . وعلى الأثر أقام كومون باريس (مجلس بلديتها) حكومة ثورية فى ١٨ مارس سنة ١٨٧١ اتخذت دار البلدية مقرًّا لها ، وبدأت بذلك فتنة رهيبة مدمِّرة طائشة .

مظهر الثورة

إن ثورة كومون باريس غدت أسطورة من الأساطير ، بوصفها أول مظهر محتدم الأوار للحركة الثورية العظمى التى تحمل الآن روسيا لواءها ضد نظام

المجتمع الرأسمالى فى العالم قاطبة . بيد أن هذا المظهر لم يكن الصفة الأصلية أو الرئيسية لثورة الكومون . فقد كانت أفكار زعمائها أميل إلى أفكار دانتون منها إلى أفكار لنين . وكانت هذه الثورة فى الأصل عاصفة هوجاء فجائية من التحمس للمبادىء الجمهورية ، أكثر من كونها مؤامرة محبوكة الأطراف لقلب نظام المجتمع الفرنسى . ولكن لما اشتد سعير الأهواء ، اتخذت الحركة — التى قادها فى بدء ظهورها أعضاء بلدية باريس المحترمون — اتخذت أهدافاً جديدة ، مثل تحويل فرنسا إلى اتحاد تعاهدى يتألف من جمهوريات محلية تقوم فى المقاطعات المختلفة ، أو تقويض النظام الرأسمالى فى جميع أنحاء العالم — وأصبحت هذه الأهداف أمنية المستقبل الخلابة لبعض شيع الطبقة العاملة الثائرة . غير أنه لم يكن هناك هدف عام واحد تشترك فيه جميع الطوائف والنحل التى انضمت إلى هذه الحركة .

القتال بين الحكومة والثوار

وكان تيير العجوز الضئيل البدن فى بذلته الفراك المشدودة ، الذى تشع عيناه وميضاً خلال نظاراته الكبيرة — كان هذا الرجل على رأس الحكومة الوقتية التى اتخذت فرساى مقرًّا لها . ومع أنه لم يقرّر بعدُ شىء بصدد الدستور والشكل النهائى للحكومة ، فإن حكومة تيير كانت فى الواقع جمهورية . ومع ذلك فإن هذا الزعيم الهرم ، الذى قُدَّ قلبه من الصخر ، لم يُبْدِ أى ضعف فى قمع ثورة الكومون التى كان أشياعها قد اعتصموا بحى منمارتر على الأخص . فحشد فى أوائل مايو سنة ١٨٧١ قوة من ١٣٠ ألفاً من الجند النظاميين ، ووجه همه بعزم لا يلين وصرامة بالغة الى إعادة فتح باريس . وارُتكبت أثناء إخماد هذه الثورة وبعدها قساوات وحشية هائلة . فلم تعرف الرحمة إلى قلب تيير سبيلا تجاه الإرهابيين المجانين الذين حولوا باريس إلى أنقاض وركام ، وأضرموا النار فى التويلرى ودار البلدية . حتى عد الفرنسيون توقيع معاهدة صلح فرنكفورت مع الألمان فى ١٠ مايو عملا حازماً مبروراً كى تتفرغ الحكومة لإخماد هذه الفتنة .

وُسحقت الثورة دون شفقة فى « أسبوع الدم » الذى بدأ فى ٢١ مايو وانتهى فى ٢٨ مايو . وأثبتت الحكومة الوقتية بهذا العمل أن النظم الجمهورية ، رغم كل شىء ، تنزع إلى المبادىء المحافظة ، وأنها تنفض يدها من الثورات والحروب .

غير أن ثورة كومون باريس كانت ذات أثر خطير فى تطور فرنسا السياسى ، فقد دلت على أن عمال باريس يبذلون أقصى قواهم فى محاربة الملكية ، على حين أن الطبقة الفرنسية الوسطى تقبل عن طيب خاطر النظام الجمهورى .

٢ ـ استقرار الجمهورية ، ودستور عام ١٨٧٥

ازدياد قوة الجمهورية

ولقد استمرت على قيد الحياة هذه الحكومة الوقتية التى كانت « جمهورية بغير جمهوريين » تنمّى قوتها على مر الأيام ، وتزيد فى عدد أنصارها المنضوين تحت علمها . وكان من بينهم غمبتا الذى علمته تجاريب الحياة الشىء الكثير من الحكمة السياسية . ولما عُرِضت أحكام الدستور على بساط البحث فى الجمعية الوطنية سنة ١٨٧٥ ، أقرت الجمعية بأغلبية صوت واحد هذه الكلمة الجبارة : « الجمهورية » . فقد تأخر الملكيون فى حزم أمورهم ، والاتفاق فيما بينهم ، فعقد النصر ألويته للجمهوريين المحافظين الذين اضطلعوا بالواجب الذى امتنع الملكيون عن النهوض به لنقص فى شجاعتهم وانقسام صفوفهم . وكانوا قمينين بهذا الفشل الذى لم يكن فى طاقتهم درؤه أو علاجه .

انتخاب مكماهون رئيساً

وأدرك تيير رغم تشيعه طوال حياته للملكية الدستورية أن الجمهورية المحافظة هى أقل أشكال الحكم مثاراً للنزاع والشقاق بين الفرنسيين . وأعلن على رؤوس الأشهاد تأييده للجمهوريين . فاتحدت كلمة الأحزاب الملكية ضده ، وأرغمته على الاستقالة فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ . وانتخبت الجمعية الوطنية بدلا منه المرشال مكماهون رئيساً للدولة لمدة سبع سنوات . وكان معروفاً عنه ضلعه مع حزب البوربون ، وميله إلى الإكليروس .

وأجريت فى فبراير سنة ١٨٧٦ انتخابات عامة أحرز فيها الجمهوريون أغلبية تربى على المائتين . وتألفت وزارة من أحزاب اليسار برئاسة جول سيمون Jules Simon ، غير أن هذا لم يفت فى عضد الملكيين. فأجبر مكماهون سيمون على الاستقالة ، وكلف الدوق دى برجلى بتأليف الوزارة . ولكى يقوى سلطانه ،

أقدم فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٧ على حل مجلس النواب ، وإجراء انتخابات جديدة .

استقالته

بيد أن مكماهون تلقن من الناخبين درساً لم يجرؤ رئيس للجمهورية الفرنسية بعده على حل ذلك المجلس قبل انتهاء مدته القانونية . فقد كسبت مرة أخرى أحزابُ اليسار المناصِرة للجمهورية أغلبية كبيرة فى الانتخابات التى أجريت فى أكتوبر سنة ١٨٧٧ . وكان من أهم أسباب الهزيمة الكبيرة التى حلت بأحزاب اليمين اعتقاد الجمهور بأن هذه الأحزاب سوف تقذف بفرنسا مرة أخرى فى أتون الحرب تحت قيادة رئيس الجمهورية ذى النزعة العسكرية الإكليريكية . فاضطر مكماهون إلى الامتثال لإرادة الشعب ، ثم قدم استقالته من رئاسة الجمهورية فى ٣٠ يناير سنة ١٨٧٩ .

دستور سنة ١٨٧٥

والدستور الجمهورى لعام ١٨٧٥ الذى حُكمت فرنسا بمقتضاه[1] يقوم على الخوف من الشرور والنكبات التى جلبتها الحكومات المطلقة التى قامت فى فرنسا نتيجة للاستفتاءات الشعبية . فنص ذلك الدستور على وجود مجلسين : مجلس شيوخ ، ومجلس نواب . كما نص على انتخاب رئيس الجمهورية باقتراع هذين المجلسين مجتمعين فى هيئة مؤتمر ، لا عن طريق الانتخاب العام . فإن الطريقة الأولى تساعد مساعدة فعالة على حماية البلاد من سحر المغامرين الخطرين ، وفتنة عباراتهم المعسولة .

والمجلسان لا يختاران لرئاسة الجمهورية مردة أفذاذاً ، بل يقع عادة اختيارهما إما على محام قوى الخلق متين المركز ، أو على رجل أعمال عُرِفت أخلاقه وخبرت قدراته فى ساحة البرلمان . وهما لا يبحثان عن رجل قوى الشكيمة ، بل عن رئيس شكلى . فإنه منذ أخفق مكماهون فى أن يستخدم منصب الرئاسة لنصر قضية الملكية ، أصبح أضرّ شىء على رئيس فرنسى هو أن يشك الجمهور فيه بأنه يسعى إلى فرض سياسة خاصة به ، أو الاتصال بالرأى العام فى البلاد اتصالا مستقلا عن مجلسى البرلمان .

---

(١) أوقف العمل بهذا الدستور ، حينما انهارت الجمهورية الثالثة فى صيف عام ١٩٤٠ ، لما احتل الألمان باريس فى الحرب العالمية الثانية .

الحكومة البرلمانية الفرنسية

ولهذا السبب ، أعطى دستور سنة ١٨٧٥ فرنسا حكومة برلمانية على النمط الإنجليزى . فإنه وضع السلطة فى الدولة فى يد الوزارة ، وجعلها مسئولة أمام مجلس النواب ، ولم يضعها فى يد رئيس الجمهورية الذى ينتخب لمدة سبعة أعوام . فصارت فرنسا للمرة الأولى فى تاريخها ، إلى ماصارت إليه إنجلترا منذ « ثورتها المجيدة » سنة ١٦٨٨ — أصبحت ديمقراطية برلمانية دقيقة القواعد . بل إنها أصبحت — كما يؤكد الفرنسيون — ديمقراطية أشد تدقيقاً من ديمقراطية انجلترا نفسها . إذ بينما الوزارة البريطانية تهيمن على البرلمان ، نرى العلاقات بين الوزارة والبرلمان فى فرنسا على الضد من ذلك . ففى مجلس تشريعى — كمجلس النواب الفرنسى — ليس من الميسور حله قبل إكماله مدته الشرعية وهى أربع سنين ، يغدو النظام الحزبى فيه ضعيفاً ، وتتألف من أعضائه شيع صغيرة عديدة تنضم طوراً إلى هذه المجموعة ، وطوراً آخر إلى تلك ، بدلا من الحزبين الإنجليزيين الكبيرين المنظمين أدق نظام ، اللذين يناضل أحدهما الآخر فى ساحة مجلس العموم للوصول إلى السلطان .

وقد أدى النظام الحزبى فى فرنسا إلى قِصَر أجل الوزارات الفرنسية . كما أن استهداف هذه الوزارات لخطر السقوط فى أى لحظة بتأليف مجموعات جديدة غير مرتقبة ، أكرهها على أن تخصص للموقف الاستراتيجى فى البرلمان شطراً كبيراً من الجهد الذى كان فى مقدورها أن تخصصه لوضع مشروعات تشريعية طويلة الأمد وتنفيذها . وإلى جانب هذا الشر يجب أن يضاف شر آخر : هو العبء الباهظ من المحسوبيات الذى هو خصيصة من خصائص الحكومات الشديدة المركزية . صحيح أن أعباء الوزير الإنجليزى ثقيلة ، ولكنه لا يطلب منه أن يناضل فى كل جلسة من جلسات مجلس العموم مائتى صوت قد توجه ضده فى أية لحظة ، أو أن يعمل على استرضاء المرشحين لوظائف السعاة وكتبة البريد فى القرى والدساكر .

قلة اهتمام الفرنسيين بأعمال البرلمان

ولا يُنتظر من الرأى العام الفرنسى أن يتتبع فى تبجيل واهتمام التغييرات التى تجرى فى هيئة برلمانية تشغل نفسها بالتوافه من الأمور . فإن المسارح والمنتديات

والأكاديمية الفرنسية ومباحث الأدب العصرى تؤلف كلها موضوعات أكثر إمتاعاً لنفوس الفرنسيين وأشد جذباً لاهتمامهم من مناقشات مجلسى البرلمان . والحق أن برلمانات الجمهورية الثالثة ، رغم مناقشاتها النارية وخطبها البليغة المتضلعة ، لم تحتل قط مكاناً سامياً فى قلوب الأمة الفرنسية ، أو تنل تبجيلها وإعجابها . فإن بعضاً من الفضائح الكبرى ، وخاصة الفضيحة المتعلقة بشركة قناة بناما (١) ، ساعدت على ترويج فكرة غير مستحبة عن ذيوع الرشوة وخراب الذمم بين أعضاء البرلمان . فلا نرى التبجيل الذى أحيطت به الجمهورية الأولى القديمة ماثلا فى نفوس الفرنسيين أيام الجمهورية الثالثة . ولم يرتق هذا الخرق الصيتُ الحميد الذى ناله بعض الوزراء العظام الذين نهضوا، بتأييد أغلبيات برلمانية قوية غير متقلقلة ، بسياسات وأعمال تثير فى الأمة الفرنسية أقصى حدود الإعجاب والتقدير.

ألمانيا وفرنسا

وكانت أكبر معضلة إبان الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٧٠ و ١٩١٤ شغلت أذهان الأوربيين الذين يعنون بتقدم الحضارة هى المعضلة الخاصة بإمكان إنشاء علاقات ودية بين فرنسا وألمانيا . غير أن الألزاس واللورين وقفتا حائلا منيعاً دون ذلك . فإنه طالما بقى تمثال ستراسبورج فى ميدان الكونكورد مجللا بالمخمل الأسود ، ما انفك كل فرنسى يحلم باسترجاع المقاطعتين المسلوبتين كغاية نهائية — غاية وإن خيلت وقتئذ متعذرة التحقيق ، نظراً لقوة ألمانيا الحربية الهائلة البادية لكل ذى عينين ، إلا أنها كانت غاية تهفو إليها القلوب ، وتشرئب نحوها الأعناق ، ولم تكن هذه الأمنية البعيدة المنال موضع حديث الناس ، بل كانت ، كما نصح غمبتا قومه « لا يتكلمون عنها البتة ، وإنما يفكرون فيها على الدوام » . فغدت عنصراً مستديماً فى الشعور الفرنسى العام ، وعقبة كأداء جاثمة للصداقة بين البلدين ، وحافزاً قوياً من حوافز السياسة ، وغيمة سوداء قاتمة تنذر المستقبل بشر مستطير .

(١) أثبت التحقيق فى هذه الفضيحة الكبرى التى رجّت المجتمع الفرنسى ارتشاء عدد كبير من الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحف وغيرهم مقابل إغماضهم عيونهم عن التزويرات التى ارتكبتها الشركة لإغراء المستثمرين الفرنسيين على الإقبال على شراء سنداتها .

ولو أن الألمان قبلوا منح هاتين الولايتين قسطاً كاملا من الاستقلال الداخلى لخفّفت حدة التوتر بين الأمتين . فقد وُجد بعض من كبار الساسة الفرنسيين ممن كانوا يرون إمكان الوصول إلى تفاهم حتى بين القطرين بتساهل من هذا القبيل . بيد أن بسمارك فهم واجبات منصبه على غير هذا النحو . فقد كانت الألزاس واللورين فى نظره لجاماً لا غنى له عنه لكبح أطماع أمة لم تصفح ولم تغفر له قط مذلة الهزيمة التى ألحقها بها .

ولم يخلد بسمارك إلى الثقة بحسن طوية الجمهورية الثالثة . بل أفزعه تجدد نهضة فرنسا الاقتصادية ، وأقضّ مضجعه اقتباسها فى عزم وسرعة نظاماً حربياً قائماً على المبادئ الحربية الروسية ، قُدِّر أن يخرج لفرنسا جيش ميدان مؤلفا من ٦,٧٥٠,٠٠٠ ، وجيشاً احتياطياً من نصف مليون رجل ، كما راعته خطب بعض السواس الفرنسيين العدائية ، وعباراتهم غير المسالمة . ومن المحتمل أنه لولا تدخل الملكة ڤكتوريا وقيصر روسيا — هذا التدخل الذى جاء فى الوقت المناسب — لأقحم بسمارك بلاده فى حرب وقائية ضد فرنسا سنة ١٨٧٥ .

ولكن تراءت لفكره طريقة أرخص لتهدئة خواطر جارٍ مقلق : وهى اقتراحه على فرنسا ضم تونس . وأعرب عن مرماه من وراء ذلك بقوله : « لقد أطلقت العنان لهذا الجواد الجامح النارى المزاج الذى ارتقت ظهره المطامع ، كى يذرع رمال تونس ويخفرها . وسيرى الفرنسيون أنهم ذهبوا إلى مغامرة باهظة الكلفة » . فقد كان يرجو من وراء نزول فرنسا فى حلبة الفتح الاستعمارى أن يفتر تفكيرها الحانق فى مقاطعتيها المفقودتين فى أوربا .

جول فرى

ولقد كان من المفاخر النادرة للحياة البرلمانية الفرنسية نائب جاء من إقليم الڤوج ، رائع الحماسة ، قوى الشكيمة ، شديد العارضة ، اسمه چول فرى Jules Ferry (١٨٣٢ — ١٨٩٣) ، كان طوال حياته هدفاً لأعنف ضروب الأحقاد والنمائم ، ومع ذلك فإنه ترك ذكراً خالداً فى سياسة بلاده الاستعمارية ونظمها التربوية . كان فرى فى عهد إمبراطورية نابليون الثالث راديكالياً داعياً للسلام . ثم شق لنفسه طريقاً إلى العلا والسلطة أيام الجمهورية

الثالثة بصفته داعية للتوسع الاستعمارى ، وجمهوريًّا محافظاً . وكان فى ميدان التعليم سياسيا معارضاً لرجال الدين . وألف الوزارة مرتين : الأولى من سنة ١٨٨٠ إلى ١٨٨١ ، وفى أيامها أعلنت الحماية الفرنسية على تونس ، والثانية من سنة ١٨٨٣ إلى ١٨٨٥ ، وفى خلالها احتلت فرنسا مدغشقر ، واهتم فرى بارتياد نهرى الكنغو والنيجر ، ونظَّم الهند الصينية .

نقد الحركة الاستعمارية

ولقد عصفت أنواء الجدال العنيف ، وهبت رياح الحنق حول هذا المناضل الصنديد الذى طرح وراء ظهره مبادئ الراديكاليين المقدسة ، واستبدل بها سياسته الاستعمارية ، واستفز غضب الإكليريكيين بمدارسه العلمانية . فقد كان الراديكاليون ينادون بأن فرنسا فى غير حاجة بعد الآن إلى مستعمرات ، وأن شارل العاشر ورط فرنسا فى مغامرة الجزائر الغالية الثمن ، وشدّت الإمبراطورية الثانية إلى عنقها مستعمرة نائية فى الشرق الأقصى ، فى وقت أخذت فيه نسبة المواليد فى فرنسا فى الانخفاض ، فلم يكن لديها فائض من السكان ترغب فى تصديره ، بل كانت بالأحرى فى حاجة إلى كل مورد من مواردها لكى تجابه الخطر الكبير الجاثم لها على تخومها الشرقية — هذا الخطر الذى ينبغى أن توجه نحوه كل اهتمامها . وقالوا : أولَمْ تكن عبرة المكسيك بكافية؟ وما قيمة تونس أو تونج كنج فى نظر قطر واجبه الأول هو نحو سكان الألزاس واللورين المسلوبتين ؟ بمثل هذا كان يفكر أيضاً غريم فرى : چورج كليمنصو Georges Clemenceau الملقب « بالنمر » الذى شهد هزيمة بلاده عام ١٨٧٠ ، فوطن النفس على الأخذ بالثأر . ولهذا لم يكن يميل البتة إلى أن ترمى إيطاليا ، التى كانت تبتغى أيضاً احتلال تونس ، بنفسها بين ذراعى ألمانيا المرحبتين .

وكان هذا النقد ينطوى على درجة كبيرة من أصالة الرأى والحكم السليم . فإن حركة التوسع الاستعمارى التى تزعمها فرى عاونت — كما لا بد لكل حركة مماثلة أن تعاون — على خلق متاعب وأخطار جديدة لفرنسا . فقد أضاعت سنة ١٨٨١ صداقة إيطاليا بسبب تونس ، وجازفت سنة ١٨٩٨ بقطع حبال السلم بينها وبين إنجلترا من أجل فاشودة ، وتوترت سنة ١٩٠٥ علاقاتها مع ألمانيا

وأسبانيا توتراً خطيراً بسبب مراكش . ومع هذا فإن الفرنسيين ، عند خوضهم غمار الحرب سنة ١٩١٤ ، لم يعضوا بنان الندم على تشييدهم إمبراطوريتهم الاستعمارية (التى كانت الثانية فى العالم) . فقد أسعفتهم القوات التى جندوها من أهل إفريقية فى نضالهم ضد ألمانيا . وصفحوا عن تلك السياسة الكبيرة المطامع التى أهالت سخرية الباريسيين وتهكمهم على رأس فرى عند ما أخذت فصائل الجزائريين والسنغاليين أماكنها فى خنادق الميدان الغربى بصفتهم مواطنين لفرنسا .

التعليم الإجبارى المجانى

ويبرز چول فرى أيضاً فى ناحيتين أخريين بين عظماء الساسة فى عهد الجمهورية الثالثة . فإنه أقر قانونية نقابات العمال . وكسب معركة التعليم العظمى التى كان ديروى Duruy قد خسرها أيام نابليون الثالث . وتدين فرنسا لفرى بنظام التعليم المجانى الإجبارى العام[1] . كما أنه توصل إلى طرد اليسوعيين (الجزويت) من المدارس، ووضع الهيئات التعليمية الأخرى تحت رقابة أضبط . ومع أنه كان مترفقاً فى معاملته للجزويت ، احتراماً لمصالح فرنسا فى الخارج ، وإرضاء لشعور الجيش ، إلا أنه كان يرى أن التعليم الذى يشرف عليه رجال الإكليروس يتجه إلى إضعاف روح الثقة بالجمهورية ، وأن مناهج المدارس التابعة للهيئات الدينية لا تلائم حاجات العصر .

وليس ثمة ريب فى أن فرى كان مصيباً فى كلتا الناحيتين . فإن أكبر السبب فى انتشار الأمية فى فرنسا حتى سنة ١٨٧٠ ، وسير المدارس فيها على نظم تربوية عتيقة — إن أكبر السبب فى ذلك يعود إلى العراقيل التى وضعها رجال الدين فى سبيل توسع الدولة فى نشر التعليم . وقد بقيت تلك العراقيل حتى أيام فرى . وقد قاوم مجلس الشيوخ الهجوم على مدارس الجماعات الدينية ، ولكن الحكومة تغلبت على معارضته ، وحلت طائفة الجزويت بأن أصدرت مراسيم جمهورية لا تقتضى موافقة البرلمان عليها .

---

(١) طبقا للقانون الذى صدر فى ٢٨ مارس سنه ١٨٨٢ ، وكان فرى وقتئذ وزيراً للمعارف فى وزارة فريسينيه .

وبذلك هيأت الطريق إلى ذلك التطور العظيم الذى شمل جميع فروع التعليم — هذا التطور الذى كان أعجب أعمال الجمهورية الثالثة الداخلية وأجلها .

٣ — نضال الأحزاب الفرنسية

المسألة الإكليريكية

كان نضال الأحزاب فى فرنسا خلال العقود التى تلت الحرب الفرنسية البروسية ، فى صميمه نفس الشجار القديم الذى نشب بين رجال الدين والأفكار العصرية ، حتى وإن اتخذ أشكالا شتى عديدة ، حسبما أملت الأحداث المصادفة . فنادى غمبتا فى ٤ مايو سنة ١٨٧٧ بأن شعاره فى الحرب الشعواء التى أشهرها على رجال الدين هو : « الإكليروس هو العدو » ، كما أن أحزاب اليسار كانت تخشى أثر القساوسة فى ميادين السياسة والبيت والمدرسة .

ومع أن الأغلبية الكبرى من الصناع والعمال كانوا يسلمون بإقامة الشعائر الكنائسية فى شؤون المعمودية والزواج والدفن ، إلا أنه أمكن على الدوام الاعتماد عليهم فى التصويت ضد المبادىء الإكليريكية فى الانتخابات العامة . وكان للتقاليد فى هذا الأمر شأن كبير . ذلك أن الصناع كانوا يعتقدون أنهم بتصويتهم ضد القساوسة ، يقترعون ضد النظام القديم ، وضد رجعة النظام الإقطاعى والامتيازات ، وضد الجور الاجتماعى وعدم المساواة ، وضد جميع الشرور التى علمهم آباؤهم أن يمقتوها ، وأن يقرنوها بقسس الكنيسة الكاثوليكية . فإنه رغم انقضاء مائة عام على عهد الإرهاب ، فإن دوائر الانتخاب التى كانت من قبل ملكية كانت تقترع فى جانب أشياع الإكليروس ، والدوائر التى كانت قبلاً يعقوبية النزعة كانت تنتخب أعضاء ينتمون إلى هذا الحزب أو ذاك من أحزاب اليسار .

ونظراً لعدم وجود كنيسة بروتستانتية قوية ذات آراء معتدلة فى فرنسا ، فإن

الثلمة التى كانت تشطر فرنسا نصفين — نصفاً متديناً محافظاً متشيعاً للإكليروس، وآخر راديكالياً زنديقاً يكره القساوسة، ويحبذ سيطرة العقل على شؤون هذا العالم — كانت الثلمة بينهما واسعة عميقة. وحينما كان الشجار بينهما ينشب خلال توتر الجو الدولى كانت تبدو فرنسا كأنها على شفا حرب أهلية. فإنه إلى سنة ١٨٩٢ جعلت معارضة الكنيسة الكاثوليكية، ووجود الأحزاب الملكية والإمبراطورية، والأحقاد الدفينة التى خلفها قمع ثورة الكومون قمعاً بالغ القسوة، ونمو الآراء الاشتراكية والنقابية نمواً مطرداً — جعلت هذه الأمور مهمة الذود عن المبادئ الجمهورية شاقة إلى أبعد درجات المشقة، حتى خيل بين آونة وأخرى أن بنيان الجمهورية يشرف على التداعى والانهيار.

عدم استقرار الجمهورية

فإنه برغم القرابين العديدة التى قدمت على مذبح الديمقراطية الفرنسية، وبرغم انتقال زمام السلطة فى مجلس النواب باطراد صوب أحزاب اليسار[1]، فإن فرنسا واجهت على الدوام هذه المعضلة الكبرى التى لم يعترها أى تبدل وهى: هل فى وسع برلمان تنتمى أكثرية أعضائه إلى الطبقة الوسطى، وينزعون نزعة قوية إلى العلمانية، وينقسمون إلى شيع شديدة العداوة بعضها لبعض — هل فى وسع برلمان كهذا أن يفلح فى حكم الشعب الفرنسى المتقلب الأهواء النارى النزوات، وأن يكفل له مكانة محترمة ومقاماً مسيطراً بين شعوب العالم؟

فإن مثلين عجيبين حدثا فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر دلا على عدم ثبات أركان فرنسا الجمهورية، وعلى ضعف دعائمها الداخلية. ففى عام ١٨٨٦ بينما كانت رياسة جريڤى Grévy غير النابه، وإنما الرئيس المحترم — بينما كانت رياسته تدنو من نهاية غير مشرفة[2]، استرعت أبصار البلاد شخصية قائد بهى الطلعة، يتهادى على جواد أسود أصيل، وكان هذا

(١) كانت الأحزاب المسيطرة على ذلك المجلس فى أول الأمر هى أحزاب المحافظين، ثم انتقلت السيطرة إلى أحزاب وصولية نهازة للفرص — ثم انتقلت إلى الأحزاب الراديكالية، وأخيراً قبض بريان على مقاليد الأمر فى سنة ١٩١٠ فانتقلت السلطة إلى الأحزاب الاشتراكية.

(٢) اضطر إلى الاستقالة من رئاسة الجمهورية سنة ١٨٨٧ إثر فضيحة شملت زوج ابنته، لاتهامه بالسمسرة فى منح الأوسمة.

القائد هو الجنرال بولنچيه Boulanger (١٨٣٧ – ١٨٩١) حاكم تونس العسكرى سابقاً .

وفتن رجال فرنسا ، واستهوى نسوتها وأطفالها ، هذا المشهدُ الأخاذ لذلك الجندى الوسيم المحيا الذى يزين الريش الجميل قبعته العسكرية ، وقد ضفرت الحروب الأفريقية التى خاض غمارها أكاليل المجد فوق هامته . أفلم يكن هو المهدى المنتظر والمبعوث المرتجى الذى اشرأبت إليه أعناق فرنسا ، وترقبت حلوله بين ظهرانيها هذا الأمد الطويل ؟ وأيا كان أمره ، فقد كان كنزاً انتخابيًّا فى المقام الأول . فأخذت « عصبة الوطنيين » تروج مناقبه الجميلة بين الناس ، وتذيع على الملأ خلاله الرفيعة ، ونظم اليهودى ناكيه Naquet حملاته الانتخابية . فأينما خلت دائرة انتخابية فى فرنسا ، رشح بولنچيه نفسه للنيابة عنها . وكان يظفر بأغلبيات كبيرة فى الدوائر التى رشح نفسه فيها . فقد كان أحب شخصية إلى الجماهير فى فرنسا خلال عامى ١٨٨٦ و ١٨٨٧ ، ما فى ذلك أدنى ريب . وعُين فى يناير سنة ١٨٨٦ وزيراً للحربية فى وزارة المسيو فريسينيه . ولكنه استقال فى مايو سنة ١٨٨٧ ، وصار لسان حال الروح القومية الحربية ، والمطالب القوى بتعديل الدستور تعديلا شاملا كليًّا .

وكان فى استطاعته ، بعد أن انتخب على التوالى فى ثلاث من دوائر باريس ، أن يرتقى منصب رئاسة الجمهورية ، بعد استقالة جريڤى فى ديسمبر سنة ١٨٨٧ ، وأن يقبض على أزمة الحكم . ولكنه كان واهن العزم ضعيف المبدأ . فسمح للفرصة بعد الفرصة أن تفوته . ونشط أعداؤه ، وعاد إلى حكام فرنسا إقدامهم . فوجهوا إليه فى مارس سنة ١٨٨٩ تهمة الخيانة العظمى . فتولاه الذعر وفر إلى بروكسل فى أول أبريل . فانفضت الجماهير عنه ، وانقلب حبها سخطاً . ثم أقدم على إزهاق روحه فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩١ ، وأنجى بذلك الجمهورية من ضائقة حرجة .

مسألة دريفوس

بيد أن الأحقاد التى احتدم أوارها بعد ذلك بخمس سنين ، حول اسم الكبتن دريفوس Dreyfus ، كانت أوسع نطاقاً وأشرس عداء وبغضاء حتى

من تلك التى أثارها بولنچيه . وإنه لمن العسير على من لم يعيشوا فى فرنسا خلال السنين ١٨٩٤ – ١٩٠٣ التى بلغت فيها حمى الهياج أوجها ، أن يكوِّنوا فكرة عن الأهواء الجامحة التى أثارها مصير هذا الضابط الشاب اليهودى الذى كان مجلس عسكرى قد حكم عليه فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٤ بالسجن مدى الحياة ، وترحيله إلى جزيرة الشيطان النائية ، لاتهامه ببيع أسرار حربية للألمان .

فقد انشطرت فرنسا خلال تلك الحقبة شطرين : أحدهما يؤمن فى إصرار وقوة بأن دريفوس مذنب ، والآخر يؤكد فى عناد وقوة مماثلين بأنه حُكم عليه ظلماً وعدواناً . ونجم عن الشجار العنيف الذى نشب بين الفريقين انفصام صداقات امتدت طول العمر ، وضياع السلام بين أعضاء الأسرة الواحدة ، وتعذبت ضمائر الأفراد ، وقامت حملة عنيفة هوجاء فى الصحافة الكاثوليكية تحض على كراهية اليهود . غير أنها لحسن الحظ لم تقترن بأعمال العنف والظلم البالغين اللذين امتازت بهما المشاغبات التى اندلعت ضد اليهود فى وسط أوربا وشرقها أيام هتلر . وأخذت تلك الحملة تنفث سمومها فى طول فرنسا وعرضها متسائلة : كيف يمكن لهذا اليهودى أن يكون بريئاً ؟ وكيف يمكن أن يخطىء قضاته العسكريون ؟ وكيف يمكن أن يتفق مع مصلحة الأمة ثلم شرف الجيش ، وهو الحائل الوحيد بين فرنسا والخطر الألمانى ؟ وما قيمة إنصاف فرد ، إذا هى قيست بسلامة الدولة وتأمينها ؟

ولكن المبادئ الخلقية كسبت النضال فى النهاية ، فإن شهادة پول ماير Paul Mayer خبير الخطوط ، واتهامات إميل زولا Emile Zola الروائى ، وشجاعة الكولونل پيكار Picquart البروتستانتى الذى عين سنة سنة ١٨٩٥ رئيساً لمصلحة المخابرات السرية ، والذى أعلن بعد بحث دقيق بأن ضابطاً فرنسيًّا غير دريفوس هو المذنب الحقيقى ، مجازفاً بذلك بمنصبه الحربى ، ثم انتحار الكولونل هنرى Henri فى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٩٨ ، وهو الذى خلف پيكار بعد عزله ثم سجنه ، معترفاً قبل موته بأنه زوّر بعض الوثائق التى أدانت دريفوس – عملت هذه الأمور على انبلاج الحقيقة .

فأعيدت محاكمة دريفوس فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٩ . ولكنه حكم عليه بالسجن عشر سنين ، غير أن رئيس الجمهورية أصدر فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٩ عفواً عنه ، وأطلق سراحه .

ولكن هذه القضية لم تنته عند هذا الحد ، فقد واصل مريدو دريفوس جهودهم لإظهار براءته ، وقيل إن وثائق جديدة كُشفت تثبت طهارة ذيله . فأحيلت القضية فى يوليو سنة ١٩٠٦ على محكمة النقض والإبرام التى أصدرت حكمها بأن دريفوس برىء كل البراءة من جميع التهم التى وجهت إليه . وجانب كبير من الفضل فى إرجاع الحق إلى نصابه فى هذه القضية التاريخية يرجع إلى وزارة ولدك — روسو Waldeck Rousseau (١٨٩٩ — ١٩٠٢) التى ثبّت هذا الفوز للضمير الإنسانى دعائمها ، والتى كانت راديكالية فى الداخل ، حربية النزعة فى الخارج ، والتى تمكنت من أن تمنح الجمهورية الثالثة الحقبة الطويلة الأولى من الحكم الحازم الوطيد الأركان .

الجمهورية الثالثة فى أعين خصومها

أما فى أعين خصومها ، فقد بدت الجمهورية الفرنسية الثالثة كأنها تعوزها الدعائم الثابتة ، والحكم السديد ، والصيت الحسن ، والشهرة البعيدة . فإن الحرب الفرنسية البروسية بكشفها قلة كفاية الجيش ، وفظائع فتنة الكومون وأهوالها ، وتعاقب وزارات ضعيفة فى سرعة مخيفة ، وعنف النضال الحزبى ، وكشف الفضائح المالية بين الفينة والفينة ، ساعدت هذه الأمور على أن يسىء حتى المراقبون ذوو الخبرة والنظر البعيد الظنّ باستعداد الأمة الفرنسية لتفهم فنون الحكم .

ولكن هؤلاء الناس عميت أبصارهم عن رؤية تنظيم الجيش من جديد — هذا التنظيم الذى نهضت به وزارة فريسينيه ، والأعمال المجيدة التى قام بها القواد والإداريون والمستكشفون الفرنسيون فى إفريقية ، وسير الخدمة المدنية الداخلية فى كفاءة مطردة ، وعدالة النظام الاجتماعى ، وخيل لهم أن الفرنسيين قد أصبحوا فى مؤخرة موكب الحياة بالنسبة للإنجليز والألمان والأمريكيين . مثال ذلك حينما جاء ديرُولِد Déroulède الشاعر والسياسى الوطنى المتحمس

إلى رينان الفيلسوف والمؤرخ الفرنسى سنة ١٨٨٨ ، وسأله الانضمام إلى « عصبة الوطنيين » أجابه العالم الهرم : « أيها الشاب إن فرنسا تعالج سكرات الموت ، فلا تزد من أوجاع ساعاتها الأخيرة » . فلقد شاع الاعتقاد فى أخريات القرن التاسع عشر بأن الأجناس اللاتينية قد بلغت نهاية مجدها .

الدبلوماسية الفرنسية الجديدة

بيد أن هذا الاعتقاد كان مبتسراً بعيداً عن الصواب ، فإن من الكاى دورسيه (مقر وزارة الخارجية) بباريس أخذت إدارة دبلوماسية لا تضارعها إدارة أخرى فى المهارة والتصميم والكفاية — أخذت تمد نفوذ فرنسا فى جميع الأقطار والأمصار وتنسج شبكة من المحالفات أعادت إلى الأذهان محالفات ريشيليو ومزران .

وقد استطاعت هذه الجمهورية التى قامت على حق الانتخاب العام المباشر أن تحبط جميع المحاولات لقلبها . فليس ثمة فى فرنسا طبقات حُرمت حق الانتخاب ، فتجبّر على أن تطرق باب الدستور فى عنف وشدة كى يفتح فى وجهها ، وليس فيها طبقة ممتازة تقبض على أزمّة الأمور ، وتستبد بالفقراء ، وتجور على حقوقهم ، كما كان الحال فى أنظمة الحكم السابقة . وإذا كان مجلس النواب لا ينظر القوم إليه بعين الاعتبار والتبجيل ، إلا أن الصحافة صارت حرة ، والحكومة المحلية ديمقراطية ، ونقابات العمال قانونية ، ومعفاة من كل تدخل حكومى منذ سنة ١٨٤٨ .

الاشتراكية الفرنسية

وبينما كانت الاشتراكية فى روسيا وألمانيا محظورة قانوناً — ولذا صارت خطرة — فإن الاشتراكيين الفرنسيين تحت لواء الجمهورية الثالثة انتُخبوا أعضاء فى مجلس النواب ، وشغلوا مناصب الوزارة ، بل وارتقوا إلى منصب رئاسة الجمهورية . فإن ميلران Millerand أول اشتراكى تسلّم مقاليد الوزارة (سنة ١٨٩٩) ختم حياته السياسية المجيدة كرئيس للجمهورية . وأبان بريان الذى ارتفع على أجنحة بلاغته الساحرة إلى منصب رئاسة الوزارة مراراً عديدة — أبان لفرنسا بإصداره أمراً وزارياً بتجنيد المضربين ، كيف يستطيع رئيس وزارة اشتراكى أن يفض إضراباً ضاراً بالوطن . وقد تقلد سنين كثيرة وزارة

الخارجية ، حتى صارت بلاده تشعر أنه لا غنى لها عنه فيها . وكان ڤڤيانى Viviani المضطرم الحماسة ، والخطيب الذى عُدَّ من أعظم خطباء عصره – بل وأى عصر آخر – كان رئيس الوزارة حينما نشبت الحرب العالمية الأولى . وبدلا من أن تصبح الاشتراكية الفرنسية سيفاً مصلتاً فى وجه الجمهورية يهدد كيانها ، قدمت خدمات جليلة رائعة للحياة البرلمانية الفرنسية ، بعد أن نزع منح الأمة حق الانتخاب العام من الاشتراكيين القدرة على الأذى والشر .

خطر أحزاب اليمين

ولكن الخطر الأكبر على الجمهورية جاءها من أشياع أحزاب اليمين . فقد كان هؤلاء الفرنسيون يتساءلون بين آن وآخر عما إذا كان ساستهم البورجوازيون يعملون فى سبيل سلامة فرنسا وإعلاء مكانتها ، وعما إذا كان فى وسعهم استرجاع الولايتين المسلوبتين ؟ أو أنهم سيخفضون عدد الجيش ؟ وعما إذا كان نظام التعليم العلمانى المركَّز فى يد الدولة لا يقضى على تقدم جميع المشاعر الدينية فى قرى الريف ودساكره ، تلك المشاعر التى تغذى روح الأمة وتلهمها القوة والحياة ؟ فقد تكاتف الكاثوليك والملكيون والوطنيون معاً على مناهضة الجو العلمانى الحر التفكير الذى كانت تدبَّر فيه شؤون الدولة . وُجِّهت المثالب والريب إلى اليهود والبروتستانت ودعاة الأخوّة العالمية ، تبعاً للقانون الشائع الذى يقضى باضطهاد الأقليات وتعذيبها خلال فترات الهستريا القومية .

بيد أن الجمهورية ، على الرغم من هذا ، انتصرت حتى على هؤلاء الوطنيين المتحمسين . فقد سحقت بولنچيه ، ودحرت أشياع التعصب العنصرى ، وغلَّبت السلطات المدنية على السلطات الحربية ، وقلَّمت نفوذ الكنيسة فى التعليم . ولما اندلعت الحرب سنة ١٩١٤ كانت فرنسا لا تزال قطراً تخفق فوق ربوعه ألوية الحرية المدنية .

كتب يمكن استشارتها

Bainville : Histoire de France. 1924.
Hanotaux : Histoire de la France Contemporaine. Tr. J.C. Tarver. 1903-8.
J.E.C. Bodley : France. 1898.
A. Rambaud : Jules Ferry. 1903.
F.C. Conybeare : The Dreyfus Case. 1895.
J. Reinach : Histoire de l'affaire Dreyfus, 6 vols. 1901-8.
Lowes Dickinson : Revolution and Reaction in France. 1892.
H. Poincaré : Au Service de la France. 1913-26.
A. Rambaud : Histoire de la civilisation contemporaine en France. 1932.
A. Thiers : Notes et souvenirs de 1870 à 1873. 1903.
J. Bainville : La Troisième Republique. 1935.
A. Lavy : L'œvre de Millerand. 1935.

الفصل الحادى والعشرون

تيارات دولية

الفاتيكان والمذاهب الحرة . النقد الأعلى . لايل ودارون . هربرت سبنسر . كارل ماركس . الفابيون .

١ ــ الفاتيكان والمذاهب الحرة

تحول الأفكار والمعتقدات

بتقدم القرن التاسع عشر ، اعترى مجموع الأفكار والمعتقدات والتقاليد التى توارثها الأوربيون منذ الأزمنة السحيقة تحوُّل جوهرى عميق . فإن تقدم علوم التاريخ والاقتصاد والطبيعة ، وغيرة الباحثين الأمناء ، وعديد المبتكرات الآلية التى ابتدعتها قرائح المخترعين ، جعلت من أوربا مجتمعاً جديداً فى نواح هامة عديدة . ولاح كل شىء كأنه فى حالة تبدل وتعديل ، إلا مؤسسة واحدة ظلت دون أن يطرأ عليها تغيير .

الفاتيكان المحافظ

أما تلك المؤسسة فكانت الڤاتيكان . فإنه بدا كجلمود صخر ثابت الطود ، بين العباب الخضم لحركة البعث الإيطالية . فالأفكار الكريمة ، والنظرة الواسعة ، والعلم الغزير ، وروح التسامح ومماشاة الأحداث ــ تلك المناقب التى اتسم بها أقطاب الكثلكة الحرة فى ألمانيا وفرنسا ، كانت جميعها بِدَعاً غريبة فى نظر الأحبار الإيطاليين الذين التفوا حول العرش البابوى ، وأسهموا فى صياغة سياسة الكرسى الرسولى حيال الاعتداءات السريعة على سلطته الزمنية .

ولكن الڤاتيكان فى سلسلة من المنشورات : كالمنشور البابوى The Encyclical of Mirari Vos سنة ١٨٣٢ (١) ، والمنشور البابوى سنة ١٨٦٤ ،

---

(١) أصدره البابا جريجورى السادس عشر فى أغسطس سنة ١٨٣٢ ، واستنكر فيه

والأمر البابوى سنة ١٨٧٠ ، والرسائل البابوية العديدة التى وجهها ليو الثالث عشر (فى سنى ١٨٧٨ و ١٨٨١ و ١٨٨٨ إلخ) إلى الأساقفة الكاثوليك فى جميع الأقطار يستنكر فيها المستحدثات الفكرية العصرية ، ويذم الحركات العقلية الحرة التى أرخت أواصر الولاء والامتثال للنظم والشعائر الكاثوليكية . فندد الكرسى البابوى بالاشتراكية والمذاهب الحرة والشيوعية وجمعيات التوراة وحرية الضمير وحرية الصحافة ، ودمغها جميعاً بطابع الإلحاد والكفر . وفى عبارة جارفة أقضّت مضاجع الكاثوليك الأحرار ، خطأ المنشور البابوى سنة ١٨٦٤ الفكرة القائلة بأن كبير أحبار الكنيسة الكاثوليكية يستطيع ، أو أنه يجب عليه أن يساير روح التقدم ، ويماشى المذاهب الحرة والحضارة العصرية . فإنه عندما اعتُدى على أملاك البابا وسلطانه الزمنى ، وقف يتحدى ويستنكر كل مظهر من مظاهر روح العصر الحديث .

دراسة التوراة دراسة علمية

أما فى الأقطار البروتستانتية من أوربا فإن المعتقدات الدينية تشكلت وفق الأسفار المقدسة اليهودية والمسيحية ، أكثر من تقريرها بواسطة كنيسة مسيطرة مهيمنة . بيد أن تلك الأسفار القديمة من الأدب المقدس غدت موضع الفحص الدقيق والامتحان الشديد . وغدت التوراة تعتبر كتاباً عادياً لا سفراً مقدساً له مكانته الخاصة . وشُرع فى وضعها موضع التمحيص طبقاً لقواعد الإثبات والترجيح التى يطبقها الباحث التاريخى المنصف المدقق على أى كتاب أدبى قديم ، أو سفر تاريخى وسيط .

غير أن فكرة نقد التوراة لم تكن بالبدعة المستحدثة . فإن اسپينوزا Spinoza الفيلسوف اليهودى الامستردامى كان قد تكهن فى كتاب Theologico Tractatus Politicus (نُشر سنة ١٦٧٠) عن مبادئ ونتائج عديدة حازت ، بعد ستين ومائة عام من نشرها ، قبولا لدى علماء جامعة

حرية الضمير ، وحرية العبادة ، وحرية الصحافة ، وفصل الكنيسة عن الدولة ، و « أخطاء مقيتة أخرى يرتكبها هؤلاء الذين فى حبهم الزائد على الحد للحرية يصنعون أقصى ما فى وسعهم لإضعاف أسس السلطات المشروعة »

تيبنجن[1] Tubingen . ولكن هذه الطريقة الجديدة فى دراسة التوراة لم تبدأ بوجه عام إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أن تؤثر فى أفكار اللاهوتيين البروتستانت ووجهات نظرهم ، وأن تكسب إلى جانبها أنصاراً بين أشياع الكنيسة الكاثوليكية نفسها ممن ينزعون نحو التطور العصرى . فإن الحركة التى بعثها كتاب Essays and Reviews[2] فى سنة ١٨٦٠ ، وكتاب Lux Mundi[3] فى سنة ١٨٨٨ ، تحدد المراحل التى أمكن فى خلالها إقناع بعض طوائف الكنائس البروتستانتية فى انجلترا بأن تقبل النتائج التى وصلت إليها الأبحاث التاريخية .

إرنست رينان

أما فى فرنسا فكان أعظم أعلام الأدب نفوذاً ، مؤرخاً دينياً بدأ حياته راهباً ، ثم قطع جميع صلاته بالكنيسة الكاثوليكية هو : إرنست رينان Ernest Renan (١٨٢٣ – ١٨٩٢) الذى روى قصة أصول الكنيسة الكاثوليكية فى سلسلة من المؤلفات التى امتازت بالاطلاع الواسع والنظرة الثاقبة . وقد أقبل الناس على أسفاره إقبالا عظيماً لروعة عباراتها ، وجلاء معانيها ، وجمال مبناها . وذاع صيته على الأخص عند ظهور كتابه الأشهر : « حياة يسوع » Vie de Jesus سنة ١٨٦٣ .

روح جديدة فى دراسة التوراة

وقد نُفثت روح جديدة من الواقع فى دراسات التوراة باقتباس طرق البحث التاريخى اقتباساً عامًّا . وشط السير بعيداً بعدد قليل من الدارسين ،

---

(١) تيبنجن مدينة صغيرة من أعمال ورتمبرج بألمانيا على مقربة من مشارف الغابة السوداء . وقد اشتهرت بجامعتها التى أسست سنة ١٤٧٧ ، وبمدرستها اللاهوتية التى أسست سنة ١٨٣٥ والتى ذاع صيتها بدراساتها للمسائل اللاهوتية من وجهة تاريخية فلسفية .

(٢) كتاب وضعه سبعة من أعلام الإنجليز فى ذلك الحين منهم ف . تمبل F. Temple الذى صار رئيس أساقفة كنتربرى ، وبادن باول Baden Powell مؤسس حركة الكشافة ، و ب . جووت B, Jowett عميد كلية بيليل بأكسفورد ، ومن أعلام الأدب الإغريقى . ويمتاز الكتاب بروحه النقدى الجدى ، وندائه بإطلاق حرية النقد . وتظهر مقالاته عدم قبولها مبدأ « تجسد الله الكامل وظهوره فى المسيح »

(٣) كتاب ألفه ستة من الكتاب ، أهمهم تشارلس جور Charles Gore أسقف ونشستر . وقد حاول الكتاب التوفيق بين مطالب النقد الحديث ، وعقائد طائفة الكنيسة العليا الإنجليزية High Church

وأثاروا الريب فى حقيقة المسيح التاريخية ، مثل داود شتراوس David Strauss[1] ، ومثل ف . س . كونيبير F. C. Conybeare فى رسالته « تاريخ نقد العهد الجديد » History of New Testament Criticism (سنة ١٩٠٩) .

ومع ذلك فقد كان هناك ميل عام للتمييز بين الأدبيات وأصول الإيمان — وهو التمييز الجليل القدر الذى وضع قواعده ماثيو أرنولد Mathew Arnold الشاعر والناقد الإنجليزى . كما كانت هناك نزعة عامة لإيجاد السمات المميزة للتوراة ، لا فى المبادئ التى يظن البعض أنها تقرر هذه السمات وتعرِّفها ، بل فى قدرة هذا الكتاب المقدس على تعمير خيال الإنسان الدينى ، والتسامى به : هذه القدرة التى يشترك فيها مع جميع أسفار الأدب الرفيعة السامية .

أثر أبحاث لايل وداروين

بيد أنه يندر أن تجذب مؤلفاتُ ناقدى الكتب المنزلة قلوب الجماهير وأنظارهم إليها . فان الجنس البشرى لم يحفل كثيرا لكشف السمات المنوعة لسفر التكوين ، أو يعبأ بالنبأ القائل بأن قصة الطوفان يمكن تتبع أصولها إلى أسطورة من الأساطير البابلية . ونبذُ الناس نبذاً عامًّا للأفكار العتيقة الخاصة بتاريخ العالم القديم وأصول الإنسان لم يكن نتيجة نقد التوراة وتمحيص متنها ، بل كان نتيجة من نتائج الكشوف العلمية ، وبخاصة نتيجة لأبحاث تشارلس لايل Charles Lyell الذى نشر مؤلفه « مبادئ الجيولوجيا » Principles of Ceology بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٣٤ ، وأبحاث تشارلس داروين Charles Darwin الذى ظهر كتابه « أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعى » Origin of Species by means of Natural Selection سنة ١٨٥٩ ، والذى قفاه بعد اثنى عشر عاماً بمؤلفه الذى أثار دويًّا كبيراً وهو : « تسلسل الإنسان » Descent of Man

فأمام هذه الأدلة لم يصبح من الممكن قبول قصة الخليقة كما جاءت فى سفر التكوين إلا كرمز دينى واستعارة شعرية . ودَحَض علم الجيولوجيا

---

(١) اتخذ هذا الباحث فى كتابه « حياة يسوع » ، الذى ظهر سنة ١٨٣٥ ، موقفاً واقعياً ، فعد المسيحية ضرباً من الأديان الميثولوجية ، والمسيح فيلسوفاً من نوع سقراط .

الاعتقاد الذى ظل باقياً فى المعابد وغرف الدراسة بأن العالم خُلق سنة ٤٠٠٤ ق .م. فرجعت قصة آدم وحواء القهقرى أمام دراسات دارون والبيولوجيين . وأبدلت القصة المتداولة عن جنة عدن وشجرة المعرفة ، بصورة الطبيعة « وقد خضب أديمها دماء الصراع بين شتى مخلوقاتها » : صراع قاس لا هوادة فيه ولا شفقة فى سبيل البقاء ، وعملية استمرت ملايين السنين من التطور البيولوجى عن طريق إبادة غير الصالح ؛ ثم ظهور الإنسان من سلالة القردة القريبة من الإنسان فى مرحلة متأخرة من مراحل التطورات الدقيقة الطويلة الآماد التى حدثت صدفة واتفاقاً ، ومن غير هداية ترشد خطواتها . وكان من نتائج هذه الاكتشافات والنظريات أن نقص نقصاً كبيراً خلال العقدين السابع والثامن من القرن المنصرم عدد الرجال الأذكياء المثقفين الذين بقوا مستمسكين بأهداب العقائد الدينية .

٢ ـ أثر الأبحاث الحديثة فى علمى السياسة والاقتصاد

أثر دارون فى السياسة

وكذلك تأثرت السياسة بنظريات دارون . فقد أخذ الناس يسألون : إذا كان علم الأحياء هو المفتاح لفهم مغاليق الماضى ، أفلا يمكنه أيضاً أن يساعد على صوغ المستقبل ؟ وهل فى وسع الساسة ألاّ يكترثوا للعامل البيولوجى ؟ وأليس واجبهم يدعوهم إلى تشجيع السلالات القوية ، وتثبيط السلالات الضعيفة ؟ وهل يستطيع مجتمع البقاء دون أن يتعاون ـ إما عن طريق التشريع أو عن طريق العرف ـ مع الطبيعة فى إبادة غير الصالح ؟ أو ليست نتيجة حتمية لمبادئ دارون أن الحكم الأرستقراطى هو المبدأ السليم الوحيد للحكم ، وأن المنافسة ـ اقتصادية أو سياسية أو حربية ـ هى الركن الوحيد المضمون للتقدم والارتقاء ؟

وظن مفكرون كثيرون ـ فى إغفالهم الحقيقة بأن القرائح الذكية اللامعة

ليست بالضرورة تجتمع مع الأبدان السليمة – ظن هؤلاء المفكرون أن دارسى العلوم البيولوجية يقولون بنتائج من هذا القبيل . ولكن توماس هكسلى Thomas Huxley ، وهو تلميذ من أعظم تلاميذ دارون ، لم يقع فى هذا الخطأ ، بل ميز تمييزاً جلياً بين قسوة الطبيعة، ومكارم الحياة الاجتماعية ومبراتها اللازمة لبقائها .

أثر آدم سمث وبنتام

وكان أثر هذه النظرة البيولوجية الجديدة أسرع شيوعاً فى إنجلترا منه فى أى بلد آخر . ذلك لأن هذه النظرة تتلاءم مع نزعة قوية من روح الفردية تغلب على أفكار الإنجليز ومعاملاتهم – وهى نزعة تُرَى بوضوح من أيام وليم پت واستيعابه كتاب آدم سمث : « ثروة الأمم » Wealth of Nations ، واعتناقه مبادئه . فإن نخبة من المفكرين الممتازين الإنجليز الذين اتصفوا بالقوة والنزاهة وسداد الرأى لقنوا أمة هى من أشد أمم العالم حباً للحرية ، فلسفة تلائم حاجاتها وأخلاقها .

وفى عهود الرخاء تغدو سجية الاعتماد على النفس محببة إلى القلوب ، تهفو الأسماع على الدوام إلى الإصغاء لبشارتها . ولقد كانت إنجلترا فى العقود الوسطى من القرن التاسع عشر قطراً يرتع فى بحبوحة من العيش ، ويزخر بالثروات الجديدة ، ورجال الأعمال الجدد ، ويقدم فرصاً طيبة ومكافآت جزيلة للمجدين الطموحين . وكانت المدرسة السائدة للمفكرين الاقتصاديين والسياسيين تطنب فى مديح هذا المجتمع المتألف من أقطاب عصاميين للأعمال الصناعية . وكان ذلك المجتمع يدين بمبدأى حرية التجارة ، والعمل على منح أقصى قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد ، كهدفين أولين للدولة ، وبضرورة حصر تدخل الحكومة فى دائرة ضيقة .

تلك كانت مبادئ آدم سمث كبير أقطاب مذهب حرية التجارة ، وچريمى بنتام مصلح القانون الإنجليزى وعقل الراديكالية الخصب . وكانت هى أيضاً مبادئ تلميذيه چيمس وچون ستيوارت مل ، وكذلك داڤد ريكاردو أكبر المتنبئين البرلمانيين للشئون الخاصة بالنقد والمالية العامة . فقد كان أشد

ما يتوق إليه كل ناسخ وصانع طنافس ، وكل صاحب طاحونة وبناء مغامر ، وكل تاجر وصاحب سفن ، هو أن يكونوا أحراراً بعيدين عن أى تدخل حكومى ، وأن يحصل كل امرئ على الثروة والغنى بالطريقة التى يختارها لنفسه . وقد انحاز الشطر الأكبر من الطوائف البروتستانتية المنشقة التى يتجه رأيها على الدوام إلى نقد الحكومة — انحازت أغلبيتها إلى آراء أولئك المفكرين الألباء .

٣ — هربرت سبنسر

أثر فلسفته وذيوعها

ورضى قسم كبير من أوربا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بأن يستمد إلهامه وإرشاده من رجل خرج من صلب أسرة تنتمى إلى شيعة البروتستانت المنشقين ، هو « هربرت سبنسر » Herbert Spencer (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . ولا يُسَجِّل هذا الفيلسوف الإنجليزى إلا قليلا بين فلاسفة بلاده المحترفين ، إذ هو الذى علّم نفسه بنفسه ، وكان شديد الاعتداد بآرائه ، تعوزه لباقة اللفظ ، وروعة التركيب . ومع ذلك فإنه أضحى ، وهو لا يزال حياً ، شخصية فذة يشار إليها بالبنان فى بلدان القارة . فكان إبان العقدين التاسع والعاشر من القرن المنصرم العَـلَم الفرد فى باريس ، وفى أكثر مجامع العالم اللاتينى والسلافى . بل إنه لم يَـفُـقْه فى كثرة الأتباع والمتشيعين فيلسوف إنجليزى آخر . ولا ترجع الشهرة البعيدة التى نالها سبنسر إلى محاسن لفظه وروعة أسلوبه ؛ لأن عباراته وإن تكن جلية ، إلا أنها فجة ليست بالجزلة . وإنما ترجع إلى هذه الحقيقة وهى : أنه تقدّم فى ثقة واعتداد بالنفس إلى جيل انقطع عن أن يستوحى هديه الروحى من الكنائس — تقدم إلى هذا الجيل بفلسفة مبنية على معرفة الطبيعة وضرورة فهم قواعدها وأسرارها .

واستاء المتحذلقون من هذا الفيلسوف الذى بدأ حياته العملية كمهندس

أخصائى فى تعدين المناجم ، واستنكروا كتاباته الصريحة التى لا تعرف دهاناً أو مداجاة ، وسخطوا على هذا المتشكك الراديكالى الخارج من أسرة متوسطة الحال — هذا المتشكك الذى استعمل المصطلحات والعبارات الإنجليزية دون أن يعبأ ببلاغتها ومحسناتها اللفظية ، وازدرى شأن الآداب اللاتينية والإغريقية القديمة واللاهوت والتاريخ ، وكان يروم أن يقلب نظام التعليم فى إنجلترا رأساً على عقب ، واعتقد أن رسكن « Ruskin » (١٨١٩ — ١٩٠٠) الكاتب الإنجليزى الكبير جلف غليظ الطبع ، ودانتى متغال فى العناية بزخرف اللفظ.

فلسفته البنائية

بيد أن الرجل العادى كان يرى فى سبنسر نبيًّا ورسولا . فقد نظر هذا الفيلسوف نظرة طبيعية إلى الكون ، وعرض فلسفة بنائية تقدمت « بنظرية عامة للتطور كما يُشاهَد فى جميع صنوف المخلوقات » . وجعله احتقاره للآراء المتداولة ، وروحه المحبة للاستطلاع ، الضاربة بسهم وافر فى آفاق العلم ورحاب المعرفة ، وموهبته الفائقة فى التعبير عن أية حقيقة وصلت إلى نطاق معرفته وخبرته ، مهما كانت تلك الحقيقة تافهة ضئيلة القدر — جعلت كل هذه المناقب منه شخصية مبجلة تفرض التوقير والاحترام .

ولقد كتب سبنسر عن تطور الإنسان ، وعن تطور الأسرة ، وعن تطور النظم والمؤسسات الاجتماعية والشعائرية . وتقدم بقاعدة عامة للتطور ، هى أن التجانس يتحول إلى اختلاف وتضاد . وتنبأ بتحول المجتمع من مظهره الحربى المستبد إلى مظهر صناعى ديمقراطى . ورأى أن علمى الأخلاق والسياسة هما شطر هام من علم الحياة ، ونوع من « الفسيولوجيا المتفوقة المتسامية » . وكان يسرى فى جميع نظرياته وقواعده لون من التفاؤل السليم المتزن ، الخالى من التعقيد الغامض الذى يستطيبه القارئ المتحذلق . ونادى بأن المجتمع بصيرورته صناعياً سيستطيع أن يرى حمق الحروب ووحشيتها . وتنبأ بأن أنظمة الحكم ذاتها ستتقلص ، فإن هى إلا بقية من بقايا عصور النهب والاعتداء ، وستنكمش أعمال الحكومات بارتقاء الحضارة . وقال بأن الناس سوف يرون كيف كان التعليم يقوم على أسس هى أبعد ما تكون

عن التناسب السليم الصائب ، وكيف أن نوعين من الحقائق والشخصيات[١] — لا يشغلان فى الواقع غير حيز غاية فى الضآلة فى تكوين هذا العالم ، الذى هو بدوره جزء حقير من الكون لا يؤبه بشأنه — كيف سُمِح لهذين النوعين أن يسودا عالم المعرفة والرؤى ، ويقصيا الحقائق الكبرى للطبيعة الفيزيقية .

وحلا للناس الإصغاء إلى كل هذه التعاليم والنبوءات ، وأحسوا أنها أشياء جديدة ثورية عظيمة القدر . أضف إلى ذلك أنه كان فى مقدورهم أن يفهموا ، أو تراءى لهم أن فى مقدورهم أن يفهموا هذا الفيلسوف البسيط العبارة ، الذى نقد فى جسارة الآراء السائدة ، وتقدم فى كل فرع من فروع المعرفة بألوان شتيتة عديدة من الآراء التى وثق ببعدها عن البطلان . وكانت الطبقة الوسطى بنوع خاص تميل إلى إصاخة السمع إلى مفكر لم يخطط كلمة تحبيذ واحدة للاشتراكية ، بل كان على العكس يعارض معارضة قوية أى شكل من أشكال التدخل المعطل الذى تقوم به الدولة .

إهمال الحكومات العمل بمبادئه

ولكن سبنسر ، رغم ذيوع شهرته ، كان كصوت صارخ فى البرية . فرغم اعتراضه واحتجاجه ، شرعت الدولة تتدخل فى الصناعة . وفى تربية الأطفال وتثقيفهم ، وتؤيد الكنيسة ، وتنظم الصحة العامة . وأخفق سبنسر ، بصفته نبى الفردية فى الميدان السياسى ، فى أن يضم إلى جانبه أشياعاً ومريدين ، رغم أنه وجه كلامه إلى عدد كبير متزايد من الأذهان . فإن الاتجاهات كلها أخذت تجرى فى تيار سريع لجب فى الجهة المضادة لمبادئه

٤ — كارل ماركس

منشوره الشيوعى

وكان نبى الحركة الاشتراكية رجلا فظ الخلق ، شديد التعصب لآرائه ، هو كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) . وقد خرج من أسرة يهودية محترمة

---

(١) ويقصد بها آداب الإغريق والرومان وتاريخهم والمسيحية ورجالها .

متوسطة الحال كانت تقطن مدينة تريف من أعمال الرين ، وقفز اسمه فجأة إلى الشهرة خلال ثورات سنة ١٨٤٨ بإصداره منشوراً شيوعياً على أكبر جانب من الخطورة وعظم الشأن التاريخى[١] . ففى تلك الوثيقة النارية تقدم ماركس بفلسفة جديدة للتاريخ ، وبرنامج جديد للإصلاح الثورى ، ونداء جديد للعمل الدولى . فكتب مجادلا بأن الطبقات البرجوازية هى التى أنجب خلقها ظهور الطبقة المقابلة والمعادية لها : وهى طبقة العمال ، وأن النضال بين هاتين الطبقتين هو مفتاح التاريخ الحديث ، وأن الفريق الكبير من العمال الذين يحسون بمركز طبقتهم الوضيع هم الشيوعيون ، الذين لن يرضوا بأقل من « قلب النظام الاجتماعى بأكمله بالعنف » . ثم عدد عشرة إصلاحات مستعجلة ، أكثرها صالح مفيد ، وقد اقتبسها ونفذها بالفعل كثير من البرلمانات التى كانت تمثل فى نظره الطبقة الوسطى ، والتى امتلأ قلب ماركس حقداً عليها ، ومرّغها فى التحقير والازدراء .

مقته الحرية والقومية

ولكن من المتعذر على ثائر أن يعترف بأن فى الإمكان تنفيذ الإصلاحات المرغوب فيها بواسطة الحكومات القومية ، أو بالتشريعات التى يضعها ممثلو الطبقة الوسطى . وكان ماركس يمقت القومية بكل جوارحه ، ويحقد عليها حقد المنبوذ الموتور . وكان يحتقر الحرية فى عجرفة الطاغية المستبد . ولم يضيع طيلة عمره أية فرصة لمهاجمة الطبقة التى خرج هو من بينها .

نظرته إلى تقسيم المجتمع الطبقى

وكان التقسيم الأساسى الحيوى للجماعة البشرية فى نظر هذا الزنديق العالمى المتطرف لا يقوم على دين أو على قومية، بل على أساس الطبقات . فلم يكن ثمت فى رأيه أية مصلحة مشتركة بين أرباب الأعمال الألمان والعمال الألمان ، وإنما كانت هناك مصلحة مشتركة بين عمال العالم فى أن يقضوا قضاء مبرماً على الممولين على اختلاف أجناسهم الذين يستغلونهم ويسخرونهم لمصلحتهم ، وقد ختم منشوره بهذه العبارات النارية : « فلترتعدن فرائص الطبقات الحاكمة ،

---

(١) انظر ملحق ا .

ولتنخلعن قلوبها أمام سيل الثورة الشيوعية الجارف . فليس للعمال ما يخسرونه منها سوى أغلالهم ، ولكن أمامهم العالم بأسره للظفر به . فيا أيها العمال من جميع الأقطار والأمصار ، هيا اعتصموا بحبل الاتحاد والتكاتف »

خلقه

وبعد فشل الحركات الثورية التى قامت سنة ١٨٤٨ فى قارة أوربا ، اتخذ ماركس لندن مقراً له ، وأمضى بها الأربعة والثلاثين عاماً الأخيرة من حياته . وكان على الدوام فى حاجة قصوى إلى المال . ولكنه فى كل ضائقة مالية حلت به كان يمد له يد العون صديق ألمانى اشتراكى المذهب هو فردريخ إنجلز Friedrich Engels ، وكان ابن صاحب مصنع للنسيج فى منشستر ميسور الحال . وكانت شخصية ماركس المهيبة الملهمة ، وذكاؤه اللامع القوى ، وفكره الواضح الواثق بنفسه ، ومزاجه الشرس المحب للسيطرة ، وقدرته على الحديث الرائع اللاذع السخرية — كانت كل هذه الصفات تجعل منه شخصية فذة فى أية ندوة ومجتمع ، حتى وإن كانت شخصية منفرة غير مقبولة . كتب ه . م . هندمان H.M. Hyndman الزعيم والكاتب الاشتراكى الإنجليزى يقول عنه : « لقد جمع بجبهته المسيطرة ، وأهدابه المدلاة الكثة ، وعينيه المتألقتين المفترستين ، وأنفه الحساس العريض ، وفمه المتحرك ، يحيطها جميعاً لحية كثة وشعر منكوش — لقد جمع فى هيئته هذه سمات أنبياء إسرائيل العظماء فى غضباتهم الحقة ، مضافاً إليها قدرة اسبينوزا والحكماء اليهود على التحليل الرصين » .

كتاب « رأس المال »

وألف ماركس ، وهو مقيم بانجلترا ، كتابه الكبير الشأن : « رأس المال » ، الذى قبله الناس كافة فى جميع أنحاء المسكونة كتوراة الطبقات العاملة . وقد استقى معلوماته عن الأمور المتعلقة بحياة المصانع الإنجليزية من قراءاته فى قاعة المطالعة بالمتحف البريطانى . ونفرٌ قليلٌ من بين الملايين العديدة من أنصاره المنتشرين فى جميع أقطار أوربا هم الذين تكبدوا مشقة مطالعة المجلدات الطويلة الثلاثة التى يتألف منها هذا الكتاب (ظهر عام ١٨٦٧) والتى تعتبر الآيات البينات المقدسة للمذهب الشيوعى . ولا يستند

نفوذماركس إلى عرضه للمبادئ الاقتصادية عرضاً محكم العبارة، ولكنه عرض غير مدعم بالأدلة ، إذ حاول فى كتابه أن يثبت أن القيمة فى علم الاقتصاد هى عمل متجمد ، وأن القيمة الفائضة التى ينتجها العمل فوق الغلة الثابتة لرأس المال يضيفها المولون على الدوام بصفة ربح لهم ، وأنه كلما ازداد الأغنياء غنى ازداد الفقراء فقراً . فإنه رغم عبقريته الفذة كان غير نابه كفيلسوف وكاقتصادى ، ولم يكن متضلعاً فى اللغة الإنجليزية – وإنما تستند قوة هذا الطريد المحتاج العنيف الأهواء والنزوات إلى أنه كان إلى الدوام داعية من دعاة الثورة ، يهاجم فى عنف وحنق مركِّزين نظام المجتمع بأكمله ، مبيناً فى ثقة متعالية متعجرفة أن الفقراء فى جميع عصور التاريخ كانوا نهباً للأغنياء ، أما الآن فقد جاء دورهم للسلب والاغتصاب ، حسب قانون التقدم الإنسانى الذى لا مرد لحكمه .

تفسير للتاريخ

وقد جُبل الناس على الميل لتأييد القضية التى يعتقدون أن النصر سيكون لها . ولقد كان أروع أعمال هذا الخيالى اليهودى أنه أقنع ذوى الثقافة والذكاء من العمال فى أمصار كثيرة بأن ساعة نصرهم قد حلَّت . وتقدم بقاعدة للتقدم البشرى هى من مبتدعات فلسفة هجل – وإن كانت فى بعض تفاصيل هامة تخالف تلك الفلسفة – تقدم بقاعدة تبدو أنها تضع الماضى والحاضر والمستقبل فى ترتيب منطق محتوم ، ترى فيها أن الشيوعية البدائية قد تراجعت أمام النظم الإقطاعية التى حلت محلها . ثم خلفت البرجوازية الرأسمالية النظم الإقطاعية . وقد جاء الآن دور الطبقات العمالية لسلب الطبقات البورجوازية، وانتزاع ما فى أيديها

فالتاريخ بأكمله فى نظره إن هو إلا نضال بين الطبقات فى سبيل الظفر بطيبات الحياة المادية . وهو يرى أن حرب الطبقات ، وعداء الطبقات ، هما القانون الأول من قوانين التغير ، وأن دكتاتورية الممولين ستخلفها دكتاتورية العمال . وسيخلف الأخيرة ، حينما يحين الوقت ، مجتمع عديم الطبقات هو الغاية النهائية لهذا الكفاح الوحشى الطويل الأمد وراء الماديات . أما من حيث

النظام الرأسمالى ، فيعتقد ماركس أنه يحمل فى ثناياه معاول هدمه وأسباب منيته . ففى فقرة كثيرة الاقتباس، يصف كيف سيُقلَب النظام الرأسمالى ، فيقول إن دوائر الأعمال ستزداد بمر الأيام اتساعاً وكبراً ، وسيتناقص عدد الممولين ، وستتعاظم الفاقة والطغيان والاستغلال والتدهور ، فيلقى هذا النظام حتفه نتيجة غلوه وتطرفه . فإن الطبقات العاملة التى يزداد على الدوام عددها سترتقى ، وستوحد بينها النظم والعمليات الرأسمالية نفسها . ذلك أنه حينما تسرح هذه الطبقات الفكر فى سلطان الاحتكار الرأسمالى المتزايد ، وتقارن بين غنى المجدودين الفاحش ورغد عيشهم الكبير ، وبين فاقة الطبقات العاملة وعوزها وبؤسها ، حينئذ ستنفجر سورة غضبها ، ويستعر أوار حنقها وحقدها . وسيتم يومئذ ما لا قِبَل لبشر منعه . « فإن تركيز وسائل الإنتاج ، واشتراكية العمل ، سيصلان حداً يُرى فيهما مغايرتهما للنظام الرأسمالى الأجوف . وحينئذ سيتمزق هذا النظام شذر مذر ، وسيدق ناقوس الموت للمِلْكية الخاصة الرأسمالية منذراً بالهلاك ، وسيُنهَب الناهبون »

مجرى الحوادث يخيب تنبؤاته وآماله

بيد أن مجرى الأحداث الأوربية قُسِم له أن يخيب آمال الذين آمنوا بحرب طبقات عالمية ، ورأوا خلاصهم فى تلك الحرب . فإن الدولية الأولى التى أسست سنة ١٨٦٤ لتوحيد عمال الأقطار المختلفة لم تلق سوى تأييد ضعيف منهم . وقد مزقتها الخلافات والمنازعات التى قامت بين هيئاتهم ، ثم لقيت حتفها بعد زمن وجيز من تأسيسها . فقد زعزعت الحرب الفرنسية البروسية أركانها ، فوهنت قواها ، وتحطمت فى نيويورك بعد أن عمرت ثلاثة عشر عاماً كانت مملوءة بالنقار والخصومات .

وأجهزت الحرب العالمية الأولى على الدولية الثانية[1] . وكانت هذه المؤسسة هيئة تزخر بالمواهب الرفيعة ، ولكنها كانت تخضع لنفوذ موسكو الشرير . وأطاشت تلك الحرب الآمال بأن فى وسع العمال المنظمين تنظيماً

(١) كانت تضم لنين ، وموسولينى ، وبريان ، ورمسى مكدونالد ، وليبكنخت ، ولافال ، وفندرفلد ، وبلسودسكى ، وبرنارد شو .

دولياً أن يتفادوا الحروب القومية ، ويحسنوا حالهم . وأثبتت المنافسات القومية أنها أقوى أثراً فى النفوس من مصالح الطبقات ، والعواطف الوطنية أنها أشد نفوذاً من روح الولاء للنقابات . فإن قوة العمال فى كل دولة — لا قرارات العمال الدوليين — هى التى حققت كل ما ناله العمال حتى الآن من الإصلاح الاجتماعى .

وكاد ماركس إبان حياته فى إنجلترا — هذا البلد الذى كان المسرح الأكبر لجهوده — كاد يوشك أن يكون إمعة لا أثر له فيها . فإن تطور الاشتراكية فى إنجلترا لا يعود إلى كتابات ذلك النبى المهيج ، بل كان نتيجة العطف الإنسانى الذى أثارته الظروف القاسية لحياة العمال فى المدن المكتظة الكبرى . فطفق البرلمان يشرع لحماية العمال . كما نظم العمال أنفسهم فى نقابات وجمعيات تعاونية لتأمين مستوى معيشتهم . وقام المصلحون الأذكياء فى دوائر المجالس المحلية — أمثال چوزف تشمبرلين (عمدة مدينة برمنجهام من سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٨٧٦) — بحركة ترمى إلى إزالة الأحياء غير الصحية ، وتخفيض نسبة وفيات الأطفال ، وجعل التعليم والخدمات الاجتماعية فى متناول الطبقات الفقيرة . وفى الحين الذى كان فيه ماركس ينظم اتهاماته للرأسمالية الإنجليزية ، كان الأحرار والمحافظون الإنجليز يقرون فى ساحة البرلمان التشريعات والتدابير التى طهرت ذلك النظام من كثير من عيوبه ومثالبه .

الجمعية الفابية

وقد أيقظ توماس كارلَيْل ْ ووليم مورِس ْ ضمير الأمة الاجتماعى . وفى عالم الاقتصاديات البطىء الخطى الوئيد التقدم أخذت زمرة من المفكرين الاشتراكيين الأكفاء[1] لقبوا أنفسهم بالفابيين — أخذوا يراقبون الميل المطرد لتنظيم الصناعة تنظيماً جماعياً — هذا التنظيم الذى كانت تشاد أركانه حولهم ، ونال رضاه واستحسانهم . فرووا فى سلسلة من المؤلفات النفيسة تاريخ

---

(١) أمثال برناردشو ، وسدنى وبياترس وب Sidney and Beatrice Webb وجراهام ولاس Geaham Wallace الخ . وقد تأسست الجمعية الفابية فى أواخر سنة ١٨٨٣ .

نقابات العمال ، ووضعوا أسس الديمقراطية الصناعية الجديدة ، وشجعوا تشجيعاً قوياً الدولة والمجالس المحلية على توسيع نطاق الخدمات الاجتماعية التى تضطلع بها .

التنديد بمذهب الحرية الاقتصادية

وهاجم الفابيون فى إقدام وجرأة مذهب « الحرية الاقتصادية » ، والمبدأ العتيق الذى كانت تحبذه وزارات المالية القائل بترك المال يتكاثر فى جيوب دافعى الضرائب ، وحضوا الحكومة على الإنفاق فى سبيل ترقية المرافق العامة . وأعلنوا للأمة أن العامل مستحق لحد أدنى من التعليم والصحة وأوقات الفراغ والأجور . وطرب المنادون بالإصلاح لذلك التأييد الكريم . ولهذا فإنه بينما كان نجم كارل ماركس آخذاً فى الأفول فى إنجلترا ، أخذ المصلحون الفابيون الدعوبون الذين كانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش — أخذوا ينادون ببشارة « التدرج الطبيعى الحتمى » ، وطبعوا تشريعات البرلمان الإنجليزى الكثيرة فى الإصلاح الاجتماعى بطابع أفكارهم وبحوثهم .

ولذلك لم يلقَ مذهب ماركس القائل بتطاحن الطبقات فى جميع بقاع المعمورة ، والمبشر بالزندقة المنظمة — لم يلقَ آذاناً صاغية فى بريطانيا ، حتى بين أشد أهلها فاقة وأمرهم نفساً . فإن هندمان الرياضىَ السرى المرح الفؤاد الذى تلقى العلم فى كلية إيتون الخاصة الشهيرة ، ثم اعتنق المذهب الماركسى ، وأنشأ « الاتحاد الديمقراطى الاشتراكى » Social Democratic Federation سنة ١٨٨١ ، لم يكن ذا أثر مذكور بالقياس إلى جون برنز John Burns زعيم العمال الذى لم يكن يحفل بالنظريات ، والذى قاد إضراب حمالى ميناء لندن سنة ١٨٨٩ ، أو بالقياس إلى كير هاردى Keir Hardie المعدِّن الاسكتلندى المتصوف الدينى الذى أسس حزب العمال المستقل سنة ١٨٩٣ بباعث عميق متغلغل من الحمية الدينية الشديدة .

مقارنة بين الاشتراكية البريطانية والاشتراكية القارية

فالاشتراكية البريطانية كانت حركة قومية صميمة ، تغلغل فى أعماقها الشعور الدينى الانجليكانى الذى هو أدنى فى روحه إلى الحركات الدينية الكبرى التى تحرك بين آونة وأخرى ضمائر الشعب البريطانى ، وتفتح له

آفاقاً وآمالا ورؤى جديدة . فغرب عن هذه الاشتراكية عنصر الكراهية القاسية والحقد الشرس بين الطبقات : وهو العنصر الذى نراه يلهم الحركات الاشتراكية فى قارة أوربا ، ويذكى نارها . ففى إيطاليا ، وفى فرنسا ، وأكثر منهما فى روسيا ، بدأت المبادىء الماركسية منذ العقد الأخير من القرن الماضى تستهوى ألباب كثير من أذكى قرائح الجيل الناشىء . ودخل الشعراء وأساتذة الجامعات ومعلمو المدارس والعمال الفنيون أفواجاً فى المذهب الماركسى ، واعتنقوا نظرية حرب الطبقات و « قانون الأجور الحديدى » الصارم ، وتطلعوا إلى انتصار العمالية القادم . فأشاعت أدا نجرى Ada Negri — التى اشتغلت بالتدريس فترة فى إحدى المدارس الإلزامية بلمبارديا — أشاعت الاشتراكية فى إيطاليا فى ملحماتها الشعرية الشعبية . وأسس فيلبو توراتى Philippo Turati وهو شاعر لمباردى آخر ، جريدة اشتراكية .

وأمكن لماركس فى خلال عقد من السنين أن يثل عرش هربرت سبنسر بوصفه النبى الأكبر للفلسفة السياسية والاقتصادية فى عيون الإيطاليين.. وذاع صيته بين عمال المصانع . ودل الإضراب العام الذى قام فى إيطاليا سنة ١٩٠٤ على كبير سلطانه وذيوع تعاليمه بعد موته . وفى الحين الذى كان فيه الشعراء والأدباء الإيطاليون يستلهمون وحيهم من منظومات كاردوتسى Carducci الجمهورى ، وتخلب لب القصصيين والمسرحيين بلاغة دانتزيو d'Annunzio أمير الشعراء الاستعماريين — هؤلاء الشعراء الذين يوشك جيلهم أن ينقرض — فى هذا الحين وجد عمال المصانع فى شمال إيطاليا خلاصهم ، ووضعوا آمالهم فى ماركس .

والحق أنه كلما عظم تأخر قطر من الأقطار ، ازداد تأثير ذلك المفكر الثورى رجحاناً وصار قوة خطيرة فعالة . ففى روسيا التى لم يكن بها نقابات للعمال ترفع مستوى معيشة العمال وتكفله ، سرعان ما نفذت تعاليم ماركس داخل المصانع ، واستُوعِبت مبادئه ، حتى انتشرت انتشار النار فى الهشيم ، وظفرت بالتفوق والغلبة فى تلك البلاد .

كتب يمكن استشارتها

Seignobos : History of Contemporary Europe. 1909.
Leslie Stephen : The English Utilitarians. 1900
Herbert Spencer : Social Statics. 1892.
Herbert Spencer : The Man versus the State. 1909.
Herbert Spencer : Autobiography. 1904.
E.H. Carr : Karl Marx. 1934.
Fabian Essays in Socialism : Ed. G.B. Shaw. 1931.
S. and B. Webb : Industrial Democracy. 1920.
S. and B. Webb : History of Trades Unionism. 1920.
Charles Darwin : Origin of Species. 1859.
Charles Darwin : Descent of Man. 1871.
Groce : History of Italy. Tr. C.M. Ady.
Acton : The History of Freedom and Other Essays. 1907.
E.L. Woodward : Three Studies in European Conservatism. 1929.
F. Nielsen : The History of the Papacy in the Nineteenth Century. 1906.

الفصل الثانى والعشرون

الحكم البريطانى فى الهند

حرى بنا الآن أن نوجه الالتفات إلى أمرين ، وهما وإن كانا خارجين عن نطاق كتاب يؤلف فى تاريخ أوربا ، إلا أنهما جديران بلفتة موجزة ، نظراً لما يلقيانه من ضوء على سمات دولة من دول أوربا الكبرى . وأول هذين الأمرين هو : فتح بريطانيا للهند وحكمها إياها . والثانى : الموقف الذى اتخذته بريطانيا العظمى والدور الذى لعبته فى الحملة ضد مبدأ الاسترقاق ومكافحة تجارة الرقيق .

سمات الفتح البريطانى

أما فتح بريطانيا للهند فلم يكن قط موضع تدبير وتخطيط من جانبها . وإنما نجم عن الحاجة التى أحس بها التجار الإنجليز فى تلك البلاد إلى وضع نظام لاستتباب الأمن والعدالة ، اللذين بدونهما لا يمكن للتجارة أن تنفق وتزدهر فى بلد من البلدان . فإن الفوضى واضطراب حبل الأمن اللذين عقبا انحلال إمبراطورية المغول قدما للإنجليز فرصة لم يسعوا وراءها ، غير أنهم تمكنوا من استغلالها استغلالا حسناً . قال كاتب أخلاقى أمريكى : « لقد استسلمت الهند صاغرة أمام الأخلاق البريطانية[1] . »

فقد أفلح الإنجليز فى فتح البلاد ، لأنهم جلبوا إلى ربوعها السلام ، والطمأنينة ، وخلصوا أهلها من ربقة البغى والجور . وكان نجاحهم فى هذا المضمار عجيباً حقاً . فإنهم أنقذوا الهند من الاعتداءات الخارجية ، ومنحوها نعم السلام الداخلى المستقر ، وحرية التجارة . فليس ثمت شبر واحد من

---

(١) عبارة قالها ر . و. إمرسن R. W. Emerson ، واقتبسها الماركيز زتلند فى كتابه « خطوات نحو الحكم الذاتى الهندى » Zetland : Steps toward Indian Home Rule

أراضى الهند البريطانية لا يحظى برعاية الإدارة البريطانية ، أو يتمتع بحماية سلطان القانون البريطانى . وعمر مهندسو الرى البريطانيون قرابة أربعين مليون فدان كانت قبلُ صحراء قفراً . ومع أن عدد الإنجليز الموظفين فى حكومة الهند لم يزد يوماً من الأيام على خمسة آلاف ، فإن هذه الشرذمة من الرجال الغرباء أداروا شئون تلك البلاد فى عدالة وفطنة ، حتى زاد عدد سكانها أكثر من ٢٣٠ مليوناً من الأنفس فى نحو قرن ونصف قرن من الزمان .

دين الهند للحكم البريطانى

وكل ما يوجد بالهند الآن من أشكال الوحدة الثقافية ، والوحدة السياسية ، راجع إلى الفتح البريطانى ، والإدارة البريطانية . فإن اللغة المشتركة بين الهنود من أقصى القارة الهندية إلى أقصاها ، والتى هى الأداة الوحيدة المشتركة للتعليم العالى ، والتى لا مندوحة للهنود عن استعمالها نظراً لاختلاف لغاتهم اختلافاً شاسعاً — نقول إن هذه اللغة المشتركة هى اللغة الإنجليزية — وإن كان قولنا هذا يبعث على الأسف . فى كل حفل سياسى من محافل الهنود ترى المناقشات تدور بلسان هذه الجزيرة الأوربية النائية .

العراقيل العائقة لنشر التعليم

وقد اُتهمت الإدارة البريطانية فى الهند أحياناً بأنها أهملت تعليم الهنود ، حتى أن ٩٠٪ من السكان[1] لا يزالون أميين . ولكن هؤلاء الذين يوجهون هذا الاتهام ينسون أن نشر التعليم فى الهند يعوقه عراقيل ثلاثة مشلة للجهود ، وغير موجودة فى أى قطر أوربى . وأول هذه العراقيل ، وإن كان أقلها أهمية ، هو تباين اللغات والمذاهب الهندية تبايناً عظيماً . والثانى هو انتشار زواج الأطفال الذى يحصد البنات الهنديات حصداً ، بحيث يوجد فائض من الذكور يبلغ عشرة ملايين . والثالث هو تعذر استخدام المعلمات غير المتزوجات فى المدارس الأولية نظراً لتقاليد الهند الاجتماعية . وبحسب كل امرئ أن يستعرض حال التعليم الأولى فى أوربا وأمريكا ليدرك علة شيوع الأمية بين الشعوب الهندية .

---

(١) بلغوا سنة ١٩٣١ ، ٣٣٨ مليون نسمة .

إدخال التعليم الغربى

إن أعظم ما يثير الالتفات ، كدليل على الخلق البريطانى ، هو ليس إخفاق هذه الدولة الأوربية فى إعطاء الهنود نظاماً كاملا للتعليم الأولى ، كهذا الذى وُضِعت أصوله فى مشقة وصعوبة فى إنجلترا نفسها عام ١٨٧٠ – بل هو عزمها على تقديم التعليم الغربى عن طيب خاطر إلى أهل الهند . فإنه بإرشاد ما كولى المؤرخ والسياسى الإنجليزى الذى كان وزيراً للعدل فى مجلس حاكم الهند العام من سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٨ ، قُرِّر وجوب تثقيف شعوب الهند بلسان فاتحيها الأوربيين ، وتلقينها آدابهم وعلومهم . ومع أن هذه السياسة بنيت على عطف خاطىء فى إدراك تقاليد الشرق الثقافية ، ومع أنها نفذت تنفيذاً فضفاضاً واسع النطاق ، إلا أنها أوحت بها رغبة كريمة فى ضرورة إشراك الهند فى كل ما هو طيب وصالح ونفيس فى حضارة الأمة الفاتحة .

نتائجه

ولقد كانت نتائج هذه السياسة مدهشة حقاً . فإن طائفة كبيرة من الهنود من رجال القانون والإدارة والموظفين والمعلمين والسياسيين الأذكياء أتقنوا بسهولة لا تكاد تصدق لسان بريطانيا وهضموا أفكارها . فهم يطالعون المؤلفات الإنجليزية ، ويجتازون الامتحانات الإنجليزية ، ويمثلون المسرحيات الإنجليزية ، ويستشهدون بالقضايا والقوانين الإنجليزية ، ويظهرون كمحامين وبرلمانيين أدلة على حذق ممتاز . فكانت ثمرة مذكرة ما كولى الشهيرة عن التعليم فى الهند[١] هى أنها لم تخلق فقط طائفة من الموظفين الأذكياء يبلغ عددهم زهاء مليونين ، بل إنها أنجبت أيضاً نخبة من السياسيين المثقفين ، الذين باطلاعهم على الكتب الإنجليزية تعلموا أن يكونوا جد معجبين بالحرية ، وأن يدلوا بالحجة القائلة بأن ما هو صالح ونافع للإنجليز ، لا بد أن يكون صالحاً ومفيداً للهنود أيضاً ، ويوجهون إلى الدولة الحاكمة تحدياً يستند إلى مبادئ ومعتقدات الإنجليز أنفسهم فى الحرية والتقدم .

---

(١) قدمت هذه المذكرة للحاكم العام سنة ١٨٣٣ .

شعور الحكام البريطانيين بالمسئولية نحو تقدم الهنود

إن مائة حول فقط تفصل بين موقعة پلاسى[١] وبين نهاية شركة الهند الشرقية . فإن قانون الهند سنة ١٨٥٨ الذى أخضع الإمبراطورية الهندية لهيمنة التاج البريطانى مباشرة – وذلك بتعيين وزير خاص للهند فى الوزارة البريطانية – إن هذا القانون يحدد ختام عصر الفتح ، ويبدأ عهداً من الاستقرار والتنظيم والسلام . ومع ذلك فإنه حتى فى غضون القرن الذى كان البريطانيون خلاله يمدون سلطانهم بقوة السيف على وسط الهند وغربها ، وعلى البنجاب ، كان أفضل حكام الهند العامين يعتبرون أنفسهم مسئولين عن رفاهية الأهلين الوطنيين ورخائهم . فلقد كانت هذه هى نظرة هيستنجز[٢] وولزلى[٣] وبنتنك[٤] ودلهوزى[٥] وجون لورنس[٦] وهنرى لورنس[٧]

وكان الأحرار الإنجليز الذين أقروا قانون الإصلاح البريطانى سنة ١٨٣٢ يعدون المبادئ الحرة منهاجاً تسير وفقه الحكومات الناجحة فى جميع الأقطار والأمصار . و « العهد الهندى »[٨] الذى أصدر سنة ١٨٣٣ ، يقرر مبدأين عظيمين : الأول أن مصالح الأهلين الهنود يجب أن تفضل على مصالح الأوربيين أينما وجد بينها تضارب . والثانى : « يجب ألا يحرم أى مواطن أو مولود هندى خاضع لجلالة ملك بريطانيا ، من تقلد أية وظيفة أو احتراف أى عمل ، بسبب دينه ، أو محل ميلاده ، أو جنسه ، أو لونه » . وقد استمر هذا التسامح الإنسانى معمولا به حتى عقب نشوب الثورة الهندية

(١) نشبت فى ٢٣ يونيو سنة ١٧٥٧ ، وفيها انتصر كليف انتصاراً كبيراً على سلطان البنغال .

(٢) Warren Hastings كان حاكماً عاماً من ١٧٧٣ إلى ١٧٨٥ .

(٣) Marquis Wellesley (١٧٩٨ – ١٨٠٥) .

(٤) Lord William Bentinck (١٨٢٨ – ١٨٣٥) .

(٥) Marquis of Dalhousi (١٨٤٨ – ١٨٥٦) .

(٦) Sir John Laurence (١٨٦٤ – ١٨٦٩) .

(٧) Sir Henry Laurence وكان أول حاكم للبنغال بعد ضمها سنة ١٨٤٩ .

(٨) The Indian Charter

سنة ١٨٥٧ ، حينما كان من المحتمل أن تحرف الأهواء العنصرية الهوجاء الحكومة عن مسلكها القويم . فقد أعلن منشور ملكى أن حقوق الأمراء الهنود ستكون محل الاحترام ، وأن جميع الأديان على السواء ستكفل حريتها ، وأن جميع المناصب ستفتح أمام جميع رعايا العرش دون أى مراعاة للجنس أو المذهب . وقد نُفِّذ التعهدان الأولان بأمانة ودقة . أما التعهد الثالث فقد نفذ فى مراحل متباطئة وخطى حذرة .

نجاح الحكم البريطانى

ويُستدل على النجاح الكبير الذى أحرزه الحكم البريطانى فى الهند من الحقيقة بأنه لم تحدث فتن واسعة النطاق تهدف إلى الخروج عليه . فلم تكن الثورة الهندية عصياناً عاماً ، بل كانت تمرداً حربياً جزئياً . وقد قمعت بمساعدة الكتائب الهندية التى أخذت من البنجاب . ومع أن الفتنة لم تخلُ من فظائع وحشية مؤسفة ارتكبها كلا الفريقين ، ومع أنها تركت فى النفوس ذكريات قاسية مريرة ، فقد أعقبتها فترة من الحكم الإنسانى الفطن الحكيم : حكم عمل على تلطيف شبهات الأهلين الدينية ومخاوفهم . ولعله لذلك أخطأ فى السير فى تهيب وحذر شديد . وفى الحرب العظمى الماضية حينما كادت موارد الإمبراطورية أن تستنفد ، أظهر أقيال الهند وأهلها ولاءهم للأواصر التى تربطهم ببريطانيا . فلو أن السيطرة البريطانية كانت صارمة أو مستبدة طاغية ، أو لو أنها كانت متصلبة فى سحق مطلب الهنود المتعلمين بالمساهمة بنصيب فى حكومة بلادهم ، لقبض الهنود على ناصية هذه الفرصة التى هُددت فيها بريطانيا بالخطر والتهلكة .

ولكن الهند حُكمت منذ الثورة الهندية بموظفين يتقلدون وظائفهم تبعاً لنتائج امتحانات مفتوحة لكل من يرغب فى التقدم إليها . ويسلم كثرة الناس بالفائدة التى جنتها الهند من وجود حكومة نقية من شوائب الفساد والأهواء والخلل تدير شئونها ، وتقضى بين الناس بالعدل والمساواة دون تحيز لطبقة أو لمذهب . وحقق الموظفون البريطانيون فى حكومة الهند ، أكثر من أية طبقة حاكمة أخرى ، المثل الأعلى للحكومة المنصفة غير المتحيزة ، هذا

المثل الأعلى الذى اعتقد أفلاطون أنه ليس فى المستطاع بلوغه ، إلا إذا ضُمِن كيان الدولة ، وأبعد المهيمنون على شئونها من غوايات المِلْكية ، وتجارب الأواصر العائلية . وكان عمل هؤلاء الموظفين مرهقاً كثير النصب والعناء : فمن تعقب الجرائم ومنعها ، إلى اتخاذ العدة لتوفير مطالب دولة عصرية من موارد ضئيلة كفيفة لشعوب شرقية فقيرة ، إلى ترقية وسائل التعليم وتوفير أسباب الصحة بين طبقات الفلاحين المتأخرين الذين تشيع بينهم الأوهام والخزعبلات ، إلى العمل كفيصل عادل بين جماعات متعادية ومذاهب متباغضة .

ولعله يمكن إعطاء صورة تقرِّب إلى الأذهان شكل الإدارة البريطانية فى الهند خلال عقود السنين التى سبقت الحرب العظمى ، لو أننا تخيلنا أن أهل أوربا تمثلهم إلى حد كبير عقلية فلاح أعزل من فلاحى التيرول ، وتتبع قارتهم مبدأ حرية التجارة ، وتحكمهم حفنة من الصينيين الأذكياء الخيرين ، ويصد جيش صينى تعسكر أكثر فرقه فى جبال الأورال — يصد عنهم عاديات البر والبحر . ويتألف هذا الجيش من مائة ألف وخمسين ألفاً من الجند الأوربيين وخمسة وسبعين ألفاً من الجند الصينيين . فإن أمة كالأمة الهندية يبلغ عددها ثلاثمائة وخمسين مليوناً ، وتحمى ذمارها قوة من الجند البريطانيين لا تزيد كثيراً على تلك التى تحتاج إليها البلجيك — إنها لتقدم الدليل القاطع على أن الحكم البريطانى فى الهند مقبول لدى الكثرة الكبرى من الشعوب الهندية .

ولقد كان من بين الأهداف الرشيدة للسياسة البريطانية أن تشرك فى قسط متزايد الهنود الوطنيين المثقفين فى إدارة شؤون حكومتهم . نعم ، لم يكن يسمح للهنود فى بادىء الأمر بأن يشغلوا سوى الوظائف الصغيرة ، غير أنهم أخذوا قبل الحرب العظمى يتقلدون مناصب القضاء فى محاكم الاستئناف ، ويشغلون نصف الوظائف المدنية . وبُذِرت سنة ١٨٦١ بذور الحياة البرلمانية (١) فنبتت وترعرعت حتى صارت شجرة قوية فرعها فى السماء .

(١) عين الحاكم العام للهند عدداً قليلا من الأعضاء الهنود فى المجلس التشريعى .

ظهور روح القومية

وظهرت فى الهند روح من القومية قوية متغلغلة كانت مجهولة فى عهد كليف ووارن هيستنجز ، بل وكانت مجهولة أيضاً لجيل الهنود الذى قام بالثورة الهندية . فصارت مهمة الإنجليز فى الهند أعسر وأشق مما كانت عليه أولا . فإن البشرة البيضاء التى كانت فى القرن الأول من الحكم البريطانى جوازاً يفرض الاحترام والمهابة فى نفوس الهنود ، أصبحت الآن فى أعين الكثيرين من الهنود المثقفين وأشباه المثقفين إهانة ومذلة . واستفحل أمر التعصب الجنسى ، وصار إقصاء العنصر الأجنبى عن الحكومة هدفاً عادياً مألوفاً لمطامع ذلك الشطر من السكان الذى يشغل نفسه بالسياسة. فالطلبة فى الكليات والجامعات يحلمون بالاستقلال ، والصحفيون يسعون سعياً حثيثاً لنيله . وبعد انتصار اليابانيين فى الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ – ١٩٠٥) رأى الهنود أنه ليس هناك سبب ليطأطىء الشرق بعد الآن هامته للغرب .

شكلا القومية الهندية

والقومية الهندية تميل فى درجات متناهية التفاوت فى الشكل واللون ، إلى أن تتخذ أحد طرازين رئيسيين : الطراز الأول : غربى دستورى . والثانى : شرقى ثورى . فهناك فريق من الهنود ذوى البصيرة وردوا مناهل الفلسفة الحرة التى سادت أثناء العصر الفكتورى ، وتتبعوا باهتمام وحماس بالغين سير الحركات القومية للتحرير فى البلدان الغربية ، ودرسوا استقلال الولايات المتحدة ، ومنح المستعمرات البريطانية الكبرى حكومات نيابية مسئولة ، وراقبوا ضغط الحركة الإرلندية المتزايد وإفلاحها فى إحراز الحكم الذاتى – إن هذا الفريق من الهنود يرى أن ما ثبت صلاحه وخيره فى الأقسام الأخرى من الإمبراطورية البريطانية ، لا بد أن يكون صالحاً نافعاً لشعوب الهند أيضاً .

ولهذا فإن رؤياهم التى يتشوفون إلى تحققها للهند المستقبلة ، هى أن تصبح مستعمرة بريطانية تتمتع باستقلال ذاتى كهذا الذى تتمتع به أستراليا وكندا ، وأن تتوفر لها مجالس نيابية ديمقراطية ، وأن تحتل مكانها بين أمم العالم العصرية بتزودها من الثقافة الغربية ونشر التعليم بين أهلها . ولا يرمى هؤلاء الأشخاص إلى الثورة ، فإنهم يعتقدون أنهم سائرون فى طريق الاستقلال القومى ، ولكنهم

يبتغون أن يعجلوا نيله باستخدام الضغط السياسى المطرد فى نطاق الحدود الدستورية. ولقد كان ج . ك . جوخال[١] G.K. Gokhale (١٨٦٦– ١٩١٥) رائداً من رواد هذه المدرسة ، جمع بين الفهم والكياسة وجميل المناقب .

أما الفريق الآخر فلا يقيم كبير وزن للمستحدثات الغربية . ويرى أن كل شىء ثمين فى الحياة الهندية موجود فى متن أسفار الڤيدا . وهو يؤمن بالهند كأمة ، ولكنه لا يؤمن بها كديمقراطية برلمانية . هذه هى فلسفة سوامى ديانانادا Swami Dayananada ، وقد أسس جمعية « أريا »[٢] Arya Samaj التى تهدف إلى إحياء الروح الهندية القديمة .

وكانت هذه أيضاً وجهة بال غنغدار تيلاك Bal Gengadhar Tilak (١٨٥٦ – ١٩٢٠) البرهمى الجبار الذى نظم مقاومة عنيفة للحكم البريطانى فى إقليم الدكا فى غضون العقد الأخير من القرن المنصرم . وكان من مميزات الروح المحافظة المتطرفة لهذا الخطيب الشعبى الثورى القوى الشكيمة ، أنه قاوم الروح العصرية التى تمثلت فى قانون سن سنة ١٨٩٠ لتحديد سن زواج الأولاد والبنات The Age of Consent Bill بقصد إزالة هذا الشر الذى يعتبر بوجه عام أسوأ لوثة فى نظام الهند الاجتماعى .

أخطاء الموظفين البريطانيين

ومن المحتمل أن رجال الإدارة البريطانيين فى الهند أبدوا فى مقاومتهم هذه الآراء القومية الجديدة عناداً وصلابة أشد مما ينبغى . ولكن يجب ألا يُنتظر من موظفين مرهقين إرهاقاً باهظاً بعبء ثقيل من الأعمال والواجبات ، ويعيشون فى مناخ مزهق للنفوس ، أن يرحبوا بمثل هذه الأفكار المزعجة المثيرة لخواطرهم ،

---

(١) ولد جوخال من أسرة رقيقة الحال . وتمكن بجده وأدبه من أن يصبح أستاذاً للتاريخ والاقتصاد السياسى بكلية فيرجوسن ، ثم ناظراً لها . وانتخب سنة ١٩٠٥ رئيساً للمؤتمر الهندى . وأسس فى بونا جمعية « خدام الهند » التى كانت تفرض على أعضائها أن يحلفوا اليمين بأن يعيشوا عيشة فاقة وزهد ، ويكرسوا حياتهم للخدمة العامة فى روح من التعبد والتدين .

(٢) أسس هذه الجمعية سنة ١٨٧٥ ، واتخذ مقراً لها مدينة لاهور ، وأنشأ لها فروعاً فى جميع أرجاء البنجاب ، حيث أذكت الروح القومية فى أهله ، وحثهم على العناية بالتعليم ، وصارت قوة من أعظم القوى فى الهند الحديثة .

والتى قد تخلُّ بحسن سير الأداة الحكومية الدقيقة الأجزاء فى سيرها الهادئ المنتظم . ولهذا نشاهد الموظفين البريطانيين يقابلون بفتور عظيم أعمال سياسيي المؤتمر الهندى الذين دأبوا منذ تأسيسه سنة ١٨٨٥ على خلق حركة قومية وإذكاء نارها ، ولا يعيرون هجمات الصحف الوطنية غير المنقطعة كبير التفات . ومن الطبيعى أن تتسم علاقات عمال دولة أجنبية خيرة اغتصبوا دهراً طويلا زمام الحكم من أبناء البلاد — من الطبيعى أن تتسم علاقاتهم بالحركة القومية التى يضطلع بها الشباب الهندى بقلة اكتراث يشوبه ازدراء واحتقار .

إدخال نظم الحكم الذاتى

ولكن برغم هذا كله ، فإن الإدارة البريطانية الهندية نفذت فى ولاء جم وإخلاص كبير الخطط والمشروعات التى وضعتها الوزارات البريطانية ، والوزراء والحكام العامون البريطانيون من ذوى المبادئ الحرة ، لإرضاء الساسة الهنود . فان المجالس البلدية التى أنشأها اللورد ريبون Lord Ripon[1] سنة ١٨٨٣ ، والمجالس التشريعية الاستشارية التى ابتدعها اللورد مورلى Lord Morley[2] ، واللورد منتو Lord Minto[3] سنة ١٩٠٩ ، والحكم الثنائى القائم على مشروع منتاجيو — تشلمسفورد Montagu-Chelmsford Scheme سنة ١٩١٧ ، الذى انتقلت بمقتضاه الخدمات الاجتماعية ، كشئون التعليم والصحة والحكومة المحلية إلى وزارات هندية مسئولة أمام مجالس تشريعية منتخبة ، على حين بقيت شئون الأمن والنظام (كالجيش والبوليس إلخ) فى أيدى البريطانيين : هذه المنح المتتالية من الحرية السياسية ، التى وإن أسخطت العقل البيرقراطى ، وازورَّ عنها الموظفون البريطانيون فى الهند ، فقد سُلِّم بضرورتها المحتومة . وغدا الاعتقاد الغالب الآن على جميع ألوان الرأى العام البريطانى بأنه يجب الرضا عن صبغ السياسة البريطانية فى الهند بالروح الوطنية الهندية ، كاقرار البرلمان الهندى بدلهى تعريفة

---

(١) كان حاكم الهند العام ١٨٨٠ — ١٨٨٤ .

(٢) كان وزير الهند بالوزارة البريطانية من ١٩٠٦ إلى ١٩١٠ .

(٣) كان حاكم الهند العام ١٩٠٥ — ١٩١٠ .

جمركية هندية تحد من واردات البضائع البريطانية لفائدة المنتجين الهنود .

مشروع اتحاد هندى

غير أن نظام الحكم الثنائى الذى قُرِّر سنة ١٩١٧ ، وعُدَّ منحة كبيرة القدر للهنود ، فشل فى إرضائهم ، وأصبح الهدف الذى يتطلع الزعماء السياسيون فى كلا الهند وبريطانيا إلى تحقيقه ، بل إنه مدون فى قانون أقر سنة ١٩٣٥ ، وبدىء بتنفيذه فى إبريل سنة ١٩٣٧ ، هو إنشاء اتحاد يضم جميع المقاطعات الهندية ، بما فيها المقاطعات التى يحكمها الأمراء الوطنيون(١) ، والتى تتمتع بالحكم الذاتى . وقد قبلت بريطانيا أن تسير فى سرعة حثيثة فى هذا الطريق المحفوف بالمعاثر ، مهتدية بمبدأين رئيسيين من مبادئ الجنس الأنجلو سكسونى : الأول ، أن كل شكل من أشكال الحكم ينبغى أن يرتكز على أساس من موافقة الشعب ، والثانى : أن عمل الزعامة السياسية الرشيدة وواجبها هما تفادى اندلاع الثورات بإدخال الإصلاحات المنشودة .

اختلاف وجهة نظر الشرق

ولقد قيل « الشرق شرق ، والغرب غرب » . فنرى الخلق الهندى ، والتقاليد والمستويات الهندية ، فى تحليلها النهائى ، تُبرِز على الدوام صفات يعسر على المراقب الأوربى إدراك كنهها . ففى المحيط الدينى الهندى يُنظر عادة إلى أمور هذا العالم كأشياء تافهة عديمة الوزن ، وإلى اختبارات الحياة كأمور ضئيلة القيمة قليلة الشأن . فالإيثار والزهد يفوقان الجدارة والأهلية مرتبة . وتحصيل العلم وكسب المعرفة يعلوان قيمة وتبجيلا النشاط العلمى والهمة الموفورة . والقديس الذى يقضى أيامه جائعاً عرياناً هو موضع الاحترام والتبجيل من الجميع ، أما المصلح الاجتماعى الذى يزيل الأحياء الملوثة غير الصحية ، أو الذى يأخذ بخناق المرابين ، أو الذى يكافح الأمراض والأوبئة ، فإنه يلقى مقاومة أعظم مما يصادف من استحسان وتقدير .

فقد غادر اللورد كرزن Curzon الهند غير مرموق من الهنود بعين الرضا ، رغم ما أداه من خدمات جليلة للزراعة والتعليم والتنقيب عن الآثار القديمة

---

(١) يتراوح عدد هذه الإمارات الهندية بين خمسمائة وستمائة إمارة ، مساحتها ٧١٢,٥٠٠ ميل مربع ، يسكنها نحو ٨١ مليون نسمة .

والعناية برفاهية الأمة الهندية ورغد عيشها . أما البطل الذى شخصت إليه أبصار الهنود ، واصطفوه لهم زعيما وقائداً ، فهو رجل يختلف إلى أقصى درجة يمكن تصورها عن ذلك الإدارى الإنجليزى الألمعى الباهر المواهب . فإن غاندى ، وهو الرجل الذى نعنيه ، له سجايا عديدة كانت ترفعه إلى المقام الأول فى الحياة السياسية ، لو أنه قُسم له أن ينبت فى قطر غربى . فهو يتحلى بسحر شخصى عظيم ، وجاذبية قوية ، ووطنية مضطرمة ، ومقدرة فائقة فى حلبة النقاش والحوار ، وبصر نافذ فى أساليب الدعاوة والنشر ، وحذق رائع فى وسائل الدفاع والهجوم ، وتضلع ممتاز فى اللغة الإنجليزية . ولا ريب فى أن مثل هذه المناقب التى تدخل بين الفضائل السياسية للغربيين ، تثير إعجاب الإنجليز . ولكن هذا المحامى الهندوسى الضئيل البدن ، الذى خلق للحكام البريطانيين متاعب لا حصر لها بصفته المنظم لحركة مقاطعة البضائع الإنجليزية ، وزعيم حملة العصيان المدنى ، يعرض وجوهاً أخرى محيرة يشق فهمها على البريطانيين . فبينما هو قديس ، إذ ما فى هذا شك ، إذ به لا يستنكر الربا بصفته ممولا ، ومع أنه وطنى بالغ الحماس إلا أنه كسياسى لا يرى غضاضة فى قبول هبات تجىء له من إيجارات الأحياء القذرة غير الصحية فى الهند . ومع أنه خصم سافر للروح الغربية العصرية ، إلا أنه لا يحرم على نفسه الانتفاع بما تقدمه السيارة من وسائل الراحة والتيسير . فجمع غاندى بذلك خلاصة من تلك المتناقضات الفذة التى تحير عقول الأوربيين – تلك المتناقضات التى تتحدى تحدياً عجيباً صبر الغرب وأناته وحكمته .

كتب يمكن استشارتها

A.C. Lyall : The Rise of the British Dominion in India. 1910.

T.W. Holderness : Peoples and Problems of India. (Home University Library), 1912.

E. Thompson and E. Garratt : Rise and Fulfilment of British Rule in India. 1934.

Sir Courtenay Ilbert : The Government of India. 1913.

W.W. Hunter : The Indian Empire. 1893.

W.W. Hunter : The Marquis of Dalhousi. 1890.

T. Rice Holmes : History of the Indian Mutiny. 1898.

Marquis of Zetland : Life of Lord Curzon. 1928.

R. Temple : Lord Laurence. 1898.

Indian Statutary Commission, 2 vols. cd 3568, 3569 1929-30 Simon Report.

الفصل الثالث والعشرون

أوربا والاسترقاق

الاسترقاق فى العصور الغابرة . موالى الأرض فى العصور الوسطى . رق المزارع الكبيرة فى العالم الجديد . إنسانية أسبانيا النسبية . تجارة الرقيق الإنجليزية . حركات إلغائها . المحررون . أهمية البرلمان . طائفة وسلى الدينية . الاقتصاديون. تشريعا سنة ١٨٠٧ وسنة ١٨٣٣ . محاربة تجارة الرق الأجنبية . لفنجستون فى إفريقيا . الروح الإنسانية فى التشريع الحديث .

الاسترقاق فى العصور الغابرة

يحوى تاريخ أوربا — بقدر ما وصلت معرفتنا به — فصلين يمتازان بطابع خاص من العار والشين. الفصل الأول منهما : هو حينما هجمت فيالق الجمهورية الرومانية وقراصنتها على السكان والأقطار الشرقية غير المحمية الراتعة فى بحبوحة من الرخاء والأمن . والثانى حينما زخر بحر إيجه بتجار الرقيق ، وذاع الصيت البغيض لجزيرة ديلوس (التى صارت مرسى حراً سنة ١٤٦ ق . م . بعد سقوط كورنثوس) — ذاع صيتها بوصفها مركزاً لتجارة الرق الأوربية : تلك التجارة ، التى إذا صدقنا رواية سترابو المؤرخ الإغريقى ، كان يصل ما يباع فيها ويشرى من العبيد إلى عشرة آلاف عبد فى اليوم الواحد . ولكن هذه الحقبة التى شاع فيها النهب والسلب والتقتيل والتدمير ، رغم هولها ووحشيتها ، كانت من حسن الحظ قصيرة الأمد . فإن حكومة الإمبراطورية الرومانية الرفيقة برعاياها قمعت حرفة قنص الرقيق . كما خففت فلسفة الرواقيين الوديعة الإنسانية من آلام العبيد ، ورفعت من حالهم . ومع أنه لم تقم وقتئذ حركة لإلغاء الرق ، إلا أنه جزء من أسوأ مثالبه وأوزاره .

موالى الأرض فى العصور الوسطى

ثم تحول نظام الاسترقاق إلى نظام موالى الأرض والسخرة فى المزارع والحقول ، وصار يضاهى كثيراً من الحرف الحضرية الراقية التى تقتضى حذقاً ودربة . وكان العبد الرومانى فى الطور الأخير من عهد الإمبراطورية الرومانية رجلا حراً فى كل شىء ما خلا الاسم ، فقد اتخذ مكانه فى البنيان الاجتماعى الذى أقامه أسياده ، وأخذ يشاركهم فى الدراسات والأفكار ، ويساهم بنصيب فى الفنون والصناعات ، بل إنه كثيراً ما أثر تأثيراً محسوساً فى توجيه شئون الحكم . فان إبقتيطس Epictetus ، الذى كان فيلسوفاً من أنبل الفلاسفة الرواقيين وأكثرهم علماً، احتمل دون مرارة وتحسر منزلة الاسترقاق . وقد استمرت حرية المشاعر البشرية فى الحياة الخاصة ، ونمو روح المسئولية فى النظم الحكمية ، وتأثير المسيحية ، وتنظيم مقاطعات الإمبراطورية الرومانية فى آسيا وإفريقيا ، وعدم وجود تلك التحسينات الميكانيكية التى تقود بطبيعتها إلى الإنتاج الكبير — استمرت هذه العوامل تعمل على تناقص عدد الرقيق ، وتحسين حالهم ، والتقليل من أهميتهم من الوجهة الصناعية .

كما أن وطأة هذا الإثم لم تزد زيادة خطيرة بعد انهيار صرح الإمبراطورية الرومانية . فقد كانت تجارة الرق فى العصور الوسيطة شراً ضئيل الشأن ، لانتشار نظام موالى الأرض الزراعيين ، وسهولة سد الطلب على العمال المطلوبين فى الحواضر. فلم تزدهر تلك التجارة الذميمة إلا على سواحل البحر الأحمر بنوع خاص . ولكن كان ذلك على نطاق تافه ، إذا قيس بعمليات قنص الرقيق فى عهد الجمهورية الرومانية ، أو فى فترة الاختطاف والسلب العظيمة الثانية التى تلت استكشاف العالم الجديد .

رق المزارع الكبيرة فى العالم الجديد

والحق أنها لوصمة مروعة ، وتعقيب شائن على أثر الحضارة المسيحية ، أن أطول حقبة عرفها التاريخ لنفاق تجارة الرقيق هى تلك التى بدأتها دول أوربا الغربية : أسبانيا ، والبرتغال ، وفرنسا ، وهولندا ، وبريطانيا ، بعد أن كان قد مضى أكثر من ألف عام على توطيد دعائم المسيحية فيها . وإنها لوصمة أخطر ولطخة أدنس على المسيحية ، أن الاسترقاق الحديث كان أسوأ مظهراً ، وأقسى

روحاً ، وأعظم شقاء من الاسترقاق القديم . فى العالم القديم كان الاسترقاق المنزلى المثقِّف للعقول ، الإنسانى المظهر فى أغلب الأحيان — كان هذا الاسترقاق أجل شأناً وأوسع نطاقاً من الاسترقاق الذى كان يوجد يومئذ فى المناجم والمزارع .

أما فى العالم الجديد فقد كان الأمر على تمام النقيض من هذا . فقد صار الإنتاج الكبير القاعدة الاقتصادية السائدة . وكان سد طلبات الأوربيين على الشاى والتبغ والقطن يقوم على عمل الرقيق الذين يقتنصون من إفريقية ، ويحشرون حشراً فى ثكنات خاصة ، ويعملون فى زمرات نظمتها — كما كانت قد قنصتها — أيد نهابة نُزعت الإنسانية والرحمة من قلوبها .

إنسانية إسبانيا النسبية

ومن بين الممالك الغربية القناصة للعبيد ، التى خطَّت هذا الفصل الجديد من الفظاعة والوحشية البشرية ، امتازت إسبانيا بمعاملة رقيقها معاملة إنسانية نسبياً . فمع أن قسوة أسبانيا فى الدور الأول ، ثم فى الدور الختامى لإمبراطوريتها عبر البحار — مع أن قسوتها على رعيتها المستعبدة فى مستعمراتها الأمريكية كانت لا تقل فظاعة ورعباً عن أى دولة أوربية أخرى ، إلا أنه كانت هناك فترة طويلة توسطت الدورين ، قامت الكنيسة الكاثوليكية إبانها بجهود مجيدة لتحسين حال السكان العبيد فى المستعمرات الأسبانية . فقد كانوا ينصَّرون ويهيأون لتناول القربان المقدس وسماع الكلمة المقدسة ، ويبقون فى حظيرة الأسرة ، ويدخلون عن طريق عضويتهم فى الكنيسة فى نظام الحكم الأسبانى .

تجارة الرقيق الإنجليزية

أما فى المستعمرات البريطانية فلم تبذل كنيسة إنجلترا مثل هذه الجهود . وكما قال كانِنْج : « لم تكن تُحسب لهؤلاء العبيد قيمة أكثر مما تُحسب للحيوان الذى يقاسمهم النصب والكدح » . وعلى حين دأبت الكنيسة الأسبانية على جهودها الدينية ، فإن ملاك المزارع البريطانيين كانوا يعبسون فى وجه أية محاولة تثير هواجسهم لنشر العقيدة المسيحية بين عبيدهم ، بل إنهم كانوا يحولون دون ذلك . ولم تتخذ الكنيسة الإنجليزية أى إجراء لتلافى هذا الموقف .

وإن القصور النسبى للمذهب البروتستانتى ، وعجزه عن التلطيف من حدة آلام تلك التجارة الدنيئة المقيتة وأهوالها ، لها أعظم خطراً وأشد وقعاً ، بالنظر إلى

هذه الحقيقة ، وهى أنه من بين جميع تجار الرقيق الأوربيين ، كان التجار البريطانيون أعظمهم نجاحاً وتوفيقاً ، وبالتالى أكبرهم إثماً وجريرة . فقد حُسِب أن المجموع الكلى للعبيد الذين جُلِبوا من إفريقية إلى المستعمرات الإنجليزية فى العالم الجديد بين عامى ١٦٨٠ و ١٧٨٦ يربى كثيراً على المليونين . وقد ناصر زعماء سياسيون كبار كاللورد تشاتم Lord Chatham هذه التجارة ، كدعامة كبرى لقوة بريطانيا ، كما ناصرها رجال بحر مثل نلسن ، وكانوا يرونها عضداً وسنداً لأسطول بريطانيا التجارى . وقد شُيد على تجارة الرقيق رخاء ليڤربول وثروتها ، وإلى مدى كبير رخاء وثروة برستُل أيضاً .

ولهذا كانت مكافحة المصالح الموروثة القوية المرتبطة بتجارة الاسترقاق البريطانية عملا هائلا جباراً . ففى القرن الثامن عشر لم يكن لبريطانيا مستعمرات أثمن لها من مستعمرات جزر الهند الغربية التى تنتج السكر . ولما كانت أرض هذه الجزر يفلحها الأرقاء الإفريقيون ، فقد وقف أرباب المصالح الإنجليز فى تلك الجزر صفاً مرصوصاً لمحاربة أى اقتراح يهدف إلى تخفيف أو محو هذه التجارة التى كانت ترتكز عليها أرباحهم . وحينما يضاف إلى هؤلاء فريق الإنجليز الذين كان يهمهم أمر ضياعهم التى يعمل فيها الرقيق فى القارة الأمريكية ، وكذلك الكثرة الكبرى من الأمريكيين الذين كانوا قبل فصمهم العرى التى تربطهم بإنجلترا يمكن الاعتماد عليهم فى الدفاع عن الاسترقاق فى أمريكا — حينما نتصور هذه المصالح الكبيرة القوية ، يمكننا أن ندرك أن الآمال باجتثاث هذا النظام كانت تلوح بحق ضئيلة باعثة على اليأس والقنوط .

حركات إلغائها

ومع ذلك فإنه من بريطانيا ، أكبر تجار الرقيق وأشدهم ذنباً ، انبعثت الحركة التى أفلحت فى إلغاء نظام الاسترقاق فى الجزر البريطانية سنة ١٧٧٢ ، ثم تحريم تجارة الرقيق فيها سنة ١٨٠٧ ، ثم إلغاء نظام الاسترقاق فى المستعمرات الإنجليزية سنة ١٨٣٣ . وأخيراً عملت إنجلترا بكل ما يتسع لها الذرع لإيقاظ الوجدان العالمى ، كى تكفل اتفاقاً واسع النطاق — بل اتفاقاً يقرب من أن يكون إجماعياً — على اقتلاع ذلك الشر من جذوره .

ويرجع الفضل فى الحصول على الحكم الشهير الذى أصدره سنة ١٧٧٢ كبير القضاة اللورد منسفيلد Lord Mansfield فى قضية جيمس سومرست James Somerset الذى يقضى بأن نظام الاسترقاق غير معروف فى قانون إنجلترا العام ، وأنه حالما تطأ قدم عبد من العبيد أرضاً إنجليزية ، يصبح معتقاً — يرجع الفضل فى صدور ذلك الحكم إلى غرنفل شارب Grenville Sharp ، وهو موظف من موظفى الحكومة مغمور المركز والثراء ، ولكنه كان عامر القلب بالحنان والعطف ، متين الخلق ، قوى العزم ، استفزه مشهد استخدام القسوة البالغة مع عبد أسود فى أحد شوارع لندن ، فلم يهدأ له بال حتى حصل على ذلك الحكم الذى طهّر وقتئذ الجزر البريطانية من وصمة الاسترقاق .

ثم جاء بعده رتل من المحررين الإنجليز ، جديرين بأن تخلد أسماؤهم حتى فى تاريخ عام لأوربا كهذا الكتاب : أمثال وليم ولبرفورس [١] ، وتوماس كلاركسون [٢] وزكريا ماكولى [٣] ، وجيمس ستيفن [٤] — هؤلاء الرجال الذين مكنت جهودهم التمهيدية التى دامت عشرين عاماً تشارلس فكس رئيس الوزارة البريطانية يومئذ من إقرار قانون إلغاء تجارة الرقيق . وكذلك أمثال توماس فول بكستن [٥] الزعيم البرلمانى لفريق الراغبين فى محو الرق الذى أثار حمية مجلس العموم للموافقة على إلغائه ، وبراوام [٦] الذى حمل مشكاة قضية إلغاء الرق فى طول البلاد وعرضها ، وبلمرستون الذى أوقف تجارة الرقيق بين البرتغال والبرازيل ، وتلك الزمرة الصادقة النبيلة من المرسلين ورجال الحرب والسياسة أمثال : داود لفنجستون وتشارلس غردون والسير جون كرك واللورد لوجارد الذين فتحت جهودهم إلى حد كبير القارة الإفريقية للعالم ، وخلصوها من مخالب قناصى الرقيق العرب وآثامهم . ولا يذكر لكى Lecky ، المؤرخ الإنجليزى ، أكثر من الحق حينما يقول ، إن حملة إنجلترا الصليبية ضد الاسترقاق « تعد على الأرجح من بين الصفحات الثلاث أو الأربع الناصعة البياض فى تاريخ الدول والشعوب » .

---

(١) William Wilberforce

(٢) Thomas Clarkson

(٣) Zachary Macaulay

(٤) James Stephen

(٥) Thomas Fowell Buxton

(٦) Brougham

ومما لا شك فيه أن نجاح ثورة المستعمرات الأمريكية أفاد قضية إلغاء الرق فى بريطانيا . فقد أقصى استقلال أمريكا فريقاً قوياً من أنصار الاسترقاق من حلبة الجدل والنقاش فى مجلس العموم ، بعد أن بارت سوقهم فى الجمهورية الأمريكية الجديدة . وكذلك استفادت قضية الرقيق من اتحاد إرلندا ببريطانيا سنة ١٨٠١ ، إذ أحضر هذا الاتحاد إلى مجلس العموم نفراً من الأعضاء الإرلنديين ، الذين إذ لم تكن لهم مصلحة فى بقاء تجارة الرقيق ، كانت أذهانهم مهيأة لاستجابة نداء الحرية والعدالة المجردة .

فائدة البرلمان الإنجليزى

بيد أن هذه المساعدات العَرَضية لا توضح كيف أن فئة قليلة من الناس لم يكن من بينها من لمع اسمه فى عالم السياسة ، استطاعت أن تتغلب على المقاومة المنظمة التى أثارتها تجارة رائجة كانت تعد لازمة جوهرية لرخاء إنجلترا وقوة أسطولها . فإنه يجدر ألا يغيب عن الأذهان أنه لم يكن فى المقدور استكمال هذا العمل الجليل من غير وجود البرلمان . ذلك لأن إنجلترا كانت تملك فى مجلس العموم هيئة يمكن أن يلقى فيها الضوء على الأمور الخبيثة ، وتُعرض أمام الأعين الأفعال المزرية الدنيئة فى ثيابها الدنسة . فأمكن تعريف الأمة برذائل الاسترقاق المقيتة ومساوئه البغيضة ، حتى توقع بالقوات المادية الكبيرة المؤيدة له الهزيمة والاندحار . فمن الأمور ذات المغزى أن وليم ولبرفورس الزعيم البرلمانى لجماعة إلغاء الاسترقاق كان يلقب « بلبل مجلس العموم » ، وأن إلغاء تجارة الرقيق أقِرَّ سنة ١٨٠٧ على يد تشارلس چيمس فكس أعظم خطباء زمانه البرلمانيين .

جهاد بعض الطوائف الدينية

وخلف هذا التهييج البرلمانى ، قامت حركة حفزتها تلك الدوافع الدينية والخلقية المتغلغلة فى أعماق النفوس التى اتسمت بها بنوع خاص جماعات الكويكريين والميثوديين الإنجليز فى الشطر الأخير من القرن الثامن عشر . فإن « لجنة الستة » التى كانت الأولى فى القيام بحملة منظمة سنة ١٧٨٣ فى البلاد الإنجليزية ضد الاسترقاق كانت لجنة مؤلفة من « الكويكريين » . وكانت « شيعة كلابم » Clapham Sect ، وهو الاسم الذى أطلق على جماعة ولبرفورس — كانت متأثرة أعمق التأثر بضروب الاختبارات الدينية الشخصية التى

نادى بها يوحنا وسلى John Wesley المبشر الذائع الصيت ، وأوصى بمثاله وأسوته الناس على انتهاجها .

ومع أن مؤثرات أخرى تضافرت مع تلك القوى : كنشر آدم سمث آراءه الاقتصادية السليمة ، وچريمى بنتام مبادئه العقلية الإنسانية ، فإن القوة المسيطرة التى جعلت الإلغاء مستطاعاً ميسوراً كانت روحاً من التدين العميق والخلق المكين عمرت قلوب نخبة صغيرة من الإنجليز ذوى الآراء القويمة والعزائم القعساء ، وسيطرت على ضمائرهم ، فأصبح لا يطيب لهم بال حتى يقوّموا وزراً عظيما ، ويسحقوا جريرة كبرى .

مراحل إلغاء الاسترقاق البريطانى

وكان الأثر المباشر لحكم اللورد منسفيلد – وكان هذا الحكم أول انتصار أحرز فى هذه الحملة الطويلة الأمد – كان أثره المباشر عتق قرابة خمسة عشر ألف عبد أسود كان أسيادهم قد جلبوهم إلى إنجلترا ، حيث كانوا يباعون فيها ويشترون بمطلق الحرية . وكانت المرحلة الثانية فى عملية الإلغاء أشق وأعقد : وهى الهجوم على تجارة الرقيق بالذات . فإنه على الرغم من نفوذ ولبرفورس ووليم پت ، وعلى الرغم من جهودهما المشتركة ، تمكن أصحاب المصالح المالكة للأرقاء من إبطال المقترحات الخاصة بإلغاء تلك التجارة فى مجلس الوزراء ، وفى مجلس العموم ، وفى البلاد . ومع أن پت توفى فى يناير سنة ١٨٠٦ ، إلا أن فكس الذى صار وزيراً للخارجية استطاع بمعاونة أصوات النواب الإرلنديين أن يلغى تلك التجارة ، قبيل بدء تدفق القطن الذى أنتجته أيدى العبيد فى أمريكا على مصانع لنكاشير ، وبالتالى قبل أن تعطىَ لنكاشير دافعاً للتكاتف مع أصحاب مصالح زراعة قصب السكر فى جزر الهند الغربية للدفاع عن الاسترقاق .

ولهذا فإن قانون الإلغاء أجيز فى أنسب الأوقات ، وذلك فى ٢٥ مارس سنة ١٨٠٧ . ثم أجيز سنة ١٨١١ قانون آخر جعل الإلغاء فعالا حقاً ، إذ جعل تجارة الرق جناية عقوبتها النفى .

وحينما نتذكر أن إلغاء هذه التجارة جاء وسط كفاح حياة أو موت بالنسبة لإنجلترا ضد نابليون ، وأن كل بحار ، من نلسن ومن هم دونه ، كان يعلن أن

هذا الإلغاء سيودى بالأسطول البريطانى — حينما نذكر ذلك نعجب حقاً أبلغ إعجاب بشجاعة پت وفكس فى الضرب بعرض الحائط بمشورة الخبراء البحريين، وفى الضغط فى غير هوادة — حتى فى وقت الحرب — على البرلمان لإزالة هذه اللوثة العظمى التى كانت تلطخ البشرية . ولم تكن هذه بالمرة الأولى ، ولا بالمرة الأخيرة، التى غلبت فيها حكمة الزعماء المدنيين ونفاذ بصرهم نصائح رجال الحرب ومشوراتهم.

ومن ثم دخلت إنجلترا وهى فى دورها الجديد العجيب بصفتها دولة ألغت الاسترقاق — دخلت مؤتمر ڤينا ، حيث فازت بالحصول من الدول الثمان الكبرى المشتركة فيه على تصريح قاطع بأن إلغاء تجارة الرق إلغاء عاماً شاملا هو تدبير « جدير كل الجدارة بعناية تلك الدول وحسن رعايتها ، متفق وروح العصر » .

ومن ذلك الوقت صار إلغاء تجارة الرقيق ونظام الاسترقاق فى المستعمرات البريطانية هدفاً رئيسياً من أهداف السياسة البريطانية ، جهدت بريطانيا فى أمانة وبكل ما يتسع لها الذرع فى تحقيقه . وجذب إليه اهتمام رجالات الأمة ذوى المقاصد السامية وحماسهم . ولما رأى البرلمان فى بريطانيا بعد محاولات عدة أنه من العبث إقناع المجالس التشريعية فى المستعمرات بإلغاء نظام الرق فيها ، قر رأيه على أن يشرِّع هو فوق رءوسها . فأجاز فى أغسطس سنة ١٨٣٣ قانوناً بإلغاء الاسترقاق فى جميع المستعمرات البريطانية ، ووافق على اعتماد مبلغ عشرين مليون جنيه لتعويض أصحاب العبيد فيها .

مكافحة تجارة الرق الأجنبية

غير أن مكافحة تجارة الرقيق التى كانت تقوم بها الدول الأجنبية كانت بطبيعة الأمر أعسر وأشق كثيراً . فإن فرنسا لم تفرض عقوبات رادعة على جريمة تجارة الرقيق فى بلادها إلا سنة ١٨٣١ . ولم تفرضها أسبانيا إلا سنة ١٨٣٥ . على حين انفردت بريطانيا وحدها باتخاذ التدابير الكفيلة بتنفيذ القانون ضد تلك التجارة فى البحار تنفيذاً دقيقاً لا هوادة فيه . ولكن نظراً إلى أن الولايات المتحدة اعترضت على الأسطول البريطانى ممارسته حق تفتيش سفنها ، وفى الوقت نفسه لم تعد من جانبها أية مراقبة لسفن الرقيق ، فقد أمكن لمعظم تلك السفن أن تتملص من العقاب ، برفعها الراية الأمريكية . فازدهرت بنوع خاص تجارة الرق فى

كوبا ، إلى أن صدر قانون أبراهام لنكولن سنة ١٨٦٢ بتحرير العبيد .

ومع ذلك ، فقد أُنجِز الشيء الكثير بالضرب على أيدى تجار العبيد بإنشاء نظام لخفارة البحار ، حتى ولو أن تلك الخفارة كانت أقل كثيراً مما كان يمكن إنجازه فعلا لو أن الدول البحرية قامت كل منها بنصيبها من العمل . فإن القضاء على تجارة الرق البرتغالية مع النصف الغربى من الكرة الأرضية لم يتم إلا على يد الأسطول البريطانى ونشاطه فى الإجهاز عليها .

لفنجستون فى افريقية

وبقيت بعد ذلك المشكلة العسيرة العنيدة المراس الخاصة بتحرير إفريقية من عصابات العرب لقنص العبيد وتجارة الرقيق الداخلية التى كانت تباشَر فى قلب تلك القارة . إذ من الجلى أن نظاماً للحراسة البحرية مهما كان دقيقاً — هذا وقد خُصِّص سدس الأسطول البريطانى لأعمال خفارة السواحل الإفريقية فى سنى الأربعين من القرن الماضى — جلى أن نظام الخفارة لم يكن بوافٍ وحده لمكافحة ذلك الشر الواسع النطاق . ولكن حياة داود لفنجستون المرسل الإسكتلندى الذى اخترق إفريقية فى صحبة قليلة من الرفاق الوطنيين بين عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٦ سيراً على الأقدام فى الجانب الأكبر من رحلته — استهلت حياة هذا المرسل فى إفريقية عهداً جديداً ، وأبانت عن طريقة جديدة لشن الحرب على تجارة الرقيق فى تلك القارة . فقد أظهرت رحلاته للرأى العام البريطانى فظائع تجار الرقيق العرب الذين كانوا قد اتخذوا زنجيبار مركزاً لهم .

فتجدد نشاط أنصار الإلغاء ، وشمروا عن ساعد الجد ، وكانت أولى ثمار كفاحهم عقد معاهدة سنة ١٨٧٣ بين بريطانيا وزنجيبار أوصدت سوق العبيد العظيمة فى تلك البلدة. ومن ذلك الحين ازداد الناس يقيناً بأنه ما لم تُكتشَف مجاهل القارة الإفريقية ، وتفتح أبوابها فى وجه المزارعين والمرسلين الأوربيين ، وتوضع تحت هيمنة الدول الأوربية ، فإنه لن يستطاع اجتثاث تجارة الاسترقاق اجتثاثاً كاملا .

ولهذا مكن التقسيم السلمى لإفريقية بين الدول الأوربية العظمى — وهو التقسيم الذى لعله كان أعجب أعمال السياسة الأوربية وأروعها فى سنى الثمانين

والتسعين من القرن الماضى – مكّن هذا التقسيم الدول الأوربية من تنفيذ سياسة القضاء على الرق . ذلك أنه عاون على انضمام دول أخرى إلى جانب بريطانيا فى اتخاذ تدابير قوية وافية لسحق الاسترقاق ، وتحسين الأحوال الاجتماعية فى إفريقية . فإن مؤتمر بركسل الذى دعاه ليوبلد الثانى ملك البلجيك سنة ١٨٨٩ إلى الالتئام – تلبية لاقتراح الحكومة البريطانية – والذى حضره مندوبون عن سبع عشرة دولة ، أنهى أعماله بإقرار قانون صودق عليه سنة ١٨٩٢ ، ولُقب « ماجنا كارتا العبيد الإفريقيين » . فقد كانت بعيدة المدى أحكامُ هذه المعاهدة التى تعهدت الدول المشتركة فيها (وكان من بينها إيران وزنجيبار والدولة العلية) بتنفيذها . ومع هذا فإن الشر ما زال قائماً لما يستأصلْ بعدُ بأكمله. وما زالت الدول الأوربية تناضله وتحاربه . غير أنها تزداد أملا بنجاح جهودها ضد جشع الإنسان المتأصل وقسوته المنكرة .

الروح الإنسانية فى التشريع الحديث

وهذه الحرب العوان الطويلة ضد الاسترقاق وتجارته هى جزء من النزعة العامة للسياسة الخيرة الإنسانية التى أنجبت أيضاً إيفاد البعثات الدينية ، والخدمات الاجتماعية الكثيرة النفقات ، وتكوين الجمعيات لحماية الأطفال والعناية بالحيوان . وإنه لمن بين جميع المظاهر التى تميز الجماعات الحديثة عن الجماعات الغابرة ، تبرز هذه الظاهرة كأبعثها على الأمل ، وأدعاها إلى الرجاء ، وأقواها على تعزية الذين يحزن قلوبهم استطراد جرائم بنى البشر ومفاسدهم وحماقاتهم . ولا ينكر امرؤ أن للحضارة الديمقراطية لأوربا الحديثة نقائص ومثالب كثيرة ، إلا أن جهودها الإنسانية فى سبيل حماية الضعفاء من أفراد المجتمع من جفوة المزاحمة الاقتصادية الصارمة لتقدم حجة تمنع الناس من أن يحكموا عليها حكماً قاسياً ، ولتضاهى فى جليل الفائدة الأعمال العلمية الرائعة التى قامت بها تلك الحضارة ، ولتبذّ فى عظيم نفعها تقدم ثروة العالم المادية .

كتب يمكن استشارتها

W.E. Lecky : History of England.
R Coupland : Wilberforce 1922.
R. Coupland : The British Anti-Slavery Movement. 1933.
R. Coupland : Kirk in the Zambesi. 1928.
Livingstone : Narrative of an Expedition to the Zambesi.
Lugard : The Dual Mandate in British Tropical Africa. 1922.
P.M. Allen : Gordon and the Sudan. 1931.
H. Wallon : Histoire de l'esclavage dans l'antiquité. 1879.
M. Rostovtzeff : The Social and Economic History of the Roman Empire 1926.

الفصل الرابع والعشرون

الحرب والسلام فى البلقان

قلق بسمارك رغم تحالف القياصرة الثلاثة . المسألة النمساوية والملكية الثنائية . حركة جامعة الأمم السلافية . تأثيرها فى السياسة الروسية . إصلاحات إسكندر الثانى . بلغاريا . ثورة البلقان عام ١٨٧٥ . المذابح البلغارية . الغزو الروسى ومعاهدة سان ستيفانو سنة ١٨٧٨ . اللورد بيكنسفيلد ومؤتمر برلين . انفصام تحالف القياصرة الثلاثة . غلادستون ودزرائيلى .

١ – حركة جامعة الأمم السلافية

التحالف الثلاثى

كان كل شىء فى السنين التى تلت الحرب الفرنسية البروسية يشير إلى رسوخ قدم الريخ الألمانى ، واستطراد سؤدده وعظمته . فقد حطم عدوه الخطير الوحيد . ولم يصبح ثمت منافسون له ظاهرون . ودعم شعب عظيم تملؤه نشوة النصر سلطان العرش الإمبراطورى . وقدم مختاراً راضياً فروض الإعجاب والتبجيل لهيئة أركان أقوى جيش من جيوش العالم طرا .

ولم يتبين للشعب الألمانى أن ثمت شيئاً يخشاه من جانب روسيا أو النمسا ، اللتين كانت تربط قيصريهما بقيصره أواصر الود والصداقة الشخصية . وحينما اجتمع هؤلاء الأباطرة الثلاثة فى برلين سنة ١٨٧٢ ، اتفقوا على المحافظة على الحالة الراهنة فى أوربا ، والذود عنها ، والعمل فى تضافر حبى على حل مشكلات البلقان ، وكبح الاشتراكية ، والسعى فى سبيل الإصلاح . فبدا صرح الإمبراطورية الألمانية المنيف منيع الذمار وطيد الأركان . فأى عدو هذا الذى تبلغ به الجسارة الطائشة أن يتحدى تحالف القياصرة الثلاثى ، ولا ينصاع لمشيئته ؟ ومع ذلك كانت فرائص بسمارك ترتعد فرقاً من شبح الانتقام الفرنسى .

القلق من البغضاء العنصرية

فإنه جدير بنا أن نلاحظ هنا ، أنه قبل أن ينصرم العقد الثامن من القرن الماضى استشفّ غمبتا فى أفق بلاد الصرب الموضع القاتل الذى سيلقى فيه الريخ الألمانى المارد مصرعه . فقد بدا للأعين ، حتى فى تلك الأيام الباكرة ، أن الحركات العنصرية بين الأجناس السلافية قد تهدد مبدأ سيطرة الجنس التيوتونى وتفوقه فى وسط أوربا ، وتوجه ضربة ساحقة إلى أسس أوربا المحافظة .

فإن الموقف الداخلى للامبراطورية النمساوية — هذا الموقف الذى كان على الدوام شديد التحرج بسبب البغضاء العنصرية — طرأت عليه تقلبات عديدة منذ أن سُحِقت الثورات البوهيمية والهنغارية فى عامى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ . فقد بسط أولا مدة عشر من السنين — الحكمُ الأوتقراطى الصارم المستند إلى قوة العنصر الألمانى فى الإمبراطورية — بسط رواقه على كل مكان وصقع . فكان ذلك العنصر يملأ الوظائف الإدارية فى هنغاريا ، وهيئة ضباط الجيش الهنغارى ، ويهيمن على الشرطة الهنغارية ، ويضع بمقتضى كنكوردات أبرِم مع البابا فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٥٥ جميع المؤسسات المدرسية والعلمية الهنغارية تحت رقابة الكنيسة الكاثوليكية وقوامتها .

غير أنه كان من الخطل أن يُظن أن الأجناس الهنغارية والسلافية ستقبل على الدوام فى خضوع واستسلام سيطرة الجنس الألمانى عليها ، وخضوعها له . فإن إسكندر باخ Alexander Bach اليهودى الأصل ، ووزير داخلية الإمبراطورية النمساوية من سنة ١٨٤٩ إلى سنة ١٨٥٩ ، ابتدع نظاماً مركزياً لحكومة الإمبراطورية ، وإن لم يكن ينقصه حسن المقصد والكفاية وروح التقدم والتحسين ، إلا أنه كان يعتبر كابوساً جاثماً وقيداً لا يحتمل عند تلك الأجناس التى كانت تكره من أعماق قلبها التقاليد الألمانية ، وأساليب الحياة الألمانية ، وروح التفوق الألمانية .

أثر الحرب الإيطالية

فلم يكن الموقف فى حاجة إلا إلى صدمة نكبة عامة حتى يتبين ضعف الثقة ، ووهن الدعائم التى استندت إليها الحكومة ، وشيوع روح العصيان والتمرد بين الجماهير . ولهذا فإنه حينما دخلت النمسا غمار الحرب الإيطالية سنة ١٨٥٩ ،

أخذ بنيان الإمبراطورية كله يهتز ويضطرب كأنه مشيد على رمال متنقلة . فطرب المجريون والتشكيون جهاراً لهزائم النمسا فى ماغنتا وسلفرينو . وفشل قرض الحرب فشلا ذريعاً . وشعر أولو الأمر بأنه ينبغى لهم أن يفعلوا شيئاً لصد تيار التذمر العنصرى المتزايد ، وربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض قبل فوات الأوان المناسب . ولهذا بدئت فترة من التجريب الدستورى بين سنتى ١٨٦٠ و ١٨٦٧. ولكنها لم تفد إلا فى أن تظهر مبلغ صعوبة المشكلة الخاصة بتوحيد الأجناس المتعددة التى تألفت وقتئذ منها الإمبراطورية النمساوية ، فى أى شكل راسخ من أشكال الاتحاد السياسى .

فترة تجريب

فقد جُرِّب نظام تعاهدى غير وثيق الأواصر ،وأخفق. ثم جُرِّب نظام برلمانى مركزى ، ولم يكن نصيبه من النجاح بأفضل من نصيب النظام الأول ، فلم يطب للمجريين أن يدخلوا برلماناً يلتئم عقده فى ڤينا ، للألمان فيه أغلبية الأصوات ، كما لم يطب لأهل ألستر أن يجلسوا فى برلمان قومى يلتئم فى دبلن ، أغلبيته معقودة لأهل الجنوب الكاثوليك . وأخيراً ذهب الإمبراطور فرنسيس جوزف بنفسه سنة ١٨٦٥ إلى بودابست ، ودعا المجريين والكرواتيين إلى أن يرفعوا إليه ظلاماتهم واقتراحاتهم .

دياك

واتفق خلال هذه الضائقة أن وجدت هنغاريا فى دياك Deak (١٨٠٣ — ١٨٧٦) زعيما سياسياً قديراً ووطنياً ذا مواهب رفيعة ، وشخصية مسيطرة ، وآراء معتدلة . وكان دياك يرى أن بلاده تربح كثيراً من ارتباطها بالنمسا ، ويعارض بقوة أنصار الانفصال . ولكنه كان فى الوقت عينه عاقداً النية على أن يكسب للأمة المجرية الأسس الضرورية للحرية السياسية والكرامة القومية . ولا يمكن لأحد أن ينكر أن النكبات التى حلت بالنمسا خلال حربها مع بروسيا سنة ١٨٦٦ سهَّلت تسهيلا جلياً تحقيق هدفه . وإن من واجب الساسة الأفذاذ أن يمسكوا بأذيال الفرصة قبل أن تفلت من أيديهم . ولذا انتهز ساسة بودابست فرصة السخط والقنوط التى سيطرت على رجال السياسة فى ڤينا ، واستطاع دياك الانتفاع من هزيمة النمساويين فى سادوا ، الأمر الذى يُذكر له بالفضل .

فأقام مع بيست Beust المستشار الإمبراطورى(١) أسس المَلكية الثنائية .

الملكية الثنائية

وقد وُضعت فى فبراير سنة ١٨٦٧ هذه التسوية التى أقامت النظام الثنائى للنمسا والمجر ، والتى تسمى Ausgleich . وبمقتضاها يُطلق على الإمبراطورية اسم « النمسا والمجر » وتتألف من دولتين مستقلتين إحداهما عن الأخرى ، وعلى قدم المساواة معاً فى نظر القانون ، ويحكمهما عاهل واحد يلقب « إمبراطور النمسا وملك المجر » . وتُوِّج الإمبراطور فرنسيس بتاج القديس إسطفانوس ، فى بِستْ عاصمة المجر فى يونيو سنة ١٨٦٧ .

ويعود الرسوخ النسبى لهذه التسوية العجيبة — التى ظلت نافذة حتى سنة ١٩١٨ — إلى هذه الحقيقة ، وهى أنها وضعت أقوى جنسين من أجناس الإمبراطورية وهما الألمان والمجريون على قدم المساواة فى السلطة . ففى سسليتانيا Cisleitania التى حوت مقاطعات النمسا السبع عشرة ، كان الألمان متفوقين فى العدد . وفى ترنسليتانيا Transleitania (وتشمل هنغاريا وكرواتيا وسلاڤونيا وترنسلڤانيا وبعض مقاطعات الحدود) كان المجريون هم المتفوقون . وكان لكل من شطرى الإمبراطورية برلمانه الخاص ، ومجالسه المحلية الخاصة ، ولغته الرسمية الخاصة . ومع أنه كانت هناك وزارات إمبراطورية للحرب والمالية والشئون الخارجية ، إلا أنه لم يكن هناك برلمان إمبراطورى .

أما الشئون ذات المصلحة المشتركة بين هنغاريا والنمسا ، مثل المسائل الخاصة بعقد المعاهدات التجارية ، فكان يبحثها وفدان يمثلان البلدين ، ويتألف كل منهما من ستين عضواً ، ويجتمعان بالتناوب فى بودابست وڤينا ، ولكنهما يتداولان ويقترعان كل على حدة . ويسود هذا النظام حيطة بليغة الدلالة على التباعد وعدم الثقة اللذين كانا يغلبان عليهما ، فقد نُص على ألا يتصل أحد الوفدين بالآخر ، إلا عن طريق تبادل المذكرات والوثائق الكتابية . ولكى يحدَّد بوضوح — أكثر حتى مما ذُكر — الاستقلال ذو السيادة الممنوح لكل من النمسا وهنغاريا ، لم تُعتبر هذه التسوية اتفاقاً بين أمتين وحكومتين ، وإنما عقداً أبرمه كل من البلدين على

---

(١) بمثابة رئيس الوزراء فى الأقطار الأخرى .

حدة مع صاحب العرش من بيت هابسبرج .

وبهذه التسوية المتعبة التى ارتبطت بها النمسا والمجر معاً ، واجهت هاتان الدولتان المستقلتان الأنواء السياسية مدة خمسين عاماً . وأخذتا تتطلعان إلى السيطرة على الجزء الجنوبى الشرقى من أوربا ، بعد أن أقصتهما المدافع والحراب البروسية من ألمانيا ومقاطعة البندقية . وبذلك قذفتا بأنفسهما أكثر فأكثر فى لجب السياسة البلقانية . ولكنهما فى الوقت عينه قبلتا — كدليل جدى على أهليتهما وجدارتهما — مبادئ الحكم البرلمانى ، والتسامح الدينى ، والتعليم غير الدينى : تلك المبادئ التى كانت لها الغلبة فى دول أوربا الغربية .

فما أعظم التغيرات وأوسعها نطاقاً ، تلك التى عجل بها انتصار بروسيا على النمسا ! ففى سنة ١٨٦٧ ، أى بعد انقضاء حول واحد على ذلك الانتصار ، صارت النمسا والمجر ملكية دستورية . ثم بعد ذلك بحول آخر ، قضتا على احتكار الكنيسة لشؤون التعليم فى بلادهما .

مشكلة القومية السلافية

بيد أنه بقيت معضلة واحدة خطيرة من غير تسوية . فقد ظل السلاڤيون قلقين حائرين تحت ربقة الجنسين المسيطرين . ولذا لم يكن يرتجى أن يرحب التشكيون فى بوهيميا ، والسلوفاكيون والكرواتيون والصربيون فى هنغاريا ، بهذا التنظيم الجميل الذى عهد بشؤون الإمبراطورية ومصائرها إلى الأرستقراطية المجرية المتشامخة المتعجرفة ، وإلى أشراف النمسا ووجوهها الذين يتكلمون اللسان الألمانى . صحيح أن المواطنين السلاڤيين فى المملكة الثنائية كانوا منقسمين فيما بينهم باعتبارات جغرافية ، وباختلاف لهجاتهم وعاداتهم ، وفى بعض الحالات بانشقاقهم المذهبى الدينى : فكان التشكيون منفصلين عن السلوفاكيين ، والسلوفاكيون عن الصربيين ، وهؤلاء جميعاً عن الكرواتيين والسلوڤانيين . وظلت قروناً عديدة هذه الأفرعُ المبعثرة البائسة الرقيقة الحال من شجرة الأسرة السلافية لا تشعر بأصل مشترك وشخصية مشتركة .

ولكن هذه الحالة أخذت تتغير وتتبدل . فقد بدأت تسرى فى الشعوب السلافية حركة لجمع شملها فى جامعة أمم واحدة ، وتوقظ أذهان أبناء تلك الشعوب

البدوية المتأخرة . فبدأ يحفزهم شعور بأنهم رغم الكوارث التى حلت بهم ، ووطئهم بالأقدام : البعض منهم تحت نير الترك ، والبعض الآخر تحت ربقة الألمان والمجريين ، فإنهم يؤلفون أمة قوية ، وجماعة شديدة البأس ، يقطن أبناؤها الأراضى الفسيحة الممتدة بين المحيط المتجمد الشمالى والبحر الأسود ، ومن البحر البلطى إلى مضيق بهرنج . وبزغ فجر هذه الحركة بمنظومات كولار Kollar (١٧٩٣ — ١٨٥٢) ، أول الشعراء السلوفاكيين وأشهرهم ، وكان لمنظومته Slavy Dcera أو « ابنة سلاڤا »[١] (نشرت سنة ١٨٢٤) هزة كبيرة ودوى عظيم

وانتقلت أفكار هذا الشاعر على جناح السرعة إلى بوهيميا ، حيث تلقفها أئمة اللغة وأعلام الأدب التشكيون طربين مرحبين . وكان الوازع لهم فى بادئ الأمر شعوراً بميراثهم المشترك من الثقافة السلافية ، ورغبة فى ارتياد كنوز الفكر التى تخص السلاف جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها ، والتبحر فى رحابها . وبذلك يشعر حتى أوضع الفلاحين ، وهم يكدحون فى خدمة أسيادهم الغرباء ، أنهم ينتمون إلى مجتمع عظيم ، وشعب مشترك ، يُرتقب منه أن يقوم بنصيب نبيل ممتاز من جلائل الأعمال والخدمات لقضية الحضارة والتقدم . ولكن حدث — كما هى الحال فى أغلب الأحيان — أن الأفكار التى نادى بها الشعراء والعلماء السلافيون ، انتقلت إلى نطاق السياسة الجدلية ، فلعبت فكرة جامعة الأمم السلافية دوراً فى الثورة البوهيمية عام ١٨٤٨ . غير أن بوهيميا كانت مسرحاً ضيق الرقعة ، ولذا أمكن القضاء على ثورتها فى سرعة وسهولة .

أثرها فى السياسة الروسية

إلا أن مسرحاً أوسع رحاباً وأعظم كسباً فُتح فيما بعد لحركة الجامعة السلافية . فإنه بعد عشرين عاماً من سحق الثورة السالفة الذكر ، وخلال حكم إسكندر الثانى قيصر روسيا (١٨٥٥ — ١٨٨١) ، دخلت أفكار الجامعة السلافية ميدان السياسة الروسية ، كقوة فعالة موجِّهة . ومن ثم غدت هذه الفلسفة العنصرية الجديدة قوة فى المقام الأول فى جبروتها وعنفوانها . فشرعت تتحدى سلطان الباب العالى بأكمله فى بلاد البلقان ، وتنشر قلقاً واضطراباً جديدين بين الملايين الكثيرة

(١) « سلافا » بطل خرافى من أبطال التشك .

من السلافيين الذين كانوا يعيشون فى درجات متفاوتة من الخضوع داخل تخوم الملكية الثنائية .

٢ - إصلاحات إسكندر الثانى

برنامج اسكندر الثانى

فى الوقت الذى كانت مس فلورنس نيتنجيل تفتح أبواباً جديدة لحرية النساء الإنجليز فى عهد الملكة ڤكتوريا ، كان إسكندر الثانى ينفذ كنتيجة لحرب القرم - بمعاونة حفنة من النبلاء والموظفين المستنيرين - برنامجاً عظيم القدر من الإصلاح الداخلى . ففى إبان عقد واحد من السنين ، أعتق موالى الأرض فى بلاده ، ونظّم من جديد النظام القضائى ، وأدخل نظم الحكومة المحلية ، وأباح حرية الصحافة ، ومنح الجامعات قسطاً من الحرية العلمية . ولقد كان العمل العظيم الذى أنجزه هذا القيصر المصلح وأعوانه فى سنى الستين محط إعجاب الأجيال التالية وتقديرها الكبير ، كعمل خالد ملهم لعصر من عصور البطولة . فقد أنجزت خلاله أعمال عديدة حقاً لكسر ربقة التقاليد ، ولوضع أسس نظام سياسى واجتماعى سليم .

صعوبات تنفيذه

بيد أن روسيا بلادٌ ، ابتكارُ جلائل الأفكار فيها ، أسهلُ من وضعها موضع التنفيذ القويم . فقد كانت الأفكار جليلة ، والخطط رائعة ، ولكن الرجال الذين عهد إليهم بتنفيذها لم يتساموا إلى قمة عظمتها وجلالها . فكانت النتيجة أن ما أنجز فعلا كان أقل كثيراً مما كان يُرتجى . ذلك أنه كانت تنقص الموظفين المهارة والنزاهة اللازمتان ، والإيمان المنشود . وكانت ثمت كراهية عامة للعمل السياسى المتواصل الدءوب . وأغفل الأحرار من الطبقة الوسطى تأييد هذه الحركة الإصلاحية والأخذ بناصرها ، فقد درجوا على أن يوسوس الشيطان فى نفوسهم بالقول بأنه لا يمكن لحكومة قيصرية روسية أن تعمل شيئاً ، أو تؤدى واجباً على الوجه الأكمل . ورفضوا أن يبدلوا موقف المقاومة هذا الذى اتخذوه ، وظلوا متشبثين به ، حتى حينما قُدِّمت إليهم إصلاحات ممدَّنة خطيرة الشأن .

طغيان القيصر

بيد أن هذا الوصف لا يعطى غير صورة مشوهة غير كاملة لروسيا فى عهد

إسكندر الثانى ، الذى قد لا يشاهد المرء فيه سوى برنامجه الإصلاحى العظيم . فقد كان عهده رغم إصلاحاته ، عهداً مستبداً طاغياً ، وبخاصة بعد سحق العصيان البولندى عام ١٨٦٣ ، والضرب فى صرامة على أيدى الذين اتخذوا الاغتيال السياسى وسيلتهم للاحتجاج . وكان حكمه حكماً لم يسلم فيه مشبوه من عين البوليس السرى ، وتُقتحم فيه البيوت دون إنذار ، ويُشحن الرجال والنساء زرافات منفيين إلى جهات سيبيريا السحيقة . بينما كان كل عضو من أعضاء الحكومة — من القيصر فما دون — هدفاً للخناجر والقنابل .

شيوع التهور

وكان عهده هو العهد الذى شرع فيه شبان روسيا المستنيرون يهاجمون صرح المجتمع بأكمله بطيش رهيب ورعونة وحشية ، بعد أن عيل صبرهم من سير الإصلاح سيراً بطيئاً ، وبعد أن أسكرتهم نشوة العلوم الجديدة . وقد لُقبوا « بالمؤمنين بلا شىء » Nihilists ، إذ لم يكن لديهم ما يتقدمون به ليحل محل جميع الأمور والأنظمة التى وطنوا العزم على هدمها . وعهد الإسكندر هو أيضاً العصر الذى وصفته يراعة ترجينيف Turgenev فى رواية « الآباء والأبناء » وقلم تولستوى Tolstoi فى قصة « أنا كارينينا » Anna Karenina ، والذى أخذ فيه الجيل الناشىء يتحدى تحدياً عنيفاً جميع قيم النظام القديم ، وانثلم فيه سلام الأسرة ، ومُزقت أواصرها دون أن يكون ثمت أمل لجبرها . وفيه واجهت التقاليد القديمة ، واحترام الكبار ، زندقة الشبيبة الوقحة المعتدة بنفسها . فلم يكن فى مقدور حكومة القيصر أن تهادن هذه الميول الثورية ، أو ترفق فى معاملتها .

ظهور أفكار ثلاثة

وقد اتحدت مع هذه الروح من القمع الداخلى فى روسيا أفكار سياسية ثلاثة أخرى : هى ثوحيد الشعوب التى لم تُهضم بعدُ فى الإمبراطورية ، وفتح آسيا الصغرى ، وتحرير أمم البلقان السلافية من نير الأتراك . أما الفكرة الأولى من السياسات الثلاث فكانت عقيمة ، وقد باءت بالفشل . أما الثانية فكُلِّلت بالفوز (فإن الروس فتحوا سنة ١٨٦٨ سمرقند) . فى حين أن الثالثة كانت تحمل فى طياتها الكوارث والنكبات لا لروسيا وحدها ، بل لأوربا والعالم أجمع .

فإن فكرة جامعة الأمم الصقلبية كانت تكون فكرة حسنة ، لو أن صقالبة

البلقان كانوا أسرة متحدة ، أو لو أن الدول العظمى وافقت على سيطرة القيصر على تركية أوربا . بيد أن واحدة من هاتين الحالتين لم تتحقق . فإنه حينما انهار فى النهاية الطغيان التركى الطويل الأمد فى أقطار البلقان ، بدا واضحاً جلياً أنه ليس ثمت عداوة ومقت فيها ، أشد من العداوة والمقت اللذين كان البلغار والصربيون يضمرونهما بعضهم لبعض .

بلغاريا تعارض السياسة الروسية

ولكن دُهش كل امرئ حينما أحيط علماً بأن الشعب البلغارى الذى اصطفته روسيا لتزعم الشعوب السلافية الخاضعة لتركيا ، والذى أغدقت عليه دعايتها وثقافتها سنين عديدة ، كان فى الواقع ينظر إليه السلافيون فى الجنوب الغربى من بلاد البلقان ، كشعب غريب وعدو بغيض . فبدلا من أن إقامة دولة بلغارية قوية تستند إلى الحراب الروسية ، تشد من أزر حركة الجامعة السلافية ، وتعين على امتداد النفوذ الروسى ، فإن نتيجة إقامة هذه الدولة كانت مناقضة تمام المناقضة لما كان يؤمَّل منها . فإن بلغاريا التى حُرِّرت سنة ١٨٧٨ ، صارت قوة معارضة لنفوذ الروس ، وهيأت للصربيين سبباً للغيرة المرة ، والحنق الشديد .

غير أنه لم تتطرق أدنى ريبة بإمكان حدوث شىء كهذا خلال السنوات الأخيرة من العقد الثامن فى القرن الماضى — وهو العقد الذى حدثت خلاله أزمة سياسية فى الشرق الأدنى جعلت روسيا فى شبه عزلة ، وأضعفت تحالف القياصرة الثلاثة المنيع الذمار ، الذى كان يرتكز عليه سلام أوربا واستقراره حتى ذلك الحين .

٣ — ثورة البلقان عام ١٨٧٥

ففى عام ١٨٧٥ اندلعت ثورة فى البوسنة والهرسك ضد الحكم التركى الفاسد : ثورة أشعلها البؤس والسخط والفاقة التى كانت تضطرم فى قلوب الفلاحين . وامتدت لهب الفتنة إلى بلدان الجبل الأسود والصرب وبلغاريا ، وانتشرت فيها انتشاراً ذريعاً . ولم يشهد التاريخ قط قبلا مظهراً شاملا متسع النطاق للقومية السلافية فى البلقان ، مثل ما شهد فى تلك الثورة التى كانت إعلاناً صارخاً لظلامات أهل البلقان وشكاياتهم .

ولكن الأتراك كانوا وقتئذ جد أقوياء . فعصفت قواتهم بجيش صربيا والجبل الأسود . وكان فى ذبح زهاء ١٢٠٠٠ مسيحى فى بلغاريا بواسطة الجند التركية غير النظامية ، دليل قوى على عودة سلطة تركيا فوق الفلاحين البلغار العصاة .

غير أن روسيا لم تقبل أن تسلم بسحق القضية السلافية فى البلقان . فأشهرت فى إبريل سنة ١٨٧٧ الحرب على تركيا ، وهاجمتها فى آسيا وفى أوربا معاً . وبعد صدمة وقتية لحقت بها أمام قارص وبلفنا اكتسحت جيوشها كل شىء أمامها . فاضطر الترك ، وقد نصب الروس معسكراتهم أمام قصبة بلادهم ، أن يبرموا فى ٣ مارس سنة ١٨٧٨ معاهدة سان ستيفانو San Stefano . وكان أهم أحكامها خلق دولة بلغارية فسيحة الأرجاء تتمتع بالحكم الذاتى ، وتدار شؤونها تحت قوامة روسيا ، وتحتل أرضها الكتائب الروسية مدة عامين .

موقف انجلترا

أما إنجلترا التى ظلت فيها روح حرب القرم القديمة يقظة حية بين رجال حزب المحافظين ، فقد استقبلت الانتصارات الروسية بموجة من الهلع والسخط . ذلك أنه لاح لأهلها أن صيرورة تركيا دولة تابعة لروسيا ، يهدد مركز بريطانيا بأسره فى الشرق . فتحمست الملكة والصحافة ووجوه الدولة وأعيانها للحرب . وذاعت يومئذ أغنية سخيفة ، ملأت قاعات الرقص والمسارح ، مطلعها :

We don't want to fight, but by jingo if we do,
We've got the ships, we've got the men, we've got the money too !

ولم تكن أوربا فى عصر من العصور أدنى من شبوب نار حرب مستطيرة هائلة ، منها فى أوائل ربيع سنة ١٨٧٨ ، حينما تقدمت وزارة اللورد بيكنسفيلد Lord Beaconsfield للبرلمان بطلب اعتماد ستة ملايين من الجنيهات ، وأمرت الأسطول باجتياز الدردنيل ، ودعت القوات الاحتياطية ، وأقصت اللورد دربى واللورد كارنارفون الوزيرين اللذين تمسكا بأهداب السلام . وحتى اللورد سالسبرى وزير الخارجية الذى كان قد أدرك بوضوح قبل ذلك بشهور قلائل أن روسيا —وكانت يومئذ بلا أسطول ، وبلا بحارة ، وتخضع لإدارة حكومية فاسدة — لن تستطيع أن تهدد تهديداً خطيراً مركز بريطانيا

فى البحر الأبيض – حتى هو أبدى موافقته على خوض غمار الحرب ، إن لم يقبل القيصر عرض معاهدة سان ستيفانو بحذافيرها على الدول العظمى ، وتعديل شروطها .

غير أنه من حسن الطالع ، أنقذ سلامَ أوربا وساطةُ بسمارك الطيبة ، ومهارة اللورد سالسبرى الفائقة ، واستعداد النمسا لأن تتبع بريطانيا إلى حيث تقودها .

مؤتمر برلين

وإذ شعرت روسيا بعزلتها ، أمكن إقناعها بعرض المعاهدة على الدول ، وقبول الاقتراحات التى كانت تعتبرها فى غير هذه الأحوال مهينة لكرامتها جارحة لعزتها . وبذلك سُوِّيت فى مؤتمر برلين (الذى عُقد فى يونيو سنة ١٨٧٨) مسألة الشرق الأدنى برمتها ، طبقاً لشروط صانت مصالح بريطانيا ، ومدت نفوذ النمسا ، وصدمت صدمة قاسية مطامح القيصر فى حركة جامعة الأمم السلافية .

فحرِّر أحد عشر مليون مسيحى من نير الترك ، وسُلِّمت البوسنة والهرسك للنمسا لإدارتهما ، أما الدولة البلغارية الممتدة الأطراف ، التى كان خلقُها بمقتضى معاهدة سان ستيفانو أهم ثمار السياسة الروسية ، وأعظم أسباب قلق بريطانيا ، فإنها شُذِّبت إلى مساحة أكثر تناسباً واعتدالا . ولكن عُوِّضت روسيا ، مقابل هذه التنازلات الكبيرة ، بمنحها مقاطعة بسارابيا ، وبالاعتراف بفتوحها الأسيوية التى لم تكن الدول الأوربية الغربية فى موقف يساعدها على أن تقاومها .

شعور الروس بالخذلان

غير أن هذه التعويضات كانت كسباً زهيداً تافه القيمة لروسيا ، إذا قيست بالآمال الواسعة التى كانت تجيش بصدرها . ولما درى الروس بأن إنجلترا منافستهم الكبرى قد ظفرت سراً بجزيرة قبرص من الأتراك ، بحجة أنها تصبح بامتلاكها قاعدة كهذه فى مركز أفضل للدفاع عن أملاك الباب العالى الأسيوية ، بدت الصفقة كلها التى عقدت فى مؤتمر برلين هزيمة سياسية فاصلة لبلادهم . فمهما جهد الإنجليز فى إخفاء الحقيقة ، فقد بان للجميع

انتصار بيكنسفيلد وسالسبرى على غرتشا كوف Gortschakoff رئيس الوزارة الروسية . فقد رسما خريطة لبلدان البلقان طبقاً لمبادئ السياستين الإنجليزية والنمساوية ، لا السياسة الروسية ، ووطدا نفوذ إنجلترا والنمسا على الأتراك ، وظفرا بتأييد ڤينا وبرلين طيلة مداولات المؤتمر .

انفصام عرى تحالف القياصرة الثلاثى

وحينما استقبلت لندن استقبالا حافلا هذين السياسيين البريطانيين الكبيرين اللذين رجعا يحملان إليها « السلام مع الشرف » ، لم يتمالك قيصر روسيا من أن يناجى نفسه فيما كانت تكون نتيجة مؤتمر برلين ، لو أن صديقيه إمبراطورى النمسا وألمانيا قدما له قسطاً وافياً من التأييد الدبلوماسى . فبدأ من تلك اللحظة تحالف القياصرة الثلاثة يترنح ويتصدع ، وبدأت سلسلة من الأحداث كُتِب لها أن تهدم فيما بعد اتحاد الأباطرة ، وتطرح روسيا القيصرية فى أحضان فرنسا الجمهورية . ولقد كانت هذه النتيجة ، من بين جميع نتائج عصيان الشعوب السلافية ضد الحكم التركى ، أخطرها شأناً وأبعدها أثراً .

٤ ـ غلادستون ودزرائيلى

حزب الأحرار الإنجليزى والفظائع البلغارية

غير أن إنجلترا كانت فى الوقت عينه ترتج بنضال داخلى فائق الشدة بالغ العنف . فقد كان من تقاليد حزب الأحرار وموضع زهوه ، أن يناصر قضية العدالة والحرية فى جميع أرجاء العالم . فقد أيد الأحرار الإنجليز إيطاليا ضد النمسا ، والدانمارك ضد ألمانيا ، وفى بدء الحرب الفرنسية البروسية شايعوا المعاهدة الخاصة بالدفاع عن حيدة البلجيك . ولذا لم تبدُ فى عين حزب يتمسك بمثل هذه التقاليد ، حكومة أوربية أبغض أو أكثر جوراً وقسوة من حكومة السلطان ، أو شعوب هُضِمت حقوقها أكثر مما هضمت حقوق رعايا الباب العالى المسيحيين .

غلادستون

ولذا سرعان ما تطايرت أنباء الفظائع البلغارية ، حتى خرج من عزلته أعظم زعيم سياسى للأحرار ، وقاد حركة عنيفة معارضة لسياسة الحكومة الإنجليزية المحافظة القائلة بالإبقاء على تركيا . وكان غلادستون (١٨٠٩ ـ

١٨٩٨) يناهز السبعين من العمر ، حينما تزعم هذه الحملة الشعواء .
وُلد سنة ١٨٠٩ ، ودخل مجلس العموم فى يناير سنة ١٨٣٣ ، فهو يتذكر
كاننج ، وخدم تحت زعامة ولنجتون ، وكان عضواً فى أول برلمان مصلَح ،
وخاض معامع عشرة انتخابات عامة ، وفى الخامسة والأربعين قدم بصفته
وزيراً للمالية ميزانية مشهورة ، وفى التاسعة والخمسين كان على رأس وزارة
قدمت للبلاد خدمات مجيدة (١٨٦٨ — ١٨٧٤) ، فأعطت لإنجلترا
التعليم العام الإجبارى ، ونظام الاقتراع السرى ، وفكت الأصفاد الدينية
عن عنق الجامعات ، وأصلحت الجيش ، ووجهت الضربات الجسورة
الأولى ضد المظالم التى نجمت من سيطرة رجال الدين البروتستانت الإنجليز
فى إرلندا ، وقضت على مساوئها ومثالبها الشاذة .

فمع أن غلادستون كان إنجيلياً قوى الإيمان ، إلا أنه لم يتردد فى إلغاء
سيطرة الكنيسة الإنجيلية على إرلندا ، ومع أنه كان مالكاً كبيراً من ملاك
الأرض ، فإنه سن قانون الأرض الإرلندى الذى كان معارضاً لمصالح طبقته ،
كى يخفف من ضائقة ديمقراطية زراعية معوزة مريرة النفس . وكان قد
اعتزل الحياة العامة بعد نشاط برلمانى طويل الأمد منقطع النظير ، واستقر
فى هاوردن Hawarden الغنية بغاباتها الجميلة الفاتنة ، حيث أخذ يقطع
الأشجار ، ويستعيد قراءة هوميروس ، ويتوسع فى اللاهوتيات — تلك
الدراسات المحببة إلى قلبه . بيد أن صرخات البلغار العالية من الفظائع
المروعة التى ارتكبت ضدهم واستغاثاتهم الباكية ، مزقت قلبه وهصرت
فؤاده ، ودعته فى هزة عنيفة إلى أن يهجر هذه الأعمال السارة الحبيبة إلى نفسه .

حملته الجبارة

والحق أن الحملة التى شنها ذلك الزعيم الجبار ، داخل البرلمان وخارجه ،
لتعد من أبرز الجهود الجثمانية ، وأروع ضروب البلاغة فى التاريخ الإنجليزى .
فإن البلاط ، والأرستقراطية ، والشطر الأكبر من الصحافة ، والأغلبية
الساحقة فى كل من مجلسى العموم والأعيان ، والجماهير الضحلة التفكير
القليلة الإدراك التى تتلهف على الأشياء المثيرة ، كانت كلها تعارض

سياسته أشد معارضة . فإن حقداً دفيناً وبغضاً مكيناً لروسيا وعاطفة من الصداقة التقليدية نحو الترك ، وحماساً للحركات المثيرة والحربية : كإرسال الجنود الهنود إلى مالطة ، وإنفاذ الأسطول إلى الدردنيل ، حينما هددت روسيا القسطنطينية بالاحتلال ، كانت كلها تحول دون إقبال الأمة الإنجليزية على الإصغاء إليه .

ومع ذلك فلقد بلغ من قوة بيان غلادستون ، وذرابة لسانه ، وسحر نداءاته لمشاعر مواطنيه الخلقية ، أنه قبل أن تنقضى أعوام ثلاثة على حملته ، كان قد قضى على ما كسبه بيكنسفيلد وسالسبرى من شهرة ، وأبعد حزب المحافظين من دست الحكم ، ورجع لقيادة حزبه ، ولاحتلال المكان الأول فى مجالس الدولة وهيئاتها .

وكانت أعظم حججه وزناً وأنفذها أثراً ، أنه ليس فى وسع الناخبين الإنجليز ألا يحفلوا برخاء الجنس البشرى ورفاهيته العامة . فخاطب ناخبى مدلثيون فى خطبة رائعة الجلال ، قائلا : « تذكروا أن قدسية الحياة فى قرى أفغانستان الجبلية القابعة بين ثلوج الشتاء ، مصونة فى عين الله القدير ، كقدسية حياتكم أنفسكم »

ولم يخشَ اتساع رقعة بلغاريا . بل إنه بغريزة صائبة ، أعلن أنه ليس ثم حائل يمكن أن يعوق زحف النفوذ الروسى فى البلقان ، أعظم من وجود أمة تتألف من رجال أحرار . وقد أثبتت الحوادث بعد سنين قلائل سلامة نظرته ، وصواب تقديره للموقف . فإن نصفى بلغاريا اللذين كان فصلُهما أكبر أهداف الدبلوماسية البريطانية سنة ١٨٧٨ ، تآصرا واتحدا سنة ١٨٨٥ ، تحت ضغط العاطفة القومية ، يحبوهما ود بريطانيا الشامل ، ويكلأهما حسن تمنياتها ، على حين بلغ حنق الحكومة الروسية الذروة لهذا الأمر .

النضال الحزبى بين غلادستون ودزرائيلى

وكانت المبارزة التى دامت ردحاً طويلا من الزمن (١٨٥٢ – ١٨٨٠) بين دزرائيلى وغلادستون ، محور الحياة البرلمانية فى منتصف العصر الفكتورى . ولقد كان من مميزات انجلترا أن يقبل حزب المحافظين فيها أن يتزعمه

يهودى عبقرى ، اختار تأليف الروايات وسيلته الكبرى لنشر أفكاره السياسية . على حين كان زعيم الأحرار عيناً من أعيان الإنجليز ، ينتمى إلى مذهب « الكنيسة العليا » الإنجيلية ، وكان ذلك الزعيم الحر خير زهرة أنجبتها كلية إيتن وجامعة أكسفورد . وبدأ حياته السياسية عضواً من أعضاء البرلمان وحزب المحافظين ، وصار الأمل المرجو لهؤلاء الرجال الأشداء المراس ، الصلبى الآراء .

ولم يكن ثمت أحد فى ذلك العصر أبعد إلى فلسفة المبادئ الحرة الراديكالية من غلادستون بالذات . ولم يكن أيضاً ثمت أحد أعظم استجابة لتغيرات المحيط والبيئة من دزرائيلى . ومع ذلك فإن الحركة العلمية العظمى التى برزت فى العصر الڤكتورى لم تمسس مثقال ذرة عقل غلادستون الحر ، أو تقلل من إيمانه الدينى المكين . ومع أنه قاد حزب التقدم بجسارة فائقة ، وفطنة برلمانية نادرة المثال ، فإن ذهنه لم يكن بالذهن الذى يخترق حجب المستقبل ، ويستشف أسراره . فإنك لتجد إدراكاً حقيقياً وفهماً صحيحاً لضرورات العصر فى كتاب جون ستيوارت مِلْ "Political Economy" ، وفى رواية دزرائيلى "Cybil" ، أكثر مما تلقاه فى خطب غلادستون السياسية جمعاء . أما الذى أعطى غلادستون سلطانه الخاص ونفوذه الكبير ، فهو هيمنته التى لا مثيل لها على الأداة البرلمانية . فلم يظهر قط برلمانى يضارعه فى إعداد العدة لكل طارئ ، وفى سرعة استقراء عواطف سامعيه المتبدلة وأحاسيسهم المتغيرة ، والتغلب على معارضتهم بإجاباته النافذة وضرباته القوية . فقد كان ينهض المرة بعد المرة ، من صف مقاعد الوزراء فى مجلس العموم ، وعيناه السوداوان تلمعان وتتقدان ، وصوته العجيب يرتفع وينخفض تبعاً لانفعالاته ، وبنيته الرياضية تزخر بحماس النقاش وحمية الجدل ، مسفهاً آراء خصومه ، ناشراً الارتباك والبلبلة فى صفوفهم ، معيداً لواء النصر إلى حزبه . وحتى حينما بلغ من العمر عتياً ، وصار يواجه نخبة ممتازة من الجبابرة البرلمانيين المحافظين ، كان يملأ المجلس ببلاغته الساحرة وفصاحته الرائعة ،

فينهض الأعضاء الإرلنديون على أقدامهم ، وقد بلغ بهم التحمس والتأثر أيما مبلغ ، يلوحون بأوراقهم ، ويهتفون كمن بهم مس ، حتى يهتز المكان ، وترتج المقاعد والمناضد .

مبادىء دزرائيلي السياسية

وعلى حين أضحى حزب الهويج القديم تحت تأثير غلادستون حزب الأحرار ، فقد كانت خدمة دزرائيلي الجليلة للسياسة الإنجليزية هى تطعيمه لحزب المحافظين — البطىء الحركة الذى كان قد صاغه پيل الرصين فى قالبه الراهن — هى تطعيمه لهذا الحزب بومضة من روحه اللامعة النزاعة إلى الديمقراطية الاستعمارية الرومانطيقية . وقد بسط دزرائيلي لفائدة « إنجلترا الفتاة » مبادئ الديمقراطية المحافظة فى روايته Coningsby

ولم يكن هذا الزعيم المحافظ يخاف أن يمنح الشعب ثقته . فلم يخش وهو يقود حزب المحافظين ، ابتعاد كثير من أتباعه عنه حينما أعطى سنة ١٨٦٧ حق الانتخاب للعمال الماهرين ذوى الأجور الحسنة . فقد كان أحكم وأذكى من أغلبية الأعيان الإنجليز من ملاك الأرض وكبار رجال الأعمال . فإنه فطن إلى أن فى أكثرية العمال الإنجليز نبعاً لا يغيض من الولاء والإخلاص للعرش ولنظم البلاد ، وأنه يمكن الاعتماد على استجابة شعب إنجلترا فى حمية وقوة لكل نداء متزن سليم المبادئ . وكان يؤمن أيضاً إيماناً قوياً — وقد أثبتت الحوادث صواب إيمانه — بأن صاحب التاج ما زال أمامه دور عظيم ليقوم به فى حضارة إنجلترا ونظمها الديمقراطية . فقد أبصر العرش كينبوع للتأثير والقوة ، وكآصرة لاتحاد الإمبراطورية .

أثر الهند

أما من ناحية الإمبراطورية ، فقد كانت تبدو فى عينيه شديدة السحر عظيمة الفتنة ، ذلك أن أثمن لؤلؤة من لآلئها كانت ترسل بريقها من الشرق . فقد ملأت الهند جنبات عقله ، وأوحت إليه بسياساته . وإذ كانت ماثلة على الدوام فى ذهنه ، فقد أبصر فى روسيا العدو الأزلى لإنجلترا ، وفى تركيا الصديق الوفى المعين . وكنتيجة لتفكيره الدائم فى الهند ، ظفر لبلاده سنة

١٨٧٥ بنصيب مسيطر من أسهم قناة السويس . وأضاف فى مظاهر خلابة وأبهة رائعة ، إلى ألقاب الملكة ڤكتوريا الملكية لقب « إمبراطورة الهند » .

وعلى حين كان غلادستون على الدوام مبشراً دينياً ، كان دزرائيلى بالفطرة مغامراً خيالياً . فإنه إذ حزر قلب الملكة ڤكتوريا العطوف ، كان يهزج إليها أهازيج الحب ، كالعاشق المفتون . وكان خلال أشد أعوام حياته البرلمانية إضناء ونصباً ، يجد عزاء وراحة فى كتابة خطابات تفيض عاطفة وخيالا — أحياناً مرتين وأحياناً ثلاث مرات فى اليوم الواحد — إلى ليدى برادفورد Lady Bradford وأختها ، ولم ينقطع عن ذلك ، إلا حينما ألفى فى روايته الأخيرة Endymion ميداناً أوسع ، ونطاقاً أرحب ، لقلمه المحب الخيالى .

سياسته الخارجية

ومع أن سياسته الخارجية لقيت ترحيباً وتأييداً عظيمين فى زمانها ، ومع أن سياسته الاستعمارية القوية النشطة جذبت إليها على الدوام قلوب هذا الشطر من الأمة الإنجليزية الذى يطرب للمغامرات وركوب الأخطار ، إلا أنها كانت تنطوى على عناصر فاسدة فساداً كبيراً . فقد أخطأ فهم المسألة البلقانية ، وأوشك أن يجر إنجلترا إلى الحرب ، لكى يُبقى شعباً مسيحياً تحت ربقة الأتراك . وكان خصومه الأحرار مصيبين فى خشيتهم من أن كلفه بالأبهة وافتتانه بالعظمة قد يقودان البلاد إلى المعاثر والأخطار .

غير أن الاستعمار الإنجليزى الذى أثر تأثيراً واسع المدى فى الأفكار والأعمال السياسية الإنجليزية خلال النصف الثانى من القرن الماضى ، يدين لهذا الألمعى اليهودى بمبادئه الملهِمة الأولى . فحيثما قاد دزرائيلى ، تبعه فيما بعد كبلنج وروزبرى ، وتشمبرلين ، وملنر ، وبلفور ، وكرزن . صحيح أن ثورة المستعمرات الأمريكية أجهزت على الإمبراطورية الإنجليزية الأولى عبر البحار : هذه الإمبراطورية التى كانت قد شيدت على مبادئ السيطرة البريطانية فى معناها القديم . ولكن حل محلها فى عهد ذلك الاستعمارى إيمان مضطرم وخيال ملتهب فى فوائد الحكم البريطانى فى الهند ، وفى المنافع التى

تنجم من إيجاد علاقات وثيقة بين المملكة الأم وممتلكاتها ومستعمراتها وراء البحار . وسرى هذا الإيمان وذلك الخيال ، بخطب دزرائيلي ، إلى المبادئ التي صار يعتنقها من يومئذ حزب المحافظين ، فزادت دعوة ذلك الحزب قوة ، وأنمت نداءاته غنى وجاذبية .

رسالة غلادستون

ولكن رسالة غلادستون وإيحاءاته في أخريات أيامه العجيبة الزاخرة بالفتوة والهمة كانت أجل وأروع من كل هذا . فلم تكن كلمات : الإمبراطورية والمجد ، والمركز ، والحرب ، والسيطرة ، لتثير صدى في نفس هذا الزعيم المتدين لحزب الأحرار . فبدلا من الرغبة في مد رقعة الإمبراطورية البريطانية ، كان على النقيض من ذلك ، شديد الرغبة في تحديد مسئوليات بلاده أينما وجد إلى ذلك سبيلا . فإن إرضاء الأماني القومية في البلقان ، وفي جنوب إفريقية ، وفي إرلندا ، كانت أهدافاً بدت للكثيرين خداعة براقة . ومع ذلك كان غلادستون مستعداً كل الاستعداد لأن يقامر بمركزه ومركز حزبه في سبيل تحقيقها . فحينما كان شاباً غض الإهاب أشار بإرجاع جزر الأيونيان إلى بلاد اليونان ، وحينما غدا عجوزاً يوشك عمره أن ينصرم ، أعرب عن رأيه بأن من العدل إرجاع الترنسفال إلى البوير .

وزارته الثانية

ولكن وزارته الثانية (١٨٨٠ — ١٨٨٦) مع تميزها بإقرار قانون الأرض الإرلندي (سنة ١٨٨١) ، الذي حدد للفلاحين الإرلنديين إيجارات عادلة معتدلة ، ونص على ثبات مدة الإيجار ، ومع منحها الفلاحين العمال البريطانيين حق الانتخاب (سنة ١٨٨٤) ، فإن مقتل غوردون بالسودان لبّد سماءها بغيوم الفشل والخيبة .

الخلاف بشأن منح إرلندا الحكم الذاتي

كما أن التوفيق لم يكن نصيب غلادستون في آخر مغامراته ، وأشدها كفاحاً ، وأدعاها إلى القنوط . فقد اقترح « الشيخ العجوز العظيم » سنة ١٨٨٦ منح إرلندا الحكم الذاتي Home Rule دون أن يهاب مقاومة المصالح البروتستانتية القوية فيها ، أو عواطف الطبقات المالكة في بريطانيا . فأبى أقوى أعوانه : تشمبرلين ، وهارتنجتون Hartington وغوشن Goschen

أن يسيروا وراءه . بيد أن انفصال هؤلاء الرجال الأقوياء عنه ، ومعرفته بأنه حطم بهذا الاقتراح الأداة الحزبية البديعة التى أحرزت له انتصاراته المجيدة الأولى ، لم يضعفا من عزمه ، أو يوهنا من تصميمه . فقدم قانون الحكم الذاتى لإرلندا إلى مجلس العموم فى مايو سنة ١٨٨٦ ؛ وبعد مناقشته، رفضه المجلس فى ٨ يونيو . فأشار على الملكة بحله . إلا أنه هُزم فى الانتخابات العامة التى أجريت فى أول يوليو ، فاضطر إلى تقديم استقالته .

غير أن هذا الشيخ الجليل الذى لا تُقهر له إرادة ، عاد إلى رئاسة الوزارة سنة ١٨٩٢ ، بعد ستة أعوام قضاها فى الكفاح والمناضلة . وتمكن بمجهود فائق من القوة الجثمانية والذهنية ، أن يجيز قانون الحكم الذاتى الإرلندى فى مجلس العموم (سنة ١٨٩٣) . غير أن مجلس الأعيان رفض إقراره . فخاب أمل الحزب البرلمانى الإرلندى مرة ثانية .

ولكن وزارة سالسبرى (١٨٦٦ — ١٨٩٢) جابهت المشكلة الإرلندية من ناحية جديدة . فإن مشروعاً جريئاً مبتكراً من الاشتراكية الحكومية ، ابتدعه چوزف تشمبرلين ، ونفذه فى إقدام وذكاء المستر بلفور وزير إرلندا (من سنة ١٨٨٧ إلى سنة ١٨٩١) — أغدق هذا المشروع نعما مادية وارفة على أهل تلك الجزيرة . إلا أن أمة الحالمين أبت أن تتنازل عن أحلامها . فلم يكن يكفى الإرلنديون الكاثوليك أن يُحكموا حكماً صالحاً ، بل كانوا يبتغون — كما حزر غلادستون — أن يحكموا أنفسهم

وبمر الأيام ازدادت مطالبهم قوة ، وحركتهم صلابة . فأكرِهت الحكومة البريطانية فى سنة ١٩٢١ على أن تمنح لحزب من ذوى العنف ، قسطاً من الاستقلال يفوق كثيراً فى وجوه عديدة تلك القوانين التى قدمها غلادستون فى سنى الثمانين والتسعين من القرن الماضى ، والتى رجّت وقتئذ السياسة والمجتمع فى إنجلترا رجاً عنيفاً

الجمعيات الإرلندية

ولا يمكننا نحن أن ندرك الأحقاد المريرة ، والأهواء العاصفة ، التى بثها فى ذلك الحين النضال بشأن الحكم الذاتى لإرلندا فى السياسة الإنجليزية ،

إلا إذا تذكرنا الأسلوب العنيف الذى نهجته الحملة الإرلندية لتحقيق مراميها ، والنتائج المقلقة التى كان يُظن أنها ستنجم عنها . فإن « عصبة الحكم الذاتى الإرلندية » The Irish Home Rule League التى أسسها سنة ١٨٧٠ اسحق بَطْ Isaac Butt الزعيم الوطنى الإرلندى ، بغية الحصول بالضغط البرلمانى المشروع على منحة الحكم الذاتى لإرلندا ، كانت جزءاً لا غير من حركة واسعة . فقد أسِّست قبلها بأربعة عشر عاماً ، جمعية سرية اسمها « الأخوّة الجمهورية الإرلندية » Irish Republican Brotherhood بقصد قطع كل آصرة تربط إرلندا ببريطانيا قطعاً لارجعة فيه ، بقوة السلاح .

واقترنت حركة الإرلنديين الدستورية فى داخل البرلمان ، بحركات ثورية أخرى فى خارجه ، كحركة « الأخوّة الجمهورية الإرلندية » السالفة الذكر ، التى كانت تعمل فى أوربا ، « وجماعة ناجايل » Clan na Gael فى أمريكا — وهى اتحادات متآخية سرية كانت ترى أن الطريق السوى للاقناع هو استخدام الديناميت ، لا الكلام .

جهاد الإرلنديين

وقد نجم عن هذا الجانب الحالك من الحركة الإرلندية الذى كان يتمثل فى أعمال الإرهاب التى ارتكبها أعضاء تلك الجمعيات ، أن كثيراً من الإنجليز الذين كانوا ينتصرون لقضية إنشاء برلمان فى دبلن ، لو أن الإرلنديين استخدموا أساليب ألطف ، ازورّوا عن منح إرلندا أية امتيازات . أضف إلى ذلك أن الزعماء السياسيين الإرلنديين وضعوا تحت رعايتهم حملة عنيفة لإثارة هياج بين الزراع فى إرلندا ، غمر البلاد بلون وضيع من الإجرام .

ولم يُجدِ الحكومة فتيلا محاولتها فى أكتوبر سنة ١٨٨١ قمع « عصبة الأرض » The Land League التى أسسها سنة ١٨٧٩ ميخائيل داڤِت Michael Davitt المهيج الإرلندى . فإنه ما أن قمعت تلك الجمعية ، حتى واصلت « عصبة الأرض النسائية » Ladies Land League عملها مكانها .

ووقف النواب الإرلنديون صفاً مرصوصاً يجاهدون فى سبيل نيل الحكم الذاتى ، ما عدا حفنة من الأعضاء الإرلنديين البروتستانت ، وتضافروا فى عزم فى

تنفيذ سياسة ٍ قوامها وضع العراقيل لتعطيل أعمال البرلمان حتى يجاب مطلبهم . ولكن تحت ضغط الكلل والإضناء والحنق بسبب إطالة جلسات البرلمان إلى أواخر الليل ، وقذف أعضاء مجلس العموم الإنجليز بالإهانات والزرايات ، وازدياد سخط هؤلاء الأعضاء على جرائم الفنيين الإرلنديين ، واشتداد فزعهم من شبح الدعاية لإنشاء نظام جمهورى فى إرلندا ، وحيرتهم فى أن نياتهم الطيبة نحو إرلندا لم تلق رداً إلا ازدياد عداء الإرلنديين لإنجلترا وعدم ثقتهم بها — تحت ضغط جميع هذه العوامل أبدى أغلبية الأعضاء الإنجليز فى البرلمان مقاومة فعالة نشطة لمشروع الحكم الذاتى .

المحافظون وحركة الحكم الذاتى

ولهذا كان غلادستون سنة ١٨٨٦ مغالياً ، حسب ما يبدو ، فى أمله بأن حزب المحافظين لن يقف حجر عثرة فى سبيل بغية الإرلنديين ، حينما يدرك هذا الحزب أن هناك كتلة مرصوصة مؤلفة من ستة وثمانين عضواً إرلندياً[١] فى البرلمان الإنجليزى ينشدون جميعاً الحكم الذاتى .

وفى الحق أنه جال برهة ما ، فى أذهان المحافظين انتهاج هذه السياسة . فقد حدثت مفاوضة غير رسمية بين الإرل كارنارڤون حاكم إرلندا المحافظ المبدأ (١٨٨٥ — ١٨٨٦) ، وپارنل Parnell الزعيم الوطنى الإرلندى الذائع الصيت . ولكن هذه المفاوضة لم تأتِ بنتيجة . ولذلك تُركت هذه المشكلة ، التى كان يجب أن تعالجها حكومة مؤتلفة — تُركت ليرعاها ويناصرها قسم منشق متناقص العدد من حزب الأحرار ، ويسعى إلى حلها .

پارنل

ومع ذلك فإن أخلاق الزعيم تشارلس ستيوارت پارنل لم تجعل عمل ذلك الفريق المنشق من الأحرار سهلا ميسوراً ؛ فقد تجسمت فى شخصيته جميع التقاليد الإرلندية القديمة الخاصة بالعصيان والمقاومة . فكان على اتصال بجمعيات إرلندا وإنجلترا وأمريكا السرية ، ورئيساً «لعصبة الأرض» ، وزعيما للحزب الإرلندى فى مجلس العموم ، وملكاً غير متوج للأمة الإرلندية ،

---

(١) كان ذلك نتيجة لصدور قانون فى سنة ١٨٨٤ أعاد توزيع الدوائر الانتخابية فى المملكة المتحدة .

واعترفت جميع العناصر والهيئات المعادية لإنجلترا بزعامة هذا الرجل العجيب الغامض ، الذى جمع بين البرودة والصرامة الجافية ، والنار المتأججة اللافحة . فكان مجلس العموم يرمق بعين الرهبة والخشية هذا السيد الإرلندى الصلف الجميل الطلعة ذا اللحية الضاربة إلى الاسوداد ، والعينين القاتمتين اللامعتين ، وهو جالس فى سكينة وعبوس وسط أتباعه المطيعين .

وهو رغم انحداره من أسرة ريفية عريقة إرلندية — إنجليزية ، عُرِف بأنه خصم عنيد لبريطانيا . فاتهمه الإنجليز بأنه متحجر القلب ، قليل الاكتراث بالمبادئ والفضائل . فإن غلادستون نفسه أكرِه فى أكتوبر سنة ١٨٨١ — وذلك قبل أن يشرع فى الدعوة لمشروع قانونه الأول للحكم الذاتى — على أن يقدمه للقضاء ، ويلقيه فى السجن .

فقد كان هذا الإرلندى المارد تخرج من فيه ، بين الفينة والفينة ، عبارات تزعج المؤيدين له من الأحرار الإنجليز . فقد صرح مرة بأنه « ليس فى مقدور بشر أن يضعوا حدوداً لتقدم أمة » . وقال مرة أخرى مخاطباً اجتماعاً أمريكياً : « لن يهدأ لأحد منا بال ، سواء كنا فى أمريكا أو فى إرلندا أو فى أى صقع آخر ، حتى نقطع آخر آصرة تُبقِى إرلندا مشدودة إلى إنجلترا » . ولذا لم يكن فى وسع الأحرار الإنجليز أزاء هذه التصريحات سوى أن يرجوا بأن مصالحة الأمة الإرلندية ستؤدى إلى القضاء على المؤامرات فيها ، وأن الإصلاح سيجنبها ركوب الثورة ، وأن سموم العنف ستُلفَظ من النظام الإرلندى عند إنشاء برلمان خاص يتمتع باستقلال ذاتى بتلك الجزيرة .

سقوطه

ومع هذا فإن پارنل لم تعصف به نتائج خطبه المتطرفة ، أو تصرعه هجمات جريدة التيمس الهائلة التى قرنت اسمه بارتكاب الجرائم ، ولكنه حُطم تحطيماً سنة ١٨٨٩ ، باتهامه بالزنا مع امرأة متزوجة . فآذى بارتكابه تلك الجريرة وجدان أتباع غلادستون الشديدى التدين . وبذلك قضى حب امرأة القضاء المبرم على أعظم زعيم أنجبته إرلندا .

ولكن مع أن تمزق الحزب الإرلندى فى السنين الأخيرة المفجعة من حياة

ذلك الزعيم أخـَّر تأخيراً مؤقتاً تقدم القومية الإرلندية ، إلا أنه لم يُحدث أى أثر فى النتيجة النهائية للحركة . فإن رغبة إرلندا الكاثوليكية فى أن تعطَى حق إدارة شؤونها بنفسها ، وفى أن تختار لحياتها السبيل الذى يحلو لها ، كانت من التغلغل والعمق ، بحيث لم تكن لتمحـَق بفضيحة زعيم كبير وموته ، أو بانشقاقات حزبية ، أو بتقلبات المجادلات البرلمانية .

كتب يمكن استشارتها

Fyffe : History of Modern Europe. 1924.
Wickham Steed : The Hapsburg Monarchy. 1919.
C.G. Macartney : Hungary. (Nations of the Modern World Series). 1934.
Seignobos : History of Contemporary Europe. 1909.
A. Rambaud : History of Russia. 1900.
Isenmann : Le Compromis Austro-Hongrois of 1867. 1904.
R.W. Seton Watson : Disraeli, Gladstone, and the Eastern Question. 1935.
John Morley : Life of Gladstone. 1908.
Monypenny, and G.E. Buckle : Life of Disraeli. 1929.
E. Denis : La Bohème depuis la montagne blanche. 1930
St. John Irvine : Parnell. 1927.

الفصل الخامس والعشرون

بسمارك والريخ الألمانى

بسمارك بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٧٩ . تطور ألمانيا الاقتصادى . اقتباس بسمارك مبدأ حماية التجارة . قوانين التأمين الألمانية . سياسة القمع . الانقلاب الدبلوماسى . التحالف الثنائى سنة ١٨٧٩ . الأزمة البلقانية سنة ١٨٨٥ . علاقات بسمارك بانجلترا . مخاوف بسمارك . الأعمال الجليلة التى قام بها الشعب الألمانى بعد الحرب البروسية .

١ – بسمارك بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٧٩

سياسة بسمارك

استمر بسمارك يقبض على خيزرانة الحكم ، ويوجه دفة شؤون بلاده ، ويؤثر فى مصائر العالم ، مدة تسعة عشر عاماً بعد تأسيس الإمبراطورية الألمانية . وطابت نفسه بعد الأعمال الجليلة التى أنجزها إلى حصر جهوده فى وقاية ألمانيا من التقلبات الداخلية والحروب الخارجية .

فلم يكن له مطمع فى تأسيس إمبراطورية استعمارية ، أو التوسع فى الشرق . وكان من بين القواعد الأساسية لسياسته ، ألا يعرِّض صداقة إنجلترا لبلاده للخطر ، بتحدى سيطرتها على البحار . فقد كان مرهف الإدراك بالمعاثر والأخطار التى يطويها الموقف السياسى فى القارة الأوربية بين دفتيه ، فلم يَرُمْ أن يخاطر بمغامرات جديدة . فقد أبصر أن فرنسا لا تنزع إلى المصالحة ، وروسيا لا يمكن الركون إلى صداقتها ، والنمسا ما زالت تحس بسخط على برلين . فاضطر إلى أن يركز مواهبه الدبلوماسية كلها إلى هاتين المعضلتين ، وهما : كيف يكون على ود وصداقة مع روسيا من غير إغضاب إنجلترا ،

ومع النمسا من غير ابتعاد روسيا عنه ؟

وكان عزل فرنسا ، والسيطرة على أوربا بواسطة جيش ألمانى قوى ، والمحافظة على نظام حكمه الأوتقراطى ، المبادئ الهادية لسياسته . وقد ساعدته على النجاح عدة صدف عجيبة من طول العمر وقصره ، فإن الإمبراطور ولیم الأول الذى مات سنة ١٨٨٨ ، كان عمره قد طال إلى زهاء التسعين عاماً . وحينما اعتلى ابنه فردرك العرش ، كان السرطان يهصر حياته . فشُلَّت يداه خلال حكمه الذى دام تسعين يوماً فقط ، عن أن يؤثر فى مجرى الأمور . وبموت هذا العاهل الحر النزعة هذه الميتة المفجعة ، أزيحت أعظم عقبة فى سبيل بسمارك لتنفيذ سياسته .

التغيرات الاقتصادية

وفى هذه الأثناء ، أخذ يطلّ على ألمانيا تغير فى حياتها الاقتصادية شبيه — ما عدا فى شدة سرعته — بذلك التغير الذى خبرته إنجلترا فى ثورتها الصناعية . فقد امتازت عقود السنين التى قفت الحرب البروسية الفرنسية بتقدم عجيب فى الصناعة والتجارة الألمانيتين ، واغتنت فجأة تلك البلاد بعد فاقة . وهرع الأهلون الذين كانت كثرتهم الكبرى تقطن الريف — هرعوا إلى المدن فى أعداد متزايدة ، حيث توالدوا وتكاثروا ، حتى صارت كفة الألمان الحضريين ترجح رجحاناً ظاهراً كفة الألمان الريفيين .

وأتت لألمانيا الزعامة فى أهم فرعين من فروع الصناعة الجديدة ، وهما : الصناعات الكيماوية ، والصناعات الكهربية ، كثمرتين طبيعيتين لتفوق الشعب الألمانى فى شؤون التعليم ، فزادت الكميات المستخرجة من الفحم الحجرى أضعافاً مضاعفة ، إذ ارتفعت من ثلاثين مليون طن فى سنة ١٨٧١ ، إلى مائة وتسعين مليون طن فى سنة ١٩١٣ . ومكنت عملية اخترعت فى إنجلترا ، ونُسبت إلى توماس Thomas ، وجلكرايست Gilchrist العالمِين الإنجليزيين — مكنت عمليتهما الألمان من الانتفاع اقتصادياً بالحديد الخام المستخرج من مناجم لكسمبرج ، واللورين . وقاد هذا الاختراع إلى تطورات اقتصادية واسعة النطاق ، فتحولت منطقة الفحم فى وستفاليا

إلى إقليم يضارع فى نشاطه وتركيز الصناعة فيه أغنى مقاطعات إنجلترا الصناعية . ففى عقد واحد (وهو العقد التاسع من القرن الماضى) ضاعفت الإمبراطورية الألمانية نتاجها من الصلب ، وضاعفت تقريباً ما تخرجه من الحديد .

نمو البحرية الألمانية

وبينما كانت الصناعة تتقدم على هذا المنوال ، وتبدل من أخلاق الأمة الألمانية ، وأنواع حرف أبنائها ، وُجِّهت عناية كبيرة لتنمية البحرية الألمانية . فشرعت المراكب الألمانية ، فى أعداد سريعة الزيادة ، تشق عباب المحيط الأطلنطى ، وترسو فى فرض القارة الإفريقية ، وتتاجر مع الليڤانت والشرق الأوسط ، واستيقظت الروح الهنسية[١] القديمة من رقادها . ففى العشرين سنة التى تخللت سنتى ١٨٧٠ و ١٨٩٠ ، تضاعفت حمولة سفن الإمبراطورية الألمانية سبعة أمثال ، ورُفع الصوت عالياً مطالباً بمستعمرات ، وبوضع حماية ضد القمح الأمريكى والمصنوعات الإنجليزية ، وبنهج سياسة نشطة فى كل صقع من أصقاع العالم .

مبدأ حماية التجارة

وبلغ ضغط الرأى العام فى هذه النواحى من الشدة ، بحيث لم يكن فى مقدور أى سياسى ، مهما علا مقامه فى أعين مواطنيه ، أن يصمد أمامه طويلا . فأكرِه بسمارك على التسليم بمطالبه ، فأقر سنة ١٨٧٩ مبدأ حماية الصناعة الألمانية كأساس لسياسته الجمركية ، ثم أسرع بعد ثلاث سنين يوجه ألمانيا فى طريق الاستعمار ، محتجاً بأن للضرورة أحكاماً .

ومن الصدف الطريفة التى لاحظها البعض أن تكوين الشعبة الاستعمارية فى مجلس الريشستاغ حدث فى نفس العام (١٨٨٣) الذى شاهد تأسيس « شركة الكهرباء الألمانية » التى يرمز لها بالحروف A.E.G.[٢] ، وهى

---

(١) نسبة إلى العصبة الهنسية Hanseatic League ، وهى اتحاد تألف فى القرن الثالث عشر من المدن الألمانية الشمالية ، لتبادل حماية التجارة وترقية شؤونها . وكانت العصبة تضم نحواً من تسعين مدينة ، أهمها : ليبك وهمبرج وبريمن . وقد أثرت العصبة تأثيراً عظيماً فى شؤون أوربا مدى قرنين من الزمان .

(٢) Allgemeine Elektrizitats Gesellschaft

الاتحاد الكهربائى الضخم الذى أقام على أساس وطيد أعظم صناعة من الصناعات العلمية الألمانية .

قوانين التأمين

وواجهت ألمانيا بالاشتراك مع كل مملكة أوربية أخرى خبرت نتائج انتشار الصناعة الحديثة فى بلادها – واجهت ألمانيا فى سنى السبعين والثمانين من القرن الماضى ألواناً قاتمة من الفاقة غير العادلة ؛ وشعرت بتخوف من مشهد طبقاتها العمالية القلقة البائسة المسخرة . فإنه فى الحين الذى كان ڤاجنر Wagner يشنف آذان محبى الموسيقى فى أوربا بعزف الأوبرات الموسيقية ، خلال احتفالات بيرويت Bayreuth الموسيقية ، كان عمال المناجم والمصانع الألمانية يتعرضون لمصاعب ، ويتوجسون من مخاوف ، تماثل تلك التى عاناها عمال المصانع الإنجليزية قبل سن قوانين المصانع .

ولكن بسمارك كان سياسياً أعظم من أن تعمى عيناه عن رؤية أهمية المسائل الاجتماعية . فرأى بنافذ بصيرته ، أنه إذا كان يروم بقاء بنيان نظمه ومؤسساته سليما ، فعليه أن يرضى العمال . إذ لم يثق بأن ترك المنافسة الطليقة للأهواء الشخصية غير المكبوحة « سينتج أعظم قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد » . ولهذا ظفرت النظم القائمة على رعاية الدولة للضعفاء من أبنائها – هذه النظم التى لم تكن بالبدعة المستحدثة فى التقاليد البروسية القديمة – ظفرت هذه النظم بمبرِّر جديد . وأخذت تطالب بتطبيقها فى دائرة واسعة ، تبعاً للظروف المتغيرة الناجمة عن الثورة الصناعية . فطالبت بأن يُحمى الشيوخ من العوز ، ويؤمن العمال ضد أخطار المرض والحوادث

ومع أن بسمارك لم يكن محسناً كريماً كاللورد شافتسبرى ، ومع أنه لم يضع قوانين تضارع القوانين الإنجليزية الخاصة بالمصانع ، إلا أنه كان فى مشروعاته العظيمة للتأمين الإجبارى ضد المرض سنة ١٨٨٣ ، وضد الحوادث سنة ١٨٨٤ ، وضد الشيخوخة سنة ١٨٨٩ – كان رائداً مبتدعاً . فسبق ، فيما خلا عدم إعداده تأميناً ضد البطالة – سبق تلك المشروعات والقوانين التى نفذت فيما بعد فى إنجلترا على يدى المستر لويد جورج سنة ١٩١١ ،

عند ما كان وزيراً للمالية فى وزارة أسكويث Asquith

وتعد قوانين التأمين الألمانية ركناً من أركان التقدم الاجتماعى . فإن من جميع المستنبطات السياسية التى ابتكرت إبان القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك ما هو أثمن وأبقى على نظم المجتمع ، من كشف نظام للتأمين يقوم على إعانات مالية تعطَى من خزينة الدولة ، ومن جيبى صاحب العمل والعامل ، وبذلك تُحمى الطبقة العاملة من شرور المصادفات السيئة فى الحياة الصناعية . والحق أن تجنب إشعال الثورة ردحاً طويلا من الدهر فى ألمانيا ، ليعود إلى درجة ما ، إلى هذه المشروعات النفيسة التى حرم بسمارك بواسطتها الحزب الديمقراطى الاجتماعى الألمانى — الذى نما نمواً مطرداً رغم وسائل الاضطهاد والقمع التى تعرض لها — حرمه بسمارك من دافع قوى ، ودعاية لا تُرد لإثارة خواطر الفقراء ، وإذكاء سخط المحرومين .

سياسة القمع

ولكن بتقدم المستشار الحديدى فى السن ، غدا أقل تحملا للمعارضة . فانتهز فرصة محاولتين مختلفتين لاغتيال الإمبراطور ، ووضع قانوناً — جُدِّد ثلاث مرات متتالية — ضد الاشتراكيين . وبلغ من صرامة ذلك القانون أنه وضع الحريات الفردية تحت رحمة البوليس . ولم تكن مملكة لتقبل الخضوع صاغرة مستسلمة لأعمال القمع والطغيان ، إلا بلاداً أطار الهلع والخوف لبها ، أو فقد أبناؤها فقداناً تاماً فضيلة الشجاعة السياسية . ولهذا فإن حزب الأحرار الوطنى — الذى كان دعامة الإمبراطورية الألمانية فى أيامها الأولى ، والمؤيد للحكومة فى كفاحها ضد رجال الدين — إن هذا الحزب بموافقته على ذلك التشريع المجحف الصارم ، أعلن إفلاسه من المبادئ الحرة الحقيقية . وكانت أمة درجت طويلا على ممارسة الطاعة السلبية ، هى تلك التى دخلت غمار الحرب الأوربية سنة ١٩١٤ .

٢ — التحالف الثنائى سنة ١٨٧٩

بسمارك وفرنسا

ويوضح شعور بسمارك نحو فرنسا سياسته الخارجية برمتها . فقد أبصر

ذلك السياسى الكبير فى فرنسا عدوّ بلاده العنيد الخطِر ، الذى يأكل الغل قلبه ، والذى يجب عدم الركون إليه قط ، وينبغى إضعافه وإقصاؤه على الدوام من حظيرة جيرانه الأوربيين . وقد خدمت منطقة ساحل إفريقية الشمالى — التى غدت فى وقت سريع مطمعاً للاستعمار الأوربى — خدمت هذه المنطقة أغراضه كأداة لدبلوماسيته المعادية للأمة الفرنسية .

فإنه شجع فرنسا على امتلاك تونس ، كى تتشاجر مع إيطاليا . وشجع إنجلترا على امتلاك مصر ، كى تتشاجر مع فرنسا . وكذلك كانت الاتفاقات البحرية الإنجليزية الإيطالية التى أبرمها اللورد سالسبرى سنة ١٨٨٧ تماماً لنفس السياسة السيئة المقصد البعيدة النظر التى كانت ترمى إلى عزل فرنسا ، وحرمانها من أن يكون لها صديق فى أوربا . كما أن بسمارك لم يغفل مراقبة مجرى القوى السياسية المختلفة فى باريس نفسها . فمع أنه كان ملكياً فى ألمانيا ، فقد كان محبذاً للنظام الجمهورى فى فرنسا . إذ كانت الجمهورية فى نظره أضعف جميع أشكال الحكم وأسوأها .

بسمارك وروسيا

أما فى شرق أوربا ، فقد كانت أهم وسيلة من وسائل الدفاع الدبلوماسى التى لجأ بسمارك إليها لمنع تأليف تحالف دولى قد تنظمه فرنسا الحاقدة على بلاده ، هى تكوينه ذلك التحالف الإمبراطورى الثلاثى السالف الذكر ، الذى تألف فى يونيو سنة ١٨٧٢ ، وكان لا يزال حياً سنة ١٨٧٨ ، حين عرّضه مؤتمر برلين لأزمة شديدة — وهو المؤتمر الذى وصفه قيصر روسيا بأنه « تحالف أوربى تحت زعامة الأمير بسمارك ضد روسيا » . ولكن تحالف الأباطرة الثلاثة خرج من هذه الأزمة دون أن يُقضَى عليه . فجُبِرت صدوع الصداقة ، وجُدد التحالف مرة أخرى ، وأُعلِنت أوربا كل أعوام ثلاثة بأن عواهل الإمبراطوريات الحربية الكبرى فى شرقها قد ارتبطوا معاً بعرى متجددة من الصداقة والتضافر .

بيد أنه رغم المزايا الجلية التى ترتبت على حسن تفاهم ألمانيا مع روسيا ، فإن بسمارك لم يطمئن قلبه قط إلى جانب الروس . بل كان يرى صداقتهم

متقلبة لا يُركن إليها ودبلوماسيتهم ماكرة خادعة . وكان يفصله عن غورتشاكوف كبير وزراء روسيا بغضاء شخصية قوية تقوم على عدم التقدير وقلة الاحترام . وكان يرى أنه إذا اضطر إلى الاختيار بين روسيا والنمسا ، فإنه سيؤثر على الدوام اختيار النمسا : من جهة لدواعى القرابة ، ومن جهة أخرى لأنه إذا استأنفت النمسا لأية علة من العلل شجارها القديم مع بروسيا ، فإنها تستطيع أن تتقدم بمطالب ضدها تقوم على أسس تاريخية ، كحقوقها فى سيليزيا ، وفى الألزاس ، وفى الدوقيتين الدنماركيتين ، بل وفى نظام الريخ الألمانى نفسه — تلك المطالب التى تعرض للخطر جميع الانتصارات الغالية الثمن التى أحرزها بيت هوهنتزولرن منذ اعتلاء فردرك الأول أريكة الملك .

ولهذا السبب وطّن بسمارك النية ، عند ما سُويت الخلافات البلقانية سنة ١٨٧٨ ، على إبرام معاهدة سرية مع النمسا ، من وراء ظهر حليفته الروسية . ولقد كان هذا العمل عاملا حاسماً فى تاريخ أوربا ، فإن بسمارك وضع بلاده بهذه المعاهدة السرية فى صف النمسا فى نضالها القادم المرتقَب ضد جامعة الأمم السلافية .

ولقد أبرِم هذا التحالف الثنائى بين النمسا والمانيا سنة ١٨٧٩ . ثم صار بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢ « التحالف الثلاثى » : وهو التحالف الذى دام حتى نشوب الحرب العظمى سنة ١٩١٤ . وإن دارِسَ العوامل الدبلوماسية السابقة لهذا الحدث الخطير ، عند ما يُرجع بصره القهقرى فى مجرى التاريخ ، يبين له هذا التحالف الذى عقده بسمارك وأندراسى Andrassy (وزير خارجية النمسا وقتئذ) بأنه كان حجر الزاوية لقيام الحرب العظمى . فقد قسمت الأقدار من لحظة إبرامه ، بأنه إذا حدث أن تشاجرت النمسا وروسيا فى البلقان ، فإن الجيش الألمانى سيقف جنباً إلى جنب مع حليفه النمساوى . فقد نصت أهم مادة من مواد تلك المعاهدة الخطيرة الشأن على أنه « إذا هاجمت روسيا أحد الطرفين الموقّـرين المبرِمَين للمعاهدة ، وهو عكس ما يرجوان ، وضد رغبتهما الخالصة ، فإن الطرفين ملزمان بأن يتقدما لمساعدة أحدهما

الآخر بكل ما لدى إمبراطوريتيهما من قوة حربية ، ويتعهدان بألا يبرما الصلح إلا معاً ، وبمقتضى اتفاق متبادل » . ولذا كان تناقض هذه المعاهدة مع تعهدات ألمانيا العامة لروسيا عذراً يبرر العناية الخاصة التى اتُّخذت لإخفاء أمرها .

الأزمة البلقانية عام ١٨٨٥

ذلك أن بسمارك لم يكن يروم حرباً بين روسيا والنمسا . بل كان مطمحه الأعظم هو أن تُتجنَّب مثل هذه الحرب . إذ تجلت لذهنه الحاد القوى هذه الحقيقة ، وهى أنه ليس ثمت ما هو أخطر من هذه الحرب على ألمانيا ، وعلى أوربا . غير أنه لم يكن هناك ما هو أسهل من قذف شرارة بين هشيم الدول البلقانية السريع الالتهاب ، فتتقد نار حرب شعواء تتأجج فى ربوع أوربا ، وتمتد من نهر النيڤا شمالا إلى بحر إيجة جنوباً . وقد كادت تُقذف هذه الشرارة ، حينما أعلنت ولاية الروملّى الشرقية انضمامها إلى بلغاريا عام ١٨٨٥ . فقد أكل الحسد قلوب جيرانها الصربيين ، لاتساع أملاك عدوهم اللدود فجأة . واستلوا سيوفهم ، وخرجوا للقتال . ولكن إسكندر أمير بلغاريا هزمهم فى معركة سليڤتزنا Slivitzna

وكانت أوربا على قاب قوسين أو أدنى من نشوب الحرب بين دولها أثناء هذا القتال البلقانى . فقد عرف الجميع — أو إن لم يكونوا عرفوا ، فقد اشتبهوا — بأن الصربيين كانوا يعملون بإيعاز من النمساويين ، وكان الجميع على دراية بأنه مهما كان شخص إسكندر (وهو بالمولد أميرٌ من أمراء بيت باتِنْبُرجْ الألمانى) مقيتاً فى عين قيصر روسيا ، فإن البلغار كانوا خاصة أتباع الإمبراطورية الروسية ، فإذا سُمِح لهذا الشجار بين بلغاريا والصرب بأن يطول أكثر مما يجب ، فمن اليسير أن يُرى ، أنه لا محالة من تولد الاحتكاك بين النمسا وروسيا وليتَّى نعمهما ، وأنه قد يعقب احتكاك كهذا نشوب القتال بينهما ، وأن الطلقات الأولى المتبادلة بين النمساويين والروسيين ستجر ألمانيا إلى حومة الوغى .

ولهذا بذل بسمارك قصارى جهده ليتجنب حرباً كهذه . وإذ رأى

أنها لا تساوى حياة فارس ألمانى واحد ، أفلح فى الواقع فى تجنبها . فقد بعث إلى ڤينا يخبرها بضرورة تفادى القتال ، ولم يسمح للنمساويين بالاندفاع والتهور . وفى الوقت نفسه عمل على تهدئة سورة الروس . فمرت الأزمة البلغارية بفضل براعته ودهائه دون أن تُحدث انفجاراً عاماً . وأنهيت على جناح السرعة تلك الحرب الصغيرة بين بلغاريا وصربيا . وعُقد بين الدولتين البلقانيتين صلح بوخارست (فى ٣ مارس سنة ١٨٨٦) الذى قضى بإبقاء الحال على ما كانت عليه قبل الحرب .

غير أن الأمير إسكندر ، الذى كان شخصه موضع حقد الحكومة الروسية ، أكره على التنازل عن عرشه فى سبتمبر ١٨٨٦ . فاختارت الدول من البيوت المالكة الألمانية ، التى لا ينضب لأمرائها معين ، أميراً تقبله النمسا ، ولا تمجُّه سان بطرسبرج . وكان هذا الأمير هو الملك فرديناند ، الطويل الأنف ، المديد الرأس ، المحب للطيور ، الملقّب « بثعلب البلقان » ، الذى رغم حذقه أفانين السياسة وأساليب الدهاء ، ضم الشعب البلغارى فى الحرب العظمى إلى الجانب الخاسر .

ووقفت إنجلترا أزاء شباك المحالفات المضادة للأمة الفرنسية حرة طليقة ، وفى « عزلة مجيدة » . فلم تجرؤ حكومة إنجليزية ، حرة كانت أو محافظة ، على أن تربط الشعب الإنجليزى بحبائل السياسات الأوربية الماكرة . وبقيت تلك الجزيرة بمنأى عن المؤامرات ، لا يُحسب لها حساب . أما فى نظر أهل القارة ، فقد وقفت هذه البلاد وقفة غامضة ، تكتنفها الألغاز ، وتحوطها الأسرار .

ولكن إنجلترا كانت دءوبة فى تلك البرهة على تحقيق أطماعها فى جهات قصية نائية عن المراكز الرئيسية للحياة الأوربية . فقد كانت زمرة من رجالها تحكم فى الهند . وانتثرت حفنات من المستعمرين من أبنائها فى أراضى القارة الأسترالية ومستعمرة رأس الرجاء الصالح . ولم يكن فى مقدور ألمانى أن يحزر على وجه الضبط مدى تماسك أجزاء ذلك البنيان الذى شيده وقتئذ بنو التاميز .

غير أنه كان يضطر إلى التسليم بتفوق الإنجليز فى التجارة ، وفى قوة الأسطول ، واتساع الإمبراطورية : تلك الأمور التى ظفر بها صدفة واتفاقاً ذلك الشعب من أبناء القرصان المرحين المجدودين .

علاقات بسمارك بانجلترا

ولكن شيئاً واحداً بدا يومئذ للألمان مؤكداً لاريب فيه : وهو أن صداقة الإنجليز معناها عداوة الروس . فلاح لبعض ساستهم أن إبرام معاهدة سرية مع إنجلترا تبعدها عن فرنسا فكرة جذابة . وقد حاول بسمارك تحقيقها ، أولا مع دزرائيلى ، ثم مع سالسبرى . ولكن الساسة الإنجليز أعلنوا أنهم يكرهون الدخول فى معاهدات سرية ، وقالوا إنه لابد لهم من اطلاع البرلمان والملكة ڤكتوريا على كل شىء . كما تساءل أيضاً الألمان بدورهم : أى ضمان هذا الذى يمكن لهم أن يعتمدوا عليه فى مواثيق الحكومات الإنجليزية التى تجلس اليوم فى دست الحكم ، ثم تذهب غداً ، والتى هى على الدوام ألعوبة فى مهب أهواء الناخبين ؟ فهل تستطيع وزارة محافظة مثلا أن تضمن لهم عدم تغير سياستها إذا ما خلفتها وزارة حرة ؟ إن سالسبرى أظهر فى عبارة دبلوماسية شكوكه فى ذلك . كذلك كان بسمارك يميل الى الاعتقاد بأن الديمقراطيات عاجزة عن « تسليم البضاعة » .

ولهذا لم تُبرَم معاهدة بين ألمانيا وإنجلترا خلال حياة بسمارك . ومع أن المستشار الإمبراطورى العظيم كان يقدر صداقة انجلترا ، ويرغب — دون أن يعلن جلياً هذه الرغبة — فى أن يجر إنجلترا إلى داخل حلقة شركائه ، إلا أنه لم يستطع قط أن يظفر حتى من حكومة محافظة ، بالتعهدات الصريحة أو السرية ، التى كانت وحدها تستطيع أن تشبع مطالبه ، وتهدئ من روعه .

أضف إلى ذلك أن ألمانيا بدخولها حلبة الاستعمار ، ضاعفت كثيراً من فرص الاحتكاك بينها وبين إنجلترا . فقد كان هناك احتكاك بين الدولتين بصدد فيجى وغيانا الجديدة ، وبصدد إفريقية الجنوبية الغربية وإفريقية الوسطى ، وبصدد جميكا وزنجبار . وكانت العلاقات الألمانية حينما تغدو طيبة مع روسيا ، كان فى وسع بسمارك أن يتشاجر مع إنجلترا ، ويحاول

إرهابها – الأمر الذى كان يثير طرب الحكومة القيصرية الروسية ، وسرور الشعب الألمانى . غير أن لعبة إثارة انجلترا وتحديها لم تكن بمأمونة المغبة ، إلا حينما تكون علاقاته مع روسيا ودية . ولكن عند ظهور أول بادرة لتكدر العلاقات الروسية الألمانية ، كانت انجلترا ترجع إلى حظوته ورضاه .

مخاوف بسمارك

ومع هذا ظل بسمارك لا يشعر باطمئنان . فإنه رغم تحالف العواهل الثلاثة ، ورغم التحالف الثلاثى ، والتفاهم بين إيطاليا وانجلترا ، ورغم محالفات النمسا والمجر الأخرى مع الصربيين والرومانيين ، ورغم معاهدة سرية تأكيدية أبرمها مع روسيا سنة ١٨٨٧ – رغم هذا كله بقى بسمارك خائفاً يجثم فوق صدره شبح نشوب حرب تُجبَر فيها ألمانيا على القتال فى جبهتين . والحق أنه لتعقيب محزن على سياسة القوة التى اتبعها بسمارك أن يحس نفسه مكرهاً فى سنة ١٨٨٧ – بعد أن مارس الحكم الأوتقراطى خمساً وعشرين سنة – أن يحس نفسه مكرهاً على التقدم إلى الريشستاغ بطلب الموافقة على زيادة الجيش الألمانى إلى زهاء سبعمائة ألف جندى .

٣ – الإصلاحات العمرانية

التقدم العلمى

من العسير أن نغالى فى إطراء الأعمال المجيدة التى قام بها الشعب الألمانى فى غضون العشرين عاماً من السلام البسماركى الذى عقب رجة الحرب البروسية الفرنسية . فمع أن التقدم الاقتصادى فى ألمانيا خطا خطوات كبيرة واسعة ، إلا أنه لم يبز مقدرة العقل الألمانى المبتكر على التنظيم . فقد وُضِع التعليم العام على أسس سليمة صحيحة : فكانت المدارس صالحة ، والجامعات كثيرة ، تلهمها غيرة شديدة على تقدم العلم ونشر المعرفة .

وسبقت ألمانيا جميع الدول فى سرعة الانتفاع بمزايا تضافر العلم مع الصناعة . واستُخدِم هذا التضافر على نطاق واسع ، وفى فطنة فائقة . وفى دوائر الأعمال قادت الشعبَ الألمانى غريزتُه المنظِّمة ، إلى تأسيس « شركات الشركات » Kartells ، وهى اتحادات عظيمة لمجموعات من الشركات تقوم

بإنتاج سلع متشابهة ، بغية المحافظة على أسعارها ، بمنع المزاحمة بينها وتحديد إنتاجها .

وكانت الرسائل العلمية المتبحرة تصدر من المطابع كل عام فى كثرة هائلة عجيبة . ولم يفق الألمان شعب أوربى آخر فى كثرة المطالعة وجديتها . وكانت الموسيقى تعزف فى كل مكان ، وكانت أجور سماعها أرخص فى ألمانيا منها فى فرنسا ، وأعم فيها منها فى إنجلترا ، وأجود وأشجى فيها منها فى أى صقع آخر من أصقاع المعمورة ، ما خلا ڤينا .

عبقرية الألمان فى التنظيم

ولم يكن أقل من هذا جلالا وعظمة ، بُعْدُ النظر الذى اتسمت به طرق معالجتهم للمشكلات الاجتماعية الخطيرة التى جرتها عليهم الثورة الصناعية فى ذيولها . ففى تخطيط المدن ، كما فى الصناعات الميكانيكية والكهربائية ، كان الألمان رواداً سباقين . فبينما كان صناع إنجلترا يكدحون ويموتون فى أحياء قذرة مكتظة مؤلفة من أكواخ حقيرة ، كان الألمان يفكرون ويخططون قبل أن يبدأوا بالعمل . فشُيد الجانب الأكبر من مدنهم وضواحيهم وفق نماذج رُسمت فى ذكاء وفطنة ، وتوفرت فيها مطالب الراحة والصحة . فوُلِدت الأجيال الحضرية الجديدة فى عالم صالح ، كان قد هُيِّء من قبل لاستقبالها .

فكرة الحرب

ولكن كانت تخيم فوق مشهد هذه الحضارة الفتية النشطة المتشعبة النواحى ، فكرة الحرب المروعة للبعض ، الحبيبة إلى نفوس البعض الآخر ، الشاغلة لبال الجميع . فقد كانت ترفرف على ألمانيا أجنحة السلام ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه مدججة بالسلاح ، تساور عقول أبنائها الريب والمخاوف . فقد كانت ألمانيا تخشى جيرانها ، كما كان يخشاها هؤلاء الجيران . فإن سياسة بسمارك لم تنزع إلى التقليل من مظنات أوربا وريبها ومخاوفها . فكثيراً ما استخدم لغة الوعيد ولهجة الغطرسة ، ولوَّح ببريق السيوف البروسية اللامعة . وكثيراً ما صوَّب هجمات صحفه الماكرة ضد الإنجليز والفرنسيين ، وكثيراً ما ذكَّر العالم بأن السلام الألمانى إنما يستند إلى أسنة رماح الجيش الألمانى . والحق أنها للوثة خطيرة لطَّخت سياسته الرشيدة ، أنه كان يؤمن بسياسة

الخداع والغش والعبارات السفيهة والخلق غير الكريم .

ومع ذلك يجب أن يُذكر له بالفضل ، أنه جنَّب على الأقل بلاده الحرب بتجنبه هذه الأخطار الثلاثة التى سحقت بعده الإمبراطورية الهوهنتزولرنية عند ما أدار سكَّان شؤونها أيد أقل براعة ودهاء من يديه . وهذه الأخطار هى : قيام تحالف بين روسيا القيصرية والجمهورية الفرنسية ، وقيام تنافس بحرى بين بلاده وإنجلترا ، ونشوب شجار فى البلقان بلغ من خطورة شأنه ، أنه هدد حياة الإمبراطورية النمساوية الهنغارية تهديداً مستمراً ، ودفع الجنسين السلافى والتيوتونى إلى نزال طاحن مرير .

كتب يمكن استشارتها

C.A. Fyffe : History of Modern Europe. 1924.

J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933.

Lives of Bismarck, by J.W. Headlam-Morley. 1894. and C. Grant Robertson. 1918.

E. Brandenburg : From Bismarck to the World War. 1927.

G.P. Gooch : Germany. (Nations of the Modern World Series) 1925.

Bismarck; Thoughts and Recollections. 1899.

الفصل السادس والعشرون

ختام عزلة بريطانيا

ألمانيا وقت اعتلاء وليم الثانى العرش . خلق القيصر الألمانى . التحالف الفرنسى – الروسى . التوازن الدولى فى القارة . إنجلترا . المعاهدة الإنجليزية – اليابانية . إثارة مسألة اتفاق انجليزى – ألمانى . عداء ألمانيا لإنجلترا . روح الاستعمار البريطانية . مسألة جنوب إفريقية . كشف المناجم . ماجوبا . كروجر وسسل رودس . غارة جيمسن وحرب جنوب إفريقية . البوير وقيصر ألمانيا . بناء الأسطول الألمانى . مصر . بريطانيا تأخذ على عاتقها تبعة حكمها . تشارلس غوردون . استرجاع السودان . أم درمان . فاشودة . وفاة الملكة فكتوريا . العصر الفكتورى . إدوارد السابع . الاتفاق الإنجليزى – الفرنسى .

١ – الإمبراطور وليم الثانى

ألمانيا عام ١٨٨٨

دولة مؤلفة من جند وموظفين ، ومجتمع تسيطر عليه طبقة حربية ، وشعب ما يزال منتشياً بخمرة النصر ، وبرلمان إمبراطورى منتخب حقاً بالانتخاب العام ، ولكنه مدرب على الموافقة على ميزانية الجيش بعد طول المعارضة واللجاج ، وفيما عدا حفنة من أعضائه الاشتراكيين المضطهدين الضئيلى الأهمية ، كان هذا البرلمان ينصاع لإرادة حكومة لم يكن فى مقدوره أن يغيرها ، وبرلمان بروسى منتخَب طبق نظام انتخابى أوليغارقى ضيق – برلمان لم يكن ذا خطر أو بال ، ولم يعتره تغير منذ نشأته خلال الثورة الرجعية التى نشبت عام ١٨٥٠ ، وفوق تلك الهيئات جميعاً تطل شخصية بسمارك الجبارة المسيطرة – هذا هو المشهد الذى كانت تبدو فيه ألمانيا فى يونيو سنة ١٨٨٨ ، حينما خلف وليم الثانى (١٨٨٨ – ١٩١٨) – وهو فى الحادية والثلاثين من العمر – أباه على أريكة الملك .

الإمبراطور الجديد و بسمارك

وأعلن الإمبراطور الجديد أن « ليس هناك غير سيد واحد فى هذه المملكة، هو أنا » . فقد آثر وليم أن يقطع صلاته بمؤسس الإمبراطورية ، على أن يقاسمه بسمارك وأسرته السلطان . ففى مارس سنة ١٨٩٠ — وهى السنة التى دخل فيها البرلمانَ الإنجليزى داڤد لويد جورج ، وكان ابناً مغموراً مجهول الذكر من أبناء ويلز — فى هذه السنة أقيل بسمارك ، وقبض هذا القيصر المندفع على سكّان الدولة ، مقصياً الربان الذى ظل ثمانى وعشرين سنة يدير دفتها خلال العواصف والأنواء . وألفى الإمبراطور نفسه مسيطراً على أقوى أداة حربية فى العالم أجمع .

خلق وليم الثانى

وسرعان ما صار العاهل الأوتقراطى الجديد قوة تفيض حياة ونشاطاً، وتبعث القلق والوجل فى المجتمع الأوربى . وما من شك فى أنه كان متحلياً ببعض المواهب اللامعة ، بل وحتّى المواهب الفذة . فقد كانت نظرته إلى الأمور جسورة رحيبة ، وشوقه إلى التطلع كبيراً شاملا ، ودأبه على العمل عظيما ، وذاكرته للجزئيات قوية مضبوطة . وكان متديناً عفاً قويماً ، ووطنياً متحمساً . وكان أحياناً — وبخاصة عند تحدثه عن البحار وسيادتها — يصل إلى ذروة رفيعة من البلاغة المتدفقة المؤثرة . ولكن كان يمتزج بهذه المناقب المتألقة صفات أخرى من معدن أخس . فقد كان مشبعاً بغرور طاغ يملأ عليه نفسه ، وهوى جامح يتعذر عليه كبحه ، وحب للظهور وافتتان بالمظاهر المسرحية البراقة كثيراً ما عرضاه للسخرية ، ونزعة للإساءة وإيقاع الأذى جديرة بالاحتقار . فلم يكن ثمت تملق ، مهما تسفل، إلا تقبله وطرب له ، أو قسوة وحشية مهما اشتدت ، إلا انساق إليها فى سورة غضبه . وكان يسيطر عليه اندفاع وجموح ، جعلا لصداقته سحراً ، ولرفقته نشوة ؛ ولكنهما جعلاه أيضاً كبير الخطر كحاكم متصرف فى رقاب البشر ، حتّى أخذ وزراؤه يسائلون أنفسهم فى قلق وجزع ، بعد اندفاعات ومخاوف عديدة أثارها ، عما إذا كان سيد ألمانيا الأوحد الأهوج المندفع مصاباً بلوثة فى عقله .

ولكننا نبعد عن محجة الانصاف ، لو أننا عددناه بين مثيرى الحروب المرتزقة . فقد أبقى وليم شعبه فى ظلال السلام مدى ستة وعشرين عاماً . وليس

ثمت علة تدعونا إلى التشكك فى إخلاص تصريحاته السلمية التى كان يخاطب بها مجلس اللاندتاغ Landtag البروسى فى مستهل كل عام. ولكن جو بلاطه كانت تغمره العنجهية العسكرية البروسية. فلم يكن فى ميسور القيصر أن ينسى أنه سيد الحرب الأعلى. بل إنه كان يعد واجباً من واجباته أن يذكى حماس الأمة الحربى، بخطبه الحماسية العديدة لكتائب الجند والبحارة. فساعدت عباراته غير المعتدلة، وفعاله غير المسئولة، والقرائن الكثيرة التى أبان بها عن مطامعه الواسعة غير المتريثة — ساعدت كل هذه الأمور على زيادة القلق فى دوائر أوربا السياسية، وخلق جو غير ملائم لمعالجة الشئون الدولية علاجاً رصيناً هادئاً سهلا.

٢ — التوازن الدولى

التحالف الفرنسى الروسى

ولم يمض طويل وقت على سقوط بسمارك، حتى أبرمت معاهدة كانت الحيلولة دون عقدها هدفاً رئيسياً من أهداف دبلوماسية المستشار العجوز السابق. فقد خلعت فرنسا أخيراً عنها نقاب عزلتها، ووجدت فى روسيا حليفاً، وألفت فيها بلاداً فى عوز إلى المعدات الحربية التى كانت فرنسا راغبة فى أن تمدها بها؛ وفى حاجة إلى سكك حديدية كانت باريس — وليست برلين — مستعدة أن تمول إنشاءها، ووجدت فيها بلاداً كانت تبحث عن صديق يمكنها من أن توازن به كفة الدولتين الأوربيتين الوسطيين، نظراً إلى الاحتمالات المختلفة فى البلقان (إذ كان قيصر روسيا قد نمى إليه سنة ١٨٨٨ نبأ المعاهدة النمساوية الألمانية السرية التى كانت قد عُقدت قبل ذلك بتسع سنين).

فمع أنه لم يكن هناك صقع فى أوربا أقل حفلا بمبادئ ثورة سنة ١٧٨٩ مثل إمبراطورية القيصر الروسى، فإن الفرنسيين لم يكن فى طوقهم أن يرفضوا مصافحة الدب الروسى ومصادقته. فأمضيت بين الدولتين سنة ١٨٩١ معالم اتفاقية، استُكملت أحكامها باتفاقية أخرى حربية سرية أبرمت فى ٤ يناير سنة ١٨٩٤، وربطت كلا الفريقين، فى حالة تعرض أحدهما لهجوم ألمانى، بأن

يهب إلى نجدة حليفه بجيش كبير . وأعدت هذه الاتفاقية العدة لإجراء مشاورات بين رئاستى أركان حرب الدولتين فى أوقات السلم ، وللتعبئة العاجلة عند ظهور أول بادرة من بوادر تعبئة قوات أى دولة من دول التحالف الثلاثى . وكانت هذه المعاهدة ذات مزايا عملية كبيرة أخرى . فلقد كانت اتفاقية عسكرية حقاً . فقد نصت على « أن القوات التى تُستخدم ضد ألمانيا يجب أن تكون ١,٣٠٠,٠٠٠ مقاتل من جانب فرنسا ، و ٧٠٠,٠٠٠ أو ٨٠٠,٠٠٠ من جانب روسيا . وينبغى أن تعمل معاً هذه القوات إلى أقصى حد وبأوفر سرعة ، كى تُجبَر ألمانيا على أن تقاتل فى الشرق وفى الغرب فى آن واحد » .

الاستعداد الحربى

فأصبح الآن التحالف الثلاثى المكون من ألمانيا والنمسا وإيطاليا يواجه تحالفاً ثنائياً مكوناً من روسيا وفرنسا . وكان كل من المعسكرين مثقلا بالسلاح . وكان كل منهما متأهباً لأن يمسك بخناق الآخر عند ظهور أول بادرة من بوادر العداء . غير أنه لم يكن فى مقدور أحد فى ذلك الحين أن يتكهن فى ثقة عن أى الفريقين سيكون الأقوى فى حالة اندلاع شرارة الحرب بينهما . ولكن لو أن سياسة توازن القوى هذه تُركت على هذا النحو ، فمن الجائز أن سلام أوربا كان يبقى محفوظاً مستتباً . هذا وقد ظل التحالف الروسى — الفرنسى سراً مكتوماً فى ذلك الحين .

غموض موقف إنجلترا

أما إنجلترا فقد وقفت موقفاً غامضاً مبهماً . فإن انضمامها إلى إحدى الكفتين كان فى الغالب يرجحها على الكفة الأخرى . فإن توازنا كهذا يظل ثابتاً نسبياً ، طالما وقف الفريقان أحدهما فى وجه الآخر . غير أنه يضطرب اضطراباً شديداً إذا نزلت هذه الدولة البحرية العظمى فى حلبة النضال . فإن الثقة سترتفع فى الجانب الذى ستنضم إليه ، ويزداد القلق والخوف فى الجانب الآخر . وكان يُعتقد أن تكاتف إنجلترا مع التحالف الثنائى سيحدث فى ألمانيا حالة عصبية من الهلع تقرب من المس الجنونى . أما فى حالة روسيا فقد كان يُظَن أنه سينتج لوناً من ألوان التهور الصلف والتحدى غير العابئ بشىء .

وكان قيصر الألمان حفيداً للملكة فكتوريا . وكان على استعداد لأن يقدم

على الدوام لهذه السيدة المبجلة فروض احترام الحفيد لجدته . وكان يقبل من قلمها غير اللين ، وليس من قلم آخر سواه ، تقريعاً حاداً ؛ ولو أنه كان تقريعاً ممزوجاً بالعطف والود . وكان القيصر يملك ناصية اللسان الإنجليزى ، ذا حلقة واسعة من الأقارب والأصدقاء الإنجليز . فكان يلجأ إلى جزيرة جدته ، كميدانه المحبب للعب والتفريج عن النفس . وكانت تطيب نفسه ، وتقر عينه ، عند ما ينزل ضيفاً عليها فى قصر وندسور ، أو عند ما يمخر بيخته فى سباق كاوز البحرى ، أو يرتدى البزة المقصبة لأميرال إنجليزى ، أو يسمع هتاف جماهير لندن ، أو يستريح فى أحد القصور الريفية المترفة لنبيل إنجليزى . فقد كان شطر من طبيعته شديد الإعجاب بإنجلترا وأهلها ، وكان شطر آخر منها يرمقهم بنظرة ملؤها الكراهية والحسد .

وكان أمراً طبيعياً مرتقباً ، نظراً لانقسام القارة الأوربية إلى مجموعتين متنافستين ، أن تنشأ مباراة نشطة بين فرنسا وألمانيا لكسب رضا الجزيرة الإمبراطورية وحظوتها . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فبدلا من السعى إلى الظفر بود بريطانيا وكسب صداقتها ، كان يُنظر إليها فى فرنسا وألمانيا وروسيا على السواء ، خلال الأربعة عشر عاماً الأولى من حكم الإمبراطور ، بعين الحقد الخطِر أحياناً .

التحالف الإنجليزى اليابانى

هذا ما جرته على إنجلترا عزلتها . وهكذا بدا خطر هذه العزلة وسوء مغبتها عليها ، حتى انحرفت وزارة بلفور سنة ١٩٠٢ فى جسارة وإقدام عن تقاليد كاننج وبلمرستن وغلادستون وسالسبرى ، وخطت خطوة خطيرة الشأن حينما فاوضت سراً ، ثم أبرمت جهراً ، تحالفاً مع اليابان .

والحق أن هضم تلك الجزيرة الأسيوية النائية للعلوم والمعارف الأوربية هضما سريعاً واسع النطاق ، لهو إحدى معجزات التاريخ الحديث . فلقد كانت اليابان غارقة فى جهالة العصور الوسطى قبل أن يفتح القبطان پرى Perry الأمريكى أعين اليابانيين سنة ١٨٥٤ إلى بطش الأسلحة الغربية وجبروتها ، ومزايا التجارة الخارجية . وكان يحكم تلك البلاد وقتئذ ثمانية وستون ومائتا « ديميو » Daimio

أو سيد أقطاعى ، ومن ورائهم مواليهم المسلحون الملقبون « ساموريين » Samurai . ولم يكن لليابان أسطول ، أو مدفعية ، أو أسلحة ، أو طبقة تجار ، أو نظام عام للتعليم ، أو قوانين مدونة عامة . وكانت أخلاق الشعب اليابانى شبيهة بأخلاق القبائل الإسكتلندية القديمة فى أيام الملك مكبث (١٠٤٠ — ١٠٥٨) .

فمن ذا الذى كان يحلم من رجال أسطول پرى ، بأنه قبل أن ينصرم القرن ، تلغى اليابان أنظمتها الإقطاعية ، وتصبح حكومتها مركزية ، وتجهز نفسها بأسطول وجيش عصريين ، ونظام حديث من القوانين ، وآخر من التعليم العام ، وأن تهيئ نفسها لكى تلعب دور دولة عصرية ؟ ومع هذا فقد أنجزت اليابان جميع هذه الأمور الخارقة فى سرعة ولباقة فائقتين ، تحت الحكم الخالد الطويل الأمد للميكادو متزو هيتو Mutzu Hito (١٨٦٧ — ١٩١٢) .

ولهذا فإنه لما سعت إنجلترا سنة ١٩٠٢ للتحالف مع حكومة الميكادو ، كانت اليابان قد أصبحت أقوى دولة بحرية فى المحيط الهادى . وتمكنت بواسطة أسطول نُظِّم على النمط البريطانى ، وجيش دُرب طبق النظام الحربى الألمانى ، من دحر الصين فى حرب قصيرة الأجل (١٨٩٤ — ١٨٩٥) . بل لقد بلغت اليابان من القوة والصولة فى البر وفى البحر ، وصارت من الجبروت بتضافر الأسلحة الحربية الغربية ، وشجاعة أبنائها الإقطاعية ، بحيث لم ينقض سوى ثلاث سنين على عقدها المعاهدة الإنجليزية ، حتى خرجت ظافرة منصورة من حرب مع روسيا (١٩٠٤ — ١٩٠٥) . فاهتزت القلوب فى الشرق طرباً وابتهاجاً ، وشرع الغرب يتحدث عن « الخطر الأصفر » ، ويتساءل عما إذا كان زمان سيطرة « الرجل الأبيض » قد دنا من نهايته .

المنافسة بين بريطانيا وروسيا

أما قصة المنافسة بين بريطانيا وروسيا فهى قصة قديمة ، تمتد إلى عهد بعيد . فإن مخاوف البريطانيين على سلامة الهند ، وخوفهم على سلامة القسطنطينية ، وخوفهم من أن يشق أسطول روسى طريقه إلى البحر الأبيض ، كانت عللا كافية للإبعاد بين قلوب البلدين — هذا دون أن نذكر البغض

المتمكن فى صدر الديمقراطية الانجليزية للطغيان المستبد الروسى . فكان « اتفاق » ألمانى – إنجليزى ، بل وحتى تحالف بين القطرين ، أقرب تصوراً من تحسين العلاقات بين روسيا وبريطانيا .

مسألة اتفاق إنجليزى ألمانى

فإنه لم تكن ثمت أسباب عميقة متأصلة للكراهية بين ألمانيا وبريطانيا ، بل كان هناك على الضد من ذلك أسباب تُعاوِن على التقريب بينهما . فقد كان الألمان والإنجليز ينتمون إلى فرع واحد من أفرع الجنس التيوتونى ، ويتكلمون لغة مستمدة من أصل مشترك ، وكثيراً ما حاربوا جنباً إلى جنب فى معارك حامية ، وآثر الإنجليز حكم أسرة مالكة ألمانية الأصل ، على أن يحكمهم ملك انجليزى كاثوليكى ، ورضوا من غير تذمر بمحظيات جورج الأول الألمانيات ، وفترات الغياب العديدة التى درج جورج الثانى على قضائها فى ألمانيا ، ولم يبرموا بزوجة جورج الثالث الساذجة ، أو بزوج الملكة ڤكتوريا الألمانى الجميل الطلعة الوسيم القد .

وبتقدم الأيام فى حكم هذه الملكة الجليلة ، تضاعفت كثيراً عرى التبادل وصلات التعامل – سواء أكانت صلات اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية – بين البلدين . فأصبحت ألمانيا أفضل عميل أجنبى للبضائع الإنجليزية ، وانجلترا أعظم الأجانب اهتماماً بالأفكار الألمانية وتحمساً لها . وتسربت إلى إنجلترا زمرات كبيرة من الألمان الأذكياء ، الذين ساء البعض منهم غلبةُ الروح العسكرية البروسية فى ألمانيا ، واتخذوا هذه البلاد وطناً ، وأقاموا فيها راضين هانئين ، وساهموا فى تشييد رخاء منشستر فى القطن ، وبرادفورد فى النسيج ، وشفيلد فى صناعة الصلب .

وتكررت هذه الظاهرة نفسها من التبادل السهل المثمر فى الميدان الثقافى . فإنه لما تحررت جامعتا أكسفورد وكمبردج (سنة ١٨٧١) من أصفاد التعصب الدينى ، ترددت فى جوانبهما أصداء الثقافة التيوتونية . وفى الوقت عينه استطاع المشاهير من أساتذة برلين وجيتنجن أن يعتمدوا فى نشر المعارف الألمانية والدعوة لها فى إنجلترا على زمرة من الشبان الإنجليز المعجبين بهم ، عقب عودتهم إلى

مواطنيهم الأكثر حضارة من الألمان ، وإنما الأقل منهم فصاحة ، والأضعف تعبيراً وحسن بيان .

فلا عجب فى ظروف كهذه ، أن بعضاً من الساسة البريطانيين الذين كانت تزعجهم أخطار « العزلة المجيدة » على بلادهم ، حولوا أفكارهم صوب صداقة الألمان . وقد عبر عن هذه الصداقة چوزف تشمبرلين وزير المستعمرات النافذ الكلمة فى وزارة سالسبرى (١٨٩٥ – ١٩٠٠) بقوله : « إن أقوى تحالف طبيعى هو هذا الذى يُعقَد بيننا وبين الإمبراطورية الألمانية » .

عداء الألمان لإنجلترا

بيد أن الألمان كانوا يرون غير هذا الرأى . فقد تراءى لهم هذا التحالف الذى وصفه الوزير البريطانى الكبير هذا الوصف ، كأنه تحالف نجس ملوث غير طاهر الذيل . وقوبلت فى ألمانيا إشارة تشمبرلين الجميلة القصد بعاصفة عامة من الاستنكار أوردتها موارد التهلكة . وليس من الصعب تعقب تاريخ العواطف التى خلقت هذه الروح العاتية العجيبة من الاستياء والبغض . فقد حفظ البروسيون أحسن حفظ الدرسَ الذى جهد الكتّاب الألمان من أشياع بسمارك أن ينقشوه فى الصدور . فأضحوا يعتقدون أن المذهب الحر – هذا السم الإنجليزى – بعد أن أفسد الفضائل الأرستقراطية للأمة الإنجليزية ، يحاول الآن نفث سمومه فى جسم بروسيا السليم المعافَى . ولاحظوا أن الإنجليز قد وقفوا وقفة الحيدة أزاء الحروب الخطيرة القدر التى جعلت من ألمانيا أمة متحدة : فإن الإنجليز وإن عطفوا أحر العطف على الدنماركيين سنة ١٨٦٣ ، وأظهروا ميلا إلى انتصار النمساويين سنة ١٨٦٦ ، وأخيراً حينما أخذت مدافع ملتكه ترشق شوارع باريس وميادينها سنة ١٨٧٠ ، أبدوا فى جلاء عطفهم على الفرنسيين ؛ إلا أنهم مع ذلك ظلوا فى حياد غير مجدٍ .

وازداد استفحالا سوء الأثر الذى أحدثته تلك المشاعر فى عهد وليم الثانى . فإن هذا الإمبراطور لم يتفق مع بسمارك فى نظرته بأن ألمانيا قد أضحت دولة مشبعة إلى حد الامتلاء . وشاركه رعاياه بدرجة كبيرة هذا الرأى . فبينما كانت « عصبة جامعة الأمم الألمانية » المؤسسة عام ١٨٩٣ تقترح لزوم ضم النمسا والأقاليم

الألمانية الخاضعة لسويسرا وهولندا إلى الريخ الألمانى ، قنع الإمبراطور بأن يعين لنفسه ثلاث مناطق جديدة للنفوذ الألمانى ، ارتقب أن يلقى فى كل منطقة منها معارضة إنجلترا الدبلوماسية له فى إدراكها . وكانت المنطقة الأولى الإمبراطورية التركية ، والثانية المستعمرات . وكانت البحار المنطقة الثالثة والأهم ، فقد كانت السفن هى ألعوبة القيصر المحببة إلى نفسه . وإنه لمن تعس حظ الشعب الألمانى أن إنشاء أسطول حربى لا يفوقه أسطول آخر ، كان هوى الإمبراطور الذى سيطر على عقله ، وملك عليه نفسه ، فى سنى نضجه واكتمال تفكيره .

٣ – حرب البوير

الروح الاستعمارية الإنجليزية

وكان هذا الشعور نفسه بعدم الاكتفاء الذاتى ظاهراً أيضاً فى إنجلترا . فقد ارتفعت فيها حرارة النزعة الاستعمارية ، وتأججت لهبها . وبرز رديارد كيبْلِنْج نبياً داعياً إليها ، وچوزف تشمبرلين نصيراً مدافعاً عنها . وسارت جنوب إفريقية فى ركاب الهند تدعو الإنجليز فى سحر وبريق إلى الفتح والسيطرة والتجارة . واستقر الإنجليز فى مصر ، وفى أوغندا ، وفى نيجيريا . وظفروا كمألوف عادتهم بأينع القطاف ، وبأماكن أفضل كثيراً من تلك التى وضع الألمان أيديهم عليها ، بل وأفضل من تلك التى استولى عليها الفرنسيون الذين كانوا يملكون تونس والجزائر والسنغال ، أو التى استولى عليها البلجيكيون الذين خُصصت لهم بلاد الكنغو الفسيحة الأرجاء .

ومع ذلك لم يكتفِ الإنجليز بهذا كله . بل ما انفكوا خلال العقود السابع والثامن والتاسع من القرن الماضى يمدون باطراد من مستعمرة الرأس مخالبهم شرقاً وغرباً وشمالا ، إلى أن طوقت أذرعتهم القوية جمهوريتى الترنسڤال وأورانج الحرة اللتين أقامهما البوير – هؤلاء المستعمرون الذين احتفظوا بخلاصة روح الحضارة الاستعمارية الهولندية القديمة ، ولم يبقَ لهاتين الجمهوريتين سوى منفذ على خليج ديلاجوا . وبلغ الاستعمار البريطانى ذروته حينما بسط سسل رودس Cecil Rhodes الإنجليزى الباحث عن الثروة الطائلة وأحد بناة الإمبراطورية – حينما بسط

سيطرته على رودسيا . وبالطبع لم ينظر ألمانى واحد إلى هذه التطورات نظرة رضاً وقبول .

مسألة جنوب إفريقية

ومع ذلك فقد كانت القومية الهولندية فى جنوب إفريقية هى أقتل النقط فى الإمبراطورية البريطانية وأشدها خطراً عليها . ولم يكن المنتجعون الهولنديون لمستعمرة الرأس بالميالين إلى الاستعمار البريطانى . وكان أقل منهم ميلا إليه هم الهولنديون المشتتون فى داخل إفريقية . ومع أن هولنديى مستعمرة الرأس تعلموا أن يعيشوا فى صفاء وود مع البريطانيين القاطنين معهم ، والحاكمين لمستعمرة الرأس ، إلا أنهم كانوا فى دخيلة قلوبهم جمهوريين يتطلعون إلى الوقت الذى يستطيعون فيه أن يقطعوا — من غير تمزيق عنيف — الرابطة التى تربطهم بإنجلترا ، وأن يقيموا دولة تعاهدية شبيهة بالولايات المتحدة ، تسير بهم فى مضمار الاستقلال المجيد ، ويرفرف عليها علم الصليب الجنوبى . ولم يكن ثمت خطر من هذا الشعور القلبى الجميل ، لولا الموقف الذى اتخذته فيما بعد الجمهوريتان الواقعتان شمال مستعمرة الرأس : الترنسفال وأورنج الحرة

ولنرجع الآن بالبصر القهقرى . فى سنة ١٨٣٦ هجرت زمرة من الفلاحين الهولنديين مستعمرة الرأس التى كانوا يقطنونها ، إذ شكوا جور الحكومة البريطانية عليهم لإلغائها استرقاق العبيد السود فى بلادهم ، دون أن تمنح أسيادهم البوير تعويضات مناسبة ، وأخذوا يشقون طريقهم شمالا إلى أن ألقوا عصا الترحال على نهر الفال ، حيث أسسوا فى شماله وجنوبه جمهوريتين هما : الترنسفال وأورانج الحرة . وفى تلك الهضاب المشمسة ذات المناخ المنشط ، عاش البوير يفلحون الأرض ، ويقنصون الحيوان ، ويجلدون العبيد ، ويقرءون التوراة : عيشة خشنة بدوية ذات نظام قبَلى أبَوى هو أقرب إلى القرن السابع عشر منه إلى القرن التاسع عشر . وكانوا يؤثرون عزلتهم البعيدة فى أراضيهم الفسيحة ذات الهواء المنعش على جميع أطايب حياة المدن ومباهجها .

كشف مناجم الذهب والماس

ولكن طرأ بعد ذلك ارتباك خطير على البنيان البسيط الذى شيدته هذه الجماعة . فقد كُشِف أولا فى الترنسفال الماس (فى عامى ١٨٦٩ و ١٨٧٠) .

ثم كُشف الذهب بعد ذلك (سنة ١٨٨٥) . أما الماس فقد كشف بوفرة لم يسمع بمثلها من قبل فى المكان الذى صار يعرف فيما بعد باسم كمبرلى Kimberley . أما الذهب فقد وُجد فى داخل أرض الترنسفال فى تلك السلسلة من هضاب وتواترسراند Witwatersrand ، حيث تقوم الآن مدينة جوهانسبرج الرحيبة الغنية .

فتدفق على حين بغتة على بقاع الفلدت التى كان يخيم عليها قبلُ السكون والهدوء والرزانة ، وحيث درجت الحياة على السير سيراً وئيداً متمهلا — تدفق عليها فجأة سيل من المغامرين الضاربين بكل أرض فى طلب الثروة ، جارّين فى أعقابهم جلبة أوربا الحضرية وآلاتها وملاذها . ومن السهل تصور مدى ما خلقه كشفُ أعظم وأغنى مناجم الذهب فى العالم من المعضلات والمشاق غير المرتقبة فى أنظمة الحكم لحكام الترنسفال الفلاحين البدو .

ماجوبا

وكان الجفاء والتوتر قد ازدادا بين الجنسين الأبيضين فى جنوب إفريقية : الإنجليز والهولنديين — قبل الاندفاع إلى إقليم الراند للتنقيب عن الذهب ، بسبب حادث فريد فى سوء الطالع . فقد ضم دزرائيلى سنة ١٨٧٧ هذا الإقليم إلى ممتلكات بريطانيا نتيجة سوء فهم وتقدير للأمور . ولكن غلادستون أعاده إلى البوير (سنة ١٨٨١) أثر هزيمة خطيرة حلت بقوة بريطانية فى تل ماجوبا Majuba Hill

وإنه لمن أصالة الرأى أن تكون كريماً بعد النصر . ولكن من المجازفة أن تتساهل فى ساعة الهزيمة . فقد فسر البوير الجهلة عمل غلادستون المنطوى على النخوة والشهامة ، وكان نتيجة شعوره بالقوة — فسروه بأنه علامة على الجبن وخور العزيمة . فنظر البوير فى ذلك الحين إلى البريطانيين نظرة ازدراء واستهانة . أما الأخيرون الذين استفزهم احتقار البوير لهم ، واستهانتهم بشأنهم ، والذين زاد من حنقهم ذل الهزيمة ، فإنه غلا مرجل غضبهم على البوير ، وقل فيهم روح التقدير لمناقبهم .

كروجر وسسل رودس

وقد سيطر على المشهد السياسى فى جنوب إفريقية فى ذلك الحين رجلان

عجيبان حقاً ، أحدهما يتزعم الهولنديين ، والآخر يتزعم الحركة البريطانية ، وهما : كروچر Kruger الجمهورى البويرى ، ورودس المستعمر البريطانى . وقد اشترك كروچر (١٨٢٥ – ١٩٠٤) وهو فى سن الصبا فى هجرة مواطنيه الكبيرة سنة ١٨٣٦ من مستعمرة الرأس . وكانت مهارته فى الرماية ، وبراعته الفائقة فى تذليل الخيل والثيران ، وقوته الجثمانية العظيمة ، عاملا فى تبريزه بين قومه وهو لا يزال شاباً غض الإهاب . وزادت سيطرته رسوخاً – وهو يتقدم فى السن – بخشونة خلقه وعنفه وتقواه وخبثه ودهائه . ومما أضفى جاذبية على خلق هذا الرجل البدوى الخشن موهبة فائقة امتلك ناصيتها فى التندر الريفى ، وقدرة على فصاحة الوعظ ، وإيمان عميق بهدى الله لخطوات بنى جنسه . فكان يبدو الأنموذج المتجسم والمثل الحى لبساطة البوير وتقاليدهم الجمهورية ، وهو يدخن غليونه على شرفة بيته المتواضع فى بريتوريا يتحدث مع الفلاحين السذج .

ومع ذلك فإن كنوز الراند أثارت شهوته ، وحركته إلى العمل . فقد أدرك على الفور قيمة الذهب لجمهوريته الفتية ، وكيف أنها تستطيع بالمكوس التى تفرضها على ما تخرجه مناجمها منه ، أن تسيطر على السكك الحديد ، وتجهز جيشاً . بل إنه ربما يبيت فى مقدورها أن تقذف بالبريطانيين فى مستعمرة الرأس إلى البحر ، الأمر الذى كان الكثيرون من شبان البوير يصبون إليه . ولكن كروچر التزم فى ذلك الحين موقف الدفاع . ثم أيقن من الشكاوى المرتفعة التى كانت ترددها الجالية الأجنبية فى جوهانسبرج أن هؤلاء الأجانب الأثرياء ذوى النفوذ والحول ينصبون المكايد ، ويتآمرون بمعونة الحكومة البريطانية على القضاء على دولته .

أما رودس فقد منحه تعليمه بجامعة أكسفورد ، وخلقه الإنجليزى ، اتساعاً فى نظرته ، وسخاء فى معاملاته . وإذ كان خارجاً من صلب أسرة إنجليزية ريفية كريمة المحتد ، كان يشبه البوير فى حبه للأرض . وإذا كان قد وجه الشطر الأكبر من جهوده لاقتناء المال ، فإن ذلك لم يكن منه لمجرد الرغبة فى اكتنازه ، بل بالأحرى لما يمكنه هذا المال من شراء السيطرة والسلطان والنفوذ .

وكان يحلم أيام شبابه بأن فى مقدوره أن يكفل للعالم السلام المستقر الدائم بواسطة مشروع ضخم من الجوائز العلمية التى تمكن بعض الشبان الممتازين من الإنجليز والأمريكيين من العيش معاً تحت سقف جامعة أكسفورد ، وهم فى سن القابلية للتشكل والصياغة . وسعى طيلة حياته إلى تحقيق هذا الحلم ، ولكن فى طريقة معدلة رحيبة . وقد خرج مشروعه إلى الوجود فى شكل وقف كبير الموارد المالية خُصِّص إيراده لهذا الغرض التعليمى النبيل .

فلم يكن رودس واحداً من أولئك الأجانب النازحين إلى الترنسفال الذين لا يهدفون إلا إلى جمع المال . بل إنه عاش وعمل من أجل جنوب إفريقية ، وفى سبيل خدمتها ، وللسعى إلى التعاون المنسجم بين الجنسين الأبيضين . فكان يبجل البوير الهولنديين تبجيلا عميقاً لا ملق فيه ولا كلفة ؛ إذ رآهم يتحلون ببساطة هادئة متئدة تعدل بساطته .

غارة جيمسن

غير أن إصابته بعلة القلب جعلته نافد الصبر . وأثرت هذه العلة تأثيراً سيئاً فى سداد حكمه على ضجيج المغامرين النازحين إلى جنوب إفريقية وشكاياتهم المستمرة ، ومقاومة الرئيس كروجر العنيدة التى لا تلين للإصلاحات المعقولة . وفى لحظة مشئومة صادق رودس على شن غارة على الترنسفال ، قامت بقيادة صديقه الدكتور چيمسن Dr. Jameson فى ديسمبر سنة ١٨٩٥ للقضاء على جمهورية الترنسفال ، ووضع ذلك القطر تحت العلم البريطانى .

ولكن الغارة باءت بالفشل والخذلان . ولم يجدِ فتيلا إنكار الحكومة البريطانية معرفتها بأمرها واستنكارها إياها . فقد حدث الضرر ، واندلعت نار مستطيرة هوجاء من الحقد العنصرى عمّ أرجاء الترنسفال ، وسار قدماً تحت زعامة كروجر العنيدة المتأججة صوب الحرب ، على حين واصل السر ألفرد ملنر Alfred Milner المندوب السامى البريطانى ضغطه على جمهورية الترنسفال لإجراء الإصلاحات المنشودة . ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح . هذا وإن المستندات الحديثة توضح الروح المشاغبة التى سادت الجمهورية البويرية الفتية فى ذلك الحين ، وتبين كم كان عسيراً الاحتفاظ بأهداب السلام .

ولم تكن ظلامات الجالية الأجنبية ، برغم ارتفاع صيحاتها فى الصحف الإنجليزية ، تعد فى ذاتها سبباً فى حفز بريطانيا الديمقراطية إلى النضال . فإن أحداً لم يكره هؤلاء الأجانب على النزوح إلى جنوب إفريقية والاستيطان بجوهانسبرج . ولم يوصد أحد أمامهم باب الانسحاب والخروج . فقد قصدوا الترنسفال لكسب المال ، وتمكنوا من الوصول إلى مرماهم . بل إنهم غالباً كسبوا أموالا طائلة على الرغم من سوء نظام هذه الجمهورية وجورها .

مخاوف البريطانيين

فلم يكن شجار محلى صرف كهذا الشجار ، فى مدينة للتعدين فى جنوب إفريقية ، ليثير الرأى العام البريطانى . ولكن الشجار لم يكن محليا . فقد داخلت البريطانيين الريب والظنون بأن الرئيس كروچر يستخدم ثروة الراند فى تمويل مؤامرة واسعة النطاق ضد بريطانيا ، وأنه استحوذ فى هذه المغامرة على عطف الريخ الألمانى واعتمد على تأييده . ولهذا فإنه عندما أبرق إمبراطور ألمانيا إلى كروچر فى عشية هزيمة چيمسن ، باعثاً إليه بتهانئه ، اشتعلت إنجلترا بأسرها حنقاً وغضباً . فقد عُدَّ تدخله هذا بلا ضرورة أو جدوى ، بل إنه قد ينطوى على الشر والسوء . فهو سيىء فى ذاته ، وهو أسوأ لما يحوى من احتمالات وقرائن . ومن حسن الحظ لم يُعرف فى لندن فى ذلك الحين أن القيصر ، فى تهوره واندفاعه ، بعث بمذكرة نهائية إلى الحكومة البريطانية محتجاً على هذه الغارة ، وتهجم الصحافة الإنجليزية عليه ، وأن سفيره الأريب أبى أن يسلمها إلى الحكومة البريطانية ، وأن الحكومة الألمانية أخذت بعد ذلك بزمن وجيز تعمل فى همة وخفية على تأليف حلف أوربى ضد إنجلترا : وهو حلف لم يتكون ، لإحجام فرنسا عن الاشتراك فيه .

إعلان الحرب

ثم انقضت أعوام ثلاثة ، تفاقم خلالها شجار جنوب إفريقية حتى اندلع فى حرب خطيرة ، خفَّ إليها المتطوعون من كل فج من فجاج الإمبراطورية لعون بريطانيا الأم . ولكنها فى الوقت عينه كانت حرباً استنفدت مواردها ، وأبانت للناقدين الحربيين فى الأقطار الأوربية مآخذ الضعف العديدة فى الجيش البريطانى .

وعلى الرغم من أن البوير – لا البريطانيين – هم الذين أشهروا الحرب ، فإن العواطف القوية للقارة الأوربية كانت تؤيد جيوش الجمهوريتين ، وتدعو لها بالنصر . وكانت البراعة والصلابة والبساطة التى أبداها الفلاحون البوير فى مقاومة القوات الحربية المدربة لإمبراطورية عظيمة ، والصمود فى وجهها ، موضع الإعجاب العام . وخيل للمراقبين أن هذه الحرب هى نضال بين البساطة والتنعم ، وبين الحرية والطغيان ، وبين الله ومعبود الذهب . وكان كل نصر يحرزه البوير يُستقبل فى أوربا بحماس لا يوصف ، وكل اندحار يحل بقضيتهم يقابل بحزن وخيبة أمل شديدين . وفى ألمانيا وفرنسا ارتفعت أمواج السخط على بريطانيا والاشمئزاز منها إلى أعلى عليين . وحتى قيصر روسيا الذى لم تكن حكومته الداخلية أنموذجاً للحرية يُحتذى ، اقترح عقد حلف عام من الدول الأوربية الكبرى ضد الجزيرة المتعجرفة الصلفة البغيضة .

ومع ذلك وقفت أوربا مكتوفة الأيدى لا تتدخل . ورغم حنقها وبغضها البالغَيْن ، أكرِهت على الوقوف موقف المتفرج ، بينما استرد القائدان روبرتس وكتشنر ما كان الإنجليز قد خسروه فى أول الحرب ، وأوهنا مقاومة البوير ، وأنزلا الإعياء بقواتهم .

ولم تكن ثمت دولة أوربية ، أو مجموعة من الدول ، فى مركز يمكنها من الوقوف فى وجه الأسطول البريطانى . فقد سيطرت سيادة بريطانيا على البحار على الموقف . ولم تدرك قارة أوربا فى عصر ما ، مثلما أدركت فى ذلك الوقت ، المضايقات التى تترتب على سيطرة بريطانيا فوق أمواج البحار . ونُقش هذا الدرس البليغ نقشاً عميقاً فى صدر القيصر الألمانى ومشيريه ، وبخاصة فى صدر ضابط شاب قوى الشكيمة عالى الهمة من ضباط الأسطول الألمانى يدعى ترپتز Tirpitz ، كان اسمه قد لمع فى نفس الوقت تقريباً الذى حدثت فيه غارة چيمسن . فأخذ يحض على إنشاء أسطول ألمانى قوى يشق عباب مياه المحيطات .

بناء الأسطول الألمانى

ولهذا نجم فى ألمانيا من النزوات التى أثارتها حرب جنوب إفريقية نتيجتان هامتان : الأولى أن الطريق إلى قيام تحالف إنجليزى ألمانى ، وهى الطريق التى كان چوزف تشمبرلين قد فتحها ، انسدت برهة ما انسداداً محكماً . والنتيجة الثانية ، قيام الحجة التى لم يكن عسيراً على الألمانى أن يغلق عليه فهمها ، وهى ضرورة بناء بلاده أسطولا جباراً يُلزم أقوى دولة بحرية فى العالم باحترامه . فواصل الإمبراطور بهمة مندفعة قعساء تنفيذ مشروعه العزيز إلى فؤاده ، تستحثه العبر التى تلقاها من حرب البوير .

ولا يبدو أنه خطر إلى ذهنه وقتئذ أن إنجلترا التى تعتمد حياتها كل الاعتماد على مواردها المحمولة على متن الأمواج ، ستعد وجود أسطول يعدل فى القوة أسطولها أمراً يهدد كيانها تهديداً خطيراً . ولما كان الإمبراطور يعتقد أن أى تدخل فى شأن لعبته الحبيبة هو إهانة شخصية له لا تطاق ، وأنه ليس ثمت سلاح دبلوماسى ضد الإنجليز أفعل من التلويح لهم بالقوة ، فقد تقدم بإصرار إلى الريشستاغ بسلسلة من مشروعات القوانين البحرية ، كان من الضرورى لإجازتها إثارة الشعور العام فى بلاده ضد الإنجليز . ولكن يبدو أنه لم يخطر لذهنه الماضى — ولكنه الذهن المتقاب المتعجل — أنه نظراً للتوازن الدولى القائم فى القارة حينئذ ، فإن هذا المشروع كان يصطدم بأخطار خاصة تهدد ألمانيا بالذات .

٤ — الاحتلال البريطانى لمصر

الإنجليز يسبقون الفرنسيين

كان يفرِّق بين فرنسا وإنجلترا من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٠٤ مشكلة مصر المعقدة . فقد قسمت الأقدار — التى لاحت للفرنسيين معاكسة إلى حد كبير لأطماعهم — قسمت هذه الأقدار للإنجليز أن يستولوا بالصدفة على ميراث كانت فرنسا قد عينته من نصيبها من المغانم . فلقد كان نابليون هو الذى استعاد مصر لأوربا . غير أن محمد على — المعجب بنابليون وتلميذه — هو الذى خلق من مصر دولة عصرية . وكان مهندساً

عبقرياً فرنسياً هو الذى أنجز سنة ١٨٦٩ شق قناة السويس . وقد قاومت إنجلترا أعمال هؤلاء العظماء ومجهوداتهم ، ومع ذلك فإن إنجلترا — لا فرنسا — هى التى كسبت صوتاً مسيطراً على شئون القنال ، بشرائها سنة ١٨٧٥ أسهم التأسيس التى كان يملكها الخديو إسماعيل فى شركة القنال . وكانت إنجلترا أيضاً هى التى أخذت منذ سنة ١٨٨٢ تدبّر شئون مصر ، وتوجه السياسة المصرية من القاهرة .

ولم يكن لفرنسا عذر فى كل هذا الخذلان . فإنها بإيحاء من بسمارك ، أخذت على عاتقها ، بالاشتراك مع إنجلترا ، حماية قضية أصحاب سندات القروض الأجنبية التى استدانتها مصر . فخلعت الدولتان الخديو اسماعيل ، وفرضتا على مصر مراقبة ثنائية بقصد إعادة تنظيم ماليتها التى أشرفت يومئذ على الإفلاس . ولكن فرنسا انسحبت عامدة من الاشتراك فى إخماد ثورة عرابى — وهو ضابط مستاء متذمر من ضباط الجيش المصرى — تاركة إنجلترا وحدها تضطلع بهذا العمل ، وتقوم بإصلاح الأداة المالية والإدارية المصرية التى كان الخديوى المخلوع قد خلّفها وراءه تضرب فيها الفوضى بأطنابها .

ولقد كان الموقف السياسى عجيباً حقاً . فإن وزارة غلادستون الحرة التى كانت تمقت التعهدات الاستعمارية ، وتتوق إلى نفض يدها من مصر فى أول فرصة ملائمة ، ألفت نفسها مكرهة على التغلغل أكثر فأكثر فى وادى النيل ، على حين أن فرنسا التى لم يكن يغلّ يدها عن الاستعمار وازع أدبى ، والتى كانت تتوق إلى وضع يدها على مصر بأى ثمن ، تركت فى فورة فجائية من الهلع والتهيب الثمرة إلى منافستها لتقطفها من دونها .

المسألة السودانية

وإذا كانت فكرة احتلال مصر احتلالا دائماً مقيتة فى عيون الأحرار الانجليز ، فإن الاقتراح الخاص بمحاولة فتح السودان كان أمقت وأبغض إلى نفوسهم . فقد نهضوا يؤيدون قضية السلام ، ويدعون إلى الإصلاح والاقتصاد فى النفقات — تلك الأمانى التى كان يصعب أن تتفق مع إنفاذ

حملة حربية إلى مفاوز لافحة القيظ ، لتحارب جموع الدراويش المتوحشين المتهوسين .

ومع ذلك فإنه لم يكن من اليسير على حكام مصر الجدد ألا يحفلوا بمصير قطر كانت الراية المصرية ترفرف فوق أرجائه ، وتعسكر الكتائب المصرية فى بلدانه ، والذى صار الآن مهدداً بحركة من تلك الحركات الشرسة من التعصب الدينى العنيف الذى يرجُّ بين آونة وأخرى العالم الإسلامى . وكان القائد لهذا التمرد العجيب الجبار مسلم اسمه محمد أحمد ، وهو ابن أخ لصانع مراكب فى دنقلة . ونادى سنة ١٨٨١ بأنه المهدى المنتظر ، وأعلن أن هدفه فتح العالم .

هزيمة هكس

وقد أنفذت الحكومة المصرية إلى السودان جيشاً مصرياً ضعيفاً من الجند غير المدربين للقضاء على الحركة المهدية . فضلّ الطريق فى أحراش كردفان ، حيث أنزِلت به هزيمة ماحقة بالقرب من الأبيض فى يناير سنة ١٨٨٣ . فنال المهدى بذلك الفوز أول انتصاراته .

ولما كان قائد القوة المصرية المدحورة هو هكس باشا Hicks Pasha الانجليزى الجنس ، فقد خُلِق موقف محير للحكومة البريطانية . فكان إخلاء السودان للتو والحالة هذه مشورة أريبة ، وضرورة سحب الحاميات المصرية منه قبل أن يغمرها تيار المهدى واجباً يفرضه العقل . أما العملية الأولى فكانت ميسورة . ولكن إجلاء الحاميات المصرية المبثوثة فى أرجاء السودان الفسيحة ، بدون إرسال حملة كثيرة التكاليف عظيمة المعاثر — فكان إجلاؤها معضلة تحير أذكى العقول وأحكمها .

إيفاد غوردون

وفى ساعة نحس أصاخت الحكومة البريطانية السمع لمشورة جريدة البال مال الإنجليزية . فقد اقترحت تلك الصحيفة بأن هناك رجلا واحداً يستطيع بجاذبيته الفائقة وموهبته المنقطعة النظير فى معاملة الشعوب الشرقية ، أن يحفز السودانيين إلى الالتفاف حوله ضد المهدى ، وينقذ بذلك الحاميات المصرية ، ويقمع تجارة الرقيق ، ويخلص — بدون تحريك جندى أو

مدفع من إنجلترا — الوزارة البريطانية من مخاوفها . وكان هذا الرجل هو غوردون « الصينى » ، وهو بطل ورع ، ينزع إلى الرؤى والأحلام ، خاض ببسالة معارك الحروب الصينية الأهلية دون أن يمس شعرة واحدة من شعره أذى . فكان يقود الجيوش ، ويحسم المنازعات ، ويفرض بفضل قوة روحانية خاصة وسحر لا يقاوَم ، إرادته على أشد الطبائع البشرية وحشية . ثم لمع اسمه فترة قصيرة بعد ذلك لنفوذه الشخصى العجيب فى السودان حينما كان حاكما عاماً له .

وفى أيام معدودة أضحى غوردون معبود الجماهير الإنجليزية ، وكنزاً من كنوزنا القومية ، ورجل الأقدار المعيَّن للإتيان بالخوارق والمعجزات . ولم يقف أحد لينعم النظر فيما إذا كان هذا الرجل الباسل الغامض النزعات حائزاً على سداد الرأى وثبات المرمى الضروريين لإنجاز مثل هذه المهمة العظيمة . فقد كان، بحسب كل امرئ أن غوردون قَبِل أداء هذه الرسالة المحفوفة بالمهالك .

مقتله

وما حلّ فبراير سنة ١٨٨٤حتى كان غوردون قد وصل إلى الخرطوم . ومنها أخذ يبعث بوابل من البرقيات المتضاربة المحيرة المندفعة التى كشفت النقاب عن الغلطة المفجعة التى ارتكبتها وزارة غلادستون فى اختيارها إياه حاكماً عاماً للسودان كى ينهض بالمهمة التى كُلِّف بها . ولكن غلطة أدهى تلت هذه الغلطة . فإنه لم ينقضِ عام على وصول غوردون إلى الخرطوم ، حتى تُرك لتمزّق جسمه حراب الدراويش (فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) . فإن حملة إنقاذٍ بريطانية وصلت بالكاد متأخرة عن الوقت المناسب لإنقاذ حامية المدينة المحاصرة التى كان الجوع قد أعمل فيها وفى أهل المدينة أنيابه ، ولتخليص قائدها الباسل أيضاً .

سقوط وزارة غلادستون

وكانت أقل نتائج هذه المأساة المفجعة أهمية هى أنها جرفت من منصة الحكم الوزارة التى ظُنّ أنها أوفدت رجلا باسلا شهماً فى مهمة مستحيلة ، ثم سمحت بتراخيها وتلكئها بأن تُزهَق روحه ، وهو يقوم بتأدية واجبه . أما

النتيجة الأبقى أثراً والأوسع نطاقاً ، فهى أنها أدخلت فى السياسة الإنجليزية روحاً من التصميم القاطع لإعادة فتح السودان . فأضيف الآن إلى واجب حماية قناة السويس التى كانت ذات أهمية بالغة للمصالح البريطانية ، أسباب أخرى لسياسة عدم الجلاء عن مصر ، قائمة على المشاعر العميقة التغلغل فى الشعب البريطانى . وهذه الأسباب هى : الأخذ بثأر غوردون ، وتحرير السودان من الطغيان الذى يسيطر عليه ، واسترداد بريطانيا هيبتها الحربية .

فقد أعلن الوزراء الإنجليز بين الفينة والفينة أن سياسة البلاد الرسمية هى الجلاء عن مصر فى أول فرصة ممكنة . غير أن هذه الفرصة لم تأتِ قط . وشرع إڤلن بارنج Evelyn Baring (صار فيما بعد اللورد كرومر) الذى كان يخفى سلطاته الدكتاتورية تحت ستار لقبه الرسمى المتواضع «قنصل جنرال» — شرع هذا الرجل يقوم بعمله العظيم من الإصلاح الإدارى الذى أعاد لمصر رخاءها ومقدرتها على الوفاء بديونها .

٥ — استرجاع السودان

فوز المهديين

ثم انصرمت إحدى عشرة سنة (١٨٨٥ — ١٨٩٦) ،جاور المهدى فى خلالها ربه ، وخلفه فى الحكم الخليفة عبدالله التعايشى . ولكن هذا التغيير لم يحدث أى أثر فى السودان . فإن نفس الهوس الدينى المتأجج الشرس ، والوحشية الملتهمة ، استمرا يسيطران على نفوس زعماء القبائل الذين غدوا الآن يسيطرون على هذا الإقليم الرحيب الآفاق .

إعادة تنظيم الجيش المصرى

وفى خلال تلك السنين أيضاً بلغ الجيش المصرى — الذى كان قد وُضع تحت قيادة ضباط إنجليز — بلغ من القوة حداً يمكنه من الدفاع عن حدود بلاده ، وإنزال سلسلة من الهزائم بجيوش الخليفة وأعوانه . ولكن جهداً أعظم وتنظيما أدق كانا يُتطلبان ، إذا كان المقصود إنقاذ السودان من مخالب الدراويش ومظالمهم .

زحف كتشنر

وأخيراً حانت هذه الفرصة بفضل جهود بارنج وكتشنر سردار الجيش المصرى واستعداداتهما الدقيقة . ففى سنة ١٨٩٦ زحف كتشنر إلى دنقلة . ثم بعد عامين من بدء الحملة – ذلل فيهما مشكلة بعد الشقة بمد خط حديدى بين حلفا والخرطوم ، ومشكلة قلة عدد الجنود المقاتلين بتجهيزهم بالمدافع – تمكن من إبادة عدوه فى ملحمة أم درمان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ . ودخل الخرطوم ، حيث أقام حكومة مشتركة يخفق عليها العلمان المصرى والبريطانى . وكان نصر كتشنر فوزاً للنظام البديع ، والخطة المحكمة . فإن هذا المهندس المرتب النشط تمكن بنفقة زهيدة من إعادة فتح السودان.

حادث فاشودة

ولكن سرعان ما أنجز هذا العمل الباهر حتى برز حادث غير مرتقب ، هدد بريطانيا بإضعاف مركزها كله فى مصر . فإن زمرة صغيرة من الرواد الفرنسيين بقيادة اليوزباشى مارشان Marchand سارت شرقا مدة ثلاث سنين صوب قلب إفريقية ، إلى أن بلغت فى آخر المطاف فى أواخر صيف سنة ١٨٩٨ فاشودة : وهى قرية تقع فى أعالى النيل ، ورفعت عليها العلم الفرنسى . فبعثت الحكومة البريطانية بتعليمات إلى كتشنر تكلفه فيها بأن يسير لمقابلة مرشان ، ويطلب منه الانسحاب .

وفى الحال توترت العلاقات بين الدولتين توتراً خطيراً . فإن بريطانيا بعد التضحيات التى بُذلت فى الحملة السودانية لم تكن ميالة إلى بتر وادى النيل الأعلى من السودان وتقديمه لفرنسا لمجرد وجود فريق من المستكشفين الفرنسيين فى فاشودة . ولكن من الجهة الأخرى لم يكن أمراً سهلا إقناع الرأى العام الفرنسى بأن فرنسا لم تلحق بها إهانة بمطالبة ضابط فرنسى ألمعى بأن ينزل عن أرض كان هو السابق إلى بلوغها ، بعد أن قام برحلة استكشافية فذة حقاً .

ولكن من حسن الحظ كان دِلكاسيه Delcassè وزير الخارجية الفرنسية سياسياً رشيداً . فأبى أن يورط بلاده فى حرب من أجل مجموعة صغيرة من الأكواخ الحقيرة واقعة على النيل الأعلى لم يسمع عنها قط شيئاً

قبل الآن تسعة وتسعون فرنسياً من مائة من بنى وطنه . وأدرك بنظر بعيد وحكمة فطنة أن فرنسا قد تبتهج قبل مضى زمن طويل لأن تمد يد الصداقة إلى إنجلترا . فوطن العزم على إصدار الأمر إلى مارشان بالانسحاب . وبذلك تُجنُبِّت الحرب ، بعد أن كانت الأساطيل قد عبئت ، وأصبحت الحرب بين البلدين قاب قوسين أو أدنى .

نبت الاتفاق الودى

ووقف دلكاسيه ، الذى أنجى السلام على هذا النحو عام ١٨٩٨ ، بعيداً عن النزوات الشعبية الحمقاء ، رغم صيحات السخط العالية والكراهية الشديدة لانجلترا ، وهى الكراهية التى خلقها فى بلاده حادث فاشودة وحرب البوير . وكان جسوراً فى اعتقاده بأن قيام تفاهم بين فرنسا وإنجلترا أمر محمود مرغوب فيه ، وأن فى الإمكان الوصول إليه . وكان موفقاً على الدوام فى اختيار أعوانه ، وخاصة فى إيفاده پول كمبون Paul Cambon كسفير لبلاده لدى بلاط سان چيمس (١٨٩٨ — ١٩٢٠) ، ليسعى فى إنشاء اتفاق ودى Entente بين البلدين .

وفى حفلة أقيمت بلندن فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٢ سُمِع چوزف تشمبرلين وكامبون يتحدثان عن مصر ومراكش . ذلك أن وزير المستعمرات الإنجليزية القوى الشكيمة النافذ الكلمة حوَّل أفكاره صوب بلوغ اتفاق مع فرنسا ، عندما أخفق فى مفاوضاته مع ألمانيا .

٦ — وفاة الملكة فكتوريا

رسوخ الملكية

خُتم حكم الملكة ڤكتوريا الطويل الأمد فى ٢٢ يناير سنة ١٩٠١ . وتركت المَلَكية التى ألفتها عند ارتقائها العرش ضعيفة مزدراة ، راسخة الأركان وطيدة الدعائم فى قلوب رعيتها . وقد منحها الدأب المتواصل والجد الذى لا يعتوره كلال ، والخبرة القيمة ، شيئاً من ذلك السلطان المنقطع القرين الذى امتازت به الملكة أليصابات (١٥٥٨ — ١٦٠٣) فى الأعوام الأخيرة من حكمها . غير أن الذى منح الملكة ڤكتوريا هذا السلطان النادر

المثال لم يكن فقط مقدرتها على إنجاز أعمال الدولة التى لم تكن الأمة تدرى عنها إلا النزر اليسير ، أو نزعاتها وميولها التى أثارت حب الشعب وولاءه لها ، وإنما هو بساطتها التيوتونية ، والحب الذى كان يملأ قلبها الكبير ، وعطفها المتدفق ، ومقدرتها على المساهمة فى أفراح الناس العاديين وأحزانهم — هؤلاء القوم الذين كانت بفطرتها أقرب إليهم منها إلى الطبقات المثقفة والأرستقراطية . ولقد كانت نقاوة بلاطها ، وبعده عن الفخفخة الكاذبة ، والتبذير والفضائح ، يرفعانه فى عيون شعبها ، ويؤهلانها لاحترامه وتبجيله . فقد أسخطت الشعب الإنجليزى حياة عمها جورج الرابع الخاصة ، وأثارت اشمئزازه . ولذا اغتفر الناس فى أيامها الشىء الكثير فى سبيل الفضيلة والعفة اللتين ازدانت بهما حياتها[1] .

ازدهار عصرها بفحول العظماء

وحكمت هذه السيدة العجوز الضئيلة البدن ، البالغة الكبرياء والزهو، التى كانت مع ذلك تشبه كثيراً فى طرقها وأفكارها طرق ربات البيوت المتوسطات الحال وأفكارهن — حكمت هذه السيدة إنجلترا إبان حقبة امتدت إلى أكثر من ثلاثة وستين عاماً : أعواماً شهدت كثيرين من جهابذة الأمة الذين لمع اسمهم وتألق نجمهم فى خلال سنى حكمها . فقد كان ثاكرى ودكنز يسطِّران رواياتهما الخالدة فى أيام شبابها ، ومِيرِدِث وكبلنج وهاردى و ر . ل . ستيڤنسن فى سنى عمرها الناضجة . وكان فى وسعها أن تدعو إلى مائدتها — لو أنه خطر لبالها أن تفعل ذلك — كوكبة لامعة من أعلام المؤرخين ، تبدأ بماكولى وتنتهى بميتلند : كوكبة لم تبرز فى عهد أى عاهل آخر . ومن بين كبار المفكرين الذين ظهروا فى عصرها ، يمكن عد كارليل ومِلْ ورسكن ، ومن بين فحول الشعراء تنيسن وبراوننج وسوِنْبِرْن وماثيو أرنلد ، وفى اللاهوتيات الكردينال نيومَنْ ، وفى الكشف العلمى دارون وولاس ، وفى ميدان الاستكشاف لڤنجستون ، وفى الطب لِسْتَر ، وفى القصص

(١) يحسن لمن يرغب فى الاستزادة من الإلمام بعهد هذه الملكة أن يقرأ سيرتها : « الملكة فكتوريا » ، تأليف لتن ستريتشى ، وتعريب وديع الضبع (طبع دار المعارف بمصر) .

ثاكرى ودكنز وأنطونى ترولُبْ وشارلوت برونتيه وجورج إليوت وروبرت لويس ستيفنسن ، وفى تبسيط العلوم وتقريبها إلى الأذهان ، توماس هنرى هكسْلى وهربرت سپنسر ، وفى القانون المقارن هنرى مين — يبرز هؤلاء جميعاً بين شخصيات عديدة ذات ألمعية ومواهب كبيرة فى كل صقع من أصقاع المعرفة .

خلق فكتوريا

بيد أن الملكة لم تكن من ذوات الذكاء الكبير والعلم الغزير . فلم تحفل كثيراً لذلك الموكب الفخم الأخاذ ، الذى نسجته عبقريات رعاياها وقرائحهم الوقادة ، وهو يسير أمام عينيها الملكيتين . ولم يتجاوب قلبها مع نداء حماسهم المستنبِط ، وخيالهم المضطرم المبتكِر . فالحركات الكبرى : حركة أكسفورد Oxford Movement ، والحركة الاشتراكية ، والحركة العقلية Rationalist Movement والحركة النسائية — كانت كلها على السواء بغيضة لتقاليدها المحافِظة وروحها البسيطة . ولقد كانت حتى النفس الأخير وطنية إنجليزية مضطرمة الحماس ، وفى السياسة الإنجليزية متحزبة شديدة التحزب . واحتفظت إلى آخر نسمة من حياتها ، رغم الكدح المضنى والتبعات الجسيمة ، بقلب فتاة ألمانية شديدة العطف والحدب .

٧ — الاتفاق الودى

اعتلاء إدوارد السابع العرش

وكان دلكاسيه يترقب اعتلاء ابنها البكر إدوارد العرش . وكان ملك إنجلترا الجديد حلو الشمائل جميل المناقب . فلم يضمر لأحد عداوة أو بغضاء ، اللهم ماعدا عدم استلطاف شخصى لابن أخته إمبراطور ألمانيا المزهو الصلف . وكانت تغمر إدوارد السابع رغبة صحيحة لا زيف فيها فى أن تكون علاقات إنجلترا ودية صافية مع العالم أجمع : مع ألمانيا ، ومع فرنسا ، ومع روسيا . وكان يصبو إلى أن تكون علاقته ودية مع فرنسا على الأخص — رغم مقتها الشديد للانجليز . فقد كان كثيراً ما يلهو ويطرب فى باريس ، لما كان أمير ويلز ، واتخذ له أصدقاء فرنسيين كثيرين . فلم تكن الحكومة

البريطانية فى معاملاتها مع فرنسا لترغب فى سفير يحمل إليها نواياها الطيبة ومقاصدها الودية خير من مليكها .

إبرام الاتفاق الودى

غير أنه من الخطأ أن نعزو إلى إدوارد السابع (١٩٠١ – ١٩١٠) إحداثه انقلابا دبلوماسياً ، كان فى الواقع من عمل وزارة بلفور (١٩٠٢ – ١٩٠٥) . فإن هذا الملك عاون فقط فى بناء الاتفاق الودى Entente Cordiale مع فرنسا ، ولكنه لم يخلقه . فإن زيارته الرسمية لباريس سنة ١٩٠٣ أزالت العداوة بين البلدين ، وولدت الحماسة . ولكن « الاتفاق الودى » يعود إلى الحقيقة بأن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية كانتا قد أدركتا أنهما فى مركز يسمح لهما بإبرام صفقة استعمارية رابحة لكلتيهما .

وكانت خلاصة الصفقة التى تمت سنة ١٩٠٤ اعتراف فرنسا بالحقوق الخاصة التى كسبتها إنجلترا فى مصر ، على حين سلمت انجلترا بمركز فرنسا الخاص فى مراكش . وقُرنت الاتفاقية باتفاق سرى ، عين حدود منطقة النفوذ الفرنسى فى مراكش فى حالة حدوث تفاهم مع أسبانيا . وفى الوقت نفسه سويت الخلافات البارزة بين القطرين فى نيوفوندلند وسيام ومدغشقر وجزر هبريد الجديدة .

ولم يبدُ حسب الظاهر شىء أسعد أو أحكم من هذه التصفية بين القطرين لشكاويهما الاستعمارية المضايقة المتبادلة . وكان كمبون شديد الاغتباط بحل المسألة المراكشية . كما طرب مجلس العموم لاتفاقية أمَّنت مركز إنجلترا فى مصر . ولكن اللورد روزبرى زعيم حزب الأحرار يومئذ ، لاحظ أن ألمانيا ، وهى أقوى دولة حربية فى أوربا ، لم يؤخذ رأيها فى مسألة مراكش . فانتقد المعاهدة ، معرباً عن رأيه فى أحاديثه الخاصة بأن الاتفاق الودى مع فرنسا سيقود إنجلترا فى النهاية إلى حرب مع ألمانيا .

كتب يمكن استشارتها

J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933.

J.L. Garvin : The Life of Joseph Chamberlain. 1932.

Lady Gwendolen Cecil : The Life of Robert, Marquis of Salisbury 1921.

E. Brandenbourg : From Bismarck to the World War, German Foreign Policy 1870-1914. 1927.

H.N. Brailsford : The War of Steel and Gold. 1915.

J. Bryce : Impressions of South Africa. 1897.

Basil Williams : Cecil Rhodes. 1921.

D. Reitz : Commando. 1929.

S.G. Millin : Rhodes. 1933.

الفصل السابع والعشرون

إصلاحات وزارة الأحرار ، وغيوم الحرب

صلح فيرينيجنج . السياسة الداخلية الإنجليزية . قانون التعليم سنة ١٩٠٢ . معارضة الأحرار . تحديد المسكرات . العمال الصينيون . إصلاح التعريفة الجمركية . سنو الأحرار العشر فى دست الحكم (١٩٠٥ – ١٩١٥) . نمو قوة ألمانيا . مراكش . الاتفاق الإنجليزى الفرنسى . المباراة البحرية الإنجليزية الألمانية . حبوط مؤتمرى لهاى . الاتفاق الروسى الإنجليزى سنة ١٩٠٧ . الانقلاب السياسى الذى أحدثته النمسا عام ١٩٠٨ . خطر الحرب .

١ – انتهاء حرب البوير

كان عسيراً على الإنجليز ، وهم شعب متحضر منعزل ، أن يدركوا تماماً دلالة الانقلاب الدبلوماسى الذى أنهى الفترة الطويلة التى سادت خلالها سياسة « العزلة المجيدة » . فإن المعاهدة اليابانية التى مُهِّد لها السبيل فى تكتم ، لم تحدث فى الرأى العام سوى اهتمام ضئيل . ونُظر إلى الاتفاق الودّى مع فرنسا كصفقة استعمارية موفقة تساعد على الوئام العام . وكانت فكرة نشوب حرب أوربية بعيدة عن أذهان الناس . وبلغت معارضة الإنجليز القوية لفرض نظام التجنيد الإجبارى فى بلادهم حداً جعل بعض الفرنسيين ، ككليمنصو مثلا ، يعدون هذا الاتفاق خطراً جلياً على فرنسا .

إصرار البوير على مواصلة الحرب

أضف إلى ذلك أن إنجلترا كانت مشغولة الفكر بشئونها الخاصة . فقد طلع القرن العشرون ، وكانت البلاد لا تزال تناضل نضالا شاقاً لقهر البوير ، الذين رغم وقوع بريتوريا عاصمة الترنسڤال ، وبلويمفنتين عاصمة أورانج الحرة فى قبضة أعدائهم ، أصروا على مواصلة القتال . وكانت طريقتهم فى الحرب

طريقة الحركة ، والكرّ والفرّ . وكان كل بيت من بيوت البوير فى الريف يمد بالطعام والملاذ الشراذم الصغيرة من مقاتليهم من حملة البنادق الراكبين الذين ضايقوا جيشاً كان أصغر كثيراً من أن يستطيع القيام بعمليات حربية فعالة فى ميدان فسيح كجنوب إفريقية ، مما أدى به إلى ارتكاب أعمال قسوة أثارت اللوم العام . فقد رأى الجيش الإنجليزى أنه من اللازم له أن يحرق بيوت الفلاحين البوير ، ويبنى معتقلات خشبية يجمع فيها النساء والأطفال الذين أجلاهم عن منازلهم .

صلح فيرينيجنج

غير أنه مهما يكن اتخاذ تدابير قمعية كهذه أمراً لا مندوحة عنه فى نظر الرجال العسكريين ، فإنه كان مقيتاً فى أعين شعب متسامح كالشعب الإنجليزى . ومع أن عبارات كامبل بنرمان Campbell Bannerman الزعيم الحرّ الذى ندّد فيها « بالطرق الوحشية المتبربرة » التى استخدمها الجيش البريطانى ، لم تلق ارتياحاً أو موافقة لدى بنى جلدته ، فإن الحقيقة الواقعة ، وهى ضرورة اتخاذ مثل هذه التدابير ، كانت تحوى فى ثناياها حجة إضافية على وجوب إنهاء الحرب من غير إبطاء .

ولذا أيدت الحكومة الإنجليزية كتشنر فى رغبته فى إبرام صلح يتم بالمفاوضة ، بدلا من أخذها بالرأى القائل بضرورة تسليم البوير من غير قيد أو شرط ، وهو الرأى الذى كان ملنر المندوب السامى فى جنوب إفريقية يؤثره . فجاءت معاهدة فيرينيجنج Vereeniging التى أنهت القتال ، محاولة حقيقية لمصالحة البوير . فمع أنه اشتُرط عليهم فيها الموافقة على ضم بلادهم إلى الإمبراطورية البريطانية ، إلا أنهم مُنِحوا ثلاثة ملايين من الجنيهات ، لإعادة بناء منازلهم وإصلاح مزارعهم ، وذلك بدلا من أن يطالَبوا بدفع غرامة حربية . وقدم الجنرال بوثا Botha قائد البوير إلى لندن بعد انتهاء الحرب ، وألفى نفسه لدهشته بطلا محبوباً . فقد رحب أهل قصبة الإمبراطورية المرحون ذوو الروح الرياضية المنصفة بمقدم أعند خصم من خصومهم الحديثين ، وأكبرهم شأناً — رحبوا به بهتافات : « يحيا بوثا الطيب الصالح » ، كرجل مهذّب

الشمائل ، وكخصم مهزوم شريف ، وكصديق .

أصل حركة الكشافة

وقد حرّك حادث صغير من حوادث الحرب الجماهيرَ الإنجليزية ، وأثار حماسهم وابتهاجهم العظيمين : وهو تمكن الجيش الإنجليزى من إنقاذ بندر لم يكن بالكبير يقع على حدود الترنسڤال الغربية . فإن حصار بندر مافكنج Mafeking لم يكن ليثير فى الشعب الإنجليزى إلا أضأل الاهتمام ، لولا أنه كان يدافع عن تلك البلدة الصغيرة رجل عبقرى ، جعلته البرقيات التى كانت ترسل إلى إنجلترا ، واصفة سعة حيلته وهجماته الباسلة — جعلته بطلَ بنى وطنه المحبوب . فإن اسم ﭙادنْ ﭙاولْ Paden Powell الذى صار ذائع الصيت فى بلاده نتيجة عمل من أعمال البطولة الحربية ، رنّ فيما بعد فى الآفاق نتيجة كسبه نصراً كبير القدر فى ميادين السلم . فإن حامى ذمار مافكنج أسدى خدمة جليلة لم يسبقه إليها أحد لتربية الشباب نتيجة لخبرته بالقتال فى هضاب الفلدت وذلك بتأسيسه نظام الكشافة للأولاد . فقد غدت الآن هذه الحركة مؤسسة عالمية ، وأضافت قوّة ميمونة جديدة فى المجتمع لبناء أخلاق الشبيبة ودعمها .

فمن حربين إنجليزيتين : حرب القرم ، وحرب جنوب إفريقية ، برزت قوتان غير مرتقبتين لرفع شأن الإنسان ، ومدتا يد الغوث إليه . فقد وهبت حرب القرم فلورنس نيتنجيل إلى صناعة التمريض ، وأرشدت حرب جنوب إفريقية ﭙادن ﭙاول إلى ابتداع لون من ألوان التدريب الخلقى ملائم جدّ الملاءمة لطبيعة الصبيان ، ويهدف إلى معالجة السآمة والضجر اللذين يشيعان بين تلاميذ مدارس المدن والبنادر ، بفتحه لهم ميدان الحرية فى الأماكن الطليقة الهواء ، وتدريبهم على الحياة الخشنة .

٣ — السياسة الداخلية الإنجليزية

وزارة سالسبرى

فاز حزب المحافظين الذى كان يتولى حكم إنجلترا خلال إبرام صلح ڤيرينجنج — فاز بأغلبية ساحقة فى مجلس العموم فى الانتخاب العام الذى جرى

سنة ١٩٠٠ . وكان يرأس الوزارة لورد سالسبرى ، وكان أكبر أعوانه فيها ا . ج . بلفور وچوزف تشمبرلين . والأول منهما إنسانى كامل السجايا ، وفيلسوف غزير العلم ، ذو ملكة خاصة للجدل والنقاش البرلمانى . أما الثانى فكان من أتباع مذهب المنفعة العامة ، وبعد حياة دءوب ناجحة فى ميدان الأعمال ، وفى مجلس بلدية برمنجهام ، دخل البرلمان . وما عتم أن أبدل آراء شبابه الراديكالية الأولى بمبدأ التوسع الاستعمارى المنشىء ، وأخذ يحض بكل قوته عليه ، حتى صار فى ذلك الحين أبرز رجال حزب المحافظين وأنفذهم كلمة .

ولكن لا يمكن اتخاذ انتخاب أجرى وأهواء الحرب الجامحة ونزواتها الهوجاء ما زالت مشبوبة فى النفوس ، دليلا على القوة الحقيقية للأحزاب السياسية . فإنه سرعان ما شرعت حكومة المحافظين تعالج المسائل الداخلية حتى اعترى قوتها ضعف محسوس . فإن أنصار المذهب البروتستانتى المنشقين Nonconformists استاءوا من طريقة علاجها لشؤون التعليم وبيع الخمور ، واستنكر العمال الإنجليز استيراد العمال الصينيين إلى جنوب إفريقية للعمل فى مناجمها ، وأظهر أرباب التجارة والصناعة عدم رضاهم ، ببدئهم حملة قوية ضد النظام المتين الأركان لحرية التجارة الذى كان سائداً وقتئذ فى إنجلترا .

قانون التعليم سنة ١٩٠٢

وكان الواضع الحقيقى لقانون التعليم الذى أقره البرلمان سنة ١٩٠٢ ، هو السر روبرت مورانت Sir Robert Morant ، وهو موظف قوى النفوذ من كبار موظفى الحكومة الذين كثيراً ما يعملون أكثر من الوزراء ، رؤسائهم الرسميين ، فى صوغ سياسة البلاد . ولقد كان هذا التشريع عملا جليل الشأن عظيم الخير ، أحدث انقلاباً خطيراً فى النظم التعليمية بإنجلترا . إذ نقل إدارة التعليم المحلية من المجالس المدرسية إلى لجان خاصة بالمجالس المحلية : أى إلى هيئات منتخبة بواسطة دافعى العوايد والرسوم المحلية ، ولذا فهى هيئات حائزة على السلطات التى يمنحها حق الانتخاب لأعضاء تلك المجالس ، كما تقع على عاتقها التبعات والواجبات التى يفرضها هذا الحق .

وتقدم أنصار هذا الإصلاح بالحجة بأن هيئات تستطيع أن تفرض مكوساً ، هى هيئات تستطيع أن تعمل الشئ الكثير ، وتجسر على القيام بمشروعات للتعليم أكثر من المجالس التى ليس فى طاقتها إلا أن تشير وتنصح . فكان هذا القانون فى صميم الواقع بمثابة حافز لكل مدينة وكل مركز بأن يشعر بفخر العمل على ازدهار مدارسه وتقدمها بكل ما يتسع له الذّرع . وبجسارة قضت بها الضرورة ألغى هذا القانون القواعد المتبعة يومئذ ، وأجاز منح إعانات مالية من خزينة الدولة لنشر التعليم الثانوى .

معارضة الأحرار

ولكن رغم هذه المزايا استاء البروتستانت المنشقون أشد استياء ، وبالتالى استاءت أغلبية حزب الأحرار من وضع مدارس الطوائف غير البروتستانتية تحت هيمنة الحكومة ، ومنحها حق طلب إعانة من الأموال العامة المحلية . فقالوا ، كيف يكون من العدل وكيف يتلاءم مع الوجدان الدينى أن يُلزَم إنجيلى بدفع عوايد لمساعدة مدرسة تسودها الروح الكاثوليكية ، أو أى مذهب آخر غير المذهب الإنجيلى ؟ وأدهى من هذا هو الشكوى القائلة بأنه فى النواحى التى لا توجد فيها غير مدرسة واحدة ، كان يُكرَه البروتستانت المنشقون على إرسال أولادهم إلى مدارس تشرف عليها الكنيسة البروتستانتية الرسمية .

وقد أطلقت المحاولات التى احتدم أوارها فى طول البلاد وعرضها بين الطوائف الإنجيلية العديدة ، والطوائف الكاثوليكية — أطلقت هذه المحاولات العنان للغيرة الكامنة فى النفوس بين هذه الطوائف . وبلغ من حدة الشعور أن كثيرين من المنشقين أخذوا يقاومون « بطريقة سلبية » هذا القانون ، ويفضلون أن يُزجوا فى السجون ، على أن يدفعوا الضرائب المحلية المفروضة عليهم .

تحديد المسكرات

وكان تحديد بيع الخمر مسألة أخرى اشتد عليها الحوار والخلاف أينما اجتمع الأحرار . فقد كان شر المسكرات شراً يسلم به الجميع . كما كانوا يسلمون بارتباطه بالإجرام والشقاء الاجتماعى الضاربين أطنابهما . وكان كل مصلح اجتماعى يعتبر احتساء الخمر أعظم العقبات وأقوى العراقيل فى سبيل

الإصلاح الاجتماعى . وقد اقتُرحت أدوية عديدة لعلاج هذا الوزر : فاقترح تحريم الخمور تحريماً باتاً ، أو منح السلطات المحلية حق تحريمها داخل تخومها ، أو إنقاص عدد محال بيع الخمور الزائدة كثيراً على الحاجة إنقاصاً كبيراً ، وذلك بوضع نظام صارم للترخيص .

ولهذا السبب اعتُبِرت خطوة رجعية تنكص بالأمة إلى الوراء إجازةُ مجلس العموم فى سنة ١٩٠٤ قانوناً يعد رخصة صاحب الحانة ملكاً خاصاً لا يمكن للسلطات المرخصة نزعها منه دون تعويض (إلا فى حالة إساءة استعمالها) . فانضم إلى جانب المعارضة التى كانت تتجمع وتتزايد ضد حكومة المحافظين بسبب خطأ سياستها التعليمية – انضم إلى المعارضة جميع المهتمين بمحاربة الخمور فى البلاد ، المستنكرين لسياستها ، الساخطين عليها .

مسألة استخدام العمال الصينيين

إلا أن هذا كله لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب الغضب الذى أثاره استخدام العمال الصينيين فى مناجم جنوب إفريقية ، والتهديد بقلب النظام الجمركى القائم على حرية التجارة . فإن نقابات العمال الإنجليزية التى كانت قد شيدت لنفسها صرحاً شامخاً واسع السلطان ، لا يعدله أى نظام عمالى شبيه به فى قارة أوربا ، رأت فى اقتراح استيراد العمال الصينيين إلى جنوب إفريقية خطراً يهدد مستوى المعيشة فى انجلترا ذاتها ، وهو المستوى الذى كانت أجيال ثلاثة قد كدّت ودأبت على بنائه . فقد أخذ رجالها يتساءلون : إذا كان فى الإمكان استيراد فرقة من العمال الصينيين إلى جوهانسبرج ، أفلا يصبح فى وسع أصحاب رءوس الأموال أن يملأوا بنفس السهولة مصانع لنكاشير ويوركشير بعمال أجانب سهلى الانقياد قليلى الأجور ؟ وإذا حدث هذا ، فماذا يكون موقف العمال البريطانيين تجاه هذا الخطر ؟

إن أولى نتائج هذا الخطب ستكون تحطيم حركة نقابات العمال البريطانية بأكملها ، ما فى ذلك من شك . وسيكون من نتائجه أيضاً تخفيض الأجور ، وتدهور مستوى المعيشة ، وتوسيع الثلمة القائمة بين صاحب العمل والعامل اتساعاً هائل المدى . ومع أن خطر استيراد عمال من الأقطار الشرقية إلى إنجلترا

كان بعيداً جداً، وبولغ فى شأنه نتيجة للنضال الحزبى ، إلا أنه ليس ثمت ريب فى أن « الاسترقاق الصينى » كان عنصراً هاماً فى خلق السخط العظيم الذى شاع فى البلاد يومئذ ، والذى جعلها تعيد حزب الأحرار إلى تقلد زمام الحكم على أثر انتخابات سنة ١٩٠٦

مسألة إصلاح التعريفة الجمركية

ثم كانت هناك مشكلة أخرى أكبر وأخطر : تلك التى أثارها چوزف تشمبرلين فى حملته التى قام بها لإصلاح التعريفة الجمركية . ففى خلال زيارة قام بها بوصفه وزير المستعمرات ، فى جنوب إفريقية سنة ١٩٠٣ ، رسم سياسة محكمة ظن أنها قد تقصى أذهان مواطنيه عن خلافاتهم التافهة الدائرة حول مدارس الكنائس والحانات ومحال بيع الخمور ، وتجدد قوى حزب المحافظين المتناقصة . وسلطانه المتداعى . ذلك بأن يُقرَن اسم هذا الحزب بالمسألة الرنانة الفخمة ، وهى العمل على ترسيخ دعائم الإمبراطورية وربط أجزائها بعضها ببعض . وتراءى له أن الأصوات التى كان المحافظون قد فقدوها نتيجة سياستهم فى مسائل التعليم ومشكلتى الخمر والعمال الصينيين ، يمكن إعادتها إليهم بانتهاج سياسة جريئة تقوم على منح تفضيل جمركى بين إنجلترا ومستعمراتها .

ورجع تشمبرلين إلى إنجلترا وقد وطن العزم على شن حرب شعواء على مبدأ حرية التجارة فى بلاده . فاستعفى من منصبه الوزارى ، وشرع فى « حملة مستطيرة بالغة العنف » فى البلاد . ولكن وزارة بلفور تمسكت وقتئذ بمبدأ الحرية . وأخذ رئيسها يوازن فى خفة ومهارة بين فوائد التفضيل الإمبراطورى وأضراره ، حتى ينتهى من المفاوضات السياسية التى كانت دائرة فى ذلك الحين مع فرنسا . وحينئذ يشعر بأنه حر فى مواجهة الناخبين برأيه ، والجهر أمامهم بتحبيذه مبدأ الحماية ، ودعوتهم إلى مناصرة مبدأ تفضيل المستعمرات فى شؤون الواردات والصادرات .

أما نظام حرية التجارة فقد ساد إنجلترا مدة ستين عاماً ، خبرت البلاد فى غضونها ازدياداً مدهشاً فى رخائها القومى . فعلى حين تقدمت الصناعات ، وجُمعت ثروات طائلة ، فإن طعام عامة الشعب ازداد تنوعاً وأصنافاً ، ووفرت

كمياته ، ورخص ثمنه برخص أثمان الحبوب والفواكه التى أخذت تستورد من جميع أصقاع العالم . فظُنَّ أن ازدهار مصنوعات لنكاشير القطنية التى كانت تعتمد فى رخائها على الأسواق الشرقية يهدَّد بفرض أى مكوس ، مهما تكن زهيدة ، من شأنها أن تميل إلى رفع كلفة الإنتاج . فقد كانت تتقلص صادرات المنسوجات البريطانية بدرجة ملموسة عند حدوث أقل ارتفاع فى أثمانها .

أضف إلى ذلك أن صناعة السفن والنقل البحرى ، والعمليات المصرفية ، واستخراج الفحم ، كانت صناعات أساسية راسخة القدم فى إنجلترا . وقد غنمت وانتعشت من وراء اتباع نظام حرية التجارة . فكان فرض مكوس جمركية يلحق بها الأذى . وعُدَّ أمراً بديهياً أن يكون ثمن الحديد والصلب أرخص ما يمكن فى بلاد أضحت فيها استخدامات الصلب عديدة للغاية ، وتطبيقات الآلات الميكانيكية عميمة جداً . وكان يُعتقد أن لندن كمركز العالم المالى ، وأن ضخامة الأسطول التجارى ، ونشاط مصانع الغزل والنسيج ، تقوم جميعاً على حرية التجارة .

ومع أن أقطاراً أخرى لم تحذُ حذو إنجلترا فى انتهاج سياسة حرية التجارة ، ومع أن قطرين على الأخص منها : وهما الولايات المتحدة وألمانيا ، أيسرت حالهما ، وزاد رخاؤهما تحت حماية التجارة ، إلا أن البضائع الإنجليزية مع ذلك ظلت تُنقل إلى جميع أرجاء العالم . وظل المبدأ القديم القائل بأنه فى الميسور غزو إنجلترا للأسواق الأجنبية برخص أسعار صادراتها — ظل مبدأ محترماً فيها ، رغم الرسوم العالية المفروضة على بضائعها فى البلاد الأجنبية .

فبدت التضحية بكل هذه المزايا والمنافع التى لا ريب فيها كأنها مقامرة مجازفة ، وأن بريطانيا لا تستطيع الاعتماد على مقدرتها على شراء الأطعمة الضرورية لتغذية سكانها ، إلا بنفاق تجارة صادراتها القائمة على رخص منتجاتها . ولما شرع تشمبرلين فى حملته ، كانت ذكرى « سنى الأربعين الجوعاء » من القرن الماضى ، ما زالت حية ماثلة فى أذهان الأمة . كما أنه لم يكن هناك

موضع أشد مطعناً فى نقد سياسة تشمبرلين الجمركية من الضرورة التى كانت هذه السياسة تنطوى عليها – وهى ضرورة فرض رسم جمركى على واردات الطعام إلى إنجلترا ، إذا كان يُبتغى حقاً منح المستعمرات المستقلة والمستعمرات الأخرى تفضيلا ذا قيمة فى المعاملة .

ولكن فى الكفة المقابلة لهذه الأضرار والمخاوف ، كشف تشمبرلين للعيون عن مشهد إمبراطورية عظيمة مرتبطة الأجزاء بروابط قوية من سياسة التفضيل الجمركي . فناشد بريطانيا بأن تضع مكوساً حامية على الواردات – وتدخل فيها المواد الغذائية والخامات ، (أولا) لكى يتسنى لها أن تعطى الممتلكات المستقلة والمستعمرات تفضيلا على الممالك الأجنبية ؛ (وثانياً) لكى تكون هذه المستعمرات بمثابة درع يقى المصنوعات البريطانية من المزاحمة الأجنبية . وأخذ تشمبرلين فى هندامه الأنيق ، تزينه زهرة فى عروة ملابسه ، ومونوكل على عينه اليمنى – أخذ يطوف فى البلاد طولا وعرضاً بصفته رسول الإصلاح الجمركى ، شارحاً هذه الآراء بهمة قعساء منقطعة النظير ، يناشد الأمة مرة بعواطفها الإمبراطورية ، ويشير أخرى إلى صرامة المزاحمة الأجنبية المتزايدة ، خاصاً بإشارته تقدم الصناعة الألمانية .

واقتفى أثره أسكوث الخطيب المفوه للأحرار (الذين كانوا يؤيدون مبدأ حرية التجارة) مطوفاً أيضاً ومفنداً . وامتد النقاش واتسع الجدل . فأثارا فى كل بيت مشكلات غاية فى الخطورة والتغلغل .

وكانت النتيجة السياسية الأولى لهذا الجدل أن انشق حزب المحافظين على نفسه ، وكان قد أوهنه من قبل انفصال الدوق ديفنشير وغوشن عنه . وكانت النتيجة الثانية لهذا الجدل أنه أعان الأحرار على إحراز نصرهم العظيم سنة ١٩٠٦ . فباءت إلى برهة قضية الإصلاح الجمركى بالخذلان . وكسب الرخاء – لا التشدق بالألفاظ – الفوز فى هذه المعركة .

٣ – حكومة الأحرار

فوز حزب الأحرار وأهدافه

حكم حزب الأحرار البلاد عشر سنوات على أثر نجاحه المظفر فى الانتخابات

ووقف ينادى بالسلام وحرية التجارة ، ويسعى إليهما . وكان يعد التجارة نظاماً وُضع للمبادلات بين أصدقاء لمنفعتهم المتبادلة ، لا نضالا بين متنافسين . وكان يصبو إلى تخفيض النفقات على التسلح ، وترقية الخدمات الاجتماعية . واهتم بمداواة شكايات البروتستانت المنشقين وأشباهها التى كانت تجيش بها صدورهم بصدد مدارس الكنيسة، وتحديد تجارة الخمور . ورَفَضَ سياسة التفضيل الإمبراطورى للواردات من المستعمرات .

منح جنوب إفريقية الحكم الذاتى

وتجلى الضرب الذى آثره هذا الحزب من ضروب الاستعمار حينما أعطى كامبل بانرمان رئيس الوزراء الجديد حكومة مسئولة للترنسفال وولاية أورانج الحرة سنة ١٩٠٨ . وفى الحق ليس ثمت إجراءات عديدة فى التاريخ الحديث أكثر جرأة من تقرير إعادة زمام حكومة إفريقية الجنوبية إلى يد أبنائها بعد نضال مرير . وقد أبانت الحوادث بعد ثمانى سنين من هذه المنحة أن ثقة كامبل بانرمان لم توضع فى غير موضعها ، وذلك عند ما قاد الجنرال بوثا البويرى مواطنيه فى الحرب العظمى إلى جانب بريطانيا ، بعد أن قمع بإقدام عصياناً حرّضت عليه زمرة قليلة من زملائه القدماء فى حرب البوير .

نمو قوة ألمانيا

وإنه لمن مساخر الأقدار أن هذه الحكومة المحبة للسلام ، الساعية لإقرار نصابه، كُتِب لها أن تلج أزمة أوربية بعد تأليفها بقليل . ذلك أن مركز ألمانيا فى أوربا كان قد تقوّى فى العامين السالفين بسلسلة من الحوادث عاونت على الإضعاف من قيمة التحالف الروسى . وكانت أولى هذه الحوادث نشوب حرب بين روسيا واليابان فى فبراير سنة ١٩٠٤ ، وثانيتها إحراز اليابانيين سلسلة من الانتصارات المثيرة للدهشة فى تلك الحرب ، وثالثتها حدوث رجة عنيفة ثورية فى روسيا قفت على التوانهيار الجيوش الروسية فى ساحة الوغى .

حادث مراكش

فى عام ١٩٠٥ أى فى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه المتاعب والاضطرابات ، لاحت للكونت شليفن Schlieffen رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية ، أن الفرصة مواتية لأن يقترح على حكومته إقحام حرب على فرنسا . ولم تبدُ هذه الفكرة الخالية من روح الإنسانية مجرمة أثيمة ، أو على

الأقل فكرة تأباها النفوس الشريفة ، فى نظر الرجلين الأثيمين اللذين أصبحا الآن يوجهان دفة السياسة الخارجية الألمانية . فقد اتفق الكونت بيلوف Bulow مستشار الإمبراطورية المداهن السهل الانقياد ، والبارون هلشتين Holstein : هذه القوة الغامضة الشريرة وراء العرش الألمانى – اتفق هذان الرجلان فى الرأى بأن الوقت قد حان لاختبار متانة الاتفاق الإنجليزى الفرنسى بشن هجوم دبلوماسى قوى ، حتى ولو جازفا باشتباك بلادهما فى حرب . واختيرت مراكش نقطة للهجوم . فإن انجلترا بإطلاقها يد فرنسا فى مراكش اشترت عدم تعرض الفرنسيين لمركزها فى مصر . فحزر الساسة الألمان بحق ، أنه ما لم يكن الإنجليز على استعداد لأن يؤيدوا الفرنسيين فى مراكش ، حتى ولو كلفهم هذا التأييد امتشاق الحسام ، فإن الصداقة الإنجليزية ستفقد نهائياً قيمتها فى أعين فرنسا .

وعلى ذلك بدأت ألمانيا حملة عنيفة ، فأوفد الإمبراطور فى بعثة إلى طنجة ، ليؤكد لسلطان مراكش نياته الخالصة نحوه ، ورغبته فى شد أزره . وتطورت الحوادث . فأكره الفرنسيون على أن يقبلوا – تحت تهديد إعلان الحرب – استقالة دلكاسيه وزير خارجيتهم ، ودعوة مؤتمر دولى إلى فرضة الجزيرة بمراكش .

تقوية الاتفاق الودى

غير أن الألمان لم يستفيدوا إلا قليلا من إلحاق الهوان بعدوهم بهذه الدبلوماسية الفظة الصلفة . فإن السير إدوارد غراى Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية الجديد الحر المذهب حكم فى سداد رأى بأن شرف بلاده قد أصبح معلقاً على منحه الفرنسيين كيلا مهزوزاً ملبداًمن التأييد الدبلوماسى فى مؤتمر الجزيرة[١] . وإذ ثارت فى نفسه الهواجس بأخطار قيام ألمانيا بهجوم على فرنسا رخّص بإجراء محادثات حربية سرية بين هيئتى أركان حرب فرنسا وإنجلترا . فكانت النتيجة العاجلة الأولى لهذا الضغط الألمانى على فرنسا هى إحكام أواصر الاتفاق الفرنسى الإنجليزى أكثر من إضعافها .

(١) عقد فى يناير ، وانتهى فى إبريل سنة ١٩٠٦ .

ومع أنه لم يُعلَن شيء فى ذلك الحين للجمهور — بل إنه حتى معظم أعضاء الوزارة البريطانية ساهموا فى هذا الجهل — فإن خطوة حاسمة اتُّخذت ، حينما رُخِّص فى يناير سنة ١٩٠٦ لرئاستى أركان الحرب الفرنسية والبريطانية أن ترسما خططاً، باعتبار احتمال قيام حرب بين ألمانيا وفرنسا . ومع أنه أوضح وقتئذ بتدبر وعناية أن محادثات كهذه لن تربط بشىء الحكومة الإنجليزية التى يجب عليها أن تسترشد فى نهاية الأمر برأى البرلمان والأمة وعواطفهما الأدبية، إلا أنه خلق فى أذهان رجال الحرب فى فرنسا وإنجلترا بأنه يتعين عليهم أن يكونوا بعضهم لبعض ظهيراً . فتبودلت المشاورات المستترة وبحثت الخطط السرية . فكان بدء هذه المحادثات الحربية دليلا على أن الاتفاق الإنجليزى الفرنسى لم يُقصد منه أن يكون مجرد تسوية لنزاعات استعمارية ، بل إنه كان تفاهماً قد يقود إنجلترا إلى الاشتراك فى حرب أوربية ، حينما ينشأ سبب وافٍ لنشوبها ، بشرط أن يوافق البرلمان على خوض غمارها .

المباراة البحرية بين انجلترا وألمانيا

وفى الوقت عينه كانت وزارة البحرية الإنجليزية تراقب بعين قلقة نمو الأسطول الألمانى . ومما هو حرى بالذكر أن الأسطول فى إنجلترا لم يكن مثار نزاع بين أحزابها . فقد كان الكل يدركون أن حماية واردات غذاء الأمة فى زمان الحرب يتوقف على امتلاكها ناصية البحار ، وأن تماسك أجزاء الإمبراطورية البريطانية ذاتها يستند فى نهاية الأمر إلى مقدرة الأسطول البريطانى على تطهير البحار من أعدائه .

وكان هناك مبدأ عام تسترشد به البحرية الإنجليزية كجزء من السياسة القومية ، وهو أن ترمى إلى جعل قوة الأسطول الإنجليزى مماثلة تقريباً لمجموع قوات أقوى دولتين بحريتين فى العالم تليان بريطانيا ، كى يتسنى له أن يكون ذا أثر فعال . ولكن نهوض البحرية الألمانية غيَّر الموقف على الفور . ولم يكن رجال البحرية الإنجليزية يميلون إلى التقليل من قيمة المزايا البحرية لسفن الحرب الألمانية ، أو براعة المدفعية الألمانية ، أو جرأة البحارة الألمان ومناقبهم البحرية . ونظراً لأن رجال البحرية الإنجليزية كانوا يقدّرون تقديراً جميلا حذق

رجال البحر الألمان ، فإنهم نبهوا بتوكيد شديد إلى الخطر الناجم من سياسة ألمانيا البحرية . وما كان رجال البحر الإنجليز يرونه ، كانت حكومتهم وبلادهم تريانه أيضاً . فانتهى الرأى إلى أنه مهما عظم البذل، فإنه يجب على إنجلترا أن تتفوق تفوقاً جلياً على ألمانيا فى بناء السفن الحربية .

ولذا اتُّخِذت فى سنة ١٩٠٦ خطوتان دلّتا على أن وزارة الأحرار الجديدة مدركة للخطر الداهم، وكانت الخطوة الأولى بناء بوارج حربية كبيرة ، والثانية تركيز الأسطول المدافع عن إنجلترا فى بحر الشمال . فأجاب الألمان عن ذلك بإقرار قانون بحرى جديد . وأضحى السباق الآن فى التسلح البحرى سافراً غير محتجب . ولم تغفل الأميرالية البريطانية عن بناء السفن المدرعة الثقيلة ، لا بقصد استخدامها فى جهات نائية ، بل لمناضلة غريم قوى فى بحر الشمال .

ويقع نصيب ليس بالضئيل من تبعة هذه المباراة المفجعة المشؤومة على الرأى الخاطىء الذى كان يسيطر على عقلى الإمبراطور وليم الثانى وترپتز وزير بحريته ، وهو أنه ستمر فترة يكون فيها الأسطول الألمانى ضعيفاً نسبياً ، الأمر الذى قد يستهوى الإنجليز إلى تحطيمه . ولكن حينما تجتاز ألمانيا « نقطة الخطر » ، فإن كل شىء سيسير سيراً حثيثاً . ولقد ترتب على هذا التفكير أن ألمانيا رأت أنه كلما زاد عدد السفن الحربية التى تبنيها ، عجّلت فى اجتياز نقطة الخطر هذه ، وازدادت وثوقاً من احترام منافستها البحرية لها وامتثالها لرغائبها . وما كان فى الإمكان زحزحة الإمبراطور قيد أنملة عن هذه القاعدة من قواعد علم النفس والمنطق .

ولذا قوبل كل اقتراح آت من جانب بريطانيا ، يحبذ الوصول إلى تحديد لقوات الدولتين البحرية يتفق عليه الطرفان ، بحيث يترك لإنجلترا امتلاك عدد أكبر من السفن مما تملكه ألمانيا — قوبل كل اقتراح كهذا باستياء فى برلين ، وعُدّ إهانة لها . فحينما أقدم السر تشارلس هاردنج Sir Charles Hardinge الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية (١٩٠٦ — ١٩١٠) على فتح الحديث فى هذا الموضوع مع إمبراطور ألمانيا فى مقابلة لهما جرت

فى كرنبورج Cronborg فى ١١ أغسطس سنة ١٩٠٨ ، أخبره الإمبراطور بصراحة وتصميم أنه يؤثر الحرب على الموافقة على هذا الاقتراح .

حبوط مؤتمرى لهاى

وكان جو أوربا خلال هذه الأعوام مثقلا بالريب والشبهات ومخاوف الحرب . وقد دعا قيصر روسيا مؤتمرين دوليين ، عُقد الأول منهما سنة ١٨٩٩ ، وعقد الثانى سنة ١٩٠٧ ، والتأم جمعهما فى لهاى ، وأخذا يبحثان فى الوسائل التى تعمل على استقرار السلام ، وتعين على تخفيض التسلح . ولكن المؤتمرين بدلا من أن يحسّنا الموقف زاداه ضغثاً على إبالة . فقد لاحظ — فى ارتياب — الألمانُ الذين عارضوا أى إنقاص للتسلح الحربى أو البحرى ، أنه على حين اقترح قيصر الروس تحديد أنواع العتاد التى كانت روسيا تضمن على الدوام فوقانها الساحق فيها ، فإنه عارض فى وضع أى قيود أو تحديدات لزيادة السكك الحديدية الروسية ، التى كانت ناقصة فى ذلك الحين نقصاً فاحشاً . كما وقفت بريطانيا موقفاً مبهماً يدعو إلى الالتباس والتشكك . فهى من الجهة الواحدة طالبت فى إصرار بإنقاص التسلح الحربى ، ومن الجهة الأخرى عارضت الاقتراح الذى اجتمعت عليه كلمة ألمانيا وأمريكا ، الخاص بمنح السفن التجارية المحايدة حصانة من تفتيشها فى عرض البحر أثناء الحرب . ولهذا السبب حقٌ لألمانيا أن تقول إنه على حين اهتم الإنجليز أشد اهتمام بنزع السلاح من قارة أوربا ، فإن هذه الدولة التى تملك أقوى أساطيل العالم ما فتئت تقترح استعمال حقوقها المحاربة على حساب التجارة المحايدة فى أزمنة الحروب . ولهذا لم تثمر هذه المناقشات الطيبة المقاصد ثمرة صالحة تؤتى أكلا .

الاتفاق الانجليزى الروسى

وفى الوقت عينه (سنة ١٩٠٧) أكمِل تأليف حلف كانت برلين تظنه فى حكم المستحيل ، وصار هذا التحالف حقيقة ماثلة . ذلك أن روسيا وإنجلترا ، الإمبراطوريتين الشرقيتين المتنافستين ، سوّتا خلافاتهما الخاصة بمناطق نفوذهما ومصالحهما فى الشرق الأوسط . فتلا الاتفاقَ الفرنسى الإنجليزى على المسائل الاستعمارية ، اتفاقٌ انجليزى روسى على المسائل

الأسيوية . وفى الحق لم يكن ثمت شيء أعظم حكمة من أن تجتهد الدولتان فى إزالة أسباب الاحتكاك والنزاع بينهما . ومع أن هذا الاتفاق كان موضع نقد البعض بصفته اتفاقاً جائراً على إيران ، إلا أنه أطرِى بوجه عام فى انجلترا بصفته خطوة هامة أخرى نحو تنظيم العالم بطرق سلمية .

غير أن برلين كانت تهجس بأفكار مغايرة جد المغايرة للأفكار السالفة أزاء هذه الاتفاقية . فقد عدّت التفاهم الإنجليزى الروسى قرينة جديدة أخرى تَنِمُّ عن المشروع المكياڤللى الذى عزت تدبيره إلى الملك ادوارد السابع والسر ادوارد غراى ، والذى كان فى نظرها ينطوى على العمل على تطويق ألمانيا بحلقة من الأعداء .

٤ ـ الانقلاب السياسى عام ١٩٠٨

سياسة ألمانيا

ولم تكن ألمانيا لترضى بأن تقف مكتوفة اليدين أزاء سياسة تطويقها هذه . بل وطنت العزم بنوع خاص على أن تبقى لنفسها طريق البلقان مفتوحاً إلى الشرق الأدنى وخليج فارس . ولما كانت النمسا صديقتها وحليفتها تملك أبواب ذلك الطريق ، فقد كان مبدأ أساسيًّا من مبادئ السياسة الألمانية ألا يُسمح لأى شيء بأن يوهن الاتحاد الوثيق القائم بين ڤينا وبرلين

وظفر هذا الحلف بين الألمان والنمساويين بدليل فذ نمَّ عن متانة تماسكه . فإن خريطة البلقان السياسية كانت قد رُتبت بصعوبة شديدة بواسطة مؤتمر عُقد فى برلين سنة ١٨٧٨ من الدول الأوربية الكبرى . فحدد هذا المؤتمر رقعة بلغاريا ، وأعاد مقدونية إلى تركيا ، ودعا النمسا إلى إدارة ولايتى البوسنة والهرسك اللتين كان سكانهما صربيين أصلا ولساناً ، مع بقائهما تحت السيادة التركية .

النمسا تضم البوسنة والهرسك

صحيح أن معاهدة برلين لم تكن أنموذجاً أعلى للمعاهدات . فقد أثبتت مقدونية ببقائها تحت حكم الترك أنها مركز مزمن للاضطراب والشدة

والقمع . ولكن هذه المعاهدة حازت على الأقل مزية كونها تسوية وافقت عليها الدول الكبرى جمعاء . ولم يكن يستطاع تعديلها تعديلا مأموناً صالحاً من غير موافقة تلك الدول . ولذا كان التجهم والامتعاض عظيمين فى أوربا ، حينما عُرِف أن النمسا بدون علم حليفتها الألمانية ، ضمت البوسنة والهرسك (فى أكتوبر سنة ١٩٠٨) ، وأن بلغاريا بتشجيع النمسا ، أعلنت نفسها مملكة مستقلة عن الباب العالى . ولا ريب أنه كانت هناك حجج عديدة لتبرير هذه التعديلات . فقد تحمّلت النمسا عبء إدارة هاتين الولايتين السلافيتين . وكان عملها فيهما خيراً مثمراً . كما أن بلغاريا كانت تشيع فيها روح قوية من الكرامة القومية والطموح إلى الاستقلال .

ولكن ولو أن الغايات كانت حسنة ، إلا أن الطريقة التى انتُهجت لتحقيقها كانت تحديا لقانون أوربا العام ، وتهديداً جلياً لأركان السلام . إذ كيف يمكن أن يُرجَى من الصربيين أن ينظروا فى هدوء ورصانة إلى ضم أهل البوسنة فجأة إلى الإمبراطورية النمساوية ، وهم يكوّنون شعباً يعتبرونه عظماً من عظمهم ولحماً من لحمهم . فإن هذا العمل ألهب شعور السخط والحنق فى جميع أرجاء صربيا ، فى وقت كان الخطر فيه على السلام أشد منه فى أى وقت مضى ، إذ كانت تقف وراء صربيا تسند ظهرها ، وتشد أزرها ، قوة الإمبراطورية الروسية الهائلة ، وذراعها العظيمة البطش .

السلام فى خطر

وللمرة الثانية لاحت الحرب وشيكة الوقوع . فحثّ ملتكه وكنراد فون هتزندورف Conrad von Hotzendorf رئيسا هيئتى أركان الحرب الألمانية والنمساوية على التوالى ، على أن الأوان قد آن لمنازلة روسيا وفرنسا . وكذلك احتدمت الأهواء ، واضطرمت النفوس فى سان بطرسبرج . فقد كان إسفلسكى Isvolsky وزير خارجية روسيا (١٩٠٦ — ١٩١٠) الذى كان الكونت ايرنتال Aerenthal وزير خارجية النمسا (١٩٠٦ — ١٩١٢) قد غرّر به — كان اسفلسكى حانقاً أشد الحنق ، منددّاً أشد التنديد بالسياسة النمساوية ذات الوجهين . كما استفحل شعور كل روسى

بأن توازن القوى فى البلقان قد تحول تحولا حاسماً ضد الدول السلافية بهذا العمل النمساوى العنيف المباغت .

وفى هذه اللحظة ، التى ربما كانت مفعمة بالمهالك لإمبراطورية آل هبسبرج ، وقف الإمبراطور وليم جنباً إلى جنب مع فرنسيس چوزف يؤيده ويشد أزره . وأفهم قيصر روسيا (فى ٢٣ مارس سنة ١٩٠٩) أنه إذا كان سيمتشق الحسام فى هذا الشجار البلقانى ، فعليه أن يحسب حساب مقاومة الإمبراطورية الألمانية له . وكان التهديد كافياً ، ولكن بقى روح الإذلال دفيناً فى الصدور .

وفى العام التالى رفع الامبراطور الألمانى عقيرته فى ڤينا مزهواً بأنه فى أزمة البوسنة وقف « فى كامل عدته وعدده » إلى جانب صديقه وحليفه امبراطور النمسا . غير أنه لم يكن من سداد الرأى أن يزهو الإمبراطور أمام العالم بأنه ما كان فى المستطاع حفظ السلام إلا بهذا الوعيد . فقد وُجد فى بطرسبرج من أقسموا ، أنه إذا قامت أزمة مماثلة فى البلقان ، فإنهم لن يجعلوا روسيا تطأطئ الرأس مرة أخرى أمام إرادة الإمبراطور الألمانى .

وإنه لمن أبلغ الدلائل على النورستينيا الدولية التى سادت تلك الأزمنة ، أن رجلين من المرتبة الثانية : إيرنتال وزير خارجية النمسا النصف اليهودى ، واسڤلسكى ، وهو دبلوماسى روسى مختال فارغ الذهن يركب العناد رأسه — إنه لمن أبلغ الدلالات أن رجلين مثلهما كانا فى مقدورهما ، لا أن يجعلا أوربا على شفا حرب عامة فقط ، بل أن يلوثا أيضاً العلاقات القائمة بين إمبراطوريتيهما بجانب كبير من حقدهما الشخصى ، وأن ينفثا فيها قسطاً كبيراً من كراهيتهما العنيفة المتبادلة .

ذلك أن هذين السياسيين الواسعى المطامع كانا قد اجتمعا قبلا فى منزل ريفى ببوهيميا ، ونسجا معاً خيوط مؤامرة تعطى النمسا البوسنة والهرسك ، وتفتح لروسيا منفذاً إلى البحر الأبيض المتوسط . وقد حُبكت المؤامرة سراً . وبما أنها كانت تنطوى على نقض مزدوج لمعاهدة برلين ، فإنها كانت

بعيدة كل البعد عن الأصول المشروعة السليمة . أضف إلى ذلك أنه حتى إذا بقيت النمسا وروسيا محتفظتين باتفاقهما ، فإن خطة فتح المضيقين كانت تعتبر تحدياً لإنجلترا .

إلا أن إيرنتال هتك سر المؤامرة . فإن هذا المتآمر النمساوى أذاع نبأ ضم النمسا للولايتين قبل أن تتخذ روسيا أية خطوة لبلوغ مأربها . فحنق السياسى الروسى عليه أشد حنق . فقد أسفرت الأحبولة الماكرة التى كانت ستكسبه عرفان أمته الأبدى بإسداء هذه الخدمة الكبيرة لها — أسفرت عن الفشل . فلم تصل روسيا إلى بغيتها ، على حين غنمت النمسا ولايتيها . فعقد اسفلسكى النية — تلذعه كرامته المهانة وتذكى نار حقده مطامعه المهدورة — على أن تدفع النمسا ثمناً غالياً لغدر إيرنتال . ولهذا فإن من بين سماسرة الحرب خلال هذه الفترة ، يتسنم هذا الدبلوماسى الروسى درجة رفيعة — درجة توشك أن تدنو ارتفاعاً من مرتبة كنراد فون هتزندورف العنيف الهوى ، الشديد الغلو ، والداعية العنيد المراس ، المتأجج ناراً وحرقة إلى إضرام نار الحرب فى أوربا .

واقترح السر ادوارد غراى الذى كانت هذه الفعال غير المشروعة قد كدرته ، وهو قابع فى لندن بعيداً عن مركز تلك الحوادث — اقترح دعوة مؤتمر أوربى لتسوية هذه الخلافات . غير أن الوزارة الإنجليزية والبرلمان الإنجليزى لم يكونا قد انتهيا بعد إلى رأى قاطع فيما يجب على إنجلترا أن تصنعه ، لو أن فرنسا جُرَّت قدمها إلى الحرب بسبب هذه الأزمة البلقانية .

كتب يمكن استشارتها

J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933.

J.A. Spender : Life of Sir Henry Campbell-Bannerman 1933.

Earl Buxton : General Botha. 1924.

G.B. Allen : Sir Robert Morant. 1934.

J.L. Garvin : Life of Joseph Chamberlain. 1932.

Von Bülow : Memoirs. 1931-2.

Grey of Fallodon : Twenty-Five-Years. 1928.

الفصل الثامن والعشرون

صربيا والمملكة النمساوية الهنغارية

فرنسيس جوزف . الراديكالية فى المملكة الثنائية . كرواتيا تحس بنداء القربى . التهديد الصربى . حنق فينا . الثورة التركية عام ١٩٠٨ . سمتها الحقيقية . الاستبداد التركى يوحد بين دول البلقان المسيحية . مؤتمر أغادير . طرابلس . تكوين العصبة البلقانية سنة ١٩١٢ . انتصاراتها العجيبة . تجنيب مؤتمر لندن أوربا حرباً عامة . الحرب البلقانية الثانية . هزيمة بلغاريا . صربيا تغدو دولة البلقان الكبرى . مخاوف فينا .

١ – النمسا والروح القومية السلافية

فرنسيس جوزف

فى خلال الحقبة الطويلة (١٨٤٨ – ١٩١٧) التى استوى فيها فرنسيس چوزف على عرشه بڤينا ، ظل يكدح ويدأب فى مكتبه ، ويوقع ويقرأ ، من الصباح الباكر إلى عتمة الليل : رجل مفجوع القلب مكلوم الفؤاد – هذا إذا كان فى مقدوره أن يشعر بثقل الفجيعة . فقد اغتالت زوجه يدُ قاتل زنيم . وأزهق ابنه الوحيد روحه بيده. وألحق ابن أخيه – ووريث عرشه – العار بأسرته بقران لم يغتفره له الإمبراطور ، وذلك بزواجه من سيدة كلف بها ، تدنو مرتبتها الاجتماعية عن منزلة الإمارة .

ولكن سواء أكانت كل مقدرة لفرنسيس چوزف على الشعور والإحساس قد نضب معينها ، وجف ماؤها فى نفسه ، أم لشعور طاغ فى دخيلته بعظمة منصبه الرفيع ، أم لمجرد أن طبيعته كانت باردة جوفاء ، فإن هذا الرجل العجوز واصل السير دون أن يهزه شىء – رجل متعبد زاهد آلى ، كان يشاد

بمدحه بوصفه الفارس الأول فى مملكته ، والسيد النبيل الأول فى أوربا .

وقد وقته حواجز جامدة صماء من المظاهر والتقاليد الإمبراطورية صخب العالم الخارجى وضجيجه . وحَمَتْ طبقة أرستقراطية حربية ذمار عرشه ، وأمده نظام بيروقراطى إمبراطورى بالوزراء : يسيرون متعثرين ، يكدحون ويجهدون أنفسهم فى تأدية أعمال الحكومة المرهقة المحرجة للصدور . فإذا تألق اسم وزير منهم لا يلبث طويلا حتى يختفى .

ولقد منيت الإمبراطورية النمساوية فى غضون حكمه الطويل الأمد بضربات ساحقة عديدة : فمنيت بفقدان لمبارديا وولاية البندقية ، وسلب الدوقيتين الدنماركيتين ، وإقصائها عن الريخ الألمانى الأكبر . فبدت هذه الإمبراطورية كأنها تحمل حياة مسحورة لا يقربها الفناء ، حتى حينما كانت تسير فى خطى حثيثة نحو الانحلال والاندثار .

وكانت المملكة الثنائية ، من بين جميع الدول الأوربية ، أدعاها إلى التخوف والقلق من تطور النزوات القوميـــة والأهواء العنصرية التى كانت تكتسح اكتساحاً العالم قاطبة ؛ فنشاهد هذه الأهواء قوية فى اليابان ، مهدِّدة ثائرة فى الهند ، معمرة القلوب بالحماس فى المستعمرات البريطانية المستقلة ، وأخيراً نراها تحول مظاهر الحياة السياسية فى البلقان .

تطور النزعات القومية فى الإمبراطورية

كانت المملكة الثنائية — هذه الدولة الخليطة الأجناس — تقوم على قمع العنصرية وإنكار وجودها فى بلادها إنكاراً تامًّا . وواصلت الحياة ، مفترضة بأن ثمانية ملايين ونصف مليون تشكى ، وخمسة ملايين بولندى ، وأربعة ملايين روتينى ، وخمسة ملايين وسبعمائة ألف صربى وكرواتى ، وثلاثة ملايين وثلثمائة ألف رومانى ، ومليوناً وثلثمائة ألف سلوڤينى ، يقنعون بالخضوع لنظام حكومى يباشر فيه السلطان فى نصف من هذه المملكة عشرةُ ملايين مجرى ، وفى النصف الآخر اثنا عشر مليون ألمانى .

ولقـــد كان لهذا الافتراض ما يبرره خلال قرون عديدة . ذلك أن الإمبراطورية النمساوية كانت متماسكة أجزاؤها المختلفة بروابط

مذهب دينى مشترك ، وجيش مشترك ، وتاج مشترك ، حتى صار الناس يعدون وجودها ضرورة دولية . فإنه مهما بلغ تباين أجزائها ، وعظمت مشقة إدارتها ، فإنها كانت دولة منظمة تخدم غرضاً جد نافع . ولو أنها أزيلت ، لكان محوها يحدث فراغاً بغيضاً .

ومع ذلك غدا بقاء هذه المملكة مهدّداً من الداخل ، فقد كانت هناك احتكاكات مزعجة حتى بين الجنسين الحاكمين فيها : الألمان والمجر . فإن المجر كانوا يسعون إلى بتر كل شيء جوهرىّ لازم فى الأواصر الموحدة بين النمسا وهنغاريا ، وذلك عند إعادة النظر كلّ عشر سنين فى تسوية سنة ١٨٦٧ ، حتى لم يبق من هذه التسوية غير اتحاد مجرد عاطل ممثل فى شخص العاهل الذى يضع على مفرقه تاجيهما . وأسوأ من ذلك كانت العلاقات بين المجر والشعوب غير المجرية العديدة التى تقطن المملكة الهنغارية .

فالحقد ومرارة النفس اللذان رأيناهما يجيشان فى صدور الفلاحين الإرلنديين ضد أسيادهم الإنجليز ، كانا يجيشان بالمثل فى صدور السلوفاكيين والروتينيين والرومانيين والصربيين تجاه الأرستقراطية المجرية الممتازة المتعجرفة التى سعت بوسائل الشدة والقمع إلى « تمجير » تلك الأجناس ، فارضة عليها فرضاً لغتها ومدارسها ، وكانت تضع الأنظمة الانتخابية التى بواسطتها تتمكن من أن تخدع هذه الشعوب الضعيفة ، وتحرمها من نصيبها الشرعى فى التمثيل النيابى فى « الديت الوطنى » .

الراديكالية فى المملكة الثنائية

وأخفق نموّ الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والديمقراطية ، ونهوض حركة العمال الدولية ، ومنح حق الانتخاب العام سنة ١٩٠٧ — أخفقت هذه الأمور جميعها فى التلطيف من حدة الانقسامات بين الأجناس المختلفة فى الإمبراطورية . وكانت العنصرية على الدوام أقوى الدوافع فى إثارة الرأى العام ، فكانت أقوى من الشعور الدينى ، ومن الأواصر الطبقية الاجتماعية ، ومن روابط المهنة والتضافر الاقتصادى . وكان كل برلمان وطنى ومجلس إقليمى يميل إلى أن يصير بؤرة من بؤر النزاع العنصرى . وقد عبّر

كاتب نمساوى عن هذا الشعور بقوله : « لقد كان القميص العنصرى أقرب إلى القلب من البزة الإمبراطورية » .

حركة الانفصال

ونجم من هذه المشاحنات الخطيرة اشتداد الخوف من أن تمزّق الحركات الانفصالية شمل الإمبراطورية ، فقد كان سلافيو استريا Styria ، وإيطاليو التيرول الجنوبى يسعون إلى الانفصال ، وكذلك كان روتانيو غاليسيا الشرقية لا يألون جهداً فى فصم الروابط التى توحد بينهم وبين البولنديين الساكنين فى الجزء الغربى من هذه الولاية ، وكان فلاحو ترنسلفانيا (وهى إحدى مقاطعات هنغاريا) رومانيين ، لا فى الدم فحسب ، بل فى العواطف السياسية أيضاً . وفى كرواتيا التى كان أهلها يتميزون غيظاً لإكراههم على استخدام اللغة الهنغارية فى الشؤون الرسمية ، كان حزب ينمو نمواً حثيثاً فى العدد والنفوذ ، ويؤثر فصل هذه الولاية عن هنغاريا ، وضمها إلى اتحاد تعاهدى يتألف من صقالبة الجنوب ، ويضم ولايات البوسنة والهرسك ودلماشيا السسليتانية . بل ويضم أيضاً مملكة الصرب — هذا الحلم الذى كان يجول فى صدور بعض الأفراد الجسورين من الجنس السلافى .

قلق فينا وحنقها

ولم يكن من اليسير على سوّاس الإمبراطورية أن يغضوا أبصارهم عن مثل هذه الأمانى والحركات . وكانت حكومة فينا على حق فى نظرها بقلق وارتياب إلى أمنية قيام دولة يوغسلافية ، أو ولاية سلافية جنوبية تتمتع بالحكم الذاتى . فإن داء القومية السلافية لم يكن من الأدواء التى تعالَج بالقمع ، فلم يكن الكرواتيون مجرد شعب من الشعوب الخاضعة للنمسا خابت آماله ، ويمكن معالجة مشكلته بوسائل الرقابة والشدة ، بل كان شعباً صربيًّا لغة وجنساً ، حتى وإن كان يعتنق المذهب الكاثوليكى . ومع أن الكرواتيين تفانوا فى خدمة بيت هبسبرج ، حينما كانت صربيا ولاية مهيضة الجناح من ولايات الإمبراطورية التركية ، إلا أنه بعد أن نالت صربيا استقلالها ، لم يكن فى وسعهم أن يغلقوا قلوبهم عن أن تستجيب لنداء القرابة . وحينما كانت بلغراد خاضعة للترك اتجهوا بولائهم نحو فينا .

ولكن حينما غدت صربيا مملكة حرّة مستقلة قادرة على أن تدافع عن ذمارها ضدّ الترك والبلغاريين ، منادية بأنها صارت زعيمة الجنس السلافى فى البلقان ، فإن ولاء الكرواتيين للامبراطورية النمساوية أخذ يتنازعه الانقسام والشكوك .

نداء القربى

فمن ناحية كانت تربطهم بالإمبراطورية تقاليد نبيلة طويلة الأمد من الخدمة فى صفوف الجيش الإمبراطورى ، وسفكوا دماء غزيرة فى معامع عديدة خاضوا غمارها ، ونالو الألقاب والرتب الإمبراطورية عن جدارة ، وبعد عناء ونصب . ولكن من ناحية أخرى كان هناك ذلك النداء القادم إليهم من شعب يسكن عبر تخومهم : شعب باسل مقدام تربطهم به صلات الرحم واللسان ، شعب وإن كان لا يزال فى طور من التقدّم أحط مما بلغوه هم ، إلا أنه ظفر بحدّ السيف باستقلاله السياسى .

وكانت تزيد من قوة هذا النداء عاطفةُ بغض وكراهية متبادلة . فقد كان المجريون مقيتين فى أعين الكرواتيين ، مقتهم فى أعين الصربيين . وقد ظهرت أحاسيس الكراهية والبغضاء بين صربيا وهنغاريا فى شكل حرب جمركية مشئومة نشبت بينهما . وكانت هذه الأحاسيس مهيأة لأن تنقلب إعصاراً أهوج يعم آفاق السياسة الدولية .

ولهذا لم يكن عجيباً أن تنظر الحكومة النمساوية إلى صربيا ، نظرتها إلى عدو . فقد كانت تشاهد على تخومها الجنوبية دولة صغيرة الرقعة قليلة السكان حقًّا ، ولكنها دولة مسلّحة مقدامة مغامرة تنزع إلى الحرب والطعان ، وذات قرابات عنصرية متغلغلة فى النمسا وهنغاريا . وأبصرت فيها مركزاً قائماً للدعاية السلافية ، وإسفيناً يمكن أن يبدأ منه الهجوم السلافى ، فلم يكن افتراضاً متطرفاً ، أو افتراضاً غير قائم على سند معقول ، تصوّرُها بأن حركة تمتد من الصربيين إلى ذوى قرباهم الساكنين فى الإمبراطورية قد تؤدى فى النهاية إلى استمالتها الولايات السلافية الجنوبية استمالة تامة إلى صفها ، وأنه لا يبعد أن يصحب هذا الأمر ردود فعل يتعذر قياس مداها

بين الشعوب الأخرى المستاءة السريعة الإثارة التى تقطن فى وسط الإمبراطورية وشمالها.

جمعية اليد السوداء

ومكنت جريمة مروعة هذه الظنون والعداوات فى نفوس الساسة النمساويين. فقد كان فى الجيش الصربى جمعية سرية تعرف بجمعية اليد السوداء ، وهى جمعية ثورية وطنية تولّد فى نفوس أعضائها كراهية طاغية متأججة لأسرة أبرينوفتش Obrenovitch المالكة ، ليس فقط نتيجة لتلك الحزازات الدموية القديمة بين هذا البيت وآل كاراجيورجيفتش Karageorgevitch — تلك الحزازات التى مزقت صربيا مدة أجيال ثلاثة ، بل كانت أيضاً ناتجة عن أن الملك الذى كان يجلس على عرش صربيا كان يوصم فى نظر الصربيين بميوله المحافظة وسياسته المتحيزة للنمسا .

ولم يكن ضباط اليد السوداء يقفون عند حد ، أو يزجرهم وازع . فاقتحموا القصر الملكى (سنة ١٩٠٣) ، وذبحوا الملك والملكة ، وأمروا البرلمان بدعوة بطرس كاراجيورجيفتش من منفاه ليرتقى العرش الشاغر . وكان كاراجيورجيفتش هذا كهلا معتدل الآراء ، سهل الطباع . ولم يكن يعزّى النمسا إلا قليلا بأن ملك صربيا الجديد رجل لطيف المعشر ، وأنه ترجم فى منفاه كتاب جون ستيوارت مِلْ « فى الحرية » . فقد أيقنت أنه هو ومملكته صارا فى قبضة « جمعية اليد السوداء » السفاحة ، وأن هذه الجمعية التى كانت تنشر فكرة اتحاد جميع السلافيين الجنوبيين تحت حكم التاج الصربى لن تقبض يدها عن ارتكاب أية جريمة لتحقيق مآربها .

وما رجال السياسة إلا بشر كسائر الناس . وهناك نقطة تنهار عندها الأعصاب بتراكم المخاوف وتجمع أسباب القلق . ولقد كان ساسة ڤينا يسيرون باطراد نحو هذه النقطة فى السنين الأولى من القرن العشرين . فلم يسر أى أمر من الأمور طبق مرامهم . وفى أى جانب اتجهوا ، وجدوا صعاباً وعراقيل تعذر عليهم التغلب عليها ، مهما بذلوا من مجهود . وألْفوا منازعات تعذر عليهم التغلب عليها بأية وسيلة ، وأخطاراً تعذر على العين أن تدرك مداها .

وأضحى الجو مشبعاً بالمضايقات والسخط ونفاد الصبر . فصارت أذهانهم لا تفكر إلا في تأديب الصربيين ، وتعليم هذا الشعب الحديث النعمة المؤلف من القتلة والسفاحين والمتآمرين الأوغاد ، درساً قاسياً ، ووضع كل صربي حقير تعس في موضعه الصحيح . وحضّ رجال الحرب النمساويون ساستهم ، المرة تلو المرة ، على وجوب القيام بحرب وقائية . ومن المرجح أنه لولا تثبيط الألمان لعزائم هؤلاء الساسة ، لكانوا قداتبعوا مشورة رجالهم العسكريين .

٢ ـ الثورة التركية عام ١٩٠٨

أثر المدنية الغربية

وفى ربيع العام (١٩٠٨) الذى أحدث فيه إيرنتال انقلابه الناجح ، ولو أنه الانقلاب المشئوم الطالع ، اشتعلت ثورة عجيبة بين الأتراك . فإن هـــذه الأمة الأسيوية البدوية لم تبق جامدة غير متأثرة على الإطلاق باختلاطها الطويل بثقافة الغرب . فقد تضافرت الإرساليات الأمريكية ، والروايات الفرنسية ، وجامعتا باريس وبرلين ، على إعطاء العناصر الميسورة الحال من الأمة التركية وجهة نظر جديدة فى شؤون العالم .

فبدأ تهييج لإذكاء القومية الوطنية فى نفوس الأتراك ، وغدا هذا التهييج محسوساً فى ذلك المجتمع الفاسد المتدهور الذى ظل زمناً طويلا فى سبات تحت حكم عبد الحميد الثانى الجامح النزوات المثبط للهمم والعزائم . ثم اتخذ الحماس الوطنى بالتدريج شكلا عملياً ، فتكونت سرًّا جمعية دعت نفسها « لجنة الاتحاد والترقى » بقصد القضاء على خضوع العثمانيين الشائن للدول الغربية ، وبناء دولة عثمانية عصرية منظمة قوية ، واتخذت هذه الجمعية جنيف مركزاً لها (سنة ١٨٩١) ، ثم لجأت إلى باريس ، وأخيراً استقر بها المقام فى سالونيك (سنة ١٩٠٨) .

وكان كثير من أعضائها محامين وأطباء ، وبعضهم يهوداً ، والبعض الآخر ضباطاً ، وكان نشر الثقافة العامة الشعار الذى اتخذته هذه الهيئة التى لم تكن تمثل أتراك الأناضول الجفاة ، بل الطبقة التركية المتعلمة التى

كانت قد تكونت فى الثغور الكبرى ، نتيجة انتشار الثقافة الغربية فيها . وكان من بين أعضاء الجمعية أنور بك ، وهو ضابط شاب تلقى الفنون العسكرية فى برلين ، وطلعت بك ، وقد جاء من سالونيك وبدأ حياته كاتباً فى مكتب تلغراف ، وجاويد بك وهو مالى يهودى . ولما تمكنت الجمعية من ضم الجيش الثالث المعسكر فى مقدونية لنصرة قضيتها ، حسرت النقاب عن وجهها ، وأعلنت ضرورة تنفيذ الدستور التركى الذى صدر سنة ١٨٧٦ ، واستعدت للزحف على العاصمة .

نجاح الثورة

ولقد حلّ بأوربا الدهشة حينما وصل إليها خبر مالاقته ثورة الشبان الترك هذه من نجاح سريع . وفزع السلطان ، وبادر إلى إعلان عطفه الكاذب على الثورة وقبوله الدستور ، ودعا برلماناً إلى الانعقاد ، وسرّح جواسيسه ، وأعلن مبادىء الحرية والمساواة ، ولكنه ما عتم بعد قليل أن نقض عهوده . فانتهى الأمر إلى خلعه فى ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩ . وقبضت جماعة تركيا الفتاة على أزمة الدولة . وبذلك خُتِمَ حكم عبد الحميد الثانى الطويل الذى قام على التجسس والاستبداد . وارتقى السلطان محمد الخامس أريكة العرش ، وأوحِى إليه بأن سلامة تركيا وسعادتها تتوقفان على « تطبيق النظام الدستورى تطبيقاً مطرداً جديّاً » .

وخيل للمراقبين الأجانب ، مدى أسابيع قليلة عقب الثورة ، أن جميع الأفكار الشائعة بين الأوربيين عن الأتراك يجب أن تعدّل . فقد بدت أمامهم حكومة إسلامية هيأت نفسها لنقض كل مبدأ ، واستنكار كل قاعدة ، حُكِمت تركيا بمقتضاها فى الماضى : حكومة مؤلفة من أحرار وديموقراطيين وبرلمانيين ومحسنين ، ومن ساسة عاهدوا أنفسهم على أن يضعوا سكان البلقان المسيحيين على قدم المساواة مع العثمانيين المسلمين فى الامتيازات والحقوق والسلطة ، وأن يقدموا للدولة التركية جميع المنافع والمزايا التى تستطيع الحضارة الحديثة أن تمنحها للشعوب . ولُهج فى إنجلترا بذكر رجال تركيا الفتاة كمثاليين تواقين إلى التربى فى مدرسة الحرية ، وإلى إقامة برلمان تركى

على النمط الإنجليزى على ضفاف البوسفور .

السمة الحقيقية للثورة

ولكن هذه الأفكار كانت كلها خطأً فاحشاً ، فإن جماعة تركيا الفتاة كانوا بعيدين كل البعد عن أن يكونوا أحراراً . وكانت القوة الدافعة لحكومتهم هى التعصب القومى المتطرف . ولم يكن ثمت شىء أبعد إلى أفكارهم أو إلى فعالهم وطرقهم من محاولتهم مصالحة الشعوب المسيحية الخاضعة لهم . فقد أبدلوا طرق الاغتصاب والنهب والمصادرة والمذابح العديدة التى سادت فى عهد عبد الحميد ، باستبداد مركزى منظم . وزادت الاضطرابات ، وتضاعفت الإساءات ، وسارت ولاية مقدونية بسكانها المختلطين من بلغار ويونان وصرب ، من سيئ إلى أسوأ ، وأثارت الضرائب الجديدة سخط الألبان ، ومُنع اتحاد جزيرة كريت باليونان .

الاستبداد التركى يوحد شعوب البلقان

ولكن فى أقل من عامين ، حققت حكومة هؤلاء الوطنيين الأتراك الصارمة معجزةً لم يكن فى مقدور الساسة أن يتكهنوا بإمكان حدوثها . ذلك أن الطغيان الإسلامى الضخم الشديد البأس ، الذى كان يوحى به ، ويمسك بزمامه هؤلاء الرجال الذين صمموا على المقامرة بكل شىء فى محاولة يائسة لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية فى عالم قلب لها ظهر المجن — أمكن لهذا الطغيان أن يصنع هذه المعجزة ، وهى أن يبرئ فجأة البلقان من عداواته ، ويوحد أهله المسيحيين سنة ١٩١٢ فى عصبة حربية واحدة ضد الأتراك .

حادث أغادير

ودخلت الآن المسرحية البلقانية — التى كانت قد بدأت بالثورة التركية فى سالونيك — فى أدق أطوارها وأحرجها . ولكن قبل الكلام عنها ، يجب أن ننقل المشهد السياسى لحظة قصيرة إلى أغادير ، وهى فرضة غير معروفة على ساحل مراكش على المحيط الأطلنطى . فقد أرسلت الحكومة الألمانية إلى تلك الفرضة فى يوليو سنة ١٩١١ الطراد Panther احتجاجاً على إيفاد الفرنسيين حملة حربية إلى فاس . فأحدثت هذه المظاهرة البحرية ردَّ فعل عاجل فى باريس ، وفى لندن ، وفى روما . فألقى المستر لويد جورج

وزير المالية البريطانية خطاباً فى مأدبة عمدة لندن السنوية فى خريف ذلك العام، خرج فيه عن حدود وظيفته ، إذ أنذر الحكومة الألمانية بأنه إذا كان لا محيص عن إقحام الحرب على فرنسا بسبب ذلك الخلاف ، فإن إنجلترا لن تقف ساكنة .

طرابلس

أما فى روما ، فقد حفز إنفاذ الطرادة الألمانية إلى مراكش الحكومة الإيطالية إلى المغامرة فى مضمار الاستعمار . فقد أعْدَتْ وافدة الاستعمار إيطاليا أيضاً . وإذ لم تقنع بالتفكير فى المطالبة برد الأراضى الإيطالية التى كانت لاتزال خاضعة لحكم النمسا، أخذت تحلم بتشييد إمبراطورية إيطالية فى إفريقية.

ورنت عيناها إلى امتلاك طرابلس ، وشعرت بأنه إذا كان للألمان أطماع خفية فى ساحل إفريقية الشمالى ، فإنه يجب على إيطاليا ألا تضيع الوقت لئلا تفوتها الفرصة . وحتى جيولتى Giolitti رئيس الوزارة الإيطالية ، هذا البرلمانى الحاذق الذى كان قليل الميل إلى أىّ لون من ألوان المغامرات ، ولكنه السياسى الذى كان يصغى إلى كل شىء — حتى هو أدرك وجوب العمل على جناح السرعة . فبدون أن ينتحل شبه تكئة ، أعلن الحرب على تركيا فى يوليو سنة ١٩١١ ، وبعث بجيش إيطالى إلى ليبيا .

تكوين العصبة البلقانية

ولنعد الآن إلى البلقان ، فنقول إن تكوين العصبة البلقانية فى فبراير سنة ١٩١٢ كان عملا رائعاً مدهشاً ، ساعد على إتمامه سوء إدارة جماعة تركيا الفتاة لشئون بلادهم ، وغلظة أكبادهم ، وقسوة حكمهم . كما أن إنجازه يرجع أيضاً إلى بروز حفنة قليلة من الرجال الممتازين بالدهاء السياسى . منهم : بورشيير J.D. Bourchier مراسل جريدة التيمس فى بلغاريا ، ومسيو ڤنزيلوس Venizelos رئيس الوزارة اليونانية ، وهو كريتى عرك الثورات التى اشتعلت فى مسقط رأسه ، وكان ذا نظرة للأمور أوسع من نظرة معظم الساسة اليونانيين .

انتصاراتها العجيبة

وإذا كان إنشاء العصبة البلقانية قد عُدّ عجيباً ، فإن نجاحها كان أعجب وأدهش . فقد أعلنت العصبة — وكانت مكونة من دول اليونان

وصربيا وبلغاريا – الحربَ على الدولة العلية ، فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ .
وتمكنت الجيوش المتحالفة من إنزال الهزائم بالجيش التركى فى كل ملحمة
اشتبكت فيها معه . وحرم الأسطول اليونانى على غريمه الانتفاع بالبحر .
ودحر البلغار الجيوش العثمانية الرئيسية فى تراقية : أولا فى قرق قيليسى
Kirk Killisi فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١٢، ثم فى لول بورغاس Lul Burgas،
دافعين عدوهم أمامهم إلى ماوراء خطوط شطلجة، موقعين بصفوفه الاختلال العظيم.

وبينما كان البلغار يحرزون هذه الانتصارات العجيبة فى الشرق – هذه
الانتصارات العجيبة نظراً لسرعتها وكمالها – كان اليونانيون يشقون طريقهم
صوب سالونيك . كما اهتزت قلوب الصربيين ابتهاجاً لتمكنهم من إزالة عار
ذكرى هزيمتهم الكبرى القديمة فى معركة قوصوة ، تلك المعركة التى قضت
القضاء المبرم على الإمبراطورية الصربية فى القرن الرابع عشر ، وذلك فى
المعركة الطاحنة التى ظفروا فيها بعدوهم فى ساحة كومانوفو Kumanovo .
ومع أن انتصاراً كهذا لم تُدرَك دلالاته الخطيرة إلا قليلا فى ذلك الحين ،
إلا أنه كان ذا أثر عميق فى هذه المعضلة الصعبة ، وهى حفظ أركان السلام
فى ربوع أوربا . وكان ذلك الفوز انتصاراً من تلك الانتصارات الكاملة
غير المرتقبة التى تسمو بروح الأمة . واشتد حفزه لهمم الصربيين ، لأنه قادهم
إلى استرجاع أسكوب Uskub قصبة صربيا القديمة ، وموناستير Monastair
مفتاح مقدونية الوسطى .

ففى حملة لم تدم غير ستة أسابيع ، انتزعت العصبة البلقانية التى أرسلت
إلى ميادين القتال أكثر من ستمائة ألف مقاتل ، جميع أراضى تركية أوربا ،
ما خلا القسطنطينية

سياسة النمسا

ويمكن بسهولة أن يُتصور كيف نفرت النمسا من هذه الأحداث
الخارقة . فإن صربيا – أكبر مصدر لقلقها وتخوفها – خرجت من هذا
النضال البلقانى وقد ارتفع مقامها ، وسمت منزلتها ، واتسعت رقعة أرضها ،
وأذكيت آمالها . ولذا ففى المؤتمر الذى عقد فى لندن (من ديسمبر سنة

١٩١٢ إلى أغسطس سنة ١٩١٣) ، لوضع خريطة جديدة للبلقان ، كان أهم غرض للنمسا ، هو أن تحرم صربيا من منفذ مباشر لها على البحر الأدرياتى .

تجنيب مؤتمر لندن أوربا حرباً عامة

ولهذا السبب ما لبثت ولاية ألبانيا الجميلة الصغيرة أن صارت مركزاً للصراع الدبلوماسى الشديد . فإن تصميم النمسا على إقصاء صربيا من ألبانيا قوبل من الجهة الأخرى بعزم روسيا على أن يعطَى الصربيون هذا المنفذ . واقتربت الحرب من أوربا حتى صارت على قاب قوسين منها . غير أنه أمكن تفاديها . فإن الألمان استخدموا نفوذهم فى تلطيف مطالب النمسا ، واستخدم الإنجليز نفوذهم فى تلطيف مطالب روسيا . فسوِّيت المشكلة بإقامة ألبانيا دولة مستقلة يحكمها أمير ألمانى .

الحرب البلقانية الثانية

ولكن بينما كان المؤتمر منعقداً فى لندن ، قامت جماعة تركيا الفتاة بزعامة أنور بثورة فى القسطنطينية ، وأشعلت نار الحرب من جديد . وامتازت هذه الحرب الثانية بكسب العصبة البلقانية انتصارين فيها على الترك . فإن اليونانيين استولوا على يانينا . وأجبر الصربيون والبلغار الترك على تسليم أدرنة . ولكن فى ١٨ مارس سنة ١٩١٣ اغتيل جورج الأول ملك اليونان ، وهو عاهل حكيم ربما كان استخدم نفوذه — لو أنه عاش — استخداماً حسناً لمصلحة بلاده . وفى ٣٠ مايو سنة ١٩١٣ وُقِّعت معاهدة لندن التى بمقتضاها اقتصرت أملاك تركيا فى أوربا على القسطنطينية وشبه جزيرة غليوبولى .

الحرب بين دول العصبة

ولكن ما كاد المداد يجف على هذه المعاهدة الخطيرة ، حتى نشبت حرب طاحنة بين دول العصبة الظافرة نفسها . فإنه من بين الحليفات الثلاث التى صرعت الأتراك ، قدَّمت بلغاريا أكبر عدد من المقاتلين ، وجابه جنودها أعنف مقاومة ، ولحقت بهم أفدح الخسائر . وكان عنف هجومهم وشدة وطأته ، هما اللذان حطما قوات الأتراك ، وانتزعوا تراقية الشرقية من العدو . فلاح لأكثر الرقباء أن النتيجة المتوقعة لحرب البلقان هى أن بلغاريا ستغدو على الأرجح كبرى الدول البلقانية .

وكان ثمت لون من الثبات والتماسك فى الأخلاق البلغارية يحبب فيهم السواح القادمين من دول الغرب ، ويثير إعجابهم وثقتهم بهم . فبدا البلغار فى أعينهم أقل اندفاعاً وجموحاً من الصربيين ، وأقل تذبذباً وأثبت جناناً من اليونانيين ، وأقل جهالة وغباوة من الترك . وقد وجدوا فى فرديناند مليكهم ، قائداً طموحاً شديد المكر والدهاء ، وإن كان غير محبوب . وقد عُرف بانتصار النمسا له . أضف إلى ذلك أن البلغار كانوا ظمئين لتوسيع أملاكهم ، فلم يقنعوا بالنصيب الذى غنموه خلال حملتهم ضد الترك ، ورأوا أنفسهم قد فشلوا بالظفر بالقسطنطينية ، إذ عرفوا جيد المعرفة أنه مهما تكن تركيا ضعيفة ، فإن روسيا تحظر عليهم دخول هذه الحاضرة التى تتربع ضفاف البسفور .

أما غنائم الحرب الكبرى ، فقد ظفرت بها حليفتا بلغاريا : وهما اليونان التى وضعت يدها على سالونيك ، وصربيا التى احتل جيشها مقدونيا الوسطى . ولا ريب أن البلغار خامرتهم الريب فيما كان فى الواقع حقيقة ، بأن الصربيين واليونانيين قد وطنوا النفس على الاحتفاظ بمكاسبهم مهما كلفهم الأمر .

هزيمة بلغاريا

ولكن لما كان هناك عدد كبير من البلغار يقطنون مقدونيا ، فقد قر رأى بلغاريا فى لحظة حمق أخرق على مهاجمة حليفتيها . ولكن الصربيين واليونانيين كانوا على تمام الأهبة للقاء الهجوم . وبقواتهما وبقوات رومانيا التى غزت بلغاريا من الشمال مُنِىَ البلغار بهزيمة ماحقة ، وأكرهوا على الموافقة على صلح مهين .

مخاوف النمسا

وكان ساسة ڤينا يرقبون فى قلق زائد ، وخيبة أمل عميقة ، مجرى هذه الأحداث المفجعة فى البلقان . فقد كانت نتيجة الحروب البلقانية سحق بلغاريا صديقتهم ، وإضعاف تركيا التى وجد فيها قيصر الألمان أحدث حلفائه ، وازدياد قوة صربيا ازدياداً عظيما . وكانت الانتصارات الحربية التى أحرزها شعب صربيا الصغير عجيبة حقاً . فقد دحر الترك ، وساعد

البلغار على الاستيلاء على أدرنة . ثم عاون معاونة كبيرة على إنزال الهزيمة بهم . فصار الصربيون الآن بلا منازع الشعب الأول فى البلقان . فغمرت قلوبهم نشوة الفوز ، وعمرت أفئدتهم ثقة بشد روسيا لأزرهم ، وشرعوا يحلمون بضم ذوى قرباهم القاطنين فى البوسنة والهرسك إليهم ، وتكوين مملكة تمتد على طول الساحل الأدرياتى .

فأخذت رئاسة أركان الحرب النمساوية تحض المرة بعد المرة حكومتها على أنه من الضرورى أن تلقّن هذه الأمة الصغيرة الخطرة درساً بالغ العبرة، قبل أن تصبح دولة عظيمة القوة والبطش . ولكن رغم الغواية الشديدة ، رفض ساسة ڤينا المزهوون بقوتهم ، الاستماع إلى هذه المشورة .

ولكن هؤلاء الساسة أخذوا فى الوقت عينه يتساءلون أى الطرق يسلكون ؟ وهل يعدّلون من جديد الدستور الإمبراطورى تعديلا جوهريًّا حتى يرضى أمانى السلافيين فى الإمبراطورية ؟ وكان هناك بعض منهم يعتقد بأن من الميسور إيجاد حل لهذه المشكلة ، وذلك بمنح أولئك السلافيين قسطاً أوفى من الاستقلال الداخلى ، ونصيباً أكبر فى الشئون الإدارية .

وتساءلوا أيضاً : أليس من المستطاع إبدال المملكة الثنائية القائمة على سيطرة الألمان والمجر فيها ، بدولة ثلاثية مشيدة على زمالة متآخية متساوية بين الألمان والمجر والسلاف ؟ لقد ذاعت يومئذ إشاعة بأن الأمير فرنتز فردينند Franz Ferdinand وريث العرش النمساوى ، تجول فى ذهنه بعض هذه الأفكار ، وأن سياسته كانت تعارض معارضة تامة الأحلام التى جالت بمخيلة الوطنيين المتحمسين فى بلغراد بإقامة دولة صربية كبرى .

كتب يمكن استشارتها

J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933
J.A.R. Marriott : The Eastern Question. 1924.
Lord Grey of Fallodon : Twenty — Five Years. 1928.
H. Temperley : History of Serbia. 1917

الفصل التاسع والعشرون

المنازعات بين البريطانيين والإرلنديين

مشكلة مجلس اللوردات فى إنجلترا . تزايد الاحتكاك بين الطبقات . نمو الخدمات الاجتماعية . حركة العمال الإنجليزية . المسألة الإرلندية . القومية وألستر . الحزب البرلمانى الإرلندى وحزب شن فين . شبح الحرب الأهلية . الأمريكيون الإرلنديون . التحزب الشديد فى إنجلترا . استعدادات الحرب . بقاء نفسية السلام .

١ – مشكلة مجلس اللوردات

معارضة المجلس لإصلاحات الأحرار

أحرز حزب الأحرار فى انتخابات يناير سنة ١٩٠٦ أغلبية كبيرة على أحزاب المحافظين والإرلنديين والعمال معاً ، فألفى نفسه على أثر تقلده زمام الحكم يواجه مشكلة خطيرة . ذلك أن جميع المشروعات الرئيسية الكبرى التى احتواها برنامجه الحزبى : كتحديد بيع المشروبات الروحية ، والعمل على نشر التعليم غير الخاضع للهيئات الدينية ، وإلغاء سيطرة الكنيسة الإنجليزية الرسمية على شئون ويلز الدينية ، وإقرار منح الحكم الذاتى لإرلندا – كانت هذه المشروعات بعد إقرارها من مجلس العموم وإرسالها إلى مجلس اللوردات ، إما أن يرفضها هذا المجلس ، وإما أن يضع على الأرجح العراقيل فى سبيلها ، لمنع إقرارها ووضعها موضع التنفيذ .

فبدا بمقتضى دستور كان ديمقراطيًّا اسماً ، كأنه لا يمكن لحزب الأحرار مهما رجحت أغلبيته فى مجلس العموم ، ومهما كان حديثاً موعدُ انتخابه ونيلُه انتداباً من الأمة بتمثيلها – لا يمكن لهذا الحزب أن يجيز قانوناً معارضاً لرغائب مجلس اللوردات الوراثى . فاحتج الأحرار على هذا الوضع ، قائلين إن حق « ڤيتو » كهذا يباشَر فى مجتمع متحضر ديمقراطى بواسطة

هيئة كمجلس اللوردات هو شذوذ لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه . فقد كانوا يرون أن مجلس العموم الممثل للشعب هو الذى ينبغى أن تكون له الكلمة النهائية فى أى مشروع يعرض على البرلمان .

ولذلك فانه حينما رفض مجلس الأعيان التصديق على ميزانية عام ١٩٠٩ ــ الأمر الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البرلمان ــ عقد أسْكوِث ، الذى كان قد عُين رئيساً للوزارة فى العام السابق ــ عقد النية على إجراء انتخابات جديدة ، ليطلب من الأمة منحه توكيلا بإنقاص سلطات مجلس اللوردات . وكان مستعداً ، إذا أصر اللوردات على رفض التصديق على تخفيض سلطات مجلسهم ، أن يوصى الملك بأن يمنح أربعمائة رجل رتبة اللوردية ، كى تحرز الوزارة فى ذلك المجلس أغلبية تقر ذلك التعديل .

وفاة إدوارد السابع

وفى وسط هذا النضال الدستورى الخطير ، وبعد محاولة غير مجدية للوصول إلى اتفاق بين حزب المحافظين الذى كان يعارض أشد معارضة فى تحديد سلطات مجلس الأعيان ــ فى هذا الوقت توفى إدوارد السابع (فى مايو سنة ١٩١٠) . فخلفه ابنه جورج الخامس على أريكة العرش .

قانون سنة ١٩١١

وإن العنف الخارق والأهواء الجامحة التى أثارتها مسألة تعديل سلطات مجلس اللوردات قد تبدو غريبة فى نظر جيل تعوّد العمل بقانون عام ١٩١١ ، الذى أنقِصت بمقتضاه مدة العضوية فى مجلس العموم من سبع سنين إلى خمس ، وحُرِم مجلس اللوردات من سلطة رفض إقرار مشروعات القوانين المالية ، أو رفض أى مشروع قانون عام وافق مجلس العموم عليه ثلاث مرات فى خلال دورتى انعقاد متتاليتين . فقد اتهم المحافظون الأحرارَ بأنهم ثوار متطرفون ، دون أن يدركوا أن حكومة ثورية متطرفة ما كانت تقبل أن يؤخَّر تنفيذ مشروعاتها مدة عامين ، وهى المدة التى يتطلبها قانون سنة ١٩١١ لتنفيذ أىّ قانون أجازه مجلس العموم ولم يحصل على موافقة مجلس اللوردات .

إذ أن فى مقدور مثل هذه الحكومة الثورية أن تنفذ أغراضها الخاصة بالقضاء على طبقة الأغنياء المعادية لها بطرق أسرع : كأن تلجأ مثلا إلى إنقاص قيمة العملة ، أو إلى إشاعة الخلل وإضعاف روح النظام فى رجال الجيش والشرطة . غير أن حزب المحافظين اعتقد يومئذ أن تحديد سلطات المجلس الأعلى سيفتح أبواب طوفان الثورة — هذا الطوفان الذى كانوا يبصرون لججه تتلاطم وتتدفق فى مشارق الأرض ومغاربها .

تزايد الاحتكاك بين طبقات الشعب

فقد أدخلت ميزانية عام ١٩٠٩ الفزع الشديد فى قلوب المحافظين ، بإقرارها القاعدة الجديدة بفرض ضريبة إضافية على الإيراد غير المكتسب الذى يجىء من الأرض . فهيئ لهم أنه لن يكون بعد اليوم حد يقف عنده نهب البرلمانات القادمة . ولكن ما كان أمرّ على نفوسهم من ذلك ، هو تفكيرهم بأنه بزوال حق الڤيتو المطلق الممنوح لمجلس اللوردات ، ستزول آخر عقبة فى سبيل إجازة مشروع قانون الحكم الذاتى لإرلندا .

وقد اضطرت حكومة الأحرار إلى إجراء انتخابين عامين متتاليين سنة ١٩١٠ ، لكى تُعطَى البلاد فرصة لإعلان رأيها الصريح فى تأييد سياستها المالية ، وفى مشروع إنقاص سلطات مجلس اللوردات . وأعاد الناخبون فى كلا الانتخابين أغلبية من الأحرار تؤيدها فى مجلس العموم . غير أن هذه الأغلبية تناقصت فى كل انتخاب تالٍ إلى درجة أن وزارة الأحرار أكرِهت فى النهاية على الاعتماد على أصوات الأعضاء الإرلنديين والعمال ، للظفر بالأغلبية فى مجلس العموم . ولكن الأعضاء الإرلنديين اشترطوا لمنحها تأييدهم إقرار مشروع الحكم الذاتى لبلادهم ، الأمر الذى زاد من سخط حزب المحافظين وحنقه على وزارة أسكوث الحرة ، لالتجائها إلى مثل هذا التأييد كى تحدث تغييرات بهذه الدرجة العظمى من الخطورة وجلال الشأن .

٢ – نمو الخدمات الاجتماعية

قلق المحافظين

وكان للمحافظين بعض العذر فى أن يبصروا المستقبل بقلق وتشاؤم . فقد كانت تبدو فى كل مكان تقريباً حركات ثورية ضد الأحوال الاجتماعية التى كانت الكثرة الكبرى من الجنس البشرى مكرهة على العيش فيها . وأدت يومئذ هذه الحركات إلى قيام حكومة من حزب العمال فى أستراليا ، وإلى انتشار واسع المدى للحركات الاشتراكية والنقابية فى دول القارة ، وشرع العمال فى كل مكان يطالبون بأجور أفضل ، وتوفير أسباب حياة أسعد ، وفراغ أطول ، وتسليات أكثر ، وفرص أوفر لهم .

صحيح أن شعور العداء بين الطبقات كان فى إنجلترا أقل عنفاً منه فى ألمانيا وفرنسا ، ولكنه كان يزداد نمواً وشدة بذيوع المبادئ الماركسية بين الشبان . وجاء كل دليل جديد مثبتاً هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن كل زيادة لأجور العمال كانت تُغتصَب قسراً من أصحاب الأعمال بوسائل التهييج المنظم . ومن القرائن التى تظهر مدى الاحتكاك الاقتصادى الواسع النطاق الذى نشب فى إنجلترا بين أرباب الأعمال والعمال بين عامى ١٩٠٦ و١٩١٤ ، أن أحد عشر مليون يوم كانت تضيع كل عام نتيجة لاعتصابات العمال .

فكانت كل حكومة من حكومات أوربا الغربية تنشد الرقى تبحث وتعنى – بنتائج متفاوتة فى النجاح – بهذه المسألة وهى : كيف يمكن للحكومات أن تشيد حضارة ينعدم فيها العوز ، ولا يُحرم فيها مجموع الشعب من أطايب الحياة ومباهجها .

الخدمات الاجتماعية فى ألمانيا

ولعل ألمانيا كانت يومئذ أعظم دولة شاعت فيها وسائل اللذة والتمتع العقليين ، وكان تخطيط المدن فيها قاعدة مقررة معمولا بها منذ أمد طويل . فعمت أرجاءها الحدائق العامة ، والمسارح الرخيصة ، وقاعات الموسيقى ،

وساحات اللعب — تعمل كلها على خدمة صغار موظفى الدكاكين ، وخدمة المنازل ، وعمال المصانع ، وتمتعهم بمباهج الحياة . فكان الألمان يسبقون الإنجليز بجيل من الزمان على الأقل ، فى توفير المتع غير المكلفة ، واللذائذ البريئة لأفراد الشعب .

يقظة الضمير الاجتماعى فى انجلترا

ومع ذلك فإنه رغم النتائج المروعة للثورة الصناعية فى مدن الصناعة البريطانية ، فإن النصف الثانى من القرن التاسع عشر شهد فى هذه البلاد يقظة للضمير الاجتماعى أثرت تأثيراً محسوساً فى حياة الشعب . فإن إجازة قانون العشر الساعات سنة ١٨٤٧ بنفوذ اللورد شافتسبرى ، رغم مقاومة عنيفة فى البرلمان ، كان اعترافاً من المجتمع بأن لأبناء الشعب الحق فى أن يُمنحوا وقت فراغ . وكانت إجازة قانونى التعليم سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٩١ اعترافاً منه بأن لعامة الشعب الحق فى مطالبة الحكومة بأن توفر لهم فرص الانتفاع بأوقات فراغهم .

ومع ذلك فإنه رغم تشريعات العصر الفكتورى الاجتماعية ، بقيت مخلفات كثيرة من الإصلاحات كان على الحكومة أن تبادر إلى إنجازها . فقد كان العامل البريطانى لا يزال يعيش « فى خوف من أشباح عديدة » . وكان معرضاً من غير أن يرتكب ذنباً ، أن يُقذف به فى الشارع . فإنه فيما عدا المساعدات التى يمنحها « قانون إعانة الفقراء » ، لم تكن الحكومة الإنجليزية تصنع شيئاً لغوث المرضى ، أو إعانة العجزة ، أو تخفيف متاعب النسوة الحاملات ، أو الاحتفاظ بمستوى حسن لصحة الأطفال . ومع أن تسخير أصحاب الأعمال للصبيان فى المصانع ، كانت قد خفت ويلاته كثيراً عن ذى قبل ، بواسطة قوانين المصانع ، فإنه ما برح عقبة كؤوداً فى سبيل نمو مجتمع سعيد سليم الأبدان .

وكانت منازل الأشراف الريفية مشهورةحقاً بجمالها وأناقتها وتوفر أسباب الراحة فيها . ولكن أطلِقَ العنان للمدن الصناعية العظمى أن تنمو وتتسع كما تشاء وتهوى دون ضابط . فأصبحت هذه المدن الكبيرة أماكن مقفرة

كئيبة مقيتة إلى أقصى حد استطاع أن يصل بها التضافر الإنجليزى بين جشع الممولين الهائل ، والطراز المعمارى البيوريتانى البشع المتجهم .

التأمينات الاجتماعية

ولكن فى غضون الأعوام الثمانية التى سبقت الحرب العظمى بذلت وزارتان حرتان محاولة جريئة وجهداً كبيراً مشكوراً للتخفيف من هذه الأوضار الاجتماعية . فأمِّن العمال ضد المرض والحوادث ، وفى بعض الأحوال أمِّنوا ضد البطالة أيضاً . وقُررت إعانة للعجزة . وأجيزت ثلاثة قوانين هامة لحماية صحة الأطفال وزيادة رخائهم . وبمقتضى «قانون الصناعات الطويلة الساعات ذات الأجور البخسة» The Sweated Industries Act سنة ١٩٠٩ ، كُوِّنت لجان خاصة لتحديد أجرة أدنى فى الصناعات التى تكون فيها الأجور واطئة إلى حد استثنائى .

وأنقصت بقانون أجازه البرلمان ساعات العمل الطويلة التى كانت أكثر مما يجب لموظفى المحلات التجارية والدكاكين وعمال مناجم الفحم . كما أجيز قانون لتخطيط المدن وتنظيم الأحياء والمبانى . ورُخِّص للمجالس المحلية فى الجهات الريفية أن تنتزع ملكية الأرض بطريق الشراء الجبرى ، لبيعها قطعا ومزارع صغيرة ، بقصد زيادة سكان الريف المزارعين . ولم تخش حكومة أسكوث أن تقتفى أثر بسمارك فى إصلاحاته الاشتراكية وتقتبس من تشريعاته المبدأ الثورى القائل بتحديد حد أدنى للأجور .

غير أن التوسع العظيم فى الأعمال والمبرات الحكومية ، وفى مدى تدخل الدولة لعون الضعفاء ، لاح لأحرار المدرسة الغلادستونية الذين رضعوا لبان تقاليد الحرية ، ومبدأ إطلاقها فى ميادين الأعمال — كما لاح للمحافظين أيضاً — أنه يضرب معاوله فى هدم الاستقلال الأدبى للأفراد ، ويهدد قوة البلاد المالية . ولكن كان أعظم من ذلك عاصفة الاحتجاج التى أثارتها الحكومة بانتهاجها قاعدتين أخريين من قواعد المذهب الحر ، وهما الخاصتان باتحادات العمال النظامية والحكم الذاتى الإرلندى .

٣ ـ حركة العمال الإنجليزية

تأسيس نقابة العمال

على حين أن الأحزاب الاشتراكية فى ممالك أوربا كُوِّنت فى زمن لم يكن فى وسع عمالها فيه تنظيم شؤونهم، كان الأمر على النقيض من ذلك فى بريطانيا، فقد أسست فيها نقاباتُ العمال نفسها كجزء معترف به، بل وكجزء لازم ضرورى، من أجزاء الأداة الاقتصادية فى بريطانيا . وذلك قبل أن ينزل بزمن طويل حزب اشتراكى عمالى حلبة السياسة .

رصانة حركة العمال الإنجليزية

وعلى عكس النقابيين الفرنسيين والإيطاليين الذين كانوا يعملون على قلب النظام الرأسمالى برمته باعتصاب ثورى ، فإن حركة العمال الإنجليزية كانت أنموذجاً للرصانة العملية . مؤثرة الثمار الواقعية الدانية القطوف على الأحلام البعيدة التحقيق . فكانت تعنى بنيل العمال حداً أدنى للأجور ، وتحديد ثمانى ساعات فى اليوم للعمل ، أكثر من عنايتها بالشروع فى خطط تتطلب العنف لتبديل نظام المجتمع تبديلا تاماً . فإن اتحاد المعدِّنين فى بريطانيا مثلا أنشئ سنة ١٨٨٨ لكى يحتج على فرض طريقة خاصة لتحديد أجور العمال فى المناجم . وكان هدف الإضراب العظيم الذى قام به حمالو الموانى فى العام التالى ، بزعامة جون بِرْنز وتُمْ مان ، هو الحصول على زيادة بنس فى الساعة لعمال ميناء لندن .

وحتى زعماء العمال ، من أمثال كير هاردى ، الذين كانوا يعتنقون مبادئ الاشتراكية بأكملها ، القائلة بضرورة امتلاك المجتمع لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل ـ كان هؤلاء الزعماء متفقين على أن فى إمكان العمال تحقيق هذا الانقلاب بوسائل دستورية . فلم يكن البرلمان فى نظرهم خصما يجب القضاء

عليه، بل كان حايفاً حريًّا بهم أن يظفروا بتأييده .

تأسيس حزب العمال

وفى سنة ١٨٨٨ تقدم كير هاردى نفسه للانتخاب ، كمرشح عن العمال المستقلين فى دائرة مِدْلانارك . وبعد خمس سنين ، تبع هذا العمل بتأسيسه حزب العمال المستقل . ومن ذلك الحين وجه العمال جهودهم إلى دخول مجلس العموم . والحق أن النجاح الذى صحب حملاتهم الانتخابية لعضوية البرلمان كان عائقاً قوياً ضد نشوب الثورات فى إنجلترا . فقد ظفر حزب العمال سنة ١٩٠٦ بقرابة خمسين مقعداً فى مجلس العموم . ومنذ يومئذ كانت قوته كافية لأن تنيله من وزارة الأحرار القائمة قسطاً كبيراً من الرعاية والعناية الاجتماعية ، والاهتمام بتحقيقها . ولا شك أنه كان من سداد الرأى تسهيل دخول البرلمان على ممثلى العمال . إذ لاريب أنه شرط من شروط الارتقاء الدستورى والتقدم المنظم المشروع أن تمحَّص كل ظلامة حقة ، وأن ينال كل مطمح سياسى دستورى العناية الجديرة به فى ساحة مجلس العموم .

وقد أدركت وزارتا الأحرار قبل الحرب العظمى هذه الأمور . فأدخلت نظام دفع مكافآت لأعضاء ذلك المجلس . وقوَّت مركز نقابات العمال بإعفاء أموالها من التبعة القانونية للجنح المدنية ، وتخويلها سلطة فرض أتاوة على العمال لاستخدامها فى الأغراض السياسية . وقد احتُجَّ وقتئذ بأن ذلك يضع نقابات العمال فى موضع ممتاز كثير المعاثر والأضرار بالأمة . إذ أنه يمكنها من استخدام سلطانها استخداماً استبداديًّا غير مشروع . وظُنَّ أنه انحراف متسرع آثم عن الأساليب المجرَّبة القديمة للحياة البرلمانية الإنجليزية أن تشد الحكومة من أزر إحدى الطبقات لكى تحصل على السلطة التى قد تستعملها هذه الطبقة لأغراض هدامة ضارة بالأمة .

٤ ــ المسألة الإرلندية

تفاقم الانشقاق

أما الانشقاق الخانق القتَّال الخاص بإرلندا ، فقد استمر يقسِّم الأحزاب السياسية الكبرى فى البرلمان الإنجليزى . فقد كان الوطنيون الإرلنديون الكاثوليك

يستحثون حزب الأحرار على منح إرلندا نظام الحكم الذاتى ، على حين كان بروتستانت ألستر يشددون على حزب المحافظين بالعمل على محاربة هذا المشروع . وكان المحافظون يهدفون إلى المحافظة على اتحاد إرلندا ببريطانيا ، وإلى السعى فى تحبيب هذا الاتحاد إلى قلوب الإرلنديين بمد خطوط السكك الحديدية فى بلادهم ، وشراء الأرض من أصحابها الإنجليز ، وبيعها بشروط سهلة للفلاحين الإرلنديين فى إرلندا ، وتحسين الأحوال الاجتماعية العامة .

ولما كان كل فريق من الفريقين الإرلنديين يضمر أشد ضروب العداء للآخر ، ولا ينوى التزحزح قيد أنملة عن أغراضه ، فإن السياسة البريطانية السمحة القائمة على مبدأ الأخذ والعطاء اصطدمت بعقبة كؤود محيرة . فقد أبى أشياع الحكم الذاتى التنازل عن مطالبهم مقابل تحسين معاملة الإرلنديين والتساهل فى معالجة مشكلتهم . كما رفض فى احتقار غلاة الوطنيين الإرلنديين فكرة تقسيم إرلندا . فقر رأى بروتستانت ألستر بقيادة السر إدوارد كارزن Sir Edward Carson على تأليف كتائب من المتطوعين منهم ، وأعدوا عدتهم للنزال ، مفضلين القتال على الخضوع لسيطرة برلمان كاثوليكى فى دبلن .

القومية والإرلنديون الكاثوليك

وكان كل حزب منهما يؤمن بعدالة قضيته . ففى إرلندا الكاثوليكية تضافرت ذكرى المظالم القديمة والضيم المرير الذى خبرته إرلندا على يد الإنجليز ، مع أمانيها القومية الرحيبة . وأخذت تتطلع إلى الحرية وتقرير مصيرها بنفسها . ولم يحفل زعماء الحركة الوطنية قلامة ظفر إلى الحقيقة بأن شكاوى الأمة الإرلندية الصحيحة قد أزيلت كلية ، أو أنها أزيلت إلى درجة كبيرة ، وأنه منذ سنة ١٨٢٩ أعتق الكاثوليك من جميع ألوان الاستثناءات المدنية والسياسية المجحفة ، وأن الكنيسة البروتستانتية الإنجليزية ألغيت سيطرتها على إرلندا ، وأن الفلاحين الإرلنديين أقطعوا الأراضى ، وأن تدابير خاصة اتُّخذت لتخفيف كربة الفاقة ولغوث الفقراء فى المقاطعات الغربية المكتظة ، وأن خمسة وثمانين نائباً من نوابهم — وهم قوة غير ضئيلة — تجلس فى كراسى البرلمان لتمثيلهم ، وأن الأبواب مفتحة لأولى المواهب اللامعة من الإرلنديين فى جميع أرجاء بريطانيا والإمبراطورية .

فإن خيلاء الإرلنديين كانت تنفر وتثور على الإدارة الحكومية الإنجليزية المركَّزة داخل أسوار « قلعة دبلن » الكئيبة المتجهمة — هذه الإدارة التي كان يرأسها حاكم عام إنجليزى يقيم بإرلندا ، ووزير إنجليزى فى الوزارة البريطانية ، ويحميها جيش إنجليزى يرابط فى إرلندا . فندّد الإرلنديون بهذه المظاهر للاستعباد الأجنبى ، وطالبوا بأن يحكمهم برلمان إرلندى مسئول أمام الناخبين الإرلنديين .

الحزب البرلمانى الارلندى

وكان جون ردمند John Redmond زعيم الوطنيين الإرلنديين وأشياعه فى مجلس العموم مستعدين أن يقبلوا قسطاً متحفظاً من الحكم الذاتى داخل الإمبراطورية ، وهو قسط كان فى مقدور حزب الأحرار أن يوصى البرلمان بالموافقة على منحه . ولكن كان هناك أعضاء وهيئات إرلندية أخرى تهدف إلى أبعد من ذلك . فلم يكن يقنعها الحصول فقط على برلمان إرلندى يعترف بسيادة العرش البريطانى ، وخاضع للقوانين البريطانية . فناشدت مثلا « العصبة الغالية » Gaelic League الإرلنديين غير الخاضعين للحكم البريطانى فى عبارات مثيرة أن يقدموا عونهم ومساعدتهم للقضية الإرلندية ، مذكرة إياهم بأمجاد وطنهم السالفة .

أهداف حزب شن فين

وعلى حين كان آرثر جريفث Arthur Griffith ، وهو متمرد إرلندى امتاز بالنزاهة والرزانة والثبات ، كان يطالب بمنح إرلندا مركز مستعمرة بريطانية مستقلة ، فإن حزباً جديداً أطلق على نفسه اسم « شن فين » Sinn Fein أخذت تجيش فى نفوس أشياعه الأحلام بإقامة دولة إرلندية مستقلة تستطيع أن تقطع بالقوة والعنف جميع الأواصر التى تربطها ببريطانيا ، وتستعيد مجدها القديم ووجدانها الوطنى ، بإحياء اللسان الإرلندى القديم . وأشادت نخبة ألمعية من الأدباء والشعراء الإرلنديين بهذه الحركة التى ضمت إلى صفوفها طبقات الدهماء وأحاطتها بها لةمن المثالية الأرستقراطية المتألقة السناء.

معارضة الصتر

وكان رجال ألصتر يعارضون أشد المعارضة هذه الحركات جميعها، ويقاومونها مقاومة لا هوادة فيها . فقد كانت القضايا العظمى الثلاث : التعليم البروتستانتى

(٣٠)

فى المدارس ، وحرية التجارة مع بريطانيا ، وتحديد المسكرات – كانت هذه المسائل تهدّد فى نظرهم بالتعطل لو أن برلماناً فى دبلن أخذ على عاتقه شؤون التشريع فيها . وأبصروا فى مشروع الحكم الذاتى الخطوة الأولى نحو الانفصال ، وقيام حكومة مستديمة العداء لأى لون من ألوان الارتباط بين إرلندا وبريطانيا : حكومة تواقة إلى إيقاع الأذى بالمصالح البريطانية فى جميع بقاع العالم .

شبح الحرب الأهلية

ومع ذلك تمكنت وزارة الأحرار من إجازة قانون سنة ١٩١٢ يمنح إرلندا الحكم الذاتى . ورغم أن مجلس اللوردات رفض المصادقة عليه ، إلا أنه كان سيوضع موضع التنفيذ فى سنة ١٩١٤ . بيد أنه باقتراب الساعة الرهيبة التى كان سيبدأ فيها العمل به ، كثر تهريب الأسلحة إلى ألصتر . فدعا الملك جورج الخامس مؤتمراً عقد فى قصر بكنجهام ، بينما كانت غيوم الحرب الأهلية تتجمع فى سماء إرلندا . ولكن الخلاف ظل محتدماً . إذ أبى ممثلو الفريقين الاتفاق .

وندر أن مرّ على بريطانيا عصر انقسم فيه الرأى العام ، وتفاقم الخطر ، واشتد الارتياع بسوء المآل ، كما حدث يومئذ . وأخذ الناس يتساءلون : هل تتجاسر الحكومة البريطانية على استخدام القوة ضد متطوعى ألصتر ؟ وكيف يمكن تفادى شطر إنجلترا شطرين بسبب هذا النزاع الإرلندى ؟ وهل تستطيع الحكومة الإنجليزية أن تعتمد على تأييد الجيش لها فى قمع حركة ألصتر ؟ ولذا لاح فى يوليه سنة ١٩١٤ كأن بنيان المملكة المتحدة على وشك أن تقوضه حرب أهلية ، بشكل لم يعهد له مثيل قط فى تاريخ بريطانيا منذ القرن السابع عشر .

الإرلنديون الأمريكيون

فقد توقع الناس أن يكون هذا النزاع أكثر من مجرد نزاع محدود . فإن الإرلنديين الكاثوليك فى إرلندا لم يكونوا سوى جزء ضئيل من مجموع الإرلنديين المنتشرين فى جميع أرجاء المعمورة . ففى كل مستعمرة مستقلة وغير مستقلة كان الإرلنديون يشربون أنخاب السعادة والحرية للجزيرة الخضراء ، وطنهم الأصلى ، ويدعون بالفشل والخيبة لمضطهديها . وأجازت برلمانات الولايات الأسترالية قرارات بالحث على منح الحكم الذاتى لإرلندا . وفى أمريكا كان الإرلنديون الذين هاجر الجانب الأكبر من أجدادهم أثناء منتصف القرن التاسع عشر

- حينما كانت الفاقة والتعاسة والمجاعة فى إرلندا فى أسوأ درجاتها ، وقبل تطبيق أى تشريع لمداواة هذه الشرور - كان الإرلنديون فيها عديدين أقوياء . وكانوا يسيطرون على تامانى هول Tamany Hall، وهى أداة سياسية قوية النفوذ فى نيويورك . وكانوا قابضين على زمام الأمر فى بوسطن . وعاونوا على خلق رأى عام قوى معاد لبريطانيا فى الولايات الوسطى الجنوبية . وفى شيكاغو وحدها كان عدد أصحاب الملايين الإرلنديين مائة ونيفاً . وأخذت صحافة هيرست - وهى اتحاد قوى من الصحف فى الولايات المتحدة - أخذت تشوّه البواعث البريطانية ، وتسفه السياسة البريطانية ، لكى تستميل إلى جانبها الإرلنديين فى أمريكا . وكان السياسيون الأمريكيون الذين يجرون وراء أصوات الناخبين فى الدوائر التى يكون فيها العنصر الإرلندى قويًّا ، يُكرهون على أن ينهجوا خطة تحقير بريطانيا ، وتوجيه قارص الكلام إليها .

ولم يُنقِص من نشاط التهييج ضد بريطانيا بين الإرلنديين الأمريكيين ، أن الأحوال فى إرلندا تحسنت تحسناً واسع المدى منذ « سنى الأربعين العجاف » من القرن الماضى . فإن ذكرى تلك السنين المروعة ما زالت تسيطر على الأذهان ، وتثير كامن أشجان الإرلنديين والإرلنديات ، حتى الفقراء منهم ، وتدفعهم إلى البذل والعطاء فى سبيل قضية إرلندا . وكان پارنل الزعيم الإرلندى يتجه شطر أمريكا لإمداده بالمساعدات المالية ضد إنجلترا ، كما استمر غيره من الوطنيين الإرلنديين يستمدون منها مواردهم .

ولما كان الأحرار الإنجليز لا يتوقون إلى شىء أشد من إزالة هذه العقبة من سبيل الصداقة الأمريكية ، فإنه لم يكن يبدو من بين النتائج المنتظرة من إخفاق مشروع الحكم الذاتى ، ما هو أعظم خطورة وأسوأ مغبة من إغضاب الجمهورية الأمريكية ، وإثارة حنقها الشديد الأكيد .

التحزب الشديد فى انجلترا

ولهذا ساد إنجلترا غليان سياسى خارق للعادة خلال الحقبة التى جاءت بين حرب البوير والسنين الأولى الخطيرة من الحرب العظمى الطاحنة . فإن

روحاً من الغلو والتعصب نفثت سمومها فى هذا القطر الذى يفيض بالخيرات والنعم . فغدا لا يشعر بالاطمئنان والثبات . فالمتدينون من أهله آثروا أن يكسروا القانون على أن يدفعوا العوائد الخاصة بالتعليم . وأخذت نسوة رقيقات القلب عاليات الثقافة تحطمن النوافذ ، وتتشاجرن مع الشرطة ، وتسعين بهذه الطريقة أو بتلك إلى أن ترسَلن إلى السجون ، كاحتجاج على حكومة تأبى أن تمنح النساء حق الانتخاب .

واحتدم أوار الخلافات الحزبية بشأن تخفيض سلطات مجلس اللوردات ، ومنح الحكم الذاتى لإرلندا ، إلى درجة القطيعة فى العلاقات الاجتماعية بين الأفراد . هذا على حين كان البعض من الإنجليز يؤمن أشد الإيمان بالتوسع الاستعمارى ، وإصلاح التعريفة الجمركية ، ويجاهد بكل ما ملكت يداه فى تحقيقهما . وكانت البلاد طافحة بالاضطرابات. وسرت عدوى الإضراب من المناجم والسكك الحديدية والمصانع إلى المدارس . بل بلغ سوء الحال فى صيف سنة ١٩١٤ أن سرى روح من التمرد بين ضباط الحامية الإنجليزية المعسكرة فى جنوب إرلندا ، إذ خشوا أن يؤمروا بالزحف على ألصتر ، إذا ما استفحل الخطب .

فأخذ القوم يتساءلون : هل وصلت الإمبراطورية إلى نقطة بدء تدهورها ؟ وهل أخذت الفضائل الإنجليزية الإسبرطية التى كان كبلنج يبشر بها ، وبرنارد شو يندد بها ، تنحط وتتلوث ؟ وراقب الطلبة الهنود فى دلهى فى فرح وابتهاج تنظيم عصيان ألصتر الناجح . ولاحت بريطانيا فى أعين الألمان دولة قوية ترتع فى بحبوحة من العيش والرخاء ، توشك أن تهب عليها أعاصير عاتية هدامة .

تأهب انجلترا للحرب

ومع ذلك فإن إنجلترا لم تكن قط معدّة للقتال ، متأهبة للحرب ، خيراً مما كانت عليه فى ذلك الحين . فإن هلداين Haldane وزير الحربية، الذى كان قبلُ محامياً وأستاذاً للفلسفة، ودرس فى جامعة جيتنجن الألمانية ، ونقل إلى الإنجليزية مؤلفات شوبنهور Schopenhour ، كان قد أعاد تنظيم

الجيش البريطانى وفق مبادئ، وإن كانت تدين بالشىء الكثير للنمط الألمانى، إلا أنها حُوِّرت لتلائم حاجيات دولة تتألف من جزيرة منعزلة قد تضطر إلى الاشتراك فى حرب تنشب فى قارة أوربا. وإن بريطانيا لتدين لعبقريته الإدارية بإنشاء « نظام رئاسة أركان الحرب » ، ولإعداده قوة مقاتلة كاملة التجهيز ، وجيشاً احتياطياً ، وهيئة خاصة لتدريب الضباط .

وكذلك أُعِد الأسطول بواسطة الأميرال الأول السر جون فيشر Sir John Fisher للنزول فى نضال مرتقب ضد الأسطول الألمانى فى عرض البحار . وبلغ تركيز قوة الأسطول الإنجليزى فى بحر الشمال ، أن ثمانين فى المائة من مدافعه كانت مصوّبة شطر السواحل الألمانية . ووُضِعت الخطط لتعاون الجيش والأسطول معا ، وخُلقت نواة قوة جوية جديدة . وجُعلت هذه القوى الثلاث تتضافر فى العمل عن طريق « لجنة للدفاع الإمبراطورى » ، ووُضع كتاب حربى حاوٍ للتعليمات السرية ، مستنبئاً بدقة مضبوطة عجيبة حاجيات البلاد الأولى فى حالة نشوب حرب فى قارة أوربا ، على أن يوزَّع هذا الكتاب عند إعلان الحرب .

بقاء نفسية السلام

ولم يكن رجل الشارع يدرى شيئاً ، أو لم يكن يدرى إلا النزر اليسير ، عن هذه الاستعدادات الحربية المدروسة . فقد بدا المستر لويد جورج من مكتبه بوزارة المالية ، وهو يعكر صفو ملاّك الأرض ودافعى الضرائب ، والسر إدوارد كارزُنْ وهو يتحدى جون رِدْمند ، ومسز بَنكهرست وهى تطالب بحقوق النساء، وبوب سِمِْلى الزعيم العنيد لعمال المناجم — بدا هؤلاء الأشخاص كأنهم أعظم الممثلين نشاطاً وإزعاجاً للنفوس على مسرح البلاد السياسى .

وفيما عداهم ، لاح كأن السلام ينشر بنوده فوق كل مكان . فلم يكن للاستعدادات الفنية للأداة الحربية صدى فى حالة الرأى العام النفسية . ومع أن بعض الصحفيين دقوا ناقوس الخطر فى بعض صحف لندن الكبرى ، فإن إنذاراتهم لم تكن تُسمَع إلا فى خفوت فى مدن الشمال الصناعية، حيث لم يكن

ثمت يومئذ شيء أشهى إلى قلب الرجل العادى من التمتع بإجازة الصيف ، ولم يكن هناك شيء أبعد إلى فكره من ترقب نشوب حرب أوربية .

كتب يمكن استشارتها

D.C. Somervell : The Reign of King George V. 1935.

J.A. Spender, and C. Asquith : The Life of Lord Oxford. 1932.

J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1939.

L.T. Hobhouse : The Labour Movement. 1893.

S. Gwynn : John Redmond's Last Years. 1919.

E. Marjoribanks, and Ian Colvin : The Life of Lord Carson. 1932, 1934.

Richard Burdon Haldane : An Autobiography 1929.

J. Ramsay MacDonald : The Socialist Movement. (Home University Library). 1911

G. Elton : England Arise ! 1931.

الفصل الثلاثون

نزعات مهددة للسلام
فى ألمانيا وروسيا

تفوق ألمانيا فى أوربا . الروح العسكرية الألمانية . حقد الألمان على إنجلترا . طيش قيصر الألمان . الجمهور البريطانى ومجلس الوزراء البريطانى . الجهود تبذل لتحسين العلاقات مع ألمانيا . توثق العلائق مع التحالف الثنائى . الثورة تهدد روسيا . روسيا تجرب النظام الدستورى . ضعف القيصر نقولا . السباق بين الحرب والثورة .

١ ــ تفوق ألمانيا الحربى

أهمية ألمانيا

كانت ألمانيا فى مطلع القرن العشرين واسطة العقد فى المشهد السياسى الأوربى نتيجة لثبات أهدافها ، وتركيز وسائلها ، ونظام أهلها ، وصولة جيشها . وكانت النمسا وإيطاليا تابعتيها ، وكانت السويد صديقة شديدة الإعجاب بها ، وقدمت تركيا من بلادها مركزاً لنفوذها السياسى والاقتصادى المتزايد . ونظمت ألمانيا تجارتها العالمية النطاق ، التى نمت نمواً سريعاً فى الكمية والأهمية بمعونة الحكومة ، كأنها عملية من عمليات الحرب الهجومية . وصار العلم الألمانى يشاهَد فى كل ميناء .

تنظيمها العجيب

ولم يُترَك أمر للصدفة . فكانت الدولة تدير السكك الحديدية ، وتحمى السوق الداخلية ، وتعين الصادرات ،كما تعين السفن التى تحملها بالمساعدات المالية . ولم يكن للامبراطورية الألمانية ندّ فى القوة الحربية والاقتصادية بين دول القارة . فكانت مفاتيح الحرب والسلم فى يد برلين ، وكان فى وسع الإمبراطور الألمانى أن يقلب فى صباح واحد توازن أوربا الدقيق .

العنجهية العسكرية الألمانية

ولكن كان يوجد فى هذا التفوق العجيب مواضع ثلاثة من مواضع الخطر. فإن كل رجل سليم البدن فى ألمانيا ، إما أنه كان، أو أنه الآن ، أو أنه سيكون جندياً . فأشاع وجود طبقة كثيرة العدد من الضباط ، وقوة ضخمة من المقاتلين المدربين ، اهتماماً واسع النطاق فى البلاد بفنون الحرب وعملياتها . فكان جميع الشبان الألمان يرتقبون — وكثير منهم يأملون — أن تكون لهم من بين الاختبارات التى تقدمها لهم الحياة ، فرصة للقتال فى سبيل الوطن .

وقد لُقنوا أن يعدوا حرباً كهذه دواء ضرورياً ناجعاً فى تاريخ الدول الأدبى ، لا جريمة ضد الحضارة . ولهذا لم يكونوا (بعكس كثير من الإنجليز) يخشون الحرب ويمقتونها ويزدرونها ، باعتبارها بقية من بقايا الهمجية التى تَصِم البشرية بلوثة العار ، بل كانوا بالأحرى يرحبون بها ، ويقبلون عليها كفرصة تقدّم أعظم امتحان للرجولة . وكان إقبالهم عليها شديداً الآن ، إذ كانوا يعتقدون ، كما علمتهم اختباراتهم الحديثة ، أن الحرب القادمة ستكون ظفراً سريعاً لهم ، مذكية للنفس ، مطهرة للروح . فإذا كان هذا هو الشعور العام للجماهير الألمانية . فإنه من اليسير تصور الاهتمام البالغ الذى كانت تبديه طبقة الضباط التى زادت برماً ببطء الترقيات العسكرية فى أيام السلام الطويلة الأمد ، واشتياق هيئة أركان الحرب العامة إلى انتهاج سياسة نشطة قوية .

حقد الألمان على انجلترا

أما نقطة الخطر الثانية ، فكانت إرخاء الألمان عنانهم للأحقاد الدولية التى هى أشد الانفعالات تهلكة . فقد شُجعوا — وهم شعب خفّاق العواطف ساذج التفكير — على التمادى فى هذه الأحاسيس ، حتى بلغ شعور الحقد العام السائد فى ألمانيا ضد إنجلترا قبل حرب البوير بسنين كثيرة حداً عظيما ، قضى على كل رجاء بالوصول إلى تفاهم سياسى وطيد بين الشعبين .

وقد أدرك فيما بعد فى أسف ، كثير من الساسة الألمان ، مثل فون بيلوف ، ما تجره هذه العاطفة الهوجاء من النكبات . ولكن ذلك كان بعد أن فاتت الفرصة للعمل على اجتثاثها . فقد ظلت الدعاوة المعادية لإنجلترا

فى ألمانيا نصف قرن تهيج الرأى العام عليها . ولما كان كل مشروع لتكبير الأسطول الألمانى ينفخ روحاً جديدة تزيد فى اضطرامها ، لم يكن من السهل تنكبها واقتلاعها . أما فى بريطانيا فإن شعور العداء ، رغم التصريح عنه بشدة فى بعض دوائر الأمة المعادية لألمانيا ، فإنه كما يسلم الألمان العارفون بالأمور ، كان أقل انتشاراً وتأصلا فى هذه البلاد منه فى ألمانيا . بل لم يكن له وجود قطعاً فى بعض دوائر الطبقة الراقية .

طيش قيصر الألمان

وكانت أخلاق القيصر الألمانى عاملا ثالثاً من عوامل الخطر والشؤم . فإن خيلاءه الحائرة غير المستقرة ، وخياناته السياسية ، وولعه بالأبهة المسرحية ، وفوراته العنيفة الهستيرية ، أبقت أوربا فى حالة شديدة من التوتر . وإن سلسلة الخطابات العجيبة التى تبادلها مع نقولا الثانى قيصر روسيا لتدل على أنه كان قادراً كل المقدرة على التصريح بصداقة حارة لإنجلترا ، فى نفس الوقت الذى كان ينصب فيه الدسائس لتأليف حلف من دول القارة ضدها . وكانت تصريحاته العامة فى بعض الأحيان تصريحات رجل مفتون . فإنه عند ما أقلعت مثلا بعض السفن الحربية الألمانية قاصدة الصين فى سنة ١٩٠٠ على أثر ثورة البكسر ، أذكى حمية القوة الألمانية بالعبارات الآتية التى دوت فى آفاق الأرض ، قال :

« إنكم توشكون أن تقابلوا عدواً محتالا قاسياً حسن التسلح . قابلوه واهزموه ، ولا تمنحوه رحمة ولا صفحاً . لا تأخذوا أسرى ، بل اقتلوا كل عدو يقع فى قبضتكم . وكما خلد الهون ، تحت قيادة ملكهم أتلا منذ ألف سنة خلت — خلدوا لهم صيتاً فى الأساطير والخرافات لا يزال يدخل الرعب والهلع ، هكذا اجعلوا اسم ألمانيا يرن رنيناً مدوياً فى صفحات التاريخ الصينى بعد ألف عام من الآن » .

وكان على هذا الغرار أيضاً فى أحاديثه الخاصة ، عظيم الخطر على بلاده وعلى العالم . فقد شاهدنا كيف كان من الجوهرى لحفظ السلام العام أن تمتنع النمسا عن استفزاز روسيا إلى إشعال حرب بسبب خلاف بلقانى ، وكيف كان من

المهم لألمانيا بالذات — كحليفة للنمسا — أن تكبح جماح السياسة النمساوية الخارجية عن الشطط . ومع ذلك فإنه رغم أجلى الإنذارات التى تبين تغلب شعور العدوان على دوائر ڤينا السياسية ، ورغم الحقيقة بأن النمسا فى فرصتين مختلفتين — فى سنة ١٩٠٨ ، ثم ثانية فى سنة ١٩١٢ — كادت تورط ألمانيا فى حرب ، فإن الإمبراطور رغم هذا كله شجع حليفته على الاعتقاد « بان كل ما يجيئه من وزارة خارجية النمسا ، مهما يكن بعيداً عن محجة السداد ، هو بمثابة أمر له واجب التنفيذ » .

فتبين مذكرة دوّنها الكونت برشتولد Berchtold وزير خارجية النمسا عن مقابلة جرت له مع القيصر الألمانى فى ڤينا فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩١٣ — تبين هذه المذكرة بطريقة مفزعة حقاً رعونة هذا العاهل المتقلب وعظيم طيشه . فهو يقول للنمسا بأن الحرب بين الشرق والغرب أمر ليس منه مفر ، وأن الصقالبة وُلدوا ليخدموا ، لاليحكموا ، وأن الصربيين يجب أن يُغوا بالرشوة ، أو يُكرهوا على وضع جيشهم تحت تصرف النمسا ، وإلا فإنه يتعين ضرب قصبة بلادهم بالقنابل واحتلالها . وهو يؤكد لحليفه ويطمئنه بأنه ينبغى ألا يخاف جانب الروس وقوتهم ، إذ أن ألمانيًّا يقطن إحدى الولايات الروسية الواقعة على البلطيق أخبره بملاحظة ذكرها قيصر الروس ، مضمونها أن الحرب تُعد فى حكم المستحيل بالنسبة لروسيا فى بحر الأعوام الستة القادمة . ثم يقول برشتولد فى مذكرته : « وكلما حانت لى الفرصة خلال حديثنا الذى دام ساعة ونصف ساعة للتحدث عن علاقاتنا كحليفين ، كان جلالته ينتهز الفرصة بأن يؤكد لى فى زهو ومباهاة أننا نستطيع الاعتماد عليه اعتماداً تاماً مطلقاً . »

ولقد خطّ القدر فى لوحه أنه لن تمضى فترة طويلة حتى يزاح الستار عما حملته فى طياتها هذه التأكيدات والمشورات من النكبات والأرزاء للنمسا ، ولألمانيا ، وللعالم أجمع .

٢ – موقف بريطانيا

الجمهور البريطانى

طُبعت فى الشعب الإنجليزى غريزة سياسية كامنة ، هى الانضمام إلى فريق الدول الذى يناهض أقوى دولة فى أوربا . ومع ذلك فإن الإنجليزى العادى لم يكن فى مستهل عام ١٩١٤ يرجو شيئاً أكثر من ألا يدعى إلى القتال فى حرب أوربية . فمع أنه أبدى موافقة عامة على خطة التفاهم مع فرنسا وروسيا ، كأمر يعين على توطيد دعائم السلام ، وتحسين التوازن الدولى فى أوربا ، فإنه لم يكن يدرى شيئاً عن الاتفاقات الحربية أو الالتزامات الدولية التى كانت حكومته قد تعهدت بشرفها بالنهوض بها .

وكانت الفكرة بأن بلاده ستُجر إلى حرب عامة نتيجة شجار بلقانى تبدو فى نظره فكرة عجيبة بعيدة التصديق . ولكن نماء الأسطول الألمانى الذى اقترن بإشاعات مفزعة كانت تنتشر بين آونة وأخرى فى إنجلترا ذاتها ، جعله قلقاً وجلا . وكان البريطانى يشعر أنه ليس من النخوة أو السلامة أن يقف موقف المتفرج مكتوف اليدين ، بينما تكتسح ألمانيا البلچيك ، وتدحر فرنسا ، وتحتل الثغور الواقعة على القنال الإنجليزى . وما كانت تطالعه به الصحف الإنجليزية بصدد أطماع الشعب الألمانى لم يكن من شأنه أن يُدخل إلى قلبه الأمل بأن الألمان بعد إحرازهم انتصارات مثل هذه ، يتركون الإمبراطورية البريطانية وشأنها . فهل كان معقولا أن يحجم المنتصرون عن تصفية حسابهم مع إنجلترا بعد أن تخر فرنسا وروسيا صريعتين ؟

موقف الوزراء البريطانيين

ولكن أسكوث وغراى وهلداين — وهم الوزراء الثلاثة الذين كانوا يومئذ معنيين غاية العناية بصوغ السياسة الإنجليزية وتوجيهها — كانوا يرون أن ذهن الأمة الإنجليزية الذى كان إلى هذا الوقت بريئاً لا تداخله الريب ، سيهزه منطق الحوادث ، ويزيح الغشاوة عن عينيه .

ولعله ضعف يلازم الوزارات البريطانية أنها تتهيب مواجهة المسائل البعيدة الحدوث أو الفرضية . فنرى مجلس الوزراء البريطانى لا يبحث بحثاً دقيقاً ، أو يحدد تحديداً واضح المعالم ما يتعين على بريطانيا أن تفعله ، إذا انتُهك حياد

البلجيك ، أو إذا هاجمت ألمانيا مراكش . فإن النظرية السائدة هى أن البرلمان وحده هو الذى يضع القرار النهائى ، وأنه سيعمل وفق فهمه للوجوه الأدبية لكل مسألة حين تُعرض عليه . غير أن هلداين وزير الحرب كان قد أنذر الألمان سنة ١٩١٢ ، حينما دُعِى ليشهد مناورات الجيش الألمانى فى ذلك العام ، بأن إنجلترا ستنظر إلى انتهاك حياد بلجيكا — إذا حدث — كعمل خطير يهددها هى ، كما ذكر هذا الوزير نفسه لمترنخ السفير الألمانى المقتدر بلندن ، بأن الرأى العام البريطانى لا يوافق على سحق فرنسا .

وقد قُدمت الحجة أحياناً بأن الحرب ربما كانت تُجنُبت ، لو أن تصريحات أجسر وأصرح من هذا التلميح ، أعلِنت فى الوقت المناسب بواسطة الوزارة البريطانية . ولكن ليس ثمت شىء أكيد بخصوص هذه النقطة . فإنه من سنة ١٩١٢ وما بعدها ، لم تكن السلطة الحقيقية فى برلين مركزة فى يد الإمبراطور وحده ، بل ساهمته فيها بقسط متزايد أركان الحرب الألمانية العامة . فإن تلك الهيئة العسكرية الضليعة كانت قد قدَّرت تقديراً ضئيلا للغاية جهد إنجلترا الحربى المحتمل أن تقدمه فى حرب تنشب فى قارة أوربا . صحيح كان يسلِّم بأن الإنجليز سيسببون المتاعب لألمانيا فى البحار ، ولكن برلين كانت تعتقد أن الحرب لو نشبت ، فإن نتيجتها المحتومة فى الجبهة الغربية ستقرَّر فى أسابيع قليلة جداً ، وأن وجود قوة بريطانية على أرض فرنسا ، ولو أنه سيطيل قوائم إصابات القتلى والجرحى الألمان ، إلا أنه لن يؤثر سوى تأثير طفيف فى جدول العمليات الحربية الذى وضعته .

الجهود تبذل لتحسين العلاقات مع ألمانيا

أما غراى وزير الخارجية فلم يكن يرى أن الحرب أمر لا محيص منه . بل كان يرجو أن إنجلترا — مع بقائها مخلصة لتعهداتها لروسيا وفرنسا — ستفوز بتحسين علاقاتها مع ألمانيا . فاقترح على الحكومة الألمانية أكثر من مرة بأنه يجدر بها أن تشترك مع إنجلترا فى خطة لتخفيض التسلح البحرى ، غير أن هذا الاقتراح قوبل بالإعراض فى كل مرة . لذا لم يكن مستطاعاً الوصول إلى نتيجة محمودة فى هذا الشأن . وتقدمت لندن بنية خالصة بعروض

من نتيجتها خلق شعور أعظم صداقة وودًّا بين الأمتين ، ولكن هذه العروض كانت تُعد فى برلين خيوطاً من أحبولة مكيافللية، يُقصَد من ورائها دوام تفوق الأسطول البريطانى . فاللفتة السلمية التى تقدم بها رئيس الوزراء كامبل بنرمان سنة ١٩٠٧ نُظر إليها بأنها تبيت النية على مباغتة الأسطول الألمانى وتدميره . وندد الإمبراطور باقتراح « العطلة البحرية » سنة واحدة من بناء السفن الحربية ، وهو الاقتراح الذى عرضه المستر ونستن تشرشل سنة ١٩١٢ ، واصفاً إياه بأنه « مجرد نفاق ورياء » . وكذلك لم تُجدِ ثمرة بعثة هلداين إلى برلين سنة ١٩١٢ . فلم يكفِ الألمان أن تؤكد إنجلترا لهم أنها لن تبدأ حرباً هجومية غير مسوغة أو تنضم إليها ، بل طالبوا الحكومة البريطانية بما ليس فى يدها أن تعطيه ، وهو أن تتعهد تعهداً صريحاً جلياً بالتزامها الحيدة فى حالة اشتعال الحرب .

ولكن رغم هذا كله ، ثابر وزير الخارجية البريطانية فى مساعيه لاستقرار السلام . وفى جو سياسى كان قد طرأ عليه تحسن عظيم نتيجة نجاح مؤتمر بوخارست سنة ١٩١٣ ، أوشكت إنجلترا وألمانيا فى الشهور الأولى من سنة ١٩١٤ على الوصول إلى اتفاق بينهما ، بشأن سكة حديد بغداد ، والتقسيم النهائى للمستعمرات البرتغالية .

توثيق العلاقات مع التحالف الثنائى

ولكن اتُّخذت فى ذلك الوقت، خطوتان جعلتا دخول إنجلترا فى حرب أمراً يكاد يكون لا مفر منه إذا هوجمت فرنسا . فإنه حسب اتفاق مع الوزارة البريطانية سنة ١٩١٢ ، ركّز الفرنسيون أساطيلهم فى مياه البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن إعادة توزيع قواتهم البحرية هذه تنطوى إلا على افتراض أخذ بريطانيا على عاتقها مهمة الدفاع البحرى عن ساحل فرنسا الواقع على القنال الإنجليزى فى حالة نشوب حرب . أما الخطوة الثانية فكانت ترخيص الحكومة الإنجليزية بعد ذلك بعامين لخبرائها البحريين بإجراء محادثات مع روسيا .

٣ – الثورة تهدد روسيا

قيام الفتن والاضطرابات

أما عن مجرى الأحداث القادمة التى كُتِب للإمبراطورية الروسية المترامية الأطراف أن تشهدها ، فلم يكن فى مقدور أحد التكهن بها فى شىء من التأكيد والوثوق . فمع أن الحكومة القيصرية المستبدة كانت لا تزال قائمة – بعد أن تغلبت على قلاقل الطلبة سنة ١٨٩٩ ، وفتن الفلاحين سنة ١٩٠٢ ، واندحار الجيش الروسى المفجع فى الحرب اليابانية ، وعصيان سنة ١٩٠٥ ، وهو العصيان الذى جلّ خطره بسبب اقترانه مع ظروف أخرى باعتصاب روسى عام كان أتم الاعتصابات استكمالا حتى ذلك اليوم ، وكان أول تجربة فى قطر أوربى لمحاولة إقامة دكتاتورية عمالية – مع كل هذا ، كان الناس يتساءلون عما إذا كان فى طوق هذه الإمبراطورية أن تستمر معمرة طويلا من غير الالتجاء إلى شن حرب ناجحة تشغل بها الرأى العام فى بلادها عن الثورة .

التذمر العام

فإن قوى هائلة متأججة كانت تعمل فى الداخل لتدمير ذلك البناء الشامخ وتقويضه . فقد كانت هيئات الطلبة فى الجامعات الروسية ممتلئة سخطاً وحنقاً ، ورفعت الطبقات الوسطى الحرة المذهب التى رضعت لبان الثقافة الغربية – رفعت عقيرتها مطالبة بإحداث تغييرات دستورية بعيدة المدى . وكان إلحاح الفلاحين الفقراء التعسين بضرورة وضع قوانين عادلة تنظم تأجير الأرض لهم ، والتهييجُ الأهوج المستمر القائم على المبادئ الماركسية بين عمال المصانع ، وفتن القوميات المهضومة الحقوق الخاضعة لحكومة القيصر ، والصراخ المرتفع الخانق الصادر من فلذات المنفيين فى سيبيريا ، وضحايا الجور والطغيان الآخرين – كل هذه الطوائف ألفت كتلة ضخمة من المقاومة هدّدت النظام القائم فى روسيا بالويل والثبور .

تجربة النظام الدستورى

فلما رأت الأوتقراطية الروسية نفسها تهاجَم من كل جانب ، ولا سيما بعد أن سقطت هيبتها بسبب انكسارها فى الحرب اليابانية ، آثرت أن تمد

يدها لمصالحة محرِّكى الفتنة، لعلها بذلك تتفادى الخطب . فدعت أولا إلى العاصمة لجنة مركزية انتخبتها المجالس المحلية . ثم قفت هذه الخطوة نحو التقدم الدستورى بدعوة برلمان منتخب Duma سنة ١٩٠٥ . ومما هو حرى بالذكر أن النبأ القائل بأن روسيا – هذا المثال المتجسم للاستبداد غير المستنير – قد استعارت من الغرب نظمه البرلمانية – إن هذا النبأ أثار نشوة وابتهاجاً عظيمين فى أفئدة الأحرار الإنجليز .

ولكن لم يكن ثمت سوى سبب ضئيل للفرح والسرور . فقد تعاقبت البرلمانات الروسية ، الواحد إثر الآخر فى توالٍ سريع ، دون أن تعمل شيئاً للتقليل من كراهية الشعب للقيصر ، أو التلطيف من حدة الخصومات بين الشيع المتناضلة . فقد نجم عن عدم ثقة الحكومة بالدوما ، وعدم ثقة الدوما بالحكومة ، أن الأمة لم تجنِ الفوائد التى كانت ترتجيها من التئام عقد عدد كثير من الرجال الوطنيين المقتدرين فى هذا المجلس النيابى .

ضعف القيصر نقولا

ولم يكن نقولا الثانى بالرجل الذى يستطيع أن يقود السفينة إلى بر السلامة فى وسط الزوابع العاصفة . فإنه مثل لويس السادس عشر جُبِل على الحياة الخاصة ، لا العامة ، واجتمع فيه خور العزيمة مقروناً بميل إلى العناد ، وذكاء ضعيف ، وقصور عن استيعاب أهمية الحوادث ، أو معرفة أخلاق الناس الحقيقية – كل هذا مصحوباً بميل إلى تصديق الخرافات المزرية ، الأمر الذى جلب أكثر من مرة الضرر على مصالح الدولة .

ولما كان من نحس ألمانيا أن يكون إمبراطورها ذا شخصية فائقة القوة ، كذلك كان من سوء طالع روسيا أن يبلغ آخر قياصرتها حداً بالغاً من الضعف . فإنه رغم تجمُّله بكل خلة شخصية – فقد كان سيداً كريم الخلق ، وزوجاً وفياً ، وأباً عطوفاً – إلا أنه كان عاجزاً عن فهم شئون الدولة فهماً راسخاً غير متقلب ، أو انتهاج خطة للعمل ثابتة حازمة . فكان يميل إلى استشارة أفَّاك جاهل يتظاهر بالتدين فى مسائل تتطلب مشورة رجل سياسى متزن ، وكان فى اختياره نهج هذا الطريق اليائس متأثراً بآراء قرينته المحزونة المفجوعة التى يؤلف

افتتانها براسبوتين Rasputin الراهب المحتال المستبيح النصاب فصلا عجيباً من فصول علم النفس .

السباق بين الحرب والثورة

هذا ولم تكن زمرة الدبلوماسيين ورجال الحرب الذين أحاطوا بالعرش الروسى بميالين إلى السلام . فقد كانوا يرومون أن يشاهدوا روسيا – بعد أن أجبرتها الحوادث على التقهقر فى الشرق الأقصى – تهيمن يوماً من الأيام على ثغر القسطنطينية عقب حرب يُعقد لها فيها لواء النصر . فكما كانت السياسة الخارجية لحكومة القيصر عدوانية فى الماضى ، كذلك ما برحت عدوانية الآن . بيد أنه لم يكن يجيش فى صدر الساسة الروس فى ذلك الحين رغبة طاغية فى امتشاق الحسام ، اللهم إلا إذا وُجهت إهانة بالغة للصربيين ، فإن سكك روسيا الحديدية لم تكن قد أكملت بعد .

ولذا فإنه حينما نشب فى ٨ يوليو سنة ١٩١٤ اعتصاب خطير فى مصانع سان بطرسبرج أدى إلى إقامة المتاريس فى الشوارع ونشوب القتال فيها ، لاح كأنه يدل على أن الفوز سيكون للثورة فى السباق الذى كان يجرى يومئذ بينها وبين الحرب .

كتب يمكن استشارتها

G.P. Gooch : Germany. (Nations of the Modern World Series) 1925.
Von Bulow : Memoirs.
J.A. Spender : The Last Fifty Years.
D. Lloyd George : War Memoirs. 1933.
Lord Grey of Fallodon : Twenty-Five Years. 1928.
Lord Oxford and Asquith : Memoirs and Reflections. 1928.
Winston Churchill : The World Crisis. 1923.
Paléologue; L'Empire des Tsars.

الفصل الحادى والثلاثون

نشوب الحرب

تطور حضارة مشتركة رفيعة فى أوربا . اغتيال الأرشدوق . البلاغ النهائى النمساوى . النمسا تعلن الحرب على صربيا . سازونوف . تبعات ألمانيا والنمسا وروسيا فى إعلان الحرب . شعور الإنجليز . انتهاك حياد البلجيك . مسئوليات الرأسمالية . ضعف عام فى الميل إلى السلام . النمسا وحدها ، تؤيدها أركان الحرب الألمانية تريد الحرب عام ١٩١٤ . مفاجآت الحرب العظمى .

١ – تطور الحضارة الأوربية الرفيعة

نشر السلام ألويته

ما طلع القرن العشرون ، حتى كانت شعوب أوربا – خلا قسما صغيراً منها فى البلقان قليل التمدن – كانت قد بلغت ذروة من الحضارة ورغد العيش لم تبلغها قط من قبل . فقد عمت المجالس النيابية جميع أقطارها ، ولو أن هذه المجالس كانت فى أصقاع عديدة منها واهية الأساس سيئة الإدارة ، لا تدرك الأمم وظيفتها إدراكا صحيحاً ، أو تحسن تسييرها .

وأخذ الاعتقاد يزداد قوة ورسوخاً بأن العالم يغذُّ السير نحو الاتحاد ، على الرغم من الحركات الحربية والقومية التى قامت فى ذلك العصر . واقتسمت دول أوربا بجهد رائع من الدبلوماسية الرشيدة قارة إفريقية فيما بينها ، دون أن يثار نضال بين دولها الإمبراطورية ودولها الاستعمارية . وأضحى الالتجاء إلى التحكيم لتسوية الخلافات الدولية يمارَس بدرجة أكثر من قبل . وما تأسيس اتحاد البريد الدولى (سنة ١٨٧٥) ، وإقامة نظام مشترك لضمان حقوق التأليف ، وإنشاء مكتب دولى للصحة العامة (سنة ١٩٠٧) ، إلا أمثلة

للطريقة التى كانت تنزع نحوها الدول بدرجة متزايدة فى إدارة شؤونها المشتركة .

السياسة هى فن إسعاد البشرية

وبدا للناس كأن رجال السياسة قد تعلموا أخيراً الدرس بأن السياسة هى فن السعادة البشرية . فقد أجازت جميع البرلمانات القوانين لحماية الضعفاء من أعضاء المجتمع ، وامّحت جميع الامتيازات الجائرة من ميزانيات الدول ، وأزيلت المظاهر الوحشية للعصر الوسيط من قوانين العقوبات ، وعمّ التعليم وازدهر فى كثرة الأقطار الأوربية . وأطال كثيراً الطب الوقائى من أعمار البشر . واختفى الموت جوعاً من بين قائمة الشرور الاجتماعية فى جميع الأقطار الراقية .

النهضة الأدبية

وخيل أن المجتمع الأوربى تخلص إلى مدى بعيد من شر واحد بنوع خاص . فإنه بازدياد القوات المادية الموضوعة تحت إمرة الحكومات ازدياداً كبيراً بتقدم العلم ، اختفى كل مظهر من مظاهر الركود الذهنى ، واستيقظت القرائح ، وتفتحت الأذهان فى جميع أمصار القارة الأوربية .

ولم يُقبِل المجتمع على كتّاب أكثر من إقباله على أولئك الذين هاجموا النظم القائمة ، وحاولوا إعادة تقدير القيم السائدة ، ففى العصر الفكتورى وجّه ماثيو آرنلد موهبته المرهفة المتأنقة إلى السخرية من التقاليد الجامدة للطبقة الوسطى . بل وظهر فى عالم الأدب فى أواخر القرن المنصرم ناقدون ألمع وأقوى من أرنلد . فقد خاطب إبسن Ibsen ، وتلستوى Tolstoi ، ونيتشه Nietzsche وأناطول فرانس Anatole France، وبرنارد شو — خاطبوا عدداً أكبر من القراء والمستمعين ، وألّفوا فى نطاق واسع فى موضوعات أجرأ وأجسر مما تناولته أقلام الكتاب السابقين . فلم يمر زمن على أوربا كانت فيه أكثر يقظة لإدراك عيوبها ونقائصها ، أو أحكم مشورة لتدبير وسائل إزالة هذه العيوب والنقائص ، مما كانت عليه فى مطلع القرن العشرين .

بركات العلوم

وأغدقت العلوم الكهربائية خيراتها على الجنس البشرى : فأمطرت بركات الحرارة ، والآلات الحرارة ، والتلغراف ، والتليفون ، والسينما ، واستكملت

الدراجةُ والسيارة والطيارة ما فى السكك الحديدية من مواضع نقص . وتوفرت أسباب الاطلاع على الأدب النفيس والأدب الغث بنماء المكتبات العامة ، وتنافُس الناشرين ، وتقدم آلات الطباعة . وأشبعت إلى حد الارتواء صحافةٌ رخيصة غريزةَ حب الاستطلاع فى جماهير العامة الذين ينتهى تعليمهم المدرسى بانتهاء مرحلة التعليم الأولى .

رفع مستوى طبقات العمال

ولكن لعل أبرز مظهر من مظاهر العصر الذى سبق توًّا الحرب العظمى ، هو نمو الاعتقاد بأن للعمال والعاملات الحق فى أن توفَّر لهم أسباب التسلية والتمتع ، وأن تُجعل فى متناول طاقتهم ، عن طريق دفع إعانات مالية من خزائن الحكومات . ومنذ سقوط الإمبراطورية الرومانية لم تكن السلطات العامة أحرص على إعداد تسليات عامة لشعوبها ، وإشباع شهوة الجماهير للملذات وتوفير أسبابها لها ، منها فى ذلك الحين . كما أن الأعمال الذهنية لم تكن أسرع فى الانتقال من أمة إلى الأمم الأخرى ، منها فى تلك الآونة .

فموسيقى براهمس Brahms ، ومسرحيات إبسن ، وروايات تلستوى وأناطول فرانس ، وأوبرات جِلْبَرت وسَلِفان ، وأغانى قاعات الموسيقى الشعبية – كوَّنت كلها جزءاً من الثروة الأدبية العامة لأوربا . صحيح أن عائق اختلاف اللغات كان عائقاً جدياً خطيراً . ولولاه ، لكان هناك من الدواعى ما يحفز الإنسان إلى الأمل بأن أوربا قد تصبح بانتشار الثقافة المشتركة وحدة متحضرة واحدة ، كتلك التى صوَّرها أرسطاليس الفيلسوف الإغريقى العظيم .

٢ – انتهاء عهد السلام ، وتجريد السيف

اغتيال ولى عهد النمسا والمجر

غير أن هذه العملية التى سمت بالحضارة الإنسانية ، وأنمت رخاء البشر ورغد عيشهم ، حطمتها على حين غرة جريمةٌ رهيبة خطيرة الشأن . فإنه فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ ، أطلق غفريلو برنسيب Gavrilo Princip ، وهو طالب متطرف من أهل البوسنة – أطلق الرصاص على الأرشيدوق فرانتز فرديننند وريث العرش النمساوى فى سراچيڤو Saragivo عاصمة البوسنة ،

بينما كان الأرشدوق يقوم بزيارة رسمية لتلك الولاية . فقتله هو وزوجته .

فاجتاحت على الأثر عاصفة من الاستياء والاستفظاع مملكة النمسا والمجر . واعتقد الكثيرون من أهلها ، كما رأى البعض من ساستها ، أن من حسن السياسة أن يفرضوا أن هذه الجناية ، وإن ارتكبت فى أرض البوسنة التابعة للنمسا ، إلا أنها كانت من تدبير جمعية اليد السوداء الصربية ، وأنها لقيت حثًّا وتشجيعاً من جانب موظفى الحكومة الصربية[1] ، أو على الأقل أنهم أغمضوا أعينهم عن أمر تدبيرها .

خطأ الحكومة الصربية

ومع أن تحقيقاً محليًّا أجرته الحكومة النمساوية لم يجد أى دليل مباشر لتواطؤ الحكومة الصربية ، فقد كان للنمساويين بلا أدنى ريب عذر فى المطالبة بإجراء تحقيق مستوف شامل فى مؤامرة كانت تمتد جذورها بلا نزاع فى مملكة الصرب ، وفى ولاية البوسنة على السواء . وكان يجدر بالصربيين مراعاة لمصالحهم نفسها ، أن يقوموا هم بتحقيق كهذا . ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل ، سواء أكان ذلك لأنه كان يجرى فى صربيا انتخاب عام وقتئذ ، أم لأنه يلوح أن الوزارة الصربية كانت قد تلقت فعلا معلومات بأنه من المحتمل الشروع فى اغتيال الأرشدوق ، وأهملت إبلاغها إلى ڤينا .

بلاغ نهائى من النمسا

فأخذ رأى دوائر ڤينا — يدعمه تأييد الحكومة الألمانية — يتحرك سراعاً نحو ضرورة إعلان الحرب على صربيا . بينما أخذت صحافة كلا القطرين تتراشق التهم والعداوات العنيفة . وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩١٤ أنفذت الحكومة النمساوية إلى غريمتها بلاغاً نهائيًّا ، قال عنه السر إدوارد غراى « إنه لم ير قط دولة ترسل إلى دولة مستقلة أخرى إنذاراً مثله فى الغضب والخطورة » . فقد كان بلاغاً نهائيًّا قُصد منه أن يقابَل بالرفض ، إذ كان ينطوى على تقويض استقلال الصرب — فيؤدى رفضه إلى الحرب .

---

(١) هناك من القرائن ما يحمل على الاعتقاد بأن اغتيال الملك اسكندر ملك صربيا وقرينته الملكة دراجا عام ١٩٠٣ ، ومصرع الأرشدوق فى سنة ١٩١٤ ، كانا كلاهما من عمل أفيس Avis رئيس جمعية اليد السوداء .

وأرسل هذا البلاغ فى وقت كان فيه پونكاريه Poincaré رئيس الجمهورية الفرنسية وڤيڤيانى رئيس وزرائها يمتطيان متن البحار ، قافلين من زيارة لقيصر روسيا . ووقفت برلين خلف ڤينا تشد أزرها وتسند ظهرها . وأنذرت البواخر الألمانية باحتمال نشوب الحرب . ونُبهت سان بطرسبرج وباريس ولندن إلى أن أى تدخل من جانبها بين النمسا وصربيا ستتبعه « عواقب لا حصر لها » .

إعلان النمسا الحرب على صربيا

ومن السهل تصور مدى القلق والامتعاض اللذين أثارتهما هذه الأنباء فى الوزارات الأوربية . فإن أول خاطر جال فى الأذهان هو أن الحكومتين النمساوية والألمانية تريدان أن تتخذا من هذه الجريمة تكئة لسلب صربيا استقلالها ، وربما أيضاً لإقحام حرب عامة على روسيا وفرنسا قبل أن تُستكمل السكك الحديدية الروسية ، وتصبح معدة للقيام بأعباء الحرب . وازداد هذا الخاطر تأصلا وتمكناً ، حينما أقنع الإمبراطور فرنسيس جوزف ، بمشورة الكونت برشتولد وزير خارجيته ، بأن يعلن فى ٣٠ يوليو سنة ١٩١٤ الحرب على صربيا — هذا رغم قبول الأخيرة سبعاً من النقط العشر التى حواها البلاغ النهائى النمساوى . ذلك أن الجيش النمساوى الذى كان يتعطش طويلا إلى تأديب «أمة القتلة والسفاحين» لم يقصد أن تفلت هذه الأمة من أنيابه هذه المرة .

تبعة سازونوف

ولم يكن من المنتظر أن تقف روسيا من غير حراك ، بينما تُمحى صربيا من خريطة البلقان . فقد رأى سازونوف Sazonov وزير خارجية روسيا — وهو رجل سهل الإثارة شديد الاندفاع بحيث لم يكن جديراً بمنصب خطير كمنصبه — رأى ما يملأ قلبه فزعاً وارتياعاً من تدابير دولتى أوربا الوسطى فى الشرق الأدنى : فإن أميراً ألمانياً كان قد أرسل إلى ألبانيا لكى يجلس على عرشها ، وقائداً ألمانياً كان قد أوفد إلى القسطنطينية لتنظيم الجيش التركى . فلو أن الصربيين خروا صرعى ، فما الذى كان يمنع ألمانيا من إقامة دولة ألمانية تمتد من همبرج إلى بغداد ؟

وكان سازونوف شديد البغض للنمساويين . فإنه على الرغم من أن الكتائب

الروسية كانت قد عاونت سنة ١٨٤٩ فرنسيس چوزف على قمع ثورة هنغاريا ، فإن مملكة النمسا والمجر كثيراً ما وقفت عائقاً فى وجه السياسة الروسية . ولهذا بينما كان سازونوف يتوق لكشف سبيل للاحتفاظ بأهداب السلام ، فإنه كان ينتابه بين وقت وآخر فورات جامحة هوجاء من الغضب والتسرع . ولا ريب أنه كان رجلا أضعف كثيراً من أن يقاوم ضغط أرباب السيف الروس الذين أجبروا حكومتهم على تعبئة الجيش تعبئة جزئية فى أول الأمر ، ثم تعبئته تعبئة عامة على أثر وصول الأنباء إلى بلادهم بضرب النمسا لبلغراد بالقنابل .

تبعات ألمانيا والنمسا وروسيا فى إعلان الحرب

وكان طبيعيًّا أن يشتعل قيصر الألمان غيظاً واستنكاراً لجريمة سراچيڤو . فقد كان الأرشدوق خليصاً من خلصائه . وكانت طريقة اغتياله فظيعة مروعة لا يمكن التماس مبرر لها . ومع ذلك فإنه من سوء الحظ أنه فى مخاطباته الأولى مع ڤينا ، كال من غير تحفظ التنديد بصربيا ، وأدلى بتصريحات تنم عن رغبته فى إنزال القصاص بها .

ووقف يفاخر بولائه لحليفته ، ويزهو بنخوته فى الوقوف إلى جانبها . فكان موقفه هذا أسوأ موقف يمكن أن يُتخذ خلال أزمة كانت تتطلب رزانة وهدوءاً ، لا اندفاعاً وراء الخيالات . فإنه نظراً إلى أن فحوى البلاغ النهائى النمساوى انطوى على إزالة دولة مستقلة من الوجود ، لم يكن من السهل أن يقال إنه يمكن حصر الخلاف بين النمسا وصربيا وحدهما . فكانت أكبر خدمة يمكن للحكومة الألمانية أن تسديها وقتئذ إلى أوربا هى أن تستخدم نفوذها على النمسا للتخفيف من غلوائها . ولذا وُجِّهت إليها التهمة بأنها لم تشرع فى الضغط عليها إلا بعد انفلات الفرصة ، وحينما أصبحت الأداة الحربية النمساوية تتحرك بكامل قوتها .

فلم تؤيد الحكومة الألمانية السر إدوارد غراى فى اقتراحه المقدم فى ١٣ يوليو سنة ١٩١٤ بأن المهلة المحددة لصربيا يجب مدها . كما أنها لم تقبل اقتراحه بأن يُعرض الخلاف على مؤتمر يعقد فى لندن . كما أفهمت الحكومة

النمساوية ، أثناء تصرفاتها البعيدة عن الرصانة ، بأنه فى مقدورها الاعتماد على تأييد الجيش الألمانى لها . وبذلك رفضت الدولة الوحيدة التى كان فى مقدورها كفالة السلام ، أن تتعاون فى الجهود التى كانت تُبذل للاحتفاظ به . وأخذت الحكومة الألمانية التى كان فى وسعها أن تمنع اتقاد جذوة الحرب — أخذت على عاتقها تبعة إشهارها . أما الشعب الألمانى فقد ظل يلقَّن ردحاً طويلا من الزمن بأنه يطوقه تحالف مكيافللى من الأعداء ، بحيث لم يجد صعوبة فى الاعتقاد بأنه دُعِى الآن للذود عن حياض الوطن من محاولة أثيمة تبغى تقويضه .

وكان الألمان شديدى التخوف والقلق بنوع خاص من الجيوش الروسية الهائلة الواقفة لهم بالمرصاد على حدود بلادهم الشرقية . ومن نافلة القول أن يُفرض أنه كان فى مقدور الأمة الألمانية ، فى هذه اللحظة الزاخرة بالانفعال والهياج ، أن تستعيد إلى ذهنها الفرص العديدة التى سعت حكومتها بالذات فى الأزمنة الحديثة إلى نيل أغراضها الدبلوماسية بسلاح التهديد بالحرب ، وأن تسترجع ألوان الوجل والقلق التى أثارتها سياستها الإمبراطورية الاستعمارية فى الأقطار الأجنبية .

ولكن تبعة أعظم من هذه تقع على أكتاف الكونت برشتولد . فمع أنه كان معروفاً فى ڤينا منذ ١٣ يوليو بأنه ليس فى الاستطاعة إثبات جريمة التواطؤ فى جريمة سراچيڤو على الحكومة الصربية ، فإنه أصر على مواصلة سياسته القاضية بإنفاذ حملة تأديبية ، حتى على الرغم من الترضيات التى قدمتها صربيا ، وحتى حينما صار جلياً أن روسيا ستؤيدها .

حقيقة من الممكن التسليم بأنه كان للنمسا من الأدلة ما يجعلها شديدة الوجل من الدعاية الثورية الصربية داخل حدود إمبراطوريتها . غير أنه من الشاق أن يُعتقد بأن هناك أسباباً حقيقية تدعوها إلى الخوف من القوة الحربية لمملكة صغيرة خرجت تواً من أتون حربين طاحنتين ، وأصبحت تواجه المشكلة الشائكة الخاصة بهضمها رعاياها الجدد فى الجنوب . فآثرت النمسا ، دون

أن تعير أى اكتراث للعواقب ، انتهاز فرصة السخط العظيم الذى أثارته جريمة سراچيڤو ، لتسوية جميع خلافاتها مرة واحدة مع تلك الجارة الصغيرة ، ولكنها الجارة المثيرة للمضايقة الشديدة .

ولو أن عاهلا قويًّا بصيراً بالأمور كان متربعاً على العرش الروسى يومئذ ، فلربما كان فى طوقه أن يواجه دون خشية الحنقَ الذى سيثيره تخليه عن صربيا فى ساعة محنتها ، حتى ولو جازف بفقدانه صداقة صقالبة البلقان وودهم . ولربما كان فى وسعه أن يسوِّغ عمله بأن روسيا تملك من الأراضى الفسيحة إلى حد أنها بالجهد تستطيع أن تحكمها ، وأن الفتوح الأجنبية لن تجلب لها شيئاً يزيد فى قوتها وسطوتها ، وأن سفك الدماء وإضاعة بدرات الأموال من أجل صربيا هما من الحرق وسفاهة الرأى ، بحيث يُحتمل أن يهدما صرح الإمبراطورية بأكمله .

إلا أن نقولا الثانى لم يكن بالرجل القوى . فإن روحاً من التسليم النفسى الغامض احتل مكاناً فى جوانح نفسه — كما احتل مكاناً فى جوانح كثرة الروس — بدلا من تحلِّيه بسجية المقدرة على التفكير المتواصل الذى لا يقبل الركود . فرغم أن القيصر كان يهيب بالعالم المرة بعد المرة ، أن يعمل على استتباب السلام ، ورغم أنه دعا الدول الممدنة مرتين لتأسيس محكمة للتحكيم الدولى[١] ، فإنه سمح مع ذلك لرئاسة أركان الحرب الروسية التى كانت تصبو إلى الحرب ، أن تنتزع منه الإذن بتعبئة الجيش الروسى تعبئة عامة ، قبل أن تقرر ألمانيا إشهار الحرب . ولكن يمكن القول تبريراً لعمله هذا ، بأن حكومته كانت قد حضت الصربيين على أن يقدموا تلك الترضيات بالذات التى قدموها للنمسا ، والتى صرح القيصر عند قراءته إياها للمرة الأولى بأنها كافية لتجنب الحرب .

شعور الإنجليز

أما إنجلترا فقد جاهدت باطراد ، بقدر ما وسعتها الطاقة ، فى سبيل حفظ السلم خلال تلك الأيام الأحد عشر التاريخية العصيبة ، حينما كانت

(١) هى محكمة لاهاى الدولية .

مصاير أوربا فى كفة الأقدار . ولا يمكن بالطبع أن توجَّه إليها تهمة السعى إلى شهر الحرب . فإنه كان أمراً لا مفر منه ، أنه عند إقحام الحرب على فرنسا ، ستؤثر إنجلترا أن تقاد إلى حومة الوغى ، عن أن تشاهد سحق حليفتها – حتى ولو أنها لم تكن تدرك ذلك وقتئذ . ومع هذا فقد كان الشعب الإنجليزى ضئيل الرغبة زاهد الفكر فى إشهار السيف ، حتى أنه لولا غزو ألمانيا لبلجيكا ، لحلَّ بصفوف الوزارة والبرلمان والأمة الانشقاق وتفرق الكلمة .

فإن انتهاك حرمة بلاد بريئة – كانت بروسيا نفسها قد ضمنت حيادها – بلا مسوغ أو استفزاز ، وحَّد رأى وزارة أسكوث ، وبدَّد شكوك حزب العمال فى البرلمان ، وأقنع الأمة بأن الحرب قد أشهِرت للدفاع عن قضية عادلة . وألهم الحزب الإرلندى البرلمانى بزعامة جون ردمند ، الذى أعلن استنكاره للعدوان الذى حل بشعب كاثوليكى صغير على يد جارٍ شديد البطش – ألهم جون ردمند بأن يعرض على الوزارة خدماته خلال هذه الحرب .

الرأسمالية لم تسع إلى الحرب

أما الفكرة بأن الحرب العظمى أثارها الرأسماليون ، فهى هراء ولغو . فإنه فى كل مكان – ربما ما خلا فى بعض دوائر صنع الأسلحة – ارتاع كبار رجال الأعمال أيما ارتياع لفكرة انهيار السلم التى أطلَّت عليهم الآن . ومع ذلك فإنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون أن يوقفوا أدوات الحرب الجبارة الهائلة عن التحرك والسير – مثلهم فى ذلك كمثل الأحزاب الاشتراكية . فلما حلَّت الأزمة ، كان الرأسماليون الدوليون عاجزين عن تسويتها ، عَجْزَ الاشتراكيين الدوليين . فقد تناسى الاشتراكيون فى برلين ، وفى باريس ، وجهات نظرهم فى السلام العام ، واقترعوا فى جانب الاعتمادات المالية المطلوبة للحرب . إذ طغى فوق سائر القوى روح عنيفة من القومية المتأججة المضطرمة الأوار .

مطامع الدول

ولم تكن هناك مملكة أوربية واحدة وضعت سياستها على أسس من

السلم . بل جاشت فى كل وزارة خارجية أحلام كانت تصبو إلى تحقيقها عن طريق القتال . فقد كانت فرنسا ترنو بأبصارها إلى إعادة الألزاس واللورين إلى أحضانها . ورغبت ألمانيا فى امتلاك مستعمرات أكثر ، والسيطرة على الشرق الأدنى . ورامت النمسا إذلال صربيا ، وانتزاع ثغر سالونيك من اليونان . وابتغت روسيا امتلاك مضيقى البسفور والدردنيل. ونصبت صربيا شباكها لامتلاك البوسنة والهرسك . وطمعت إيطاليا فى ضم تريستا والترنتينو إليها ، ورومانيا فى تملك ترنسلڤانيا بعد سلبها إياها من هنغاريا ، أو تملُّك بسارابيا بعد انتزاعها من روسيا .

المسئولية الخطيرة الواقعة على الحكومة النمساوية

فعند اندلاع الحرب ، استعرت جميع هذه الأطماع فى نار هائلة . أما الحرب فى ذاتها ، فلم تكن أمراً لا مفر منه . كما أنها لم تكن قط أمراً يرومه الأكثرون . فلا فرنسا ولا روسيا ولا إنجلترا كانت براغبة فى الحرب سنة ١٩١٤ . والحق أنه لم تكن فى ذلك الوقت غير حكومة واحدة تتوق بكليتها إلى نقض السلام ، وهى الحكومة النمساوية ، تشجعها وتؤيدها الصولة الشريرة والنفوذ الطاغى لأركان الحرب العامة الألمانية التى كانت قبل مقتل الأرشدوق بشهور تضغط على حكومتها مبينة لها فوائد إقحام حرب دون تأخير .

الآثار الأولى لإعلان الحرب

وأنتج فى الوهلة الأولى ، النبأ المذهل للأذهان بأن دول أوربا تتصارع فى ميادين الوغى ، تعجيلا عجيباً خارقاً فى دوران عجلات الحياة . فأضحى كل شخص مشغولا مهتاجاً نشطاً ظمئاً إلى بذل الجهود والسعى فى خدمة بلاده . وتوارت فجأة المنازعات الداخلية التى كانت تلوح قبل الحرب بأيام قلائل خطيرة الشأن ، أزاء الخطر الكبير الذى صار يهدد حياة كل أمة . فعاد المعتصبون إلى أعمالهم فى بطرسبورج ، وتوقفت المطالبات بحقوق النساء عن عنفهن فى لندن . وفى إيطاليا حض بنيتو موسولينى Benito Mossolini الذى كان قبيل الحرب يتزعم إضراباً ثورياً هائلا — حض حكومته على التدخل .

وآمنت كل أمة بعدل قضيتها ، وأنها تناضل عدواً أثيما يتوق إلى تدميرها ، وأن بقاء نظام أدبى فى العالم غدا يتوقف على إحرازها هى النصر . فالألمان الذين اعتبروا أنفسهم المبشرين بأرفع ألوان الحضارة التى بلغها الإنسان على ظهر هذا الكوكب ، لاحوا لأعدائهم كأنهم قد أبدلوا المثل العليا الإنسانية التى كان يدعو إليها الجيل الألمانى السابق ، بالمبدأ البروسى القائل بضرورة استعمال القوة المجردة العارية التى لا تقف عند وازع أدبى . فإن لهب مكتبة جامعة لوڤان المحترقة أرسلت ضوءاً شيطانيًّا مكفهرًّا على ادعاءات الألمان برسالتهم الثقافية .

٣ ـ مفاجآت الحرب

خطأ المتنبئين

ولم يوهب إلا للقليلين أن يستنبئوا أطوار أو مدة هذا النضال الذى بدأ فى جو أغسطس البديع بأشعته الذهبية وسمائه الصافية . وكان الاعتقاد الشائع هو أنه سيكون نضالا قصيراً حادًّا ، وسيختتم بتطاحن القوات الحربية فى البر وفى البحر : هذه القوات التى كانت قد أعدت من قبل بكل حرص وعناية .

ولكن لم يُتَح لرجل أن يتنبأ صدقاً عن أى عامل رئيسى من عوامل الحرب . فإن أحداً من الناس لم يرتقب بأن العالم بأسره تقريباً سيُجر إلى ساحات الهيجاء ، أو أن الحرب ستكون حرب شعوب تتطاحن فيها إلى حد الإبادة والإفناء . ولم يستطع رجل أن يتكهن عن المدى الذى ستطبع العلوم والآلات طابعها عليها وتقرر نتائجها . ولكن كاتباً بولندياً[١] من كتّاب القرن الماضى كان أدنى المستشفين حجب المستقبل إلى الصدق ، حينما صوّر حرب المستقبل كعملية واقفة صامدة من عمليات التقتيل

---

(١) هو Jean de Bloch الذى ألف كتابه La Guerre ، وهو ترجمة السفر الروسى الذى عنوانه La guerre future aux points de vue technique, economique et politique. الذى ظهر فى ستة مجلدات .

الوحشى الدموى ستكون الغلبة فيها للشعب الذى يستطيع أن يمد نفسه بالطعام أطول مدة .

خطأ تقديرات الساسة ورجال الحرب

ولم يكن الساسة بأقدر على استشفاف حجب المستقبل من عامة الناس . فقد افترضت خطط الحرب الألمانية فى ثقة ، أن البلجيك ستسلِّم لطلب اختراق أرضها ، وافترضت بقاء إنجلترا وإيطاليا ورومانيا على الحياد . وحُسب فى برلين أن الجيوش الألمانية ستكون فى باريس فى بحر أسبوعين من إعلان الحرب ، وأنها ستقفل راجعة إلى الجبهة الشرقية فى بحر ستة أسابيع . أما فى لندن فقد أعدت أركان الحرب العامة العدة لمعارك أربع تدوم كل منها ثلاثة أيام . وكان السياسيون الإنجليز العارفون ببواطن الأمور يميلون خلال الشتاء الأول من الحرب إلى الرأى بأنه لن يمكن أن يؤخَّر الفصل فيها إلى أبعد من أغسطس سنة ١٩١٥ ، ظنًّا منهم أن الدول المحاربة ستعجز عن مواصلة تمويل الحرب . وكان كتشنر وزير الحرب الجديد هو الوحيد من بين الرجال البارزين الذى استطاع أن يستوعب استيعاباً صحيحاً صعوبات القتال ، متنبئاً بأن على بلاده أن تهيئ نفسها لحرب ستطول أعواماً ثلاثة . وبدا تقدير مبكر بأن بريطانيا ستضطر إلى فتح اعتماد مالى قدره ألف مليون جنيه — بدا هذا التقدير فى أول الأمر مذهلا مخيفاً ، مع أن هذا الرقم لم يكن سوى عشر مجموع المبالغ التى أنفقتها إنجلترا مدة الحرب .

الحرب الكلية

ولم تدرك لأول وهلة الصفة المميزة لهذا الضرب الجديد من الحرب . فقد كان شعار دوائر الأعمال الإنجليزية فى بدء القتال هو ، « الأعمال تسير كالمعتاد » . وكانت الفكرة فى ذلك أن الأمة بمواصلتها أعمالها العادية — كأن شيئاً غير عادى لا يحدث — تتمكن من المساعدة بخير الطرق على تمويل جهود حليفاتها .

بيد أنه أخذ يختفى بالتدريج التمييز بين المحاربين وغير المحاربين فى هذا النضال الذى نشب بين الشعوب . وأخذ يتضح للناس أنه لا يمكن لفريق أن يأمل

الفوز فيه إلا إذا انتفع إلى أقصى حد مستطاع بجميع موارده البشرية والمادية . وكانت النتائج المعنوية لهذا الأمر مثيرة للعجب حقًّا . فلم تتكبد قبلُ جيوشٌ خسائر فى منتهى الفداحة دون أن تتقهقر خطوة واحدة ، مثل ما تكبدت فى هذه الحرب ، ولم ينشط السكان المدنيون إلى العمل فى خدمة بلادهم بحماس وإخلاص ، أعظم مما أظهروه فى هذا النضال . فقد أبانت النساء فى مصانع الذخيرة ، وفى المستودعات والمستشفيات ، وفى المجازفة بأرواحهن فى أعمال التجسس واستطلاع الأنباء ، عن بطولة تضاهى بطولة الرجال .

ودلّ الاختبار على أن الفكرة الطائشة القائلة بأن التعليم والحياة الحضرية يُفقِدان الناس الشجاعة والإقدام هى فكرة لا تقوم على أساس . فقد سما القوم فى ضروب البسالة والجرأة اللتين أبدوهما خلال هذه الحرب فوق كل مستوى سابق . وليس ثمت ما هو أروع وأبعث على التبجيل من روح النظام الاجتماعى الرفيع الذى مكن الألمان دهراً طويلا من الصمود أمام المتاعب الشديدة التى نجمت عن الحصار البحرى الذى ضُرب حول بلادهم ، ومن الوقوف صفًّا مرصوصاً فى وجه أعدائهم .

كتب يمكن استشارتها

Lord Grey of Fallodon : Twenty-Five Years. 1928.
Lord Oxford and Asquith : Memories and Reflections. 1928
J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933
J.W. Headlam-Morley : The History of Twelve Days. 1915

الفصل الثاني والثلاثون

الحرب . الطور الأول

خطة الحرب الألمانية . الانتصارات الألمانية الأولى . جوفر . تاننبرج والبحيرات الماسورية . انتصار الحلفاء فى وادى المارن . السباق صوب ثغور القنال الإنجليزى . الدفاع عن نتوء يبرس . حرب الخنادق . اتساع نطاق جهود بريطانيا الحربية . الأسطول البريطانى . أنصار الهجوم فى الشرق ، وأنصار الهجوم فى الغرب . الدردنيل . انحياز إيطاليا إلى الحلفاء . خطة فلكنهاين . انتصارات ألمانية لامعة فى الشرق . صد هجمات الحلفاء فى الميدان الغربى . فردان والسوم سنة ١٩١٦ . الدبابات . نجاح بروسيلوف . دخول رومانيا الحرب . فتح الألمان لرومانيا . المصاعب الاقتصادية للدولتين الوسطيين والحصار البحرى .

١ ـ الانتصارات الألمانية الأولى

خطة الحرب الألمانية

كان من نصيب ملتكه رئيس أركان الحرب العامة الألمانية ، والوريث الخائب العادى الذكاء لاسم عظيم مجيد فى تاريخ ألمانيا الحربى ، أن يكون هو البادئ فى عمليات الحرب الأولى . وقد قامت خطته على مشروع أحكم تدبيرَه سنة ١٩٠٥ الكونتُ شليفن رئيس الأركان يومئذ . وكانت تقضى هذه الخطة بأن يسحق الجيش الألمانى فرنسا ويخرجها من ميدان القتال ، بحركة التفاف واسعة النطاق خلال البلجيك ولكسمبرج ؛ على حين يحرس بفرق قليلة حدود ألمانيا الشرقية . وحين ينتهى من سحق فرنسا يقذف بكل قوته ضد الروس . وكانت برلين ترتقب فى وثوق بأن الفرنسيين لن يستطيعوا أن يقاوموا مقاومة مجدية ضربات قوة عظيمة تتألف من أربعة أخماس جيش الريخ ، حتى ولو أدعمت صفوفهم قوةٌ بريطانية من مائة ألف مقاتل ،

وهو أمر حسبت خطة شليفن حسابه . وقد قال قيصر الألمان للسر إدوارد غراى فى فرصتين مختلفتين : « تذكر أن فى مقدورنا أن نكون فى باريس فى بحر أسبوعين ».

ولم يكن هذا القول مجرد زهو باطل ومباهاة زائفة . فإن الجيش الألمانى سنة ١٩١٤ كان من حيث النظام والتجهيز والتدريب فى جميع الجزئيات والكليات أقوى أداة حربية شهدها العالم إلى ذلك الحين . فقد بلغت قوته أربعة ملايين وثلثمائة ألف مقاتل مدربين تدريباً كاملا ، ومليون مقاتل مدربين تدريباً جزئياً . وكانت مدفعيته متفوقة تفوقاً هائلا ، وطريقة تعبئته تحفة فنية بديعة . إذ نُظِّمت آلاف من القطارات التى تسير بدقة طبق جدول موضوع ، حاملة موسوقاتها البشرية إلى محطات صغيرة رُصت على طول السكك الحديدية التى مُدَّت خصيصاً لهذا الغرض على طول الحدود البلجيكية والفرنسية ، انتظاراً « لليوم المرتقب » .

اختراق البلجيك

وسارت الأمور سراعاً . فقد أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى اليوم الأول من شهر أغسطس . وفى اليوم التالى أرسلت مذكرة نهائية إلى البلجيك تطلب منها فيها السماح لها باختراق أرضها . ورفضت البلجيك الإذعان للمطالب الألمانية ، واستنجد ملكها بالملك جورج الخامس . فبعثت الحكومة البريطانية إلى ألمانيا مذكرة نهائية تطالبها فى تصميم قاطع باحترام حيدة تلك المملكة الصغيرة . غير أن ألمانيا كانت قد أعلنت فى ٣ أغسطس الحرب على فرنسا . وتدفقت جحافلها على أرض البلجيك طبق الخطة الموضوعة .

مقاومة الجيش البلجيكى الباسلة

فوقف فى وجهها الجيش البلجيكى ، رغم قلة عدده ، وقفة تجلت فيها البسالة وثبات الجنان . وقاوم الألمانَ فى لييج Liege مقاومة لم يتوقعوها ، لعلها كلفتهم نحو أربعين ألف إصابة ، ولكنها لم تعطل الجدول الحربى الموضوع تعطيلا جدياً . واستمر الجيش الألمانى الهائل يتدفق على أرض البلجيك : فاحتل بروكسل فى ٢٠ أغسطس ، وقوّض بمدافعه الهاوتزر الثقيلة حصوناً عظيمة المناعة كحصون نامور Namour ، وموبيج Maubeuge ،

وهى الحصون التى كان الحلفاء يؤملون منها أن تقاوم الغزاة مدة طويلة. وأنفذ الألمان فيلقين إلى أنتورب التى كانت الحكومة البلجيكية قد انتقلت إليها على أثر سقوط بركسل.

وفى الوقت عينه أخذت القوات الألمانية الضخمة تدفع أمامها دفعاً القوات الفرنسية والإنجليزية التى كان عددها ومدافعها وعتادها أقل مما ينبغى. وقد حاولت هذه القوات الصمود أمام الألمان فى شارلروا Charleroi، وفى منس Mons، وفى لى كاتو Le Cateau (٢٦ أغسطس). ولكن جيش فون كلوك Von Kluk كان فى ٢ سبتمبر يقترب من باريس. فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى الالتجاء إلى بوردو، وواصلت القوات الإنجليزية بقيادة السر جون فرنش Sir John French ارتدادها. وخيل أن سقوط العاصمة الفرنسية وانتهاء الحرب فى الميدان الغربى طبقاً للجزء الأول من الخطة الحربية الألمانية هما مسألة أيام فقط.

جوفر

وكان الجيش الفرنسى يقوده چوفر Joffre، وهو رجل مرح بدين، ذو عقل لا يلين، وعادات متريثة، وتفاؤل قوى، وإرادة ثابتة. ولقد ارتكبت القيادة العليا الفرنسية كل غلطة فى مقدورها أن ترتكبها. فإنها لم تهيئ العتاد اللازم للذود عن مقاطعات فرنسا الشمالية الشرقية، وانتظرت تقدم الألمان حتى الأردين، وأخطأت أفحش الخطأ فى قلة تقديرها عدد الجند الألمان، لعدم توقعها زحف فرقهم الاحتياطية مع جيش الميدان. ومع أن اختراع المدافع الرشاشة والأسلاك الشائكة غيَّر من أساليب القتال، فإن أركان الحرب العامة استمرت تغرس فى عقول الضباط الفرنسيين الشديدى الانصياع المبدأ الفاسد الوخيم العقبى القائل باتباع خطة الهجوم والاندفاع. وكانت نتيجة هذه الأخطاء أن الجيش الفرنسى مُنِى بخسائر فادحة فى الأسبوعين الأولين من الحرب. ولكن رغم اضطرار ميسرته إلى التقهقر إلى حد عرَّض باريس للخطر، فإن ميمنته صمدت فى وجه العدو. وثبت الجيشان الفرنسيان الأول والثانى فى مواقعهما أمام تول Toul ونانسى Nancy وڤردان Verdun.

٢ – معارك تاننبرج الفاصلة

تقدم الجيش الروسى

وفى هذه الأثناء كانت أداة الحرب الثقيلة غير المحكمة للإمبراطورية الروسية على الحدود الألمانية الشرقية تتقدم تقدماً متعجلا فى رجاء تخفيف ضغط الألمان الذى كان يهدد يومئذ فرنسا . فعلى حين كان جيش الغرندوق نقولا القائد الأعلى للجيش الروسى يشق طريقه فى غاليسيا ضد النمساويين ، كان جيشا رننكامف Rennenkamph وسامسونوف Samsonof يغزوان بروسيا الشرقية ، الأول زاحفاً شمالا ، والآخر جنوب البحيرات المسورية، ناشرَيْن ضروباً من الارتياع والفزع الشديدين فى طول ألمانيا وعرضها .

إبادة الجيشين الروسيين

ثم بلغت برلين فجأة ، ومن غير سابق إنذار ، أنباء انتصارات تزيد كثيراً فى روعتها وكمالها على ما يمكن للخيال أن يحلم به . فقد أبيد جيش سامسونوف فى تاننبرج Tannenberg (٢٥ – ٣١ أغسطس) ، وهُزم جيش رننكامف هزيمة منكرة عند البحيرات المسورية (٨ – ١٥ سبتمبر) . أما صانع هذه المعجزة ، فكان قائداً ألمانياً عجوزاً أجبرته الحرب على الخروج من عزلته والرجوع إلى صفوف الجيش ، لإلمامه الكبير بطبيعة أرض تلك الجهات . وكان رئيس أركانه قائداً أصغر منه سناً ، لمع اسمه خلال الهجوم على لييج . فأمكنهما بسلسلة من المناورات المتناهية الإحكام والبراعة أن ينقذا بروسيا من مخالب الروس . وصار اسما هندنبرج Hindenburg ولودندورف Lodendorf من تلك اللحظة طلسم النصر عند الألمان . غير أنه لم يُعرف وقتئذ أن هذين القائدين الكبيرين كانا ينفذان خطة وضعها قائد ألمانى آخر[١] .

وكانت النكبة التى حلت بالقوات الروسية فى الغابات والمستنقعات المسورية الموحشة هائلة ماحقة . ومع ذلك فقد حققت هذه القوات شطراً

(١) هو الكولونل هفمان Hoffmann رئيس إدارة العمليات الحربية .

على الأقل من هدفها الذى كان تقدمها المستعجل البعيد عن الفطنة يرمى إلى تحقيقه . فإن الألمان لكى يوقفوا زحف الجيش الروسى ، اضطروا إلى أن ينقلوا من الجبهة الغربية فيلقين كان وجودهما فى سهول فرنسا الشمالية خلال الأسبوع الأول من سبتمبر يحوِّل الهزيمة التى حلت بهم فى تلك الجبهة إلى نصر متألق .

ذلك أن جوفر أدار وجهه قافلا لمهاجمة مطارديه فى وادى المارن (٤ — ٩ سبتمبر) ، وكسب المعركة الفاصلة فى الحرب العظمى . ولا يقلل من فضل هذا القائد أن مشورات الجنرال غاليينى Gallieni حاكم باريس العسكرى ساعدته فى وضع خطته وتنفيذها ، أو أنه جاءت إلى نجدته ظروف لم يكن هو نفسه يوجهها أو يضبطها : كالحقيقة الواقعة مثلا بأن المقاتلين الألمان كانوا قد سبقوا كثيراً فى زحفهم تقدم عتادهم ، وأن فون كلوك تحول فجأة نحو الجنوب ، مستجيباً رجاء جاءه من الجيش الألمانى الثانى بأن يسد ثلمة كانت تحرج مركزه ، وبذلك عرَّض جناحه لهجوم شُنَّ عليه من باريس ، وأن ضابطاً من ضباط أركان الحرب الألمانية أصدر الأمر بالارتداد اعتقاداً منه أن جيشاً روسياً أنزِل على شاطىء البلجيك ، (وهى إشاعة كثر تصديق الناس لها يومئذ فى إنجلترا) . فإن من واجبات القائد البارع أن يستمع إلى آراء أصدقائه الحسنة ويقبلها ، وأن ينتفع بأغلاط خصومه . وما كان إلا قائداً عبقرياً فذاً ، هذا الذى استطاع ، بعد تراجع طويل الأمد مزرٍ بالكرامة ، أن يعيد تنظيم جيوشه ، ثم يستدير لمواجهة غريمه ، ويبث الهمة فى جيوشه بحركة متناسقة كل التناسق على جبهة واسعة ، ويقودها إلى النصر .

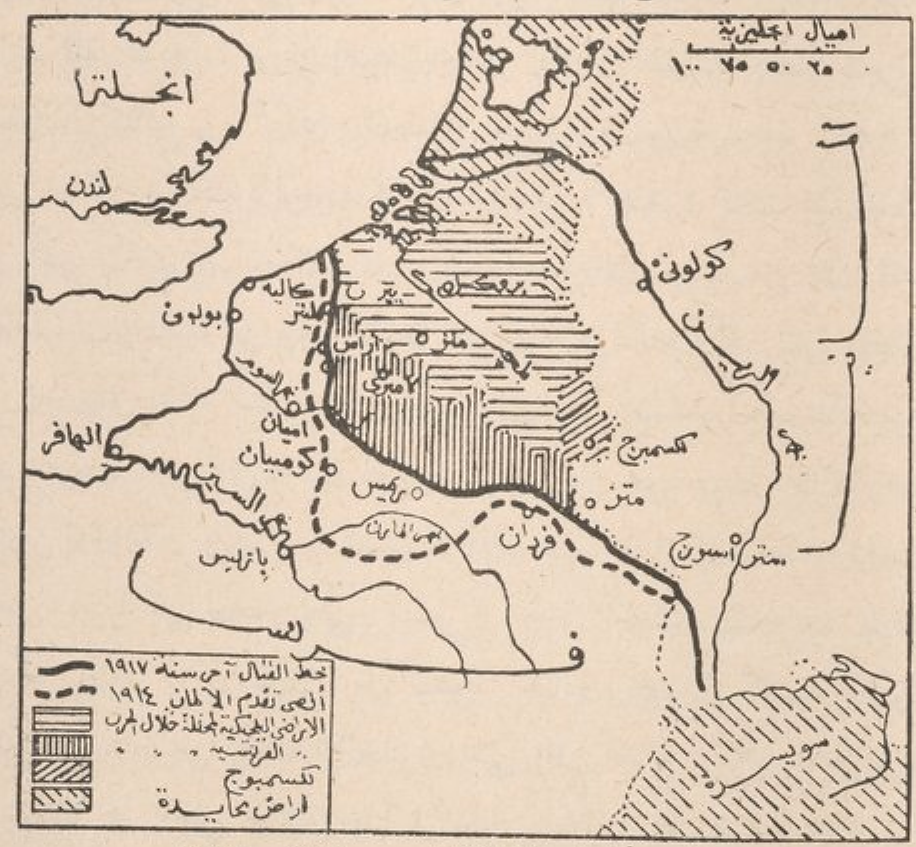
٣ — حرب الخنادق

وبعد أن أخفق الألمان فى الاستيلاء على باريس ، أهملوا نتيجة سهو غريب ، احتلال موانى القنال الانجليزى ، حينما كان ذلك سهلا عليهم . فإن السر جون فرنش ، وهو قائد فرسان سريع التقلب والحركة ،

كان ينوى سحب الجيش الإنجليزى من خط القتال ، بعد ارتداده الكبير ، لإعادة تنظيمه وتجهيزه . ولكن كتشنر الذى صار وزير الحربية عند نشوب الحرب تدخل شخصياً لمنع هذا الانسحاب . وقد كثر نقد العسكريين لخطط فرنش ، واشتد تعريضهم بكفاءته الحربية . غير أنه يجب ألا يعزب عن البال أنه حينما تقهقرت صفوف الألمان من المارن إلى الإين ، وصمدوا أمام جميع المحاولات لطردهم من مواقعهم ، اتخذ فرنش من تلقاء نفسه قراراً خطير الشأن . فقد سير فى حذقٍ ومهارة نحو القنال الإنجليزى قوة إنجليزية (فى أكتوبر) ، وبذلك سبق العدو إلى احتلال سواحله .

صد الألمان عند يپرس

وصدّ فرنش فى سلسلة من المعارك الضروس التى دارت حول يپرس Ypres محاولات العدو ، الواحدة بعد الأخرى ، لاختراق خطوطه . والحق أن معارك قليلة فى التاريخ تفوق شدة وصلابة معركتى يپرس الأولى والثانية . كما أن معارك قليلة جداً تفوقهما فى أهمية نتائجهما . فلو أن الألمان كانوا قد تمكنوا من ترسيخ أقدامهم فى كاليه وبولون ، لقطعوا أسرع خط



خريطة الميدان الغربى ١٩١٤ - ١٩١٨

من خطوط الاتصال بين فرنسا وإنجلترا ، ولاختلت خطة التعاون برمتها بين البلدين ، بل لعلها كانت قد اختلت اختلالا مميتاً قاضياً .

وإن عظم الخسارة الفادحة التى ألمت بكلا الفريقين لأكبر دليل على خطورة ذلك الصراع وأهمية نتائجه . فقد حُصِد جيش إنجلترا المحترف القديم ، وذبلت شبيبة الجامعات الألمانية فى المناضلات المخيفة التى حدثت فى خريف سنة ١٩١٤ وربيع سنة ١٩١٥ من أجل امتلاك ثغور القنال الفرنسية . ولكن تضحية الحلفاء هذه ، على حين أنها لم تذهب أدراج الرياح ، فإن الألمان أسرفوا فى تبديد احتياطيهم من الضباط الشبان الذين تعذر عليهم تعويضهم ، وشعروا بفقدانهم شعوراً عظيما فى السنة الأخيرة من سنى الحرب .

نصيب الجيش البلجيكى

وعلى ميسرة الخنادق البريطانية ، اصطف الجيش البلجيكى تحت قيادة الملك ألبرت على ضفاف نهر الإيزر ، واحتفظ فى يده برقعة صغيرة من الأرض حتى نهاية الحرب ، رادًّا عنها هجمات الأعداء الغزاة . ورغم قلة عدده ، ورغم إصابته بخسائر فادحة أنقصت نقصاً كبيراً من صفوف كتائبه ، أسدى للحلفاء خدمة ضرورية . ومع ذلك فإنه يدين بالشىء الكثير لوجوده إلى قوة إنجليزية صغيرة كانت قد أُنفِذت إلى أنتورب فى الساعة الفاصلة ، فمكنته من الانسحاب من تلك المدينة المحاصرة ، وخلصته من قبضة الألمان لكى يساهم فى الدفاع عن ثغور القنال .

حرب الخنادق الطاحنة

وما وافى شتاء سنة ١٩١٤ حتى بات جلياً أن تغييراً أساسياً قد طرأ على الموقف الحربى فى الجبهة الغربية . فقد حل محل حرب الحركة حرب تطاحن وإبادة . وبدلا من تصويب ألمانيا سهماً قاتلا إلى أحشاء فرنسا ، فُرِض عليها هى حصار بطىء مضنٍ . وأخذ الجيشان المتباريان يراقبان أحدهما الآخر ، ويتقاتلان فى خطوط الخنادق الطويلة المحمية بالعوائق السلكية الممتدة من القنال الإنجليزى حتى إقليم الفوج ، وهما عاجزان عن التقدم إلا فى خطى ضئيلة جداً فى جوانب الجبهة الصلبة الجامدة ، رغم

ضروب البسالة الخارقة والإقدام الجسور التى أبدياها .

المزايا الحربية للألمان

وكان للألمان فى الأيام الأولى من هذه المبارزة المضنية المفجعة مزايا عظيمة . فقد كانوا أكثر عدداً وأحسن تدريباً من أعدائهم . وكانوا يملكون عدداً أوفر من المدافع الرشاشة ومدافع الهاوتزر والطائرات والمشاعل . وكان فى قبضتهم الأراضى الأكثر ارتفاعاً . وكانوا يسيطرون على موارد البلجيك الاقتصادية وأقاليم جنوب شرقى فرنسا الغنية التى حوت ٨٠ ٪ من فحمها ، وكل حديدها تقريباً . فلم يكن فى الطاقة رد جناحى جيشهم اللذين كان أحدهما يستند إلى البحر والآخر إلى جبال الألب .

تكوين جيش كتشنر

وبات فى الحال واضحاً للحكومتين الفرنسية والبريطانية أنه لن يتم التوازن فى قوات الفريقين المتحاربين إلا إذا حُشد جيش بريطانى أكبر بكثير من الفرق الست التى عُدت كافية فى مبدأ الأمر ، وقُذِف بهذا الجيش فى رحى الهيجاء . فأهاب كتشنر بالبلاد للتطوع فى سلك الجندية . وجال فى خاطره إمكان تكوين سبعين فرقة خلال ثلاث سنين. وقد أعطى شخصه المهيب ، وصيته المنقطع الضريب ، لندائه قوة خاصة . فأقبل الناس للفور على التطوع ، حتى وصلت جيوش كتشنر — كما كانت تُدعى أحياناً — إلى ثلاثة ملايين مقاتل . ولكن حتى هذا الرقم الكبير لم يكن بكاف . فالتُجِئَ إلى التجنيد الإجبارى سنة ١٩١٦ . وقد يجدر بنا أن نقول إنه من الأمور المشكوك فيها أن بلاداً غير إنجلترا كانت تستطيع أن تحشد عن طريق التطوع جيشاً جراراً من الشبان للقتال وراء البحار فى حرب ضروس ، كهذا الجيش الذى جمعه كتشنر . ومع هذا فقد وقع العبء الرئيسى من النضال فى الجبهة الغربية على أكتاف الجند الفرنسيين ، خلال الفترة التى كان فيها المتطوعون البريطانيون يدرَّبون ويجهَّزون .

فعال الأسطول البريطانى

ولكن مع أن بريطانيا لم تكن مهيأة بالمرة لجهود حربية عظيمة كهذه الجهود التى تطلبتها الآن منها هذه الحرب ، إلا أنها كانت تسيطر على أمواج البحار . فإن أسطولها كان قد حُشد للمناورات البحرية التى أجريت

فى يوليو سنة ١٩١٤ . فاحتُفظ به بعد انتهائها ، نتيجة حيطة المستر تشرشل وزير البحرية وصدق فراسته . ورابط الأسطول فى قواعده البحرية فى سكاپاڤلو وروسايث ، وأدعِم فى عملياته الحربية بقسم كبير من الأسطول التجارى، المتفانى فى الخدمة ، الحسن التدريب والبراعة .

وكانت الأميرالية البريطانية ، وعلى رأسها الأميرال چليكو Jellicoe القائد الأكبر للأسطول ، تدرك أكمل إدراك الالتزامات الواسعة النطاق المفروضة على الأسطول ، وهى باختصار : تأمين نقل الجنود إلى أية جهة من جهات المسكونة تدعو الضرورة إلى إرسالهم إليها ، وتدمير الطرادات الألمانية ، وقطع دابر التجارة الألمانية فى البحار الخارجية ، وانتزاع المستعمرات الألمانية ، ومصادرة الأطعمة وذخائر الحرب المرسلة إلى البلدان المعادية . فهذه الالتزامات جميعها أنجزها الأسطول فى غير جلبة ، بمساعدة أسطولى اليابان وفرنسا فى مياه المحيطين الهادى والهندى والبحر الأبيض المتوسط ، ثم أيضاً بمعاونة أسطول الولايات المتحدة الجيد التدريب فى الأطوار الأخيرة من الحرب .

٤ ـ حملة الدردنيل

حجج أنصار الهجوم فى الشرق

وقد تأثرت بالضرورة خطط بريطانيا الحربية فى ميادين القتال البرية ، بتفوق أسطولها فى البحار . فإن بريطانيا ، من بين جميع الدول المقاتلة ، كانت وحدها مطلقة اليد فى استخدام جيوشها فى أية بقعة من بقاع العالم . ولهذا السبب سرعان ما لاح محتملا قيام حالة جمود فى الميدان الغربى ، حتى برز فريق من وزرائها يحض على استخدام القوات البريطانية فى ميدان الحرب الشرقى . وكانت حجج هذا الفريق أن الخطوط الألمانية فى الجبهة الغربية من المناعة بحيث يكاد يتعذر التغلب عليها ، وأن القوة المهاجِمة كانت تُمْنَى فى محاولات اختراقها بخسائر أفدح كثيراً من تلك التى أصابت المدافعين ، وأن خير خطة استراتيجية يخلق بدول الحلفاء

اتباعها هى أن تلزم جيوشها خطة الدفاع فى الغرب ، حيث كان استخدام المقاتلين والميرة عملا غير مجدٍ نسبياً ، وحيث يُسمح للألمان بأن يهجموا إذا ما رأوا فى ذلك مصلحة لهم . وأن تسعى تلك الدول إلى نقل مسرح الفصل فى هذه الحرب إلى الشرق ، حيث قد يعاون ظهور قوة انجليزية فرنسية صغيرة العدد نسبياً فى البلقان إلى انضمام شعوبها إلى حملة هجومية كاسحة على الإمبراطورية النمساوية ، أو إلى فتح طريق مأمون لتموين روسيا بالذخيرة ، بعد أن أقفلت المضايق فى وجه سفن الحلفاء فى أول أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وانضمت تركيا إلى دولتى الوسط فى ٢٩ أكتوبر من ذلك العام . وكان المستر لويد جورج والمستر تشرتشل محبذين قويين لهذه الخطة، وحضا على إنفاذ هذه الحملة.

معارضة أركان الحرب الفرنسية

وكانت رئاسة أركان الحرب الفرنسية العليا بأكملها معارضة للفكرة بطبيعة الأمر . فلم يكن فى نظر جميع الفرنسيين هدف ينبغى أن تُحصر فيه الجهود ألزم من تحرير أرض الوطن من الغزاة . كما كانوا يرون أنه كلما ازداد عدد المدافع والمحاربين الذين تستطيع إنجلترا أن تبعث بهم إلى فرنسا ، خف حمل الفرنسيين ، وعجل ذلك فى تحقيق أملهم المنشود . وشاطرهم هذا الرأى السر جون فرنش والسر دجلاس هايج الذى خلفه سنة ١٩١٥ فى قيادة الجيش البريطانى . وهايج ضابط من ضباط الفرسان ، اسكتلندى الأصل ، ثابت الرأى . فقد سخف هذان القائدان تشتيت جهد إنجلترا الحربى ، وكانا — بالاشتراك مع چوفر — يعقدان الأمل الخلاب بأنه فى حيز الإمكان دائماً ، بل لقد خامرهما الظن أحياناً أنه أمر وشيك الوقوع أن يتمكنا من اختراق خطوط العدو بهجمة صادقة من الفرسان ، والظفر بالنصر . وكان جميع كبار العسكريين ، ما خلا كتشنر ، يشاطرونهما هذا الرأى ، ويعقدون رجاءهم كله على الجبهة الغربية .

نتائج دخول تركيا الحرب

والحق أنه كان حدثاً فذاً ، أثار التفات دول الاتفاق ، انضمام تركيا إلى أعداء فرنسا وإنجلترا صديقتى الباب العالى منذ قديم الزمان . فلقد كان أحرى بالسلطان أن يواصل سياسة الحياد . ولكن نفوذ أنور باشا وزير الحربية وضغطه ، وظهور الطرادتين الألمانيتين غوبين Goeben وبرسلاو Breslau

فى مياه البسفور ، والإكراميات الألمانية التى نُثرت فى عديد الدوائر التركية ، والمضايقة التى سببتها إنجلترا لتركيا بحجزها فى أحواضها البحرية بارجتين كان صنعهما لتركيا قد أكمل ، وكان ثمنهما قد جمع با كتتابات عامة قومية — كل هذه الأمور دفعت أخيراً الباب العالى إلى الضرب عرض الحائط بمشورة القائلين بحكمة الحياد . وأمكن التغلب على آخر مظهر من مظاهر تردده ووجله بقطعة رائعة من المكر والجسارة . فقد ضربت الطرادتان الألمانيتان اللتان كانتا قد بيعتا صورياً للحكومة التركية الثغر الروسى العظيم : أودسا فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وبهذه الطريقة وُرِّطت الإمبراطورية العثمانية ، ودخلت الحرب فى جانب ألمانيا والنمسا فى اليوم التالى .

وكانت عواقب دخولها الحرب غاية فى خطورة الشأن واتساع النطاق . فإن روسيا التى كانت تملك قوات من الرجال لا حصر لها ، كانت تنقصها المعدات الميكانيكية لمواصلة حرب حديثة . فما حلّ خريف سنة ١٩١٤ ، حتى كانت قد استنفدت احتياطيها من الذخائر ، إذ لم يكن فى مقدورها أن تسد سوى ثلث مطلوبها اليومى من الذخائر مما تنتجه مصانعها .

إنفاذ حملة الدردنيل لغوث روسيا

فباتت روسيا الآن تواجه عبء حرب جديدة ضد الترك فى القفقاز . وفى الثانى من يناير سنة ١٩١٥ تسلم كتشنر استغاثة من الغرندوق نقولا تستحثه على المبادرة إلى مد يد المعونة إليه ، لتخفيف الضغط عن جبهة القفقاز . فقر الرأى على إنفاذ حملة إلى الدردنيل . ذلك أن روسيا قد تُكرَه بإقفال ذلك المضيق على إلقاء السلاح لنقص ميرتها ، أما إذا فُتح هذا الطريق المائى ، فإنه يصبح فى المستطاع ، لا تدفق القنابل والمدافع عليها فى جميع فصول السنة فقط ، بل يصبح فى المقدور أيضاً وقف شيوع روح التثبيط والقعوس فيها ، وتدعيم قوتها المعنوية ، وتحسين خططها الحربية ، بدروس الميدان الغربى وعبره الحربية .

وكذلك جاءت اعتبارات أخرى ، ليست بأقل من هذه أهمية وقبولا ، لتأييد فكرة إنفاذ الحملة . فإن رسوّ أسطول بريطانى أمام القسطنطينية كان

يشطر الجيش التركى شطرين ، ويفتح طريقاً إلى نهر الطونة ، ويجعل فى متناول الحلفاء المحاصيل الوافرة من الحنطة التى تنتجها أقاليم روسيا الجنوبية . فكان أول تحويل للجهد الحربى والبحرى أثناء الحرب وأدعى إلى التعجيل به ، هو تجريد هذه الحملة إلى الدردنيل .

وأخذت تبدو وتتجسم فى الأفق البعيد تطورات سياسية وحربية واسعة المدى : مثل انحياز دول البلقان المسيحية إلى قضية الحلفاء ، والتحرير المحتمل للعالم العربى من ربقة الترك ، وثورة العالم الإسلامى المحتملة ضد بريطانيا . وتقويض الحكم البريطانى فى الهند ومصر ، وإنهاء الحكم العثمانى للشعوب غير التركية فى أوربا وآسيا ــ هذا الحكم الذى دام دهراً طويلا . فكانت حملة شبه جزيرة غاليبولى أعظم من مجرد تدبير حربى ملائم لغوث روسيا وتدعيم عزيمتها . فإنها كانت الضربة القوية الأولى من الضربات التى وُجِّهت إلى الإمبراطورية العثمانية . فأوردتها فى نهاية الأمر موارد البوار ، حتى ولو أن حملة الدردنيل نفسها أخفقت فى تحقيق هدفها الأكبر .

إخفاق الأسطول البريطانى

ولكن كانت هناك تقصيرات كثيرة فى وضع هذه المغامرة الجسورة المحفوفة بالأخطار موضع التنفيذ . فقد حبطت محاولة قام بها الأسطول البريطانى فى ١٨ مارس سنة ١٩١٥ لاقتحام مضيق الدردنيل ، بسبب انفجار حقل خفى من الألغام . ولم تُجدَّد هذه المحاولة مرة ثانية ، الأمر الذى يستنكره الآن بعض أرباب الرأى الحصيف من رجال البحرية . فأنذِر العدو إنذاراً كاملا بنية الحلفاء ، وتأهب أتم تأهب لاستقبال السر أيان هاملتون Sir Ian Hamilton قائد الحملة ، حينما غدا فى مركز ييسر له النزول بأرض شبه الجزيرة ، بعد تأخيرات طويلة كان فى الإمكان تحاشيها .

صعاب الحملة

وفى الحال تجلَّت للجميع الصعاب العديدة التى أخذت الحملة تواجهها . فإن شبه هذه الجزيرة العارية من الأشجار ، تنحدر أرضها بالتدريج نحو الشاطئ ، فتهيئ بذلك فى كل فج تقريباً من فجاجها مكاناً صالحاً كل الصلاحية للدفاع عنها . وكانت القوة المهاجمة أقل عدداً مما ينبغى أن تكون

عليه . وكانت تعتمد كل الاعتماد فى تموينها على الأسطول . وأخذت تجابه كل ضرب من ضروب العوائق استطاع الذكاء الألمانى والدأب التركى أن يقيماها . ومع هذا فقد أمكن إنزال جنود الحملة تحت نار حاصدة فى نقط قليلة بطرف شبه الجزيرة الجنوبى فى ٢٥ إبريل سنة ١٩١٥، وبذلك عُرِّضت خيرة الفرق التركية شهوراً عديدة لمجهود متواصل مضنٍ فى الدفاع عن مراكزها .

ولاح النصر خلال فترة قصيرة ، دانى القطاف من البريطانيين ، بعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة ، ففى ٦ أغسطس استولى الجنود البريطانيون على مكان جديد للنزول فى خليج سوفلا . وقد أخذ الأتراك هنا على غرة . ولعله كان فى استطاعة ستپفورد Stopford قائد الفرقة المهاجمة أن ينتزع تل أنافِرْتا الذى كان مفتاح الموقف ، لو أنه بادر بعد النزول إلى التقدم . ولكن الفرصة أفلتت من يده بإضاعته ثمانى وأربعين ساعة ثمينة ، جمع خلالها مصطفى كمال بك ، وهو ضابط شاب تركى ، عدداً كافياً من الجند ، وطار على جناح السرعة إلى النقطة الحيوية ، وأنقذ بذلك الموقف .

انسحاب الحملة وخسائرها

ثم رأت الحكومة البريطانية سحب قواتها من شبه الجزيرة ، بعد أن فقدت الرجاء فى نجاح هذه المغامرة . وتم سحب هذه القوات (١٨ ديسمبر سنة ١٩١٥ — ٨ يناير سنة ١٩١٦) من غير أن تفقد أثناء السحب رجلا واحداً ، بعكس ما أنذر به جميع المتنبئين . وكان إجلاؤها أنموذجاً رائعاً لكفاءة الأسطول البريطانى الذى أبلى بلاء حسناً طول مدة الحملة .

وقد كلفت مغامرة الدردنيل البريطانيين ١٢٠ ألفاً من القتلى والجرحى . وأخفقت فى تحقيق هدفها الأكبر ، وهو شق طريق مائى فى جنوب أوربا إلى روسيا لكن تواصل مقاومتها الألمان والأتراك مقاومة عنيفة عنيدة . ومع ذلك فإنه من التعجل الفطير أن يُفرض أن هذا البذل العظيم من الأرواح البريطانية فى بطاح شبه الجزيرة الجرداء ذهب هباء منثوراً ، من دون أى نفع لقضية الحلفاء . فإن روسيا ظلت تقاتل وتناضل ، تحفزها أقوى الدوافع لمواصلة الحرب ، وذلك طالما كان البريطانيون بمعاونة الجنود الأستراليين

والنيوزيلنديين الصادقة يدقون دقاً قوياً أبواب المضايق . وكان الحلفاء قد وعدوها بالقسطنطينية ، هذه الجائزة الثمينة التى ما انفكت بريطانيا أكثر من قرنين تعمل على حرمانها منها . ذلك أن كل كسب كان تافهاً ضئيل القيمة فى نظر الروس ، بجانب هدية نفيسة كعروس البسفور . فإنهم لم يأبهوا إلا قليلا لأمر صربيا ، ولم يشتهوا فتوحاً فى تخومهم الغربية ، وأدركوا أنه ليس من السهل عليهم دحر الألمان . ولكن لو أن حملة الدردنيل كانت قد أفلحت فى تحقيق مرماها ، لعوضت روسيا عن خسائرها الجمة فى البحيرات الماسورية ، وفى بولندا ، وفى غاليسيا . ولهذا يمكن القول بأن أهم نتيجة حربية لحملة الدردنيل هى أنها أبقت روسيا تواصل الحرب ، كما أنها شغلت خيرة فرق الجيش التركى ، وأرهقت قواها .

٥ – إيطاليا تدخل الحرب

أسباب دخولها

رأت إيطاليا عقب نزول البريطانيين فى غاليبولى أن تلبى نداء سياساتها القومية ، وذلك بعد أن وزنت جميع الاحتمالات والوجوه . فأشهرت الحرب على النمسا فى ٢٤ مايو سنة ١٩١٥ . فإن غزو البلجيك غير المشروع ، ولو أنه أثر تأثيراً محسوساً فى عواطف الإيطاليين الكريمة ، إلا أنه كان أقل تأثيراً فى نفوسهم من توقانهم إلى ضم الترنتينو وتريستا إلى بلادهم ، وهى تلك الأراضى الإيطالية غير المحررة التى أبت النمسا أن تتنازل لهم عنها . أما الحلفاء فقد تعهدوا بمقتضى معاهدة لندن السرية فى ٢٦ إبريل سنة ١٩١٥ بأن يردوها إليهم ، جزاء معاونتهم إياهم .

وقد نُدد فيما بعد بهذه المعاهدة ، كجريرة ضد مبدأ تقرير المصير . إذ نصَّت على إخضاع أهل التيرول النمسويين لسيد غريب عنهم دون موافقتهم – بل وعلى الضد من رغائبهم . بيد أن هذا كان الثمن الذى فرضته إيطاليا على الحلفاء لتقدم لهم مساعدتها . وكانت هذه المعاهدة إحدى الانحرافات والوصمات التى لوثت العدالة المثالية ، والتى أكرهت الضرورة – والضرورة

لاتعرف قانوناً – حكومتى لندن وباريس الديمقراطيتين على الموافقة عليها .

فوائد تدخل إيطاليا

وكانت النتيجة لتدخل إيطاليا هى أنه فُتح على الفور ميدان جديد للنضال والقلق للجيش النمساوى . فإنه رغم فشل الإيطاليين فى شق طريقهم إلى النمسا ، فقد أمسكوا بتلابيب عدوهم ، وأصلوه حرباً عواناً طويلة ، فى جبال الألب ، وفى وادى إيزنزو Asonzo ، وعلى هضبة كارسو Carso الصخرية ، مخلفين وراءهم فى هذه المعامع ٢٨٠ ألف قتيل .

معركة كابورتو

ومع أن الإيطاليين هـُزموا هزيمة شنعاء فى كاپورتو Caporetto فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، ولاذوا بالفرار مختلى الصفوف بشكل بدا كأنه انهيار قومى عام ، إلا أنه ظلت فى قلب الحكومة والشعب الإيطالى بقية من الإرادة والإقدام تعذر حتى على هذه النكبة أن تمحقها .

معارك فتوريو فينيتو

وتمكن الجيش الإيطالى بمعاونة بعض الفرق الفرنسية والإنجليزية التى جاءت فى الوقت المناسب – تمكن من لم صفوفه ، والصمود للعدو تحت قيادة قائد جديد على ضفاف البياف . ثم جمع قواه ، واسترد ثقته عند دحره غريمه فى معارك متعاقبة . وفى الأيام الأخيرة من الحرب وجه لعدوه فى ساحة ڤتوريو ڤينيتو Vittorio Veneto (فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨) الضربة القاصمة لصفوفه المتداعية التى كانت قد فقدت روحها المعنوية : تلك الضربة التى دكت الإمبراطورية النمساوية إلى الحضيض .

ولقد ألِف الإيطاليون ، فى غلو مغتفر لهم ، أن يعزوا إلى هذا النصر القومى الكبير لا سقوط إمبراطورية آل هبسبرج فقط ، بل النصر النهائى لقضية الحلفاء . ولهذا حزّ فى نفوسهم ألا يفوزوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها إلا بمكافأة ضئيلة مغتصبة اغتصاباً ، مقابل خدمة جليلة القدر كهذه الخدمة ، وخسائر أفدح بالنسبة لعدد السكان من تلك التى تحملتها أية دولة أوربية أخرى .

٦ – الحرب فى عام ١٩١٥

فلكنهاين

بينما كان دخول إيطاليا الحرب لا يزال معلقاً فى كفة الميزان ، أقصِىَ ملتكه من قيادة الجيش الألمانى خائباً مدحوراً ، وحل فى مكانه فلكنهاين Falkenhayn القائد الألمانى العبقرى فى أواخر سبتمبر سنة ١٩١٤ . وكانت الخطط الاستراتيجية لهذا الرئيس الجديد لرئاسة أركان الحرب تتسم بالجرأة والمرونة . فمع أنه فشل فى بلوغ أهدافه الرئيسية فى هجوم قام به فى خريف سنة ١٩١٤ فى معركة يبرس الأولى ومعركة الإيزر ، إلا أنه طاب نفساً لأن جيوشه باتت فى مراكز حسنة ، وصارت تحتل خنادق صالحة فى فرنسا والفلاندر ، بحيث يمكن الاعتماد عليها فى الحول القادم بأن ترد بخسائر قليلة نسبياً أى هجوم قد يوجَّه إليها .

خططه الحربية

ورأى فلكنهاين أن فى طاقته استغلال هذه الفرصة فى شن حملة فاصلة فى الجبهة الشرقية ، حيث كان الغرندوق نقولا فى غاليسيا يهدد كراكاو والإمبراطورية النمساوية . ولم يكفِ فلكنهاين أن هندنبرج أوقف الجيوش الروسية الجرارة البطيئة الزحف عن التقدم فى خريف سنة ١٩١٤ ، بل ابتغى أن تُرد تلك الجيوش إلى روسيا نفسها . ورأى ما سيترتب على القضاء عليها من مزايا للألمان هائلة لا حصر لها . فإنه سيخفف بذلك عن النمسا عبئها الباهظ من الخوف والفزع ، ويمكن دولتى الوسط من مد يد المعونة إلى تركيا ، ويساعد على تحطيم صربيا ، واستمالة بلغاريا إلى جانب بلاده ، وتدعيم ولاء اليونانيين المتأرجح ، ومقابلة هجوم الإيطاليين بقوة كبيرة لو أنهم قرروا دخول الحرب فى صف الحلفاء . كما أن إزالة الكابوس الروسى الجاثم بضربات صادقة متواصلة يمكن ألمانيا والنمسا من تسوية شئون الشرق فترة من الزمن ، وتعبيد الطريق من برلين إلى بغداد خلال القسطنطينية .

ورأى أنه من الممكن بعد إنجازه هذا العمل حل مشكلة الجبهة الغربية الصعبة ، وشاهد فى إنجلترا أخطر أعداء ألمانيا وأصلبهم عوداً وأكبرهم شراً

وإثماً . وأيقن أنه ليس فى استطاعة بلاده فرض الصلح على الحلفاء إلا بطريقتين متلازمتين معاً وهما : شن حرب الغواصات من غير قيد فى البحار ، وإيراد الجيوش الفرنسية موارد البوار فى البر . وانتهى تفكيره إلى هذه النتيجة ، وهى أنه عند ما يتم له إخضاع الشرق ، يجب أن يهجم الجيش الألمانى على فرنسا فى نقطة بالغة الحيوية لها بحيث تُكرَه على كل تضحية مهما غلت للذود عنها . فتُجذب زهرة الجيوش الفرنسية إليها ، حيث يعمل على سحقها وإبادتها . ووقع اختياره النهائى لهذه النقطة التى أعدها لمذبحة الفرنسيين الهائلة على ڤردان

انتصارات ألمانيا الرائعة

وأصاب الألمان نجاحاً فائقاً فى الأدوار الأولى لهذه الخطة الضخمة . فقد شق ماكنزن Mackensen طريقه فى ٢ مايو سنة ١٩٥١ بغلالة هائلة من النيران وسط الجيش الروسى المقاتل فى غاليسيا فى معركة غورليس تَرْنَاو Gorlice Tarnau . ولما كان يتفوق كثيراً فى قوة المدفعية على غريمه، دفعه أمامه دفعاً حتى الحدود الروسية منزلا به خسائر مروعة . وسقطت على التعاقب لمبرج عاصمة غاليسيا ، ووارسو عاصمة بولندا ، وكوڤنو وڤلنا أكبر مدن لتوانيا ، أمام المدافع الهاوتزر الثقيلة الألمانية . وفى الشمال اكتسح فون بيلو ؛ وهو قائد من أبرع القواد الألمان — اكتسح مقاطعة كورلند Courland من أعمال لتڤيا ، ثم طار إلى ريغا فى رجاء قطع المواصلات الحربية بين بترغراد[1] وخطوط القتال الروسية . وبلغ تقدم الزحف الألمانى من السرعة والقوة الجارفة ، أنه ما طلع شهر سبتمبر سنة ١٩١٥ ، حتى لاح من المحتمل أن الألمان سيتمكنون من قطع خطوط اتصال الجيوش الروسية بقواعدها، ثم تمزيقها شر ممزق . بل لاح كأن العام الجديد قد يطلع على الألمان وهم مستقرون فى بترغراد.

ولكنهم حُرموا من تحقيق فوز ساحق كهذا . فإن روسكى Russky فى الشمال وإيڤانوف Ivanov فى الجنوب ، أحرزا خلال شهر سبتمبر انتصارات هدّأت من سرعة تقدم الألمان ، وأرسلت بارقة جديدة من الأمل فى قلوب الحكومة القيصرية .

---

(١) هو الاسم الروسى الجديد لبطرسبرج .

ولكن مع أن القوة الدافعة لهذا الزحف الألمانى العظيم تضاءلت ، فإن نتائج هذه الحملة كانت رائعة جليلة إلى حد كبير . فقد فقد الروس ٣٢٥ ألف أسير وثلاثة آلاف مدفع. وهى ضربة لم يتمكن الجيش الروسى قط من استرداد قواه بعدها استرداداً كاملا .

إخضاع البلقان

ثم تلا هذه الحملة إخضاع البلقان . فشُدَّ من أزر الأتراك فى صدهم الهجوم البريطانى فى ساحة الدردنيل . وأمكن استمالة البلغار ، فأعلنوا الحرب فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ على صربيا . وأكرِه الجيش الصربى الذى كللت هجماته فى الخريف السابق جبينه بالفخر – أكره على الارتداد على عجل ، متحملا خسائر ماحقة ، إلى جبال ألبانيا المكسوة بالثلوج ، قبل أن يُعطى وقت كاف لقوة صغيرة من جنود الحلفاء ، كانت قد أنزِلت فى سالونيك ، لتقديم مساعدتها له .

صد هجمات الحلفاء فى الميدان الغربى

ولاح أنه أينما يظهر قائد ألمانى ، يجلب فى ركابه النصر . فهندنبرج فى بروسيا الشرقية وبولندا ، وماكنزن فى غاليسيا وصربيا ، وليمان فون ساندرس فى شبه جزيرة غاليبولى ، كسبوا جميعاً انتصارات رائعة . وبينما كانت هذه الانتصارات المتألقة تُكتسب فى المسرح الشرقى للحرب ، وقفت الجبهة الألمانية فى الغرب ثابتة القدم أمام هجمات الجيشين الفرنسى والبريطانى . وفى تلك الجبهة وضع الحلفاء فى تفاؤل لم تكن تبرره الحوادث ، خططاً لسلسلة من الهجمات فى الفلاندر ، وفى أرتوا ، وفى كامبان ، أنزلت بالمهاجمين خسائر أفدح كثيراً مما أصابت القوات المدافعة – اللهم ما عدا ربما الهجوم المباغت الناجح فى نيف شاپل (١٠ – ١٣ مارس) – فقد اعتقدت القيادة الفرنسية العليا – بانية اعتقادها على نظرية حسابية زائفة – بأنه فى حروب التطاحن والإفناء ، يكون المهاجمون فى مركز أفضل . ولكن الألمان أبانوا أنهم أكثر منها دراية بفنون الحرب ، فإنهم خرجوا ظافرين فى القتال الذى دار فى تلك الجبهة ، رغم عدم غنمهم شيئاً من استخدامهم غير المشروع للغازات السامة (فى ٢٢ إبريل سنة ١٩١٥) بعد المفاجأة الأولى فى يپرس . وكما كان منتظراً

بطبيعة الحال ، أدت الخسائر الفادحة التى أصابت الحلفاء فى الجبهتين الغربية والشرقية عام ١٩١٥ إلى إحداث تغييرات عدة فى قياداتهم العليا . فقد بلغ من انزعاج الرأى العام الإنجليزى من نقص الذخائر عند الجيش البريطانى ، ومن قرائن الفشل التى لازمته فى الغرب ، أنه طالب بضرورة تكوين وزارة ائتلافية . كما استُبدل هايج بفرنش .

قيصر روسيا يتسلم قيادة جيوشه

ولكن ما كان أخطر من ذلك فى نتائجه ، هو التغيير الذى حدث فى روسيا . فقد نُدب الغرندوق نقولا لقيادة جيش القوقاز . وتسلم القيصر مقاليد القيادة العليا ، ومعه ألكسييف Alexieff كرئيس أركان حربه . ولكن على الرغم من عظمة مواهب ألكسييف الحربية ، فإن أغلبية الروس عدوا هذه التغييرات دليلا على انتصار المؤثرات التى كانت تمثل فى نظرهم أقوى عوامل الفساد فى حكومة تلك البلاد ، وأشدها عداء لتسيير دفة الحرب تسييراً فعالا حازماً . فقد كان القيصر دمية فى يد القيصرة التى كانت خاضعة لسحر راسبوتين . وراسبوتين هذا راهب فاسق سفيه وهبته قدراته المتنوعة كمدَّعٍ للنبوة ، ومداوٍ روحانى وشهوانى مستبيح ، نفوذاً ساحراً على نساء الطبقة الروسية الرفيعة ، وكان يُعتقد أنه يناصر عقد صلح منفرد مع الألمان . ولما كان الغرندوق نقولا أعظم أعداء هذا المخلوق صولة ، فإن عزله من منصب القيادة العامة العليا ، عُد نصراً لهذا الراهب ، وبالتالى نصراً للألمان ، ولوثة عارٍ على سمعة البيت الروسى المالك . ومن هذا الحين أخذت هيبة نقولا « الأب الحنون للشعب » تتضاءل فى عجلة واطراد .

٧ – الحرب فى عام ١٩١٦

معركتا فردان والسوم

وكان العام التالى (١٩١٦) عاماً خالداً بشكل خاص فى معارك الجبهة الغربية ، نتيجة معركتين نشبتا فى أرض فرنسا ، طالت إحداهما إلى سبعة أشهر ، والأخرى إلى أربعة . إن ملحمتى ڤردان والسوم هما بلا نزاع من أروع الفعال البشرية الدالة على قوة الاحتمال ، وأفجع المآسى البشرية فى التبديد

والإسراف . ومع ذلك فإن ذلك العام انتهى ولم يبدُ أن شيئاً قد أكمل بعد .
فني ساحة ڤردان رد الفرنسيون العدو على أعقابه ، واستعادوا جميع المواقع تقريباً
التى كانوا قد فقدوها فى الأدوار الأولى من الهجوم الألمانى . أما البريطانيون
الذين فقدوا ٦٠ ألف قتيل وجريح فى اليوم الأول من معركة السوم ، فقد
أخفقوا فى تدمير وسائل الدفاع المحكمة التى كانت تحمى الخط الألمانى .
ومع ذلك فإن هاتين المجزرتين المرعبتين غيرتا رجحان كفة الميزان فى جانب
الحلفاء . فإنه حينما رد الفرنسيون العدو عن ڤردان فى يوليو ، وحينما تضاءلت
الجهود المتواصلة الباسلة التى بذلتها القوات البريطانية الجديدة فى ساحة السوم
فى أكتوبر ، كان الجيش الألمانى القديم الذى كان أكملَ قوة حربية شهدها
العالم ، وأعظمها براعة وحذقاً — كان هذا الجيش قد راح واندثر . ومن
هذا الوقت فصاعداً أجبر الألمان على الاعتماد إلى أكبر حد على مجندين من
الأحداث لم تكن صفاتهم الحربية بأعظم من صفات خصومهم الفرنسيين
أو البريطانيين .

وكانت هناك حقيقة أخرى أثارت قلقاً عميقاً لدى هيئة أركان الحرب
الألمانية : هى ظهور جيش بريطانى كبير العدد فى ساحة الوغى ، قادر على
أن يأخذ من الفرنسيين جانباً كبيراً من خط القتال ، ويرد ضربات العدو
بمثلها شدة واطراداً وتقتيلا .

ظهور الدبابة

وفى ساحة السوم ظهرت الدبابة ، وهى سيارة مسلحة تسير على عجلات
« جنزيرية » ، وتستطيع أن تشق طريقها خلال الأسلاك الشائكة والخنادق
والعوائق الأخرى . وقد ظهرت فى حومة النضال لأول مرة فى ١٥ سبتمبر
سنة ١٩١٦ . وكانت اختراعاً بريطانياً عاق ظهورَه مدة طويلة قبل الآن
الروح العسكرية المحافظة المتصلبة . ولكن قُدر له أخيراً أن يكون المفتاح
الذى يفتح مغاليق الجبهة الغربية . غير أن هذا الاختراع البديع لم يُحدث

---

(١) بلغت الخسائر الألمانية فى السوم خمسمائة ألف ، والخسائر البريطانية ٤١٠ آلاف ،
والخسائر الفرنسية ١٩٠ ألف رجل .

سوى أثر ضئيل فى ميدان السوم . ذلك لأنه استخدم استخداماً جزئياً ، وبطريقة غير فطنة . إلا أنه كسب عام ١٩١٨ النصر فى تلك الجبهة .

نجاح بروسيلوف

وبينما كانت الفرق الألمانية فى الميدان الغربى تقابل هذه العوائق والصعاب ، رفرف حسن الطالع بجناحيه على الجنود الروس فى الجبهة الشرقية . فإن هجمة رائعة قام بها بروسيلوف Brussilov ، الذى لعله كان أكفأ القواد الروس فى الحرب العظمى — إن هذه الهجمة دلت مرة أخرى على أن الجيش الروسى حينما يجهز تجهيزاً حسنا ، ويقاد قيادة حاذقة ، يصبح أكثر من قريع للقوات المجندة المختلطة المتذمرة التى حشدتها الإمبراطورية النمساوية الهنغارية . ففى خلال حملة دامت عشرة أسابيع ، أسر بروسيلوف أربعمائة ألف وخمسين ألف أسير من جنودها . فلمع نجاحه وقتئذ بنور أشد تألقاً مما يستأهله ، نظراً لنكبات الروس فى حملات العام المنصرم . وبدا هذا النصر كأنه يذكر أوربا بأن أمة تستطيع أن تحشد خمسة عشر مليون رجل فى سن القتال هى أمة لن تُستنفد قط مواردها . وقد شجع هذا النصر الروسى رومانيا على إشهار الحرب فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ على النمسا والمجر . فردت ألمانيا فى اليوم التالى بإعلان الحرب عليها .

انضمام رومانيا للحلفاء

وقابلت شعوب الحلفاء بالتهليل والابتهاج انضمام حليف لها كرومانيا عظيم الثراء فى الحنطة وزيت البترول ، وأصناف أخرى من الثروة الطبيعية . غير أن القواد الروس والرومانيين لم يكونوا أنداداً لفلكنهاين وماكنزن اللذين اكتسحا اكتساحاً كل مقاومة اعترضت سبيلهما . ودخلا بوخارست فى ٦ ديسمبر . والحق أن سرعة الزحف الألمانى وبراعة خطته الحربية ، والحذق الذى وفق به هذان القائدان العظيمان بين حركاتهما — الأول وهو يزحف خلال جبال الكربات ، والآخر خلال دوبرجه ، ثم انقضاضهما فى ختام الأمر على قصبة البلاد — كسبت لهما إعجاب المراقبين الحربيين وتقديرهم . وصارت ثروة رومانيا الطائلة تحت تصرف ألمانيا وحليفاتها — ما خلا معدات آبار البترول التى كان مهندس إنجليزى قد أشرف على تدميرها . وبواسطة هذه

الثروة ازدادت زيادة ملحوظة قوة احتمال دولتى الوسط وحليفتيها ومقاومتها .

مصاعب ألمانيا والنمسا الاقتصادية

وكان الألمان قد أدركوا بعيد إعلان الحرب أن تعويض المواد الخام والأغذية ، التى حرمهم منها الآن يقظة الأسطول البريطانى وسهره ، ستكون من أصعب مشاكلهم وأعقدها . ولكن يهودياً رفيع المقام فى ميادين العلم والأعمال والأدب : هو ولتر راتناو Walter Rathenau تكفّل بتنظيم موارد البلاد الاقتصادية طبق خطة محكمة التنظيم . فكُشِفت أعواض لألوان شعبية عديدة من الأغذية ومواد خام ضرورية كثيرة . ولكن رغم كل ما صنعه العلم ، وجاء به التنظيم ، ورغم المساعدة القيمة التى جاءت بها الموارد الرومانية ، فإن الحصار البحرى أثر أثره السيئ فى تغذية الشعب الألمانى وصحته . فبدت أمارات على ندرة الأشياء سنة ١٩١٥ ، وأمارات أوضح فى سنة ١٩١٦ . ثم ازداد الضغط خطورة وشدة . وتحمل الأهلون محنهم فى تقشف وتجلد وبطولة ، يرفع من أملهم بالنصر ضجيج الانتصارات الكبيرة ، وترقب النصر النهائى فى ثقة . وحينما عين هندنبرج قائداً أعلى للجيش الألمانى ، ولودندورف رئيساً لهيئة الأركان العامة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩١٦ ، عقب فشل الهجوم على ڤردان ، عمت البلاد روح جديدة من الأمل ، وأجمعت كلمتها على بذل أقصى الطاقة . وسيطرت الدولة على خدمات كل مواطن من سن الخامسة عشرة إلى الستين ، بعد أن مدت سلطاتها العامة امتداداً واسع المدى .

٨ ـ الحصار البحرى المضروب على دولتى الوسط

سيطرة الأسطول البريطانى على البحار

سيطر الأسطول البريطانى من مبدأ الحرب على أمواج البحار . فأمكن نقل الجيش البريطانى ، ثم الجيوش الجديدة المجندة ، إلى فرنسا دون فقدان رجل واحد . ورُحلت الكتائب البريطانية إلى الدردنيل ، وإلى الإسكندرية ، وإلى سالونيك ، دون عائق . وطردت الطرادات الألمانية من عرض المحيطات . وأوقفت التجارة الألمانية عبر البحار . وقُطع اتصال المستعمرات الألمانية بأرض الوطن ، وعرضت لخطر الاستيلاء عليها فى أول فرصة ملائمة . وبذراع الأسطول

البريطانى أمكن جعل الأغذية والمواد الخام وذخائر الحرب المصنوعة فى الولايات المتحدة فى متناول الحلفاء ، على حين حرم أعداؤهم منها .

حنق الدول المحايدة

ولكن الرقابة البحرية أثارت حنق الدول المحايدة التى كانت سفنها تنقل البضائع إلى دول القارة ، رغم تنفيذ هذه الرقابة بفطنة واحتراس عظيمين . فكان كلما أوقفت سفينة حربية إنجليزية سفينة تجارية أمريكية فى عرض المحيط لتفحص مشحوناتها ، حمى غضب دوائر الأعمال الأمريكية ، وارتفع سخطها على هذا التدخل الاستبدادى غير المشروع من طرف دولة محاربة فى حقوق المحايدين الأبرياء . غير أن الاحترام المتبادل بين السر ادوارد غراى وولتر پيج Walter Page السفير الأمريكى فى بريطانيا ، عاون معاونة كبيرة على التلطيف من حدة المضايقات والمشاحنات ، التى ربما كانت أدت إلى متاعب خطيرة لو أنها عولجت معالجة أقل فطنة وودا . وكان فى استطاعة البريطانيين الرد على اعتراضات الأمريكيين رداً حسناً ، بأنه لما كان الألمان يحاولون محاصرة الساحل البريطانى بغواصاتهم ، فيحق لبريطانيا أن تنتقم لنفسها . غير أنه لم يكن من المنظور أن يقبل المحايدون هذه الحجة كرد مقنع .

وظلت حرية البحار مثار نزاع ، إلى أن دخلت الولايات المتحدة نفسها الحرب . فطوتها يد النسيان . وبوشر الحصار البحرى لألمانيا بكل همة ونشاط ، بعد أن كان مثيراً لمضايقة الأمريكيين . وطرحت الولايات المتحدة وراء ظهرها بسرعة فائقة حوافزها القانونية . وقد قال أمريكى كبير للمستر بلفور وزير الخارجية البريطانية أثناء زيارة قام بها الأخير للولايات المتحدة سنة ١٩١٧ ، « لقد أخذت بريطانيا ثلاث سنين حتى تهيء نفسها لكسر جميع قوانين الحصار البحرى ، ولكنك ستجد أنه لايعوزنا غير شهرين حتى نغدوا مجرمين كباراً مثلكم » .

تقاليد الأسطول البريطانى

وكانت تقاليد الأسطول البريطانى تسودها روح نلسن ومناقبه : روح ذكية رائعة مقدامة فى انتهاز الفرص ، ولباقة سريعة الفهم رصينة النظر أثناء القتال . وهى صفات كان يُعتقد أنها من سمات البحارة البريطانيين وحدهم .

وكانت البلاد تتوقع نشوب ملاحم عنيفة وحملات عدوانية فى بحر الشمال ، وإبراز التفوق البحرى الذى اعتقد الإنجليز أنه لأسطولهم ، وإبراز هذا التفوق بشكل سريع يرن دويه فى الآفاق ، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل . فقد توارى الأسطول الإنجليزى وسط ضباب المياه الاسكتلندية وجوّها الملبد . وأغرقت الغواصات الألمانية عدة طرادات بريطانية . وكرت الأيام والشهور وظلت السفن الحربية الألمانية آمنة وراء حقول الألغام التى نثرتها لحمايتها ، على حين بدا الأسطول البريطانى الرئيسى كأنه لا يتوق إلى البروز من وكره الأمين فى سكاپا فلو ، والأخذ بتلابيب غريمه . وخلقت التطورات الجديدة فى الحروب البحرية : كالألغام ، والطوربيدات ، والغواصات ، وأستار الدخان — خلقت أخطاراً جديدة ، وفرضت على رجال البحر المسئولين اتخاذ تدابير واحتياطات جديدة .

معركة فولكلند

وفى ٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ نشبت معركة نائية بالقرب من جزر فولكلند ، فتك فيها الأميرال ستردى Sturdee بقوة من الطرادات الألمانية بقيادة الأميرال فون شپى Von Spee الذى كان قد أحرز قبل ذلك نصراً بحرياً على الأسطول الإنجليزى فى المحيط الهادى . فأثار هذا النصر الحمية والشجاعة فى النفوس ، لا لأنه أقصى فقط العدو إقصاء لا رجعة فيه عن عرض البحار الجنوبية ، بل لأنه أثبت أيضاً فطنة الأميرالية البريطانية وذكاءها ، وكفاية قواد البحر ، وبراعة رجال المدفعية البريطانيين فى الرماية .

معركة جتلند

إلا أن الأسطول البريطانى لم يشتبك فى شىء أشبه بموقعة عامة حتى مايو سنة ١٩١٦ . وعندما حدث هذا الاشتباك، جاءت نتيجته مخيبة لآمال الشعب الإنجليزى . فقد ترقب إحراز انتصار حاسم . ولكنه أحيط علماً بخبر حدوث معركة بحرية تكبد فيها الأسطول البريطانى الأكبر خسائر بلغت ضعف ما تكبده خصمه فى الرجال والسفن الحربية . ولعل هذا الخذلان يرجع إلى أن سوء الرؤية خلال المعركة حرمته من الانتفاع بمزية تفوقه على أسطول العدو .

وقد أثارت الأنباء الأولى التى بلغت لندن عن معركة چتلند Jutland (٣١ مايو سنة ١٩١٦) إحساساً لا ينسى من التشاؤم والحزن ، فقد تساءل

الناس : أغَدا حقاً تفوق بريطانيا البحرى أمراً مضى وانقضى ، بعد أن تحداه الألمان تحدياً جدياً ، وهل كان چليكو القائد الأعلى للأسطول مصيباً فى حرصه على قواته ، وتنكبه المجازفات غير الضرورية ؟ غير أن الأيام القادمة جاءت بالرد على هذه الأسئلة . فإن الأسطول الألمانى الأكبر لم يجرؤ على الخروج من ملاذه مرة أخرى لمنازلة غريمه . فإذا كانت چتلند نصراً للألمان ، فقد كانت لها نتائج عديدة لا تنجم فى المعارك البحرية الأخرى إلا عن الهزائم الفاصلة .

موازنة بين مزايا الأسطولين

وكان بحارة كلا الأسطولين يمتازون بالشجاعة والنظام . إلا أن الألمان كانوا متفوقين فى الاستعدادات الفنية . فإن ترپتز القائد الأعلى للأسطول الألمانى كان قد استشف ببعد نظره المسائل التى تنطوى عليها العمليات البحرية فى أحوال سوء الرؤية التى تسود بحر الشمال ، وهو أمر لم تعره الأميرالية البريطانية التفاتاً رغم أهميته ودقة شأنه . فلم تُبْنَ السفن الألمانية — بعكس السفن الحربية الإنجليزية — بقصد إحراز التفوق فى السرعة ، أو للعمليات التى تجرى بعيداً عن قواعدها ، أو للقيام برحلات طويلة ، بل كان يُقصد منها بلوغ هذا الهدف المحدود : وهو الالتحام بالعدو فى المياه القريبة .

فلم تكن السفن الألمانية تحمل إلا قدراً ضئيلا من الفحم ، ولم تهيئ لبحارتها من وسائل الراحة إلا أشدها ضرورة . ولكن قنابلها كانت نافذة للدروع ، ورمايتها فى المراحل الأولى من القتال محكمة مضبوطة ، ودروعها الصلب من الثخانة بحيث تعذر تقريباً إغراقها . وعلى حين لم تحدث القنابل البريطانية الطائشة التصويب سوى أثر ضئيل فى الدروع الصلبية السميكة التى كانت تقى سفن الأسطول الألمانى ، كان فى مقدور الألمان أن يخرقوا الدزوع غير الواقية لأية طرادة بريطانية تجاسرت فى طيش أن تدنو من مرمى مدافعهم ، وأن يبعثوا بها وببحارتها البواسل إلى قاع البحر .

ولكن نقصاً واحداً فى نظام الأسطول الألمانى استفحل خطبه ، حتى صار نكبة قاتلة أضاعت عليه مزايا تفوقه . فإنه على حين كان البحارة البريطانيون يذرعون البحار على الدوام ، فإن البحارة الألمان كانوا يقيمون خلال الشطر الأكبر

من أوقاتهم فى ثكنات مشيدة على الشاطىء — إلا فترات قصيرة يقضونها فى سفنهم — وذلك نظراً لضيق الأماكن المخصصة لإيوائهم فى تلك السفن .

وكان أثر هذا الإجراء ضاراً فى النهاية بروح النظام البحرى فى الألمان . فإن البحارة المقيمين فى غير سفنهم يتأثرون بكل مؤثر يظهر فى بيئتهم . ولذا نرى فى الشهور الأخيرة من الحرب ، أن عصياناً بحرياً حدث فى كيل قد شلّ الأسطول الألمانى ، وأدى أخيراً إلى إحلال وهن عام به قلل من فرص الانتفاع به فى مواصلة الحرب .

كتب يمكن استشارتها

خير المؤلفات التاريخية المختصرة عن الحرب هى :

C.R. Cruttwell : A History of the Great War. 1934

B. H. Liddell Hart : The Real War. 1930

أما إذا رغب القارىء كتباً مطولة ، فليراجع :

John Buchan : The History of the Great War. 1921-2

Winston Churchill : The World Crisis. 1923-1931

وكَتَب معظم الذين ساهموا بأدوار هامة فى الحرب مذكرات أهمها :

D. Lloyd George : War Memoirs. 1933

Concise Ludendorf Memoirs : 1914-1918. 1933

Von Hindenburg : Out of My Life. Tr. F.A. Holt. 1920

The Memoirs of Marshall Joffre : tr. T.B. Mott. 1932

Foch : Memoirs. 1931

Jellico : Crisis of the Naval War. 1920

R. Poincaré : Au service de la France. 1913-26.

Sir Ian Hamilton : Galliopoli Diary. 1920.

Sir W. Robertson : Soldiers and Statesmen. 1926.

Admiral W.S. Sims and B J. Kendrick : The Victory at Sea. 1920

J.J. Pershing : My Experiences in the World War. 1931

O. Czernin : In the World War. 1919

A. Brussilov : A Soldier's Notebook. 1930

Prince Rupprecht : Mein Kriegstage buch. 1929

Von Kluk: The March on Paris and the Battle of the Marne, 1914. 1930

Huguet : Britain and the War. Eng tr. 1928

Huguet : Memoirs of Falkenhayn : Berlin. 1920

Huguet : Memoirs of Hoffmann. Berlin. 1920

Huguet : Memoirs of Conrad von Hotzendorf. Vienna. 1925

أما كتب التاريخ الإنجليزية الرسمية فهى :

Brigadier General J.E. Edmonds : France.

Brigadier General C.F. Aspinall — Oglander : Galliopoli.

Cyril Falls : Palestine and Macedonia.

Brigadier General F.J. Moberley : Mesopotamia.

The official history of naval operations by Sir Julian Corbett and Sir

Henry Newbolt.

The official history of aviation in the War by Sir Walter Raleigh and H.A. Jones.

وتوجد دراسة رائعة لمعارك سنة ١٩١٤ فى كتاب :

General E.L. Spears : Liaison, 1930

وللحرب الإيطالية فى كتاب :

G.M. Trevelyan : Scenes from Italy's War. 1919

وللهجوم الإنجليزى على زبروج بقلم :

Sir Hilton Young : By Sea and Land. 1924.

ولوصف الحرب فى البلدان العربية يُنظر كتابا لورنس :

T.E. Lawrence : Revolt in the Desert. 1927

T.E. Lawrence : The Seven Pillars of Wisdom. 1925

الفصل الثالث والثلاثون

الحرب . الطور الأخير

حرب الغواصات ودخول أمريكا الحرب . الثورة الروسية . فترة كيرنسكى . فوز البلاشفة . إخراج لنين لروسيا من الحرب . قهر بريطانيا لحملة الغواصات . خذلان نفل ومعركة باشنديل الدموية . فتح البريطانيين بغداد وبيت المقدس . العراقيل فى سبيل السلام . الحرب خلال عام ١٩١٨ . انتصارات فوش وهايج . الثورة الألمانية . الهدنة . نتائج الحرب العظمى على العالم والإمبراطورية البريطانية .

١ ـ حرب الغواصات ودخول أمريكا الحرب

تميز العام التالى (سنة ١٩١٧) بحادثين قُدّر لكل منهما أن يؤثر تأثيراً بعيد المدى فى تاريخ العالم ، وهما : دخول الولايات المتحدة الحرب ، والثورة الروسية .

إعلان حرب الغواصات

ولا محيص لقواد الجيوش وأمراء البحر الألمان من أن يتحملوا تبعة إثارتهم عداوة الولايات المتحدة . فقد جرّوا — وعيونهم مفتحة متغابين عن الخطر — الإمبراطور وليم وبتمان هولفج Betmann — Hollweg المستشار الإمبراطورى ، إلى انتهاج حرب الغواصات المطلقة من كل قيد من أول فبراير سنة ١٩١٧ . وكان معنى هذا القرار أن للغواصات الحق فى أن تغرق أية سفينة تجارية دون إنذار .

مسئولية العسكريين

وكان هؤلاء الرؤساء العسكريون يدركون أنهم بهذا الإعلان السافر للقرصنة سيجلبون على ألمانيا عداوة الولايات المتحدة . فقد أغرقت غواصة قبل ذلك بسنتين سفينة الركاب لوزيتانيا على مقربة من ساحل إرلندا ، فاستفز هذا العمل حكومة

وشنطن ، وأوشك على دفعها إلى الحرب . غير أن رجال الحرب الألمان حسبوا أنه قبل أن تستطيع القوات الأمريكية أن تساهم بنصيب فعال فى ساحات الحرب بفرنسا ، تكون الغواصات قد أجاعت إنجلترا ، وأكرهتها على الاستسلام .

فشل حرب الغواصات

وكان هذا العمل مقامرة خطيرة القدر . وكادت ألمانيا تظفر بتحقيق مآربها . إلا أنها انتهت بالخذلان نتيجة للتدابير التى اتخذتها الأميرالية البريطانية لمكافحة الغواصات . وبإخفاق تلك الحملة قُضى القضاء المبرم على جميع آمال ألمانيا فى الانتصار . ولقد بلغ النزق والتهور بالحكومة الألمانية أنها حاولت فى أوائل عام ١٩١٧ إغراء المكسيك على مهاجمة جارتها الكبرى ، بوعدها بضم تكساس والمكسيك الجديدة وأريزونا إليها ، وهى ثلاث ولايات من ولايات الجمهورية الأمريكية . ولكن قلم المخابرات بالأميرالية البريطانية استرق خفية نبأ هذا العرض ، وأبلغه إلى وشنطن ، فقادها ذلك فى نهاية الأمر إلى إعلان الحرب .

إعلان الولايات المتحدة الحرب

فى صباح يوم مشرق من أيام إبريل (٦ أبريل سنة ١٩١٧) أبصر اللندنيون بأعين قريرة وأفئدة مفعمة بالأحاسيس العميقة علم الولايات المتحدة يخفق جنباً إلى جنب مع الراية الإنجليزية فوق الأبنية الرسمية .

وكان الرئيس ولسن متريثاً متمهلا فى إشهاره الحرب . بل إنه كان متريثاً متباطئاً أكثر مما ينبغى فى نظر زعماء الحزب الجمهورى الأمريكى فى ولايات الاتحاد الشرقية الذين كانوا يرغبون فى دخول بلادهم الحرب فى مبدئها ، احتجاجاً على انتهاك حياد البلجيك . ولكن ولسن بجانب كونه بالفطرة ميالا إلى السلام ، رأى نفسه مكرهاً على أن يحفل بالشعور القوى ضد إنجلترا الذى كان سائداً فى أوساط أمريكية عديدة . هذا إلى أنه كان يعتقد أن الحكمة تدعوه إلى التريث . فقد كان يرى بعين الخيال والرؤيا دول أوربا المتقاتلة سوف تستلهمه العون والغوث ، وتناشده أن يقوم بينها حكماً منصفاً فى خلافاتها ، ومضمداً لجراحها ، بعد أن ينهك الصراع قواها ، وتطحنها الخطوب والأرزاء . وكان يعتقد أن الأقدار قد اصطفته للقيام بهذا الدور الذى اضطلع به فعلا فى الأيام المقبلة : وهو الدور الذى جال فى خاطره وقتئذ أنه دُعى للقيام به . ولذا

لم يكن ثمت شيء بقادر على زحزحته من موقف العزلة والحياد المشرب بالرزانة والعطف الذى وقفه ، لولا غباوة لودندورف وتربتز العمياء فى التشديد بإطلاق حرب الغواصات من كل عقال .

تقارب عواطف الشعبين الأنجلوسكسونيين

فأثارت هذه الحرب كوامن عواطف الأمريكيين ومشاعرهم القوية . ولكن مراقباً فرنسياً[١] نافذ النظر أعرب عن الرأى بأن الدافع الحقيقى لإعلان أمريكا الحرب — حتّى وإن كان دافعاً لا يسلم به الكثيرون — هو العطف الذى يخفق فى صدور الأمريكيين نحو وطنهم الأول وأسلافهم القدماء الذين خرج من صلبهم الشطر الأكبر من الأمة الأمريكية . فهو الذى حدا بتلك الأمة إلى عدم الوقوف موقف المتفرج ، بينما إنجلترا تُسحق وتوطأ بالأقدام ، حتّى وإن التزمت أن تطوى فى صدرها كراهتها التقليدية الطويلة الأمد للاشتباكات الأجنبية . ورأى هذا الفرنسى أن عطف الأمريكيين على فرنسا القائم على ذكرى لافاييت خلال حرب الاستقلال ، كان شيئاً ضئيل الأثر فى دفعهم إلى القتال بجانب الحلفاء ، إذا قيس هذا العطف بشعورهم نحو إنجلترا ، حتّى وإن كان يُعرض على الأنظار بدرجة أعظم منه[٢] .

وأثبت فى النهاية دخول الولايات المتحدة الحرب أنه ذو نتائج حاسمة . فقد صار الحصار البحرى المضروب على ألمانيا أحكم وأضيق ، بفضل عون الأسطول الأمريكى . وكانت بريطانيا تحمل على كاهلها منذ إعلان الحرب الحصة الكبرى من أعباء الحلفاء المالية . فتقدمت الآن أغنى أمم العالم فى أدق لحظة فى تاريخ الحرب إلى مشاركتها فى تحمل هذا العبء الباهظ . وكما خفّفت القروض الأمريكية من متاعب الحلفاء وقلقهم المالى ، كذلك سلب ظهور جيش أمريكى جرار حسن العدة والتجهيز فى الميدان الغربى فى آخر

---

(١) هو أندريه سيجفريد

(٢) خطب الأميرال سمز Sims قائد الأسطول الأمريكى فى الجلد هول بلندن سنة ١٩١٠ ، فقال : « إذا قدر أن يأتى اليوم الذى يهدد فيه حلف أوربى الإمبراطورية البريطانية ، فإن بريطانيا العظمى تستطيع أن تعتمد على ذوى قرباها عبر البحار ، بأن يهبوا للنضال معها إلى آخر سفينة فى أسطولهم ، وآخر دولار فى جيوبهم ، وآخر قطرة من دمائهم »

عام من أعوام الحرب – سلب الدولتين الوسطيين من آخر فرصة لإبرام صلح ملائم لهما .

غير أن الجيوش لا تدرَّب وتُحشد بين طرفة عين وانتباهتها . وكان الأمريكيون بطيئين ، كالبريطانيين من قبلهم ، فى شحذ هممهم فى جهودهم الحربية ، والاندفاع بقوة ونشاط فى أعمال القتال ، الأمر الذى أثار أشد مخاوف الحلفاء وهواجسهم خلال الشهور التى كانت تدرّب فيها الجيوش الأمريكية وتجهَّز .

٢ – الثورة الروسية

تنازل قيصر روسيا

ذلك أنه فى ١٥ مارس سنة ١٩١٧ ، أى قبل تصديق الكونجرس الأمريكى على إعلان الحرب بثلاثة أسابيع ، أرغِم قيصر روسيا على النزول عن عرشه . فإن الثورة التى ما فتئت جاثمة متوثبة فى روسيا منذ ردح طويل من الزمن ، اندلع الآن لهيبها ، لا فى فتنة منظمة عنيفة كما كان منظوراً ، بل فى سلسلة من الاحتجاجات غير المدبرة التى جاءت عفواً فى ظاهرها ، ثم تجمعت قواها ، وعظم خطرها ؛ حتى صار من الواضح أن القوم قاطبة من أشراف وطبقة وسطى ، ومن ضباط وجنود ، ومن أحرار واشتراكيين ، قد طرحوا وراء ظهورهم الولاء لعرش القياصرة .

كيف بدأت الثورة

وبدأت سلسلة هذه الأحداث بشغب عام قام فى بترغراد فى ٨ مارس ، واقترن بميل عام للاعتصاب . وتلا ذلك انقطاع الصحف عن الظهور ، فقفاه اعتصاب عمال الترام فى ١٠ مارس ، وفى ١١ مارس أعلنت أورطة عصيانها . ثم حدث فى اليوم التالى أن تمرّد الحرس القيصرىّ . وانتشرت حركة الفتنة والعصيان انتشار النار فى الهشيم .

وكانت هذه الثورة ثورة قام بها الرورس ضد الجوع والشقاء والكلال الذى انتابهم ، واقترنت بمشاعر من الغيظ والسخط والاستياء ، وذلك حينما استعادوا إلى أذهانهم الخسائر الهائلة التى حاقت بجيوشهم قبيل ذلك ، والثبت الطويل من النكبات الحربية ، والأربعة الملايين من القتلى والجرحى ، واختلاس

أموال الدولة ، وسوء توزيع موارد البلاد ومنتجاتها ، والشكوك القوية التى خامرت النفوس بأن القيصرة تعاون الألمان خفية تحت تأثير راسبوتين الخليع الفاجر ، وأخيراً حينما تذكروا طرق القمع الرجعية التى استخدمها بروبوبوف Propopoff وزير الداخلية ، وآخر مشيرى القيصر وأقلهم فطنة وحصافة .

إنشاء حكومة مؤقتة

وكان أعضاء مجلس الدوما قد رفضوا قبيل تنازل القيصر إطاعة أمره بالانفضاض . وانتخبوا فى ١٤ مارس حكومة وقتية برياسة الأمير لڤوف Lvov تضم أغلبية الحزب الديمقراطى الدستورى . وكان أبرز أعضائها إسكندر كيرنسكى Alexander Kerensky ، وهو خطيب مجلس عمال بترغراد ، ووكيل لجنة السڤييت المركزية التنفيذية . وقد حاولت هذه الحكومة أن تحكم البلاد ، وتدير دفة الحرب بعد سقوط القيصر .

ولكن الأمة الروسية كانت زاهدة فى مثل هذه الحكومة . فلم تغنِ شيئاً نزاهة لڤوف وكفاية مليكوف وغوشكوف وبلاغة كيرنسكى الثورية النارية ، أمام رغبة مجالس الجنود والعمال Soviets التى تكوّنت فى طول البلاد وعرضها . ثم تمثلت هذه المجالس جميعاً فى أوائل إبريل فى مؤتمر مركزى اتخذ بترغراد مقراً له .

وشلّ ميل عام للتمرد والقعوس يد الحكومة ، وأقعدها عن العمل . ورفض موظفو التلفون والتلغراف والكتبة ، وهم عماد القوة المحركة الحاكمة فى الدولة الحديثة — رفضوا أن يستأنفوا أعمالهم .

فوز البلاشفة

وتمكن البلشفيون[1] فى مؤتمر السڤييت من السيطرة بقوة منطقهم وجلائه على أهواء الناس السذج البسطاء الجائعين ، وأفكارهم المبلبلة الحائرة . وكان برنامج الحزب الذى ألفته هذه الجماعة واسع المدى شديد الغواية : وهو توفير الغذاء للجميع ، وإبرام صلح عاجل ، وتوزيع الأراضى على الفلاحين ، وإقامة دكتاتورية عمالية . ولهذا ، فى الحين الذى كان فيه كيرنسكى لا يألو جهداً فى إثارة همم الجيش لمواصلة الحرب ، كان البلاشفة يسعون إلى إفساد النظام

---

(١) Bolshevicks وهى كلمة روسية معناها حزب الأغلبية .

الحربى وبث روح الهزيمة فى نفوس الجند . وكان شعار الثورة الجديدة : « لا فتوح جديدة ، ولا غرامات حربية » . وكان نجاحهم فى هذا المضمار عاجلا كاملا . فإنه ما حل آخر يوليو سنة ١٩١٧ حتى انهارت الجبهة الروسية أمام هجمات العدو .

ولم يكن فى جعبة كيرنسكى شىء يقدمه للشعب الروسى خير من الأمور التى وعده بها البلاشفة . فلم تجدِ ذرابة لسانه فتيلا ، أو تعد الأمور إلى نصابها ، بعد أن تعقدت تعقداً خطيراً . واستطردت الحركة البلشفية تجمع قواها ، رغم فتنة طائشة قامت فى يوليو . وساعدها على تعاظم خطرها ضعف الحكومة الوقتية ، وخور عزيمتها ، وانتصارات الألمان ، وازدياد شقاء الشعب وتعاسته . ولم يكن يُرتجى من كيرنسكى الذى لم يستطع إنقاذ ريغا من الوقوع فى حوزة الألمان فى سبتمبر سنة ١٩١٧ ، والذى نقصته الشجاعة فى إعدام الثوار حينما قبض عليهم متلبسين بالجريمة — نقول لم يكن يرتجى من كيرنسكى أن يبقى قابضاً على أزمة السلطة بعد فتنة جائحة كهذه . وضرب فى ٢ نوفمبر (٢٥ أكتوبر حسب التقويم الروسى القديم) البلشفيون ضربتهم التى مكثوا ردحاً طويلا يدبرون أمرها ويعدون عدتها . فسقطت حكومة كيرنسكى كما تتساقط أوراق الخريف ، بهجوم الثوار الحمر على قصر الشتاء ببترغراد .

لنين وترتسكى

أما منظما هذه الثورة ، فكانا منفيين نكرتين رجعا حديثاً إلى روسيا ، هما : أليانوف Ulianoff الذى دعا نفسه لنين Lenin ، وبراونشتين Braunstein الذى اتخذ لنفسه اسم ترتسكى Trotsky . ولم يحدث قط أن قبض على أزمة الحكم فى دولة حديثة مغامرون أعظم جسارة وعزماً وثباتاً من هذين المغامرين الجبارين . فإنه ما انقضت ثلاثة أشهر على قبضهما على أعنة السلطة فى روسيا ، حتى كانا قد أخرجاها من صفوف القتال ، وسحقا الطبقات الغنية والوسطى ، وفضا هيئة نيابية كانت قد دعيت لوضع دستور برلمانى لجمهورية روسية .

ولم يكن لنين يقيم للوطنية اعتباراً ، ولا للبرلمانات وزناً ، فإنه فى معاهدة برست ليتوفسك Brest — Litovsk المبرمة فى ٣ مارس سنة ١٩١٨ بين

ألمانيا وروسيا ، نزل للألمان عن رقعة فسيحة من الأراضى[1] دون أن يعتريه أى خجل ، أو يحس بأى أسف أو ندم .

٣ - الحرب فى أواخر عام ١٩١٧

التزام الألمان خطة الدفاع

لم يكن جزءاً من خطة لودندورف التى رسمها لسنة ١٩١٧ أن يجدد الهجوم فى الميدان الغربى ، بل تراجع عدة أميال إلى مركز كان قد حُصن بحرص بالغ وعناية محكمة . وكان يعزف هذا المركز المنيع عند الألمان بخط سيجفريد ، وعند الإنجليز بخط هندنبرج . وآثر لودندورف أن يسمح لخصومه بأن يواصلوا هجماتهم الغالية الثمن التى أدمنوا عليها يومئذ إدماناً قوياً . وكان أقل ميلا الآن منه فى أى وقت آخر إلى تبديد أرواح جنده فى خطط هجومية ، إذ كان وطيد الثقة بأن الحرب التى كانت تشنها الغواصات فى البحار ستنهى الحرب البرية فى بحر ستة أشهر ، أو فى بحر عام واحد على الأقصى . وامتلأ يقيناً بأن الغواصات ستجيع إنجلترا ، وتكرهها على الاستسلام قبل أن يصبح فى المقدور نقل الجنود الأمريكية المدربة إلى فرنسا .

بشاعة حرب الغواصات

والحق أن وجدان الإنسانية وضمائر البشر ستحكم حكماً قاسياً على هذا اللون من ألوان النضال الذى لجأ إليه الألمان ، رغم احتجاج كثير من خيرة رجالهم عليه ، واستنكارهم إياه . فإنه عند ما تضرب غواصة بالطوربيد سفينة تجارية أو سفينة ركاب ، فإن السفينة تغرق بكل من عليها دون أن تتاح لهم فرصة للنجاة . وقد وُجهت إلى قواد الغواصات البواسل الأوامر بألا يكترثوا للمجاملات البحرية التقليدية ، الأمر الذى هو أبغض ما يمكن أن يُتصور على نفس ضابط بحرى ، وأمقت شيء لديه . غير أنه لايمكننا أن ننكر أن هذا الأسلوب الجديد غير المشروع للقتال كان يحوى أملا قوياً فى النجاح . فإن بريطانيا أصبحت لاتملك فى آخر إبريل سنة ١٩١٧ سوى مقادير من الحنطة تكفيها ستة أسابيع فقط . فتجلى لأعين الحكومة البريطانية أنه مالم تنقص حالا نسبة السفن التجارية المغرقة ،

---

(١) نزل عن فنلندا واستونيا وليفونيا وكورلند ولتوانيا و بولندا الروسية .

فإنه ليس فى استطاعتها ضمان كفاية المواد الغذائية لحوائج البلاد .

القضاء على الغواصات

ولكن العسرة حُلت ، وذلك من جهة باقتباس نظام القوافل الذى أرغم المستر لويد جورج رئيس الوزارة الأميرالية البريطانية على تجربته، ومن جهة أخرى باستخدام قنابل الأعماق التى تنفجر تحت سطح الماء ، وبتحسين آلات الإنصات فى السفن ، وباتخاذ تدابير أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها . فقُهر أخيراً خطر الغواصات ، بل بلغ تغلب الأسطول البريطانى على هذا السلاح أن جاء حين لم تكن ترجع فيه سوى غواصات قليلة العدد جداً إلى قواعدها . نعم كانت بسالة البحارة الألمان عظيمة ، وإقدامهم هائلا . ولكن هذه الروح من الجسارة والمخاطرة والبسالة لم تكن بأقل منها فى نفوس ضباط الأسطول التجارى البريطانى وبحارته ، الذين لم يفزعهم أى خطر مهما كان ماثلا أكيداً عن ركوب البحار .

فتحطمت آمال لوندورف على صفحات الماء ، وفى أعماق المحيط . إلا أن القتال الذى نشب فى الميادين البرية أبان عن رجحان كفة الألمان ، ولو أنهم لم يحرزوا فيه تفوقاً فاصلا . فإن نقل Nivelle ، وهو قائد جذاب المحيا كيل له الإطراء والإطناب كيلا ، وكان قد خلف چوفر فى قيادة الجيش الفرنسى فى ديسمبر سنة ١٩١٦ ، قام فى أكتوبر سنة ١٩١٧ بهجمة عنيفة على الإين أعدت أحكم إعداد ، ولكنها باءت بالفشل والخذلان ، ونُكب فيها الجيش الفرنسى بخسائر مروعة ، سببت تمرداً فى صفوفه . وذهبت بثقة المدنيين والمحاربين على السواء بكفاية قوادهم الذين يديرون دفة القتال ، الأمر الذى هدد فترة ما تهديداً خطيراً بأن يشلّ مقدرة الأمة الفرنسية الحربية ، ويوهن جهودها العسكرية .

تعيين بيتان قائداً عاماً

ولكن الموقف عولج بحزم ، وأعيدت الثقة إلى النفوس ، وأوقف بيتان بطل ڤردان ، الذى عين قائداً عاماً مكان نقل — أوقف عوامل الفساد عن الانتشار ، وأرجع الروح المعنوية إلى الجيش . ووضع كليمنصو « النمر » الذى صار فى نوفمبر رئيساً للوزراء — وضع حداً للدسائس التى كانت تحاك

بباريس، والتى كانت تحوى فى ثناياها روح الهزيمة . ومع هذا فقد ظل الموقف يثير هواجس قواد الحلفاء وقلقهم العظيم ، حتى أن الوزارة البريطانية أيدت الجنرال هايج فى تصميمه على تحويل اهتمام العدو المركز إلى الجبهة البريطانية ، خشية أن يقع الجيش الفرنسى فى تلك الفترة فريسة هجوم ألمانى مباغت .

ملحمة باشنديل الدموية

وانهمر وابل قاس من الأمطار طول صيف وخريف عام ١٩١٧ على الأراضى المنخفضة المحيطة بيبرس ، حيث شرع الجيش البريطانى يبذل قصارى جهده فى شق طريقه إلى الساحل البلجيكى ، بعد أن مهد لهجومه بتركيز غلالة من النيران الحاصدة من مدفعيته الهائلة . ولم يحدث أن حابى الطقس فريقاً ، وجار على فريق آخر ، كما حدث فى تلك المعمعة . فعلى حين كان الألمان فى راحة نسبية نظراً لاحتلالهم المواقع الأكثر ارتفاعاً ، كانت مياه الأمطار تغمر الخنادق البريطانية حتى خصور الجند ، فأضيف إلى قائمة الفظائع العادية لتراشق المدافع العنيف المتواصل ، الخطر بأن المقاتلين الذين يقدر لهم أن يجرحوا خلال المعركة ، قد يلقون حتفهم غرقاً فى ماء الأمطار ، أو اختناقاً فى الطين .

ولكن بالرغم من ذلك ، استمرت هذة الملحمة المعروفة بمعركة باشنديل Passchendaele تحارب بعناد وثبات لا تلين لهما قناة . ولم يتراجع الألمان إلا عن رقعة ضئيلة من الأرض . ولم تلحق بهم إلا خسائر قليلة نسبياً ، على حين حلقت خسائر البريطانيين إلى الرقم الهائل : ثلاثمائة ألف من القتلى والجرحى . وكان قصف المدافع ودمدمة القنابل يسمعان فى خفوت خلال تلك المعركة الدموية فى كثير من القرى الهادئة الوديعة بولاية صرى بإنجلترا ؛ فيعلنان للناس عن مأساة من تلك المآسى الدموية القومية التى يزيدها روعاً وهولاً تشكك الناس فى ضرورتها ، وارتيابهم فى فائدتها .

والحق أنه حرى بنا أن نتساءل : هل كان من الضرورى أن يتحمل البريطانيون هذه الخسائر المروعة فى الأرواح ، لأجل إنقاذ الفرنسيين من

الهلاك . وألم يكن أخلق ببريطانيا أن تحرص على قوتها فى الرجال ؛ ولا سيما لأنه كان مرتقباً اشتراك الجيش الأمريكى فى النضال فى العام القادم ؟ إن المستر لويد جورج نصح بقوة بعدم القيام بهذا الهجوم ، ولكنه أحنى رأسه أمام مشورات رجال الحرب وإلحاحهم الشديد . وقد تجلت التكاليف الباهظة لهذه المعركة فى القتال الذى دار حول كامبرى فى نوفمبر ، وذلك حينما أخفقت هجمة بريطانية مباغتة صادقة تشد أزرها الدبابات ، فى ترسيخ الجند أقدامهم فى الأراضى التى كانوا قد غنموها أثناء زحفهم السريع العجيب فى أول الهجوم ، وذلك لنقص احتياطى الحلفاء فى الرجال .

هزيمة كابورتو وأسبابها

وقد أكمِلت قائمة هزائم الحلفاء فى ذلك العام المضطرب بهزيمة كاپورتو (٢٤ أكتوبر) حينما اضطر الجيش الإيطالى الذى أعد لانتزاع تريستا من أيدى النمساويين إلى التراجع إلى نهر البياڤ ، فى فوضى لا مثيل لها ، متحملا خسائر هائلة . وكانت الهزيمة شنيعة ، داعية إلى الخوف والهلع ، لأنها كشفت عن المدى الكبير الذى بلغه فقدان الروح المعنوية ، والضجر من مواصلة القتال فى نفوس مقاتلين هم بالفطرة جسورون بواسل .

والحق أن القيادة العليا الإيطالية لم تحفل إلا قليلا باتخاذ الإجراءات والتدابير الكفيلة بالمحافظة على روح الجيش المعنوية وشجاعة الجند أثناء التجارب القاسية المروعة التى يُبتلون بها خلال الحروب الحديثة . فقد كانت وزارة الحرب الإيطالية غير منظمة ، والمدافع ناقصة عدداً وقوة . ولم تُعنَ بتوفير وسائل التسلية والتعليم التى بذلت الممالك الأخرى جهداً كبيراً فى إعدادها لجنودها المقاتلين وسخاء حاتمياً لإدخال البهجة والسرور إلى قلوبهم . فإن الجندى الإيطالى عند عودته من ميادين القتال فى فترات الإجازة النادرة ، كان يجد أسرته تتضور جوعاً ، فى محاولتها العيش على المرتب الزهيد الذى خصصته لها خزانة الدولة ، والذى لم يكن كافياً بالمرة لحاجياتها . فليس عجيباً إذن فى ظروف كهذه أن يفتر تصميمه على القتال حتى بلوغ النصر ، وأن يصيخ السمع إلى نصائح الكهَّان إذا كان متديناً ، وإلى أشياع السقيبت إذا

كان اشتراكياً . فإنهم وإن تضاربوا غاية ، اتفقوا فى أن يُسِروا إليه بأن الحرب ينبغى أن توقف .

ولا مراء فى أن عودة الروح المعنوية الحربية إلى الجبهة الإيطالية ، وتوطد الثقة فى النصر بعد اندحار عظيم كهذا ، يرجع الفضل فيهما إلى براعة الجنرال كادورنا Cadorna القائد العام للجيوش الإيطالية ، وإلى قدرة الإيطاليين على الصمود للخطوب . فقد ثبت الجيش الإيطالى أمام العدو على ضفاف البياف ، وبذلك أنقذ البندقية . ومع ذلك فإنه حينما حل الشتاء كانت الناس لا تزال غير واثقة فيما إذا كان الجيش الإيطالى تحت قيادة قائده الجديد : دياز Diaz ، وبعد أن دُعمت قواه بفرق فرنسية وإنجليزية ، يستطيع أن يفلح فى صد هجوم العدو إذا ما تجدد .

انتصار البريطانيين فى الشرق

وبينما كانت هذه النكبات الحربية تنزل بصفوف الحلفاء فى الجبهات الروسية والفرنسية والإيطالية ، كان الجيش البريطانى يقوم بحركة اكتساحية واسعة النطاق ضد الترك فى الشرق ، كانت نتيجتها انتزاعه من أيديهم الحاضرتين الشهيرتين : بغداد وبيت المقدس . فحُلّ العالم العربى بهذه الأعمال الباهرة من الأواصر التى ربطته دهراً طويلا بدولة الترك ، وعادت إلى البريطانيين مكانتهم الرفيعة فى الشرق

خطاب بلفور

وقد كُتِب لفتح فلسطين أن يؤدى إلى نتائج أبعد من ذلك ، وأن تُجنى ثماره قبل أن تضع الحرب أوزارها . فقد أعلنت بريطانيا عزمها على إنشاء وطن قومى لليهود فيها[1] فى خطاب أرسله المستر بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ إلى اللورد روتشيلد Rotschild ، وبذلك ضمت إلى جانبها جماعات اليهود القوية العالمية التى تبسط سيطرتها على أسواق المال لا فى نيويورك فقط ، بل فى نواح عديدة أخرى من أنحاء العالم ، وحملتها على مناصرة قضية الحلفاء .

---

(١) كان أيضاً من بين دوافع الوزارة البريطانية لإصدار تصريح بلفور عدم وقوع فلسطين تحت سيطرة دولة أخرى ، وحتى لا تتكبد بريطانيا أية نفقات فى إدارتها .

٤ – الحرب خلال عام ١٩١٨

إفلات النصر من يد ألمانيا

ومضى الآن (سنة ١٩١٨) زمن طويل على الوقت الذى كان فيه الألمان يحلمون فى غبطة وترقب ، بضم مساحات واسعة من الأراضى على حساب غرمائهم . ولكن انتصاراتهم الرائعة الفخمة ، ودعايتهم الداخلية المشجعة الخادعة ، لم تكن لتحفزهم على التقدم بصلح تقبله دول الحلفاء . فقد كان من الشروط الأساسية لمجلس الوزراء البريطانى لعقد الصلح وجوب جلاء الألمان عن البلجيك ، وإعادة الألزاس واللورين إلى فرنسا ، ودفع غرامات أو تعويضات حربية للحلفاء .

العسكريون يسيطرون على السياسة الألمانية

ولم تسمح القيادة العليا الألمانية ببحث مثل هذه الشروط . ولما أحسّت بأن بتمان هلفجَ المستشار الإمبراطورى ينزع إلى التساهل ، وُفّق لودندورف إلى إقالته من منصبه (يوليو سنة ١٩١٧) . وصار الأخير من هذا الحين، إلى انتهاء الحرب ، سيد ألمانيا الفعلى . ولم يكن هذا الحدث بأول ضرر يصيب الأمة الألمانية من تدخل كبار رجالها العسكريين . فإن القيادة الألمانية العليا هى التى بمطالبها دفعت إنجلترا وأمريكا إلى خوض غمار الحرب ، وهى التى وقفت عقبة فى سبيل الوصول إلى عقد سلم ملائم يبقى أسرتى هوهنتزولرن وهابسبرج متربعتين على عرشيهما . وكانت قيادة الأسطول الألمانى العليا تمقت بنوع خاص التخلى عن الثغور البلجيكية الملائمة لأغراضها ، بعد أن أيقنت أنه لا مفر من قيام حرب طاحنة ثانية مع إنجلترا .

لودندورف يقامر بهجوم أخير

وسحب لودندورف من الجبهة الروسية أربعين فرقة لمساعدته فى القيام بمقامرة أخيرة لكسب النصر فى الميدان الغربى . وكان محقاً فى ترقبه الفوز فى هذه المغامرة . وكانت خطته الحربية هى أن يضرب الجيشين الإنجليزى والفرنسى عند نقطة اتصالهما ضربة قاصمة تمزق شملهما ، وتمكنه من دحر كل منهما بعد ذلك على حدة . وكانت أساليبه التى جرّبها قبل ذلك بعناية عند مهاجمته ريغا فى سبتمبر سنة ١٩١٧ ، أساليب رائعة باهرة ، وهى أن

يقيم ستاراً هائلا من النيران لا مثيل له فى عنفه وشدته ، يمتد على جبهة طولها ثلاثة وأربعون ميلا ، بحيث يستطيع أن ينسف للجيش ممراً ضيقاً تنساب خلاله نخبة ممتازة من قاذفى القنابل وحملة المشاعل والمدفعيين الذين انتُقوا ودُرِّبوا خصيصاً لهذا العمل ، وأرسلوا إلى المقدمة على جناح السرعة فى سيارات النقل . ولم يكن يُنتظر أن حائلا أو عقبة يستطيعان أن يقفا فى سبيلهم . وكان نجاح هذه المغامرة يتطلب عدداً كبيراً من مدافع الخنادق القوية ، واحتياطياً ضخماً من الرجال والميرة . وكان لودندورف يملك هذه المعدات .

فشل آخر هجوم ألمانى عظيم

ووقعت الضربة الهائلة فى ١٠ مارس . ففى ذلك اليوم انهمر سيل عرمرم من القنابل قذفته فوهات أربعة آلاف مدفع (كان الوبل الأول فى معركة دامت أكثر من سبعة أشهر) – انهمر على الجيش البريطانى الخامس بقيادة الجنرال جَوْف Gough الذى كان قد أخذ من الفرنسيين قبيل الهجوم جانباً من خط قتالهم . فاكتسح المهاجمون الذين حالفهم الضباب وصلابة الأرض كل شىء أمامهم ، ما خلا جهة أراس Arras فى أقصى الميسرة البريطانية .

فحُطِّم الجيش البريطانى الخامس . وشرعت المدافع الألمانية تضرب خط السكة الحديدية جنوب أميان الذى بلغته بعد أيام قلائل من بدء الهجوم . وخيل كأن لودندورف على وشك أن يحقق وطره فى فصل الجيشين . ولكن القدر قسم بغير ذلك . فإنه يبدو أن الألمانيين فى تقدمهم السريع استنفدوا قوة اندفاعهم الأصلية ، فأمكن وقف زحفهم أمام أميان .

معارك يبرس وشيمان دى دام

ولم يواصل الألمان هجمتهم القاتلة . بل قرَّ رأيهم ، حسب ما يبدو ، على إبدال خطتهم الأصلية بخطة أخرى ، هى القيام بهجمات فى جهات أخرى من خطوط الحلفاء . فهاجموا البريطانيين أولا فى قطاع يبرس (٩ – ٢٩ إبريل) ، وردوهم اثنى عشر ميلا إلى الوراء ، ثم هزموا الفرنسيين (٢٧ مايو) هزيمة منكرة فى ساحة شيمان دى دام Chemin des Dames . غير أنه أمكن صد هذه الهجمات فى نهاية الأمر رغم عنفها وشدة فتكها . والنقَّاد الاستراتيجيون يشكُّون فى فائدة هذه الهجمات وحكمتها . فإنه ما جاء آخر

يونيو حتى ظهر فى خط القتال الألمانى ثلاثة نتوءات عظيمة ، يقدم كل منها للخصم النشط الذى لا يستنيم إلى السكون — يقدم هدفاً ملائماً للهجوم .

نتائج الهجوم الألمانى

وقد أصيب الألمان فى هذا الزحف الداهم بخسائر هائلة ، كتلك التى تصحب عادة الحركات الحرة للكتائب المرصوصة ، إذا ما وقعت تحت وابل غزير من القنابل المتساقطة عليها من الجو ، والنار المتركزة من بطاريات العدو .

وكانت هناك أيضاً نتيجة أخرى لهذا الهجوم ، لم يكن من اليسير على أحد أن يفطن إليها . فقد كان الجيش البريطانى أفضل الجيوش المحاربة غذاء ، على حين كان عدوه يعيش منذ زمن طويل على جرايات غير كافية للتغذية . ولهذا حينما اقتحم الألمان الخطوط البريطانية ألفوها زاخرة بالأغذية والمؤن من كل صنف ونوع . فدبَّ فجأة إلى قلوبهم شعور يأس وقنوط . ذلك أنهم أدركوا وقتئذ ، وللمرة الأولى منذ بدء الحرب ، أن حقائق الحرب قد أخفيت عنهم ، وأن العدو الذى مُثِّل لهم بأنه فى حالة العوز والمسغبة ، يرتع فى بحبوحة من التنعم ورغد العيش ، حُرِم الألمان منهما منذ دهر طويل . فتسرَّب فى سبل عديدة هذا الاستيقاظ إلى ختل دعايتهم من جبهة القتال إلى صفوف المدنيين الخلفية ، وعاون على إشعال لهيب الثورة الألمانية فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ .

هجوم الحلفاء الساحق

وشرع الحلفاء فى ١٨ يوليو فى شن سلسلة هجماتهم العظيمة التى أنهت لدهشتهم الحرب فى ١١ نوفمبر ، إذ كانت خططهم موضوعة على اعتبار أن القتال سيستغرق حولا آخر . وكان الجيش الألمانى قد دب فيه دبيب اليأس ، واستسلم للقنوط . فبدا كل شىء مبشراً للحلفاء بالظفر والفلاح . وعوَّضوا خسائرهم التى نزلت بهم بتدفق الجنود الأمريكيين الجدد الذين بلغ عدد من وصل منهم إلى فرنسا زهاء ستمائة ألف مقاتل . ومع أن مساهمة الجيش الأمريكى بقيادة الجنرال پرشنغ Pershing فى ساحة القتال تأخرت إلى سبتمبر ، فإن فرقاً أمريكية فردية اشتركت وقتئذ فى القتال جنباً إلى جنب مع الفرق الفرنسية والإنجليزية ، وأمكنها أن تبلو أحسن بلاء بنوع خاص فى ملحمة

نشبت بالقرب من شاتوتييرى Chateau-Thierry .

وغدا الحلفاء الآن متفوقين على خصومهم فى كل لون من ألوان العتاد والذخائر ، ما عدا مدافع الخنادق . وجهزوا جيوشهم بمئات من الدبابات الخفيفة السريعة الحركة ، فصارت لهم أداة لا ضريب لها لاختراق مواقع العدو الحصينة . أضف إلى ذلك أن الحلفاء أفلحوا فى علاج أسوأ خطأ ألحق بعملياتهم الحربية السابقة العثار والإخفاق . فإن نكبة الجيش البريطانى الخامس علَّمت الجمهور البريطانى أن يرضى بوضع القوات البريطانية التى تقاتل فى الميدان الغربى تحت إمرة قائد عام فرنسى .

تعيين فوش قائداً أعلى لقوات الحلفاء

وكان القائد الذى اختير لهذا المنصب الرفيع فوش ؛ وهو جندى مثقف ذو شخصية مسيطرة ، وبصر نافذ ، وقوة مندفعة لا ترد . وكان صديقاً خليصاً للجنرال ولسن رئيس هيئة أركان الحرب البريطانية . ولم يكن فوش القائد المفرد لقوات الحلفاء ، بل وقف إلى جانبه يشد أزره فيجان Weygand المتواضع النفس البعيد النظر ، بصفة رئيس هيئة أركان حربه . وكان فيجان حقاً مستودعاً حيًّا للحقائق والأرقام .

وقد برَّرت الحوادث هذا الانتقاء . فإنه من ١٨ يوليو ، وهو اليوم الذى قام فيه الجنرال منجان Mangin بهجوم مباغت على النتوء الجنوبى الألمانى بثلاثمائة دبابة خفيفة ، وأخذ فيه ثلاثين ألف أسير ، إلى آخر يوم من أيام النضال فى نوفمبر ، لم يرتب أحد لحظة واحدة فى أن الكفة الراجحة قد غدت نهائياً فى جانب الحلفاء .

ولكن إذا كان ثمة يوم من أيام ذلك العراك العنيف المتواصل الطويل الأمد قميناً بأن يتميز عن غيره ، فهو ذلك اليوم الذى دعاه لودندورف « اليوم الأسود » للجيش الألمانى : وهو يوم ٨ أغسطس الذى شن فيه هايج هجمته الفجائية بالقرب من أميان . وهو يوم أسود مشئوم على الألمان ، لا لأنه وقع فى قبضة أعدائهم عشرون ألف أسير من مقاتليهم فحسب ، بل لأنهم طُرِدوا ، رغم قواتهم الكافية ، من مواقع كانوا يعدونها ثابتة مأمونة .

انهيار الروح المعنوية فى الجيش الألمانى

فخلاص رأى لودندورف من هذه القرينة إلى أن انحطاط الروح المعنوية قد أخذ يسرى ويشتد بين جنوده . كما انتهى رأى هايج إلى أن فى إمكانه إحراز الفوز النهائى بهجوم مركّز عنيف على طول الجبهة برمتها . وقد صحّ رأيه حينما هجم الجيش البريطانى فى ٢٩ سبتمبر على خط سيجفريد ، فانهارت روح المقاومة الألمانية ، وتحطمت تحطيماً .

وفى اليوم التالى طلب لودندورف من حكومته أن تسعى إلى عقد الصلح . فكأن رئيس أركان الحرب العامة الألمانية رأى قبل اندلاع الثورة فى بلاده بشهر كامل عدم جدوى مواصلة القتال .

طلب بلغاريا وتركيا والنمسا الصلح

وتلا ذلك النصر البريطانى انتصارات عجيبة أخرى للحلفاء ، أخذ بعضها برقاب بعض فى الأسابيع القليلة التالية ، ووضعت نهاية للمقاومة الطويلة الباسلة التى أبدتها دولتا وسط أوربا . فطلبت بلغاريا ثم تلتها تركيا ، وجاءت بعدهما النمسا تطلب الصلح من أعدائها ، بعد أن حلت بجيوشها الهزيمة والإعياء . ولكن ألمانيا ظلت تكافح وتقاتل خلال أيام الخريف الغبراء ، وجيوشها تحارب فى أرض العدو حرب تأخير فى صلابة وعناد .

الثورة فى ألمانيا وتنازل القيصر

غير أن الشعب الألمانى كان قد أضناه الجوع ، وأسقمه الشقاء ، وأناخ عليه القنوط ، فأخذ يرفع عقيرته بالمطالبة بالصلح ، وبالصلح على التو . وإذ رأى أن الرئيس ولسن الذى تطلعت أوربا إليه فى تلك اللحظة كالحَكَم الفيصل المقرر لمصايرها ، يُظهر تردداً فى التفاوض حتى مع حكومة برلمانية ألمانية ، طالما كان القيصر باقياً على أريكة العرش ، رضى كل الرضا بإنزاله عنه . ذلك أنه حينما صدر أمر للأسطول الألمانى بالخروج من ملاذه بكيل إلى البحر لمقاتلة أساطيل الأعداء ، حدث تمرد بين صفوف بحارته ، فكان ذلك الحادث مبدأ للثورة ، وأكرِه القيصر وولى العهد على أن يلوذا بالفرار إلى هولندة (فى ٩ نوفمبر) . ونودى بالجمهورية فى اليوم نفسه فى برلين .

الاشتراكيون الألمان يتسلمون مقاليد الأمور

وفى الحق أن الاشتراكيين الألمان لشجعان بواسل ، إذ قبلوا أن يتحملوا تبعة إدارة شئون بلادهم فى أحلك أيامها وأحرج ساعاتها . ولا مراء فى أن

هؤلاء الرجال الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الوسطى والذين تربعوا الآن مكان أعظم ملكيات أوربا وأشدها تفاخراً ، كانوا ممن أوتوا قسطاً كبيراً من الإقدام والوطنية .

ولكن كان من سوء الطالع الكبير لقضية الديمقراطية فى ألمانيا أن أول عمل للحكومة الجديدة — وهو عمل لم يكن لها مفر من القيام به — هو أن تقبل إبرام هدنة أكره الألمان بمقتضاها على الجلاء عن الأراضى التى فتحوها ، وتسليم طياراتهم ، ومدافعهم ، وعتادهم ، وعربات سكك حديدهم ، والشطر الأكبر من أسطولهم. وقد نُدِّد فيما بعد بالأحزاب الديمقراطية الألمانية لأنها وافقت على كل هذا . غير أنه فى اللحظة التى انقطع فيها قصف المدافع فى الساعة الحادية عشرة من صباح ١١ نوفمبر ، لم يكن هناك سوى شعور واحد وإحساس واحد يغمر جميع أرجاء أوربا ، وهو شعور الشكر العظيم ، وإحساس الاغتباط البالغ ، بأن كابوس الحرب المخيف الهائل الذى جثم دهراً طويلا فوق الصدور قد انزاح وانقشع .

٥ — نتائج الحرب العظمى

التغيرات التى طرأت على أوربا

وأخيراً غنمت الحرب الدول الديمقراطية الغربية ، واختفت الامبراطوريات الحربية الثلاث فى شرق أوربا ووسطها . وصارت مقاليد الأمور الآن فى أوربا فى أيدى الزعماء الذين تعلموا مبادئهم فى ساحات البرلمانات ، وتهذبوا بقواعد الحياة البرلمانية وأصولها ، حتى وإن لم تنل المجادلات والمداولات البرلمانية إلا نصيباً ضئيلا من الاكتراث خلال ضغط أحداث الحرب . ففى إنجلترا كان هناك أسكوث ولويد جورج وتشرشل وبلفور وبونارلو ، وفى فرنسا برز بوانكاريه وپنليڤيه وبريان وكليمنصو .

وتبلجت الحقيقة ، المرة تلو المرة ، بأن الحرب أمر غاية فى خطورة الشأن ، فلا ينبغى أن تُترك شؤونها لرجال الحرب وحدهم ، كما عبر عن ذلك بريان فى هذه العبارة الطريفة البارعة . ولا ريب أن جانباً ليس بالقليل

من سقطة ألمانيا يجب أن يُعزَى إلى الحقيقة بأنها سمحت لرجال الحرب بأن يشغلوا مكاناً أعظم مما يتفق مع مصلحتها وحياتها القومية .

اختفاء الحرية الشخصية ونشر الدعاية زمن الحرب

واختفت الحرية الشخصية اختفاء وقتياً ، واقترن اختفاؤها بازدياد عظيم جداً فى سيطرة الحكومات على شؤون الأمة . وكان لهذا الاختفاء شرّان حتميان ، تحملهما الناس فى رضا وقبول . فإن الشعب الإنجليزى ، رغم أنه أقل صبراً على الأساليب التحكمية من الشعوب الأخرى ، استميل إلى الموافقة على التجنيد الإجبارى ، وعلى جرايات الأغذية ، وعلى تحديد بيع الخمور تحديداً كان يُظَن فى أزمنة السلم أنه لا يقبله . وعُدَّت ضرورة لازمة من ضرورات الحرب لتأمين التماسك القومى ، وتوفير التضافر الشعبى ، أن تنشر الحكومات فى كل قطر من الأقطار المتحاربة دعاية محكمة التنظيم تصور العدوّ فى أرذل الصور وأقبحها ، وتجعله موضع الازدراء والمقت . فأضيف بذلك إلى قسوة الحرب ، شرورُ التعصب والإفك والبهتان التى أعانتها الدول بالمال . ولا يستطيع بلد من البلدان المحاربة أن يدّعى براءته من ارتكاب هذه الأوزار .

وبازدياد القلق والحيرة فى النفوس ، برز فى الصف الأول من صفوف الحكام بعض من الزعماء ذوى الطباع العنيفة والإرادة النافذة المسيطرة قبضوا على مقاليد الأمور فى دولهم . فبرز لويد جورج فى إنجلترا ، وكليمنصو فى فرنسا ، ولودندورف فى ألمانيا ، ولنين فى روسيا .

وزارة الحرب البريطانية

وما الانقلاب الوزارى الذى حدث فى إنجلترا فى شتاء سنة ١٩١٦ ، إلا سمة من سمات التركيز المتزايد للسلطان فى الدولة : هذا التركيز الذى حتّمته الظروف الصارمة للحرب . فحلّ محل الوزارة البريطانية الائتلافية برياسة أسكوث ، وزارة ائتلافية أخرى برياسة لويد جورج . وتألفت لجنة صغيرة من أبرز الوزراء برياسة رئيس الوزراء المتفجر حيوية ونشاطاً ، أخذت تسير دفة الحرب . وكان أعضاء هذه اللجنة على جانب كبير من المقدرة والكفاية ، وإن اختلفوا فى الرأى اختلافاً كبيراً . وقد وصفها المستر ونستن تشرشل أحد

أعضائها بقوله : « كانت كل مسألة حربية تُعرض عليها . وكان أعضاؤها يصلون إلى قراراتهم النهائية بنفس الفطنة وروح التسوية والنقاش المضنى التى يصل بها مجلس العموم إلى ما يتخذ زمن السلم من قرارات ، وذلك حينما يُعرض عليه مشروع قانون يشتد بشأنه الخلاف بين أعضائه» .

هذه هى وزارة الحرب التى رأسها المستر لويد چورج ، والتى قدم لها بعض ساسة المستعمرات المستقلة البارزين معونات وقتية ، والتى حكمت إنجلترا والإمبراطورية خلال العامين الأخيرين من الحرب .

شيوع روح المساواة

وقد يخيل للبعض أن الحرب ، التى هى بطبيعة أمرها معادية للحرية والعدالة ، كانت تميل إلى وقف تقدم الديمقراطية فى البلاد المحاربة . غير أنه يجب ألا يعزب عن البال أن ساحات الحروب أكبر عوامل التسوية بين الناس . فمع أن روح المساواة فى إنجلترا أقل ارتقاء منها فى فرنسا وإيطاليا — وذلك لأسباب عديدة ، أحدها عدم وجود نظام للتجنيد الإجبارى بها — إلا أنه توارى إبانها شعور الفوارق الطبقية أزاء الأخطار الوبيلة التى جابهها عامة الناس فى رضى واختيار للصالح العام . وأحس مالك الأرض القابع فى منزله باتضاع فى حضرة بستانيه جريح الحرب ، وأحس حمّال محطة السكة الحديدية الذى خاطر بحياته فى رحى الهيجاء ، بفخر واعتزاز لم يستطع المموّل الآمن على حياته وهو بعيد عن مواطن الخطر ، أن يشاطره إياهما .

مشروعات إصلاح عديدة

وأعلن الزعماء والساسة البريطانيون أنه يجب ألا تُحرم جموع العامة التى رضيت مختارة بأن تبذل كل ما ملكت يداها فى سبيل سلامة الوطن والذود عنه — يجب ألا تُحرم بعد الآن من شىء ، مهما غلا ثمنه . وأقرت الوزارة ، رغم كثرة مشاغلها الحربية ، مشروعات قوانين تقضى بتوسيع دائرة التعليم ، ومنح النساء حق الانتخاب ، ووجهت التفاتها إلى إعداد « منازل صالحة لسكنى الأبطال » . وكانت حالة العامة من الناس وظروف معيشتهم ماثلة على الدوام فى أذهان الوزراء — بعكس ما كانت عليه الحال خلال حروب نابليون .

التفاف المستعمرات حول بريطانيا

وسرعان ما أعلنت الحرب ، حتى التفت على الفور المستعمرات المستقلة ، ومستعمرات التاج البريطانية ، فى إجماع عجيب حول المملكة الأم . صحيح أن فورات من التمرد انفجرت فى جنوب إفريقية وإرلندا ، ولكنها قُمعت فى وجيز وقت . ومع أن هذه الفتن دلت على وجود عناصر متمردة فى ذينك البلدين ، إلا أن هذه العناصر لم تكن من القوة بحيث تستطيع التغلب على روح الأخوة التى برزت فيهما ، ودعت أبناءهما إلى حمل السلاح جنباً إلى جنب مع الشعب البريطانى . ووقفت الهند : أقيالها وشعوبها ، تناصر الإمبراطورية ، وتساهم فى جهودها الحربية : فى فرنسا ، وفى غليبولى ، وفى العراق . وكانت خسائر نيوزيلندة فى الأرواح أعظم نسبياً من الخسارة الفادحة التى أصابت البلجيك . ونهض الجنرال بوثا رئيس وزراء جنوب إفريقية بفتح مستعمرة إفريقية الغربية الألمانية ، والجنرال سمطس بانتزاع مستعمرة إفريقية الشرقية الألمانية ، وقامت حملة أعدتها أستراليا بالاستيلاء على غينيا الجديدة ، وارتضى الكنديون الفرنسيون أن ينخرطوا فى صفوف القتال لإنقاذ فرنسا ، مع أنهم ربما كانوا يظهرون عداء وتمرداً لو أنهم دُعوا إلى النضال فى سبيل أية قضية أخرى .

إضعاف أواصر الاتحاد بين شعوب الإمبراطورية البريطانية

ومع ذلك فإن نتائج هذا الحماس الواسع النطاق لم تكن بالضبط تلك التى تكهن بها الأكثرون . فإن الحرب بدلا من أن تقود أجزاء الإمبراطورية المختلفة إلى اتحاد أوثق ، ساعدت على إضعاف الأواصر الدستورية التى كانت توحد قبلا هذه الجماعة العظيمة من الأمم بعضها ببعض .

فقد كان الناس قبل الحرب يتحدثون عن إنشاء برلمان إمبراطورى تعاهدى يكون مقره فى لندن ، وتمثل فيه أقطار الإمبراطورية المختلفة . ولكن الأيام أبانت بجلاء أن هذا الحل للعلاقات الإمبراطورية لا تقبله تلك الأقطار ، ولهذا لم يُطرح قط على بساط البحث . فى بعض المستعمرات المستقلة برز شعور من الزهو والفخار القومى نتيجة تضحياتها وانتصاراتها الحربية . وفى البعض الآخر ظهر شعور قومى يعززه لون من ألوان عداء الإرلنديين والبوير

لفكرة الإمبراطورية . وقد منعت هذه الأحاسيس المستعمرات من أن تقبل الظهور بأى شكل من الأشكال فى مظهر الخضوع للحكومة البريطانية .

ولا مراء فى أن المستعمرات المستقلة غنمت من ظهورها بمظهر الأمم المستقلة . فقد وقّعت بهذه الصفة على معاهدات الصلح ، ودخلت عصبة الأمم ، وطالبت بأن تكون على قدم المساواة مع بريطانيا فى خضوعها لسيادة التاج المشتركة . وتقدمت بالحجة القائلة بأنه ينبغى أن يعمل الحكام العامون لمستعمرات الدومنيون بمشورة الوزارات القائمة ، كما هو شأن ملك بريطانيا مع الوزارات البريطانية . وقبلت الحكومة البريطانية هذا الطلب . ووضع قانون وستمنستر سنة ١٩٣١ قالبا جديداً للعلاقات السياسية بين جماعة الأمم البريطانية ، يتفق مع الأمانى الجديدة للمستعمرات . واضطر الناس إلى التسليم بأن الحرب ، وإن قدّمت للعالم أكبر دليل وأعجب مثال للتماسك الإمبراطورى ، فإنها عاونت فى الوقت ذاته على انحلال الإمبراطورية إلى مجتمعات حرة من الدول المتساوية[١]، هذا باستثناء الهند ومستعمرات التاج .

٦ ـ الحرب الكلية

وكانت الحرب العظمى حرب إبادة وإفناء إلى مدى لم يُشهد له مثيل قط من قبل . فقد اشتركت الشعوب برمتها فى النضال ، وعُدّ جميع أفرادها أهدافاً مشروعة للفتك والتقتيل . ومع أن الحرب الجوية كانت فى مهد طفولتها ، إلا أنها تقدمت قبيل عقد الهدنة إلى درجة أنها خلقت مباراة كريهة بين الدول المتحاربة فى ضرب المدن بالقنابل والفتك بالمدنيين . فقنابل الطائرات تتساقط على أى مكان ، فقد تقع على أطفال صغار ، وهم جالسون على

(١) حدد المؤتمر الإمبراطورى الذى عقد سنة ١٩٣٦ مركز مستعمرات الدومنيون بأنه معادل فى المقام لمركز بريطانيا ، وهذه المستعمرات غير خاضعة بأى شكل من الأشكال إحداها لأخرى فى أية ناحية من نواحى شؤونها الداخلية أو الخارجية ، ولو أنها تتحد معاً برباط الولاء المشترك للتاج ، وترتبط معاً فى حرية كاملة بصفتها أعضاء فى جماعة الأمم البريطانية .

مقاعدهم يتلقون دروسهم ، وقد تقع على المتعبدين ، وهم يركعون سجداً فى الكنائس والبيع ، بل قد تسقط على الممرضات ، بينما يقمن بالعناية بالمرضى .

ولم تحفل الدول أيضاً إلا قليلا بحقوق المحاربين . فإن غزو ألمانيا للبلجيك ، وحرب الغواصات المطلقة ، واستخدام الغازات الخانقة ، كانت جميعها أعمال قسوة وجرائم وحشية خارجة عن قواعد القانون الدولى ، اتهم الحلفاء ألمانيا بالإقدام على ارتكابها . ولكن من الجهة الأخرى فإن تعرض الأسطول البريطانى لتجارة المحايدين فى عرض البحار ، واستيلاء الحلفاء على جزيرة كورفو لجعلها مصحة لجنودهم ، وفرض الأسطول الفرنسى الحصار على اليونان بحجة أنه يُخشى انضمام ملكها قسطنطين إلى العدو ، كانت أيضاً فى درجات متفاوتة، أعمالا ليس فى وسع قانونى منصف أن يجد لها مبرراً مشروعاً يجيزها .

وتجلى بأوضح بيان قلة اكتراث الأمم المحاربة بقواعد النصفة والرحمة التى احتواها القانون الدولى فى مثال الولايات المتحدة الذى أشرنا إليه آنفاً . فإنها قبل دخولها الحرب أعلنت باطراد وبملء صوتها ، أنه ليس ثمت مملكة أشد منها تمسكاً بمبدأ حرية البحار وولاء له . ولكنها سرعان ما أشهرت الحرب ، وبدأت عملياتها الحربية ، حتى تغير موقفها تغيراً كلياً . فحصار ألمانيا البحرى الذى كان فى نظرها قبل دخولها الحرب بأسبوع جريمة دولية، غدا عند إشهارها الحرب عملا أمريكياً ممتازاً وفضيلة سامية . وضربت بحرية البحار عرض الحائط . ووجه الأسطول الأمريكى الجم النشاط عنايته كلها إلى حصار العدو حصاراً كاملا لم تجرؤ الأميرالية البريطانية على احتذاء جذوه .

آلام البشرية وأرزاؤها

وليس فى مقدور الكلمات أن ترسم آلام الأمم الأوربية وشقوتها وأرزاءها خلال ذلك الصراع الدامى الطويل الأمد . فقد ذهبت الحرب بعقول البعض ، وبأبصار آخرين ، وزُهِقت أرواح البعض اختناقاً بالغازات

السامة ، ومزقت الانفجارات أجسام بعض آخر ، وشوهت أعضاءهم . وخرج الكثيرون من ساحات الوغى وقد تحطمت أعصابهم تحطيما مستديماً .

ولكن أعجب ما فى الطبيعة البشرية ، وأدعاها إلى الإعجاب والتقدير ، هو أن رد الفعل الذى نجم من الفزع والارتباك اللذين كادا يكونان عامين فى جميع الدول ، لم يكن الاستسلام للخوف والهلع من ويلات الحرب ، بل كان تصميما قاطعاً على مواصلتها إلى النهاية المحتومة ، رغم استنكار الناس وسخطهم . فكان كل هجوم جوى على انجلترا يدفع قومها إلى الإقبال على التطوع فى الجيش . وكان كل أسبوع تكثر فيه الخسائر فى جبهة القتال يضاعف من مجهودات عمال الذخيرة ، وكل قسوة يرتكبها الألمان فى البلجيك تجعل انتصارهم النهائى أبعد احتمالا . وعلمت الحرب عبرة يجمل بالأجيال القادمة أن توليها التفاتاً : وهى إفلاس العنف والإرهاب كسياسة لخضد إرادة دول أوربا الممدنة وقمع شعورها . فإن أهل دنكرك رغم مهاجمة مدينتهم من الجو مهاجمة كادت تكون مستديمة ، كانوا ينهضون بجميع أعمالهم العادية تقريباً كما ألفوها زمن السلم .

الالتجاء لضروب الدعاية

ولم يكن مستطاعاً مواصلة حرب طويلة قاسية كهذه الحرب فى أقطار كانت على جانب كبير نسبى من الحضارة ، إلا بالقيام بمجهود هائل من الدعاية المتلاحقة المؤثرة فى نفسية عامة الشعب . فكانت إثارة الهمم للتطوع تُذْكَى بخطب الحرب ، وكانت هذه الخطب طافحة بالأساطير والخرافات . وحتى إنجلترا ارتكبت ضروباً من الإرهاق والجور ضد رعايا الأعداء القاطنين بها . فقد اعتقلوا ، وصودرت أملاكهم ، وفى مراحل الحرب الأخيرة رُحِّلوا إلى ألمانيا .

وصار توزيع النشرات من الجو فى أطوار الحرب الختامية بغية إضعاف الروح المعنوية فى جيش العدو مظهراً من مظاهر الحرب ، ذا أهمية متزايدة .

فقد جهد الألمان فى بثّ العصيان فى نفوس الجند الروس . وقادت الدعاية الإنجليزية عدداً كبيراً من الألمان إلى التشكك فى عدالة قضية بلادهم ، والارتياب فى صدق زعمائهم . وعُجِّل انحلال جيش الإمبراطورية النمساوية السيء التنظيم والانسجام ، بنداءات بارعة أعِدّت فى لندن ، ووُزعت بالطيارات على أجناس الإمبراطورية التى كانت تتذمر منذ دهر طويل تحت الحكم النمساوى .

٧ — إنشاء تشكوسلوفاكيا

ولعلّ أعجب تذكار قائم لنجاح الدعاية زمن الحرب ، هو ظهور جمهورية تشكوسلوفاكيا من بين حطام الإمبراطورية النمساوية . فإن معظم الدول نشأت نتيجة لانتصار السيف ، أو نمت عن طريق الاستعمار . أما تشكوسلوفاكيا فهى وليدة الدعاية . والحق أن قصة الأحداث التى خلقت هذه الدولة خلقاً : كيف أثار مازاريك Masaryk ، وهو ابن حوذى سلوفاكى ، وبنيش Benès ، وهو ابن فلاح أجير — كيف أثار هذان الزعيمان هياجاً ، وأجّجا ناراً لتحرير مواطنيهما التشك والسلوفاك ، وكيف كُلِّلَت جهودهما بالنجاح إلى مدى كبير ، بفرار مواطنيهما أفواجاً من الجيش النمساوى ، وتطوع بعض من أعلام الإنجليز والفرنسيين لخدمة قضيتهم ، والحماس البالغ الذى استُقبل به مازاريك المنادى بتحرير التشك فى شيكاغو (وهى تلى براغ فى عدد التشك من سكانها) ، والعطف الكبير الذى أظهره الرئيس ولسن لقضية استقلال التشك ، وكيف ألف ٤٥ ألف تشكى من أسرى الحرب فى روسيا من أنفسهم جيشاً ، زحف سيراً على الأقدام عبر سيبيريا ، ثم نُقلوا منها عن طريق المحيط الهادى والولايات المتحدة إلى بلادهم الأصلية : إن قصة هذه الأحداث تؤلف حقّاً فصلا من أعجب

فصول التاريخ الحديث . ولهذا ليس عجباً أن تُدعى محطة براغ الرئيسية ، لا باسم قائد تشكي ، أو انتصار حربى تشكى ، بل باسم رئيس الجمهورية الأمريكية ، الذى إذ أعجب إعجاباً عظيما بالدعاية البارعة التى قام بها هذان المنفيان العبقريان ، أعلن أن إنشاء جمهورية تشكوسلوفاكية هو أحد الأهداف التى يرمى الحلفاء إلى تحقيقها عقب إغماد السيوف .

الفصل الرابع والثلاثون

معاهدات الصلح

تراث الحرب . الظروف التى صيغت فيها معاهدات الصلح . الرئيس ولسن . نفوذه العظيم . مبدأ تقرير المصير . عهد عصبة الأمم . جورج كليمنصو . دافد لويد جورج . مسألة التعويضات والانتخابات الانجليزية عام ١٩١٨ . وجهة النظر الإيطالية . عيوب معاهدة فرساى . تقطيع أوصال إمبراطورية النمسا والمجر . انتصار مبدأ ولسن الخاص بتقرير المصير . انسحاب أمريكا . تحالف فرنسا مع « الاتفاق الصغير » . تنظيم عصبة الأمم . الأفكار التى تضمنها عهد العصبة . بقاء المنافسات الدولية . سحب الحرب عام ١٩٣٥

١ – تراث الحرب

حال أوربا عقب الهدنة

كانت حال أوربا عقب الهدنة ، حالا لا مثيل لها فى الشقاء والاضطراب. فقد تقطعت أوصال إمبراطوريتى أوربا الوسطى المنهزمتين . وكان على الجمهوريات الجديدة التى خلقتها معاهدات الصلح أن تعمل على تأمين نفسها ، وتكسب الثقة والهيبة الضروريتين لها فى حياتها الجديدة . فقد كانت جميع تلك الحكومات التى قامت فى وسط أوربا وشرقها فى أقل درجات الخبرة والكفاية . وكان ولاء رعاياها لها متضارباً غير مأمون ، وحدودها متأرجحة غير مستقرة . وكان الإعياء الذى حل بها هو الحليف الأخير الذى ناصر النظام الاجتماعى القائم ومنع انهياره .

وقد كانت هذه الأحوال جلية بشكل خاص فى روسيا والبلدان المهزومة ،

كوارث الحرب والأوبئة

فَفُرِضَ واجب باهظ على رجال السياسة ومحبي الخير ، قصرت دونه وسائل العلاج التي كان في مقدور الجنس البشري أن يقدمها وقتئذ . فإن ثمانية ملايين من الشبان ، هم زهرة جيلهم وخيرة أممهم ، هلكوا في ساحات الوغى ، وعدداً أكبر من هذا أصبحوا عاجزين . وكان الخسائر في الأنفس بسبب فتك الجوع وسوء التغذية والأمراض(١) تعدل هذه الأرقام ، إن لم تزد عليها . ولقد كان حصد هذه الأوباء للأرواح مريعاً ، بخاصة في روسيا ، حيث زادت خطوب الثورات والحروب المستمرة من ويلات الكولرا والتيفوس ونقص الأطعمة .

وكانت هذه الكوارث عظيمة مروعة أيضاً في جميع أرجاء أوربا الوسطى والشرقية : في بولندا التي أثخنتها جروح الحرب حتى اضطر الفلاحون إلى اقتيات الحشائش وجذوع الأشجار ، وفي ألمانيا حيث كان عدد المواليد عام ١٩١٨ أقل من عدد الوفيات ، وذلك لسوء التغذية ونقص الأطعمة ، وفي النمسا حيث كشر شبح المجاعة بأنيابه في وجه جميع أسر الفقراء والعمال نتيجة تعطل المصانع لعدم وجود فحم ومواد خام بها ، وفي سيبيريا حيث كان نصف سكانها قد هلكوا زمن الحرب ، و ٣٥٪ منهم كانوا مصابين بمرض السل الوبيل .

القنوط والتعاسة

وإنه لمن العسير حقاً أن نرسم صورة للقنوط والتعاسة اللذين أنجبتهما هذه الأحوال الفظيعة ، أو أن نقدر العواقب السيئة للحرب على سكان أوربا — تلك العواقب التي نجمت عن سنين أربع طوال من الإنهاك والنصب وسوء التغذية . وكان تدمير رؤوس الأموال الثابتة بالمقذوفات المتفجرة خلال الحرب تافهاً هيناً ، إذا قيس بهذه الويلات — إلا في الحالات التي ازداد فيها العوز والمرض بسبب هذا التخريب .

ولم تكن هذه الكوارث مقصورة على الدول المهزومة دون غيرها . فقد

(١) قدر المجموع الكلي للوفيات التي نسبت أسبابها إلى الحرب بخمسة وعشرين مليوناً من الأنفس (Gilbert Murray : Then and Now)

عانى أيضاً الظافرون والمحايدون بعض محنها وويلاتها . فكانت خسائر فرنسا هائلة فى القتلى والجرحى ، وفى المزارع المخرَّبة، وفى المصانع والمناجم المدمرة . واشتدت الفاقة والعوز فى إيطاليا بسبب قلة الوقود . وفى الحق أن مغبة الحرب السيئة القاسية شُعِر بها فى جميع أرجاء المسكونة . ولكن شُعِر بها بدرجة خطيرة فى الأمصار الفقيرة التى أدى فيها ارتفاع أثمان الأطعمة ارتفاعاً زهيداً إلى فاقة الأهلين جميعاً وجوعهم ، وكان ذلك أيضاً حال الهند على أثر انتهاء الحرب ، حيث قضى انتشار وباء الانفلونزا على ستة ملايين من أهلها ، على حين أنه كان يصبح فى غير هذه الأحوال المروعة خفيف الويلات ، ضئيل الحصاد .

فأنتج عظم هذه الخطوب وفداحة هذه النكبات ، فى عقول جماهير الناس ، تعطشاً بالغاً إلى إقامة عالم ينظَّم على أنماط جديدة خير من النظم الماضية . وكما يحدث غالباً حينما تكون الرغائب قوية ، جالت فى الخواطر فكرة بأن فى الميسور بناء مجتمع فاضل . وقد تركزت آمال روسيا فى تشييده فى لنين ، وتطلعت أوربا لخلاصها من نكباتها ، ونشلها من وهدتها ، إلى الرئيس ولسن .

٢ ـ أقطاب الصلح

الحقائق الواقعة تقرر أحكام معاهدات الصلح

وُضعت معاهدات الصلح بإشراف ثلاثة من الزعماء السياسيين الديمقراطيين ، كان كل منهم يظفر بمكانة سامية وهيبة فذة فى بلاده ، وهم : ولسن وكليمنصو ولويد چورج . ومع أن كلا من هؤلاء الأقطاب الثلاثة أثر أثره الخاص فى هذه المعاهدات ، بحيث فى وسعنا أن نقول : هنا أثر ولسن ، وهنا لمسة لويد چورج ، وهنا إصبع كليمنصو ، فإن قوام تسوية الصلح وجوهرها أملتهما الحقائق الواقعة التى أكره هؤلاء الساسة على قبولها . فلو أن هؤلاء الأقطاب الثلاثة اغتيلوا فجأة لما استطاعت فئة أخرى من الساسة ، مهما استنارت ألبابهم ، أن تغير تلك الحقائق ، أو ألا تحفل بها .

قوة القومية الجديدة

وكانت الحقيقة الأولى الغالبة المسيطرة هى انهيار الحكومات القديمة لروسيا وألمانيا والنمسا والمجر ، نتيجة لصدمات الحرب وانكسار تلك الدول فيها ، ولأن البولنديين والتشكيين والرومانيين والصربيين أقاموا حكومات وطنية جديدة فى بلادهم . فحتى لو أن ساسة الحلفاء المجتمعين بباريس رغبوا فى التصدى لهذه الحركات القومية ووقف سريانها ، لما كان فى طاقتهم أن ينفذوا إرادتهم ، اللهم إلا بالقوة المسلحة . ولكن أين لهم هذه القوة ؟

لقد أوهنت الحرب قوى الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين ، وأحلت فى قلوبهم الضجر والكلال . ولم يكن هنالك سوى جيش جديد واحد ما زال محتفظاً بعنفوانه ، هو جيش الولايات المتحدة . ولكن هذا الجيش كان قد أدى مهمته . وما كانت حكومة الولايات المتحدة لتصادق لحظة واحدة على استخدام فرقة واحدة من جيشها فى حملة تشنها للوقوف فى وجه أمانى البولنديين والتشكيين القومية .

جيش أمريكا

غلبة روح التشفى

وكان الظرف الثانى الذى سيطر على صوغ معاهدات الصلح هو الروح التى سادت البلدان الأوربية المحاربة يومئذ — تلك البلدان التى أنقذها القدر فى اللحظة الأخيرة بعد أن أشرفت على الهلاك . فإن ساسة الحلفاء عدوا ألمانيا مسئولة عن إشهار الحرب . واستشهدوا بالحجة بأن الصربيين لم يكونوا هم الذين غزوا النمسا ، أو البلجيكيين هم الذين هاجموا ألمانيا ، بل العكس هو الصحيح . وقالوا إن الحكومة الألمانية هى التى أشهرت الحرب على روسيا وفرنسا والبلجيك . وامتلأوا حيرة وحنقاً ورغبة فى التشفى والتنكيل . وكانوا يصبون إلى تأمين بلادهم من أخطار الحرب ، وإلى معاقبة الجرائم التى ارتُكبت خلالها .

وليس فى مقدور سياسى يعيش فى بلد ديمقراطى ، أن يتغلب على رغائب بنى جلدته الواضحة القوية ، مهما بلغ هذا السياسى من استقلال الرأى ورفعة المنزلة . ولذا ما كان فى مقدور كليمنصو أن يمثل فرنسا ، ولا أرلندو إيطاليا ، لو أنهما لم يسعيا إلى إضعاف دول الأعداء ، وتحسين وسائل

وقاية بلديهما من صنوف الاعتداء . أما لويد جورج فقد أعطاه مجلس العموم توكيلا بأن يُلزِم العدو بدفع تعويضات عن أضرار الحرب . ولو أنه لم يحصل فعلا فى وثيقة الهدنة على حق حجز الأسطول الألمانى ، لكان الناخبون البريطانيون سألوه لماذا لم يفعل ذلك . ورغم أن كبير الوزراء البريطانيين كان من بين جميع ساسة أوربا السياسى الوحيد الذى كان فى مقدوره أن ينظر إلى الموقف بعين حرة متسامحة ، فقد أخذت عليه العهود الجلية قبل ذهابه إلى باريس بانتهاج سياسة من التشفى والانتقام .

(ثالثاً) كان من سوء الطالع أن مؤتمر الصلح عُقِد فى حاضرة ما زالت ترنح تحت ويلات الحرب ومآسى ضربها بالقنابل .فى هذا الجو الخانق الذى ساد باريس وقتئذ ، كافحت المثل العليا للتهدئة والمصالحة كفاحاً خاسراً غير متكافىء مع نوازع الشر ونزوات الانتقام . ولو أن مؤتمر الصلح عُقِد فى بلدة سويسرية يهُبُّ عليها النسيم العليل — كما اقترحت الحكومة البريطانية — لربما كان هذا المؤتمر قد وضع صلحاً منصفاً .

مؤتمر الصلح

ودُعى مؤتمر الصلح إلى الالتئام بباريس فى ١٨ يناير سنة ١٩١٩ . وكان جمعاً حافلا لا مثيل له فى التاريخ . فقد أزعجت الحرب كل امرىء فى كل مكان ، وعجّلت بظهور جميع ألوان الضغائن والكراهية ، وأنعشت كل مطلب ، وركّزت كل أمل ، وقوّت كل شهوة . فأمام هذه الشهوات والمطالب والآمال والضغائن ، ارتقب العالم من حفنة من الساسة الذين كانت الحرب قد أوهنت قواهم ، والذين كان كل منهم مسئولا أمام برلمان مدقق صارم فى وطنه ، والذين أقلق بالهم هذيان صحافة منحطة متسفلة — ارتقب العالم من هؤلاء الساسة أن يعالجوا الأمور بأسمى ما تصل إليه حكمتهم .

وقد وصف الدكتور دللّون Dr. Dillon ، وهو شاهد عيان ، باريس خلال فترة المؤتمر وصفاً رائعاً ، قال : « لم تغدُ باريسُ المؤتمر ، باريسَ قصبة فرنسا . بل أضحت محط رجال جمهرة عظيمة لجموع خليطة

كثيرة . وصارت تزخر بألوان غير مألوفة من الحياة والصخب والضجيج ، وتملأ جنباتها عينات عجيبة من شتى الأجناس والعشائر واللغات — جاءت تنتظر ما يأتي به الغد الغامض ، وترتقب مجرى الأمور القادمة .

« وكأن لمسة سحرية من لمسات ألف ليلة وليلة قد مسّت جبين مدينة النور ، فقدمت هذا المشهد الأخاذ العابر : مشهد مئات من الرجال الذين وفدوا من أقطار المعمورة الأربعة — من بلاد التتار وكردستان ، ومن كوريا وأذربيجان ، ومن أرمينيا وفارس والحجاز ، ورجال ذوى لحى مهيبة وأنوف محدودبة قدموا من صحارى سمرقند وبخارى وواحاتها . واختلطت العمائم والطرابيش ، بالقبعات والقلنسوات ، وامتزجت فى عشية الصلح الدائم المنشود البزات العسكرية التى ابتدعت من نماذج قديمة لجيوش دول لم ترَ النور بعد — امتزجت بالبرانس الرحبة ، والعباءات الفضفاضة والأردية الأنيقة . فعاونت كل هذه المظاهر على خلق محيط من الخيال الحالم فى هذه المدينة التى أضحت تُعرض فيها على بساط البحث أعقد المشكلات ، وتعالج أدق الحقائق الواقعة .

« ثم جاء رجال المال والثروة ، ورجال الذكاء والعبقرية ، ورجال الأعمال والمغامرات الصناعية ، وأنبياء النظام الخلقى الجديد ، وأعضاء الجمعيات الاقتصادية ، فى الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وبولندا وروسيا والهند واليابان ، وممثلو آبار النفط ومناجم الفحم فى الأقطار القصية . ووفد أيضاً إلى باريس الحجاج والأفاكون والمتعصبون الغلاة من كل حدب وصوب ، والكهان من جميع الأديان ، والمبشرون من كل مذهب . واختلط هؤلاء بالأمراء والمارشالات والساسة والفوضويين وأنصار البناء وأشياع الهدم . وكانوا جميعاً يتحرقون شوقاً إلى الدنو من البوتقة التى ستُصهر فيها نظم العالم السياسية والاجتماعية جمعاء ، وتصاغ من جديد » .

الرئيس وودرو ولسن

فى هذا المشهد الذى اختلط فيه الحابل بالنابل ، تألق نجم رئيس الجمهورية الأمريكية فى أوائل أيام المؤتمر بسناء لامع ونور فياض ، وكأنه مسيح نزل

على الأرض ليهدى البشر إلى طريق الخير والسلام . صحيح أنه مرت على ولسن فترة أثناء الحرب كان فيها مبغوضاً أشد البغض بين الدول المتحاربة . فقد أوصاها بأن تتجمل بالإنصاف « والعقل المحايد » ، كأن العالم صار خلوا من الخلافات الأدبية والمعنوية . وحضها على عقد « صلح من غير انتصار » ، كأن الحرب لا تترك فى النفوس الإحن والأحقاد . ولكن نُسى الآن كل هذا : أفلم يناصر الرئيس الحلفاء ويُدْخل أمريكا الحرب فى صفهم ؟

أهدافه

وكان ولسن قد حدد فى سلسلة من الخطب البليغة السامية المقاصد أهداف الحلفاء من الحرب ، وأبان فيها عن المؤسسات السياسية الجديدة التى رغب فى إنشائها بأوربا ، وأوضح أن العدو هو « روح العسكرية البروسية » ، وأن الهدف هو « جعل العالم مأموناً لقيام الديمقراطية » . ومنه تعلم الحلفاء أنهم يجاهدون ، لا لإرجاع الألزاس واللورين إلى فرنسا فحسب ، وإنما من أجل بعث دولة بولندية مجدّدة ذات اتصال بالبحر ، ومن أجل إقامة جمهورية جديدة فى تشكوسلوفاكيا .

روح العسكرية البروسية
العالم مأموناً لقيام الديمقراطية

وهو الذى حدد « النقط الأربع عشرة » ، وهو الذى تفاوض مع الحكومة الألمانية قبيل عقد الهدنة بخصوص التسالم ، وهو الذى أصرّ على وجوب قبولها شروط الهدنة الحربية . ولم تكن بلاده راغبة فى تملك أرض ، أو فرض غرامة حربية . بل إنه عُدّ حتى فى كثير من الأوساط الألمانية ، مبعوثاً حكيماً تزينه مناقب الإنصاف والحكمة والبعد عن الهوى ، ونبياً بعثه العالم الجديد ليطهر العالم القديم من أدرانه وأوضاره . ولكنه نبى هو سيد دولة قوية وحامل لوائها ، على حين كان غيره من الأنبياء « أصواتاً صارخة فى البرية » . ذلك أن الحلفاء كانوا يعتمدون فى مواردهم الغذائية والمالية على بلاده . وكان مليونان من الجند الأمريكيين الذين لم تضعف المعامع قناتهم يعسكرون فى أرض فرنسا ، على حين كان مليونان من زهرة شباب فرنسا وإنجلترا يرقدون تحت أطباق الثرى .

نقطة ضعف في مركزه

وكانت ثمت نقطة ضعف وحيدة فى مركز الرئيس ولسن وضح أمرها للأمريكيين ، ولكن أوربا لم تعرها يومئذ التفاتا ، وهى أنه لم يكن يمثل جميع مواطنيه . فقد كان ديمقراطياً ومثالياً ، على حين أن الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور فى الولايات المتحدة لم يكونوا لا هذا ولا ذاك . وكانت للحزب الجمهورى المعارض له الأغلبية فى مجلس الشيوخ ، الذى يهيمن فى النهاية على سياسة الولايات المتحدة الأجنبية . ولهذا فإنه حينما قرر الرئيس الذهاب إلى باريس ، كان من سداد الرأى لو أنه دعا إلى عونه بعضاً من أعضاء ذلك الحزب البارزين . ولكن الرئيس كان بطبعه أوتقراطيا . وكان فى الشئون الداخلية شديد التحزب . فقصد باريس من غير أن يصحب أحداً من الجمهوريين . فثار هؤلاء منه بأن أحبطوا جميع خططه ، وحملوا مجلس الشيوخ على عدم التصديق على معاهدات الصلح .

مبدأ تقرير المصير

وكانت هذه المعاهدات تحمل طابع مبادىء ولسن : فقد رُسِمت خريطة أوربا الجديدة طبقاً لمبدأ تقرير المصير (وهو اصطلاح مستعار من البلاشفة) الذى بشَّر الرئيس به العالم بأنه الباب الذى سيوصله خلال تيه من الآثام والشرور إلى العدالة والسلام . فأيد إقامة دولة جديدة من بولندا ، وإنشاء الممر البولندى ، وتأسيس دولة تشكوسلوفاكيا . ولعله كان بهذه الإجراءات راغباً فى تقويم أخطاء التاريخ . ولكن لعله أيضاً كان يرمى من وراء ذلك إلى ضمّ الناخبين الأمريكيين المنحدرين من سلالة بولندية وتشكية إلى صفه .

عهد عصبة الأمم

فليس للأمريكيين إذن أن يجأروا بالشكوى بأن المثل العليا الأمريكية قد أغفِلت فى المسائل الجوهرية لمعاهدات الصلح . فقد خُطّطت الحدود السياسية الجديدة وفق مبادىء ولسن ، ورُسمت بشكل جعل ٣٪ فقط من مجموع سكان قارة أوربا يعيشون خاضعين لحكم أجنبى . ولذا يمكن القول بأنه لم تُرْسَم قط من قبل حدود لدول أوربا خير من تلك التى رسمها مؤتمر صلح فرساى .

وكذلك وُضعت معاهدات الصلح من ناحية هامة أخرى وفق مبادىء ولسن . فلولا الرئيس الأمريكى ، لما صيغ عهد عصبة الأمم فى ذلك الحين ، ولما وُضع ذلك العهد فى صلب تلك المعاهدات . أما الفكرة ذاتها الخاصة بإنشاء عصبة أمم ، فلم يكن ولسن هو مبتكرها الأصيل ، بل هى فكرة أنجلو سكسونية غريبة لدى الشعوب اللاتينية ، نبتت ونمت فى غضون الحرب العظمى فى أذهان كثيرين من المحبين للسلام فى كلتا إنجلترا وأمريكا . وتقدم البعض بصوغ بعض الاقتراحات بشأنها ، وكان أهمها تلك التى صاغها اللورد فليمور والجنرال سمطس .

ولكن صياغة الاقتراحات شىء ، ووضعها موضع التنفيذ شىء آخر . فقد اقتبس ولسن اقتراحات فليمور وسمطس ، وأصر على أن توضع مسألة العصبة فى مقدمة المسائل التى تُعرض على المؤتمر . وترأس بنفسه اللجنة التى وضعت نصوص عهد العصبة . وبنفوذه العظيم أنجز العمل وأقر العهد فى وقت قصير . وبلغ من تصميم الرئيس على إكراه مجلس الشيوخ الأمريكى على الموافقة على عهد العصبة أنه جعله جزءاً لا يتجزأ من معاهدة ڤرساى ، وبذلك أضاع على مؤتمر الصلح شهرين ثمينين قبل أن ينشط المؤتمر إلى عمله الحقيقى ، وهو تقرير شروط الصلح .

دفاع عن معاهدات الصلح

ولهذا ليس صحيحاً القول بأن معاهدات الصلح تنقصها الروح المثالية ، أو أنها لا تقوم على مبادىء صائبة . فإنها تحوى فى عهد العصبة مثلا أعلى ، كما أنها تتبع مبدأ ، هو مبدأ تقرير المصير . إلا أن هذا المثل الأعلى لم ينل تأييد كثرة أوربيى القارة . وكان المبدأ ، مع عدالته ، مفعماً بالمخاطر والبدع . فإنه أدى إلى إقامة دول خمس جديدة خامرت الناس الشكوك فى إمكان أى منها أن ترسخ أركانها ، وأدى أيضاً إلى تغيرات واسعة النطاق فى توزيع الأرض والسكان على حساب الجنسين التيوتونى والمجرى .

فانتهت الحرب ضد الإمبراطورية الألمانية بصلح ثورى راديكالى صاغه ساسة الدول الديمقراطية . واعترف هذا الصلح بمبدأ تحرير الأمم

وضمان استقلال الجمهوريات الجديدة ، وأعد العدة لحماية الأقليات . ولهذا فإن الميل العام لأوربا صوب القومية والديمقراطية — وهو الميل الذى أخذ يزداد نمواً ورسوخاً منذ ثورات سنة ١٨٤٨ — يلوح أنه بلغ ذروته فى صلح ڤرساى .

كليمنصو

وكان رئيس وزراء فرنسا كليمنصو ، وكان فى العقد التاسع من العمر ، فظ الأخلاق ، ذكى الخاطر ، لا تعرف الخيالات إلى ذهنه سبيلا ، عظيم الولاء طوال حياته البرلمانية والصحفية العاصفة لثلاثة أشياء حبيبة إلى قلبه وهى : العلوم ، وفرنسا ، والحرية . وكان مرآة صادقة لفرنسا الواقعية المنطقية إلا فى نقطة واحدة ، وهى حبه للجنس الأنجلوسكسونى ، وفهمه إياه ، وإدراكه أكثر من سائر مواطنيه فائدة صداقة فرنسا لشعوبه .

وقد تمثلت مرة أخرى فى شخص هذا الجمهورى الألمعى النارى المزاج أطياف سياسات فرنسا القديمة : سياسات ريشليو ومزران ولويس الرابع عشر ودانتون . فقد رأى كليمنصو بلاده تُغزى مرتين ، ورأى كيف أنقذها من تهلكة ماحقة إبرامُها محالفات لم يكن منظوراً قط أن يتكرر عقدها . وأدرك أنه لن يجىء عام ١٩٤٠ حتى يكون لألمانيا من الرجال الذين فى سن القرعة العسكرية ضعف ما سيكون لفرنسا ، ولذا ارتاب فى أن أى حلف تعقده بلاده يستطيع أن يفيدها ويحميها من العدو . أفكان إذن عجيباً أن يمتلىء ذهنه بشيئين دون غيرهما ، وهما : التعويضات من أضرار الماضى ، وسلامة بلاده فى المستقبل ؟ وهل كان أمراً يثير الدهشة أن يؤيد هذا الرجل الذى لم تكن له أقل ثقة بعهود الألمان — أن يؤيد أصدق تأييد مطلب المارشال فوش الذى تقدم به على أثر انتهاء الحرب ، وهالة النصر تحيط جبينه ، وهو المطلب الخاص بمنح فرنسا قواعد على ضفة الرين تكون لها بمثابة رؤوس حراب ؟ ومع ذلك لقى هذا المطلب معارضة قوية من جانب ولسن ولويد چورج اللذين حاججا بأن بتر أراضى الرين من الريخ معناه خلق ألزاس ولورين جديدتين ، وبذر بذور حرب مقبلة .

لويد جورج

وكان لويد چورج صلباً كل الصلابة فى موقفه . ولكنه مقابل عدم موافقته على ضم أراضى الرين إلى فرنسا، تقدم إلى مؤتمر الصلح باقتراح إلغاء التجنيد الإجبارى فى ألمانيا ، وإنقاص الجيش الألمانى وتحديده بمائة ألف جندى ، وحظر تحصين منطقة الرين الواقعة على ضفته اليمنى . كما اقترح عقد معاهدة ضمان يوقعها هو وولسن ، ويتعهد فيها بلداهما بالدفاع عن الأراضى الفرنسية ضد أى اعتداء ألمانى . واضطر كليمنصو إلى الانحناء أمام إرادة السياسيين الأنجلوسكسونيين . ولكن حينما أبى الكونجرس الأمريكى التصديق على معاهدة الضمان هذه ، شعرت فرنسا بأنها استُغويت إلى قبول التنازل عن أراضى الرين جزاء قصاصة من الورق . وقيل يومئذ إن الجيش الفرنسى كسب الحرب ، ولكن كليمنصو باع الصلح .

أما رئيس الوزارة البريطانى فرجع إلى بلاده مفعم الوطاب من الغنائم ، جالباً لبلاده مكاسب ، كان پت الأكبر نفسه يغبطه عليها . فقد أحضر إلى إنجلترا الجانب الأكبر من الأسطول الألمانى(١) . والشطر الأكبر من الأسطول التجارى الألمانى ، ومنح بريطانيا انتداباً فى العراق وفلسطين ، وفى تنجنيقا ، وفى أنفس المستعمرات الألمانية ، بينما ظفرت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندة بمستعمرات ألمانية أخرى أقل أهمية من تلك التى غنمتها إنجلترا . وأعطيت بريطانيا حصة فى التعويضات الألمانية ، واعترِف بحق مستعمرات الدومنيون فى الاشتراك فى إبرام معاهدة الصلح ، والتمثيل فى عصبة الأمم كدول منفصلة مستقلة . والحق أن مستر لويد چورج أفلح فى كسب كل ما كان فى مقدور الإمبراطورية البريطانية أن تكسبه .

عدم إطلاق يده

فإذا قيس نصره هذا بالمعايير التقليدية لسياسة القوى ، فإنه ليس ثمت ما هو أكمل وأروع من ذلك النصر . ومع ذلك فإن لويد چورج رغم زعامته الباهرة خلال الحرب ، ورغم الخدمات المجيدة التى قدمها لبلاده ، ورغم الأعمال الرائعة التى صنعتها انجلترا فى البر والبحر ، فإنه ذهب إلى مؤتمر الصلح دون أن

---

(١) الذى سلم بمقتضى شروط الهدنة ، ثم أغرقه بحارته فيما بعد فى سكابافلو .

تحديد الجيش
ازالة
معاهدة ضمان
عدم ضم اراضى الرين

يكون طليق اليد . فقد حدثت فى انجلترا أثر انتهاء الحرب نكبة لم يكن منها مفر، وهى إجراء انتخابات عامة فيها . فطغت على الناخبين روح نادرة من النزوات الجامحة الراغبة فى التنكيل بالعدو . وزاد هذه النزوات سعيراً أصوات النساء اللاتى كن قد فزن بحق الانتخاب سنة ١٩١٧ ، فارتفعت الأصوات منادية بأنه يجب أن تُكره ألمانيا على دفع جميع نفقات الحرب، وأن يُشنق الإمبراطور ، وأن يُقدم جميع الألمان الذين انتهكوا قوانين الحرب إلى المحاكمة ويعاقبوا . وكان للناخبين البريطانيين عذر فى أن يروا ضرورة معاقبة مدبرى هذه الحرب باعتبارهم مجرمين . فقد سمعوا فى معاودة وإصرار المبدأ القائل بأن الحرب جريمة ، وكان إغراق سفن الركاب البريطانية لا يزال ماثلا فى أذهانهم .

انحرافه عن جادة الصواب

ولكن رجال السياسة كانوا أدرى منهم بالأمور . فجاء هذا الإعلان القوى لحنق الرأى العام صدمة مباغتة للقابضين على دفة الأمور فى إنجلترا . فانحرف الخطباء فى هذه الانتخابات عن جادة الرأى السديد . ولم يُستثن رئيس الوزراء نفسه من هؤلاء . فساقه ضغط الانفعالات الشعبية بعيداً عن الصراط النبيل الذى كان يجدر به أن يسلكه ، وهو المطالبة بضرورة التعمير والبناء القومى ، اللذين جعلهما شعاراً له فى بدء حملته الانتخابية . ولم يحفل الناخبون بنداء « تشييد منازل صالحة للأبطال » ، بل عقدوا النية على التنكيل بغريمهم .

والخطيب شديد التأثر بمشاعر مستمعيه . ولذا نرى لهجة رئيس الوزراء تقسو ، ونراه يفيض فى الكلام عن ضرورة فرض عقوبات على ألمانيا . ومع أنه كان أريباً فى حرصه على الإعراب عن بعض تحفظات حكيمة ، ونفض يده من تبعة فرض المبالغ الطائلة العجيبة التى أوصت لجنة من الخبراء البريطانيين بإكراه ألمانيا على دفعها ، فإنه أعرب عن المبدأ القانونى القائل : بأنه يجب أن يدفع الفريق المهزوم نفقات الحرب . وبذلك قاد البلاد بلا مراء إلى الاعتقاد بأنه يمكن ، بل وينبغى ، أن يُكرَه العدو على دفع مبلغ طائل جداً .

مسألة التعويضات

ولكن كُشفت فيما بعد هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن تقدير مقدرة ألمانيا على دفع زهاء ألفى مليون جنيه كتعويضات ، كان أقرب إلى السداد من الرقم

الخيالى العجيب وهو ٢٤ ألف مليون جنيه الذى وضعته تلك اللجنة الفنية البريطانية . غير أن إعلان رقم ضئيل كألفى مليون جنيه كان يحدث صدمة عنيفة للآمال الوهمية التى سادت عقول الناس وقتئذ . ولهذا لم يحدّد رقم معين للتعويضات فى معاهدة ڤرساى. بل تُرِك هذا الأمر فى فطنة إلى تقدير لجنة « تعويضات» خاصة ، دعيت الولايات المتحدة إلى الاشتراك فيها . ونيط بهذه اللجنة تقرير الرقم المعقول الذى يجب فرضه على العدو المدحور .

وقد جر عدم تسوية مسألة التعويضات عاجلا إلى ظهور شعور من الحنق الشديد بين الألمان ساعد على إضعاف الجمهورية التى أقاموها ، وتأخير برء أوربا من أدوائها الاقتصادية. ولكن هذا الشر كان شراً موقوتاً عابراً . فقد أدرك رئيس الوزراء البريطانى فيما بعد ببعد نظره أنه لا محيص من أن يتقابل رجال الأعمال معاً عاجلا أو آجلا ، وأن يحددوا — بمساعدة أمريكا أو بغير مساعدتها — الأقساط التى فى مقدور القطر المدين أن يقوم بالوفاء بها ، والتى من فائدة الأقطار الدائنة أن تستولى عليها .

وأثبتت الحوادث صدق نظرته . فقد يندر تغيير الحدود بين قطرين دون الالتجاء إلى القوة . ولكن الدفعات المالية قابلة لأن تسوَّى بطرق لا حصر لها . ومع أن المفاوضات العديدة الخاصة بتحديد التعويضات ، أحدثت كثيراً من الاضطراب والتقلقل والتخوف ، فإنه أمكن وضع حدود قصوى للتعويضات . ثم أخذت هذه الحدود تتضاءل شيئاً فشيئاً فى مؤتمرات عدة ، إلى أن نقصت إلى أرقام تافهة لا تذكر بواسطة المؤتمر الذى عُقِد بلوزان فى ١٦ يونيو سنة ١٩٣٢ بقصد إيجاد تسوية نهائية لهذه المشكلة الخطيرة .

الاختلاف بين وجهتى نظر انجلترا وفرنسا

ومع أن إنجلترا كانت متفقة مع فرنسا فى وجهة النظر بأن الخطر الأكبر على سلام أوربا هو روح العسكرية الألمانية ، ومع أنها وافقت على الرأى القائل بضرورة نزع جميع الأراضى غير الألمانية من ألمانيا والنمسا ، فإنها اختلفت معها فى مسألتين جوهريتين . فقد أدركت إنجلترا أن مصالحها التجارية تتطلب نهوض ألمانيا ورخاءها ، وأن مصالحها السياسية تقتضى أن تكون ألمانيا مسالمة راضية . ولهذا

السبب ألقى مستر لويد چورج بنفوذه القوى فى كفة تخفيف شروط الصلح على تلك الدولة. فعارض الاقتراحات التى قُدِّمت بوجوب بتر أقاليم الرين من الريخ، وتسليم كل مقاطعة سيليزيا العليا الغنية بالصناعات إلى البولنديين، ومنح الحلفاء حق احتلال الأراضى الألمانية لمدة خمسة عشر عاماً. وأمكنه بتأييد رؤساء وزارات المستعمرات البريطانية المستقلة الموجودين معه فى مؤتمر الصلح بباريس أن يكسب لسيليزيا العليا الحق فى أن تقرر مصيرها بمقتضى استفتاء يجرى بين أهلها.

وجهة النظر الإيطالية

أما إيطاليا فوقفت فى مؤتمر الصلح موقفاً أملته عليها مصالحها القومية البحتة. فلم تبلبل أفكارٌ خيرية واسعة المجال أذهانَ الساسة الإيطاليين الواقعيين، ولم تجش بنفوسهم نزعات إنسانية جميلة. فلم تعبأ روما إلا قليلا بعصبة الأمم التى كان إنشاؤها معزياً لقلوب الكثيرين من أبناء الشعوب الأنجلوسكسونية عن خطوب الحرب وويلاتها، وأخذ أنصار البابوية يسائلون أنفسهم «ألا تعتدى هذه العصبة على حقوق الڤاتيكان وامتيازاته القديمة العهد الخاصة بفرض وساطته على الأمم المسيحية المتنازعة؟»

وكان الإيطاليون يؤثرون مد تخومهم حتى قمم جبال الألب، ومنحهم سلسلة من الثغور على البحر الأدرياتى — كانوا يؤثرون ذلك على إقامة برلمان عالمى فى چنيف. وخاطب الإيطاليون أنفسهم قائلين: إن فرنسا ستستحوذ على الألزاس واللورين، وستفوز إنجلترا بنصيب الأسد فى المستعمرات الألمانية، فأى شىء مقابل هذا سنحصل عليه نحن؟

وأخيراً بعد مفاوضات مطولة، أعطيت إيطاليا الترنتينو وتريستا وزارا بدلماشيا، كما اغتصب عنوة شاعرها الأكبر دانتزيو فرضة فيومى الهنغارية الواقعة فى الشمال الشرقى من البحر الأدرياتى. ولكن رغم هذا كله، فاضت نفس الإيطاليين مرارة لإعطاء يوغوسلافيا إقليم دلماشيا، وهو الإقليم الذى أدخله المرسلون الإيطاليون قديماً فى حظيرة المسيحية، والفنانون الإيطاليون فى دائرة المجتمع الممدن.

يوغوسلافيا ودلماشيا

٣ – عيوب معاهدات الصلح

قسوة شروط معاهدة ڤرساى على الألمان

حينما أحيط الألمان علماً بشروط معاهدة ڤرساى ، بدت لهم كأنها بلغت الذروة فى القسوة ، وحد الاستحالة فى التنفيذ . وتراءى لهم مشروع المعاهدة كله بأنه مدبر لإبقاء بلادهم راسفة فى أغلال أبدية من الخضوع والاستعباد . فقد فرضت المعاهدة على ألمانيا تجريدها من السلاح ، وتركها عزلاء أمام أعدائها ، على حين أعطت الحلفاء حق فرض مبالغ مستحيلة من التعويضات عليها ، واحتلال بعض أجزاء منها كى يكون ذلك بمثابة مهماز فى يد الحلفاء يحفزونها به على الدفع .

فارتفعت شكوى الألمان إلى عنان السماء بأن معاهدة الصلح تناقض كل المناقضة نقط ولسن الأربع عشرة ، وخطبه التى ألقاها بعد ذلك . وحاججوا بأن تلك النقط والخطب هى التى دفعتهم إلى إلقاء السلاح ، معتمدين على أن شروط الصلح ستوضع وفقها . وكانت أطياف فرض جزية طائلة قاسية يُكرَه جيلان من أبنائهم على دفعها ، واحتلال أرضهم احتلالا طويل الأمد ، وتدمير أسلحة جيشهم الوطنى وعتاده قسراً أمام لجنة متحالفة ، وإلغاء التجنيد الإجبارى فى بلادهم – كانت هذه الأطياف كلها شروطاً مهينة عسيرة الاحتمال .

وكان الأنكى عليهم من ذلك الشروط التى فرضتها المعاهدة فيما يتعلق بالحدود الشرقية لبلادهم ، والإجراءات التى اتخذتها لإحياء بولندا وإنشاء الممر البولندى الذى فصل بروسيا الشرقية عن مقاطعة براندنبرج (ولو أن هذه الشروط كانت من بين النقط الأربع عشرة) ، وبتر رقعة كبيرة المساحة من سيليزيا الصناعية التى لولا العقول ورؤوس الأموال الألمانية ، لما وصلت إلى ما وصلت إليه من التقدم السريع الرائع ، وإعطاء هذه الرقعة إلى بولندا .

وفى الحق أنه لعجيب أن التخلى قسراً عن فتوح فردرك الأكبر فى الشرق كان أشد شروط معاهدة الصلح جرحاً لكرامة الألمان ، وأمرها مذاقاً على نفوسهم . وكان فقدانهم ولايتى الألزاس واللورين اللتين خلقتا لهم معضلة أقضت على

الدوام مضاجعهم ، والتنازل مؤقتاً عن وادى السار كتعويض عن الأضرار التى ألحقها الجيش الألمانى بالمناجم الفرنسية — كانت هذه الخسائر شيئاً تافهاً زهيداً بالقياس إلى التضحية الأولى .

ولذا ألقى على عاتق جمهورية بولندا هذا الواجب ، وهو أن تبرر بفطنتها وعدالة قوانينها ونظمها وبعدها عن التعصب والمغالاة ، الثقة التى وضعها موقعو معاهدة ڤرساى فى الأمة البولندية .

ثقل أعباء الشروط الاقتصادية

أما الجانب الاقتصادى من المعاهدة ، فكان أشد وطأة وأثقل أعباء وأسوأ آثاراً على النظام الجمهورى واستقراره فى ألمانيا : هذا النظام الذى كان واجب الحلفاء يقضى عليهم بأن يعاونوا على ترسيخه وتثبيت أركانه . ومع ذلك فإنه على حين يوجه الإنكليز اللوم إلى معاهدة ڤرساى لفداحة شروطها ، فإن الرأى السائد فى فرنسا هو أن كليمنصو فى محاولته إرضاء رغائب الساسة الأنجلوسكسونيين ، ترك العدو أقوى مما ينبغى لصون السلام فى أوربا والعالم .

فرض المعاهدة على الألمان

وقد نُندِّد بمعاهدة ڤرساى ، لأن الحلفاء لم يتفاوضوا بشأنها مع ألمانيا ، بل فرضوها عليها فرضاً . ولكن حرىّ بنا أن نتذكر أن جميع المعاهدات التى تُعقد بين غالب ومغلوب توضع تحت ضغط الإكراه والإلزام . فإن معاهدة برست ليتوڤسك التى أملاها الألمان فى مارس سنة ١٩١٨ على روسيا ، ومعاهدة بوخارست التى فرضوها على رومانيا فى مايو سنة ١٩١٨ ، هما مثلان قاطعان على قسوة المعاهدات التى من هذا الطراز . وحينما يذكر المرء اتساع الموضوعات التى تناولتها معاهدات الصلح وتعقدها وضرورة السرعة فى إبرامها ، وكيف أن جيوش الحلفاء المنهكة كاد ينفد صبرها شوقاً إلى تسريحها ، وكيف كان من المحتمل أن تعرِّض بسهولة المباحثات المتشعبة وضع تسوية ملائمة للخطر — حينما يذكر المرء هذه الأشياء تصبح رغبة دول الحلفاء وشريكاتها فى السير كما فعلت مفهومة معقولة .

وقدم المندوبون الألمان رداً كتابياً على مشروع المعاهدة ، وحوى رد الحلفاء الكتابى عليه إعطاءهم بعض المنح والتساهلات . ولكن لم يكن أحد من ساسة الحلفاء مستعداً فى ذلك الجو الباريسى العنيف الخانق أن يمنح شروطاً أسخى

وأكرم مما منحوه ، أو أن يكون أرحب صدراً مما أبدوه .

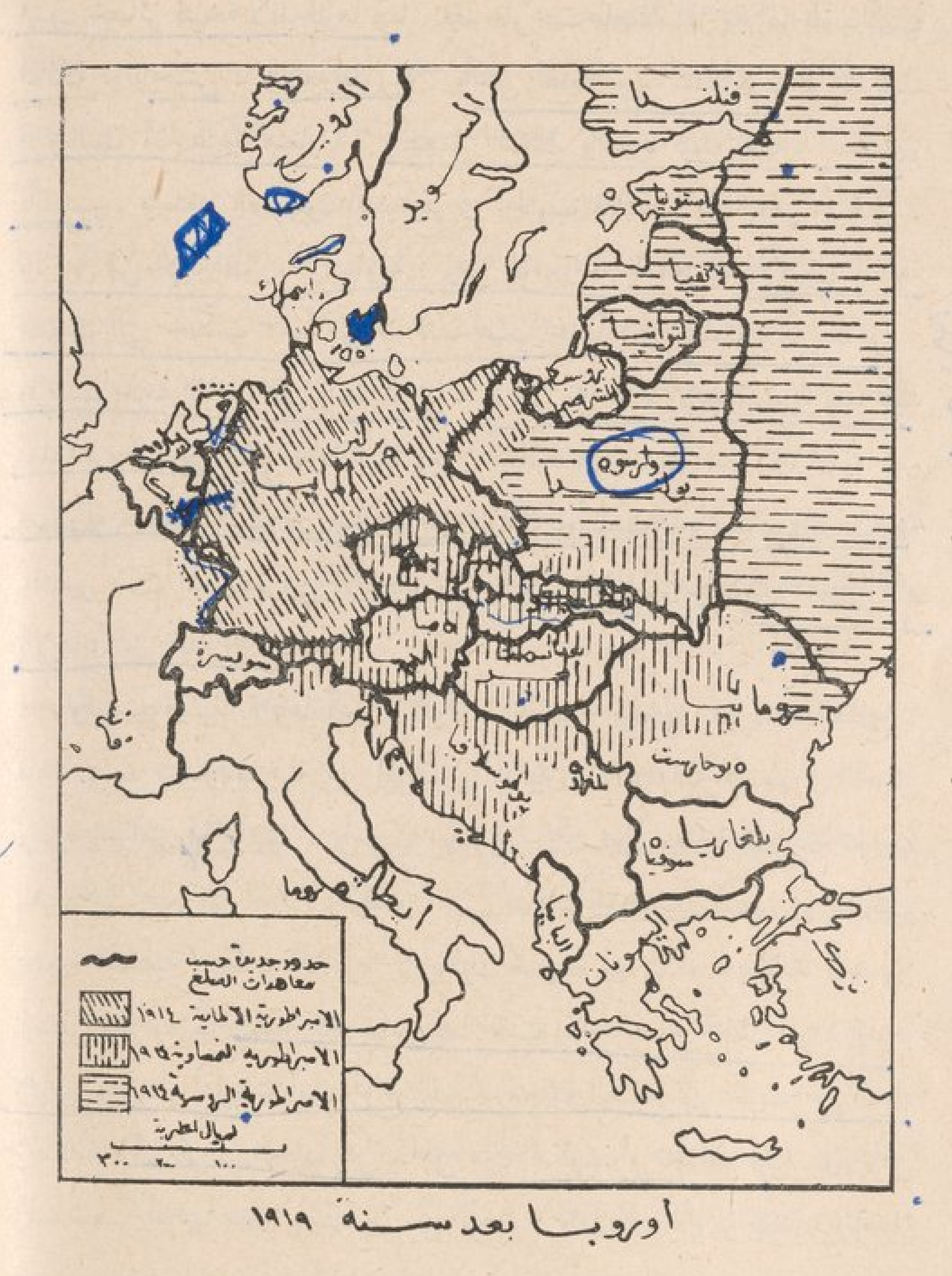
تقطيع أوصال النمسا

أما النمسا التى كانت السبب الأول فى إيقاد نار الحرب ، فقد كانت أعظم الدول خسائر نتيجة لاندحارها فيها . فقد طوّحت عاصفة الهزيمة الهوجاء بالأسرة المالكة ، والجيش ، والإمبراطورية . وأعلن الهنغاريون استقلالهم . ثم ما لبث الرومانيون أن غزوا هنغاريا . وانفصل التشك والسلوفاكيون عنها ، مستقلين بأنفسهم . واستغل الصربيون انتصارهم فى الجنوب فاقتطعوا منها بعض أراضيها . ولم يبق من الإمبراطورية النمساوية : وهى الإمبراطورية العريقة الأصول الذائعة الصيت التى حكمت دهراً طويلا خمسة عشر جنساً ، وبسطت رواق الأمن ، وفرضت حرمة القانون على وسط أوربا — لم يبق من هذه الإمبراطورية بعد عقد معاهدة سان جرمان (المبرمة بينها وبين الحلفاء فى سبتمبر سنة ١٩١٩) غير جمهورية صغيرة تألفت من ستة ملايين نسمة ، ومُنِعت هذه الجمهورية صراحة بمقتضى تلك المعاهدة من الاتحاد مع ألمانيا ، إلا إذا صادقت عصبة الأمم بالإجماع على هذا الاتحاد .

وغدت قصبة بلادها أعظم كثيراً مما تطلبته حوائجها بعد عقد الصلح ، فقد كانت تستخدم هيئة من الموظفين المدنيين كانت قد عُينت فى الأصل لإدارة إمبراطورية واسعة ، وأمست تجاورها الآن دول معادية تحارب تجارتها بتعريفاتها الجمركية العالية ، وصار أغلب سكانها حضريين تسرى فى عروقهم عدوى البلشفية ، وكان فلاحوها لا يزالون يعمهون فى بيداء جهالات العصور الوسطى وخزعبلاتها . لهذا كله ساد النمسا عقب إبرام الصلح أحلك ألوان القنوط واليأس ، وتعذر عليها ، أمام روح القومية المتغالية العنيفة التى غلبت على الدول الجديدة ، أن تفرض اتحاداً جمركياً على دول الدانوب أو تحافظ عليه . ولم تكن النمسا تبصر أمامها سوى بصيصين من الرجاء ، وهما دار الأوبرا بڤينا ، وتدخل

(١) مما يجدر ذكره أنه فى المعاهدة التى تفاوضت فيها ألمانيا بحرية ، وأبرمتها مع الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ ، قبلت ألمانيا أحكاماً عديدة ، كان من بينها البند الخاص بتحملها تبعة اندلاع الحرب ، وهو البند الذى اعترضت بعدئذ على وجوده بمعاهدة فرساى

عصبة الأمم فى معالجة أدوائها — هذا التدخل الذى أنقذ فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ هذه الجمهورية الجديدة فى أقسى ساعات محنتها من الإفلاس .



أوروبا بعد سنة ١٩١٩

معاهدة تريانون — ومن بين جميع معاهدات الصلح ، أثارت الشروط التى فرضتها معاهدة تريانون Treaty of Trianon (المبرمة فى ٤ يونيو سنة ١٩٢٠) على هنغاريا

أشد استنكار . فقد سُلخ عنها ولاية سلوفاكيا التى ضمت إلى تشكوسلوفاكيا ، وولاية ترنسلفانيا التى فتحها الرومانيون عقب إعلان الهدنة ، وولاية كرواتيا التى أضحت جزءاً من مملكة يوغسلافيا ، وهى المملكة الجديدة التى صارت الآن تتألف من الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين . فانتقل بمعاهدة تريانون زهاء ستمائة ألف هنغارى ، وقرابة أربعة ملايين ونصف مليون غير هنغارى ، إلى حكم دول أجنبية[1] . فبدا تقطيع أوصال مملكة هنغاريا العريقة الأصول بواسطة ديمقراطيات لم تكن ذات أصل كريم ولا مجد تليد — بدا إهانة لا تطاق فى نظر الأرستقراطية الهنغارية المزهوة . أضف إلى ذلك أن هنغاريا فقدت أيضاً ولاية ترنسلفانيا ذات الجبال الرائعة المفاتن التى اعتاد نبلاء المجر أن يمرحوا فيها صيداً وقنصاً . فليس من الصعب والحال هذه أن ندرك مدى ألمهم وسخطهم .

لهذا خلقت معاهدات الصلح المختلفة قروحاً عدة . فهذى هى جمهورية النمسا الصغيرة صارت أضعف من أن تعيش بمفردها فى حال من اليسر . ومع ذلك فقد منعتها هذه المعاهدات من الانضمام إلى ألمانيا إلا إذا وافقت عصبة الأمم على ذلك . وكان هناك المجريون الذين أخضعوا لحكم أجنبى عنهم من غير استفتاء ، وهناك بولندا التى خلقت لنفسها مواضع احتكاك بينها وبين ألمانيا فى الممر البولندى وسيليزيا . وهناك إخضاع ٢٣٠ ألف ألمانى فى التيرول ، ومليون وثلاثمائة ألف صربى يستوطنون دلماشيا لحكم إيطاليا .

وحنق الألمان كذلك بدرجة أصغر — ولكن بدرجة محسوسة — لبتر إقليمى يوبن Eupen وملميدى الصغيرين المكسوين غابات وأحراشاً من بلادهم ، وضمهما إلى البلجيك ، ولإخضاع إقليم السار مؤقتاً لسيطرة عصبة الأمم . ولكن رغم كل هذه العيوب . فإننا إذا نظرنا إلى خريطة أوربا السياسية الجديدة نظرة

---

(١) إن هذه الأرقام أقرب على الأرجح إلى تأييد المطالب الهنغارية منها إلى تبيين الحقيقة . فقد كان عدد الهنغاريين الذين من أصل مجرى ، وضموا إلى الدول الجديدة ، هو ٢,٩٤٥,٢٧٣ حسب الإحصاء الرسمى الهنغارى سنة ١٩١٠

مجملة منصفة، رأينا أنها وُضِعت بشكل كان أقرب إلى رغائب السكان ذوى الشأن، منه فى أى عهد مضى .



النمسا بعد معاهدة سان جرمان

ومع ذلك فإنه حينما وُقعت معاهدة فرساى فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ فى بهو المرايا بقصرها ، حيث نودى قبل ذلك بنصف قرن بالإمبراطورية الألمانية ، شعر كل امرئ وقتئذ أن فرصة عظيمة لإسداء الخير وإقامة العدالة فى العالم قد أفلتت من أيدى البشر . ذلك أن ساسة الدول لم يتساموا إلى عظمة الأحداث ، بل وضعوا صلحاً لم يكن بصلح منصف سليم . فاتفق المثاليون الأمريكيون الذين لا توخزهم ضمائرهم على عدم تطبيق مبدأ تقرير المصير على الهنود الحمر والأسيويين الخاضعين للولايات المتحدة — اتفقوا مع المثاليين الإنجليز الذين لا يرفعون الصوت بضرورة جلاء الجنود البريطانيين عن الهند ومصر — اتفق هؤلاء المثاليون

معاً على التنديد بمعاهدات الصلح وإبراز نقائصها فى الانحرافات التى لوحظت عليها فيما يتعلق بتطبيقها مبدأ تقرير المصير . فشعر كثير من الناس أن الإنسانية قد أخفقت فى النهوض بواجبها ، وأن الديمقراطية لم تُجعل آمنة فى أوربا .



خريطة بولندا

وتوارت هتافات النصر وفرحة الفوز بعد وجيز وقت فى ضباب الحنق وغمرة اليأس.

إلا أنه من التعجل الفطير أن نصدر نحن حكماً نهائياً على عمل واضعى معاهدة الصلح . فإن أعمالهم سيحكم عليها بمقدار نجاح الدول التى خلقوها أو

وسعوا من رقعتها : بولندا الجديدة ، وتشكوسلوفاكيا الجديدة ، ورومانيا الجديدة ، ويوغوسلافيا الجديدة ، واليونان الجديدة . ولا يستطيع غيرُ المؤرخ الذى سيجىء بعدُ الآن بقرن من الزمان أن يعرف مدى نجاحها . أما نحن الذين تجوس أقدامنا منطقة الاحتكاك والقلق البالغين ، هذه المنطقة التى لا تزال فيها أهواء الحرب الجامحة حية تعصف بالأمم ، والأقليات تتململ سخطاً وكراهية تحت ربقة أسيادها الجدد ، والتى لم تألف بعدُ أعناقها نيرها الجديد ، فإننا لا نستطيع أن نكوِّن فى شىء من الثقة رأيا ، أو أن ندلى بحدس وتخمين .

انسحاب أمريكا

وكان من أمانى الحلفاء المشتركة الأمنية بأن الولايات المتحدة لا توقع فحسب معاهدة ڤرساى التى صيغت وفق أفكار الرئيس ولسن ومبادئه ، بل أن تنضم أيضاً إلى عصبة الأمم التى لعلها أجل وأبهى خدمة أسداها ذلك السياسى العظيم لتسوية مشكلات النظام الدولى . ولكن الولايات المتحدة خيبت فى هاتين الناحيتين آمال أوربا . فلم توقع أمريكا معاهدة ڤرساى ، كما أنها لم تنضم إلى العصبة . ولهذا طاشت فجأة جميع الآمال ، وتبخر كل رجاء بأن تعلن إنجلترا وأمريكا ضمانها لسلامة الأراضى الفرنسية ، حتى تساهم أمريكا فى التخفيف من وطأة التعويضات التى فُرضت على ألمانيا . كذلك أمل الناس الشىء الكثير من المعاونة التى كانت أمريكا تستطيع أن تقدمها بصفتها عضواً من أعضاء العصبة ، باستخدام الضغط الاقتصادى كأداة فعالة لكبح جماح أى دولة تحدثها نفسها بالتآمر على تعكير صفو السلام فى العالم .

خيبة الآمال

وكانت خيبة الآمال عميقة بالغة . ومع ذلك فإن أية دراية وثيقة بتاريخ أمريكا ، وأى إدراك لوجهة النظر الأمريكية ، كانا حريين بإنذار الأوربيين بأنه من الطبيعى لأمريكا أن تنفض يدها من أوربا ، كما أنه كان من الطبيعى لإنجلترا أن تطلب من الألمان الجلاء عن البلجيك ، ولفرنسا أن تطالب بعودة الألزاس واللورين إليها . فإن أهل الولايات المتحدة لم يدخلوا الحرب حينما انتُهِكت حيدة البلجيك ، أو حينما أغرقت الباخرة لوزيتانيا ، وإنما حزموا رأيهم على امتشاق الحسام ، حينما شرعت الغواصات الألمانية تغرق بواخرهم التجارية ،

فوطنوا العزم على إنزال القصاص بمن شنوا هذه الحرب . وحينما تم لهم ذلك ، رجعوا إلى سياسة الانسحاب من الاشتباكات الأوربية : وهى السياسة التى ورثوها من جورج واشنطون . صحيح أن الرئيس ولسن كان مثالياً حقاً ، ولكنه فى ذلك كان وحيداً فى بلاده .

ولذا ناصر الأمريكيون بقوة الحزبَ الجمهورى الذى كان يعادى ولسن ويسفِّه سياسته. وانتزعوا أنفسهم بدفعة قوية من سياسات أوربا وارتباكاتها ومحنها . وقرَّت عيونهم بأمجاد بلادهم ، وطابت نفوسهم لثروتها الطائلة التى تفوق كل حلم وخيال . وحلقوا من علٍ فوق عالم سقيم كليل فقير .

تحالف فرنسا مع الاتفاق الصغير

ولكن ظهرت فى ذلك الحين معضلة ضخمة أخرى . فإن دولتى أوربا الوسطى كانتا قد دُحِرتا بواسطة تحالف فريد ليس من المتوقع قط أن يتألف له شبيه فى المستقبل . فقد ضمَّ هذا التحالف سبعا وعشرين دولة ، كان من بينها الولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية اللتان ينزع أهلهما بالفطرة إلى السلام. وقد بذل هذا التحالف جهوداً خارقة فى حشد جيوش جرارة بينما كانت الحرب تسير فى مجراها . فهذا المجهود الحربى المتحد الفائق القوة ، هو وحده الذى حطَّم فى ذلك الحين الأداة الحربية الألمانية الهائلة ، وجعلها عديمة القوة فى إرهاب شعوب القارة الأوربية . أما الآن فقد انسحبت أمريكا من هذا التحالف ، وألغت إنجلترا بموافقة أهلها الإجماعية نظام التجنيد الإجبارى ، وأنقصت جيشها وأسطولها ، وصارت إيطاليا توشك أن تمزقها الفتن والاضطرابات الداخلية .

فشعرت فرنسا بأنها وحيدة من الأصدقاء ، وأنها تواجه دولة ألمانية مدحورة حقاً ، ولكنها دولة يأكل الحقد قلبها ، وتتحفز للوثوب والبطش مرة أخرى ، وذات قدرة جبارة على الأذى والضر . فأقامت فرنسا نفسها حارسة على سلامة أوربا وأمنها ، وراعية للنظام العام الذى رسمته معاهدات الصلح . ثم وجدت لها بين بعض أعضاء عصبة الأمم صديقات ، هن البلجيك وبولندا والدول الثلاث التى انتفعت بسقوط الإمبراطورية النمساوية : تشكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ورومانيا. وكوَّنت هذه الدول جميعاً ما أطلق عليه اسم «الاتفاق الودى الصغير» Petite Entente.

وشرعت فرنسا توثق علاقاتها السياسية مع هذه الدول ، وألفت منها حلفاً يعوضها عن حليفتها السابقة روسيا ، وتستخدمه كأداة ترجّح بها كفتها فى شرق أوربا ضد قوات الجيش الألمانى فى وسط أوربا .

نقد أنصار العصبة لهذه السياسة

غير أن أنصار عصبة الأمم فى إنجلترا والأقطار السكندناوية لم يميلوا إلى النظر إلى مستقبل أوربا بهذه النظرة . بل تاقت نفوسهم إلى تجنيب أوربا خطر انقسامها إلى فريقين متنافسين مدججين بالسلاح يتآمر كل منهما على الآخر . نعم بدا أمراً طبيعياً أن تجهز نفسها بالأسلحة دولُ شرق أوربا الصغيرة التى كانت لا تزال تدرج فى المهد ولم ترسخ بعدُ أركانها ، والتى كانت قريبة الجوار من روسيا ، هذه الجمهورية الغامضة ذات القوى الهائلة . غير أنه لم يكن أمراً تطيب له الأنفس أن توجد على الإطلاق مثل هذه الضرورة . بل كان يُرَى وجوب إخضاع شؤون التسلح لرقابة جماعية ، وتسوية الخلافات الدولية عن طريق التحكيم وروح المصالحة بمقتضى نظام معقول سديد .

ومع أن الحرب صفقة خاسرة لجميع الدول المتحاربة ، فإنها على بريطانيا أشد وبالا منها على أية دولة أخرى. ذلك أن هذه البلاد لا تستطيع أن تشبع بطون أهلها إلا من الأرباح التى تغنمها من وراء تجارتها الخارجية . وقد بشرها الساسة ، وآمنت بشكل أعظم من فرنسا ، بأن الحرب العظمى لم تكن سوى صراع من أجل اجتثاث أسباب الحروب من العالم ، وجال فى ألباب البريطانيين هذا الحلم الجميل الذى طالما عقد البشر رجاءهم على تحقيقه ، ولكنهم كثيراً ما أخفقوا فى ذلك ، وهو الحلم بتنظيم العالم على أساس من السلام والمحبة ، لا على أسس من الخصام والنضال. وقد أمَدَّ عهد عصبة الأمم معظم الإنجليز ببصيص من العزاء وقبس من الرجاء ، بعد كل ما كابدوه من أهوال الحرب وويلاتها .

٤ – عصبة الأمم

تنظيم العصبة

وترجع أهمية عصبة الأمم إلى أنها تقدم للبشر أداة لتنظيم العالم وحكمه ، فى طوقهم أن يسيروها ويحتملوها . وقد أدرك صائغو عهد العصبة بأن من العبث خلق حكومة عليا تلغى الحكومات القومية للدول ، وتحل محلها فى السيطرة على شؤونها . ولهذا السبب رفضوا العمل بالفكرة التى وجدت لها أنصاراً كثيرين فى فرنسا ، والتى تحبذ إنشاء جيش أو هيأة بوليسية دولية تأتمر بأمر العصبة . وأحجموا عن فرض أى لون من ألوان الإكراه المنظم المكتوب يجبر أى دولة من أعضاء العصبة على الانصياع لمشيئته . وآثروا أن تكون العصبة بمثابة جمعية من الدول تخوّل كل منها – مهما صغر شأنها – مركزاً وحقوقاً متساوية ، وتحمى امتيازاتها وسيادتها الداخلية من كل عدوان ، وذلك باشتراط عهد العصبة ضرورة حصول كل قرار يصدر منها على موافقة جميع أعضائها لتنفيذه – آثروا هذا على وضع أى حد لحقوق الدول وسيادتها الداخلية .

ولكن كم من المرات التأم شمل أناس من ذوى المقاصد السامية والرغائب الطيبة ، وعقدوا المؤتمرات للعمل على صون السلام ، ثم ارفضوا دون الوصول إلى شىء معين ، بعد إلقاء الخطب البليغة والأقوال الجميلة ! أما العصبة فقد قصد مؤسسوها أن تكون شيئاً مغايراً جد المغايرة لجميع هذه المظاهر الخيالية والإعلانات العقيمة ، وعُقِدَت النية على أن تكون هيئة دائمة تدعمها وتشد أزرها الحكومات القومية ، بقصد تقرير الشؤون الدولية ، وأن تتألف من جمعية عمومية مؤلفة من مندوبين يمثلون الدول الأعضاء فى العصبة . وتنعقد هذه الجمعية مرة كل عام لمدة شهر فى جنيف ، ومن مجلس كان يتكون أولا من تسعة مندوبين[1] . وينعقد هذا المجلس أكثر من مرة واحدة فى العام . أما أعمال الجمعية والمجلس فتعدها وتشرف على تنفيذها هيئة دولية من الموظفين المدنيين ، يطلق عليها اسم « سكرتارية العصبة » .

---

(١) خمسة منهم ينوبون عن الدول الكبرى التى لها كراسى دائمة فى مجلس العصبة ..

ثم أضيف إلى هذه الهيئات هيئات أخرى ، كمكتب دولى للعمل يضطلع بوضع نظام مشترك للعمال وشروط متساوية للعمل فى جميع أرجاء المعمورة ، وكمحكمة العدل الدولية فى لهاى . وأطلق للدول الحرية فى الانتفاع كثيراً أو قليلا ، حسبما يروق لها ، بهذه الأداة التى نظمت تنظيما دقيقاً .

المبادئ التى تضمنها عهد العصبة

ويقوم لباب عهد عصبة الأمم على الالتزام الذى أخذته جميع الدول الأعضاء على نفسها بأن تطرح منازعاتها على العصبة قبل أن تلجأ إلى استخدام القوة. وعهد العصبة لايمنع منعاً باتاً احتمال قيام حرب، ولكنه أعد هيئتين للتحكيم هما : مجلس العصبة ، ومحكمة العدل الدولية . وتعهدت الدول الأعضاء سلفاً بأن تعرض على مجلس العصبة ، أو على جمعيتها العمومية ، أى نزاع قد ينشأ بينها . وحُدِّدت فترة تعهدت فيها الدول المتنازعة بالمحافظة خلالها على صون السلام فيما لو كان حكم العصبة فى النزاع المعروض غير مقبول لديها . فلو أن جميع الدول كانت منضمة إلى العصبة ، ومستعدة للامتثال حرفاً وروحاً لأحكام العهد ، فإن هذه التدابير التى أعدتها العصبة للمصالحة والتحكيم وتأخير إعلان الحرب ، كانت تصبح كافية لتخليص العالم من شبح الحرب .

وعُهد أيضاً إلى العصبة بواجب آخر ، هو أن تسعى بكل ما فى وسعها إلى إنقاص التسلح بين دولها بمقتضى نظام يُتفق عليه فيما بينها . فقد كان الجميع يسلمون بشرور التنافس فى التسلح، ويجأرون بالشكوى من فداحة أعبائه . وكان جميع العقلاء يسلمون بصحة النظرية القائلة بألا تتسلح أية دولة بأكثر مما تتطلبه حاجياتها القصوى لإقرار الأمن والهدوء داخل بلادها . والقيام بالتزاماتها الدولية المفروضة عليها .

صعوبات التنفيذ

ولكن الصعوبة كانت فى وضع هذه المبادئ موضع التنفيذ ، حينما كانت ألمانيا تتميز حنقاً لتجريدها الإجبارى من السلاح ، وحينما كانت فرنسا يسودها القلق ، إذ شعرت أنها ليست فى مأمن من اعتداء ألمانيا عليها ، رغم كل التدابير والضمانات التى اتخذتها العصبة . والحق أنه لدلالة قوية على مدى المخاوف الدولية ، وتمكُّن الإحن والضغائن بين الدول ، أنه رغم جهود العصبة المتواصلة ،

كان عبء التسلح الذى أبهظ عاتق دول أوربا سنة ١٩٣٥ أفدح فعلا مما كان فى عشية إعلان الحرب العظمى سنة ١٩١٤ .

فكرة توثيق التعاون الدولى

ومن بين الأفكار الطيبة المثمرة التى حواها العهد فكرة توثيق التعاون الدولى بجميع أشكاله فى أزمنة السلم . فلم يقنع عهد العصبة بأن تتعهد الدول الأعضاء تعهداً صادقاً بالإقلاع عن الحرب ، وممارسة الدبلوماسية العلنية ، وإنقاص التسلح ، بل أوجب عليها أيضاً أن تتعلم التضافر معاً عن طريق العصبة ، لافقط فى إنجاز الأعمال الكبرى التى تقتضى تعاون بنى الإنسان ، بل أيضاً فى التعاون معا فى جميع الشؤون ذات المصالح المشتركة ، كصون مستوى المعيشة بين العمال ، ومناهضة الرقيق الأبيض فى النساء والأطفال ، وتنظيم تجارة الأفيون ، واتخاذ التدابير الناجعة لوقاية الصحة الدولية . ولربّ هذا الجانب الإنسانى من أعمال الجمعية هو الذى سيُكتب له الفوز بأمجد انتصارات العصبة وأجلّ أعمالها فى المستقبل .

حماية الأقليات

وكما شاهدنا مؤتمر ڤينا على أثر انتهاء الحروب النابليونية يعنى بمسألة إلغاء تجارة الرقيق ، كذلك رأى واضعو عهد العصبة ، فى روح خيِّرة مماثلة ، أنه يجب أن يضع هذا العهد على كواهل الأمم الأوربية التزامات ، لا نحو الأقليات العنصرية والدينية التى تعيش بين ظهرانيها فحسب ، بل أيضاً التزامات نحو الجماعات الضعيفة المتأخرة التى بسطت عليها الدول القوية سيطرتها .

مبدأ الوصاية

ولقد درجت الإمبراطورية البريطانية زماناً طويلا على أن تقوم علاقتها بتلك الجماعات على مبدأ الوصاية ، فتباشر سلطاتها لخير الشعب المحكوم ونفعه . فقرّ الرأى الآن على انتهاج هذا المبدأ (وهو مبدأ مأخوذ من القانون الرومانى) فى حكم الأراضى التى استولى الحلفاء عليها من الألمان والأتراك . فلبس مبدأ الفتح الخشن الهمجى مسوح المبادئ الخلقية ، واعتُبرت الدول المتحالفة وشريكاتها — ما عدا فى أحوال قليلة — دولا منتدبة من العصبة لإدارة الأملاك التى ضمت إليها ، وألزمت بأن تقدم فى فترات محددة حساباً عن قوامتها إلى

لجنة خاصة من لجان العصبة . وفى الحق أن فرض مبدأ كهذا على الدول العظمى ، وقبول هذه الدول العمل وفاقاً له ، لهو تقدم جلى فى الأخلاق الدولية .

خيبة الآمال

وعمر عقل الرئيس ولسن وعقول شركائه الإنجليز أملا ببناء عصبة أمم تعمل على بسط ظلال السلام على الأرض ، بحيث تنتظم فى هذه العصبة فى نهاية المطاف جميع شعوب الأرض ، ويكون فيها الجنس الأنجلو سكسونى واسطة العقد ، وحكومات الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الأدوات الرئيسية لنشاطها وأعمالها ونفوذها . هكذا كانت الرؤيا التى جالت فى قرائح أولئك الرجال وهم مجتمعون بباريس ، يصوغون قالباً جديداً للنظام الدولى .

ولكن هذه الآمال الكبيرة لم تعمّر طويلا . فإنه عند ما التأم عقد الجمعية الأولى للعصبة بجنيف فى خريف عام ١٩٢٠ ، لم يكن ممثَّلا بها غير أربع وأربعين دولة . ووقفت روسيا بعيداً عنها . ولم تر العصبة يومئذ أن ألمانيا وتركيا وغيرهما من دول الأعداء السابقة قد بلغت درجة كافية من النضج يسمح باشتراكها فيها . ولكن أخطر ضربة وُجهت للعصبة هى عدم تمثيل الدولة التى كانت موافقتها على قراراتها ، ومعاونتها فى تنفيذها ، جوهريتين لتنفيذ العقوبات الاقتصادية التى قد تعاقَب بها الدول الأعضاء التى تنقض عهدها ؛ وهى الدولة التى وضعت سائر الأمم ثقة كبيرة فى ميلها إلى العدل ، وبعدها عن الهوى والغرض . فإن الولايات المتحدة نفضت يدها من عمل رئيس جمهوريتها ، وأبت الانضمام إلى العصبة .

وعصبة الأمم ليس فى إمكانها أن تكون خيراً من الدول الأعضاء التى تتألف منها . فإذا كانت هذه الدول تروم السلام ، فإن العصبة تقدم الأداة التى تمكنها من نيله ، والمحافظة عليه فى خير السبل . ولكن سواء أكانت هناك عصبة ، أم لم تكن ، فإن أية دولة تعقد العزم على إشهار السيف تستطيع أن تصل إلى بغيتها . ولن يستطيع الجنس البشرى أن يتخلص تخلصاً فعالا من هذا التهديد الماثل حتى تعمر أذهان جميع أفراده يقيناً بأن الحروب الحديثة تعرض المدنية لأخطار تبلغ من الهول والجسامة بحيث يجب أن يُعد جريمة

إعلانُ أى دولة الحرب من غير أن تراعى سوى مصلحتها القومية فقط ، وأن يوقع عليها القصاص العدل . ولكن العالم فى الوقت الحاضر لا يعتنق هذه المبادئ السديدة الفطنة ، ولا هو مهيأ للسير بمقتضاها .

الخدمات التى أسدتها العصبة

لكن العصبة أدت فى الخمسة عشر عاماً الأولى من حياتها أعمالا دولية ما كان مستطاعاً تأديتها بدونها ، بحيث كان يصبح من الضرورى خلقها لو لم تكن موجودة بالفعل . فقد ألف رجال السياسة جو الاستشارات العالمية الذى كان سائداً فى چنيف بعد الحرب . وألّفت سكرتارية العصبة بطريقة تبعث على الثقة ، ونما عمل العصبة ، وامتدت رقعة التعاون الدولى .

وقد بسط فى قوة وإيمان ، اللورد روبرت سسل Lord Robert Cecil أحد واضعى عهد العصبة ومن أبرز المنضوين إليها خلال الأعوام الأولى الخطيرة الشأن فى تاريخها — بسط هذا النبيل المثل العليا للعصبة والأهداف السامية لجمعيتها العمومية . واستطاع زعماء الأمم الصغرى فى اجتماعاتها السنوية بجنيف أن يعرضوا أفكارهم ووجهات نظرهم على هذا المعرض الدولى للحكمة والرشاد . فنى تلك الاجتماعات أسدى هيمانس Hymans البلجيكى ، وبرانتنغ Branting السويدى ، ونانسن Nansen النرويجى ، وموتا Motta السويسرى ، وبنيش التشكوسلوڤاكى ، وبوليتيس Politis اليونانى — أسدى هؤلاء جميعاً خدمات مجيدة لجماعة الأمم الأوربية .

وكانت أهم من ذلك هى الفرصة التى أتاحتها اجتماعات العصبة لتكوين الصداقات والتأليف بين القلوب ، وموازنة الأفكار ، وتوسيع المعلومات ، وتقريب وجهات النظر المتعارضة . وفى وسط مشاكل الحياة الدولية المعقدة وخلافاتها وصدماتها ، كان شهر سبتمبر الذى تعقد فيه الجمعية العمومية اجتماعاتها السنوية بمثابة الأشهر الحرم . وكان هذا الشهر أقرب الأمور إلى « هدنة الله » فى العصور الوسطى — حتى وإن لم يحفل المثاليون اليابانيون المحبون للحرب والطعان إلا قليلا بالعصبة .

بقاء المنافسات الدولية

ومع ذلك فإنه رغم الخدمات العديدة التى قدمتها العصبة خلال الخمسة

عشر عاماً الأولى من حياتها، لم تَقُدْ العصبة دول أوربا — كما شاهدنا آنفاً — إلى نزع سلاحها لا أدبياً ولا مادياً . ومع أنه أنفق جهد كبير لحسم المشكلة الخاصة باختيار أنسب الطرق للتوفيق بين مطلب فرنسا المتعلق بسلامتها الحربية ، وبين مطلب ألمانيا الخاص بمعاملتها على قدم المساواة فى شؤون التسلح مع الدول الأخرى ، فإن هذه المشكلة ظلت مستعصية على كل حل ، نتيجة تخوف الفرنسيين من تفوق الألمان عليهم فى العدد ونسبة المواليد . وفيما عدا بريطانيا ، لم تقم دولة بجهد جدى لتخفيض تسلحها البرى . ولم يجد روح المسالمة الذى ساد بريطانيا صدى لدى حكومات باريس وبرلين وروما وموسكو وطوكيو وبراغ. فلم يتورع سيد إيطاليا الفاشستى مثلا من أن يعرب على رؤوس الأشهاد عن إيمانه بالسيف والقوة . واحتفظت الجمهورية السوفيتية — التى انضمت متأخرة سنة ١٩٣٤ إلى العصبة — بجيش مؤلف من تسعمائة وأربعين ألف مقاتل، وانسحبت اليابان وألمانيا سنة ١٩٣٣، وإيطاليا سنة ١٩٣٧ من العصبة ، وفى سنة ١٩٣٥ — أى بعد أكثر من عقد من السنين من التسلح السرى غير المشروع — رجع الريخ الألمانى جهاراً إلى نظام التجنيد الإجبارى ، وشهد العالم مرة أخرى دولة ألمانية حربية فى المرتبة الأولى من القوة المسلحة .

إن الدعامة الأكيدة الوحيدة لسياسة نزع السلاح هى الوصول إلى اتفاق عام بين الدول فى ما يتعلق بأهدافها السياسية . وقد أمكن الوصول سنة ١٩٢١ إلى اتفاق كهذا فيما يتعلق بمسائل المحيط الهادى بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واليابان. فعبَّد هذا الاتفاق الطريقَ للمشروع الهام الوحيد لنزع السلاح الذى أمكن الاتفاق عليه بالطرق الدبلوماسية .

فإنه عند ما كشفت الدول البحرية العظمى الأربع : بريطانيا العظمى والولايات المتحدة واليابان وفرنسا، أنها متفقة فى رغبتها فى اتباع سياسة « الباب المفتوح فى الصين ، وصون استقلال هذه الجمهورية ، غدا نزع السلاح البحرى مسألة ميسورة نسبياً . ووجدت دول المحيط الهادى فى مؤتمر لندن البحرى سنة ١٩٣٠ أن من السهل عليها أن تتفق معاً على نسب معينة لقواتها

البحرية ، وأن تنقص مجموع حمولة بوارجها، وتحظر تحصين قواعد بحرية جديدة فى ذلك المحيط .

ولكن حينما انشقت اليابان سنة ١٩٣٣ عن حليفاتها ، واستولت بعمل انفرادى على إحدى الولايات الصينية، تعرض مشروع نزع السلاح البحرى الذى حوته معاهدة واشنطون (سنة ١٩٢١ – ١٩٢٢) – تعرض برمته للخطر. ولم تضيع اليابان وقتاً فى إعلانها أنها ليست براغبة فى تجديد معاهدة لندن بعد سنة ١٩٣٦ – ذلك أنها شرعت فى تنفيذ سياسة ضخمة فى الصين ، ووطنت العزم على بناء أسطول أكبر يمكنها من تحقيق تلك السياسة التى تضاربت كثيراً بشأنها الآراء .

كتب يمكن استشارتها

Winston Churchill: The World Crisis. 1929
F.H. Simonds: How Europe made Peace without America. 1923
Harold Nicolson: Peace Making. 1919
J.M. Keynes: The Economic Consequences of the Peace. 1919
H. Wilson Harris: The League of Nations. 1929
A. Toynbee: Survey of International Affairs. 1920-1923
H. Temperley: History of the Peace Conference at Paris. 1921
E.M. House and C. Seymour: What Really Happened at Paris. 1921
E.J. Dillon: The Peace Conference. 1919
Colonel E.M. House: Intimate Papers. 1926
Prince Max of Baden: War Memoirs. Eng. tr. 1926
Ten Years of World Co-operation (Issued by the Secretariat of the League of Nations) 1930
F.J. Berber: A Collection of Documents. 1936

الفصل الخامس والثلاثون

تطور تركيا

فينيزيلوس . نزول القوات اليونانية فى إزمير ، مصطفى كمال . ميثاق سيواس والحرب التركية — اليونانية . نكبة الجيش اليونانى فى آسيا الصغرى . اتخاذ مسألة الشرق الأدنى وجهة جديدة . سقوط وزارة لويد جورج . معاهدة لوزان . تركيا الجديدة .

١ — بين الحلفاء واليونان

فينيزيلوس

كان ڤينيزيلوس الكريتى المولد ، ورئيس وزراء اليونان ، إحدى الشخصيات التى لمع اسمها فى مؤتمر الصلح فى باريس . وقلائل هم الساسة الذين بزوه فى تلك الحقبة فى التغلب على عوائق كأداء كالتى واجهته ، سواء بصفته قائداً للمقاتلين الكريتيين غير النظاميين بين تلال وطنه فى أواخر القرن الماضى ، أو المحرك الأكبر لعصبة البلقان سنة ١٩١٢ ، أو المدافع عن سياسة تحالف بلاده مع دول الحلفاء فى الحرب العظمى ، والحاض عليها حينما كان البلاط الملكى والرأى العام اليونانيين يعارضانه ، وكان نفوذهما فى غير جانبه . وكانت نظرته رحيبة الآفاق ، وبلاغته وسحر حديثه ولطفه تجذب إليه القلوب ، وتحنى له الهامات ، ودهاؤه ومكره وجرأته وروح المغامرة التى تملكت نفسه تعينه على تحقيق مطامعه .

كان ڤينيزيلوس واثقاً من مبدأ الحرب العظمى أن الحلفاء سيكسبونها ، وأن مصلحة اليونان الحقة هى فى مناصرة قضيتهم . صحيح أن الكتائب اليونانية

لم تحارب سنة ١٩١٥ جنباً إلى جنب مع الكتائب البريطانية فى حملة الدردنيل ، ولم تخفّ سنة ١٩١٦ لإسعاف الجيش الصربى قبل أن يقضى عليه الجيش النمساوى القضاء المبرم فى تلال ألبانيا . ولكن ذلك لم يكن نتيجة خطأ ارتكبه هو .

خدماته لقضية الحلفاء

وإذا كان الأسطول الفرنسى قد تمكن من إقصاء قسطنطين ملك اليونان عن عرشه فى يونيو سنة ١٩١٧ ، وبذلك أمكن لليونان أن تحشد ربع مليون من الجند ، وتشترك بنصيب فى انتصار الحلفاء النهائى على البلغاريين ، فإن أكبر الفضل فى ذلك ليعود إلى ڤينيزيلوس الذى اقترح إنزال حملة للحلفاء باليونان ، ونزل بقلب جسور معها فى سالونيك ، وأقام بها فى أغسطس سنة ١٩١٦ حكومة يونانية موالية للحلفاء ، وجنّد جيشاً موالياً لهم ، بينما كان الملك ووزراؤه ضالعين فى عناد وإصرار مع الألمان . فلهذه الخدمات الجليلة ، جاء ڤينيزيلوس إلى مؤتمر الصلح وهو يشعر بأن له حقاً فى أن ينتظر من الحلفاء مكافأة سخية ثمينة على هذه الخدمات لقضيتهم .

اليونانيون خارج أرض الوطن

وكان من بين القواعد السياسية التى استرشد بها الحلفاء يومئذ ، أن يعدوا أرضاً يونانية كل ما يمت بصلة لليونان فى تركية أوربا ، سواء من جهة اللغة أو الجنس ، وأن يضموها على هذا الأساس إلى بلاد اليونان . ولذا لم يجد الحلفاء صعوبة فى أن يضموا إلى اليونان تساليا ومقدونيا وتراقية الشرقية . غير أنه وُجِدت نواة لمشكلة مستعصية ، حينما اقترِح عليهم ضم آسيا الصغرى حيث انتثر فى مدن ساحلها وفوق هضابها زهاء مليون من التجار ورجال المال والمصارف والبحارة وأصحاب الدكاكين وعمالها وزراع التبغ والكروم والأرز وصناع الطنافس ، كانوا ينتمون جميعاً إلى الأمة اليونانية ، وأثار حرج مركزهم فيها قلقاً شديداً فى نفوس اليونانيين .

فقد كانت سلطة تركيا لا تزال مبسوطة فوق الأناضول بعد الحرب . ومع أن القوات البريطانية انتزعت من الأتراك سوريا وفلسطين والعراق خلال الحرب ، فإن كراهيتهم للمسيحيين المقيمين بآسيا الصغرى — التى هى تركيا الحقيقية —

ومقتهم إياهم بلغا درجة كبيرة . أضف إلى هذا أن الترك كانوا مسلحين ، وكانوا قد أزهقوا أرواح زهاء مليون أرمنى فى غضون الحرب العظمى .

نزول اليونانيين فى إزمير

وإذ كان المتوقع أن يكون اليونانيون هم الضحايا التالين ، فقد نال ڤينيزيلوس إذناً من رئيسى وزارتى بريطانيا وفرنسا بإنزال قوات يونانية فى إزمير . كما أنه خشى أيضاً أن تقع تلك المدينة فى قبضة الإيطاليين الذين كانوا يرمقونها بأعين طامعة ، إذا هو لم يبادر باحتلالها . وأمل أن يجد فيها اليونانيون القاطنون بداخلية آسيا الصغرى ملاذاً مأموناً ، إذا صحت هواجسه وتفاقم الخطر عليهم .

٢ ـ الحرب التركية اليونانية

إهانة لا تطاق

ولكن الترك قد يحتملون احتلال الإيطاليين لإزمير . أما أن تخفق الراية اليونانية الحقيرة المزدراة فوق أىّ صقع من أصقاع آسيا الصغرى ، فكان يعد من جانب كل تركى وطنى صميم إهانة لا تغتفر ، ولا تطاق . ولذا أثار نزول الجيش اليونانى فى ذلك الثغر فى ١٥ إبريل سنة ١٩١٩ ـ هذا النزول الذى اقترن بالقسوة والجريمة ـ أثار موجدة الترك ، وأهاج حفيظتهم ، وأذكى فى نفوسهم تصميما على مقارعتهم ، وأتاح لمصطفى كمال ، منقذ الدردنيل ، وأنبغ قواد الجيش التركى ، الفرصة لخلق دولة تركية مستقلة جديدة من ركام الإمبراطورية العثمانية المهزومة وحطامها المبعثرة .

مصطفى كمال

وكان مصطفى كمال يومئذ فى الثامنة والثلاثين من عمره ، شرس الطباع ، قاسى القلب ، ميالا إلى الخصام والشجار ، ذا بنية من حديد ، وإرادة قُدَّت من الصلب . وقد انحدر من سلالة فلاحين من أهل الأناضول ، ومع أنه ولد فى سالونيك . وكانت عربدته فظة ، وفجوره قاسياً ، ودعاراته عنيفة متسقة مع تقاليد أمته ، فإن نفاذ بصره ، وجلاء فكره ، واستقلال رأيه ، وموهبته فى الزعامة الحربية والسياسية ، كانت كلها مناقب انفرد هو بها دون سائر بنى جلدته .

وكان شعاره طوال حياته « تركيا للترك » . وحينما كان فى ميعة الشباب انضمّ إلى مؤامرة خلع السلطان عبد الحميد ، لا كلفاً بالحرية السياسية ، بل لأنه رأى بلاده تحت حكم ذلك السلطان المتعطش للدماء ، مهيضة الجناح ، نهباً للأجانب ، يملأ قلوبَ الناس الفزعُ من أعين الرقباء والجواسيس ، وأبصر أنه لا رجاء لها فى أن تصير حرّة قوية عزيزة الجانب إلا بهدم ذلك النظام الفاسد القتّال . وقد خاض غمار معارك عديدة ، فحارب فى لبنان ، وفى طرابلس ، وفى البلقان ، وفى الجبهة السورية ، فبلاَ الناس ، وسبر الأمور ، وكسب خبرة واسعة . وكان يغار من أنور وزير الحربية الباهر المواهب ، الموالى للألمان ، وينقد فى فطنة وحذر السياسة التى جعلت من تركيا تابعاً لألمانيا ، وأداة طيعة فى يدها ، والتى انتهت أخيراً ببوارها .

أهدافه

فما كان رجل مثله تعمى بصيرته عن رؤية الأحداث المعاصرة ودلالاتها الكبرى . وكانت العبرة التى استخرجها من الحرب العظمى هى أن تركيا هُزمت لأنها سمحت لنفسها أن تتورط فى حبائل الدول الغربية ، وأن ترهب تهديداتهم ، وأنها ظلت جامدة متأخرة لا تساير موكب الحضارة ، وأنها أنهكت قواها فى حكم الشعوب غير التركية . ورأى العلاج من هذه الأدواء فى التحرر من التحكم الأجنبى ، والإصلاح الداخلى ، وإذكاء روح قومية ترتكز على أسس تركية فى وطن الأتراك الأصلى . فقد هلكت هلاكاً أبدياً المطامع الإمبراطورية القديمة التى تمثلت فى أنور وعصابته . فإن الترك أبعدوا من ضفة قناة السويس ، وطُردوا من العراق وفلسطين وسوريا ، وألقى الأسطول البريطانى مراسيه فى مضيق الدردنيل ، وغدا السلطان دمية فى أيدى الساسة البريطانيين ، ولم يبقَ لمواطنيه الآن سوى آسيا الصغرى . وحتى فى هذه استقر الغربيون فى ركن من أركانها .

ميثاق سيواس

فبعد أربعة أيام من نزول اليونانيين فى إزمير ، وطئ مصطفى كمال بقدمه أرض وطنه الأسيوى ، يحمل انتداباً من السلطان . وكان قد حزم أمره على « البقاء فى الأناضول إلى أن تظفر الأمة باستقلالها » . وألف جمعية نيابية

اجتمعت فى سيواس ، ووقعت فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٩ ميثاقاً يقضى بمواصلة الحرب إلى أن تحرَّر أرض الوطن من العدو الغازى . فانضوى تحت علمه كل من دبت فى نفوسهم الحياة والحماس من الشعب التركى . وبايعوه على الوقوف وراءه صفاً مرصوصاً .

فأقام حكومة فى ٢٤ إبريل سنة ١٩٢٠ ، واتخذ أنقرة عاصمة له ، وأعلن انفصاله عن السلطان ، وصمم على أن يبدأ حياة جديدة وصفحة تاريخية جديدة لبنى وطنه فى هضاب الأناضول ذات النسيم العليل : هذه الأرض التى أظهر فيها آباؤه وأجداده للعالم بسالتهم وإقدامهم ، قبل أن يفتك بأخلاقهم جو الغرب الملوث.

نكبات اليونانيين

وقَلَب كل شىء لليونانيين ظهر المجن فى الحرب التى تلت هذه الحركة ، وطاشت خططهم بعد إحرازهم بضع انتصارات أولية . ففى داخل اليونان حدثت سلسلة من الكوارث والاضطرابات . وفى الخارج أصيبت الجبهة اليونانية الحربية بتصدع جلى . فمن كان يدور فى خلده أن إسكندر ملك اليونان (وابن قسطنطين) تعاجله المنية على حين بغتة نتيجة عضة قرد أليف ؟ أو أنه فى الاستفتاء الذى جرى بعيد هذا الحادث يغمر البلاد شعور قوى للانتصار للملكية يجرف ڤينيزيلوس من دست الحكم (فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٠) ، ويرجع قسطنطين إلى أريكة العرش ، تكتنفه بطانته الموالية للألمان ؟

وكان لا بد من حدوث ردود فعل لهذه الأحداث فى الجبهة الأسيوية . فإن الجيش اليونانى الذى قاده الآن قسطنطين شرع فى زحف سريع على أنقرة . ولكنه مُنِىَ بهزيمة نكراء على ضفاف سقارية (٢٣ أغسطس — ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢١) ، وزاده وهناً على وهن فصل كثير من ضباطه الضالعين مع ڤينيزيلوس ، فأصبح غير قادر على الصمود بشكل فعال أمام الأتراك .

وما كان للجيش اليونانى أن ينتظر عوناً من الحلفاء. فقد كان الإيطاليون يمقتون اليونانيين ، وكانت فرنسا قد أبرمت صلحاً مع تركيا فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢١. ورفض الحلفاء اقتراح الوزارة اليونانية الذى قدمته فى يونيو سنة ١٩٢٢ بالسماح

لجيش تراقية بأن يحتل القسطنطينية . والحق أن مستر لويدچورج من بين جميع ساسة الحلفاء البارزين هو وحده الذى أحس بمسئولية نحو الشعب اليونانى ، وتاق إلى إنجاز العمل الخاص بسحق الترك نهائياً على يد الكتائب الهيلينية ، وهو العمل الذى بدأه الجنرالان مود Maude وألنبى Allenby بداءة مجيدة فى العراق وفلسطين .

إحراق إزمير

ولهذا تُرِكَ اليونانيون يجابهون بمفردهم العاصفة. فلم يستطيعوا الصمود لها وتذليلها. فقد روعتهم الهزيمة ، وشل جهودهم الانشقاق ، وساء ظنهم بأهلية قيادتهم العليا . فانهارت صفوفهم أمام أول ضربة قاسية وجهها لهم العدو (فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٢) ونكصوا على أعقابهم إلى الساحل فى اضطراب واختلال شديدين . فدخل الترك إزمير فى أعقابهم ، وأشعلوا النيران بالمدينة ، وذبحوا جميع من صادفوهم من الجنس اليونانى . وأنقذت سفن الحلفاء أكثر من مليون مسيحى هاموا على وجوههم من ذلك الغضب الهائل الطاغى . وقد أمكن توزيعهم فيما بعد بعمل مجيد من أعمال البر المنظمة على بلاد اليونان وجزرها .

نهوض شرق جديد

ونهض من حطام إزمير المحترقة شرق غير مألوف، ولكنه شرق يوحى برجاء كبير . صحيح أن عرشين ثُلاَّ ، هما : عرش اليونان ، وعرش آل عثمان. وكان الأول غريباً عن اليونان ، حكمها قرابة تسعين عاماً ، والثانى عريقاً فى أصول الشعب العثمانى وتقاليده . ولكن اليونان صارت بعد هذه النكبة دولة أغنى وأقوى وأكثر سكاناً مما كانت ، نتيجة لقدوم المهاجرين الأسيويين الدءوبين الذين يمموا وجوههم شطرها فى ساعة محنتهم . وكذلك امتازت الجمهورية التركية التى أقامها مصطفى كمال على أنقاض السلطنة العثمانية بتركيز سلطة الدولة وقوات الأمة . وبذلك كفّت مسألة الأقليات المسيحية فى تركيا التى أقلقت وجدان الأوربيين ، وصاغت سياسات الدول الغربية دهراً طويلا — كفّت هذه المسألة عن أن تقض مضاجع وزارات أوربا .

أجل : سُفكت دماء الأقليات فى تلك البلاد ، وطُردوا من بيوتهم ، ولكن من عجيب المتناقضات أن هول هذه النكبة كان أكبر سبب فى إزالة العداء

بين اليونانيين والترك. كما عاون إجراء بعض ترتيبات وُضعت لتبادل السكان بينهم على إزالة أسباب الكراهية بين الشعبين ، وإنشاء علاقات ودّية بين حكومتى أنقرة وأثينا . وهكذا نُفذ مبدأ تقرير المصير عن طريق السيف والنار ، والذبح والتدمير ، فى الشرق شبه المتحضر .

سقوط وزارة لويد جورج

وسقط « لويد جورج » الزعيم الحرّ الضالع مع اليونانيين بهزيمة أصدقائه الهيلينيين . ذلك أن الصفوف الخلفية فى حزب المحافظين غدت قلقة حائرة تحت زعامة رئيس وزارة ائتلافية بلغ من تنفيذه مبادئه الحرة الراديكالية فى الشؤون الخارجية أنه تفاوض مع الإرلنديين العصاة ، وعقد معهم معاهدة فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ مُنحت إرلندا بمقتضاها مركز المستعمرات البريطانية المستقلة ، وشجع اليونانيين على الحرب ، واقترح الآن الدفاع عن الدردنيل ضد هجوم الأتراك الظافرين .

فارتاع المحافظون من شبح حرب جديدة ، وعقدوا اجتماعاً فى مقر حزبهم فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وقرروا الانسحاب من الوزارة المؤتلفة . فاضطر لويد جورج إلى تقديم استقالته . وهكذا أقصى « هذا الربان الجسور الذى أدار سكان الإمبراطورية فى أحرج ساعاتها » خلال ستة أعوام عصيبة بلغت أثناءها سلطته ونفوذه وسيطرته على الشؤون العامة ، سواء فى زمن الحرب أو فى زمن السلم ، أعظم ما بلغته سلطة وزير بريطانى ونفوذه منذ عهد الدوق ولنجتون .

وثبّت سقوط الوزارة الائتلافية البريطانية أركان الفوز التركى . وعبر مصطفى كمال فى هدوء شاطىء الدردنيل ، واحتل القسطنطينية بعد أن خلصته الأقدار من خليفة غلادستون[1] .

معاهدة لوزان

واضطر الحلفاء فى مؤتمر لوزان الذى عقد سنة ١٩٢٣ أن يصادقوا على النتائج السياسية التى ترتبت على الانتصار التركى . فأزيل كل شىء كان يرمز

(١) يقصد به المؤلف مستر لويد جورج .

إلى النظام القديم القائم على هيمنة الدول الأوربية على تركيا . فألغيت الامتيازات الأجنبية التى كانت تمنح التجار الأوربيين بعض المزايا فى شؤون القضاء والمال ، وهى الامتيازات التى ألزم الباب العالى بمنحها فى أحوال عديدة لحماية رعاياه والأجانب المسيحيين القاطنين بأرضه . وعزم الترك على أن يكونوا سادة فى بلادهم . ولم يستطع اللورد كرزن بذلاقة لسانه وتألق مواهبه – وهو الذى مثل بريطانيا فى هذا المؤتمر – أن يحرم الترك من الانتفاع من انتصارات مصطفى كمال ، فإن راية الهلال ما زالت تخفق على استنبول وغاليبولى .

تركيا الجديدة

ومُهِّدت الطريق الآن لهذه السلسلة من الإصلاحات الجريئة الجارفة ، التى كانت قد نوقشت وكثر الجدال بشأنها ردحاً طويلا من الزمن فى أندية جماعة تركيا الفتاة ، والتى جعلت الآن مصطفى كمال يلمع كعلم من أعلام الأتراك ، وأعطت لتركيا مظهر الدولة المتمدينة العصرية .

فألغيت الخلافة ، وألزمت النساء برفع النقاب ، وجُعلت المدارس تحت إشراف الدولة ، وترجم القرآن إلى التركية ، وصدر سنة ١٩٢٨ قانون ينص على إبطال الدين الإسلامى كالدين الرسمى للجمهورية التركية ، الأمر البعيد ابتعاداً هائلا عن التقاليد التركية المرعية . واسترعى ما جلّ وما دق من الأمور أنظار الغازى واهتمامه : فألزم الترك بإبدال الطربوش بالقبعة ، حتى يكره المصلون منهم على ألا تلمس جباههم الأرض خلال صلواتهم وعباداتهم . ووافق المجلس الوطنى ، دون أن يبدى أية ململة أو تذمر ، على هذا الإصلاح ، وعلى تغييرات عصرية أخرى غيره ، كإلغاء تعدد الزوجات ، وإدخال الحروف اللاتينية فى الكتابة التركية ، واقتباس القوانين الأوربية ، وتسريح طوائف الدراويش والسحرة وكتبة التمائم والتعاويذ والمنجمين .

وكان يكفى لإقرار أى شىء أن يوصى به الغازى . فإنه حينما أعرب بعض النواب فى المجلس الوطنى الكبير عن ريبتهم فى فائدة كسر التقاليد القديمة : الأمر الذى نجم عن إلغاء السلطنة والخلافة ، حاججهم مصطفى كمال بقوله : إن آخر الخلفاء الحقيقيين اغتيل سنة ٩٢٤ م . ثم قال : « إن السيادة تُنال

بالقوة والبطش والعنف . فبالعنف نال خلفاء عثمان حق حكم الأمة التركية ، وبالقوة حافظوا على سلطانهم أكثر من قرون ستة . وقد ثارت الأمة الآن على هؤلاء المغتصبين ، ووضعتهم فى مكانهم الصحيح . وتسلمت فى يدها مقاليد السلطان والسيادة »(١) . ثم سُمعت فى نهاية خطبته أصوات تقول « الاقتراع . الاقتراع » . ولكن سُمع صوت واحد يقول : « إنى أعارض ذلك » . فانذهل الترك إعجاباً وتقديراً . وصدعوا لأمر زعيمهم وقائدهم . أفليسوا هم الأمة التى تتألف من جنود مقاتلين ؟

كتب يمكن استشارتها

A. Toynbee: Survey of International Affairs for 1925
K. Krûger: Kemalist Turkey and the Middle East. 1932
H.C. Armstrong: Grey Wolf. 1932
Mustapha Kemal: Speech delivered from October 15, to 20, 1927 Koehler, Leipzig, 1929
W. Miller: Greece. (Nations of the Modern World Series) 1928
A. Toynbee, and M.P. Kirkwood: Turkey (Nations of the Modern World Series) 1926
H. Nicolson: Curzon: The Last Phase. 1934

(١) من خطاب ألقاه الغازى فى المجلس الوطنى من ١٥ إلى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٧

الفصل السادس والثلاثون

الدكتاتوريات الجديدة والديمقراطيات القديمة

الدكتاتوريات الجديدة ، والديمقراطيات القديمة . تضاؤل الإيمان بالحرية . تحدى الرأسمالية . العقيدة البلشفية . لنين . الحرب بين البلاشفة والروس البيض . روسيا و بولندا . معركة وارسو . الشيوعية فى إيطاليا . بنيتو موسوليني . الثورة الفاشية . أدلف هتلر . ثورة فيمار . الفرنسيون يحتلون الرهر . شترسمان وسياسة الوفاء بالتعهدات . تأخير نزع السلاح . نكبة سنة ١٩٢٩ . الفلسفة النازية الراديكالية . انتصار المبادىء الهتلرية . بريطانيا بعد الحرب العظمى . مبادىء السياسة البريطانية وأسسها . ذعر أوربا . اللاجئون . ستالين . السلام والحرية .

١ ــ الدكتاتوريات الجديدة والديمقراطيات القديمة

تضاؤل الايمان بالحرية

بنزول خطوب الحرب على أوربا ، وابتلائها بنكباتها ووحشيتها ، وانتزاع الرحمة خلالها من قلوب أبنائها ، ضاع بدرجات غير محسوسة ذلك الإيمان القوى الذى كان يعمر أفئدة عامة الناس بقدسية الحرية المدنية والإقناع السلمى ، اللذين كانا من السمات التى امتاز بها القرن التاسع عشر . وكان ثمت قبل الحرب أسباب قوية تدعو إلى الاعتقاد بأن النظم البرلمانية تحوى فى ثناياها الدواء الناجع الذى سيبرئ العصر القادم من جميع الأمراض والأسقام . فلم تستطع مملكة من ممالك العالم تزعم أنها راقية متمدينة ــ حتى روسيا نفسها ــ أن تقاوم مقاومة مجدية فعالة ضغط الرأى العام الذى كان يجاهد فى سبيل الوصول إلى الحكومات المسئولة ، والبرلمانات ، وحق الانتخاب العام . فقد كانت الإمبراطورية النمساوية تملك برلماناً منتخباً بالاقتراع العام ، وكان حزب المؤتمر الهندى يرفع صوته مطالباً بإنشاء برلمان فى بلاده .

إيمان الناس بالديمقراطية ومبدأ حرية العمل

وكان ثمت افتراض عام غلب على تفكير الناس قبيل الحرب العظمى بأن السبيل إلى التقدم السياسى هو فى توسيع حقوق الانتخاب ، وتثقيف الناخبين ، وتحسين الأداة الحكومية البرلمانية . هذا على الأقل هو الاعتقاد الذى آمن به الأحرار الإنجليز ، واضطر المحافظون إلى قبوله فى درجات متفاوتة . واعتبر كثرة الناس أن الأدلة على قيام حكومة متحضرة رشيدة فى بلد ما ، هى منحها كل مواطن من مواطنيها حق الفكر كما يحلو له ، وحق الخطابة كما يروق له ، وحق التصويت كما يطيب له . نعم إن هناك بعض أخطار للحرية ، ولكن هذه الأخطار كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له إلى جانب خطر السماح لتذمر الرأى العام وسخطه بأن يتجمعا ويتّرا كما تحت نظام من الطغيان والقمع .

وكن هذا الإيمان الواسع الانتشار بالحرية السياسية يقترن غالباً فى إنجلترا بمبدأ « حرية العمل » فى ميادين الأعمال الاقتصادية . ذلك أن صرح المجتمع الأوربى فى أزمنة السلم لم يكن من صنع الحكومات . فلم تكن أيدى الحكومات هى التى جمعت ثروة بيت رتشيلد الطائلة ، ولم يكن من عمل الحكومات أن سكان أوربا تمكنوا من التناسل والازدياد أكثر من ثلثمائة وخمسين مليون نسمة فى مائة وثلاثين عاماً .

إن بنيان المجتمع الأوربى الرأسمالى يعود إلى الاختراعات الفردية ، وإلى المغامرات الفردية ، وإلى اعتمادات رؤوس الأموال الدولية المتجمعة من ادخار الأفراد ، والمتنقلة بملء الحرية من بلد إلى آخر طوعاً لتأثير الكسب الفردى الخاص . وكانت أغنى مملكة فى أوربا وأثراها هى التى حُصِر فيها تدخل حكومتها فى شؤون التجارة والصناعة فى أضيق الحدود . وكان خير إعلان لقيمة الحرية الاقتصادية هو أرقام تجارة بريطانيا ، والأرباح التى غنمها الشعب البريطانى .

تقدم الولايات المتحدة العجيب

أما فى الجانب الآخر من الأطلنطى ، فقد خبر مجتمع منحدر من

سلالة أوربية زيادة هائلة توشك أن تكون خيالية فى عدد السكان ومقدار الثروة خلال القرن التاسع عشر . فإن تاريخ الولايات المتحدة الاجتماعى والاقتصادى ، من إعلان الاستقلال سنة ١٧٧٦ إلى الضائقة المالية العظيمة سنة ١٩٢٩ ، كان تاريخاً لضرب من الرخاء المتواصل المتزايد لا مثيل له على الإطلاق فى التاريخ . ولكن رغم نمو عدد السكان السريع ، فإن موارد القارة الأمريكية كانت كافية لسد مطالبهم المتزايدة . ولم تتعارض الثروات الهائلة التى جمعها أمثال ڤندربلت وركفلر وفورد مع رغد مجموع الأمة الأمريكية وبلوغها فى طيب العيش أرفع مستوى للراحة والرفاهية بلغته أمة فى تاريخ البشرية .

أسبابه

وترجع هذه الرفاهية العجيبة إلى مران وتقاليد طويلة الآماد فى الأعمال والمغامرات الفردية ، بجانب هبات الطبيعة الجزيلة . فإنه من الأيام الأولى لاستعمار الولايات المتحدة ، حينما كان دستور كل مستعمرة أمريكية يشبه البيانات الجذابة للشركات عند أول إنشائها فى تقدير الأرباح التى تتوقع كسبها ، كانت الأعمال الفردية بقصد الربح الشخصى هى شعار الأمة الأمريكية ، وكان يُيسَّر كل شىء فى وجه المهاجر والمستوطن والمغامر . فكان يُدعَى إلى القدوم ، وينزل على الرحب والسعة بين ظهرانى المستعمرين ، ويستطيع أن يبتاع أرضاً فى قطع صغيرة وبأثمان منخفضة . وكان أطفاله يعلمون بالمجان ، وكان يدرك أنه أينما طاب له أن يحط رحاله ويستقر، فإن جميع القوانين الفردية والامتيازات الدستورية التى تمنحها كل ولاية فى الاتحاد لمواطنيها ، ستمنح له بعد مرور الوقت المناسب .

وكانت أمريكا أرض « الدولار » . فلم يحرم القانون أو العرف العام على أى مواطن أمريكى جمع الدولارات وتكديس الثروات . وإذ لم توجد فى تلك البلاد أرستقراطية وراثية ، أو طبقة سياسية تخص بالتبجيل ، وإذ كان فى مقدور كل مواطن أمريكى أن يطمح إلى رغد العيش ، ويسعى إلى اقتناء المال الوفير ، فقد راح من عدم المساواة بين الأفراد نصف غصتها

ومرارتها . فكانت الثروة أهم ركن للاحترام والتبجيل بين القوم ، حتى ولو أنه كان من السهل يومئذ الظفر بها ، أو إضاعتها .

موازنة بين أمريكا وأوربا

ولم يمر هذا المشهد العجيب للفردوس المادى الذى تمثل فى أمريكا على أنظار أوربا من غير أن يثير اهتمام أبنائها . وإذا كانت قد سُمِعت فى بعض الأحايين فى وسط هذه اللجب الصاخبة الأمريكية أصوات تذم مموِّلى وول ستريت ، وتندد بملوك الزيت والفولاذ ، فإنه ما من أحد داخله الريب قبل تدهور الأثمان العظيم سنة ١٩٢٩ فى أن معضلة الفقر الجبارة المستعصية قد حُلَّت حلا جد موفق فى أمريكا ، حيث لا تعرقل القوانين مواهب الإنسان المنتِجة ومقدرته على البناء والحشد .

أما فى أوربا ، فعلى حين كانت أمواج الحرية السياسية تعلو وتتضخم ، أخذت تيارات الحرية الاقتصادية تميل إلى الهبوط والنكوص . وكان أمراً معقولا أن يفكر جيمس مل ويكتب سنة ١٨٢٠ عن الحكومات بأنها شيء سيء ضار : ذلك لأن الحكومة الإنجليزية فى ذلك الحين كانت تسيطر عليها طبقة ممتازة صغيرة العدد ، وُجهت إليها أحياناً تهمة الارتشاء والسمسرة . ولكنه كان أمراً بعيداً عن السداد والصدق أن يُنظر الآن إلى هذه الحكومة بمثل هذه النظرة المحقِّرة بعد أن دخلت الأمة قاطبة فى حظيرة الدستور وكنفه . وقد لا تكون الحكومات الديمقراطية سديدة الرأى صائبة الحكم على الدوام ، ولكنه يُنتظر منها على الأقل أن تصون مصالح الجمهور كمجموع . كما أن تدخُّل حكومة كهذه قد يؤدى بشكل إيجابى إلى سعادة رعيتها وتوفير رغد العيش لها .

شرور النظام الرأسمالى

بل إنه يؤمل أيضاً من مثل هذه الحكومة أن تكبح بنوع خاص شرور النظام الرأسمالى وآثامه : هذه الشرور وتلك الآثام التى تظهر فى تبديد الجهود نتيجة للمزاحمة المطلقة ، وفى عدم حرص الشركات ذات المسئولية المحدودة على الخير العام ، وفى ضغط مؤثرات الممولين الأثيمة على المجالس النيابية وشئون التشريع ، واستغلال الضعفاء وتسخيرهم ، والتفاوت العظيم فى الثروة

بين إنسان وآخر . فنى السنين التى قفت الحرب ، واجه العالم ظاهرة الفقر المدقع والحرمان المرير وسط فيض من الخيرات والنعم منقطع النظير . فعلى حين عاشت ملايين من البشر خاوية البطون عارية الأبدان ، كانت تدمَّر بالفعل المحاصيل لزيادتها على الحد الذى يأتى بالربح إلى جيوب أصحابها .

فتساءل الناس : إلى أين العالم سائر ؟ وما هو المصير ؟ وارتفع النقاش ، واستعر الجدل ، بأن البرلمانات أصابها الإفلاس ، وأن الحضارة الديمقراطية بلغت نقطة التحول ، وأن مبدأ « حرية العمل » يجب أن يستعاض عنه بمبدأ « الاقتصاد المنظم » فى جميع الشئون . وحتى فى إنجلترا طالب العمال فى مؤتمرهم السنوى سنة ١٩١٩ بأن يعاد تشييد صرح المجتمع بأكمله من جديد .

٢ ــ الثورة البلشفية

انهيار النظام الاجتماعى

وكان ثمت شرٌ عظيم نجم عن الحرب ، وشاع فى قسم كبير من أوربا ، هو انهيار النظام الاجتماعى . فقد قلت ثقة الناس بسلطان الحكومات ، ووَهَنَ نفوذ العرف والتقاليد ، وتحلل القوم فى جميع الممالك المنهزمة من أواصر النظم القديمة ، وتطلعوا إلى زعامة جديدة تهدى أقدامهم فى فجاج غير مطروقة . وصحَّ هذا الأمر فى روسيا بخاصة . فقد كانت حكومتها القيصرية أسوأ الحكومات وأضعفها . وعُبِّدت فيها الطريق إلى الثورة خير تعبيد . وخرج من الاضطرابات والفتن التى قامت فيها فى تلك الساعة العصيبة ثلاثة أمور : رجل ، ومبدأ ، وإيمان .

مبدأ ماركس

أما المبدأ فقد استُمِد من كتابات ماركس ، وهى تطالب بالاستعاضة بالشيوعية عن النظام الرأسمالى الراهن الذى يقوم عليه المجتمع . وهى، استعاضة رأى أنصار هذا المبدأ أنها النتيجة الحتمية للتطور الإنسانى الطويل الدهور . وهذا المذهب يتحدى الملكية الخاصة ، والإيمان بالله ، ونظام الطبقات ، وجميع الأفكار المتعلقة بالفنون والآداب والفلسفة التى ترتكز عليها الطبقة

الوسطى وتؤمن بها . وقد اضطر الروسى — وهو الرجل المتعبد الخاشع — أن ينبذ كثيراً من معتقداته الدينية ، ويطلّق كثيراً من تقاليده ، لكى يعتنق هذا الدين الجديد الذى بجانب توفيره له أسباب السلام والرزق ، ينادى بالمبدأ القائل بأن الأولين يكونون أخيرين ، والأخيرين يكونون أولين . فإن الشيوعية الروسية ، رغم تنديدها بالدين « كمخدر للشعب » ، حملت سمات العقيدة الدينية ، وكانت كدين الإسلام عالمية مجاهدة داعية ، وكان نبيها هو لنين ، وكنيستها هى الحزب الشيوعى .

لنين

وكان لنين نبياً متعصباً شديد الغلو . وقد ازداد سلطانه على النفوس أضعافاً مضاعفة لإيمانه إيماناً قلبياً عميقاً بأن الأقدار اختارته لكى يتزعم ثورة روسية مفلحة ، ويقودها إلى النصر . فمن غير أن يملك جاهاً أو مركزاً أو مالا ، كان هذا المتآمر المغمور الذى قضى شطراً كبيراً من حياته فى سجون سيبيريا ، أو مقيما فى الأحياء الرخيصة بلندن وسويسرا — كان هذا المتآمر ممتلئاً يقيناً وثقة بأنه كُتِب له أن يقلب يوماً من الأيام نظام روسيا القديم رأساً على عقب ، وأن « يصفى » الطبقة البورجوازية ، وأن يقيم صرح دكتاتورية العمال . وقد كفلت له حيويته الفائقة ، ونشاطه الجم ، وعقله الماضى ، وذكاؤه الألمعى القاسى ، ونظرته الواضحة الجلية ، وموهبته النفسية — النادرة بين الروس — فى الكلام الموجز الفعال ، وسرعته فى إنجاز الأعمال ، وقدرته التى كاد يكون فيها منقطع الضريب على جعل نفسه مرهوب الجانب — كفلت له هذه الصفات تفوقاً وسيطرة على أتباعه الثوريين يضارعان ما كان لپارنل من النفوذ والهيبة فى الحزب البرلمانى الإرلندى .

وكانت هيئة أركان الحرب العامة الألمانية ، بتقدير صائب لمواهبه الفذة ، قد وضعت الترتيبات لنقله إلى روسيا من سويسرا حيث كان يقيم (عام ١٩١٧) ، كى يفسد الروح المعنوية للجيش الروسى . وفعل السم مفعوله ، وسرى بسرعة فائقة فى أوصال الأمة الروسية . ذلك أنه قبل أن ينقضى عام واحد ، نصب هذا الجبار نفسه قيصراً على روسيا — قيصراً كان أشد هولا

وأعظم فتكاً وأكبر سلطاناً وأكثر إنتاجاً وخلقاً ، من بطرس الأكبر ذاته .

وكان لنين خلواً من المبادىء الخلقية والنواهى الأدبية . وكان إنسانياً إلى درجة رفيعة رحيبة ، بحيث كان فى وسعه أن ينظر فى هدوء إلى قتل الناس جماعات ، الأمر الذى اقتضاه إنشاء نظامه وترسيخه . وبدت له المجاعات والحروب لا كأعداء ، بل كصديقات مسعفات : المجاعات لأنها أذكت حنق الفلاحين على حكومة القيصر ، والحروب لأن النضال المسلح الناشب وقتئذ بين الأمم الرأسمالية سيقترن فى نظره بالحرب المروعة القادمة الأشد هولا ورعباً ، التى رأى أنها ستنشب يوماً ما بين طبقات المجتمع ، والتى ستستطيع وحدها أن تجلب فى ذيولها السلام الذى تنادى به الشيوعية .

برنامجه

وكان برنامجه هو : الشيوعية لروسيا أولا ، ثم لسائر أرجاء العالم فيما بعد . وألّفت كتابات ماركس قرآنه الذى يهتدى بوجيه وإرشاده . ولكن رغم أنه كان رجلا نظرياً يسترشد بما توحى به الكتب ، فإنه لم تكن تعوزه سمات السياسى العملى الرشيد .

فإنه أباح سنة ١٩٢١ حرية التجارة ، متحدياً بذلك النظريات الشيوعية ، حينما رأى أن الشيوعية المطلقة من كل قيد ستورد الأمة الروسية موارد البوار . ولم يغمض عينيه عن رؤية المنافع التى تُجنى من استخدام رؤوس الأموال الأجنبية فى دعم الصناعات الروسية . ولم يظفر مشروع ترتسكى وزينفييف الذى حض على القيام بحملة عنيفة من الدعاية الثورية فى الأقطار الأجنبية ، بتأييده وموافقته . بل اعتقد أن الأفضل هو ترسيخ النظام الشيوعى فى روسيا نفسها بكل ما يمكنه الحصول عليه من مساعدات الدول الرأسمالية . فعقد اتفاقية تجارية مع إنجلترا سنة ١٩٢١ ، وأخرى مع ألمانيا سنة ١٩٢٢ . وأخذ يحلم بإنشاء دولة روسية يستطيع فيها كل فلاح أن يقرأ ويكتب ، وأن يملك بيتاً صغيراً يضاء ويدفأ بالكهرباء .

أدوات التنفيذ

وكانت الأدوات التى باشر بها لنين سلطانه هى : (أولا) حزب شيوعى دقيق التنظيم ، (ثانياً) شرطة سرية ورثها عن النظام القيصرى ، (ثالثاً)

الجيش الأحمر . وقد استخدم وسائل الإرهاب ، ولكن حكمه كان نزيهاً خالياً من الرشوة والفساد . فقد خصص لنين ووزراؤه لأنفسهم مرتبات صغيرة ، ومارسوا الزهد الشديد والتقشف المجهد اللذين دعوا إليهما الآخرين . فقدرت البلاد ولاءهم لمبادئهم ، ومجّدت إخلاصهم لقضية الشعب .

آثاره

وقدم الشعب طوعاً واختياراً إلى لنين خاصة ألواناً من التعظيم والتفخيم تدنو من تلك التى تقدّم للآلهة . وقد حكم لنين روسيا ستة أعوام دقيقة جليلة الخطر ، حوّل فى خلالها حياة الشعب ، وبدل نظمه ومؤسساته . فاغتفر الناس لمحررهم العظيم كل جريرة ، وصفحوا عن كتاباته العديدة الخانقة المجلبة للسأم ، وقسوة نظامه الذى لم يعرف فى سبيل تنفيذه شفقة ، والسرور الشيطانى الرجيم الذى كان يفيض به قلبه لأرزاء الأغنياء وشقوة ميسورى الحال . وما يزال الحجاج الروس الورعون يحجُّون إلى اليوم أفواجاً إلى قبر هذا الزعيم الثورى العظيم ، ويسيرون صفوفاً أمام جثمانه المحنط الذى كان خلال وجوده على قيد الحياة عنيف النشاط ، شائك الملمس ، والذى يرقد الآن رقدته الأبدية فى الميدان الأحمر بموسكو ، يخيم عليه سلام الموت الوارف ، بينما تواصل إرادته وذهنه صوغ المثل العليا للدولة الروسية .

إخماد الثورة الأهلية

وقد واجهت الشيوعية الروسية فى مستهل حياتها شراً عظيماً داهماً ، هو اندلاع لظى حرب أهلية تؤيدها دول الحلفاء وشريكاتها . وكان وازع الحلفاء إبقاء روسيا فى الحرب ضد ألمانيا ، بمد يد المعونة إلى العناصر الروسية التى كانت لا تزال راغبة فى حفظ العهود التى عقدتها حكومة القيصر معهم . فباتت الحكومة البلشفية هدفاً للهجوم من كل صوب : من ناحية سيبيريا ، ومن البحر الأحمر ، ومن أركانجل ومورمنسك ، ومن إستونيا . وأكرهت على الوقوف موقف الدفاع . ففى الشرق اكتسح الجنرال كلشاك Kolchak سيبيريا ، وفى الجنوب زحف دنيكين Denikin على موسكو .

ولكن كما امتلأ الفرنسيون حماساً خلال الثورة الفرنسية عندما هجمت الجيوش الأجنبية على بلادهم ، كذلك وحّد التدخل الأجنبى الصفوف فى

روسيا ، وأذكى الحمية للدفاع عن النظام الثورى . وأبلى المدافعون أحسن بلاء ، فصُدَّت الجيوش البيضاء فى كل مكان ، نتيجة لاختلال نظامها وقسوتها وحماقاتها وبسالة خصومها . وكسب يهودى ألمعى يدعى ترتسكى ، كان قد نبغ قبلاً فى ارتكاب الجرائم الدنيا — كسب لاسمه صيتاً مجيداً كمنظم ظافر ، وأشاد الناس بنبوغه « ككارنو » روسى .

وكانت الثورة البلشفية نذيراً يفوق هولا وضخامة كل حركة من نوعها بلغتها أوربا . وأحاطت بها فتنة خاصة وسحر عجيب لكفاءة زعمائها وقسوتهم البالغة . فإنه حتى فى إنجلترا ، هذا البلد المحافظ ، شرع زعماء العمال يتكلمون عن مجالس العمال ، « السوفييت » ، وعن لزوم القضاء على الحكومة البرلمانية بالعمل المباشر والإضراب العام .

وأخذ الساسة فى جميع دول غرب أوربا يسائلون أنفسهم : ما هو المدى الذى ستبلغه هذه النيران الآكلة ؟ وفى فنلندة أخمد الألمان ، دون رحمة ، الفتنة التى قام بها الثوار الحمر . وأخمد الرومانيون ثورة نشبت فى هنغاريا . ولكن من ذا الذى كان فى استطاعته أن يتكهن ساعتئذ عن مغبة الدعاية البلشفية داخل الدول التى أنشأتها حديثاً معاهدات الصلح ، والتى كان بعضها صغير الرقعة ، والبعض الآخر يسوده الاضطراب وعدم الاستقرار ؟ فلقد مرت لحظة فى عام ١٩٢٠ اشتد فيها الخطر على بولندا . وقد يكون حرياً بنا هنا أن نقف هنيهة أمامها ، حتى فى تاريخ عام لأوربا كالذى حواه هذا المؤلف .

٣ — روسيا وبولندا

لم تقاسِ سوى شعوب قليلة ما قاساه البولنديون خلال الحرب العظمى . فقد كانت بلادهم الساحة الكبرى لحروب الجبهة الشرقية . وارتوى أديمها بالدماء ، ومزقت بلدانها المتفجرات ، وكانت مشهداً لمجازر يعجز القلم عن وصف أهوالها : مجازر قام بها ، أو عاناها ، هذا الشعب المحكوم التعس . وقاتل البعض من البولنديين فى جانب الروس ، والبعض الآخر فى صفوف

النمساويين ، وبعض آخر فى الجيوش البروسية . وقد حارب جميعهم مكرهين . ثم أسعفهم حسن الطالع على غير انتظار بانهيار الإمبراطوريات الثلاث التى تقاسمت بلادهم فيما بينها . ووجد البولنديون الذين أنهكت الحرب قواهم ، وعضهم الفقر بأنيابه — وجدوا أنفسهم بعد نيف وقرن من الزمان أحراراً وأسياداً فى بلادهم .

نشوة الحرية تسكرهم

فلا عجب إذاً أن أسكرتهم خمرة الحرية . وكانوا فى مؤتمر الصلح بباريس كأطفال رضّع يطالبون بوضع القمر فى أيديهم . وكانوا فى بلادهم كأنبياء حالمين يجرون وراء المستحيل . فإنهم تحت زعامة يوسف بلسودسكى Joseph Pilsudski ، وهو متآمر اشتراكى قوى الشكيمة ، وشخصية من أكبر شخصيات الحرب ، وكان منذ الثورة الروسية عام ١٩٠٥ يجمع فى الخفاء عناصر الجيش البولندى القومى ، ويؤلف شمله — كان البولنديون تحت زعامة هذا القائد قد عقدوا النية على استعادة أمجادهم القديمة ، وبسط سيطرتهم حتى ضفاف الدنيبر .

القتال بين البولنديين والروس

ولكن رغم تدهور روح القومية فى نفوس الروس إلى درك سافل ، فإنها لم تنحط إلى الدرك الذى يطيقون فيه إقامة حكومة بولندية فى كييف : هذه المدينة التى كانت قديماً عاصمة الإمبراطورية الموسكوفية . فردوا البولنديين الزاحفين فى تهور طائش على أعقابهم ، ثم اكتسح البلاشفة بدورهم بولندة ذاتها . وسُمع قصف مدافع الشيوعيين فى شوارع وارسو . وبدا فى كل عاصمة من عواصم أوربا كأنه ليس أمام هذا الشعب المتهور المنكوب إلا أن يحصل على خير الشروط الممكنة من عدو قاهر .

ولكن تاريخ بولندا سلسلة من المفاجآت . فإن جيشاً بولندياً بقيادة بلسودسكى ، يعاونه الجنرال فيجان ومعه نخبة من الضباط الفرنسيين ، ظفر بانتصار فاصل عجيب . وأكره الروس على الارتداد عبر الحدود من غير أن يتكبد كلا الفريقين سوى خسائر قليلة . واضطرت روسيا إلى طلب الصلح .

فكسب بلسودسكى بمناورته الحاسمة فى معركة وارسو عرفان أوربا : فقد خلّص بولندا من براثن البلاشفة . وليس فى مقدور أحد أن يتنبأ عن المدى الذى كان يبلغه انتشار وباء البلشفية فى أوربا ، لو لم يصنع بلسودسكى هذه المعجزة على ضفاف الفستولا .

وأسدى هذا القائد خدمتين أخريين لبلاده . فإنه لم يكن للبولنديين أية خبرة بفن الحكم الذاتى . فإنهم وقد حرروا أنفسهم على حين غرة من نير عبوديتهم الطويلة الأمد ، وسطعت عليهم شمس الحرية ، أعدوا لأنفسهم – وهو أمر طبيعى على الأرجح – دستوراً برلمانياً من أحدث وأكمل طراز ، اقتبسوا فيه مبدأ التمثيل النسبى ، ومنح الجميع حق الانتخاب .

ولكن لما كان عدد أحزابهم لا يقل عن الأربعة عشر ، ولا يلائم برنامج أى واحد منها حوائج الموقف الجديد الذى نشأ عن الحرب ، فقد أوشكت كفاءة الحكومة وحسن تصريفها للأمور ، أن يصبحا متعذرين . فقد تلت الوزارات بعضها بعضاً فى سرعة محيرة . ولم يكن ثمت استطراد لسياسة واحدة ، ولا اتساق فى الفكرة ، ولا ضمان للمقدرة الفنية فى الأوساط الحكومية . فقد يكون رئيس الوزارة فلاّحاً ، فيذهب إلى مزرعته كى يشرف على شؤونها ، وذلك فى ساعة حرجة قد ترتطم فيها سفينة الدولة بصخور الفوضى البرلمانية – هذه الدولة التى كانت قد نجت بأعجوبة من التهلكة فى حربها مع الروس .

واستمرت الأمور فى بولندا تسير من سيئ إلى أسوأ . فخلع بلسودسكى رداء عزلته ، واقتحم وارسو فى ٤ مايو سنة ١٩٢٦ ، ووضع حداً للحماقة والطيش . وإن ما قام به من مجيد الأعمال لدليل على ذكاء واعتدال نادرين فى شؤون أوربا الوسطى السياسية . فقد أبى أن ينصب نفسه رئيساً للجمهورية ، وأجلس فى هذا المركز أستاذاً عظيم التوقير . ولم يُلغِ « الديت » . كما أنه لم يحاول تأليف حزب فاشستى . ولم يسعَ هذا الجندى المجاهد فى سبيل وطنه ، والنزيل الشريف بسجون سيبريا وألمانيا سابقاً ، إلى أن يفرض نفسه دكتاتوراً على مواطنيه ، بل رأى أن يستمر الديت على الانعقاد والتداول والمناقشة وكسب

الاختبار وتثقيف الأمة . ولكنه لم يخوله حق إسقاط الوزارة . فقد كان يعتقد أن عمل البرلمانات ليس هو إقالة الوزارات ، بل أن يتعلم منها فن الحكم . ولهذا السبب اختير مجلس وزراء من أولى الخبرة والمقدرة لإدارة دفة الدولة ، وأمنوا على البقاء فى مراكزهم . وكان يكفى لتأمينهم أن يُعرف عنهم أنهم مؤيَّدين من جانب بلسودسكى الذى تقلد وزارة الحرب ، وكسب ولاء الجيش وإخلاصه ، فخلّد لنفسه بهذه المآثر ذكرى عاطرة فى نفوس البولنديين بحسن صنائعه ، وبيض أياديه عليهم .

والخدمة المجيدة الثانية التى أسداها هذا الرجل الفذ لبولندا هى إنتهاجه سياسة خارجية رشيدة . فقد عقد ميثاق عدم اعتداء مع روسيا سنة ١٩٣٣ ، وآخر مع ألمانيا سنة ١٩٣٤ . فجلبا معهما روحاً من السلامة ، وشعوراً بالطمأنينة ، لأمة لا ترتاع من شىء أشد من ارتياعها من تجدد حرب فى أرضها .

٤ – الثورة الفاشية

تنفيذ الإصلاحات الزراعية فى الأقطار الأوربية

ويعود الفضل بلا مراء فى ضعف أثر الدعاية البلشفية فى دول أوربا الجديدة إلى الحقيقة بأن طبقة الفلاحين فى كل مكان تقريباً قد أيسر حالها وزاد دخلها بسن تشريعات زراعية واسعة النطاق بعيدة المدى . ففى بولندا وتشكوسلوڤاكيا ورومانيا ، كما فى دول البلطيق الصغيرة ، قُسِّمت الضياع الكبيرة ، وبيعت لصغار الفلاحين بشروط ملائمة . صحيح كان هنالك كثيرون ندبوا اختفاء البيوتات الريفية الكبيرة – هذه البيوتات التى قامت بدور مجيد فى ازدهار الفنون وتقدم الأدب والسياسة فى أوربا الوسطى الشرقية مدى قرون عديدة . ولكن كان من نتائج هذا الانقلاب الزراعى الواسع النطاق أنه أقام سياجاً قوياً من صغار الملاك الفلاحين بين الشيوعية الروسية ، وبين أوربا الوسطى .

شيوع المبادىء البلشفية

غير أنه لم يكن من المستطاع حصر آثار انقلاب ضخم كالثورة الروسية حصراً كاملا . فإنه ما زال طيف لنين يهيمن على الحقبة التى نعيش خلالها

الآن . ولم تشاهد أوربا فى روسيا حكومة تتربع فى دست الحكم فقط ، وتسترشد بمبدأ معين تؤيده قوة السيف : دولة جماعية تكتم فى عنف وبأس شديدين أنفاس الحرية ، موطنة العزم على خلق طراز جديد من البشر ، وقالب جديد من المجتمع ، بفرضها نظاماً يغلب عليه الضغط والقمع — لم تنفرد روسيا وحدها بذلك، بل كانت هناك أقطار أخرى ترتسم خطاها فى هذا السبيل .

فإن منطق الشيوعية الروسية الصارم وجد له أنصاراً وأتباعاً فى جهات أخرى . فمبادئ الطغيان فُرضت بالعنف والدعاية على شعوب إيطاليا وألمانيا الطائعة المنقادة ، فى لحظة بلغت فيها إرادة تلك الشعوب أسفل درك . ومع أن مذهب لنين عالمى فى نزعته ، على حين أن الفاشية سواء فى ردائها الإيطالى أو فى دثارها الألمانى ، قومية الميول ، فإن جميع هذه الحكومات تتحد معاً فى معارضتها للحرية الإنسانية . فإن الشيوعيين والفاشستيين على السواء طلّقوا الفكرة القائلة بأن المسائل السياسية يمكن حلها وحسمها عن طريق المناقشة ، وأن حقوق الأقليات ينبغى أن يُحفل بأمرها ، وأن مقارعة الحجة بالحجة خير على الدوام من الالتجاء للقوة والعنف .

الدكتاتوريون الحديثون

فإن الدكتاتوريين الجدد يضارعون فى طغيانهم واستبدادهم أى قيصر من قياصرة الروس ، أو أى بابا من باباوات روما . وينفّذ هذ اللون الجديد من الاسترقاق والطغيان ، ويتغلغل فى الأمم التى تُحكم بموجبه ، إلى درجة لم يسبرها العالم قط من قبل . فإن القوة الوحشية التى هى وليد الحرب والثورة ، مظهر مشترك للاستبداد الكلى الذى يشيع فى الأشكال الدكتاتورية الثلاثة جميعاً : البلشفية ، والفاشية ، والنازية .

سريان روح الاستياء

ولعب الوجل من سريان عدوى الوباء الروسى دوراً هاماً فى سياسة إيطاليا . وأنتج انتهاء الحرب فيها شعوراً عاماً من الخور والكلال وخيبة الآمال . فقد شعر الإيطاليون بأنهم بعد أن عانوا أهوالا شداداً ، لم يفوزوا إلا بالتافه

الزهيد من الغنائم . وكانت الدعاية الثورية قوية فى إيطاليا . ولعبت دورها فى إحداث هزيمة كاپورتو الماحقة .

وحينما خيم ظل السلام على العالم ، وجد الإيطاليون أنه لم يأتِ لهم إلا بالضرائب العالية ، وارتفاع أثمان الأغذية ، وندرة الوقود . فأخذ العمال الإيطاليون يسائلون أنفسهم عما جنوه من جهود بلادهم . وتملكت نفوسهم روح الاستياء الشديد ضد الحكومة القائمة . وغدا اسم لنين محبوباً بين الجماهير ، وَوُزِّعت صورة هذا المبعوث الروسى فى كل مكان . وتلا الإضراب الإضراب . وسخر الناس بجنود الحرب القدامى فى الشوارع .

عقم الديمقراطية الإيطالية

ولما كان البرلمان الايطالى ينتخب بطريقة التمثيل النسبى ، تعددت الأحزاب الإيطالية وكثرت ، وضعفت الوزارات . وكانت الخطابة حرة ، والمناقشات طليقة من جميع القيود . ولكن لم يكن ثمت شىء فى حكومة البلاد يلهب الوطنية فى النفوس ، وتلتف حوله الآراء . وكان كثير من زعماء البلاد البرلمانيين على جانب كبير من المقدرة والجدارة والنزاهة . ولكن شطراً وافراً من النشاط الذى كان ينبغى أن يخصَّص لبحث المسائل القومية الكبرى ، ضُيِّع سدى فى سفسطات مجدبة ، ومناقشات عقيمة ، ومناورات لا تنقطع لتحسين المراكز الشخصية واعتلاء كراسى الحكم .

بروز بنيتو موسولينى

فهذا التشتيت الجلى للقوى القومية ، وهذا الشلل للجهود الوطنية ، يوضحان بروز بنيتو موسولينى وتألق نجمه السريع فى سماء إيطاليا[1] .

---

(١) ولد موسولينى فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٣ . وكان أبوه حداداً معدماً يقطن بندر فورلى Forli . وكانت أمه معلمة . وكانت بطبيعتها مفكرة وديعة تميل إلى الصمت والعزلة . وعندما بلغ بنيتو الثامنة عشرة . مارس مهنة التدريس ، ولكنه سئمها بعد قليل . وسافر إلى سويسرا حيث اشتغل صبى بناء . وإذ كان يكثر من معاشرة الفوضويين طرد من كل عمل التحق به ، وألقى به مراراً فى غياهب السجون . ثم خرج من سويسرا هائماً على وجهه حتى وصل إلى باريس . وأقام فيها قليلا ، ولكنه طرد منها لتشرده . فرجع إلى بلاده فى الحادية والعشرين من العمر . خاوى الوفاض ، ثائراً على النظم القائمة . ثم اضطر إلى الانخراط فى سلك الجيش لقضاء مدة الخدمة العسكرية . وبعد خروجه أخذ يشتغل فى الصحافة . وعارض دخول إيطاليا الحرب سنة ١٩١١ ضد تركيا لتملك طرابلس ، وحرض العمال على تخريب السكك الحديدية لمنع إرسال الجنود والمؤن . ثم عين محرراً بجريدة اشتراكية ، وغدا يعد فى إيطاليا خطراً داهماً على النظام الاجتماعى القائم

فى صيف عام ١٩١٤ ، نشبت الحرب بين روسيا وألمانيا . وأخذ أعضاء الريشستاغ الاشتراكيون يصادقون على الاعتمادات الحربية التى طلبتها حكومتهم . فأدرك موسولينى على الفور معنى ذلك . وعرف أن فى ساعات الأمم الحرجة يؤثر المرء وطنه على كل شىء . فإن الاشتراكيين الألمانيين لم يحتجوا حتى على انتهاك بلادهم أرض البلجيك . فرأى أنه ليس قميناً به أن يكون أشد اشتراكية من قادته الاشتراكيين الألمان . فأدار ظهره دفعة واحدة عن مبادئه الأولى . وأخذ يحض على دخول إيطاليا الحرب ضد النمسا لتحقيق مطامع بلاده القومية . وانخرط بنفسه فى صفوف الجيش . وحارب وجُرح . ثم « خرج فى النهاية يشتعل حماساً ، وتزخر نفسه بالمطامع . وبرز كزعيم مغامر من مغامرى الحرب ، يبيع نفسه لأى حزب ، رجل متأهب نارى المزاج جلى الفكر ، لا ينكص عن ارتكاب أى عنف أو قسوة ، وأستاذ مطبوع على أفانين الختل والمؤامرات » .

تأليف الحزب الفاشستى

وكان أول عمل من أعماله تأليفه حزباً يشد أزره . ودعاه الحزب الفاشستى Fascisti[1] . وكان يطمح إلى تكوين حزب يسوده النظام الدقيق ، وتشيع فيه الحيوية ، ويعيش عيشة الخشونة الإسبرطية ، ويرنو إلى القبض يوماً من الأيام على مقاليد الأمور .

قبضه على زمام الأمور

ونما وازدهر حزبه هذا الذى أسسه فى ٢٣ مارس سنة ١٩١٩ فى مقر جريدة كان يصدرها فى ميلان . وبسط نفوذه وسيطرته على الدهماء والأوشاب . وأخذ الفاشستيون الذين ارتدوا الآن قمصاناً سوداء يغتالون أحياناً خصومهم ، وأحياناً يضربونهم ، وأحياناً يجبرونهم على تجرع زيت الخروع ، وأحياناً يهجمون بالطريقة الإيطالية القديمة على بيت أحد الأحرار ، ويعملون فيه يد النهب والتخريب . ووجد الحزب الفاشستى فى جنود الحرب القدامى الساخطين ،

---

(١) من كلمة Fasces الرومانية ، ومعناها العصى التى كان اللكتور الرومانى يحملها أمام الرئيس الأعلى للدولة ، كرمز للسيطرة والسلطان .

بسبب إهمال أمرهم ، أتباعاً ومريدين ينضمون إلى فرقه . وفى الثلاثين من أكتوبر سنة ١٩٢٢ زحف موسولينى على رومة ، واحتفظ للملك بسلطاته الاسمية ، وقبض هو على زمام الدولة .

وتلا ذلك تطور عجيب خارق . فإن الحزب الفاشستى أخذ ينمو حتى احتوى الأمة الإيطالية بأسرها . وصار لا يُحتمل فى إيطاليا رأى غير رأى الزعيم . وألزمت الصحافة وأساتذة الجامعات والطبقة المثقفة بأن تسير وفق مبادىء الحزب الجديد . وكانت العقوبات التى تُفرض لعدم الامتثال لنواهى الحزب ، هى جرعات من زيت الخروع أو السجن ، أو النفى إلى إحدى الجزر . وكان اغتيال ماتيوتى Matteoti زعيم المعارضة فى البرلمان : هذا الاغتيال الذى أزاح خصما عنيداً من وجه موسولينى ، إعلاناً بأن المبادئ الحرة الإيطالية الدابرة قد قُضِى عليها .

التغيرات التى أحدثها

وألغى « الدتشى » Duce قاعدة التمثيل النسبى . وقسم إيطاليا فى نوفمبر سنة ١٩٢٣ إلى خمس عشرة دائرة انتخابية . وأعلن أن الحزب الذى سيحصل فى الانتخابات القادمة على أغلبية الأصوات سيحصل على ثلثى كراسى البرلمان . وكان الحزب الفائز هو حزبه .

وكان الحزب الفاشستى مناصراً للإكليريكية ، معادياً لمنح النساء حقوق الانتخاب ، ينزع إلى القومية والتفرد بالحكم ، ويعارض فى تعصب شديد المبادئ الحرة التى صارت الروح الهادية للحياة البرلمانية الإيطالية خلال الفترة التى امتنع فيها أنصار البابوية عن الاشتراك فى شؤون السياسة . وتناسى موسولينى فى جسارة كبيرة ماضيه ، وكيف أنه نظّم اعتصابا عاماً سنة ١٩١٤ . وأعلن الآن أن الاعتصابات والامتناع عن العمل محظورة . وأصبحت كل صناعة من صناعات البلاد ، بمقتضى قانون أصدره لتنظيم الجمعيات والشركات — أصبحت شطراً من مشروع عام ضخم يدار بعين حريصة على حماية مصلحة العامل من ناحية ، وعلى رخاء الصناعات والأعمال التجارية وكفالة رؤوس أموالها وضمان أرباح معقولة لها من ناحية أخرى .

الفاشستية بين المعجبين والمستنكرين

واستقبلت دول أوربا الغربية الحرة النزعات طغيان الدكتاتور الإيطالى ، وأساليب قمعه واضطهاده ، بأحاسيس العداء والارتياع . فإن كتم حرية الجامعات وتدريب الصحافة على الخضوع الزرى ، والقضاء على الحرية البرلمانية ، وإبدال طرق الإقناع السلمى بالقوة الغشومة فى جميع جوانب الحياة القومية — بدت كل هذه الأمور متعارضة مع الميول الديمقراطية : هذه الميول التى اعتقد الناس أنها تبشر بالخير الجزيل للجنس البشرى .

ومع هذا وُجد حتى فى أيام الفاشستية الأولى بعض من الإيطاليين الرقاق القلوب ممن أشادوا بهذه الحركة التى جلبت إلى حياة إيطاليا السياسية شعوراً بالعظمة والمجد اللذين كانا لبلادهم فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، وذلك رغم قسوة أساليب الفاشستية وعنف طرقها . فإن نبوغ الدتشى الباهر ونشاطه الجم انتقلا إلى كل قسم من أقسام الدولة . فأصبح كل فرع من فروع الحكومة يطالَب بمستوى جديد من الكفاءة والنشاط . فانتظمت مواعيد القطارات ، وأنزِل القصاص الشديد بالموظفين غير النزهاء ، وبوشرت أعمال عامة ضخمة ، وشُجِّعت أعمال التنقيب عن الآثار القديمة تشجيعاً عظيماً ، وَوُجِّه الاهتمام بإعادة تنظيم روما وتجميلها ، وتعمير الأقاليم الجنوبية التى كانت مرتعاً للملاريا .

فاستُقبلت تدريجاً بالتبجيل والإعجاب الفاشستيةُ التى كان يُنظر إليها فى مبدأ ظهورها كحلم ثورى عنيف لرجل مفتون . فلم تكن نظاماً سياسياً فحسب ، بل كانت مبدأ وديناً . فقد قاومت مبدأ الشيوعية الدولية الداعى للجهاد والكفاح ، بمبدأ آخر لا يقل عنه عنفاً وبطشاً : هو مبدأ قائم على الاشتراكية القومية المتحمسة ، يفسره حزب سياسى منظم يدعو إليه ، ويفرضه على الأمة ، ويؤيد كل قوة تعمل على اتحادها ، ويقمع بكل قسوة كل من يعمل على انشقاقها وبلبلة أفكارها ، أو تنوير أذهانها . فأعيد التعليم الدينى إلى المدارس . وتصالحت الدولة مع الكنيسة (فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٩) واختفى كل لون من ألوان العداء فى صفوف الأمة — سواء أكان هذا العداء محلياً إقليمياً ،

أم دينياً أم طائفياً — فى عبادة عامة مشتركة للدتشى . فأعاد الإيطاليون بعبارات خضوعهم الجزلة الفيّاضة إلى الأذهان طرق التعبد قديماً للإسكندر وأغسطس .

فإذا كان الثمن الذى دفعه الإيطاليون للخيرات والمنافع التى جاءتهم على أيدى الدتشى هو فقدانهم الحرية ، فإنهم كانوا على استعداد لدفع هذا الثمن . فقد أنجبت إيطاليا رجلا مستبداً من طراز قيصر ، تحيطه هالة الخطيب الذرب ، وتحليه مكارم رجل من رجال الشعب وعطفه وسماحته . ولكنه هو أيضاً حاكم مستبد ، يكدح ويجد لكى يجعل أمته قوية متحدة .

وعملت أخلاق الزعيم الإيطالى الفذة ، والطريقة التى أفلح بها فى تقويم خور الأمة الإيطالية وترددها وقنوطها ، وفى استخدامه جميع المناقب الحربية التى تعلمتها من دروس الحرب العظمى ، وفى براعته فى إذكاء الحماس فى نفوس الجماهير وإثارة حميتها وتوليد ثقتها ، وفى نجاحه فى التغلب على اضطرابات العمال — عملت كل هذه الأمور على إثارة إعجاب الأقطار الأخرى بالفاشية وتقديرها ، وأدت إلى تأليف جماعات أو أحزاب فاشستية فى تلك الأقطار .

٥ — الثورة النازية

أدولف هتلر

وكان جاويش فى فرقة المشاة الباڤارية السادسة عشرة راقداً فى مستشفى ألمانى فى يوم الهدنة ، يعالَج من آثار الغازات السامة التى كادت تفقده البصر . وعندما ما استرد عافيته ، وأبرئ من جروحه ، وأخذ يستعيد فى ذهنه الأحداث التى مرت ببلاده عقب الهدنة ، شعر أن الرد على نشاط الشيوعيين الألمان ومطالب الحلفاء يجب أن يتخذ شكلا كهذا الذى رسمه الدتشى لإيطاليا .

وكان هذا الجندى البسيط ابن موظف صغير نمساوى من موظفى الجمارك . وكانت مهنته نقاشاً ومصوراً للعمارات . وكان اسمه أدولف هتلر Adolf Hitler . (وقد ولد فى ٢٠ إبريل سنة ١٨٩٩) .

وفتح هذا الشاب النكرة عينيه بعد إبلاله، فشاهد وطنه الجديد صريعاً، والجيش محطماً، وروح الثورة تجيش فى النفوس، والديمقراطيين الاشتراكيين يقبضون على خيزرانة السلطة. فآلى على نفسه أن يؤسس حزباً ألمانيا على غرار الحزب الفاشستى الإيطالى.

وكان هتلر رجلا ناقماً على الحياة جاف الطباع، قاسى القلب، ينزع إلى الخيال، تكاد كراهته لليهود تفقده صوابه. وكان كخطيب فياضاً ذرب اللسان، عنيفاً إلى درجة الهستيرية. ولكنه كان أيضاً عفّ اليد، شديد التحمس، يفيض قلبه زهواً بجنسه التيوتونى. وكان يعرف كم كانت ألمانيا عظيمة ممجدة قبل الحرب. وشعر بأن فى وسعها العودة إلى سابق مجدها وعظمتها، إذا ما حزمت أمرها، وعقد أبناؤها الخناصر على السعى إلى ذلك.

وكان كمحارب قديم، ينتمى إلى الطبقة الوسطى. وإذ كان متعصباً متطرفاً فى تعصبه ضد اليهود رأى أن الديمقراطيين الاشتراكيين، والشيوعيين، واليهود، والأحرار ليسوا بذى نفع له. وكان يسرى فى حبات قلبه المبدأ الألمانى الشهير بأن الدولة هى السلطان الذى يجب أن يخضع له الجميع: وهو المبدأ الذى نادى به هيجل، ومارسه بسمارك، وبشّر به تريتشكه.

إنشاء الحزب النازى وأهدافه

وأطلق أصدقاؤه الذين كان بعضهم مثاليين متفانين، وبعضهم الآخر من أحط الناس أخلاقاً — أطلقوا على أنفسهم اسم «الاشتراكيين الوطنيين». وعُرفوا باسمهم المختصر «النازيين» Nazis (حوالى سنة ١٩٢٠) وطالبوا باتحاد جميع الألمان فى دولة ألمانية مركزية، وإبطال معاهدات الصلح، وإرجاع المستعمرات الألمانية، وإلغاء حقوق اليهود الانتخابية، وتأسيس جيش وطنى، وهيمنة الدولة على الأعمال التجارية الكبيرة، وهاجموا مبادئ المسالمة والنزعة العالمية والنظام الرأسمالى.

وقد امتازوا بوطنية شديدة المغالاة، ووطنوا النفس على أن يصلوا إلى القوة والسلطان. وقد أعانهم هذا التصميم القاطع فى النهاية على الوصول إلى

هدفهم . وفى كتاب « كفاحى » Mein Kampf الذى كتبه هتلر بنفسه ، كترجمة روحية لحياته ، والذى ألف أكثر فصوله وهو ملقى فى السجن (١٩٢٣–١٩٢٤) ، أعلن تحدياً قوياً للجنس اليهودى والفضائل المسيحية ، فقال :

« إن الثورات الكبرى التى شبت فى هذا العالم ما كانت لتقوم أو يمكن تصور قيامها ، لو أن قوتها الدافعة كانت ترتكز على فضيلتى السلام والنظام — هاتين الفضيلتين اللتين كثيراً ما تشيد الطبقة الوسطى بمزاياهما . فإن هذه الثورات كانت نتيجة الأهواء الجامحة — بل أقول ، الأهواء الهستيرية التى ظهرت بها فى الواقع . ومع ذلك فإن عالمنا يسير صوب ثورة عظمى . وليس هناك سوى سؤال واحد هو موضع الخلاف ، وهو : هل سيكون فى هذه الثورة خلاص الجنس الآرى ؟ أو أنها ستكون مجرد مورد آخر من موارد الربح لليهودى الدائم الأزلى ؟ إنه ينبغى للدولة الوطنية الحقة أن تجعل واجبها ترقية نظام صالح لتربية شبيبتها ، بحيث يكون فى وسعها أن تربى جنساً أعِدّ لتولى شؤون هذا العالم الخطيرة واتخاذ القرارات النهائية . وستكون أول أمة تسلك هذا السبيل هى الأمة الظافرة الفاتحة . وإن صفة الدولة الوطنية الحقة ، ونظم التعليم فيها ، يجب أن تدور حول الثقافة العنصرية . وينبغى أن توجه إليها أقصى العناية . فيجب أن يُنقش فى الصدور معنى العنصرية والشعور الجنسى فى قلوب وأذهان الذين يُعهد إليهم تهذيب الشبيبة وتثقيفها . وينبغى ألا يُسمح لصبى أو صبية أن يغادر المدرسة إلا إذا استوعب أدق المعارف عن روح نقاوة الجنس والأهمية البالغة لهذا الأمر » .

الجمهورية الألمانية تجابه أعاصير هوجاء

وكان من سوء طالع الجمهورية الألمانية أنها أقيمت فى أحلك ساعات الهزيمة والقنوط . فقد كان الجمهوريون الألمانيون هم الذين مهروا صك الهدنة بتوقيعاتهم . وهم أيضاً الذين وقعوا معاهدة ڤرساى . ومع أن جمعية ڤيمار التى انعقدت فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩ لوضع الدستور انتُخِبت بأغلبية ساحقة بواسطة الأمة الألمانية ، بحيث يكون من نافلة الكلام القول بأن الجمهورية لم تكن مظهراً صحيحاً لإرادة أمة حرّة متدبرة ، فإن الشقاء والأرزاء التى صحبت

أيامها الأولى كانت أشياء لم يكن فى مقدور الألمان نسيانها ، بل وفى نظر البعض منهم كان من الصعب اغتفارها .

وهبت الأعاصير الهوجاء على الجمهورية وهى لا تزال فى المهد . فقد سعى الشيوعيون والفوضويون من جهة ، والرجعيون والملكيون من جهة أخرى ، إلى قلبها . ولم يكن كلا الفريقين قوة يستهان بشأنها . فقد كان لقصة الثورة الروسية أثر عميق فى نفوس أغلبية العمال فى أرجاء أوربا الوسطى ، وبنوع خاص فى ألمانيا . ولم تستطع الفظائع والمحن التى صحبت نهوض البلاشفة ووصولهم إلى السلطة أن تزحزح من أذهان العمال هذه الحقيقة الضخمة البعيدة الآثار ، وهى أنه فى روسيا ، من بين جميع أمصار العالم ، أمكن للشعب أن يطرح عن كاهله نير أسياده ، وصار يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف لخير الفقير وفائدته .

ذيوع المبادئ الشيوعية المتطرفة

ولهذا شاعت مبادىء الشيوعية المتطرفة Spartacism بين عمال المصانع الألمانية : هذه المبادىء التى كانت تسترشد بمذهب مقدس ، هو مذهب الماركسية ، وكتابات تحض على الثورة ، هى المنشورات النارية لروزا لكسمبرج Rose Luxomburg . ولكن الشيوعيين رغم صخبهم وضجيجهم كانت تنقصهم الزعامة المجاهدة ، ويعوزهم التنظيم والترتيب . وفى الجهة المقابلة وقفت حكومة مازال يمكنها الاعتماد على الموظفين المدنيين وضباط الجيش النظامى فى تنفيذ أوامرها ، رغم زعزعة أحداث الحرب لسلطانها . فكان رئيس الجمهورية الألمانية : إيبرت Ebert أكثر توفيقاً من كيرنسكى . فقد وجد بين يديه أدوات قوية ذات كفاية ومقدرة تأتمر بأمره . وامتاز من بين هذه الأدوات رجل ضليع هو نُسكه Noske قائد الحرس الوطنى ، الذى تمكن باتخاذه تدابير صارمة نُفذت فى الوقت المناسب ، من قمع الشيوعيين الفوضويين وتمكين الجمهورية من البقاء .

ولم تشعر الأمة الألمانية بعطف كبير على القيصر وليم الثانى بعد نزوله عن العرش . فقد كان عاراً يكفى أن يفقده حب شعب امتاز بالبسالة والجلد

فى الحروب أنه تخلى عن جيشه ، ولاذ بالفرار فى ساعة خذلانه . ومع ذلك فإنه كانت هناك بقية من الناس لا تزال تحتفظ فى قلوبها بأحاسيس الولاء للنظم الحربية ، وللأرستقراطية ، وللإمبراطورية ، بحيث تستطيع مضايقة حكومة ألمانيا الاشتراكية التى لم تخبر قط من قبل أساليب الحكم ، والتى قبلت صلحاً ينص على نزع السلاح قسراً من ألمانيا .

وما فتنة الدكتور كاپ Kapp التى اندلعت فى مارس سنة ١٩٢٠ إلا مثال يوضح السهولة التى تستطيع بها حركة انقلاب جريئة أن تغتصب أزمة الحكم ، بأن تلعب على عواطف الشبيبة الحائرة القلقة فى عهد جمهورية ڤيمار . فإن كاپ هذا ، وهو ملكى ضئيل الشأن ، أمكنه أن يسيطر على برلين بعون الجنرال فون ليتڤتز Von Lüttwiz قائد حاميتها . وكان يرمى من وراء فتنته إلى إعادة الملكية . فانخلع قلب الحكومة وهربت إلى شتوتجارت .

غير أن جروح الحرب لم تكن قد اندملت بعد ، وكانت أرزاؤها ماثلة فى الأذهان بحيث كان من المتعذر إعادة الملكية فى أى شكل من الأشكال . فوقف الشعب الألمانى وراء رئيس جمهوريته يشد أزره . وهُزم كاپ ، لا نتيجة تقارع السيوف ، بل باستخدام الأمة السلاح الديمقراطى الفعال ، وهو قيام إضراب عام .

تشديد فرنسا

ومع ذلك بقى خطر أعظم حتى من هذا . فقد ظلت شر ضغينة ، وأشدها تأصلا فى النفوس باقية مضطرمة : إذ وقفت فرنسا على رأس الحلفاء المنتصرين تلوح بمعاهدة ڤرساى ، وتطالب بتنفيذ شروطها بحذافيرها تنفيذاً كاملا دقيقاً — وقفت هذا الموقف حيال الشعب الألمانى الجائع ، المنهك القوى ، المهيض الجناح ، الأعزل . إلا أنه مع ذلك كان شعباً لا يزال يشعر بفعاله المجيدة وعزه الماضى ، ويحس بأن مستقبلا باهراً ينتظره ، رغم ما نزل به من خيبة آمال ، وما حاق به من كروب .

بوانكاريه

وكان ممثل الروح الانتقامية فى فرنسا هو بوانكاريه رئيس جمهوريتها من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٠ . وهو محام قدير خشن الطباع قوى الشكيمة

جم النشاط والدأب ، وكان أبرز شخصية سياسية فى فرنسا خلال محنة الحرب وبعيدها . وقد حاجه معارضوه قائلين : إن تحول ألمانيا من إمبراطورية حربية إلى جمهورية اشتراكية ينم عن تحسن فى عواطف الشعب الألمانى . كما حاجت الحكومة البريطانية بأن أوربا بأسرها ستتألم وسيحل بها الخسران ، لو أن ألمانيا انهارت . غير أن هاتين الحجتين لم تحدثا أثراً فى نفس هذا المحامى الصخرى القلب .

احتلال الرين والروهر

وكان بوانكاريه يبغى شيئين : الحصول على تعويضات حربية ، وتأمين فرنسا . وكان يريد الحصول على التعويضات فوراً ، وتأمين فرنسا إلى مدى الأيام . وإذ لم يثق بادعاءات الألمان بفقرهم ، بل اعتقد أنهم مدينون يحاولون التهرب من التزاماتهم المالية بالتدليس وبكل حيلة غير شريفة ، صمم على إرهاقهم باحتلال جزء من بلادهم . ولذلك زحفت الجند الفرنسية على أقاليم الرين ، وعسكر الجنود الزنوج فى مدنه ، مما أثار سخط الألمان الشديد ، وحمل عمال مناجم الروهر على الاعتصاب . فما كان من بوانكاريه إلا أن أرسل فى يناير سنة ١٩٢٣ جيشاً لاحتلاله أيضاً .

وكان احتلال الروهر الذى احتجت عليه جميع الأحزاب السياسية البريطانية أحد تلك الأحداث التاريخية المشؤومة التى تقوِّم أخطاءها بنفسها ، حينما يصل البلاء ذروة لا تحتمل . فقد كانت لجنة التعويضات حددت ، بتأثير فرنسا وبلجيكا ، مجموع التعويضات التى تفرض على ألمانيا بمبلغ ٦,٦٠٠ مليون جنيه . فكان من بين الأساليب التى قر رأى الألمان عليها للتملص من دفع دين مستحيل خيالى كهذا أن يعملوا على تدهور قيمة عملتهم .

مأساة التضخم المالى

ولكن التضخم المالى سلاح غير مأمون . وهو معرض لأن يفلت زمامه من سيطرة الحكومات إذا التُجِىء إليه . فقد بلغت قيمة الجنيه الإنجليزى فى أول يناير سنة ١٩٢٣ ، ٨٠ ألف مارك . ثم تضاعفت هذه القيمة ، حتى بلغت فى أكتوبر الرقم الفلكى البالغ ١١٢ مليار مارك . فضاعت بذلك ثروات طائلة ، وحل بالطبقات العليا والوسطى وطبقات الموظفين

والعمال ذوى المرتبات والأجور النقدية الثابتة الضنكُ البالغ والعسر الشديد .

ولقد لفتت صفة هذه المأساة النقدية وضخامتها أنظار العالم إليها ، وفى الوقت عينه عملت على استفحال سوء الموقف الاقتصادى العام بين فرنسا وألمانيا . فمن الجهة الواحدة قضى احتلال الجيش الفرنسى لحوض الروهر على الصناعة الألمانية ، ومن الجهة الأخرى حالت المقاومة السلبية لعمال المناجم وأصحابها — هذه المقاومة التى كانت الحكومة الألمانية تمولها — حالت دون انتفاع فرنسا بهذه « الضمانات المنتجة » التى كانت أكبر هدف رمت إليه من وراء ذلك الاحتلال .

الوصول إلى تسوية

ولم يكن فى الاستطاعة استمرار هذا الصراع المرير دون نهاية . فى خريف ذلك العام تنازل الألمان عن مقاومتهم السلبية ، وأصلحوا فى وقت وجيز جداً عملتهم (فى أوائل صيف سنة ١٩٢٤) . وخفف الفرنسيون من شروطهم القاسية عندما تدهور الفرنك ٥٠٪ من قيمته . فأقصوا بوانكاريه عن رياسة الوزارة على أثر الانتخابات العامة فى مايو سنة ١٩٢٤ ، ودعوا هريو Herriot الزعيم الراديكالى إلى تسلم مقاليد الأمور . ثم أعد المسرح لتمثيل الفصول الثلاثة التى حسنت فى مجموعها جو أوربا السياسى برهة من الزمن . وهذه الفصول هى : تسوية دوز Daws سنة ١٩٢٤ ، واتفاقية لوكارنو سنة ١٩٢٥ ، ودخول ألمانيا عصبة الأمم سنة ١٩٢٦ .

٦ — تحسن العلاقات الاقتصادية والسياسية

أمريكا تصبح دولة دائنة

أحدثت الحرب انقلاباً تاماً فى العلاقات الاقتصادية بين أمريكا وأوربا . فقد كانت أمريكا قبل الحرب مدينة لأوربا ، ولكنها أصبحت بعدها دائنة لها بمبالغ طائلة لم تكن قط فى الحسبان . فكان لوزارة مالية الولايات المتحدة فى ختام عام ١٩٢٣ (وهو عام الروهر) ديون على الممالك الأجنبية بلغ مجموعها هذا الرقم الضخم ، وقدره ٢,٣٦٠ مليون جنيه . وهو يمثل الديون الأصلية مضافاً إليها فوائدها التى لم تُدفع . وكانت أمريكا تداين بريطانيا بمبالغ لا تقل عن ٩٣٠ مليون جنيه . فكيف تستطيع إذن

حكومة واشنطون ألا تحفل بمقدرة البلدان المدينة التى تطالب بدفع مثل هذه الديون ؟ لقد أعرب المستر هيوز وزير الخارجية الأمريكية عن اهتمام بلاده بهذا الأمر بتصريحه فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٢ قائلا : « بأنه يجب أن يتفق ساسة الدول على المبالغ التى تستطيع ألمانيا دفعها » . ولقد كان ما قاله حقاً . غير أنه قد ينجح الخبراء الماليون بإرشاد بعيد عن الهوى ، فيما يخفق فيه الساسة .

تقرير لجنة دوز

ومن هنا جاءت أهمية لجنة دوز التى انعقدت برئاسة أمريكى ، وباقتراح الحكومة الأمريكية ، فى ١٤ يونيو سنة ١٩٢٤ للبحث عما تستطيع ألمانيا دفعه من التعويضات . وكانت اللجنة مكونة من خبراء يعملون فى جو هادئ رصين . وكان أهم ما أوصت به : إعلان تأجيل دفع الديون ، وعقد قرض أجنبى لألمانيا ، وإنشاء بنك مركزى ، وتوصيات أخرى مماثلة لم تكن بذات أهمية نسبياً ، نظراً لأنها عُدلت فيما بعد .

وكانت الدلالة الحقيقية لتقرير دوز هى أن الدول المنتصرة أقلعت عن الطريقة الخرقاء غير المجدية القاضية بإكراه ألمانيا بأسنة الرماح على دفع التعويضات ، وأخذت بمشروع يرتكز على التضافر ، ويتلاءم مع انتعاش الحالة الاقتصادية للدولة المدينة . وقبل هريو رئيس الوزارة الفرنسية فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٤ هذه الخطة ، وقبلت فرنسا الجلاء عن الروهر ومدن الرين التى كانت قد احتلتها كضمان للدفع .

ميثاق لوكارنو

وتميزت المرحلة الثانية من مراحل تهدئة أوربا بميثاق لوكارنو (أول ديسمبر سنة ١٩٢٥) . وقد كانت فكرة عقد ميثاق سلام يضمن حدود كل من فرنسا وألمانيا فكرة تتعارض أشد التعارض مع الأهواء الحربية التى تأثرت بها أذهان العسكريين الفرنسيين فى تلك الساعة ، بحيث لاح من المتعذر تقريباً أن تكون أساساً لمعاهدة دولية . فقد رفضتها فرنسا رفضاً قاطعاً فى سنة ١٩٢٢ . ولم تصادق عليها سنة ١٩٢٥ إلا نتيجة لهذه المصادفة السعيدة ، وهى أن الدول الثلاث التى يعنيها الأمر أكثر من غيرها ، وهى

ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، وجدت فى ممثليها : شترسمان وبريان وأوستن تشمبرلين ساسة سديدى الرأى ، مستعدين أن يتحملوا بعض التبعات من أجل استتباب سلام أوربا واستقراره .

واحتاج الأمر من جانب شترسمان (الملكى الميول فى دخيلة نفسه) إلى بعض الشجاعة كى يبصم معاهدة تسلم بحق فرنسا فى الألزاس واللورين ، وإلى بعض الشجاعة من جانب تشمبرلين لأنه ربط بلاده بتعهدها بمقاومة فرنسا إذا ما هى غزت ألمانيا ، ومقاومة ألمانيا إذا ما هى غزت فرنسا . كما أنه لم يكن سهلا على بريان — نظراً للآراء التى كانت غالبة على دوائر باريس السياسية وقتئذ ، أن يطلق الحلم الجميل الذى هفت إليه قلوب مواطنيه ، وهو عقد تحالف دفاعى هجومى دائم مع بريطانيا ضد العدو القديم القابع عبر الرين . ولكن الأخطار ووجهت ، والمعاهدات مُهِرت ، ووُضعت الحدود التى عينتها معاهدة ڤرساى بين فرنسا وألمانيا ، تحت ضمان بريطانيا وإيطاليا والبلجيك . وتعهد شترسمان بأن ألمانيا لن تحاول بقوة السلاح تغيير حدودها الشرقية التى رسمتها معاهدة ڤرساى ، حتى وإن كانت غير راضية بتلك الحدود . ووصف بريان الروح التى سادت مؤتمر لوكارنو بقوله : « لقد تفاوضنا فى لوكارنو كأوروبيين ، وهى لغة جديدة ينبغى لنا بلا نزاع تعلمها » .

وبدت الطريق بعد لوكارنو ممهدة لدخول ألمانيا عصبة الأمم . فقد تعهدت بأن تدفع التعويضات المفروضة عليها ، وقبلت حدودها الغربية الجديدة ، وأعطت كلمتها بألا تقدم على مغامرات حربية فى حدودها الشرقية . فاعتبر جميع الذين يعنون بصالح أوربا واستتباب السلام فيها أنه من الأمور الطبيعية أن تمنح كرسياً دائماً فى مجلس العصبة ، شأنها فى ذلك شأن الدول الكبرى الظافرة . فإن معاملتها على قدم المساواة مع تلك الدول كان شرطاً من شروط معاهدة ڤرساى .

ولكن حيل فى اللحظة الأخيرة بين دخول ألمانيا العصبة بسلسلة من

الدسائس الزرية . فقد أثارت فكرة منح دولة عظمى جديدة مقعداً دائماً فى مجلس العصبة غيرة الدول الصغرى . فتقدمت بولندا وأسبانيا ، بل والبرازيل أيضاً ، إلى المطالبة بشدة بمنحها هى أيضاً كراسى دائمة فى المجلس . فرُفض طلب ألمانيا بواسطة صوت البرازيل ، الأمر الذى أثار سخط أوربا . ولكن ألمانيا احتلت أخيراً مكانها فى المجلس ، بأن زيد عدد الكراسى التى يتألف منها ، مما أدى إلى تقليل سلطانه ونفوذه .

ولم يكن يُنتظر من هيئة تنص لائحتها على وجوب صدور قراراتها بالإجماع التام لكى توضع موضع التنفيذ ، أن تقدم على إعادة النظر فى الحدود التى عينتها معاهدات الصلح . ولكن ظلامة ألمانيا الخاصة بعدم مساواتها مع الدول الأخرى فى التسلح كانت تقع مباشرة فى نطاق الأعمال التى فى مقدور العصبة أن تسويها . فإن شرط عدم التسلح الذى فرضته معاهدة ڤرساى على ألمانيا ، رغم مزاياه الاقتصادية العظيمة لها ، لم تكن لتقبله أمة حربية كالأمة الألمانية عن رضا واختيار . فحقّ لها أن تطالب إما بالسماح لها بالتسلح من جديد ، وإما أن يباشر جيرانها فى جد تخفيض تسلحهم .

٧ ـ انتكاس الحالة

تأخير نزع السلاح

فطالبت الشبيبة الألمانية فى شعور فياض إجماعى نادر المثال أن تعامَل بلادهم على قدم المساواة مع الأقطار الأخرى . واحتجوا على استمرار بقاء نظام يجعلهم عاجزين قليلى الحيلة أمام طيارات البولنديين والتشكيين والفرنسيين ودباباتهم ومدفعيتهم الثقيلة . فأثيرت بذلك مشكلة جد دقيقة ومعقدة كذنب الضب . وزاد من مشقة إيجاد حل لها دعاية الصحافة الألمانية العدائية ، والاعتقاد العام القائم على قرائن صحيحة بأن ألمانيا تجهز نفسها طى الخفاء بالأسلحة الحربية . وتقدمت عصبة الأمم باقتراح وضع نظام شامل متفق عليه من الجميع خاص بنزع السلاح . ولكن تقدم هذا الاقتراح كان بطيئاً غاية البطء . فقد وضعت الدول المدججة بالسلاح العراقيل فى سبيله ، مما

أوحى بالريبة بأنها لم تكن تنوى الوصول إلى شىء جدى .

وكرت الأعوام ، ولقى شترسمان ربه سنة ١٩٢٩ ، فكانت وفاته خسارة لا تعوَّض على الجمهورية الألمانية . ومع ذلك بقيت معضلة نزع السلاح دون حل ، وأضعف تأخر العصبة ردحاً طويلا من الزمن فى إيجاد حل لها — أضعف مركزَ الحزب الديمقراطى الاشتراكى الذى كان يحكم وقتئذ ألمانيا ، والذى انتصر لسياسة احترام المعاهدات والوفاء بالعهود ، وكان مستعداً للبذل والتضحية فى سبيل استقرار السلام الأوربى . وظلت ألمانيا سبع سنين ، وهى تسعى إلى إرضاء چنيف ، وتعمل على كسب ثقتها ، دون أن يجدى مسعاها فتيلا .

خطر قيام حرب أهلية فى ألمانيا

وفى كل هذه الحقبة ، كان يخيم شعور بخطر قيام حرب أهلية فى الريخ الألمانى . وكان هذا الشعور يزداد قوة باضطراد . فإن ثورة عام ١٩١٩ وإن أنهت حكم البطانة الإمبراطورية والطبقة الأرستقراطية ، فإنها لم تصنع شيئاً لإضعاف مركز أقطاب الصناعة والمال الألمان ونفوذهم . فلم تبدُ الثلمة بين الأغنياء والفقراء أجلى وأوضح مما بدت به خلال الفترة التى تدهورت فيها قيمة المارك إلى الحضيض ، والتى أمكن فى أثنائها لبعض المضاربين المجدودين أن يجمعوا ثروات ضخمة ، فى وقت عمَّ فيه الشقاء والتعس . ولذا لم يكن أمراً عجيباً أن تخطو الشيوعية ، التى هى وليدة الحسد واليأس ، خطى واسعة بين العمال الألمان .

نكبة سنة ١٩٢٩ الاقتصادية

وفى الوقت عينه ألمت بالجمهورية الألمانية نكبة اقتصادية قوَّضت أركانها وطوَّحت بها . وكان فعلها شديداً نظراً لأنها طرأت عقب نزول نوائب قاسية بألمانيا . فإن أرزاء التضخم النقدى عام ١٩٢٣ عقبتها خمس سنين من الرخاء الظاهرى ازدهرت فيها الصناعات ، وأسست المصارف ، وشُيدت المصانع نتيجة منح ألمانيا قروضاً بلغت زهاء سبعمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات . وأعلنت موجة هوجاء من التبذير والإسراف عن ظهور طائفة جديدة من طلاب المكسب الفاحش العاجل .

ولكن تلا هذه الموجة حدوث صدمة مالية عنيفة فى نيويورك سنة ١٩٢٩ .

فسُحبت على الفور الأموال الأمريكية من ألمانيا . فجر هذا الأمر أكبر النكبات على دوائر الأعمال الألمانية . فأوصد كثير من المصارف أبوابه ، وطردت المصانع عمالها ، وتضاءلت الدخول والأرباح . وجابهت وزارة الديمقراطيين الاشتراكيين العاثرة الحظ – التى كانت قبيل ذلك قد فقدت فى شترسمان أبرز رجالها – جابهت هذه المعضلة الجبارة ، وهى إيجاد عمل لقرابة ستة ملايين من العمال المتعطلين ، وضرورة موازنة الميزانية .

انتصار المبادئ الهتلرية

فى هذه الضائقة الكبيرة التى رنّت فيها صرخات المتعطلين المريرة فى جميع الآذان ، وخفقت الأعلام الشيوعية الحمراء فى جميع الشوارع ، اكتسحت البلاد دعاية بارعة باهرة أخذت تفصح عن جميع ألوان السخط والاستياء التى كانت تجيش فى صدور الألمان ، وتعرب عن جميع الآمال التى تملأ صدور أمة لا زعيم لها يهديها سواء السبيل .

وكان أدلف هتلر يبدو على صفحات هذه الدعاية البارعة كمجاهد مناضل وجندى مقاتل ، والمنظّم الملهم للحزب النازى . وكانت أهدافه تطهير ألمانيا من اليهود ، وسحق الشيوعية ، وبعث الشعب الألمانى ، وإحياء أمجاده الحربية . وبعد أن أخفق هتلر سنة ١٩٢٣ فى الوصول إلى السلطة عن طريق فتنة عسكرية ، بذل جهداً كبيراً ومقدرة فائقة فى القيام بحملة دستورية . وكان خطيباً موهوباً عظيم التأثير ، يستطيع فى عبارات موجزة نارية جلية أن يعبر عن أهواء مواطنيه ، الصالح منها والطالح .

سقوط جمهورية فيمار

وأمكن لهذا المبعوث النمساوى المغمور ، بعد حملة خطابية استغرقت أربعة عشر عاماً ، أن يذكى ناراً متأججة فى نفوس بنى جلدته ، وأن يبث فى شعب قانط حائر روحاً قوية من الإقدام والثقة ، ونظم الإرهاب بمنتهى الجرأة ، وأحرز سيطرة كاملة على رعاع الشوارع ودهماء الشعب بكتائبه المؤلفة من الطغام الإرهابيين[1] ذوى القمصان السمراء . وتمكن من أن ينصب نفسه مستشار الريخ فى يناير سنة ١٩٣٣ .

(١) ولقبهم S. R. وهو اختصار كلمتى Schutz Abteilung أى « جنود الهجوم »

وكانت الحكومة قبيل ذلك قد برح بها الضعف ، بحيث لم يكن فى مقدورها أن تقمع جيوش الأحزاب المختلفة المرتدية قمصاناً من شتى الألوان ، والتى أخذت تستعرض قوتها فى أرجاء البلاد ، وتهدد سلامتها وأمنها . كما كان من أكبر عوامل ضعف الحكومة أن فون پاپن Von Papen ، وهو نبيل ثرى كاثوليكى من نبلاء وستفاليا ملكى النزعة ، كان يؤمل إعادة الملكية عن طريق الحركة الهتلرية ، وقد أصبح مستشار الريخ فى مايو سنة ١٩٣٢ ، فأمكنه أن يستحوذ على ثقة رئيس الجمهورية المارشال فون هندنبرج الهرِم الألمعى ، وأن يستأثر بتأييده لقضية النازيين ونصرتهم .

ففى الإعصار النازى العاتى الذى ثار سنة ١٩٣٣ تحطمت جمهورية ڤيمار التى كانت قد عانت الأمرين من هبوب العواصف الهوجاء عليها أمداً طويلاً . ولم يحزن غير القليلين من الألمان على القضاء على النظام الجمهورى الذى أخفق فى جلب الرخاء إلى بلادهم ، وإثارة الأمل والرجاء فى نفوسهم . فقد كان الريشستاغ أيام الجمهورية مجلساً يتألف من أعضاء حائرين شديدى الحنق عديمى الخبرة . وانقسموا فرقاً وشيعاً شديدة الخلاف فيما بينها . ولم يكن من بينهم شخصيات محافظة قابلة للمران والتدريب . ولذلك لم يستطع أن يصبح أداة فعالة من أدوات الحكم . فحتى بروننغ Brüning آخر جمهورى حق من مستشارى الجمهورية ، وهو اشتراكى كاثوليكى وزعيم حزب الوسط — حتى هو أكره على إصدار مراسيم مستعجلة من غير أن يرجع إلى البرلمان خلال وزارته التى دامت من مارس سنة ١٩٣٠ إلى مايو سنة ١٩٣٢ .

ومع ذلك فإن جمهورية ڤيمار أسدت خدمات عدة لألمانيا التى راق لها الآن أن تتناساها . فقد استطاعت خلال فترة حرجة فى تاريخ ألمانيا أن ترجع إلى العملة قيمتها ، وأن تحرر أرض الوطن من الجنود الأجنبية . وأدخلت ألمانيا عصبة الأمم كدولة من الدول العظمى ، وحملت الحلفاء على تخفيض التعويضات إلى رقم اسمى .

وفى عهد الجمهورية اتُّخذت الخطوات الأولى لاستعادة ألمانيا مكانتها

بين جماعة الأمم الأوربية ، وذلك قبل أن يغتصب السلطة أدلف هتلر بمعاونة جيرنج Goering الطيار وجيبلز Goebels الداعية ، ويتحدى فى جسارة وعتوّ القوات الأربع العظمى فى الحضارة الحديثة وهى : الكاثوليك ، والبروتستانت والرأسماليون ، واليهود .

الفلسفة النازية

وقامت فلسفة الزعيم النازى المتهور السليم الطوية على وجهة النظر التى نالت تحبيذ ڤاجنر ونيتشه وتأييدهما ، والتى بشّر بها هاوستن تشمبراين Houston Chamberlain قبيل الحرب العظمى ، وهى أن الجنس عماد كل شيء ، وأن روائع العالم المجيدة تمت جميعها على أيدى الجنس النوردي . وحاجج بأن المسيح ودانتى وتوماس أكويناس كانوا بلا ريب نورديين ، وأن القوط الذين انحدروا من نفس هذا الجنس التيوتونى صنعوا لتقدم الحضارة أكثر مما صنعه الرومان .

وكان أدلف هتلر من أنصار العنصرية المتطرفين . ونادى بأنه لا يصح ليهودى أن يكون مواطناً ألمانياً . وارتاب فى وحى العهد القديم ، وفى صدق قصة صلب المسيح . فالعهد القديم كان فى نظره مجموعة من أسفار اليهود ، أما قصة الصلب فهى مجرد رمز دينى من رموزهم . والحق أنه شقّ على مفكرى الحركة النازية التوفيق بين الأسفار المسيحية وبين نظام حكمهم الذى يسخر من مبدأ أخوة البشر ، ويطرد من الجامعات الأساتذة ذوى المبادئ الحرة والميول العالمية ، ويستأصل عامداً شأفة الحرية وروح البر والعطف الإنسانى من نظام البلاد التعليمى .

ونادى الكثير من النازيين بأن ڤوتان Wotan ، لا المسيح ، هو الإله الحق القيوم للدين النازى(١) . ولكن كما اندمج الحزب بالدولة بطرق الإرهاب ، كذلك وُجد كثيرون ممن انضووا تحت لواء الحزب دون أن يقتبسوا تعاليمه . فلم تُمْحَ المسيحية كلية من البلاد الألمانية . ففى الكنائس البروتستانتية

(١) « فى هذه اللحظة ، نحن الألمانيين الشعب الذى أعتق نفسه إلى أبعد مدى من تعليم المسيحية » . (من خطاب ألقاه المرشال لودندورف فى عيد ميلاده السبعينى ، ونشر فى جريدة التيمس فى ٩ إبريل سنة ١٩٣٥)

والكاثوليكية على السواء احتج على رءوس الأشهاد بعض ممن أوتوا الجرأة والشجاعة على ألوان الزرايات والتحقير التي لحقت بدينهم وإيمانهم .

لماذا انتصرت النازية

والحق أن الثورة الداخلية التي أحدثها هتلر وحزبه الاشتراكي الوطني في ألمانيا كانت ظاهرة نفسانية فذة خارقة . ومما ساعد على جعل الحكم الهتلري ممكناً ، وعمل على نشر مبادئه ، الفزع الشديد من الشيوعية ، وبغض الألمان لليهود ، ولطلاب الأرباح غير المشروعة ، والرغبة في جعل ألمانيا مرهوبة الجانب في الخارج ، والحاجة إلى إقامة حكومة أقوى وأنشط وأميل إلى الرقي من الجمهورية القائمة : حكومة تستطيع أن تنبذ معاهدات الصلح ، وتسير بألمانيا مرة أخرى في طريق المجد ، وتحلق بها في سماء المطامع . وما حدث في الفاشستية بإيطاليا ، حدث مثله في الهتلرية بألمانيا . فقد انضم الجنود القدماء أفواجاً إلى الحركة النازية . ذلك أنهم بعد أن خدموا بلادهم في ساحات الوغى ، وقاسوا أوحال الخنادق ، وكابدوا شظف العيش ، شعروا بعوزهم وسوء حالهم وازدراء أثرياء الحرب من اليهود لشأنهم عقب وضع الحرب أوزارها .

والألمان شعب نظامي مدقق . ودلالة الهتلرية أنها ، من بين جميع أشكال القومية التي ابتدعها عقل الإنسان ، أدق تلك الأشكال وأقربها إلى النظام . فهي تنادي بأنه يجب ألا تكون في الدولة طبقات ، أو تتألف فيها أحزاب أو نقابات للعمال ، أو تقوم ولايات تتمتع بحكم ذاتي — تلك الولايات التي هي من بقايا النظم الإقطاعية الألمانية القديمة . بل ينبغي أن تُنشأ دولة موحدة مركزية تتألف كلها من نازيين يرتدون قمصاناً من لون واحد ، ويحيون بعضهم بشكل واحد من التحية ، ويرددون نفس الصيغ الواحدة ، ويؤمنون بدين واحد . ويجب أن تعد هذه الدولة الألمانية المؤتمرة بأمر زعيم واحد ، بحيث تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها . فكان من الأعمال الأولى لهذا الزعيم الجديد حينما انتصر أنصاره من الدهماء في معارك الشوارع ، وأوصلوه إلى مقاليد السلطة ، أن سحب بلاده من عضوية عصبة الأمم ومؤتمر نزع السلاح (سنة ١٩٣٣) .

فيبدو فى هذا التأكيد العنيف للروح والمبادئ الألمانية الكثير مما ألفه الناس من الألمان . فسياسة النازيين الأجنبية تماثل بوجه عام تلك التى ترسمتها جماعة الأمم الألمانية سابقاً . فالألمان يصبون إلى أن يشاهدوا جميع بنى جلدتهم الأوربيين منضوين تحت الراية الألمانية ، وأن يظفروا بأملاك جديدة يستوطن فيها الشعب الألمانى . كما أن نزعة النازيين الحربية ، وتعبدهم أمام محراب القوة ، ورغبتهم فى التوسع والاستعمار ، لم تكن بالبدع الجديدة فى ألمانيا . وليس بالأمر الذى يثير دهشة دارس التاريخ الألمانى أن يعرف السهولة التى أمكن بها لهتلر أن يقلب النظم الحرة الألمانية ويقضى عليها . فإنه لم يخرج من الألمان بعد شلر ، معلم عظيم ينادى بمبادئ الحرية . وكانت الأحزاب والمبادئ الحرة فى ألمانيا منذ سنة ١٨٤٨ شجرة ضعيفة لا تطرح ثمراً .

الجديد فى الحركة النازية

أما الجديد فى الحركة الاشتراكية الوطنية ، فهو إحلالها النظم المركزية محل النظام التعاهدى ، وتقويضها النظام القديم للخدمة المدنية الحكومية — هذا النظام الذى أتيح له أن يعمر بعد عاصفة الثورة الأولى (١٩١٨ — ١٩١٩) . وأصبحت الروح العسكرية الألمانية لاتقترن بالنظم الإمبراطورية السابقة أو بالطبقة الأرستقراطية ، بل صارت هذه الروح ثابتة قوية بصفتها عقيدة دولة ديمقراطية تسودها مبادئ المساواة . فهذا الضرب من الثورة الذى جعل فرنسا جبارة عظيمة كدولة حربية سنة ١٧٩٢ ، هو بعينه الذى جعل من ألمانيا سنة ١٩٣٥ أمة مسلحة تتغلغل فى نفوس أبنائها العنجهية البروسية .

مرامى دكتاتورية هتلر

غير أن الدكتاتورية الهتلرية ، وإن ناصرت المساواة الاجتماعية ، إلا أنها لم تكن من الديمقراطية فى شىء . فلم تنظر إلى المواطن كخادم الدولة فحسب ، بل كعبدها المسخر . وقد استعيض فى فلسفة النازيين عن المبدأ الأساسى للديمقراطية القائل بأن على الدولة أن تهدف إلى ضمان أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد — استعيض عن هذا المبدأ بالنظرية القائلة بأن غاية الفرد يجب أن ترمى إلى زيادة قوة الدولة المادية إلى أقصى حد ممكن ، وأن وظيفة المرأة الأولى هى أن تنجب للدولة رجالا يحاربون فى سبيلها ، وأن أمجد

ميتة هى تلك التى يلقاها المرء فى ساحة الهيجاء ، وأن الفضيلة الأسمى هى البطولة التى تتجلى فى مقارعة الأعداء ومواجهة أهوال الحرب . والحق أن أمة تبلغ من التعداد نيفاً وستين مليوناً تقبل حتى اسمياً فلسفة للحياة كهذه لتقدم الدليل على هذا النقص فى اتزانها ورصانتها الذى نلاحظه يقترن بأخلاق هذه الأمة العجيبة التى جمعت بين أشد درجات الحيوية والحماس والجد ، وبين أعظم ألوان الخضوع والنظام والعواطف الجياشة .

ومات الرئيس هندنبرج فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٣٤ . فتسلم هتلر منصب رئاسة الجمهورية محتفظاً بمنصب مستشارية الريخ . ومنحته الأمة الألمانية — متأثرة بضغط حكومى قوى — أغلبية ساحقة ، وخولت له السلطان الكامل على مصاير هذه الدولة الجماعية — وهو السلطان الذى كان غاية مطامعه . ولم تحفل الأمة بماضيه ، ولا بالسنين الأولى من الإرهاب البالغ القسوة الذى بسطه على الناس ، ولا الشك فى أنه تسبب سراً فى إحراق الريشستاغ (فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣) — هذا الشك الذى لم يقلل منه شيئاً محاكمة بعض المتهمين ، وذلك كى يبث الخوف فى نفوس مواطنيه من الشيوعيين ، «ولا حمام الدم» الذى جرى فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ حينما أراق دماء زعماء حزبه القتلة الآثمين[١] ، وأحرق جثثهم ، ومن بينهم رهم Roehm الذى كان من أوائل المنضمين إلى حركته ، ولا اغتيال الدكتور دلفوس Dulfuss مستشار الجمهورية النمساوية الذى حبكت بعض العصابات النازية فى ميونخ مؤامرة قتله — اغتفر الشعب الألمانى كل هذه الفظائع الوحشية التى تعيد إلى الأذهان ذكرى فظائع الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ، وقنع بأن هتلر يمثل فى نظره بطلا مقداماً من أبطال إحدى أوبرات ڤاجنر ، بطلا يمثل ألمانيا المزهوة المتحدة التى لا ترهب أحداً . وحينما أعاد دون سابق إنذار فى ربيع سنة ١٩٣٥ نظام التجنيد الإجبارى ، مخالفاً بذلك معاهدة ڤرساى ،

(١) العدد الرسمى لمن سفكت دماؤهم فى ذلك اليوم هو ٧٧ ، ولكن يبدو أن حوالى ١٢٠٠ شخص على الأرجح لقوا مصرعهم يومئذ .

اهتزت الأمة كلها طرباً ونشوة .

وقد يكون هتلر نبياً ، ولكنه ليس بالرجل الإداري . فهو على عكس نابليون وموسوليني نقصته هيبة الإدارة الرشيدة ، ولكن وَقَفَ خَلْفَ خطبه السحرية ، ودعايته النازية جد المزرية فى طرقها ، ولكنها الدعاية الشديدة الفعل فى نتائجها ، — وقف متوارين لا تراهم الأعين رجال الحرب والموظفون وأقطاب الصناعة يجمعون قواهم من جديد .

عيوب الديمقراطية الفرنسية

ومن ثم يرى أن هنالك ثلاثة أشكال من الحكومات استُجِدَّت فى القرن العشرين ، وهى : الشيوعية الروسية ، والفاشية الإيطالية ، والنازية الألمانية . وقد واجهت هذه الأشكال الثلاثة الديمقراطيتين البرلمانيتين اللتين تمتد أصول إحداهما إلى الثورة الإنجليزية عام ١٦٨٨ ، وأصول الأخرى إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ . وبذلك جابهت مبادئ هجل وماركس ، فلسفات لوك وروسو .

ولم تكن هاتان الحكومتان الديمقراطيتان بكاملتين لا عيب فيهما . ففى فرنسا كانت السلطة التنفيذية أضعف مما ينبغى ، والسلطة التشريعية أقوى مما يجب ، فإن متوسط عمر الوزارة الفرنسية بين عامى ١٩١٨ و ١٩٣٤ هو ثمانية أشهر وخمسة وعشرون يوماً . ومثل هذا التقلقل لا يتلاءم والحكومة الحازمة المستقرة الأركان . وضروب الإصلاح وأنواع العلاج التى تحتاج إليها فرنسا معروفة جيد المعرفة — وهى ليست قط بالثورية ، ولكن كان أهم إصلاحين تطلع إليهما الفرنسيون وقتئذ هما : إلغاء اللجان البرلمانية التى سلبت الوزراء المسئولين وظيفتهم وأوهنت سلطتهم ، ومنح رئيس الوزراء حق حل مجلس النواب من غير ضرورة إلى تصديق مجلس الشيوخ .

ولم يكن هذان الإصلاحان سهلَيْ المنال . فقد ينجح أشخاص أقل فطنة وسداد رأى ، حيث أخفق دومرج Doumerge الذى كان قبلُ رئيساً للجمهورية ، ثم صار رئيساً للوزارة سنة ١٩٣٤ بين تهليل الشعب واغتباطه عقب قيام الأزمة التى نتجت من فضائح ستافسكى ، والتى أوهنت مركز

مجلس النواب ، وأنقصت هيبته إنقاصاً خطيراً . غير أنه من الشاق تنفيذ الإصلاحات التى تعود على الأمة بالنفع ، إذا كان تنفيذها يتطلب موافقة هيئات تتصور أن هذه الإصلاحات ستؤثر تأثيراً سيئاً فى مركزها ، وتقلل سلطاتها . ولهذا السبب يمكن وضع مسألة إصلاح النظام النيابى الفرنسى فى منزلة واحدة من الصعوبة مع مسألة الإصلاح المنشود لمجلس اللوردات البريطانى .

٨ – بريطانيا بعد الحرب العظمى

رسوخ الملكية البريطانية

على حين هوى عرش إثر عرش فى قارة أوربا عقب وضع الحرب العظمى أوزارها ، زادت الملكية فى بريطانيا قوة وحباً وتمكناً فى النفوس . فإن البساطة غير المتكلفة والروح القوية للخدمة العامة اللتين ظهر بهما الملك جورج الخامس وقرينته الملكة مارى ، واللتين لوحظتا أيضاً فى نطاق الدائرة الواسعة التى تضمها الأسرة المالكة ، كان لها أعمق الأثر فى نفوس الأمة . فلا ينزع الجيل الناشئ فى بريطانيا إلى المبادئ الجمهورية . ولقد أبانت مظاهر الحماس الشديد والولاء الكبير اللذين أحيط بهما الملك جورج سنة ١٩٣٥ ، بمناسبة مضى خمس وعشرين سنة على تتويجه – أبانت هذه المظاهر فى جلاء لكل مراقب ذكى بأن للملكية الدستورية مكاناً تستطيع أن تشغله فى مجتمع ديمقراطى يقوم على أسس المساواة والعدالة .

استقرار الحكومة البريطانية

والحكومة البرلمانية مستقرة مكينة فى بريطانيا . وقد جلبت محاولات الانتقاص من قيمتها ونفعها والمطالبة بإلغائها ، السخرية والازدراء على رؤوس القائمين بهذه المحاولات . وليس ثمت علامة أو رغبة فى تنكب المبدأ البريطانى القويم بأن الوزارة هى المسئولة عن إدارة دفة شؤون البلاد أمام مجلس العموم ، وهى بطريقة غير مباشرة ، مسئولة أمام هيئات الناخبين .

صحيح أن البرلمان فى هذا التعقيد المتعاظم للشئون العامة ، يمنح بعض سلطات تشريعية للمصالح الإدارية ، أو الهيئات المنشأة حديثاً بواسطة القانون ، كمصلحة ميناء لندن ، وشركة الإذاعة البريطانية ، وصحيح أن هناك

علامات تشير إلى أن هذه العملية ستزداد اتساعاً فى المستقبل . ولكنه يوجد على الدوام وزير من وزراء العرش مسئول أمام البرلمان عن هذه الهيئات . ولا يسمح البرلمان بأن يوهن تخويلُ بعض الهيئات حصة من سلطته التشريعية ، تركيزَ المسئولية فى يده . فإننا نرى جميع الشئون الهامة القومية والإمبراطورية تعرض كل عام على أنظاره ، وتُبْحث أمهات المسائل ، وتوضع توجيهات السياسة فى ساحته . فمثلا لم يشرَّع قانون فى كثرة بنوده ، وتشعب أحكامه ، وشدة مساسه بملايين كثيرة من البشر ، مثل ما شرِّع قانون « حكومة الهند » الذى عرضه سنة ١٩٣٤ سير صمويل هور Sir Samuel Hoare وزير الهند يومئذ على البرلمان البريطانى . وإن المناقشات التى دارت فى البرلمان فى هذا الموضوع العسير غير المألوف لقمينة بخير تقاليد الحياة البرلمانية الإنجليزية .

نهوض حزب العمال واعتدال زعمائه

وقد عمل نهوض حزب العمال البريطانى على التعجيل فى تضاؤل قوة حزب الأحرار : هذا الحزب الذى انقسم على نفسه سنة ١٩١٦ ، حينما أيد بعض أعضائه الوزارة الائتلافية التى شُكلت وقتئذ برئاسة المستر لويد چورج ، على حين اتخذ البعض الآخر موقف المعارضة لها بزعامة المستر أسكوث . ومع ذلك فإن ازدياد نمو حزب العمال وقوته خيّب تنبؤات المتخوفين .

ذلك أن زعماء هذا الحزب : مثل المستر رمسى مكدونالد ، والمستر آرثر هندرسن والمستر تومَس ، والمستر كلاينْز ، كانوا أبعد ما يكون عن مناصرة الحركات الثورية . فمع أن المستر رمسى مكدونالد كان نصيراً للسلام والتهدئة ، إلا أنه كان بالفطرة محافظاً خيالياً ، وكان المستر سنودن من أنصار الراديكالية ، والمستر تومَس استعمارياً شديد النزعة . ولم يملْ واحد من هؤلاء القادة إلى احتذاء نهج روسيا . وحينما أشرفت البلاد سنة ١٩٣١ على الانهيار التجارى الذى جلبه عليها تبذير وزارة العمال القابضة يومئذ على زمام الأمور ، انضم هؤلاء الزعماء إلى المحافظين والأحرار فى وزارة مؤتلفة قومية تعمل على معادلة الميزانية ، وإعادة الثقة والطمأنينة المالية إلى البلاد .

وبذا ثبت — عكس ما كان منتظراً — أن المرانة التى يكتسبها زعماء العمال

فى قيادتهم حركة نقابات العمال هى إعداد حسن جداً لتقلد الوظائف العامة العليا ذات المسئوليات الكبيرة . فقد كان لزعماء العمال خبرة سابقة وافرة بفن معاملة الأشخاص المتعبين من أنصارهم ، وخبروا المفاوضات مع أرباب الأعمال ، واختلطوا بالأجانب فى مؤتمرات العمال الدولية ، وكانوا يعرفون ، أكثر مما يعرف معظم أعضاء مجلس العموم ، كيف تعيش فى الواقع غالبية أهل البلاد .

ولذلك فإن هذا الحزب رغم ما كان ينقص أعضاؤه نقصاً عظيماً من المعارف والثقافة ، فإنه حوى رجالا ذوى خبرة ناضجة وكفاية كبيرة . فأدار المستر رمسى مكدونالد والمستر هندرسن وزارة الخارجية إدارة تدل على طول باعهما . وميز المستر سنودن نفسه فى وزارة المالية . وكان الموظفون فى السلك المدنى يعملون فى ولاء وإخلاص مع وزارات العمال ، ويقوّمون من أخطاء وزرائها الناتجة عن قلة الخبرة . ومع أن حزب العمال فى وزارتيه القصيرتى الأجل لم يكمل إلا القليل من مجيد المشروعات والقوانين ، إلا أنه علّم البلاد هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن المقدرة السياسية ليست احتكاراً للطبقات العليا والوسطى .

٩ — أسس السياسة البريطانية

حكم بريطانيا حكماً حسناً

وكان من حسن طالع بريطانيا ، أنها حُكمت منذ « ثورتها المجيدة » عام ١٦٨٨ ، بطريقة أعظم فطنة وسداد رأى من أية دولة أوربية أخرى . نعم ، ارتكبت بعض وزاراتها أخطاء ، ولكن هذه الأخطاء لم تكن قط من نوع يحفز إلى الاحتجاج العنيف والتمرد المؤيد بقوة السلاح ، أو الضار بمستقبل البلاد . وقد تحملت هذه الأمة المسالمة صدمة الحرب ، وموّلتْ حليفاتها ، وقبلت نظام التجنيد الإجبارى الثقيل الوطأة المضاد لتقاليدها الطويلة الأمد ، دون أن تنبس بكلمة تبرم واحدة . وتغلبت فى صبر وشجاعة على المتاعب التى واجهتها زمن السلم ، والتى كانت أخطر من وجوه عديدة من تلك التى جابهت فرنسا

فقد رجع خمسة ملايين من الرجال المدربين على الحرب إلى أعمال مدنية دون أن تُطلَق طلقة واحدة . وأقلق وزارة لويد جورج الائتلافية اعتصابٌ لرجال الشرطة ، ثم آخرُ لعمال السكك الحديدية ، ثم ثالث لعمال المناجم ، وجاءت هذه الاعتصابات الثلاثة متلاحقة متعاقبة . ولكن الوزارة أمكنها التغلب على كل اعتصاب منها . كذلك لم يفلح اعتصاب عام نشب سنة ١٩٢٦ ، ودام تسعة أيام . وقد عالجته وزارة المستر بلدون فى حزم مقرون بالكرم والعطف. وناصرت الكثرة الكبرى للأمة الحكومة. فخف إلى نجدتها أصحاب السيارات ، وجاء إلى معونتها اختراع الإذاعة اللاسلكية الذى كان جديداً فى ذلك الحين . وكان تأمين العمال ضد البطالة هو صمام النجاة العظيم ضد القنوط واليأس ، بإبعاده شبح الجوع عن أعين العمال المتعطلين .

وكان استتباب أركان السلام فى بريطانيا عقب الحرب أدعى نسبياً إلى إثارة العجب . فقد اضطرت هذه البلاد إلى إطعام ثلاثة ملايين نفس أكثر مما كانت تطعم قبل الحرب ، نتيجة للزيادة الطبيعية للسكان من ناحية ، ولوقف المهاجرة منها فى غضون الحرب من ناحية أخرى . وكانت رؤوس الأموال التى استُخدِمت فى الصناعة أقل مما كانت قبل الحرب ، على حين زاد عدد البطون التى وجب إشباعها . وأرهق عبء مزمن من البطالة — كان أفدح كثيراً من النسبة العادية — أرهق هذا العبء ميزانية الاعتمادات المخصصة لتأمينات العمال ، وقوّى حجة أولئك الذين ابتغوا إعادة النظر فى نظام حرية التجارة الذى سار بالبلاد قدماً خلال الحرب .

العدول عن سياسة حرية التجارة

وقُسم للمستر رمسى مكدونالد أن ينبذ بصفته رئيس الوزارة القومية سياسة حرية التجارة القاضية بعدم فرض رسوم جمركية على الواردات ، وهى السياسة التى أدخلها السر روبرت پيل سنة ١٨٤٦ ، والتى تمتعت بريطانيا خلال فترة العمل بها بحقبة من الرخاء العام لا مثيل لها فى تاريخ العالم أجمع .

وتحمل الشعب البريطانى بعد الحرب دون شكوى عبئاً من الضرائب أثقل من عبء أية دولة أوربية أخرى . فإن المخصصات السنوية للدين الوطنى العام

أربت وحدها على الثلاثمائة مليون جنيه . وتجبى الدولة ، حتى بعد انصرام خمسة عشر عاماً على الحرب ، ضريبة قدرها أربعة شلنات وستة بنسات من كل جنيه من دخل دافعى الضرائب . ولا تدخل فى ذلك الضريبة الإضافية الكبيرة المفروضة على الدخول التى تزيد على ألفى جنيه فى العام .

العناية بالخدمات الاجتماعية

ومع ذلك فإن من مميزات الروح الديمقراطية التى سادت هذه البلاد بعد الحرب العظمى أن مستوى الخدمات الاجتماعية ما زال أعلى من مستواها فى أى بلد آخر ، وأكثر منه نفقات . ولم يعتره أى نقص خطير رغم كساد التجارة ، وفداحة الضرائب البريطانية . واجتمعت كلمة جميع الأحزاب على ضرورة العناية بتوفير أسباب الصحة والتعليم والسكنى لأفراد الأمة. فلم تُبتَلَ أى طبقة من طبقات الشعب البريطانى منذ الحرب الماضية بمثل ما ابتُلى به الألمان عند ضياع ثروات الطبقتين العليا والوسطى بسبب كارثة المارك ، أو طبقة أرباب الأملاك والممولين الفرنسيين بسبب تدهور قيمة الفرنك الفجائى . صحيح أنه حدث شقاء وتعاسة عظيمان فى الجهات التى كثرت فيها البطالة فى بريطانيا ، ومع ذلك فإنه إذا أخذنا أى معيار لقياس رفاهية الشعب ، مثل إيرادات صناديق التوفير ، أو النفقات التى تُصرف على زيارة السينما ، أو على الإجازات ، أو على السفر ، أو على أحذية صبية المدارس ، فإن هذا المعيار يدل على مجتمع لا ينقصه نقصاً فاحشاً تلك الكماليات الصغيرة التى تدخل السرور والبهجة فى حياة الضجر والعناء التى يعانيها العامل .

تطور اقتصادى غير سليم

غير أنه ذهب ذلك التفوق الاقتصادى القديم الذى تمتع أهل بريطانيا بخيراته خلال الثلاثة الأرباع الأولى من القرن الماضى . فقد تعلمت ممالك أخرى أن تصنع لنفسها كثيراً من السلع التى تحتاج إليها ، ووضعت سياجاً من التعريفات الجمركية لحماية مصنوعاتها . وزادت الحرب العظمى كثيراً من نزعة الدول صوب الاكتفاء الذاتى من الوجهة الاقتصادية . كما أنه قلل من نطاق التجارة الدولية إضافة ستة آلاف ميل من الحدود الجديدة للممالك التى استحدثتها معاهدات الصلح ، والتى أقامت كل منها حاجزاً من التعريفات حول حدودها .

فكان تضخم الإنتاج والبطالة وتضاؤل حجم التجارة الدولية تضاؤلا كبيراً، بعضاً من النتائج التى نجمت عن التطور القومى الاقتصادى غير السليم. ولم تؤذَ بلد نتيجة هذه الأمور مثل ما أوذيت بريطانيا التى يتركز ثلث سكانها فى مدن الثغور.

سياسة التفضيل الامبراطورى

فكان من الطبيعى فى هذه الظروف المتبدلة أن تتحول أذهان كثير من الإنجليز إلى إمكان ترقية لون من أوان الاكتفاء الذاتى الاقتصادى والسياسى بالتضامن مع مستعمرات الدومنيون ومستعمرات التاج. فرُسِمت سياسة للتفضيل الإمبراطورى فى مؤتمر رؤساء وزارات الإمبراطورية الذى عقد فى أتاوة عام ١٩٣٢. غير أن المشروع الخاص بإباحة حرية التجارة داخل نطاق الإمبراطورية، وهو مشروع أكثر جاذبية من مشروع التفضيل الإمبراطورى، أخفق فى إثارة حماس مستعمرات الدومنيون، إذ أنها تفرض رسوماً عالية لحماية صناعاتها.

ضرورة مساهمة بريطانيا فى شئون أوربا

ولكن بريطانيا العظمى، رغم العواطف القوية التى تربطها بشتى أقسام إمبراطوريتها، يتعذر عليها أن تنفض يدها كلية من الشؤون السياسية للقارة الأوربية، أو أن تحصر مصالحها التجارية داخل نطاق مستعمراتها المستقلة وتلك الخاضعة للتاج. ويكفى تطور الطيران هذا التطور الكبير السريع ليقوم حجة ضد العودة إلى «سياسة العزلة المجيدة» التى كان اللورد سالسبرى يحضّ عليها. فليست بريطانيا الآن بجزيرة. وإذا كانت مصلحة بريطانيا قبل الحرب الماضية قد فرضت عليها منع ألمانيا من اكتساح البلجيك، أو الاستحواذ على ثغور القنال الإنجليزى، أو السيطرة على فرنسا، فإن منع هذه التغييرات فى التوازن الأوربى غدا الآن أمراً أعظم خطورة وأهمية لسلامتها مما كان قبلا.

وبريطانيا ملزمة بصفتها عضواً فى عصبة الأمم، وضامنة لميثاق لوكارنو، ويهمها غاية الأهمية حفظ السلام الأوربى — ملزمة بأن تساهم بنصيب فى رخاء ممالك أوربا، واستقرار الأمن والطمأنينة فى ربوعها. ويستطيع دارسو الأسواق المالية والتجارية أن يتنبأوا فى شىء كثير من الثقة بأنه رغم قرارات مؤتمر

أثاوة ، ستستمر تجارة بريطانيا عالمية ، وسيستمر أبناؤها يتاجرون مع الأرجنتين والبرازيل والصين والولايات المتحدة ، كما يتاجرون مع الهند وكندا وأستراليا .

والعقلاء من أولى الرأى السديد فى جميع أصقاع أوربا يجمعون رأيهم على أنه تكون كارثة على العالم ، لو أن بريطانيا نفضت يدها من شؤون أوربا . وليس ذلك لأن البريطانيين محبوبون فى أقطارها ، فإن الهنات السطحية لأخلاقهم ومسلكهم المتعالى واضحة كل الوضوح لعيون الأجانب . ولكن الإنجليز ليسوا على الأقل بمكروهين فى فرنسا بدرجة الألمان فيها ، أو أنهم مبغوضون فى ألمانيا كما يبغض الفرنسيون . فإن الأوربيين يسلّمون بأن هذا الشعب المتناقض، الغريب الأطوار ، المتغابى ، ينشد السلام ، ويؤيد عصبة الأمم، وأن بريطانيا تستطيع أن تقوم بدور من الوساطة ليس فى استطاعة دولة أوربية كبرى أخرى أن تجيد مثلها القيام به .

ضرورة السلام لرخاء انجلترا

وإذا أتيح يوماً لأعظم المشكلات السياسية الحالية طراً ، وألا هى مشكلة نزع السلاح ، أن تُحل حلا موفقاً ، فإن أكبر الفضل فى ذلك سيعود إلى الجهود المضطردة للوزارات البريطانية وكبار الساسة البريطانيين الذين كانوا يقصدون جنيف من جميع فجاج الإمبراطورية ليساهموا فى وضع نظام دولى أفضل ، ومنع تكرر المنافسة القتالة التى قادت ، وكان لا مناص من أن تقود ، إلى اندلاع لظى الحروب .

ذلك أن السلام ضرورة فى المقام الأول لجزيرة تجارية . وقد أدرك الساسة البريطانيون ، ما خلا عدداً قليلا منهم ، هذه القاعدة الأساسية من قواعد سياسة بلادهم . وكذلك يمكن لرجال السياسة البريطانية الخارجية أن يقولوا بأن لوناً من ألوان العواطف الإنسانية ، بعضها خيالى ، وبعضها مندفع لا يستند إلى رأى سديد ، ولكنها عواطف صادرة من قلوب محبة للإنسانية ، ومستمدة من التقاليد البيوريتانية التى نشأت خلال القرن السابع عشر — فى وسعهم أن يقولوا إن هذه العواطف تمتزج بعواطف خشنة تقوم على المنافع المادية الاقتصادية والسياسية فى تسيير دفة سياستهم .

فليس ثمت بلاد فى أوربا أكثر من هذه البلاد إحساساً وأشد منها عطفاً على الطوائف المهضومة الحقوق فى الأقطار الأخرى ، فقد أظهرت إنجلترا فى حقب شتى عطفها على طائفة الولدنيين(١) الدينية ، وعلى القطاليين والمهاجرين من الأشراف الفرنسيين ، وعلى الرقيق واليونانيين والإيطاليين والبلغار والأرمن والصربيين والبوير والبلجيكيين. ولا يحفل المثالى الإنجليزى إلا قليلا بالربح أو الخسارة المادية فى مساهمته فى صوغ سياسة بلاده ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يغفل إغفالا تاماً أمر ذلك الربح ، أو تلك الخسارة .

تعاظم شأن الولايات المتحدة

وعلى الجانب المقابل من مياه الأطلنطى ، يبدى فرع آخر من فروع الجنس الأنجلوسكسونى فى معاملاته العامة ، اهتماماً مماثلا بالقضايا الإنسانية الكبرى والمكاسب الاقتصادية على السواء . وهو اتفاق فى وجهتى النظر بين البلدين ستكون له نتائج ذات بال على مصاير العالم . ولهذا قبلت بريطانيا فى غير تذمر، وفى اللحظة التى بلغ تفوقها البحرى أوجه – قبلت مطلب الأمريكيين الخاص بالمساواة البحرية معها ، وهو مطلب رفضت بكل ما أوتيت من عزم وقوة ، خلال قرون عدة ، التسليم به لأية دولة أخرى . وأيا كان المصير الذى ينتظر قارة أوربا ، فإن هدف السياسة البريطانية يرمى على الأقل إلى التمسك بأهداب السلام وصونه بين الشعبين الأنجلوسكسونيين .

استقلال ارلندا الداخلى

ومن المعقول أن يجيش فى صدر الشعب البريطانى هذا الأمل ، بعد أن تضاءل منذ سنة ١٩٢١ تضاؤلا محسوساً سبب قديم من أسباب الاحتكاك بينه وبين الشعب الأمريكى – إن لم يكن هذا السبب قد زال نهائياً . فلم يعد بعدُ خضوعُ إرلندا للنير البريطانى قذى تتأذى به عيون الأمريكيين . فبمقتضى المعاهدة التى أبرمت فى ذلك العام بين بريطانيا والولايات الجنوبية الإرلندية ، صارت إرلندا(٢) تتمتع بمثل ما تتمتع به كندا من حرية واستقلال ذاتى .

(١) Waldenses ، ويطلق الفرنسيون على هذه الطائفة اسم Vaudois

(٢) ما خلا الولايات الست الشمالية التى تقع فى الشمال الشرقى من إرلندا ، والتى رغبت فى إبقاء علاقاتها مع بريطانيا .

وأصبح لا وجود لحاكم عام يتربع فى قلعة دبلن ، ولا لوزير بريطانى لإرلندا ، ولا لكتائب بريطانية ترابط فى أرضها .

وصار البرلمان الإرلندى فى دبلن هو الذى يجيز القوانين . والسلطةُ التنفيذية الإرلندية هى التى تنفذ تلك القوانين فى إرلندا . وترفع إرلندا علمها الخاص ، وترسل ممثليها السياسيين إلى الدول الأجنبية ، ومندوبيها إلى جنيف ، وممثليها إلى المؤتمرات الإمبراطورية . وهى تفرض مكوسها الخاصة على الواردات الأجنبية ، ومن بينها الواردات البريطانية . وفى وسعها منذ إقرار قانون وستمنستر سنة ١٩٣١ أن تسن قوانين مخالفة لتلك التى يسنها البرلمان البريطانى . بل إنه حسب حكم أصدره المجلس الخاص البريطانى سنة ١٩٣٥ ، فى وسع الديل Dail (كما يسمَّى البرلمان الإرلندى) أن ينقض أحكام معاهدة عام ١٩٢١ نفسها — وهى المعاهدة التى خلقت دولة إرلندا الحرة .

فإذا كان المستر دى ڤاليرا De Valera الزعيم الإرلندى الجمهورى يعارض فى مركز بلاده الحاضر كما حددته تلك المعاهدة ، فإنه يفعل ذلك ، لا لينشىء جمهورية تجلب لإرلندا قسطاً من الحرية ورغد العيش أوفر مما تستطيع الحصول عليه الآن ، بل لأنه يبغى لأسباب تتعلق بالمثل العليا ، أن يشاهد دولة إرلندية متحدة خارجة عن دائرة الإمبراطورية البريطانية . فبعد أن كافح سنة ١٩١٦ ، ثم سنة ١٩٢١ ، فى سبيل إقامة جمهورية ، لا يميل الآن إلى هجر حلمه الجميل بإقامة جمهورية إرلندية فضلى ، يتكلم أبناؤها اللسان الإرلندى القديم — جمهورية لا تكترث لشؤون هذا العالم المادية ، بل تعيش فى عزلة غامضة واكتفاء ذاتى . ومع ذلك فإن وزارة المستر لويد چورج التى أبرمت المعاهدة الإرلندية لم تبعد احتمال منح أنصار الجمهورية فى إرلندا الكاثوليكية مطلبهم هذا كاملا غير منقوص .

٩ – التجربة السوفيتية

رسوخ قدم الحكومة السفيتية

لا تزال حكومة السفييت الروسية قائمة رغم تنبؤ المتنبئين فى دول غرب أوربا فى وثوق ويقين ، منذ الأيام الأولى لحكم لنين ، بزوالها العاجل . ولكن بقاءها يجب ألا يثير فينا عجباً . فإن بقاء النظام البلشفى فى روسيا عائد إلى سماته المحافظة ، كما هو عائد أيضاً إلى صفاته المبتدعة المستنبطة الجديدة . فقد ألف الشعب الروسى الطغيان دهوراً طويلة . وأساليبُ القمع الصارمة التى تؤذى مشاعر الأحرار فى الدول الغربية لا تثير سخطاً فى تلك البلاد نصف الأسيوية .

الدكتاتورية ليست بغريبة عن روسيا

فإن حكم ستالين Stalin ، هذا الابن الفج الطباع لاسكافى من أهل ولاية چورچيا، والذى تخرج من صفوف الجمعيات الثورية ، والذى كان أيام شبابه قاتلا ولصاً من لصوص العصابات المسلحة التى تسلب القطارات – إن حكم ستالين ليس بأكثر عنفاً وقسوة أو أشد غلظة ووحشية من حكم إيوان المريع أو بطرس الأكبر . والبدعة الحقة فى روسيا هى إقامة جمهورية برلمانية تعيش فى جو من الحرية ، وتسير شؤونها بعد بحثها فى مجادلات حرة طليقة . فإنه حينما ألغى لنين الجمعية التأسيسية ، لم يفعل شيئاً سوى أنه قضى على روسيا بأن تدير ظهرها لبدع الغرب السياسية ، وتعود إلى أساليب القياصرة وأنظمتهم الاستبدادية المألوفة .

الجديد فى النظام السفييتى

ولكن هناك أشياء فى النظام السوفيتى ، لا شك فى أنها جديدة . فإنه يقوم الآن فى البلاد الروسية مذهب اجتماعى تنفذه دعاية واسعة النطاق ، هى سمة من سمات هذا العصر العلمى . وتنفذه أيضاً المدافع الرشاشة والطيارات والتليفون والتلغراف والمطابع والسينما والإذاعة اللاسلكية وتسخير جميع الفنون لخدمة الدولة . فأمكن لنظام ضخم جبار قائم على الضغط الحكومى أن يحصر فى نطاق محدود مغلق مائة مليون وستين مليوناً من الأنفس ، وأن يحجب عنهم الحقائق غير المرغوب فيها . والحق أن جميع ألوان الطغيان السابق التى دونتها

السجلات البشرية لتعد شيئاً تافهاً بالقياس إلى التجربة السفيتية الهائلة .

ضخامة التنظيم الاقتصادى الروسى

وليس التنظيم الاقتصادى فكرة اختصت بها روسيا وحدها ، بل هو موجود فى هذا الشكل أو ذاك فى كل مشروع اشتراكى . ولكن الذى يثير الدهشة والإعجاب هو المجال الرحيب الذى نفذت فيه الحكومة السفيتية هذا المشروع الضخم ، والمخاطر التى صادفتها ، والمقاومة التى تغلبت عليها ، وصنوف الشقاء التى فرضتها فى قسوة بالغة على الأهالين الذين تحملوها فى صبر وتجلد . فإن التنبؤ فى أى عام من الأعوام عن حاجيات سكان مملكة مترامية الأطراف ممتدة الآفاق كروسيا ، هو عمل تنوء به مقدرة أعظم دول العالم خبرة ، وأوفر الناس ذكاء . وأصعب من هذا العمل الشاق هو موازنة الإنتاج بالتوزيع الاقتصادى ، لمقابلة مطالب السكان وحوائجهم . ومع ذلك فإن هاتين العمليتين الهائلتين : عملية التنبؤ وعملية الموازنة ، يقوم بهما الآن حكام روسيا الشيوعية فى جميع أرجائها الرحيبة الخاضعة لسلطانهم ، والممتدة من حدود بولاندا إلى سواحل المحيط الهادى .

حزب السفييت

والحق أن مشهد أمة عظيمة تطبِّق على نفسها ضرباً جديداً من ضروب الحياة ، وتتحدى فى جرأة وإقدام تقاليد الماضى وأهواءه المتجمعة — إن هذا المشهد ينجح فى إثارة اهتمام الناس به ، وحب استطلاعهم لمعرفة كنهه . وتقوم الدعامة الأساسية التى ترتكز عليها الدولة الروسية الجديدة على حزب سياسى يتكون من مليونين أو ثلاثة ملايين من الرجال والنساء الذين اختيروا بالاقتراع ، وتبعاً لمؤهلات معينة تقوم على المعتقدات السياسية . ويطهِّر هذا الحزب بين آونة وأخرى من الأعضاء الذين يظهرون قصوراً فى الشروط المطلوبة من حيث الثقافة والتفانى فى الخدمة .

هذا هو الحزب الشيوعى الذى كرس أعضاؤه نفوسهم للعيش عيشة الزهد والفاقة والطاعة ، والذى نُظِّم فى لجان متفاوتة الطبقات ، والذى يهيمن على معتقدات الشعب الروسى ، ويستأصل شأفة الأوهام والخرافات من عقولهم . وعن طريق الخدمة فى الحزب الشيوعى قد يصل الرجل الطموح إلى المقام

الأول فى مناصب الدولة . فقد يتسنم منصب القوميسارية (الوزارة) ، أو قد يصل إلى منصب السكرتير العام للحزب ، ويستطيع بذلك أن يبسط سلطانه الأعلى على سياسة الدولة وشؤونها ، كما يفعل ستالين الآن . ويقدم نظام الانتخاب الروسى الواسع المجال لكل مواطن يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً فأكثر فرصاً عديدة للخدمة العامة . ويستطيع المواطن الروسى أن يخطب ويقترع بصفته سياسياً فى لجنة ، وبصفته منتجاً فى لجنة أخرى ، وبصفته مستهلكاً فى لجنة ثالثة . ولكن شيئاً واحداً فقط يحرَّم عليه ، هو أن يكون حراً فى الانحراف عن العقيدة الشيوعية .

أفضال السفيتية

وليس فى مقدور مراقب منصف أن ينكر أن للتجربة السفيتية بعض المزايا والأفضال . فقد أصبح التعليم فى روسيا عاماً ، وطُهر منذ سنة ١٩٢٨ من شوائبه وشذوذه ، وأقيم على قواعد سليمة طبيعية . وتظهر الدولة عناية حكيمة بالصحة والرياضة العامة . ومع أنه ثبت أنه لا مناص من إعطاء أجور خاصة لمهرة العمال ، فإن الإحساس الضار الناتج من عدم المساواة الاجتماعية — هذا الإحساس الذى نراه شائعاً فى المدن الصناعية بالأقطار الغربية — قد أزيل من النظام الحكومى الروسى ، فعاونت إزالته معاونة كبرى على التطور الطبيعى لبلاد متأخرة كروسيا — هذه البلاد التى ثابرت على تنفيذ برنامج إيجابى نشط يقوم على استخدام قواها الآلية ، وهو البرنامج الذى بدئ بتنفيذه فى أخريات العهد القيصرى . وقامت مدن جديدة ، وأدخلت صناعات جديدة ، وبُذِلت محاولات منظمة لإدخال النظم الصناعية الأمريكية التى تقوم على الإنتاج الكبير ، من غير إدخال وازع الكسب الشخصى فى نظام البلاد الصناعى . ولما كان العمل إجبارياً فى كل مكان فى روسيا ، فليس ثمت بطالة يعسر التغلب عليها[1] .

---

(١) ملاحظة : رأينا أن نهمل ترجمة بعض فقرات من هذا الفصل ، لا يتجاوز مجموعها الصفحتين أو الثلاث ، يعرض فيها المؤلف آراءه فى مصير الفاشية والنازية ، ويتساءل فيها هل ستجر أوربا إلى حرب مدمرة مهلكة أخرى . فنحن نعرف الآن أن الحرب قد نشبت سنة ١٩٣٩ ، وأن الفاشية والنازية قد زالتا من الوجود ، بعد أن جرتا على إيطاليا وألمانيا الخراب والهوان .

كتب يمكن استشارتها

Lord D'Abernon: The Eighteenth Decisive Battle of the World. 1931
Luigi Villari: Italy (Nations of the Modern World Series) 1929
Lord D'Abernon: An Ambassador of Peace. 1929
D.C. Sommervell: Reign of George V. 1935
J.S. Barnes: Fascism. 1931
H.J. Laski: Communism. 1927
H.J. Laski: Liberty in the Modern State. 1930
Rudolf Oeden: Stresemann. Tr. R.T. Clark. 1930
Vernon Bartlett: Nazi Germany Explained. 1933
H.F. Armstrong: Hitler's Reich. 1933
F.H. Simonds: How Europe made Peace Without America.
Hitler: Mein Kampf. 1932
Sidney and Beatrice Webb: Soviet Communism. 2 vols. 1935
Arnold Toynbee: Survey of International Affairs.
W.H. Chamberlain: Russia's Iron Age. 1933

الفصل السابع والثلاثون

تذييل

والآن ، مع انقضاء نحو عشرين مليون سنة على ظهور الحياة فى هذا الكوكب السيار ، لا يزال حظ الجانب الأكبر من بنى الإنسان ، كما وصفه هوبز Hobbes الفيلسوف الإنجليزى « قاسيا قصير الأجل محفوفاً بالمكاره » . ولا يزال من بين سكانه الألفى مليون نسمة زهاء مائة وخمسين مليوناً يعيشون على شفا الجوع والحرمان .

ولكن هذا المؤلف لا يتحدث عن هذا الشقاء الإنسانى البالغ ، ولا يشغل نفسه بتلك التعاسة البشرية الشاملة ، اللذين ما زالا ينشران ألويتهما على أراضى آسيا وإفريقية وأمريكا الجنوبية الفسيحة المترامية ، حيث عاش ويعيش آلاف الملايين من الرجال والنساء ، يكدحون ويشقون ، ثم ينحدرون إلى قبورهم دون أن يخلفوا ذكرى ، أو يسدوا خدمة للأيام المقبلة . ولكنى اجتهدت فى هذه الصفحات أن أبسط فى أوجز العبارات فكرة عامة عن قصة ذلك القسم من الجنس البشرى الذى هيأت له المقادير فى أوربا مناخاً معتدلا ، فازدهر أمره وترعرع شأنه ، ولم يقصر نشاطه على استعمار قارات جديدة ، بل بلغ بمجهوداته ونضاله وآماله وأحلامه مستويات من الرفاهية ورغد العيش لم يكن يحلم البشر ببلوغها ، والاحتفاظ بها ، ونشرها فى جهات المعمورة الأربع .

ولم تتمتع أوربا فى عهود حضارتها ببركات حكومة واحدة بسطت سيطرتها عليها إلا فى حقبة واحدة طويلة الأمد . فإن الإمبراطورية الرومانية ،

والإمبراطورية الرومانية لا غير ، هى التى احتفظت خلال ثلاثة قرون خطيرة الشأن بكل ما هو نفيس فى الحياة الأوربية . ثم حلَّ بأوربا خطب جسيم. ذلك أن الصرح السياسى لهذا النظام الشامخ الفخم تداعى وتقوَّض تحت ضربات معاول الجنس التيوتونى . فهلكت الإمبراطورية الرومانية ، مخلفة وراءها إرثاً يشيد بسؤددها وعظمتها ، ويُرى فى روائع فرچيل وشيشرون، وهوراس وأوغسطين وكنيسة روما ، وقواعد القانون الرومانى الشامخة الأركان . ولكن راح من البنيان الأوربى وحدته واستقرار النظام وشيوع الحرية والعواطف الإنسانية فى أرجائه ، واضطرت الحضارة أن تشيد من جديد أسس صرح حياتها وسط محيط من البربرية الطاغية والجهالة السائدة ؛ فتقطعت الأواصر التى ربطت بين القسمين الشرقى والغربى للإمبراطورية ، وانفصلت الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية .

ولكن البابوية ، وهى أقوى المؤسسات التى أورثتها الإمبراطورية لأوربا دعائم ، وأرسخها قدماً ، عجزت عن أن تحفظ أسباب السلام بين الشعوب الجامحة الأهواء النزَّاعة إلى النضال والحرب . فانتشرت فوضى جديدة فى أرجاء أوربا ، وتمزق شمل المجتمع الأوربى إلى أجزاء صغيرة ، وأخذت المدن والمقاطعات تشن الحرب بعضها على البعض الآخر أجيالا طوالا ، إلى أن برز بالتدريج من حمأة هذه الفوضى أمم تركزت قوائمها حول عروش أسرات مالكة .

ثم نما شيئاً فشيئاً فى داخل كل أمة نظام بدوى خشن من العدالة والأمن . ولكن ظلت علاقات الأمم بعضها ببعض لا ينظمها قانون ، ولا تسيطر عليها شريعة ، اللهم إلا تلك الأواصر التى أمكن للكنيسة الكاثوليكية أن تهيئها . ولكن حتى هذه المؤسسة التى كانت طوال العصور الوسطى متفرجاً عاجزاً مشلول اليد على جرائم البشر ومفاسدهم وحروبهم — حتى هذه المؤسسة أوهنت من سلطتها حركة الإصلاح ، فأضيف من ذلك الحين إلى الانشقاق الدينى بين الكنيسة اليونانية وكنيسة روما ، انقسام جديد بين البروتستانت والكاثوليك . فعقبت الحروبَ الدينية فى الغرب ، حروبُ الأسرات المالكة أثناء القرن السابع عشر،

والحروب الاستعمارية خلال القرن الثامن عشر . غير أنه لم يخرج من هذه المنازعات أكلا طيباً من التماسك الأوربى ، بل إنها بالأحرى وسعت ثلمات الانشقاق ، وعمقت الهوة التى تفصل دول القارة بعضها عن البعض الآخر .

ومع ذلك لم يتأثر قط العقل الإنسانى يوماً من الأيام بشكل ملموس ، وفى نطاق واسع ، بالأفكار الإنسانية السامية ، أو بالنظرة إلى الإنسان كمواطن فى أخوة عالمية ، كما تأثر خلال الخمسين عاماً التى سبقت الثورة الفرنسية . فقد أخذ الناس يتساءلون وقتئذ : هل كتب لقارة أوربا أن تشيد مرة أخرى بنياناً سياسياً مشتركا لحضارة لاتينية مشتركة ؟ ولكن نهوض نابليون ثم سقوطه ، هيأا الرد . فإنه منذ تمزق الإمبراطورية الرومانية ، لم يحدث أن توحد شطر كبير من أرجاء أوربا تحت صولجان واحد ، كما توحد فى عهد نابليون . ولكن هذا الاتحاد جاء متأخراً . فإن أمم أوربا كانت قد قويت وبلغت أشدها . فقضت المقادير ألا يبسط « السلام النابليونى » عليها رواقه ، فإن تحالفاً من الدول كانت بريطانيا الداعية إليه ودعامته ، أطاش بآمال الفرنسيين ، وحطم سيطرتهم على أوربا .

ومع أن حروب الثورة ونابليون تركت هذه القارة مضعضعة القوى ، فإنها تمتاز عن الحروب الأوربية الأخرى بظهور فكرة جديدة عقبها : وهى فكرة إقامة تحالف دائم من الدول العظمى ضد أى خطر يهدد أحد أصقاعها بالثورة . ثم جاءت فترة طويلة من السلام كانت نتيجة لإعياء أوربا ، أكثر من كونها نتيجة لتعلقها بأهداب الوئام . ولكن تخللت هذه الفترة حروب قومية مثيرة ، جعلت من إيطاليا مملكة ، ومن ألمانيا إمبراطورية .

غير أن أوربا ظلت قلقة مضطربة ، فقد أخذت تجيش فى صدور الألمان مطامع السيطرة العالمية ، وتملأ قلوب الفرنسيين الرغبة فى الأخذ بالثأر . وأثار تقسيم إفريقية ، وتصدع أركان الإمبراطورية التركية ، كوامن الأطماع . وكانت الحركات القومية المكبوتة تنفث سمومها فى أوصال القارة الأوربية طوال القرن التاسع عشر . فاستعرت لهب التمرد والثورة بين الإرلنديين ، والبولنديين ، والتشكيين ، والرومانيين ، والكرواتيين ، والصربيين . وخُلق جو مشبع بروح النضال ، كَفَتْ

شرارة واحدة أن تلهب نيرانه .

وكانت مأساة الحرب العظمى هى أن النضال بين أسمى أمم أوربا ، وأعلاها كعباً فى المدنية ، نشب لسبب كان فى مقدور نخبة قليلة من أرباب العقول الرشيدة المتزنة أن تسويه بسهولة . ولم يكن تسعة وتسعون فى المائة من الأوربيين يحفلون بسبب هذا الخلاف قليلا أو كثيراً . ولذا فإن أهم ما يواجه الآن السياسة السديدة الرصينة هو أن تعمل على اجتناب وقوع هذه الكارثة المروعة مرة أخرى ، وبخاصة لأن مركز أوربا فى العالم لم يصبح هذا الذى كان لها فى العقد الثامن من القرن التاسع عشر . فقد كانت حضارة أوربا وقوتها فى تلك الأيام تبدوان قائمتين على أسس مكينة مستقرة . فإن منتجات الاختراعات الأوربية كانت تجد سبيلها فى سهولة ويسر إلى أسواق الشرق والغرب . وكان الأوربيون يبتاعون مقابلها من تلك الأسواق حوائجهم من الأغذية والمواد الخام الناتجة وفق قانون تزايد الغلة .

وبدا يومئذ أن ليس ثمت سبب قوى للتخوف من عدم تمكن الأوربيين من المحافظة على مستوى معيشة العمال ، بل وتحسينه ، رغم ارتفاع نسبة المواليد ارتفاعاً هائلا بينهم . فقد أخذت الأجور تزداد ، وشرعت بلدان كألمانيا كانت الحياة فيها قبلا قاسية ، وأسباب العيش ضئيلة — شرعت هذه البلدان ترتع فى بحبوحة من العيش والرفاهية . وكانت الولايات المتحدة مفتحة الأبواب للمهاجرين الأوربيين ، وهيأت لرءوس الأموال الأوربية سوقاً مربحاً يكاد يكون لا حد له . فكانت أمريكا بأخذها من أوربا رجالها الفائضين ، وإرسالها إليها منتجاتها الفائضة ، جزءاً أساسياً مكملا لرخاء العالم القديم ورغد عيشه .

ولكن الأحوال تغيرت الآن وتبدلت . فإن دول قارة أمريكا الجنوبية لم تعد تسبغ خيراتها الجزيلة على طلاب الثروة من محتاجى إيطاليا . وغدت أبواب الولايات المتحدة منذ عام ١٩٢٤ أكثر من نصف مقفلة فى وجه المهاجرين الأوربيين . وبدأ قانون تناقص الغلة يسرى مفعوله فى مزارع الأقطار الغربية . ولم تعد أسرار الآلات احتكاراً أوربياً . فإن الهند واليابان تستوردان هذه الآلات

من أوربا ، أو تصنعانها بنفسيهما . ويهدد نظام الإنتاج الكبير الذى تقوم عليه صناعات الولايات المتحدة ورخص أجور العمال فى الأمم الشرقية مستوى معيشة العمال الأوربيين . بل إن السوق البريطانية نفسها التى هى مصدر قوة بريطانيا الصناعية ، أمكن فتحها وغزوها . فإن عاملات مصانع النسيج فى لنكاشير يرتدين جوارب حريرية مصنوعة فى اليابان .

فأوربا تدخل الآن فترة يُنتظر أن تكون المنافسة فيها أشد مما كانت فى الماضى . غير أنه ينبغى أن يُنظر إلى هذه الحقيقة الواقعة ، لا كأنها مثبطة للعزائم ، بل كحافز للهمم ، داعية إلى مضاعفة الجهود . فإن العالم القديم ، وإن كانت لا تزال تعيقه ، وتشل خطاه عن التقدم . الحروبُ ، وإشاعات الحروب ، والرسوم الجمركية العالية ، وتحديد حصص الاستيراد ، ومشاحنات الطبقات ، واعتصابات العمال ، وكل حماقة يمكن أن يبتدعها شيطان المنافسة الاقتصادية القومية ، فإن دوله تمتاز بجودة مصنوعاتها وإتقانها ، فينبغى لها إذن أن تحرص على إجادة النوع أكثر من حرصها على زيادة الكم ، وأن تعيش وفق الذوق السليم ، والحكم السديد ، ومقتضيات الحال .

فإذا عمرت قلوب أبنائها بروح السلام ، وسادت الطمأنينة فى الخارج ، وقلت الأحقاد والاضطرابات ، وأزيلت العوائق والعراقيل التى تعيق التقدم ، فإن إجادة أوربا لمصنوعاتها سيكون لها أثرها فى جميع أسواق العالم . ولا يمكن بغير ذلك أن يُرتجى تأمين العمال الأوربيين على مستوى معيشتهم الحالى ، الذى وإن كان أقل بكثير مما نصبو إليه ، إلا أنه الأساس الذى ما زالت ترتكز عليه آمالنا فى تشييد حضارة سامية رفيعة .

وقد بلغت أوربا الآن نقطة ، تبدو بشكل أجلى الآن منه فى أى زمن ماض أنها مفترق طريقين متضاربين أشد تضارب . فإما أن تنزلق فى الطريق الذى يقودها إلى حرب جديدة ، وإما أن تتغلب على شهواتها وأهوائها وغلوها وجنونها ، وتبذل قصارى جهدها فى إقامة نظام دائم للسلام والاستقرار .

وفى كلتا الحالتين نرى الناس مدججين بالأسلحة المادية العظيمة . وتضع

آيات العلم وعجائب المخترعات تحت تصرفنا قوات هائلة ، فى مقدورنا أن ننتفع منها ، كما أنه فى مقدورنا أن نسىء استخدامها ، ونبنى بها أو نهدم . فبمعجزات العلم فى وسعنا أن نقوض أركان الحضارة ، ونعيث فى الأرض فساداً ، أو أن نبدأ فترة من الوفرة والرخاء والخيرات لم يعرف العالم لها مثيلا فى أى عصر من عصوره .

وفى الوقت عينه تركت لنا الحرب العظمى إرثاً من الشر جسيماً . ذلك أنها مزقت أواصر الاتحاد الأدبى بين شعوب أوربا . فالوثنية النوردية تهاجم الحضارة المسيحية . وتوشك روح خبيثة من العنصرية الهوجاء الجنونية أن تمزق عرى الحضارة الأوربية .

فاللهم هب الأجيال القادمة روحاً من لدنك ترشدها إلى معالجة القلوب الكليمة ، ورأب الصدوع القديمة ، وعوّضنا فيما نضيعه الآن من المهج ، ونبدده من بدرات الأموال ، واهدِ البشر الصراط السوى : صراط الإنسانية والاعتدال والتسامح .

الفصل الثامن والثلاثون

العالم يسير سراعاً نحو الحرب

أسباب التوتر الدولى – تقويض دعائم الأمن الجماعى – اليابان تغزو الأراضى الصينية – قيام دولة منشوكو – حادث الصين . الحرب الحبشية الإيطالية – عجز عصبة الأمم عن وقف العدوان – فتح الحبشة – أهداف هتلر – انتصاراته الدبلوماسية – ضم السار لألمانيا –المعاهدة الفرنسية الروسية – المعاهدة البحرية بين إنجلترا وألمانيا – التقارب بين ألمانيا وإيطاليا – احتلال أراضى الرين – الحرب الأهلية الأسبانية – إقامة المحور – سياسة هتلر الاستعمارية – إدماج النمسا فى الريخ الألمانى – النزاع بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا – اتفاقية ميونخ – فشل سياسة التهدئة – احتلال ألمانيا تشكوسلوفاكيا – احتلال ألبانيا – إنشاء اتفاق ودى بلقانى – اتساع شقة الخلاف – الاتفاق الروسى الألمانى – نشوب الحرب العالمية الثانية .

١ – التوتر الدولى

لعل المرء لا يعدو الحقيقة حين يقول إن جميع الأحداث السياسية الهامة ذات الصبغة الدولية التى حدثت خلال الفترة التى توسطت الحربين العالميتين (١٩١٩ – ١٩٣٩) – إن هذه الأحداث جميعها تقريباً كانت نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للتسويات العامة التى أبرمت بين دول الحلفاء وأعدائها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى . ولقد كان كثير من بقاع العالم إبان هذه الحقبة يغلى فى مرجل من الحسد والقلق والبغضاء والتنابذ والاضطراب نتيجة لما أثارته إلى مدى بعيد معاهدات ڤرساى ، وسان جرمان ، ونويى ، وتريانون ، وسيڤر ، من الحنق وخيبة الأمل وغمرة اليأس وأسباب الانقسام والتفكك .

ولم يكن تقويض دعائم الأمن الجماعى مباغتاً أو غير متوقع . فقد استمرت عملية التفكك والتداعى طيلة هذه الفترة دون أن تبذل الدول الكبرى سوى محاولات ضئيلة مصطنعة لوقف تلك العملية .

وأخذت القوة فى العقد الرابع من هذا القرن تصبح الفيصل الأكبر فى تسوية الشؤون والمنازعات الدولية ، وزاد التسلح تدريجاً فى جميع أقطار أوربا ، وظهرت عصبة الأمم عاجزة عن فرض سلطانها على الدول الكبرى المعتدية ، واعترف أعضاؤها بأن العقوبات الأدبية هى أقصى ما يستطيعون اللجوء إليه من وسائل الضغط والقهر على الدول التى تخرق عهد العصبة ، ولا تحترم قراراتها. وأخذ الجو السياسى يتلبد بالغيوم ، وينذر بالبروق والرعود ، وانتُهكت حرمة المعاهدات ومبادئ القانون الدولى دون حياء أو رادع . وما غزو اليابان لمقاطعة منشوريا ، وفتح إيطاليا لبلاد الحبشة ، إلا مثلان صارخان ، لما كان يجرى فى ذلك العقد من الزمان .

ومضت الدول الدكتاتورية قدماً توحد قواها وتضم صفوفها وتنظم هيئاتها . وأخذت ألمانيا وإيطاليا واليابان تتقارب تدريجاً فيما بينها ، ساعية إلى الظفر ببعض الأسلاب التى رنت بأعينها إليها ، شاعرة بأن التسويات الماضية قد حرمتها هذه الغنائم والأطايب . ولاح لهذه الدول أنه يمكنها أن تظفر بما تشتهى بالتلويح بالقوة أو باستخدامها . وبدت لها الدول الديمقراطية شعوباً قد هرمت ، وحلّ بها ضعف الشيخوخة ، ولاحت لعينها النظم الديمقراطية بطيئة فى إنجاز الإصلاحات الداخلية ، عقيمة فى الوصول إلى قرارات حاسمة . ووعد الدكتاتورون بنى أوطانهم بأنهم سيجدون علاجات ناجعة لمشكلاتهم الداخلية ، وحلولا شريفة عاجلة لمعضلاتهم الخارجية ، وأنهم سيعملون على إقامة نظام جديد للعالم، توزع بمقتضاه المستعمرات والمواد الخام والموارد الطبيعية بالمساواة والقسطاس بين الأمم ، وأن بلادهم ستجد العزة والكرامة والرخاء والنظام إذا ما التفّت حولهم ، وانضوت تحت أعلامهم .

ولقد لقيت هذه الدعاية قلوباً واعية لدى تلك الشعوب ، نتيجة لتنظيم

هذه الدعاية على نحو فريد ونطاق رحيب ، وأظهرت الأنظمة الدكتاتورية درجة عالية من الكفاية والمقدرة والسرعة فى إنجاز الأعمال ، والقضاء على أسباب الاضطراب الداخلى ، والضرب فى شدة على أيدى المعارضين .

أما الدول الديمقراطية الكبرى فقد أصرت حتى اللحظة الأخيرة على إغماض عينها عن رؤية الخطر الداهم الذى يهدد سلامتها وأمن العالم . فواصلت الولايات المتحدة سياسة العزلة ، وأبت أن تحمل على عاتقها أية مسئولية لكفالة السلام العام . واستنامت إنجلترا إلى صولة أسطولها ،ورفعة مقامها، ودهاء سياستها ، فلم تبذل جهداً جدياً حاسماً لكفّ الدول المحرومة كإيطاليا واليابان ، أو الدول التى أحست بعار الهزيمة وذلة التسليم كألمانيا — لكفّ يدها عن البطش والعدوان. وبدأت انجلترا مع فرنسا فى الأعوام القليلة التى سبقت الحرب العالمية الثانية سياسة عُرفت بسياسة « التهدئة » ، تميزت بالخمول الذهنى ، والتراخى الأدبى ، والجبن السياسى .

٢ ـ غزو اليابان الأراضى الصينية

كانت اليابان الدولة الجماعية الأولى التى شعرت بأنها من القوة بحيث تستطيع أن تضرب فى سرعة ماضية وقوة قاهرة ضربة كبرى فى سبيل التوسع والسلطان . وكانت تتميز حنقاً من القيود التى فرضتها عليها سياسة الباب المفتوح فى الصين ، ومعاهدة الدول التسع .

وأغرى اليابان على اختيار الصين مسرحاً لتدخلها وفرض نفوذها ، ما بدت عليه الجمهورية الصينية من ضعف شديد ، وانقسامات خطيرة بين زعمائها ، واشتعال حروب أهلية محتدمة الأوار بين كبار قوادها ، مما أنهك قواها ، وأهلك فيها الحرث والنسل . فخالتها اليابان فريسة سهلة المنال ، ومجالا فسيحاً لتحقيق أهدافها السياسية وأطماعها الاستعمارية .

غزو منشوريا

وكانت مقاطعة منشوريا ذات أهمية عظمى لليابان من الناحيتين الاستراتيجية والاقتصادية . وخشيت أن تقع هذه الولاية تحت النفوذ الشيوعى ، الأمر الذى

يهدد تهديداً خطيراً مصالحها الاقتصادية الكبيرة في تلك الجهات . وكان يحكم منشوريا قطب شبه مستقل من أقطاب العسكريين الصينيين كانت تشتبه اليابان في ميوله القوية نحو الصين ، وضلعه مع السوفيت .

واتفق أن كان يسيطر في مطلع العقد الرابع فريق متطرف من الحزب العسكرى على الحكومة اليابانية ، ويسير دفة شؤونها . وحدث أن انفجرت على خط سكة حديد منشوريا الجنوبية قنبلة أطاحت بأرواح عدد من اليابانيين ، كما اغتيل عدد آخر من اليابانيين الساكنين ببعض القرى الصينية ، واعتدى على أملاكهم . فاغتنم الجنرال هاياشى هذه الفرصة ، وزحف في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١ بقواته اليابانية من كوريا إلى منشوريا ، وتم له فتحها في غير عناء كبير .

ويعد كثير من المؤرخين المدققين هذا الحادث الذى يعرف « بحادث منشوريا » — يعدونه بدءاً للحرب العالمية الثانية .

قيام مملكة منشوكو

وأقام اليابانيون حكومة خاضعة لهم في تلك المقاطعة . وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٢ أعلنوا منشوريا دولة مستقلة باسم مملكة منشوكو ، وأجلسوا على عرشها پو يي إمبراطور الصين السابق ، وعملوا على إقصاء كل نفوذ للجمهورية الصينية عن تلك الولاية .

ورغم أن هذا الغزو حدث انتهاكاً لعهد عصبة الأمم ، وخرقاً لميثاق كيلوج ، اللذين كانت اليابان إحدى الدول الموقعة عليهما ، والملزمة باحترام أحكامهما ، فقد وقفت عصبة الأمم موقف العاجز عن منع هذا العدوان ، أو إجبار المعتدى على رد غنيمته ، وحماية سلامة أراضى الصين بوصفها إحدى الدول الأعضاء بها ، وذلك وفق المادة العاشرة من عهد العصبة .

ازدراء اليابان لقرارات العصبة

ولكى تغطى العصبة عجزها ، عينت لجنة برياسة لورد لتن Lord Lytton لبحث الحالة في منشوريا . وقد قدمت هذه اللجنة تقريراً عُرض على الجمعية العمومية للعصبة في ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣ ، وأوصت فيه بجعل منشوكو ولاية تتمتع باستقلال ذاتى تحت سيادة الصين . ولكن اليابان ضربت بهذه التسوية

عرض الحائط ، وانسحبت من عضوية عصبة الأمم ، ومضت قدماً توطد قبضتها على ذلك الإقليم الرحيب الغنى .

وازداد نفوذ الحزب العسكرى فى اليابان ، واستفحلت شوكته فى توجيه دفة البلاد ، وأقدم على اغتيال رئيس الوزراء وعدد من الوزراء الأقطاب المعروفين باعتدال النظرة . ونشط لتنفيذ برنامج ضخم من الاستعداد الاقتصادى والتسلح الحربى لغزو الصين نفسها .

حادث الصين

ووقع فى صيف سنة ١٩٣٧ تصادم بين الجنود اليابانيين الذين كانوا يجرون بعض المناورات ، والجنود الصينيين المرابطين على جسر ماركو پولو على مقربة من بلدة پيپنج . ويُعرف هذا التصادم « بحادث الصين » . ذلك أن الجيش اليابانى قام على إثره (٧ يوليه) بالزحف على الأراضى الصينية ، فى رجاء الاستحواذ على بعض مقاطعات الصين الشمالية . وبذلك طوح ببلاده فى مغامرة حربية هائلة .

والحق أن زعماء اليابان وقادتها العسكريين أخطأوا تقدير مقدرة الصين على الكفاح والجلاد والتصميم القاطع . واشتبك القطران الشرقيان فى حرب ضروس طويلة ، ما لبثت أن غدت جزءاً من الحرب العالمية الثانية .

٣ - الحرب الحبشية الإيطالية

أطماع ايطاليا فى الحبشة

وشجع تخاذل الدول الديمقراطية أمام الغزو اليابانى لمقاطعة منشوريا ، وانتهاجها فى غير جدوى سياسة التهدئة ، وإخفاق عصبة الأمم فى محاولاتها تسوية حادث منشوريا بما يعيد الطمأنينة إلى الدول الصغيرة ، ويكفل سلامتها — شجعت هذه العوامل وغيرها بنيتو موسولينى دكتاتور إيطاليا على الإقدام دون خشية على النزول فى حلبة الفتح والاستعمار . وامتشق الحسام فى وجه دولة صغيرة ضعيفة ، رنت أنظار الإيطاليين أمداً طويلا إلى امتلاكها واستغلال مواردها الطبيعية .

وكانت إيطاليا قد اعتزمت فى عام ١٩٣٣ الاستيلاء على الحبشة ، رغم

أن كلتا الدولتين كانت عضواً بعصبة الأمم . ووعد موسوليني وقتئذ أبناءجلدته ، بأنه حينما يجىء عام ١٩٣٥ « ستصبح إيطاليا فى مركز يجعل صوتها مسموعاً وحقوقها معترفاً بها » . ورأى أن الأوان قد حان لإعادة الإمبراطورية الرومانية ذات المجد التليد والسلطان الواسع . وبدت له الحبشة التى اعترضت الطريق بين المستعمرتين الإيطاليتين : ليبيا والصومال ، والتى كان يذاع عنها وفرة مواردها الطبيعية وضعف قوتها الحربية — بدت له لقمة سهلة سائغة يمكن أن يبدأ بها تحقيق آماله العريضة وأحلامه الضخمة . واستطاع أن يقنع فى أوائل سنة ١٩٣٥ پيير لاڤال رئيس الوزارة الفرنسية بالموافقة على هذا الفتح .

وأرسل موسوليني قوات ومعدات حربية هائلة ، وزحفت كتائبه فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ على تلك البلاد البدوية الضعيفة . وكانت نتيجة القتال أمراً مفروغاً منه ، اللهم إلا إذا تدخلت عصبة الأمم للحيلولة دون هذا العدوان . واستصرخ النجاشى هيلا سلاسى العصبة بأن تمدّ له يد الغوث ، بعد أن تعرضت بلاده لفتك جميع المعدات الحربية لدولة أوربية من الدرجة الأولى فى المصفحات والطائرات والغازات السامة .

عجز عصبة الأمم عن وقف العدوان

وبعد مناقشات طويلة وخطب مملة ، أعلنت العصبة فى أكتوبر أن إيطاليا دولة معتدية . وقررت فى الشهر التالى توقيع « العقوبات » الاقتصادية التى يفرضها عهد العصبة فى مثل هذه الحالة على الدول المعتدية . فأعلنت الدول الأعضاء أن تمتنع عن مدها بالسلاح والمال ، وفرضت الحصار البحرى عليها . بيد أن إيطاليا كانت تملك من الأسلحة والمواد — ما عدا البترول — ما يكفيها للإجهاز على فريستها . ورفضت أغلبية الدول الأعضاء أن تدخل فى قائمة المواد المحظورة الحديد والصلب والقصدير وزيت البترول : الأمر الذى جعل من « العقوبات » الاقتصادية مهزلة كبرى ، وأضعف إلى مدى بعيد نفوذ العصبة الأدبى وسلطانها القانونى . هذا فى حين أنه كان يُقصد فى الحقيقة من وراء تطبيق المادة السادسة عشرة من عهد العصبة ، أن يكون قطع العلاقات التجارية والمالية مع الدولة المعتدية خطوة تمهيدية لعمل حربى حاسم تقوم به جميع الدول الأعضاء .

التهام الحبشة

وما وافى شهر مارس سنة ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون قد قضوا على كل مقاومة حربية جدية من جانب الحبشة ، ودخلوا أديس أبابا فاتحين . وأكره هيلاسلاسى على الفرار فى أوائل مايو . وانتشى الدوتشى بخمرة النصر بعد أن تحدى ثلاثاً وخمسين دولة ، وأعلن فى ٩ مايو ضم الحبشة كلها إلى إيطاليا ، ونادى بالملك ڤكتور عمانوئيل الثالث إمبراطوراً على الحبشة . وأظهرت بريطانيا وفرنسا أن كلتاهما تؤثر سياسة التهدئة الملتوية . وما لبثت العصبة أن أقرت جهاراً بعجزها ، ورفعت العقوبات الاقتصادية عن إيطاليا فى منتصف عام ١٩٣٧ .

٤ ــ انتصارات هتلر الدبلوماسية

أهداف هتلر

كان هتلر يرمى إلى أهداف رئيسية ثلاثة ، هى : توحيد جميع الشعوب الألمانية فى دولة واحدة ، وسيطرة ألمانيا على أوربا الوسطى والطريق إلى الشرق الأوسط ، وإقامة دولة جماعية كبرى تكون بمثابة حد حاجز دون طغيان الشيوعية على أوربا .

والحق أن هتلر كان يضرب ضرباته السياسية فى حذق وجسارة فائقين ، جاءاه بانتصارات سريعة عاجلة ، وبوآه مركزاً من السلطة والنفوذ لم يبلغهما عاهل ألمانى منذ عهد شارل الخامس . فقد تمكن بسلسلة من المناورات السياسية الباهرة والمغامرات الجريئة أن يبسط سلطانه على دولة ألمانية حقاً ، لا على أشتات من الممالك والمقاطعات والمدن الحرة . والتف السواد الأعظم من الأمة الألمانية فى حماس بالغ ووطنية مشبوبة يقفون من ورائه صفاً مرصوصاً ، شعارهم : « أمة واحدة ، وحكومة واحدة ، وزعيم واحد . » .

تضارب سياسات بريطانيا وفرنسا

ولقد انتهجت كل من فرنسا وإنجلترا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى سياسات متضاربة ، وظهر الخلاف بينهما جلياً فى مناسبات عديدة . وكان هتلر يعرف ذلك . فاستغل هذا الانشقاق بين الدولتين الديمقراطيتين الكبيرتين أبدع استغلال . واتبع سياسة ، ظاهرها يدل على المغامرة والشطط ، ولكنها قامت فى الواقع على إلمام حسن بمجريات الأمور ، وحذق كبير لأفانين السياسة .

ضم ألمانيا السار

وما جاء عام ١٩٣٥ ، حتى شعر أنه من القوة ، وأحس من الثقة بضعف بريطانيا وفرنسا وتفرق كلمتهما ، بحيث وقف منهما وقفة الواثق بقوته ، المطمئن إلى نتيجة سياسته . ففى يناير سنة ١٩٣٥ أجرِى استفتاء تحت إشراف عصبة الأمم فى مقاطعة السار طبقاً لمعاهدة ڤرساى ، جاءت نتيجته فى صالح ألمانيا ، ذلك أن ٩٠ ٪ من أهل تلك المقاطعة أعلنوا رغبتهم فى العودة إلى أحضان الوطن الألمانى .

العودة إلى التسلح

وأعاد هتلر جهاراً فى مارس سنة ١٩٣٥ نظام التجنيد الإجبارى العام ، وأنشأ قوة جوية ، وأقام المصانع الكبيرة لإنتاج الأسلحة والطائرات الحربية على نطاق كبير ، رغم مخالفة هذه الأمور لأحكام معاهدة ڤرساى .

تحالف فرنسا وروسيا

ولم تَرَ بريطانيا فى هذه الإجراءات ما يثير قلقها ، مما باعد كثيراً بينها وبين فرنسا . فرأت الأخيرة أن تتجه نحو روسيا ، وسعت إلى توثيق صلاتها السياسية مع الجمهورية السوڤيتية . وفى ٢ مايو سنة ١٩٣٥ أبرمت بين الجمهوريتين معاهدة كانت فى صميمها تحالفاً حربياً ، ولو أنها اتخذت فى ظاهرها صيغة ضمان متبادل يدخل فى نطاق عهد عصبة الأمم .

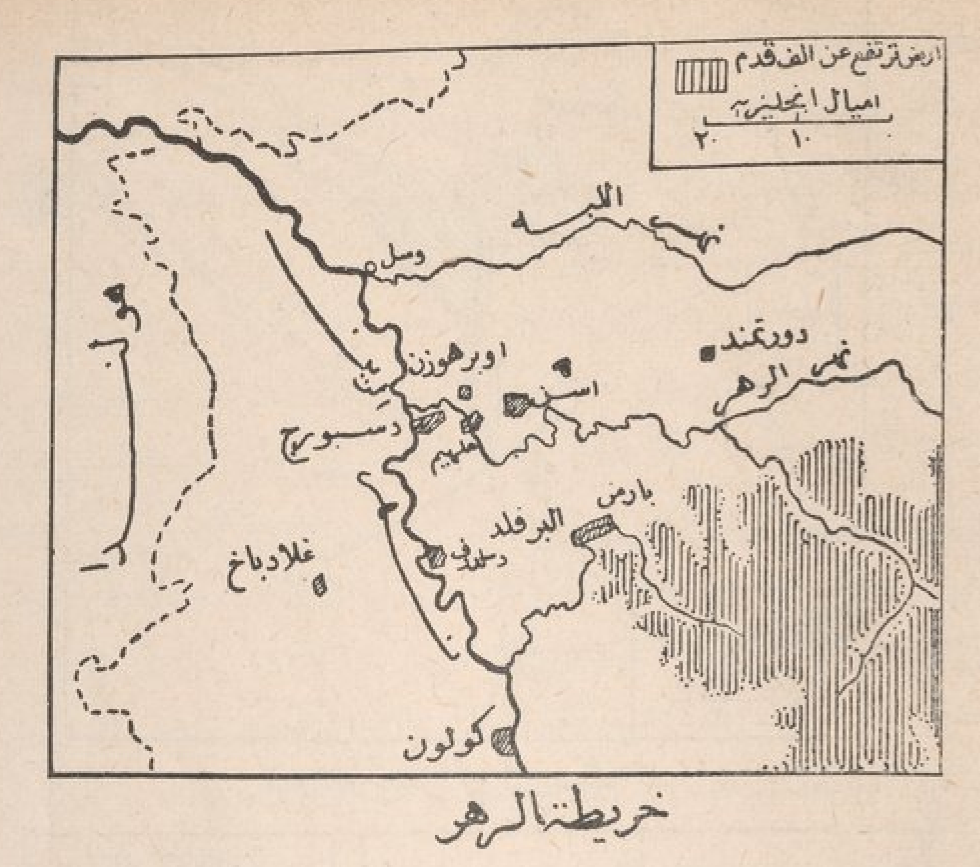
المعاهدة البحرية الإنجليزية الألمانية

فرد هتلر على هذه الاتفاقية بازدياد التقرب من إنجلترا . وأفلح فى أن يعقد معها معاهدة بحرية فى يونيو سنة ١٩٣٥ ، وافقت فيها إنجلترا على أن يخرق هتلر أحكام معاهدة ڤرساى الخاصة بتحديد قوة ألمانيا البحرية تحديداً صارماً ، مقابل اعترافه بتفوق القوات البحرية البريطانية. فقد رضيت بأن يحدَّد الأسطول الألمانى الذى انتوى الفوهرر بناءه بـ ٣٥ ٪ من مجموع حمولة الأسطول البريطانى ، وتساهلت تساهلا سخياً فى عدد وحمولة الغواصات التى يمكن لألمانيا بناؤها .

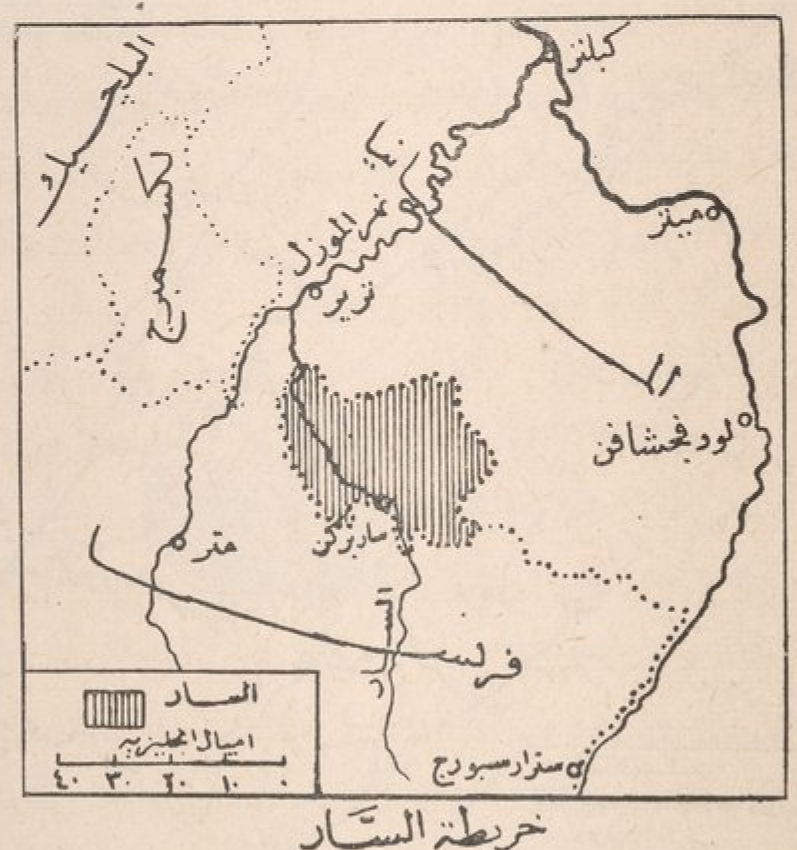
وكان هتلر يرمى من وراء هذه المعاهدة إلى فصل بريطانيا عن دائرة الحلف الفرنسى — الروسى . وبذلك شرعت الدول الأوربية العظمى تعيد من جديد تمثيل الألعوبة القديمة للتوازن الدولى على مسرح السياسة الأوربية .

التقارب بين إيطاليا وألمانيا

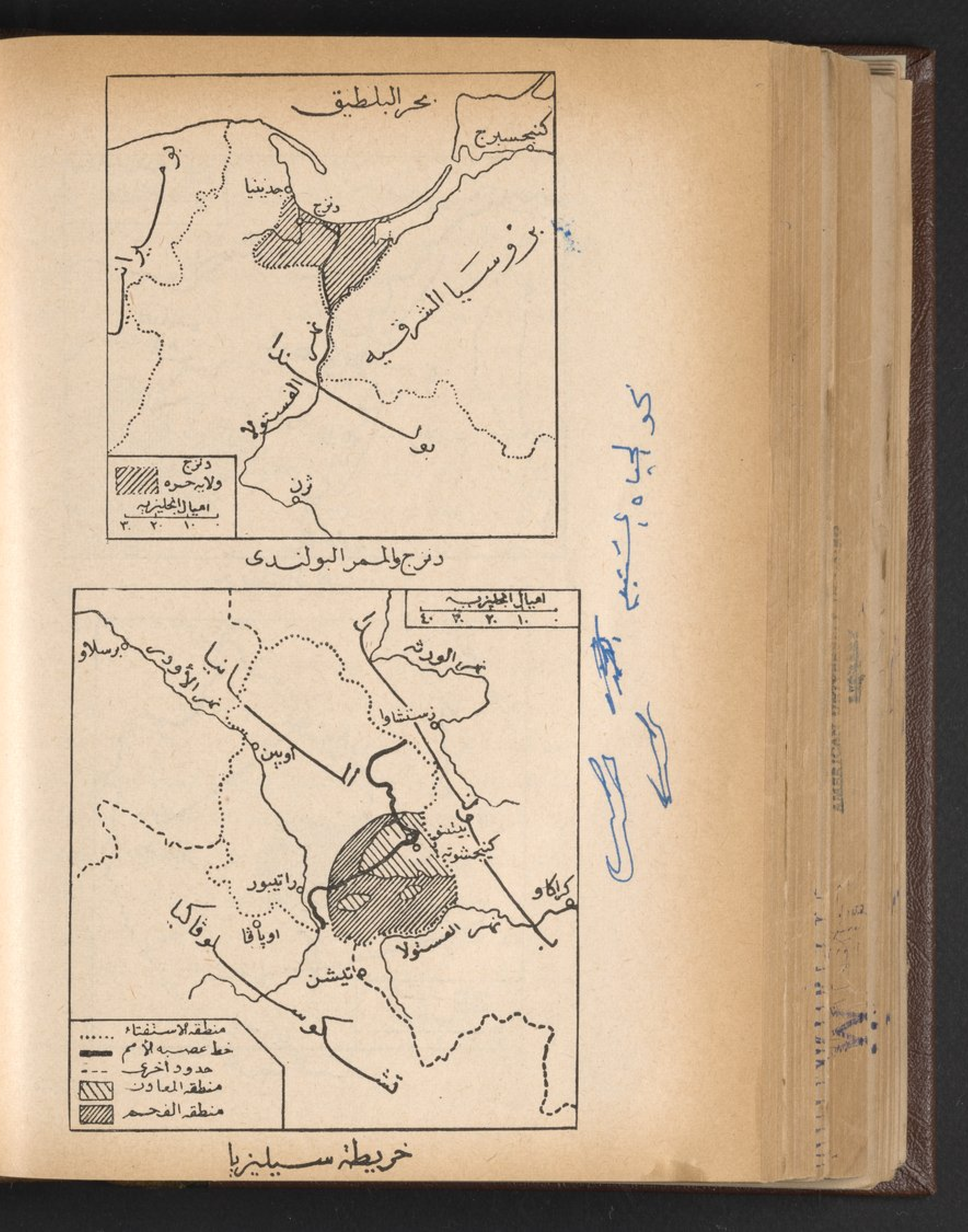
وانتهز هتلر فرصة حرج مركز إيطاليا الدولى خلال الحرب الحبشية ، فأيد موسولينى تأييداً قوياً فى تحديه قرارات العصبة ، وإعلانه ازدراءه شأنها ، وعدم



خريطة الرهر



خريطة السار



دنزج والممر البولندى

خريطة سيليزيا

حفله بالتزامات المعاهدات والقانون الدولى إذا ما تعارضت هذه الالتزامات مع مصالح بلديهما . فضمن بذلك لنفسه ود زميله الإيطالى واعترافه بالجميل .

وأدرك هتلر أن فرنسا لن تحمل السلاح بمفردها ضد ألمانيا ، إذا هى أقدمت على احتلال أراضى الرين وإعادة تحصينها ، فأعلن فى ٧ مارس سنة ١٩٣٦ فى خطبة قوية العبارات أنه يعتزم تحصين تلك البقعة ، وكانت منطقة قد جُردت من السلاح وفق معاهدة ڤرساى . وفى ليلة ذلك اليوم عينه دخلت جنوده تلك المنطقة ، ناقضاً بذلك معاهدة لوكارنو التى كان قد وعد قبيل ذلك بأنه ينتوى احترام أحكامها . ودافع عن عمله بأن المعاهدة الفرنسية — الروسية هى فى روحها ونصها انتهاك لميثاق لوكارنو . ورغم أن إنجلترا أعلنت على لسان وزير خارجيتها فى خطبة ألقاها فى ٢٦ مارس سنة ١٩٣٦ بأنها لن تتردد فى خوض غمار الحرب إذا هاجمت ألمانيا فرنسا أو بلاده ، فقد حزر هتلر فى حدس صادق أن إنجلترا زاهدة فى تأييد فرنسا بالقوة ضد ألمانيا نتيجة لعدوانه الجديد .

احتلال أراضى الرين

وأخذت الآن إيطاليا وألمانيا تدنوان سراعاً إحداهما من الأخرى ، يوحّد بينهما مصالحهما المشتركة ، وضغط خصومهما عليهما . وحدث فى صيف سنة ١٩٣٦ حادث جلل وثق عرى التفاهم بينهما ، وزادهما تقارباً واتحاداً . ذلك أنه اندلعت فى إسبانيا فى يوليه سنة ١٩٣٦ نيران حرب أهلية تكاد تكون منقطعة النظير فى شدة ضراوتها وفتكها وتدميرها .

ولنرجع القهقرى قليلا . فلقد كان الشعب الإسبانى يئن متوجعاً مكتوم الأنفاس من نير ملكية جائرة ودكتاتورية عسكرية طاغية تمثلتا فى شخصى الملك ألفنصو الثالث عشر والجنرال بريمو دى ريڤيرا كبير الوزراء . ومع أن دى ريڤيرا كان مقتدراً عفيف اليد، إلا أنه لم يستطع أن يكسب حب مواطنيه . وأخيراً استقال فى يناير سنة ١٩٣٠ ، خائب الأمل معتل الصحة .

الحرب الاسبانية الأهلية

وتمكن الجمهوريون من الظفر بأغلبية ساحقة فى الانتخابات المحلية التى جرت فى إبريل سنة ١٩٣١ . فهدد زعيمهم زامورا Zamora بإضرام فتنة عامة ، إن لم ينزل الملك ألفنصو على الفور عن العرش . فانخلع قلب الملك ،

ولاذ بالفرار من البلاد ، وإن لم يتنازل رسمياً عن الملك ، بل « أوقف استعمال سلطاته الملكية » .

فبادر زامورا على الأثر إلى تأليف حكومة مؤقتة أجرت انتخابات عامة فى يونيو سنة ١٩٣١ جاءت بنتائج مؤيدة للجمهوريين . وأعلن البرلمان الأسبانى فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ إقامة الجمهورية الأسبانية الثانية ، وعمل على إقرار تغييرات اقتصادية ودينية شاملة . ولكن بقيت الأمور على حالها من القلق وعدم الاستقرار . وتعددت الوزارات خلال الأعوام الأربعة التالية . وحاولت كل وزارة أن تفرض سياسة إصلاحية فى ملكية الأرض ، والحد من نفوذ الكنيسة ، وتطبيق لون من الإشراف الحكومى على الصناعة ، وإن لم يبلغ هذا اللون من الإشراف درجة تأميم المصانع .

وقابلت العناصر المحافظة هذه الإصلاحات بالسخط . وتفاقم النزاع بينها وبين الطوائف الراديكالية . وأجرِىَ سنة ١٩٣٦ انتخاب عام جاء بأغلبية ضئيلة فى صف الحكومة الشعبية . فاضطرمت على الأثر الفتن وكثرت الاضطرابات ، وتشجع « الوطنيون » ، يشد أزرهم كبار ضباط الجيش وملاك الأرض والكنيسة ، فقاموا بحركة انقلاب بغية انتزاع الحكم من أيدى الجمهوريين المعتدلين .

وما انقضى زمن وجيز حتى وصل صدى هذه الحركات إلى مراكش الأسبانية . فشق الجنرال فرانكو Franco الذى كان على رأس القوات الأسبانية المرابطة بها — شق عصا الطاعة على الحكومة فى ١٨ يوليه . وسرعان ما امتدت لهب هذا التمرد إلى أسبانيا نفسها ، فشبت حرب أهلية لا مثيل لها فى وحشيتها وويلاتها بين أنصار الملكية والكنيسة وملاك الأرض وأصحاب المهن الحرة من جانب ، والأحرار والاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين والوطنيين من أهل مقاطعة الباسك (وكانت حكومة الجمهورية قد وعدتهم بمنح مقاطعتهم الاستقلال الذاتى) من الجانب الآخر .

ورأت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية أن الفرصة مواتية لهما لإلحاق الهزيمة بدعاة الاشتراكية ومريدى الديمقراطية . فأمدتا فرانكو بالرجال والطائرات .

وحصل أنصار الجمهورية على بعض العون العسكرى من روسيا . ووقفت الحكومتان البريطانية والفرنسية موقفاً غامضاً متردداً ، خشية أن يؤدى تدخلهما إلى اتساع شقة هذا الصراع الدموى الهائل ، فيمتد إلى أوربا بأسرها .

وواصلت الحكومة الجمهورية الأسبانية النضال دون هوادة . غير أن المساعدات الحربية الكبيرة التى قدمتها ألمانيا وإيطاليا للجنرال فرانكو جعلت انتصاره أمراً مؤكداً . واضطرت مدريد إلى التسليم فى ٣٠ مارس سنة ١٩٣٩ بعد حرب مريرة هلك فيها نحو مليون من الأنفس ، ودمر الكثير من نفائس أسبانيا وثروتها . وأقام فرانكو حكومة دكتاتورية ما زالت متربعة فى دست الحكم إلى اليوم .

٥ – ضم النمسا وتشكوسلوفاكيا

إنشاء المحور

كان هتلر بطبيعته عدواً لدوداً للشيوعية ، فأصلى الشيوعيين الألمان حرباً قاسية ، وسلط عليهم عذاباً أليماً . ورأى فى اليابان العسكرية وإيطاليا الفاشستية حليفتين طبيعيتين . فوثق علاقاته السياسية بهما . وفى خريف سنة ١٩٣٦ أمضت اليابان وألمانيا ميثاقاً ضد الشيوعية . ثم انضمت إيطاليا إلى هذا الميثاق : فقد زار موسولينى فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ألمانيا ، حيث أعلن الزعيمان وسط مظاهر الحماس الشديد إقامة محور برلين – رومة ، بوصفه تحالفاً سياسياً ذا أهمية لا تقدر « لخير أوربا وحفظ السلام فى ربوعها » . وما انقضى زمن طويل حتى أفلح هتلر فى عقد حلف كبير معاد للشيوعية ينتظم ألمانيا واليابان وإيطاليا وأسبانيا وهنغاريا .

وأشعرته محالفاته الجديدة بالأمان ، وملأت قواته الحربية الجديدة نفسه بالثقة ، وشجعه تقاعس حكومتى فرنسا وبريطانيا ، وتدهور الروح المعنوية فى شعبيهما ، وعزلة الحكومة السوفيتية ، – شجعته هذه العوامل على الشروع فى تحقيق سياسات كبيرة الأطماع من التوسع الإقليمى .

سياسة هتلر الاستعمارية

وكان هتلر – كبسمارك – يعارض فى بدء تسنمه مركزه الرفيع أى توسع استعمارى . وكان يرى أن على ألمانيا أن توجه أنظارها صوب الأراضى الواقعة على تخومها الشرقية ، مؤثراً أن يكون هذا التوسع على حساب روسيا فى أكرانيا . وكان يعنى عناية خاصة بأن تكون علاقاته ودية ببريطانيا ، وتاق إلى تعزيز المعاهدة البحرية التى عقدها معها سنة ١٩٣٥ . ذلك أنه رغم اعتزازه بقوة الريخ الثالث الذى أقامه ، وبطش الجحافل الألمانية التى أبدع تدريبها ، فإنه كان يخشى أن يثير غضب تلك الدولة إذا ما تعارضت سياسته مع مصالحها الاستعمارية الكبيرة .

ولكنه أكره فى نهاية الأمر – كما أكره بسمارك من قبله – تحت ضغط الرأى العام الألمانى ، أن يطرح وراء ظهره هذه السياسة ، وأن يطالب بإرجاع المستعمرات الألمانية السابقة ، وكان أكثرها قد وقع غنيمة فى أيدى بريطانيا عقب الحرب العالمية الأولى . فانطوت هذه المطالبة على أكثر من تلميح لإنجلترا بما وصل اليه مركزها الدولى من تدهور نتيجة لضعفها العسكرى .

إنجلترا تبدأ استعدادها الحربى

فعادت الحكومة البريطانية الى سياسة توثيق تحالفها مع فرنسا ، بعد أن أشرف هذا التحالف على التداعى والانهيار . وقدم نِڤِل تشيمبرلين رئيس الوزارة فى ١٧ فبراير سنة ١٩٣٧ إلى مجلس العموم طلباً برصد أربعمائة مليون جنيه تنفق فى سنة واحدة على إعادة تسليح بريطانيا ، على أن يزاد هذا المبلغ إلى ألف مليون وخمسمائة مليون جنيه تنفق على التسلح فى بحر خمسة أعوام .

وفى العام التالى ، أعلن أن إنجلترا قد أخذت على عاتقها الدفاع بقوة السلاح ، لا على فرنسا وبلجيكا فحسب ، إذا ما وُجِّه ضدهما اعتداء خارجى ، بل إن هذا التعهد يمتد إلى البرتغال ومستعمراتها ، وإلى مصر والعراق أيضاً .

وصرح نفل تشيمبراين فى خطاب آخر ألقاه فى ختام فبراير سنة ١٩٣٨ « بأن عصبة الأمم ، كما تتألف اليوم ، عاجزة عن تدبير الضمان الجماعى لأى عضو من أعضائها . . . لذلك ينبغى ألا نخدع الأمم الصغيرة الضعيفة فى الاعتقاد بأن عصبة الأمم تستطيع أن تحميها من الاعتداء » .

إدماج النمسا في الريخ

ولم تمض أسابيع ثلاثة على إلقاء هذا البيان حتى تجلّى صدقه . فقد كان أمراً طبيعياً أن يبدأ هتلر بتنفيذ برنامجه فى التوسع بضم النمسا إلى الريخ الألمانى الثالث . فقد كانت النمسا بلاداً يتألف غالبية أهلها من الجنس الجرمانى . وكانت دولة صغيرة ، لا حول لها ولا قوة . وكانت تحتل مركزاً استراتيجياً هاماً فى طريق ألمانيا إلى كل من إيطاليا وتشكوسلوفاكيا . لذلك قر رأيه فى أواخر سنة ١٩٣٧ على العمل على إدماجها بألمانيا ، وإرجاع نحو عشرة ملايين ألمانى يقطنون عبر الحدود إلى حظيرة الوطن الأكبر .

وفى ١٢ مارس سنة ١٩٣٨ ضرب هتلر ضربته . فقد أنفذ قواته المسلحة إلى النمسا ، فى نفس الوقت الذى عمل فيه طابور خامس على السيطرة على قوات الجيش والبوليس النمساوية . وبعد يومين أعلن هتلر رسميا اتحاد النمسا بألمانيا . وبذلك تمكن ، من دون أن يطلق رصاصة واحدة ، من ضم سبعة ملايين نسمة إلى الريخ ، وجعل ممر برنر حداً فاصلا بينه وبين إيطاليا ، وتطويق جناح تشكوسلوفاكيا ، وإقامة حاجز فعال بين روسيا وفرنسا .

بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا

وقبل أن تفيق الدول الديمقراطية من وقع هذه الضربة ، كان هتلر قد أعد العدة لتوجيه ضربته التالية . وكانت غنيمته فى هذه المرة أثمن وأدسم . ذلك أن تشكوسلوفاكيا كانت بلاداً غنية بصناعاتها ومواردها الخام . ووقفت حائلا دون وصول الألمان إلى وادى الدانوب . وكانت تملك جيشاً وأسطولا جوياً قويين . فتطلع هتلر إلى الاستحواذ على معداتهما الكبيرة . وكان فى الدولة التشكوسلوفاكية نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون من الألمان يقطنون مقاطعتى بوهيميا ومورافيا على طول تخوم ألمانيا الجنوبية . وكانوا قد ضموا إلى تشكوسلوفاكيا بمقتضى معاهدة ڤرساى . وعُرِفوا باسم « السوديت » . وكانوا على بكرة أبيهم تقريباً يتلهفون إلى الانضمام إلى الوطن الأم . وإن رامت العناصر المعتدلة بينهم أن يتم هذا الانضمام دون إراقة دماء .

واستخدم الألمان جميع وسائل الدعاية فى حض " السوديت " على المطالبة بالاتحاد مع إخوتهم الألمان فى ألمانيا . وأخذ هتلر يرسل بروقه ورعوده إلى التشك

التعساء مهدداً منذراً، بينما انتهج سياسة الوعيد تارة، والملاينة تارة أخرى، مع فرنسا وبريطانيا .

ولقد أفلحت أساليبه أيما إفلاح . فقد اندلعت فى يوليه سنة ١٩٣٨ الفتن فى بلاد السوديت ، وهددوا جهاراً بالانفصال ، وثارت المشاجرات فى داخل البرلمان التشكوسلوفاكى .

ورأت الحكومة البريطانية أن تسعى إلى التخفيف من حدة النزاع . فبعثت فى أوائل أغسطس بلورد رَنصِمان Runciman أحد وزرائها ، بوصفه « مجرد وسيط شخصى » ، كى يساعد الفريقين على إيجاد حلٍّ لتسوية الخلاف. غير أن هنلاين Henlein زعيم السوديت قطع مفاوضاته مع الدكتور بنيش رئيس الجمهورية ولورد رنصمان . وحدثت فى ليلة ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٨ مصادمات دموية بين البوليس التشكوسلوفاكى والثوار السوديت فى عدد من المدن السوديتية . فكان لذلك أسوأ وقع فى ألمانيا ، وارتفعت الصيحات مطالبة بالثأر للدم الألمانى الذى أُهْرِق خلال قمع هذه الاضطرابات . وفى هذه اللحظة الدقيقة تدخل نفل تشيمبرلين على نحو مثير. فقد طار فى الخامس عشر من سبتمبر إلى برختسجادن Berchtesgaden الملاذ الجبلى لهتلر . فصرح له الزعيم الألمانى بأنه « ليس ثمت شىء فى مقدور المرء أن يصنعه للحيلولة دون غزو تشكوسلوفاكيا، ما لم يُمنح السوديت حق تقرير مصيرهم ، وما لم يُمنحوا هذا الحق على وجه السرعة » .

فقدمت بريطانيا وفرنسا فى ١٩ سبتمبر مذكرة مشتركة إلى الحكومة التشكوسلوفاكية تشيران فيها عليها بالمبادرة إلى التنازل لألمانيا عن أى أراض يقطنها أكثر من ٥٠ ٪ من السوديت . وبعد أربعة أيام بعثت ألمانيا بمذكرة تضمنت ضرورة تقديم الحكومة التشكوسلوفاكية منحاً أكثر . وفى ٢٦ سبتمبر ألقى هتلر خطاباً أعرب فيه عن عدم ثقته بالمرة فى إخلاص الحكومة التشكوسلوفاكية . فرد عليه الدكتور بنيش بأن بلاده لن ترضخ للتهديد، وأنها سوف تقاوم القوة بالقوة .

وكان نفل تشيمبرلين يروم تجنب الحرب ، أو على الأقل كسب الوقت الذى يمكن لبلاده فيه أن تستكمل استعدادها الحربى . فتقدم لهتلر بضمان الحكومة البريطانية نقل الأراضى السوديتية التى يثبت الاستفتاء أنه تقطنها أكثرية ألمانية إلى الريخ . واقترح عليه عقد مؤتمر من الدول العظمى الأربع فى ميونخ . فوافق هتلر على هذا الاقتراح ، كما وافق عليه أيضاً موسولينى .

اتفاقية ميونخ

وحجَّ إلى ميونخ الأقطاب الأربعة : هتلر وموسولينى وتشيمبرلين ودالاديه (رئيس وزراء فرنسا وقتئذ) . وبعد مفاوضات قصيرة وصلوا إلى اتفاق وقعوه فى ٢٩ سبتمبر ، وبمقتضاه تنزل تشكوسلوفاكيا عاجلا عن أقاليم معينة تقطنها أغلبيات كبيرة من السكان الألمان ، وتجرى فى أقاليم أخرى استفتاءات توضع تحت إشراف دولى . كما يوكل إلى لجنة دولية تخطيط الحدود الجديدة بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا . واتفق الكبار الأربعة على وضع تسوية لمطالب هنغاريا وبولندا لدى تشكوسلوفاكيا فى ظرف أشهر ثلاثة .

وعاد تشيمبرلين إلى لندن ، وخاطب مواطنيه قائلا : « لقد جلبت لكم السلام مع الشرف » . ولكن ونستن تشرشل الذى كان يقف يومئذ موقف المعارض لسياسة التهدئة رد عليه قائلا : « لقد كان على بريطانيا وفرنسا أن تختارا بين الحرب والعار . ولقد اختارتا العار . ومع ذلك فستقحم الحرب نفسها عليهما » . ولقد صحت نبوءته قبل أن يمضى عليها حول واحد .

وأذعنت تشكوسلوفاكيا مرغمة على هذه التسوية . وعبر الجند الألمان الحدود فى أول أكتوبر . وفى اليوم عينه أعلنت بولندا أن تشكوسلوفاكيا قد نزلت لها عن مدينة تشن Teschen . وفى اليوم التالى احتل المدينة الجند البولنديون . وتقدم الهنغاريون ببعض المطالب التى تضمنت ضم أنحاء فى ولاية سلوفاكيا تقطنها أغلبية هنغارية . ورضيت تشكوسلوفاكيا صاغرة فى الثانى من نوفمبر بتحكيم ألمانيا وإيطاليا لتسوية هذه المطالب .

٦ – فشل سياسة « التهدئة »

وما من شك فى أن اتفاقية ميونخ أرجات موعد إعلان الحرب العالمية الثانية عاماً تقريباً ، ولو أنه كان عاماً حافلا بالمخاوف والأزمات والأحداث الجسام. فقد أخذت الغيوم التى لبّدت الجو السياسى وحملت فى طياتها نذر الحرب – أخذت تنقشع ، وصفا الموقف فى الظاهر ، ولو إلى فترة قصيرة . فقد أصدر هتلر وتشيمبرلين فى صباح ٣٠ سبتمبر تصريحاً مشتركاً يعبران فيه عن رغبة أمتيهما بألا تشهر إحداهما السيف فى وجه الأخرى ، ويعربان عن « تصميمهما القاطع على استخدام طريق المشاورة فى حلّ جميع المسائل التى تهمّ البلدين » . وفى ٦ ديسمبر وقع فون ربنتروب Von Ribbentrop وزير خارجية ألمانيا وبونيه Bonnet وزير الخارجية الفرنسية – وقعا فى باريس تصريحاً مشتركا أكدا فيه أهمية إبقاء العلاقات السلمية بين الدولتين ، وأعلنا أنه ليس بينهما من مشكلات الأرض ما يفرق بينهما .

وأكد هتلر بنفسه فى هذه الأثناء أن إعادة المستعمرات الألمانية ليست بالمشكلة التى تدعو إلى امتشاق الحسام . كما أدلى مستر ملكولم مكدونلد وزير المستعمرات البريطانية فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨ ببيان فى مجلس العموم ، قال فيه « إن إعادة أية مستعمرات لا يدخل الآن فى مجال السياسة العملية » ، ولو أنه أعرب فى الوقت عينه عن استعداد الحكومة البريطانية بدراسة أية مقترحات تُعرض عليها « لتوزيع المواد الخام توزيعاً أقرب إلى المساواة » .

ومع ذلك فقد تعكر الجو السياسى فى غضون شتاء ١٩٣٨ – ١٩٣٩ بين فرنسا وإيطاليا حين ارتفعت فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨ أصوات فى مجلس النواب الإيطالى صائحة : « تونس ! قورشقة ! جيبوتى ! » فأفضى دالاديبه فى ٢٦ يناير سنة ١٩٣٩ بتصريح أعلن فيه أن بلاده غير مستعدة لأن تتنزل عن أية بقعة تمتلكها .

وكانت اتفاقية ميونخ نصراً دبلوماسياً باهراً لهتلر – ما فى ذلك ريب . ولقد

شجعه نكوص بريطانيا وفرنسا عن اتخاذ موقف حازم أزاء نقضه مرة بعد أخرى أحكام معاهدة ڤرساى ، ووجلهما من خوض غمار حرب أوربية ، والمشكلات الداخلية التى جابهت الوزارة الفرنسية نتيجة محاولتها موازنة الميزانية وتنظيم الصناعة وزيادة الإنتاج ، مما أدى إلى قيام الإضرابات فيها وازدياد التذمر بين طبقاتها الدنيا — شجعت هذه الأمور هتلر على التمادى فى السير بخطته حتى آخر الشوط المحتوم. فقبض بيد من حديد على البلاد التى ضُمت إلى الريخ ، وطرد اليهود البولنديين المستوطنين ألمانيا . ومما زاد الطين بلة اغتيال شاب من يهود بولندا يقطن باريس لفون رات السكرتير الثالث للسفارة الألمانية بها . فاتُخذت هذه الجريمة تعلة لتشديد النازيين وطأتهم على الطائفة اليهودية ، وقُبض على عدد كبير من أفرادها ، وزُجَّ بهم فى السجون ، وفرضت على اليهود عقوبات فادحة ، وكيل لهم من الاهانات والذلة ألواناً عديدة .

احتلال المانيا تشكوسلوفاكيا

ثم شددت الحكومة الألمانية ضغطها على الحكومة التشكوسلوڤاكية كي تقصى اليهود من المناصب العامة ، وتنفصل عن عصبة الأمم . فاضطر بنيش إلى تقديم استقالته ، وفر من بلاده . وانتُخب فى مكانه فى ٣٠ نوفمبر الدكتور إميل هاشا Emil Hacha رئيساً للجمهورية .

وحدث أن أعلنت فى ١٤ مارس سنة ١٩٣٩ ولاية سلوڤاكيا استقلالها عن تشكوسلوڤاكيا . فأراد هاشا أن يرغم تيسو Tiso رئيس وزارة سلوڤاكيا على الاستقالة . فاستنجد تيسو على الفور بهتلر « ليحميه » من هذا الافتيات . فدعا هتلر هاشا إلى القدوم إلى برلين ، حيث أجبره على الموافقة ، لا على مطالب سلوڤاكيا فحسب ، بل على التوقيع على وثيقة تجعل فى الواقع من تشكوسلوڤاكيا إيالة ألمانية . وتدفقت الجنود الألمانية على براغ ، وُجعلت بوهيميا وموراڤيا ولايتين تابعتين للريخ ، وسلوڤاكيا محمية ألمانية . وفى الوقت نفسه غزت هنغاريا الضالعة مع ألمانيا مقاطعة روتينيا ، وأدمجتها فى بلادها . وبذلك امّحت الجمهورية التشكوسلوڤاكية من عالم الوجود .

وكان لتقويض هذه الدولة الناشئة آثار غاية فى خطورة الشأن فى الموقف

الدولى الأوربى . فقد أرسلت كل من فرنسا وروسيا والولايات المتحدة وبريطانيا مذكرات قوية اللهجة إلى الحكومة الألمانية تحتج فيها على تقطيع أوصال تشكوسلوفاكيا والقضاء على استقلالها . ومن تلك اللحظة انتهجت الحكومة البريطانية ، بتأييد قوى من الحكومة الفرنسية ، سياسة جديدة : هى سياسة المقاومة لاعتداءات هتلر . فأعلن نفل تشيمبرلين فى مجلس العموم بأن حكومته تعتزم ، بالتضافر مع الحكومة الفرنسية ، « تقديم كل معونة ممكنة للحكومة البولندية » على الفور فى حالة اعتداء أية دولة على أرضها .

احتلال ألبانيا

واقتفى الزعيم الإيطالى خطى زميله الألمانى . فأنفذ قوة حربية إلى ألبانيا فى ٧ إبريل ، فلاذ ملكها زوغو بأذيال الفرار إلى اليونان . وفى الثانى عشر من ذلك الشهر التأم عقد جمعية تأسيسية ألبانية قررت عرض التاج الألبانى على الملك فكتور عمانوئيل ، الذى غدا من وقتئذ يلقب رسمياً « بملك إيطاليا وألبانيا وإمبراطور الحبشة » .

وانتابت المخاوف ساسة بريطانيا وفرنسا من أن تكون اليونان الفريسة التالية . فأصدرت كل من الدولتين فى ١٣ إبريل تصريحاً يؤكد عزمهما على تقديم كل مساعدة ممكنة لتلك البلاد فى حالة غزوها ، ومدّا نطاق هذا التأكيد إلى رومانيا أيضاً .

إلغاء المعاهدة البحرية البريطانية الألمانية

وبادرت بريطانيا وفرنسا إلى فتح باب المفاوضات مع روسيا وبولندا وتركيا واليونان ورومانيا لعقد « اتفاق ودى بلقانى » . وأقدمت الحكومة البريطانية فى ٢٧ إبريل على فرض نظام التجنيد الإجبارى فى بلادها . فعد هتلر هذا الإجراء عملا عدائياً موجهاً ضد ألمانيا ، ورد عليه فى اليوم التالى فى خطاب ألقاه بمجلس الريشستاغ أعلن فيه أن ألمانيا لا تعدّ الاتفاقية البحرية المبرمة بين الدولتين سنة ١٩٣٥ ملزمة لها بعد الآن .

اتساع شقة الخلاف بين بولندا وألمانيا

وأخذت تتسع سراعاً هوة الخلاف بين بريطانيا وفرنسا وبين ألمانيا — وحوّل الزعيم الألمانى وجهة حملاته العنيفة إلى بولندا . فأخذت الجرائد الألمانية تحمل حملات شعواء على « الإرهاب الذى لا يطاق » الذى تلقاه الأقلية الألمانية على

أيدى الحكومة البولندية ، وتطالب بضرورة وضع نهاية لذلك الجور البالغ .

وتقدم هتلر إلى الحكومة البولندية يطالبها بإعادة مدينة دانتزج الحرة ومنطقة واسعة من الممر البولندى إلى ألمانيا . وعدّ تصريح بريطانيا فى ٦ إبريل سنة ١٩٣٩ الخاص بضمانها سلامة الأراضى البولندية من كل اعتداء — عدّ هذا التصريح تحدياً يهدد السلام الأوربى ، وخرقاً لنصوص وروح المعاهدة التى كان قد أبرمها مع بولندا فى يناير سنة ١٩٣٤ ، والتى نصت على تحريم الحرب تحريماً قطعياً بين القطرين ، وعلى ضرورة استخدام المفاوضات المباشرة لتسوية جميع الخلافات التى تنشأ بينهما .

فسلط هتلر على البولنديين حرب أعصاب مخيفة ، منذراً إياهم بالويل والثبور إذا هم لم يرضخوا لمطالبه . وتقدم فى الوقت عينه إلى بريطانيا يعدها بأن يضمن الإمبراطورية البريطانية مقابل إطلاق يده فى بولندا . فكان الرد البريطانى الذى تلقاه حازماً . فقد جاء فيه : « إن حكومة جلالة الملك مرتبطة بالتزامات نحو بولندا ، وأنها تنوى الوفاء بتعهداتها » .

المفاوضات بين روسيا وفرنسا وبريطانيا

وكان موقف روسيا أزاء هذه الأحداث الخطيرة لغزاً غامضاً . فقد جرت مفاوضات بينها وبين فرنسا وبريطانيا منذ مارس سنة ١٩٣٩ بقصد الوصول إلى اتفاق بين هذه الدول للعمل يداً واحدة على مقاومة أى اعتداء يأتى من جانب ألمانيا . وأرسلت فرنسا وبريطانيا بعثتين حربيتين قامتا بمحادثات طويلة مع هيئة أركان الحرب الروسية .

تحالف تركيا مع بريطانيا وفرنسا

وتمكنت بريطانيا فى مايو سنة ١٩٣٩ من عقد حلف مع تركيا يقضى بالتعاون بينهما فى حالة نشوب حرب فى شرق البحر الأبيض . ووصلت فرنسا وتركيا إلى اتفاق مماثل فى الشهر التالى ، بعد أن سُويت بينهما مشكلة سنجق إسكندرونة بأن وافقت فرنسا على سلخه من سوريا وضمه إلى تركيا . وأمضت الدول الثلاث : تركيا وفرنسا وبريطانيا فى ١٩ أكتوبر معاهدة توثق عرى التفاهم بينها ، وتؤكد اتحاد أهدافها وقوة تضامنها .

موقف روسيا

وسارت المفاوضات بين روسيا وبريطانيا وفرنسا متعثرة يسودها الارتياب

والتخوف . فقد اشترطت روسيا للحصول على موافقتها على عقد معاهدة تحالف بين الدول الثلاث أن تقبل الدولتان الديمقراطيتان وضع دويلات البلطيق : لتڤيا ولتوانيا وإستونيا « تحت وصايتها » . غير أن هذه الدويلات لم تكن تقبل راضية الاندماج فى جارتها القوية . وكانت لتوانيا قد عقدت صاغرة معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا فى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٩ ، وتنازلت لها بمقتضاها عن ممِل ، وعقبتها لتڤيا وإستونيا فى عقد معاهدتى عدم اعتداء مماثلتين مع ألمانيا فى أوائل يونيو ، كما أبدت فنلندة رغبة صريحة فى الوقوف موقف الحياد الدقيق .

المعاهدة الألمانية الروسية

وفوجئ العالم بتحول خطير فى الموقف الدولى حينما أعلن له توقيع ألمانيا وروسيا فى موسكو فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ معاهدة عدم اعتداء بينهما . وحوت هذه المعاهدة ملحقاً سريا حُدد فيه نفوذ كل منهما فى دويلات البلطيق وبولندا وبسارابيا .

وكانت ألمانيا قد وقعت فى برلين معاهدة تحالف مع إيطاليا فى ٢٢ مايو ، تعهدت فيها الدولتان بأن تقدم كل منهما للأخرى كل تأييد سياسى ودبلوماسى ، إذا ما هُددت مصالح إحداهما ، وأن تمنحها كل تأييد عسكرى إذا ما نشبت حرب بين إحداهما ودولة أخرى .

استفحال الموقف الدولى سوءاً

وكان إخفاق الحلفاء فى الوصول إلى عقد معاهدة مع روسيا عاملا فاصلا فى استفحال الموقف الدولى سوءاً . ذلك أن عقد المعاهدة الروسية الألمانية شجع تشجيعاً قوياً الزعيم الألمانى على تشديد الخناق على الحكومة البولندية . وكانت الكثرة الكبرى من أهل دانتزج يطالبون بالعودة إلى الوطن الأم . وقامت الصحافة الألمانية بحملة نارية على الحكومة البولندية تتهمها بسوء معاملة الأقلية الألمانية فى بلادها . واتهمت الجرائد الألمانية بريطانيا بتشجيعها بولندا على هذا العدوان .

وبُذلت فى آخر لحظة محاولات فاشلة لصون السلم ، والإحجام عن إراقة الدماء . فأرسل نفل تشيمبرلين خطاباً شخصياً إلى هتلر فى ٢٢ أغسطس يطلب منه العمل على تجنيب أوربا حرباً مخربة دموية . وأرسل إليه دالادييه مثل هذا

الخطاب فى ٢٦ من ذلك الشهر . ووجه الرئيس فرنكلن روزفلت فى الثالث والعشرين نداء إلى ملك إيطاليا يهيب به التوسط فى النزاع المتفاقم ، كما أرسل فى الرابع والعشرين نداء إلى هتلر ورئيس جمهورية بولندا يناشدهما تسوية خلافاتهما بالطرق السلمية . وأصدر البابا بيوس الثانى عشر نداء حاراً يحث فيه دول أوربا على التمسك بأهداب السلام . وتضافر ليوبلد الثالث ملك بلجيكا مع ڤلهلمينا ملكة هولندة فى عرض وساطتهما على الفريقين المتنازعين (٢٨ أغسطس) .

فشل الوساطات

بيد أن الحوادث جرت سراعاً فى الأيام الثلاثة الأخيرة من السلم . فقد رجت بريطانيا هتلر أن يعيد فتح باب المفاوضات مع بولندا . وقبل هتلر فى مساء ٢٩ أغسطس هذا الرجاء فى شىء من التردد . ولكنه اشترط أن تبعث بولندا مفوضاً تخول له حق قبول الشروط الألمانية ، على أن يصل إلى برلين فى اليوم التالى . فرفضت بولندا هذا العرض ، وإن كانت قد حاولت فى الحادى والثلاثين أن تتصل بألمانيا بالطرق الدبلوماسية المعتادة عن طريق سفيرها ببرلين . وفى مساء ذلك اليوم أذاع الراديو الألمانى الشروط التى تقبل ألمانيا أن تجرى المفاوضات على أساسها .

وفى ظهر ٣١ أغسطس أحاط موسولينى الحكومتين البريطانية والفرنسية علماً باستعداده لدعوة مؤتمر تعقده الدول الأوربية الكبرى للتوسط فى النزاع . ولكن فى الساعات الباكرة من صباح اليوم التالى بدأت المصفحات الألمانية تشق طريقها داخل بولندا ، والطائرات الألمانية تمطر ألوان الدمار والهلاك على المطارات والسكك الحديدية والسكان المدنيين .

فأرسلت كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية إنذاراً نهائياً إلى الحكومة الألمانية فى ذلك اليوم تطلب منها سحب قواتها الغازية من الأراضى البولندية . ولكن زعيم الريخ الألمانى رفض بالطبع قبول هذا الطلب . وفى اليوم الثالث من سبتمبر أشهرت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا .

الفصل التاسع والثلاثون

الحرب العالمية الثانية
(١٩٣٩ — ١٩٤٥)

سحق بولندا — روسيا ودويلات البلطيق — الحرب بين روسيا وفنلندة — الحرب الصامتة فى الغرب — احتلال ألمانيا للدنمارك والنرويج — انقضاض الألمان على هولندا وبلجيكا ولكسمبرج — انهيار الجبهة الغربية — دنكرك — دخول إيطاليا الحرب — سقوط باريس — عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا — معركة بريطانيا — زعامة تشرتشل — القتال يمتد إلى أفريقية وبلاد البلقان — القضاء على الإمبراطورية الإيطالية — الألمان يكتسحون البلقان — احتلال كريت — انتصارات رومل الرائعة — هتلر يشهر الحرب على روسيا — انتصارات الألمان المبينة — القتال فى القطاع الجنوبى — معركة ستالنجراد الفاصلة — ميثاق الأطلنطى — دخول الولايات المتحدة واليابان الحرب — نكبات الحلفاء فى الشرق الأقصى — وقف الزحف اليابانى — معارك بحرية كبيرة — الحلفاء يبدءون الهجوم فى مختلف الميادين — معركة العلمين الفاصلة — نزول الحلفاء بأفريقية الشمالية الفرنسية — تتابع هزائم الألمان — نزول الحلفاء بإيطاليا — إيطاليا تعلن الحرب على ألمانيا — الحرب الجوية — نزول الحلفاء بفرنسا — ارتداد الألمان فى جميع ميادين القتال — استسلام القوات الألمانية — استسلام اليابان .

١ — سحق بولندا

لم يمض على انتهاء الحرب العالمية الثانية سوى سنوات معدودات . ولذا يتعذر على المؤرخ المعاصر أن يعرف جميع الحقائق والمعلومات الصحيحة التى تمكنه من أن يكتب فى الوقت الحاضر تاريخاً بعيداً عن الهوى ، خالياً من المفتريات التى تلازم بطبيعة الحال دعاوات الحرب وإشاعات المغرضين وميول ذوى المصالح .

ففى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ شق الجيش الألمانى الجبار الذى خلقه الريخ

الألمانى الثالث – شق طريقه عبر بولندا ، فبدأ بذلك أعظم حرب دموية فى تاريخ العالم ، وأكثرها نفقة ، وأوسعها نطاقاً ، وأشدها تدميراً . فإنه بينما كان القتال فى الحرب العالمية الأولى مقصوراً إلى درجة كبيرة على قارة أوربا ، جعلت الحرب العالمية الثانية من القارات كلها – فيما عدا أمريكا الجنوبية – ساحة هائلة واسعة الرحاب للطعن والنزال . وأكرهت الدول جميعاً – حتى تلك التى لم تشترك فيها بالفعل – أن تتحمل فى درجة كبيرة أو صغيرة غصصها وآلامها ، وأن تكتوى بنارها وويلاتها ، وأن تحس بكوارثها وفواجعها .

وبدأ الطور الأول للحرب بغزو بولندا ، وانتهى بسقوط فرنسا فى شهر يونيه سنة ١٩٤٠ . وقد بدأ القتال بدون أن تعلن ألمانيا رسميا الحرب على بولندا . وقامت القوات الألمانية بحرب خاطفة دامت أسبوعين لا مثيل لهما رعباً وفتكاً وتدميراً فى الحروب الحديثة ، فقد حولت فيهما الأساطيل الجوية الألمانية الهائلة مدن بولندا وقراها إلى أنقاض وركام . واضطر البولنديون إلى الارتداد أمام القوات المصفحة الكاسحة التى جردت عليهم . وما وافى اليوم السابع من سبتمبر حتى كان الألمان قد استحوذوا على حوض سيليزيا الصناعى ، وحطموا أقوى خطوط المقاومة البولندية ، وأخذوا يدنون فى سرعة مخيفة من وارسو .

روسيا تطعن بولندا من الخلف

وفى فجر اليوم السابع عشر من سبتمبر عبرت الجنود الروسية – طبقاً لبند سرى فى اتفاقية ٢٣ أغسطس – عبرت حدود بولندا الشرقية ، واستولت على الأراضى التى كان الألمان والروس قد اتفقوا فيما بينهم على أن تكون حصة روسيا من الغنيمة . وأكرهت فلول الجيش البولندى على التسليم إما إلى الروس أو إلى الألمان . واستبسلت حامية وارسو فى الدفاع عن قصبة البلاد . ولكنها أجبرت على التسليم للألمان فى ٢٨ سبتمبر . وبذلك انتهت كل مقاومة منظمة بولندية . وتمكنت ألمانيا بخسارة ضئيلة نسبياً فى الرجال والعتاد من أن تخضع لسلطانها واحداً وعشرين مليون نسمة ، وأن تضع يدها على موارد بولندا العظيمة فى الزراعة والصناعة .

وفى اليوم عينه الذى سقطت فيه وارسو فى يد الألمان ، وُقِّعت فى موسكو

معاهدة ألمانية روسية حددت مناطق الاحتلال الروسى والألمانى فى تلك البلاد المقهورة ، وأعلنت الدولتان الملأ بأنهما « سوتا نهائياً المشكلات الناشئة عن انهيار الدولة البولندية ، وأرستا أساساً وطيداً لسلام دائم فى شرق أوربا » .

رفض الحلفاء عقد صلح

وبعد أن انتُهِى من سحق بولندا ، تقدم هتلر ومولوتوف وزير خارجية روسيا فى ٦ أكتوبر يعرضان فى ثقة الظافر فتح المفاوضات لعقد الصلح طبقا للإعلان الروسى – الألمانى المشترك . ولكن بريطانيا وفرنسا لم تعيرا هذا العرض أى التفات . وكذلك أشاحتا بوجههما عن العرض الذى تقدم به ليوبلد الثالث ملك بلجيكا وڤلهلمينا ملكة هولندة ، حينما أهابا فى السابع من نوفمبر بالدول المتحاربة أن تسعى جاهدة إلى تسوية خلافاتهما عن طريق المفاوضات ، والعمل على إعادة السلام إلى أرجاء أوربا .

بين روسيا ودول البلطيق

ولكن رغم التحالف الذى أبرِم بين ألمانيا وروسيا ، ورغم إعلانهما المشترك الآنف ، لم تشعر روسيا باطمئنان حقيقى إلى حسن نوايا الزعماء النازيين أزاءها . فراحت تعمل فى همة ونشاط فى تعزيز حدودها الجديدة ، وتوطيد مركزها فى البحر البلطى . فطلبت من دويلات ذلك البحر منحها بعض الامتيازات الاقتصادية والحربية . فأجابتها تلك الدويلات دون إبطاء إلى مطالبها . ففى التاسع والعشرين من سبتمبر وقعت إستونيا معاهدة مع روسيا لتبادل المساعدة ، وقدمت لها عدداً من القواعد البحرية والجوية ، وسمحت لتفيا ولتوانيا لروسيا فى أوائل اكتوبر بمرابطة بعض الحاميات العسكرية الروسية فى نقط معينة داخل حدودهما .

روسيا وفنلندة

ثم قدمت روسيا عدداً من المطالب لفنلندة ، ومن بينها التنازل لها عن بعض الجزر فى خليج فنلندة ، وميناء بتسامو Petsamo ، وهو الميناء الوحيد فى المنطقة المتجمدة الشمالية الذى لا يتجمد ماؤه خلال شهور الشتاء ، وكذلك التنازل لها عن النصف الشمالى لبرزخ كارليان Karelian الواقع بين بحيرة لادوجا Ladoga وخليج فنلندة . ولكن فنلندة وقفت موقفاً عنيداً أمام جارتها الجبارة . فجردت روسيا عليها قواتها الحربية . وما لبث العالم أن وقف

مدهوشاً معجباً أشد إعجاب بالبسالة النادرة القرين التى أبداها الفنلنديون فى الصمود أربعة أشهر كاملة أمام غريمهم المارد فى ذلك القتال غير المتكافىء . وأخيراً اضطرت فنلندة إلى إلقاء سلاحها فى أوائل مارس سنة ١٩٤٠ ، وعقدت صلحاً مع روسيا احتفظت فيه باستقلالها ، ولكنها أكرهت على التنازل عن بعض الأراضى الواقعة على تخومها الشرقية ، وعن جزيرة هانجو Hangoe الاستراتيجية . وبعد أشهر قلائل استحوذت روسيا على دويلات البلطيق الثلاث الآنفة ، وانتزعت ولاية بسارابيا من رومانيا . وبذلك أكملت روسيا – كما هُيىء لها – نظامها الدفاعى ضد جحافل ألمانيا النازية حينما يجىء « اليوم الموعود » .

النظام السوفيتى وعمليات « التصفية »

وكانت روسيا تُحكم طبق دستور أقر سنة ١٩٣٦ ، وعُرِّف فيه الاتحاد السوفيتى بأنه دولة تعاهدية تتألف من إحدى عشرة جمهورية اشتراكية متساوية الحقوق ، اتحدت بمحض اختيارها لمصالحها المشتركة . ولا يزال هذا الدستور معمولا به إلى الآن ، إلا فى ناحية واحدة . فقد عُدل فى فبراير سنة ١٩٤٤ ، كى تُعطَى كل من الجمهوريات المؤسسة للاتحاد حق إنشاء قوميسارات (وزارات) منفصلة لشؤون الدفاع والسياسة الخارجية .

ومع أن حركات « التطهير » و« تصفية » أعداء الجمهورية السوفيتية أمر عادى فى تلك البلاد الرحيبة الجنبات ، إلا أن العالم رُوع بنوع خاص بحركة تصفية هائلة جرت فى أغسطس سنة ١٩٣٦ ، حينما قُدم زينوفييف Zinoviev وكامينيف Kamenev اللذان كوّنا مع ستالين « الحكومة الثلاثية » المطلقة التى أدارت دفة البلاد منذ موت لنين سنة ١٩٢٤ – حينما قُدم هذان القطبان الشيوعيان مع زمرة من كبار الشيوعيين الروس إلى المحاكمة بتهمة تنظيم عصابات إرهابية لاغتيال ستالين وكبار أعوانه . وحُكم عليهم بالإعدام ، وأعدم أكثرهم . وفى يونيو سنة ١٩٣٧ حوكم سراً المارشال تُكهاشفسكى Tukhachevsky رئيس هيئة أركان الجيش ، مع سبعة من كبار القواد الروس ، وحُكم عليهم بالإعدام ، وأعدموا رميا بالرصاص . وتلا هاتين المحاكمتين القبض على مئات الألوف من المدنيين والعسكريين ، وقُدموا إلى محاكمات صورية ، وحكم عليهم

بالإعدام أو السجن أو النفى إلى سيبيريا ، أو اغتيلوا فى الخفاء دون تقديمهم حتى إلى مثل تلك المحاكمات ، أو فصلوا من خدمة الحكومة والهيئات العامة .

ويُعتقد أن أكثر هؤلاء الذين « صُفوا » كانوا ضالعين مع ألمانيا النازية ، وأنهم كانوا يسعون إلى تغيير سياسة روسيا الخارجية ، ومحاولة التقريب بينها وبين ألمانيا . ولذلك فإنه حينما غزا الألمان روسيا فى مطلع صيف سنة ١٩٤١ ، وقف الروس صفاً مرصوصاً فى وجه الغزاة ، وقدموا بزعامة ستالين جبهة متحدة نُظمت تنظيما محكماً من الناحيتين السياسية والصناعية .

والحق أنه لأمر ذو مغزى أن عملية « تصفية » أخرى مماثلة جرت فى ألمانيا فى بواكير سنة ١٩٣٨ . فقد أعدِم أوسجن أو فُصل عدد كبير من الضباط الألمان الذين اشتبه فى أنهم يؤثرون تعاون بلادهم مع روسيا السوفيتية .

٣ – انهيار الجبهة الغربية

تعبئة الأمة الفرنسية للحرب

أما فى الغرب ، فقد سارعت الحكومة الفرنسية إلى تعبئة الجيش على إثر إعلانها الحرب . ومع ذلك فإن الفرنسيين لم يلتفوا حول راية الوطن فى الروح التى ملأت جوانحهم عام ١٩١٤ ، ولم تهتز قلوبهم حينما نفخ فى بوق الحرب لدعوتهم إلى تلبية النداء « بأن الوطن فى خطر » : ذلك النداء الذى طالما سارعوا إلى استجابة صيحته ، ونفروا عند سماعه إلى امتشاق الحسام وافتداء الوطن بالمهج والأرواح .

ذلك أن فرنسا لم يكن على رأسها وقتئذ زعماء ممتازون يقودون صفوفها ويظفرون بثقتها . وكانت الفوضى السياسية وخراب الذمم والفساد الاجتماعى قد أناخ بكلكله على الهيئات العامة . ورفض الحزب الشيوعى الفرنسى وشيعه المنضمة إليه أن يؤيد حرباً « رأسمالية » ، وأشاع فى نفوس الكثيرين من أفراد الطبقات الدنيا عدم الرضا ، وأثار الاضطراب وبث القلق فى صفوف الأمة . أضف إلى ذلك أن سياسة التهدئة التى انتهجها ساسة بريطانيا وفرنسا إلى ما قبيل إشهار الحرب ، جعلت جانباً كبيراً من الأهلين مستعدين

أن يتحملوا كل إهانة تقريباً ، إذا كان فى ذلك تجنيبهم مكاره الحرب وخطوبها .

ومع ذلك فقد كانت فرنسا متأهبة إلى درجة كبيرة لملاقاة العدو . وكان يمتد على طول الحدود الفرنسية الألمانية خط « ماچينو » الذى « مثّل أعلى درجة من درجات تطور الدفاع العلمى بلغتها أوربا حتى ذلك الحين » .

ولكن هذا الخط الدفاعى المنيع الذمار لم يمتد على طول الحدود الواقعة بين فرنسا وبلجيكا . فقد اكتفى رجال الهندسة العسكرية الفرنسية بتحصين تلك الحدود بوضع حزام من الأسلاك الشائكة ، وإقامة الأعمدة العائقة لسير الدبابات ، وحفر الحفر لصيدها .

خط سيجفريد

وشيد الألمان داخل حدودهم فى مواجهة خط ماچينو ، خط سيجفريد « Siegfried » أو « السور الغربى » . وهى منطقة حصنت على نمط مشابه لخط ماچينو نفسه .

وقد جعل وجود هذين الخطين الدفاعيين المنيعين من العسير على الجيوش المتحاربة أن تقوم بحركات حربية خاطفة على طول جبهة ألمانيا الغربية .

وبدأت إنجلترا فى اليوم التالى لإعلانها الحرب على ألمانيا تنزل طلائع قواتها بأرض فرنسا . وأخذت هذه القوات تحتل تدريجاً الأماكن التى خصصت لها على الحدود البلجيكية — الفرنسية شرق مدينة ليل .

الحرب « الصامتة »

وفى الوقت الذى كانت تسحق قوات ألمانيا المصفحة مقاومة الجيش البولندى ، وقف البريطانيون والفرنسيون فى جبهتهم عاجزين عن أن يمدوا لحليفتهم السيئة الطالع يد المعونة بالضغط على العدو المشترك . صحيح أنه حدث خلال الأسابيع الأولى من القتال بعض النشاط على طول خط ماچينو ، كان من نتيجته إكراه الألمان على الجلاء عن ساربريكين Saarbrücken ، ولكن الفرنسيين أكرِهوا بدورهم على الارتداد من غابة ڤارندت Warndt .

وساد الجبهة الغربية هدوء شامل تقريباً أثناء الأشهر السبعة الأولى من الحرب . وكانت هذه الأشهر التى ركد فيها القتال فترة غلب خلالها على الجند الفرنسيين بنوع خاص السأم الشديد ، وانتشر بينهم السخط والتبرم ، وأخذ

روحهم المعنوى وحماسهم الوطنى ينحطان بدرجة ملحوظة .

انتهاء الحرب الصامتة

ولكن « الحرب الصامتة » بين ألمانيا وعدوتيها انتهت على نحو مثير فى أوائل إبريل سنة ١٩٤٠ . ذلك أن الحصول على الحديد الخام من السويد كان من الأهمية بأعظم مكان للألمان . وكانوا يجلبون هذه المادة اللازمة لصناعاتهم الحربية خلال شهور الشتاء ، حينما يقفل الجليد ثغور بحر البلطيق ، كانوا يجلبون حديد السويد من ميناء نارفك Narvik النرويجية . وكان أمراً طبيعياً أن تحاول بريطانيا حمل النرويج على وقف هذا النقل فى مياهها الإقليمية ، وسد الطريق البحرى فى وجه السفن الألمانية .

احتلال ألمانيا للدانمرك

ولذلك فبينما كان الهدوء المستتب الشامل يخيم على ميادين الحرب البرية ، إذ بألمانيا تغير فى الساعات الأولى من صباح ٩ إبريل ، دون سابق إنذار ، على الدانمارك التى كانت قد أبرمت معها قبيل ذلك معاهدة عدم اعتداء .

والنرويج

وفى الصباح الباكر من اليوم عينه أنزل الألمان كتائبهم ، دون إنذار سابق أيضاً ، فى نقط عدة على طول الساحل النرويجى . حدث هذا فى نفس اللحظة التى كانت تضع فيها قوة بحرية إنجليزية – فرنسية الألغام فى مياه النرويج الإقليمية التى كانت السفن الألمانية المحملة بالحديد الخام تتخذها سبيلا لها للتملص من هجوم السفن الحربية البريطانية عليها وإغراقها .

وما وافى مساء ذلك اليوم حتى كان الألمان قد قضوا على كل مقاومة فعالة فى النرويج ما عدا فى أقصى الشمال . وكانت خطة الهجوم الألمانية على النرويج من أبدع النماذج الحربية لحسن التصميم وسرعة التنفيذ ودقة التعاون بين مختلف أسلحة الجيش .

وحاول البريطانيون أن ينجدوا النرويج . فنزلت قوات بريطانية وفرنسية فى نارفك (١٥ إبريل) وفى نامسُس (١٦ إبريل) . ولكن الألمان تمكنوا فى سهولة من سحق هذه القوات . غير أن قوة كبيرة مؤلفة من جند بريطانيين وفرنسيين وبولنديين ونرويجيين أفلحت فى الاستيلاء على نارفك فى ٢٨ مايو . ولكن نظراً للأحداث الجلل التى كانت تجرى وقتئذ فى الجبهة الفرنسية ،

سُحبت هذه القوات من جنود الحلفاء فى الثامن من يونيو . ولجأ هاكون ملك النرويج ووزراؤه إلى إنجلترا حيث واصلوا منها النضال . وغدت القوات النازية مدى أربعة أعوام سيد النرويج الأوحد .

الهجوم الألمانى الساحق

وما كاد ينقضى شهر واحد على غزو النرويج ، حتى ضرب الألمان ضربتهم الكبرى فى الغرب . فقد بدأوا هجوماً هائلا قبيل فجر ١٠ مايو على هولندا وبلجيكا ولكسمبرج فى آن واحد دون أى إعلان للحرب . ولم تمض ساعات قلائل حتى كانوا قد اكتسحوا لكسمبرج . واخترقوا فى الثانى عشر من الشهر خط الدفاع الرئيسى للجيش الهولندى . وقاموا بغارات جوية عنيفة على المدن الهولندية دمرت جانباً كبيراً منها ، وألقت الرعب فى نفوس الأهلين. وسقطت روتردام فى الرابع عشر . وأكرِه الهولنديون عقب النكبات المروعة التى حلت بهم على أن يلقوا بأسلحتهم فى اليوم التالى .

اكتساح لكسمبرج وهولندا

سحق الجيش البلجيكى

وفى الوقت عينه كان الألمان يوجهون ضربات هائلة لجيش بلجيكا الصغير . وكان ملكها قد استنجد ببريطانيا وفرنسا ؛ فدخل جيشاهما بلجيكا طبقاً لخطة موضوعة . ولكن القيادة الألمانية جردت قوات مصفحة كبيرة تحت قيادة المارشال فون رندشتد Von Rundsted حطمت خط دفاع الحلفاء فى ١٤ مايو ، فاخترقته بين نامور وسيدان ، وعبرت نهر الميز ، شاقة طريقها خلال غابات الآردِنْ التى كان يُظن أنه من المتعذر على أى جيش اختراقها . واتجه جزء من القوات المصفحة الألمانية غرباً نحو أميان ، وجنوباً نحو ريمس . ودخل الألمان أميان فى ١٩ مايو وآبڤيل Abbeville فى اليوم التالى . وزحفوا سراعاً ميممين وجهتهم صوب الموانى الفرنسية على القنال الانجليزى . فوصلوا ساحله فى الحادى والعشرين ، وهاجموا بولون وكاليه فى الثالث والعشرين ، وبدا كأن كل شىء ينذر الحلفاء بوقوع كارثة مروعة وهزيمة ماحقة . فقد انحطت روح الجيش الفرنسى إلى أسفل درك ، وأخذت الفرق الفرنسية ترتد أمام نار العدو الحاصدة دون انتظام . ومما زاد من أسباب الفوضى وعوامل الهزيمة امتلاء الطرق بمئات الألوف من النساء والأطفال الهاربين من وجه

اختراق خط دفاع الحلفاء

الغزاة لا يلوون على شىء .

وجعلت السرعة الخارقة للتقدم الألمانى مركز الحلفاء غاية فى الحرج . فقد حُصِرت القوات البريطانية والفرنسية والبلجيكية التى أرسلت فى الأصل للدفاع عن البلجيك — حُصِرت فى مثلث ، وتوارى كل أمل لها فى التمكن من التقدم .

دنكرك

ورأى لورد جورت Lord Gort القائد العام للقوات البريطانية أن البحر هو سبيله الوحيد لانقاذ قواته من المأزق البالغ الحرج الذى وُجِدت فيه . وفى منتصف ليلة ٢٧ — ٢٨ مايو سلم الجيش البلجيكى . وكان الجلاء الشهير للقوات البريطانية قد بدأ فى السابع والعشرين من ميناء دنكرك . وقد تمكن ٣٣٤ ألفاً من المقاتلين البريطانيين وجنود الحلفاء من الجلاء تاركين وراءهم عتادهم بأكمله .

تمزيق الجيش الفرنسى

وخلف فى ١٩ مايو الجنرال ڤيجان Wegyand الجنرال جاملان Gamelin فى منصب القائد الأعلى لقوات الحلفاء . فقضى نحو أسبوعين فى تعزيز مواقع الدفاع الفرنسية على حدود فرنسا الشمالية والشمالية الشرقية . وكانت قوات الألمان المصفحة قد حولت وجهتها صوب الجنوب . وتمكنت من اختراق خطوط الدفاع الفرنسية فى كل مكان ، ومزقت الجيش الفرنسى شر ممزق . فقررت الحكومة الفرنسية فى ٨ يونيو الانتقال من باريس ، أولا إلى تور ، ثم إلى بوردو .

دخول إيطاليا الحرب

وطرح موسولينى موقف المتفرج وراء ظهره ، وأعلن فى العاشر من يونيو الحرب على بريطانيا وفرنسا كى لا يفوته الظفر بنصيب من الأسلاب التى غدت الآن فى ناظره سهلة المنال دانية القطوف .

سقوط باريس

وسقطت العاصمة الفرنسية فى أيدى الألمان بعد أيام خمسة ، فاستصرخت الحكومة الفرنسية الرئيس روزفلت وبريطانيا بأن يمدا إليها يد المعونة بمساعدات جدية فى هذه اللحظة الرهيبة . ولكن صرخاتها ذهبت هباء الريح .

بيتان يعقد الهدنة

وسقطت وزارة رينو فى السادس عشر من يونيو ، وخلفه فى رياسة الحكومة

المارشال پيتان العجوز بطل ڤردان . وطلب من الألمان وقف القتال تمهيداً لعقد هدنة بين الدولتين . واتخذت الحكومة الفرنسية مدينة ڤيشى مقرًّا لها . وكان الألمان قد احتلوا حتى تلك اللحظة نصف أراضى فرنسا . فأجابوا پيتان إلى طلبه . وفى الثانى والعشرين من يونيو أمضى المبعوثون الفرنسيون شروط الهدنة فى كمپيين Compiègne فى نفس عربة السكة الحديدية وفى نفس البقعة اللتين كان الألمان قد وقعوا فيهما فى ذلة وامتهان صك الهدنة مع الحلفاء فى نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وبمقتضى شروط الهدنة خُوِّل الألمان احتلال جميع الأراضى الفرنسية الواقعة شمال وغرب خط يمتد من جنيف إلى تور ، ومن هناك جنوباً إلى حدود أسبانيا . ويدخل فى منطقة الاحتلال جميع الموانى الفرنسية الواقعة على القنال الإنجليزى والمحيط الأطلنطى . وفُرض على فرنسا أن تنزع سلاح قواتها المحاربة ، ثم تسرحها ، فيما عدا القوات التى يُحتاج إليها لحفظ الأمن العام ، وأن تتحمل فرنسا جميع نفقات الاحتلال ، وأن يبحر الأسطول الفرنسى إلى ثغور فرنسية معينة حيث يجرد من السلاح . وأعلنت ألمانيا أنه ليس لها أية نية فى استخدامه ضد بريطانيا ، أو فى الاحتفاظ به بعد إبرام الصلح بين البلدين . وتعهدت فرنسا أن تطلق سراح جميع الأسرى الألمان الذين كانوا قد وقعوا فى قبضة الجيش الفرنسى ، على أن تستبقى ألمانيا فى يدها جميع أسرى الحرب الفرنسيين .

٣ — معركة بريطانيا

الإمبراطورية البريطانية تقاتل بمفردها

ووقفت بريطانيا الآن بمفردها ، وهى تكاد تكون عزلاء من السلاح ، فى وجه عدوها الظافر الشديد المراس . وأبت تلك الجزيرة العنيدة — رغم تنبؤات الكثيرين بأن أيامها قد باتت معدودات — أبت أن تعقد مع ألمانيا هدنة مماثلة لتلك التى عقدتها فرنسا . ويعرب عدد غير قليل من النقاد العسكريين عن الرأى — ومن بينهم تشرتشل نفسه — بأنه كان من المرجح أن

يظفر هتلر بقهرها — وبالتالى بالسيطرة على العالم — لو أنه أقدم على غزوها عقب انهيار فرنسا . ولكنه بدلا من أن يرسل قواته القاهرة فى أعقاب البريطانيين ، حوّل وجهة جيوشه إلى إكمال فتح فرنسا ، ودعم فتوحاته . فأفلت من بين يديه النصر النهائى . فقد أمهل بريطانيا فسحة من الوقت استخدمتها خير استخدام فى استرداد قواتها وتدريب محاربيها الجدد ، وتعويض ما كانت قد فقدته من عتاد .

تشرتشل يغدو زعيم بريطانيا الأكبر

وقيضت الأقدار السعيدة لبريطانيا أن يقبض على أزمة الحكم فيها فى أحلك غمرتها وذروة محنتها زعيم عظيم وجبار مارد . فقد أجبر نقل تشيمبرلين ، أزاء الحملات القاسية التى شنها عليه أعضاء حزبه ، على أن يقدم استقالته فى ١٠ مايو ، فتسنم ونستن تشرتشل الحكم على رأس وزارة ائتلافية فى أحرج الساعات التى مرت بتاريخ بلاده . فبعث فى بنى جلدته روحاً جديداً وتصميماً قاطعاً على الصمود فى وجه العدو حتى يكلل النصر جبينهم ، أو يهلكوا . ولم يثنه عن عزمه الراسخ توالى الهزائم ، وتتابع الكوارث ، فظل ينفخ فى نفوس مواطنيه روحاً من روحه الجبار ، ويضىء لهم قبساً خافتاً وسط دياجير المحن والكروب التى أناخت عليهم . فخاطبهم قائلا : « سنثبت مرة أخرى أننا قادرون على الذود عن حياض جزيرتنا ، وشق طريقنا خلال أعاصير النضال وأنواء المعارك . وسنظل نكافح تهديد الطغيان ، ولو اضطُررنا إلى القتال سنين عديدة ، وإلى القتال بمفردنا إذا اقتضى الأمر ذلك . . . . إننا لن نتقاعس ، ولن ننكص على أعقابنا . سنواصل النضال حتى النهاية . سنقاتل فى فرنسا ، سنقاتل على متن البحار والمحيطات ، سنقاتل فى ثقة متزايدة وقوة مطردة النمو فى الجو ، وسندافع عن جزيرتنا مهما بهظ الثمن . سنقاتل على شواطئ البحار ، وسنقاتل عند مراسى السفن ، وسنقاتل فى الحقول وفى الشوارع ، وسنقاتل فوق التلال . ولكننا لن نفعل شيئاً واحداً : لن نلقى بسلاحنا » .

معركة بريطانيا

والحق أن بريطانيا كانت وقتئذ فى أشد حاجة إلى قيادة ذلك الزعيم العملاق . فقد أخذت أساطيل هتلر الجوية الهائلة تمطر الموت على بريطانيا ، وتنشر

الخراب فيها ، طوال صيف وخريف عام ١٩٤٠ ، كأن ألمانيا قد عقدت نيتها على تدميرها تدميراً منظماً من الجو . وبدأت الحملات الجوية الألمانية العنيفة فى ٨ أغسطس ، فبدأت بذلك ما يسميه البريطانيون : « معركة بريطانيا » . وشرع الألمان يشنون غارات جوية بالغة العنف على قوافل البواخر التجارية الإنجليزية وعلى المدن الساحلية فى الجنوب الشرقى من إنجلترا . ثم أعقبوا ذلك بغارات مركزة وُجِّه أكثرها إلى المطارات ومصانع الطائرات . ثم بدأت فى ٧ سبتمبر المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه المبارزات الجوية الهائلة . فقد قاموا بشن غارات نهارية عنيفة على لندن ، وخاصة على منطقة مينائها . واستبسل الطيارون البريطانيون أعظم استبسال فى الدفاع عن وطنهم خلال معركة بريطانيا التى استمرت حتى أواخر أكتوبر . ودمروا حسب الأرقام الرسمية ١٧٣٣ طائرة ألمانية ، وحالوا بذلك دون أن تحوِّل ألمانيا هجماتها الجوية إلى غزو فعلى للجزر البريطانية.

ومع ذلك فقد واصل الألمان غاراتهم الجوية ليلا على نطاق واسع . فاشتدت حملاتهم الليلية أولا على لندن ، ثم تحولت إلى مدن الثغور . فصبت الطائرات الألمانية صواعقها على سوثهمتن وبلمثْ وليڤربول وبرستل وغيرها . ثم نقل الألمان ميدان عملياتهم إلى المدن الصناعية . فدكوا فى ١٤ نوفمبر مدينة كوڤنترى ، وأنزلوا خراباً ذريعاً بمدن برمنجهام ومنشستر وشفيلد والمدن الواقعة على نهرى التين والكلايد . وبلغ عدد ضحايا هذه الغارات من المدنيين حوالى ٢٣,٠٠٠ من القتلى ، وعدداً أكبر كثيراً من هذا الرقم من الجرحى ، وذلك خلال الأشهر الخمسة من أغسطس إلى ديسمبر سنة ١٩٤٠ . ولكن الشعب البريطانى ظل قوى العزيمة ثابت الجنان . فما لانت قناته أمام الكوارث ، ولا وهن تصميمه من هول الشدائد . وكان إخفاق هذه المحاولة الألمانية فى قهر بريطانيا عن طريق الغارات الجوية ، وإرغامها بهذه الوسيلة على التسليم — كان إخفاقها من بين العوامل الرئيسية الكبرى فى إنزال الهزيمة بألمانيا فى آخر المطاف .

وواصلت بريطانيا الحرب ، تؤيدها مستعمراتها تأييداً قوياً ، وتسخو عليها سخاء كبيراً بالرجال والعتاد . ولم يقصر عمل قوات الجو البريطانية على ردّ غارات

العدو ، بل غزته فى الوقت عينه فى عقر داره ، وإن كان ذلك قد تم على نطاق ضيق . فقد أرسلوا طائراتهم لتدمير مصانع البترول الصناعى فى ألمانيا الغربية ، والمنشآت الصناعية فى الرهر، والموانى وأحواض السفن الألمانية. وفى ليلة ٢٥ أغسطس أغارت الطائرات البريطانية على برلين نفسها .

الحرب البحرية

ولم يقصر ميدان الصراع بين ألمانيا وبريطانيا على الجو ، بل اشتد سعير القتال فى البحار أيضاً . فقد هاجم الألمان فى غير هوادة منذ بدء الحرب السفن البريطانية المحملة بالأغذية والمواد الخام اللازمة لحياة الأهلين ولمجهودهم الحربى . واستخدم الألمان فى أواخر سنة ١٩٣٩ أول سلاح سرى استخدموه فى ذلك النضال : وهو الألغام الممغنطة التى كانت طائراتهم تلقيها فى مداخل الموانى البريطانية . وقد منيت السفن التجارية البريطانية بخسائر فادحة فى بدء استخدام ذلك السلاح الفتاك . ولكن ما مضى زمن طويل حتى تمكن العلماء البريطانيون من اختراع وسائل مضادة فلّت إلى مدى كبير من حدة وطأته وقللت من شدة فتكه .

وأمكن للأسطول البريطانى أن يتعقب بارجة الجيب الألمانية القوية : « جراف شپى » التى كانت ألمانيا قد بعثتها مع أختها « دتشلند » إلى عرض الأطلنطى حيث أخذت تعيث إغراقاً بالسفن التجارية البريطانية . وأخيراً أمكن للطرادات البريطانية أن تعثر عليها فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ وتلحق بها عطباً جسيما . فاضطرت « جراف شپى » إلى الالتجاء بثغر مُنتفيدو ، حيث أغرقها بحارتها عند انصرام الأجل الذى حُدد لبقائها فيه .

كذلك تمكنت القوات البريطانية من أن تسبق الألمان إلى احتلال جزيرة أيسلند وجزر فارو Faroe . ولكن الانهيار الحربى الذى أصاب الحلفاء فى الميدان الغربى قلل إلى حين من الأهمية الاستراتيجية لذلك السبق .

٤ ـ القتال يمتد إلى إفريقية وبلاد البلقان

بدء حرب شمال إفريقية

كان موسولينى عند إعلانه الحرب على بريطانيا ـ كان يرنو بناظريه إلى القطر المصرى ، ويسيل لعابه للاستحواذ على ثروته واستغلال موارده الطبيعية الغنية . وشجعه ضعف بريطانيا على إنفاذ حملة كبيرة لاحتلاله . وعبرت هذه الحملة فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ الحدود المصرية ، وتقدمت حتى سيدى برانى . غير أن الجنود البريطانيين هاجموا الإيطاليين فى أوائل ديسمبر ، وأجلوهم عن مصر . واستولوا فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤١ على طبرق : القاعدة البحرية الإيطالية الرئيسية فى برقة . وما وافى شهر مارس سنة ١٩٤١ حتى كان الإيطاليون قد طُردوا من ولاية برقة ، وبلغ البريطانيون بلدة العقيلة ، ووقع فى يدهم خلال هذه العمليات الحربية أكثر من مائة ألف أسير إيطالى ، دون أن يفقدوا سوى مئات قليلة من القتلى . فبعثت هذه الانتصارات الكبيرة التى أحرزها الجنرال ويفِل Wavell القائد الأعلى للقوات البريطانية بالشرق الأدنى ـ بعثت هذه الانتصارات بعض الثقة فى نفوس البريطانيين .

طرد قوات فيشى من سوريا ولبنان

وأصاب البريطانيون بعض المكاسب الحربية الأخرى . فاحتلت جنودهم فى شهر يوليه سنة ١٩٤١ سوريا ولبنان اللتين كانتا خاضعتين لحكومة ڤيشى الفرنسية . وبذلك قوى مركز بريطانيا فى الشرق الأوسط . كذلك أمكنها أن تقتل فى المهد انقلاباً فى العراق بغية الانضمام لدول المحور .

القضاء على الإمبراطورية الإيطالية

كذلك كان الإيطاليون ، على إثر إعلانهم الحرب ، قد تغلغلوا فى يوليه سنة ١٩٤٠ فى أراضى كينيا ، ودخلوا السودان ، واكتسحوا الصومال البريطانى ، وهددوا تهديداً خطيراً مركز البريطانيين فى عدن والبحر الأبيض .

ولكن القوات البريطانية تحت قيادة سير أَلَنْ كنِنْجهام Sir Alan Cunningham قامت فى يناير سنة ١٩٤١ بهجمات مضادة قوية أسفرت عن نتائج باهرة . فقد تمكنت أثناء قتال لم يستغرق سوى أربعة أشهر من القضاء

على الإمبراطورية الإيطالية فى شرق إفريقية . فأقصوا الإيطاليين عن إرتريا . وسقطت أديس أبابا فى أيديهم فى ٦ إبريل . وفى الخامس من مايو — أى بعد خمسة أعوام من مناداة موسولينى بملك إيطاليا إمبراطوراً على الحبشة — دخل الإمبراطور هيلا سلاسى قصبة ملكه . وبعد أسبوعين سلم دوق أوستا نائب ملك إيطاليا نفسه مع عدد كبير من الضباط والجنود إلى البريطانيين . ولم يختتم نوفمبر سنة ١٩٤١ حتى كانت آخر فلول القوات الإيطالية فى ذلك الميدان قد استسلمت دون قيد أو شرط .

الحرب فى اليونان وألبانيا

وكان موسولينى قد أعلن الحرب على اليونان فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠ . وهاجمت قواته تلك البلاد من ألبانيا . غير أن الجنود الإيطالية مُنيت بهزائم مشينة ذات بال . فطردهم اليونانيون شر طردة من وطنهم . وما جاء ختام عام ١٩٤٠ حتى كان اليونانيون قد أوغلوا ثلاثين ميلا فى أرض ألبانيا .

الألمان يضمون إلى جانبهم رومانيا وبلغاريا

فانتهز الألمان هذه الفرصة ، وشنوا فى غضون شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١ حرب أعصاب حامية على دول البلقان . وحشدوا قوات كبيرة فى هنغاريا ورومانيا . ودخلوا صوفيا فى أول مارس سنة ١٩٤١ ، وأكرهوا الحكومة البلغارية على الانضمام إلى صفهم . وفى أواخر ذلك الشهر عينه قامت مظاهرات صاخبة فى بلغراد لمطالبة الحكومة بإشهار الحرب على دولتى المحور . فاستقالت الحكومة اليوغسلافية ،

احتلال يوغسلافيا

وفرّ وصىّ العرش اليوغسلافى عن البلاد . فأعلنت ألمانيا الحرب على يوغسلافيا فى ٦ إبريل ، وجرد هتلر جحافله عليها ، فاحتلوها بأسرها فى أحد عشر يوماً . وأغارت طائراته على بلغراد ، فجعلتها خراباً يباباً .

احتلال اليونان

وفى ٦ إبريل أيضاً غزت الجنود الألمانية بلاد اليونان ، وخفقت بنود النصر فوق زحفها . فقد أرغمت اليونانيين على الانسحاب من تراقية الغربية ، وشقت طريقها فى خلال أسبوع واحد إلى سالونيك . وتقدمت إنجلترا لمساعدة حليفتها الجديدة بالرجال والذخيرة . ولكن العون الذى قدمته لها لم يكن بكاف لإنقاذ الموقف . فساقت الكتائب الألمانية أمامها سوقاً القوات اليونانية والبريطانية والأسترالية والنيوزيلندية ، وأجبرتها على الانسحاب من موقع إثر موقع . واضطر

الجيش اليونانى إلى التسليم فى الحادى والعشرين من إبريل ، ورفرفت فى السابع والعشرين الراية الألمانية ذات الصليب المعقوف فوق الأكروپوليس .

احتلال كريت

ومن ثم تدفقت القوات الإيطالية المهزومة على اليونان ، ولبى البلغار دعوة الألمان إلى احتلال مقدونية وتراقية . وكان الأسطول البريطانى قد أجلى إلى كريت قرابة أربعين ألفاً من جنود بريطانيا والمستعمرات المستقلة ، ولو أنهم جلوا تاركين وراءهم الجانب الأكبر من عتادهم . وواصل الألمان تعقبهم ، فشنوا فى ٢٠ مايو هجوماً عنيفاً عليهم بقوات أنزلوها بكريت من الجو . وطردوا البريطانيين من تلك الجزيرة .

وبذلك انتهى الطور الأول من أطوار الصراع فى سبيل السيطرة على موارد بلاد البلقان ومواقعه الاستراتيجية . ولم يدم القتال فى ذلك الطور سوى أسبوعين حاق خلالهما بقوات بريطانيا واليونان ويوغسلافيا خسائر فادحة فى الرجال والمعدات . وبدا للأعين كأن ألمانيا وإيطاليا قد سيطرتا سيطرة تامة على جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط . وإن كانت تركيا حليفة بريطانيا قد احتفظت بحيدتها .

انتصارات رومل الباهرة

وذهب الألمان مرة أخرى لنجدة حليفتهم فى شمال إفريقية . وكان البريطانيون قد اضطروا إلى تحويل عدد كبير من مقاتليهم ومقادير عظيمة من عتادهم إلى اليونان . فضعف مركزهم ضعفاً كبيراً فى ميدان شمال إفريقية . فأرسلت ألمانيا قائداً مجرباً من أفذاذ قوادها ، عُرف بسعة الحيلة ودقة الخطط : هو الجنرال رومل Rommell — أرسلته ألمانيا على رأس فرقتين من صفوة محاربيها الأشداء . وشن رومل هجوماً كبيراً كلل بنجاح باهر لفت إليه الأنظار . وكانت الصحراء الغربية ميداناً مترامى الأطراف يساعد على حركات الهجوم والإدبار فى سرعة كبيرة . فأمكن لرومل فى يونيو سنة ١٩٤١ أن يجرف أمامه قوات بريطانيا ومستعمراتها حتى بلغ مرسى مطروح ، ولاح كأن مصر عما قليل ستقع فى قبضته .

٥ ــ هتلر يشهر الحرب على روسيا

الحليفان يضمران لبعضهما أسوأ النيات

كان هتلر يضمر فى سويداء قلبه أشد صنوف البغضاء والحقد على روسيا الشيوعية . وكان تحالفه معها فى أغسطس سنة ١٩٣٩ زواج ضرورة أكثر منه تحالفاً قلبياً صادقاً ، فلم يجرؤ أن يجازف بضرب إنجلترا ضربة فاصلة بغزو بريطانيا نفسها ، أو شن هجوم كبير على أملاكها فى الشرق الأوسط ، بينما يقف منه ساسة الروس وقفة غامضة ، ويرابط الجنود الروس صفوفاً متراصة على حدود ألمانيا الشرقية .

وفى الحين الذى شُغلت فيه ألمانيا فى ربيع وأوائل صيف سنة ١٩٤٠ فى غرب أوربا ــ كما رأينا ، انتزع الروس ولاية بسارابيا وشمال مقاطعة بوكوڤينا من رومانيا ، وإن كان هذا الأمر قد تمّ بموافقة ألمانيا . وتلا ذلك إدماج روسيا دويلات البلطيق الثلاث : إستونيا ولتڤيا ولتوانيا فى الاتحاد السوڤيتى . كما جرت على الحدود بعض الأحداث التى أثارت ريب الألمان فى حسن نوايا الحكومة السوڤيتية تجاهها ، وهيأت الجو لنشوب القتال بين البلدين .

هتلر يشهر الحرب

ففى فجر يوم الأحد ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ قذف هتلر بفرقه المصفحة وملايين مقاتليه عبر حدود روسيا . وقال فى منشوره الذى أعلن فيه الحرب على تلك البلاد : « لقد قررت اليوم أن أضع مصير الشعب الألمانى وحكومة الريخ ومصير أوربا فى أيدى جنودنا » . ووقف العالم كله مشدوهاً لهذه المغامرة الجسورة والمقامرة الهائلة ، وأدرك على الفور أن سيكون لهذا الصراع أبعد النتائج وأخطرها ، لا على تاريخ أوربا فحسب ، بل على تاريخ الجنس البشرى بأسره .

وانضم إلى جانب ألمانيا إيطاليا وهنغاريا ورومانيا وفنلندا . وفى الكفة الأخرى وقفت بريطانيا إلى جانب حليفتها الجديدة ، دون أن تتأثر بعدائها المتأصل القديم لروسيا القيصرية ثم لروسيا الشيوعية . فصرح تشرتشل بأن كل من يسير فى ركاب هتلر هو خصم لنا ، وأن كل من ينازله هو حليف . ووقف الرئيس روزفلت موقفاً ودياً نحو روسيا . فقد كان يؤيد بريطانيا قلباً وقالباً ، ويرى

دفاعها عن بلادها وإمبراطوريتها دفاعاً عن قضية الحرية والنظم الديمقراطية . ولو أنه رأى أن الأوان لم يحن بعد للنزول ببلاده إلى حومة الوغى إلى جانبها .

أهداف هتلر

وكان هتلر يثق بأن قواته ستظفر بنصر أكيد ، بل وكان يتوقع أن تظفر أيضاً بنصر سهل . وتطلع إلى الاستحواذ فى حرب خاطفة على قمح أوكرانيا وبترول القوقاز والموارد الصناعية الضخمة فى وادى نهرى الدونت والفلجا ، ومن ثم يشق الجند الألمان طريقهم إلى الشرق الملىء بالخيرات الوفيرة والموارد الطبيعية الهائلة . كذلك خيل له أنه يستطيع أن يبذر بذور التفرقة فى صفوف الدول الديمقراطية بوقوفه موقف المحارب المصطفى فى حرب صليبية ضد الشيوعية . غير أن هذه الأحلام العريضة والأهداف البعيدة تحطمت جميعها على صخرة المقاومة الروسية الباسلة ، وتضافر قوات الديمقراطية أزاء الخطر المشترك .

الهجوم فى ثلاثة قطاعات رئيسية

وحدث الهجوم الألمانى على خطوط قتال كبيرة ثلاثة : الهجوم الأول خلال جنوب بولندا فى أوكرانيا ، والثانى خلال روسيا البيضاء إلى سمولنسك وموسكو ، والثالث هجومهم خلال دول البلطيق إلى لننغراد .

انتصارات الألمان الكبيرة فى الشمال

وأصاب الألمان نجاحاً فائقاً فى بادئ القتال ، وتغلغلوا بسرعة خاطفة ، حتى بدا فى وقت من الأوقات كأن هتلر يوشك أن يحقق هدفه الأكبر : وهو إقامة خط دفاعى يمتد على وجه التقريب من الفلجا إلى أرشانجل فى أقصى الشمال . فقد اكتسح الألمان فى الميدان الشمالى دول البلطيق فى وقت وجيز . ووصلت قواتهم الزاحفة صوب بحيرة لادوجا إلى مشارف لننغراد فى أكتوبر ، وضربوا حصارهم على عاصمة روسيا القيصرية طوال ستة عشر شهراً تقريباً .

زحف فون بك السريع صوب موسكو

وفى القطاع الوسط للجبهة الروسية ، استولت الجيوش الألمانية بقيادة المارشال ڤون بُك Von Bock على سمولنسك فى ١٦ يوليه . ثم توقفت قليلا كى تعد عدتها لهجومها الهائل على موسكو الذى بدأته فى بواكير شهر أكتوبر . وكان تقدم الألمان سريعاً فى بادئ الأمر ، حتى أنهم وصلوا فى أوائل نوفمبر إلى مسافة مائة كيلومتر من موسكو . وهجم الألمان هجمة صادقة على الروس فى السادس عشر ، ولكن الروس استماتوا فى الدفاع عن حاضرتهم الكبرى ، وأمكنهم وقف

فون بُلك طوال شهور الشتاء على بعد خمسين كيلومتراً من ضواحى موسكو .

فوز فون رندشتد فى القطاع الجنوبى

وكذلك توجت أكاليل النصر هجمات الجيوش الألمانية بقيادة المارشال ڤون رندشتد فى القطاع الجنوبى . فقد اكتسحت تلك الجيوش — مع معاونة تلقتها من الجيش الرومانى — اكتسحت أوكرانيا ، وشقت طريقها خلال بسارابيا على طول ساحل البحر الأسود إلى أودسا . فسقطت كييف فى أيدى الألمان فى ١٩ سبتمبر ، وأودسا فى ١٦ أكتوبر ، وخاركوف فى ٢٤ من ذلك الشهر . وفى خلال أيام خمسة اخترقوا شبه جزيرة القرم ، واستحوذوا على جميع أنحائها ، ما عدا ثغر سيباستپول الذى كان الروس قد أحكموا تحصيناته حتى جعلوه أمنع من عقاب الجو . ثم تقدمت جيوش رندشتد شرقاً حتى وصلت إلى مدينة رستوف ، واستحوذت عليها فى ٢٢ نوڤمبر . ولكن الروس استرجعوها بعد أسبوع . واتخذت الجيوش الألمانية فى الجنوب مواقعها الشتوية فى أوائل ديسمبر على خط نهر الدونتز .

وكانت انتصارات الألمان فى هجماتهم الأولى على أكبر جانب من الروعة والفخامة ، ومُنى الروس خلال دفاعهم بخسائر مروعة . وفقدوا الحقول الغنية بالحنطة فى أكرانيا ، والجهات الصناعية الهامة فى كلا أكرانيا وحوض الدنيبر . كذلك استحوذ الألمان على مناجم فحم حوض الدونتز وجميع أرجاء شبه جزيرة القرم ، ما عدا سيباستپول .

ومع جميع هذه الانتصارات الباهرة التى أحرزها الألمان ، فإن العالم أدرك للمرة الأولى خلال الحرب العالمية الثانية الطاحنة بأنهم لم يحققوا آمالهم التى منوا النفس بكسبها خلال حربهم الخاطفة ، وأن الجيوش المدرعة الألمانية ليست بالقوات التى لا تُقهر . فقد حل الشتاء الروسى القارس البرد ، والألمان يدقون بمطارقهم الضخمة أبواب موسكو ولننغراد اللتين استعصى عليهم فتحهما . فوقفوا متعبين حيارى أمام ذلك الغريم الجبار الذى لا تنفد موارده فى الرجال ، رغم ما حاق به من النكبات والهزائم الماحقة .

تجدد القتال فى القطاع الجنوبى

وجدد الجيش الألمانى – الذى غدا الآن تحت قيادة ڤون بُك – جدد هجومه فى أواخر ربيع سنة ١٩٤٢ ، وظفر بمدينة كِرْش Kerch . وفى الوقت عينه بدأت القوات الروسية بقيادة المارشال تيموشنكو Timoshenko هجوماً ، وهددت مدينة خاركوف . غير أن ڤون بك قام بهجمة مضادة عبر نهر الدونتز ردتها على أعقابها .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه بينما كان الألمان عام ١٩٤١ يرسلون هجماتهم الهائلة فى القطاعات الرئيسية الروسية الثلاثة ، فإنهم اكتفوا عام ١٩٤٢ بتركيز قواتهم وهجماتهم فى القطاع الجنوبى ، حيث بدأوا هجومهم الكبير فى ٢٨ يونيو ، فاستولوا على سيباستبول ، وبذلك دخلت فى قبضتهم شبه جزيرة القرم بأكملها . ثم زحفت القوات الألمانية شرقاً بين الدونتز وأعالى نهر الدون ، ميممة وجهتها شطر حقول بترول القوقاز ومدينة ستالنجراد ذات الأهمية الصناعية الكبرى . وقد أصاب الألمان نجاحاً فى بادئ الأمر ، فقد أفلحوا فى إرجاع الروس القهقرى إلى الشاطئ الغربى للدون ، وبلغوا سفوح جبال القوقاز فى أغسطس . وفى نهاية أكتوبر وصلوا إلى الطريق الحربى بمقاطعة جورجيا الذى يؤدى إلى تفليس . ولكن زحفهم أوقف فى نوفمبر . ثم أجبرتهم الضرورات الحربية فى الميادين الأخرى على الانسحاب من القوقاز .

معركة ستالنجراد الدموية الفاصلة

ذلك أن الجيوش الألمانية عبرت نهر الدون فى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٤٢ ، وتقدمت إلى مدينة ستالنجراد ، حيث نشبت معركة دموية طاحنة قلما شهد تاريخ الحروب لها مثيلا فى الضراوة واستبسال المقاتلين الذين خاضوا غمارها . فقد قاوم الروس بحمية منقطعة الضريب هجمات الألمان ، ودافعوا عن مدينتهم شارعاً شارعاً ، وبيتا بيتاً . ومع أن الألمان استولوا فى النهاية على معظم أنحاء المدينة ، إلا أن ذلك كلفهم من الأرواح خسارة نحو مليون مقاتل من الملايين الأربعة الذين كانوا يقاتلون فى الجبهة الروسية . وكان لهذه النكبة أبعد الأثر فى إبطاء تقدمهم فى الأيام القادمة .

وفى ١٩ نوفمبر قام الجنرال زوكوف بهجمة مباغتة مكنته من الإحداق بالقوات

الألمانية . وأخفقت محاولات الألمان فى إسعاف قواتهم . فاضطرت إلى التسليم فى ٣١ يناير سنة ١٩٤٣ . وكان لهذه الكارثة تأثير عميق وألم ممض فى نفوس الألمان . فقد كانوا – كما سيجىء – قد أصيبوا بهزيمة فاصلة فى ميدان شمال إفريقية ، حيث جرت فى أكتوبر سنة ١٩٤٢ معركة العلمين الذائعة الصيت التى كانت نقطة تحول فى مصاير الحرب فى ذلك الميدان الحيوى . وكاد تسليم القوات الألمانية فى قطاع ستالنجراد يتفق تماماً مع دخول الجيش الثامن البريطانى تونس .

٦ ـ دخول الولايات المتحدة واليابان الحرب

تحيز الولايات المتحدة للحلفاء

ما من ريب فى أن الولايات المتحدة كانت منحازة بعواطفها إلى جانب الحلفاء . وقد قدمت لهم مساعدات جمة اقتصادية وحربية ، بينما كانت محتفظة اسمياً بحيادها . والحق أنها أخذت تسير باطراد منذ إعلان الحرب إلى الاشتراك الفعلى فى القتال فى صف بريطانيا وفرنسا ، رغم معارضة أقلية قوية من زعمائها وأهلها فى زج بلادهم فى شؤون أوربا وحبائلها ودسائسها .

قانون الحياد الأمريكى

فعند نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، أقر الرئيس روزفلت قانون الحياد الأمريكى الذى حظر فيه تصدير الأسلحة على اختلاف أنواعها إلى جميع الدول المتحاربة دون استثناء . وكان هذا التشريع أضر ببريطانيا وفرنسا منه بألمانيا .

تعديله

وكان الرئيس روزفلت يعطف بكل جوانحه على قضية الحلفاء . فحض مجلسى الكنجرس على تعديل أحكام ذلك القانون بحيث يباح للرعايا الأمريكيين بيع العتاد الحربى . فأقر الكنجرس الأمريكى فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٩ قانوناً سُمح فيه للدول المتحاربة أن تبتاع نقداً من الأمريكيين ما تروم من الأسلحة ، بشرط ألا تُنقل على بواخر أمريكية . وكان هذا أقصى ما استطاع الرأى العام الأمريكى أن يهضمه فى ذلك الحين لعون بريطانيا وفرنسا .

قانون هافانا

ولكن حينما انهارت فرنسا فى صيف سنة ١٩٤٠ ، ووقفت بريطانيا ومستعمراتها تحارب بمفردها الألمان الأشداء ، تعاظم اهتمام الولايات المتحدة بمركز بريطانيا البالغ الحرج ، واشتد خوفها عليها من خطر الإبادة . فأعلن الرئيس روزفلت فى خطاب ألقاه بجامعة فرجينيا فى ١٠ يونيه « بأننا سنمد أعداء العدوان بجميع الموارد المادية التى تملكها أمتنا » . كما أعلن بمقتضى قانون هافانا الذى اعتمده فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٠ بأن مبدأ منرو يمتد إلى حماية الولايات المتحدة للمستعمرات التى تملكها الدول الأوربية بأمريكا . وذلك كى يحول دون انتقال مستعمرات فرنسا وهولندا (بعد وقوع هاتين الدولتين فى حوزة ألمانيا) فى أمريكا الجنوبية إلى قبضة النازيين . وفى أغسطس أنشأت الولايات المتحدة وكندا مجلساً مشتركاً للدفاع .

تبادل المدمرات الأمريكية والقواعد البحرية فى جزر الهند

وفى ٢ سبتمبر تم الاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا على أن تقرض الأولى الثانية خمسين مدمرة أمريكية مقابل تأجير بريطانيا إلى الولايات المتحدة عدداً من القواعد البحرية والجوية فى جزر الهند الغربية وجزيرة نيوفوندلند لمدة تسع وتسعين سنة .

قانون الإعارة والتأجير

واعتمد الرئيس روزفلت فى ١١ مارس سنة ١٩٤١ « قانون الإعارة والتأجير » الشهير الذى جعل من الولايات المتحدة « المصنع الأكبر للديمقراطية » ، والذى وهبت بمقتضاه تلك البلاد لحليفاتها موادحربية وغذائية ومشحونات أخرى خلال سنى الحرب قُدرت قيمتها بما بين أربعين مليار دولار وخمسين مليار دولار . وقد تنازلت الولايات المتحدة بعد انتهاء العمل بهذا القانون فى أغسطس سنة ١٩٤٥ — تنازلت عن جميع هذه المبالغ الطائلة لحليفاتها . ولقد قدم روزفلت العون على الفور إلى بريطانيا والصين . ثم مدّ نطاق هذا القانون إلى روسيا حينما دخلت الحرب فى جانب الحلفاء ، وذلك بعد اعتماد القانون بأشهر ثلاثة .

ووضعت حكومة الولايات المتحدة يدها على جميع سفن المحور التى كانت قد اضطرت إلى البقاء فى موانيها خوفاً من الوقوع فى أسر الأسطول البريطانى أثناء عودتها إلى بلادها . ثم استحوذت أمريكا فى إبريل (سنة ١٩٤١) على

جزيرة جرينلند ، ووضعتها تحت حمايتها المؤقتة . ووهبت بريطانيا فى مايو خمسين سفينة لنقل البترول . واستولت على السفن الفرنسية اللاجئة بثغور الولايات المتحدة . وفى يونيو جمدت ثروات رعايا دولتى المحور ، وأغلقت جميع قنصلياتهما بالولايات المتحدة . واحتل الأسطول الأمريكى جزيرة أيسلند بالاشتراك مع البريطانيين .

ميثاق الأطلنطى

وتقابل الرئيس روزفلت ونستن تشرتشل فى ١٤ أغسطس فى خليج أرجنتيا Argentia Bay بجزيرة نيوفوندلند ، حيث وضعا « ميثاق الأطلنطى » Atlantic Charter الذائع الصيت الذى حوى « بعض المبادئ المشتركة التى بنت عليها الدولتان آمالها لإقامة عالم أفضل » فى المستقبل .

وتتلخص هذه المبادئ فى القضاء على التوسع الاستعمارى ، وعدم الموافقة على إجراء تغييرات فى حدود الدول لا تتفق ورغائب الشعوب صاحبة الشأن . ونادى الميثاق بحق كل أمة فى اختيار نوع الحكومة الذى ترضى به ، وبمنح الحكم الذاتى للشعوب المحرومة منه ، وتخويل جميع الدول ، دون تفرقة بين المنصورة والمقهورة منها — تخويلها الحصول على المواد الخام ، وتوفير التضافر الاقتصادى بين جميع الأمم . وأكد الميثاق نية الدولتين على السعى والجهاد فى سبيل تحرير العالم من الحروب ، ومن الخوف ، ومن العوز ، وكفالة حرية البحار لجميع الدول ، والامتناع عن استخدام القوة كأداة لتسوية الخلافات الدولية . والحق أن هذا الميثاق صورة مكرورة من نقط ولسن الأربع عشرة الشهيرة . فكأن الزعيمين بإعادتهما تسجيلها فى وثيقة رسمية فى هذه الظروف ، اعترفا بحكمة تلك المبادئ التى نادى بها وودرو ولسن قبل ذلك بربع قرن . وجاء ذلك شاهداً آخر على إخفاق العالم فى السير بمقتضاها خلال الفترة التى توسطت الحربين العالميتين .

توتر العلاقات بين اليابان والولايات المتحدة

وكان السبب المباشر لدخول الولايات المتحدة الحرب هو تطور الأحداث فى الشرق الأقصى ، وازدياد التوتر فى علاقاتها باليابان . فقد احتدمت المعارك فى الصين بين الجيوش اليابانية وجيوش شيانج كى شك . وكانت بريطانيا والولايات



المتحدة تمدان قوات الصين ببعض المعونة الحربية عن طريق بورما والملايو . فرغبت اليابان فى احتلال هاتين المستعمرتين البريطانيتين ، حتى تقطع تلك الطريق ، وتستغل مواردهما الطبيعية الكبيرة . ورنت أيضاً بناظرها إلى انتهاز فرصة انشغال الدول الاستعمارية العظمى فى الحرب ، فتحقق آمالها فى إقامة امبراطورية الشرق الكبرى التى كان يحلم اليابانيون بتشييدها .

ووجد زعماء اليابان العسكريون فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية حليفتين طبيعيتين . فأعلن وزير الخارجية اليابانية أن سياسة بلاده ستقوم على « معاهدة الدول الثلاث » : اليابان وألمانيا وإيطاليا . وطلبت اليابان من حكومة ڤيشى الضعيفة السماح لها ببناء مطارات فى الهند الصينية . فرضخت تلك الحكومة لذلك الطلب . فردت الولايات المتحدة على هذا الإجراء بتقديمها قرضاً للصين ، وفرضها حصاراً جزئياً على اليابان .

وبدأ التوتر يشتد بين الدولتين فى يوليه سنة ١٩٤١ حين أعلنت اليابان فى الخامس والعشرين منه أنها أخذت على عاتقها حماية مستعمرة الهند الصينية الفرنسية . فرد روزفلت فى اليوم التالى على ذلك الإعلان باتخاذه إجراءين خطيرى الشأن كبيرى الدلالة : فقد ضم القوات المسلحة لجمهورية الفلبين إلى جيش الولايات المتحدة ، وعين الجنرال دجلاس ماك آرثر Douglas Mac Arthur قائداً أعلى لقوات الولايات المتحدة فى الشرق الأقصى ، وأصدر أمراً بتجميد الأموال والممتلكات اليابانية فى الولايات المتحدة . واقتفت بريطانيا وهولندا على الفور أثره . فقُطع بذلك عن اليابان جميع مواردها من المطاط والحديد الخردة وزيت البترول .

فوطن حينئذ أقطاب العسكريين اليابانيين العزم على إعلان الحرب على تلك الدول فى خلال ثلاثة أو أربعة أشهر . ولكن الحكومة اليابانية أرسلت وفداً إلى الولايات المتحدة ، إما بغية إزالة أسباب الاحتكاك بين الدولتين ، وإما سعياً لكسب الوقت لاستكمال تأهبها الحربى .

معركة بيرل هاربر المباغتة

ولكن بينما كانت المفاوضات دائرة فى واشنطن بين الفريقين ، إذ سمع الأمريكيون وسائر أرجاء العالم دون سابق إنذار أن قاذفات القنابل اليابانية المنقولة على حاملات الطائرات أخذت فى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح يوم الأحد ٧ ديسمبر — أخذت تقذف الطرابيد وتمطر القنابل على الأسطول الأمريكى للمحيط الهادى الذى كان راسياً ساعتئذ بقاعدته البحرية الكبيرة فى بيرل هاربر بجزر هاواى . وبذلك قضت اليابان بضربة واحدة على التفوق البحرى الأمريكى فى ذلك المحيط .

وفى ظهر ذلك اليوم عينه هاجمت الطائرات اليابانية الخارجة من جزيرة فورموزا مطارات الجيش الأمريكى بالقرب من مانيلا ، فأنزلت بها خسائر مروعة .

إعلان الحرب

وأخذ القواد المحليون الأمريكيون ورجال الحكومة فى واشنطن على غرة تامة ، وكادت الأمة الأمريكية لا تصدق أنباء ذلك الهجوم الغادر . وسرعان ما انقلب عدم تصديقهم إلى غضب هائل وتصميم قاطع على الانتقام من « ذلك الهجوم الدنىء غير المستفز » . فقُطِعت المفاوضات على الفور . وأعلن الكنجرس فى اليوم التالى وجود حالة حرب مع اليابان . وبعد أيام ثلاثة أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة .

موقف الحلفاء العام

وكان موقف الحلفاء الحربى حينما نزلت أمريكا حومة الوغى — كان يبعث على شىء كثير من اليأس . فقد كانت جيوش هتلر المظفرة مسيطرة على أوربا الغربية ودول البلقان ، ومتوغلة فى قلب روسيا التى بدت لمعظم المراقبين كأنها تشرف على إلقاء سلاحها أمام قوة عدوها القاهرة . وكانت أسبانيا تخضع لسلطان دكتاتور عسكرى يدين إلى مدى كبير بوجوده فى منصة الحكم للمساعدات الحربية القيمة التى كانت دولتا المحور قد قدمتاها له ، ويتأهب فى أية لحظة للانحياز إلى جانبهما . وقد أوردت أسراب الغواصات الألمانية التى انتشرت فى المحيط الأطلنطى سفن الحلفاء موارد التهلكة . وأغلق البحر المتوسط فى وجه سفن الحلفاء ، فاضطرت إلى استخدام طريق رأس الرجاء الصالح

القديم فى أسفارها إلى مصر والهند . وغدا شمال إفريقية من تونس إلى حدود مصر الغربية خاضعاً لسلطان المحور . وهدد روميل تهديداً خطيراً مركز البريطانيين كله فى الشرق الأدنى . فكان يطمع فى الوصول إلى قناة السويس ، ومنها يقفز إلى فلسطين وسوريا . وبذلك يجبر – أكبر الظن – تركيا على الانحياز إلى جانب المحور . كما هددت ألمانيا القوقاز والعراق باجتياحهما .

نكبات الحلفاء فى الشرق الأقصى

وبالمثل أخذت النكبات الحربية فى الشرق الأقصى تتعاقب على الحلفاء الواحدة فى إثر الأخرى فى سرعة مخيفة خلال الأشهر الثمانية التالية لدخول اليابان الحرب . فانه فى اللحظة التى كانت تضرب الطائرات اليابانية الأسطول الأمريكى الراسى فى ميناء بيرل ضربة أقعدته عن العمل ، كانت قواتها البرية تنزل فى سيام وشمال شرق الملايو . ولم تطل مقاومة سيام أكثر من أربع وعشرين ساعة . ففتح سقوطها الطريق أمام الجيش اليابانى إلى الملايو . وفى ١٠ ديسمبر أغرق اليابانيون فى هجمة جوية صادقة البارجتين البريطانيتين The Repulse و The Prince of Wales ، فشُلّ السلاح البحرى البريطانى فى الشرق الأقصى ، وسهلت هذه النكبة على اليابانيين تحقيق جميع أهدافهم الرئيسية فى آسيا الجنوبية الشرقية . فسقطت هنج كونج فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤١ ، ورابول – القاعدة التى كانت تحمى أستراليا – فى يناير سنة ١٩٤٢ ، وسقطت سنغافورة التى كان البريطانيون قد أنفقوا على تشييد حصونها نيفاً وثلاثين مليون جنيه ، واعتمدوا عليها أكبر اعتماد فى الدفاع عن تلك الجهات – سقطت فى ١٥ فبراير بعد ضربها بالقنابل يومين . وسقطت ، الواحدة تلو الأخرى ، سومطرة وجافا وبالى وتيمور وغيرها من جزر الهند الشرقية الآهلة بالسكان الوادعين النشطين ، وذات الموارد الثمينة من آبار البترول والمزارع الكبيرة للمطاط . وبتسليم جافا فى ٩ مارس انهار انهياراً تاماً حاجز الملايو ، وأصبح الطريق البحرى إلى أستراليا مفتوحاً فى وجه اليابانيين .

سقوط بورما فى حوزة اليابانيين

وحول جانب من القوات اليابانية وجهته بعد سقوط الملايو إلى بورما ، حيث تقدم باطراد رغم المقاومة الصادقة التى لقيها من مقاتلى الحلفاء الذين كانوا

(٤٤)


الحرب فى الشرق الاقصى والمحيط الهادى
الصين
فرموزة
لوزون
مانلا
جزائر فلبين
سيام
رانجون
بحر الصين
بورنيو
نيوجينى
سنغافورة

يشملون بعض الكتائب الصينية . فبلغت القوات اليابانية فى وقت وجيز خليج مرتبان Martaban ، وأكرهت الجنود البريطانيين على الارتداد . وسقطت رانجون عاصمة بورما وأهم ثغورها فى السابع من مارس ، ومندلاى – المدخل الجنوبى لطريق بورما – فى أول مايو . وبلغت الجيوش اليابانية بعد ذلك بأسبوع أكياب Akyab على خليج بنغال .

ودافع الأمريكيون عن باتان وكوريجيدور دفاعاً باسلا مجيداً ، يعاونهم الجنود الفلبيون . ولكن اضطر الجنرال كنج King إلى التسليم مع جنوده البالغ عددهم ١٢,٥٩٠ أمريكياً ، وأكثر من ٦٠ ألف فلبينى ، والجنرال وينرايت Wainright إلى التسليم مع جيشه البالغ ١١ ألفاً من الأمريكيين ، ونيفاً وخمسين ألفاً من الفلبيين .

تقويض الامبراطوريات الاستعمارية

وبذلك تقوض فى أقل من ستة أشهر الجانب الأكبر من الامبراطوريات الاستعمارية الخاضعة لبريطانيا وهولندا والولايات المتحدة فى الشرق الأقصى . ولم يهوِ قط فى التاريخ الحديث مقام الجنس الأبيض وهيبته كما هوى إلى الدرك السحيق الذى انحدر إليه فى ذلك الحين . كما أنه لم تسمُ قط مكانة الشعوب الأسيوية وتعظم صولتها ، كما سمت مكانتها وعظمت صولتها فى شهر يونيو سنة ١٩٤٢ .

وقف الزحف اليابانى

ولكن قوة الدفع اليابانى فى بورما وصلت إلى منتهاها عند هذا الحد . وكان ذلك إلى درجة كبيرة نتيجة للأمطار الموسمية الغزيرة التى يشتد هطولها فى ذلك الفصل ، ولضرورة تعزيز اليابانيين مراكزهم وتوطيدهم أركان سيطرتهم على الفتوحات الكبيرة التى أتموها خلال هذه الأشهر الخمسة . وبذلك نجت الهند من الغزو اليابانى .

وكذلك وقف الزحف اليابانى فى جزر المحيط الهادى ، بعد أن استولوا على غينيا الجديدة وجزائر سليمان فى مارس سنة ١٩٤٢ ، ونزلوا فى ٨ إبريل بجزر الأميرالية Admiralty Islands . وما لبث الأمريكيون أن اتخذوا خطة الهجوم . فقاموا بغارات جوية على مراكز اليابانيين المتعددة ، ووجهوا فى ١٨ إبريل غارة جوية على طوكيو لم تحدث لأبنيتها سوى أضرار بسيطة ،

ولكنها ألقت بعض الذعر فى نفوس اليابانيين .

معارك بحرية كبيرة

وأصيب اليابانيون فى مطلع مايو بهزيمة بحرية كبيرة فى معركة بحر المرجان Coral Sea ، بينما كانوا يحاولون الاستيلاء على ميناء مورسبى Moresby ، وهى قاعدة ذات موقع استراتيجى هام فى غينيا الجديدة . وكان الجنرال ماك آرثر قد اتخذها نقطته التى سيبدأ منها « طريق العودة » . وكانت هذه الموقعة هى الأولى التى أحرز فيها الأسطول الأمريكى نصراً حاسماً فى الحرب العالمية الثانية ، كما كانت أيضاً المعركة البحرية الأولى فى تاريخ العالم التى قامت فيها الطائرات المحمولة على حاملات الطائرات بتدمير بوارج الخصم ، دون أن تشاهد أية سفينة من سفن الأسطولين المشتبكين فى المعركة سفن العدو .

ثم ثنى الأمريكيون هذا الفوز بنصر بحرى آخر أوتوه فى أوائل يونيو ، وأغرقوا فيه أربع حاملات طائرات يابانية كبيرة ، خلال هجوم اليابانيين على جزيرة مِدْواى . وكانت هذه المعركة من المعارك البحرية الفاصلة ، فقد حالت دون تنفيذ اليابانيين خططهم التى كانت ترمى إلى الاستيلاء على جزر كالدونيا الجديدة وفيجى وصاموا .

وتوقف القتال شهرين عمل كلا الفريقين المتحاربين فى غضونهما على تضميد جروحه ، والاستعداد للجولة التالية . وقد دامت هذه الجولة ستة أشهر من الاشتباكات الدموية البالغة العنف التى جرت على مقربة من بونا جونا Bona Gona فى غينيا الجديدة لامتلاك جزر جوادال Guadalcanal

معركة جزيرة سافرو

ويتعذر علينا أن نصف هنا تفصيلا جولات تلك المبارزة الطويلة الأمد البالغة الشراسة ، التى تعج بألوان البسالة وصنوف الشقاء . ولكن يكفى أن نشير إلى معركة جزيرة ساڤْرُو التى فيها باغتت فى الساعات الأولى من صباح ٩ أغسطس مجموعة من الطرادات اليابانية قسما من الأسطولين الأمريكى والأسترالى وكادت تدمره عن آخره . فقد أغرقت أربعة من الطرادات الأمريكية والطرادات الأسترالية الخمسة ، دون أن تصاب القوة البحرية اليابانية إلا بخسائر طفيفة . فكانت معركة جزيرة ساڤرو أسوأ هزيمة لحقت بالأسطول الأمريكى فى تاريخ

البحرية الأمريكية ، وكان لها نتائج بعيدة الآثار . كذلك نشبت معارك حامية بين حاملات الطائرات فى جزر سليمان الشرقية (٢٤ أغسطس) وعند جزر سانتا كروز (٢٦ — ٢٧ أكتوبر) ، كما كانت تنشب معارك جوية كل يوم تقريباً فى غضون تلك الأشهر الستة .

معركة جوادال

وأخيراً التحم الأسطولان الأمريكى واليابانى فى معركة جوادال المروعة (١٢ — ١٥ نوفمبر) . وقد خسر فيها الأمريكيون طرادين وسبع مدمرات ، وفقد اليابانيون بارجتين وطراداً ومدمرتين وعشر نقالات . فزخر الأمريكيون ثقة فى النتيجة النهائية للنضال . وما جاء ٩ فبراير سنة ١٩٤٣ حتى كان اليابانيون قد أخلوا جزر جوادال .

تعادل كفتى الفريقين المتحاربين

ومع أن اليابانيين بزوا فى بادئ دخولهم الحرب الألمانَ أنفسهم فى سرعة زحفهم وقوة بطشهم ، ومع أن دول المحور كانت تحتل حتى صيف سنة ١٩٤٢ مساحات شاسعة من أراضى أعدائها ، فإن هذا النضال العالمى الضروس بدا للمراقب غير المتحيز كأنه ناشب بين قوتين تكادان تكونان متعادلتين . فى الكفة الواحدة نرى ألمانيا وإيطاليا واليابان وعدداً من الدول الصغيرة التى سارت فى فلكها ، وفى الكفة المقابلة نرى بريطانيا ومستعمراتها المستقلة ذوات الموارد الطبيعية الهائلة ، وروسيا ، والولايات المتحدة ، والصين ، ومعظم دول أمريكا الجنوبية .

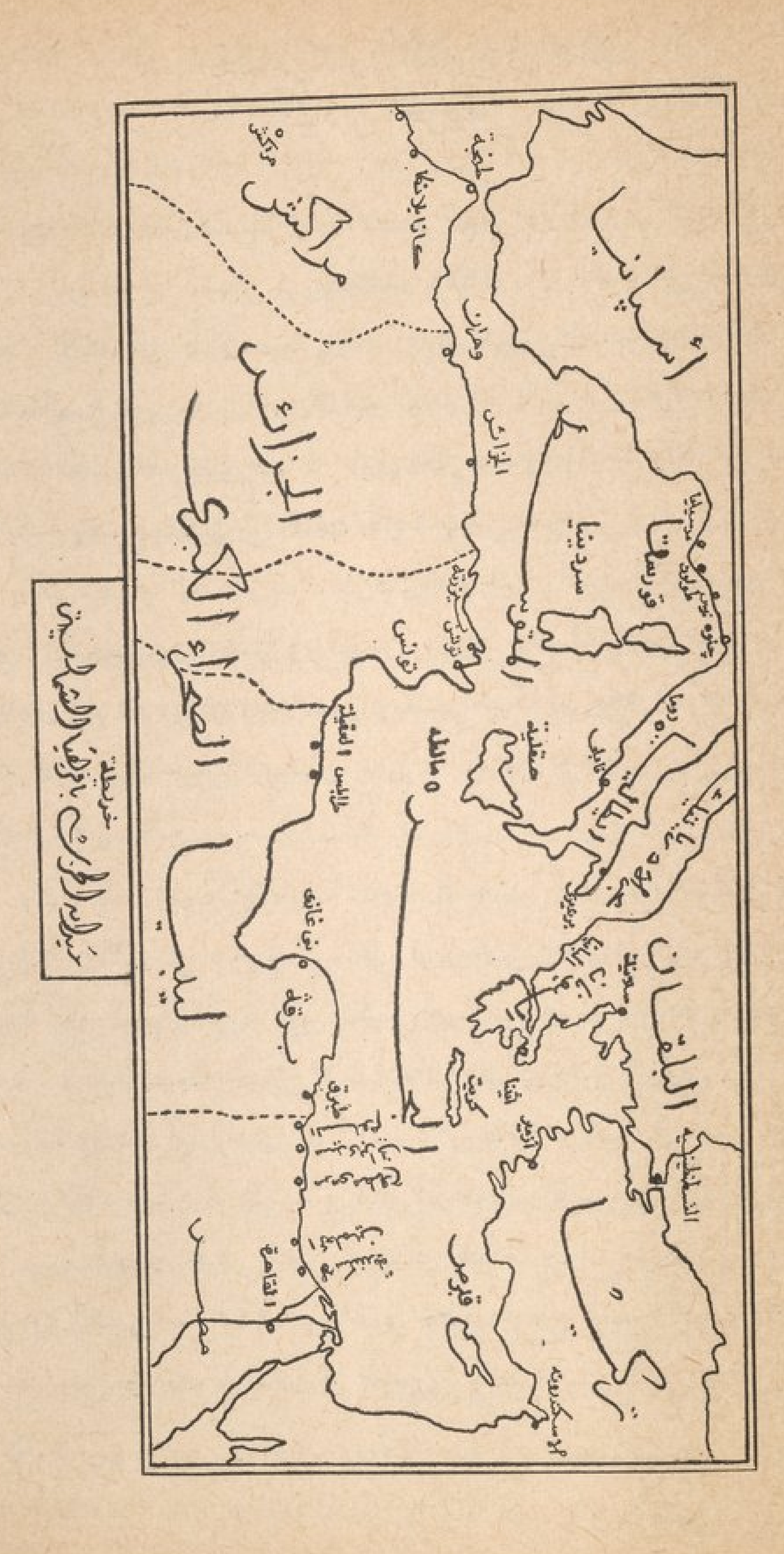
وكان للحلفاء تفوق ظاهر فى عدد المقاتلين الذين يستطيعون إنزالهم إلى ساحات الوغى ، والعمال الذين ينتجون العتاد الحربى . غير أنه خفّض إلى حد ما من قيمة هذا التفوق استيلاء ألمانيا واليابان على مساحات شاسعة جداً من أراضى أعدائهما الآهلة بالسكان الغنية بالموارد الطبيعية . وبذلك أمكن للألمان واليابانيين أن يسخروا للعمل بمصانعهم الحربية ملايين العمال من الأمم الخاضعة لهم ، وأن يستغلوا قمح أوكرانيا ورومانيا ، وبترول رومانيا وجزر الهند الشرقية ، ومناجم القصدير ، ومزارع المطاط ، والكينين فى بلدان الشرق الأقصى .

وكان الحلفاء فى الكفة الأخرى يسيطرون على الجزء الأكبر من موارد البترول والحديد فى نصف الكرة الغربى . كذلك كانوا يتفوقون على أعدائهم

فى أمرين خطيرين : الأول ، فى تضافرهم وتمكنهم من توحيد صفوفهم . فلم يكن فى داخل بلادهم طوابير خامسة تخدم الخصوم ، ولا مثيرو فتن وقلاقل ، ولا قوات مقاومة ، كالذين غصت بهم الأقطار التى احتلتها دول المحور مثل فرنسا و بولندا واليونان ويوغسلافيا ، ولا متآمرون كهؤلاء الذين حاولوا اغتيال هتلر وقلب حكومته فى أول صيف سنة ١٩٤٤ ، مما بعثر جهود تلك الدول واستنزف قواتها .

وكان الأمر الثانى الذى تفوق فيه الحلفاء توفيقهم الفريد فى مجال الزعامة . فقد وجدت بريطانيا خلال أشد ساعات محنتها أعظم زعيم حربى تولى تسيير دفتها منذ عهد لورد تشاتم : وذلك فى شخص ونستن تشرتشل . وكذلك حالف التوفيق الأمريكيين فى أن قاد صفوفهم فرنكلن روزفلت الذى أوتى قسطاً وافراً من قوة العزيمة وصلابة الإرادة ، والحنكة السياسية والخبرة الحربية . وكان كلا الزعيمان محبوباً فى بلاده ، وفى بلاد حلفائه ، ظافراً بثقة شعوبها .

أما دول المحور فلم تتمكن من أن تحقق فيما بينها اتحاداً حقيقياً فى الأهداف السياسية ، أو توحيداً للخطط الحربية ، أو اشتراكاً فى إنتاج الأسلحة ، أو تبادلا للأسرار العلمية . وكانت إيطاليا بالوعة استنزفت جانباً كبيراً من قوة حليفتها ألمانيا . وقاتلت اليابان فى ميادينها الخاصة ، لتحقيق مصالحها الخاصة ، دون أن تحفل بالمصالح الألمانية . مثال ذلك ، كان الهجوم اليابانى على ميناء بيرل مخالفاً لرغبات هتلر والقيادة العليا الألمانية اللذين كانا يرومان أن تترك اليابان أمريكا جانباً ، ولو إلى حين ، وأن تنقض على روسيا فى ميادين الشرق . ولم تكن حتى خطط الجيش اليابانى متناسقة مع خطط الأسطول اليابانى . ولم يكن لدول المحور هيئة أركان عليا موحدة توفق بين أعمال جيوشها المتعددة فى ساحات القتال بقارات أوربا وإفريقية وآسيا .



خريطة
ميدان الحرب بأفريقيا الشمالية

٧ – الحلفاء يبدأون الهجوم فى مختلف الميادين الحربية

تسليم طبرق

بينما كان ونستن تشرتشل يتحادث مع الرئيس روزفلت فى البيت الأبيض خلال زيارة قام بها لوشنطن فى يونيو سنة ١٩٤٢ ، إذ انقض على مسامعه نبأ استيلاء الألمان على طبرق بليبيا . ولقد اعترف تشرتشل لخاصته يومئذ بأنه يعد نفسه « أتعس انجليزى زار أمريكا منذ أن سلم الجنرال برجوين قواته لعدوه[١] » . ذلك أن الجيش البريطانى فقد فى طبرق معظم دباباته وكميات هائلة من العتاد والمؤونة ، وأصبح الطريق إلى القاهرة وقناة السويس مفتوحاً .

ولكن الجنرال ألكسندر القائد البريطانى العام لجيوش الشرق الأدنى ، ومساعده الجنرال منتجومرى ، تحصنا فى العلمين ، وهو موقع استراتيجى منيع يساعد المدافعين على الصمود فى وجه العدو . وبعثت أمريكا على وجه السرعة أربعمائة دبابة كبيرة إلى الجيش البريطانى بمصر ، فأمكن له وقف رومل فى زحفه الخاطف صوب النيل .

وكان قادة انجلترا والولايات المتحدة قد وصلوا أثناء زيارة تشرتشل هذه إلى اتفاق بشأن شن هجوم كبير على قوات دولتى المحور فى شمال إفريقية ، تمهيداً لفتح الجبهة الغربية التى كانت روسيا تلح عليهما مشددة بفتحها فى أوربا ، تخفيفاً لضغط الجيوش الألمانية الهائل عليها فى الجبهة الشرقية .

واتُّفِق على أن تزحف غرباً القوات البريطانية فى مصر فى نفس الوقت الذى يغزو فيه جيش أمريكى – بريطانى المستعمرات الفرنسية فى شمال إفريقية .

معركة العلمين الفاصلة

وبدأ هجوم الجيش الثامن البريطانى بقيادة الجنرال منتجومرى فى ليل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، فاخترق خطوط الدفاع الرئيسية للقوات الألمانية بقيادة رومل بعد معركة حامية فى العلمين . وأخذ الجيش الثامن يجرف أمامه

(١) إشارة إلى تسليم هذا القائد البريطانى للجنرال جيتس Gates الأمريكى فى معركة ساراتوجا سنة ١٧٧٧ خلال حرب الاستقلال الأمريكية .

الألمان باطراد ، ودون توقف . فطاردهم ١٣٥٠ ميلا فى اثنين وثمانين يوماً .
واستعاد طبرق فى ١٢ نوفمبر ، وسقطت فى يده العقيلة فى ١٤ ديسمبر ، وطرابلس
فى ٢٣ يناير سنة ١٩٤٣ . واضطر روميل إلى الاحتماء بخط مارِتْ Mareth
الحربى وراء حدود تونس ، وهو منطقة كان الفرنسيون قد حصنوها تحصيناً
منيعاً ، كى يتقوا من ورائها هجمات الإيطاليين .

نزول قوات الحلفاء بافريقية الشمالية الفرنسية

ونزلت القوات الأمريكية والبريطانية التى جاءت من الأطلنطى لاحتلال
إفريقية الشمالية الفرنسية — نزلت على مقربة من كازابلنكا ووهران والجزائر فى
الثامن من نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، وتمكنت من الاستيلاء على هذه البلدان دون أن
تلق أية مقاومة تقريباً من الفرنسيين . وإن كان هؤلاء لم يظهروا سوى رغبة زهيدة
فى التعاون مع الغزاة .

احتلال بقية الأراضى الفرنسية

وكان رد الألمان على نزول الحلفاء بشمال إفريقية أن بعثوا بقواتهم إلى تونس ،
واحتلوا فى ١١ نوفمبر جميع الأراضى الخاضعة لحكومة ڤيشى ، فيما عدا طولون
التى كان يرسو بمينائها الأسطول الفرنسى . ولكن الألمان دخلوا هذا الثغر بعد
ذلك بأسبوعين بقصد الاستحواذ على الأسطول خوفاً من فراره إلى الحلفاء .
غير أن الفرنسيين آثروا إغراقه بأيديهم .

وواجه روميل الآن قوات العدو الزاحفة من جهتين : الجيش الثامن البريطانى
من الشرق ، والجيش الأول البريطانى يعاونه فرقة أمريكية وعدد من الكتائب
الفرنسية من الغرب . وقد حاولت القوات الألمانية مرتين : الأولى فى فبراير ،
والثانية فى أوائل مارس سنة ١٩٤٣ — حاولت بشنها هجمات عنيفة أن تحدث
التواء فى خط هجوم الحلفاء فى جنوب تونس . ولكنها أخفقت فى كلتا المرتين .

تتابع هزائم الألمان

ومن ثم تتابعت هزائم الألمان ، واضطروا إلى الارتداد بلدة بلدة وموقعاً
موقعاً أمام جيوش أعدائهم المظفرة . فى ليلة ٢٠ مارس هجم الجيش الثامن
هجمة صادقة على خط مارت واخترقه . وما جاء اليوم السابع من ابريل حتى
تم اتصال جيوش الحلفاء الزاحفة شرقاً وغرباً بعضها ببعض. وفى ٥ مايو قام
الحلفاء بهجمة شديدة أنهت القتال فى ميدان شمال إفريقية . فدخلت الكتائب

الأمريكية بيزرته ، ودخل الجيش الأول البريطانى تونس فى ٧ مايو . ولم يمض أسبوع بعد ذلك حتى استسلمت جميع قوات المحور فى ذلك الميدان لأعدائها . وقد بلغ عدد الأسرى منها نحو ربع مليون جندى كانوا يؤلفون بعضاً من خيرة الكتائب الألمانية والإيطالية .

مصرع روم

وتمكن روم من الفرار جواً مع عدد قليل من كبار معاونيه إلى ألمانيا ، حيث وكل إليه هتلر إعداد العدة لمقابلة نزول جيوش الحلفاء المرتقب بفرنسا . ولكنه لقى مصرعه فى صيف سنة ١٩٤٤ . وقد تضاربت الروايات فى كيفية مقتله . فمن قائل أن هتلر أجبره على اكتراع السمّ حين كشف ضلعه فى المؤامرة التى دبرت لاغتياله فى يولية سنة ١٩٤٤ ، وإقصاء النازيين عن كراسى الحكم . أما الرواية الرسمية فأعلنت أنه قُتل فى حادث اصطدام جرى لسيارته خلال غارة جوية للحلفاء .

نزول قوات الحلفاء بايطاليا

وكان من أهم نتائج النصر الكبير الذى أوتى لقوات الحلفاء انهيار روح الإيطاليين المعنوية ، وقعوسهم عن القتال ، ونشاط المتآمرين على موسولينى للقضاء على نظام حكمه . وعمل الحلفاء على تطهير البحر الأبيض المتوسط من قوات العدو البحرية حتى يمكن لهم إعادة استخدامه فى نقل مقاتليهم ومهماتهم . فهجموا فى أوائل يونيو سنة ١٩٤٣ على جزيرتى بنتلاريا Pantellaria ، ولمبيدوسا Lampedusa الحصينتين ، واستولوا عليهما . ثم نزلوا بصقلية . وما اختتم شهر أغسطس حتى كانت تلك الجزيرة بأكملها قد وقعت فى أيديهم .

سقوط موسولينى

وكان موسولينى قد استقال من منصبه فى ٢٥ يوليه . ثم ألقى القبض عليه وسجن فى معتقل خاص . وخلفه فى رياسة الحكومة المارشال بادليو Badoglio فشرع على الفور فى فتح مفاوضات سرية لعقد هدنة بين بلاده والحلفاء . وقد أمضيت هذه الهدنة فى ٣ سبتمبر ؛ وكان من أهم شروطها استسلام الإيطاليين بدون قيد أو شرط ، وتوقف قواتهم البرية عن القتال ، وتسليمهم أسطوليهم البحرى والجوى إلى الحلفاء ، وضمانهم استخدام الحلفاء لجميع الموانى والمطارات الإيطالية .

وما درى الألمان بخبر هذه الهدنة ، حتى احتلوا رومة فى ١٠ سبتمبر ، وسيطروا على جميع مرافق البلاد ، ولا سيما فى الشمال . ففر المارشال بادوليو ورجال حكومته إلى مراكز الحلفاء ، وأعلنوا الحرب على ألمانيا ، وعُدت إيطاليا دولة محاربة فى صفوف الحلفاء .

نزول البريطانيين والأمريكيين فى إيطاليا

ونزل البريطانيون فى كالبريا بجنوب إيطاليا فى ٣ سبتمبر ، ونزل الأمريكيون فى سالِرْنو جنوب نابلى فى ٩ سبتمبر . فركز الألمان فوراً قواتهم فى قطاع سالرنو. وزحفت وحدات من الجيش الثامن البريطانى ، واستولت على مدن تارنتو وبرنديزى وبارى ، واتصل البريطانيون بالأمريكيين ، وقاموا معاً بهجمات صادقة طردت الألمان من سالرنو . وسقطت نابلى فى أول أكتوبر فى أيدى الأمريكيين . فتراجع الألمان للاحتماء بخط دفاعى أقاموه عند نهر الفُلْتورنو . ولكن تمكن الأمريكيون فى منتصف أكتوبر من عبور النهر ، ودفعوا الألمان أمامهم إلى ما وراء نهر الجارليانو .

معركة كاسينو

وفى ٢٠ يناير سنة ١٩٤٤ عبرت قوات الحلفاء نهر الجارليانو ، وأنزلوا بعد ذلك بيومين بعض كتائبهم فى أنزيو Anzio ، كى يقطعوا على مؤخرة الألمان خط الرجعة . ولكن استطاع المارشال كسلرنج Kesselring القائد الأعلى للجيوش الألمانية بإيطاليا من أن يوقف تقدم الحلفاء قرابة أربعة أشهر فى الإقليم الجبلى القريب من كاسينو . إذ لم تتمكن جيوش الحلفاء من إقصاء غريمها من مواقعه المنيعة إلا فى مايو ، حينما أكرهته على التقهقر العاجل صوب الشمال . وسقطت رومه فى أيدى الجيش الخامس الأمريكى فى ٤ يونيو أى قبل يومين من نزول الحلفاء فى نورمنديا بشمال فرنسا .

تتابع سقوط المدن الإيطالية

ومن ثم أخذ يترى باطراد سقوط البنادر والمدن الإيطالية فى قبضة الحلفاء . فسقطت لجهورْن فى يوليو ، وفلورنسا فى ١١ أغسطس ، وبيزا فى أول سبتمبر ، وريمينى فى الثانى والعشرين منه ، وراڤنا فى أوائل ديسمبر .

استسلام الألمان

وأوقف سوء الأحوال الجوية وزمهرير الشتاء زحف الحلفاء البطىء — ولكنه الزحف المطرد — خلال شهور الشتاء . ولكنهم بدأوا فى العاشر من إبريل

سنة ١٩٤٥ المرحلة الأخيرة من الحرب فى إيطاليا ، فهاجموا الألمان من كلا جانبى شبه الجزيرة . فسقطت بولونا ، ثم جنوه . وعلى الأثر انهارت دفعة واحدة قوى الألمان . وأخذوا يستسلمون فى أعداد كبيرة . فأرسل كسلرنج مندوبين عنه كى يفاوضوا الحلفاء فى شروطهم ، وقد وقعوها فى ٢٩ إبريل . وبمقتضاها سلم الألمان أنفسهم ، وألقوا بأسلحتهم دون قيد أو شرط ، وتوقفوا عن القتال فى الثانى من مايو .

إعدام موسولينى

وكان الألمان قد عرفوا مكان موسولينى . فبعثوا جوا بسرية من الجنود الفدائيين أنقذته من سجنه . وألف موسولينى حكومة إيطالية مناصرة لهم . وعند انحسار قوتهم ، اضطر إلى التقهقر معهم . وأخيراً تمكنت إحدى كتائب المقاومة الإيطالية من إلقاء القبض عليه فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٤٥ مع نفر من أنصاره الفاشستيين فى بلدة دُنجو على بحيرة كومو ، حيث أجريت له محاكمة صورية ، وحكم قضاته عليه بالإعدام . فأعدم هو وبعض رفاقه رمياً بالرصاص . وعلقت جثثهم فى بعض ميادين كومو وميلان المقر القديم لرياسة الحزب الفاشستى .

الروس يبدأون زحفهم الكبير

وكان الأمريكيون والبريطانيون قد أرسلوا كميات ضخمة من العتاد الحربى إلى الروس عن طريق إيران وبحر قزوين ، وذلك بعد أن احتلت قوات بريطانية وروسية مواقع استراتيجية فى إيران فى أغسطس سنة ١٩٤١ .

وما أشرف عام ١٩٤٢ على الانتهاء حتى كان الزحف الألمانى الهائل على الأراضى الروسية قد بدأ فى الانحسار ، وتحول المد بعد هزيمة الألمان الدموية فى ستالنجراد إلى ارتداد عاجل . فأكرهوا على الجلاء عن القوقاز . ثم طُردوا من حوض الدونتز ، واسترجع الروس مدينة خاركوف .

ارتداد الألمان المطرد فى جميع القطاعات

وكذلك تحول الروس فى القطاع الشمالى إلى الهجوم . وما جاء منتصف يناير سنة ١٩٤٣ حتى كانوا قد تمكنوا من رفع الحصار عن لننغراد . وهجم المارشال تيموشنكو هجمة ظافرة فى نهاية فبراير على الألمان فى جنوب بحيرة إلمِن ، وحرر موسكو من تهديد الألمان لها ، وهو التهديد الذى ظل مصلتاً عليها منذ أواخر سنة ١٩٤١ .

وكانت هجمات الروس فى جبهاتهم متفقة فى توقيتها مع هجمات الحلفاء فى شمال إفريقية ، ثم فى إيطاليا . وأوقف الشتاء الروسى بزمهريره الشديد القتال فى جميع القطاعات . ثم استؤنف الصراع الهائل فى يوليه سنة ١٩٤٣ بهجمة ألمانية قام بها الألمان على نتوء كورْسك Kursk . فشن الروس هجمات مضادة بالغة العنف على طول الجبهة الممتدة من أورِلْ Orel إلى البحر الأسود . وأخذ الروس يتقدمون تقدماً مطرداً . فاستردوا سمولنسك فى أواخر سبتمبر ، وكييف فى ٦ نوفمبر . وجرفوا الألمان أمامهم إلى خط الدنيبر جنوباً . وما انصرمت سنة ١٩٤٣ حتى كان الجيش الروسى قد حرر فعلا ثلثى الأراضى التى كان الألمان قد احتلوها من أرض الوطن .

وحول الروس هجومهم الرئيسى فى يناير سنة ١٩٤٤ إلى الجبهة الشمالية ، حيث اخترقوا خطوط الألمان حول لننغراد ، وأكرهوهم على الارتداد من مواقع ظلت فى قبضتهم منذ سنة ١٩٤١ . فاضطرت القوات الألمانية إلى الانسحاب حتى نهر النارڤا وولايات البلطيق .

وفى الوقت عينه واصل الروس تقدمهم المطرد فى قطاعات أخرى من ميدان الحرب . فسقطت رَڤنو ولوك فى أوائل فبراير سنة ١٩٤٤ ، وطُرد الألمان من أكرانيا ، ومنوا بهزيمة كبرى بالقرب من كورسون حيث تمكن الروس من تطويق عشر فرق ألمانية وإبادتها قتلا وأسراً . واستمر النصر حليف الروس خلال شهر مارس ، قبل أن ينهمر المطر وتذوب الثلوج التى تغطى الأرض ، فيجبر المتحاربون على وقف القتال حتى حلول الصيف . فعبروا أنهار بوج ودنيستر وبروث ، وانتزعوا أودسا فى ١٠ إبريل .

ثم غزا الروس شبه جزيرة القرم ، واستعادوها بأكملها فى أسبوع ، فيما عدا سيباستبول التى امتنعت عليهم حتى أوائل شهر مايو . وبذلك اقترب الروس من الأراضى الألمانية والممالك البلقانية التى كانت تدور فى فلكها . ففى الشمال وقف الروس على حدود إستونيا ، وفى الوسط وصلوا إلى مقربة من حدود بولندا ، وفى الجنوب تجاوزوا حدود رومانيا .

٨ ـ الحرب الجوية فى غرب أوربا

رأى البريطانيون والأمريكيون أن يمهدوا لفتح الجبهة الغربية بأوربا بإنفاذ غارات جوية هائلة لضرب الجسور والسكك الحديدية والموانى والقنوات والمصانع فى ألمانيا وفرنسا ضرباً متواصلا لا هوادة فيه ولا رحمة لعرقلة طرق النقل، والقضاء على الإنتاج الألمانى ، وإلقاء الفزع فى قلب غريمهم .

وأخذ الحلفاء فى بادئ الأمر يقومون بغارات جوية فتاكة على أهداف معينة فى ألمانيا والأقطار التى احتلتها . وازدادت باطراد تلك الغارات كثرة فى العدد ، واتساعاً فى النطاق ، وشدة فى التدمير ، منذ ربيع سنة ١٩٤٢ . فأمطرت الطائرات البريطانية بالقنابل مصنع آلات الديزل فى أوجزبرج فى إبريل . وفى ليل ٣٠ مايو بدأت الغارة الأولى من سلسلة الغارات الكثيرة التى كانت الواحدة منها تتألف من ألف قاذفة قنابل أو أكثر حينما أغار البريطانيون على كولون . ثم تعاقبت غاراتهم على المدن الصناعية : إسنْ وبرمنْ وأسنابرْيك الألمانية .

ثم جاء دور الأمريكيين ، فبدأوا فى يناير سنة ١٩٤٣ سلسلة من الغارات النهارية الكبيرة التى كانت كل غارة منها تتألف من عدد هائل من قاذفات القنابل الضخمة . واستُخدِمت فى تلك الغارات قنابل أعظم فتكاً وطرق جديدة أدق إحكاماً فى إصابة المرمى. وزود الحلفاء انتصاراتُهم فى البحر الأبيض وإيطاليا بقواعد جوية أقرب إلى الأهداف الواقعة فى وسط ألمانيا ومواقع استخراج البترول فى رومانيا .

واستمرت هذه الغارات الجوية الكبيرة طوال سنة ١٩٤٣ ، وازدادت عنفاً وتدميراً فى العام التالى . ولقد استمر تفوق الحلفاء فى الجو دون منازع إلى أن وضعت الحرب أوزارها . وتبدو ضخامة الحرب الجوية التى شنوها فى غرب أوربا من الأرقام التالية. فقد أرسلت القوتان الجويتان البريطانية والأمريكية خلال الحرب ١,٤٤٢,٢٨٠ من قاذفات القنابل و ٢,٦٨٦,٨٠٠ طائرة مقاتلة . وألقت هذه القاذفات ٢,٦٩٧,٤٧٣ طناً من القنابل والمتفجرات على الأراضى

الألمانية والأقطار التى احتلتها . وقد ألقى أكثر من نصف هذه الكمية على ألمانيا ، ونحو السبع على مراكز الألمان بفرنسا ، ونحو السبع أيضاً على إيطاليا . وبلغ مجموع الرجال من طيارين ومهندسين وغيرهم من الذين استخدموا فى طيرانها ١,٣٣٥,٠٠٠ رجل ، وفقد الحلفاء خلال غاراتهم أكثر من أربعين ألف طائرة ، و ١٥٨,٠٠٠ طيار . وخسر الألمان خلال الحرب ٥٧,٠٠٠ طائرة ، وقتل منهم نحو ٣٠٠,٠٠٠ رجل . وقتل وأصيب فى ألمانيا من جراء هذه الغارات نحو مليون شخص من المدنيين . ودمر فيها ٣,٦٠٠,٠٠٠ بيت ومبنى تدميراً كلياً ، كما خربت كل مدينة كبيرة ألمانية تخريباً كاد يكون تاماً .

ولقد أبدى الألمان حقاً رباطة جأش وبسالة وتجلد وقوة احتمال نادرة المثال . واحتفظوا إلى آخر الشوط المرير بروح معنوية رفيعة . واستمروا يواصلون أعمالهم الحربية وواجباتهم المنوطة بهم فى مختلف ميادين الصناعة ، رغم الخراب الشامل الذى أحاط بهم من كل جانب — واصلوا القيام بأعمالهم إلى ما قبيل وضع الحرب أوزارها . مثال ذلك أنتجت ألمانيا سنة ١٩٤٢ ١٥ ألف طائرة ، وسنة ١٩٤٣ ٢٥ ألف طائرة ، وسنة ١٩٤٤ ٤٠ ألف طائرة و ٣٥٧ غواصة ، رغم الغارات الجوية الهائلة التى أمطرتهم تدميراً وموتاً ورعباً طيلة هذه السنين . ومع أن طائرات الحلفاء ألقت نحو ٢٠ ألف طن من القنابل على مصانع المطاط الصناعى الألمانية ، فقد ازداد إنتاج هذا المطاط اطراداً حتى صيف سنة ١٩٤٤. وبالمثل استمرت الزيادة اطراداً فى صنع الصلب والمصفحات والمتفجرات . ولكن غارات الحلفاء الجوية أثرت تأثيراً حاسماً فى إنقاص كمية البترول الصناعى الذى أنتجته ألمانيا ، وفى عرقلة طرق النقل .

استخدام القنابل الصاروخية

وفى المرحلة الأخيرة من هذه المبارزات الجوية الضخمة التى جرت فى سماء غرب أوربا ، استخدم الألمان مقذوفات ضخمة هى عبارة عن قنابل طائرة نفاثة ذات مدى بعيد رُمز إليها اصطلاحاً بحرف ف « V » ، ثم استخدموا فيما بعد نوعاً آخر من القنابل الصاروخية ذات السرعة الهائلة عُرفت بحرف ف ٢ « V2 » . وكان الألمان يطلقون هذه المقذوفات الصاروخية من قواعد شيدوها

على طول شواطىء فرنسا وبلجيكا وهولندا على القنال الانجليزى وبحر الشمال .

ولكن كان قد نمى خبر هذا السلاح الرهيب إلى سمع أقلام المخابرات البريطانية . فركز السلاح الجوى البريطانى جهداً كبيراً فى مهاجمة وتدمير مصانع تلك المقذوفات وقواعدها . ولكن رغم الاحتياطات الكثيرة التى اتُخذت ، أخذ الألمان يرشقون لندن بهذه القنابل الطائرة من ١٣ يونيو سنة ١٩٤٤ ، أى بعد نزول قوات الحلفاء على ساحل نورمنديا بسبعة أيام . ثم بدأت الهجمات الأولى بالقنابل الصاروخية فى ٨ سبتمبر . ولقد ألحقت هذه المقذوفات خسائر كبيرة بأرواح الانجليز وأملاكهم ، حتى قضى الحلفاء على خطرها فى شهر أكتوبر ، حين أكملوا احتلال مملكتى الأراضى المنخفضة .

٩ – الطور الأخير للحرب

الاستعداد لفتح الجبهة الغربية

وها هى ذى الحرب المدمرة المروعة تقترب فى خطى حثيثة من ألمانيا ذاتها . فقد أخذت بريطانيا وأمريكا تعملان فى همة ونشاط هائلين لإعداد العدة لفتح الجبهة الغربية لتحرير الممالك التى سطا عليها الألمان فى حروبهم الخاطفة فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، ولنقل ميدان القتال إلى عقر دارهم ذاتها . فعين الجنرال أيزنهاور فى ديسمبر سنة ١٩٤٣ قائداً أعلى لقوات الغزو ، وعين الجنرال منتجومرى قائداً للجيوش البريطانية التى تحت إمرة أيزنهاور .

وبدأ غزو الحلفاء فى صباح ٦ يونيو سنة ١٩٤٤ ، حينما أخذوا ينزلون جنودهم على الساحل الشمالى الفرنسى بين شربورج والهافر . وكانت قد اتخذت جميع الاستعدادات الممكنة لتسهيل عملية نزول الجنود ونقل المهمات الحربية إلى البر . فصنع فى بريطانيا مرفآن صناعيان هائلان ، ونقلا قطعاً عبر القنال الإنجليزى ، وجُمعت أجزاؤهما على رقعة من الشاطىء الفرنسى .

وكان الحلفاء يسيطرون على البحر والجو . وقد مكنهم تفوقهم الجوى من تدمير مواصلات العدو وموارده ، ومكنهم تفوقهم البحرى من إرسال العتاد والمؤونة والأمداد إلى قواتهم الغازية دون عناء كبير .

وبدأ الحلفاء عملية الغزو بإرسالهم جواً قوات كبيرة من الجند المدربين ، أمكنهم أن ينتزعوا فى وجيز وقت رقعة من أرض الساحل اتخذوها قاعدة بحرية بعد أن وطدوا أقدامهم بها . ثم وجهوا اهتمامهم إلى انتزاع شربورج وكاين من حوزة القوات الألمانية . فاستولى الأمريكيون فى ٢٦ يونيو على شربورج ، وانتزع البريطانيون كاين فى ٩ يوليه بعد قتال مرير . وبذلك امتلك الحلفاء مرفأين كبيرين على ساحل نورمنديا مكناهم من إنزال جنودهم وعتادهم فى سهولة تامة .

ومن ثم أخذ سقوط المدن الفرنسية يتوالى فى تعاقب سريع . فاستولى جيش أمريكى على سان لو ، وسقطت نانت فى ١٠ أغسطس . وبعد أسبوع حُررت سارتر وأورليان . وأحرز الجنرال منتجومرى انتصاراً حاسماً على مقربة من فاليز ، وعبرت وحدات بريطانية نهر السين فى ٢٥ أغسطس ، وطاردت الألمان إلى السوم . وحرر أعضاء حركة المقاومة السرية الفرنسية قصبة البلاد فى ٢٣ أغسطس ، ودخل الجنرال ديجول قائد القوات الفرنسية التى تحارب فى جانب الحلفاء — دخل بعد يومين باريس دخول الظافر المنصور .

تحرير باريس

نزول الحلفاء بساحل فرنسا الجنوبى

وفى نفس الوقت تقريباً الذى اخترق فيه الحلفاء خطوط الألمان إلى نهر السين ، أنزلوا جنودهم على ساحل الرفييرا الفرنسى بين طولون ونيس . فأبدى الألمان هناك مقاومة ضعيفة نسبياً . وبعد أن وطد الحلفاء مراكزهم على شاطئ فرنسا الجنوبى ، شرعوا يطاردون الألمان فى غير مهاودة . فسقطت طولون ومارسيليا فى أواخر أغسطس ، وليون فى ٣ سبتمبر . وما انتصف ذلك الشهر حتى كانت معظم أراضى فرنسا — فيما عدا موانى الأطلنطى ومقاطعتى الألزاس واللورين — قد حُررت .

جلاء الألمان عن بلجيكا وهولندا

ثم أخذ الحلفاء يشددون ضغطهم على الجيش الألمانى الذى يحتل بلجيكا وهولندا . ذلك أن القوات البريطانية والكندية كانت قد استحوذت على أميان ، وعبرت السوم ، واستولت على آراس ، واجتازت حدود بلجيكا ، وحررت بركسل فى ٣ سبتمبر ، وأنتورب فى اليوم التالى . وانضمت فى ٥ سبتمبر الجنود الأمريكية

بعد تحريرها شارلروا ونامور إلى الجيش البريطانى . وفى منتصف سبتمبر وصلت قوات الحلفاء إلى نهر الألماس والرين الأدنى . ووقع جنوب هولندا فى قبضة البريطانيين . ووصلت القوات الفرنسية إلى مالهوزن ، واستحوذ الأمريكيون على ستراسبورج . وبذلك وصل الحلفاء إلى حدود ألمانيا الغربية ، حيث عقد الألمان تصميمهم على الوقوف فى وجه العدو وقفتهم الأخيرة . فأسقط الحلفاء من طائرات كبيرة جنودهم فى جنوب شرق هولندا كى يظفروا بمعبر للنهرين الآنفين ، وكى يطوقوا خط سيجفريد من الشمال . ولكنهم أخفقوا فى هذا المسعى . وبطؤ تقدمهم فى منتصف أكتوبر . ذلك أن خطوط أمداداتهم طالت كثيراً ، وابتعدت مسافات كبيرة عن المراكز الرئيسية لتموينهم . فتوقفوا هنيهة كى يركزوا قواتهم لعبور نهر الرين والتقدم فى الأرض الألمانية .

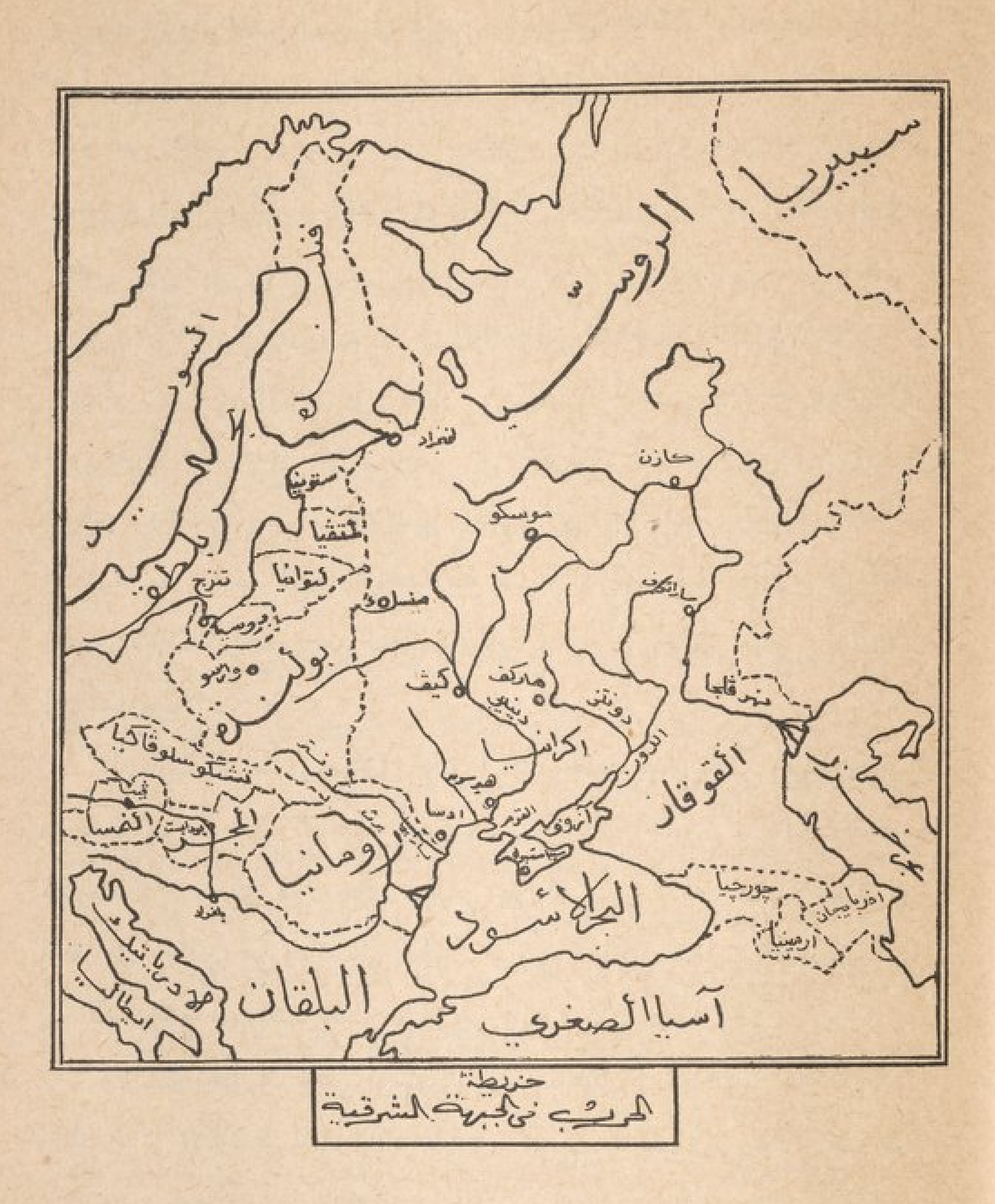
تقدم الجيوش الروسية المتواصل

وأخذ الألمان الآن فى كلتا الجبهتين الشرقية والغربية يذودون عن أرض الوطن. ذلك أن الروس عبروا برزخ كارليان ، واخترقوا خط مانرهيم ، وساقوا فى الشمال الألمان أمامهم بين بحيرتى لادوجا وأونيجا . فاضطر الفنلنديون إلى إلقاء سلاحهم قبيل ختام أغسطس سنة ١٩٤٤ . وبمقتضى أحكام الهدنة التى وقعوها مع الروس ، تعهدوا بأن ينسحب جنودهم إلى الحدود التى رسمتها معاهدة سنة ١٩٤٠ بين الدولتين ، وأن يسلموا بتسامو إلى روسيا ، وأن يدفعوا لها تعويضات حربية قدرها ثلاثمائة مليون دولار .

تسليم الفنلنديين

استرجاع دويلات البلطيق وبولندا

وفى نفس الوقت الذى جرت فيه هذه الأحداث ، بدأ هجوم الروس فى جبهة روسيا البيضاء فى أواخر شهر يونيو . فسقطت فى أيديهم بلدة ڤيتبسك فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٤ حيث أحدقوا بخمس فرق ألمانية ، وأبادوا معظمها ، واضطرت بقيتها إلى التسليم . وفى الوقت عينه هجم الروس هجمة قوية فى اتجاه وسط بولندا ، فاستولوا على مِنْسك عاصمة روسيا البيضاء . وتقدموا على جبهة طولها مائتا ميل . وما لبثت جحافلهم أن تدفقت على دويلات البلطيق وبولندا. وسقطت مدن بولندا الحصينة فى أيديهم : الواحدة تلو الأخرى . ووصلوا إلى نهر الفستولا . فصاروا بذلك على مدى عشرة أميال من وارسو . فقام أهل هذه



خريطة
الحرب في الجبهة الشرقية

العاصمة فى وجه المحتلين . ولكن الحامية الألمانية قمعت فى بأس شديد ذلك العصيان ، وهدمت دون شفقة ما كان قد تبقى من مبانى تلك الحاضرة .
غير أن الروس غذوا السير فى أراضى الدويلات البلطية الواقعة شمال بولندا .
فسقطت فى أيديهم فى تعاقب سريع إيسكوف ونارڤار وإدڤنسك . وسقطت كَوْناس عاصمة لتوانيا فى أول أغسطس . غير أن الألمان جمعوا شملهم على حدود بروسيا الشرقية ، واستماتوا فى القتال . فتمكنوا من إعاقة الزحف الروسى بعض الوقت .

هجوم الروس فى البلقان

وبدأ هجوم روسى جديد فى البلقان فى أغسطس . فظفروا بمدينة ياسى برومانيا . وأكرهوا الألمان على الارتداد عبر نهر الدنيستر . فأعلنت رومانيا على الفور قبولها عقد هدنة مع روسيا . ثم أشهرت الحرب على ألمانيا . ودخل الجند الروس بخارست ، وواصلوا زحفهم على الدانوب . وتعاونت الكتائب البلغارية مع قوات المقاومة اليوغسلافية بقيادة المارشال تيتو Tito فى تعقب الجنود الألمان المتراجعين من البلقان ومضايقتهم وإنزال الخسائر بهم ، أينما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

احتلال هنغاريا

واجتازت القوات الروسية فى أوائل أكتوبر حدود هنغاريا من جهة رومانيا ، وزحفت سريعاً نحو العاصمة بودابست . غير أن الجيوش الألمانية والهنغارية تصدت لها . وجرى قتال حامى الوطيس بين الفريقين ، رغم انضمام القائد العام الهنغارى وجانب من قواته إلى صفوف الروس . ولكن هنغاريا اضطرت أخيراً إلى الاستسلام ، ووقعت هدنة مع الروس فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤٥ .

إقصاء الألمان عن اليونان

وأنزل البريطانيون بعض قواتهم فى پتراس باليونان فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ . وكان مركز الألمان فى تلك البلاد غاية فى الحرج . فأخلوها على جناح السرعة ، بينما كانت القوات البريطانية وقوات المقاومة اليونانية المطاردة تنهش أعقابهم . وما تصرم العام حتى كانت اليونان برمتها قد حُرِّرت .

تقهقر الجيوش الألمانية فى ميادين القتال

فأكرهت الجيوش الألمانية من الشرق ، ومن الجنوب ، ومن الغرب ، على الارتداد فى عجلة داخل حدود الدولة الألمانية ذاتها . وبذلك دخلت الحرب

فى طورها الأخير . وبدأ نصر الحلفاء يبزغ ، ثم يشرق ، ثم يتألق فى الأفق . فانه على الرغم من أن الألمان قاموا فى الجبهة الغربية بهجمة صادقة فى الآردِنْ فى منتصف ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، وأفلحوا فى صد الزحف الأمريكى صوب كولون ، وكانوا يقصدون من ذلك الهجوم الاستيلاء على مدينة لييج حيث جمع الحلفاء مقادير هائلة من المؤن والعتاد — وعلى الرغم من إفلاحهم الجزئى فى هذا الهجوم العنيف ، فإن الحلفاء تمكنوا فى أوائل العام الجديد من صدّ هذه المقامرة الأخيرة. ولو أن هجوم الألمان هذا أعاق زحف الحلفاء على إقليم السار أسابيع ستة .

جيوش دول الغرب تدخل الأراضى الألمانية

وفى ٨ فبراير سنة ١٩٤٥ شرعت القوات البريطانية والكندية فى الهجوم فى جنوب شرق نِيجْمِجِنْ ؛ ثم تلاه على الأثر هجوم الحلفاء العام على طول الجبهة الغربية . فاستولوا على كولون . وعبر الجيش الأمريكى الرين ، وسقطت كبلنتز فى منتصف مارس ، وطُهر الشاطئ الغربى لنهر الرين شمال نهر الموزل من الجنود الألمانية .

وفى الجنوب سقطت مدن السار الواحدة عقب الأخرى فى أيدى القوات الأمريكية والفرنسية . وما وافى اليوم الخامس والعشرون من مارس حتى كان الحلفاء قد قضوا على كل مقاومة ألمانية منظمة غرب الرين .

وفى الشمال عبرت الجيوش التى تحت إمرة المارشال منتجومرى الرين الأدنى فى أربع نقط ، وتقدمت مائة وستين كيلومتراً شمالا وشرقاً فى أحد عشر يوماً . وبذلك أفلحت فى تطويق الرهر الغنى بمصانعه الكبيرة ومناجم فحمه وحديده الوفيرة الإنتاج — أفلحت فى تطويقه تطويقاً كاملا . وانتهت مقاومة الألمان فيه فى ١٨ إبريل .

زحف الحلفاء فى قلب المانيا

وزحف الحلفاء الآن فى قلب ألمانيا ، حيث كانت غاراتهم الجوية الهائلة قد نشرت الدمار فى مدنها ، وألقت الرعب البالغ فى نفوس الأهلين . وأخذت جيوش الحلفاء تضيق الخناق على الألمان دون هوادة . وما لبثت كل مقاومة ألمانية فعالة أن انهارت ، وأخذت المدن الألمانية ، أو بعبارة أصح ، أخذت أنقاض المدن الألمانية تسلم للحلفاء فى ثبت طويل ممل .

في الجبهة الشرقية

أما فى الجبهة الشرقية ، فقد جدد الروس هجومهم من نواح عدة . فبعد أن استولوا على وارسو فى يناير سنة ١٩٤٥ ، اكتسحت قواتهم الأراضى البولندية ، ودخلوا بودابست ، وتقدموا فى أعالى نهر الطونة إلى النمسا فى نهاية مارس . وبلغت قواتهم فينا فى منتصف إبريل . وشرعوا يشنون هجومهم العظيم على برلين فى ١٦ إبريل . واستبسل الألمان فى الدفاع عن حاضرتهم . ولكن صار الروس بعد خمسة أيام يقاتلون فى ضواحيها . وكان الحلفاء الغربيون قد وصلوا وقتئذ إلى نهر الإلبه . فتقابلت جيوش الحلفاء الزاحفة من الشرق ومن الغرب فى طورجاو.

سقوط برلين

وسقطت برلين فى الثانى من مايو بعد معارك شرسة جرت فى الشوارع وفى المنازل . وبسقوط قصبة البلاد انهارت مقاومة الألمان انهياراً أوفى أن يكون تاماً فى جميع الميادين .

انهيار كل مقاومة

ذلك أنه فى اليوم عينه الذى سلمت فيه برلين ، ألقت الجيوش الألمانية فى إيطاليا بسلاحها . واستسلمت بعد ذلك بيومين الجيوش المقاتلة فى شمال غرب ألمانيا ، وفى هولندا ، وفى الدانمارك .

انتحار هتلر

وبذلك انتهى بين الأنقاض والخرائب المروعة الريخ الثالث الذى فاخر هتلر بأنه سوف يعمر ألف عام من الدهر . وهلك هتلر بين أطلاله وركامه . فقد أزهق روحه مع نفر قليل من أخلص أعوانه فى اليوم الأول من مايو فى المخبأ العميق الذى شيده تحت دار المستشارية ، مؤثراً الموت على أن يقع فى قبضة أعدائه .

عقد الهدنة

وفى السابع من مايو وقع الجنرال يودل Jodl رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية وثيقة التسليم من غير قيد أو شرط فى رياسة أركان حرب الجنرال أيزنهاور بريمس .

الهجوم على فتوحات اليابان

والآن بعد أن كسب الحلفاء النصر على دولتى المحور الأوربيتين ، ركزت الولايات المتحدة وبريطانيا جميع مواردهما فى قتالهما اليابان التى وقفت بمفردها

بعد سقوط حليفاتها صرعى . وكان اليابانيون قد بلغوا أقصى مدى لفتوحاتهم فى ختام عام ١٩٤٢ . واتخذ الحلفاء فى العام التالى خطة الهجوم . فشرع البريطانيون يرهقون إرهاقاً متصلا القوات اليابانية فى ميدان بورما بهجماتهم المباغتة على خطوط مواصلاتها بنوع خاص ، على أيدى جنود دُرِّبوا تدريباً خاصاً على قتال الغابات الاستوائية .

وقام اليابانيون فى مارس سنة ١٩٤٣ بهجوم كبير فى آسام محاولين اختراق وادى براهمابوترا ، وإيصال الحرب إلى الهند. ولكن بعد قتال طاحن دام أشهراً ثلاثة اصطلمت جيوشهم ، وفرت فلولها لا تلوى على شىء عبر نهر شِنْدْوِنْ . وتلا ذلك قتال متصل حامى الوطيس دام ستة أشهر ، واستمر حتى حلول موسم الأمطار الغزيرة .

فتح بورما

وفى أوائل سنة ١٩٤٥ عبرت القوات البريطانية نهر شندون ، وتمكنت من فتح طريق ليدو Ledo الموصل عبر بورما من الهند إلى الصين . واستولت فى الجنوب على مندلاى فى مارس ، ورانجون فى مايو . وبذلك هُزم اليابانيون هزيمة فاصلة فى بورما . وأخذ الحلفاء يعدون العدة لإنزال قواتهم فى الملايو . ولكن اليابانيين ألقوا بسلاحهم قبل وضع خططهم موضع التنفيذ .

القتال فى المحيط الهادى

وكذلك ضعفت أيضاً سيطرة اليابانيين على المحيط الهادى . وأخذت قوات الحلفاء تحتل من جديد خلال النصف الثانى من سنة ١٩٤٣ مجموعات الجزر الصغرى فى ذلك المحيط . ففى أوائل سبتمبر قام الجنرال ماك آرثر بهجوم فى غينيا الجديدة انتهى باحتلال قواته جزر جلبرت ، وجزر مارشال ، وجزر الأميرالية ، فى بواكير عام ١٩٤٤ .

وتم للحلفاء فى آخر الأمر التفوق براً وبحراً وجوا ، وغدوا فى مركز يمكنهم من تهديد مواصلات اليابانيين وخطوط تموينهم . ونزلت القوات الأمريكية فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ فى جزيرة ليت بجزر الفلبين ، وظفرت بمرسى قوى ، ووُفقت فى سحق الأسطول اليابانى على مقربة من جزيرة لوزون فى معركة الفلبين البحرية الثانية فى ٢٣ أكتوبر . واستمر القتال دائراً شهرين ، حتى حلت باليابانيين الهزيمة النهائية فى جزيرة ليت .

واستولى الأمريكيون فى أوائل يناير سنة ١٩٤٥ على لوزون ، كبرى جزر الفلبين . ودخلوا مانيلا عاصمة تلك الجزر فى ٤ فبراير . ومن ثم بدأ قتال طاحن دام خمسة أشهر أخرى ، تمكن فى نهايتها الجنرال ماك آرثر من أن يعلن (فى ٥ يوليه) تحرير جزر الفلبين تحريراً تاماً من العدو .

اقتراب القتال من اليابان

وأخذ الأمريكيون يدنون شيئاً فشيئاً من الجزر اليابانية الرئيسية . فاستحوذوا فى مارس سنة ١٩٤٥ على جزيرة أوچيما ، وأكملوا فى منتصف يونيو فتح جزيرة أوكناوا الواقعة بين جزيرة فرموزا واليابان . فاضطرت القوات اليابانية إلى الارتداد فى جزر غينيا الجديدة ، وبريطانيا الجديدة ، وبورنيو ، رغم مقاومتها المستميتة .

وألحقت قاذفات القنابل الأمريكية خسائر مروعة بالأهلين والأملاك فى غاراتها المتعددة على اليابان . فدمرت نصف مدينة يوكاهاما ، ومنيت طوكيو وأوزاكا وغيرهما بخسائر فادحة .

وكان مركز اليابانيين حرجاً إلى أقصى درجات الحرج ، حينما أحرز الحلفاء فى أوائل مايو انتصاراتهم المبينة على ألمانيا ، وأكرهوها على التسليم . فانه على الرغم من أن اليابان استطاعت حتى فى هذا الطور الأخير من أطوار النضال أن تلحق خسائر كبيرة بالحلفاء ، إلا أن النصر كان قد فلت نهائياً من يدها .

وعلى أثر انعقاد مؤتمر پتسدام ، قدمت أمريكا وبريطانيا والصين إنذاراً نهائياً إلى اليابان (٢٦ يوليو سنة ١٩٤٥) تخيرها فيه بين الاستسلام دون قيد أو شرط ، أو أن ينزل بها الحلفاء « الخراب التام المعجل » .

قنبلتان ذريتان على هيروشيما وناجازاكى

ومع أن الحكومة اليابانية كانت قد لمحت عن طريق روسيا عن رغبتها فى وضع نهاية للحرب ، إلا أنها تجاهلت إنذار پتسدام . بيد أنه حدث فى ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ أن ألقت طائرة أمريكية على هيروشيما القنبلة الذرية الأولى التى استُخدِمت فى الحروب . فأحدثت تدميراً وتقتيلا لم يشهد التاريخ لها مثيلا من قبل . فقد دُمِّر تدميراً تاماً أربعة أميال مربعة من مبانى تلك المدينة . وبعد أيام ثلاثة ألقيت القنبلة الذرية الثانية على ناجازاكى ، فأنزلت بها نفس الخسائر المروعة فى الأرواح والأملاك . فقد قدر عدد القتلى من اليابانيين فى

هيروشيما وحدها بثمانين ألف قتيل ومائة وعشرين ألف جريح ، وصار مائتا ألف نسمة بلا مأوى .

وكانت روسيا قد أعلنت فى اليوم السابق (٨ أغسطس) الحرب على اليابان ، وأرسلت جنودها على الفور لغزو مقاطعة منشوريا .

استسلام اليابان

وفتح استخدام القنبلة الذرية ، ودخول روسيا الحرب ، أعين زعماء اليابان إلى عقم الاستمرار فى النضال . فطلبوا فى ١٠ أغسطس عقد هدنة وفقاً للشروط التى وضعها الحلفاء فى بتسدام . وفى الخامس عشر أعلن الامبراطور هيرو هيتو أنه ينوى قبول هذه الشروط . وفى الثانى من سبتمبر وقع المندوبون اليابانيون وثيقة التسليم على ظهر البارجة مسورى الأمريكية التى كانت قد ألقت مراسيها فى خليج طوكيو .

وبذلك وضعت أوزارها أعظم حرب مروعة عرفها التاريخ ، بعد اندلاعها بستة أعوام كاملة : حرب اتخذت من الكرة الأرضية بأسرها تقريباً ميداناً شاسع الأطراف لنيرانها الآكلة ومناجل الموت الحاصدة ، وخلفت فى أعقابها الجوع والشقاء والفوضى .

كتب يمكن استشارتها

E.H. Carr : The International Crisis. 1919 — 1939

Winston Churchill : The Second World War.

ظهر من هذا المؤلف خمسة مجلدات حتى الآن .

Ciano Diaries

H.S. Commager : The Story of the Second World War.

D. Eisenhower : Crusade in Europe.

A. J. Grant and H. Temperley : Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries.

C.G. Haines and R. Hoffman : Origins and Background of the Second World War.

Langsam : The World since 1914.

F.D. Roosevelt's Papers.

الفصل الأربعون

فى أعقاب الحرب

مشكلات مستعصية – الحلفاء يعقدون خلال الحرب مؤتمرات فى كازابلنكا والقاهرة وطهران وموسكو ويالتا – مؤتمر بريتن وودز – مؤتمر بتسدام – محاكمة كبار النازيين – معاهدات الصلح مع ايطاليا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا – دول أوربا الشرقية تخضع لنفوذ روسيا السوفيتية – تيتو فى يوغسلافيا – إنشاء جمهوريتين ألمانيتين فى الغرب والشرق – موقف روسيا العدائى إزاء دول الغرب – معاهدات الضمان الجماعى – اتحاد أوربا الغربية – عقد الصلح مع اليابان – حرب كوريا – إرساء أساس هيئة الأمم المتحدة – منظماتها .

١ – مشكلات مستعصية

ما انتهت الحرب حتى واجه الساسة والشعوب من المشكلات الكثيرة الخطيرة العظيمة التعقيد ما لم يعهده العالم من قبل . وبدا كأن الأمم والحكومات ليست بقادرة على فهمها ولا تذليلها . وقد مضى الآن سبع سنين على وضع الحرب أوزارها ، ولا يزال كثير من هذه المعضلات مستعصى الحل بعيداً عن التسوية . فلا تزال مشكلات فلسطين وكوريا والصين والحكم الدكتاتورى فى أسبانيا ، وعقد صلح مع ألمانيا ، وعلاقة الدول العظمى المستعمرة بمستعمراتها المتأخرة ، واستخدام القنابل الذرية ، وعلاقات الدول الديمقراطية بروسيا والصين الشيوعيتين – لا تزال هذه المشكلات الخطيرة ، وعديد غيرها ، تتحدى حكمة ساسة العالم ودهاءهم .

ولقد أحدثت الحرب انقلابات جسيمة كبيرة الشأن فى التوازن الدولى . فقد خرجت روسيا والولايات المتحدة دولتين عالميتين ، وغدت الشيوعية قوة يُحسب

حسابها فى الشؤون العالمية ، وتناقص إلى مدى ما سلطان الامبراطورية البريطانية ، فلم تعد بريطانيا تستطيع مواصلة الاضطلاع بدورها التقليدى فى توجيه الشؤون السياسية والاقتصادية العالمية .

وشرعت شعوب آسيا وإفريقية ، وهى الشعوب التى كان الغربيون يطلقون عليها اصطلاح « الشعوب المتأخرة » — شرعت تنزع عنها نير الاستعباد ، وتحطم قيود الاستعمار وأصفاد الاستغلال التى فرضتها عليها الدول الاستعمارية الكبرى ردحاً طويلا من الزمان . وأخذت ترفع صيحات عالية مطالبة بحقها المشروع فى أن تحكم نفسها بنفسها ، وأن يكون لها صوت فى تدبير شؤون العالم .

وأخذ تسخير العلم لقوى الطبيعة يجعل من الكرة الأرضية قطراً واحداً ، ويوثق أكثر فأكثر عرى الأمم وصلاتها السياسية والثقافية واعتمادها بعضها على البعض الآخر . وبتضاؤل الكرة الأرضية ، تغيرت معالم السياسة العالمية ، فحلت الميول والضغائن التى تنجم عن اختلاف المذاهب الفكرية محل العواطف والنزعات القومية . وغدا شجار الدول يدور حول النظم ومبادئ الفلسفات السياسية والاقتصادية أكثر من دورانه حول المصالح المادية والمطالب القومية .

٢ — مؤتمرات الحلفاء أثناء الحرب

لم ينتظر ساسة دول الحلفاء نهاية القتال كى يبدأوا وضع تسويات للمشاكل التى سوف تخلفها لهم تلك الحرب الضروس فى أعقابها . بل شمروا — حتى فى الأيام التى استعر فيها الصراع — شمروا عن ساعد الجد كى يضعوا أسس عالم جديد ، ويخففوا من وطأة الفقر والجوع والخراب التى عانتها أقطار العالم جميعها تقريباً على نحو لا مثيل له فى التاريخ . فقد كان ينقص دول أوربا عند خروجها من الحرب جميع مقومات الحياة المتحضرة ، وهام على وجوههم نحو عشرة ملايين من المشردين التعساء نتيجة تحركات الجيوش ، وقُدِّر أن هناك نحو أربعمائة مليون نسمة من سكان آسيا وحدها على شفا الهلاك جوعاً .

ولقد لعب الرئيس روزفلت ومعاونوه دوراً جليل الشأن فى المفاوضات التى دارت بين قادة الحلفاء فى تلك الفترة الخطيرة من تاريخ الجنس البشرى . والحق أن الولايات المتحدة التى لم تسع وراء الصولة والسلطان ، قد أقحيم عليها الصولة والسلطان خلال الحرب وبعدها ؛ وتحولت فى خلال قرن ونصف قرن — وهى حقبة قصيرة فى نظر التاريخ — تحولت من دولة يكاد لايؤبه لشأنها ، إلى مقام الزعامة بين أمم العالم ، ونفضت عنها سياسة العزلة ، وشرعت تلعب دوراً خطيراً فى توجيه السياسات العالمية .

هيئة الإغاثة والتعمير

فاقترحت الولايات المتحدة فى يونيو سنة ١٩٤٣ إنشاء مؤسسة دولية لإسعاف الملايين من البؤساء المحرومين الذين سوف تخلفهم الحرب . وأنشئت بالفعل فى نوفمبر « هيئة الإغاثة والتعمير للأمم المتحدة » (التى أطلق عليها اختصاراً اصطلاح UNRRA) ، وانضم إليها ثمان وأربعون دولة . ولم تقصر هذه الهيئة عملها ، فى مدها يد الغوث للمحتاجين ، على توزيع الأطعمة والملابس والعقاقير فحسب ، بل قدمت أيضاً البذور والأدوات الزراعية والأسمدة والبهائم للمزارعين ، كى تعينهم على فلح أرضهم . وقد بلغ ما أنفقته هذه الهيئة على سدّ عوز البائسين نحو أربعة آلاف مليون دولار ، تكفلت الولايات المتحدة بدفع نحو ٦٠ ٪ من هذا المبلغ . وأنفقت الحصة الكبرى من هذه الإعانات على إطعام شعوب بولندا ويوغسلافيا واليونان ، وترحيل نحو مليون شريد إلى فلسطين ونيوزيلندا والبرازيل والولايات المتحدة وغيرها من الأقطار التى أظهرت استعداداً لقبولهم والانتفاع بخبراتهم ومهاراتهم .

مؤتمر بريتن وودز

والتأم فى صيف سنة ١٩٤٤ عقد مؤتمر للأمم المتحالفة لبحث شؤون العالم الاقتصادية والمالية فيما بعد الحرب — التأم عقده فى بريتن وودز Bretton woods بالولايات المتحدة ، وقرر إنشاء هيئتين دوليتين لتنظيم النقد والمعاملات المالية الدولية : الهيئة الأولى ، مصرف دولى للإنشاء والتعمير ؛ والهيئة الثانية صندوق دولى للنقد يعمل على تثبيت سعر القطع الدولى ، وإزالة العوائق التى قد توجد لتحويل النقد بين دول العالم . وقد خُصص لهذا الغرض رأس مال قدره نحو

تسعة مليارات من الدولارات. وخُوِّل البنك الدولى إقراض المبالغ اللازمة لإقامة المنشآت التى تساعد على زيادة الإنتاج فى مختلف أنحاء العالم .

وعقد أقطاب الدول المتحالفة مؤتمرات فى كازابلانكا ، والقاهرة ، وطهران ، وموسكو ، ويالتا ، وبتسدام ، لوضع المبادئ والأسس التى سوف يشيدون عليها صرح الصلح . بيد أنه كانت تظهر خلال مفاوضاتهم اختلافات خطيرة ، لم يُعلَن عنها وقتئذ إلا تلميحاً . غير أنه سرعان ما أغمدت السيوف حتى انفجرت المنازعات بين حلفاء الأمس فى عنف شديد ودوى هائل . وتفاقم النزاع ، وتعاظمت على مر الأيام الإحن والضغائن بينهم .

ولم تنتهج الدول الظافرة عقب الحرب السياسة التقليدية التى اتبعتها مثيلاتها فى جميع الحروب الماضية ، وذلك بأن يؤلَّف مؤتمر للصلح من مفاوضين عن الدول المتحاربة ، المنصورة منها والمقهورة على السواء ، بقصد وضع معاهدة للصلح يفرض فيها عادة الفريق الغالب شروطه ، ويرضخ لها الفريق المغلوب مذعناً صاغراً . فإنه لم توقع مثلا معاهدة صلح مع اليابان إلا بعد انتهاء الحرب بأعوام خمسة . ولم توضع إلى الآن — رغم انقضاء سبعة أعوام على وضع الحرب أوزارها — لم توضع معاهدة صلح بين ألمانيا ودول الحلفاء .

مؤتمر كازابلانكا

وفى مؤتمر كازابلانكا الذى عقد فى يناير سنة ١٩٤٣ ، أصدر الرئيس روزفلت ومستر تشرتشل إعلاناً — أيدته روسيا فيما بعد — يصرحان فيه بأن هدف الحلفاء من مواصلة الحرب هو تسليم ألمانيا وإيطاليا واليابان تسليما غير مشروط . وقالا إن التسليم غير المشروط « لا يعنى القضاء على الشعب الألمانى ، أو الشعب الإيطالى ، أو الشعب اليابانى ، وإنما قصد به استئصال شأفة فلسفة معينة فى ألمانيا وإيطاليا واليابان تقوم على الفتح وإخضاع الشعوب الأخرى » .

ولقد أظهرت الأيام أن مبدأ التسليم بدون قيد أو شرط الذى أعلن فى هذا المؤتمر ، وكُرر إعلانه فى مؤتمرى موسكو ويالتا ، وطبق على ألمانيا واليابان عند استسلامهما — أظهرت الأيام أنه لم يكن بالقاعدة السليمة التى يمكن أن يشيد عليها صلح وطيد الأركان باقى الأثر .

مؤتمر موسكو

وعقد الحلفاء مؤتمراً فى موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ قرروا فيه إنشاء لجنة استشارية أوربية تكون مهمتها وضع المبادئ الأساسية التى تعامل ألمانيا وفقها بعد انتهاء الحرب . وقد قرر هذا المؤتمر ضرورة تدمير المصانع الحربية الألمانية ، وحل الحزب النازى ، ومحاكمة مجرمى الحرب ، والسعى بكل الوسائل ، واتخاذ جميع التدابير الصارمة لاقتلاع الروح العسكرية الألمانية من جذورها ، وإنشاء مناطق مراقبة للحلفاء ، وفرض أكبر مبلغ من التعويضات يمكن إكراه ألمانيا على دفعه .

مؤتمر يالتا

وحينما أشرف نصر الحلفاء على الانبلاج ، عقد زعماؤهم مؤتمراً فى يالتا فى فبراير سنة ١٩٤٥ ، أيدوا فيه المبادئ الآنفة ، واتخذوا خططاً غلب عليها الطابع الحربى . فقد اتفقوا على أن تقسم ألمانيا إلى ثلاث مناطق احتلال : تعطى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا واحدة منها ، وأن تدعى فرنسا إلى الإشراف على منطقة رابعة . وقرروا أن يتولى الإشراف الأعلى على إدارة الأراضى الألمانية لجنة إشراف مركزية عليا ، تتألف من القواد الأعلين لهذه الدول الأربع ، ويكون مقرها برلين . وحدد بصفة مبدئية مبلغ عشرين ألف مليون دولار كتعويضات حربية . ووافق هذا المؤتمر أيضاً مبدئياً على أن تعطى روسيا الأراضى الواقعة شرق خط كرزن Curzon Line ، وأن تعوض بولندا عن الأراضى التى ستفقدها بمقتضى هذه التسوية من الأراضى الألمانية .

وما أن انتهى شهر مايو سنة ١٩٤٥ حتى كان الحلفاء قد أكملوا احتلال جميع الأراضى الألمانية ، وأخذ الحلفاء يضعون موضع التنفيذ ما كانوا قد اتفقوا عليه .

مؤتمر بتسدام وقراراته

فاجتمع ببتسدام فى ١٧ يوليه ترومان وستالين وأتلى (١) ، ووضعوا قرارات كثيرة جليلة الخطر : من أهمها التعجيل بإلغاء النظم المركزية وزيادة سلطات الحكومات المحلية فى نظام ألمانيا السياسى والإدارى عقب احتلالها ، وإنشاء

---

(١) حل مكان ونستن تشرتشل فى رياسة الوزارة البريطانية عقب إحراز حزب العمال البريطانى الفوز فى الانتخابات العامة التى جرت فى يونيو سنة ١٩٤٥

مجلس لوزراء خارجية دول الحلفاء الكبرى الثلاث : الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا ، على أن ينضم إليهم كلما دعا الحال وزيرا خارجيتى فرنسا والصين . وتكون مهمة هذا المجلس وضع معاهدات الصلح مع إيطاليا والنمسا والدول الصغيرة التى كانت تقاتل فى جانب ألمانيا .

ونظم هذا المؤتمر مجلس الإشراف الأعلى لإدارة ألمانيا ، ووضع تفاصيل المبادئ العامة السياسية والاقتصادية التى سيسير الحلفاء بمقتضاها مدة احتلالهم أرضها . فقرر أنه رغم تقسيم هذه الدولة إلى مناطق احتلال أربع ، فإنه يجب أن تعامل كوحدة واحدة من الناحية الاقتصادية ، على أن تعطى كل دولة احتلال حق الحصول على تعويضاتها من المنطقة الألمانية التى تحتلها .

وقرر المؤتمر أيضاً تعديل حدود ألمانيا الشرقية . فتعطى روسيا مدينة كِنِجْسْبِرْجْ والمنطقة المحيطة بها ، وأن يسلخ من ألمانيا جميع أراضيها الواقعة شرق خط الأودر — نيسه Oder Neisse ، وتعطى لبولندا .

غير أنه لم تُبذل فى هذه المرحلة أية محاولة لوضع معاهدة صلح مع ألمانيا . فقد كان ذلك فى الواقع أمراً متعذراً . إذ كانت ألمانيا وقتئذ خلوا من أية حكومة يمكن أن يُبرَم معها مثل هذه المعاهدة . أضف إلى ذلك أن الحلفاء أنفسهم كانوا منقسمين فيما بينهم بصدد الشروط التى يمكن أن تتضمنها .

محاكمة كبار النازيين

وقبض على أثر انتهاء الحرب على عدد كبير من النازيين . وألفت دول الحلفاء الكبرى الأربع محكمة دولية لمحاكمة نفر من زعمائهم . وقدم أمام هذه الهيئة القضائية أربعة وعشرون قطباً نازياً ، بوصفهم من كبار مجرمى الحرب . وقد استغرقت محاكمتهم عشرة أشهر . واتخذ الحلفاء من هذه المحاكمة فرصة يعلنون فيها للعالم بوجه عام ، وللألمان بوجه خاص ، اعتداءات الألمان على القانون الدولى ومبادئ الإنسانية .

وقد قضى على تسعة عشر متهماً بأنهم مذنبون ، وحكم بالإعدام شنقاً على اثنى عشر زعيما منهم . ومن أهمهم جيرنج نائب رئيس الريخ ، والمارشال كَيْتِل Keitel القائد العام للجيش الألمانى ، ويودل رئيس هيئة أركان الحرب

العامة ، وربنتروب وزير الخارجية .

وشهدت ألمانيا أيضا محاكمات أخرى كثيرة أمام المحاكم العسكرية التى ألفتها دول الاحتلال ، وقدم لها عدد كبير من الألمان بوصفهم مجرمى حرب .

ولكن يبدو أنه لم يكن لهذه المحاكمات الأثر القوى فى نفوس الألمان الذى استهدفه الحلفاء منها . ولم تقنع الأمة الألمانية بأنها اقترفت حقاً هذه الجرائم التى يحاكَم من أجلها نفر من أبنائها . كما أن هذه المحاكمات أثارت نقداً غير قليل حتى فى بريطانيا والولايات المتحدة . فطعن كثيرون بأن تأليفها خارج عن نطاق القانون الدولى ، وأن قضاتها كانوا أدوات انتقام وتشفٍّ أكثر منهم موازين عدل ، وأن بعض إجراءات هذه المحاكم لم تخلُ من الشوائب التى دنست روح العدالة .

والحق أن الزمن خير حكم فى شرعية هذه الهيئات القضائية ، أو فى مجافاتها لروح العدالة . غير أن إنشاء هذه المحاكم وضع سابقة دولية خطيرة قد يكون لها آثار بعيدة ، فإنها ستبيح للجانب المنتصر فى حرب ما حق تقديم أعدائه المهزومين إلى المحاكمة بوصفهم مجرمى حرب خارجين على أحكام القانون الدولى .

استئصال شأفة النازية

وفى الوقت عينه سار الحلفاء قدماً فى جهودهم الكبيرة لاستئصال شأفة النازية من جميع نواحى الحياة الألمانية . فطرد كل من شابته شائبة اعتناق مبادئ النازية من وظائف الحكومة ومعاهد العلم والمصانع وجميع الهيئات العامة . غير أن المشرفين على تنفيذ هذا الأمر من الحلفاء اضطروا فى النهاية إلى الرضوخ لمقتضيات الواقع ، وإلى التخفيف من وطأة الوسائل التى اتخذوها لقمع النازية . بل لقد اعتمدوا فى دوائر الإدارة الجديدة التى أقاموها بألمانيا — اعتمدوا على بعض من كبار النازيين السابقين . ذلك أن النازية كانت قد تغلغلت فى نفوس السواد الأعظم من الأمة الألمانية ، وكانت قد مدت أصولها العميقة إلى جميع نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الألمانى .

٣ ـ معاهدات الصلح بين الحلفاء وأعدائهم السابقين

الصلح مع إيطاليا

ولكن يجدر بنا قبل التحدث عن تاريخ ألمانيا بعد الحرب أن نذكر كلمة مجملة عن معاهدات الصلح التى عقدها الحلفاء مع أعدائهم السابقين . ولنبدأ بإيطاليا التى كانت قد أشهرت الحرب على حليفتها السابقة فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ على أثر انهيار الحكومة الفاشستية فيها ـ كما ذكرنا آنفاً . فقد اعتبر الحلفاء إيطاليا دولة محاربة فى صفهم ، وأعلن أقطابهم فى مؤتمر پتسدام بأنه ينبغى إبرام صلح عادل معها . وعهدوا بهذه المهمة إلى مجلس وزراء الخارجية .

ولقد عُقد هذا المجلس مرات عدة فى أوقات مختلفة ، ودارت فيه مناقشات طويلة بشأن الشروط التى يجب أن تفرض على إيطاليا . وأخيراً وقعت معاهدة الصلح فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ من مندوبى إيطاليا والدول الإحدى والعشرين التى كانت قد اشتركت فى الحرب ضدها . وبمقتضى هذه المعاهدة أعيدت حدود إيطاليا إلى ما كانت عليه فى أول يناير سنة ١٩٣٨ ، مع إجراء بعض تعديلات فيها لصالح فرنسا ويوغسلافيا . وتنازلت إيطاليا لليونان عن جزر الدوديكانيز مع تجريد هذه الجزر من السلاح . واعترفت إيطاليا بكل من الحبشة وألبانيا دولة مستقلة ، وتنازلت عن مستعمراتها السابقة : ليبيا وإرتريا والصومال . وجعلت تريستا والمنطقة المجاورة لها منطقة حرة مستقلة تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة .

وقد قررت الجمعية العمومية لهيئة الأمم فى نوفمبر سنة ١٩٤٩ أن ينادَى بليبيا دولة مستقلة فى موعد لا يتجاوز أول يناير سنة ١٩٥٢ ، على أن يحكمها فى الفترة التى تكون فيها تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة ـ يحكمها مندوب تعينه الهيئة يعاونه مجلس استشارى . وقد أُعلنت ليبيا دولة مستقلة سنة ١٩٥١ ، ونودى بالملك إدريس الأول السنوسى ملكاً عليها .

وقررت أيضاً الجمعية العمومية لهيئة الأمم أن تُمنح الصومال استقلالها فى

عام ١٩٦٠ ، على أن تبقى تلك البلاد فى غضون هذه الفترة تحت وصاية إيطاليا .

وقد ضُمَّت إرتريا سنة ١٩٥٢ إلى مملكة الحبشة ، على أن يؤلف القطران دولة تعاهدية يتسنم عرشها المشترك إمبراطور الحبشة .

النمسا

أما النمسا فقد كان أقطاب الحلفاء قد قرروا فى المؤتمر الذى عقدوه بموسكو فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ ضرورة تحريرها من سيطرة ألمانيا ، وعودتها إلى حظيرة الدول المستقلة الحرة . وحينما جلت الجيوش النازية عن الأراضى النمساوية فى إبريل سنة ١٩٤٥ ، ألفت بها حكومة موقتة تحت رياسة الدكتور كارل رِنَّرْ Karl Renner .

وقد قسم الحلفاء النمسا عقب احتلالهم أرضها فى الشهر التالى إلى أربع مناطق احتلال ، تخضع كل منطقة لإحدى دول الحلفاء الأربع : روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا . كما قسمت ڤينا أيضا هذا التقسيم عينه . وأنشئت لجنة إشراف عليا من ممثلى هذه الدول . وقد اعترفت دول الاحتلال فى بدء عام ١٩٤٦ بالنمسا دولة مستقلة . وسلمت لجنة الإشراف العليا جميع سلطاتها إلى الحكومة النمساوية ، فيما عدا بعض الشؤون ذات الارتباط بالاحتلال العسكرى الذى لا يزال باسطاً سلطانه عليها .

وقد بُذِلت محاولات عدة قوية لوضع معاهدة صلح مع النمسا . وإنه لما يجلب السأم أن نذكر تفصيلا هذه المحاولات . ولكن يكفى أن نذكر هنا أن مجلس وزراء الخارجية اجتمع فى أوقات مختلفة فى لندن وموسكو وباريس دون أن يصل إلى قرارات حاسمة للتوفيق بين وجهات نظر دول الاحتلال .

معاهدات الصلح مع بلغاريا ورومانيا وهنغاريا

وأجبر مجلس وزراء الخارجية تحت ضغط الرأى العام العالمى ، ورغم الخلافات الكبيرة التى ظهرت بين الدول الغربية من جانب ، وروسيا من جانب آخر — أجبر هذا المجلس على أن يصوغ فى الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٤٦

معاهدات صلح بين دول الحلفاء وكل من هنغاريا وبلغاريا ورومانيا . وقد وقعت هذه المعاهدات فى باريس فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ ، أى فى نفس اليوم الذى شهد توقيع معاهدة الصلح الإيطالية السالفة الذكر .

وكانت معظم الشروط فى هذه المعاهدات متماثلة . فوعدت تلك الدول المهزومة أن تكفل لجميع رعاياها ، وخاصة للأقليات اليهودية التى تعيش بينها — أن تكفل لهم « الحريات الأساسية » و« الحقوق الإنسانية » التقليدية . ورُدَّت حدود هنغاريا إلى ما كانت عليه فى أول يناير سنة ١٩٣٨ . وبقيت حدود رومانيا وبلغاريا كما كانت عليه فى يناير سنة ١٩٤١ ، وأعلن أن الملاحة فى نهر الدانوب « حرة ومفتوحة لجميع رعايا وبضايع وسفن جميع الدول » . وفرض على بلغاريا دفع ٧٠ مليون دولار ، وعلى كل من رومانيا وهنغاريا دفع ٣٠٠ مليون دولار ، بوصفها تعويضات .

وقد أقيمت فى هذه الممالك : بلغاريا ورومانيا وهنغاريا ، جمهوريات « شعبية » اتخذت لها دساتير مماثلة لدستور الاتحاد السوفيتى . وتبذل فيها جهود قوية لتشييد أنظمة سياسية واقتصادية على غرار نظم روسيا الشيوعية .

أما دول أوربا الشرقية الأخرى : تشكوسلوفاكيا وبولندا وألبانيا ويوغسلافيا ، فقد أخضعت فى درجة كبيرة أو صغيرة لنفوذ روسيا . فنرى ذلك النفوذ قوياً بنوع خاص فى بولندا ، فى حين تمكنت القوى المضادة للبلشفية فى يوغسلافيا من السيطرة على الموقف والقبض على أزمة الحكم بعد صراع دموى طويل .

حركة انقلاب فى تشكوسلوفاكيا

وقد ألغيت فى تشكوسلوفاكيا النظم الحكومية الديمقراطية التى أقام صرحها توماس مازاريك مؤسس هذه الدولة عقب الحرب العالمية الأولى . ففى فبراير سنة ١٩٤٨ أحدث أتباع البلاشفة ومريدوهم التشكوسلوفاكيون بمعاونة وكلاء السوفيت — أحدثوا انقلاباً حكومياً ، وتربعوا فى كراسى الحكم . وانضمت تشكوسلوفاكيا إلى الدول التى تسير فى فلك روسيا .

ولقد كادت يوغسلافيا تلقى نفس المصير ، لولا أن زعيمها المارشال تيتو انتفض على نفوذ الزعماء الروس ، وأخذ يقترب فى خطى بطيئة ، ولكنها خطى

وطيدة – إلى المعسكر الغربى . وقد شجعه على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة ما أغدقته عليه دول الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة ، من مساعدات حربية ومعونات اقتصادية ذات بال .

ولذلك فإنه باستثناء دولتى يوغسلافيا واليونان ، اتحدت الدول العديدة الواقعة بين بحر البلطيق شمالا وبحر إيجه جنوباً – اتحدت فى تحالف وثيق مع جارتها الكبرى ، وتحت حمايتها وإشرافها . ويبدو للمرء أن حلم القياصرة الروس فى القرن التاسع عشر بتكوين دولة سلافية عظمى تمتد من بحر البلطيق إلى بحر إيجه قد تحقق فى معالمه الكبرى على أيدى البلاشفة .

٤ – ألمانيا

ولنعد مرة أخرى إلى ألمانيا ، حيث أخذ الخلاف يزداد تفاقماً ووضوحاً بين الدول الغربية الثلاث : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من جهة ، وروسيا من جهة أخرى ؛ وبدا من المتعذر التوفيق بين سياستى هذين المعسكرين المتنافسين ، وإيجاد تعاون حقيقى بينهما : الأمر الذى أدى إلى إلغاء مجلس الإشراف الرباعى الأعلى سنة ١٩٤٨ . وغدت ألمانيا فى الواقع بيدقاً فى ألعوبة النضال المستعر الأوار بين الشرق والغرب .

ولكن رغم الصعاب المعقدة والمشكلات العديدة التى واجهت الحكومة العسكرية التى أقامها الحلفاء لإدارة شؤون ألمانيا ، فانهم خطوا ، رغم خلافاتهم الشديدة ، خطوات كبيرة لإعادة الحكومة الألمانية إلى أيدى الألمان ، وانعاش اقتصادياتهم ، وتعمير مدنهم المخربة ، وإغاثة نحو عشرة ملايين ألمانى هاجروا من شرق ألمانيا إلى غربها فراراً من وجه الروس والبولنديين .

وقد كان عمل الحلفاء فى هذا المضمار بالغاً أشد ضروب التعقيد . ذلك أن الضغائن والكراهية والريب التى خلقتها الحرب فى النفوس ، لم يكن من السهل إزالتها فى يوم وليلة . وكانت ألمانيا ممزقة الأوصال على نحو عجيب . فكان الروس يسيطرون على الأقاليم الزراعية ومقاطعة سيليزيا الغنية بفحمها وحديدها .

وكانت الدول الغربية تسيطر على غرب ألمانيا بمصانعه الكثيرة وعماله المهرة ، وكان تدمير الصناعات الألمانية يكاد يكون تاما . واستنزفت التعويضات العينية التى انتزعها الحلفاء من أيدى الألمان جانباً كبيراً من رأس المال الألمانى الضئيل الذى لم تلحقه يد التخريب خلال الحرب . ومع ذلك فقد تمكنت لجنة الإشراف العسكرية العليا خلال الأعوام الأربعة التى تلت الحرب – تمكنت من تحسين حال الإدارة الحكومية ، ورفع مستوى الإنتاج الصناعى فى ألمانيا . ووحدت بريطانيا والولايات المتحدة منطقتيهما فى وحدة اقتصادية واحدة . وأغدقت الولايات المتحدة بسخاء عجيب إعاناتها المالية لإعادة الحياة الاقتصادية فى ألمانيا الغربية . فكانت تقدم لها كل عام منحاً مالية تقرب من الخمسمائة مليون دولار . وفى سنة ١٩٤٨ خُول لألمانيا حق مشاطرة الدول الأوربية فى إعانة مارشال . وبذلك أخذت تنتعش تدريجاً الحياة الاقتصادية فى ألمانيا الغربية ، وتسير فى خطى ثابتة نحو الاكتفاء الاقتصادى .

وكانت صعوبة إقامة حكومة ألمانية لا تقل مشقة عن بذل الجهود لكى تقف ألمانيا على قدميها من الناحية الاقتصادية . ذلك أن انهيار الحكم النازى ترك فراغاً سياسياً هائلا فى تلك الدولة . فاضطرت الإدارات العسكرية للحلفاء إلى أن تشيد نظاماً حكمياً جديداً لألمانيا الغربية . وبدأت بإنشاء مجالس بلدية فى المدن والبنادر الريفية . ثم وجهت عنايتها إلى إقامة حكومة واحدة لألمانيا الغربية .

ولقد نشب فى صيف سنة ١٩٤٨ شجار شديد بين الروس ودول الاحتلال الغربية بشأن إنشاء مثل هذه الحكومة . فضربت روسيا حصاراً على مدينة برلين ، وقطعت جميع المواصلات التى بينها وبين مناطق الدول الغربية . واضطرت الحكومتان الأمريكية والبريطانية أن ترسل أساطيل جوية كبيرة لإغاثة السكان الألمان القاطنين بمنطقتيهما . وأخيراً أكرهت الإدارة الروسية على رفع الحصار فى أواسط ربيع سنة ١٩٤٩ . وبذلك أحرز الغرب فوزاً أدبياً كبيراً .

إنشاء جمهوريتين ألمانيتين فى الغرب والشرق

والتأم فى مدينة بون فى سبتمبر سنة ١٩٤٨ عقد مجلس برلمانى مؤلف من ممثلين منتخبين عن نواحى ألمانيا الغربية . وعهد هذا المجلس إلى لجنة من أعضائه بوضع قانون أساسى للدولة الجديدة المراد إنشاؤها . وبعد مناقشات استغرقت ستة أشهر فُرغ من وضعه . ووافقت دول الاحتلال على نصوصه . ووُوفِق عليه ، ووُضع موضع التنفيذ فى مايو سنة ١٩٤٩ . وبمقتضاه أقيمت فى ألمانيا الغربية جمهورية تعاهدية مقرها مدينة بون الجامعية .

واقتفى الروس خطوات الدول الغربية ، فأقاموا هم أيضاً فى منطقة احتلالهم فى أكتوبر سنة ١٩٤٩ « الجمهورية الألمانية الديمقراطية » ، واتخذوا من القطاع الروسى ببرلين مقراً لها . وبذلك قُسمت ألمانيا إلى دولتين تكادان تكونان منفصلتين انفصالا تاماً فى كل شىء . ولكن لم تُمنح كلتا الدولتين حقوق الدول ذات السيادة . فقد احتفظت دول الاحتلال الأربع بحق الإشراف العام على ألمانيا ، وخاصة على شؤونها الحربية وعلاقاتها الخارجية .

٥ ــ من مظاهر الانشقاق والاتحاد

بينا فى الصفحات السالفة بعضاً من أوجه الخلافات الحادة التى شجرت بين دول الكتلتين الشرقية والغربية . وسرعان ما تحولت تلك المنازعات إلى حرب باردة شن فيها المعسكران حرب أعصاب حامية الوطيس أحدهما ضد الآخر . وكان روزفلت يدرك أهمية تعاون الدول الغربية مع روسيا لتعمير العالم وتأمين السلم بعد هزيمة دول المحور . ورغم أن ونستن تشرتشل لم يكن يشاركه هذا الأمل ، إلا أن القرارات التى وصلت دول الحلفاء إليها فى مؤتمر يالتا حفزت كثيراً من الناس إلى الأمل بإمكان تحقيق الآمال العريضة التى ترقبوها . فقد عمل الأقطاب على وضع تسويات يرضى بها الجميع ؛ وأبقى روزفلت وتشرتشل الباب مفتوحاً لمفاوضات مقبلة لبحث شتى الشئون التى تهم روسيا ، مثل حقوقها فى الدردنيل ، وفى إيران ، ومستقبل دويلات البلطيق ، وتوزيع المستعمرات الإيطالية .

موقف روسيا العدائى أزاء الدول الغربية

ولكن ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى انتهجت روسيا – لأسباب غير واضحة تماماً – سياسة تحدٍّ وعدوان . فأضرمت نيران ثورات شيوعية فى هنغاريا وبلغاريا ورومانيا ، ثم فى تشكوسلوفاكيا (سنة ١٩٤٨) ؛ وجعلت هذه الدول الصغيرة توابع لها تسير فى فلكها وتأتمر بأمرها . كذلك أكرهت فنلندا تحت ضغطها الشديد على أن تدخل فى دائرة نفوذها فى سياستها الخارجية .

كذلك عاونت روسيا الشيوعيين الصينيين فى قتالهم المظفر ضد قوات شيانج كى شك التى كانت الحكومة الأمريكية تمدها بالعتاد والمشورة العسكرية . ولقد تمكن الشيوعيون الصينيون من هزيمة قوات شيانج كى شك وإكراهه سنة ١٩٤٩ على الالتجاء إلى جزيرة فورموزا . وبذلك خُلقت لهيئة الأمم مشكلة عسيرة جديدة . فقد أيد المعسكر الغربى احتفاظ الصين الوطنية بالكرسى المخصص للصين فى تلك الهيئة ، فى حين انتصرت روسيا لحكومة الصين الشيوعية الجديدة ، وطالبت فى قوة بقبول ممثليها لدى هيئة الأمم المتحدة .

واستحوذت روسيا على ثروة منشوريا الصناعية ، وأفلحت فى إثارة حركات ثورية فى الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو وأندونيسيا وشمال كوريا ، وخلقت قلاقل واضطرابات شيوعية فى اليونان وإيران وتشكوسلوفاكيا ، وشددت الضغط على تركيا ، وعرقلت إبرام صلح مع النمسا ، وقاطعت كثيراً من منظمات الأمم المتحدة ومشروع مارشال ، وأكثرت من الالتجاء إلى استخدام حق الفيتو فى القرارات التى يصل إليها مجلس الأمن .

فحفزت هذه العراقيل والمضايقات حكومات الدول الديمقراطية الغربية إلى توحيد صفوفها وعقد الخناصر للوقوف جبهة متحدة أزاء العدوان الشيوعى . ومدت الولايات المتحدة يد العون إلى الدول الأوربية ، وقدمت لها مساعدات مالية كبيرة القدر . وكان أكبر هذه المنح المالية ما قدمه لها مارشال وزير الخارجية الأمريكية فى المشروع الضخم الذى يحمل اسمه . فقد دعا فى يونيه سنة ١٩٤٧ دول أوربا الغربية إلى وضع برنامج كبير يهدف إلى إنعاش اقتصادياتها . وقدم فى سخاء منقطع النظير مبالغ طائلة من المال لتحقيق هذا المرمى .

معاهدات الضمان الجماعى

وفى الوقت عينه وُضعت خطط مشتركة لتعاون دول أوربا الغربية مع الولايات المتحدة للدفاع عن الغرب . فوقعت فى ١٧ مارس سنة ١٩٤٨ فى بركسل معاهدة للضمان الجماعى بين بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولكسمبرج. وبعد عام وقعت الولايات المتحدة وكندا والدول الخمس الموقعة على معاهدة بركسل وإيطاليا والدنمارك والنرويج والبرتغال وايسلنده — وقعت معاهدة شمال الأطلنطى (٤ إبريل سنة ١٩٤٩) . وهى اتفاقية تبين بجلاء اهتمام دول أوربا الغربية وقارة أمريكا الشمالية بضمان التعاون فيما بينها فى شؤون الدفاع الحربى وتأمين استقرارها المالى ورخائها الاقتصادى . وقد تعهدت هذه الدول بأن تتشاور فيما بينها فى كل ما يتعلق بشؤونها المشتركة .

اتحاد أوربا الغربية

وتطورت حركة نحو اتحاد أوربا الغربية لا يمكن التنبؤ بما ستحدثه من الأثر فى تاريخ أوربا المستقبل . فقد أقيم فى مايو سنة ١٩٤٩ هيئة ثنائية لدول أوربا الغربية . فأنشئت جمعية استشارية التأم عقد اجتماعها الأول فى ستراسبورج فى أول أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٤٩ . وقد تباحث أعضاؤها فى التغييرات التى يجدر إحداثها فى نظم أوربا السياسية والاقتصادية حتى تحقق هدفها الرئيسى : وهو اتحاد دول أوربا الغربية فى كتلة دولية واحدة . وليس لهذه الجمعية الآن سوى صفة استشارية محضة ، فلا تتقيد دولها رسميا بالقرارات التى تتخذها . ولهذه الجمعية مجلس وزراء يعد عنصرها التنفيذى .

ولا تزال هاتان الهيئتان فى مرحلة الطفولة . ويتعذر على المرء أن يتكهن بما ستتخذانه من شكل نهائى ، أو بالدور الذى سوف تضطلعان به فى شؤون أوربا المستقبلة .

الجمهورية الفرنسية الرابعة

وكان لبعض دول أوربا الغربية هذه مشكلاتها الخاصة بها . فقد شغلت فرنسا بالاً بوضع دستور جديد ، بدلا من دستور الجمهورية الثالثة التى أسلمت أنفاسها الأخيرة بانهيار الجيوش الفرنسية فى أواخر ربيع سنة ١٩٤٠ . وقد وُلدت الجمهورية الفرنسية الرابعة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

اعتلاء الأمير بودوان عرش بلجيكا

وانقسم الرأى العام فى البلجيك على أثر انتهاء الحرب بخصوص دعوة ملكها السابق ليوبلد الثالث إلى اعتلاء عرشها مرة ثانية . وأخيراً وافق هذا العاهل على التنازل عن أريكة الملك لابنه الأكبر الأمير بودوان عند ما بلغ الثامنة عشرة من عمره .

٦ – اليابان

كان احتلال اليابان وإدارة شؤونها بعد استسلامها للحلفاء عملية بسيطة بالقياس إلى مثيلتها فى ألمانيا . ذلك أنه بقيت حكومة الميكادو تنهض بأعباء الحكم حينما ألقت الجيوش اليابانية بسلاحها . وقد عُرِف اليابانيون بانقيادهم السلس إلى صاحب السلطان فيهم . ولم تصب اليابان بتحطيم اقتصادياتها بالدرجة التى حاقت بألمانيا . كذلك لم تقسَّم البلاد إلى مناطق احتلال ، بل عُهد إلى الجنرال ماك آرثر وحده بإدارة شؤونها على النحو الذى يروق له .

وقد تمكن هذا القائد فى خلال أشهر قلائل أن يستحوذ على ثقة العناصر اليابانية الحرة ، وعلى رأسها الامبراطو هيرو هيتو ، وأن يحفزها إلى التعاون معه فى ثقة وإخلاص . وأمكنه بذلك أن يحدث ، دون اضطراب أو قلقلة كبيرة ، انقلاباً شاملا فى نظام المجتمع اليابانى . وقُدم للمحاكمة عدد من كبار الوزراء والقواد بوصفهم مجرمى حرب ، وطُهرت الحكومة من العناصر الرجعية ، وألغى البوليس السرى والجمعيات « الوطنية » المتطرفة ، وقضى على الشركات الكبيرة ، وانتزعت ملكية مساحات كبيرة من الأرض من أيدى حفنة قليلة من الأسر اليابانية الشريفة القوية النفوذ ، وجعل نظام ملكية الأرض وتأجيرها أقرب إلى المبادىء الديمقراطية ، وحُرمت كل تفرقة بين الأهلين بسبب الجنس أو الدين ، وأكره الامبراطور على أن يعلن جهاراً استنكاره لاعتقاد عامة شعبه بألوهيته المقدسة . وفى الوقت عينه بدئت إصلاحات سياسية خطيرة الأثر بعيدة المدى . فانتخب برلمان جديد بمقتضى قانون انتخاب مصلح ، ووُضع دستور

ديمقراطى جعل الإمبراطور مجرد رئيس شكلى للدولة ، وحوى مواد تكفل حقوق الأفراد ، وتستنكر الحروب .

وقد أمضت الدول الغربية معاهدة صلح مع اليابان فى سان فرنسسكو (٨ سبتمبر سنة ١٩٥٠) ، أعيدت بمقتضاها نهائياً جميع الأراضى التى كانت اليابان قد انتزعتها من الصين ، وجميع فتوحها التى استولت عليها منذ الحرب العالمية الأولى .

تقسيم كوريا

وكانت روسيا على أثر إعلانها الحرب على اليابان قد أرسلت قواتها إلى كوريا . فقُسِّمت تلك البلاد إلى منطقتى احتلال : احتلت الولايات المتحدة الجزء الجنوبى منها ، وهو غنى بأراضيه الزراعية ، واحتلت روسيا الجزء الشمالى ، وهو الشطر الصناعى من كوريا .

وأخذ الروس يطبقون النظم الشيوعية فى منطقة احتلالهم ، وانحاز الأمريكيون إلى جانب العناصر المحافظة من كبار ملاك الأرض فى كوريا الجنوبية . ولكن فى أواخر سنة ١٩٤٦ سلم الأمريكيون أزمة الحكم للعناصر الوطنية ، ولو أنهم أبقوا فى يدهم إشرافهم العسكرى . ووافق الأهلون سنة ١٩٤٨ على دستور يجعل من كوريا الجنوبية جمهورية . غير أن انتصار الجنرال ماو تسى تونج Mao Tse-tung القائد العام للجيوش الصينية الشيوعية الذى وقفت روسيا من ورائه تؤيده وتمده بالمعونة العسكرية — إن انتصاره على شيانج كى شك قائد القوات الوطنية ، جعل موقف الأمريكيين فى كوريا شائكاً للغاية ، وأجبرهم على إبقاء حامية قوية بتلك البلاد .

بدء حرب كوريا

وفى سنة ١٩٥٠ هاجمت قوات كوريا الشمالية ، تشد أزرها قوات الصين وروسيا الشيوعيتين — هاجمت الجمهورية الكورية الجنوبية . فاضطرت هيئة الأمم المتحدة إلى أن تعلن استنكارها لهذا العدوان ، وأخذت الدول الديمقراطية على عاتقها رده . وقد وقع العبء الأكبر من مقاتلة الشيوعيين على قوات الولايات المتحدة . ولا تزال الحرب دائرة بين الفريقين رغم الجهود العظيمة التى بُذلت لوقف القتال وعودة السلام إلى بسط ألويته على أرجاء العالم .

٧ ـ إرساء أساس هيئة الأمم المتحدة

كان من بين نتائج إخفاق عصبة الأمم فى كفالة استقلال الدول الصغيرة ، وصون السلام العالمى ، واشتباك أمم العالم فى حرب طاحنة للمرة الثانية فى غضون ربع قرن من الزمان ، أن اشتد تصميم قادة دول الحلفاء على ابتداع نظام دولى يكون فى طوقه درء خطر الحروب عن الجنس البشرى ، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بالحيلولة دون اتخاذ السيف حكماً فيصلا بين الدول . وكان هذا الهدف النبيل ماثلا بنوع خاص فى ذهن روزفلت حين وقع ميثاق الأطلنطى .

وقد اعترف « الكبار الثلاثة » : روزفلت وتشرتشل وستالين أثناء عقد مؤتمر موسكو (أكتوبر سنة ١٩٤٣) ، والحرب مستعرة الأوار — اعترفوا بضرورة وضع تنظيم دولى عام فى أول ساعة ممكنة : تنظيم يقوم على مبدأ المساواة فى حقوق السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام . وتعهدوا بفتح باب العضوية لجميع هذه الأمم ، صغيرتها وكبيرتها ، كى تعمل على كفالة السلام والأمن الدوليين .

وقد اجتمع ممثلو بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة والصين بين أغسطس وأكتوبر سنة ١٩٤٤ فى دَمْبرْتُنْ أوكس Dnmbarton Oaks بواشنطن ، حيث عملوا بهمة فائقة لوضع مشروعات تمهيدية لمنظمة دولية تسهر على سلام العالم بتسوية المنازعات الدولية التى قد تهدده .

أهداف هيئة الأمم

وعند ما بدأت تباشير النصر تبين فى الأفق ، بعث الحلفاء الدعوة للدول المناصرة لهم « لعقد مؤتمر للأمم المتحدة » فى سان فرنسسكو . فلبت خمسون دولة الدعوة ، وأرسلت مندوبين عنها للاشتراك فى وضع ميثاق هذه المؤسسة الدولية الجديدة ، وقد انعقد هذا المؤتمر فى أواخر إبريل سنة ١٩٤٥ ، وظل ملتئماً حتى شهر يونيو . وقد برزت خلال مداولاته خلافات حادة كثيرة . ولكن تمكن المندوبون من أن يخرجوا فى النهاية ميثاق الأمم المتحدة الذى أعلن فى مقدمته أن هدف هذه المنظمة الدولية هو «أن تنقذ الأجيال المتعاقبة من لعنة الحرب ،

وأن تؤكد من جديد الإيمان بحقوق الإنسان الأساسية ، وبكرامة الفرد وقيمته ، وفى التسوية فى الحقوق بين الرجال والنساء ، وبين الأمم الصغيرة والكبيرة ، والعمل على إنشاء أحوال تمكن من المحافظة على العدالة وصونها ، واحترام الالتزامات التى تنشأ من المعاهدات والمصادر الأخرى للقانون الدولى . والسعى إلى ازدياد التقدم الاجتماعى ، ورفع مستوى الحياة بإعطاء قسط أكبر من الحرية . . . . وضمان عدم استخدام القوة المسلحة إلا فى الصالح العام ، واستخدام النظم الدولية لزيادة التقدم الاقتصادى والاجتماعى لجميع الشعوب » .

الجمعية العمومية للهيئة

ولبلوغ هذه الأهداف السامية ، أنشئت منظمات عدة تؤلف فى مجموعها هيئة الأمم المتحدة . فنص الميثاق على إنشاء جمعية عامة تتألف من جميع أعضاء هيئة الأمم المتحدة . ولهذه الجمعية الحق فى بحث جميع المسائل التى تدخل فى نطاق ميثاق الهيئة ، وفى التقدم بتوصيات بشأن هذه المسائل . ولكل دولة ممثلة فى الجمعية صوت واحد .

مجلس الأمن

والمنظمة الثانية هى مجلس الأمن ، ويتألف من أحد عشر عضواً ، خُصت الدول الكبرى الخمس الآتية : أمريكا وفرنسا وبريطانيا وروسيا والصين — بمقاعد دائمة فيه ، وأعطيت المقاعد الستة الباقية لست دول أعضاء تنتخبها الجمعية العمومية لمدة عامين .

ويهدف مجلس الأمن فى المكان الأول إلى صون السلم والأمن الدولى ، وخول سماع الشكاوى التى ترفعها له الدول الأعضاء ، وله وحده حق الفصل فى المنازعات الدولية . ويمكن للجمعية العمومية أن توجه نظره إلى أى موقف قد يعرض السلم للخطر . ووافقت جميع الدول الأعضاء على أن تضع تحت تصرف المجلس أية قوات مسلحة وتقدم كل تسهيلات عسكرية تُطلب منها ، أو يُتفق عليها . ولذلك فإن هذا المجلس يفضل مجلس عصبة الأمم فى أنه مُنح الوسائل التى تجعل فى مقدوره تنفيذ القرارات التى يصدرها بخصوص تسوية المنازعات الدولية ومنع الاعتداء . غير أن قراراته تحتاج فى تنفيذها إلى ضرورة موافقة سبعة من أعضائه عليها على الأقل ، بشرط أن يدخل فيهم جميع الأعضاء الدائمين . وبذلك أعطى

الأعضاء الدائمون حق الاعتراض على قرارات المجلس ، أو ما اصطُلح عليه « بحق الڤيتو » .

محكمة العدل الدولية

والمؤسسة الثالثة التى أنشأها الميثاق بقصد الفصل فى المنازعات الدولية هى محكمة العدل الدولية . وقد أنشئت على غرار المحكمة الدائمة للعدل الدولى التى أقامها عهد عصبة الأمم . وخولت سلطات تماثل إلى مدى كبير تلك التى كانت ممنوحة للمحكمة الدائمة .

المجلس الاقتصادى والاجتماعى

والمنظمة الرابعة هى « المجلس الاقتصادى والاجتماعى » ويتألف من ثمانية عشر عضواً تنتخبهم الجمعية العمومية . ويستهدف هذا المجلس « ترقية الرخاء الاجتماعى » ، و « تنمية احترام ومراعاة الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية للجميع » .

مجلس الوصاية

والمنظمة الخامسة هى مجلس الوصاية . وقد حل مكان لجنة الانتداب الدائمة القديمة التى كانت عصبة الأمم قد أقامتها عقب الحرب العالمية الأولى . ويقوم مجلس الوصاية بالإشراف على شؤون المستعمرات السابقة لدول المحور .

سكرتيرية هيئة الأمم

ويشرف على أعمال هيئة الأمم سكرتيرية يرأس موظفيها سكرتير عام تعينه الجمعية العمومية بتوصية من مجلس الأمن .

وقد تفرع من المجلس الاقتصادى والاجتماعى بعض المنظمات ذوات التخصص ، كهيئة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وهى التى يرمز إليها باصطلاح « يونسكو » UNESCO ، ومؤسسة للعمل الدولى ، وأخرى للصحة العالمية ، ورابعة للطعام والزراعة ، ومنظمات أخرى عديدة ذات صبغة فنية .

اليونسكو

المقر الدائم لهيئة الأمم

وقد جُعلت مدينة نيويورك المقر الدائم لهيئة الأمم المتحدة ، اعترافاً بما أسدته الولايات المتحدة من جليل الخدمات لقضية العدالة والسلم العالمى .

بعض مآثر الهيئة

ومع أن هيئة الأمم المتحدة لم تحقق جميع الآمال الكبيرة التى كانت تُرجى منها ، إلا أنها قدمت بعض المآثر الجليلة لقضية السلام ، وحالت دون تفاقم الخلاف بين الدول المتنازعة . فوصلت مثلا إلى تسوية نزاع خطير بين

روسيا وإيران بشأن جلاء جنود الدولة الأولى عن أرض الدولة الثانية ، وقضية استقلال أندونيسيا . وُعرض عليها النزاع الخاص بوجود الجنود البريطانيين والفرنسيين فى سوريا ولبنان ، ومطالبة مصر بريطانيا بإجلاء جنودها عن جميع أراضيها .

مقارنات بين الهيئة والعصبة

وقد غدت الجمعية العمومية لهيئة الأمم مجتمعاً عاماً لممثلى شعوب العالم ، ومنبراً عالياً يجرون من فوقه مناقشاتهم ويعرضون خلافاتهم ، وندوة يبحثون فيها الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التى تعود على أممهم بالخير والرفاهية . ولقد قامت منظماتها المتعددة ، كمنظمة اليونسكو ومنظمة الصحة الدولية ومنظمة العمل الدولى بخدمات ذات بال للعالم الديمقراطى قاطبة .

وقد وُضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة ونظمها فى ضوء الاختبارات التى اكتسبها العالم من تجربة عصبة الأمم . وقام واضعو الميثاق بمحاولة جدية لتجنب الأخطاء التى انطوى عليها نظام العصبة القديمة . فميثاق الهيئة أكثر وضوحاً من عهد العصبة ، والسلطات والوظائف الممنوحة لهيئة الأمم أوسع نطاقاً وأكثر شمولا من تلك التى خُولت للعصبة . وتشمل عضوية هيئة الأمم جميع الدول العظمى التى برزت من الحرب العالمية الثانية ، فى حين أن الولايات المتحدة لم تدخل قط عصبة الأمم ، ولم يُسمح لروسيا بالانضمام إليها إلا بعد خمسة عشر عاماً من إنشائها .

ولكن خيبت أحداث ما بعد الحرب آمال الكثيرين فى أن تفلح الهيئة فيما أخفقت فيه العصبة القديمة . ولعل أكبر عامل فى هذه الخيبة راجع إلى منح الدول الكبرى حق « الڤيتو » . فمع أن واضعى الميثاق قصدوا ألا يستخدم إلا فى حالات الطوارئ الهامة ، فإن روسيا أكثرت من استخدامه فى مسائل كان أغلبها غير ذى شأن .

ونرى العالم اليوم ينقسم إلى معسكرين هائلين : معسكر تتزعمه الولايات المتحدة ، ويتألف من أكثر الدول الديمقراطية فى الغرب ، وآخر تقوده روسيا ، وينظم أقطار العالم التى تدين بالمذهب الشيوعى ، وتشيد وفق مبادئه أسس أنظمتها الاقتصادية .

وقد تجلى هذا الانقسام على نحو مثير فى مقاطعة روسيا مجلس الوصاية ، واستعمالها حق الفيتو فى رفض طلبات العضوية التى قدمتها بعض الدول الحرة كإرلندا وفنلندة . ويظهر فى الحرب الباردة التى تجتاح فى السنين الأخيرة صحف المسكونة ، وفى حرب كوريا التى تهدد السلام العالمى تهديداً ماثلا خطيراً . وأسوأ من هذا كله نراه فى فشل مجلس الأمن فى الوصول إلى اتفاق عام بشأن الإشراف على الطاقة الذرية . فإن جميع المفكرين فى بقاع الكرة الأرضية يدركون جيد الإدراك أن الذرة قد تخرج من قمقمها الغول الرهيب الذى سوف يقضى لا على المدنية الحديثة فحسب ، بل على الجنس البشرى بأسره ، بل قد يبيد جميع ضروب الحياة فوق ظهر هذا الكوكب ، فى حين أنه إذا استخدمت هذه القوة الخارقة فى غايات نافعة ، ووضعت تحت ضمانات وافية ، فإنها أكبر الظن ، ستبدأ فى تاريخ العالم عصراً جديداً لم يحلم به بشر ، ولم يخطر فى ذهن إنسان : عصراً ينتفى فيه العوز والحرمان ، ويبسط الرخاء والأمن والسعادة ظلالها على الأمم والأمصار .

رؤساء الجمهورية الفرنسية الثالثة

موعد انتخابهم	
أغسطس سنة ١٨٧١	ماری چوزف لويس أدلف تيير
مايو سنة ١٨٧٣	ماری ادمی بتريس موريس دی مكماهون دوق ماجنتا .
يناير سنة ١٨٧٩	فرنسوا پول جول جريفی . أعيد انتخابه سنة ١٨٨٦ . استقال سنة ١٨٨٧ .
ديسمبر سنة ١٨٨٧	ماری فرنسوا سادی كارنو . اغتيل سنة ١٨٩٤
يونيو سنة ١٨٩٤	چان پول بيير كازيمير – پيرييه . استقال سنة ١٨٩٥ .
يناير سنة ١٨٩٥	فرنسوا فلكس فور. مات سنة ١٨٩٩
فبراير سنة ١٨٩٩	إميل لوبيه
يناير سنة ١٩٠٦	أرمان فايير
١٩١٣	ريمون بوانكاريه
١٩٢٠	پول ديشانل
١٩٢٠	ألكسندر ملليران
١٩٢٤	جاستون دومرج
١٩٣١	پول دومر
١٩٣٢	ألبير لبران

رؤساء وزارات انجلترا

فى عهد الملك جورج الثالث (١٧٦٠-١٨٢٠)

جون ستيوارت إيرل بيوت : وزير الخزانة ١٧٦٢ - ١٧٦٣

جورج جرنفل : وزير المالية ١٧٦٣ - ١٧٦٥

تشالس ونتورْث وَطسن . (ماركيز روكنجهام) ١٧٦٦

أوغسطس فِتزْروى، دوق جرافتن ١٧٦٦ - ١٧٦٩

لورد نورث	١٧٧٠ - ١٧٨٢
ماركيز روكنجهام	١٧٨٢
وليم بتى ، إيرل سلبرن	١٧٨٢ - ١٧٨٣
وليم بنتنك (دوق پورتلند)	١٧٨٣
وليم پت	١٧٨٣ - ١٨٠١
هنرى أدنجتون (فيكونت سِدْمث)	١٨٠١ - ١٨٠٤
وليم پت	١٨٠٤ - ١٨٠٦
وليم ، لورد جرنفل	١٨٠٦ - ١٨٠٧
دوق پورتلند	١٨٠٧ - ١٨٠٩
سبنسر برسيفال	١٨٠٩ - ١٨١٢

فى عهد الملك جورج الرابع (١٨٢٠ - ١٨٣٠)

إيرل أوف ليڤربول	١٨١٢ - ١٨٢٠ و ١٨٢٠ - ١٨٢٧
جورج كاننج	١٨٢٧
فيكونت جودرتسن	١٨٢٧
دوق ولنجتون	١٨٢٧ - ١٨٣٠

فى عهد الملك وليم الرابع (١٨٣٠ - ١٨٣٧)

تشارلس جراى	١٨٣٠ - ١٨٣٤

فيكونت ملبورن	١٨٣٤
سر روبرت پيل	١٨٣٤ – ١٨٣٥
فيكونت ملبورن	١٨٣٥ – ١٨٣٧

فى عهد الملكة فكتوريا (١٨٣٧ – ١٩٠١)

فيكونت ملبورن	١٨٣٧ – ١٨٤١
سر روبرت پيل	١٨٤١ – ١٨٤٦
لورد جون رسل	١٨٤٦ – ١٨٥٢
إيرل أوف دربى	١٨٥٢
إيرل أوف أبردين	١٨٥٢ – ١٨٥٥
فيكونت بلمرستن	١٨٥٥ – ١٨٥٨
إيرل أوف دربى	١٨٥٨ – ١٨٥٩
فيكونت بلمرستن	١٨٥٩ – ١٨٦٥
إيرل رسل	١٨٦٥ – ١٨٦٦
إيرل أوف دربى	١٨٦٦ – ١٨٦٨
بنيامين دزرائيلى	١٨٦٨
وليم غلادستون	١٨٦٨ – ١٨٧٤
بنيامين دزرائيلى	١٨٧٤ – ١٨٨٠
وليم غلادستون	١٨٨٠ – ١٨٨٥
ماركيز أوف سالسبرى	١٨٨٥ – ١٨٨٦
وليم غلادستون	١٨٨٦
ماركيز أوف سالسبرى	١٨٨٦ – ١٨٩٢
وليم غلادستون	١٨٩٢ – ١٨٩٤
إيرل أوف روزبرى	١٨٩٤ – ١٨٩٥
ماركيز أوف سالسبرى	١٨٩٥ – ١٩٠١

فى عهد الملك إدوارد السابع (١٩٠١ — ١٩١٠)

ماركيز أوف سالسبرى	١٩٠١ — ١٩٠٢
ا . ج . بلفور	١٩٠٢ — ١٩٠٥
سر هنرى كامبل بانرمان	١٩٠٥ — ١٩٠٨
هنرى أسكوث	١٩٠٨ — ١٩١٠

فى عهد الملك جورج الخامس (١٩١٠ — ١٩٣٦)

هنرى أسكوث	١٩١٠ — ١٩١٦
دافد لويد جورج	١٩١٦ — ١٩٢٢
ا . بونارلو	١٩٢٢ — ١٩٢٣
ستانلى بلدون	١٩٢٣ — ١٩٢٤
رمسى مكدونلد	٢٢ يناير ١٩٢٤ — نوفمبر سنة ١٩٢٤
ستانلى بلدون	١٩٢٤ — ١٩٢٩
رمسى مكدونلد	١٩٢٩ — ١٩٣٥
ستانلى بلدون	١٩٣٥ — ١٩٣٦

فى عهد الملك جورج السادس (١٩٣٦ — ١٩٥٢)

ستانلى بلدون	١٩٣٦ — ١٩٣٧
نفل تشيمبراين	١٩٣٧ — ١٩٤٠
ونستن تشرتشل	١٩٤٠ — ١٩٤٥
كلمنت أتلى	١٩٤٥ — ١٩٥١

مستشارو الإمبراطورية الألمانية

فى عهد وليم الأول (١٨٧١ – ١٨٨٨)

أتو فون بسمارك	١٨٧١ – ١٨٨٨

فى عهد فردرك الثالث (٩ مارس – ١٥ يونيو سنة ١٨٨٨)

أتو فون بسمارك	١٨٨٨

فى عهد وليم الثانى (١٨٨٨ – ١٩١٩)

أتو فون بسمارك	١٨٨٨ – ١٨٩٠
جورج ليو فون كابريفى	١٨٩٠ – ١٨٩٤
شلدفج فون هوهنلوهه شلنجسفورت	١٨٩٤ – ١٩٠٠
فون بيلوف	١٩٠٠ – ١٩٠٩
تيوبلد فون بتمان – هلفج	١٩٠٩ – ١٩١٧
فون ميشيليس	١٩١٧
هارتلنج	١٩١٧ – ١٩١٨
ماكس فون بادن	١٩١٨

ملوك إيطاليا

فكتور عمانوئيل الثانى	١٨٦٢ — ١٨٧٨
همبرت الأول	١٨٧٨ — ١٩٠٠
فكتور عمانوئيل الثالث	١٩٠٠ — ١٩٤٦

البلجيك — أسرة كوبرج

فرنسيس فردريك ، دوق كوبرج

ليوبلد الأول — تزوج لويزة ابنة
ملك بلجيكا لويس فيليب ملك
١٨٣١ — ١٨٦٥ فرنسا

فكتوريا — تزوجت
(١) أمير ليننجن
(٢) إدوارد دوق كنت

الملكة فكتوريا

ليوبلد الثانى — تزوج الأرشدوقة
(توفى ١٩٠٩) هنريتا أميرة تسكانيا

فيليب دوق فلندر
(توفى ١٩٠٥)

شارلوت تزوجت
مكسمليان امبراطور
المكسيك

ألبرت تزوج الأميرة اليصابات البافارية
(١٩٠٩ — ١٩٣٤)

ليوبلد الثالث — تزوج الأميرة أستريد السويدية
(١٩٣٤ — ١٩٤٥)

الأسرة المالكة البريطانية

من عهد جورج الأول

جورج الأول – تزوج الأميرة صوفيا دورثيا (١٧١٤ – ١٧٢٧)

جورج الثانى – تزوج الأميرة كارواين (١٧٢٧ – ١٧٦٠)

فردرك اويس أمير ويلز (توفى ١٧٥١)

جورج الثالث – تزوج الأميرة شارلوت (١٧٦٠ – ١٨٢٠)

جورج الرابع
١٨٢٠ – ١٨٣٠

وليم الرابع
١٨٣٠ – ١٨٣٧

دوق كنت
تزوج فكتوريا ابنة
دوق ساكس سافلد
جوتا وأرملة أمير
لينجن

دوق كمبرلند
وملك هانوفر
١٨٣٧ – ١٨٥١

فكتوريا تزوجت الأمير ألبرت ١٨٣٧ – ١٩٠١

فكتوريا تزوجت
فردرك الثالث
امبراطور المانيا

إدوارد السابع
١٩٠١ – ١٩١٠

أليس تزوجت لويس
الرابع أمير هس

ألكس تزوجت نقولا
الثانى قيصر روسيا

دوق كلارنس
توفى ١٨٩٢

جورج الخامس
١٩١٠ – ١٩٣٦

إدوارد السابع
١٩٣٦

جورج السادس
١٩٣٦ – ١٩٥٢

(ملحق ا)

الإصلاحات العاجلة التى يحث منشور كارل ماركس على ضرورة القيام بها ، هى :

١ ــ مصادرة الأراضى الخاصة ، واستخدام إيجارها فى سد نفقات الدولة .

٢ ــ جباية ضريبة دخل متدرجة تدرجاً تصاعدياً .

٣ ــ إلغاء حق الإرث .

٤ ــ مصادرة أملاك جميع النازحين عن البلاد ، وأملاك العصاة .

٥ ــ تركيز الاعتمادات المالية لنفقات الدولة بإنشاء بنك مركزى تابع لها ، تدفع الدولة رأس ماله ، ويكون له احتكار مطلق .

٦ ــ تركيز وسائل النقل فى يد الدولة .

٧ ــ زيادة تملك الدولة للمصانع ووسائل الإنتاج ، وإعادة توزيع الأراضى الزراعية وتحسينها طبقاً لخطة عامة .

٨ ــ إلزام جميع الأفراد بالعمل ، وإنشاء جيوش من العمال لاستخدامها فى الزراعة بنوع خاص .

٩ ــ توحيد العمل فى الزراعة مع العمل فى الصناعة ، وإلغاء الاختلافات التى توجد بين الحضر والريف تدريجياً .

١٠ ــ توفير التعليم العام لجميع الأحداث ، وحظر استخدامهم فى المصانع بالشكل الحالى ، وتوحيد التعليم مع ملاءمته للإنتاج الاقتصادى .

وبعد أن ينتقد المنشور بالتفصيل الحركات الاشتراكية المعاصرة ــ وهو نقد ليس له سوى أهمية تاريخية ــ يخلص إلى حكمه النهائى الذائع الصيت ، وينتهى بالشعار الذى يستهل به الصفحة الأولى للمنشور ، وهو :

« إن الشيوعيين يعدون إخفاء آرائهم ونواياهم عملا عقيما بلا جدوى . وهم يعلنون جهراً أن أهدافهم لا يمكن تحقيقها إلا بقلب النظام الاجتماعى الحالى بأكمله بوسائل العنف .

« فلتفزعن الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية . وليس للطبقات العمالية شيء تخشى فقده سوى أصفادها . ولكن أمامها العالم كله ثمرة يمكنها أن تظفر به .

« فيا أيها العمال من جميع الأقطار والأمصار ، هيا إلى الاتحاد » .

مقتبس من كتاب Karl Marx

تأليف

E. H. Carr

(ملحق ب)

بحث مجلس الحرب الأعلى بباريس فى ٥ — ٧ أكتوبر سنة ١٩١٨ شروط الهدنة التى كان قد وضعها قواد البر وأمراء البحر ، وصادق على الشروط النهائية فى ٤ نوفمبر . وأبلغ المستر لويد جورج هذه الشروط إلى وزارة الحرب بلندن فى ٥ نوفمبر ، ذاكراً أن فوش يظن أن الألمان سيرفضونها ، ولكنه يثق من تغلبه فى أية حال على العدو قبل حلول عيد الميلاد .

وقد وُضعت الشروط طبقاً للمبدأ بأن العدو يجب ألا يُجعل فى مركز يعينه على استئناف القتال فيما لو فشلت مفاوضات الصلح . ولهذا بُنيت المطالب الحربية ، وهى تسليم العدو ست بوارج ، وعشرة طرادات ثقيلة ، وثمانية طرادات خفيفة ، وخمسين مدمرة من أحدث طراز ، ومائة وستين غواصة — بنيت هذه المطالب على ضوء الحقيقة بأنه إذا لم يشترط أى شىء على ألمانيا ، فإنها ستخرج من الحرب ، وهى تملك ٢٥ سفينة حربية كبرى ، « منها اثنتا عشرة سفينة مصنوعة على أحدث طراز وذات أكبر قوة فى العالم » كما ذكر الأميرال هوپ Hope ، وبذلك تصبح مصدر قلق دائم للاسطول الرئيسى البريطانى .

ووصل الحلفاء إلى الاتفاق بأن السفن التى ستسلم ، يجب أن تُحجز فى ميناء محايد تحت مراقبة الحلفاء . ولكن جلبت البوارج أخيراً إلى سكاپا فلو ، فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، ثم أغرقها الألمان بأيديهم فيما بعد . فان الثقات الحربيين أصروا على تسليم هذه السفن ، لا حجزها . ولكن رجال السياسة قرروا تقديم شروط أخف من هذه للألمان . إذ اعتقدوا أن الشروط الحربية والبحرية للتسليم قاسية جداً ، وأنه سيعسر على الحكومة الألمانية قبولها .

(ملحق ج)

كانت نقط ولسن الأربع عشرة بالإيجاز هى :

١ — إبرام معاهدات علنية ، وعدم استخدام الدبلوماسية السرية فى مفاوضات الدول فى المستقبل .

٢ — إطلاق الحرية للملاحة خارج المياه الإقليمية فى أزمنة السلم والحرب ، إلا فى حالة إقفال البحار تبعاً لترتيب دولى .

٣ — إزالة جميع العوائق الاقتصادية ، بكل ما يتسع له الذرع .

٤ — تقديم ضمانات وافية لتخفيض تسلح الدول .

٥ — تسوية المطالب الاستعمارية تسوية عادلة ، والاهتمام بمصالح الشعوب وتقديرها حق قدرها عند النظر فى اختيار الحكومات التى يعهد إليها الإشراف على المستعمرات .

٦ — على الألمان الجلاء عن جميع الأراضى الروسية ، ومنح روسيا فرصة كاملة لترقية شؤونها . وعلى الدول أن تتعهد بتقديم مساعداتها لها .

٧ — يجب أن تعود للبلجيك سيادتها وحريتها كاملتين .

٨ — يجب الجلاء عن جميع الأراضى الفرنسية ، وعلى بروسيا أن تصلح ما أفسدته عام ١٨٧١ .

٩ — إعادة تخطيط الحدود بين إيطاليا والنمسا حسب قاعدة القومية .

١٠ — منح شعوب النمسا والمجر الحكم الذاتى ، وإتاحتها فرصة للعمل على ترقية نفسها .

١١ — الجلاء عن أراضى رومانيا وصربيا والجبل الأسود ، وإعطاء صربيا منفذاً إلى البحر ، وتسوية علاقات الدول البلقانية بعضها ببعض بمقتضى قاعدتى القومية والولاء .

١٢ – يجب أن يكفل لجميع القوميات غير التركية فى الإمبراطورية العثمانية المجال لاستكمال استقلالها الذاتى ، وأن يكون مضيق الدردنيل حراً على الدوام فى وجه جميع السفن .

١٣ – يجب أن تكون بولندا دولة مستقلة ، مع منحها منفذاً إلى البحر .

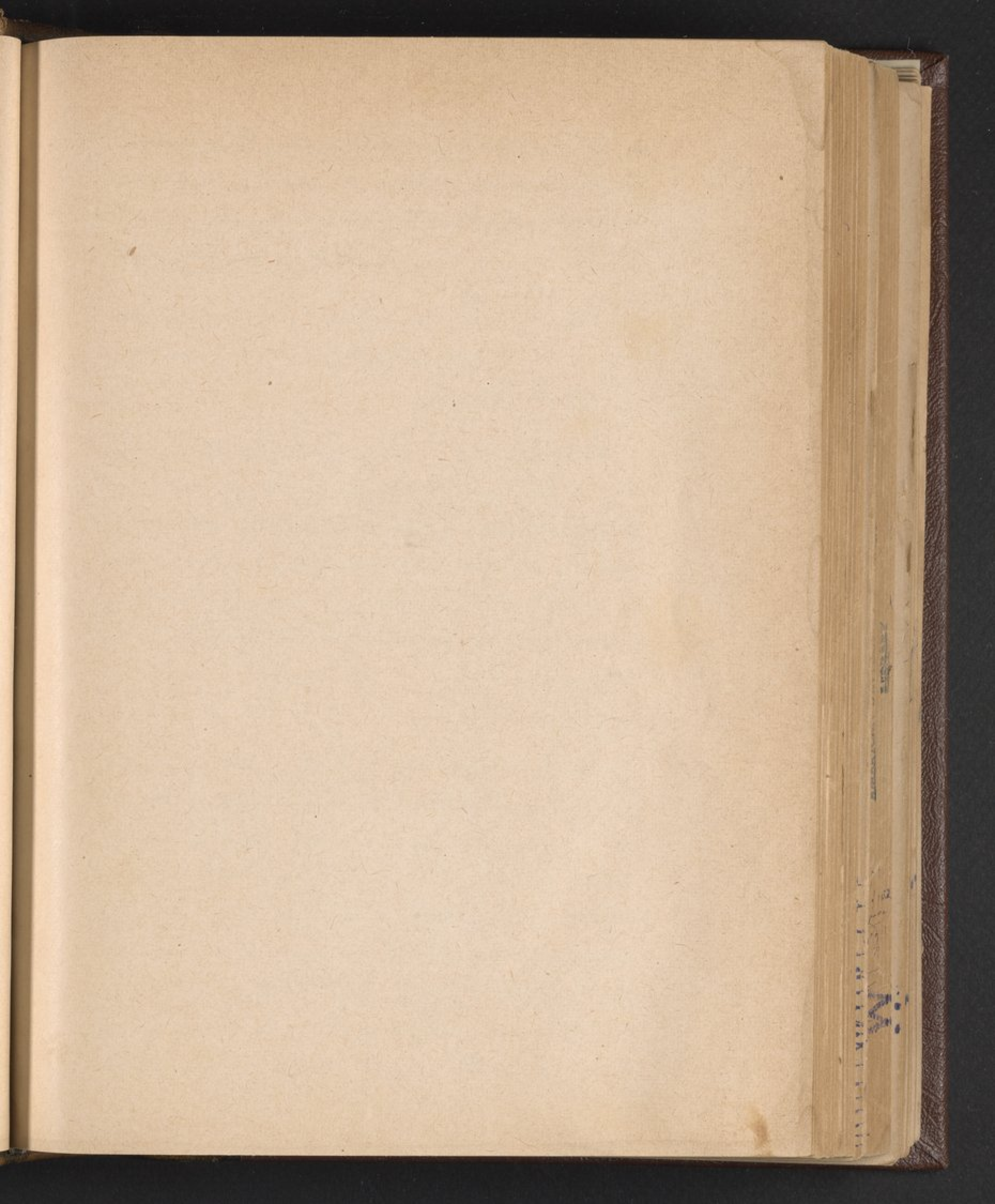
١٤ – تكوين جمعية عامة من الأمم يرتبط أعضاؤها معاً طبقاً لعهود معينة ، بقصد توفير الضمانات المتبادلة لاستقلالها الذاتى ، وسلامة أراضى الدول العظمى والدول الصغرى على السواء .

وعند ما عُرضت النقط الأربع عشرة على بساط البحث أمام مجلس الحرب الأعلى (فى ٣ نوفمبر سنة ١٩١٨) احتج المستر لويد جورج على النقطة الثانية ، والمسيو هيمان (البلجيك) على النقطة الثالثة ، وقدم السنيور أرلندو (إيطاليا) تحفظات فيما يتعلق بالنقطة التاسعة . وأعرب المستر لويد جورج بشكل مشدد عن معارضته للمبدأ الأمريكى الخاص بحرية البحار قائلا : « إن الشعب الإنجليزى لن يقبله ، وهو فى هذا الأمر متحد الصفوف » . كذلك أكد أهمية المطالبة بتعويضات عن الأضرار التى لحقت بدول الحلفاء . ولهذا أنفذت إلى الرئيس ولسن الرسالة التالية :

« لقد أنعمت حكومات الدول المتحالفة النظر فى المراسلات التى تبودلت بين الرئيس ولسن والحكومة الألمانية . وهذه الحكومات مع احتفاظها بالتعديلات التالية ، تعلن قبولها لعقد الصلح مع حكومة ألمانيا ، وفق شروط الصلح التى بُسطت فى خطاب الرئيس إلى الكونجرس فى ٨ يناير سنة ١٩١٨ ، ووفق مبادئ التسوية التى بينها فى خطبه التالية . غير أنه ينبغى أن نشير إلى أن المادة الثانية المتعلقة بما يوصف عادة بحرية البحار قابلة لتفسيرات شتى ، بعضها ليس فى الطاقة قبوله . وفى شروط الصلح التى بسطها الرئيس فى خطابه إلى الكونجرس فى ٨ يناير سنة ١٩١٨ ، أعلن أنه ينبغى أن تعاد جميع الأراضى التى فتحها الألمان إلى أصحابها ، كما أنه ينبغى الجلاء عنها وتحريرها . وتشعر الحكومات

المتحالفة بأنه يجب ألا يوجد أى تشكك فيما ينطوى عليه هذا الشرط . فإن الدول المتحالفة تفهمه على أنه ينطوى على ضرورة دفع ألمانيا تعويضات عن جميع الأضرار التى ألحقتها بسكان الدول المتحالفة المدنيين و بأملاكهم ، نتيجة لاعتداء ألمانيا على أملاك الحلفاء براً و بحراً وجواً . »

٣ نوفمبر سنة ١٩١٨



الفهرس

ت

ج

ح

ق

ك

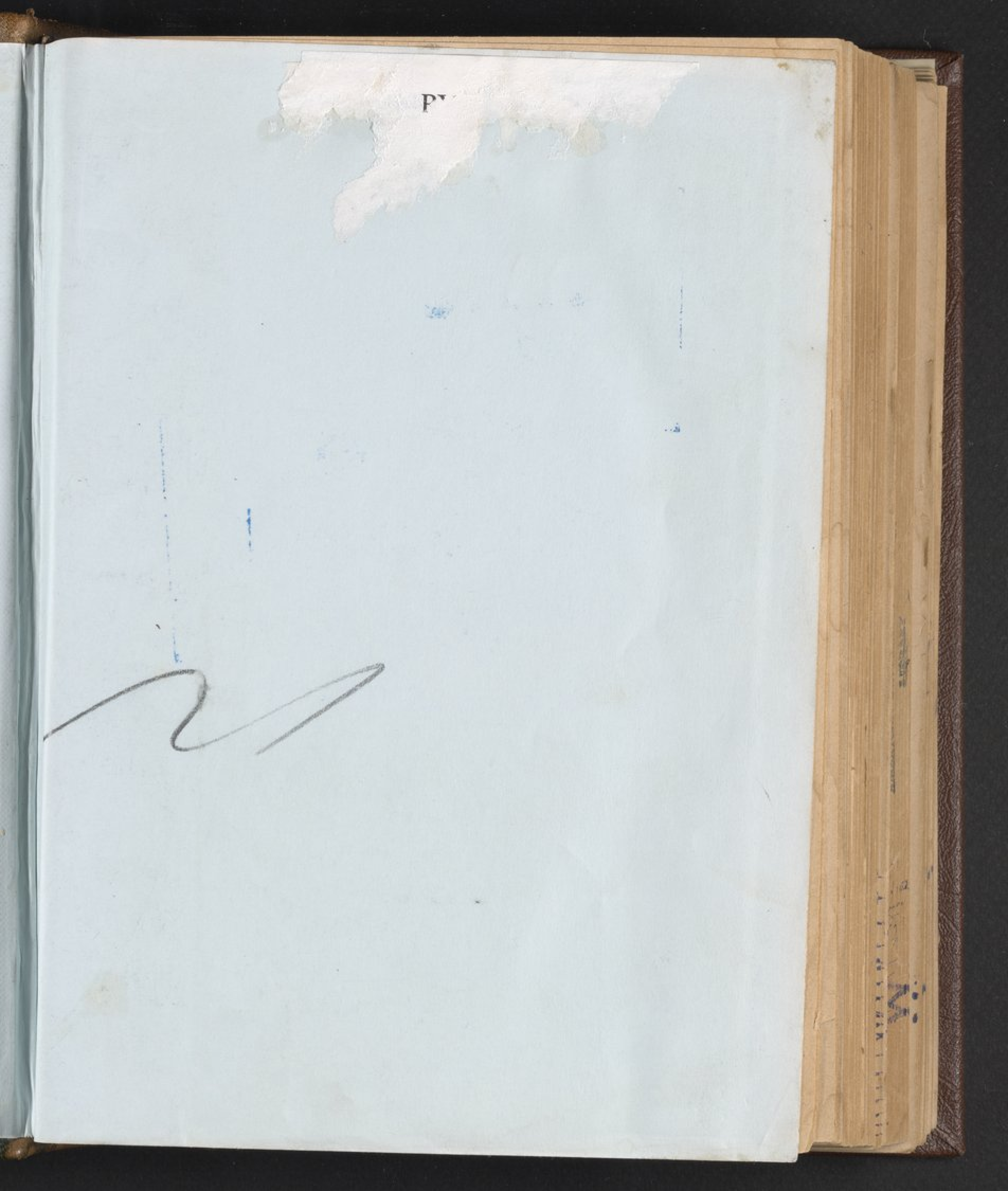
ن

هـ

و

ى

١٩٥٣/٣٤٥٧




10000108581

